طرائف العـــــــرب

طرائف العرب
أدهم شرقاوي / قسّ بن ساعدة
دار كلمات للنشر والتوزيع
بريد إلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

ردمك: 978-99966-45-99-0

طرائف العرب

طرائف

أدهم شرقاوي
قسّ بن ساعدة

المجلد الأول

2021

kalemat

الإهداء

إلى صديقي . . ماجد مُقبل
العربيّ كبُنٍّ عدَن
الحكيم كمطلع قصيدة لزُهير
الوفيّ كرثاء للخنساء
العذب كغزل لابن أبي ربيعة
المرح كأبياتٍ لأبي نواس
أهديكَ هذا الكتاب عربون محبّة ووفاءٍ وتقدير

المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على من بُعث رحمة للعرب والعجم ، أما بعد :

فهذا كتاب في طرائف العرب ، ولطالما كان العربُ أهل ظرف وفكاهة ، وقد سُئل سُفيان الثوريّ : هل المُزاح هُجنة ؟ فقال : بل هو سُنّة لقوله ﷺ : «أنّي لأمزحُ ولا أقول إلا حقاً» ! وما قوله صلى الله عليه وسلم للعجوز : لا يدخل الجنّة عجائز إلا ظُرفاً ومداعبة .

وعلى سُنته سار صحبه ، وقد سُئل النّخعيّ : هل كان أصحاب رسول الله يتضاحكون؟ فقال : نعم ، والإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي !

وقد كان نعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث ، وهو من أهل بدر ، من أكثر الناس مزاحاً ، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : يدخل الجنة وهو يضحك !

وإذا كان المزاح في الكلام كالملح في الطعام ، فلا ننسى أن قليل الملح يضبطه ، وكثيره يفسده ، وقد أردتُ لهذا الكتاب أن يكون ملحاً ظريفاً !

وقد جعلتُه في ستة عشر باباً هي :

«طرائف الأعراب ، طرائف الخلفاء والأمراء ، طرائف الأطبّاء ، طرائف الأمثال ، طرائف الأنبياء والصحابة ، طرائف البخلاء ، طرائف الحمقى والمغفلين ، طرائف الصبية ، طرائف الشعراء ، طرائف الفقهاء ، طرائف العشاق ، طرائف النحاة ، طرائف المعلِمين ، طرائف النساء ، طرائف المتسولين ، طرائف الفراسة» .

ولم ألتفتْ كثيراً في ترتيبها ، لأني رأيتُ أنها مواضيع مستقلة ، فلو سبقت طرائف الأطبِاء طرائف المعلمين فلا ضير ، ولو سبقت طرائف البخلاء طرائف الحمقى فلا ضير ، غير أني بدأتُ هذا الكتاب بالأعراب وختمته بالفراسة .

وقد خطر لي أولاً أن أجمع الطرائف وأرتبها ترتيباً زمنيا لا موضوعاتياً ، بحيث أضع طرائف العصر الأموي مثلا في باب ، والعباسي في باب وهكذا ، ولكني عدلتُ

عن هذا إذ وجدت في الأمر عشوائيّة ، فعدتُ والتزمتُ الترتيب الموضوعاتي .

ولم أكتفِ بنقل الطرائف وترتيبها في أبوابها فحسب ، وإنما ترجمتُ لأكثر من ألف شخصية وردت أسماؤها في هذه الطرائف ، بالإضافة لشرح مئات المفردات التي وجدت أنها تحمل صعوبة ما ولا غنى عنها لفهم الطرفة .

ولم يكن لي في هذا الكتاب من فضل غير الجمع والترتيب ، هذا تراثكم ، وأدبكم ، وظرفكم ، وقد جمعته لكم من ستين كتاباً من أمهات كتبكم هي :

١ . عيون الأخبار لابن قتيبة
٢ . المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي
٣ . الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني
٤ . العِقد الفريد لابن عبد ربه
٥ . العَمدة لابن رشيف
٦ . وفيات الأعيان لابن خلكان
٧ . عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أُصيبعة
٨ . ذمّ الملاهي لابن أبي الدنيا
٩ . بلاغات النساء لابن أبي طاهر
١٠ . أخبار الأذكياء لابن الجوزي
١١ . أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي
١٢ . أخبار الظُّراف والمتماجنين لابن الجوزي
١٣ . عقلاء المجانين للحسن بن محمد النيسابوري
١٤ . طوق الحمامة لابن حزم
١٥ . ثمرات الأوراق لابن حجة الحمويّ
١٦ . الدراري في ذكر الذراري لابن النديم
١٧ . أخبار النساء لابن القيم
١٨ . من تاريخ النحو لسعيد الأفغاني
١٩ . تزيين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق لداود الأنطاكي
٢٠ . دولة النساء للبرقوقي
٢١ . المحاسن والمساوئ للبيهقي
٢٢ . طرائف الأطباء للحكيم راجي التكريتي

٢٣ . المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي
٢٤ . الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي
٢٥ . لطائف اللطف للثعالبي
٢٦ . يتيمة الدهر للثعالبي
٢٧ . البيان والتبيين للجاحظ
٢٨ . البخلاء للجاحظ
٢٩ . الفكاهة في الأدب العربي لأحمد الحوفي
٣٠ . ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشري
٣١ . نوادر العشاق لإبراهيم زيدان
٣٢ . مصارع العشاق لجعفر السراج
٣٣ . الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب للسيوطي
٣٤ . الوافي بالوفيات للصفدي
٣٥ . أنباء نجباء الأبناء لمحمد بن ظفر الصقلي
٣٦ . أنيس الجليس للعابدي
٣٧ . المصون في الأدب لأبي هلال العسكري
٣٨ . أدبنا الضاحك لعبد الغني العطيري
٣٩ . من كل واد حجر لخير الدين العمري
٤٠ . أخبار جحا لعبد الستار فرّاج
٤١ . الأمالي لأبي علي القالي
٤٢ . بهجة المجالس للقرطبي
٤٣ . جمع الجواهر في الملح والنوادر للقيرواني
٤٤ . أعلام النساء لعمر كحالة
٤٥ . الكامل في اللغة والأدب للمبرّد
٤٦ . الأمالي للشريف المرتضى
٤٧ . الظرفاء والشحادون صلاح الدين المنجد
٤٨ . نهاية الأرب للنويري
٤٩ . آداب الصحبة للنيسابوري
٥٠ . فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عرب شاه

٥١ . الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة للأصبهاني
٥٢ . مجمع الأمثال للميداني
٥٣ . الطرق الحكمية لابن القيم
٥٤ . سير أعلام النبلاء للذهبي
٥٥ . السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان
٥٦ . قطف الثمر في موافقات عمر للسيوطي
٥٧ . الظرف والظرفاء للوشّاء
٥٨ . مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي
٥٩ . المخلاة للعاملي
٦٠ . المطالب العالية لابن حجر العسقلاني

هذا وقد بلغت صفحات الكتاب في الحجم العادي المتداولة فيه الكتب ما يزيد على ألفين صفحة ، فجعلنا الطبعة الأولى منه في جزئين ، ثم بعد نفاد الطبعة الأولى ارتأينا في دار كلمات –تحت نصح القراء– أن يكون في ثلاثة أجزاء ، دون التغيير في المحتوى ولا الترتيب ، وإنما توزيع مادة الكتاب على ثلاثة أجزاء بدل جزئين .

وقد قمتُ بهذا العمل معتقداً أني أخدم التراث العربيّ ، والأدب ، فإن كان اعتقادي في مكانه فأسأل الله حسن الجزاء ، وإن كان اعتقادي خاطئاً فإني أبرأ إلى الله من شر نفسي وكتابي .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

طرائف الأعراب

أنف أعرابي

قال أبو زيد : رأيت أعرابيا كأنّ أنفه كوز من عظمه ، فرآنا نضحك منه
فقال : ما يضحككم فوالله لقد كنت في قوم أنا الأفطس بينهم !

سورة المائدة

ذهب رجل إلى حفل فأطال معه أصحاب الحفل الحديث وتحدثوا في أمور القرآن ولم يطعموه شيئاً .
فذهب وهو : يقول حفظوا كل ما في القرآن إلاّ سورة المائدة !!

جواب الشيخ

جلس شيخ بين شابين فاتفقا أن يسخرا منه .
فقال أحدهم : يا شيخ أنت أحمق أم جاهل؟
فقال : أنا بينهما !!

قبِّل يدك

قال لمن حوله أوصيكم خيراً بزوجاتكم ولنتفق أن يقبّل كل منا يد زوجته عندما يعود إلى المنزل .
قال أحدهم : ولكن أنا لم أتزوج بعد .
قال : إذا قبّل يدكَ وجهاً وظهراً .

نومة الضحى

قيل لأعرابي : ما يدعوك إلى نومة الضحى؟
فقال : مبردة في الصيف ، مسخنة في الشتاء .

نصيحة

ذهب أحد الثقلاء إلى شيخ عالم مريض وجلس عنده مدة طويلة
ثم قال له : يا شيخ أوصني !
فقال له الشيخ : إذا دخلت على مريض فلا تطل الجلوس عنده

ثلاث جزى[١]

حدثنا ابن قتيبة[٢] قال : كان أبو العاج[٣] على حوالي البصرة ، فأتي برجل من النصارى ، فقال : ما اسمك؟

قال : بندار شهر بندار .

فقال : أنتم ثلاثة وجزية واحدة .

لا والله العظيم ، فأخذ منه ثلاث جزى .

حكم تبالة[٤]

وولي أبو العاج تبالة فصعد المنبر فما حمد الله ولا أثنى عليه حتى قال : إن الأمير ولاني بلدكم وإني والله ما أعرف من الحق موضع سوتي هذا ، ولن أوتى بظالم ولا مظلوم الا أوجعتهما ضربا . فكانوا يتعاطون الحق بينهم ولا يرتفعون إليه .

شعر رديء

أنشد رجل أبا عثمان المازني[٥] شعرا له ، ثم قال : كيف تراه؟

قال : أراك قد عملت عملا بإخراج هذا من جوفك ، لأنك لو تركته لأورثك الشك .

المُزوّر الفطن

رأى رجل آخر على بعض زوارق الجسر ببغداد جالسا في يوم شديد الريح وهو يكتب رقعة ، فقال له :

ويحك ، في هذا الموضع وهذا الوقت؟! .

---

(١) جزي جمعُ جِزية .

(٢) أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري أديب فقيه محدث مؤرخ عربي . له العديد من المصنفات أشهرها عيون الأخبار ، وأدب الكاتب .

(٣) كثير بن عبد الله بن فروة بن الحارث بن حنتم بن عبد بن حبيب بن مالك بن عوف .

(٤) موضع قديم ومن أشهر المواقع التاريخية في جنوب جزيرة العرب ، وتقع شمال غرب محافظة بيشة وتبعد عنها حوالي ٤٨ كم .

(٥) أبو عثمان المازني النحوي شيخ النحاة في زمانه .

قال : أريد أن أزوّر على رجل مرتعش ويدي لا تساعدني ، فتعمّدت الجلوس ههنا لتحرك الزورق بالموج في هذه الريح فيجيء خطي مرتعشا فيشبه خطّه .

غسل جماعي

وروي عن ضمرة بن شوذب قال : كان لأعرابي جارية فوطئها سرا ،
ثم قال لأهله : إن مريم كانت تغتسل في هذه الليلة ، فاغتسلوا ، فاغتسل هو واغتسل أهله .

كناية

قيل نزل أعرابي في سفينة ، فاحتاج الى البراز ، فصاح : «الصلاة الصلاة» .
فقربوا الى الشط ، فخرج فقضى حاجته ، ثم رجع فقال :
ادفعوا ، فصلاتكم بعد وقت .

الرسول والمرسل

حدثنا المدائني[1] قال : جاء رجل من أشراف الناس إلى بغداد فأراد أن يكتب إلى أبيه كتاباً يخبره فلم يجد أحداً يعرفه
فانحدر بالكتاب إلى أبيه وقال : كرهتُ أن يبطىء عليك خبري ولم أجد أحداً يجيء بالكتاب فجئت أنا به ودفعه إليه .

أويبلغني عنه أنه قبَّل رجلي

عن سعيد بن جعفر الأنباري قال : سمعت أبي يقول : غضب أبو الخيثم على عامل له
فكُلِّم في الرضاء عنه
فقال : لا والله أو يبلغني عنه أنه قبل رجلي .

---

(١) هو علي بن محمد المدائني ، مولى عبد الرحمن بن سُمرة القرشي ، أصله من البصرة ، سكن المدائن فنسب إليها ، وقد ولد في أوائل العصر العباسي سنة ١٣٥هـ ، وعاش نحو تسعين عاماً ، ومات سنة ٢٢٥هـ .كان أحد المتكلمين ، تتلمذ لمعمر بن الأشعث في علم الكلام ، ولكنه اشتهر بالأدب والتاريخ .

مقوم الناقة[1]

حدثنا المدائني قال : كان عبد الله بن أبي ثور والي المدينة فخطبهم فقال : أيها الناس اتقوا الله وارجوا التوبة فإنه أهلك قوم صالح في ناقة قيمتها خمسمائة درهم .
فسموه مقوم الناقة وعزله عبد الله بن الزبير[2] .

تُجبى إليه ثمرات كل شيء

حكى أبو حامد المذكور قال : وقف سائل من هؤلاء الأنكاد علينا في جامع البصرة وفي المجلس جماعة فسأل وألح ، فقلت له [وقد ضجرت] : يا هذا نزلت بواد غير ذي زرع ، فقال : صدقت ولكن تجبى إليه ثمرات كل شيء ، فضحكت منه الجماعة ووصلته بشيء .

بين السارق والمسروق

دخل على أبي سعيد اللصوص فأخذوا كل ما في داره ، فلما مضوا حمل أبو سعيد البارية ومضى في أثرهم
فنظر إليه أحدهم فقال : أي شيء تصنع معنا ؟
قال : نطلب بيتاً نتحول فيه .
فضحك اللصوص وردوا عليه ما أخذوه منه .

مجون رجل

وصف أعرابيٌّ رجلاً ماجناً فقال : والله لو أبصرته عيدان القيان لتحرّكت أوتارها ، ولو رأته مومس لطار خمارها .

---

(١) أي وضع لها قيمة والمقصود هنا أنّه قدّر ثمنها .

(٢) عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي (٢ هـ - ٧٣هـ) ، صحابي جليل وابن الصحابي الزبير بن العوام ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وكنيته أبو بكر وأبو خبيب . استخلفه الخليفة عثمان بن عفان على داره فكان يقاتل الجند الذين دخلوا يقتلون عثمان حتى أصيب ، وهو خليفة من خلفاء المسلمين ولي الخلافة بعد يزيد بن معاوية تسع سنين حتى قُتل في الحرم المكي سنة ٧٣ هـ .

تهنئة أم عزاء ؟

سقط أحدب[١] في بئر ، فذهبت حدبته وصار آدر[٢] ، فدخل إليه جيرانه يهنئونه .

فقال : لا تفعلوا فالذي جاء شر من الأول .

وإن منكم إلا واردها

لما مات سليمان بن وهب[٣] لقي الناس عبيد الله بن سليمان يعزونه ، فأتاه بعض أولاد الأشراف ؛ فقال : مات سليمان ؟ قال : نعم! وقال : ومات أبو علي قبله ؟ قال : نعم ! قال : ومات أبوهما ؟ قال : نعم ! قال : هذا كما قال الله تعالى : ﴿وإنْ منكم إلا وارِدُها كان على ربك حَتْماً مقضيّاً﴾ ؛ ﴿فأوردهم النار﴾ ، «وبئس القَرار» .

أنت الطباخ !

عرض أبو خندف دوابه فأصاب فيها واحدة عجفاء[٤] مهزولة

فقال : هاتوا الطباخ

فبطحه وضربه خمسين مقرعة وقال له : ما لهذه الدابة على هذه الحال

قال : يا سيدي أنا طباخ ما علمي بأمر الدواب

قال : بالله أنت طباخ ! فلم لم تقل لي اذهب الآن فإذا كان غداً أضرب السائس ستين مقرعة يفضل عشرون فطب نفساً .

(١) الأحدب من كان عنده انحناء في الظهر .

(٢) انتفخَتْ خُصيتُه ، لتسرّب سائل في غِلافها .

(٣) سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الحارثي . وزير ، من كبار الكتاب ، من بيت كتابة وإنشاء في الشام والعراق ، ولد ببغداد ، وكتب للمأمون وهو ابن ١٤ سنة ، وولي الوزارة للمهتدي بالله ، ثم للمعتمد على الله . ونقم عليه الموفق بالله ، فحبسه ، فمات في حبسه .

(٤) عجفاء أي ضعيفة وتُجمع على عجاف كما في سورة يوسف ويصح فيها عجفاوات .

بعت جاري

كان أبو الأسود الدؤلي[1] مجاوراً لبني قشير وهم عثمانية وكانوا يرجمونه ، فإذا أصبح شكاهم ؛ فيقولون : ما نحن رجمناك ، الله تعالى رجمك .

فيقول : كذبتم يا فعلاء ، أنتم ترمون فتخطئون ولو كان الله رماني ما أخطأني ؛ ثم باع داره وانتقل عنهم .

فقيل له : أبعت دارك ؟

فقال : بل بعت جاري

بيت الماء لا يمتلئ !

قال قوم لغلام : املأ بيت الماء ، فنقل ماءً كثيراً وأبطأ عليهم

فقالوا : ما هذا الإبطاء ، فصعدوا إليه فإذا به يقلب الماء في بيت الماء

فقال : كلفتموني أن أملأ هذا وما أظنه يمتلئ في شهر .

أين الدجاجة الرقطاء ؟

قيل : إن رجلاً من السندية وهي على ستة فراسخ من بغداد ، جاز بدجاج ليبيعه قريباً من دجلة ، ببغداد

فأفلتت دجاجة ، فطلبها فلم تقع بيده ، فقال لها : اذهبي إلى القرية حتى أبيع الباقي

ثم جاء وباع البواقي ورجع إلى القرية وجعل يتفقد الدجاجة فلم يرها ،

فقال لزوجته : أين الدجاجة الرقطاء!

فقالت : لا أدري ، فقال : تركتها من بغداد لترجع إليكم فما جاءت ؟

---

(١) ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي الكناني ، (١٦ ق .هـ . -٦٩ هـ) ، من سادات التابعين وأعيانهُم وفقهائهُم وشعرائهُم ومحدثيهُم ومن الدهاة حاضرِي الجواب وهو كذلك نحوي عالِم وضع علم النحو في اللغة العربية وشكّل أحرف المصحف ، وضع النقاط على الأحرف العربية ، ولِد قبل بعثة النبي محمد ﷺ وآمن به لكنه لم يره فهو معدود في طبقات التابعين وصَحِب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي ولاه إمارة البصرة في خلافته ، وشهد معه وقعة صفين والجملومحاربة الخوارج .

لا تغادر البئر حتى أعود !

وذكر ابن حبيب أن أخاً لعثمان بن سعيد سقط في البئر ،

فقال أخوه : أنت في البئر؟

قال : أما تراني !

قال : لا تذهب حتى أجيئك بمن يخرجك

الأعراب والفالوذج

من أصناف الحلوى التي كانت شهيرة ويألف العرب أكلها «الفالوذج» وهي تعمل من الدقيق والماء والعسل . وحسبما جاء في المعاجم اللغوية فهي لفظة معربة عن «بالوذة» (بالوظة) . وطبقاً لرواة الحديث فإن النبي ﷺ كان يأكل الدجاج والفالوذ . وتشير أخبار العرب إلى أن أول من عمل الفالوذ في بلاد العرب «عبد الله بن جدعان» ، وكان سيداً شريفاً من مطعمي قريش كهشام بن عبد مناف فقد وفد هذا القرشي على كسرى وأكل لديه الفالوذ ، فابتاع من عنده غلاماً يصنعه وقدم به مكة فصنع الفالوذ ووضع موائده بالأبطح إلى باب الكعبة ثم نادى : من أراد أن يأكل الفالوذ فليحضر .

واتفق أن حضر هذه الواقعة التاريخية الشاعر المعروف أمية بن أبي الصلت فسجل بأبياته أول وصف عربي للفالوذ أو الفالوذج وهو يمدح ابن جدعان فقال :

لكــل قبيلــة رأس هـــاد   وأنت الرأس تقدم كل هادي

له داع بمكــة مشمعــــل   وآخــر فوق دارته ينـــادي

إلى ردح من الشيزى مـلاء   لباب البر يلبـــك بالشهـاد

وكان لابن جدعان جفان يأكل منها القائم والراكب ويروى أن صبياً وقع في إحداها فغرق ، فضرب بها المثل في العظم . وسمع الحسن البصري من يعيب الفالوذ فقال : لباب البر ، بلعاب النحل بخالص السمن . ما عاب هذا مسلم قط . ثم تلى قوله تعالى : ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ .

وثمة طرائف تناقلتها المصادر العربية تدور جميعها حول الفالوذج .

منهما أنه قيل لأبي الحارث جمين : ما تقول في الفالوذج؟

فقال : وددت أن الموت والفالوذج اعتلجا في صدري إلى يوم القيامة! والله لو أن موسى لقي فرعون بفالوذج لآمن ولكن لقيه بعصا!! .

وجلس أعرابي على مائدة سليمان بن عبد الملك الأموي فأتى بفالوذج فأخذ الأعرابي يأكل منه بشراهة .

فقال سليمان : أتدري ما تأكل يا أعرابي؟

فقال بلى يا أمير المؤمنين ، إني لأجد ريقاً هيناً ومزدرداً ليناً وأظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه .

فضحك سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابي؟ فإنهم يذكرون أنه يزيد في الدماغ .

فقال الأعرابي : لا تصدق يا أمير المؤمنين ، فلو كان الأمر كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل .

وقيل لأعرابي على مائدة بعض الرؤساء : لم يشبع أحد من الفالوذج إلا مات .

فأمسك الرجل قليلاً يفكر ويقدر ، ثم ضرب فيه بأصابعه وقال : استوصوا بعيالي خيراً .

وجلس الغاضري يأكل فالوذج على مائدة يزيد بن عبد الملك الأموي فجعل الغاضري يأكل ويسرع ، فقال يزيد : أرفق بنفسك فإن الإكثار منه يقتل .

فقال الغاضري : منزلي على طريق المقابر ، وما رأيت جنازة قط قيل إن صاحبها مات من أكل الفالوذج .

وجلس أبو هفان الشاعر وأبو العيناء على مائدة فيها فالوذج حار ، فقال أبو هفان لأبي العيناء : هذا آخر مقامك من جهنم .

فقال أبو العيناء ، وكان حاضر الجواب : إن كان حاراً فبرده بشعرك .

وبعث رجل إلى مزبد المدني بفالوذج قليل الحلاوة : فقال مزبد : ينبغي أن يكون هذا الفالوذج قد عمل قبل أن يوحي ربك إلى النحل .

وكان أحمد بن خالد وزير المأمون العباسي مضرب المثل في الشراهة . وقد قيل أنه ولى رجلاً كورة

جليلة (مدينة) لأنه أهدى إليه خواناً من الفالوذج .

أما الشعراء فلم يهملوا أمر الفالوذج ، وقد قال أحدهم :

ولاطفه بالشهد المخلق وجهه ... وإن كان بالألطاف غير خليق

كأن اصفرار اللوز في جنباته ... كواكب تبر في سماء عقيق

يقول العسكري في وصف الفالوذج :

حمـــراء فـــي بيضـــاء فضيــــــة   وظـــرف كافـــور وحشـــو الخلوق
يطــــــــوف الدهـــن بأرجائـــــــه   إطافـــة الدمــع بجفــن المشــوق
كأنمـــــا اللــــــوز بحافاتـــــــــه   أنصـــاف در ركبــت في عقيـق

قدم قوم لأعرابي قريساً فأمعن في أكله .

فقيل له : يا أعرابي ؟ ما هذا ؟

قال : فالوذج ؛ إلا أنكم أحمضتموه .

غلظة الأعراب

قيل لأعرابي : لم إذا غضبنا على غلام لنا قلنا له : أباعك الله في الأعراب

قال : لأنا نطيل كدَّه ، ونعري جلده ، ونجيع كبده .

قميص الشيطان

رأى أعرابي سراويل في فلاة ، فأخذه يظنه قميصاً لم يعرف كيف يلبسه !! فمر يعدو ورماه ؛ فلقيه رجل فقال : ما لك يا أعرابي ؟ قال : أصبت قميصاً للشيطان ، وأخاف أن يلحقني فيقول : لم أخذت قميصي ؟

الأعرابي والدجال

كان المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أصيبت عينه عام غزوة مسلمة القسطنطينية ، وكان يطعم الطعام حيث نزل .

فجاء أعرابي فجعل يديم النظر إلى المغيرة ولا يأكل .

فقال له : ما لك يا أعرابي ؟

فقال : إنه ليعجبني كثرة طعامك ، وتريبني عينك .

قال : وما يريبك منها ؟

فقال : أراك أعور تطعم الطعام ، وهذه صفة الدجال .

فضحك المغيرة وقال : كل يا أعرابي فإن الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله .

أنا أعلم

ذهبت ثياب رجل في الحمام ، فجعل يقول : أنا أعلم ، أنا أعلم ، واللص

يسمعه ؛ ففزع وظن أنه قد فطن به ؛ فردها .

وقال له : إني سمعتك تقول : أنا أعلم ، فما الذي تعلم ؟

قال : أعلم أنه إن عدمت ثيابي مت من البرد .

مستميح ولص

زار رجل الخصيب بن عبد الحميد وهو أمير على مصر مستميحاً فلم يعطه شيئاً فانصرف . فأخذه أبو الندى اللص وكان يقطع الطريق فقال : هات ما أعطاك الخصيب .

قال : لم يعطني شيئاً ، فضربه مائتي مقرعة يقرره على ما ظن أنه ستره عنه .

ثم قدم على الخصيب بعد ذلك زائراً فلم يعطه شيئاً : فقال : جعلت فداك ! تكتب إلى أبي الندى أنك لم تعطني شيئاً لئلا يضربني ، فضحك ووصله .

قطعة من الليل

خرج مخنث في شدة الهاجرة ببغداد وهو وقت لا يتصرف فيه أحد ، فلقيه رجل فقال : لكم الليل ولنا النهار .

فقال : صدقت ، ولكن رأيت وجهك فظننته قطعةً من الليل .

في الأمر فسحة

مر سالم بن أبي العقار بمحمد بن عمران الطلحي وكان سالم أحد المجان فقال له سالم : هذه الشيبة والهيئة الحسنة والخضاب ، ولا تنزع عما أنت فيه !!

فقال : يا أبا سليمان ؛ إني لأهم بذلك ، فإذا مررت بمنزل ابن عمك طلحة بن بلال فرأيت على حاله لم يخسف به علمت أن في الأمر فسحة بعد .

الثقيل

قال أبو العباس المبرد(١) : ضاف رجلا قوما فكرهوه ،

---

(١) أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمبرد ينتهي نسبه بثمالة ، وهو عوف بن أسلم من الأزد .(ولد ١٠ ذو الحجة ٢١٠ هـ/٨٢٥ م ، وتوفي عام ٢٨٦هـ/٩٩٨ .

فقال الرجل لامرأته : كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه؟
فقالت : ألق بيننا شرا حتى نتحاكم اليه .
ففعلا ، فقالت للضيف : بالذي بارك لك في غدوّك غدا ، أينا أظلم؟
فقال الضيف : والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرا ما أعلم .

جواد للهرب

جاء في الأثر أنه عرض على أبي مسلم الخولاني[1] جواد أصيل ،
فقال لقواده : لماذا يصلح هذا؟
فقالوا له : للجهاد في سبيل الله .
فقال : لا .
فقالوا له : فلماذا يصلح أصلحك الله؟
فقال : أن يركبه الرجل ويهرب من جار السوء؟

صلاة أعرابي

قام أعرابي يصلي وخلفه قوم جلوس ، فقال : الله أكبر ! أفلح من هب إلى صلاته ، وأخرج الواجب من زكاته ، وأطعم المسكين من نخلاته ، وحافظ على بعيره وشاته ؛ فضحك القوم . فقال : أمن هينمتي ضحكتم ؟ أشهد عند الله على عمتي أنها سمعت ذلك من فيّ مسيلمة .

وقام أعرابي وقد حضرت الصلاة فقال : حي على العمل الصالح ، قد قامت بالفلاح . ثم تقدم فكبر . وقال : اللهم احفظ لي حسبي ونسبي ، واردد علي ضالتي ، واحفظ هملي ، والسلام عليكم .

(١) هو عبد الله بن ثوب ، ويقال : ابن ثواب ، ويقال : ابن عبد الله ، ويقال : ابن عبيد ، ويقال : ابن عوف ، ويقال : ابن مسلم ، ويقال اسمه يعقوب بن عوف أبو مسلم الخولانى الدرائي الزاهد ، أدرك الجاهلية وسكن المدينة ثم نزح إليالشام فنزل بدارى وأصله من اليمن ، وقدأسلم في أيام رسول الله ﷺ ولكنه لم يلتق به ﷺ فهو مخضرم ودخل المدينة في خلافة الصديق

أعرابي في الحمام

دخل أعرابي الحمام فلما أحس بوهجه أنشأ يقول :

أُدخلـــت فـــي بيت لهم مهنـدس قــد ضربــوه بالرخــام الأملــس
فسكّ سمعـــي واستطـــار نفســـي وقــلت فــي نفســي بالتوسـوس
أدخلت في النار ولما أُرمس

الرداء الجديد

وهب سليمان بن أبي جعفر لأعرابي كساء شامية ؛ فلما أتى أهله وأبصره صبيانه تطايروا فزعاً من بين يديه ، وقالوا : لقد أصابت أبانا داهية ، فأنشد :

طرحـــت عمامتـــي ولبســت تاجـاً علـــى عنقـــي لــه ذنبٌ طويــل
تصايـــح صبيتـــــي لمّـــــا رأوه وقالـــوا جــاء سعـــلاةٌ وغــــول

ذنبك لا ذنب الشيطان

صلّى أعرابي خلف رجل ، فلما قرأ أرتج عليه ، فلم يدر ما يقول ، فجعل يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ، يردّد ذلك مرارا ، فقال الأعرابي من خلفه : ما للشيطان ذنب الا أنك ما تحسن تقرأ .

جواب مفحم

قال نصر بن سيّار[(١)] : قلت لأعرابي : هل اتخمت قط؟
فقال : أما من طعامك وطعام أبيك ، فلا .
فيقال : ان نصرا حمّ من هذا الجواب أياما .

(١) نصر بن سيار الليثي الكناني آخر ولاة الأمويين على خراسان ، ولاّه هشام بن عبد الملك . توفي سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ م) وكانت إقامته في مرو . كان نصر بن سيار آخر ولاة الأمويين على خراسان في أواخر العقد الثاني وأوائل العقد الأول من القرن الثاني للهجرة ، وكان والياً محنكاً حازماً . فاستشعر بوادر الانفجار ونذر الخطر وكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرةوالي العراق في تلك الأيام ، يعلمه في أبيات من نظمه ما شاع بخراسان من الاضطراب في العامين الماضيين ، ويحذره من خطورة الوضع ، ويصارحه أنه إذا استمر في التدهور ولم يعالج معالجة حازمة ، فأنه سيؤدي لا محالة إلى عاقبة وخيمة وكارثة عظيمة .

خطبة أعرابي

ولّى يزيد بن المهلب[1] أعرابياً على بعض كور خراسان فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر

وقال : الحمد لله ثم ارتج عليه فقال : أيها الناس إياكم والدنيا فإنكم لم تجدوها إلا كما قال الله تعالى :

وما الدنيا بباقية ٍلحي وما حي على الدنيا بباقي فقال كاتبه : أصلح الله الأمير هذا شعر

قال : فالدنيا باقية على أحد

قال : لا

قال : فيبقى عليها أحد

قال : لا

قال : فما كلفتك إذن

استقللتها

وبلغنا أن بعض العرب خطب في عمل وليه فقال في خطبته : إن الله خلق السموات والأرض في ستة أشهر .

فقيل له في ستة أيام فقال : والله أردت أن أقولها ولكن استقللتها .

أعرابي وغلامه

سأل أعرابي غلامه : أي يوم صلينا الجمعة في الرصافة؟ ففكر الغلام طويلاً ثم قال : أظنه الثلاثاء ياسيدي

---

(١) يزيد بن المهلب بن سراق بن صحيح بن كندة بن عمرو بن وائل بن الحارب بن العتك بن الأسد بن عمران بن عمرو (مزبقياء) بن عأمر (ماء السماء) بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوف بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان الأزدي القحطاني (٣٥ هـ - ١٠٢ هـ / ٦٧٣ - ٧٢٠م) .

يكنى بأبي خالد : أمير ، قائد وأحد الشجعان الاجواد . ولي خراسان بعد وفاة أبيه المهلب بن أبي صفرة (سنة ٨٣ هـ) فمكث نحوا من ست سنين ثم عزله عبدالملك بن مروان برأي الحجاج (أمير العراقين في ذلك العهد) وكان الحجاج يخشى بأسه فلما تم عزله قام الحجاج بحبسه .

معرفة قديمة

حضر أعرابي مجلس قوم يأكلون ، فجلس يأكل معهم بغير استئذان ،
فقالوا له : هل تعرف منا أحدًا!!
قال : نعم .
قالوا : من هو؟
قال : هذا!! وأشار إلى الخبز

مزاح مبكٍ

عن نافع[١] قال : كان ابن عمر[٢] يمازح جارية له فيقول : خلقني خالق الكرام وخلقك خالق اللئام . فتغضب وتصيح وتبكي ويضحك ابن عمر .

التمر والنوى

كان أعرابي يأكل التمر بنواه ، فقيل له :
أتأكل التمر بنواه ؟!
فقال : هكذا وزنوه عليَّ !

من حكم الأعراب

قيل لأعرابي : كيف تقول : استخذأت أو استخذيت ؟

(١) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نُعيم الليثي الكناني مولى جعونة بن شعوب الليثي الكناني ، الإمام حبر القرآن وأحد القراء العشرة وإمام القراء في المدينة النبوية ، أصله من أصفهان ، ولد في حدود ٧٠ هـ في خلافة عبد الملك بن مروان ويقال سنة بضع وسبعين . مدنيّ نسبة إلى مدنية رسول الله ، وهو من الطبقة الثالثة بعد الصحابة .

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي ، ويكنى بأبي عبد الرحمن ، صحابي جليل وابن ثاني خلفاء المسلمين عمر بن الخطاب وراوي حديث وعالم من علماء الصحابة . لم يشهد بدرًا وأُحد لصغر سنِّه ، وشارك في غزوة الخندق عندما سمح له النبي بذلك ، وهو ابن خمسة عشر عامًا ، وشارك في بيعة الرضوان . كان فقيهًا كريمًا حسن المعشر طيِّب القلب ، لا يأكل إلا وعلى مائدته يتيم يشاركه الطعام .

فقال : لا أقول هذا ولا ذاك .

فقيل له : لمَ ؟

فقال : لأن العرب لا تستخذي أبداً !

ذلك الفحل لا يقرع أنفه

تقول العرب في مديح الرجل الجلد ، الذي لا يفتات عليه بالرأي : «ذلك الفحل لا يقرع أنفه» . وهذا كلام يقال للخاطب إذا كان على هذه الصفة ، ولأن الفحل اللئيم إذا أراد الضراب ضربوا أنفه بالعصا .

وقد قال أبو سفيان بن حرب بن أمية[1] ، عندما بلغه من تزوج النبي صلّى الله عليه وسلّم بأم حبيبة ، وقيل له : مثلك تنكح نساؤه بغير إذنه؟! فقال : «ذلك الفحل لا يقرع انفه» .

صداقة

قصدَ رجلٌ صديقاً له فدقَّ عليه الباب ، فخرجَ إليه وسألهُ عن حاجته ،

فقالَ : عليَّ دين كذا وكذا ، فدخلَ الدار وأخرجَ إليه ما كانَ عليه ، ثم دخلَ الدّار باكياً ،

فقالت له زوجته : هلّا تعلَّلتَ حيث شقَّت عليكَ الإجابة ،

فقال : إنّما أبكي لأنّي لم أتفقد حاله حتى احتاج إليَّ أن سألني . . . .

شكلي وشكلك لا يتفقان

قال ابن وهب : أنا استثقل الكلام كما يستثقل حريث السكوت . كما قال ابن شبرمة لإياس بن معاوية : شكلي وشكلك لا يتفقان ، أنت لا تشتهي أن تسكت ، وأنا لا أشتهي أن أسمع .

(١) أبو سفيان وهو صخر بن حرب الأموي القرشي الكناني ، (٦٣ ق .هـ / ٥٦٠م - ٣٠ هـ / ٦٥٢م) سيد قبائل قريش وكنانة وأحد أشراف العرب وساداتهم في الجاهليةوصدر الإسلام ولد في مكة قبل عام الفيل بعشر سنين ، وأسلم يوم فتح مكة .

سرّ

سارّ رجل اعرابيا بحديث فقال له : أفهمت؟ قال : بل نسيت!

مشورة

قال أعرابي : ما غبنت قط حتى يغبن قومي .
قيل : وكيف؟
قال : لا أفعل شيئا حتى أشاورهم .

ألف حازم(١)

قيل لرجل من عبس(٢) : ما أكثر صوابكم!
قال : نحن ألف رجل ، وفينا حازم ونحن نطيعه ، فكأنا ألف حازم .

بلاغة أعرابيّ

قال ابو الحسن : سمعت أعرابيا في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة ثلاث وخمسين ومائة ، وهو يقول : أما بعد فإنّا أبناء سبيل ، والضاء طريق ، وفلّ سنة ، فتصدقوا علينا ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت . أما والله إنّا لنقوم هذا المقام وفي الصدر حزازة ، وفي القلب غصة

قس بن ساعدة(٣)

كان قسّ بن ساعدة يفد عَلَى قيصر ويزوره فقَالَ له قيصر يوماً : ما أفضل العقل؟

(١) الحازم : سديد الرأي .

(٢) بنو عبس هم بطن من بطون بني ريث من غطفان بن سعد بن قيس عيلان الثلاثة وهي عبس وأشجع وذبيان وينسبون إلى عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان . أسلموا في زمن النبي محمد بن عبد الله انتشروا بعد الفتوحات الإسلامية في سائر البلاد العربية . من أشهر فرسانهم عنترة بن شداد وحربهم مع ذبيان في داحس والغبراء .

(٣) قُسُّ بن ساعدة بن حُذَافة بن زُفر بن إياد ، وقيل : قُسُّ بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر بن وائلة بن الطمثان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى بن دعمي بن إياد من حكماء العرب قبل الإسلام . توفي حوالي عام ٦٠٠م الموافق ٢٣ قبل الهجرة .

قَالَ : معرفة المرء نفسه
قَالَ : فما أفضل العلم؟
قَالَ : وقوف المرء عند علمه ،
قَالَ : فما أفضل المروءة؟
قَالَ : استبقاء الرجل ماء وجهه ،
قَالَ : فما أفضل المال؟
قَالَ : ما قضي به الحقوق

نصيحة أعرابيّ لابنه

قال بعض العرب لولده : يا بني لا تزهدنَّ في معروف فإنَّ الدَّهرَ ذو صروف ، فكم من راغب كان مرغوباً إليه ، وطالب كانَ مطلوباً ما لديه ، وكن كما قال القائل :

وعُدَّ من الرَّحمن فضلاً ونعمةً ... عليكَ إذا ما جاءَ للخيرِ طالبُ
ولاتمنعنَّ ذا حاجةٍ جاء راغباً ... فإنّكَ لا تدري متى أنتَ راغبُ

تهديد بالله

ويروى أن رجلاً من قريش بعث إلى رجل منهم
وكان أخذ له غلاماً : يا هذا ،
إن الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب ، فإما رددته ،
وإما عرضت اسمك على الله في كل يوم وليلة خمس مرات .

أسماء العرب

سأل العتبي أعرابياً : ما بال العرب سمّت أبناءها أسد ونمر وكلب وسّمت عبيدها مبارك وسالم ؟
قال : لأنها سمّت أولادها لأعدائها وسمّت عبيدها لأنفسها !

ما ترك الأعرابيّ لنا عذّراً

قيل إن بعض وفود العرب قدموا على عمر بن عبد العزيز[١] رضي الله عنه وكان فيهم شاب فقام وتقدم وقال يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون ثلاث

سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة أذابت العظم وفي أيديكم فضول أموال فإن كانت لنا فعلام تمنعونها عنا وإن كانت لله ففرقوها على عباده وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا ، إن الله يجزي المتصدقين

فقال عمر بن عبد العزيز : ما ترك الإعرابي لنا عذرا في واحدة

أتحبُّ أن تموت

قال الأصمعي[٢] عن أبي عمرو ابن العلاء[٣] قال : قيل لرجل من بني بكر بن وائل قد كبر حتى ذهب منه لذة المأكل والمشرب والنكاح : أتحب أن تموت ؟

قال : لا ، قيل : فما بقي من لذاتك في الدنيا ؟

قال : اسمع العجائب

وأنشد يقول :

وهلك الفتى أن لا يراح إلى الندى
وأن لا يرى شيئا عجيبا فيعجبا

---

(١) أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي (٦١هـ/٦٨١م-١٠١هـ/٧٢٠م) ، هو ثامن الخلفاء الأمويين . ولد سنة ٦١هـ في المدينة المنورة ، ونشأ فيها عند أخواله من آل عمر بن الخطاب ، فتأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة ، وكان شديد الإقبال على طلب العلم . وفي سنة ٨٧هـ ، ولاّه الخليفة الوليد بن عبد الملك على إمارة المدينة المنورة ، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١هـ ، فصار والياً على الحجاز كلها ، ثم عُزل عنها وانتقل إلى دمشق . فلما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة قرّبه وجعله وزيراً ومستشاراً له ، ثم جعله ولي عهده ، فلما مات سليمان سنة ٩٩هـ تولى عمر الخلافة .

(٢) عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي (١٢١ هـ- ٢١٦ هـ/ ٧٤٠ - ٨٣١ م) راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان .

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين المازني التميمي البصري (٦٨ أو ٧٠-١٥٤ هـ أحد القراء السبعة .

دعاء

ومن أحسن ما يُحكى أنَّ رجلاً كان مع بعض الصالحين ،فمرَّ على جماعة يشربون ويغنُّون ، فقال الرجل : يا سيدى ، ادع على هؤلاء المجاهرين بالمنكر . . قال : اللهمَّ كما فرَّحتهم في الدنيا ، فرِّحهم في الآخرة . . فبُهت الرجل ،فلم تمض مدة ، حتى اهتدى كل منهم وحسن حاله .

ورع خيّاط

ذهب أحد الأشخاص إلى الخياط ليخيط له ثوباً فلما استلم الثوب وجد فيه بعض العيوب فذهب إلى الخياط فقال له : إني وجدت في الثوب بعض العيوب فسكت برهة ثم بكى .

فقال الرجل للخياط : ما أردت أن أخذلك سوف آخذ الثوب بالعيوب ،

قال الخياط : والله ما لهذا بكيت ،و إنما أبكي لأني اجتهدت في خياطته وظهرت فيه كل هذه العيوب واجتهدت في عبادة ربي سبحانه فيا ويلي كم فيها من العيوب .

إيمان أعرابيّ

أسلم أعرابي وعاد إلى قبيلته ، فقالوا له : لمَ آمنت بمحمد؟ فقال : ما قال محمدٌ افعل وقال قلبي لا تفعل ، وما قال محمدٌ لا تفعل وقال قلبي افعل!

كيف أصبحتَ؟

قيل لأعرابي : كيف أصبحت؟

قال : أصبحت وأرى كل شيء مني في ادبار ، وإدباري في إقبـال .

فاطر

يقول ابن عباس[1] ما كنتُ أدري معنى فاطر : حتى أتى أعرابيان يختصمان في

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، صحابي جليل ، وابن عم النبي محمد ، حبر الأمة وفقيهها وإمام التفسير وترجمان القرآن ، ولد ببني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكان النبي محمد دائم الدعاء لابن عباس فدعا أن يملأ الله جوفه عِلماً وأن يجعله صالحاً . وكان يدنيه منه وهو طفل ويربّت على كتفه وهو يقول : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» .

بئر ، فقال أحدهما أنا فطرتها ، أي أنا ابتدأتها .

رد بليغ لمتكبّر

قال أعرابي لرجل رآه معجباً بنفسه : يسرني أن أكون عند الناس مثلك في نفسك ، وعند نفسي مثلك في الناس!

وصيّة

احتضر أعرابي فقال له بنوه : عظنا يا أبت .
فقال : عاشروا الناس معاشرة إن غبتم حنّوا إليكم وإن متّم بكوا عليكم .

صُحبة

قال أعرابي : اصحب من يتناسى معروفه عليك ويتذكر حقوقك عليه .

أدب مع الله

سئل أعرابي كان يسوق قطيعاً من الغنم بين يديه ، لمن هذا؟
فقال : هو لله في يدي!!

شخص يُستجاب دعاؤه

أتى رجل إلى أعرابي وقال له : هل تعرف شخص يستجاب دعاؤه؟
قال الأعرابي : لا . . ولكن أعرف من يستجيب

عقل

سئل أعرابي عن العقل
فقال : إن نهاك عقلك عما ينبغي شراؤه وما يجب الاستثمار فيه فأنت عاقل

اعتذار

قال أعرابي يعتذر من خطأ : «أقلني عثرتي ، وأسغني ريقي ، فإنه لابد للجواد من كبوة ، ولا بد للسيف من نبوة ،ولا بد للحليم من صبوة» .

خير الجلساء

قال أعرابِي : «خير الجلساء من إذا أعجبته عَجِب ، وإذا فكهته طَرِب ، وإذا أمسكت تحدث ، وإذا فكرت لم يلمْك» .

لو كان ثقة ما نمّ

غضب أعرابي من أعرابي فقال له :ما أغضبكَ مني؟
فقال له : شيء نقله الثقات عنكَ إليّ . .
فقال : لو كان ثقة ما نمّ !

نبيذ

قيل لأعرابي : مالك لا تشرب النبيذ ؟
قال : لثلاث صفاتٍ فيه لأنه : متلفٌ للمال ، مذهبٌ للعقل ، مسقطٌ للمروءة !

شتيمة

أعرضَ أعرابي عن شاتمه . . فقيل له : ما لَكَ لا ترد؟
فقال : والله لا أدخل في حربٍ الغالب فيها شرٌّ من المغلوب !

متى الساعة ؟

سأل أعرابي الرسول ﷺ : متى الساعة؟
فقال النبي : «وماذا أعددت لها؟»
«قال : حب الله ورسوله» .
فقال النبي : «أنت مع من أحببت»

حُسن الظن بالله

سمع أعرابي رجلاً يقول : «إنّ الله يتولّى محاسبة عباده بنفسه» .
فقال الأعرابي : «إن الكريم اذا تولّى شيئا أحسن فيه» .

فقه أعرابيّ

كان أعرابي يجالس الشعبي ويطيل الصمت ، فقال له يوماً : ألا تتكلم فقال : أسكت فأسلم وأسمع فأعلم ؛ إن حظ المرء في أذنه له ، وفي لسانه لغيره

ما حرفتك

قال الأصمعي : قال لي أعرابي : ما حرفتك؟
قلت : الأدب ،
قال : نعم الشيء ، فعليك به ، فإنه ينزل المملوك في حد الملوك .

كيف أنت في دينك ؟

سُئل أعرابي : كيف أنت في دينك ؟
قال : أخرقه بالمعاصي ، وأرقعه بالاستغفار !!

تمر

قال بعض الأعراب في وصف حلاوة تمرهم :
لنا تمرٌ تضع التمرة في فمك فتبلغ حلاوتها إلى كعبك !

السّيد

سُئل أعرابي : من السيّد ؟ قال : «الذي إذا أقبل هابوه وإذا أدبر عابوه»

الظالم المظلوم

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : ما رأيت ظالًما أشبه بمظلوم من الحاسد ؛ حزن لازم ، ونفس دائم ، وعقل هائم ، وحسرة لا تنقضي .

نصيحة حاج

أراد رجل الحج فسلّم على شعبة بن الحجاج[(١)] فقال له : أما إنك إن لم تعدّ الحلم ذلا ، ولا السفه أنفا ، سلم لك حجك .

(١) أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد (٨٥ هـ-١٦٠ هـ) .

نجونا

سأل أعرابي الرسول ﷺ
قال : من سيحاسبنا يوم القيامة .؟
قال ﷺ : الله عز وجل
قال الأعرابي : نجونا ورب الكعبة
قال صلى الله عليمه وسلم : وكيف ذلك ؟
قال : لأن الله كريم إذا قدر عفا

على فراش الموت

مرض أعرابي فقيل له : إنك تموت
قال : إلى أين يُذهب بي؟
قيل له : إلى الله
قال : فما كراهتي أن أذهب لمن لم أر الخير إلا منه!

سوء اكتساب

وقف أعرابي على قوم يسألهم ،
فقالوا : من أنت؟ فقال : إن سوء الاكتساب يمنعني من الانتساب .

فقه الصُحبة

قال أعرابي : «إنّ أعجز الناس من قصّر في طلب الإخوان ، وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم» .

خير الزرع

خرج الحجاج إلى القاوسان فإذا هو بأعرابي في زرع فقال له : ممن أنت؟
فقال : من أهل عمان
قال : فمن أي القبائل؟
قال : من الأزد .
قال : كيف علمك بالزرع؟

قال : إني لأعلم من ذلك علما .
قال : فأي الزرع خير؟
قال : ما غلظ قصبه ، واعتمّ نبته ، وعظمت حبته ، وطالت سنبلته .
قال : فأي العنب خير؟
قال : ما غلظ عموده ، واخضر عوده ، وعظم عنقوده .
قال : فما خير التمر؟
قال : ما غلظ لحاؤه ، ودق نواه ، ورق سحاه .
أذكى النّاس
سئل أعرابي ، من أذكى الناس ؟
قال : الفطن المتغابي

وصيّة

قال أعرابي لولده : عليك بالأدب فانه يرفع العبد المملوك ويجلسه مجالس الملوك .

علامات الرجال

قال أعرابي : إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه ، وبكاؤه على ما مضى من زمانه

درجات الكرم

قال أعرابي
السخاء هو : إعطاء الأقل وإبقاء الأكثر
أما الجود فهو : إعطاء الأكثر وإبقاء الأقل
وأما الإيثار فهو : إعطاء الكل من غير إبقاء شيء

الأيام البيض

سُئِلَ الحسنُ لأيِّ شيءٍ اِسْتُحِبَّ صومُ أيامِ البيض ؟
فقَال : لا أدري

فقال أعرابي في حلقته : لكنّي أدري
قال : وما هو ؟
قال : لأنَّ القمرَ لا ينْكسفُ إلا فيهنَّ فأحبَّ الله عزَّ وجلَّ .
أن لا يحدثَ في السَّماءِ أمرٌ إلا حدثتْ له في الأرض عبادة

خذوها من غير فقيه

سمع أعرابي قوله عز وجل ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ فقال : والله ما أنقذهم منها وهو يعيدهم فيها . فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه .

دعاء

دعا أعرابي في طريق مكة فقال : هل من عائد بفضل ، أو مواسٍ من كفاف؟
فأُمسكَ عنه فقال : اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنَعجز ، ولا إلى النّاس فنضيع .

وصيّة

قيل لصبي أعرابي مات أبوه : لمن أوصى بك أبوك؟
رد : إن لم يكن للحي الا وصية الميت فالحي هو الميت .

جوار

قال أعرابي عندما مات ولده :
جاورت أعدائي وجاور ربــه   شتـــان جـــواره وجـــواري

فطرة سليمة

رأى أعرابي صخرةً تعبدها العرب وفوقها ثعلب ، فقام الثعلب وبال عليها!
فأنشد بفطرته :
أربٌّ يبولُ الثعلبـــــان برأســـــه؟   لقــد هان من بالت عليه الثعالــبُ

عظة

قال شبيب بن شيبة[1] للمهدي : إن الله لم يرض أن يجعلك دون أحد من خلقه ، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد أخوف لله منك

عند من تُحب أن يكون طعامك[2]

وقيل لأعرابي عند من تحب أن يكون طعامك؟

قال : عند أم صبي راضع ، أو ابن سبيل شاسع ، أو كبير جائع ، أو ذي رحم قاطع .

دعاء الأعراب

كان أعرابي يقول : اللهم اغفر لي وحدي

فقيل له : لو عممت بدعائك فإن الله واسع المغفرة

فقال : أكرهُ أن أُثقل على ربي !

**

قال ابن الأعرابي ، قيل لعبد الله بن عمر : لو دعوت الله لنا بدعوات

فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا!

فقال له رجل : لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن . فقال : نعوذ بالله من الإسهاب

**

وقف أعرابي في بعض المواسم ، فقال : اللهم إن لك علي حقوقا فتصدق بها عليّ ، وللناس تبعات فتحملها عني ، وقد أوجبت لكل ضعيف قرى وأنا ضيفك ، فاجعل قراي في هذه الليلة الجنة

**

(١) شبيب بن يزيد بن أبي نعيم الشيباني رأس الخوارج بالجزيرة اجتمعوا عليه بعد مقتل صالح بن مسرح وبايعوه وقد كان فارس زمانه بعث لحربه الحجاج بن يوسف الثقفي خمسة قواد ، فقتلهم واحدًا بعد واحد ثم سار إلى الكوفة وحاصر الحجاج فيها .

(٢) أي من تُحب أن تُطعم من الناس .

ووقف أعرابي متَعَلِّقاً بأستار الكَعْبة رافعاً يَديه إلى السماء
وهو يقول : رَبِّ ،
أتُرَاك مُعَذِّبَنا وتَوْحيدُك في قَلوبنا وما إخالُكَ تفَعل ،
ولئن فعلتَ لَتَجمعَنَّا مع قوم طالما أبْغضناهم لك .

**

نظر أعرابي إلى البدر في رمضان
فقال : سَمِنتَ فأهزلتني أراني الله فيك السلّ !

**

نظر أعرابي في سبع وعشرين من رمضان إلى الهلال
فقال : الحمد لله الذي أنحل جسمك كما أخمصت بطني

**

دعا أعرابي على عامل فقال : صبّ الله عليك «الصّادات يعني الصفع والصرف والصلب» .

**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دخل أعرابي المسجد والنبيّ صلّى الله عليه وسلم جالس ، فقام يصلي

فلما فرغ قال : اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : «لقد حجّرت واسعا يا أعرابي»

**

خرج أعرابي في ليلة مظلمة فضلّ الطريق ثم طلع القمر فاهتدى فرفع رأسه للقمر

وقال : ماذا أقول لك؟ إن قلت حسنك الله فقد فعل . . وإن قلت رفعك الله فقد فعل

**

قال الأصمعي : «رأيت أعرابيا متعلقاً بأستار الكعبة يقول ؛ ياحسن الصحبة أتيتك من بُعدٍ فأسألك سترك الذي لا ترفعه الرياح ولا تخرقه الرماح»

**

مات لأعرابي بعير ، فقال : يا رب اصنع ما شئت ، فإن رزقي عليك !

**

أوقد أعرابي نارا يتّقي بها برد الصحراء في إحدى الليالي القارسة ، ولما جلس يتدفّأ ردّد مرتاحاً : اللهم لا تحرمنيها لا في الدنيا ولا في الآخرة

ذم الممدوح

ذكر ناس رجلا بكثرة الصوم وطول الصلاة وشدة الاجتهاد ، فقال أعرابي كان شاهدا لكلامهم : بئس الرجل هذا ، يظن أن الله لا يرحمه حتى يعذب نفسه هذا التعذيب

جودة التشبيه

حكى الصّولي(١) : حدّثنا ميمون بن مهران(٢) قال : كان معنا مخنّث يلقّب مشمشة- وكان أمّيّا- فكتب بحضرته رجل إلى صديق له كتابا ، فقال المخنّث : اكتب إليه :

مشمشة يقرأ عليك السلام ، فقال : قد فعلت- وما كان فعل- فقال : أرني ، فقال : هذا اسمك ، فقال : هيهات ، اسمي في الكتاب شبه داخل الأذن ، فعجبنا من جودة تشبيهه .

وصف

قال نضلة : مررت بكنّاسين أحدهما في البئر والآخر على رأس البئر ، وإذا ضجّة ، فقال الذي في البئر : ما الخبر؟ فقال : قبض على عليّ بن عيسى؟ فقال : من أقعدوا بدله؟

قال : ابن الفرات ، قال : قاتلهم الله ، أخذوا المصحف ووضعوا بدله الطّنبور .

---

(١) أبو بكر الصولي محمد بن يحيى بن عبد الله ، نسبته إلى جده «صول تكين» ، الذي كان وأهله ملوكا بجرجان ، كان أحد العلماء بفنون الأدب ، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ومآثر الأشراف وطبقات الشعراء . توفي في البصرة سنة ٣٣٥هـ .

(٢) ميمون بن مهران الرقي . أبو أيوب . من كبار العلماء والأئمة . كان مؤدب أولاد عمر بن عبد العزيز . استوطن الرقة ، وولاّه عمر بن عبد العزيز قضاءها . كان على مقدمة الجيش مع معاوية بن هشام بن عبد الملك عندما غزوا نحو قبرص سنة ١٠٧هـ .

أعرابي يعاتب ربه

قيل إن محمد بن علي المعروف بابن الحنفية[١]
قد رأى وهو يطوف في الكعبة أعرابيا عليه ثياب رثة
شاخصا نحو الكعبة لا يصنع شيئا ،
ثم دنا من الأستار فتعلق بها ورفع رأسه الى السماء وأنشأ يقول :

أما تستحي مني وقد قمت شاخصــا   أناجيـــك يا ربــي وأنت عليــمُ
فــأن توردة عــني يــارب خفـا وفــروة   أصلـــي صلاتي دائما وأصــــومُ
وإن تكــن الأخـرى على حـال ما أرى   فمــــن ذا على ترك الصلاة يلــومُ
أتــرزق أولاد العــلــوج وقــد طغــوا   وتـــترك شيخـــا والــداه تميـــــمُ

فدعا محمد به وخلع عليه فروة وعمامة وأعطاه عشرة آلاف درهم وحمله على فرس

فلما كان العام الثاني جاء الحاج وعليه وردة جميلة وحال مستقيم .
فقال له محمد : أنت الإعرابي الذي رأيته في العام الماضي بأسوأ حال
وأراك الآن ذا بزة حسنة وجمال ؟
فقال : إني عاتبت كريما فانخدع !

أعرابي على المنبر

ويروى أن المهلب[٢] ولى بعض الأعراب كورة بخراسان وعزل واليها فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس اقصدوا لما أمركم الله به ، فإنه رغبكم في

---

(١) أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية ، فينسب إليها تمييزاً عن أخويه الحسن والحسين ، يكنى أبا القاسم ، حيث أذن رسول الله لولد من علي بن أبي طالب أن يسمى باسمه ويكنى بكنيته . ولد في خلافة عمر بن الخطاب سنة إحدى وعشرين للهجرة ، وهو أحد الأبطال الأشداء ، كان ورعاً واسع العلم ثقة له عدة أحاديث في الصحيحين .

(٣) المهلّب بن أبي صفرة الأزدي وكنيته أبو سعيد ، هو من ولاة الأمويين على خراسان . عينه الحجاج عاملا على خراسان عام (٧٨هـ – ٦٩٧م) وقام بفتوح واسعة فيما وراء بلاد النهر فقد قاد المهلب حملة استولى من خلالها على إقليم «الصغد» وغزا «خوارزم» وافتتح جرجان وطبرستان بذلك فرض سيطرة الدولة الأموية على أراض كثيرة فيما وراء النهر وكان لها أكبر الأثر في إثراء الحضارة الإسلامية .

الآخرة الباقية وزهدكم في الدنيا الفانية ، فرغبتم في هذه وزهدتم في تلك ، فيوشك أن تفوتكم الفانية ولا تحصل لكم الباقية فتكونوا كما قال الله تعالى لا ماءك أبقيت ولا حرك أنقيت واعتبروا بالمغرور الذي عزل عنكم سعى وجمع فصار ذلك كله إلي على رغم أنفه وصار كما قال الله سبحانه وتعالى :

أبشري أم خالد . . . رب ساعٍ لقاعد

ثم نزل عن المنبر .

الباذنجان

قيل لأعرابي : ما تقول في الباذنجان؟

فقال : بطون العقارب وبذور الزقوم

فقالوا له : إنه يحشى باللحم فيكون طيبا

فقال لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح!

الغداء

قال بعضهم : كنا منقطعين إلى رجل من كبار أهل العسكر ، وكان لبثنا يطول عنده ، فقال له بعضنا : إن رأيت أن تجعل لنا إمارة إذا ظهرت لنا خففنا عنك ولم نتبعك بالقعود ، فقد قال أصحاب معاوية لمعاوية مثل الذي قلنا لك

فقال : أمارة ذلك أن أقول إذا شئتم .

وقيل ليزيد مثل ذلك فقال : إذا قلت على بركة الله .

وقيل لعبد الملك مثل ذلك فقال : إذا ألقيت الخيزرانة من يدي .

فأيّ شيء تجعل لنا أصلحك الله؟

قال : إذا قلت يا غلام الغداء .

لعل الله يرزقني الحج على يديك

قال أعرابي لآخر :

اصمت وإلا لطمتك لطمة تذهب بك إلى يثرب

فقال عززها بأخرى لعل الله يرزقني الحج على يديك

وما تلك بيمينك يا موسى؟

سرق أعرابي اسمه موسى صرة دراهم ، فدخل المسجد ليصلي
فقرأ الامام : «وما تلك بيمينك يا موسى»
فقال الأعرابي : والله إنك لساحر ، ثم رمى الصرة وخرج هاربا!

يقيدون الحجارة ويطلقون الكلاب!

دخل أعرابي بلدةً فلحقته بعض كلابها ، فأراد أن يرميها بحجر فلم يقدر على انتزاعه .
فقال : عجبا لأهل هذه البلدة يقيّدون الحجارة ويطلقون الكلاب!

أعرابي والخمر

عَنْ أبى عبيدة : أن أعرابياً دخل عَلَى بعض الأمراء وهو يشرب ، فجعل يحدثه وينشده ثم سقاه ، فلما شربها قَالَ : هي والله أيها الأمير ، أي هي الخمر ، فقَالَ : كلا ، إنها زبيب وعسل ، فلما قَالَ له قل فيها ، فقَالَ :

أتانا بها صفراء يزعم أنها   زبيب فصدقناه وهو كذوب
وما هي إلا ليلةٌ غاب نجمها   أواقع فيها الذنب ثم أتوب

رقية الثعالب

عض ثعلبٌ أعرابيا فأتى راقياً ، فقال الراقي : ما عضك؟
فقال : كلب ، واستحى أن يقول ثعلب
فلما ابتدأ بالرقية ، قال : واخلط بها شيئا من رقية الثعالب

العقرب

وجد أعرابي البرد فقيل له : هذا لكون الشمس في العقرب .
فقال : لعن الله العقرب فإنها مؤذية في الأرض كانت أم في السماء .

لا أذهب إلى ما أبغض

قيل لأعرابي : ما يمنعك أن تغزو ؟
فقال : والله إني لأبغض الموت على فراشي فكيف أمضي اليه ركضاً !

من نسج أضراسك

رأى أعرابي رجلا سميناً فقال له : إنّي أرى عليك قطيفةً من نسج أضراسك

مزبد ونافجة المسك

سرق مزبّد نافجة[1] مسك فقيل له : إن كل من غلّ يأتي يوم القيامة بما غل ، يحمله في عنقه ، فقال : إذا والله أحملها طيبة الريح ، خفيفة المحمل

مساومة في المنام

رأى أعرابي في منامه أن تاجراً يود شراء أغنامه الجُرْب بألف دينار ، ثم فتح عينيه فلم يجد شيئا ، فأغمض عينيه وقال : هات ثمانمئة .

الحمير تعرف بعضها

مر أعرابي بأشعب وهو يجر حماره فقال له الأعرابي مازحا : لقد عرفت حمارك يا أشعب ولم أعرفك

فقال أشعب : لا عجب فالحمير تعرف بعضها

شاهد الزور

يحكى أن أعرابياً أصلع ذهب ليشهد أمام القاضي ، فقال : لقد وقف شعر رأسي من هول ما رأيته ، فحبسه القاضي بتهمة الكذب وشهادة الزور

وازن بين الأمرين

شاهد أعرابي رجلاً أنيق الملبس يتصدّر مجلساً ويتكلم كلاماً ركيك اللغة والأسلوب .

فقال له : يا هذا ، تكلم على قدر ثيابك ، أو البس على قدر كلامك .

(١) وعاء المسك في جسم الظَّبي وهي سُرّة غزال المسك .

في جمال مفارقة القبيح

قدِم أعرابي من اليمامة
فقيل له : ما أحسن ما رأيت بها؟ قال : خروجي منها !!

وصف أعرابي

ذكر أعرابي رجلاً بقلّة الحياء فقال :
لو دُقّت بوجهه الحجارة لرضها ولو خلا بالكعبة لسرقها !!

أفطر خشية المعصية !

رؤى أعرابي يأكل فاكهة في نهار رمضان فقيل له : ما هذا؟
فقال : قرأت الآية «وكلوا من ثمره إذا أثمر» وخفت أن أموت قبل الإفطار فأموت عاصياً

يهجو أخاه

عَنِ ابن الأعرابي ، قَالَ ، قَالَ رجل لأخيه : لأهجونك
قَالَ : وكيف تهجوني وأبونا واحد وأمنا واحدة! فقَالَ :

غلامٌ أتاه اللؤم من شطر نفسه ولم يأته من نحو أمٍّ ولا أب

قَالَ ، وقَالَ آخر يهجو أخاه :

أبوك أبي وأنت أخي ولكن تفاضلت الطباع والظروف
وأمك حين تنسب أمّ صدق ولكن ابنها طبعٌ سخيف
وقومك يعلمون إذا التقينا من المرجو منا والمخوف

أنا أولى بنفسي !

مدح أعرابي نفسه فقيل له : أتمدح نفسك؟
فقال : أفأكِلها إلى عدو يشتمني ويذمني !!

رأي أعرابي

سُئل أعرابي : ما تقول في فلان؟

فقال : لو كان في بني إسرائيل حين أمرهم موسى بذبح بقرة لما ذبحوا غيره . .!!

فدية

قيل أن مزينة أسرت ثابتا أبا حسان الأنصاري ، وقالوا : لا نأخذ فداءه الا تيسا .
فغضب قومه وقالوا : لا نفعل هذا .
فأرسل اليهم أن أعطوهم ما طلبوا . فلما جاؤوا بالتيس قال :
أعطوهم أخاهم وخذوا أخاكم .
فسموا مزينة التيس ، فصار لهم لقبا وعبثا .

ذهب القليل وبقي الكثير

قال أبو محمد عبد الله بن علي المقري : دفن رجل مالا في مكان وترك عليه طابقا وترابا كثيرا ، ثم ترك فوق ذلك خرقة فيها عشرين دينارا ، وترك عليها ترابا كثيرا ومضى ، فلما احتاج الى الذهب كشف عن العشرين ، فلم يجدها ، فكشف عن الباقي فوجده ، فحمد الله على سلامة ماله . وانما فعل ذلك خوفا أن يكون قد رآه أحد ، وكذلك كان ، فانه لما جاءه الذي رآه وجد العشرين ، فأخذها ولم يعتقد أن ثمّ شيئا آخر .

اتقاء أعمى القلب

وقال بعضهم : خرجت في الليل لحاجة ، فاذا أعمى على عاتقه جرّة ، وفي يده سراج ، فلم يزل يمشي حتى أتى النهر وملأ جرّته وانصرف راجعا .
فقلت : يا هذا ، أنت أعمى والليل والنهار عندك سواء .
فقال : يا فضولي ، حملتها معي لأعمى القلب مثلك يستضيء بها ، فلا يعثر بي في الظلمة فيقع عليّ فيكسر جرّتي .

حسن الاحتيال

قال عبد الواحد بن ناصر المخزومي :
أخبرني من أثق به أنه خرج في طريق الشام مسافرا يمشي وعليه مرقعة ، وهو في جماعة نحو الثلاثين رجلا كلهم على هذه الصفة ، قال :

فصحبنا في بعض الطريق رجل شيخ حسن الهيئة ومعه حمار فاره يركبه ، ومعه بغلان عليهما رجل وقماش ومتاع فاخر ، فقلنا له :

يا هذا انك لا تفكر في خروج الأعراب علينا ، فانه لا شيء معنا يؤخذ ، وأنت لا تصلح لك صحبتنا مع ما معك .

فقال : يكفينا الله .

ثم سار ولم يقبل منا ، وكان اذا نزل يأكل استدعى أكثرنا فأطعمه وسقاه ، واذا عيي الواحد منا أركبه على أحد بغليه ، وكانت جماعة تخدمه وتكرمه وتتدبر برأيه ، الى أن بلغنا موضعا ، فخرج علينا نحو ثلاثين فارسا من الأعراب ، فتفرّقنا عليهم ومانعناهم .

فقال الشيخ : لا تفعلوا .

فتركناهم ، ونزل فجلس وبين يديه سفرته ، ففرشها وجلس يأكل ، وأظلتنا الخيل ، فلما رأوا الطعام دعاهم اليه ، فجلسوا يأكلون ، ثم حلّ رحله وأخرج منه حلوى كثيرة وتركها بين يدي الأعراب ، فلما أكلوا وشبعوا جمدت أيديهم وخدرت أرجلهم ولم يتحرّكوا .

فقال لنا : ان الحلو مبنّج ، أعددته لمثل هذا وقد تمكن منهم وتمّت الحيلة . ولكن لا يفك البنج الا أن تصفعوهم ، فافعلوا فانهم لا يقدرون لكم على ضرر ونسير .

ففعلوا ، فما قدروا على الامتناع ، فعلمنا صدق قوله ، وأخذنا أسلحتهم وركبنا دوابهم وسرنا حواليه في موكب ، ورماحهم على أكتافنا ، وسلاحهم علينا ، فما نجتاز بقوم الا يظنونا من أهل البادية فيطلبون النجاة منا ، حتى بلغنا مأمننا .

اشترى موته

روي أن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري(١) كان في حبس الحجاج ،

(١) أبو موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري خرج وخمسون نفرا من قومه من اليمن أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة ثم قدم مع أهل السفينتين ورسول الله محمد بن عبد الله بخيبر . وأرسله محمد ﷺ مع معاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن ، روي عن أبي بردة عن أبيه عن جده أن محمد بعث معاذا وأبا موسى إلى اليمن قال يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وتطاوعا ولا تختلفا رقيق القلب والمشاعر كما وصفه نبي الإسلام محمد ﷺ .

وكان يعذبه ، وكان كل من مات من الحبس رفع خبره الى الحجاج ، فيأمر بإخراجه وتسليمه إلى أهله ، فقال بلال للسجان : خذ مني عشرة آلاف درهم وأخرج اسمي الى الحجاج في الموتى ، فاذا أمرك بتسليمي الى أهلي هربت في الأرض ، فلم يعرف الحجاج خبري ، وإن شئت أن تهرب معي فافعل وعليّ غناك أبدا .

فأخذ السجان المال ورفع اسمه في الموتى .

فقال الحجاج : مثل هذا لا يجوز أن يخرج الى أهله حتى أراه ، هاته .

فعاد إلى بلال فقال : اعهد .

قال : وما الخبر؟

قال : ان الحجاج قال كيت وكيت ، فإن لم أحضرك اليه ميتا قتلني ، وعلم أني أردت الحيلة عليه ، ولا بد أن أقتلك خنقا .

فبكى بلال وسأله أن لا يفعل ، فلم يكن إلى ذلك طريق . فأوصى وصلّى ، فأخذه السجان وخنقه ، وأخرجه الى الحجاج فلما رآه ميتا قال :

سلّمه الى أهله .

فأخذوه ، وقد اشترى الموت لنفسه بعشرة آلاف درهم ، ورجعت الحيلة عليه .

ظالم أم مظلوم

قيل لأعرابي : أتحب أن تلقى الله ظالماً أم مظلوماً ؟

فقال : بل ظالماً

فقيل له : سبحان الله . . أتحب الظلم ؟!

فقال : وما عندي إذا أتيته مظلوماً وسألني : خلقتك مثل البعير الصمحمح ، ثم أتيتني تعصر عينيك وتشتكي ؟!

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

دخل أعرابي من فزارة[١] على الأصمعي وهو يتعشى بعد المغرب .

فقال الأصمعي : هلم . . العشاء

فقال له : إني صائم .

(١) إحدى قبائل العرب .

فقال الأصمعي :

قد دخل الليل !

فقال له : أعلم ، ولكني وجدت صوم الليل أهون من صوم النهار ، وهم جميعاً واحد ، ولن يكلف الله نفساً إلا وسعها !

في زيارة المريض

عاد رجل مريضاً فقال له : ما علتك ؟

قال : وجع الركبتين .

فقال له : والله لقد قال جرير بيتاً من الشعر ذهب مني صدره ، وبقي عجزه ، وهو قوله : وليس لداء الركبتين طبيب

فقال له المريض :لا بشرك الله بالخير ، ليتك ذكرت صدره ونسيت عجزه .

**

دخل أعرابي ، على مريض يعوده ، فلما خرج التفت إلى أهله وقال :

لا تفعلوا بنا كم فعلتم في فلان ، مات وما أعلمتمونا ، إذا مات هذا فأعلمونا حتى نصلي عليه .

**

دخل أعرابي على رجل وهو في النزع ، فقال : ابن كم أنت؟!

قال : في السادسة والثمانين ،

قال : أنت إذن أكبر من أبيك يوم مات

المجنون حتى يعقل !

جاء إلى الفقيه ابن عقيل[1] أحد الموسوسين وقال :

(١) أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل (٤٣١ هـ - ٥١٣هـ/ ١٠٤٠-١١١٩) من بغداد ، العراق . شيخ الحنابلة ، امام علامة ، وصاحب تصانيف . من كبار الأئمة . قال ابن الجوزي فيه : هو فريد فنه ، وإمام عصره ، كان حسن الصورة ، ظاهر المحاسن وقال ابن الجوزي : كان ابن عقيل دينا ، حافظا للحدود ، توفي له ابنان ، فظهر منه من الصبر ما يتعجب منه ، وكان كريما ينفق ما يجد ، وما خلف سوى كتبه وثياب بدنه ، وكانت بمقدار ، توفي بكرة الجمعة ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة وكان الجمع يفوت الإحصاء ، قال ابن ناصر شيخنا : حزرتهم بثلاث مائة ألف .

إني أنغـمس في الماء مـرات كـثـيـرة ، ومع ذلـك أشك هل تطهـرت أم لا . . فـمـا رأيك في ذلك ؟

فقال ابن عقيل :

اذهب فقد سقطت عنك الصلاة .

فتعجب الرجل وقال :

وكيف ذلك ؟

قال ابن عقيل :

قـال النبي ﷺ : (رفع القلم عن ثلاث : المجنون . .) ومن ينغـمس في الماء مـرات كثيرة مثلك ويشك هل تطهر أم لا ، فهو بلا شك مجنون!

أفضل الأحاديث

لزم أعرابي سفيان بن عيينه[1] مدة يسمع منه الحديث ، ولما همّ بالانصراف قال له سفيان : يا أعرابي . . ما أعجبك من حديثنا ؟

قـال ثلاثة أحـاديث : حـديث عـائشـة رضي الله عنهـا عن النبي ﷺ أنه يحب الحلوى والعسل . وحديثه عليه الصلاة والسلام : إذا وضع العَشاء وحضرت العِشاء فأبدأوا بالعَشاء . وحديثها عنه أيضاً : ليس من البر الصوم في السفر .

اذكر اسم الله

نزل أعرابي ضيفاً على آخر فقدم له خبزاً وملحاً يأكلهما . ولما أكل سأله :

أشبعت يارجل ؟

فقال : لا لم أشبع !

فقال له الأعرابي المضيف : كيف تشبع وأنت لم تذكر اسم الله قبل أن تأكل !

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مزاحم الهلالي إمام ومحدث شهير وعرف بالزهد والورع . وقد ولد في الكوفة سنة ١٠٧ هـ وتوفي ١٩٨ هـ . أجمع الناس على صحة حديثه وروايته . طلب العلم وهو غلام وروى الحديث عن الكبار ومنهم : الزهري وأبي اسحق السبيعي وعمرو بن دينار ومحمد بن المكندر وأبي الزناد وعاصم بن أبي النجود المقري والأعمش وعبد الملك بن عمير وغيرهم .

فقال : وكيف أذكر اسم الله على خبزك اليابس وملحك الخبيث؟!

رأيتك وأنت صغير

وقف أعرابي ذات يوم على قمة جبل عالٍ ، ونظر إلى أسفل فرأى رجلاً من هذا الارتفاع الشاهق ، وبدا كأنه طفل صغير ، فسارع إلى النزول ، ولم يكن الرجل قد ذهب بعيداً ، فلحق به وصافحه بحرارة ، فتعجب الرجل وقال له : أتعرفني ؟! فرد عليه الأعرابي : نعم . . لقد رأيتك وأنت صغير .

أمنية شحاذ

سئل أحد الشحاذين : ماذا تتمنى ؟

قال : أتمنى أن أقعد يوم القيامة بين الجنة والنار ، وكل من ينطلق إلى الجنة أطلب منه حسنة ، فيعطيني عرفاناً بفضل الله عليه ، ومن ينطلق إلى النار أطلب منه حسنة ، فيعطيني ليحسبها الله بعشر أمثالها فيخف عذابه !

كل امرئ سكينه في رأسه !

قعد أعرابي على مائدة المغيرة بن شعبة(١) . فراح ينهش جدياً مشوياً موضوعاً أمامه .

فصاح المغيرة : يا غلام ناوله سكيناً

فقال الأعرابي : كل امرئ سكينه في رأسه !

---

(١) أبو عبد الله هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي (. ـ ٥٠ هـ) ولد في ثقيف بالطائف ، وبها نشأ ، وكان كثير الأسفار ، أسلم عام الخندق بعدما قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك وفدوا معه على المقوقس في مصر ، وأخذ أموالهم ، فغرم دياتهم عمه عروة بن مسعود . لُقب أبو عيسى ، ويقال : أبو عبد الله . من دهاةالعرب وذوي آرائها وهو من كبار الصحابة أولي الشجاعة والمكيدة والدهاء ، كان ضخم القامة ، عَبل الذراعين ، بعيد ما بين المنكبين ، أصهب الشعر جعده ، وكان لا يفرقه .

قال عنه الطبري : كان لا يقع في أمر إلا وجد له مخرجاً ولا يلتبس عليه أمران إلا أظهر الرأي في أحدهما وقال عنه الحافظ الذهبي : «من كبار الصحابة ، أولي الشجاعة والمكيدة ، شهد بيعة الرضوان ، كان رجلا طِوالاً ، مهيبا ، ذهبت عينه يوم اليرموك ، وقيل : يوم القادسية .

المجنون وأبو حنيفة

دخل أعرابي مجنون يوماً إلى الحمام العمومي ، وكان بغير مئزر ، فرآه أبو حنيفة وكان جالساً يتبخر في الحمام ، فأغمض عينيه

فقال له المجنون : متى أعماك الله ياشيخنا ؟

قال أبو حنيفة : حين هتك الله سترك !

كثرة العيال

قيل لأعرابي وقد رأوه مغتماً : ماذا بك . . لم نرك هكذا ؟

فقال : سوء الحال وكثرة العيال .

فقيل له : لا تغتم . . فإنهم عيال !

فقال : صدقتم . . ولكني كنت أحب أن يكون الوكيل عليهم غيري!

لا تصم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك

جاء أعرابي إلى فقيه ، وقال له :أفطرت يوماً في رمضان .

فقال الفقيه : اقضِ يوماً مكانه .

قال : قضيت وأتيت أهلي ، وقد طبخوا عصيدة ، فسبقتني يدي إليها ، وأكلت منها .

فقال الفقيه :اقض يوماً آخر مكانه .

قال : قضيت وأتيت أهلي ، وقد طبخوا هريسة ، فسبقتني يدي إليها ، وأكلت منها .

فقال الفقيه : أرى أن لا تصم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك .

الفيل والبقرة

صلى أعرابي خلف إمام ، فقرأ الإمام سورة البقرة ، وكان الأعرابي في عجلة من أمره ففاته مقصوده . ولما كان من الغد ، بكر الأعرابي وذهب إلى المسجد ليصلي ثم يمضي إلى مقصوده ، فإذا بالإمام يقرأ بعد الفاتحة سورة الفيل ، فقطع الصلاة وولى وهو يقول : بالأمس قرأت البقرة ولم تفرغ منها إلا نصف النهار ، واليوم تقرأ الفيل ولا أظنك تفرغ منها قبل منتصف الليل

بال في بئر زمزم

روى الإمام ابن الجوزي[1] حادثة وقعت أثناء الحج في زمانه ؛ إذ بينما الحجاج يطوفون بالكعبة ويغرفون الماء من بئر زمزم قام أعرابي فحسر عن ثوبه ، ثم بال في البئر والناس ينظرون ، فما كان من الحجاج إلا أن انهالوا عليه بالضرب حتى كاد يموت ، وخلّصه الحرس منهم ، وجاؤوا به إلى والي مكة ، فقال له : قبّحك الله ، لِمَ فعلت هذا؟ قال الأعرابي : حتى يعرفني الناس ، يقولون : هذا فلان الذي بال في بئر زمزم!!

قسمة أعرابي

قدم أعرابي من أهل البادية على رجل من أهل الحضر ، وكان عنده دجاج كثير وله امرأه وابنان وابنتان فقال الأعرابي لزوجته : اشوي لي دجاجة وقدميها لنا نتغدى بها .

فلما حضر الغداء جلسنا جميعا ، أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والأعرابي ، فدفعنا إليه الدجاجة ، فقلنا له : اقسمها بيننا ، نريد بذلك أن نضحك منه .

قال : لا أحسن القسمة ، فإن رضيتم بقسمتي قسمت بينكم .

قلنا : فإنا نرضى بقسمتك .

فأخذ الدجاجة وقطع رأسها ثم ناولنيه ، وقال الرأس للرئيس ، ثم قطع الجناحين وقال : والجناحان للابنين ، ثم قطع الساقين فقال : الساقان للابنتين ، ثم قطع الزمكي وقال : العجز للعجوز ، ثم قال : الزور للزائر ، فأخذ الدجاجة بأسرها !

فلما كان من الغد قلت لامرأتي اشوي لنا خمس دجاجات . فلما حضر الغداء قلنا : أقسم بيننا .

قال أضنكم غضبتم من قسمتي أمس .

(١) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بنمحمد القرشي التيمي البكري . فقيه حنبلي محدث ومؤرخ ومتكلم (٥١٠هـ/١١١٦م – ١٢ رمضان٥٩٧ هـ) ولد وتوفي في بغداد . حظي بشهرة واسعة ، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف ، كما برز في كثير من العلوم والفنون . يعود نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق . عرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره بواسط ، ولم تكن بالبلدة شجرة جوز سواها ، وقيل : نسبة إلى «فرضة الجوز» وهي مرفأ نهر البصرة .

قلنا : لا ، لم نغضب ، فاقسم بيننا .
فقال : شفعا أو وترا ؟
قلنا : وترا .
قال : نعم . أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ، ورمى بدجاجة ،
ثم قال : وابناك ودجاجة ثلاثة ، ورمى الثانية .
ثم قال : وابنتاك ودجاجة ثلاثة ، ورمى الثالثة .
ثم قال وأنا ودجاجتان ثلاثة . فأخذ الدجاجتين ، فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتية ، فقال : ما تنظرون ، لعلكم كرهتم قسمتي ؟ الوتر ما تجيء إلا هكذا .
قلنا : فاقسمها شفعا .
فقبض الخمس الدجاجات إليه ثم قال : أنت وابناك ودجاجة أربعة ، ورمى إلينا دجاجة .
والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة ، ورمى إليهن بدجاجة .
ثم قال : وأنا وثلاث دجاجات أربعة ، وضم إليه ثلاث دجاجات .
ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : الحمد لله ، أنت فهمتها لي !

وفاء

كان الحارث بن عباد فيِ حرب ، وأراد ان يظفر بعدي بن ابي ربيعة ليثأر منه ، وبينما هو في الحرب أسر رجلاً ، فطلب منه أن يدله على عدي بن ابي ربيعة ، فقال له الاسير أتطلقني مِن أسري ان دللتك عليه؟ قال : نعم ، فقال أنا عدي بن أبي ربيعة!
فأطلقه وفاءَ لوعده

أخاف أن يدركه الخشوع فيسجد !

كان رجل في دار بأجرة وكان خشب السقف قديماً بالياً
فكان يتفرقع كثيراً
فلما جاء صاحب الدار يطالبه الأجرة
قال له : أصلح هذا السقف فإنه يتفرقع
قال : لا تخف ولا بأس عليك فإنه يسبح الله
فقال له : أخشى أن يدركه الخشوع فيسجد

الموت خير لمن لا خير فيه

قيل لحكيم : أي الأشياء خير للمرء؟
قال : عقل يعيش به
قيل : فإن لم يكن
قال : فإخوان يسترون عليه
قيل : فإن لم يكن
قال : فمال يتحبب به إلى الناس
قيل : فإن لم يكن
قال : فأدب يتحلى به
قيل : فإن لم يكن
قال : فصمت يسلم به
قيل : فإن لم يكن
قال : فموت يريح منه العباد والبلاد

إصلاح العيب

اشترى أعرابي غلاماً ، فقالوا له :إنا نبرأ إليك من عيب فيه .
قال :ما هو ؟ قالوا :يبول في الفراش
قال : إن وجد فراشاً فليفعل

الأعراب والقرآن

صلى أعرابي خلف إمام فقرأ (إنا ارسلنا نوحاً إلى قومه) ثم وقف وجعل يرددها فقال الأعرابي : أرسل غيره يرحمك الله ، وارحنا وأرح نفسك .

ظننت أنك قد شككت في ربك فثبتك!

صلى الدلال يوما خلف الإمام بمكة فقرأ ((وما لي لا أعبدُ الذي فطرني وإليه تُرجعون)) فقال الدلال : لا أدري والله! فضحك أكثر الناس وقطعوا الصلاة فلما قضى الوالي صلاته دعا به وقال له : ويلك . ألا تدعُ هذا المجون والسفه !

فقال له : قد كان عندي أنك تعبد الله ، فلما سمعتك تستفهم ، ظننت أنك قد شككت في ربك فثبتك .

فقال له : أنا شككت في ربي وأنت ثبتني! اذهب لعنك الله ولا تعاود فأبالغ والله في عقوبتك

خمس سور

وقف أعرابي يسأل ، فقال له رجل : يا أعرابي هل لك في خير مما تطلب؟

قال : ماهو؟

فقال : اعلمك سورة من القرآن

فقال : لا والله إني لأحسن ما إن علمت لكفاني ،أحسن منه خمس سور ، فاستقراه فقرأ : الحمد ، والكوثر . وسكت

فقال الإمام : هذه اثنتان اين الثلاثة سور؟

قال : أني وهبتها لابن عمي وعلمته إياها ، ولا والله لا ارجع في شيء وهبته ابدا .

الغاشية

وسرق أعرابي غاشية من على سرج ثم دخل المسجد يصلي فقرأ الامام : هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ فقال : يا فقيه لا تدخل في الفضول ، فلما قرأ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ قال : خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهي لا بارك الله لكم فيها ثم رماها من يده وخرج .

كلهم أعداؤنا

مر بعضهم بقارئ يقرأ «الم غلبت الترك في أدنى الأرض» فقال له «الروم» .

فقال له : كلهم أعداؤنا قاتلهم الله .

سورة الحمد

كان جماعة يجلسون إلى أبي العيناء[1] وفيهم رجل لا يتكلم فقيل له يوما :

(١) أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد المتوفى سنة ٢٨٢ .

كيف علمك بكتاب الله؟ قال : أنا عالم به ، فقيل له هذه الآية في أي سورة «الحمد لله لا شريك له» فقال له : في سورة الحمد ، فضحكوا عليه .

الأعراب أشد كفرا ونفاقا

جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يد زيد قد قطعت في معركة القادسية فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني

(يلمح إلى أنها قطعت في السرقة) فقال زيد : وما يريبك من يدي ، إنها الشمال؟ فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال؟

فقال زيد بن صوحان : صدق الله : الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله

عقلك الله

خرج رجل ينظر الحسن بن علي بن أبي طالب فلقي رجلا ، فقال له :
ما اسمك؟
قال : عقال .
قال : ابن من؟
قال ابن عقيل .
قال : من بني من؟
قال : من بني عقيل .
قال عقلته عقلك الله .

قيلولة

قال إبراهيم بن السّنديّ(١) : نظر رجل من قريش إلى صاحب له قد نام في غداة من غدوات الصّيف طيّبة النسيم ، فركضه برجله وقال : مالك تنام عن الدّنيا في أطيب وقتها ، ثم عنها في أخبث حالاتها ، ثم في نصف النهار لبعدك عن الليلة

(١) إبراهيم بن السنديّ بن بهرام ، من أصفهان ، محدّث ثقة ، روى عنه أهل الحديث .

الماضية والآتية ، ولأنها راحة لما قبلها من التّعب ، وجمام لما بعدها من العمل ، نمت في وقت الحوائج ، وتنبّهت في وقت رجوع الناس ، وقد جاء : «قيلوا فإنّ الشّياطين لا تقيل» .

أفضل آية

قيل لأعرابي : أي سورة تعجبك من القرآن؟

قال : المائدة .

قال : فأي آية؟

قال : ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا .

قيل : ثم ماذا؟ .

قال : آتنا غَداءَنا .

قيل : ثم ماذا؟

قال : ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ .

قيل : ثم ماذا؟

قال : وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ .

أخطب العرب

قال الهيثم بن عديّ[1] : قال عمران بن حطّان[2] : إن أول

(١) الهيثم بن عدي ابن عبد الرحمن بن زيد بن اسيد بن جابر الأخباري العلامة أبو عبد الرحمن الطائي الكوفي المؤرخ حدث عن هشام بن عروة ومجالد وابن أبي ليلى وسعيد ابن أبي عروبة وجماعة روى عنه محمد بن سعد وأبو الجهم الباهلي وعلي بن عمرو الأنصاري وأحمد بن عبيد أبو عصيدة وآخرون وهو من بابة الواقدي وقل ما روى من المسند قال علي بن المديني هو عندي أصلح من الواقدي قال عباس الدوري حدثنا بعض أصحابنا قال قالت جارية الهيثم بن عدي كان مولاي يقوم عامة الليل يصلي فإذا أصبح يكذب وقال ابن معين وأبو داود كذاب وقال البخاري سكتوا عنه وقال النسائي وغيره متروك الحديث قلت توفي بفم الصلح في سنة سبع ومئتين وله ثلاث وتسعون سنة .

(٢) هو أبو سماك عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي الشيباني الوائلي . نشأ بالبصرة ، وطلب العلم والحديث ، ثم اعتنق المذهب الخارجي ، وتعمق فيه حتى صار رأس القعدة (الذين يجيزون القعود في الحرب) .

خطبة خطبتها ، عند زياد- أو عند ابن زياد- فأعجب بها الناس ، وشهدها عمي وأبي . ثم إني مررت ببعض المجالس ، فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن

مفاخرة

قال رجل مرة : «أبي الذي قاد الجيوش ، وفتح الفتوح ، وخرج على الملوك ، واغتصب المنابر» فقال له رجل من القوم : لا جرم ، لقد أسر وقتل وصلب!

فقال له المفتخر بأبيه : دعني من أسر أبي وقتله وصلبه ، أبوك أنت حدث نفسه بشيء من هذا قط؟

شكوى

قيل لأعرابي في شكاته : كيف تجدك؟

قال : «أجدني أجد ما لا أشتهي وأشتهي ما لا أجد ، وأنا في زمان من جاد لم يجد ، ومن وجد لم يجد» .

بين سائل وأعرابي

سأل مسكين أعرابيا أن يعطيه حاجة . .

فقال : ليس عندي ما أعطيه للغير فالذي عندي أنا أحق الناس به

فقال السائل : أين الذين يؤثرون على أنفسهم؟

فقال الأعرابي : ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافاً .

تقوى أعرابي

كان أعرابي يصلي فأخذ قوم يمدحونه ويصفونه بالصلاح

فقطع صلاته وقال : مع هذا إني صائم !

الغلام والشاة

قال أبو الحسن : كان لرجل من النساك شاة ، وكان معجبا بها ، فجاء يوما فوجدها على ثلاث قوائم فقال : من صنع هذا بالشاة؟ قال غلامه : أنا .

قال : ولم؟ قال : أردت أن أغمك

قال : لا جرم لأغمن الذي أمرك بغمي ، اذهب فأنت حر

ما كان ولم يكن

قيل لأعرابي : أتحفظ ((لم يكن)) ؟

قال : أنا لا أحفظ ما كان ، فكيف أحفظ ما لم يكن ؟

ما ذنب الذين معك ؟

«صلّى أعرابي مع قومٍ فقرأ الإمام : ﴿قلْ أرأيتُم إن أهلكني اللهُ ومن معي أو رحمنا﴾ .

فقال الأعرابي : أهلكك اللهُ وحدَكَ إيش[1] كان ذنب الذين معك !

فقطعَ القومُ الصلاةَ من شدّة الضحك» .

**

صلى أعرابي خلف إمام فقرأ (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي) يرددها

فقال الأعرابي : يافقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل فهل نبيت نحن وقوفاً إلى الصباح ؟؟ ثم تركه وانصرف

**

صلّى أعرابي خلف إمام ، فقرأ الإمام : (ألم نُهلِكِ الأولين) وكان في الصف الأول فتأخر إلى الصف الآخر

فقرأ : (ثم نُتْبِعُهُم الآخرين) ، فتأخر

فقرأ : (كذلك نفعل بالمجرمين) وكان اسم البدوي مجرماً

فترك الصلاة وخرج هارباً وهو يقول : والله ما المطلوب غيري !!

فلقيه بعض الأعراب فقالوا له : ما لك يا مجرم ؟ فقال : إن الإمام أهْلَكَ الأولين والآخرين ، وأراد أن يُهلِكني في الجُملة ، والله ما رأيتُه بعد اليوم لعنة الله عليه !!

(١) أيش : نحتٌ من أيّ شيء ، والهمزة جاءت من أسفل لتخفيف اللفظ توافقاً مع الياء .

باعد ثواب الشاكرين عني

أخذ الحجاج أعرابيا لصاً ، فضربه سبعمائة سوط ،فكلما قرعه بسوط قال الأعرابي : اللهم شكراً .

فأتاه ابن عم له فقال : والله ما دعا الحجاج الى التمادي في ضربك الا كثرة شكرك لأن الله يقول : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ .

فقال الأعرابي : هل هذا في كتاب الله؟

فقال : اللهم نعم .

فأنشأ الأعرابي قائلاً :

يارب لا شكر فلا تزدني

أسرفت في شكرك فاعف عني

باعد ثواب الشاكرين مني

فقه أعرابيّ

«وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق»

سمعها أعرابي فبكى وقال : أغضبوه بأفعالهم حتى اقسم لهم أن رزقهم عنده وليس عند الخلق .

الأعراب والطعام

امتنع أعرابي من غسل يده بعد الطعام ، فسئل عنه

فقال : فقد رائحته كفقده

جعلت عصيدة بين يدي أعرابي وكانت قليلة الحلاوة ، فقال :

عملت هذا العصيدة من قبل أن يوحي ربك إلى النحل .

**

قيل لأعرابي : ماذا تُسَمُّون الـمَرَق عندكم؟

قال : السَّخين .

فقيل له : فماذا تسمونه إذا بَرَدَ؟

قال : لا ندعُهُ حتى يبرُد .

**

قيل لأعرابي : كل
قال : ما بي أكل ، لأني أكلت قليل أرز فأكثرت منه .

**

نظر أعرابي إلى جنازة والناس يقولون : كان سبب موته التخمة .
فقال : وما التخمة؟
قيل له : أكل كثيراً فمات
فقال : اللهم اجعل سبب موتي من التخمة

**

أكل أعرابي عند قوم فلما أراد الخروج قيل له : هل تعود إلينا؟
فقال : ليس مثل السوء لي ، ولكن الكلب لا يدع حائطًا شبع منه

**

قيل لأعرابي : أما تتأذى برائحة الودك(*) ؟
قال : فقدي له أشد أذى .

كان أعرابي يقول في دعائه (اللهم اني أسألك موتة كموتة ابي خارجة ، أكل لحم جمل ، وشرب شراب عسل ، ونام في الشمس فمات شبعان دفآن) .

فمن يشابه أمه فما ظلم

لقي مزيد رجلا كان صديقا لأبيه فقال : يا بني كان أبوك عظيم اللحية ، فما بالك أجرد؟

فقال مزيد : خرجت لأمي .

بعته برأس ماله

حكي أن رجلا سرق قميصا فأعطاه إلى ولده ليبيعه في السوق . فلما ذهب الولد الى السوق سرق منه القميص .

فسأله أبوه : بكم بعته يا بني ؟

فقال : الولد برأس ماله .

(*) الودك / دسم اللحم ودهنه .

تسعين أو سبعين ؟

خرج رجل الى قرية فأضافه خطيبها فأقام عنده أياما .

فقال له الخطيب يوماً : أنا منذ مدة أصلي لهؤلاء القوم وقد أشكل علي في القرآن بعض المواضع .

فقال الضيف : سلني عنها .

فقال الخطيب : قوله تعالى الحمد لله رب العالمين . . إياك نعبد وإياك تسعين أو سبعين ؟

أشكلت علي ولكني أقرأها تسعين من باب الاحتياط .

أجوبة الأعراب

سأل أعرابي رجلًا فاعتلّ عليه

فقال : إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقًا

**

سأل أعرابي آخر عن اسمه فقال : بحر

فقال ابن من ؟

قال ابن فياض

قال ما كنيتك ؟ قال ابو الندى

فقال الأعرابي : لا ينبغي لأحد لقاؤك الا في زورق

**

وقيل لأعرابي : لمَ لا تشرب الخمرة ؟

فقال : والله ما أرضى عقلي مجمّعًا ، فكيف أفرقه ؟

**

اغتاب أعرابي رجلًا ، ثم التفت فرآه

فقال : لو كان خيرًا ما حضرتهَ

**

قيل لأعرابي : أفيكم زنًا ؟

قال : بالحرائر ؟! ذاك عند الله عظيم ، ولكن مساعاة بهذه الإماء .

تصنيف الحيوانات بحسب طرق الولادة

قال أعرابي : يجمع ذلك كله كلمتان : «كل أذون ولود ، وكل صموخ بيوض» .

الأعرابي والمرآة

مر أعرابي بمرآة ملقاة في مزبلة ، فنظر وجهه فيها ، فاذا هو سمج بغيض ، فرمى بها وقال : ما طرحك أهلك من خير .

صاحب الحاجة

طلب أعرابي من ثري بخيل حاجة فلم يقضها له .
فقال الأعرابي : لعن الله ناقة حملتني اليك .
فقال الثري البخيل : نعم ، وصاحبها

مسلمة وموسوس

مر مسلمة بن عبد الملك[1] ، وكان من أجمل الناس ، بموسوس على مزبلة ؛ فقال الموسوس : لو رآك أبوك آدم لقرّت عينه بك .

قال له مسلمة : لو رآك أبوك آدم لأذهب سخنة عينه بك قرة عينه بي . وكان مسلمة من أحضر الناس جوابا .

لص مثلك

حدّث أحدهم قال : أتاني أعرابي بدرهم فقلت له : هذا زائف فمن أعطاكه؟
قال : لصٌّ مثلك ! .

---

(١) مسلمة بن عبد الملك الملقب بفارس بني مروان وب الجرادة الصفراء (مواليد سنة ٦٦هـ /٦٨٥م) أمير من بني أمية ، والده عبد الملك بن مروان ، وأمه من الجواري . نشأ وترعرع في ظروف مهمة حتى تستكمل متطلبات شخصيته الفكرية والإدارية والسياسية والعسكرية . فمسلمة من بيت السلطة ، بني أمية ، وأهله أمراء وقادة وخلفاء ، نشأ في دمشق عاصمة الخلافة الأموية ، فتعلم القرآن الكريم ، ورواية الحديث النبوي الشريف ، وأتقن علوم اللغة العربية وفنون الأدب ، وتدرب على ركوب الخيل والفروسية والسباحة والرمي بالنبال ، والضرب بالسيف ، والطعن بالسنان ، وتلقى علومه وتدرب في حياة وكنف والده عبد الملك بن مروان .

مدح أم هجاء ؟

حكى الأصمعي قال : كنتُ أسير في أحد شوارع الكوفة فاذا بأعرابي يحمل قطعةً من القماش ، فسألني أن أدلّه على خياط قريب . فأخذته إلى خياط يُدعى زيداً ، وكان أعور ، فقال الخياط : والله لأُخيطنّه خياطةً لا تدري أقباء هو أم دراج ، فقال الأعرابي : والله لأقولن فيك شعراً لا تدري أمدحٌ هو أم هجاء .

فلما أتم الخياط الثوب أخذه الأعرابي ولم يعرف هل يلبسه على انه قباء أو دراج! فقال في الخياط هذا الشعر :

خَاطَ لي زَيْدٌ قبَاء ليتَ عينيه سِوَاء

فلم يدرِ الخياطَ أدُعاءٌ له أم دعاءٌ عليه .

البنت والابن

قال ابو المجسر الأعرابي : كانت لي بنت تجلس معي على المائدة فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصّتني بها ، فكبرت وزوجتها ، وصرت أجلس إلى المائدة مع ابن لي ، فو الله لن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إلي .

العلامة

مر أحدهم بأعرابي وهو يحفر في الرمل

فقال له : لأي شيء تحفر هنا؟

قال الأعرابي : إني دفنت في هذه الصحراء دراهماً ولست اهتدي الى مكانها . .

فقال له : كان ينبغي أن تجعل لها علامة

قال الأعرابي : لقد فعلت فقال السائل وما هي العلامة؟

قال الأعرابي : سحابة في السماء كانت تظلها ولست ادري موضع العلامة الآن .

صاحب اللجام

حضر أعرابي سباق خيل فسبقت فرس من بينها

فجعل الأعرابي يكبر ويثب من الفرح ،

فقال له رجل بجانبه : يا أعرابي أهذه الفرس لك؟

فقال : لا ولكن اللجام لي . .

تعددت الأسماء والثمن بخس

يحكى أن أعرابيا صاد قطًا ولم يكن يعرفه من قبل . فسأله الأول :ما هذا السِّنَّوْر؟
سأله الثاني : ما هذا القط؟
والثالث : ما هذا الهر؟
والرابع : ما هذا الضَّيون؟
والخامس : ما هذا الحيطل؟
فمنَّ الأعرابي نفسه بربح طائِل من ورائه ، وما عتّم أن قال بعد أن خاب أمله : لعنة الله عليه ما أكثر أسماءَه وأقل ثمنه ! .

أسود وأصلع

وقال شداد الحارثي : لقيت أسود بالبادية فقلت : لمن أنت يا أسود؟
قال : لسيد الحي يا أصلع!
قلت : ما أغضبك من الحق؟
قال لي : الحق أغضبك .
قلت : أولست بأسود؟
قال : أولست بأصلع .

مجيء رمضان

قيل لبعض الأعراب :إن شهر رمضان قدم
فقال : والله لأبددن شمله بالأسفار

قياس

أهدي إلى سالم القصاص خاتم بلا فص
فقال : إن صاحب هذا الخاتم يعطى في الجنة غرفة بلا سقف .

حسن الخاتمة

قال الأصمعي : رأيت أعرابيا متعلقا بأستار الكعبة وهو يدعو : اللهم أمتني ميتة أبي خارجة

فقلت له : يرحمك الله كيف مات أبو خارجة؟

قال : أكل حتى امتلأ بطنه ثم شرب حتى ارتوى ثم نام في الشمس فمات شبعان ريان دفيان

عن الإنس لا الجن

سُئل المهلّب عن أشجع الناس فقال : فلان وفلان

فقيل : أين ابن الزبير ، ابن خازم السلمي؟

فقال : إنما سُئلت عن الإنس ولم أسأل عن الجن! .

قتيل في السجن

أُدخل مالك بن أسماء السجن ، سجن الكوفة ؛ فجلس إليه رجل من بني مرة فاتكأ عليه المري يحدثه ؛ ثم قال : أندري كم قتلنا منكم في الجاهلية؟

قال : أما في الجاهلية فلا ، ولكن أعرف من قتلتم منا في الإسلام!

قال : ومن قتلنا منكم في الإسلام!

قال : أنا ، قد قتلتني بنتن إبطيك!

لا يقطع

قسم معن بن زائدة[١] سلاحًا في جيشه ، فدفع إلى رجل سيفًا رديئًا .

فقال الرجل : أعطني غيره .

(١) معن بن زائدة أمير العرب أبو الوليد الشيباني ، من أكرم وأجود الناس . كان من أمراء متولي العراقين يزيد بن عمر بن هبيرة ، فلما تملك آل العباس جَدَّ المنصورُ في طلبه ، وجعل لمن يحمله إليه مالاً . فاضطرر لشدّة الطلب إلى أن تعرّض للشمس حتى لوحت وجهه ، وخَفَّفت عارضه ، ولبس جبّة صوف ، وركب جملاً ، وخرج متوجهًا إلى البادية ليقيم بها ، فاختفى معن مدة ، والطلب عليه حثيث ، فلما كان يوم خروج الريوندية والخراسانية على المنصور ، وحمي القتال ، وحار المنصور في أمره ، ظهر معن ، وقاتل الريوندية فكان النصر على يده ، وهو مقنع في الحديد ، فقال المنصور : ويحك ، من تكون ؟ فكشف لثامه ، وقال : أنا طلبتك معن . فسر به ، وقدمه وعظمه ، ثم ولاه اليمن وغيرها . ولمعن أخبار في السخاء ، وفي البأس والشجاعة ، وله نظم جيد .

قال : خذه فإنه مأمور .

فقال : هو مما أُمر أن لا يقطع أبدًا

وطن الأعرابي

قال أعرابي : إنّ الوطن ليس بأب ولا والد ولا أم مُرضع ، فأي بلد طاب فيه عيشك ، وحَسنت فيه حالك ، فاحطط به رحلك ، فهو وطنك وأبوك وأمك ورحلك .

من غناء أشعب[1]

ألا أُخبرتُ أخبارا أتت في زمن الشدة
وكان الحبُ في القلب فصار الحب في المعدة

**

قيل لأشعب : ما أحسنُ الغناء ؟

قال : نشيش المقلى !

قيل له : فما اطيب الزمان ؟

قال : إذا كان عندك ماتنفق!

**

ساوم أشعب بقوس ، فقيل له : هي بدينار

فقال : والله لو كنت إذا رميت عنها الطائر سقط مشويًا بين رغيفين ما اشتريتها بدينار .

أشعب والدينار

قال الواقديّ : لقيت أشعب يوماً ، فقال : وجدت ديناراً ، فكيف أصنع به؟

قلت : تعرفه

قال : سبحان الله!

قلت : فما الرأي؟

قال : أشتري به قميصاً وأعرفه

(١) شعيب بن جبير ، وقد ولد في سنة تسع من الهجرة ، وكان أبوه من مماليك عثمان بن عفان ، وقد عمر أشعب حتى أيام خلافة المهدي .

قلت : إذن لا يعرفه أحدٌ
قال : فذلك أريد .

مات الدينار !

وجدت امرأة أشعب ديناراً فأتته به ، فقال : ادفعيه إلي حتى يلد لك في كل أسبوع درهمين ، فدفعته إليه ، فصار يدفع إليها في كل أسبوع درهمين ؛ فلما كان في الأسبوع الرابع طلبته منه ، فقال لها : مات في النفاس ، فقالت : ويلي عليك ! كيف يموت الدينار ؟

فقال لها : الويل لك على أهلك ! كيف تصدقين بولادته وتنكرين موته في نفاسه .

من أخبار أشعب

قال الهيثم بن عدي : كان أشعب مولى فاطمة بنت الحسين[١] ، فأسلمته في البزّازين ، فقيل له : أين بلغت معرفتك بالبزّ؟ فقال : أحسن النشر ، وما أحسن أطوي ، وأرجو أن أتعلّم الطيّ .

وليمة عرس

يروى أن أشعب أراد أن يتخلص من صحب له كان دعاهم لطعام عنده فلما وصلوا عند داره قال لهم : اذهبوا إلى بيت فلان فإن عندهم وليمة عرس .

فذهب القوم كلهم فلما بقي وحده قال لنفسه : ماذا لو كان فعلا هنالك وليمة .

فذهب مسرعا كي لا يسبقه أصحابه إلى تلك الدار .

أشعب وأمه

قال أشعب : تعلقْتُ بأستار الكعبة فقلت :

(١) فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي (٤٠ هـ-١١٠ هـ) هي فاطمة الكبرى تابعية من رواة الحديث ، روت عن جدتها فاطمة الزهراء بنتمحمد بن عبد الله رسول الإسلام ، وعن أبيها الحسين بن علي بن أبي طالب وغيرهما . وبروايتها الحديث تعتبر شخصية إسلامية ودينية .

اللهم أذهب عني الحرص والطَّلب إلى الناس ،
فمررْتُ بالقرشيين وغيرهم فلم يعطني أحد شيئاً .
فجِئْتُ إلى أمي ، فقالت : مالك قد جئت خائباً ؟
فأَخبرتها بذلك ،
فقالت : والله لا تدخلُ حتى ترجعَ فتسْتَقيلَ ربك
فرجعْتُ فجعلْتُ أقول : يا رب أقِلْني ، ثم رجعت ،
فما مررْتُ بمجلس لقريش ولا غيرهم إلا أعطوني ،
ووُهِبَ لي غلام ، فَجِئْتُ إلى أمي بجِمَال موقورة من كل شيء . .
فقالت : ما هذا الغلام ؟
فخفْتُ أن أُخْبرَها فتموتَ فَرَحاً إن قلتُ : وهبوه لي .
فقالت : أي شيء هذا ؟
فقلت : غين .
قالت : أي شيء غين ؟
قلت : لام .
قالت : أي شيء لام ؟
قلت : ألف .
قالت : وأي شيء ألف ؟
قلت : ميم .
قالت : وأي ميم ؟
قلت : غلام ، فغُشي عليها .
ولو لم أقطع الحروف لماتت الفاسقة فرحاً .

أشعب والصيام

قال أشعب : دخلت على سالم بن عبدالله بن عمر(١) ، فقال : حمل إلينا

(١) هو سالم بن عبد الله بن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الإمام الزاهد ، الحافظ ، مفتي المدينة ، أبو عمر ، وأبو عبد الله ، ولد في خلافة عثمان . أمه أم ولد وهي ابنة يزدجرد بن شهريار وكان أهل المدينة يكرهون إتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم بنو الخالة : علي زين العابدين بن الحسين =

هريسة ، وأنا صائم ، فاقعد كل ، قال : فأمعنت .

فقال : ارفق فما بقي يحمل معك ، قال : فرجعت ، فقالت المرأة : يا مشؤوم بعث عبد الله بن عمرو بن عثمان يطلبك ، وقلت : إنك مريض ، قال : أحسنت ، فدخل حماماً وتمرج بدُهن وصُفرة ، قال : وعصبت رأسي ، وأخذت قصبة أتوكأ عليها وأتيته

فقال : أشعب ؟ قلت : نعم ، جعلت فداك ما قمت منذ شهرين ، قال : وعنده سالم ، ولم أشعر ، فقال : ويحك يا أشعب وغضب وخرج ، فقال عبدالله : ما غضب خالي سالم إلا من شيء ، فاعترفت له ، فضحك هو وجلساؤه ، ووهب لي ، فخرجت ، فإذا أشعب قد لقي سالماً ، فقال : ويحك ألم تأكل عندي الهريسة ؟ قلت : بلى ، فقال : والله لقد شككتني .

أشعب والزوجة

سئل أشعب عن اوصاف الزوجة المناسبة التي يتمناها لنفسة فقال : أريد المرأة التي تشبع اذا تجشأت في وجهها ، وتتخم إذا أكلت فخذ جرادة !

حيلة الدخول إلى العرس

قام بواب حفلة عرس بمنع أشعب من الدخول مع المدعوين .فابتعد أشعب عن المكان ليبحث عن حيله يدخل بها . . ثم عاد وهو يحمل فردة حذاء في يده ويعلق الأخرى في كمه ، وقد أمسك بخله طويلة ينظف بها أسنانه ثم اقترب من البواب على عجل وقال له : لقد أكلت في الفوج السابق ونسيت فردة حذائي في الداخل فهل من الممكن أن تتفضل وتحضرها لي؟ فقال البواب : إنني مشغول ادخل أنت واجلبها بنفسك فدخل أشعب فأكل ، وخرج

الثأر من الأسماك

بينما قوم جلوس عند رجل ثري يأكلون سمكا إذ استأذن عليهم أشعب فقال

= بن علي ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، ففاقوا أهل المدينة علما وتقى وعبادة وورعا ، فرغب الناس حينئذ في السراري .

من سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم ، كما كان كثير الحديث ، عاليا من الرجال ، ورع .

أحدهم : إن من عادة أشعب الجلوس إلى أعظم الطعام أفضله ، فخذوا كبار السمك واجعلوها في قصعة في ناحيته لئلا يأكلها أشعب ففعلوا ذلك ثم أذنوا له بالدخول وقالوا له : كيف تقول وما رأيك في السمك ؟

فقال : والله إني لأبغضه بغضا شديدا لأن أبي مات في البحر وأكله السمك

فقالوا : إذن هيا للأخذ بثأر أبيك !!!

فجلس إلى المائدة ومد يده إلى سمكة صغيرة من التي أبقوها بعد إخفاء الكبار ثم وضعها عند أذنه وراح ينظر إلى حيث القصعة التي فيها السمك الكبير – حيث لاحظ بذكاء ما دبر القوم – ثم قال : أتدرون ما تقول هذه السمكة ؟

قالوا لا ندري !

قال إنها تقول إنها صغيرة لم تحضر موت أبي ولم تشارك في التهامه

ثم قالت : عليك بتلك الأسماك الكبيرة التي في القصعة ، فهي التي أدركت أباك وأكلته فان ثأرك عندها ! .

قصة في حضرة الطعام

كان أشعب يقص على أحد الأمراء قصة بدأها بقوله : كان رجل . .

وفجأة أبصر المائدة قد حضرت فعلم أن القصة ستلهيه عن الطعام فسكت .

فقال له الأمير : وماذا يا أشعب ؟

فقال : ومات .

رمضان وأشعب

كان أشعب أشد الناس طمعاً ، وكان شرهاً مبطناً فدخل على أحد الولاة في أول يوم من رمضان يطلب الإفطار وجاءت المائدة وعليها جدي ، فأمعن فيه أشعب حتى ضاق الوالي وأراد الانتقام من ذلك الطامع الشره فقال له : اسمع يا أشعب إن أهل السجن سألوني أن أرسل إليهم من يصلي بهم في شهر رمضان ، فأمضِ إليهم وصلِّ بهم ، أغنم الثواب في هذا الشهر فقال أشعب وقد فطن إلى غرض الوالي منه : أيها الوالي لو أعفيتني من هذا نظير أن أحلف لك بالطلاق والعتاق إني لا أكل لحم الجدي ما عشت أبداً فضحك الوالي .

نصيحة

وقف أشعب على امرأة تعمل طبق خوص فقال : لتكبريه

فقالت : لم؟ أتريد أن تشتريه؟

قال : لا ، ولكن عسى أن يشتريه إنسان فيهدي إلي فيه ، فيكون كبيراً خير من أن يكون صغيراً .

طمع أشعب

قيل لأشعب : ما بلغ من طمعك ؟

قال : ما رأيت عروساً تزف إلا وظننتها لي ، ولا رأيت جنازة إلا وظننت أن صاحبها أوصى لي بشيء . ولقد أطاف بي مرة صبيان فنادوا : يا أشعب ! يا أشعب ! فأضجروني ، فدفعتهم عني بأن قلت لهم : دار فلان تهب ، فبادروا . فلما ولوا ظننت أني صادق ، فتبعتهم .

منام أشعب

وقال أشعب : رأيت في النوم كأني أحمل بدرةً ، فمن ثقلها أحدثت ، فانتبهت ، فرأيت الحدث ولم أر البدرة .

صلاة أشعب

صلّى أشعب ، فخفَّف الصلاة فقِيل له :

ما أخفَّ صلاتَك !

قال : إنه لم يُخالِطْها رِياء .

قطيفة أشعب

قال الأصمعي : حدثني إبراهيم بن القعقاع قال : رأيت أشعب بسوق المدينة ومعه قطيفة يبيعها ، وهو يقول : من يشتري مني الوصيدة ؟ فأتاه رجل يساومه . فقال : أبرأ إليك من عيب فيها . قال : وما هو ؟ قال : أخاف أن تخرق إن لبستها . فضحك ، واشتريت بثمن جديدة .

مؤذن رديء الصوت

مـر سكران بمؤذن رديء الحنجـرة ، فـجلد به الأرض وجـعل يدوس في بطنه ، واجتمع عليه الناس

فقال : مابي رداءة صوته ، ولكن شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين .

ذاك أبو بكر والخلفاء

نهى الثوري[1] عن القرب من المنبر ، فقيل : أليس يقال ادن واستمع؟

قال : ذاك لأبي بكر والخلفاء ، فأما هؤلاء فتباعد عنهم ،ولا تسمع كلامهم ، ولا ترَ وجوههم .

المقرف يعرف المقرف

قال سُليمان بن ربيعة لعمرو بن معدي كرب : فَرسُك هذا مُقرِف .

فقال له : المُقرف يعرف المُقرف

حسن التخلص

امتحن ابن أبي دوواد الحارث بن مسكين أيام المحنة ، فقال له : أشهد أنّ القرآن مخلوقٌ! فقال الحارث : أشهد أنّ هذه الأربعة مخلوقةٌ ، وبسط أصابعه الأربع ؛ وقال : التوراة والإنجيل والزّبور والفرقان ؛ فتخلّص .

صفة ثقيل

قال أحمد ابن أبي طاهر : قال أبو هفّان ، ووصف رجلاً

فقال : هو أثقل على القلوب من الموت على المعصية

(١) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الربابي التميمي من بني تميم ولد في عام(٩٧ هـ/ ١٦١هـ) كان أحد أئمة الإسلام يقول عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء «هو شيخ الإسلام ، إمام الحفاظ ، سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد مصنف كتاب الجامع . قال شعبة وابن عيينة وأبو عاصم ويحيى بن معين وغيرهم : سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث . وقال علي بن الحسن بن شقيق عن عبد الله قال : ما أعلم على الأرض أعلم من سفيان . وقال بشر الحافي : كان الثوري عندنا إمام الناس . وعنه قال : سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما .

بقرة بني إسرائيل

كان بالرقة رجل يحدّث بأخبار بني إسرائيل ، فقال له الحجاج بن حنتمة : كيف كان اسم بقرة بني إسرائيل؟ قال حنتمة! فقال له رجل من ولد أبي موسى الأشعري(١) : أين وجدت هذا؟ قال : في كتاب عمرو بن العاص(٢) .

قريش وقيس(٣)

سأل رجل من قريش رجلا من بني قيس بن ثعلبة : ممن أنت؟ قال : من ربيعة .

قال له القرشي : لا أثر لكم ببطحاء مكة .

قال القيسي : آثارنا في أكناف الجزيرة مشهورة ، ومواقفنا في يوم ذي قار معروفة ؛ فأما مكة فسواء العاكف فيه والباد كما قال الله تبارك وتعالى . فأفحمه .

أحوج الناس للطم

قال بكر بن عبد الله المزني(٤) : أحوجٌ الناس إلى لطمةٍ من دعي إلى وليمةٍ فذهب معه بآخر ؛ وأحوج الناس إلى لطمتين رجلٌ دخل دار قومٍ ، فقيل له : اجلس ههنا ، فقال : لا بل ههنا ؛ وأحوج النّاس إلى ثلاث لطماتٍ رجلٌ قدم إليه طعامٌ ، فقال : لا آكل حتى يجلس معي ربّ البيت .

---

(١) أبو موسى الأشعري صحابي جليل ، واسمه عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة ثم قدم مع أهل السفينتين ورسول الله ﷺ بخيبر .

(٢) عمرو بن العاص السهمي القرشي الكناني ابن سيد بني سهم من قريش العاص بن وائل السهمي ، فتح مصر وأصبح والياً عليها بعد أن عينه عمر بن الخطاب . وأبرز ما عرف عن عمرو بن العاص أنه كان أدهى دهاة العرب في عصره .

(٣) قبيلة جيس (قيس) قبيلة بدوية من «بني عامر بن صعصعة» من هوازن ، ويلقب أبناؤها (القيسي ، الجيسي) وجمعهم (الجيسات)

(٤) اسمه بكر بن عبد الله المزنى ، أبو عبد الله البصري كنيته أبو عبد الله ، يعتبر من الطبقة الثالثة من طبقات رواة الحديث النبوي التي تضم الوسطى التابعين ورتبته عند أهل الحديث وعلماء الجرح والتعديل وفي كتب علم التراجم يعتبر ثقة ثبت جليل .

العقل والشجاعة

وقعت على يزيد بن المهلّب[١] حيةٌ ، فلم يدفعها عنه
فقال له أبوه : ضيّعت العقل من حيث حفظت الشجاعة .

السرف والخير

قيل للحسن بن سهل[٢] ، وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله : ليس في السرف خيرٌ
فقال : ليس في الخير سرفٌ .

حيلة لص

شاهد عبيد الله بن محمد الخفّاف لصّاً قد أخذ ، وشهد عليه أنّه كان يفشّ الأقفال في الدور اللطاف ، فإذا دخل ، حفر في الدار حفرةً لطيفةً كأنّها بئر النرد ، وطرح فيها جوزات كأنّه يلاعب إنساناً ، وأخرج منديلاً فيه نحو مئتي جوزةً ، فتركه إلى جانبها ، ثم يكور جميع ما يطيق حمله ، فإن لم يفطن به خرج ، وإن جاء صاحب الدار ترك القماش وأفلت ، وإن كان صاحب الدار جلداً ، فواثبه ، وصاح : اللصوص [واجتمع الجيران ، أقبل عليه ، وقال : ما أبردك] أنا أقامرك بالجوز منذ شهور ، قد أفقرتني وأخذت كل ما أملكه ، لأفضحنّك بين جيرانك ، لمّا قمرتك الآن تصيح [يا غثّ] يا بارد [بيني وبينك دار القمار ، قل قد ضغوت حتى أخرج] فيقول الجيران : إنّما يريد أن لا يفضح نفسه بالقمار ، فقد ادعي على ذا اللصوصية ؛ فيحولون بينهما ، ويخرجون اللص .

---

(١) يزيد بن المهلب بن سراق بن صحيح بن كندة بن عمرو بن وائل بن الحارب ، يكنى بأبي خالد : أمير ، قائد وأحد الشجعان الأجواد ولي خراسان بعد وفاة أبيه المهلب بن أبي صفرة (سنة ٨٣ هـ) فمكث نحوا من ست سنين ثم عزله عبدالملك بن مروان برأي الحجاج .

(٢) أبو محمد الحسن بن سهل السرخسي ، فارسي المولد من وزراء الخليفة المأمون وولاته وقواده ، وأخو الفضل بن سهل ذي الرياستين ، وكان الحسن من الفصحاء المعدودين واشتهر بتوقيعاته وعرف بالجود حتى حين افتقر .

اللص وصاحب الدار

دخل لصٌ داراً ، فأخذ ما فيها وخرج ، فقال صاحب الدار : ما أنحس هذه الليلة [فقال اللص : ليس على كل أحدٍ] .

تصرف كريم

قال الأصمعي : كان بعض الكرماء في مجلسه وعنده جماعةٌ ، فضرط رجلٌ من جلسائه ، فانقبض لذلك ، واغتمّ بانقباضه صاحب المجلس ، فلمّا كان من الغد ، أمر فترك تحت الفرش نفّاخة السمك ، فلمّا جلس الناس عنده تفرقعت من تحت الجلساء ، فقال : ما هذا؟ انظروا [فأخرجت وقد انشقّت ، فقال : هذا بالأمس ، وهذا اليوم] وأمر بصفع الفراشين ، فزالت الظنّة عن الضّارط ، وبرئت ساحته .

بين الأجير والمستأجر

استأجر رجلٌ رجلاً يخدمه ، فقال له : كم أجرتك؟
قال : شبع بطني .
فقال له : سامحني .
فقال : أصوم كل اثنين وخميس .

عتبة وأعرابي

قدم أعرابي البصرة فدخل المسجد الجامع وعليه خلقان وعمامة قد كوّرها على رأسه ، فرمي بطرفه يمنة ويسرة ، فلم ير فتية أحسن وجوها ولا أظهر زيا من فتية حضروا حلقة عتبة المخزومي(١) فدنا منهم وفي الحلقة فرجة فطبقها ؛ فقال له عتبة : ممن أنت يا أعرابي؟ قال : من مذحج . قال : من زيدها الأكرمين ، أو من مرادها الأطيبين؟

قال لست من زيدها ولا من مرادها . قال : فمن أيها؟ قال : فإني من حماة أعراضها ، وزهرة رياضها ، بني زبيد . قال : فأفحم عتبة حتى وضع قلنسوته عن

(١) هو عتبة بن عبد الرحمن بن هشام المخزومي من النسابين العلماء ذوي الرأي والدهاء وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف الثقفي .

رأسه ، وكان أصلع ؛ فقال له الأعرابي : فأنت يا أصلع ، ممن أنت؟ قال : أنا رجل من قريش .

قال : فمن بيت نبوّتها ، أو من بيت مملكتها؟ قال : إني من ريحانتها بني مخزوم . قال :

والله لو تدري لم سمّيت بنو مخزوم ريحانة قريش ، ما فخرت بها أبدا ؛ إنما سميت ريحانة قريش لخور رجالها ولين نسائها! قال عتبة : والله لا نازعت أعرابيّا بعدك أبدا .

من شدة الضجر

قال أبو منصور ابن زريق : كان رجلٌ من الأصبهانّيين قد لازم أبي يسمع منه الحديث ، فأضجره ، فخرج أبي يوماً ، فتبعه الأصبهانيُّ ، وقال له : إلى أين؟ قال : إلى المطبق ، قال : وأنا معك .

يعد الموتى

قال الأصمعي : رأيت رجلاً قاعداً في زمن الطّاعون يعدّ الموتى في كوز ، فعدّ أوّل يوم عشرين ومئة ألف ، وعدّ في اليوم الثاني خمسين ومئة ألف ؛ فمرّ قومٌ بميتّهم وهو يعدّ ، فلما رجعوا إذا عند الكوز غيره ، فسألوا عنه ، فقالوا : هو في الكوز .

دعوة باردة

سئل جحظةُ(١) عن دعوة حضرها ، فقال : كلُّ شيءٍ كان منها بارداً إلاّ الماء .

ضحك أحد الحكمين من الآخر

بعث بلال بن أبي بردة إلى ابن أبي علقمة المجنون ، فلمّا جاء قال له : أحضرتك لأضحك منك ، فقال المجنون : لقد ضحك أحد الحكمين من صاحبه ؛ يعرض بأبي موسى .

---

(١) جحظة البرمكي أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي أبو الحسن . شاعر عباسي ، وكان قبيح المنظر ، ناتئ العينين ، فلقب بجحظة .

مزبد والأعرابي

تغدى أعرابيٌ مع مزبد ، فقال له مزبد : كيف مات أبوك؟
فأخذ يحدثه بحالهٍ وأخذ مزبّد يمضي في أكله ، فلمّا فطن الأعرابي ، قطع الحديث ، وقال له : أنت [كيف مات أبوك؟ فقال : فجأة ؛ وأخذ يأكل] .

حمى الربع

سقي رجلٌ ماءً بارداً ، ثمّ عاد فطلب ، فسقي ماءً حارّاً ،
فقال : لعلّ مزمّلتكم يعتريها حمى الرّبع .

دعي ما رزق الله

قال الحسن بن موسى(١) : أضاف رجلٌ رجلاً ، فقال المضيف : يا جاريةُ {هاتِ خبزاً وما رزق الله ؛ فجاءت بخبزٍ وكامخ ؛ ثمّ قال أيضاً : يا جاريةُ! هات خبزاً وما رزقَ الله ؛ فجاءت بخبزٍ وكامخٍ ؛ فقالَ الضيفً : يا جارية [هات خبزاً ودعي ما رزق الله] .

فيروز ونميلة

وضع فيروز بن حصين يده على رأس نميلة بن مالك بن أبي عكابة عند زياد ، فقال : من هذا العبد؟ قال : أنت والله العبد ؛ ضربناك فما انتصرت ، ومننّا عليك فما شكرت .

يهودي ومسلم

قال الماجشون : كان بالمدينة عطّاران يهوديّان ، فأسلم أحدهما وخرج فنزل العراق ، فالتقيا ذات يوم ، فقال اليهودي للمسلم : كيف رأيت دين الإسلام؟
قال : [خير دين ، إلاّ أنّهم لا يدعونا نفسو في الصلاة كما كنّا نصنع ونحن يهودٌ] فقال له اليهودي : ويلك [افس وهم لا يعلمون] .

(١) الحسن بن موسى البغدادي يكنى بأبي علي الأشيب القاضي : قاض ، من حفاظ الحديث . ولي قضاء الموصل ، وقضاء طبرستان ، وقضاء حمص .وكان كبير الشأن ، حمدت سيرته في القضاء . مات بالري .

مخافة الصدق

قال ابن الأعرابي : قيل لكذّاب : تذكر أنّك صدقت قطّ؟
فقال : لولا أني أخاف أن أصدق لقلت : نعم .

كيف تركت قارون؟

سمع يزيد بن أبي حبيبٍ رجلاً يقول : [جئت من أسفل الأرض]فقال : كيف تركت قارون؟ .

الحائك المتنبئ

قال علي بن عاصم[1] : تنبّأ حائكٌ بالكوفة ، فاجتمع عليه الناس ، فقالوا : أتق الله ، خف الله ، رأيت حائك نبيّ؟ قال : ما تريدون أن يكون نبيّكم إلا صيرفيّ .

أعرابيان

قال الأصمعي : كان أعرابيّان متواخيين بالبادية ، فاستوطن أحدهما الريف ، واختلف إلى باب الحجّاج ، فاستعمله على أصبهان ، فسمع أخوه الذي بالبادية ، فضرب إليه ، فأقام ببابه حيناً لا يصل إليه ، ثمّ أذن له بالدّخول ، فأخذه الحاجب ، فمشى به ، هو يقول : سلّم على الأمير ؛ فلم يلتفت إلى قوله ، وأنشد :

ولست مسلّماً ما دمت حيّا ... على زيدٍ بتسليم الأمير

فقال : لا أبالي ؛ فقال الأعرابي :

أتذكر إذ لحافك جلد كبشٍ ... وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال : نعم ، فقال الأعرابي :

فسبحان الذي أعطاك ملكاً ... وعلمك الجلوس على السرير

---

(١) علي بن عاصم : ابن صهيب ، الإمام العالم ، شيخ المحدثين ، مسند العراق أبو الحسن القرشي التيمي مولى قريبة أخت القاسم بن محمد بن أبي بكر الواسطي . ولد سنة سبع ومائة فهو من أسنان سفيان بن عيينة .

كي لايسمع الهواء

قال العتبيّ : اشتدّ الحرُّ عندنا بالبصرة وركدت الرّيح
فقيل لأعرابيّ : كيف كان هواؤكم البارحة؟ قال : أمسك! كأنّه يسمع .

من تنحنح فلا أفلح

قال ابن الأعرابي : قال رجلٌ من الأعراب لأخيه : تشرب الخازر من اللبن ولا تتنحنح؟
فقال : نعم ؛ فتجاعلا جعلاً ، فلمّا شربه آذاه ؛ فقال : كبشٌ أملحُ ، وبيت أفيح ، وأنَا فيه أتبحبح . فقال له أخوه : قد تنحنحت! فقال : من تنحنح فلا أفلح .

نذالة واحدة

يحكي أن رجلا ذهب لسوق النخاسة لشراء عبد فوجد عبدا قوياً مفتول العضلات .

فقال للنخاس «بالله عليك أن تقول لي ما عيوب هذا العبد» .

فقال النخاس «أُشهد الله أن هذا العبد من أكثر العبيد قوة وأمانة وشجاعة ولكن فيه نقيصة واحدة» .

تهلل وجه الرجل بشرا وقال وما هي .

«قال أن هذا العبد تنتابه نوبة نذالة وخسة في كل عام مرة واحدة»

فقال الرجل أما المرة فمقبولة فلكل جواد كبوة ولكل عالم غفوة وسأتغافل عن نوبة نذالته وخسته ما دامت في العام مرة واحدة .

فرح الرجل بالعبد وأصبح أقرب العبيد إليه وقربه منه وأصبح العبد رفيقة في كل طريق .

في إحدي المرات صحب الرجل عبده في سفره
وأثناء عبور النهر أخذ العبد يجدف بالمركب الصغير
وفي وسط النهر جاءت موجه وانقلب القارب
وكان السيد لا يجيد العوم عكس العبد الذي أخذ يعوم برشاقة في طريقه للشط دون أن يحاول إنقاذ سيده

فنادي عليه سيده «أتتركني في المهالك أواجه الموت» .

فقال العبد «سامحني سيدي فقد انتابتني نوبة النذالة الآن» .

زوج الحمام

قال محمد بن حرب : أتيت بمزيد وامرأة ورجل أصيبا في بيته وأنا على شرطة المدينة ، فحبسته وخليت سبيلهما ، ثم دعوت به وقلت : ما خبرك ؟ قال : أطلقتم الزوج حمام وحبستم الزاجل .

وكان أبو حبيب مضحك المهدي يحفظ نوادر مزيد ويحكيها له فيصله . فقال له مزيد : بأبي أنت! أنا أزرع وأنت تحصد .

المائدة

قال الجماز : جاءنا فلان بمائدة كأنها زمن البرامكة على العفاة ؛ ثم جاءنا بشراب كأنه دمعة اليتيم على باب القاضي :

قد جنّ أضيافك من جوعهم　　فاقرأ عليهم سورة المائدة

حفيد أبو لهب

ناظر سعيد بن حميد الدهقان بعض آل أبي لهب
فقال : من فضلنا نحن الفرس أن لنا بيوت النيران .
فقال اللهبي : وجهنم قطيعة لجدي .

أعرابي خارج من السجن

قال قحذمٌ : وجد في سجن الحجّاج ثلاثةٌ وثلاثون ألفاً ، ما يجب على أحد منهم قطعٌ ولا قتلٌ ولا صلبٌ ، وأخذ فيهم أعرابيٌّ رئي جالساً يبول عند ربط مدينةً واسط ، فخلّي عنهم ، فانصرف الأعرابي وهو يقول :

(إذا نحن جاوزنا مدينة واسطٍ　　خرينا وصلّينا بغير حساب)

كراء رخيص

سمع أعرابيٌّ رجلاً يروي عن ابن عباس أنّه قال : من نوى الحجّ وعاقه عائقٌ كتب له الحجّ ؛ فقال الأعرابي : ما وقع العام كراءٌ أرخص من هذا!

حسن الجواب

استأذن حاجب بن زرارة[1] على كسرى ، فقال له الحاجب : من أنت؟
فقال : رجلٌ من العرب ؛ فأذن له ، فلمّا وقف بين يديه
قال : من أنت؟
قال : سيد العرب
قال : ألم تقل للحاجب أنا رجلٌ منهم؟
قال : بلى [ولكني وقفت بباب الملك وأنا رجلٌ منهم ، فلمّا وصلت إليه سدتهم] .
فقال كسرى : زه [احشوا فاه درّاً] .

أموت أول رمضان

قيل لبعضهم : أيّ وقت تحبّ أن تموت؟
قال : إن كان ولا بد ، فأوّل يوم من رمضان .

ممن يعقلون

قال رجلٌ لرجلٍ : ممّن أنت؟
قال : من العربِ ، من بني تميم .
قال : من أكثرها أو من أقلها؟
قال : من أقلها . يشير إلى قوله تعالى : ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ .

رسالة مشفرة

قال الأصمعي : حدّثني شيخٌ من بني العنبر ، قال : أسر بنو شيبان رجلاً من بني العنبر ، فقال لهم : أرسلوا إلى أهلي ليفدوني؟ قالوا : ولا تكلم الرسول إلا بين أيدينا ؛ فجاؤوه برسولٍ ، فقال له : ائتِ قومي ، فقل لهم : إن الشجر قد أورق ، وإنّ

(١) حاجب بن زرارة بن عُدس الدارمي التميمي من سادات العرب في الجاهلية ، كان رئيس بني تميم في عدة مواقع ، ورهن ذات مرة قوسه عند كسرى على مال عظيم ووفى به . أدرك الإسلام ، وأسلم .

النساء قد اشتكت ؛ ثمّ قال له : أتعقل؟ قال : نعم ، أعقل ؛ قال : فما هذا؟ وأشار بيده إلى الليل ؛ فقال : هذا الليل ؛ قال : أراك تعقل ، انطلق فقل لأهلي : عرّوا جملي الأصهب ، واركبوا ناقتي الحمراء ، وسلوا حارثة عن أمري ؛ فأتاهم الرسول ، فأرسلوا إلى حارثة ، فقص عليه القصة . فلمّا خلا معهم ، قال : أما قوله : إن الشجر قد أورق ؛ فإنه : إن القوم قد تسلحوا ؛ وقوله : إن النساء قد اشتكت ؛ فإنه يريد : إنها قد اتخذت الشكاء للغزو ، وهي أسقيةٌ ، وقوله : هذا الليل ؛ يريد : يأتونكم مثل الليل أو في الليل ؛ وقوله : عروا جملي الأصهب ؛ يريد : ارتحلوا عن الصمان ؛ وقوله : واركبوا ناقتي ؛ يريد : اركبوا الدّهناء . فلمّا قال لهم ذلك تحولوا من مكانهم ، فأتاهم القوم ، فلم يجدوهم .

خطة نجاة

قال ابن الأعرابي : أسرت طيء رجلاً شاباً من العرب ، فقدم عليه أبوه وعمّه ليفدياه ، فاشتطوا عليهما في الفداء ، وبذلاً ما لم يرضوا ، فقال أبوه : لا والذي جعل الفرقدين يصبحان ويمسيان على جبلي طيءٍ لا أزيدكم على ما أعطيتكم ؛ ثمّ انصرفا ، فقال الأب للعم : لقد ألقيت إلى ابني كلمةً إن كان فيه خيرٌ لينجونّ ؛ فما لبث أن نجا ، وطرد قطعةً من إبلهم ، كأنّه قال له : الزم الفرقدين على جبلي طيءٍ ، فإنّهما طالعان عليه ، ولا يغيبان عنه .

في حسن الاحتيال

كان عامر بن ذهل من أشد الناس قوةً ، فأسن وأقعد ، فاستهزأ به شبابٌ من قومه وضحكوا منه ، فقال : إني ضعيف ، فادنوا مني ، فاحملوني ؛ فدنوا منه ليحملوه ، فضمَّ رجلين إلى إبطه ، ورجلين بين فخذيه ، ثمّ زجر بعيره ، فنهض بهم مسرعاً ، فقال : بني أخيّ! أرجلكم والعرفط ؛ فأرسلها مثلاً

يتماوت ليسأل الكفن

وشرب أحمد بن أبي طاهر مع أبي هفان حتى فني ما معهما ، وكانا بجوار المعلى ابن أيوب ؛ فقال ابن أبي طاهر لأبي هفان : تماوت حتى اسأل المعلى في كفنك . فسجاه ومضى إلى المعلى فقال : أصلحك الله ، نزلنا في جوارك فوجب

عليك حقنا ، وقد مات أبو هفان وليس له كفن . فقال لوكيله : أمض إليه لتشاهده وادفع له كفناً . فأتى فوجده مسجى فنقر أنفه فضرط ، فقال له : ما هذا؟ قال ابن أبي طاهر : أصلحك الله بقية روحه كرهت نكهته فخرجت من دبره ، فأخبر المعلى فضحك وأمر لهما بدنانير كثيرة

شراكة

أراد قوم من البصرة الجمع ؛ فقال أحدهم : علي الطعام . وقال أحدهم : علي الشراب . وقالوا : ما عليك أنت يا أبا إسحاق ؟

فقال : لعنة الله علي إذا لم آكل وأشرب معكم ؛ فضحكوا منه ومضوا به .

عتاب طفيلي على التطفيل ورده

عوتب طفيلي على التطفيل ؛ فقال : والله ما بنيت المنازل إلا لتدخل ، ولا نصبت الموائد إلا لتوكل ، وإني لأجمع في التطفيل خلالاً ، أدخل مجالساً ، وأقعد مستأنساً ، وأنبسط وإن كان رب الدار عابساً ، ولا أتكلف مغرماً ، ولا أنفق درهماً ، ولا أتعب خادماً .

وصية طفيلي لأصحابه

قال ابن دراج الطفيلي لأصحابه : لا يهولنكم غلق الأبواب ، ولا شدة الحجاب ، ولا عنف البواب ، وتحذير العقاب ، ومبارزة الألقاب ؛ فإن ذلك صائر بكم إلى محمود النوال ، ومغن لكم عن ذل السؤال ، واحتملوا الوكزة الموهنة ، واللطمة المزمنة ، في جنب الظفر بالبغية ، والدرك للأمنية ، والزموا الطوزجة للمعاشرين ، والخفة بالواردين والصادرين . والتملق للملهين والمطربين ، والبشاشة بالخدم والموكلين ؛ فإذا وصلتم إلى مرادكم فكلوا محتكرين ؛ وادخروا لغدكم مجتهدين ؛ فإنك أحق بالطعام ممن دعي إليه ، وأولى ممن صنع له ؛ فكونوا لوقته حافظين ، وفي طلبه متمسكين ، واذكروا قول أبي نواس :

ليخمس مال اللّه من كلّ فاجر
وذي بطنةٍ للطيبات أكول

النكث في البيع خير من خيانة الشريك

وجلس مالك بن طوق في قصره في شباك مطل على رحبته ، ومعه جلساؤه ، إذ أقبل أعرابي تخب به ناقته ؛ فقال : إياي أراد ، ونحو قصد . ولعل معه أدباً ينتفع به ، ثم أمر بإدخاله ؛ فلما مثل بين يديه قال : ما أقدمك يا أعرابي ؟ قال : سيب الأمير ورجاء نائله . قال : هل قدمت أمام رغبتك وسيلة ؟ قال : نعم ؟ أربعة أبيات قلتها بظهر البرية ، فلما رأيت ما بباب الأمير من الهيبة والجلال استحقرتها واستصغرتها . قال : فهل لك أن تنشدنا أبياتك على أن نجيزك عليها ألف درهم ، فإن كنت ممن أحسن ربحنا عليك ، وإلا فقد نلت مرادك ، وربحت علينا . قال : رضيت ، وأنشده :

وما زلت أخشى الدهر حتى تعلّقت — يداي بمن لا يتّقي الدهر صاحبه
فلما رآني الدهر تحت جناحه — رأى مرتقىً صعباً منيعاً مطالبه
رآني بحيث النّجم في رأس باذخ — تظلّ الورى أكنافه وجوانبه
فتىً كسماء الغيث والناس حولهً — إذا قحطوا جادت عليهم سحائبه

فقال : قد والله ظفرنا يا أعرابي ، ورزقنا الفلج عليك ، والله ما قيمتها إلا عشرة آلاف درهم . قال : فإن لي صاحباً شاركته فيها ، وما أراه يرضي ببيعي . قال : أتراك حدثتك نفسك بالنكث ؟ قال : نعم ؟ وجدت النكث في البيع خيراً من خيانة الشريك . فأمر له بعشرة آلاف دينار .

تقاصر لينالك الضرب

جلد بعض الشرط رجلاً وكان الجلاد قصيراً دميماً والمجلود طويلاً ؛ فقال له الجلاد : تقاصر لينالك الضرب .

فقال : ويلك ! إلى أكل الفالوذج تدعوني ؟ والله لوددت أن تكون أنت أقصر من يأجوج ومأجوج ، وأنا أطول من عوج .

أمنية المبغض

دخل أعرابي من ثقيف على خالد بن عبد الله القسري ، فشكا إليه قلة المطر ، وجفوف الشجر ، وكثرة العيال ، وعدم المال . وكان خالد مبغضاً لثقيف ، فقال : أما ما ذكرته من قلة المطر فوددت أن الله جل اسمه ضرب بينكم وبين السماء صفائح من حديد ؛ وجعل مسيلها مما يلي البحر ، فلا تصل إليكم قطرة من مائها . وأما ما ذكرت

من يبس الشجر فوددت أن الله أحرق ما لديكم من ذلك . وأما ما ذكرت من قلة المال وكثرة العيال فوددت أن الله قطع يديك ورجليك ولم يجعل لأهلك كاسباً غيرك .

فقال : أيها الأمير ؛ أصلحك الله ، وطئت أرضك ، وأملت رفدك ، فلا تصرفني بحسرة الحرمان ، واجعل قراي منك بقدر أملي فيك ، لا بقدر نسبي عندك . قال : يا غلام ، أعطه بدرة ، ثم زاده أخرى .

الحاج الملحد

عن عليّ بن المحسن التنوخيّ ، عن أبيه ، قال : كان أبو جعفر الحسني من أهل البدو ، وكان يعترض الحجّاج ، فيطالبهم بالخفارة ، وكان رجلٌ يعرف بأبي الحسن بن شاذان السيرافي يظهر الإسلام ، فإذا أمن كاشف بالإلحاد ، وكان خليعاً ماجناً . فحجّ بعض الأمراء ، فأظهر ابن شاذان أنّه يريد الحجُ ، فاعترض القافلة أبو جعفر الحسنيُّ ، فقال أبو الحسن لأمير الحاج : أنفذني إليه ؛ قال : أي شيءٍ تقول له؟ قال : أقول له : نحن قومٌ من فارس وغيرها ، لا نسب لنا في العرب ولا رغبةَ ، جاء أبوك إلينا ، فضرب أدمغتنا ، وقال : حجوا هذا البيت ، فأطعناه ، وجئنا ؛ وجئت أنت تمنعنا ، فإن كان قد بدا لكم ، فالله قد أقالكم ؛ فضحك الأمير وبعث غيره .

قرشي والحمد لله

قال رجل لآخر : ممن تكون ؟
قال : قرشي والحمد لله !
قال : بأبي أنت ! التحميد ها هنا ريبة .

فنون الرد

قيل لرجلٍ ركب في البحر : ما أعجب ما رأيت؟
قال : سلامتي .

**

نظر رجلٌ إلى أخوين لأب وأمٌ ، أحدهما جميلٌ والآخر قبيحٌ
فقال : ما أمّكما إلا شجرةٌ تحمل سنةً موزاً وسنةً عفصاً .

ورأى آخر شيخاً مسنّاً ، فقال له : يا شيخ : من قيدك؟
قال : الذي خلّفته يفتل قيدك .

**

وقيل لأعرابي : كيف كتمانك للسر؟
قال : ما صدري له إلا قبر .

**

شتم رجلٌ رجلاً ، فقال المشتوم : إيش قلت لك؟
فأوهمه أنّه يستفهمه ، وإنّما ردّ عليه .

**

قال الأصمعي : قال محمد بن واسع :
ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث
بُلغة من عيش ليس لأحد عليّ فيها منة
ولا لله علي فيها تبعة
وصلاة في جمع أُكفى سهوها ويُدخر لي أجرها
وأخ إذا ما اعوججتُ قومني

**

قيل لأعرابي : من أبلغ الناس؟
قال : أحسنهم لفظا وأسرعهم بديهة

**

قدّم طبّاخٌ إلى بعض الفطناء طبقاً وعليه رغيفان ، ثم قال له : ما تشتهي أن أجيء به؟
فقال : خبزٌ .

**

وقيل لأعرابي : ما عندكم في البادية طبيب؟
قال : حمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار .

**

وتكلم ربيعة[1] الرأي يوما فأكثر ، فكأن العجب داخله ، وأعرابي إلى جنبه ، فأقبل على الأعرابي فقال : ما تعدّون البلاغة يا أعرابي؟ قال : قلة الكلام وإيجاز الصواب .

قال : فما تعدون العيّ؟ قال : ما كنت فيه منذ اليوم! فكأنما ألقمه حجرا .

**

قيل لأعرابي : ما لك لا تطيل الهجاء؟

قال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق .

**

وقيل لأعرابي : كم بين كذا وبلد كذا؟

قال : عمر ليلة وأديم يوم .

وقال آخر : سواد ليلة وبياض يوم .

الطفيلي والفطن

دعا بعض الظرفاء قوماً ، فتبعهم طفيليّ ، ففطن به الرّجل ، فأراد أن يعلمهم أنّه قد فطن به ، فقال : ما أدري لمن أشكر؟ لكم إذ أجبتم دعوتي ، أو لهذا الذي تجشم من غير أن أدعوه؟

الحجام وسيء الأدب

تقدّم رجلٌ سيء الأدب إلى حجّام ، فقال له : تقدّم يا ابن الفاعلة وأصلح شاربي

فقال له : إن كان خطابك للنّاس كذا فعن قليلٍ تستريح منه .

كي لا يضيق القباء

حضر خيّاطٌ عند بعض الأتراك ليفّصل له قباءً ، فأخذ يفصّل والتّركيّ ينظر إليه ، فما أمكنه أن يسرق شيئاً ، فضرط ، فضحك التركي حتى استلقى ، فأخرج الخياط من الثوب ما أراد ، فجلس التركي ، فقال : يا خيّاطٌ ضرطةٌ أخرى ؛ فقال : لا يجوز ، يضيق القباء .

---

(١) هو ربيعة بن بن فروخ التيمي مولا أبي عثمان المدني ، المعروف بربيعة الرأي ، إمام حافظ ، وفقيه مجتهد كنيته أبو سليمان .

رأس أبي ورأس أمك

اشترى مزيد رأسين فوضعهما بين يدي امرأته . وقال : اقعدي نأكل ، فأخذت رأساً فوضعته خلفها . وقال : هذا لأمي ، فأخذ مزيد الرأس الآخر ووضعه خلفه ، وقال : هذا لأبي . قالت : فماذا نأكل ؟ قال : ضعي رأس أمك وأضع رأس أبي .

أبو خارجة

قال عبد الله بن المبارك[١] : كان عندنا رجل يكنى أبا خارجة ، فقلت له : لم كنوك أبا خارجة ؟ قال : لأني ولدت يوم دخل سليمان بن علي البصرة .

الهدف الآمن

نظر بعض الحكماء إلى رجل يرمي هدفاً ، وسهامه تذهب يميناً وشمالاً ، فقعد في وجه الهدف ، فقيل له في ذلكً ، فقال : لم أر موضعاً أسلم منه .

نبيذ جيد

قص قاصّ ، فقال : إذا مات العبد وهو سكران ، دفن وهو سكرانٌ ؛ وحشر وهو سكران ؛ فقال رجلٌ في طرف الحلقة لآخر : هذا والله نبيذٌ جيدٌ ، يسوى الكوز منه عشرين درهماً .

صلاتك رجز

صلّى رجلٌ صلاة خفيفةً ، فقال له الجمّاز : لو رآك العجّاج لسرّ بك .
فقال : ولم؟
قال : لأن صلاتك رجزٌ .

نقاهة

مرّ غرابٌ الماجن بسائل يقول : أنا عليلٌ وأنا جائع
فقال له : احمد ربّك ، فقد نقهت .

---

(١) عبد الله بن المبارك المروزي ١١٨ هـ -١٨١ هـ عالم وإمام مجاهد مجتهد في شتى العلوم الدينية والدنيوية .

قطيع الأضاحي

ضحى فضلٌ الوالي عن امرأته ستين سنةً ، فسمع يوماً محدثاً يحدث ، يقول : يحشر الناس يوم القيامة وبين أيديهم ضحاياهم ؛ فقال : إن كان كما تقول ، فإن امرأتي تحشر يوم القيامة راعيةً بعصاوين .

الذنب للجبل والقمر

صعد ابن زهير الخزاعي جبلاً ، فأعيا وسقط كالمغشي عليه . فقال : يا جبل ؛ ما أصنع بك ؟ أأضربك ؟ لا يوجعك ، أأشتمك ؟ لا تبالي ، يكفيك يوم تكون الجبال كالعهن المنفوش .

**

وهذا ضد قول أعرابي آخر سرى في قمر ، فلما غاب ضل الطريق . فقال يخاطب بعيره :

اســـق ما أسأرتـــه الأكما أن عسينـــا أن نرى علمـــا
كيـــف لا تغوى هداية من عـــاد طفـــلاً بعدمـــا هرما

**

يقول له : أسرع بي حتى تعرق فتسقي الأكم بسؤر عرقك ، وهو بقيته لعلنا نرى علماً نهتدي به . ويريد بقوله : عاد طفلاً بعدما هرما يريد القمر : لأنه في أول الشهر يكون كالطفل ينشأ حتى يتكامل ، ثم يدخله النقص حتى يمحق ، ثم يعود كأول نشأته ؛ يذمه بذلك .

بلادة كيسان

وكانت كيسان مستملي أبي عبيدة ، موصوفاً بالبلادة . قال الجاحظ[(١)] : كان يكتب غير ما يسمع ، ويقول غير ما يكتب ، ويستملي غير ما يقرأ ، ويملي غير ما يستملي ، أميت عليه يوماً .

قلـــت لمعشـــر عدلـــــوا بمعتمـــر أبـــا عمـــــــرو

(١) الجاحظ الكناني هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي ، ولد في البصرة وتوفي فيها .

فكتب أبا بشر ، وقرأ أبا حفص ، واستملى أبا زيد ، وأملى أبا نصر .
وذكر أبو عبيدة كيسان في شيء ، فقال : والله ما فهم ، ولو فهم لوهم .

الظريف والبقال

كان بعض الظرفاء يجلس عند بقال ضعيف ، لا يكاد يبيع إلا بخبز ، فجاءه رجلٌ ، فقال له : عندك بهذا الدينار قراضه؟ فقال له الظريف : مرّ ، ثكلتك أمّك }هذا قراضته كلّها يطرحها بن .

صفة القصر

عن أبي سعد ابن أبي عمامة ، وكان من المتماجنين ، أن رجلاً قال له : رزقك الله قصراً يبين باطنه من ظاهره ؛ فقال : فنحن الآن قعودٌ في الطريق .
وقال له رجلٌ : تصدّق عليّ حتى أحيلك على من يرى ولا يرى
فقال : إذا لم ير ، فممّن أطلب؟

ما تركه الميت

قيل لأبي الحارث جمّيز : ما فعل فلانٌ؟
قال : مات
قيل : ما ورثت امرأته؟
قال : أربعة أشهرٍ وعشراً .

يحلّ ما حرّم الله

سمع أعرابي إماما يقرأ : ولا تَنكحوا المشركين حتى يؤمنوا![1]
قال . ولا إن آمنوا أيضا ، لا ننكحهم .
فقيل له : إنه يلحن ، وليس هذا يقرأ .
فقال : أخّروه قبحه الله! ولا تجعلوه إماما ؛ فإنه يحلّ ما حرّم الله .

(١) والأصل أن تُقرأ ولا تُنكحوا!

كل يا أيها الكافرون

قال الأصمعي : أصابت الأرض مجاعة ؛ فلقيت رجلا منهم خارجا من الصحراء كأنه جذع محترق فقلت : أتقرأ في كتاب الله شيئا؟ قال : لا . قلت : فأعلمك؟ قال :

ما شئت . قلت : اقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ

قال : كل يا أيها الكافرون .

قلت : [قل] قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ

كما أقول لك . قال : ما أجد لساني ينطق بذلك .

الأعراب والدَّين

قال أعرابي : الدّين ذل بالنهار وهمّ بالليل

وقال أعرابي في غرماء له يطلبونه بدين :

جاؤوا إليّ غضابا يلغطون معا فقلت موعدكم دار ابن هبّار
وما أواعدهم إلاّ لأدرأهم عني فيحرجني نقضي وإمراري
وما جلبت إليهم غير راحلة تخدي برحلي وسيف جفنه عاري
إنّ القضاء سيأتي دونه زمن فاطو الصحيفة واحفظها من النار

قال الأصمعي : اختصم أعرابيان إلى بعض الولاة في دين لأحدهما على صاحبه ؛ فجعل المدّعى عليه يحلف بالطلاق والعتاق ، فقال له المدعي : دعني من هذه الأيمان واحلف بما أقوله لك : لا ترك الله لك خفا يتبع خفا ولا ظلفا يتبع ظلفا ؛ وحتّك من أهلك ومالك حتّ الورق من الشجر ، إن لم يكن لي هذا الحق قبلك! فأعطاه حقه ولم يحلف له .

خير الكلام ما قل ودل

قال الأصمعي : خطب رجل في نكاح فأكثر وطوّل ، فقيل : من يجيبه؟

قال أعرابي : أنا .

قيل له : أنت وذاك؟

فالتفت إلى الخاطب فقال : إني والله ما أنا من تخطيطك وتمطيطك في شيء ،

قد متتّ بحرمة ، وذكرت حقا ، وعظّمت مرجوّا ، فحبلك موصول ، وفرضك مقبول ، وأنت لها كفء كريم ، وقد أنكحناك وسلّمنا .

الأعرابي وهلال رمضان

ونظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان ، فقال : والله لئن أريتموه لتمسكنّ منه بذناب عيش أغبر .

رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه

وقيل لأبي المخش الأعرابي : أيسرك أنك خليفة وأن أمتك حرّة؟
قال : لا والله ما يسرني!
قيل له : ولم؟
قال : لأنها كانت تذهب الأمة وتضيع الأمّة .

القرد في عين أمه غزال

مرّ أعرابي بقوم وهو ينشد ابنا له ، فقالوا له : صفه .
قال : كأنه دنينير!
قالوا : لم نره .
ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي وعلى عنقه جعل
فقالوا : هذا الذي قلت فيه كأنه دنينير؟
فقال : القرنبي(١) في عين أمّها حسناء .

يأخذ الحسن ويترك القبيح

جلس أعرابي إلى مجلس أيوب السّختياني(٢) ، فقيل له : يا أعرابي ، لعلك قدريّ؟
قال : وما القدري؟ فذكر له محاسن قولهم ؛ قال : أنا ذاك . ثم ذكر له ما يعيب

(١) والقرنبى : دويبة من خشاش الأرض إذا مسّها أحد تقبّضت فصارت مثل الكرة .
(٢) أيوب السختياني العنزي (٦٦ - ١٣١ هـ / ٦٨٥ - ٧٤٨ م) هو سيد من سادات التابعين .

الناس من قولهم ؛ فقال : لست بذاك . قال : فلعلك مثبت؟ قال : وما المثبت؟ فذكر محاسنهم ؛ فقال : أنا ذاك . ثم ذكر له ما يعيب الناس منهم ؛ فقال : لست بذاك . قال أيوب : هكذا يفعل العاقل ؛ يأخذ من كل شيء أحسنه .

الأعرابي وجرير

قال الأصمعي : سمع أعرابي جريرا ينشد :

كاد الهوى يوم سلمانين يقتلني   وكاد يقتلني يوما بنعمان
وكاد يقتلني يوما بذي خشب   وكاد يقتلني يوما بسلمان

فقال : هذا رجل أفلت من الموت أربع مرات! لا يموت هذا أبدا .

إصبع خندان

قال الشيباني : بلغني أن أعرابيين ظريفين من شياطين العرب حطمتهما سِنة[1] ، فانحدار إلى العراق ؛ فبينما هما يتماشيان في السوق- واسم أحدهما خندان- إذا فارس قد أوطأ دابته رجل خندان ، فقطع إصبعا من أصابعه ، فتعلقا به حتى أخذا أرش الإصبع ، وكانا جائعين مقرورين ، فلما صار المال بأيديهما قصدا إلى بعض الكرايج ، فابتاعا من الطعام ما اشتهيا ، فلما شبع صاحب خندان أنشأ يقول :

فلا غرثة ما دام في الناس كربج   وما بقيت في رجل خندان إصبع

أعرابي يحدث ربه

خرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له ، فلما كان ببعض الطريق راجعا يريد أهله ، لقيه ابن عم له ، فسأله عن أهله ومنزله ، فقال : اعلم أنك لما خرجت وكانت لك ثلاثة أيام ، وقع في بيتك الحريق . فرفع الأعرابي يديه إلى السماء ، وقال : ما أحسن هذا يا رب! تأمرنا بعمارة بيتك أنت وتخرب بيوتنا .

أعرابي وعامل

وقال رجل من العمال لأعرابي : ما أحسبك تعرف كم تصلي في كل يوم وليلة!

(١) سِنة : مجاعة .

فقال له : فإن عرفت أتجعل لي على نفسك مسألة؟
قال : نعم .
قال : إنّ الصلاة أربع وأربع ثم ثلاث بعدهنّ أربع
ثم صلاة الفجر لا تضيّع
قال : صدقت ، هات مسألتك؟
قاله له : كم فقار ظهرك؟
قال : لا أدري .
قال : فتحكم بين الناس وتجهل هذا من نفسك؟

دواء لدغة العقرب

قال رجلٌ لعض الظراف : قد لدغتني عقربٌ ، فهل عندك لهذا دواءٌ؟
فقال : الصياح إلى الصباح .

أقبح المواضع

قال الجمّاز(١) لأبي شراعة : كيف تجدك؟
قال : أجدني مريضاً من دماميل قد خرجت في أقبح المواضع
فقال : ما أرى في وجهك منها شيئاً! .

الأعرابي الثقيل

قال أبو جعفر محمد بن عبد الرحمن البصري : حدّثني ابن عائشة أنّ فتيان من فتيان أهل البصرةً خرجوا إلى ظهر البصرة ، فأخذوا في شرابهم ، وما زالوا يتناشدون ويتنادمون ويتحدّثون حتى قربت الشمس أن تغرب ، فطلبوا خلوةً ممّن يغلُ عليهم في شرابهم ، فإذا أعرابيٌ كالنّجم المنقض يهوي حتى جلس بينهم ، فقال بعضهم لبعض : قد علمنا أنّ مثل هذا اليوم لا يتم لنا ؛ ثمّ قال أحدهم : أيها الواغل الثّقيل

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر ، وكانوا يزعمون أنهم من حمير صليبة نالهم سباء في خلافة أبي بكر وهم مواليه ، وسلم الخاسر عمه . وكان الجماز صاحباً لأبي نواس حتى ماتا .

علينا . . . حين طاب الحديث لي ولصحبي

فقال الآخر :

خفَّ عنّا فأنت أثقل والله علينا من فرسخي دير كعب

فقال الثالث :

فمن النّاس من يخف ومنهم كرحى البزر ركبت فوق قلب

فقال الأعرابي

لست بالنّازح العشيّة والله لشجٍّ ولا لشدَّةِ ضرب

أو تروون بالكبار حشاشي وتعلّون بعدهن بقعبي

وطرح قعباً كان معلّقاً ؛ فضحكوا من ظرفهِ ، وحملوه معهم إلى البصرة ، فلم يزل نديماً لهم .

تصريف

عن أبي سمي الزاهد ، عن إبراهيم بن أدهم[١] ، إنّه كان في بعض السّواحل ومعه رفقاءُ له ، ومعهم حميرٌ لهم ، فجاء إليهم رجلٌ ، فقال : أريد أصحبكم وأكون معكم ؛ فكأنّهم كرهوا ذلك ، فلما خرجوا إلى ساحل البحر والرّجل معهم ، قال إبراهيم بن أدهم للحمار : زر ؛ فصاح الحمارُ ، فانصرف الرّجل عنهم ، وقال : أنا ظننت فيكم خيراً ؛ فصرفوه بهذا .

موضع سجود

حضر أعرابي طعام عبد الأعلى ، فلما وقف الخباز بين يديه ووصف ما عنده قال : أصلحك الله ، أتأمر غلامك يسقيني ماء ؟ فقد شبعت من وصف هذا الخباز .

وقال له عبد الأعلى يوماً : ما تقول يا أعرابي لو أمرت الطباخ فعمل لون كذا ، ولون كذا؟

قال : أصلحك الله لو كانت هذه الصفة في القرآن لكانت موضع سجود

(١) إبراهيم بن أدهم ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن منصور بن زيد بن جابر العجلي ويقال التميمي ، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثاني الهجري من أهل بلْخ . أفغانستان .

لم ير حال السماء من المطر

قال رجل لمملوكه : اخرج وانظر هل السماء مصحية ، أو مغيمة .
فخرج ثم عاد فقال : والله ما تركني المطر أنظر هل هي مغيمة أم لا!!

غرغرة الكذب

عوتب أحد الأعراب على الكذب
فقال للذي عاتبه : والله لو غرغرت به لهاتك ما صبرتَ عليه

مال الله

اختلس أعرابي فاستدعاه الأمير وقال : أكلت مال الله! فقال : ومال من آكل إذا لم آكل مال الله ، والله إني راودت الشيطان ان يعطيني فلساً فما فعل!

وجود الله

سئل أعرابي عن وجود الله ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ، ألا تدل على وجود العزيز الخبير

لعن الله النسيان

دخل الجصاص(١) على ابنه وقد مات ولده ، فبكى وقال : كفاك الله محنة هاروت وماروت . فرد : من هاروت وماروت؟ فقال : لعن الله النسيان . إنما أردت منكرا ونكيرا

شرب الخمر

قيل لأحد المجانين : هل لك في الشراب – شرب الخمر – ؟
فقال : إن العاقل يشرب الخمر حتى يتشبه بي ، فإذا شربته فبمن ذا أتشبه؟

---

(١) أحمد بن علي المكني بأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي . والرازي نسبة إلى الري ، والجصاص نسبة إلى العمل بالجص . درس الفقه على كبار الحنفية في عصره ، كأبي الحسن الكرخي ، وأبي سهل الزجاج ، وأبي سعيد البردعي ، وموسى بن نصر الرازي . كان زاهدًا ورعًا جمع إلى العلم الصلاح والتقوى .

شدة الخيانة

ذكر أعرابي رجلا خائنا فقال : (إن الناس يأكلون أماناتهم لقما ، وإن فلانا يحسوها حسوا) .

لا يخدعني هدوءك

ركب أعرابي البحر فرأى من أمواجه الأهوال ، ثم ركبه مرة أخرى وهو ساكن فقال : لا يغرني حلمك فعندي من جهلك العجائب !

من يُغضبه

كان الوجيه بن الدهَّان أعمى قد أتقن العربية ، وحفظ شيئًا كثيرًا من أشعار العرب ، وسمع الحديث ، كان حنبليًا ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة ، ثم إلى مذهب الشافعي ، وكان يحفظ الكثير من الحكايات والملح والأمثال ، ويعرف العربية والتركية والعجمية والرومية والحبشية والزنجية ، وكان له يدٌ طولى في نظم الشعر .

وكان لا يغضب ، وتراهن اثنان على إغضابه ، فصار أحدهما يسأله ويسيء إليه ، فتبسَّم ضاحكًا وقال : إن كنتَ راهنتَ فقد غُلبت ، وإنما مَثَلُك مثل البعوضة ، سقطت على ظهر الفيل ، فلما أرادتْ أن تطير ، قالت له : استمسك ؛ فإني أحب أن أطير ، فقال لها الفيل : ما أحسستُ بكِ حين سقطتِ ، فما أحتاج أن أستمسك إذا طرتِ .

انصرف وأنت مأجور

قعد رجل على باب داره فاتاه سائل فقال له :اجلس ثم صاح بجارية عنده فقال ادفعي الى هذا السائل صاعاً من حنطه

فقالت : ما بقي عندنا

قال : فأعطيه درهما

قالت : ما بقى عندنا دراهم

قال : فأطمعيه رغيفا

قالت : ما عندنا رغيف

فالتفت إليه وقال انصرف يا فاسق يا فاجر

فقال السائل : سبحان الله تحرمني وتشتمني
قال : أحببت أن تنصرف وانت ماجور

قوموا اشحذوا معي

وقف شحاذ بباب إحدى الدور وقال : تصدقوا عليٍّ فإني جائع .
فقالوا له : إلى الآن لم نخبز .
فقال : فبعض الشعير . .
فقالوا : ليس عندنا شعير
فقال : فشربة ماء . . إني عطشان
فقالوا : ما أتانا السقاء بعد
فقال : فقطعة لحم أو شحم . . .
فقالوا : ومن أين لنا الشحم واللحم وعيد الأضحى لم يأت بعد ؟
فقال : يا أولاد . . فما قعودكم هنا . . قوموا اشحذوا معي !

لعلي جئت بغير ما تظن

ووقف سائل على باب فقال : يا أصحاب المنزل ، فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال : فتح الله عليك ، فقال السائل : يا . . . كنت تصبر لعلي جئت أدعوك إلى وليمة .

اختبار الجوع

وقال أبو عثمان الجاحظ : وقف سائل بقوم فقال : إني جائع
فقالوا له : كذبت
فقال : جربوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم .

ينتظره عذابه

سأل أعرابي صاحباً له : ما تقول يرحمك الله في رجل مات يوم الجمعة . . أيعذب عذاب القبر في يوم مبارك كهذا ؟
فقال الصاحب : يعذب يوم السبت !

أمشي وأربح حماراً

خرج أعرابي ومعه عشرة أحْمُر[1] ، فركب واحداً وعدها ، فإذا هي تسعة ، فنزل وعدها فإذا هي عشرة ، فلا زال كذلك مراراً ، فقال : أنا أمشي وأربح حماراً خير من أن أركب ويذهب مني حمار ، فمشي حتى كاد يتلف إلى أن بلغ قريته .

فطنة

قيل لأعرابي : قد سرق حمارك
فقال : الحمد الله الذي ما كنت عليه .

تصدقني أم تصدق الحمار ؟

قصد رجل أعرابياً ليستعير حماره ،
فقال الأعرابي : والله لقد أرسلته إلى المطحنة .
وفجأة نهق الحمار في الإسطبل . فقال الرجل : تكذب علي وتدعي أن الحمار غائب ، مع أنه موجود هناك وينهق ؟
فأجابه : غريب أمرك يارجل . . أتكذبني وتصدق الحمار ؟

مزايا الحمار

كان الفضل لا يركب إلا الحمير ، فقال له عيسى بن حاضر : إنك لتؤثر الحمير على جميع المركوب ، فلم ذلك؟ قال : لما فيها من المرافق والمنافع .
قلت : مثل أي شيء؟ قال : لا تستبدل بالمكان على قدر اختلاف الزمان ، ثم هي أقلها داء وأيسرها دواء ، وأسلم صريعا ، وأكثر تصريفا ، وأسهل مرتقى وأخفض مهوى ، وأقل جماحا ، وأشهر فارها ، وأقل نظيرا ، يزهى راكبه وقد تواضع بركوبه ، ويكون مقتصدا وقد أسرف في ثمنه .

إن شاء الله

خرج أعرابي إلى السوق يشتري حماراً ، فلقيه صديق له فسأله : إلى أين؟ ،

---

(١) جمع حمار ، والمشهور أن تُجمع على حمير ، ولكن هذا جمع تعرفه العرب .

فقال : إلى السوق لأشتري حماراً ، فقال : قل إن شاء الله ، فقال : ليس ها هنا موضع إن شاء الله ، الدراهم في كمي ، والحمار في السوق ، فبينما هو يطلب الحمار سرقت منه الدراهم فرجع خائباً ، فلقيه صديقه ، فقال له : ما صنعت؟ فقال : سرقت الدراهم إن شاء الله ، فقال له صديقه : ليس ها هنا موضع إن شاء الله .

لماذا صار حماراَ؟

ركب أعرابي على حمار وجعل يضربه ، فقيل : ارفق به

فقال : إذا لم يقدر يمشي فلم صار حماراً؟!

وصف الطعام

مر أعرابي بقوم من الكتبة في متنزه لهم وهم يأكلون ، فسلم ثم وضع يده يأكل معهم ، فقالوا : أعرفت فينا أحدا؟ قال : بلى ، عرفت هذا! وأشار إلى الطعام ، فقال بعض الكتاب يصف أكله : لم أر مثل ثرطه ومطّه

قال الثاني :

وأكله دجاجه ببطّه

قال الثالث :

ولفّه رقاقه بإقطه

قال الرابع :

كأنّ جالينوس تحت إبطه

فقالوا للرابع : أما الذي وصفنا من فعله فمفهوم ؛ فما يصنع جالينوس من تحت إبطه؟ قال : يلقمه الجوارش كلما خاف عليه التخمة ، يهضم بها طعامه!

أعرابي على مائدة سليمان

حضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك[1] ، فجعل يمرّ إلى ما بين يديه ، فقال

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، الخليفة الأموي السابع ، وهو يعد من خلفاء بني الامية الأقوياء ، ولد ب دمشق وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الخليفة الوليد بن عبد الملك عام ٩٦هـ . ومدة خلافته لا تتجاوز السنتين وسبعة شهور .

له الحاجب : مما يليك فكل يا أعرابي . فقال : من أجدب انتجع . فشق ذلك على سليمان ، وقال للحاجب : إذا خرج عنا فلا يعد إلينا . وشهد بعد هذا سفرته أعرابي آخر ، فمر إلى ما بين يديه أيضا ، فقال له الحاجب : مما يليك فكل يا أعرابي . قال : من أخصب تخيّر . فأعجب ذلك سليمان ، فقرّبه وأكرمه وقضى حوائجه .

في ضيافة أعرابي

تعشى جماعة من الناس عند أعرابي . . فرآهم يأكلون بشراهة ،

فقال : والله ليس هذا أكل من أراد أن يتعشى . . ولكنه أكل من أراد أن يميتني من الغيظ !

خوفاً من وجوب النافلة

عن البحتري[1] قال : قال لي السراج : منذ أربعين سنة لم أوتر خلافاً لمن يوجبها ، قلت : أنظر إلى تغفيل هذا الرجل كيف ترك واجباً عند قوم ، وسنة عند الأكثرين ، وما يضر من أوجبها من تركه إياها .

تعزية في مريض

عاد أعرابي عليلاً فعزاهم فيه ، إنه لم يمت

فقال : يموت إن شاء الله .

ضرسك يذكرك بنفسه

قال أعرابي لغلامه : إذا مررنا بالطبيب فذكرني وجع ضرسي حتى أسأله عن الدواء

فقال : يا مولاي إن كان ضرسك يوجعك فسوف تذكره .

---

(١) البحتري : هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي ، أحد أشهر الشعراء العرب في العصر العباسي . يقال لشعره سلاسل الذهب ، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم ، المتنبي وأبو تمام والبحتري .

بشرى

دخل أعرابي على مريض فقال : إذا رأيتم المريض على هذه الحال فاغسلوا أيديكم منه .

أفتى لنفسه

تقدم أعرابي إلى بعض الفقهاء فقال له : الرجل إذا خرجت منه الريح تجوز صلاته

قال : لا

قال : قد فعلت أنا وجاز .

الأعرابي والثريد

قال أعرابي : كنت أشتهي ثريدة دكناء من الفلفل ، رقطاء من الحمص ، ذات حفافين من اللحم ، لها جناحان من العراق ، أضرب فيها كما يضرب وليّ السوء في مال اليتيم!

بين حضري وبدوي

وقال رجل من أهل المدينة لأعرابي : ما تأكلون وما تعافون؟

قال له الأعرابي : نأكل كل ما دب وهب ، إلا أم حبين

قال المدني : ليهنيء أمّ حبين العافية .

بين أعرابيين

وقال رجل لأعرابي : ما يسرني لو بتّ ضيفا لك!

فقال له الأعرابي : لو بتّ ضيفا لي لأصبحت أبطن من أمك قبل أن تلدك بساعة .

حساب أعربي

رأى أعرابي صديقاً له فقال . طلبتك اليوم عشرين مرة وهذه الثالثة!

بين المظهر والمخبر

وقف شيخ من الأعراب بباب مسجد والمؤذن يقيم الصلاة ، فدخل فرأى المؤذن هيبته وشيبته ، فسأله أن يصلي بهم ، فامتنع ، فتقدم المؤذن وصلى بهم ، فلما فرغ أقبل على الشيخ فقال له : ما منعك أن تصلي بنا فتكسب أجراً؟ فقال : أنا وحقك إذا كنت على غير طهارة لم أصل إماماً .

ما بلغ من حب أعرابي لرسوله

قال أعرابي : إني أحب رسول الله ﷺ حباً لم يحبه أحد قط

قيل : وما بلغ من حبك له؟

قال : وددت أن عمه أبا طالب أسلم ويسر النبي بذلك وأموت كافراً بدله!

أهم ما أدركه الأعرابي في الغزو

غزا أعرابي مع الرسول ﷺ فقيل له : ما سمعت من رسول الله في غزوتك هذه؟

قال : وضع عنا نصف الصلاة . . وأرجو في غزوة اخرى أن يضع عنا النصف الأخر .

نصف طاعة ونصف ثواب

سمع أعرابي أن صوم يوم عاشوراء يعدل صوم سنة ، فصام إلى الظهر وأكل وقال : يكفيني ستة أشهر .

أعرابي مفطر في رمضان

قال الأصمعي : مررت بأعرابي يأكل في رمضان ، فقلت له : ألا تصوم يا أعرابي؟ فقال :

وصائم هبّ يلحاني فقلت له اعمد لصومك واتركني وإفطاري

واظما فإني سأروى ثم سوف ترى من ذا يصير إذا متنا إلى النّار

أبو مهدية الأعرابي

قال أبو عثمان المازني[١] : قال أبو مهدية : بلغني أن الأعراب والأعزاب هجاهما واحد .

قلت : نعم .

قال : فاقرأ : «الأعزاب أشدّ كفرا ونفاقا» ولا تقرأ : الأعراب .

ولا يغرّك العزب وإن صام وصلى

وتوفي بنيّ لأبي مهدية صغير ، فقيل له : أبشر أبا مهدية ؛ فإنا نرجو أن يكون شفيع صدق يوم القيامة!

قال : لا وكلنا الله إلى شفاعته ، إذا والله يكون أعيانا لسانا وأضعفنا حجة ؛ ليته المسكين كفانا نفسه!

وقيل لأبي مهدية : أكنتم تتوضؤون بالبادية؟

قال : نعم والله ؛ لقد كنا نتوضأ فتكفي التوضئة الواحدة الرجل منا الثلاثة الأيام والأربعة ، حتى دخلت علينا هذه الحمر- يعني الموالي- فجعلت تليق أستاهها كما تلاق الدواة .

**

وقيل لأبي مهدية : أتقرأ من كتاب الله شيئا؟

قال : نعم . ثم افتتح يقرأ :

وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذا سَجى

حتى انتهى إلى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى

فالتفت إلى صاحب له فقال : إن هؤلاء العلوج يقولون : ووجدك ضالا فهدى . والله لا أقولها أبدا .

**

ولما سن أبو مهدية ولي جانبا من اليمامة ، وكان به قوم من اليهود أهل عطاء وجدة ، فأرسل إليهم فقال : ما عندكم من المسيح؟

---

(١) بكر محمد بن عثمان النحوي ، إمام عصره في النحو والأدب . وله من التصانيف كتاب ما تلحن في العامة وكتاب التصريف وكتاب العروض وكتاب القوافي .

قالوا : قتلناه وصلبناه!

قال : فهل غرمتم ديته؟

قالوا : لا .

قال : إذا والله لا تبرحوا حتى تغرموا ديته! فأرضوه حتى كف عنهم .

وقيل لأبي مهدية : ما أصبركم معشر الأعراب على البدو

قال : كيف لا يصبر على البدو من طعامه الشمس وشرابه الريح!؟

**

ونظر أبو مهدية إلى رجل يستنجي ويكثر من الماء ، فقال له : إلى كم تغسلها ويحك!

أتريد أن تشرب فيها سويقا!

**

ومات طفل لأبي مهدية ، فقيل له : اصبر يا أبا مهدية ؛ فإنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته .

فقال : بل ولد دفنته ، وثكل تعجلته ؛ والله لئن لم أجزع للنقص ، لا أفرح للمزيد .

**

قال أبو عبيدة : سمع أبو مهدية رجلا يقول بالفارسية : زود زود .

فقال : ما يقول هذا؟

فقيل له يقول : عجل عجل .

فقال : أفلا يقول : حيهلا .

أعرابي وأمه

نظر أعرابي في الجب فرأى وجهه فعاد إلى أمه فقال : في الجب لص

فجاءت الأم فاطلعت فقالت : أي والله ومعه فاجرة .

ميلاد أعرابي

سئل أعرابي عن مولده فقال : ولدت رأس الهلال للنصف من رمضان بعد العيد بثلاثة أيام ، احسبوا الآن كيف شئتم .

أعرابي يكتب إلى أبيه

كتب أعرابي إلى أبيه : كتابي إليك يوم الجمعة ، عشية الأربعاء لأربعين ليلة خلت من جمادى الأوسط ، وأعلمك أني مرضت مرضة لو كان غيري كان قد مات .

فقال أبوه : أمك طالق ثلاثاً ، لو مت لما كلمتك أبداً .

دعاء وصدقة

دعا أعرابي فقال : اللهم ارزقني خمسة آلاف درهم حتى أتصدق منها بألفي درهم وإن لم تصدقني فادفع إلي ثلاثة آلاف درهم واحبس الباقي ، فإن تصدقت وإلا فتصدق بها على من شئت .

دعاء وتوضيح

دعا رجل من الأشراف بمكة فقال : اللهم إن كنت لا تعرفني فأنا فلان بن فلان ، وأني مررت بعبدك فلان وهو يقول شيئاً فيه فحش ، فرفسته فانبطح يفحص برجليه ميتاً ، اللهم قد أقررت لك الآن فاغفر لي كما تريد .

استغفار

دعا أعرابي قائلاً : اللهم اغفر لي من ذنوبي ما تعلم وما لا تعلم .

دون أبيه

دعا أعرابي فقال : اللهم اغفر لأمي وأختي وامرأتي

فقيل له : لم تركت ذكر أبيك؟

قال : لأنه مات وأنا صبي لم أدركه .

يبحث عنه وهو يحمله

خرج أعرابي من منزله ومعه صبي عليه قميص أحمر ، فحمله على عاتقه ثم نسيه ، فجعل يقول لكل من رآه : رأيت صبياً عليه قميص أحمر؟

فقال له إنسان : لعله الذي على عاتقك؟

فرفع رأسه ولطم الصبي وقال : يا خبيث ألم أقل لك إذا كنت معي لا تفارقني!

منارة الجامع

نظر أعرابي إلى منارة الجامع فقال : ما كان أطول هؤلاء الذين عمروا هذه!

فقال آخر : اسكت ما أجهلك ، ترى أنه في الدنيا أحد طول هذه؟ وإنما بنوه على الأرض ثم رفعوها .

بين أحمقين

قدم أعرابي فسأله رجل متى قدمت! قال : غداً

قال : لو قدمت اليوم سألتك عن إنسان ، فمتى تخرج؟

قال : أمس

قال : لو أدركتك كتبت معك كتاباً .

نصف الدار

اشترى أعرابي نصف دار فقال يوماً : قد عزمت على بيع نصف الدار الذي لي واشترى بثمنه النصف الآخر حتى تصير الدار كلها لي .

رؤيا وتأويل

قال رجل لأعرابي : رأيت البارحة أباك في المنام وثيابه وسخة

فقال : قد كفنته أمس في أربعة أثواب جدد ، وما ينبغي أن تكون قد اتسخت ثيابه .

في العزاء

كتب أعرابي إلى رجل يعزيه بابنته : بلغني مصيبتك وما هي بمصيبة ، وقد جاء بالخبر عن النبي ﷺ أنه قال : من توفيت له بنت كان له من الأجر مثل الذي ذهب والله عني ، ومن توفيت له اثنتان كان له من الأجر مثل الذي ذهب عني مرتين ، وبعد فقد ماتت عائشة بنت النبي ﷺ فمن ابنتك البظراء حتى لا تموت .

أصيب أعرابي بمصيبة فقيل له:

عظم الله أجرك ، فقال : سمع الله لمن حمده .

عزى رجل أعرابياً بابنه

فقال له في الجواب : رزقنا الله مكافأتك .

خلق الإنسان

شهد أعرابي عند وال فقال : سمعت بأذني وأشار إلى عينه ورأيت بعيني وأشار إلى أذنيه بأنه جاء إلي رجلٌ فتلبب بعنقه وأشار إلى صدره وما زال يضرب خاصرته وأشار إلى فكه فقال له الوالي : أحسبك قد قرأت كتاب خلق الإنسان ، قال : نعم ، قرأته على الأصمعي .

الأعرابي والقاضي

دخل أعرابي إلى بعض القضاة فجلس بين يديه فقال : أعدمني الله القاضي ، مات فلان والذي ما خلفوا بعدي سواهم وهو ذا يظلمونـــي إخوتي ، نسيباتي تسعة وهم واحد وكل يوم يجعلون عمامتي في عنق القاضي يجرونه إلي ، فقال القاضي : ليس الممتحن غيري .

أسوأ ما في الموت!

سمع أعرابي قوماً يتذاكرون الموت وأهواله

فقال : لو لم يكن في الموت إلا أنك لا تقدر أن تتنفس لكفى .

رائحة السمك

اشترى أعرابي سمكاً فقال لأهله : أصلحوه ، ونام ، فأكل عياله السمك ولطخوا يده به

فلما انتبه قال : قدموا السمك

قالوا : قد أكلت

قال : صدقتم ولكني ما شبعت .

الأعرابي والصيام

ذكروا أن أعرابيا أتى عينا من ماء صاف في شهر رمضان ، فشرب حتى روى ، ثم أومأ بيده إلى السماء فقال .

إن كنت قــدّرت الصــيا م فأعفنــا مــن شهـر آب
أو لا فإنّــا مفطـــرو ن وصابـرون على العذاب

عمامة أعرابي

قيل لأعرابي : إنك لتكثر لبس العمامة
قال : إن شيئاً فيه السمع والبصر لجدير بأن يوقى الحر والقر .

أطيب الطعام

قال عبدُ الملك بن مروانَ[1] لأعرابيّ : ما أطيَبُ الطعام؟

فقال : بَكرةٌ سَنِمةٌ ، معتَبَطة غير ضَمِنة ، في قدور رَذمةٍ ، بشفار خَذِمةٍ ، في غداة شَبِمة ،

فقال عَبد الملك : وأبيك لقد أطْيَبْت ،

معتَبَطة : منحورة من غير داء ؛ يقال : اعُتبِط الإبلُ والغنمُ ، إذا ذبحت من غير داءٍ ، ولهذا قيل للدم الخالص : عَبيطً ،

والعَبيط : ما ذُبح من غير علّة ، غير ضَمِنة : غير مريضة ،

رذمة : سائلة من امتلائها ، شِفارٍ خذِمة : قاطعة ، غداة شبمة : باردة ، والشَّبَم : البرد

السائل الفصيح

قام أعرابيٌّ ليَسأل فقال : أينَ الوُجوه الصبِّاح ، والعقولُ الصِّحاح ، والألسن الفصاح ، والأنساب الصِّراح ، والمكارم الرِّباح ، والصُّدور الفِساح ، تُعيذُني من مَقامي هذا؟

---

(١) عبد الملك بن مروان الأموي القرشي ، أبو الوليد . خامس الخلفاء الأمويين وكان من أعظم خلفاء بني أمية لقب بأبي الملوك ، توسعت الدولة الأموية في عهده وازدهرت وكانت دمشق عاصمة الدولة منارة للعلم وأعظم مدن العالم الإسلامي .

وقال الأصمعيّ : وقف أعرابيٌّ يسأل فقال :

ألاَ فَتــــــــىً أرْوَعَ ذا جَمَــــــــالِ   مــــن عَــرَبِ النَّـــاسِ أو المَوَالــي
يُعينُنـــــــي اليــومَ عَلَى عِيالــــــي   قَــد كَثَّــرُوا هَمِّــي وَقَـلَّ مالــي
وَساقَهُــــمْ جَــدبٌ وسُــوءُ حــالِ   وقـــد مَلِلْـــتُ كَثْــرةَ السُّـــؤال

في المال

قال أعرابيّ : الدَّرَاهم مَيَاسم تَسِم حَمْداً أو ذَمّاً ،
فمن حَبَسها كان لها ، ومن أنفقها كانت له ،
ما كل من أعطى مالاً أُعْطِي حَمْداً ، ولا كلُّ عَديم ذَميم .
أخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

أنت للمال إذا أَمْسَكْتَـــه   فإذا أنْفَقْتَهُ فالمالُ لَــكْ

وهذا نظير قول ابن عبّاس ، ونظر إلى دِرْهم في يد رجل ،
فقال : إنّه ليس لك حتَّى يَخْرج من يدك .

ذم

وقال أعرابيٌّ يَعيب قوماً :
هم أقلُّ النّاسِ ذُنوباً إلى أعدائهم ،
وأكثرُهم جُرماً إلى أصدقائهم ،
يصومون عن المعروف ، ويُفطِرون على الفَحْشاء

أحب إلي من كليهما

لقي رجل أعرابياً ومعه كلبان ، فقال : هب لي أحدهما
فقال : أيهما تريد؟
فإن الأسود أحب إلي من الأبيض
قال : فهب لي الأبيض
قال : الأبيض أحب إلي من كليهما .

ثلث القرآن

لقي أعرابي تاجراً فقال له : ما اسمك ولا تطول

فقال : أبو عبد منزل القطر عليكم من السماء تنزيلاً الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه

فقال : مرحباً بك يا ثلث القرآن .

يتعلم السفر

أراد أعرابي الخروج إلى بغداد ، فوضع سلماً وجعل يصعد وينزل ، فقيل له ، ما تصنع؟

قال : أتعلم السفر .

اغتاب جوزة

اشترى أعرابي جوزاً وجعل يقلبه ، فأخذ جوزه في يده فقال : ما أرى في جوفها شيئاً ، ثم قال : أستغفر الله لا أكون اغتبتها .

أول مرة

أراد أعربي أن يختن ابنه فقال للحجام : ارفق به ، فإنها ما اختتن قط .

تتجنب ملاقاة ملك الموت

نزل الموت بزوج أعرابية ، فقيل لها : لو دخلت على زوجك وودعتيه

قالت : أخاف أن يعرفني ملك الموت .

أشغلته الستور عن الطعام

دعي أعرابي إلى دعوة ، فاشتغل الناس بالأكل وجعل هو ينظر إلى الستور المغلقة ، وكانت الحيطان كلها قد سترت ، فقيل له : ما لك لا تأكل؟ فقال : والله لقد طال تعجبي من هذه الستور الطوال كيف دخلت من هذا الباب القصير!

إصلاح المعدة

نزلَ رجل بصومعة راهب ، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة ، وذهب ليحضر إليه

العدس ، فحمله وجاء ، فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز ، فوجده قد أكل العدس ، ففعل معه ذلك عشر مرات ، فسأله الراهب : أين مقصدك؟

قال : إلى الأردن

قال : لماذا؟

قال : لقد بلغني أنَّ بها طبيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدتي ، فإنِّي قليل الشهوة للطعام

فقال له الراهب : إنَّ لي إليك حاجة

قال : وما هي

قال : إذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك عليّ

على غير وضوء

خطب رجل خطبة نكاح وأعرابي حاضر ، فقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، قد قامت الصلاة ! فقال له الأعرابي : لا تقم الصلاة فإني على غير وضوء!

من حفر حفرة لأخيه وقع فيها

مر أعرابي بامرأة تبكي على قبر فسألها : هل هذا المدفون في القبر قريبك ؟

فقالت : زوجي

فقال لها : وما كان عمله؟

قالت : كان يحفر القبور

قال : أبعده الله . . أما علم أن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها

شتيمة

شتم صعلوك أعرابيا ؛ فردّ الأعرابي عليه : إن سلّطت لساني عليكَ ستتمنّى لو أنّ أباك نام ليلتها بدلاً أن يأتي بكَ إلى الدنيا مات .

أعطاه الحل

خرج أعرابي ذات يوم يريد السوق ، فنظر في بعض طرقه إلى شيخ طويل اللحية كلما أراد أن يتكلم بادرته لحيته ، فمرة يدسها في جيبه ومرة يجعلها تحت ركبته

فقال له : يا شيخ لم تترك لحيتك هكذا؟

قال : فتريد أن أنتفها حتى تكون مثل لحيتك!

قال : فإن الله يقول : «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» قال ﷺ : احفوا الشارب واعفوا اللحى ومعنى عفو اللحى أن يزال أثرها .

فقال الشيخ : صدق الله ورسوله ، سأجعلها كما أمر الله ورسوله ، فحلق لحيته وجلس في دكانه ، فكان كل من رآه وسأله عن خبره قرأ عليه الآية وروى له الحديث .

أنا علة

قيل لأعرابي وقد كان مرضاً : كيف نجدك!

فقال : أنا علة

قيل : وما معنى علة؟

قال : أليس يقال للصحيح ليس به علة؟

قالوا : نعم

قال : أنا كما قال ، أنا علة .

ثمن الشاة

قال : قال رجل لرجل : بكم تبيع الشاة؟

قال : أخذتها بستة ، وهي خير من سبعة ، وقد أعطيت بها ثمانية ، فإن كانت حاجتك بتسعة فزن عشرة .

أمه طالق

قيل لأعرابي : عندك مال وليس لك إلا والدة عجوز ، أن مت ورثت مالك وأفسدته

فقال : إنها لا ترثني

قيل : وكيف؟

قال : أبي طلقها قبل أن يموت .

يرثي أمه

أصيب أعرابي بأمه فقعد يبكي ويقول : يا أمي أماتني الله قبلك ، أمي زانية إن لم تدخل الجنة ، لا دخلتها امرأة أبداً .

دعاء الجنازة

رأى أعرابي جنازة قد أقبلت فقال : ربي وربك الله لا إله إلا الله

فقال آخر : أخطأت ، إذا رأيت جنازة فقل : اللهم ألبسنا العافية

فتشاجرا في ذلك فاحتكما إلى آخر فقال : إذا رأيتم جنازة فقولوا : سبحان الله من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته .

يطرد ملك الموت من بيته

مرض أعرابي مرة ، فلما اشتد به المرض أمر بجمع العيدان والطنابير والمزامير إلى بيته ، فأنكروا عليه ذلك فقال : إنما فعلت ذلك لأني سمعت أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه شيء من آلات الملاهي والفجور ، فإن كان ملك الموت من الملائكة دفعته عني بهذه الأشياء .

أتبع الحسنة السيئة تمحها!

غصب أعرابي رجلاً وتصدق به ، فقيل له في ذلك : فقال : أخذي إياه سيئة ، وصدقتي به عشر حسنات ، فمضت واحدة وبقيت لي تسعة .

اسألوا أمي

قيل لأعرابي : كيف دملك ، سكن وجعه؟

قال : والله ما أرى ، اسألوا أمي

استشارة

قال أعرابي لآخر وكان أحمق : المستشار مؤتمن ، وإني أريد أن أغسل ثيابي غداً ، أفترى تطلع الشمس أم لا؟

غلطة في المصحف!

نظر أعرابي في المصحف فقال : قد وجدت فيه غلطتين فأصلحوهما

قالوا : وما هي؟

قال : «كل بناءٍ وغواص» هذا غلط إنما يجب أن يكون كل بناءٍ وجصاص

والأخرى «والتينِ والزيتون» إنما هي والجبن والزيتون

تقليد

وقف أعرابي بباب داره يوم الجمعة والمطر يأتي سيلاً ، فقال لرجل من المارين : يا أخي هو ذا الذي يجيء مطر؟

فقال له : أما ترى؟

فقال : أردت أن أقلد غيري في انقطاعي عن الجمعة ولا أعمل بعلمي .

الذكي والأعرابي

حكى أن أعرابي كان يقود حماراً ، فقال بعض الأذكياء لرفيق له : يمكنني أن آخذ هذا الحمار ولا يعلم هذا المغفل

قال : كيف تعمل ومقوده بيده؟

فتقدم فحل المقود وتركه في رأس نفسه وقال لرفيقه : خذ الحمار واذهب ، فأخذه ، ومشى ذلك الرجل خلف المغفل والمقود في رأسه ساعة ، ثم وقف فجذبه فما مشى ، فالتفت فرآه

فقال : أين الحمار؟

فقال : أنا هو

قال : وكيف هذا؟

قال : كنت عاقاً لوالدتي فمسخت حماراً ، ولي هذه المدة في خدمتك ، والآن قد رضيت عني أمي فعدت آدمياً

فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وكيف كنت أستخدمك وأنت آدمي!

قال : قد كان ذلك

قال : فاذهب في دعة الله ، فذهب ومضى المغفل إلى بيته فقال لزوجته : أعندك الخبر؟ كان الأمر كذا وكذا ، وكنا نستخدم آدمياً ولا ندري فبماذا نكفر وبماذا نتوب؟

فقالت : تصدق بما يمكن

قال : فبقي أياماً ، ثم قالت له : إنما شغلك المكاراة فاذهب واشتر حماراً لتعمل عليه ، فخرج إلى السوق فوجد حماره ينادى عليه ، فتقدم وجعل فمه في أذنه وقال : يا مدبر عدت إلى عقوق أمك!

حج قبل حفر زمزم

شهد أعرابي عند بعض القضاة على رجل ، فقال المشهود عليه : أيها القاضي تقبل شهادته ومعه عشرون ألف دينار ولم يحج إلى بيت الله الحرام؟

فقال : بلى حججت

قال : فاسأله عن زمزم

فقال : حججت قبل أن تحفر زمزم فلم أرها .

مات من لم يمت قط

وقع جرف في بعض السنين فقال أعرابي : مات في هذه السنة من لم يمت قط .

ثوب للميت

أقبل رجل على أعربي فقال له : تعيرنا أصلحك الله ثوبا نكفن فيه ميتا ؟!

قال : أخشى ينجسه فلا تلبسه إياه حتى يغسل ويطهر!

الأعرج وصاحب الشرطة

كان ابن عبدل الأسدي أعرج أحدب وكان من أطيب الناس وأملحهم فلقيه صاحب الشرطة الذي يتحرى الناس ليلا السكارى والمجان واللصوص . ليلة وهو سكران محمول في محفة . فقال له : من أنت؟

فقال له : يا بغيض أنت أعرف بي من أن تسألني من أنا .فاذهب إلى شغلك فإنك تعلم جيدا أن اللصوص لا يخرجون بالليل للسرقة محمولين في محفة . فضحك وانصرف عنه .

دعوتُ لإبليس

سمع أبو يعقوب الخريمي منصور بن عمار صاحب المجالس يقول في دعائه : اللهم

اغفر لأعظمنا ذنبا وأقسانا قلبا وأقربنا بالخطيئة عهدا وأشدنا على الدنيا حرصا فقال له : امرأتي طالق إن كنت إلا دعوت لإبليس !

ورطة خياط

أتى أحد الأعراب ومعه قماش إلى خياط كي يخيط له ثوباً ، فلما أخذ الخياط مقاس الأعرابي أخذ يقطع من القماش كي يخيط له حينها غضب الأعرابي وقال له : لم قطعت القماش يا علج ((العلج = الحمار)) .

فقال الخياط : لن تصلح الخياطة إلا بشق القماش ، وكان مع الأعرابي هراوة ((عصا)) فشج رأس الخياط بواحدة فهرب الخياط من محله ولحقه الأعرابي وهو يقول :

ما إن رأيـــت ولا سمعـــت بمثلـــه فيمـــا مضى في سالف الأحقابِ
من فعـــل علج جئته ليخيط لـــــي ثوبـــاً فخرّقـــه كفعـــلِ مُصـــابِ
فعلوتـــــه بهـــــراوةٍ كانـــت معـــي ضربـــاً فولّـــى هاربـــاً للبـــابِ
أيشـــــق ثوبـــي ثمّ يقعد آمـــناً ؟!! كـــلاّ ومنـــزل ســـورة الأحـــزابِ

على مائدة يزيد

حضر أعرابي على مائدة يزيد بن مزيد[(١)] فقال لأصحابه : أفرجوا لأخيكم

فقال الأعرابي : لا حاجة لي بإفراجكم إن أطنابي طوال يعني سواعده ، فلما مد يده ضرط ، فضحك يزيد ، فقال يا أخا العرب : أظن أن طنبا من أطنابك قد انقطع .

حال أعرابي

وُجد أعرابي يأكل ويتغوط ويفلي ثوبه ، فقيل له في ذلك

فقال : أخرج عتيقا وأدخل جديدا ، وأقتل عدوا .

أعرابي في الخلاء

جلس بعض الأعراب يشرب مع ندمائه فاحتاج إلى بيت الخلاء ، فدلوه عليه ،

---

(١) ابن زائدة ، أمير العرب أبو خالد الشيباني ، أحد الأبطال والأجواد ، وهو ابن أخي الأمير معن بن زائدة ، ولي اليمن ، ثم ولي أذربيجان وأرمينية للرشيد ، وقتل رأس الخوارج الوليد بن طريف .

فلما دخل جعل يضرط ضراطا شنيعا ، فضحكوا عليه ، فأنشد يقول :

إذا ما خلا الإنسـان في بيـت غائـط　　تراخت بلا شك مصاريـع فقحته

فمـن كـان ذا عقـل فيعـذر ضارطـا　　ومن كان ذا جهل ففي وسط لحيته

أعرابي في عرس

قال الهيثم بن عدي(١) : سمعت أعرابيا يقول : دخلت حضرتكم بعد عيد الاضحى فإذا انا بجمع عظيم عليهم انواع من الثياب من بيض وحمر وصفر فكأنها زهر بستان ، فقلت في نفسي : هذا العيد الذي يذكره اصحابي لي ، أن الحضر يتزينون فيهثم رجعت الى عقلي فقلت : وأي عيد هو؟ وقد خرجت بعد عيد الاضحى .فبينما أنا باهت افكر في الأمر ، إذا أخذ بيدي رجل منهم .فقال : أُدخل يا أعرابي ، فدخلت ،فإذا بمجلس منضد بالنضائد ، موسد بالوسائد ، وفي صدرة سرير ، وعليه رجل جالس ، والناس صموت عن يمينه وشماله . فقلت في نفسي : هذا الخليفة الذي يذكرون ، فقبلت الأرض وقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقيل : اسكت يا أعرابي ، هذا عريس ونحن في عُرسة ، فهيئ لي موضع في المجلس ، فجلست فيه فقدمت إلي هنات [أشياء لا أعرفها] من خشب عليها ثياب متلاحمة النسج ، فهممت أن آخذ منها لكي أرقع بها ثوبي ، فقيل لي : مد يدك يا اعرابي وكل .فإذا هو ضرب من الخبز لا اعرفه ، ثم قدمت ال انواع من الطعام حلوة وحامضة ، وشراب ساخنة وباردة ، فقدموا لي شراب غريب الشكل لونه احمر فجعلوا يصبون لي في قدح ويقولون لي اشرب .وقيل لي بان هذا الشراب يهضم المعدة ، فشربت منه فحدث في قلبي طرب لا أعرفه . فهممت أن أهشم الذي بجانبي ، فقالوا لرجل أمتعنا بنفسك .فأتى بهنات [أشياء لا أعرفها]لها رأسان مشدودان بالخيوط المحصدة [المفتولة] فأقبل يضرب رأسه ، فيخرج منها صوتا كهزيم الرعد وزئير اسد واخرج رجل من كمه شيئا كفشيلة الحمار ، فأقبل يردد عليه به ، وأقبل آخر ينتخ [يسترج وينتزع]حتى ارتمى على الأرض . فقلت مجنون ورب الكعبة ، ثم أقبلوا

---

(١) الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن بن زيد ، الطائي الكوفي ، أبو عبد الرحمن ، الإخباري ، المؤرخ العلامة . ذاع صيته بالكوفة وقلَّ ما روى من المسند . ضعّفه علماء الحديث . اختص بمجالسة المنصور ، والمهدي ، والهادي ، والرشيد ، وروى عنهم .

يضرعون إلى آخر ، ويرغبون إليه . فأتاهم بدابة من خشب ،عينها في صدرها إذا فتلت آذانها تكلم فوها ، فطرب كل من حضر وطربت حتى تقدمت إليه .فسألته : يا سيدي ما هذه الدابة؟ فقال لي إنها البربط [العود] فقلت آمنت بالله وبالبربط ، ثم سقوني قدحا آخر فنمت نومة لم توقظني منها إلا حر الشمس من الغد .

يضرب أمه

قال الأصمعي : رأيت أعرابيا يضرب أمه .
فقلت له : يا هذا أتضرب أمك!!!
فقال : اسكت فاني أريد أن تنشأ على أدبي .

ولاية

قدم رجل من فارس على صاحب له ، فسأله صاحبه : قد كنت عند الأمير ، فأي شيء ولاّك؟
فأجاب الرجل : ولاّني قفاه .

الخيط والخيانة

كان الرجل من العرب إذا خرج مسافرا بدأ بالشجرة يعقد خيطا على ساقها أو على غصن من أغصانها فإذا رجع إلى أهله بدأ الى الشجرة فنظر إلى الخيط فإن كان منحلا حكم أن امرأته خانته وإن كان على حاله حكم أنها حفظته

طلقها لوجه الله

عن الأصمعي قال خرج قوم من قريش إلى أرض لهم وخرج معهم رجل من غفار فأصابهم ريح عاصف حتى يئسوا معه من الحياة فسلوا «استسلموا» واعتق كل رجل منهم عبدا له فقال الغفاري : اللهم إنك تعلم أنني لا أملك عبدا فأعتقه ولكن امرأتي طالق ثلاثا إكراما لوجهك الكريم .

عدو الطائفية

سمع أبن الإعرابي رجلا يقول لناس اجتمعوا عليه يضربونه : أتوسل إليكم بحق

علي ومعاوية أن تكفوا عني .
فقال أحدهم وهو يجيد ضربه : لقد جمعت بين الساكنين .

الملك لله

رُمِيَّ رجل أعور بسهم فأصاب عينه السليمة فقال : أمسينا وأمسى الملك لله!

سين وجيم

سئل إعرابي عن اسمه فقال اسمي عبد الله
فقيل ابن من؟
فقال : ابن عبد الله
فقيل ابن من؟
فقال : ابن عبد الرحمن
فقال له السائل : أشهد انك تلوذ بالله تعالى لواذ يتيم جبان

فقيه الأعراب

سئل أعرابي : أتذكر أن الناس حجوا من قبل في رمضان
ففكر طويلا ثم أجاب : نعم . . أظن . . مرتين أو ثلاثاً !

نأكل سُماً

دخل أعرابي على قوم يأكلون ، فقال ما تأكلون؟
فقالوا : سُمًّا ،
فأدخل يده في الجفنة وقال : الحياة بعدكم حرام .

منزل سائل

وقيل لسائل أعرابي : أين منزلك؟
قال : ما لي منزل إنما أشتمل الليل إذا عسعس
وأظهر بالنهار إذا تنفس .

مزارع مع وقف التنفيذ

دخل رجل دكاناً ليحلق ذقنه وكان الحلاق غير بارع فصار كلما جرح الرجل جرحاً يضع عليه قطناً ولمّا أتم نصف ذقن الرجل وقف وقال له : كفى خذ أجرتك . . فسأله الحلّاق لماذا لا تصبر حتى تنتهي . . فأجابه : لأنك زرعت نصف ذقني قطناً ومرادي أن أزرع النصف الآخر كتاناً .

بلاهة أعرابي

عن أبي عثمان المازني أنه قال : كنت في البادية فإذا بأعرابي تقدم فقال : الله أكبر سبح اسم ربك الأعلى ، الذي أخرج المرعى ، أخرج منها تيساً أحوى ينزو على المعزى ثم قام في الثانية فقال : وثب الذئب على الشاة الوسطى وسوف يأخذها تارة أخرى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ألا بلى ألا بلى فلما فرغ قال : اللهم لك عفرت جبيني وإليك مددت يميني فانظر ماذا تعطيني .

صاحب الحبل

يروى أن رجلاً أحتاج حبلاً فذهب إلى جاره كي يستعيره منه فأعتذر الرجل من تلبية طلبه ، فسأله : هل أنت محتاج إليه لمدّة طويلة فقال صاحب الحبل : سأنشر عليه الحنطة فدهش الرجل وقال : كيف تنشر الحنطة على الحبل فقال صاحب الحبل يا صديقي إنّي أستطيع أن أفعل كل شيء طالما أنا لا أريد أن أعير الحبل لك .

تبدل الأحوال

روي أن رجلاً من الأولين كان يأكل ،
وبين يديه دجاجة مشوية ،
فجاء سائل فرده خائباً . وكان الرجل مترفاً .
فوقعت بينه وبين امرأته فرقة ، وذهب ماله ، وتزوجت ،
فبينما زوجها الثاني يأكل ، وبين يديه دجاجة مشوية ،
إذ جاء سائل
فقال لزوجته : ناوليه الدجاجة ، فناولته

ونظرت فإذا زوجها الأول ، فأخبرته بالقصة

فقال الثاني : وأنا والله ذلك المسكين ، خيبني فحول الله نعمته وأهله إلي لقلة شكره .

بلاغة أعرابي

قال أعرابي لهشام بن عبد الملك[١] : أتت علينا ثلاثة أعوام . فعام أكل الشحم ، وعام أكل اللحم ، وعام انتقى العظم . وعندكم أموال ، فإن كانت لله فادفعوها إلى عباد الله ، وإن كانت لعباد الله فادفعوها إليهم ، وإن كانت لكم فتصدقوا ، فإن الله يجزي المتصدقين .

فقال له هشام : فهل من حاجة غير ذلك؟

قال : ما ضربت إليك أكباد الإبل أدّرع الهجير ، وأخوض الدجى لخاص دون عام .

الأعرابي والأصمعي

قال الأصمعي لأعرابي : أتقول الشعر؟

قال الأعرابي : أنا ابن أمه وأبيه .

فغضب الأصمعي وأراد أن يختبر الإعرابي فلم يجد قافية أصعب من الواو الساكنة المفتوح ما قبلها مثل (لَوْ)

قال فقلت : أكمل

فقال : هات

فقال الأصمعي :

قـــــومٌ عهدناهـــــــــم ... سقاهـــم الله من النــــــو

فقال الأعرابي :

النـــو تلألأ فـــي دجا ليلةٍ ... حالكـــــة مظلمـــةٍ لـــــو

---

(١) هشام بن عبد الملك الأموي القرشي كان عاشر خلفاء بني أمية ، في عهده بلغت الإمبراطورية الإسلامية أقصى اتساعها ، حارب البيزنطيين واستولت جيوشه على ناربونه وبلغت أبواب بواتيه حيث وقعت معركة بلاط الشهداء .

فقال الأصمعي : لو ماذا ؟

فقال الأعرابي :

لو سار فيها فــارس لانثنى   علــى بــه الأرض منطو

قال الأصمعي : منطو ماذا ؟

فقال الأعرابي :

منطوِ الكشح هضيم الحشا   كالبــاز ينقــض من الجو

قال الأصمعي : الجو ماذا ؟

فقال الأعرابي :

جو السما والريح تعلو بــه   فاشتــم ريح الأرض فاعــلو

الأصمعي : اعلو ماذا ؟

فقال الأعرابي :

فاعلــوا لما عيل من صبــره   فصــار نحــو القوم ينعــو

فقال الأصمعي : ينعو ماذا ؟

قال الأعرابي :

ينــعو رجالاً للقنا شرعــت   كفيــت بما لاقــوا ويلقــوا

فقال الأصمعي : يلقوا ماذا ؟

قال الأعرابي :

إن كنــت لا تفهم ما قلتــه   فأنــت عنــدي رجــل بــو

قال الأصمعي : بو ماذا ؟

فقال الأعرابي :

البــو سلخ قد حشي جلده   بأظلــف قرنــين تقــم أو

قال الأصمعي : أوْ ماذا ؟

فقال الأعرابي :

أو أضــرب الرأس بصيوانة   تقــول في ضربتــها قــو

قال الأصمعي : فخشيت أن أقول قوً ماذا ، فيأخذ العصى ويضربني

ابن عائشة وجعفر التميمي

قال محمد بن زكريا قال : حضرت مجلسا فيه عبيد الله بن محمد بن عائشة

التميمي ، وفيه جعفر بن قاسم الهاشمي ، فقال لابن عائشة :

ههنا آية نزلت في بني هاشم خصوصا .

قال : وما هي؟

قال : قوله تعالى : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾

قال ابن عائشة : قومه قريش ، وهي لنا معكم .

قال : بل هي لنا خصوصا .

قال : فخذ معها : ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾

فسكت جعفر فلم يجد جوابا .

ابن من سجدت له الملائكة

روى سعيد بن يحيى الأموي عن أبيه قال : كان فتيان من قريش يرمون ، فرمى منهم رجل من ولد أبي بكر وطلحة فأصاب فقال : أنا ابن القرنين .

فرمى آخر من ولد عثمان فأصاب ، فقال : أنا ابن الشهيد .

ورمى رجل من الموالي فأصاب ، فقال : أنا ابن من سجدت له الملائكة .

فقالوا : من هو؟

فقال : آدم .

الحسن البصري والمجوسي

روي عن الحسن البصري[١] رضي الله عنه أنه قال : دخلتُ على بعض المجوس وهو يجود بنفسه عند الموت ، وكان منزلهُ بإزاء منزلي ، وكان حسن الجوار ، وكان حسن السيرة ، حسن الخلق ، فرجوتُ الله تعالى أن يوفِّقه عند الموت ، ويميتُه على الإسلام ، ،

فقلت له : ما تجد ، وكيف حالك ؟ فقال : لي قلب عليل ولا صحّة لي ،وبدنٌ سقيمٌ ولا قوة لي ، وقبر مُوحش ولا أنيس لي ،وسفر بعيد ولا زاد لي ، وصراطٌ دقيق ولا جواز لي ، ونار حامية ولا بدنَ لي ،وجنَّة عالية ولا نصيب لي ، وربٌّ عادل ولا

(١) الحسن بن يسار البصري إمام وعالم من علماء أهل السنة والجماعة يكنى بأبي سعيد ولد قبل سنتين من نهاية خلافة عمر بن الخطاب في المدينة عام واحد وعشرين من الهجرة .

حُجَّةَ لي . قال الحسن : فرجوتُ الله أن يوفِّقه ، فأقبلت عليه وقلت له : لم لا تُسلِم حتى تَسلمَ ؟ قال : يا شيخ ، إنَّ المِفتاح بيدِ الفتاح ، والقفُل هاهنا ، وأشار إلى صدره ، وغشيَ عليه . قال الحسن : فقلت : إلهي وسيِّدي ومولاي ، إن كان سبقَ لهذا المجوسيِّ عندك حسنةٌ فعجِّل لها إليه قبل فراق روحه من الدنيا ، وإقطاع الأمل . فأفاق من عشيته ، وفتح عينه ، ثم أقبل وقال : يا شيخ ، إنَّ الفتَّاح أرسل المفتاح ، أمدد يمناك ، فأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهدُ أن محمداً رسول الله ، ثم خرجت روحه وصار إلى رحمة الله .

يموت وصدقة

قال يموت بن المزرع : قال لي سهل بن صدقة يوما . وكانت بيننا مداعبة : ضربك الله باسمك .

فقلت له مسرعا : أحوجك الله إلى اسم أبيك .

من أحاديث الأذكياء

مرّ رجل من الأذكياء برجل قائم في الطريق فقال : ما وقوفك؟

قال : أنتظر انسانا .

فقال : يطول قيامك إذن .

دخل رجل ذكي الى المسجد يصلي ، فسرقوا نعله ، فتركوها في كنيسة بجوار المسجد ، فجعل يفتش عليها ، فرآها في الكنيسة فقال :ويحك ، لمّا أسلمت أنا تنصّرت أنت!

قال بعض الأذكياء : إذا رأيت رجلا في صلاة الغداة على باب داره ، وهو يقول : ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ ، فاعلم أن في جواره وليمة لم يدع اليها .

وإذا رأيت قوما يخرجون من مجلس القاضي وهم يقولون : ﴿وما شهدنا الا بما علمنا﴾ ، فاعلم أن شهادتهم لم تقبل .

وإذا تزوّج الرجل ، فسئل عن حاله ، فإن قال : ما رغبنا إلا في الاصلاح ، فاعلم أن زوجته قبيحة .

تدحرج إلى أعلى!

حكي أن بعض الناس ضاف رجلا ، فانتبه صاحب الدار بالليل ، فسمع ضحك الرجل من الغرفة ، فصاح به : فلان :

قال : لبّيك .

قال : أنت كنت في الدار ، فما الذي رقاك الى الغرفة؟

قال : تدحرجت .

قال : الناس يتحرجون من فوق الى أسفل ، فكيف تدحرجت أنت من أسفل الى فوق؟

قال : فمن هذا أضحك .

أجوبة من القرآن

رؤي فقير في قرية فقيل له : ما تصنع؟

فقال : ما صنع موسى والخضر عليهما السلام . يعني : ﴿استطعما أهلها﴾

**

وسئل بعض السوقة عن سوقهم ، فقال : مثل سوق الجنة .

يعني أنه : لا بيع فيه ولا شراء .

حيلة بنان المتطفل

مر بنان بعرس فأراد الدخول ، فلم يقدر ، فذهب الى بقال فوضع خاتمه عنده على عشرة أقداح ، وجاء الى باب العرس فقال : يا بوّاب ، افتح لي .

فقال له البواب : من أنت؟

قال : أراك ليس تعرفني؟ أنا الذي بعثوني أشتري لهم الأقداح .

ففتح له البواب ، فدخل فأكل وشرب مع القوم ، فلما فرغ أخذ الأقداح فقال :

يا بوّاب ، افتح لي حتى أرد هذه .

فخرج فردها على البقال وأخذ خاتمه .

**

وجاء بنان الى وليمة لرجل ، فأغلق الباب دونه ، فاكترى سلّما ووضعه على حائط للرجل ، فأشرف على عيال الرجل وبناته ، ، فقال له الرجل :

يا هذا أما تخاف الله؟ رأيت أهلي وبناتي؟
فقال : يا شيخ ، ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد﴾
فضحك الرجل وقال له : انزل فكل .

ما بقي في صدره من القرآن

وقال بنان : حفظت القرآن كله ثم أنسيته إلا حرفين : ﴿ءاتنا غداءنا﴾

وعطش رجل إلى جنب بنان في دعوة ،
فقال بنان : ارفع نفسك الى فوق وتنفس ثلاثا ، فإنه ينزل ما أكلته من الطعام .

أخبار المتطفلين

قال طفيلي في نفسه :

نحـــن قوم إذا دُعينـا أجبْنا ... ومتى نُنْسَ يدْعُنا التَّطْفيــل
ونَقُــلْ علَّنا دُعِيْنا فغِبْـــنا ... وأتانا فلم يجِدْنا الرَّســـول

**

قيل لطفيلي : كم اثنان في اثنين؟ قال : أربعة أرغفة

**

ومرَّ طفيلي بقوم يتغدَّون فقال : سلام عليكم معشر اللئام .
فقالوا : لا والله ، بل كرام .
فثنى رجله وجلس ،
وقال : اللهمَّ اجعلهم من الصادقين ، واجعلني من الكاذبين .

**

جاء طفيلي إلى عرس فمنع من الدخول ، وكان يعلم أن أخا للعروس غائب ، فأخذ ورقة كاغد فطواها وختمها وليس في بطنها شيء ، وجعل في ظاهرها : من الأخ الى العروس .
وجاء فقال : معي كتاب من أخ العروس .
فأذن له ، فدخل فدفع إليهم الكتاب .
فقالوا : ما رأينا مثل هذا العنوان ، ليس عليه اسم أحد .

فقال : وأعجب من هذا أنه ليس في بطن الكتاب ولا حرف واحد لأنه كان مستعجلا!

فضحكوا منه وعرفوا أنه احتال لدخوله ، فقبلوه .

**

قال منصور بن علي الجهضمي : كان لي جار طفيلي ، وكان من أحسن الناس منظرا وأعذبهم منطقا وأطيبهم رائحة وأجملهم ملبوسا ، وكان من شأنه أني إذا دعيت إلى دعوة تبعني ، فيكرمه الناس من أجلي ، ويظنون أنه صاحب لي .

فاتفق يوما أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن بعض أولاده ، فقلت في نفسي : كأني برسوله وقد جاء ، وكأني بهذا الرجل قد تبعني ، والله لئن تبعني لأفضحنّه .

فأنا على ذلك إذ جاء الرسول يدعوني ، فما زدت على أن لبست ثيابي وخرجت ، فاذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره وقد سبقني للتأهب ، فتقدمت وتبعني ، فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة ، ودعي بالطعام ، وحضرت الموائد ، وكان كل جماعة على مائدة والطفيلي معي ، فلما مدّ يده لتناول الطعام قلت :

حدثنا درست بن زياد ، عن ابان بن طارق ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «من دخل دار قوم بغير اذنهم فأكل طعامهم دخل سارقا وخرج مغيرا» .

فلما سمع ذلك قال : ما من أحد من الجماعة الا وهو يظن أنك تعرّض به دون صاحبه . أولا تستحي أن تحدث بهذا الكلام على مائدة سيّد من أطعم الطعام ، وتبخل بطعام غيرك على من سواك؟ ثم لا تستحي أن تحدث عن درست بن زياد وهو ضعيف ، وعن أبان بن طارق وهو متروك الحديث يحكم برفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمسلمون على خلافه ، لأن حكم السارق القطع ، وحكم المغير أن يعزر على ما يراه الامام؟ وأين أنت من حديث : حدثنا أبو عاصم النبيل ، عن ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «طعام الواحد يكفي اثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية» ، وهو اسناد صحيح .

قال منصور بن علي : فأفحمني ، فلم يحضرني له جواب ، فلما خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطريق الى الجانب الآخر بعد أن يمشي ورائي وسمعته يقول :

ومن ظنّ ممن يلاقي الحروب
بأن لا يصاب فقد ظنّ عجزا

**

صحب طفيلي رجلا في سفر ،
فقال له الرجل : امض فاشتر لنا لحما .
قال : لا والله ما أقدر .
فمضى هو واشترى .
ثم قال له : قم فاطبخ .
قال : لا أحسن .
فطبخ الرجل .
ثم قال له : قم فاثرد .
قال : أنا والله كسلان .
فثرد الرجل .
ثم قال له : قم فاغرف .
قال : أخشى أن ينقلب على ثيابي .
فغرف الرجل .
ثم قال له : الآن فكل .
قال الطفيلي : قد والله استحييت من كثرة خلافي لك .
وتقدّم فأكل .

**

وتطفل رجل مرة على رجل ، فقال له صاحب المنزل : من أنت؟
قال : أنا الذي لم احوجك الى رسول .

**

جاء طفيلي إلى بيت رجل مع جماعة فقال له الرجل : من أنت؟
فقال : إذا كنت لا تدعونا ونحن لا نأتي صار في هذا نوع جفاء .

**

عرّس طفيلي ، فأتاه طفيليّان في أوّل الناس ، فأدخلهما وجاء الى غرفة له يرتقي اليها بسلّم ، فوضع السلّم وقال :

اصعدا لتبعدا من الأذى ، وأخصكما بفائق الطعام .

فصعدا فلما حصّلا في الغرفة نحّى السلّم ووضع المائدة ، وأطعم أصدقاءه وجيرانه ، وهما مطّلعان عليه .

فلما فرغ القوم وضع السلم ، وقال : انزلا . فدفع في أقفائهما ، وقال : انصرفا راشدين قد قضيتما حق أخيكما .

❊❊

وروي عن عبد الرحمن بن عمر الفهري أنه قال ، أمر المأمون[1] أن يحمل إليه عشرة من أهل البصرة كانوا قد رموا بالزندقة فحملوا فرآهم أحد الطفيلية قد اجتمعوا بالساحل فقال ما اجتمع هؤلاء إلاَّ لوليمة فدخل معهم ومضى بهم الموكلون إلى البحر وأطلعوهم في زورق قد أعد لهم ، فقال الطفيلي لا شك أنها نزهة فصعد معهم في الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد الطفيلي معهم فعلم أنه قد وقع ورام الخلاص فلم يقدر

وساروا بهم إلى أن دخلوا بغداد وحملوا حتى دخلوا على المأمون مثلوا بين يديه ، أمر بضرب أعناقهم فاستدعوهم بأسمائهم حتى لم يبق إلاَّ الطفيلي وهو خارج عن العدة

فقال لهم المأمون : من هذا قالوا والله ما ندري يا أمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به

فقال له المأمون : ما قصتك

قال يا أمير المؤمنين ، امرأتي طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئا

ولا أعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، إنما رأيتهم مجتمعين فظننت أنهم يدعون إلى وليمة فالتحقت بهم

فضحك المأمون ثم قال : بلغ من شؤم التطفل إن أحلّ صاحبه هذا المحل ، لقد سلم هذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب

❊❊

(١) المأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد سابع خلفاء بني العباس ، ولد عام ١٧٠ هـ ٧٨٦ وتوفي غازيا في ١٩ رجب عام ٢١٨ هـ ١٠ أغسطس سنة ٨٣٣ بطرسوس ، شهد عهده ازدهارا بالنهضة العلمية والفكرية في العصر العباسي الأول وذلك لأنه شارك فيها بنفسه .

وقال طفيلي : إياك والكلام على الطعام إلا أن تقول : نعم ، فإنها مضغة .

**

وأوصى طفيلي غلامه ، فقال : اذا ضاق بك الموضع ، فقل للذي الى جانبك : «لعلي ضيّقت عليك ، فانه سيوسّع لك المكان كموضع رجل آخر» .

جواب خارج السؤال

قال طاهرُ بنِ الحُسين[١] لأبي عبد الله المَرْوزِيّ : [٢]

كم لك منذُ نزلتَ بالعراق؟

قال : منذُ عشرين سنةً ،

وأنا أصوم الدهرَ منذ ثلاثين سنة .

قال : أبا عبد الله ، سألتُك عن مسألة فأجبتني عن مسألتين .

**

واحدة من اثنتين

جاء رجل إلى ثمامة بن أشرس[٣] فطلب أن يسلفه ويؤخره ، فقال له : هذه حاجتان ، فأنا أقضي لك أحداهما .

قال : قد رضيت .

قال : فأنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك

الجزاء من جنس العمل

حدّث رجل من الدقاقين قال :

أورد علي رجل غريب سفتجة بأجل ، فكان يتردد علي الى أن حلّت السفتجة ، ثم قال لي :

(١) طاهر بن الحسين اسمه طاهر بن الحسين بن زريق ماهان الخزاعي ولد سنة ١٥٩هـ وهو أحد أشهر قواد الخليفة العباسي المأمون وكان يعرف بذى اليمينين .

(٢) محمد بن نصر بن حجاج المروزي كنيته : أبو عبد الله المَرْوَزِي من علماء الفقه والحديث من مؤلفاته : كتاب القسامة – تعظيم قدر الصلاة – كتاب الإيمان وغيرها .

(٣) هو ثمامة بن الأشرس النميري ، مناظر قوي ، وأديب بارع .

أدعها عندك آخذها متفرّقة .

فكان يجيء كل يوم ، فيأخذ بقدر نفقته ، الى أن نفدت . فصارت بيننا معرفة ، وألف الجلوس عندي ، وكان يراني أخرج من صندوق لي ، فأعطيه منه .

فقال لي يوما : أن قفل الرجل صاحبه في سفره ، وأمينه في حضره ، وخليفته على حفظ ماله ، والذي ينفي الظنة على أهله وعياله . وان لم يكن وثيقا تطرقت الحيل إليه ، وأرى قفلك هذا وثيقا ، فقل لي : ممن ابتعته لأبتاع مثله لنفسي؟

قلت : من فلان الأقفالي .

قال : فما شعلات يوما وقد جئت الى دكاني ، فطلبت صندوقي لأخرج منه شيئا من الدراهم ، فحمل الي ففتحته ، واذا ليس فيه شيء من الدراهم ، فقلت لغلامي وكان غير متهم عندي :

هل انكسر من الدراب شيء؟

قال : لا .

قلت : ففتش هل ترى في الدكان نقبا؟

ففتش ، فقال : لا .

فقلت : فمن السقف حيلة؟

قال : لا .

قلت : فاعلم أن دراهمي قد ذهبت .

فقلق الغلام ، فسكته وأقمت من يومي لا أدري أي شيء أعمل ، وتأخر الرجل عني ، فاتهمته . وتذكرت مسألته لي عن القفل ، فقلت للغلام :

أخبرني كيف تفتح دكاني وتقفله؟

قال : أحمل الدراب من المسجد دفعتين ثلاثة ثلاثة ، فأقفلها ثم هكذا أفتحها .

قلت : فعلى من تخلي الدكان اذا حملت الدراب؟

قال : خاليا .

قلت : من ههنا دهيت .

فذهبت الى الصانع الذي ابتعت منه القفل فقلت له : جاءك انسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل؟

قال : نعم ، رجل من صفته كيت وكيت .

فأعطاني صفة صاحبي ، فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء لما انصرفت أنا

وبقي الغلام يحمل الدراب ، فدخل هو الى الدكان فاختبأ فيه ومعه مفتاح القفل الذي اشتراه يقع على قفلي ، وأنه أخذ الدراهم وجلس طوال الليل خلف الدراب ، فلما جاء الغلام ففتح درابين وحملها ليرفعها خرج ، وأنه ما فعل ذلك الا وقد خرج من بغداد .

قال : فخرجت ومعي قفلي ومفتاحه ، فقلت : أبتدىء بطلب الرجل بواسطة ، فلما صعدت من السميرية طلبت خانا أنزله ، فصعدت فاذا بقفل مثل قفلي سواء على بيت ، فقلت لقيّم الخان :

هذا البيت من ينزله؟

قال : رجل قدم من البصرة أمس .

قلت : ما صفته؟

فوصف صفة صاحبي ، فلم أشك أنه هو وأن الدراهم في بيته .

فاكتريت بيتا الى جانبه ورصدت حتى انصرف قيّم الخان ، ففتحت القفل ، ودخلت ، فوجدت كيسي بعينه ، فأخذته وخرجت ، وأقفلت الباب ونزلت في الوقت ، وانحدرت الى البصرة ، وما أقمت بواسط الا ساعتين من النهار ، ورجعت الى منزلي بمالي بعينه .

استعادة الدنانير

روى ابن الدنانير النمّار قال : حدثني غلام قال لي :

كنت ناقدا بالأبلة لرجل تاجر ، فاقتضيت له من البصرة نحو خمسمئة دينار وورقا ولففتها في فوطة ، وأمسيت على المسير إلى الأبلة ، فما زلت أطلب ملاحا فلا أجد ، إلى أن رأيت ملاحا مجتازا في خيطيّة خفيفة فارغة ، فسألته أن يحملني ، فخفف علي بالأجرة وقال :

أنا أرجع إلى منزلي بالأبلة ، فانزل .

فنزلت ، وجعلت الفوطة بين يدي وسرنا ، فاذا رجل ضرير على الشط يقرأ أحسن قراءة تكون ، فلما رآه الملاح كبّر ، فصاح هو بالملاح :

احملني ، فقد جنّني الليل وأخاف على نفسي .

فشتمه الملاح ، فقلت له احمله .

فدخل إلى الشط فحمله ، فرجع الى قراءته ، فخلب عقلي بطيبها ، فلما قربنا من الأبلة قطع القراءة ، وقام ليخرج في بعض المشارع بالأبلة ، فلم أر الفوطة ،

فاضطربت وصحت واستغاث الملاح ، وقال :

الساعة تنقلب الخيطية .

وخاطبني خطاب من لا يعلم حالي ، فقلت :

يا هذا ، كانت بين يدي فوطة فيها خمسمئة دينار!

فلما سمع ذلك الملاح لطم وبكى وتعرّى من ثيابه وقال :

لم أدجل الشط ولا لي موضع أخبئ فيه شيئا فتتهمني بسرقة ، ولي أطفال وأنا ضعيف ، فالله الله في أمري .

وفعل الضرير مثل ذلك ، وفتشت الخيطية فلم أجد فيها شيئا ، فرحمتهما وقلت : هذه محنة لا أدري كيف التخلص منها .

وخرجنا ، فعملت على الهرب ، وأخذ كل واحد منا طريقا ، وبت في بيت ولم أمض الى صاحبي ، فلما أصبحت عملت على الرجوع الى البصرة لأستخفي بها أياما ، ثم أخرج الى بلد شاسع ، فانحدرت وخرجت في مشرعة بالبصرة ، وأنا أمشي وأتعثر وأبكي قلقا على فراق أهلي وولدي ، وذهاب معيشي وجاهي .

فاعترضني رجل ، فقال : ما لك؟

فأخبرته . فقال : أنا أرد عليك مالك .

فقلت : يا هذا ، أنا في شغل عن طنزك بي .

قال : ما أقول الا حقا . امض الى السجن ببني نمير ، واشتر معك خبزا كثيرا وشواء جيّدا وحلوا ، وسل السجان أن يوصلك الى رجل محبوس هناك يقال له : «أبو بكر النقاش» . قل له : أنا زائره ، فانك لا تمنع ، فان منعت فهب للسجان شيئا يسيرا يدخلك اليه ، فاذا رأيته فسلم عليه ولا تخاطبه حتى تجعل بين يديه ما معك ، فاذا أكل وغسل يديه ، فانه يسألك عن حاجتك ، فأخبره خبرك ، فانه سيدلك على من أخذ مالك ويرتجعه لك .

ففعلت ذلك ووصلت الى الرجل ، فاذا شيخ مكبّل بالحديد ، فسلمت وطرحت ما معي بين يديه ، فدعا رفقاء له ، فأكلوا ، فلما غسل يديه قال :

ما أنت وما حاجتك؟

فشرحت له قصتي .

فقال : امض الساعة الى بني هلال ، فادخل الدرب الفلاني حتى تنتهي الى آخره ، فانك تشاهد بابا شعثا ، فافتحه وادخله بلا استئذان ، فتجد دهليزا طويلا

يؤدي الى بابين ، فادخل الأيمن منها فسيدخلك الى دار فيها بيت فيه أوتاد ، وعلى كل وتد واتزر بالمئزر واتشح بالإزار واجلس ، فسيجيء قوم يفعلون كما فعلت ، ثم يأتون بطعام فكل معهم ، وتعمّد موافقتهم في سائر أفعالهم ، فاذا أوتي النبيذ فاشرب ، وخذ قدحا كبيرا واملأه وقم قائما وقل : هذا ساري لخالي أبي بكر النقاش ، فسيفرحون ، ويقولون : أهو خالك؟ فقل : نعم ، فسيقومون ويشربون لي ، فاذا جلسوا فقل لهم : خالي يقرأ عليكم السلام ويقول : «يا فتيان ، بحياتي ردوا على ابن اختي المئزر الذي أخذتموه بالأمس في السفينة بنهر الابلة» ، فانهم يردونه عليك .

فخرجت من عنده ففعلت ما أمر ، فردّت الفوطة بعينها وما حلّ شدّها ، فلما حصلت لي قلت :

يا فتيان هذا الذي فعلتموه معي هو قضاء لحق خالي ، ولي أنا حاجة تخصني .

قالوا : مقضيّة .

قلت : عرّفوني كيف أخذتم الفوطة؟

فامتنعوا ساعة ، فأقسمت عليهم بحياة أبي بكر النقاش ، فقال لي واحد منهم : أتعرفني؟

فتأملته جيدا فاذا هو الضرير الذي كان يقرأ ، وانما كان متعاميا .

وأومأ الى آخر فقال : أتعرف هذا؟

فتأملته فاذا هو الملاح ، فقلت :

كيف فعلتما؟

فقال الملاح : أنا أدور المشارع في أول أوقات المساء ، وقد سبقت بهذا المتعامي ، فأجلسته حيث رأيت ، فاذا رأيت من معه شيء له قدر ناديته ، وأرخصت له الأجرة وحملته ، فاذا بلغت الى القاري وصاح بي شتمته حتى لا يشك الراكب في براءة الساحة ، فان حملت الراكب فذاك والا رققته عليه حتى يحمله ، فاذا حمله وجلس يقرأ ذهل الرجل كما ذهلت ، فاذا بلغنا الموضع الفلاني ، فان فيه رجلا متوقعا لنا يسبح حتى يلاصق السفينة ، وعلى رأسه قوصرة ، فلا يفطن الراكب به ، فيسلب هذا المتعامي الشيء بخفية ، فيلقيه الى الرجل الذي عليه القوصرة ، فيأخذه ويسبح الى الشط ، واذا أراد الراكب الصعود وافتقد ما معه عملنا كما رأيت ، فلا يتهمنا ونفترق ، فاذا كان الغد اجتمعنا واقتسمناه ، فلما جئت برسالة أستاذنا خالك سلمنا اليك الفوطة .

قال : فأخذتها ورجعت .

طبق من السمك عن الحمار

قال سهل الخلاطي بلغني أن محتالين سرقا حمارا ومضى أحدهما ليبيعه ، فلقيه رجل معه طبق فيه سمك ،

فقال له :تبيع هذا الحمار؟

قال : نعم .

قال : أمسك هذا الطبق حتى أركبه ، وأنظر اليه .

فدفع اليه طبق السمك ، فركبه ورجع ثم ركبه ودخل به زقاقا ففرّ به . فلم يدر أين ذهب . فلقيه رفيقه ، فقال : ما فعل الحمار؟

قال : بعناه بما اشتريناه وربحنا هذا الطبق من السمك .

اللص وصاحب الدكان

كان ببغداد رجل يطلب التلصص في حداثته ، ثم تاب فصار بزازا(١) . فانصرف ليلة من دكانه وقد غلقه ، فجاءه لص محتال متزيّ بزي صاحب الدكان في كمه شمعة صغيرة ومفاتيح ، فصاح بالحارس ، فأعطاه الشمعة في الظلمة ، وقال :

أشعلها وجئني بها ، فان لي الليلة بدكاني شغلا .

فمضى الحارس يشعل الشمعة ، وركب اللص على الأقفال ، ففتحها ودخل الدكان ، وجاء الحارس بالشمعة ، فأخذها من يده ، فجعلها بين يديه ، وفتح سفط الحساب ، وأخرج ما فيه وجعل ينظر الدفاتر ويرى بيده أنه يحسب والحارس يتردد ويطالعه ، ولا يشك في أنه صاحب الدكان ، الى أن قارب السحر ، فاستدعى اللص الحارس ، وكلمه من بعيد وقال :

اطلب لي حمالا .

فجاء بحمال ، فحمل عليه أربع رزم مثمنة ، وقفل الدكان وانصرف ومعه الحمال وأعطى الحارس درهمين .

فلما أصبح الناس جاء صاحب الدكان ليفتح دكانه ، فقام اليه الحارس يدعو له ويقول : فعل الله بك وصنع كما أعطيتني البارحة درهمين .

فأنكر الرجل ما سمعه ، وفتح دكانه ، فوجد سيلان الشمعة وحسابه مطروحا

---

(١) بائع ثياب .

وفقد الأربع رزم ، فاستدعى الحارس ، وقال له :
من كان حمل الرزم معي من دكاني؟
قال : أما استدعيت مني حمالا فجئتك به؟
قال : بلى ، ولكن كنت ناعسا وأريد الحمال فجئني به .
فمضى الحارس فجاء بالحمّال . وأغلق الرجل الدكان وأخذ الحمّال ومضى ، فقال له :
الى أين حملت الرزم معي البارحة؟
قال : الى المشرعة الفلانية ، واستدعيت لك فلانا الملاح ، فركبت معه .
فقصد الرجل المشرعة ، وسال عن الملاح ، فحضر وركب معه ، وقال :
أين رقيت أخي الذي كان معه الأربع رزم؟
قال : الى المشرعة الفلانية .
قال : اطرحني اليها .
فطرحه .
قال : من حملها معه؟
قال : فلان الحمال .
فدعا به ، فقال له : امش بين يدي .
فمشى فأعطاه شيئا واستدله برفق الى الموضع الذي حمل اليه الرزم ، فجاء به الى باب غرفة في موضع بعيد من الشط قريب من الصحراء ، فوجد الباب مقفلا ، فاستوقف الحمال وفش القفل ودخل ، فوجد الرزم بحالها! واذا في البيت برّكان معلق على حبل ، فلف الرزم فيه ودعا بالحمال ، فحملها عليه وقصد المشرعة .
فحين خرج من الغرفة استقبله اللص ، فرآه وما معه ، فأبلس فأتبعه الى الشط ، فجاء الى المشرعة ودعا الملاح ليعبر ، فطلب الحمّال من يحط عنه ، فجاء اللص فحط الكساء كأنه مجتاز مقطوع ، فأدخل الرزم الى السفينة مع صاحبها ، وجعل البرّكان على كتفه وقال له :
يا أخي استودعك الله ، فقد ارتجعت رزمك ، فدع كسائي .
فضحك وقال : انزل فلا خوف عليك .
فنزل معه واستتابه ووهب له شيئا وصرفه ولم يسيء اليه .

يد اللص

قال محمد بن أبي طاهر ، عن أبي القاسم التنوخي[١] ، عن أبيه :

أن رجلا من بني عقيل مضى ليسرق دابة .

قال : فدخلت الحي ، فما زلت أتعرّف مكان الدابة فاحتلت حتى دخلت البيت ، فجلس الرجل وامرأته يأكلان في الظلمة ، فأهويت بيدي الى القصعة وكنت جائعا ، فأنكر الرجل يدي وقبض عليها ، فقبضت على يد المرأة بيدي الأخرى ، فقالت المرأة :

ما لك ويدي؟

فظن أنه قابض عل يد امرأته فخلى يدي ، فخليت يدي ، فخليت يد المرأة وأكلنا .

ثم أنكرت المرأة يدي فقبضت عليها ، فقبضت على يد الرجل ، فقال لها :

ما لك ويدي .

فخلت عن يدي ، فخليت عن يده ، ثم نام وقمت ، فأخذت الفرس .

أوثقه قبل أن يسرقه

قال أبو القاسم التنوخي ، عن أبيه : أن رجلا نام في مسجد وتحت رأسه كيس فيه ألف وخمسمئة دينار .

قال : فما شعرت الا بإنسان قد جذبه من تحت رأسي فانتبهت ، فاذا شاب قد أخذ الكيس ومرّ يعدو ، فقمت لأعدو خلفه ، فاذا رجلي مشدودة بجيط قنّب في وتد مضروب في آخر المسجد .

مروءة لص

قال محمد بن أبي طاهر ، أنبأنا أبو القاسم التنوخي ، عن أبيه قال : حدثني أبو الحسين عبد الله بن محمد البصري ، حدثني أبي قال : كان بالبصرة رجل من

---

(١) القاضي العالم المعمر أبو القاسم : علي بن القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي البصري ثم البغدادي ، صاحب كتاب «الطوالات» ، وولد صاحب كتاب «الفرج بعد الشدة» ، وكتاب «النشوار» ، وغير ذلك .

اللصوص يلص بالليل ، فاره جدا مقدام ، يقال له عباس بن الخياطة ، قد غلب الأمراء وأشجع أهل البلد ، فلم يزالوا يحتالون عليه الى أن وقع وكبّل بمئة رطل حديد وحبس .

فلما كان بعد سنة من حبسه أو أكثر ، دخل قوم بالابلة على رجل تاجر وكان عنده مجوهرات بعشرات ألوف الدنانير فسرقوه ، وكان مستيقظا جلدا ، فجاء الى البصرة يتظلم ، وأعانه خلق من التجار ، وقال للأمير :

أنت دست على جوهري وما خصمي سواك .

فورد عليه أمر عظيم وخلا بالبوّابين وتوعّدهم ، فاستنظروه فأنظرهم ، وطلبوا واجتهدوا ، فما عرفوا فاعل ذلك ، فعنفهم الرجل فاستجابوا مرة أخرى .

فجاء أحد البوابين الى الحبس ، فتخادم لابن الخياطة ولزمه نحو شهر ، وتذلل له في الحبس فقال له :

قد وجب حقك عليّ ، فما حاجتك؟

قال : جوهر فلان المأخوذ بالبلة ، لا بد أن يكون عندك منه خبر ، فان دماؤنا مرتهنة به . وحدثه الحديث .

فرفع ذيله ، واذا سفط الجوهر تحته ، فسلمه اليه وقال :

قد وهبته لك .

فاستعظم ذلك وجاء بالسفط الى الأمير ، فسألاه عن القصة ، فأخبره بها .

فقال : عليّ بعباس .

فجاؤوا به ، فأمر بالإفراج عنه وازالة قيوده وادخاله الحمام وخلع عليه وأجلسه في مجلسه مكرما واستدعى الطعام ، فواكله وبيّته عنده ، فلما كان من الغد خلا به ، وقال :

أنا أعلم أنك لو ضربت مئة ألف سوط ما أقررت كيف كانت صورة أخذ الجوهر ، وقد عاملتك بالجميل ليجب حقي عليك من طريق الفتوة ، وأريد أن تصدقني حديث هذا الجوهر .

قال : انني ومن عاونني عليه آمنون ، وانك لا تطالبنا بالذين أخذوه؟

قال : نعم .

فاستحلفه . فقال له :

ان جماعة اللصوص جاؤوني الحبس ، وذكروا حال هذا الجوهر ، وأن دار هذا

التاجر لا يجوز أن يتطرق عليها نقب ولا تسليق ، وعليها باب حديد ، والرجل متيقظ وقد راعوه سنة ، فما أمكنهم . وسألوني ، فساعدتهم ، فدفعت الى السجان مئة دينار وحلفت له بالشطارة والأيمان الغليظة ، أنه ان أطلقني عدت اليه من غد ، وأنه ان لم يفعل ذلك اغتلته ، فقتلته في الحبس . فأطلقني .

فنزعنا الحديد وتركته وخرجت المغرب ، فوصلنا الى الابلة العتمة ، وخرجنا الى دار الرجل ، فاذا هو في المسجد وبابه مغلق ، فقلت لأحدهم : تصدق من الباب . فتصدق ، فلما جاؤوا ليفتحوا قلت له : اختف . ففعل ذلك مرّات ، والجارية تخرج ، فاذا لم تر أحدا عادت ، الى أن خرجت من الباب ، ومشت خطوات تطلب السائل ، فتشاغلت بدفع الصدقة اليه ، فدخلت أنا الى الدار ، فاذا في الدهليز بيت فيه حمار ، فدخلته . ووقفت تحت الحمار وطرحت الجل عليّ وعليه .

وجاء الرجل فغلق الأبواب وفتش ونام على سرير عال والجوهر تحته ، فلما انتصف الليل قمت الى شاة في الدار ، فعركت أذنها فصاحت ، فقال : ويلك أقول لك افتقديها . قالت : قد فعلت . قال : كذبت ، وقام بنفسه ليطرح لها علفا ، فجلست مكانه على السرير ، وفتحت الخزانة ، وأخذت السفط وعدت الى موضعي وعاد الرجل ، فنام .

فاجتهدت أن أجد حيلة أن أنقب الى دار بعض الجيران ، فأخرج فما قدرت ، لأن جميع الدار مؤزرة بالساج ، ورمت صعود السطح ، فما قدرت ، لأن الممارق مقفلة بثلاثة أقفال ، فعملت على ذبح الرجل ، ثم استقبحت ذلك ، وقلت : هذا بين يدي ان لم أجد حيلة غيره . فلما كان السحر عدت الى موضعي تحت الحمار ، وانتبه الرجل يريد الخروج ، فقال للجارية : افتحي الأقفال من الباب ودعيه مترسا ، ففعلت وقربت من الحمار فرفس ، فصاحت ، فخرجت أنا ففتحت المترس وخرجت أعدو حتى جئت المشرعة ، فنزلت في الخيطيّة ووقعت الصيحة في دار الرجل ، فطالبني أصحابي أن أعطيهم شيئا منه ، فقلت لا ، هذه قصة عظيمة ، وأخاف أن ينتبه عليها ، ولكن دعوه عندي ، فان مضى على الحديث ثلاثة أشهر ، فصيروا الي أعطيكم النصف ، وان ظهر خفت عليكم وعلى نفسي ، وجعلته حقنا لدمائكم . فرضوا بذلك ، فأرسل الله هذا البواب بليلة يخدمني ، فاستحييت منه وخفت أن يقتل هو وأصحابه ، وقد كنت وضعت في نفسي الصبر على كل عذاب ، فدخلتم عليّ من طريق أخرى لم أستحسن في الفتوة معها الا الصدق .

فقال له الأمير : جزاء هذا الفعل أن أطلقك ، ولكن تتوب .
فتاب ، وجعله الأمير من بعض أصحابه وأسنى له الرزق ، فاستقامت طريقته .

عادت الحيلة على صاحبها

قال ابو الحسن : قال : كان عندنا بالمدينة ، رجل قد كثر عليه الدين حتى توارى عن غرمائه ولزم منزله ، فأتى غريم له عليه شيء يسير فتلطف حتى وصل إليه ، فقال له : ماتجعل لي : إن أنا دللتك على حيلة تصير بها إلى الظهور والسلامة من غرمائك؟ فقال : أقضيتك حقك وأزيدك مما عندي ، مما تقربه عينك ، فتوثق منه بالإيمان فقال له : إذا كان غدا قبل الصلاة مر خادمك يكنس بابك وفناءك ويرش ويبسط على دكانك حصراً ويضع لك متكأ ، ثم أمهل حتى يصبح ويمر الناس ثم تجلس ، وكل من يمر عليك ويسلم انبح له في وجهه ولاتزيدن على النباح أحداً كائناً من كان ، ومن كلمك من أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره حتى تصير إلى الوالي فإذا كلمك فانبح له وإياك أن تزيده أو غيره على النباح فإن الوالي إذا أيقن أن ذلك منك جد لم يشك أنه قد عرض لك عارض من مس فيخلي عنك ولا يغري عليك .

قال : ففعل ، فمر به بعض جيرانه فسلم عليه فنبح في وجهه ، ثم مر آخر ففعل مثل ذلك ، حتى تسامح غرماؤه فأتاه بعضهم فسلم عليه ، فلم يزده على النباح ، ثم آخر فتعلقوا به فرفعوه إلى الوالي فسأله الوالي فلم يزده على النباح ، فرفعه معهم إلى القاضي فلم يزده على ذلك فأمر بحبسه أياماً وجعل عليه العيون ، وملك نفسه ، وجعل لاينطق بحرف سوى النباح ، فلما رأى القاضي ذلك أمر بإخراجه ، ووضع عليه العيون في منزله ، وجعل لاينطق بحرف إلا النباح- فلما تقرر ذلك عند القاضي أمر غرماءه بالكف عنه وقال : هذا رجل به لمم- أي لوثة- ثم إن غريمه الذي كان علمه الحيلة أتاه متقاضياً لعدته- أي حسب الموعد المضروب- فلما كلمه جعل لايزيده على النباح فقال له : ويلك يافلان وعلي أيضاً وأنا علمتك هذه الحيلة فجعل لايزيده على النباح فلما يئس منه انصرف يائساً مما يطالبه به .

دين بالقوة

قال أبو الحسين : وحدثني أبي عن طالوت بن عباد الصيرفي قال :
كنت ليلة نائما بالبصرة في فراشي وحراسي يحرسونني وأبوابي مقفلة ، فاذا أنا

بابن الخيّاطة ينبهني من فراشي .

فانتبهت فزعا . فقلت : من أنت؟

فقال : ابن الخياطة .

فتلفت فقال :لا تجزع . قد قمرت الساعة خمسمئة دينار . أقرضني إياها لأردّها عليك .

فأخرجت خمسمئة دينار ، فدفعتها إليه

فقال :نم ولا تتبعني لأخرج من حيث جئت ، وإلا قتلتك .

قال : وأنا والله أسمع صوت حراسي ولا أدري من حيث دخل ، ولا من أين خرج ، وكتمت الحديث خوفا منه ، وزدت في الحرس .

ومضت ليال ، فاذا أنا به قد أنبهني على تلك الصورة ، فقلت : مرحبا ، ما تريد؟

قال : جئت بتلك الدنانير تأخذها مني .

فقلت : أنت في حل منها ، فان أردت شيئا آخر فخذ .

فقال : لا أريد من نصح التجار أشاركهم في أموالهم ، ولو كنت أردت أخذ مالك باللصوصية فعلت ، ولكنك رئيس بلدك ولا أريد أذيتك ، فان ذلك يخرج عن الفتوّة ، ولكن خذها ، فان احتجت إلى شيء بعد هذا أخذت منك .

فقلت : إن عودك لا يفزعني ، ولكن اذا أردت شيئا فتعال إلي نهارا أو رسولك .

فقال : أفعل .

فأخذت الدنانير منه وانصرف ، وكان رسوله يجيئني بعلامة بعد ذلك ، فيأخذ ما يريده ثم يردّه بعد مدة ، فما انكسر لي عنده شيء إلى أن قبض عليه .

توقيع لص

دخل لص دار قوم ، فلم يجد ما يسرق غير دواة مكسورة ، فكتب على الحائط :

عز عليّ فقركم وغناي .

حسن اللصوصية

قال أبو الفتح البصري : اجتمع جماعة من اللصوص اجتاز عليهم شيخ صيرفي معه كيسه ، فقال أحدهم :ما تقولون فيمن يأخذ كيس هذا؟

قالوا : كيف تفعل؟

قال : انظروا .

ثم تبعه الى منزله ، فدخل الشيخ ، فرمى كيسه على الضفة وقال للجارية : أنا حاقن ، فألحقيني بماء في الغرفة .

وصعدت فدخل اللص فأخذ الكيس ، وجاء الى أصحابه ، فحدثهم ، فقالوا :

ما عملت شيئا . تركته يضرب الجارية ويعذبها ، وما ذا مليح .

قال : فكيف تريدون؟

قالوا : تخلص الجارية من الضرب وتأخذ الكيس .

قال : نعم .

فمضى فطرق الباب ، فاذا به يضرب الجارية ، فقال : من؟

قال : غلام جارك في الدكان .

فخرج ، فقال : ماذا تقول؟

فقال : سيدي يسلم عليك ويقول لك : قد تغيّرت : ترمي كيسك في الدكان وتمضي؟ ولولا أننا قد رأيناه كان قد أخذ .

وأخرج الكيس ، وقال : أليس هذا هو؟

قال : بلى والله صدق .

ثم أخذه فقال له : بل أعطنيه وادخل فاكتب في رقعة أنك قد تسلمت الكيس ، حتى أتخلص أنا ويرجع اليك مالك .

فناوله اياه ودخل ليكتب فأخذه ومضى .

العجوز وجبريل

قال أبو جعفر محمد بن الفضل الضميري :

كان في بلدنا عجوز صالحة كثيرة الصيام والصلاة ، وكان لها ابن صيرفي منهمك على الشرب واللعب ، وكان يتشاغل بدكانه أكثر نهاره ، ثم يعود الى منزله ، فيخبئ كيسه عند والدته .

فدخل الى الدار لص وهو لا يعلم ، فاختبأ فيها ، وسلم الابن كيسه إلى أمه وخرج وبقيت هي وحدها في الدار ، وكان لها في دارها بيت مؤزر بالساج عليه باب حديد تجعل قماشها فيه والكيس ، فخبأت الكيس فيه خلف الباب وجلست فأفطرت بين يديه .

فقال اللص : الساعة تقفله وتنام ، وأنزل وأقلع الباب وآخذ الكيس .

فلما أفطرت قامت تصلي ، ومدت الصلاة ، ومضى نصف الليل وتحيّر اللص ، وخاف أن يدركه الصبح ، فطاف في الدار فوجد ازارا جديدا وبخورا ، فاتزر بالإزار ، وأوقد البخور وأقبل ينزل على الدرجة ، ويصيح بصوت غليظ ليفزع العجوز ، وكانت جلدة ، فظنت أنه لص ، فقالت :

من هذا؟ بارتعاد وفزع .

فقال : أنا جبريل رسول رب العالمين ، أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق لأعظه وأعامله بما يمنعه عن ارتكاب المعاصي .

فأظهرت أنه قد غشي عليها من الفزع ، وأقبلت تقول :

يا جبريل ، سألتك ألا رفقت به ، فإنه وحيدي .

فقال اللص : ما أرسلت لقتله .

قالت : فيما أرسلت؟

قال : لآخذ كيسه وأؤلم قلبه بذلك ، فاذا تاب رددته عليه .

فقالت : يا جبريل ، شأنك وما أمرت به .

فقال : تنحي عن باب البيت .

وفتح هو الباب ودخل ليأخذ الكيس والقماش ، واشتغل في تكويره ، فمشت العجوز قليلا قليلا وجذبت الباب وجعلت الحلقة في الرزة ، وجاءت بقفل فقفلته .

فنظر اللص إلى الموقف ورام حيلة ، نقبا أو منفذا ، فلم يجد ، فقال :

افتحي لأخرج ، فقد اتعظ ابنك .

فقالت : يا جبريل ما يعوزك أن تخرج من السقف أو تخرق الحائط بريشة من جناحك ، ولا تكلفني أنا لتغوير بصري؟

فأحس اللص أنها جلدة ، فأخذ يرفق بها ويداريها ويبذل التوبة ، فقالت :

دع عنك هذا . لا سبيل إلى الخروج إلا بالنهار .

وقامت فصلت وهو يسألها حتى طلعت الشمس ، وجاء ابنها وعرف خبرها ، وحدثته الحديث ، فأحضر صاحب الشرطة وفتح الباب وقبض على اللص .

أبان وأشعب

كان أبان بن عثمان[1] من أهزل الناس وأعبثهم ، وبلغ من عبثه أنه كان يجيء بالليل إلى منزل رجل في أعلى المدينة له لقب يغضب منه فيقول له : أنا فلان فلان ، ثم يهتف بلقبه ، فيشتمه اقبح شتم وأبان يضحك . فبينما نحن ذات يوم عنده وعنده أشعب إذ أقبل أعرابي ومعه جمل له ، والأعرابي أشق أزرق أزعر غضوب يتلظى كأنه أفعى ، ويتبين الشر في وجهه ما يدنو منه أحد إلا شتمه ونهره ، فقال أشعب لأبان : هذا والله من البادية ادعوه ، فدعي وقيل له : إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك ، فأتاه فسلم عليه ، فسأله أبان عن نسبه فانتسب له ، فقال : حياك الله يا خالي ، حبيب ازداد حبا ، فجلس ، فقال له : إني في طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما أشتهي بهذه الصفة ، وهذه القامة ، واللون ، والصدر ، والورك ، والأخفاف ، فالحم لله الذي جعل ظفري به من عند من أحبه ، أتبيعه ?فقال : نعم أيها الأمير ، فقال : فإني قد بذلت لك به مائة دينار -وكان الجمل يساوي عشرة دنانير- فطمع الأعرابي وسر وانتفخ ، وبان السرور والطمع في وجهه ، فأقبل أبان على أشعب ثم قال له : ويلك يا أشعب إن خالي هذا من أهلك وأقاربك -يعني في الطمع- فأوسع له مما عندك . فقال له : نعم بأبي أنت وزيادة ، فقال له أبان : يا خالي ، إنما زدتك في الثمن على بصيرة وإنما الجمل يساوي ستين دينارا ، ولكن بذلت لك مائة لقلة النفذ عندنا ، وإني أعطيك به عروضا تساوي مائة ، فزاد طمع الأعرابي وقال : قد قبلت ذلك أيها الأمير ، فأسر إلي أشعب ، فأخرج شيئا مغطى فقال له : أخرج ما جئت به ، فأخرج جرد عمامة خز خلق تساوي أربعة دراهم ، فقال له : قومها يا أشعب ، فقال له : عمامة الأمير تعرف به ، ويشهد فيها الأعياد والجمع ويلقى فيها الخلفاء ؛ خمسون دينارا . فقال : ضعها بين يديه : وقال لابن زبنج ، أثبت قيمتها . فكتب ذلك ، ووضعت العمامة بين يدي الأعرابي ، فكاد يدخل بعضه في بعض غيظا ، ولم يقدر على الكلام ، ثم قال : هات قلنسوتي ، فأخرج قلنسوة طويلة خلقة قد علاها الوسخ والدهن وتخرقت ، تساوي نصف درهم ، فقال : قوم ، فقال : قلنسوة الأمر تعلو هامته ويصلي فيها الصلوات الخمس ، ويجلس للحكم ؛ ثلاثون دينارا . قال : أثبت ، فأثبت

(١) أبان بن عثمان بن عفان الأموي القرشي أبوعبد الله أو أبو سعيد كان من فقهاء التابعين وعلمائهم ، أمير المدينة . أول من كتب في السيرة النبوية . وهو ابن الخليفة عثمان (أول مؤرخ في الإسلام) .

ذلك ، ووضعت القلنسوة بين يدي الأعرابي ، فتربد وجهه وجحظت عيناه وهم بالوثوب ، ثم تماسك وهو متقليل .

ثم قال لأشعب : هات ما عندك ، فأخرج خفين خلقين قد نقبا وتقشرا وتفتقا ، فقال له : قوم ، فقال : خفا الأمير ، يطأ بهما الروضة ، ويعلو بهما منبر النبي ﷺ ؛ أربعون دينارا . فقال : ضعها بين يديه فوضعهما . ثم قال للأعرابي : اضمم إليك متاعك ، وقال لبعض الأعوان : اذهب فخذ الجمل ، وقال لآخر : امض مع الأعرابي فاقبض منه ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع وهو عشرون دينارا ، فوثب الأعرابي فأخذ القماش فرب به وجوه القوم لا يألو في شدة الرمي به ، ثم قال له : أتدري أصلحك الله من أي شيء أموت؟ قال : لا ، قال : لم أدرك أباك عثمان فأشترك والله في دمه إذ ولد مثلك ، ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره ، وضحك أبان حتى سقط وضحك كل من كان معه . وكان الأعرابي بعد ذلك إذا لقي أشعب يقول له : هلم إلي بابن الخبيثة حتى أكافئك على تقويمك المتاع يوم قوم ، فيهرب أشعب منه .

دم إلى مكة المكرمة تاجر يماني من قبيلة زبيد ومعه تجارة ، فاشتراها منه رجل من قريش كان معروفاً بالعناد والباطل والظلم ، هو العاص بن وائل السهمي ، والد عمرو بن العاص وهشام بن العاص . وبعد أن قبض العاص البضاعة واستقرت عنده أنكر حق الرجل .

فلما يأس الزبيدي من نصرة قريش ، وقف في وسط المسجد الحرام بجوار الكعبة ، وأنشد بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحِجر والحَجر
البيت هذا لمن تمت مروءته وليس للفاجر المأفون والغدر

فقام أحد أشراف بني عبد المطلب واسمه الزبير فقال للزبيدي : لبيك جاءتك النّصفة ، والله إن هذا ظلم لا يصبر عليه ولا يترك ، وسارع في الحال إلى بيت رجل من كرام قريش اسمه عبد الله بن جدعان ، وكان من رهط أبي بكر الصديق ، وكان ممدّحاً جواداً ، الذي قام بدوره ونهض فنادى في أفناء قريش وأحيائها : هلم يا أشراف مكة إلى بيتي نبرم حلفاً ينصر المظلوم ، ويأخذ على يد الظالم .

فاستجاب له نفر من أهل الغيرة والمعروف من بني هاشم وبني المطلب ، وبني أسد وهم قوم خديجة ، وبني زهرة أخوال النبي ﷺ ، وبين تيم ومنهم ابن جدعان نفسه ،

فأبروا حلفاً وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها ومن غيرهم من سائر الناس إلا أقاموا معه حتى يردوا مظلمته ، فسمت قريش ذلك حلف الفضول -يعني الأفاضل- .

وفي الحال توجه أعضاء الحلف إلى بيت العاص ، فدفع حق الزبيدي صاغراً .

وبعدها بقليل غصب أحد القرشيين بنتاً من خثعم ، فاستعدى أبوها الفضول ، فردوها مكرمة لم تصب بسوء ، فأثبت العرب أن لهم أساساً من الفضائل وخلفية من الأخلاق حتى قبل بعثة النبي الكريم ﷺ الذي أعلن أنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق . وما أجمل قول النبي ﷺ حين قال : (لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت) .

جد الشاعر الفرزدق[١] صعصعة محيي المؤودات :

عن هاشم بن محمد الخزاعي ، عن أبي عبيدة .عن محمد بن العباس اليزيدي وعلي بن سليمان الأخفش قالا : حدثنا أبو سعيد السكري ، عن محمد بن حبيب ، عن أبي عبيدة عن عقال بن شبة قال : قال صعصعة : خرجت باغياً ناقتين لي فارقتين – والفارق : التي تفرق إذا ضربها المخاض فتندّ على وجهها ، حتى تنتج – فرفعت لي نار سرت نحوها ، وهممت بالنزول ، فجعلت النار تضئ مرة ، وتخبو أخرى ، فلم تزل تفعل ذلك حتى قلت : اللهم لك علي إن بلغتني هذه النار ألا أجد أهلها يوقدون لكربة يقدر أحد من الناس أن يفرجها إلا فرجتها عنهم ، قال : فلم أسر إلا قليلاً حتى أتيتها ، فإذا حي من بني أنمار بن الهجيم بن عمرو بن تميم ، وإذا أنا بشيخ حادر أشعر يوقدها في مقدم بيته ، والنساء قد اجتمعن إلى

امرأة ماخض ، قد حبستهن ثلاث ليال . فسلمت فقال الشيخ : من أنت ؟ فقلت أنا صعصعة بن ناجية بن عقال ، قال : مرحباً بسيدنا ، ففيم أنت يا بن أخي ؟ فقلت : في بغاء ناقتين لي فارقتين عمي عليّ أثرهما ، فقال : قد وجدتهما بعد أن أحيا الله بهما أهل بيت من قومك ، وقد نتجناهما ، وعطفت إحداهما على الأخرى ،

(١) الفرزدق شاعر من شعراء العصر الأموي واسمه همام بن غالب بن صعصعة الدارمي التميمي وكنيته ابو فراس وسمي الفرزدق لضخامة وتجهم وجهه ومعناها الرغيف ، ولد الفرزدق في كاظمة لبني تميم ، اشتهر بشعر المدح والفخر وشعر الهجاء .

وهما تانك في أدنى الإبل . قلت : ففيم توقد نارك منذ الليلة؟ قال : أوقدها لامرأة ماخض قد حبستنا منذ ثلاث ليال ، وتكلمت النساء فقلن : قد جاء الولد ، فقال الشيخ : إن كان غلاماً فوالله ما أدري ما أصنع به ، وإن كانت جارية فلا أسمعن صوتها - أي اقتلها - فقلت : يا هذا ذرها فإنها ابنتك ، ورزقها على الله ، فقال : اقتلنها ، فقلت : أنشدك الله ، فقال : إني أراك بها حفياً ، فاشترها مني ، فقلت : إني أشتريها منك ، فقال : ما تعطيني ؟ قلت : أعطيك إحدى ناقتي قال : لا . قلت : فأزيدك الأخرى ، فنظر إلى جملي الذي تحتي ، فقال : لا ، إلا أن تزيدني جملك هذا ، فإني أراه حسن اللون شاب السن ، فقلت : هو لك والناقتان على أن تبلغني أهلي عليه ، قال : قد فعلت ، فابتعتها منه بلقوحين وجمل ، وأخذت عليه عهد الله وميثاقه ليحسنن برها وصلتها ما عاشت ، حتى تبين منه ، أو يدركها الموت ، فلما برزت من عنده حدثتني نفسي وقلت : إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب ، فآليت ألا يئد أحد بنتاً له إلا اشتريتها منه بلقوحين وجمل ، فبعث الله عز وجل محمداً عليه السلام ، وقد أحييت مائة موءودة إلا أربعاً ، ولم يشاركني في ذلك أحد ، حتى أنزل الله تحريمه في القرآن ، وقد فخر بذلك الفرزدق في عدة قصائد من شعره .

اختبار الأخلاق

حُكِي أنّ أبا عثمان الحيري دعاهُ إنسانٌ إلى ضيافته ، فلمّا وافَى بابَ الدّار ، قالَ لهُ الرجلَ : يا أستاذ ليس لي وجه في دخولك ، فانصرف رحمكَ الله .

فانصرف أبو عثمان ، فلمّا وافى منزلَهُ عادَ الرّجلُ إليه ، وقال يا أستاذ ندمت .

وأخذَ يعتذرُ له ، وقال : احضرْ السّاعة ، فقام معه فلمّا وافى دارهُ قال له :

مثلَ ما قالَ في الأولى ، ثم فعلَ به ذلك أربعُ مرات ، وأبو عثمان ينصرفُ ويحضر ، ثم قال :يا أستاذ إنما أردتُ بذلك اختباركَ والوقوفَ على أخلاقك ، ثم جعل يعتذرُ له ويمدحهُ ، فقال أبو عثمان : لا تمدحني على خلق تجده عند الكلاب ، فإن دُعي حضَر وإذا زُجر انزجَر .

بسطام بن قيس وبنو ضبة

يحكى أن بسطام بن قيس سيد بني شيبان في زمانه قال لأمه ليلي بنت الاحوص : لقد أخدمتك من كل حي من العرب امة (أي خادمة من كل قبيلة) ولن

انتهي إلا أن أخدمك امرأة من بني ضبة . فقالت له أمه : لا تفعل . . . فبنو ضبة قوم شؤم لا يسلم ولا يغنم من يغزوهم .

لم يستمع بسطام لأمه وأصر على المضي في راية ، وكان معه رجل يسمى نقيداً من بني أسد يتطير (يقرا المستقبل) فلما اقترب بسطام من ديار بني ضبة صعد تل من الرمال يسمى (نقا الحسن) فرأى نعم فيها ألف بعير وقد فقأت عين فحلها (وكانت العرب تفقأ عين الفحل إذا بلغت الإبل ألف بعير خشيت الحسد) وكان صاحب الإبل مالك المنتفق الضبي .

فقام بسطام بالتدحرج على الأرض حتى لا يراه مالك . فلما رأى نقيد الاسدي وجهة بسطام وقد تعفرت لحيته بالتراب قال له : انك مقتول فلا تذهب وارجع فاني اخاف عليك .

لم يهتم بسطام برأي الاسدي وقال له ارجع قد بلغت غايتي . فتفارقا .

قام بسطام وقومه بمهاجمة الإبل واستطاع مالك أن ينجوا على فرسه واتجه إلى قومه صارخا وا صباحاه . فلما سمع بنوا ضبة استصراخ مالك أجابوه .

وكان مما أخر بسطام عن الهروب بالإبل أن بعيرا فحلا لمالك المنتفق وكان أعمى يخالف المسير فكلما وجهه بسطام إلى قومه عاد إلى ديار بني ضبة والإبل تتبع الفحل . فاخذ بسطام يعقل الإبل (أي يضرب أرجلها بالسيف فتسقط حتى إذا رأتها الإبل الأخرى تعود حيث يريد بسطام) . فناداه مالك : ما هذا السفه يا بسطام ؟ لا تعقلها لا أبا لك ، فإما لنا وإما لك .

وكان مع بني ضبة رجل من بني ثعلبة ، فلما تنادى القوم ركب معهم وكان راميا بالنبل . فلما دنا من القوم قال ماذا تريدون مني افعل . قالوا اضرب الجمل الذي عليه ماء القوم ففعل . فاسقط في أيدهم .

وكان في بني ضبة شابا أحمق قليل العقل يقال له عاصم الصباحي . كان يصنع حديده ويزيد في طولها كل يوم . وكان بنو ضبة يسخرون منه ويقولون ماذا تفعل يا عاصم ؟ فيقول اصنع ما ترون لأقتل بها بسطام الشيباني .

وكان والد عاصم الصباحي يسرج فرسه لنجدت قومه فلما سمع عاصم نداء قومه ركب فرس والده فاخذ والده يناديه ولا يرد علية . فلما اقترب من مكان الإبل . سال قومه من كبيرهم . فقالوا : ذلك الفارس الذي يسير خلفه ويحميهم (كان من عادة بسطام أن يكون في آخر قومه لحماية ظهرهم ورد القوم عن ملاحقتهم) .

اقترب عاصم من بسطام حتى حاذاه ثم حمل عليه فضربه في أذنه بالحديدة التي أعدها لذلك فخرجت من الجانب الآخر فسقط بسطام ميتا وتفرقت جموع بني شيبان بين قتيل وطريد .

غلب كل طبع أهله

حكى بعضهم قال : كنت في سفر فضللت عن الطريق ،
فرأيت بيتاً في الفلاة ، فأتيته فإذا به أعرابيّة ، فلما رأتني قالت من تكون ؟
قلت ضيف . قالت أهلاً ومرحباً بالضيف ، انزل على الرحب والسعة .
قال فنزلت فقدمت لي طعاماً فأكلت ، وماءً فشربت ،
فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت . فقال من هذا ؟
فقالت ضيف . فقال لا أهلاً ولا مرحباً ، ما لنا وللضيف ،
فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت ،
فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته
فإذا فيه أعرابيّة فلما رأتني قالت من تكون ؟
قلت ضيف . قالت لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف ،
ما لنا وللضيف ، فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت ،
فلما رآني قال من هذا ؟ قالت ضيف . قال مرحباً وأهلاً بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت ، وماء فشربت ، فتذكرت ما مر بي بالأمس فتبسمت .

فقال م تبسمك فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابيّة وبعلها ، وما سمعته منه ومن زوجته ، فقال لا تعجب ان تلك الأعرابيّة التي رأيتها هي أختي ، وان بعلها أخو امرأتي هذه ، فغلب على كل طبع أهله .

طويل العمر

مرَ المستوغرُ بن ربيعة(١) يوماً بعكاظ يقود شيخاً خرفاً فقال له رجل :

---

(١) المستوغر واسمه عمرو بن ربيعة بن بن كعب بن سعد بن زيدمناة بن تميم . قال أبو عمرو بن العلاء : عاش المستوغر ثلاث مائة وعشرين سنة . وقال المرزباني بين مضر ونزار ، وبين المستوغر تسعة آباء ، ويقال أنه عاش إلى أيام معاوية ، وهو الذي أمر بهدم الببيت الذي كانت ربيعة تعظمه قبل الإسلام .

ياعبد الله أحسن إليه فطالما أحسن إليك عندما كنتَ صغيرا ، قال المستوغر : أو تدري من هــو ؟ قال : نعم هو أبوك أو جدك ، قال : هو والله ابن ابني ، قـال الرجل : أراك ولا مستوغر بن ربيعة ؟ قال أنا المستوغر .

ويقال : إنه عاش ثلاثمائة سنة واربعين عاما وأنشد :

ولــقد سئمــتُ من الحياةِ وطولَهَــا وعمــتُ من عــددِ السنينَ مِئيــنا
مائــة حدتهــا بعدها مائتَـان لــي وازددتُ مــن بعــدِ الشهورِ سَنينا
هل مابقــيَ إلا كما قــد فاتَنــي يــومٌ يمــر وليلــة تَحدونــا

الأعراب وحسن القرى(١)

حكى قيس بن سعد «وهو من وجهاء العرب» : نزلنا بالبادية على امرأة ، فجاء زوجها ، فقالت له : إنه نزل بنا ضيفان . فجاءنا بناقة فنحرها ، وقال : شأنكم . فلما كان من الغد جاءنا بأخرى فنحرها ، وقال : شأنكم . فقلنا : ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا القليل . فقال : إني لا أطعم ضيفاني البائت . فبقينا عنده أياما ، والسماء تمطر وهو يفعل ذلك . فلما نوينا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته ، وقلنا للمرأة : اعتذري لنا إليه ، ومضينا . فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللئام ، أعطيتمونا ثمن قرانا ، ثم إنه لحقنا ، وقال : خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا . فأخذناها وانصرفنا .

من عجائب ما ذكر في الإيثار

ما حكاهُ أبو محمد الأزدي قال لَّما احترقَ المسجد بمرو ظنَّ المسلمونَ أنَّ النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم ، فقبضَ السلطانُ على جماعةٍ من الذين أحرقوا الخانات وكتب رقاعاً فيها القطعُ والجلدُ والقتلُ ونثرَها عليهم ، فمنْ وقعَ عليه رقعة فُعل به ما فيها ، فوقعت رقعةٌ فيها القتلُ بيدِ رجلٍ فقال والله ما كنتُ أبالي لولا أم لي وكان بجنبه بعضُ الفتيان ، فقال لهُ في رقَعتي الجًلدُ وليس لي أم فخذ أنتَ رقعتي وأعطني رقعتَكَ ففعل فقُتِلَ ذلك الفتى وتخلّص هذا الرجل .

---

(١) القرِى هي الضِيافة .

صحبة السلطان

سُئل عمرو بن كلثوم التغلبي[١] : لم لا تَصحب السلطان على ما فيك من الأدب ؟ قال : لأنّي رأيتُهُ يعطي عشرةَ آلاف من غيرِ شيء ، ويرمي من السُّور من غير شيء ، ولا أدري أي الرجلين أكون .

الأعمى والبصير

جلس أعمى وبصير معا يأكلان تمرا في ليلة مظلمة فقال الأعمى : أنا لا أرى ولكن لعن الله من يأكل اثنتين اثنتين وعندما انتهى التمر صار نوى الأعمى أكثر من نوى البصير فقال البصير : كيف يكون نواك أكثر من نواي .

فقال الاعمى لأني آكل ثلاثا ! فقال البصير أما قلت : لعن الله من يأكل اثنتين اثنتين ؟ قال : بلى ولكني لم أقل ثلاثا .

الزكاة والخلف

سمع رجل الحسن وهو يحث الناس على المعروف ، ويأمر بالصدقة ، ويقول : «ما نقص مال قطّ من زكاة» ، ويعدهم سرعة الخلف . فتصدّق المروزيّ بماله كله فافتقر ، فانتظر سنة وسنة ، فلما لم ير شيئا بكر على الحسن ، فقال : «حسن ما صنعت بي؟

ضمنت لي الخلف ، فأنفقت على عدتك ، وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت ، لا أرى منه قليلا ولا كثيرا . هذا يحلّ لك؟ اللص كان يصنع بي أكثر من هذا»؟

علاج الرمد

قال الجمّاز : سمعتُ رجلاً يقول لآخر قد أصاب الرمدُ عينيه : بأي شيء تُداوي عينيك؟

قال : بالقرآن ودعاء الوالدة .

فقال : اجعل معهما شيئا من الدواء . .

---

(١) عمرو بن كلثوم التغلبي ، أبو الأسود ، وهو شاعر جاهلي مجيد من أصحاب المعلقات ، من الطبقة الأولى ، ولد في شمال الجزيرة العربية في بلاد ربيعة وتجوّل فيها وفي الشام والعراق .

المسلمون والكفار

حكى أعـربي فـقـال : رأيتُ بعض الأصـحـاب يأخـذ ثلاثين قطعـة من قطع الشطرنج ، نصفها من السُّود ونصفها من البيض ، ويرصّها رصّا مخصوصًا في صورة دائرة ، ويدّعي أن مركبًا كان على ظهر البحر ، وفيه مسلمون (بيض) وكفّار (سود) . فأشرفوا على الغرق ، وأرادوا أن يرموا إلى البحر نصف عددهم ليخفّ المركب ، فينجو بعضهم ويسلم المركب . فقالوا : نقترع ، ومن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر . فتـأملهم الريّس بعض الوقت وهم جـالس ونفي دائرة ، ثم قـال : ليس هذا حكمًـا مرضيّا . وإنما الحكم أنّا نعدّ الجماعة ، فكل من كان تاسعًا ألقيناه في البحر . فارتضوا بذلك ، ولم يزل يعدّهم ويلقي التاسع فالتاسع فإذا هو قد ألقى الكفار أجمعين ، وسلم المسلمون!

اخرج بالتي هي أحسن

نزل أبو الأغر ، وهو شيخ أعرابي من بني نهـشل ، ضـيـفـا على بنت أخت له تسكن البصرة ، وذلك في شهر رمضان . فخرج الناس إلى ضياعهم ، وخرج النساء يصلِّين في المسـجـد ، ولـم يبـقى في الدار غـيـر الإماء وأبي الأغـرّ . ودخل كلب من الطريق إلى الدار ، ثم إلى حجرة فيها ، فانصفق باب الحجرة ولم يتمكن من الخروج .

وسـمع الإمـاءُ الحركة في الحجرة فَظَنَنَّ لصّا دخلها ، فذهبت إحداهن إلى أبي الأغر فأخبرته ، فأخذ عصا ووقف على باب الحجرة وقال :

يا هذا إنك بي لعارف . أنت من لصوص بني مـازن ، وشـربتَ نبـيـذاً حـامضـا خبيثا حتى إذا دارت الأقداح في رأسك مَنَّتْكَ نفسُك الأماني ، فقلتَ :

أَطْرُقُ دُورَ بني عمرو والرجال في ضياعهم والنساء يصلين في المسجد فأسرِقهن . سَوْءةً لك! والله ما يفعل هذا رجلٌ حرا! وبِئْـسَـمَـا مَنَّتْك نفسُك! فـاخرج بالتي هي أحسن وأنا أعفو عنك وأسامحك وإلا دخلتُ بالعقوبة عليك . وأيم الله لتخرجنّ أو لأهتفن هَتْفَةً فيجيء بنو عمرو بعدد الحصى ، وتسأل عليك الرجال من ها هنا ، وها هنا ولئن فعلتُ لتكوننَّ أشأم مولود في بني مازن .

فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين فقال :

أخرج بأبي أنت منصورا مستورا . إني والله ما أراك تعرفني ، ولئن عرفتني لوثقت بقـولي ، واطمـأننت إلـيّ . أنا أبو الأغـر النهـشلي ، وأنا خـالُ القـوم وقُـرّة أعـينهـم ، لا

يعصون لي رأيا ، وأنا كفيلٌ بأن أحميك منهم وأن أدافع عنك . فاخرج وأنت في ذمتي ، وعندي فطيرتان أهداهما إليّ ابن أختي البار ، فخذ إحداهما حلالا من الله ورسوله ، بل وأعطيك بعض الدراهم تستعين بها على قضاء حوائجك .

وكان الكلبُ إذا سمع الكلام أطرق ، فإذا سكت أبو الأغرّ وثب الكلب وتحرّك يريد الخروج . فلما لم يسمع أبو الأغرّ ردّا قال :

يا ألأم الناس! أراني في واد وأنت في آخر . والله لتخرجن أو لأدخلن عليك .

فلما طال وقوفه جاءت جاريةٌ وقالت لأبي الأغرّ :

أعرابي جبان! والله لأدخلنّ أنا عليه!

ودفعت الباب ، فوقع أبو الأغر على الأرض من فرط خوفه ، وخرج الكلبُ مبادرا فهرب من الدار .

واجتمعت الجواري حول أبي الأغرّ فقُلْن له :

قم ويحك! فإنه كلب!

فقام وهو يقول :

الحمد لله الذي مسخه كلبا وكفى العربَ شرَّ القتال!

المروءة والظرف

قال عبيد الله بن محمد التيمي : سمعت ذا النّون يقول بمصر : من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد ، قيل له : وكيف ذلك؟ قال : لمّا حملت إلى بغداد ، رمي بي على باب السلطان مقيّداً ، فمرّ بي رجلٌ متزرٌ بمنديل مصري ، معتمٌ بمنديل دبيقي ، بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط ، فسألت : هذا ساقي السلطان؟ فقيل لي : لا [هذا ساقي العامة ؛ فأومأت إليه اسقني ، فتقدّم وسقاني ، فشممت من الكوز رائحة المسك ، فقلت لمن معي : ادفع إليه ديناراً ؛ فأعطاه الدينار ، فأبى ، وقال : لست آخذ شيئاً] فقلت له : ولم؟ فقال : أنت أسيرٌ ، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً ؛ فقلت : كمل الظرف في هذا .

أعرابي يدافع عن نفسه

قيل لأعرابي : إن فلاناً ليس يعدك شيئاً ، فقال : والله لو كنت أنا أنا ، وأنا ابن من أنا منه ، لكنت أنا أنا وأنا ابن من أنا منه فكيف وأنا أنا وأنا ابن من أنا منه .

أحاديث أعرابي

قال المعلي بن المثني الشيباني : حدثنا سويد بن منجوف[١] قال : أقبل أعرابي من بني تميم حتى دخل الكوفة من ناحية جبانة السبيع ، تحته أتان له تخب ، وعليها ذلاذل وأطمار من سحق صوف ، قد اعتم بما يشبه ذلك ؛ من أشوه الناس منظرا وأقبحهم شكلا ؛ وهو يهدر كما يهدر البعير وهو يقول ألاسبد ، ألا لبد ألا مؤو ألا مقر ، ألا سعديّ ألا يربوعيّ ، ألا دارميّ! هيهات هيهات! وما يغني أصل حوض الماء صاديا معنى! قال سويد : فدخل علينا في درب الكناسة فلم يجد منفذا وقد تبعه صبيان كثير وسواد من سواد الحي ، قال : فسمعت سواديا يقول له : يا عماه ، يا إبليس! متى أذن لك بالظهور؟ فالتفت إليهم ، فقال منذ سروا آباءكم وفشّوا أمهاتكم! قال : وكان معنا أبو حماد الخياط ، وكان من أطلب الناس لكلام الأعراب وأصبرهم على الإنفاق على أعرابي ، فدخل علينا وكان مع ذلك مولى بني تميم ، فأتيته فأخبرته ؛ فخرج مبادرا كأني قد أفدته فائدة عظيمة ؛ وقد نزل الأعرابي عن الأتان واستند إلى بعض الحيطان وأخذ قوسه بيده ؛ فتارة يشير بها إلى الصبيان ، وتارة يذبّ الشذا عن الأتان– وهو يقول لأتانه :

قد كنت بالأمعز في خصب خصب ... ما شئت من حمض وماء منسكب
فربّك اليوم ذليل قد نصب ... يرى وجوها حوله ما ترتقب
ولا عليها نور إشراف الحسب ... كأنها الزّنج وعبدان العرب
إلى عجيل كالرعيل والسرب ... ولو أمنت اليوم من هذا اللّجب
رميت أفواقا قويمات النّصب ... الرّيش أولاها وأخراها العقب

قال : فلم يزل أبو حماد يلطفه ويتلطف به ويبجله ، إلى أن أدخله منزله ؛ فمهد له وحطه عن أتانه ، ودعا بالعلف ؛ فجعل الأعرابي يقول : أين الليف والنّئيف والوساد والنجاد؟ يعني بالليف : الحصير ؛ وبالنئيف عشبة عندهم يقال لها البهمى والوساد :

جلد عنز يسلخ ولا يشق ويحشى وبرا وشعرا ويتّكأ عليه ؛ والنجاد : مسح شعر يستظل تحته . قال : فلما نزع القتب عن الأتان إذا ظهرها قد دبر حتى أضرّت بنا رائحته :

---

(١) سويد بْن منجوف هو والد علي بْن سويد الْبَصْرِيّ من رواة الحديث .

فجعل الأعرابي يتنهد ويقول :

إن تنحضـــي أو تدبري أو تزجـــري   فـــذاك من دءوب ليـــل مسهـــر
أنا أبو الزهـــراء مـــن آل السّـــــري   مشمّـــخ الأنـــف كـــريم العنصـر
إذا أتيت خطّة لم أقسر

وكان يسمى الأعرابي صلتان بن عوسجة من بني سعد بن دارم ، ويكنى بأبي الزهراء ، وما رأيت أعرابيا أعجب منه ؛ كان أكثر كلامه شعرا ؛ وأمثل أعرابي سمعته كلاما ؛ إلا أنه ربما جاء باللفظة بعد الأخرى لا نفهمها ؛ وكان من أضجر الناس وأسوأهم خلقا ، وإذا نحن سألناه عن الشيء قال : ردّوا عليّ القوس والأتان! يظن أنا نتلاعب به ، وكنا نجتمع معه في مجلس أبي حماد ، وما منا إلا من يأتيه بما يشتهيه ، فلا يعجبه ذلك ؛ حتى أتيناه يوما بخربز ، وكانت أمامه ، فلما أبصرها تأملها طويلا وجعل يقول :

بدّلت والدهر قديما بـــــدّلا   من قيض بيض القفر فقعا حنظلا
أخبث ما تنبت أرض مأكلا

فكنا نقـول له : يا أبا الزهراء ، إنه ليس بحنظل ، ولكنه طعـام هنيء مـريء ، ونحن نبدؤك فيه إن شئت . قال : فخذوا منه حتى أرى! فبدأنا نأكل وهو ينظر لا يطرف ، فلما رأى ذلك بسط يده فأخذ واحدة ، فنزع أعلاها وقوّر أسفلها ، فقلنا له :

ما تريد أن تصنع يا أبا الزهراء؟ فقال : إن كان السم يا ابن أخي ففيما ترون! فلما طعمه استخفّه واستعذبه واستحلاه ، فلم يكن يؤثر عليه شيئا ، وما كنا نأتيه بعد بغيره ، وجعل في خلال ذلك يقول :

هذا طعام طيّب يلـــــين   في الجوف والحلق له سكون
الشّهد والزبد به معجون

فلما كان إلى أيام ، قلت له : يا أبا الزهراء ، هل لك في الحمام؟ قال : وما الحمام يا ابن أخي؟ قلنا له : دار فيها أبيات : حارّ ، وفاتر ، وبارد ؛ تكون في أيها شئت يذهب عنك قشف السفر ويسقط عنك هذا الشعر . قال : فلم نزل به حتى أجابنا ، فأتينا به الحمام ، وأمرنا صاحب الحمام أن لا يدخل علينا أحدا ، فدخل وهو خائف مترقب ، لا ينزع يده من يد أحدنا ، حتى صار في داخل الحمام ، فأمرنا من طلاه بالنّورة ، وكان جلده أشعر كجلد عنز ، فقلق ونازع للخروج ، وبدأ شعره يسقط ؛ فقلنا

أحين طاب الحمام وبدأ شعرك يسقط تخرج؟ قال : يا بن أخي ، وهل بقي إلا أن أنسلخ كما ينسلخ الأديم في احتدام القيظ! وجعل يقول :

وهـل يطيـب المـوت يا إخوانـي　　هل لكم فـي القـوس والأتـان
خذوهمـا منّـي بـلا أثمـان　　وخلّصـوا المهجـة يا صبيـان
فاليـوم لو أبصرنـي جيرانـي　　عريـان بـل أعرى من العريـان
قد سقـط الشّعـر مـن الجثمـان　　حسبـت في المنظر كالشّيطـان!

قال : ثم خرج مبادرا ، واتبعه أحداث لنا ، لولاهم لخرج بحاله تلك ما يستره شيء ؛ ولحقناه في وسط البيوت ، فأتيناه بماء بارد ، فشرب وصب على رأسه ، فارتاح واستراح ، وأنشأ يقول :

الحمـد للمستحمـد القهّـار　　أنقذنـي من حرّ بيـت النـار
إلـى ظليـل ساكـن الأوار　　مـن بعد ما أيقنت بالدّمـار

قال : فدعونا له بكسوة غير كسوته فألبسناه ، وأتينا به مجلس أبي حماد ؛ وكان أبو حماد يبيع الحنطة والتمر وجميع الحبوب ؛ وكان يجاوره قوم يبيعون أنبذة التمر وكان أبو الحسن التّمّار ماهرا ؛ فإذا خضنا في النحو وذكرنا الرؤاسي والكسائي وأبا زيد ، جعل ينظر ، يفقه الكلام ولا يفهم التأويل ؛ فقلنا له : ما تقول يا أبا الزهراء؟ فقال :

يا ابن أخي ، إن كلامكم هذا لا يسد عوزا مما تتعلمونه له . فقال أبو الحسن : إن بهذا تعرف العرب صوابها من خطئها . فقال له : ثكلت وأثكلت! وهل تخطيء العرب؟ قال : بلى . قال : على أولئك لعنة الله وعلى الذين أعتقوا مثلك! قال سويد :

وكنت أحدثهم سنا (قال) فقلت : جعلت فداك ، وأنا رجل من بني شيبان وربيعة ؛ ما تعلم أنّا على مثل الذي أنت عليه من الإنكار عليهم ؛ فقال فيهم :

يسائلنـي بيّـاع تمـر وجـردق　　ومـازج أبـوال لـه فـي إنائـه
عن الرّفع بعد الخفض ، لا زال خافضا　　ونصب وجزم صيغ من سوء رائـه
فقلـت لـه هـذا كـلام جهلتـه　　وذو الجهل يروي الجهل عن نظرائه
فقـال بهـذا يعـرف النحـو كـلّه　　يرى أنني في العجم من نظرائـه
قـرأت قـول اللـه فـي الكتـاب　　ما أنزل الرّحمن فـي الأحـزاب
لعظـم مـا فيـها مـن الثّـواب　　الكفر والغلظـة فـي الأعـراب
وأنـا فاعلـم من ذوي الألبـاب　　أومـن باللـه بـلا ارتيـاب

في عرشه المستور بالحجاب   والموت والبعث وبالحساب
وجنّة فيها من الثياب   ما ليس بالبصرة في حساب
وجاحم يلفح بالتهاب   أوجه أهل الكفر والسّباب
ودفع رحل الطارق المنتاب   في ليلة ساكتة الكلاب

ولما أحضرناه ذات يوم جنازة ، فقلنا له : يا أبا الزهراء ، كيف رأيت الكوفة؟

قال : يا ابن أخي ، حضرا حاضرا ؛ ومحلا آهلا ؛ أنكرت من أفعالكم الأكيال والأوزان ، وشكل النسوان . ثم نظر إلى الجبانة فقال : ما هذا التلال يا ابن أخي؟

قلت له : أجداث الموتي ، فقال : أماتوا أم قتلوا؟ فقلت : قد ماتوا بآجالهم ميتات مختلفات . قال : فماذا ننتظر نحن يا ابن أخي؟ قلت : مثل الذي صاروا إليه : فاستعبر وبكى ؛ وجعل يقول :

يا لهف نفسي أن أموت في بلد   قد غاب عني الاهل فيه والولد
وكلّ ذي رحم شفيق معتقد   يكون ما كنت سقيما كالرمد
يا ربّ يا ذا العرش وفّق للرّشد   ويسّر الخير لشيخ مختضد

ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى أخذته الحمى والبرسام ؛ فكنا لا نبارحه عائدين متفقدين ؛ فبينا نحن عنده ذات يوم وقد اشتد كربه وأيقن بالموت ، جعل يقول :

أبلغ بناتي اليوم بالصّوى   قد كنّ يأملن إيابي بالغنى
وقد تمنّين وما يغني المنى   بأنّ نفسي وردت حوض الرّدى
يا ربّ يا ذا العرش في أعلا السّما   إليك قدّمت صيامي في الظّما
فأمّا تميم أو سليم وعامر   ومن حلّ غمر الضّالّ أو في إزائه
ففيهم وعنهم يؤثر العلم كلّه   ودع عنك من لا يهتدي لخطائه
فمن ذا الرّؤاسي الذي تذكرون   ومن ذا الكسائي سالح في كسائه
ومن ثالث لم أسمع الدهر باسمه   يسمّونه من لؤمه سيبوائه
فكيف يخلّ القول من كان أهله   ويهدى له من ليس من أوليائه
فلست لبيّاع التّميرات مغضيا   على الضّيم إن واقفت بعد عشائه

ولقد قلنا له : يا أبا الزهراء ، هل قرأت من كتاب الله شيئا؟ قال : أي وأبيك ، آيات مفصلات أردّدهن في الصلوات ، آباء وأمهات ، وعمات وخالات ثم أنشأ يقول :

ومن صلاتي في صباح ومسا   فعد على شيخ كبير ذي انحنا
يكفيه ما لاقاه في الدّنيا كفى

قلنا له : يا أبا الزهراء ، ما تأمرنا في القوس والأتان ، وفيما قسم الله لك عندنا من رزق؟ فقال : يا ابن أخي ، أما ما قسم الله لي عندكم فمردود إليكم ، وأما القوس والأتان فبيعوهما وتصدقوا بثمنهما في فقراء صلبة بني تميم ، وما بقي في مواليهم . ثم جعل يقول : اللهم اسمع دعاء عبدك إليك ، وتضرعه بين يديك ، واعرف له حق إيمانه بك ، وتصديقه برسلك ، صليت عليهم وسلمت ؛ اللهم إني جان مقترف وهائب معترف ، لا أدعي براءة ، ولا أرجو نجاة إلا برحمتك إياي ، وتجاوزك عني ؛ اللهم إنك كتبت على الدنيا التعب والنصب ، وكان في قضائك ، وسابق علمك قبض روحي في غير أهلي وولدي ، اللهم فبدل لي التعب والنصب روحا وريحانا وجنة نعيم ؛ إنك مفضل كريم . ثم صار يتكلم بما لا نفقهه ولا نفهمه حتى مات ، رحمه الله ؛ فما سمعت دعاء أبلغ من دعائه ، ولا شهدت جنازة أكثر باكيا وداعيا من جنازته ؛ رحمه الله .

أولاد نزار والأفعى الجرهمي

لما حضرت نزار بن معد[١] الوفاة دعا أبناءه ليوصيهم

فدعا إياداً وعنده جارية شمطاء (التي خالط بياض رأسها سواده) وقال : هذه الجارية الشمطاء وما أشبها لك

ودعا أنماراً وهو في مجلس له وقال : هذه البدرة والمجلس وما اشبههما لك

ودعا ربيعة وأعطاه حبالاً سوداً من شعر وقال : هذه وما اشبهها لك

وأعطى مضر قبة حمراء وقال : هذه وما اشبهها لك

ثم قال : وإن أشكل عليكم شيء ، فأتوا الأفعى بن الأفعى الجرهمي[٢] (وكان ملك نجران في ذلك الوقت) ، فلما مات نزار ركبوا رواحلهم قاصدين الأفعى تنفيذا لوصية والدهم ، فلما كانوا من نجران على مسافة يوم اذا هم بأثر بعير

---

(١) نزار بن معد ، الجد الثامن عشر للنبي محمد بن عبد الله . قال ابن جرير الطبري : قيل أن نزار كان يكنى أبا إياد ، وقيل بل كان يكنى أبا ربيعة . قال البلاذري : نزار بن معد يكنى أبا حيدة . ويرتقي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

(٢) هو : المقلمس بن عمرو بن قطن بن همدان بن سار بن زيد بن وائل بن عبد شمس بن وائل بن حمير .

فقال إياد : انه أعور (يرى بعين واحده)
فقال أنمار : وإنه لأبتر (مقطوع الذيل)
فقال ربيعة : وإنه لأزْور (أعرج مائل الجسم)
وقال مضر : وإنه لشارد لا يستقر (هارب هائم على وجهه)
فلم يلبثوا حتى جاءهم راكب ، فلما وصلهم قال : هل رأيتم بعير ضال فوصفوه له كما تقدم (أعور ، أبتر ، أزور ، شارد)
فقال الراكب : إن هذه لصفته عينا ، فأين بعيري؟ قالوا : مارأيناه
فقال : أنتم أصحاب بعيري ، وما أخطئتم من نعته شيئا
فأكملوا طريقهم ليحتكموا الى رأي الملك ، فلما أناخوا بباب الأفعى وأستأذنوه واذن لهم صاح الرجل بالباب ، فدعا به الأفعى وقال له ما تقول يا هذا؟
قال : أيها الملك ، ذهب هؤلاء ببعيري فسألهم الأفعى عن شأنه فأخبروه
فقال لإياد :مايدريك انه أعور؟ قال : رأيته قد لحس الكلأ من شق والشق الآخر وافر (يأكل العشب من ناحية دون الأخرى)
وقال أنمار : رأيته يرمي بعره مجتمعا ولو كان أهلب لمصع به فعلمت انه أبتر (يخرج الروث متجمعا وليس متفرقا يمينا ويسارا)
وقال ربيعة : أثرُ احدى يديه ثابت أما الآخر فاسد فعلمت أنه أزور
وقال مضر : رأيته يرعى الشقة من الأرض ثم يتعداها فيمر بالكلأ الغض فلا ينهش منه شيئا فعلمت انه شرود
فقال الأفعى : صدقتم ، وليسوا بأصحابك فالتمس بعيرك يا رجل .
ثم سألهم الأفعى عن نسبهم فأخبروه ، فرحب بهم وحيّاهم ، ثم قصوا عليه قصة أبيهم ، فقال لهم : كيف تحتاجون إليّ وأنتم على ما أرى ؟ قالوا : أمرنا بذلك أبونا ، فأمر خادم دار ضيافته أن يحسن ضيافتهم ويكثر مثواهم ، وأمر وصيفا له ان يلتزمهم ويحفظ كلامهم .
فأتاهم القهرمان بشهد (عسل) فأكلوه ، فقالوا : ما رأينا شهدا أطيب ولا أعذب منه .
فقال إياد : صدقتم لولا ان نحله في هامة جبّار
ثم جاءهم بشاة مشوية ، فأكلوها واستطابوها ، فقال أنمار : صدقتم لولا انها غذيت بلبن كلبه
ثم جاءهم بالشراب فاستحسنوه ، فقال ربيعة : لولا ان كرمته نبتت على قبر

ثم قالوا : ما رأينا منزلا أكرم قِرى ولا أخصب رَحْلاً من هذا الملك
فقال مضر : صدقتم لولا انه لغير أبيه !!!
فذهب الغلام الى الأفعى فأخبره بكل ما سمع مما دار بينهم ، فدخل الأفعى على أمه فقال : أقسمت عليك الا أن تخبرينني من أبي؟؟؟
قالت : أنت الأفعى ابن الملك الأكبر ، قال حقا لتصدقينني ، فلما ألح عليها قالت أي بني : إن الأفعى كان شيخا قد أُثقل ، فخشيت ان يخرج هذا الأمر عن أهل هذا البيت ، وكان عندنا شاب من أبناء الملوك اشتملت عليك منه
ثم بعث الى القهرمان فقال : أخبرني عن الشهد الذي قدمته الى هؤلاء النفر ما خطبه؟
قال : طلبت من صاحب المزرعة أن يأتيني بأطيب عسل عنده فدار جميع المناحل فلم يجد أطيب من هذا العسل الا أن النحل وضعه في جمجمة في كهف ، فوجدته لم يُر مثله قط فقدمته لهم
فقال : وما هذه الشاه ؟ فقال : إني بعثت الى الراعي بأن يأتيني باسمن شاة عنده ، فبعث بها وسألته عنها فقال : انها أول ما ولدت من غنمي فماتت أمها وأنِست بجراء الكلبة ترضع معهم فلم أجد في غنمي مثلها فبعثت بها
ثم بعث الى صاحب الشراب وسأله عن شأن الخمر فقال : هي كرمة غرستها على قبر أبيك فليس في بلاد العرب مثل شرابها
فعجب الأفعى من القوم ، ثم أحضرهم وسألهم عن وصية أبيهم
فقال إياد : جعل لي خادمة شمطاء وما اشبهها ، فقال الأفعى : انه ترك غنما برشاء (عليها بعض بقع بيضاء تخالط لونها) فهي لك ورعاؤها من الخدم
وقال أنمار : جعل إليّ بدرة ومجلسه وما أشبهها ، فقال : لك مارتك من الرقة والأرض .
وقال ربيعة : جعل لي حبالا سودا وما أشبهها ، فقال ترك أبوك خيلا دهما (سوداء) وسلاحا فهي لك وما معها من موالي (فقالت العرب بعد ذلك ربيعة الفرس)
وقال مضر : جعل لي قبة حمراء وما اشبهها ، قال ان أباك ترك ابلاً حمراء فهي لك (فقالت العرب بعد ذلك مضر الحمراء)
و أعطاهم ما لهم وأكرمهم ، ثم رحلوا عنه .

دعاء أعرابي

قال ابن أبي الدنيا[1] : سمعت محمد بن الحسين يقول :

قدمت قدمةً مكة ، فبينا أنا أطوف في السحر ، إذ الناس يقولون : قد جاء ، قد جاء العنبري الزاهد ، فإذا أعرابي جلف المنظر ، دخل الطواف ، فطاف سبعة أشواطٍ ، وركع خلف المقام ، ثم أتى الملتزم ، فرفع يديه وهو يقول : سبحان راحم رنة المساكينً ، وقابل التوبة ، والمتفضل بها على المسرفين ، الذين أفاض عليهم من سيوب تفضله ، وأهطل عليهم من سماء بذله ، وفوائد نعمه وجزيل إحسانه ، ما أعجزت البرية عن شكره ، والقيام بأداء حقه إلا بمعونته .

سبحان الذي لم يمنع العباد أسباب التوبة ، ولم يعيرهم لما أنابوا إليه بما أجرموا من الحوبة ، ولم يعجل عليهم بالنقم ، وهو يراهم يتمرسون بمعاصيه لغضبه ، وهو في ذلك يستر عليهم بستره ، ويتوددهم بإنعامه ، ويتحبب إليهم بدوام إحسانه ، ثم فتح لهم برحمته أبواب رحمته ، ودعاهم إلى ما شوقهم إليه بحسن موعظته ، فقال لمسرفي عباده : ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ وقال : ﴿وإذا سألك عبادي عني فأني قريبٌ أجيب﴾ وقال : ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ .

فسبحان من يتقرب إلى من يتباعد منه ، ويتحبب بالنعم إلى من يتبغض بالمعاصي إليه ، فأحب عباده إليه ، أسألهم لما لديه .

إلهي ، أنا عبدك وابن عبيدك ، ها أنا قائمٌ بين يديك ، متوسلٌ بكرمك إليك ، لا ينزلني عن مقام أقمتني فيه ، ولا ينقلني إلى موقف سلامةٍ من نعمك إلا أنت ، أتنصل إليك مما كُنت أواجهك به من قلة استحيائي من نظرك ، وأستغفرك من ذنوبي التي ابتزت قلبي حلاوة ذكرك ، وأطلب العفو منك ، إذ العفو نعتٌ لكرمك .

يا من يعصي ويرضى كأنه لم يعص ، يا حناناً لشفقته على عباده ، ومناناً بلطفه ، ومتجاوزاً بعطفه على خلقه ، طهر قلبي من أوساخ الغفلة ، وانظر إلي نظرك إلى من ناديته فأجابك ، واستعملته بمعونتك فأطاعك

صل على محمد عبدك ورسولك ، وهب لي صبراً ويقيناً ، واغفر ذنبي العظيم ،

(١) الحافظ أبو بكر ، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي (٢٠٨ هـ - ٢٨١ هـ) الملقب بـ ابن أبي الدنيا (وقد طغى لقبه على اسمه حتى اشتهر به) من علماء الحديث والفقه .

وتجاوز لي عن سيئاتي ، يا أرحم الراحمين

قال : فمشيت معه حتى عرفت موضعه ، فكتبت عنه هذا الدعاء ، وغير هذا مما كان يدعو به عند الملتزم في أوقاته .

قريش وأهل اليمن

لما دخلت قريش على معاوية رضي الله عنه سلم عليهم وقربهم ، وقال : أتدرون يا أهل قريش لِمَ أخرت أهل اليمن وقربتكم؟ قالوا : لا والله يا أمير المؤمنين . قال : لأنهم لم يزالوا يتطاولون علينا بالفخار ويقولون ما ليس فيهم ، وإني أريد إذا دخلوا غدًا وأخذوا أماكنهم من الجلوس أن أقوم فيهم نذيرا وألقي عليهم من المسائل ما أُقلّ به إكرامهم وأُرخص به مقامهم ، فإذا دخلوا وأخذوا أماكنهم من الجلوس وسألوا عن شيء فلا يجبهم أحد غيري . قال الراوي : وكان المقدَّم عليهم رجلًا يقال له الطرمّاح بن الحكم الباهلي ، فأقبل على أصحابه ، وقال : أتدرون يا أهل اليمن لم أخركم ابن هند وقدم قريشًا؟ قالوا : لا . قال : لأنه في غداة غد يقوم فيكم نذيرًا ويلقي عليكم من المسائل ما يقل به إكرامكم ويرخص به مقامكم ، فإذا دخلتم عليه وأخذتم أماكنكم من الجلوس وسألكم عن شيء فلا يجبه أحد غيري . فلما كان من الغد دخلوا عليه وأخذوا أماكنهم ، فنهض معاوية قائمًا على قدميه ، وقال : أيها الناس من تكلم قبل العرب ، وعلى من أنزلت العربية؟ فقام الطرماح وقال : نحن يا معاوية ، ولم يقل يا أمير المؤمنين . فقال : لماذا؟ فقال : لأنه لما نزلت العرب ببابل وكانت العبرانية لسان الناس كافة أرسل الله تعالى العربية على لسان يعرب بن قحطان الباهلي ، وهو جدنا فقرأ العربية وتداولها قومه من بعده إلى يومنا هذا ، فنحن يا معاوية عرب بالجنس وأنتم عرب بالتعليم . فسكت معاوية زمانًا ثم رفع رأسه وقال : أيها الناس ، من أقوى العرب إيمانًا ومن شهد له بذلك؟ فقال الطرماح : نحن يا معاوية . قال : ولم؟ قال : لأن الله بعث محمدًا ﷺ فكذبتموه وسفهتموه وجعلتموه مجنونًا ، فآويناه ونصرناه فأنزل الله : ﴿والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًا﴾ ، وكان النبي ﷺ ، محسنًا لنا متجاوزًا عن سيئاتنا ، فلِمَ لمْ تفعل أنت كذلك؟ كأنك خالفت رسول الله ﷺ . قال : فسكت زمانًا ثم رفع رأسه وقال : أيها الناس ، من أفصح العرب لسانًا ومن شهد له بذلك؟ قال الطرماح : نحن يا معاوية . قال : ولم ذلك؟ قال : لأن امرأ القيس بن حجر الكندي منا قال في بعض قصائده :

يطعمون الناس غبًا
في السنين الممحلات
في جفانٍ كالخوابي
وقــدور راسـيات

وقد تكلم بألفاظ جاء مثلها في القرآن ، وشهد له رسول الله ﷺ بذلك . قال : فسكت معاوية زمانًا وقال : أيها الناس ، من أقوى العرب شجاعة وذكرًا ومن شهد له بذلك؟ قال الطرماح : نحن يا معاوية . قال : ولم ذلك؟ قال : لأن منا عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، كان فارسًا في الجاهلية وفارسًا في الإسلام وشهد له بذلك النبي ﷺ . فقال له معاوية : وأين أنت وقد أتي به مصفّدًا بالحديد؟ فقال له الطرماح : ومن أتى به؟ قال معاوية : أتى به علي . قال الطرماح : والله لو عرفت مقداره لسلمت إليه الخلافة ولا طمعت فيها أبدًا . فقال له معاوية : أتحجّني يا عجوز اليمن؟ قال : نعم أحجّك يا عجوز مُضر ، لأن عجوز اليمن بلقيس آمنت بالله ، وتزوجت بنبيه سليمان بن داود ، عليهما السلام .

حضرمي مع ابن عمه

قال أَبُو بَكْرِ بن دريد : حَدَّثَنَا السكن بن سعيد ، عَنْ محمد بن عباد ، عَنِ العباس بن هشامِ ، عَنْ أبيه ، قَالَ : كان حضرمي بن عامر عاشر عشرةٍ من إخوته فماتوا فورثهم ، فقَالَ ابن عمه له يُقَال له : جزء : من مثلك ، مات إخوتك فورثتهم فأصبحت ناعماً جذلا! فقَالَ حضرمي :

يزعـم جـزء ولـم يقـل سـدداً ... إنـي تروحـت ناعمـاً جـذلا
إن كنـت أزننتنـي بهـا كذبـاً ... جـزء فلاقيـت مثلهـا عجـلا
أفـــرح أن أرزأ الكـــرام وأن ... أورث ذوداً شصائصـــاً نبـــلا
كـــم كان فِي إخوتى إذا احتضـن ... الأقـــوام تحت العجاجة الأسـلا
مـــن واجـد ماجـد أخى ثقـة ... يعطـى جزيلاً ويضـرب البطـلا
إن جئتـه خائفـاً أمنـت وإنْ ... قَالَ : سأحبـوك نائـلاً فعـلا

فجلس جزء عَلَى شفير بئر ، وكان له تسعة إخوة فانخسفت بإخوته ونجا هو ، فبلغ ذلك حضرمياً فقَالَ : إنا لله وإنا إليه راجعون ، كلمةً وافقت قدراً وأبقت حقدًا

رثاء كريم

قال أَبُو بَكْرِ بن الأنباري ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو الحسن بن البراء ، قَالَ : قَالَ أَبُو الحسن الأسدي : مات رجل كان يعول اثنى عشر ألف إنسان ، فلما حمل عَلَى النعش صر عَلَى أعناق الرجال ، فقَالَ رجل فِي الجنازة :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنه أعناق قوم تقصف
وليس فتيق المسك ما تجدونه ... ولكنه ذاك الثناء المخلف

بين أعرابي وامرأته

اشترى أعرابي خمرا بجزة من الصوف فغضبت عليه امرأته فأنشأ يقول :

غضبت عَلَى أن شربت بصوف ... ولئن غضبت لأشربن بخروف
ولئن غضبت لاشربن بنعجة ... دهساء مالئة الإناء سحوف
ولئن غضبت لأشربن بسابح ... نهد أشم المنكبين منيف
ولئن غضبت لأشربن بناقة ... كوماًء ناوية لعظام صفوف
ولئن غضبت لأشربن بواحديً ... ولأجعلن الصبر منه حليفي
ولقد شهدت الخيل تعثر بالقنا ... وأجبت صوت الصارخ الملهوف
ولقد شهدت إذا الخصوم تواكلوا ... بخصام لا نزقٍ ولا علفوف

بين عتبة وأعرابي

حج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدهم بفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قَالَ : أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسيء فيه الوزر ، ونحن عَلَى طريق ما قصدنا ، فلا تمدوا الأعناق إِلَى غيرنا ، فإنها تنقطع دوننا ، وربّ متمن حتفه فِي أمنيته ، فاقبلوا العافية ما قبلناها فيكم وقبلناها منكم ، وإياكم ولواً فإنها أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كلاً عَلَى كل .

فصاح به أعرابي : أيها الخليفة ، فقَالَ : لست به ولم تبعد ، فقَالَ : يا أخاه ، فقَالَ : سمعت فقل ، فقَالَ : تالله أن تحسنوا وقد أسأنا ، خير من أن تسيئوا وقد أحسنا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا فما أحقكم باستتمامه وإن كان منا ، فما أولاكم بمكافاتنا ، رجل من بني عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ، ويقرب إليكم

بالخئولة ، قد كثرة العيال ، ووطئه الزمان ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر .

فقَالَ عتبة : أستغفر الله منكم ، وأستعينه عليكم ، قد أمرنا لك بغناك ، فليت إسراعنا إليك ، يقوم بإبطائنا عنك .

الأجواد

قال بعضهم : أجود الناس في عصرنا قيس بن سعد بن علقمة

وقال آخر أجود الناس عبد الله بن جعفر(١)

وقال آخر : أجود الناس عرابة الأوسي(٢)

فتشاجروا في ذلك فأكثروا . فقال لهم الناس : يمضي كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان .

فقام صاحب عبد الله بن جعفر فصادفه في بعض أسفاره على راحلته ، فقال يا بن عم رسول الله ، أنا بن سبيل منقطع أريد رفدك لأستعين به ، وكان قد وضع رجله على ظهر الدابة فأخرج رجله وقال : خذها بما عليها ، فأخذها فإذا عليها مطارف خز وألفا دينار . ومضى صاحب قيس بن سعد فصادفه نائماً فقرع الباب ، فخرجت له جارية فقالت : ما حاجتك فإنه نائم؟ قال : ابن سبيل منقطع أتيت إليه يعينني على طريقي . فقالت له الجارية : حاجتك أهون علي من إيقاظه . ثم أخرجت له صرة فيها ثلاثمائة دينار وقالت له : امض إلى معاطن الإبل فاختر لك منها راحلة فاركبها وامض راشداً . فمضى الرجل فأخذ المال والراحلة .

ولما استيقظ قيس من منامه أخبرته الجارية بالخبر فأعتقها . ومضى صاحب عرابة فوجده قد عمي وقد خرج من منزله يريد المسجد ، وهو يمشي بين عبدين ، فقال : يا عرابة ، ابن سبيل منقطع يريد رفدك فقال : واسوأتاه والله ما تركت الحقوق في بيت عرابة الدراهم الفرد ، ولكن يا بن أخي خذ هذين العبدين ، فقال الرجل : ما كنت بالذي أقص جناحيك . فقال : والله يا بن أخي لابد من ذلك وإن لم تأخذهما

(١) عبد الله بن جعفر هو أبو جعفر عبد الله بن ذي الجناحين جعفر الطيار بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي .

(٢) عرابة بن أوس بن قيظي الاوسي الحارثي الانصاري رضي الله عنه : من سادات المدينة الأجواد المشهورين . أدرك حياة النبي ﷺ وأسلم صغيرا .وتوفي بالمدينة نحو ٦٠هـ .

فإنهما حران فنزع يديه من العبدين ورجع إلى بيته وهذا الجدار يلطمه وهذا الجدار يصدمه حتى أثر ذلك في وجهه .

فلما اجتمعوا حكموا لصاحب (عرابة) بالجود .

ملهبة الجوع

قال غيلان : حدّثني عمّي قال : توالت على العرب سنون سبع في الجاهلية حصّت كلّ شيء ، فخرجت على بكر لي في العرب ، فمكثت سبعا لا أذوق فيهنّ شيئا إلاّ ما ينال بعيري من حشرات الأرض حتى دنوت إلى حواء عظيم ، فإذا ببيت جحش عن الحيّ ، فملت إليه ، فخرجت إليّ امرأة طوالة حسّانة ، فقالت : من؟ قلت : طارق ليل يلتمس القرى . فقالت : لو كان عندنا شيء آنرناك به ، والدالّ على الخير كفاعله ، جس هذه البيوت فانظر إلى أعظمها ، فإن يك في شيء منها خير ففيه . ففعلت حتى دنوت إليه ، فرحّب بي صاحبه وقال : من؟ قلت : طارق ليل يلتمس القرى . فقال : يا فلان ، فأجابه ، فقال : هل عندك (من) طعام؟ قال : لا ، قال : فو الله ما وقر في أذني شيء كان أشدّ عليّ منه . فقال : هل عندك من شراب؟ قال : لا ، ثم تأوّه وقال : قد أبقينا في ضرع فلانة شيئا لطارق إن طرق ، قال : فأت به ، فأتى العطن فابتعثها ، فحدّثني عمّي أنّه شهد فتح أصفهان وتستر ومهرجان قذف وكور الأهواز وفارس ، وجاهد عند السّلطان وكثر ماله وولده ، قال : فما سمعت شيئا قطّ كان ألذّ إليّ من شخب تلك الناقة في تلك العلبة ، حتى إذا ملأها ففاضت من جوانبها وارتفعت عليها رغوة كجمّة الشّيخ أقبل بها نحوي فعثر بعود أو حجر ، فسقطت العلبة من يده ، فحدّثني أنّه أصيب بأبيه وأمّه وولده وأهل بيته ، فما أصيب بمصيبة أعظم عليه من ذهاب العلبة ، فلمّا رآني كذلك ربّ البيت خرج شاهرا سيفه ، فبعث الإبل ثم نظر إلى أعظمها سناما ، على ظهرها مثل رأس الرّجل الصّعل ، فكشف عن فوّهته ثم أوقد نارا ، واجتبّ سنامها ، ودفع إليّ مدية وقال : يا عبد الله ، اصطل واجتمل فجعلت أهوي بالبضعة إلى النّار ، فإذا بلغت إناها أكلتها ، ثم مسحت ما في يدي من إهالتها على جلدي ، وكان قد قحل على عظمي حتّى كأنّه شنّ ، ثم شربت ماء وخررت مغشيّا علي ، فما أفقت إلى السّحر .

مفاخرة اليمن ومضر

وعن الهيثم بن عدي . قال كان أبو العباس السفاح تعجبه المسامرة ومنازعة الرجال فحضرت ذات ليلة في مسامرة إبراهيم بن مخرمة الكندي وناس من بني الحارث بن كعب وهم أخواله وخالد بن صفوان بن إبراهيم التميمي . فخاضوا في الحديث وتذاكروا مضر واليمن فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، إن اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا وكانت لهم القرى ولم يزالوا ملوكاً أرباباً وورثوا ذلك كابراً عن كابر أولاً عن آخر منهم النعمانيات والمنذريات والقابوسيات والتبابعة ، ومنهم من مدحته الزبر ، ومنهم غسيل الملائكة ، ومنهم من اهتز لموته العرش ، ومنهم من كلمه الذئب ، ومنهم الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً . وليس شيء له خطر إلا وإليهم ينسب من فرس رائع أو سيف قاطع أو درع حصينة أو حلة مصونة أو درة مكنونة ، إن سئلوا أعطوا وإن سيموا أبوا ، وإن نزل بهم ضيف قروا لا يبلغهم مكابر ، ولا ينالهم مفاخر ، هم العرب العرباء ، وغيرهم المتعربة .

قال أبو العباس السفاح : ما أظن التميمي يرضى بقولك . ثم قال : ما تقول يا خالد؟ قال : إن أذنت في الكلام تكلمت .

قال : أذنت لك في الكلام فتكلم ولا تهب أحد .

فقال : أخطأ يا أمير المؤمنين المقتحم بغير علم والناطق بغير صواب ، فكيف يكون ما قال ، وإن القوم ليست لهم ألسن فصيحة ولا حجة رجيحة . نزل به كتاب ولا جاءت به اسنة ، وهم منا على منزلتين : إن حادوا عن قصدنا أكلوا ، وإن جازوا حكمنا قتلوا ، يفخرون علينا بالنعمانيات والمنذريات وغير ذلك مما سنأتي عليه ، ونفخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولله المنة علينا وعليهم لقد كانوا أتباعه فبه غزوا وله أكرموا ، فمنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنا الخليفة المرتضى ، ولنا البيت المعمور والمسعى وزمزم والمقام والمنبر والركن والحطيم والمشاعر والحجابة والبطحاء مع ما لا يخفى من المآثر ولا يدرك من المفاخر . فليس يعدل بنا عادل ولا يبلغ فضلنا قول قائل ومنا الصديق والفاروق والوصي وأسد الله وسيد الشهداء ذو الجناحين وسيف الله ، عرفوا الله وأتاهم اليقين ، فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه .

ثم التفت إلى إبراهيم فقال : أعالم أنت بلغة قومك؟ قال : نعم .

قال : فما اسم العين؟ قال : الجمجمة .

قال : فما اسم السن؟ قال : الميذن .
قال : فما اسم الأذن؟ قال : الصنارة .
قال : فما اسم الأصابع؟ قال : الشناتر .
قال : فما اسم اللحية؟ قال : الذئب .
قال : فما اسم الذئب؟ قال : الكنع .
قال : أفمؤمن أنت بكتاب الله؟ قال : نعم .
قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ ، وقال تعالى : ﴿بلسان عربي مبين﴾ ، وقال : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ . فنحن العرب والقرآن بلساننا نزل ، ألم تر أن الله تعالى قال : العين بالعين ، ولم يقل : الجمجمة بالجمجمة ؛ وقال : السن بالسن ، ولم يقل الميذن بالميذن ؛ وقال : الأذن بالأذن ، ولم يقل الصنارة بالصنارة ، وقال : ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ ، ولم يقل شناترهم . وقال : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، ولم يقل بذنبي . وقال تعالى : فأكله الذئب ، ولم يقل فأكله الكنع . ثم قال أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت .
قال : وما هن؟ قال : الرسول منا أو منكم؟ قال : منكم .
قال : فالقرآن نزل علينا أو عليكم؟ قال : عليكم .
قال : فالبيت الحرام لنا أو لكم؟ قال : لكم .
قال : فالخلافة فينا أو فيكم؟ قال : فيكم .
قال خالد : فما كان بعد هذه الأربع فهو لكم .

بين أهل مكة وأهل البصرة

قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر[1] : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة . فقال ابن المناذر : أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم . أنتم تسمون القدر

(١) محمد بن مناذر الشاعر يكنى أبا ذريح ، وقيل : أبا جعفر ، وقيل : أبا عبد اللّه ، كان مولى سليمان القهرماني ، وكان سليمان مولى عبيد الله بن سَمِعَ ، وكان شاعرا فصيحا ، ومدح المهدي ، وكان عالما باللغة .

برمة وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول قدر ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل :

وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِيات

. وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت علية ، وتجمعون هذا الاسم على علالي ، ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف . وقال الله تبارك وتعالى : غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ

وقال : وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ . وأنتم تسمون الطلع الكافور والا غريض ونحن نسميه الطلع . وقال الله تبارك وتعالى : وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ

الأعراب ومكة

روي أن سيلاً جاء فدخل البيت فانهدم ، فأعادته جُرهم[1] على بناء إبراهيم ، بناه لهم رجل منهم يقال له أبو الجدرة وأسمه عمر الجارود ، وسمي بنوه الجدرة . قال : ثم استخف جرهم بحق البيت ، وارتكبوا فيه أموراً عظاماً ، وأحدثوا فيه أحداثاً قبيحة ، وكان للبيت خزانة ، وهي بئر في بطنه ، يلقى فيها الحلي والمتاع الذي يهدى له ، وهو يومئذ لا سقف عليه ، فتواعد عليه خمسة من جرهم أن يسرقوا كل مافيه ، فقام على كل زاوية من البيت رجل منهم واقتحم الخامس ، فجعل الله عز وجل أعلاه أسفله ، وسقط منكساً فهلك ، وفر الأربعة الآخرون .

فلما كثر بغي جرهم بمكة قام فيهم مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض فقال : يا قوم احذروا البغي ، فإنه لا بقاء لأهله ، وقد رأيتم من كان قبلكم من العماليق استخفوا بالحرم ولم يعظموه وتنازعوا بينهم واختلفوا ، حتى سلطكم الله عليهم فاجتحتموهم فتفرقوا في البلاد ، فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة بيت الله ، ولا تظلموا من دخله وجاءه معظماً لحرماته ، أو خائفاً ، أو رغب في جواره ، فإنكم إن فعلتم ذلكم تخوفت أن تخرجوا منه خرج ذل وصغار ، حتى لا يقدر أحد منكم أن يصل إلى الحرم ، ولا إلى زيارة البيت الذي هو لكم حرز وأمن ، والطير تأمن فيه .

فقال قائل منهم يقال له مجدع : ومن الذي يخرجنا منه؟ ألسنا أعز العرب وأكثرهم مالاً وسلاحاً؟ فقال مضاض : إذا جاء الأمر بطل ما تذكرون ؛ فقد رأيتم ما صنع الله

(١) قبيلة عربيّة شهيرة تربى فيها اسماعيل عليه السلام .

بالعماليق! قالوا : وقد كانت العماليق بغت في الحرم ، فسلط الله عز وجل عليهم الذر فأخرجهم منه ، ثم رموا بالجدب من خلفهم حتى ردهم الله إلى مساقط رؤوسهم ، ثم أرسل عليهم الطوفان- قال : والطوفان : الموت- قال : فلما رأى مضاض بن عمرو بغيهم ومقامهم عليه ، عمد إلى كنوز الكعبة ، وهي غزالان من ذهب ، وأسياف قلعية ، فحفرلها ليلا في موضع زمزم ، ودفنها .

فبيناهم على ذلك إذ سارت القبائل من أهل مأرب ، ومعهم طريقة الكاهنة ، حين خافوا سيل العرم ، وعليهم مزيقياء وهو عمرو بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الزد بين الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، فقالت لهم طريقة لما قاربوا مكة : وحق ما أقول ، وما علمني ما أقول إلا الحكيم المحكم ، رب جميع الأمم ، من عرب وعجم . قالوا لها : ما شانك ياطريقة؟ قالت : خذوا البعير الشدقم ، فخضبوه بالدم ، تكن لكم أرض جرهم ، جيران بيته المحرم . فلما انتهوا إلى مكة وأهلها أرسل إليهم عمرو ابنه ثعلبة ، فقال لهم : ياقوم ، إنا قد خرجنا من بلادنا فلم ننزل بلدةً إلا أفسح أهلها لنا ، وتزحزحوا عنا ، فنقيم معهم حتى نرسل رواداً فيرتادوا لنا بلدا يحملنا ، فافسحوا لنا في بلادكم حتى نقيم قدر ما نستريح ، نرسل روادنا إلى الشأم وإلى الشرق ، فحيثما بلغنا أنه أمثل لحقنا به ، وأرجوا أن يكون مقامنا معكم يسيراً ، فأبت ذلك جرهم إباءً شديداً ، واستكبروا في أنفسهم ، وقالوا : لا والله ؛ ما نحب أن تنزلوا فتضيفوا علينا مرابعنا ومواردنا ، فارحلوا عنا حيث أحببتم ، فلا حاجة لنا بجواركم . فأرسل إليهم : إنه لابد من المقام بهذا البلد حولاً ، حتى ترجع إلي رسلي التي أرسلت ، فإن أنزلتموني طوعاً نزلت وحمدتكم وآسيتكم في الرعي والماء ، وإن أبيتم أقمت على كرهكم ثم لم ترتعوا معي إلا فضلاً ، ولم تشربوا إلا رنقا ، وإن قاتلتموني قاتلتكم ، ثم إن ظهرت عليكم سبيت النساء وقتلت الرجال ، ولم أترك منكم أحداً ينزل الحرم أبداً! فأبت جرهم أن تنزله طوعاً وتعبت لقتاله ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أفرغ عليهم فيها الصبر ، ومنعوا النصر ، ثم انهزمت جرهم فلم يفلت منهم إلا الشريد . وكان مضاض بن عمرو قد اعتزل حربهم ولم يعنهم في ذلك ، وقال : قد كنت أحذركم هذا . ثم رحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا قنونى وما حوله ، فبقايا جرهم به إلى اليوم ، وفني الباقون ؛ أفناهم السيف في تلك الحروب .

قالوا : فلما حازت خزاعة أمر مكة وصاروا وأهلها جاءهم بنو إسماعيل وقد كانوا

اعتزلوا حرب جرهم وخزاعة ، فلم يدخلوا في ذلك ، فسألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم ، فلما رأى ذلك مضاض بن عمرو بن الحارث وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكة أمر عظيم ، أرسل إلى خزاعة يستأذنها ، ومت إليهم برأيه وتوريعه قومه عن القتال ، وسوء العشرة في الحرم ، واعتزاله الحرب ، فأبت خزاعة أن يقروهم ونفوهم عن الحرم كله ، وقال عمرو بن لحي لقومه : من وجد منكم جرهميا قد قارب الحرم فدمه هدر ! فنزعت إبل لمضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو ، من قنوني تريد مكة ، فخرج في طلبها حتى وجد أثرها قد دخلت مكة ، فمضى على الجبال نحو أجياد ، حتى ظهر على أبي قبيس يتبصر الإبل في بطن وادي مكة ، فأبصر الإبل تنحر وتؤكل ولا سبيل له إليها ، فخاف إن هبط الوادي أن يقتل ، فولى منصرفا إلى أهله وانشأ يقول :

وقائلة والدمع سكب مبادر ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما ... يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها ، فأزالنا ... صروف الليالي ، والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت ... بعز فما يحظى لدينا المكاثر
ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا ... فليس لحي غيرنا ثم فاخر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته ... فأبناؤه منا ، ونحن الأصاهر
فإن تنثن الدنيا علينا بحالها ... فإن لها حالا ، وفي التشاجر
فأخرجنا منها المليك بقدرة ... كذلك - يا للناس - تجري المقادر
أقول إذا نام الخلي ، ولم أنم ... إذا العرش لا يبعد سهيل وعامر
وبدلت منها أوجها لا أحبها ... قبائل منها حمير ويحابر
وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة ... بذلك عضتنا السنون الغوابر
فسحت دموع العين تبكي لبلدة ... بها حرم أمن وفيها المشاعر
وتبكي لبيت ليس يؤذى حمامه ... يظل به أمنا ، وفيه العصافر
وفيه وحوش - لا ترام - أنيسة ... إذا خرجت منه فليست تغادر

خالد بن الوليد ورجل من الحيرة

قال خالد بن الوليد لأهل الحيرة : أخرجوا الي رجلا من عقلائكم أسأله عن بعض الأمور . فأخرجوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بقيلة الغساني ، وهو الذي بنى القصر ، وهو يومئذ ابن خمسين وثلاثمائة سنة فقال له خالد : من أين أقصى أثرك؟ قال من صلب أبي . قال : فمن أين خرجت؟ قال : من بطن أمي . قال : فعلام أنت؟ قال على الأرض . قال :

ففيم أنت؟ قال : في ثيابي .

قال : ما سنّك؟

قال : عظم .

قال : أتعقل ، لا عقلت؟

قال : أي والله وأقيّد .

قال : ابن كم أنت؟

قال : ابن رجل واحد .

قال : كم أتى عليك من الدهر؟

فقال : لو أتى علي شيء لقتلني .

قال : ما تزيدني مسألتك إلا غمّى ؟

قال : ما أجبتك إلا عن مسألتك .

قال : اعرب انتم أم نبط؟

قال : عرب استنبطنا ، ونبط استعربنا .

قال : فحرب انتم أم سلم؟

قال : سلم .

قال : فما بال هذه الحصون؟

قال : بنيناها للسفيه حتى يجيء الحليم فينهاه .

قال : كم أتت عليك سنة؟

قال : خمسون وثلاثمائة .

قال : فما أدركت؟

قال : أدركت سفن البحر ترفأ إلينا في هذا الجرف ، ورأيت المرأة من أهل الحيرة تأخذ مكتلها على رأسها ولا تتزود إلا رغيفا وغحدا ، فلا تزال في قرى مخصبة

متواترة حتى ترد الشام . ثم قد اصبحت خرابا يبابا ، وذلك دأب الله في العباد والبلاد

نوادر تحكى عن غير الناس

قيل لإبليس : ماذا لقيت من المتعلمين ؟
قال : التعلم ينسيهم وهم يلعنوني .

**

قيل للعقرب : لم لا تشمسين في الشتاء مع الناس ؟
قالت : من كثرة إحساني إليهم في الصيف .

**

كانت أفعى نائمة على حزمة شوك فحملها السيل ، والأفعى عليها ، إذ نظر إليها ثعلب ، فقال : مثل هذا الملاح يصلح لهذه السفينة .

**

أراد ثعلب أن يصعد حائطاً ، فتعلق بعوسجة فعقرت يده .
فقال : أنا أخطأت ، لأني تعلقت بما يتعلق بكل شيء .

**

وقف جدي على مكان فمر به ذئب فشتمه .
فقال له : لم تشتمني ؛ إنما شتمني المكان الذي أنت فيه .

**

قالت الخنفساء لأمها : ما مررت بأحد إلا بصق علي .
قالت : يا بنية ، لحسنك تعوذين .

**

نظر كلب إلى رغيف ، فقال له : إلى أين ؟
قال : إلى النهروان .
قال : فإن تركتك فابلغ إلى مرو .

**

وقف كلب على قصاب فآذاه ، فقال له القصاب : والله لئن قمت إليك لأرمينك بهذا الكرش ، فلم يبرح ؛ فتغافل عنه القصاب ، فلما طال وقوف الكلب قال للقصاب : ترمينا بالكرش أو ننصرف .

**

قيل للبغل : من أبوك ؟

قال : خالي الفرس .

وهذا كقول القائل :

سألته من أبوه ؟ . . . فقال خالي شعيب

وما كنّى عن أبيه . . . إلاّ وثمّ سبيب

طرائف الأمراء والخلفاء

معاوية بن أبي سفيان

عن ربيعة بن ناجد قال : قيل لمعاوية بن أبي سفيان(١) : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما وثقت بأحد قط .

وقال معاوية لعمرو بن العاص(٢) : ما بلغ من عقلك
فقال عمرو بن العاص : إني لا أدخل في أمر إلا وعرفتُ كيف أخرج منه
فقال معاوية : أما أنا فلا أدخلُ في أمر أريدُ الخروج منه !

وقال ثعلب(٣) : نظر معاوية يوم صفين إلى أحدى جنبتي عسكره وقد مالت فلمحها فاستوت ، ثم نظر إلى الجنبة الأخرى وقد مالت فلمحها فاستوت ، فقال له رجل من أصحابه : أهذا كنت دبرته من زمن عثمان ؟

فقال : هذا والله كنت دبرته منذ زمن عمر رضي الله عنهم .

معاوية وعدي:

قال معاوية لعدي بن حاتم(٤) : ما فعلت الطرفات يا أبا طريف؟ يعني أولاده ؛ قال :

قتلوا! قال : ما أنصفك ابن أبي طالب إذ قتل بنوك معه وبقي له بنوه! قال : لئن كان ذلك لقد قتل هو وبقيت أنا بعده! قال له معاوية : ألم تزعم أنه لا يخنق في قتل

---

(١) أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي ، من أصحاب الرسول محمد وأحد كتّاب الوحي . سادس الخلفاء في الإسلام ومؤسس الدولة الأموية في الشام وأوّل خلفائها .

(٢) عمرو بن العاص السهمي القرشي الكناني ، أبو عبد الله ، ابن سيد بني سهم من قريش العاص بن وائل السهمي .

(٣) أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء ، أبو العباس ، المعروف بثعلب : إمام الكوفيين في النحو واللغة .

(٤) عَدَي بن حاتم الطائي ، هو : ابن حاتم الطائي الذي كان يضرب به المثل ، في الجود والكرم وقد كان أبوه من أجود وأكرم العرب . تولى عدي : رئاسة قومه قبيلة طيء بعد وفاة أبيه في أرض الجبلين : أجا وسلمى وهي : منطقة حائل حالياً .

عثمان عنز؟ قال : قد والله خنق فيه التيس الأكبر . قال معاوية : أما إنه قد بقيت من دمه قطرة ولا بد أن أتبعها! قال عدي : لا أبا لك! شم السيف ، فإنّ سلّ السيف يسلّ السيف . فالتفت معاوية إلى حبيب بن مسلمة فقال : أجعلها في كتابك فإنها حكمة .

حديث الموائد

كان بين يدي معاوية ثريدةٌ كثيرةُ السمن ، ورجلٌ يؤاكله ، فخرقه إليه ، فقال له : ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ . فقال : ﴿فسقناه إلى بلد ميت﴾

معاوية وصحار:

قال معاوية لصحار بن العباس العبدي : يا أزرق . قال : البازي أزرق . قال : يا أحمر . قال : الذهب أحمر . قال : ما هذه البلاغة فيكم عبد القيس؟

قال : شيء يختلج في صدورنا فتقذفه ألسنتنا كما يقذف البحر الزّبد .

قال : فما البلاغة عندكم؟

قال : أن نقول فلا نخطئ ، ونجيب فلا نبطئ .

حكمة الشعر والألحان

كان معاوية يعيب على عبد الله بن جعفر[1] سماع الغناء . فأقبل معاوية عاماً من ذلك حاجاً ، فنزل المدينة ، فمر ليلةً بدار عبد الله بن جعفر ، فسمع عنده غناءً على أوتار ، فوقف ساعة يستمع ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله . فلما انصرف من آخر الليل مر بداره أيضاً ، فإذا عبد الله قائم يصلي ، فوقف ليستمع قراءته ، فقال : الحمد لله ، ثم نهض وهو يقول : «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم» فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعد له طعاماً ، ودعاه إلى منزله ، وأحضر ابن صياد المغني ، ثم تقدم إليه يقول : إذا رأيت معاوية واضعا يده في الطعام فحرك أوتارك وغن . فلما وضع معاوية يده في الطعام حرك ابن صياد أوتاره وغنى

(١) عبد الله بن جعفر هو أبو جعفر عبد الله بن ذي الجناحين جعفر الطيار بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي .

بشعر عدي ابن زيد ، وكان معاوية يعجب به :

يا لبينى أوقدي النارا إن من تهوين قد حارا
رب نار بت أرمقها تقضم الهندي والغارا
ولها ظبي يؤججها عاقد في الخصر زنارا

قال : فأعجب معاوية غناؤه حتى قبض يده عن الطعام ، وجعل يضرب برجله الأرض طرباً . فقال له عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأساً؟

قال : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان

بين صعصعة ومعاوية

دخل صعصعة بن صوحان عَلَى معاوية أول ما دخل عليه ، وقد كان يبلغ معاوية عنه ، فقَالَ معاوية ، : ممن الرجل ؟ فقَالَ : رجل من نزار ، قَالَ : وما نزار ؟ قَالَ : كان إذا غزا انحوش ، وإذا انصرف انكمش ، واذا لقي افترش ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من ربيعة ، قَالَ : وما ربيعة ؟ قَالَ : كان يغزو بالخيل ، ويغير بالليل ، ويجود بالنيل ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من أمهر ، قَالَ : وما أمهر ؟ قَالَ : كان إذا طلب أفضى ، وإذا أدرك أرضى ، وإذا آب أنضى ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من جديلة ، قَالَ : وما جديلة ؟ قَالَ : كان يطيل النجاد ، ويعد الجياد ، ويجيد الجلاد ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من دعمي ، قَالَ : وما دعمي ؟ قَالَ : كان نارا ساطعا ، وشرا قاطعا ، وخيرا نافعا ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من أفصى ، قَالَ : وما أفصى ؟ قَالَ : كان ينزل القارات ، ويكثر الغارات ، ويحمي الجارات ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من عبد القيس ، قَالَ : وما عبد القيس ؟ قَالَ : أبطال ذادة ، جحاجحة سادة ، صناديد قادة ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من أفصى ، قَالَ : وما أفصى ؟ قَالَ : كانت رماحهم مشرعة وقدورهم مترعة ، وجفانهم مفرغة ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من لكيز ، قَالَ : وما لكيز ؟ قَالَ : كان يباشر القتال ، ويعانق الأبطال ، ويبدد الأموال ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من عجل ، قَالَ : وما عجل ؟ قَالَ : الليوث الضراغمة ، الملوك القماقمة ، القروم القشاعمة ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من كعب ، قَالَ : وما كعب ؟ قَالَ : كان يسعر الحرب ، ويجيد الضرب ، ويكشف الكرب ، قَالَ : فمن أي ولده أنت ؟ قَالَ : من مالك ، قَالَ : وما

مالك ؟ قَالَ : هو الهمام للهمام ، والقمقام للقمقام ، فقَالَ معاوية : ما تركت لهذا الحي من قريش شيئا ، قَالَ : بل تركت أكثره وأحبه ، قَالَ : وما هو ؟ قَالَ : تركت لهم الوبر والمدر ، والأبيض والأصفر ، والصفا والمشعر ، والقبة والمفخر ، والسرير والمنبر ، والملك إِلَى المحشر ، قَالَ : أما والله لقد كان يسوءني أن أراك أسيرا ! قَالَ : وأنا والله لقد كان يسوءني أن أراك أميرا ! ثم خرج فبعث إليه فرد ووصله وأكرمه

تغدى صعصعة بن صوحان عند معاوية يوما ، فتناول من بين يدي معاوية شيئا فقال : يا ابن صوحان ، لقد انتجعت من بعيد! فقال : «من أجدب انتجع» .

معاوية واليماني

قال معاوية لرجل من اليمن : ما كان أبين حمق قومك حين ملّكوا امرأة!! فقال : كان قومك أشد حماقة ؛ إذ قالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ هلاَّ قالوا : فاهدنا له وبه!!

سيد الخطباء

لما اجتمع الناس ، وقامت الخطباء لبيعة يزيد ، وأظهر قوم الكراهة قام رجل من عذرة[1] يقال له يزيد بن المقنّع ، فاخترط من سيفه شبرا ثم قال : أمير المؤمنين هذا -وأشار بيده إلى معاوية- فإن مات فهذا- وأشار بيده إلى يزيد -فمن أبى فهذا- وأشار بيده إلى سيفه .

فقال له معاوية : أنت سيد الخطباء .

معاوية وجارية:

قال معاوية بن أبي سفيان لجارية بن قدامة[2] : ما كان أهونك على أهلك إذ سموك جارية!

(١) قبيلة من قبائل العرب عُرفت بالعشق وإليها يُنسب الحب العذريّ

(٢) جارية بن قدامة بن مالك بن زهير بن حصن ، ويقال : حصين بن رزاح وقيل : رياح بن أسعد بن بجير بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي السعدي ، يكنى أبا أيوب وأبا يزيد ، يعد في البصريين ، روى عنه أهل المدينة وأهل البصرة .

فقال له جارية : وما كان أهونك أنت على أهلك إذ سموك معاوية

معاوية وميسون الكلبية

ولما اتصلت ميسون بنت بحدل بمعاوية رضي الله عنه ونقلها من البدو إلى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر لمسقط رأسها ، فاستمع عليها ذات يوم فسمعها تنشد وتقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلي من قصر منيف
وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب إلي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج أحب إلي من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولي أحب إلي من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعبٌ أحب إلي من بغل زفوف
وخرق من بني عمي نحيفٌ أحب إلي من علج عنيف

قال الراوي : فلما سمع معاوية الأبيات قال : ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عنيفاً .

معاوية والحسن

وروي أن معاوية رضي الله عنه خرج عاماً حاجاً ، فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالاً جزيلة ، ولم يحضر الحسن بن علي رضي الله عنهما(١) ، فلما حضر قال له معاوية : مرحباً مرحباً برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا؟

فقال الحسن رضي الله عنه : كيف ينفد ما عندك ، وخراج الدنيا يجيء إليك؟

فقال له معاوية : قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة ، وأنا ابن هند .

فقال الحسن : قد رددته عليك ، وأنا ابن فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

(١) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ، سبط نبي الإسلام محمد وحفيده وثاني الأئمة عند الشيعة ، أطلق عليه النبي محمد لقب سيد شباب أهل الجنة ، كنيته أبو محمد ، ولد في النصف من شهر رمضان عام ٣ هـ وتوفي سنة ٥٠ هـ ودفن في البقيع .

معاوية وسودة الأسدية

وبما يروى عن الشعبي(١) قال : استأذنت سودة بنت عمارة بن الأسد(٢) على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها ، فلما دخلت عليه قال لها : يا بنت الأسد الست القائلة :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه واقعد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخا النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
وقد الجيوش وسر أمام لوائه وارم بأبيض صارم وسنان

قالت : بلى يا معاوية ، وما مثلي من رغب عن الحق واعتذر .

قال : فما حملك على ذلك؟ قالت : حب علي واتباع الحق .

قال : والله ما أرى عليك من أثر علي شيئاً .

قالت : أنشدك الله يا معاوية! لا تذكر ما مضى .

قال : هيهات! وما مثلك ، ومقام أخيك يسيئني ، وما لقيت من أخيك .

قالت : صدقت يا معاوية ، لم يكن أخي ذميم المقام ، ولا خبياً ، وهو والله كقول الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وأنا أسألك يا معاوية إعفائك مما استعفيت به .

قال : قد فعلت ؛ فما حاجتك؟ قالت : يا معاوية ، إنك أصبحت للناس سيداً ولأمورهم والياً ، والله سائلك عن أمرنا ، وما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من يغرك ويبطش بسلطانك ، ويحصدنا حصد السنبل ، ويدرسنا درس العصفر ، ويسومنا الخسف ، ويسلبنا الحيل ، هذا ابن أرطاة قدم علينا فقتل رجالي وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فإما عزلته . فشكرناك ، وإما أقررته فعرفناك .

(١) عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار أبو عمرو الهمداني الشعبي ، والمشهور بالإمام الشعبي ٢١ هـ/١٠٠ هـ ، فقيه ومحدث من السلف ,ولد في خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) سودة بنت عمارة الهمدانية شاعرة يمانية من همدان شهدت معركة صفين مع علي بن أبي طالب وهي امرأة عرقت بأنها شجاعة وذات منطق فصيح بليغ

فقال لها : أبقولك تهدديني؟ هممت أن أحملك على قتب جمل أشرس وأسيرك إليه لينفذ فيك أمره .

فأطرقت وبكت وأنشدت تقول :

صلى الإله على روح تضمنها قبر فأصبح فيه الحق مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذاك؟ قالت : أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

قال : ولم؟ قالت : أتيته في رجل ولاه علينا ، ولم يكن بيننا وبينه إلا كما بين الغث والسمين ، فوجدته قائماً يصلي ، فلما نظر إلي انفتل من صلاته . ثم قال برأفة ورحمة : ألك حاجة؟ فأخبرته فبكى . ثم قال : اللهم اشهد علي وعليهم أني لم أولهم وآمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك . ثم أخرج من جيبه قطعة من جلد كهيئة طرف الجواب فكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم : «قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ» . إذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك حتى يقدم عليك من يقبضه منك ، والسلام .

فأخذته منه وأوصلته إليه فامتثل ورجع عما كان فيه .

فقال معاوية : اكتبوا لها برد مالها والعدل في حالها .

فقال : ألي خاصة أم لي ولقومي؟ قال : بل لك .

قالت : إذا الفحشاء واللؤم ، هي والله إما عدلاً شاملاً وإلا فأنا كسائر قومي .

قال : اكتبوا لها بحاجتها هي وقومها .

مشاتمة في مجلس معاوية

عَن الأبرش الكلبي[(١)] ، أنه سمع الوليد بن عقبة[(٢)] ، وعمرو سعيد بن العاص[(٣)] ، يتلاحيان فِي مجلس معاوية ، رحمه الله ، فتكلم الوليد ، فقَالَ له عمرو :

---

(١) سعيد بن الوليد الكلبي الأبرش كاتب هشام بن عبد الملك .

(٢) الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، واسم أبي معيط : أبان بن أبي عمرو ، واسم أبي عمرو ذكوان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي . وقد قيل : إن ذكوان كان عبداً لأمية فاستلحقه .

(٣) عمرو بن سعيد بن العاص بن أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي الأموي ، الملقب بالأشدق لفصاحته .

كَذبت أو كُذبت ، فقَالَ له الوليد : اسكت يا طليق اللسان منزوع الحياء ويا ألأم أهل بيته ، فلعمري لقد بلغ بك البخل الغاية الشائنة المذلة لأهلها ، فساءت خلائقك لبخلك ، فمنعت الحقوق ، ولزمت العقوق ، فأنت غير مشيد البنيان ، ولا رفيع المكان ، فقَالَ له عمرو : والله إن قريش لتعلم أني غير حلو المذاقة ، ولا لذيذ الملاكة ، وإني لك الشجا فِي الحلق ، ولقد علمت أني ساكن الليل داهية النهار ، لا اتبع الأفياء ، ولا أنتمي إِلَى غير أبي ، ولا يجهل حسبي ، حام لحقائق الذمار ، غير هيوبٍ عند الوعيد ، ولا خائف رعديد ، فلم تعير بالبخل وقد جبلت عليه ، فلعمري لقد أورثتك الضرورة لؤماً ، والبخل فحشاً ، فقطعت رحمك ، وجرت فِي قضيتك ، وأضعت حق من وليت أمره ، فلست ترجى للعظائم ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا تستعف عَنِ المحارم ، لم تقدر عَلَى التوقير ، ولم يحكم منك التدبير ، فأُفحم الوليد .

فقَالَ معاوية ، وقد ساءه ذلك : كفا لا أبا لكما لا يرتفع بكما القول إِلَى ما لا نريد ، ثم أنشأ عمرو ، يقول :

وليدا ما كنت فِي القوم جالساً فكن ساكناً منك الوقار عَلَى بال
ولا يبدرن الدهر من فيك منطقٌ بلا نظرٍ قد كان منك وإغفال

بين معاوية وأعرابي ثقيل
قال أعرابي لمعاوية وقد أضجره : قد تحلب الناقة الضجور
فقال معاوية : وقد تكسر الإناء وتدق أنف حالبها
فقال الأعرابي : وقد تلين وتدرّ لبنها
فضحك وأعطاه .

أبو لهبٍ وأم جميل:

قال معاوية رضي الله عنه يوماً لأهل الشام ، وعنده عقيل بن أبي طالب(١) رضي الله عنه : هل سمعتم قول الله عزّ وجل : ﴿تبت يدا أبي لهبٍ وتب﴾ فقال

(١) عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القُرشي ، صحابي من صحابة محمد بن عبد الله نبي الإسلام وابن عمه الذي قال له : «يَا أَبَا يَزِيدَ ، إِنِّي أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبًّا لِقَرَابَتِكَ ، وَحُبًّا لِمَا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمِّي إِيَّاكَ»

الحضور : نعم سمعنا ، فقال معاوية إن أبا لهبٍ عمَ هذا الرجل وأشار إلى عقيل .

فقال عقيل : هل سمعتم قول الله عزّ وجّل : ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ فقال الحضور : سمعنا . فقال عقيل حمالة الحطب عمة هذا الرجل وأشار الى معاوية .

دخل أعرابي رث الهيئة في عباءة بالية على معاوية فأخذ ينظر إلى عباءته فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك ، إنما يكلمك من فيها

ابن أمك حواء وأبيك آدم

دخل أعرابي على معاوية ، بعد أن استأذن حاجبه وقال له أنا أخوه ابن أمه وأبيه .

فسأله معاوية : تقول أنك أخي ؟!

فقال الأعرابي : نعم أخوك ابن أمك حواء ، وأبيك آدم .

فصاح معاوية : ياغلام . . أعطه درهماً !

فقال الأعرابي : درهم ! أتعطي لأخيك ابن أمك وأبيك درهماً واحداً ؟!

فقال معاوية : يا أخي لو أنني أعطيك كل ما في بيت المسلمين لأخوتنا من آدم وحواء ، لما بلغك هذا الدرهم .

أخذ ورد

وقال معاوية لابن الأشعث بن قيس :

ما كان جدك قيس بن معد يكرب أعطى الأعشى ؟

فقال : أعطاه مالاً وظهراً ورقيقاً ، وأشياء أُنْسِيْتُها

فقال معاوية : لكن ما أعطاكم الأعشى لا ينسى

قال معاوية لسعيد بن مرة الكندي : أأنت سعيد؟

قال :أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة

كان عقيل رجلا قد كف بصره ، وله بعد لسانه وأدبه ونسبه وجوابه ، فلما فضل نظراءه من العلماء بهذه الخصال ، صار لسانه بها أطول . وغاضب عليا وأقام بالشام ، وكان ذلك أيضا مما أطلق لسان الباغي والحاسد فيه . وزعموا أنه قال له معاوية : هذا

أبو يزيد ، لولا أنه علم أني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه . فقال له عقيل : «أخي خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي» .

وقال له مرة بصفين : أنت معنا يا أبا يزيد الليلة . قال : ويوم بدر قد كنت معكم .

وقال معاوية يوما : يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى في كتابه : ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَب وَتَبَ﴾

قالوا نعم . قال : فإن أبا لهب عمه .

فقال عقيل : فهل سمعتم قول الله جل وعز : وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ

قالوا : نعم . قال : فإنها عمته . قال معاوية : حسبنا ما لقينا من أخيك .

وذكروا أن امرأة عقيل ، وهي فاطمة ابنة عتبة بن ربيعة قالت : يا بني لا يحبكم قلبي ابدا! أين أبي ، أين عمي ، أين أخي ، كأن أعناقهم أباريق الفضة ، ترد آنفهم قبل شفاههم . قال لها عقيل : إذا دخلت جهنم فخذي على شمالك .

ودخل رجل على معاوية ، وقد سقطت أسنانه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الأعضاء يرث بعضها بعضا . فالحمد لله الذي جعلك وارثها ولم يجعلها وارثتك

قال أبو عبيدة : سأل معاوية شيخا من بقايا العرب : أيّ العرب رأيته أضخم شأنا؟ قال : حصن بن حذيفة ، رأيته متوكئا على قوسه يقسم في الحليفين أسد وغطفان .

وقال معاوية لعقيل : إن فيكم لشبقاً يا بني هاشم

قال : هو منّا في الرجال ، وهو منكم في النساء .

لما وصل عبد العزيز بن زرارة إلى معاوية قال : يا أمير المؤمنين ، لم أزل أستدل بالمعروف عليك ، وأمتطي النهار إليك ، فإذا ألوى بي الليل فقبض البصر وعفّي الأثر ، أقام بدني وسافر أملي والنفس تلوّم ، والاجتهاد يعذر فإذ قد بلغتك فقطني .

قدم سعيد بن العاص على معاوية فقال : كيف تركت أبا عبد الملك؟

فقال : منفذا لأمرك ، ضابطا لعملك .

فقال له معاوية : إنما هو كصاحب الخبزة كفى إنضاجها فأكلها .

فقال سعيد : كلا إنه بين قوم يتهادون فيما بينهم كلاما كوقع النبل ، سهما لك وسهما عليك . قال : فما باعد بينه وبينك؟

فقال : خفته على شرفي ، وخافني على مثله .

قال : فأي شيء كان له عندك في ذلك؟ فقال : أسوءه حاضرا وأسره غائبا .

قال : يا أبا عثمان ، تركتنا في هذه الحروب .

قال : نعم : تحملت الثقل وكفيت الحزم ، وكنت قريبا لو دعيت لأجبت ، ولو أمرت لأطعت .

قال معاوية : يا أهل الشام : هؤلاء قومي وهذا كلامهم .

دار الأعرابي

دخل أعرابي على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين أعني على بناء داري

فقال : أين دارك؟

قال : بالبصرة وهي أكثر من فرسخين في فرسخين

فقال له : فدارك في البصرة أم البصرة في دارك!

معاوية وشريك

في عهد معاوية بن أبي سفيان ، كان يوجد فارس ذائع الصيت ،اسمه شريك بن الأعور[١] ، وكان معاوية يتمنى أن يراه ، وذات يوم جاء شريك لمجلس الخلافة ،وعندما رآه معاوية وجده دميم الوجه فقال له :يا شريك أنت دميم والجميل خير من الدميم ، وأنت شريك وما لله من شريك ، وأنت ابن الأعور والسليم خير من الأعور . فقال شريك : وأنت معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب ، وأنت بن حرب والسلم خير من الحرب ، وأنت ابن أميه وما أمية ألا أمة صُغِرت!!

(١) شريك بن الحارث الهمداني ، مشهور بشريك بن الاعور ولكن اسمه الصحيح هو شريك بن الحارث الهمداني ، همدان قبيلة في اليمن اصولها . كان من خيار محبي اهل البيت وهو سيد قبيلته .

تبادل الحاجات

وروي أن معاوية قال لعبد الله بن عامر : ان لي عندك حاجة ، أتقضيها؟
قال : نعم . ولي اليك حاجة أتقضيها؟
قال معاوية : نعم .
قال : سل حاجتك .
قال : أريد أن تهب لي دورك وضياعك بالطائف .
قال عبد الله : فعلت .
فقال معاوية : فسل حاجتك .
قال : أن تردّها عليّ .
قال : قد فعلت .

معاوية ورجل من الأنصار

قال معاوية يوما : أيها الناس ، إن الله فضّل قريشا بثلاث : فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ، فنحن عشيرته ؛ وقال : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، فنحن قومه ؛ وقال : لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ، ونحن قريش!

فأجابه رجل من الأنصار فقال : عَلى رسلك يا معاوية ، فإن الله يقول : وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ، وأنتم قومه ؛ وقال : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ، وأنتم قومه ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ، وأنتم قومه ؛ ثلاثة بثلاثة ، ولو زدتنا لزدناك! فأفحمه .

مع الأحنف بن قيس

مازح معاوية الأحنف ، فقال : يا أحنف ما الشيء الملفف في البجاد؟
قال : هو السخينة . أراد معاوية قول الشاعر :

إذا ما مات ميتٌ من تميم　　فسرك أن يعيش فجيء بزادٍ
بخبز أو بسمن أو بزيت　　أو الشيء الملفّف في البجاد

يريد وطبَ اللبن . والبجاد : كساءٌ يلفّ فيه ذلك .

وأراد الأحنف بـ«السخينة» أن قريشاً كانوا يأكلونها ويعيّرون بها ، وهي أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة ، وإنّما تؤكل في كلب الزمان وشدة الدهر .

كان معاوية يأذن للأحنف أوّل من يأذن ، فأذن له يوما ، ثم أذن لمحمد بن الأشعث حتى جلس بين معاوية والأحنف ، فقال له معاوية : «لقد أحسست من نفسك ذلا . إني لم آذن له قبلك إلا ليكون إلي في المجلس دونك ، وإنّا كما نملك أموركم كذلك نملك تأديبكم ، فأريدوا ما يراد بكم ، فإنه أبقى لنعمتكم ، وأحسن لأدبكم» .

دخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان ، فأشار له إلى الوساد فقال له : اجلس . فجلس على الأرض ، فقال له معاوية : وما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد؟

فقال يا أمير المؤمنين ، إن فيما أوصى به قيس بن عاصم المنقري ولده أن قال : «لا تغش السلطان حتى يملك ، ولا تقطعه حتى ينساك ، ولا تجلس له على فراش ولا وساد ، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين ، فإنه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له ، فيكون قيامك زيادة له ، ونقصانا عليك» . حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين ، لعله إن يأتي من هو أولى بذلك المجلس مني ، فقال معاوية :

«لقد أوتيت تميم الحكمة ، مع رقة حواشي الكلم» . وأنشأ يقول :

يا أيها السائل عما مضى ... وعلم هذا الزمن العائب

إن كنت تبغي العلم أو أهله ... أو شاهدا يخبر عن غائب

فاعتبر الأرض بسكانها ... واعتبر الصاحب بالصاحب

عدّد معاوية بن أبي سفيان على الأحنف ذنوبا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لم تردّ الأمور على أعقابها ؛ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا ؛ ولئن مددت فترا من غدر لنمدّن باعا من ختر ؛ ولئن شئت لنستصفين كدر قلوبنا بصفو حلمك . قال : فإني أفعل! .

وخطب معاوية يوماً فقال : أيها الناس إن الله تعالى قال : «وإن من شيء إلا

عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» ، فعلام تلومونني إذا قصرت عنكم في عطاياكم؟ فقال له الأحنف بن قيس : إنا والله ما نلومك فيما في خزائن الله ، ولكن وضعت يدك على ما أنزل الله من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه .

أخافُ اللهَ إن كَذَبْتُ، وأخافُكم إن صَدَقْتُ

لّما نَصَبَ معاويةُ يزيدَ لولاية الْعَهْد أَقْعَدَه في قُبَّة حمراء ؛ فجعل النّاسُ يسلّمونَ على معاوية ، ثمَّ يميلون إلى يزيد ، حتى جاء رجلٌ ففعلَ ذلك ثمّ رجَعَ إلى معاوية ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ اعلمْ أنّك لو لم تُوَلِّ هذا أمورَ المسلمين لأضَعْتَها! والأحْنَفُ بن قيس جالس . فقال معاويةُ للأحنف : ما بالُك لا تقولُ يا أبا بَحْر؟ فقال : أخافُ اللهَ إن كَذَبْتُ ، وأخافُكم إن صَدَقْتُ ؛ فقال معاوية : جزاك الله عن الطاعة خيرا! وأمر له بألُوف . فلمّا خرج الأحنف لَقِيَهُ الرّجلُ بالباب ، فقال : يا أبا بَحْر ، إنّي لأَعْلَمُ أنّ شَرَّ مَنْ خلق الله هذا وابنُه ، ولكنّهم قد استَوثَقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ؛ فلسنا نطمعُ في استخراجها إلاّ بما سمعت . فقال له الأحنف : يا هذا ؛ أمْسِكْ ؛ فإنّ ذا الوَجْهَيْنِ خَلِيقٌ ألاّ يكونَ عندَ اللهِ وَجيها .

خلافة معاوية

قالت هند بنت عتبة ، حين أتاها نعي يزيد بن أبي سفيان[1] ، فقال لها بعض المعزين : إنا لنرجو أن يكون معاوية خلف من يزيد ، فقالت هند : «ومثل معاوية لا يكون خلفا من أحد ، فو الله إن لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيها ، لخرج من أي أعراضها شاء»

قالوا : ولم يتكلم معاوية على منبر جماعة منذ سقطت ثناياه في الطست .

قال أبو الحسن وغيره : لما شق على معاوية سقوط مقادم فيه قال له يزيد ابن

(١) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي الدمشقي ، . ولد في خلافة الصحابي عثمان بن عفان في عام ٢٦ للهجرة . في قرية الماطرون وأمه هي ميسون بنت بحدل الكلبية ، طلقها معاوية فيما بعد . عاش فترة من حياته في البادية بين أخواله .

معن السلمي : «والله ما بلغ أحد سنك إلا أبغض بعضه بعضا ، ففوك أهون علينا من سمعك وبصرك» فطابت نفسه .

لما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه . فوفد عليه من كل مصر قومٌ . وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم فخلا به معاوية وقال له : ما ترى في بيعة يزيد فقال : يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحب إلي رشداً من نفسك سوى نفسي وإن يزيد أصبح غنياً في المال وسيطاً في الحسب وإن الله سائل كل راع عن رعيته فاتق الله وانظر مَن تولى أمرَ أمة محمد . فأخذ معاويةَ بَهْر حتى تنفّس الصُعداء وذلك في يوم شات ثم قال : يا محمد إنك امرؤ ناصحٌ قلت برأيك ولم يكن عليك إلا ذاك . ثم قال معاوية : إنه لم يَبق إلا ابني وأبناؤهم فابني أحبّ إليّ من أبنائهم اخرُج عني . ثم جلس معاويةُ في أصحابه وأذن للوفود فدخلوا عليه وقد تقدَّم إلى أصحابه أن يقولوا في يَزيد فكان أوّلَ من تكلَّم الضحاكُ بن قيس فقال : يا أميرَ المؤمنين إنه لا بُد للناس من والٍ بعدك والأنفس يُغْدَى عليها ويُراح . وإن الله قال : كُلّ يوم هو في شَان . ولا ندري ما يختلف به العصرْان ويزيدُ ابن أمير المؤمنين في حُسن مَعْدنَه وقَصْد سيرته من أفضلنا حلما وأحكمنا علماً فولّه عهدك واجعله لنا عَلماً بعدك . وإنّا قد بَلَونا الجماعةَ والأُلفة فوجدناه أحقن لَلدماء وآمَن للسُّبل وخيراً في العاجلة والآجلة . ثم تكلَّم عمرو بن سَعيد فقال : أيها الناس إن يزيدَ أملٌ تأمُلونه وأجل تأمنونه طويل الباع رَحْب الذراع إذا صِرْتم إلى عَدله وَسعكم وإن طلبتم رِفْده أغناكم جَذَع قارح سُوبق فسَبَق ومُوجِد فمَجَد وقُورِع فقَرع خلف من أمير المؤمنين ولا خَلف منه . فقال : اجلس أبا أمية فلقد أوسعت وأحَسنت . ثم قام يزيد بن المُقفّع فقال : أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد فمن أبي فهذا وأشار إلى سيفه . فقال معاوية : اجلس فإنك سيّد الخطباء . ثم تكلم الأحنف بن قيس فقال : يا أميرَ المؤمنين أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعَلانيته ومَدخله ومَخرجه فإن كنت تَعلمه لله رضا ولهذه الأمة فلا تُشاور الناسَ فيه وإن كنت تعلم منه غيرَ ذلك فلا تُزوّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة . قال : فتفرّق الناس ولم يذكروا إلا كلامَ الأحنف . قال : ثم بايع الناسُ ليزيد بن معاوية فقال رجل وقد دُعي إلى البيعة : اللهم إني أعوذ بك من شر معاوية . فقال له معاوية : تَعوذ من شر نفسك فإنه أشدّ عليك وبايعْ . قال : إني أبايع

وأنا كاره للبَيعة . قال له معاوية : بايع أيها الرجل فإن الله يقول : «فعَسى أن تَكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» . ثم كتب إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة : أن ادْعُ أهلَ المدينة إلى بيَعة يزيد فإن أهل الشام والعِراق قد بايعوا . فخطبهم مروان فحضّهم على الطاعة وحَذّرهم الفِتنة ودعاهم إلى بيَعة يزيد وقال : سُنه أبي بكر الهادية المَهْديَة . فقال له عبدُ الرحمن بن أبي بكر : كذبْتَ! إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة وبايع لرجل من بني عَدي رضي دينَه وأمانته واختاره لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم . فقال مروان : أيها الناس إن هذا المُتكلم هو الذي أنزل الله فيه : «والذي قالَ لوالدَيْه أُفٍّ لكما أتعدَانني أن أُخْرَج وقد خَلَت القُرونُ من قَبلي» . فقال له عبدُ الرحمن : يا بن الزرقاء أفَينا تتأوَل القرآن! وتكلّم الحُسين بن علي وعبدُ الله بن الزبير وعبدُ الله بن عمرَ وأنكروا بيعةَ يزيد وتفرّق الناس . فكتب مروان إلى معاوية بذلك . فخرج معاويةُ إلى المدينة في ألف فلما قَرُب منها تلقَاه الناس فلما نظر إلى الحُسين قال : مرحباً بسيّد شباب المسلمين قرّبوا دابّةً لأبي عبد اللهّ . وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر : مرحبَاَ بشيخ قريش وسيّدها وابن الصدّيق . وقال لابن عمر : مرحباً بصاحب رسول الله وابن الفاروق . وقال لابن الزُبير : مرحباً بابن حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ودعا لهم بدواب فَحملَهم عليها . وخرج حتى أتى مكة فقضى حَجَّه ولما أراد الشُّخوص أمر بأثقاله فقدِّمت وأمر بالمنبر فقرب من الكعبة وأرسل إلى الحُسين وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزُبير فاجتمعوا . وقالوا لابن الزبير : اكفنا كلامه فقال : علَى أن لا تُخالفوني . قالوا : لك ذلك ثم أتوا معاويةَ فرحّب بهم وقال لهم : قد علمتم نَظري لكم وتَعطُّفي عليكم وصلتي أرحامَكم ويزيدُ أخوكم وابنُ عَمكم وإنما أردتُ أن أُقدمه باسم الخلافة وتكونوا أَنتم تأمرون وتَنْهون . فسكتوا وتكلّم ابنُ الزبير فقال : نخيرك بينِ إحدى ثلاث أيّها أخذت فهي لك رغبة وفيها خِيار : فإن شئت فاصنع فينا ما صنع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قَبضه الله ولم يَسْتخلف فدع هذا الأمرَ حتى يختارَ الناسُ لأنفسهم وإن شئت فما صنع أبو بكر عَهد إلى رجل من قاصية قُريش وتَرك مِن ولده ومن رهطه الأدْنين مَن كان لها أهلاً وإن شئت فما صَنع عمر صيرها إلى ستة نفر من قُريش يختارون رجلاً منهم وترك ولده وأهلَ بيته وفيهم من لو وَليها لكان لها أهلاَ . قال معاوية : هل غيرُ هذا قال : لا . ثم قال للآخرين : ما عندكم قالوا : نحن على ما قال ابنُ الزبير . فقال معاوية : إني أتقدّم إليكم وقد أعذر من أنذر إني قائل مقالة فأُقسم باللهّ لئن رَدّ عليً

رجلٌ منكم كلمة في مَقامي هذا لا تَرْجع إليه كَلِمته حتى يُضرب رأسُه فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ولا يُبقى إلا عليها . وأمر أن يقوم على رأس كُلِّ رجل منهم رجلاًن بسَيفيْهما فإن تكلّم بكلمة يَرُدّ بها عليه قولَه قتلاه . وخرج وأخرجهم معه حتى رَقي المِنبر وحَفّ به أهل الشام واجتمع الناسُ فقال بعد حمد الله والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذاتَ عَوار قالوا : إن حَسيناً وابن أبي بكر وابن عمرِ وابن الزّبير لم يُبايعوا ليزيد وهؤلاء الرهط سادةُ المسلمين وخيارُهم لا نبرم أمراً دونهم ولا نقضي أمراً إلا عن مشورتهم وإني دعوتُهم فوجدتهم سامعين مُطيعين فبايعوا وسَلّموا وأطاعوا . فقال أهلُ الشام : وما يَعْظُم من أمر هؤلاء ائذن لنا فنضربَ أعناقهم لا نرضى حتى يُبايعوا علانيةً! فقال معاوية : سبحان الله! ما أسرعَ الناسَ إلى قُريش بالشرّ وأحلى دماءَهم عندهم! أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد . ودعا الناسَ إلى البيعة فبايعوا . ثم قربت رواحله فركب ومضى . فقال الناس للحُسين وأصحابه : قلتم : لا نُبايع فلما دُعيتم وأُرضيتم بايعتم! قالوا لم نَفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم أفلا أنكرتم! قالوا : خِفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم .

قال رجلٌ لأبي الأسود الدؤلي : أشهد معاوية بدراً؟
فقال : نعم ، من ذاك الجانب .

لمّا قدم معاوية حاجاً تلقّته قريشٌ بوادي القرى ، وتلقّته الأنصار بأجزاع المدينة ، فقال لهم : ما منعكم أن تلقوني حيث تلقتني قريشٌ؟
قالوا : لم يكن دوابٌ
قال : فأين النواضحُ؟
قالوا : أنضيناها يوم بدرٍ في طلب أبي سفيان .

مروان بن الحكم وحويطب

كان حويطب بن عبد العزى[1] قد بلغ مئة وعشرين سنة ، ستين في الجاهلية ،

(١) حويطب بن عبد العزى القرشي العامري ، المعمر . من الصحابة الذين أسلموا يوم الفتح .

وستين في الاسلام ، فلما ولي مروان بن الحكم[١] المدينة دخل عليها حويطب ، فقال له مروان :

تأخر اسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث .

فقال : والله لقد هممت بالإسلام غير مرّة ، وكل ذلك يعوقني عنه أبوك ، وينهاني ، ويقول : «تدع دين آبائك لدين محمد؟» .

فأسكت مروان وندم على ما كان .

عبد الملك بن مروان

قيل لعبد الملك بن مروان[٢] : عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين! قال : «وكيف لا يعجل عليّ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين» . يعني خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من الأمور

كان عبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه يعطش ، وقيل له :

إن شربت الماء مت . فأقبل ذات يوم بعض العوّد ، فقال : كيف حال أمير المؤمنين؟ فقال : أنا صالح والحمد لله . ثم أنشأ يقول :

ومستخبر عنا يريد بنا الردى ومستخبرات والدموع سواجم

ويلكم اسقوني ماء وإن كان فيه تلف نفسي . فشرب ثم مات .

قال عبد الملك على المنبر : «ألا تنصفوننا يا معشر الرعية؟ تريدون منا سيرة أبي بكرة وعمر ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا بسيرة رعية أبي بكر وعمر ، أسأل الله أن يعين كلا على حال» .

---

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي القرشي رابع خلفاء الدولة الأموية في دمشق . ,ومؤسس الدولة الأموية الثانية .

(٢) عبد الملك بن مروان الأموي القرشي ، أبو الوليد . خامس الخلفاء الأمويين وكان من أعظم خلفاء بني أمية لقب بأبي الملوك ، توسعت الدولة الأموية في عهده وازدهرت وكانت دمشق عاصمة الدولة منارة للعلم وأعظم مدن العالم الإسلامي .

سأل عبد الملك بن مروان أعرابيا فقال : ما بالك مراثيكم هي أشهر أشعاركم؟ قال : لأنّنا نكتبها وقلوبنا تحترق !

علم عبد الملك بن مروان وحُسن خلقه

قال مالك بن عمارة اللخمي : كنت أجالس في ظل الكعبة أيام الموسم عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير[١] ، وكنا نخوض في الفقه مرةً ، وفي الذكر مرةً ؛ وفي أشعار العرب وأمثال الناس مرةً ؛ فكنت لا أجد عند أحد منهم ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في فنونٍ العلم والفصاحة والبلاغة ، وحسن استماعه إذا حُدِّث ، وحلاوة لفظه إذا حَدَّث ، فخلوت معه ذات ليلة فقلت : والله إني لمسرورٌ بك لما أشاهده من كثرة تصرفك وحسن حديثك ، وإقبالك على جليسك

فقال : إنك إن تعش قليلاً فسترى العيون طامحة إلي والأعناق قاصدةً نحوي ، فلا عليك أن تعمل إلي ركابك .

فلما أفضت إليه الخلافة شخصت أريده ، فوافيته يوم جمعة وهو يخطب الناس ، فتصديت له ، فلما وقعت عينه علي بسر في وجهي ، وأعرض عني ،

فقلت : لم يثبتني معرفةً ولو عرفني ما أظهر نكرة .

لكنني لم أبرح مكاني حتى قضيت الصلاة ودخل ، فلم ألبث أن خرج الحاجب إلي فقال : مالك بن عمارة ، فقمت ، فأخذ بيدي وأدخلني عليه ، فلما رآني مد يده إلي ، وقال : إنك تراءيت لي في موضع لم يجز فيه إلا ما رأيت من الإعراض والانقباض ؛ فمرحباً وأهلاً وسهلاً ، كيف كنت بعدنا؟ وكيف كان مسيرك؟

قلت : بخير ، وعلى ما يحبه أمير المؤمنين .

قال : أتذكر ما كنت قلت لك؟

قلت : نعم ، وهو الذي أعملني إليك ؛

فقال : والله ما هو بميراث ادعيناه ، ولا أثر وعيناه ، ولكني أخبرك عن نفسي خصالاً سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى ، ما لا حيت ذا ودٍ ولا ذا

---

(١) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي ، تابعي جليل ، يُكنى بأبي عبد الله ، عالم أهل المدينة وأحد فقهائها السبعة ، كان ثقة فقيهاً علماً ثبتاً حجة كثير الحديث عالماً بالسير

قرابة قط ، ولا شمت بمصيبة عدو قط ، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي ، ولا قصدت كبيرةً من محارم الله متلذذاً بها وواثباً عليها ، وكنت من قريش في بيتها ، ومن بيتها في وسطه ، فكنت آمل أن يرفع الله مني ، وقد فعل ؛ يا غلام ، بَوِّئْه منزلاً في الدار .

فأخذ الغلام بيدي وقال : انطلق إلى رحلك ؛ فكنت في أخفض حال ، وأنعم بال ؛ وكان يسمع كلامي وأسمع كلامه ، فإذا حضر عشاءه أو غداءه أتاني الغلام وقال :

إن شئت صرت إلى أمير المؤمنين فإنه جالس ، فأمشي بلا حذاء ولا رداء فيرفع مجلسي ، ويقبل على محادثتي ، ويسألني عن العراق مرة ، وعن الحجاز مرة ،

حتى مضت لي عشرون ليلة . فتغديت عنده يوماً ، فلما تفرق الناس نهضت للقيام ،

فقال : على رسلك أيها الرجل ، أي الأمرين أحب إليك :

المقام عندنا ، ولك النصفة في المعاشرة والمجالسة مع المواساة ، أم الشخوص ولك الحباء والكرامة؟

فقلت : فارقت أهلي وولدي على أن أزور أمير المؤمنين ، فإن أمرني اخترت فناءه على الأهل والولد ،

قال : بل أرى لك الرجوع إليهم ، فإنهم متطلعون إلى رؤيتك ، فتجدد بهم عهداً ويجددون بك مثله ،والخيار في زيارتنا والمقام فيهم إليك ، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار ، وكسوناك وحملناك ، أتراني ملأت يدك أبا نصر؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، أراك ذاكراً لما رويت عن نفسك .

قال : أجل ، ولا خير فيمن ينسى إذا وعد ؛ ودع إذا شئت صحبتك السلامة

مع ثابت بن عبد الله بن الزبير

وقال عبد الملك بن مروان لثابت بن عبد الله بن الزّبير[1] : أبوك كان أعلم بك حين شتمك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتدري لم كان يشتمني؟ إني نهيته أن يقاتل بأهل مكة وأهل المدينة ، فإنّ الله لا ينصره بهما ، وقلت له ، أمّا أهل مكّة فأخرجوا

(١) ثابت بن عبد الله بن الزبير أحد رواة الحديث النبوي

رسـول الله صلّى الله عليـه وسلّم وأخـافوه ، ثـم جـاؤوا إلى المدينة فـأخـرجـهم منهـا وشرّدهم .- فعرّض بالحكم بن أبي العاص- وهو جدّ عبد الملك- وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نفاه .- وأمّا أهل المدينة فخذلوا عثمان حتّى قتل بينهم ، لم يروا أن يدفعوا عنه . فقال له عبد الملك : لحاك الله .

عبد الملك ويحيى بن الحكم وبنت لعبد الرحمن بن هشام:

خطب عبد الملك بن مروان بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فقالت : والله لا تزوجني أبو الذباب! فتزوجها يحيى بن الحكم ؛ فقال عبد الله ليحيى : أما والله لقد تزوجت أسود أفوه! قال يحيى : أما إنها أحبّت مني ما كرهت منك! وكان عبد الملك رديء الفم ، يدمي فيقع عليه الذباب ، فسمي أبا الذباب .

العطاء بقدر المعطي لا السائل

دخلت عجوز على عبد الملك بن مروان وشكت له سوء الحال فقال لها عبد الملك كم تحتاجين يا أخت العرب

فقالت يكفيني مائة دينار فامر لها عبد الملك بألف دينار فلما انصرفت قيل لعبد الملك أنها لم تطلب سوى مائة

فقال إنما سألت على قدرها فأعطيناها على قدرنا .

عبد الملك وعطاء

دخل عطاء المضحك على عبد الملك بن مروان ، فقال له : أما وجدت لك أمك اسما إلا عطاء؟

قال : لقد استكثرت من ذلك ما استكثرته يا أمير المؤمنين ، ألا سمتني باسم المباركة ، صلوات الله عليها ، مريم .

عبد الملك ورجل من قيس

دخل رجل من قيس(١) على عبد الملك بن مروان ؛ فقال : زبيري . والله لا

(١) إحدى قبائل العرب

يحبك قلبي أبدا . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من الحب النساء ، ولكن عدل وإنصاف .

عبد الملك وابن ظبيان:

دخل عبيد الله بن زياد بن ظبيان على عبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك :

ما هذا الذي يقول الناس؟ قال : وما يقولون؟ قال : يقولون إنك لا تشبه أباك قال : والله لأنا أشبه به من الماء بالماء ، والغراب بالغراب ؛ ولكن أدلك على من لم يشبه أباه . قال : من هو؟ قال : من لم تنضجه الأرحام ، ولم يولد لتمام ، ولم يشبه الأخوال والأعمام . قال : ومن هو؟ قال : ابن عمي سويد بن منجوف . وإنما أراد عبد الملك ابن مروان ، وذلك لأنه ولد لستة أشهر .

عبد الملك بن مروان وأسماء بن خارجة

قال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة بن حصن[١] ، وبلغه أنه أتى في ديات فعجز عنها وضمن منها أشياء يسيرة :

يا أسماء بلغني عنك أشياء حِسان ،أحببت أن أسمعها منك .
قال : يا أمير المؤمنين هي من غَيري أحسن ،
قال : لَتَفْعلنّ ،
قال : يا أمير المؤمنين ما قدّمْت ركبتي أمام جليسي
مخافة أن يرى ذلك مني استخفافاً بمجالسته ،
ولا صنعت طعاماً قط فدعوت إليه إنساناً فأجابني
إلا كنت له شاكراً حتى ينصرف
ورأيت له الفضل إذ رآني للإجابة أهلاً ،
ولا بذل لي رجل وجهه في حاجة

(١) أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، وكنيته أبو حسان الكوفي ، وكان من أشراف العرب وسادتهم ، عرف عنه الجود والسخاء وله قصص كثيرة بالكرم ، وكانت بنته هند زوجاً للحجاج بن يوسف ، وابنه مالك بن أسماء من ولاة الحجاج وعماله

فرأيت أن شيئاً من الدنيا عوض لبذل وجهه .
فقال :
ما أحق من كانت هذه الخصال فيه أن يكون شريفاً !!
وقد بلغني أنك أتيت في دِيّات ولم تكن بالضعيف عنها
فاحتملت منها القليل ،
فقال : يا أمير المؤمنين قد قلت في ذلك ما عذرت به
إلا أن يهجني مهجن ،
قال : وما قلت ؟
قال : قلت : من الطويل
يرى المرء أحياناً إذا قل ماله إلى المجد سورات فلا يستطيعها
وليس به بخل ولكن ماله يقصر عنها والبخيل يضيعها
فقال عبد الملك : هذا النقد الحاضر بالميزان العدل ،
حركناك فظهر الأحسن .

الأيمان أم أسماء الخيل

قاد عياش بن الزبرقان بن بدر ، إلى عبد الملك بن مروان خمسة وعشرين فرسا ، فلما جلس لينظر إليها نسب كل فرس منها إلى جميع آبائه وأمهاته ، وحلف على كل فرس بيمين غير اليمين التي حلف بها على الفرس الآخر ، فقال عبد الملك بن مروان : عجبي من اختلاف إيمانه أشد من عجبي من معرفته بأنساب الخيل .

عبد الملك بن مروان يعيب قولاً على نصيب

وأمّا قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت   فيا ليت شعري من يهيم بها بعدي

فإنّي لم أجِد له تأويلاً . وعاب ذلك عليه عبد الملك بن مروان ، وقال لجلسائه : أو لو كنتم قائلين هذا البيت ما كنتم تقولون؟ قالوا : لا ندري ، فكيف كان أمير المؤمنين قائلاً : قال : كان يقول :

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت   فلا صلحت دعد لذي خلّةٍ بعدي

رسول عبد الملك إلى الروم

وجّه عبد الملك بن مروان عامرا الشعيبي الى ملك الروم في بعض الأمر له ، فاستكثر الشعبي فقال له :

من أهل بيت الملك أنت؟

قال : لا .

فلما أراد الرجوع الى عبد الملك حمّله رقعة لطيفة وقال : اذا رجعت الى صاحبك ، فأبلغته جميع ما يحتاج الى معرفته من ناحيتنا ، فادفع اليه هذه الرقعة .

فلما صار الشعبي الى عبد الملك ذكر ما احتاج الى ذكره ونهض من عنده ، فلما ذكر الرقعة ، فرجع فقال : يا أمير المؤمنين ، انه حمّلني اليك رقعة نسيتها حتى خرجت ، وكانت آخر ما حمّلني فدفعها اليه ونهض .

فقرأها عبد الملك فأمر بردّه ، فقال : أعلمت ما في هذه الرقعة؟

قال : لا .

قال : فانه قال فيها : «عجبت من العرب كيف ملّكت غير هذا!» . أفتدري لم كتب الي بمثل هذا؟

فقال : لا .

فقال : حسدني عليك ، فأراد أن يغريني بقتلك .

فقال الشعبي : لو كان رآك يا أمير المؤمنين ما استكثرني .

فبلغ ذلك ملك الروم ، ففكّر في عبد الملك ، فقال : لله أبوه ، والله ما أردت الا ذلك .

حجة مشؤوم

وعن الأصمعي عن أبيه قال : أتي عبد الملك بن مروان برجل كان مع بعض من خرج عليه ، فقال : اضربوا عنقه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ما كان هذا جزائي منك .

قال : وما جزاؤك؟

قال : والله ما خرجت مع فلان الا بالنظر لك ، وذلك أني رجل مشؤوم ، ما كنت مع رجل قط الا غلب وهزم ، وقد بان لك صحة ما ادّعيت ، وكنت لك خيرا من مئة ألف معك .

فضحك وخلّى سبيله .

في مجلس عبد الملك

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خبِّروني عن حي من أحياء العرب ، فيهم أشدُّ الناس ، وأسخى الناس ، وأخطب الناس ، وأطوع الناس في قومه ، وأحلم الناس وأحضرهم جواباً . . قالوا : يا أمير المؤمنين ، ما نعرف هذه القبيلة ولكن ينبغي لها أن تكون في قريش . . قال : لا ! قالوا : ففي حِمير وملوكها ! قال : لا ! قالوا : ففي مُضر! قال : لا! قال مصقلة بن رقية العبدي : فهي إذا في ربيعة ونحن هم . . قال : نعم قال جلساؤه : ما نعرف هذا في عبد القيس إلا أن تخبرنا به يا أمير المؤمنين قال : نعم ! أمَّا أشدُّ الناس : فحكيم بن جبلة ، كان معي علي بن أبي طالب فقُطعت ساقه ، فضمها إليه ، حتى مرَّ به الذي قطعها فرماه بها فألقاه عن دابته ، ثم جثى إليه فقتله واتكأ عليه . . فمرَّ به الناس ، فقالوا له : يا حكيم ! من قطع ساقك ! قال : وسادي هذا وأنشأ يقول :

يا ساق لا تُراعي
إن معي ذراعي
أحمي بها كراعي

وأمَّا أسخى الناس : فعبد الله بن سوَّار استعمله معاوية على السِّند ، فسار إليه في أربعة آلاف من الجُند ، وكانت تُوقَدُ معه نار حيثما سار فيطعم الناس ، وبينما هو ذات يوم ، إذ أصر ناراً فقال : ماهذه ، قالوا : أصلح الله الأمير ، اعتلَّ بعض أصحابنا فاشتهى خبيصا فعملنا له ، فأمر خبَّازه أن لا يُطعم الناس إلا الخبيص ، حتى صاحوا وقالوا : أصلح الله الأمير ، رُدَّنا إلى الخبز واللحم ، فسُمِّي مُطْعِم الخبيص !

وأما أطوع الناس في قومه : فالجارود بن بِشر بن العلاء أنه لَّما قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتدَّت العرب ، خطب قومه فقال : أيها الناس إن كان محمد قد مات ، فإن الله حيٌ لا يموت ، فاستمسكوا بدينكم ، فمن ذهب له في هذه الرِّدة دينار أو درهم ، أو بعير أو شاة ، فله عليَّ مِثلاه ! فما خالفه منهم رجل .

وأما أحضر الناس جوابا : فصعصعة بن صوحان دخل على معاوية في وفد أهل العراق ، فقال معاوية ، مرحباً بكم يا أهل العراق قدمتم أرض الله المقدسة منها المنشر وإليها المحشر ، قدمتم على خير أمير ، يبرُّ كبيركم ، ويرحم صغيركم ، ولو أن الناس كلهم ولد أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء . . فأشار الناس إلى صعصعة ، فقام ، فحمد الله وصلَّى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ قال : أمَّا قولك يامعاوية إنَّا

قـدمنا الأرض المُقـدَّسـة فلعـمـري مـا الأرض تُقـدِّس الناس ، ولا يُقـدِّس الناس إلا أعمالهم ، وأمَّا قولك : منها المنشر وإليها المحشر ، فلعمري ما ينفع قربها ، ولا يضر بعدها مؤمناً ، وأمَّا قولك لو أنَّ الناس كلهم ولد أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء ، فقد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان آدم صلوات الله عليه ، فمنهم الحليم والسَّفيه والجاهل والعالِم .

وأمَّا أحلم الناس : فالأشجُّ العبدي فإن وفد عبد القيس ، قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم بصدقاتهم ، وفيهم الأشجُّ ، ففرقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول عطاء فرقه في أصحابه ، ثم قال : يا أشجُّ ادنُ مني فدنا منه . . فقال : إن فيك خلَّتين يحبهما الله : الأناة والحِلم ! وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم شاهدا . . ويقال إن الأشجَّ لم يغضب قط .

الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز والحجاج

دخل عمر بن عبد العزيز قبل ان يستخلف على الوليد بن عبد الملك[(١)] فقال يا أمير المؤمنين إن عندي نصيحة فاذا خلا لك عقلك واجتمع فهمك فسلني عنها . قال : ما يمنعك منها الآن؟ قال : أنت أعلم ، إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم . فمكث أياماً ، ثم قال : يا غلام من بالباب؟ فقيل له : ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز . فقال : أدخله . فدخل عليه ، فقال : نصيحتك يا أبا حفص . فقال عمر : إنه ليس بعد الشِّرك إثم أعظم عند الله من الدم ، وإن عمالك يقتلون ، ويكتبون إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا ، وأنت المسئول عنه والمأخوذ به ، فاكتب إليهم ألا يَقتُل أحد منهم أحدًا حتى يكتب بذنبه ، ثم يشهد عليه ، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك . فقال : بارك الله فيك يا أبا حفص ، ومنع فقدَك . عليَّ بكتاب ، فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم ومن بينهم الحجَّاج ، فشق ذلك على الحجاج ، وظن أن الوليد لم يكتب إلى أحد غيره ، ثم سأل عن ذلك فأخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي أشار على الوليد بذلك . فقال : هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره .

---

(١) الوليد الأول بن عبد الملك الأول الأموي القرشي ، أبو العباس ولد بالمدينة المنورة سنة ٦٦٨ م/٥٠هـ- /٩٦٧١٥هـ وحكم من ٧٠٥ م حتى ٧١٥ م . كان ولي عهد أبيه الخليفة عبد الملك بن مروان وولي عهده أخوه شقيقه سليمان بن عبد الملك .

ثم إن الحجاج أرسل إلى أعرابي حروري –من الخوارج– جافٍ من بكر بن وائل ، ثم قال له الحجاج : ما تقول في معاوية؟ فنال منه ، قال : ما تقولُ في يزيد؟ فسبه ، قال : فما تقول في عبد الملك؟ فظَلَّمه . قال : فما تقول في الوليد؟ فقال : أَجْوَرُهم حين ولاّك ، وهو يعلم عداءك وظلمك . فسكت الحجاج وافترصها –انتهزها– منه ، ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه : أنا أحوط لديني ، وأرعى لما استرعيتني ، وأحفظ له من أن أقتل أحدًا لم يستوجب ذلك ، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي ، فشأنك وإياه . فدخل الحروري على الوليد ، عنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم ، فقال له الوليد : ما تقول فيَّ؟ قال : ظالم جبار . قال : ما تقول في عبد الملك؟ قال : جبار عاتٍ . قال : فما تقول في معاوية؟ قال : ظالم . فقال الوليد لابن الريان : اضرب عنقه . فقًال : يا غلام ، اردد عليَّ عمر . فرده عليه ، فقال : يا أبا حفص ، ما تقول في هذا : أصبنا أم أخطأنا؟

فقال عمر : ما أصبت بقتله ، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب ، كنت تسجنه حتى يراجع الله أو تدركه مَنِيَّتُه . فقال الوليد : شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري ؛ أفتستحل ذلك؟ فقال : لعمري ما أستحله ، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه . فقام الوليد مغضبًا ، فقال ابن الريان لعمر : يغفر الله لك يا أبا حفص ، لقد راددتَ أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك . وهكذا احتال الحجاج على الوليد ليصرفه عن الأخذ برأي عمر بن عبد العزيز في الحدِّ من سرف الحجاج وأمثاله في القتل

الوليد بن عبد الملك والطاعون

قال إسحاق بن أيوب : هرب الوليد بن عبد الملك من الطاعون

فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، إن الله يقول : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلًا

قال : ذلك القليل نريد .

يخطب بنت الوليد

دخل على الوليد فتى من بني مخزوم ، فقال له : زوجني ابنتك .

فقال له : هل قرأت القرآن؟

قال : لا .

قال أدنوه مني .

فأدنوه فضرب عمامته بقضيب كان في يده ، وقرع رأسه به قرعات ، ثم قال لرجل : ضمّه إليك فإذا قرأ القرآن زوجناه .

سليمان بن عبد الملك[1] بن مروان

فما يذكر من محاسنه : أن رجلاً دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين أنشدك الله والأذان ، فقال سليمان : أما أنشدك الله فقد عرفناه ، فما الأذان؟ قال : قوله تعالى : ﴿فأذن مؤذن بينهم : أن لعنة الله على الظالمين﴾ .

فقال سليمان : ما ظلامتك؟ قال : ضيعتي الفلانية غلبني عليها عاملك فلان .

فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الأرض وقال : والله لا رفعت خدي من الأرض حتى يكتب له برد ضيعته . فكتب الكتاب وهو واضع خده على الأرض ولما سمع كلام ربه الذي خلقه وخوله في نعمه خشي من لعن الله وطرده ، رحمه الله .

سليمان بن عبد الملك والجارية

لبس سليمان بن عبد الملك يوم الجمعة في ولايته لباسا شهر به ، وتعطّر ودعا بتخت فيه عمائم وبيده مرآة ، فلم يزل يعتمّ بواحدة بعد واحدة ، حتّى رضى منها واحدة فأرخى من سدولها وأخذ بيده مخصرة وعلا المنبر ناظرا في عطفيه ، وخطب خطبته التي أرادها فأعجبته نفسه ، فقال : أنا الملك الشابّ ، السيّد المهاب ، الكريم الوهّاب فتمثّلت أي : صارت ممثّلة له جارية من بعض جواريه كان يتخطّاها فقال لها كيف ترينني ؟ قالت أراك منى النّفس لو لا ما قال الشاعر :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير الاّ بقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب ... يا سليمان غير أنّك فان

---

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، الخليفة الأموي السابع ، وهو يعد من خلفاء بني أمية الأقوياء ,ولد ب دمشق وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الخليفة الوليد بن عبد الملك عام ٩٦هـ . ومدة خلافته لا تتجاوز السنتين وسبعة شهور .

فدمعت عيناه وخرج على الناس باكيا ، فلّما فرغ دعا بالجارية ، فقال : ما دعاك إلى ما قلت لي ؟ قالت : واللّه ما رأيتك اليوم ولا دخلت عليك ، فأكبر ذلك ودعا بقيّمة جواريه فصدّقتها في قولها ، فراع ذلك سليمان ولم ينتفع بنفسه ، ولم يمكث بعد ذلك إلاّ مدّة حتّى توفّى

سليمان ويزيد ابن أبي مسلم

دخل يزيد بن أبي مسلم [(١)] على سليمان بن عبد الملك ، فقال : على أمرئ أوطأك رسنه وسلّطك على الأمة لعنة الله . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك رأيتني والأمر مدبر عني ولو رأيتني والأمر مقبل عليّ لعظم في عينك ما استصغرت مني . قال : أتظن الحجاج استقر في قعر جهنم أم هو يهوي فيها؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أبيك ، وأخيك فضعه من النار حيث شئت .

من يشتم الحجاج ؟

قال الهيثم بن عدي : قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك ، بعد ما استخلف ، فأمرهم بشتم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم إن عدو الله الحجاج ، كان عبدا زبابا ، قنّورا ابن قنّور ، لا نسب له في العرب . فقال سليمان : أي شتم هذا؟ إن عدو الله الحجاج كتب إليّ :

«إنما أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت فيّ ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت محوتك ، وإن شئت أثبتك» . . فالعنوه لعنة الله! فأقبل الناس يلعنون ، فقام ابن أبي بردة بن أبي موسى فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرك عن عدو الله بعلم . قال : هات .

قال : كان عدو الله يتزيّن تزيّن المومسة ، ويصعد على المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، وإذا نزل عمل الفراعنة وأكذب في حديثه من الدجال .

فقال سليمان لرجاء بن حيوة : هذا وأبيك الشتم لا ما تأتي به هذه السّفلة .

---

(١) يزيد بن أبي مسلم أمير المغرب أبو العلاء بن دينار الثقفي مولى الحجاج وكاتبه ومشيره

غيرة سليمان بن عبد الملك

كان سليمان بن عبد الملك من أشدّ النّاس غيرةً . فحكي أبو زيد الأسدي قال : دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو على دكان مبلّط بالرّخام الأحمر ، مفروشٌ بالدّيباج الأصفر في وسط بستان قد أينعت ثماره ، ورنت أطياره ، وأزهر نبت الرّبيع ؛ وعلى رأسه وصائف كلّ واحدة أحسن من صاحبتها ، فقلت : السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وكان سليمان مطرقاً فرفع رأسه فقال : أبا زيد ، في مثل هذا اليوم يصلب أحدٌ حيّاً . فقلت : يا سيّدي ، يا أمير المؤمنين ، أو قد قامت القيامة؟ قال : نعم على رأس أهل الهوى سرّاً .

أعرابي على مائدة سليمان بن عبد الملك

حضر أعرابي مائدة سليمان بن عبد الملك فجعل يمدّ يديه فقال له الحاجب : كُلْ مما يليك ، فقال : من أخصب تخيّر ، فأعجب ذلك سليمان وقضى حوائجه .

سليمان وابن المهلب

وقال سليمان بن عبد الملك ليزيد بن المهلب(١) : فيمن العزّ بالبصرة؟

قال : فينا وفي حلفائنا من ربيعة .

قال سليمان : الذي تحالفتما عليه أعزّ منكما .

الصدق أم بلاغة الوصف

دخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك ، فقال : أصابتك سماء في وجهك يا أعرابي؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، غير أنها سحاء طخياء وطفاء ؛ كأن هواديها الدّلاء ، مرجحنّة النواحي ، موصولة بالآكام ، تكاد تمس هام الرجال ؛ كثير زجلها ، قاصف رعدها ، خاطف برقها ، حثيث ودقها ، بطيء سيرها ؛ مثعنجر قطرها ، مظلم نوؤها ؛ قد لجأت الوحش إلى أوطانها ، تبحث عن أصوله بأظلافها ، متجمعة بعد شتاتها ؛ فلولا اعتصامنا يا أمير المؤمنين بعضاة الشجر ، وتعلقنا بقنن الجبال ، لكنا

(١) يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة ، الأمير ، أبو خالد الأزدي . ولي المشرق بعد أبيه ، ثم ولي البصرة لسليمان بن عبد الملك ، ثم عزله عمر بن عبد العزيز بعدي بن أرطاة ، وطلبه عمر وسجنه .

جفاء في بعض الأودية ولقم الطريق ، فأطال الله للأمة بقاءك ، ونسألها في أجلك ، فهذا ببركتك وعادة الله بك على رعيتك ، وصلى الله على سيدنا محمد . فقال سليمان : لعمر أبيك ، لئن كانت بديهة لقد أحسنت وإن كانت محبرة لقد أجدت .

قال : بل محبرة مزوّرة يا أمير المؤمنين . قال : يا غلام أعطه ؛ فو الله لصدقه أعجب إلينا من صفته .

جابر عثرات الكرام

قيل : كان في أيام سليمان رجل يقال له خزيمة بن بشر من بني أسد ، كان له مروءة ظاهرة ونعمة حسنة وفضل وبر بالإخوان ، فلم يزل على تلك الحالة حتى قعد به الدهر فاحتاج إلى إخوانه الذين كان يتفضل عليهم وكان يواسيهم ، فواسوه ثم ملوه ، فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه ، فقال لها : يا ابنة عمي ، قد رأيت من إخواني تغيراً ، وقد عزمت على أن ألزم بيتي إلى أن يأتيني الموت ، فأغلق بابه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد وبقي حائراً وكان يعرفه عكرمة الفياض الربعي متولي الجزيرة ، وإنما سمي بذلك لأجل كرمه ، فبينما هو في مجلسه إذ ذكر خزيمة بن بشر فقال عكرمة الفياض : ما حاله؟ فقالوا : قد صار إلى أمر لا يوصف وإنه أغلق بابه ولزم بيته .

قال : أفما وجد خزيمة بن بشر مواسياً ولا مكافئاً؟ فقالوا : لا .

فأمسك عن الكلام ثم لما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد ثم أمر بإسراج دابته وخرج سراً من أهله . فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال . ثم سار حتى وقف بباب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام ، ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فدفعه بنفسه فخرج إليه خزيمة فناوله الكيس ، وقال : أصلح بهذا شأنك ، فتناوله فرآه ثقيلاً فوضعه عن يده ثم أمسك بلجام الدابة ، وقال له : من أنت؟ جعلت فداك .

فقال له عكرمة : يا هذا ما جئتك في هذا الوقت والساعة أريد أن تعفني؟ قال : فما أقبله إلا أن عرفتني من أنت؟ فقال : أنا جابر عثرات الكرام .

قال : زدني .

قال : لا . ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس إلى ابنة عمه ، فقال لها : أبشري فقد أتى الله بالفرج والخير ولو كانت فلوساً فهي كثيرة . قومي فاسرجي .

قالت : لا سبيل إلى السراج .

فبات يلمسها بيده فيجد خشونة الدنانير ولا يصدق ، وأما عكرمة فإنه رجع إلى منزله فوجد امرأته قد فقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه فأنكرت ذلك وارتابت . وقالت له : والي الجزيرة يخرج بعد هدو من الليل منفرداً من غلمانه في سر من أهله إلا إلى زوجة أو سرية .

قالت : فخبرني فيما خرجت؟ قال : يا هذه ما خرجت في هذا الوقت وأنا أريد أن يعلم بي أحد .

قالت : لا بد أن تخبرني؟ قال : تكتمينه إذاً .

قالت : فإني أفعل .

فأخبرها بالقصة على وجهها وما كان من قوله ورده عليه . ثم قال أتحبين أن أحلف لك أيضاً؟ قالت : لا فإن قلبي قد سكن وركن إلى ما ذكرت .

وأما خزيمة فلما أصبح صالح الغرماء وأصلح ما كان من حاله ثم إنه تجهز يريد سليمان بن عبد الملك ، وكان نازلاً يومئذ بفلسطين ، فلما وقف ببابه واستأذن دخل الحاجب فأخبره بمكانه ، وكان مشهوراً بمروءته وكرمه . وكان سليمان عارفاً به فأذن له ، فلما دخل سلم عليه بالخلافة فقال له سليمان بن عبد الملك : يا خزيمة ، ما أبطأك عنا؟ قال : سوء الحال .

قال : فما منعك من النهضة إلينا؟ قال : ضعفي يا أمير المؤمنين .

قال : فبم نهضت إلينا الآن؟

قال : لم أعلم يا أمير المؤمنين إلا أني بعد هدو من الليل لم أشعر إلا ورجل يطرق الباب وكان من أمره كيت وكيت ، وأخبره بقصته من أولها إلى آخره .

فقال سليمان : هل تعرف هذا الرجل؟ فقال : خزيمة : ما عرفته يا أمير المؤمنين لأنه كان متنكراً وما سمعت من لفظه إلا إني جابر عثرات الكرام .

قال : فتلهب وتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال : لو عرفناه لكافأناه على مروءته ، ثم قال : علي بقناة .

فأتى بها فعقد لخزيمة بن بشر المذكور على الجزيرة عاملاً عوضاً عن عكرمة الفياض . فخرج خزيمة طالباً الجزيرة ، فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه ، فسلما على بعضهما ثم سارا جميعاً إلى أن دخلا البلد . فنزل خزيمة في دار الإمارة وأمر أن يؤخذ لعكرمة كفيل وأن يحاسب ، فحوسب فوجد عليه فضول أموالٍ كثيرة فطالبه بأدائها قال : ما لي إلى شيء من ذلك سبيل .

قال : لا بد منها .

قال : لست عندي فاصنع ما أنت صانع .

فأمر به إلى الحبس ثم أنفذ إليه من يطالبه فأرسل يقول : إني لست ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ما شئت .

فأمر أن يكبل بالحديد فأقام شهراً كذلك أو أكثر فأضناه ذلك وأضر به ، وبلغ ابنة عمه خبره فجذعت واغتمت لذلك ثم دعت مولاة لها ، وكانت ذات عقل ومعرفة ، وقالت لها : امض الساعة إلى باب هذا الأمير خزيمة بن بشر وقولي : عندي نصيحة ، فإذا طلبت منك فقولي : لا أقولها إلا للأمير خزيمة بن بشر ، فإذا دخلت عليه فسليه أن يخليك ، فإذا فعل ذلك فقولي : ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك . كافأته بالحبس والضيق والحديد .

ففعلت الجارية ذلك . فلما سمع خزيمة كلامها نادى برفيع صوته وا سوأتاه ، وإنه لهو؟ قالت : نعم ، فأمر لوقته بدابته فأسرجت وبعث إلى وجوه أهل البلد فجمعهم إليه وأتى بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل خزيمة ومن معه فرآه قاعداً في قاعة الحبس متغيراً أضناه الضر والألم وثقل القيود فلما نظر إليه عكرمة والى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فأقبل خزيمة حتى أكب على رأسه فقبله فرفع عكرمة إليه رأسه وقال : ما أعقب هذا منك؟ قال : كريم فعالك وسوء مكافأتي .

قال : يغفر الله لنا ولك .

ثم أتي بالحداد ففك القيود عنه وأمر خزيمة أن توضع القيود في رجل نفسه .

فقال عكرمة : ماذا تريد .؟ فقال : أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك .

فقال : أقسم عليك بالله لا تفعل .

فخرجا جميعاً حتى وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف عنه . فقال : ما أنت ببارح .

قال : وما تريد؟ قال : أغير حالك وإن حيائي من بنت عمك أشد من حيائي منك .

ثم أمر بالحمام فأهلي ودخلاه معاً فقام خزيمة وتولى أمره وخدمه بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمله وحمل معه مالاً كثيراً ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار إلى ابنة عمه ، فاعتذر إليها وتذمم من ذلك .

قال : ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلى سليمان بن عبد الملك ، وهو يومئذ

مقيم بالرملة ، فأنعم له بذلك وسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فأعلمه بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك وقال : والي الجزيرة يقدم بغير أمرنا؟ ما هذا إلا لحادث عظيم! فلما دخل قال له قبل أن يسلم : ما وراءك يا خزيمة؟ قال : الخير يا أمير المؤمنين .

قال : فما الذي أقدمك؟ قال : ظفرت بجابر عثرات الكرام ، فأحببت أن أسرك به لما رأيت من تلهفك وتشوقك إلى رؤيته .

قال : ومن هو؟ قال : عكرمة الفياض؟ قال : فأذن له بالدخول .

فدخل وسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال : يا عكرمة ما كان خيرك له إلا وبالاً عليك . ثم قال سليمان : اكتب حوائجك كلها وما تحتاج إليه في رقعة . ففعل ذلك ، فأمر بقضائها منه ساعته ، وأمر له بعشرة آلاف دينار وسفطين ثياباً ، ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وقال له : أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته .

قال بل اردده إلى عمله يا أمير المؤمنين ، ثم انصرفا من عنده جميعاً ولم يزالا عاملين لسليمان مدة خلافته .

سبحان من قتل الأمير وفك الأسير

وجَّهَ سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلقَ أهل السجون ويقسمَ الأموال ، فضيَّقَ محمد بن يزيد على يزيد ين أبي مسلم ، فلما وُلي يزيد ابن عبد الملك الخلافة وُلّي يزيد بن أبي مسلم أفريقية وكان محمد ين يزيد والياً عليها فاستخفى محمد بن يزيد ، فطلبهُ يزيد بن أبي مسلم وشدَّدَ في طلبهِ فأُتيَ به إليه في شهرِ رمضان عند المغرب ، وكان في يدِ يزيد ين أبي مسلم عنقودَ . . . عنب فقال لمحمدَ بن يزيد حين رآه يا محمد ين يزيدَ طالما سألتُ الله أن يمكنَني منك ، فقال وأنا والله طالما سألتُ الله أن يجيرَني منك ، فقال والله ما أجارَكَ ولا أعادَك ، وإنْ سبقني ملكُ الموت إلى قبضِ روحك سبقتُهُ ، والله لا آكلَ حبَّةَ العنب حتى أقتلَك ، ثم أمر به فكُتّف ووُضعَ في النَّطع وقام السيافُ ، فأقيمت الصلاة فوضعَ العنقود من يده وتقدّمَ ليصلي ، وكانَ أهلُ أفريقية قد أجمعوا على قتله فلمَّا رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله ، وقيل لمحمد بن يزيد اذهبْ حيثُ شئت فسبحان من قتل الأمير وفك الأسير .

عمر بن عبد العزيز

قال خالد بن عبد الله القسري ،لعمر بن عبد العزيز : من كانت الخلافة زانته فقد زيّنتها ، ومن كانت شرفته فقد شرّفتها . فأنت كما قال الشاعر :

وتزيديـــن أطيـــب الطيـــب طيبـــا   أن تمسّيـــــه أيـــن مثلـــك أينـــا
وإذا الـــر زان حســـــن وجـــــوه   كـــان للدر حســـن وجهـــك زينا

فقال عمر : إن صاحبكم أعطي مقولا ، ولم يعط معقولا

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل : من سيّد قومك؟
قال : أنا . قال : لو كنت كذلك لم تقله!

وذكر أبو المقدام هشام بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال :
دخلت على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه ، فجعلت أحد النظر إليه ، فقال لي : يا ابن كعب ، ما لك تحد النظر إلي؟ قلت : لما نحل من جسمك ، وتغير من لونك . قال : فكيف لو رأيتني بعد ثالثة في قبري ، وقد سالت حدقتاي على وجنتي وابتدر فمي وأنفي صديدا ودودا ، كنت والله أشدّ نكرة لي

أدب عمر بن عبد العزيز

وهمّ السراج ليلة بأن يخمد ، فوثب إليه رجاء بن حيوة(١) ليصلحه ،
فأقسم عليه عمر فجلس ، ثم قام عمر فأصلحه .
فقال له رجاء : أتقوم يا أمير المؤمنين
قال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز .

(١) رجاء بن حيوة الكندي ابن جرول وقيل : ابن جزل ، وقيل : ابن جندل أبو نصر الكندي الأزدي ، ويقال : الفلسطيني ، الفقيه ، من جلة التابعين ، ولجده جرول بن الأحنف صحبة فيما قيل يكنى بأبي المقدام ,فقيه وخطاط

تقوى عمر بن عبد العزيز

عن عطاء ، قال : دخلت على فاطمة بنت عبد الملك[١] بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ،

فقلت لها : يا بنت عبد الملك ، أخبريني عن أمير المؤمنين .

قالت : أفعل ، ولو كان حيّاً ما فعلت .

إن عمر رحمه الله كان قد فرَّغ نفسه وبدنه للنّاس ، كان يقعد لهم يومه ، فإن أمسى وعليه بقيّة من حوائج يومه وصله بليلته ، إلى أن أمسى مساءً وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجه الذي كان يسرج له من ماله ، ثم قام فصلّى ركعتين ، ثم أقعى واضعاً رأسه على يده تسايل دموعه على خدّه ، يشهق الشّهقة فأقول : قد خرجت نفسه ، أو تصدّعت كبده ؛ فلم يزل كذلك ليلته حتى برق له الصّبح ، ثم أصبح صائماً

قالت : فدنوت منه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لشيء ما كان منك ما رأيت الليلة؟

قال : أجل ، فدعيني وشأني ، وعليك بشأنك .

قالت : قلت له : إني أرجو أن أتّعظ .

قال : إذن أخبرْك .

قال : إني نظرت إليّ فوجدتني قد وليت هذه الأمّة صغيرها وكبيرها ، وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الغريب الضّائع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم ، في أقاصي البلاد وأطراف الأرض فعلمت أن الله سائلي عنهم ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم حجيجي فيهم ، فخفت أن لا يثبت لي عند الله عذر ولا يقوم لي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجّة ، فخفت على نفسي خوفاً دمع له عيني ، ووجل له قلبي ؛ فأنا كلّما ازددْت لهذا ذكراً ازددت منه وجلاً ، وقد أخبرتك فاتّعظي الآن أو دعي .

(١) فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص وأمها هي أم المغيرة بنت خالد بن العاص . كان أبوها عبد الملك أمير المؤمنين تزوجت بابن عمها عمر بن عبد العزيز بن مروان .

عمر بن عبد العزيز والشعراء

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، وفد الشعراء إليه وأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم فبينما هم كذلك إذ مر بهم رجاء بن حيوة وكان جليس عمر فلما رآه جرير داخلاً قام إليه وأنشد يقول أبياتاً منها :

يا أيها الرجل المرخي عمامته   هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر شيئاً من أمرهم ثم مر بهم عدي بن أرطاة فقال جرير أبياتاً آخرها قوله :

لا تنس حاجتنا لقيت مغفرة   قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

قال : فدخل عدي على عمر ، وقال : يا أمير المؤمنين ، الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة .

فقال : ويحك يا عدي ما لي وللشعراء؟ قال : أعز الله أمير المؤمنين ، إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد امتدح وأعطي ولك في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة .

قال : كيف .؟ قال : امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها لسانه .

قال : أو تروي من قوله .

قال : نعم ، وأنشد :

رأيتك يا خير البرية كلها   نشرت كتاباً جاء بالحق معلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا   عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان أمراً مدنساً   وأطفأت بالإسلام ناراً تضرما
فمن مبلغ عني النبي محمداً   وكل امرئ يجزى بما كان قدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه   وقد كان قدماً ركنه قد تهدما

فقال : ويلك يا عدي ، من بالباب منهم؟ قال : عمر بن أبي ربيعة .

قال : أوليس هو الذي يقول :

ثم نبهتها فمدت كعاباً   طفلةً ما تبين رجع الكلام
ساعة ، ثم إنها لي قالت :   ويلتي قد عجلت يا ابن الكرام

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه لكان أستر له : لا يدخل علي والله أبداً ، فمن بالباب سواه؟ قال : الفرزدق .

قال : أوليس هو الذي يقول :

همــا دلتــا فـــي من ثمانين قامـــةً   كمـا انقض باز أقتم الريش كاسره
فما استوت رجلاي في الأرض قالتا :   أحـــي فيرجـــى أم قتيل نحاذره؟

لا يدخل علي والله أبداً ، فمن سواه منهم .

قال : الأخطل .

قال : يا عدي ، أوليس هو الذي قال :

ولســـت بصائـــم رمضـــــان يومـــاً   ولســـت بآكـــل لحـــم الأضاحي
ولســـت بزاجـــر عنســــــاً بكـــوراً   إلـــى بطحـــاء مكـــة للنجـــــاح
ولســـت بقائـــم كالعـــــير أدعـــــو   قبيـــل الصبـــح حي على الفلاح
ولكنـــــــي سأشربهــــــا شمـــــولاً   وأسجـــد عنـــد منبلـــج الصباح

والله لا يدخل علي أبداً وهو كـافـر ، فـمن بالبـاب سـوى من ذكـرت؟ قـال : الأحوص .

قال : أوليس هو الذي يقول :

اللـــــه بينـــــي وبـــــين سيدهـــا   يفـــــر منـــــي بهـــا وأتبعـــــه

فمن بالباب دون من ذكرت أيضاً؟ قال : جميل بن معمر .

قال : أوليس هو الذي يقول :

فيا ليتنا نحيـــا جميعـــاً ، وإن أمـــت   يوافـــق موتـــي موتهـــا وضريحها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بعد صالحاً لكان أصلح . والله لا يدخل علي بداً ، فهل أحد سوى من ذكرت؟ قال : جرير .

قال : أوليس هو الذي يقول :

طرقتك صائـــدة القلوب وليـــــس ذا   وقـــت الزيـــارة ، فارجعـي بسلام

فإن كان ولا بد فهو الذي يدخل . فلما مثل بين يديه قال : يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقاً .

فأنشد قصيدته الرائية المشهورة التي منها :

إنا لنرجـــــو إذا مـــا الغيـــث أخلفنا   مـــن الخليفـــة ما ترجـو من المطر
جـــاء الخلافـــة ، أو كنـــت له قـدراً   كمـــا أتـــى موســـى علـــى قدر
هـــذي الأرامـــل قد قضيت حاجتها   فمـــن لحاجـــة هذا الأرمل الذكر
الخيـــر ما دمـــت حيـــاً لا يفارقنـــا   بوركت يا عمر الخيرات مـــن عمر

فقال : يا جرير لا أرى لك فيما ههنا حقاً .

قال : بلى يا أمير المؤمنين! أنا ابن سبيل منقطع .

فأعطاه من طيب ماله مائة درهم وقال : ويحك ، يا جرير ، لقد ولينا هذا الأمر ولم نملك إلا ثلاثمائة درهم ، فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام : أعطه المائة الأخرى .

فأخذها جرير وقال : والله لهي أحب مال اكتسبته في عمري . ثم خرج فقال له الشعراء : ما وراءك يا جرير؟ فقال : ما يسوءكم خرجت من عند خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء ، وإني عنه لراض وأنشد يقول :

رأيت رقي الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا

عمر بن عبد العزيز والمخنث

قال محمد بن إسحاق : قيل لعمر بن عبد العزيز : إنَّ في المدينة مخنّثاً قد أفسد نساءها ؛ فكتب إلى عامله أن يحمله إليه ، فحمل ؛ فأدخل عليه ، فإذا شيخٌ خاضبٌ اللّحية والأطراف معتجرٌ ؛ فدخل ومعه دفٌّ في خريطة ، فلمّا وقف بين يديٍّ عمر صعَّد فيه النَّظر وصوَّبه ، ثمَّ قال : سوأةٌ لهذه السن وهذه القامة ؛ ثمَّ قال له عمر : أتحفظ من المفصَّلُ شيئاً؟ قال : نعم ، وما المفصَّلُ؟ قال : ويلَك (أتقَرأُ من القرآن شيئاً؟ قال : أقرأُ (الحمد) وأخطئ فيها موضعين أو ثلاثة ، وأقرأُ (قل أعوذ برب الناس) وأخطئ فيها ، وأقرأُ (قل هو الله أحد) مثل الماء الجاري ؛ قال : ضعوه في الحبس ، ووكّلوا به معلّماً يعلمه القرآن وما يجبُ عليه من الطَّهارة والصلاة ، وأجروا عليه كلَّ يوم درهماً ، وعلى معلّمه ثلاثةً ، ولا يخرج من الحبس حتّى يحفظ القرآن أجمع ؛ فكان كلّما علَّم سورةً نسيَ الَّتي قبلها ، فبعث رسولاً إلى عمر : يا أمير المؤمنين : وجه إلي من يحملُ إليك ما أتعلمه أولاً فأوّلاً ، فإنّي لا أقدر أن أحمله ؛ فقال عمر : ما أرى هذه الدَّراهم إلاّ لو أطعمناها جائعاً أو كسونا بها عارياً كان أصلح ؛ ثمَّ دعا به ، فقال : أَقرأ (يا أيها الكافرون) فقال : أسأل الله العافية أدخلت يدك في الجراب ، فأخرجت شرَّ ما فيه وأصعبه ؛ فأمر بوجء عنقه ، ونفاه .

هشام بن عبد الملك

وقف أعرابي على قبر هشام بن عبد الملك[1] وإذا بعض خدمه يبكي على قبره ويقول : ماذا لقينا بعدك؟

فقال الأعرابي : أما إنه لو نطق لأخبرك أنه لقي أشد مما لقيتم

قال : وقال مسلمة بن عبد الملك لهشام بن عبد الملك : كيف تطمع في الخلافة وأنت بخيل وأنت جبان؟

قال : لأني حليم وأني عفيف .

وقال المدائنيّ[2] : قال ابن الضحّاك بن قيس الفهريّ لهشام بن عبد الملك قبل أن يملك- وهو يومئذ غلام شابّ- : يا بن الخلائف ، لم تطيل شعرك وقميصك؟ قال أكره أن أكون كما قال الشاعر : قصير القميص فاحش عند بيته . . . وشرّ غراس في قريش مركّبا

وافتخر قوم من اليمن عند هشام بن عبد الملك ، فقال لخالد بن صفوان : أجبهم .

فقال : هم بين حائك برد ، ودابغ جلد ، وسائس قرد . ملكتهم امرأة ، دلّ عليهم هدهد ، وغرّقتهم فأرة .

قال هشام بن عبد الملك ذات يوم لجلسائه : أي شيء ألذ؟ قال الأبرش بن حسان : هل أصابك جرب قط فحككته؟ قال : مالك! أجرب الله جلدك ، ولا فرّج الله عنك! وكان آنس الناس به

(١) هشام بن عبد الملك الأموي القرشي كان عاشر خلفاء بني أمية ، في عهده بلغت الإمبراطورية الإسلامية أقصى اتساعها ، حارب البيزنطيين واستولت جيوشه على ناربونه وبلغت أبواب بواتيه حيث وقعت معركة بلاط الشهداء . ولد في دمشق .

(٢) هو علي بن محمد المدائني ، مولى عبد الرحمن بن سُمرة القرشي ، أصله من البصرة ، سكن المدائن فنسب إليها ، وقد ولد في أوائل العصر العباسي سنة ١٣٥هـ ، وعاش نحو تسعين عاماً ، ومات سنة ٢٢٥هـ .

ودخل سالم بن عبد الله ، مع هشام بن عبد الملك البيت ، فقال له هشام : سلني حاجتك . فقال : أكره أن أسأل في بيت الله غير الله .

عقد هشام بن عبد الملك لسعيد بن عمرو الجرشيّ أيّام التّرك ، فقال سعيد : يا فتح ، يا نصر ، خذا اللّواء . فقام هشام : أعمدا قلت هذا؟ قال : لا ، ولكنّهما غلاماي دعوتهما . قال هشام : هو الفتح والنّصر إن شاء الله . وكان ذلك كذاك

قال هشام بن عبد الملك يوماً لأصحابه : من يسبني ولا يفحش وهذا المطرف له؟ ، وكان فيهم أعرابي فقال : ألقهِ يا أحول ، فقال خذه قاتلك الله .

رد أعرابي على هشام

جادل أعرابي هشام فقال هشام :أتجادلني وأنا الخليفة؟
قال الرجل : يقول تعالى ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾
أنجادل الله ولا نجادلك!

أكرم أطرافي وأخس أطرافك

دخل الوليد بن يزيد على هشام بن عبد الملك ، وعلى الوليد عمامةٌ وشي ، فقال هشام : بكم أخذتها؟
قال : بألف درهم .
فقال : هذا كثيرٌ
قال : إنّها لأكرم أطرافي ، وقد اشتريت جاريةً بعشرة آلافٍ لأخسّ أطرافك

أعرابي على مائدة هشام

حضرَ أعرابي سُفرة هشام بن عبد الملك ، فبينا هو يأكل إذ تعلّقت شَعْرة في لقمة الأعرابي ، فقال له هشام : عندك شَعْرة في لُقمتك يا أعرابي!
فقال : وإنك لتلاحظني ملاحظة مَن يرى الشَعرة في لُقمتي! والله لا أكلتُ عندك أبداً! وخرج وهو يقول :
وللموتُ خيرٌ من زيارةِ باخلٍ   يُلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عمدِ

درس في الأخلاق

يُروى أن هشاماً غضبَ على رجلٍ من أشراف الناس ، فَشَتَمَه
فَوَبَّخَهُ الرَّجلُ وقال له : أمَا تسْتَحِي أن تشْتُمَني وأنت خليفة الله في أرضه ؟
فأَطْرَقَ هشام واسْتَحْى وقال له : اقْتَصَّ !
فقال : أنا إذاً سفيهٌ مثْلُكَ !
قال : فخُذْ عن ذلك عِوَضاً من المال .
قال : ما كنتُ لأفعل !
قال : فهَبْهَا لله .
قال : هيَ لله ثمَّ لك !
فنَكَس هشام رأسه وقال : والله لا أعود لمثلها

هشام وزيد ابن علي:

دخل زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك ، فلم يجد موضعا يقعد فيه : فعلم أن ذلك فعل به على عمد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله . قال : أو مثلك يا زيد يأمر مثلي بتقوى الله؟

قال زيد : إنه لا يكبر أحد فوق تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله .

قال له هشام : بلغني أنك تحدّث نفسك بالخلافة ولا تصلح لها ؛ إنك ابن أمة .

قال : زيد : أما قولك إني أحدّث نفسي بالخلافة ، فلا يعلم الغيب إلا الله ؛ وأما قولك إني ابن أمة ، فهذا إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ابن أمة من صلبه خير البشر محمد صلّى الله عليه وسلم ، وإسحاق ابن حرة . أخرج من صلبه القردة والخنازير وعبدة الطاغوّت .

قال له : قم .

قال : إذن لا تراني إلا حيث تكره .

فلما خرج من عنده قال : ما أحب أحد قط الحياة إلا ذل .

قال له حاجبه : لا يسمع هذا الكلام منك أحد .

عروة بن أذنية وهشام بن عبد الملك

قيل : وفد عروة بن أذينة[1] على هشام بن عبد الملك فشكا إله فقره فقال : ألست القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعيبني تطلبه وإن قعدت أتاني ليس يعيبني

وخرجت الآن من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، وعظت فأبلغت .

وخرج وركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعاً ، فلما كان الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة وقال : رجل من قريش قال حكمة ووفد علي فرددته خائباً . فلما أصبح وجه إليه بألف دينار فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة فأعطاه المال فقال : أبلغ عني أمير المؤمنين السلام ، وقل له : كيف رأيت قولي ، سعت فأكديت ، فرجعت خائباً ، فجلست في داري فأتاني رزقي في منزلي .

ابن عنبسة وإبراهيم في حضرة هشام

كان إبراهيم بن عبد الله بن مطيع جالسا عند هشام ، إذ أقبل عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص ، أحمر الجبة والمطرف والعمامة ؛ فقال إبراهيم ؛ هذا ابن عنبسة قد أقبل في زينة قارون!

قال : فضحك هشام ؛ قال له عبد الرحمن : ما أضحكك يا أمير المؤمنين؟

فأخبره بقول إبراهيم ؛ قال له عبد الرحمن : لولا ما أخاف من غضبه عليك وعليّ وعلى المسلمين لأجبته!

قال : وما تخاف من غضبه؟

قال : بلغني أن الدجال يخرج من غضبة يغضبها . وكان إبراهيم أعور! قال إبراهيم لولا أن له عندي يدا عظيمة لأجبته!

قال : وما يده عندك؟

---

(١) أبو عامر عروة بن أذينة الليثي الكناني تابعي جليل وشاعر غزل وفخر وشريف مقدم من شعراء المدينة المنورة وهو معدود في الفقهاء والمحدثين وأحد ثقات أصحاب حديث رسول الله سمع من ابن عمر وروى عنه مالك بن أنس في الموطأ وعبيد الله بن عمر العدوي .

قال : ضربه غلام له بمدية فأصابه ، فلما رأى الدم فزع ، فجعل لا يدخل عليه مملوك إلا قال له : أنت حر! فدخلت عليه عائدا له ، فقلت له : كيف تجدك؟ قال لي : أنت حر! قلت له : أنا إبراهيم! قال لي :أنت حر ، فضحك هشام حتى استلقى .

هشام وزين العابدين والفرزدق

وقيل : إنه لما حج هشام في أيام أبيه طاف بالبيت وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه ، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أهل الشام . فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين[1] بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجاً فطاف بالبيت ، فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى له الناس حتى استلمه ، فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام : لا أعرفه! مخافة أن يرغب فيه أهل الشام . وكان أبو فراس الفرزدق حاضراً فقال : أنا والله أعرفه ، فقال الشامي : من هذا يا أبا فراس ، فقال :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها : ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمى إلى ذروة العز التي قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
في كفه خيزران ريحه عبقٌ ... من كف أروع في عرنينه شمم
يغضى حياءً ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
ينشق نور الهدى من نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت مفارزه والخيم والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أ ، بياء الله قد ختموا
الله شرفه قدماً وعظمه ... جرى بذاك له في لوحه القلم

(١) علي بن الحسين بن علي ، السجاد (٣٨ هـ - ٩٥ هـ) ، ولد في المدينة يوم الجمعة ٥ شعبان ٣٨ هـ ، اشتهر بزين العابدين وهو الإمام الرابع لدى الشيعة بكل طوائفهم وله عده ألقاب منها ذو الثفنات وزين الصالحين ومنار القانتين .

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم
كلتا يديه غياث عم نفعهما يستوكفان ولا يعروهما عدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره يزينه اثنان : حسن الخلق والشيم
حمال أثقال أقوام إذا فدحوا حلو الشمائل تحلو عنده نعم
ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاءه نعم
عم البرية بالإحسان فانقشعت عنها الغياهب والإملاق والعدم
من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ولا يدانيهم قومٌ وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
لا ينقص العسر بسطاً من أكفهم سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم في كل بدء ومختوم به الكلم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم خلق كريم وأيد بالندى هضم
أي الخلائق ليست في رقابهم لأولية هذا أوله نعم
من يعرف الله يعرف أولية ذا فالدين من بيت هذا ناله الأمم

فلما سمع هشام ذلك غضب وحبس الفرزدق ، فأنفذ له زين العابدين رضي الله عنه ، اثني عشر ألف درهم ، فردها وقال : مدحته لله لا للعطاء والصلات . فقال زين العابدين : إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لا نعود فيه . فقبلها الفرزدق .

الوليد بن هشام ويونس الكاتب والجارية

قال أبو الفرج الأصفهاني[1] في كتاب الأغاني : قال يونس الكاتب : خرجت إلى الشام في خلافة هشام بن عبد الملك ومعي جارية غانية وكنت علمتها جميع ما تحتاج إليه ، وأنا أقدر فيها أنها تساوي مائة ألف درهم .

قال : فلما قربنا من الشام نزلت القافلة على غدير من الماء ونزلت ناحية منه ،

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي : وأُمّه شيعية من آل ثوابة ، من أئمة الأدب العربي ، الاعلام في معرفة التاريخ والانساب والسير والآثار واللغة والمغازي . وله معارف أُخر في علم الجوارح والبيطرة والفلك والأشربة .

وأصبت من طعام كان معي وأخرجت ركوة كان فيها نبيذ . فبينما أنا كذلك ، وإذا بفتى حسن الوجه والهيئة على فرس أشقر ومعه خادمان فسلم علي وقال : أتقبل ضيفاً؟ قلت : نعم .

فأخذت بركابه ونزل وقال : اسقنا من شرابك فسقيته ، فقال : إن شئت أن تغني صوتاً فغنيته :

حـــازت من الحسن ما لا حازه البشـر   فلـــذ لـــي في هواها الدمع والسهر

فطرب طرباً شديداً واستعاده مراراً ثم قال : قل لجاريتك فلتغن ، فأمرتها فغنت :

حوريـــة حار قلبـــي في محاسنهـــا   فلا قضيـــب ولا شمـــس ولا قمر

فطرب طرباً شديداً واستعاده مراراً . ولم يزل مقيماً إلى أن صلينا العشاء ، ثم قال : ما أقدمك علينا في هذا البلد .؟ قلت : أردت بيع جاريتي هذه .

قال : فكم أملت فيها من الثمن؟ قلت : ما أقضي به ديني وأصلح به حالي .

قال : ثلاثون ألفاً .

قلت : ما أحوجني إلى فضل الله والمزيد فيه .

قال : أيقنعك أربعون ألفاً؟ قلت : فيها قضاء ديني وأبقى صفر اليد .

قال : قد أخذناها بخمسين ألفاً من الدراهم ولك بعد ذلك كسوة ونفقة طريقك وأشركك في حالي أبداً ما بقيت .

فقلت : قد بعتكها .

قال : أفتثق بي أن أوصل ذلك غداً وأحملها معي ، أو تكون عندك إلى أن أحمل ذلك إليك غداً؟ فحملني السكر والحياء مع الخشية منه على أن قلت : نعم قد وثقت بك ، فخذها بارك الله لك فيها .

فقال لأحد غلاميه : احملها على دابتك وارتدف وراءها وامض بها .

ثم ركب فرسه وودعني وانصرف ، فما هو إلا أن غاب عني ساعة فعرفت موضع خطأي وغلطي وقلت : ماذا صنعت بنفسي؟ أسلم جاريتي إلى رجل لا أعرفه ولا أدري من هو ، وهب أني عرفته فمن أين الصلة إليه . فجلست متفكراً إلى أن صليت الصبح . ودخلت أصحابي دمشق وجلست حائراً لا أدري ما أصنع وقرعتني الشمس . وكرهت المقام ، فهممت بالدخول إلى دمشق ثم قلت : لم آمن أن الرسول يأتي فلا يجدني فأكون قد جنيت على نفسي جناية ثانية . فجلست في ظل جدار هناك فلما أضحى النهار ، وإذا أحد الغلامين اللذين كانا معه قد أقبل علي فما أذكر

أني سررت بشيء أعظم من سروري ذلك الوقت بالنظر إليه فقال لي : يا سيدي ، أبطأنا عليك .

فلم أذكر له شيئاً مما كان بي ثم قال لي : أتعرف الرجل .؟ قلت : لا .

قال : هو الوليد بن هشام ولي العهد .

فسكت عند ذلك ثم قال : قم فاركب .

وإذا معه دابة فركبتها وسرنا إلى أن وصلنا إلى داره فدخلت إليه ، وإذا بالجارية قد وثبت وسلمت علي فقلت : ما كان من أمرك؟ قالت : أنزلني هذه الحجرة وأمر لي بما أحتاج إليه .

فجلست عندها ساعة وإذا أنا قد أتاني خادم له فقال لي : قم .

فقمت فأدخلني على سيده ، فإذا هو صاحبي بالأمس ، وهو جالس على سريره فقال : من تكون؟ فقلت : يونس الكاتب .

قال : مرحباً بك قد كنت والله إليك بضنين وكنت أسمع بخبرك فكيف كان مبيتك في ليلتك؟ قلت : بخير أعزك الله .

قال : فلعلك ندمت على ما كان منك البارحة وقلت : دفعت جاريتي إلى رجل لا أعرفه ولا أعرف اسمه ولا من أي البلاد هو؟ فقلت : معاذ الله أيها الأمير أن أندم ولو أهديتها إلى الأمير كانت أقل وأخس ، وما قدر هذه الجارية؟ فقال : والله لكني ندمت على أخذها منك ، وقلت : رجل غريب لا يعرفني وقد دهمته وسفهت عليه في استعجالي لأخذ الجارية .

أفتذكر ما كن بيننا؟ قلت : نعم .

قال : بعتني هذه الجارية بخمسين ألف درهم . قلت : نعم .

قال : هات يا غلام المال . فوضعوه بين يديه فقال : هات يا غلام ألف دينار ، فأؤتي بها ثم قال : يا غلام هات خمسمائة دينار أخرى ، فجاء بها ثم قال هذا ثمن جاريتك فضمه إليك ، وهذه ألف دينار لحسن ظنك بنا ، وهذه الخمسمائة دينار لنفقة طريقك ، وما تبتاعه لأهلك ، رضيت؟ قلت : رضيت ، وقبلت يديه وقلت : والله قد ملأت عيني ويدي .

ثم قال : والله إني لم أدخل بها ولا شبعت من غنائها ، علي بها فجاءت فأمرها بالجلوس فجلست فقال لها غني ، فأنشدت تقول :

أيا مـــن حـــاز كـــل الحســـن طـراً   ويـــا حلـــو الشمائـــل والـــدلال

جميـــع الحســـن فـــي عجـم وعرب　　وما فـــي الكـــل مثلـك يا غزالي
تعطـــف يـــا مليـــح علـــى محـــب　　بوعـــدك أو بطيـــف من خيـــال
حلا لـــي فيـــك ذلـــي وافتضاحـي　　وطـــاب لمقلتـــي سهـــر الليالـــي
ومـــــا أنا فيـــك أول مستهـــــامٍ　　فكـــم قبلـــي قتلـــت من الرجال
رضيـــت لـــي من الدنيـــا نصيبـــاً　　وأنـــت أعـــز من روحـــي ومالـي

فطرب طرباً شديداً وشكر حسن تأديبي لها وتعليمي إياها ثم قال : يا غلام قدم له دابة بسرجها وآلتها لركوبه وبغلاً لحمل حوائجه وثقله . ثم قال : يا يونس ، إذا بلغك أن هذا الأمر أفضى إلي فألحق بي ، فوالله لأملأن لك يدك ولأعلين قدرك ولأغينك ما بقيت .

قال : فأخذت المال وانصرفت . فلما أفضت الخلافة إليه سرت إليه فوفى والله بوعده وزاد في إكرامي وكنت معه على أسر حال وأسنى منزلة وقد اتسعت أحوالي وكثرت أموالي وصار لي من الضياع والأملاك ما يكفيني إلى مماتي ويكفي من بعدي ولم أزل معه حتى قتل ، عفا الله عنه .

أشعب والوليد بن يزيد

دخل أشعب الطفيلي على الوليد بن يزيد[1] ، فقال له الوليد : تمن ، فقال أشعب : يتمنى أمير المؤمنين ثم أتمنى ، فقال : إنما أردت أن تغلبني ،فإنني لأتمنى ضعف ما تتمنى به كائنا من كان . فقال أشعب : فإني أتمنى نصيبين من العذاب ، فضحك الوليد ،ثم قال : إذا نوفرها عليك

الخلفاء العباسيون

راعي الذمم

وروي عن الحسن بن الحصين . قال : لما أفضت الخلافة إلى بني العباس كان من

(١) الوليد الثاني بن يزيد الثاني الأموي القرشي ويلقب الوليد الثاني الحاكم الحادي عشر من حكام بني أمية يلقب أبو العباس . حكم سنة واحدة وشهرين من ٧٤٣ إلى ٧٤٤ م . أمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج .

جملة من اختفى إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك فلم يزل مختفياً إلى أن أضناه وأضجره الاختفاء ، فأخذ له أمان من السفاح ، فقال له : لقد مكثت زماناً طويلاً مختفياً فحدثني بأعجب ما رأيت في اختفائك ، فإنها كانت أيام تكدير .

فقال : يا أمير المؤمنين ، وهل سمع بأعجب من حديثي؟ لقد كنت مختفياً في منزل أنظر منه إلى البطحاء فبينما أنا على مثل ذلك ، وإذا بأعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فوقع في ذهني أنها خرجت تطلبني ، فخرجت متنكراً حتى أتيت الكوفة من غير الطريق ، وأنا والله متحير ، ولا أعرف بها أحداً ، وإذا أنا بباب كبير في رحبة منيعة . فدخلت في تلك الرحبة فوقفت قريباً من الدار ، وإذا برجل حسن الهيئة ، وهو راكب فرساً ومعه جماعة من أصحابه وغلمانه ، فدخل الحربة فرآني واقفاً مرتاباً فقال لي : ألك حاجة؟ قلت : غريب خائف من القتل .

قال : ادخل فدخلت إلى حجرة في داره ، فقال : هذه لك ، وهيأ لي ما أحتاج إليه من فرش وآنية ولباس وطعام وشراب ، وأقمت عنده ووالله ما سألني قط من أنا ، ولا ممن أخاف؟ وهو في أثناء ذلك يركب في كل يوم ويعود تعباً متأسفاً كأنه يطلب شيئاً فاته ولم يجده ، فقلت له يوماً : أراك تركب في كل يوم وتعون تعباً متأسفاً كأنك تطلب شيئاً فاتك؟ فقال لي : إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل أبي وقد بلغني أنه مختف من السفاح ، وأنا أطلبه لعلي أجده وآخذ بثأري منه .

فتعجبت والله يا أمير المؤمنين من هربي وشؤم بختي الذي ساقني إلى منزل رجل يريد قتلي ويطلب ثأره مني . فكرهت الحياة واستعجلت الموت لما نالني من الشدة ، فسألت الرجل عن اسم أبيه وعن سبب قتله ، فعرفني الخبر فوجدته صحيحاً ، فقلت : يا هذا قد وجب علي حقك ، وأن من حقك أن أدلك على قاتل أبيك وقرب إليك الخطوة وأسهل عليك ما بعد .

فقال : أتعلم أين هو؟ قلت : نعم .

فقال : أين هو؟ فقلت : والله هو أنا فخذ بثأرك مني .

فقال لي : أظن أن الاختفاء أضناك فكرهت الحياة .

قلت : نعم والله أنا قتلته يوم كذا وكذا .

فلما علم صدقي تغير لونه واحمرت عيناه وأطرق رأسه ساعة ثم رفع رأسه إلي وقال لي : أما أبي فسيلقاك غداً يوم القيامة فيحاكمك عند من لا تخفى عليه خافية ، وأما أنا فلست مخفراً ذمتي ولا مضيعاً نزيلي ، أخرج عني فإني لا آمن من

نفسي عليك بعد هذا اليوم .

ثم وثب يا أمير المؤمنين إلى صندوق فأخرج منه صرة فيها خمسمائة دينار وقال : خذ هذه واستعن بها على اختفائك .

فكرهت أخذها وخرجت من عنده وهو أكرم رجل رأيت . فبقي السفاح يهتز طرباً ويتعجب .

أبو جعفر المنصور

لقي الخليفة أبو جعفر المنصور سفيان الثوري وهو من تابعي الكوفة وحفاظها

فقال له : ما يمنعك أن تأتينا يا أبا عبد الله؟

فقال : إن الله سبحانه نهانا عنكم حيث يقول : «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار»

روي أن معن بن زائدة دخل على أبي جعفر أمير المؤمنين ، فقارب في خطوه ، فقال له أبو جعفر : كبرت سنّك يا معن .

فقال : في طاعتك يا أمير المؤمنين .

قال : وانك لجَلِد[1] .

قال : على أعدائك .

قال : وان فيك لبقيّة .

قال : هي لك .

بليتان : المنصور والطاعون

وخطب المنصور يوماً بالشام ، فقال : أيها الناس ينبغي لكم أن تحمدوا الله تعالى على ما وهبكم في فإني منذ وليتكم صرف الله عنكم الطاعون الذي كان يجيئكم .

فقال أعرابي : إن الله أكرم من أن يجمعك أنت والطاعون علينا .

(١) جَلِد : أي صبور ، وهنا قد تأتي بمعنى شديد وحازم

أبو دلامة يعزي المنصور

قال أبو العبّاس ثعلب : لمّا ماتت حمادةُ بنت عيسى امرأة المنصور ، وقف المنصور والنّاس معه على حفرتها ينتظرون مجيء الجنازة وأبو دلامة فيه ، فأقبل عليه المنصور ، فقال : يا أبا دلامة ، ما أعددت لهذا المصرع؟

قال : حمادة بنت عيسى يا أمير المؤمنين

قال : فأضحك القوم .

الكلب وسيده

قال المنصور العباسي لجنده صدق القائل أجع كلبك يتبعك . فقال بعض الجند نعم ولكن ربما يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك

مظلمة في مجلس المنصور

دخل عمارة بن حمزة يوما على المنصور في مجلسه . فقام رجلٌ وقال : مظلوم يا أمير المؤمنين .

قال : من ظلمك ؟

قال : عمارة بن حمزة ، غصبني ضيعتي .

فقال المنصور : يا عمارة ، قم فاقعد مع خصمك .

فقال : ما هو لي بخصم . إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له . ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ، وأقعد في أدنى منه لأجل ضيعة

ابن هرمة والمنصور

دخل ابن هرمة[١] على المنصور وامتدحه ، فقال له المنصور : سل حاجتك .

قال : تكتب إلى عاملك بالمدينة إذا وجدني سكران لا يحدني .

فقال له المنصور : هذا حد لا سبيل إلى تركه .

---

(١) إبراهيم بن هرمة : هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة الكناني القرشي ، أبو اسحاق . شاعر غزل من سكان المدينة . من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية .

فقال : ما لي حاجة غيرها .

فقال لكاتبه : اكتب إلى عاملنا بالمدينة من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاجلده ثمانين ، واجلد الذي جاء به مائة .

فكان الشرطة يمرون عليه وهو سكران ويقولون : من يشتري ثمانين بمائة ، فيمرون عليه ويتركونه

حسن الاستعفاء

حدثنا الأصمعي قال : أتي المنصور برجل ليعاقبه على شيء بلغه عنه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، الانتقام عدل ، والتجاوز فضل ، ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين . فعفا عنه .

بين المنصور وابن هبيرة

لما حاصر أبو جعفر المنصورُ ابنَ هبيرة ، قال : إن ابن هبيرة يُخَنْدقُ على نفسه مثل النساء ! فبلغ ذلك ابن هبيرة ، فأرسل إلى المنصور : «أنت القائلُ كذا وكذا؟ فاخرج إليّ لتبارزني حتى ترى .» فكتب إليه المنصور : «ما أجد لي ولك مثلاً في ذلك إلا كأسد لقى خنزيراً ، فقال له الخنزير : بارزْني! فقال الأسد : ما أنت لي بكفء ، فإن نالني منك سوء كان ذلك عاراً عليّ وإنَ قتلتُك قَتَلْتُ خنزيراً فلم أحصل على حَمْد ولا في قتلي لك فخر . فقال له الخنزير : إن لم تبارزني لأعَرِّفَنَّ السباعَ أنك جَبُنْتَ عني . فقال الأسد : احتمالُ عارِ كَذِبِك أيسرُ من تلويث راحتي بدمك» .

دخل يزيد بن عمر بن هبيرة على أمير المؤمنين المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ، توسَّع توسعاً قرشياً ، ولا تضق ضيقاً حجازياً .

ويروى أنه دخل عليه يوماً فقال له المنصور : حدثنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها . فوالله يا أمير المؤمنين لقد محضت لك النصيحة .ثم نهض معه سبع مئة من قيس ، فأتاره المنصور بصره ، ثم قال : لا يعز ملك يكون فيه مثل هذا .

اللقيط يحتج

دخل شاب على المنصور فسأله عن وفاة أبيه ، فقال : مات رحمه الله يوم كذا وكان مرضه رضي الله عنه كذا وكذا وترك من المال عفا الله عنه كذا وكذا فانتهره الربيع – وكان لقيطا – وقال له : أبين يدي أمير المؤمنين توالي الدعاء لأبيك؟ فقال الشاب : لا ألومك يا هذا فأنت لم تعرف حلاوة الأبوة . فضحك المنصور ضحكا لم سمعه منه أحد من قبل .

الربيع وشاب في حضرة المنصور

دخل شاب من بني هاشم على المنصور ، فاستجلسه ذات يوم ودعا بغدائه ، فقال للفتى : ادنه . قال الفتى : قد تغديت يا أمير المؤمنين . فكف عنه الربيع حتى ظننا أنه لم يفطن لخطابه ، فلما نهض إلى الخروج أمهله ، فلما كان من وراء الستر دفع في قفاه ، فلما رأى ذلك الحجاب منه دفعوا في قفاه حتى أخرجوه من الدار ، فدخل رجال من عمومة الفتى فشكوا الربيع إلى المنصور ، فقال المنصور : إن الربيع لا يقدم على مثل هذا إلا وفي يديه حجة ، فإن شئتم أغضيتم على ما فيها ، وإن شئتم سألته وأنتم تسمعون . قالوا : فسله . فدعا الربيع وقصوا قصته ، فقال الربيع : هذا الفتى كان يسلم من بعيد وينصرف ، فاستدناه أمير المؤمنين حتى سلم عليه من قريب ثم أمره بالجلوس ، ثم تبذل بين يديه وأكل ، ثم دعاه إلى طعامه ليأكل معه من مائدته ، فبلغ من جهله بفضيلة المرتبة التي صيره فيها أن قال حين دعاه إلى غدائه : قد تغديت! فإذا ليس عنده لمن تغدى مع أمير المؤمنين إلا سد خلّة الجوع ، ومثل هذا لا يقومه القول دون الفعل .

الرجل ثابت الجنان

وحدث أحمد بن موسى قال : ما رأيت رجلاً أثبت جناناً ولا أحسن معرفة ولا أظهر حجة من رجل رفع فيه عند المنصور بأن عنده أموالاً لبني أمية ، فأمر المنصور حاجبه الربيع أن يحضره ، فلما حضر بين يديه . قال المنصور : رفع إلينا أن عندك ودائع وأموالاً وسلاحاً لبني أمية فأخرجها لنا لنجمع ذلك إلى بيت المال .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، أنت وارث لبني أمية؟ قال : لا .

قال : فلم تسأل إذن عما في يدي من أموال بني أمية ولست بوارث لهم ولا وصي .

فأطرق المنصور ساعة ، ثم قال : إن بني أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين .

فقال الرجل : يحتاج أمير المؤمنين إلى بينة يقبلها الحاكم تشهد أن المال الذي لبني أمية هو الذي في يدي وأنه هو الذي غصبوه من الناس . وأن أمير المؤمنين يعلم أن بني أمية كانت لهم أموال لأنفسهم غير أموال المسلمين التي اغتصبوها على ما يتهم أمير المؤمنين؟ قال : فسكت المنصور ساعة ، ثم قال : يا ربيع ، صدق الرجل ما يجب لنا على الرجل شيء ، ثم قال للرجل : ألك حاجة؟ قال : نعم .

قال : ما هي؟ قال : أن تجمع بيني وبين من سعى في إليك فوالله يا أمير المؤمنين ما لبني أمية عندي مال ولا سلاح . وإنما أحضرت بين يديك وعلمت ما أنت فيه من العدل والإنصاف واتباع الحق واجتناب المظالم ، فأيقنت أن الكلام الذي صدر مني هو أنجح وأصلح لما سألتني عنه .

فقال المنصور : يا ربيع ، اجمع بينه وبين الذي سعى به فجمع بينهما . فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا أخذ لي خمسمائة دينار وهرب ، ولي عليه مسطور شرعي .

فسأل المنصور الرجل فأقر بالمال . قال : فما حملك على السعي كاذباً؟ قال : أردت قتله ليخلص لي المال .

فقال الرجل : قد وهبتها له يا أمير المؤمنين ، لأجل وقوفي بين يديك وحضوري مجلسك ووهبته خمسمائة دينار أخرى لكلامك لي .

فاستحسن المنصور فعله وأكرمه ورده إلى بلده مكرماً .

وكان المنصور كل وقت يقول : ما رأيت مثل هذا الشيخ قط ، ولا أثبت من جنانه ولا من حجني مثله ولا رأيت مثل حلمه ومروءته .

مسامرة في مجلس المنصور

سمر المنصور الخليفة العباسي ذات ليلة ، فذكر خلفاء بني أمية وسيرتهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة ، حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين ، فكان همهم في عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصد الشهوات وإيثار اللذات والدخول في معاصي الله ومساخطه جهلا منهم باستدراج الله تعالى ، وأمنا من مكره تعالى ، فسلبهم الله الملك والعز ونقل عنهم النعمة .

فقال له صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ، إن عبيد الله بن مروان لما دخل النوبة

هاربا فيمن اتبعه ، سأله ملك النوبة عنهم فأخبره ، فركب إلى عبيد الله فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك .

فأمر المنصور بإحضاره وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لي ، فافترشته بها ، وأقمت ثلاثا ، فأتاني ملك النوبة ، وقد أخبر أمرنا فدخل عليَّ رجل طوال أقنى حسن الوجه فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب .

فقلت : ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا؟ .

فقال : إني ملك ، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله .

ثم قال : لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ .

فقلت : «اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم» .

قال : فلم تطأون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ .

قلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم .

قال : فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم؟ .

قلت : ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على كره منا .

فأطرق ينكت بيده الأرض ويقول : عبيدنا وأتباعنا ، وأعاجم دخلوا في ديننا ، ثم رفع رأسه إليَّ وقال : ليس كما ذكرت ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ، ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم ، وإنما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن أرضي .

حاج يعظ المنصور

وذكر الغزالي وابن بليان وغيرهما ، أن أبا جعفر المنصور حج ونزل في دار الندوة ، وكان يخرج سحراً فيطوف بالبيت ، فخرج ذات ليلة سحراً ، فبينما هو يطوف إذ سمع قائلاً يقول : اللهم أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بني الحق وأهله من الطمع . فهرول المنصور في مشيته حتى ملأ سمعه ثم رجع إلى دار الندوة . وقال لصاحب شرطته : إن بالبيت رجلاً يطوف فأتني به . فخر صاحب الشرطة فوجد

رجلاً عند الركن اليمني . فقال : أجب أمير المؤمنين . فلما دخل عليه ، قال : أنا الذي سمعتك آنفاً تشكو إلى الله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني .

فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن الذي داخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وامتلأت بلاد الله بذلك بغياً وفساداً أنت هو .

فقال له المنصور : ويحك كيف يداخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء ببابي وملك الأرض في قبضتي .

فقال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، وهل داخل أحداً من الطمع ما داخلك؟ استرعاك الله أمور المؤمنين وأموالهم فأهملت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، واتخذت بينك وبين رعيتك حجاباً من الجبس والآجر وحجبة معهم السلاح وأمرت أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، نفر استخلصتهم لنفسك وأمرتهم على رعيتك ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الجائع ولا العاري ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق . فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمع الأموال وتقسمها ، قالوا : هذا خان الله ورسوله فما لنا لا نخونه؟ فأجمعوا على أن لا يصل إليك من أموال الناس إلا ما أرادوا . فصار هؤلاء شركاءك في سلطانك ، وأنت غافل عنهم ، فإذا جاء المظلوم إلى بابك وجدك وقفت رجلاً ينظر في مظالم الناس ، فإن كان الظالم من بطانتك علل صاحب المظالم بالمظلوم وسوّفَ من وقت إلى وقت ، فإذا اجتهد وظهرت أنت صرخ بين يديك ، فضربه أعوانك ضرباً شديداً ليكون نكالاً لغيره ، وأنت ترى ذلك ولا تنكر . لقد كانت الخلفاء قبلك من بني أمية إذا أتت إليهم الظلامة أزيلت في الحال ، ولقد كنت أسافر إلى الصين يا أمير المؤمنين ، فقدمت مرة فوجدت الملك الذي به قد فقد سمعه ، فبكى ، فقال له وزراؤه : ما يبكيك أيها الملك؟ لا أبكى الله لك عيناً إلا من خشيته .

فقال : والله ما بكيت لمصيبة نزلت بي وإنما أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمعه . ثم قال : إن كان سمعي ذهب فإن بصري لم يذهب . نادوا في الناس لا يلبس أحد ثوباً أحمر إلا مظلوم . وكان يركب الفيل طرفي النهار ويدور في البلد لعله يجد أحداً لابساً ثوباً أحمر فيعلم أنه مظلوم فينصفه . وهذا الأمير رجل مشرك غلبت عليه رأفته على شح نفسه بالمشركين ، وأنت مؤمن بالله ورسوله وابن عم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

يا أمير المؤمنين! لا تجعل الأموال إلا لإحدى ثلاث : فإن قلت إنما أجمع الأموال لصالح الملك فقد أراك الله عبرةً في الملوك والقرون من قبلك ما أغنى عنهم ما أعدوا من الأموال والرجال والكراع ، حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلت إنما أجمع للولد ، فقد أراك الله عبرة فيمن تقدم ممن جمع المال للولد فيلم يغن ذلك عنهم شيئاً بل ربما مات فقيراً ذليلاً حقيراً ؛ وإن قلت إنما أجمعه لغاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق منزلتك إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح .

فبكى المنصور بكاء شديداً ثم قال : وكيف أعمل وقد فرت مني العباد ولم تقربني ، افتح الباب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم وخذ المال مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن من هرب أن يعود إليك .

فقال المنصور : نفعل إن شاء الله تعالى .

وجاء المؤذن فأذن للصلاة فقام وصلى فلما قضى صلاته طلب الرجل فلم يجده ، فقال لصاحب الشرطة : علي بالرجل الساعة .

فخرج يتطلبه فوجده عند الركن اليماني فقال له : أجب أمير المؤمنين .

فقال : ليس إلى ذلك من سبيل .

فقال : إذن يضرب عنقي .

فقال : ولا إلى ضرب رقبتك من سبيل . ثم أخرج من مزود كان معه رقاً مكتوباً فقال له : خذه فإن فيه دعاء الفرج من دعا به صباحاً ومات من يومه مات شهيداً ، ومن دعا به مساء ومات من ليلته مات شهيداً . وذكر له فضلاً عظيماً وثواباً جزيلاً . فأخذه صاحب الشرطة وأتى به المنصور فلما رآه قال له : ويلك أو تحسن السحر؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين . ثم قص عليه القصة ، فأمر المنصور بنقله وأمر له بألف دينار ، وهو هذا .

اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمك بما تحت وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك ، وخضع كل ذي سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك ، اجعل لي من كل هم وغم أصبحت أو أميت فيه فرجاً ومخرجاً . اللهم ، إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه ، أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً ، فإنك أنتن المحسن إلي وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك ، تتودد إلي بالنعم وأتبغض إليك بالمعاصي ، ولكن الثقة بك حملتني

على الجراءة عليك ، فجد بفضلك وإحسانك علي ، إنك أنت الرؤوف الرحيم . أرضك كعلمك بما فوق عرشك . وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك .

الأمير الأموي وملك النوبة

وذكر المنصور يوماً في مجلسه زوال ملك بني أمية وما جرى عليهم ، وأنهم عاشوا سعداء وماتوا فقراء ، فقال له إسماعيل بن علي الهاشمي : إن عبد الله بن مروان بن محمد في حبسك ، وله قصة مع ملك النوبة . فأحضره واسأله عنها . فأحضره ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال المنصور : رد السلام أمن ولم تسمح نفسي بذلك ، ولكن اقعد! فقعد ، فقال : ما قصتك مع ملك النوبة؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، كنت ولي عهد أبي فلما طلبتنا دعوت عشرة من غلماني ودفعت لكل واحد ألف دينار وأوسقت خمس بغال وشددت في وسطي جوهراً له قيمة عظيمة وخرجت هارباً إلى بلاد النوبة ، فلما قربنا بعثت غلاماً لي ، فقلت له : امض إلى هذا الملك وأقرئه السلام وخذ لنا منه الأمان وابتغ لنا ميرة . فمضى وأبطأ حتى أسأت به الظن ، ثم أقبل ومعه رجل فدخل وسلم وقال : الملك يقرئك السلام ويقول لك : من أنت وما جاء بك إلى بلادي؟ أمحارب ، أم راغب في ديني ، أم مستجير بي؟ فقلت له : رد على الملك ، ما أنا بمحارب ولا راغب في دينك ولا ممن يبتغي بدينه بدلاً بل مستجير به .

فذهب الرسول ورجع إلي وقال : الملك يقول لك إني أجيء إليك غداً فلا تحدث نفسك حدثاً ولا شيئاً من الميرة .

فقلت لأصحابي : افرشوا الفراش ، ففرش لي وجلست من الغد أرقبه ، وإذا هو قد أقبل وعليه بردان قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، حافي الرجلين ، ومعه عشرة معهم الحراب : ثلاثة يقدمونه وسبعة خلفه ، فاستصغرت أمره وسولت لي نفسي قتله ، فلما قرب إذا سواد عظيم ، قلت : ما هذا؟ قالوا : الخيل . فوافى بها عشرة آلاف عنان ، ووافت الخيل عند دخوله فأحدقوا بنا ، فلما دخل جلس على الأرض ، قال : فقلت لترجمانه : لِمَ لمْ يقعد على الموضع الذي وطئ له؟ فسأله ، فقال : قل له إنه ملك وكل ملك حقه أن يكون متواضعاً لله وعظمته إذ رفعه الله على عباده .

ثم نكت بإصبعه الأرض طويلاً ورفع رأسه وقال : قل له كيف سلبتم هذا الملك ،

فأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟ فقلت : جاء من هو أقرب منا قرابة إليه ، فسلبنا وغلبنا وطردنا فخرجت إليك مستجيراً بالله ، ثم بك .

قال : فلم كنتم تشربون الخمر وهو محرم عليكم؟ قلت : فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا في ديننا وفي ملكنا من غير رأينا .

قال : فلم تركبون على الديباج وعلى خيولكم سروج الذهب والفضة وهي محرمة عليكم؟ قلت : فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا في ديننا وفي ملكنا بغير رأينا .

قال : فلم كنتم إذا خرجتم إلى الصيد مررتم على القرى وكلفتم أهلها ما لا طاقة لهم به بالضرب والإهانة ولا يقنعكم ذلك حتى تحطموا زرعهم في طلب دراج قيمته نصف درهم ، والتكليف والعناء محرم عليكم؟ قلت : فعل ذلك عبيد وغلمان وأتباع .

قال : لا! ولكنكم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما نهاكم الله عنه فسلبكم العز وألبسكم الذل ونصر أعداءكم عليكم ، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد ، وإني أخاف أن تنزل بك النقمة إذ كنت من الظلمة فتشملني معك ، فإن النقمة إذا نزلت شملت ، فاخرج بعد ثلاث ، فإن وجدتك بعدها أخذت ما معك وقتلتك ومن معك .

ثم وثب قائماً وخرج وقمت ثلاثاً ورجعت إلى مصر فأخذني عاملك وبعث بي إليك ، وها أنا ذا والموت أحب إلي من الحياة .

فرق له المنصور وهم بإطلاقه ، فقال له إسماعيل بن علي : في عنقي بيعة هذا .

قال : فما ترى؟ قال : ينزل في دار من دورنا ويجري عليه ما يجري على مثله .

ففعل به ذلك .

فراسة المنصور

ذكر عن المنصور أنه جلس في إحدى قباب مدينته فرأى رجلاً ملهوفاً مهموماً يجول في الطرقات فأرسل من أتاه به ، فسأله عن حاله فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة فاستفاد مالاً وأنه رجع بالمال إلى منزله فدفعه إلى أهله ، فذكرت امرأته أن المال سرق من بيتها ولم تر نقباً ولا تسليقاً فقال له المنصور منذ كم تزوجتها قال منذ سنة قال أفبكراً تزوجتها قال لا قال فلها ولد من سواك قال لا فشابة هي أم مسنة قال بل حديثة ، فدعا له المنصور بقارورة طيب حاد الرائحة غريب النوع فدفعها إليه وقال له تطيب من هذا الطيب فإنه يذهب همك

فلما خرج الرجل من عند المنصور قال المنصور لأربعة من ثقاته ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم فمن مر بكم فشممتم منه رائحة هذا الطيب وأشمهم منه فليأتني به ، وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلى امرأته وقال لها وهبه لي أمير المؤمنين ، فلما شمته بعثت إلى رجل كانت تحبه وقد كانت دفعت المال إليه فقالت له : تطيب من هذا الطيب فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي فتطيب منه الرجل ومن مجتاز ببعض أبواب المدينة فشم الموكل بالباب رائحة الطيب منه فأخذه فأتى به إلى المنصور

فقال له المنصور من أين استفدت هذا الطيب فإن رائحته غريبة قال اشتريته قال أخبرنا ممن اشتريته فتلجلج الرجل وخلط كلامه فدعا المنصور صاحب شرطته فقال له خذ هذا الرجل إليك فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء وأن امتنع فاضربه ألف سوط فامتنع الرجل عن احضار المال فسجنه صاحب الشرطة فأذعن برد الدنانير وأحضرها بهيئتها ، فاعلم المنصور بذلك فدعا صاحب الدنانير فقال له رأيتك إن رددت عليك الدنانير بهيئتها أتحكمني في امرأتك قال نعم قال فهذه دنانيرك وقد طلقت المرأة عليك وخبره خبرها

الشاعر الظريف

قال عمرو بن عثمان : دخل المنصور قصراً ، فوجد في جداره كتاباً :

(ومالي لا أبكي بعين حزينة ... وقد قربت للظّاعنين حمول)

وتحته مكتوبٌ : إيه إيه؟ – قالَ أبو عمرٍو : ويروى آه آه – فقال المنصور : أيّ شيءٍ إيه إيه؟ فقال له الربيع ، وهو إذ ذاك تحت يدي أبي الخَصًيب الحاجب : يا أمير المؤمنين : إنّه لّما كتب البيت أحبّ أن يخبر أنّه يبكي ، فقال : قاتله الله ما أظرفه .

المهدي

سعيد بن عبد الرحمن والمهدي

قال داود بن الرشيد قال : قلت للهيثم بن عديّ : أي شيء استحق سعيد بن عثمان أن ولاه المهدي القضاء ، وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة؟

قال : أن خبره في اتصاله بالمهدي ظريف ، فان أحببت شرحته لك .

قال : قلت : والله ما أحببت غير ذلك .

قال : اعلم أنه وافى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة الى المهدي ، فقال : استأذن على أمير المؤمنين .

فقال له الربيع : من أنت وما حاجتك؟

قال : أنا رجل قد رأيت لأمير المؤمنين رؤيا صالحة ، وقد أحببت أن تذكروني له .

فقال له الربيع : يا هذا ان القوم لا يصدقون ما يرونه لأنفسهم ، فكيف ما يراه لهم غيرهم؟

فقال له : إن لم تخبره بمكاني سألت من يوصلني اليه ، فأخبرته أني سألتك الإذن عليه ، فلم تفعل .

فدخل الربيع على المهدي فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنكم قد أطعمتم الناس في أنفسكم ، فقد احتالوا لكم بكل ضرب .

قال له : هكذا صنع المملوك ، فما ذاك؟

قال : رجل بالباب يزعم أنه قد رأى لأمير المؤمنين رؤيا حسنة ، وقد أحبّ أن يقصها عليه .

فقال له المهدي : ويحك يا ربيع ، اني والله أرى الرؤيا لنفسي ، فلا تصح لي ، فكيف اذا دعاها من لعله قد افتعلها؟

قال : والله قلت له مثل هذا ، فلم يقبل .

قال : هات الرجل .

فأدخل اليه سعيد بن عبد الرحمن وكان له رؤية وجمال ومروءة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان ، فقال له المهدي : هات بارك الله عليك ، فماذا رأيت؟

قال : رأيت أمير المؤمنين آتيا أتاني في منامي ، فقال لي : أخبر أمير المؤمنين المهدي أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة ، وآية ذلك أنه يرى في ليلته هذه في منامه كأنه يقلّب يواقيت ، ثم يعدها ، فيجدها ثلاثين ياقوتة ، كأنها قد وهبت له .

فقال المهدي : ما أحسن ما رأيت ، ونحن نمتحن رؤياك في ليلتك المقبلة على ما أخبرتنا به ، فان كان الأمر على ما ذكرته أعطيناك ما تريد ، وان كان الأمر بخلاف ذلك ، لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقت وربما اختلفت .

فقال له سعيد : يا أمير المؤمنين ، فما أنا أصنع الساعة اذا صرت الى منزلي وعيالي ، فأخبرتهم أني كنت عند أمير المؤمنين ثم رجعت صفرا؟

قال له المهدي : فكيف نعمل؟

قال : يعجّل لي أمير المؤمنين ما أحب وأحلف له بالطلاق أني قد صدقت .

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وأمر أن يؤخذ منه كفيل ليحضره من غد ذلك اليوم ، فقبض المال ، وقيل من يكفل بك؟

فمدّ عينيه الى خادم فرآه حسن الوجه والزي ، فقال : هذا يكفل بي .

فقال له المهدي : أتكفل به؟

فاحمرّ وخجل وقال : نعم . وكفله ، وانصرف .

فلما كان في تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرفا حرفا وأصبح سعيد في الباب واستأذن فأذن له ، فلما وقعت عين المهدي عليه قال : أين مصداق ما قلت لنا؟

فقال سعيد : امرأتي طالق ان لم تكن رأيت شيئا .

قال له المهدي : ويحك ، ما أجرأك على الحلف بالطلاق .

قال : لأنني أحلف على صدق .

قال له المهدي : فقد والله رأيت ذلك مبينا .

فقال له سعيد : الله أكبر! فأنجز يا أمير المؤمنين ما وعدتني .

قال له : حبّا وكرامة . ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار ، وعشرة تخوت ثياب من كل صنف ، وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاة .

فأخذ ذلك وانصرف ، فلحق به الخادم الذي كان كفل به ، وقال له : سألتك بالله هل كان لهذه الرؤيا التي ذكرتها من أصل؟

قال له سعيد : لا والله .

قال الخادم : كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له؟

قال : هذه من المخاريق الكبار التي لا يأبه لها أمثالكم ، وذلك أني لما ألقيت اليه هذا الكلام خطر بباله ، وحدّث به نفسه ، وأسرّ به قلبه ، وشغل به فكره ، فساعة نام خيّل له ما حلّ في قلبه ، وما كان شغل به فكره في المنام .

قال له الخادم : قد حلفت بالطلاق!

قال : طلقت واحدة ، وبقيت معي اثنتين فأرد في مهر عشرة دراهم ، وأتخلّص وأتحصّل على عشرة آلاف درهم ، وثلاثة آلاف دينار ، وعشرة تخوت من أصناف الثياب ، وثلاثة مراكب .

فبهت الخادم في وجهه وتعجّب من ذلك ، فقال له سعيد : قد صدقتك وجعلت

صدقي لك فكافأتك على كفالتك بي ، فاستر عليّ ذلك .

ففعل ذلك ، فطلبه المهدي لمنادمته ، فنادمه وحظي عنده وقلّده القضاء على عسكر المهدي ، فلم يزل كذلك حتى مات المهدي .

قعد المهدي قعودا عامّا للناس ، فدخل رجل ، وفي يده نعل ملفوفة في منديل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد أهديتها لك .

فقال : هاتها .

فدفعها اليه ، فقبّل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم .

فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه :

أترون أني أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يرها فضلا عن أن يكون لبسها؟ ولو كذبناه قال للناس : «أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم فردّها عليّ» وكام من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره ، اذ كان من شأن العامّة ميلها الى أشكالها والنصرة للضعيف على القوي ، وان كان ظالما اشترينا لسانه وقبلنا هديّته وصدّقنا قوله ، ورأينا الذي فعلنا أنجح وأرجح .

الأعرابي وأمير المؤمنين

خرج المهدي[1] يتصيد ، فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي ، فقال : يا أعرابي هل من قرى؟

فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم اخرج له فضلة من لبن فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ في ركوة فسقاه ، فلما شرب قال : أتدري من أنا؟

قال : لا

قال : انا من خدم أمير المؤمنين الخاصة

قال : بارك الله لك في موضعك ، ثم سقاه مرة أخرى ، فشرب فقال : يا أعرابي : أتدري من انا؟

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي المهدي بالله . هو ثالث خلفاء الدولة العباسية بالعراق . ولد بإيذج من كور الأهواز عام ١٢٧ هـ 745\م وتوفي بماسبذان أمه هي أم موسى بنت منصور الحميرية .

قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة
فقال : لا أنا من قواد أمير المؤمنين
قال : رحبت بلادك وطاب مرادك
يا أعرابي : أتدري من أنا؟
قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين .
فقال لا ، ولكني أمير المؤمنين
فقال الأعرابي : إليك عني ، فوالله لو شربت الرابعة ، لادعيت أنك رسول الله .

أبو دلامة والمهدي

قال العتّابي : دخل أبو دلامة على المهديّ ، فقال : أقطعني قطيعةً أعيش فيها أنا وعيالي ؛ قال : قد أقطعك أمير المؤمنين مئة جريب من العامر ومئة جريب من الغامر ؛ قال : وما الغامر؟ قال : الخراب الذي لا ينبت ؛ قال أبو دلامة : قد أقّطعت أمير المؤمنين خمس مئة جريب من الغامر من أرض بني أسد ؛ قال : فهل بقي لك حاجةٌ؟ قال : نعم تأذن لي أنً أقبل يدك؟ قال : ما إلى ذلك سًبيلٌ ؛ قال : والله ما رددتني عن حاجة أهون عليّ فقداً منها .

هدية أبو دلامةً للمهدي

دخل أبو دلامة على المهدي وبين يديه سلمة الوصيف واقفا (الوصيف الخادم الرشيق) فقال ك إني أهديت إليك يا أمير المؤمنين مهرا ليس لأحد مثله فإن رأيت أن تشرفني بقبوله فأمره بإدخاله إليه فخرج وأدخل إليه دابته التي كانت تحته فإذا به برذون (حيوان يشبه البغل) محطم أعجف هرم . فقال له المهدي أي شيء هذا ويلك ! ألم تزعم إنه مهر !؟ فقال له : أوليس هذا سلمة الوصيف بين يديك قائما تسميه الوصيف وله ثمانون سنة وهو عندك وصيف !! فإن كان سلمة وصيفا فهذا مهر فجعل سلمة يشتمه والمهدي يضحك

أبو دلامة يهجو نفسه لينجو

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده اسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس بن محمد ومحمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم فقال : أنا أعطي الله عهدا لئن لم تهج واحدا ممن في البيت لأقطعن لسانك ولأضربن عنقك .

فنظر إليه القوم فكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه قال أبو دلامة : فعلمت أني قد وقعت وأنها عزمة من عزماته لا بد منها فلم أر أحدا أحق بالهجاء مني ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي فقلت :

ألا أبلـــغ إليـــــك أبـــا دُلامـــــة   فليـــس مـــن الكـــرام ولا كرامة
إذا لبـــس العمامـــة كـــان قـــردا   وخنزيـــرا إذا نـــزع العمامـــة
جمعـــــت دمامـــة وجمعـــت لؤما   كـــذاك اللـــؤم تتبعـــه الدمامـــة
فإن تـــــك قد أصبت نعيم دنيـــــا   فـــلا تفـــرح فقـــد دنت القيامة

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه .

أبو دلامة في قن الدجاج

يروي أن أبا دلامة سكر ذات ليلة فأتي به إلي المهدي فأمر بان يحبس في بيت الدجاج ، فلما مضي جزء من الليل صحا أبو دلامة من سكره ورأي نفسه بين الدجاج فصاح يا صاحب البيت ، فأجابه السجان قائلا : ما لك يا عدو الله ؟ قال له : ويلك ، من أدخلني مع الدجاج ؟

قال : أعمالك الخبيثة أتي بك إلي أمير المؤمنين وأنت سكران . فأمر بتمزيق طيلسانك الذي كان قد أهداه إليك وبحبسك مع الدجاج . قال أبو دلامة : أو تقدر على أن توقد سراجاً وتجيئني بدواة وورق؟

فأتاه بدواة وورق . فكتب إلي المهدي أبياتا يقول فيها :

أمير المؤمنين فدتك نفسي علام حبستني وخرقت ساجي
أقاد إلى السجون بغير ذنب
كأني بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لهان وجدي
ولكني حبست مع الدجاج

ثم قال أوصلها إلي أمير المؤمنين فأوصلها إليه السجان .

فلما قرأها المهدي أمر بإطلاقه وإحضاره وقال له : اين بت الليلة يا أبا دلامة؟

قال : مع الدجاج يا امير المؤمنين . قال فما كنت تصنع؟

قال : كنت أقاقي معهن حتى أصبحت . فضحك المهدي وامر له بصلة جزيلة وخلع عليه كسوة شريفة

المهدي ومدعي النبوة

قيل : ادعى رجل من الأعراب النبوة في زمن المهدي العباسي
فاعتقله الجند وساقوه الى المهدي فقال له : أأنت نبي؟
قال : نعم قال المهدي : إلى من بعثت؟
قال الأعرابي : أو تركتموني ابعث الى أحد؟
بعثت في الصباح واعتقلتموني في المساء !!

وكان في زمن المهدي رجل ادعى النبوة فأحضروه إلى المهدي . فقال له : ما أنت؟ قال : نبي . قال : إلى من بعثت؟ فقال له : ما أكثر فضولك! إيش عليك؟ قال : قل ، وإلا أمرت بقتلك . قال : بعثت إلى أهل خراسان . قال : ولم لم تسافر إليهم؟ قال : ما معي نفقة ، فضحك منه وأمر له بنفقة ، وقال : هذا قد غلبت عليه المرة .

تزكية أمير المؤمنين

قال المهدي لشريك : لو شهد عندك عيسى كنت تقبله؟ وأراد أن يغري بينهما ؛ فقال : من شهد عندي سألت عنه ، ولا يسأل عن عيسى إلا أمير المؤمنين ، فإن زكّيته قبلته .

أمير المؤمنين أعلم

دخل أعرابي على المهدي ، فأنشده شعراً فقال فيه : وجوار زفرات
فقال المهدي : أي شيء زفرات؟
قال : وما تعرفها يا أمير المؤمنين؟
قال : لا والله
قال : فأنت أمير المؤمنين وسيد المرسلين ما تعرفها أعرفها أنا؟ كلا والله

المهدي ومؤدب الرشيد

كان عند المهدي مؤدب يؤدب الرشيد فدعاه يوماً المهدي وهو يستاك فقال : كيف تأمر من السواك؟

قال : «استك يا أمير المؤمنين»

فقال المهدي : «إنا لله»

ثم قال : «التمسوا من هو أفهم من هذا»

قالوا : «رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي[1] من أهل الكوفة قدم من البادية قريباً» فلما قدم على الرشيد قال له : «يا علي» قال : «لبيك يا أمير المؤمنين» قال : «كيف تأمر من السواك» قال : «سك يا أمير المؤمنين»

قال : «أحسنت وأصبت .» وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الهادي والخارجي

ذكر صاحب الكردان : أن الهادي[٤١] كان يوماً في بستان يتنزه على حمار ، ولا سلاح معه وبحضرته جماعة ، من خواصه وأهل بيته ، فدخل عليه حاجبه وأخبره أن بالباب بعض الخوارج له بأس ومكايد ، وقد ظفر به بعض القواد فأمر الهادي بإدخاله فدخل عليه بين رجلين قد قبضا على يديه . فلما أبصر الخارجي الهادي جذب يديه من الرجلين واختطف سيف أحدهما وقصد الهادي ففر كل من كان حوله وبقي وحده ، وهو ثابت على حماره ، حتى إذا دنا منه الخارجي وهم أن يعلوه بالسيف أومأ إلى وراء الخارجي وأوهمه أن غلاماً وراءه وقال : يا غلام اضرب عنقه ، فظن الخارجي أن غلاماً وراءه والتفت الخارجي ، فنزل الهادي مسرعاً عن حماره فقبض على عنق الخارجي وذبحه بالسيف الذي كان معه ، ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره ، وأتباع الهادي ينظرون إليه ويتسللون عليه وقد ملئوا منه حياءً ورعباً ، فما عاتبهم ولا خاطبهم في ذلك بكلمة ، ولم يفارق السلاح بعد ذلك اليوم ، ولم يركب إلا جواداً من الخيل .

حسن الجواب

أُحضِرَ إلى الهادي رجلٌ من أصحابِ عبد الله بن مالك ، فوبخه على ذنب ، فقال : يا أمير المؤمنين إن إقراري يُلزمني ذنباً لم أفعله ، ويلحق بي جُرماً لم أقف

(١) أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الكسائي مولى بني أسد من أصول فارسية . كان إمام الكوفيين في اللغة والنحو ، وسابع القراء السبعة . ويعد المؤسس الحقيقي للمدرسة الكوفية في النحو .

عليه ، وإنكاري ردٌ عليك ، ومعارضةٌ لك ولكني أقول :

فإنْ كُـنتَ تبغي بالعقابِ تشفيّاً فلا تزهدنَّ عندَ التجاوز في الأجرِ

فقال : لله درّك من معتذرٍ بحق أو باطل ، ما أمضى لسانك ، وأثبتَ جنانك (عقلك) وعفا عنه وخلّى سبيله .

هارون الرشيد

بويع له بالخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه وولد في تلك الليلة المأمون ، وكانت ليلة عظيمة لم ير مثلها في بني العباس مات فيها خليفة ، وولي فيها خليفة ، وولد فيها خليفة .

أم الرشيد

روي عن الرشيد أنه رأى يوما في داره حزمة خيزران ، فقال لوزيره الفضل بن الربيع[١] : ما هذه؟ فقال : عروق الرماح يا أمير المؤمنين . ولم يرد أن يقول الخيزران لموافقته اسم أم الرشيد .

الرشيد والمستقية

ويحكى أن هارون الرشيد مر في بعض الأيام وبصحبته جعفر البرمكي[٢] وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء فعرج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول :

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت المنام

كي أستريح وتنطفي نار تأجج في العظام

دنفٌ تقلبه الأكف على بساط من سقام

فأعجب أمير المؤمنين ملاحتها وفصاحتها . فقال لها : يا بنت الكرام هذا من

(١) هو موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم – ويلتقي نسب الهادي مع النبي في عبد المطلب بن هاشم

(٢) وهو الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة بن كيسان مولى عثمان بن عفان ، ووزير الأمين الخليفة العباسي ، كان أبوه هو الربيع بن يونس وزيراً في عهد المنصور والمهدي والهادي وقد ولد في مدينة الخليل عام ١٣٨ هجري وتوفي عام ٢٠٨هـ

قولك أم من منقولك؟ قالت : من قولي .

قال : إن كان كلامك صحيحاً فأسكي المعنى وغيري القافية فأنشدت تقول :

قولـــي لطيفـــك ينثنـــي　　عـــن مضجعـــي وقـــت الوسن
كـــي أستريـــح وتنطفـــي　　نـــارٌ تأجـــج فـــي البـــدن
دنـــف تقلبـــه الأكـــف　　علـــى بســـاط مـــن شجـــن
أمـــا أنـــا فكـــما علـم؟　　ت فهـــل لوصلـــك من ثمـــن؟

فقال لها : والآخر مسروق .

قالت : بل كلامي .

فقال : إن كان كلامك أيضاً فأمسكي المعنى وغيري القافية . فقالت :

قولـــي لطيفـــك ينثنـــي　　عـــن مضجعـــي وقت الرقـــاد
كـــي أستريـــح وتنطفـــي　　نـــار تأجـــج فـــي الفـــؤاد
دنـــف تقلبـــه الأكـــف　　علـــى بســـاط مـــن حـــداد
أمـــا أنا فكمـــا علـــم؟　　ت فهـــل لوصلـــك مـــن سداد؟

فقال لها : والآخر مسروق .

فقال : بل كلامي .

فقال لها : إن كان كلامك فأمسكي المعنى وغيري القافية . فقالت :

قولـــي لطيفـــك ينثنـــي　　عـــن مضجعـــي وقـــت الهجـوع
كـــي أستريـــح وتنطفـــي　　نـــار تأجـــج فـــي الضلـــوع
دنـــف تقلـــبه الأكـــف　　علـــى بســـاط مـــن دموع
أمـــا أنـــا فكمـــا علـــم؟　　ت فهـــل لوصلـــك من رجـــوع؟

فقال لها أمير المؤمنين : أنت من أي هذا الحي؟ قالت : من أوسطه بيتاً ، وأعلاه عموداً .

فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحي . ثم قالت : وأنت من أي راعي الخيل؟ فقال : من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة .

فقبلت الأرض وقالت : أيد الله أمير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت مع بنات العرب .

فقال الخليفة لجعفر : لا بد من أخذها فتوجه جعفر إلى أبيها ، وقال له : أمير المؤمنين يريد بنتك .

فقال : حباً وكرامة ، تهدى جارية إلى أمير المؤمنين مولانا .

ثم جهزها وحملها إليه فتزوجها ودخل بها فكانت عنده من أعز نسائه وأعطى والدها ما يستره بين العرب من الأنعام . ثم بعد مدة انتقل والدها بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ، فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو كئيب ، فلما شاهدته وعليه الكآبة ، نهضت ودخلت إلى حجرتها وقلعت ما عليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وقامت النعي له .

فقيل لها : ما سبب هذا؟ فقالت : مات والدي ، فمضوا إلى الخليفة فأخبروه فقام وأتى إليها وسألها من أعلمها بهذا الخبر؟ قالت : وجهك يا أمير المؤمنين .

قال : كيف ذلك؟ قالت : منذ أنا عندك ما رأيتك هكذا ولم يكن لي من أخاف عليه إلا والدي لكبره ، ويعيش رأسك أنت يا أمير المؤمنين . فترقرقت عيناه بالدموع وعزاها فيه ، وقامت مدة ، وهي حزينة على والدها ثم لحقت به .

منزلة جعفر عند الرشيد

فمن ذلك ما حكاه ابن المهدي عم الرشيد ، وهو إبراهيم المعروف بابن شكلة ، وكانت شكلة أمة سوداء ، وقد ذكر أن إبراهيم كان أسود شديد السواد ، وكان من الطبقة العليا في صنعة العود قال : قال لي جعفر يوماً : يا إبراهيم : إذا كان غد فأبكر إلي .

فلمام كان الغد مشيت إليه بكرة ، فجلسنا نتحدث . فلما ارتفع النهار أحضر حجاماً فحجمنا ، ثم قدم لنا الطعام فطعمنا ثم خلع علينا ثياب المنادمة ، وقال جعفر لخادمه : لا يدخل علينا أحد إلا عبد الملك القهرماني .

فنسي الحاجب ما قال فجاء عبد الملك بن صالح الهاشمي ، وكان رجلاً من بني هاشم ذا ملاحة وعلم وحلم وجلالة قدر وفخامة ذكر وصيانة وديانة ، فظن الحاجب أنه الذي أمره بإدخاله عليهما ، فلما رآه جعفر تغير لونه ورآهم عبد الملك بن صالح على تلك الحالة ، وظهر له أنهم احتشموه فأراد أن يرفع خجله وخجلهم بمشاركته لهم في فعلهم فقال : اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم .

فجاءه الخادم فطرح عليه ثياب المنادمة ثم جلس للشراب ، فلما بلغ ثلاثاً قال للساقي : لتخفف عني فإني ما شربته قط .

فتهلل وجه جعفر فقال له : هل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي

فأقضيها لك مكافأة لما صنعت؟ قال : بلى ، إن أمير المؤمنين علي غاضب ، فسله الرضا عني .

قال : قد رضي عنك أمير المؤمنين .

قال : علي أربعة آلاف دينار .

قال : هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين .

قال : وابني إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين .

قال : قد زوجه أمير المؤمنين بابنته عائشة .

قال : وأحب أن تخفق الألوية على رأسه .

قال : نعم ، قد ولاه أمير المؤمنين مصر .

قال إبراهيم بن المهدي ، فانصرف عبد الملك بن صالح وأنا أتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان . فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر فلم نلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي ومحمد بن واسع وإبراهيم بن عبد الملك فعقد له النكاح وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وكتب سجل إبراهيم على مصر وخرج جعفر فأشار إلي فلما سار إلى منزله ونزلت بنزوله التفت إلي وقال : لعل قلبك معلق بأمر عبد الملك بن صالح فأحببت معرفة خبره .

قلت : نعم .

قال لي : لما دخلت على أمير المؤمنين وتمثلت بين يديه وابتدأت القصة من أولها إلى آخرها ، كما كانت ، قال الرشيد : أحسن والله أحسن والله . ثم قال : ما صنعت؟ فأخبرته عما سأل وبما أجبته في ذلك فقال : أحسنت . وخرج إبراهيم والياً على مصر من يومه

الرشيد والبرمكية

حكى ان امرأة دخلت على هارون الرشيد وعنده جماعه من وجوه أصحابه فقالت : يا أمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما أعطاك لقد حكمت فقسطت فقال : من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم فقال : أما الرجال فقد مضى فيهم قضاء الله وأما المال فمردود إليك ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه وقال : أتدرون ما قالت هذه المرأة فقالوا : ما نراها قالت إلا خيرا ، قال : ما أظنكم فهمتم ذلك ، أما قولها أقر الله عينك أي أسكتها عن الحركة وإذا سكتت

العين عن الحركة عميت وأما قولها وفرحك الله بما أعطاك أخذته من قوله تعالى ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾ وأما قولها : حكمت فقسطت أخذته من قوله تعالى ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾ .

الرشيد وإسماعيل بن صالح

وقال الرشيد يوماً للفضل بن يحيى ، وهو بالرقة : قد قدم إسماعيل ابن صالح بن علي ، وهو صديقك ، وأريد أن أراه؟ فقال : إن أخاه عبد الملك في حبسك وقد نهاه أن يجيئك .

قال الرشيد : فإني أتعلل حتى يجيئني عائداً؟ فتعلل ، فقال الفضل لإسماعيل : ألا تعود أمير المؤمنين؟ قال : بلى .

فجاءه عائداً فأجلسه ، ثم دعا بالغداء ، فأكل وأكل إسماعيل بين يديه ، فقال له الرشيد : كأني قد نشطت برؤيتك إلى شرب قدح ، فشرب وسقاه ، ثم أمر فأخرج جوار يغنين وضربت ستارة وأمر بسقيه ، فلما شرب أخذ الرشيد العود من يد جارية ووضعه في حجر إسماعيل وجعل في عنقه سبحة ، وفيها عشرة حبات من در شراؤها بثلاثين ألف دينار ، وقال : عن يا إسماعيل ، وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة ، فاندفع يغني شعر الوليد بن يزيد في غالية أخت عمر بن عبد العزيز ، وكانت تحته ، وهي التي ينسب إليها سوق الغالية ، فقال :

فأقسم ما أدنيت كفي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبةٌ ... من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلي

فسمع الرشيد أحسن غناء من أحسن صوت . فقال : الرمح يا غلام .

فجيء بالرمح ، فعقد له لواء على إمارة مصر .

قال إسماعيل : فوليتها سنتين فأوسعتها عدلاً . وانصرفت بخمسمائة ألف دينار ، وبلغ أخاه عبد الملك ولايته ، فقال : غني والله الخبيث لهم ، ليس هو بصالح .

هارون والأعرابي

قدم أعرابي حين ولي هارون الخلافة فقيل له : فيم جئت؟ قال : أتيت برسالة .

قال : ائت بها .

قال : أتاني آت في منامي فقال : ائتِ أمير المؤمنين فابلغه هذه الأبيات :

تـوارثـت الخلافـة فـي قريـشٍ تـزف إليكمـا أبـداً عروسـا

إلـى هـارون تهـدي بعد موسـىً تميـس ، ومـا لهـا أن لا تميسـا

فأعطاه الرشيد عطاء جزيلاً وصرفه .

أعرابي يزاحم الرشيد

يروى أنه لما دخل هارون الرشيد إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، وابتدأ بالطواف ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف . فسبقه أعرابي ، فشق ذلك على الرشيد فالتفت إلى حاجبه منكراً عليه ، فقال الحاجب للأعرابي : تخل عن الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين .

فقال الأعرابي : إن الله قد ساوى بين الإمام والرعية في هذا المقام ، فقال عز وجل : ﴿سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ .

فلما سمع الرشيد من الأعرابي ذلك راعه أمره فأمر حاجبة بالكف عنه ، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابي فاستلمه ، ثم أتى الرشيد إلى المقام للمصلي فسبقه الأعرابي فصلى فيه ، فلما فرغ الرشيد من صلاته قال : لحاجبه : آتني بهذا الأعرابي ، فأتاه الحاجب فقال : أجب أمير المؤمنين .

فقال : ما لي إليه من حاجة إن كان له حاجة فهو أحق بالقيام إلي والسعي .

فقام الرشيد حتى وقف بإزاء الأعرابي وسلم عليه ، فرد عليه السلام ، فقال له الرشيد : يا أخا العرب اجلس هنا بأمرك .

فقال الأعرابي : ليس البيت بيتي ولا الحرم حرمي وكلنا فيه سواء .

فإن شئت تجلس ، وإن شئت تنصرف .

قال الراوي : فعظم ذلك على الرشيد وسمع ما لم يكن في ذهنه ، وما ظن أنه يواجهه أحد بمثل هذا الكلام . فجلس الرشيد وقال : يا أعرابي ، أريد أن أسألك عن فرضك ، فإن أنت قمت به فأنت بغيره أقوم ، وإن أنت عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز .

فقال الأعرابي : سؤالك هذا سؤال تعلم أم سؤال تعنت؟ فتعجب الرشيد من سرعة جوابه وقال : بل سؤال تعلم .

فقال له الأعرابي : قم فاجلس مقام السائل من المسؤول .

قال : فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدي الأعرابي ، فقال : قد جلست فاسأل عما بدا لك .

فقال له : أخبرني عما افترض الله عليك؟ فقال له : تسألني عن أي فرض عن فرض واحد ، أم عن خمسة ، أن عن سبعة عشر ، أم عن أربعة وثلاثين ، أم عن خمسة وثمانين ، أم عن واحدة في طول العمر ، أم عن واحدة في أربعين ، أم عن خمسة من مائتين .

قال : فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاء به ، ثم قال : له : سألتك عن فرضك فأتيتني بحساب الدهر؟ قال : يا هارون لولا أن الدين بالحساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ .

قال : فظهر الغضب في وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال : يا هارون ، ولم يقل له : يا أمير المؤمنين ، وبلغ مبلغاً شديداً غير أن الله تعالى عصمه منه وحال بينه وبينه لما علم أنه هو الذي أنطق الأعرابي بذلك ، فقال له الرشيد : يا أعرابي ، إن فسرت ما قلت نجوت وإلا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة .

فقال له الحاجب : يا أمير المؤمنين اعف عنه وهبه لله تعالى ولهذا المقام الشريف؟ قال : فضحك الأعرابي من قولهما حتى استلقى على قفاه ، فقال : م تضحك؟ قال : عجباً منكما إذ لا أدري أيكما أجهل الذي يستوهب أجلاً قد حضر أم من يستعجل أجلاً لم يحضر؟

قال : هاك الرشيد ما سمعه منه وهانت نفسه عليه ، ثم قال : الأعرابي : أما سؤالك عما افترض الله علي ، فقد افترض علي فرائض كثيرة ، فقولي لك عن فرض واحد : فهو دين الإسلام ، وأما قولي لك عن خمسة : فهي الصلوات ؛ وأما قولي لك عن سبعة عشرة : فهي سبعة عشرة ركعة ؛ وأما قولي لك عن أربعة وثلاثين : فهي السجدات ؛ وما قولي لك عن خمسة وثمانين : فهي التكبيرات ؛ وأما قولي لك عن واحدة في طول العمر : فهي حجة الإسلام واحدة في طول العمر كله ،

قال : فامتلأ الرشيد فرحاً وسروراً من تفسير هذه المسائل ، ومن حسن كلام الأعرابي وعظم الأعرابي في عينه وتبدل بغضه محبة ، ثم قال : الأعرابي : سألتني فأجبتك وأنا أريد أن أسألك فأجبني .

قال : قل .

فقال الأعرابي : ما تقول في رجل نظر إلى امرأة في وقت صلاة الفجر فكانت عليه محرمة ، فلما كان وقت الظهر حلت له ، فلما كان في وقت العصر حرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب حلت له ، فلما كان وقت العشاء حرمت عليه ، فلما كان وقت الصبح حلت له ، فلما كان وقت الظهر حرمت عليه ، فلا كان وقت العصر حلت له ، فلما كان وقت المغرب حرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء حلت له .

فقال : والله يا أخا العرب لقد أوقعتني في بحر لا يخلصني منه غيرك .

فقال له : أنت خليفة ليس فوقك شيء ولا ينبغي أن تعجز عن مسألة فكيف عجزت عن مسألتي وأنا رجل بدوي لا قدرة لي؟ فقال الرشيد : قد عظم قدرك العلم ورفع ذكرك فأشتهي إكراماً لي ، ولهذا المقام تفسير ذلك .

فقال : حباً وكرامة ولكن على شرط أن تجبر الكسير وترحم الفقير ولا تزدري الحقير .

فقال : حباً وكرامة ، ثم قال : إن قولي لك عن رجل نظر إلى امرأة وقت صلاة الفجر فكانت عليه حراماً فهو رجل نظر إلى أمة غيره وقت الفجر فهي حرام عليه ، فلما كان وقت الظهر اشتراها فحلت له ، فلما كان وقت العصر أعتقها ، فحرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب تزوجها فحلت له ، فلما كان وقت العشاء طلقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت الفجر رجعها فحلت له ، فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العصر أعتق عنها ، فحلت له ، فلما كان وقت المغرب ارتد عن الإسلام فحرمت عليه . فلما كان وقت العشاء تاب ورجع إلى الإسلام فحلت له .

قال : فاغتبط الرشيد وفرح به واشتد إعجابه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما حضرت قال : لا حاجة لي بها ردها إلى أصحابها .

فقال له : أريد أن أجري لك جراية تكفيك مدة حياتك؟ قال : الذي أجرى عليك يجري علي .

---

٤٣ . هو أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك بن جامامش بن بشتاسف البرمكي وزير هارون الرشيد وحامل خاتم السلطة .كان أبوه قد أرسله إلى القاضي أبو يوسف لتعليمه وتفقيهه . اشتهر بمكانته من هارون الرشيد وعلو قدره ونفاذ كلمته .

قال : فإن كان عليك دين قضيناه عنك؟ قال : لا ، ولم يقبل منه شيئاً ، ثم أنشد يقول :

هب الدنيا توافينا سنينا ... فتكدر ساعة وتلذ حينا
فما أبغي لشيء ليس يبقى ... وأتركه غداً للوارثينا
كأني بالتراب علي يحثى ... وبالإخوان حولي نادبينا
ويوم تزفر النيران فيه ... وتقسم جهرةً للسامعينا
وعزة خالقي وجلال ربي ... لأنتقمن منهم أجمعينا
وقد شاب الصغير بغير ذنبٍ ... فكيف يكون حال المجرمينا

فلما فرغ من إنشاده تأوه الرشيد وسأله عن أهله وبلاده ، فأخبره أنه موسى الرضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وكان يتزيا بزي أعرابي زهداً في الدنيا وتباعداً عنها ، فقام إليه الرشيد وقبل ما بين عينيه ، ثم قرأ «الله أعلم حيث يجعل رسالته» ، وانصرف .

الرشيد ومدعي النبوة

ادعى رجل النبوة في أيام الرشيد ، فلما مثل بين يديه قال له : ما الذي يقال عنك؟ قال : إني نبي كريم . قال : فأي شيء يدل على صدق دعواك؟ قال : سل عما شئت . قال :

أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى ، فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقال : كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى وأغير هذه الصورة الحسنة ، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مردا في لحظة واحدة ، فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة

الرشيد والرجل الأموي

من غريب ما يحكى ، ما حكاه القاضي أبو الحسن التنوخي[(١)] في كتاب الفرجِ بعد الشدة : أن منارة وكان صاحب شرطة الرشيد قال رفع إلى هارون الرشيد أن رجلاً

(١) المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري ، أبو علي : قاض ، من العلماء الأدباء الشعراء . ولد ونشأ في البصرة .

بدمشق من بقايا بني أمية عظيم المال كثير الجاه ، مطاعاً في البلد ، له جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم ، وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة ، وأنه لا يؤمن منه ، فعظم ذلك على الرشيد .

قال منارة : وكان وقوف الرشيد على هذا ، وهو بالكوفة في بعض حججه ، في سنة ست وثمانين ومائة ، وقد عاد من الموسم ، وقد بايع للأمين والمأمون والمعتصم أولاده ، فدعاني ، وهو خال ، وقال : إني دعوتك لأمر يهمني ، وقد منعني النوم ، فانظر كيف يكون؟ ثم قص علي خبر الأموي . وقال : اخرج الساعة فقد أعددت لك الخيول وأزحت علتك في الزاد والنفقة والآلة ، وتضم إليك مائة غلام واسلك البرية ، وهذا كتابي إلى نائب دمشق ، وهذه قيود فابدأ بالرجل ، فإن سمع وأجاع فقديه وجئني به ، وإن عصى فتوكل عليه أنت ومن معك لئلا يهرب ، وانفذ الكتاب إلى أمير دمشق ليكون مساعداً لك ، واقبضا عليه وجئني به ، وأجلت لذهابك ستاً ولإيابك ستاً ويوماً لمقامك ، وهذا محمل تجعله في شقة منه ، إذا قيدته ، وتقعد أنت في الشقة الأخرى ، ولا تكل حفظه إلى غيرك ، حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك . فإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها من أهله وولده وحاشيته وغلمانه ، وقدر نعمته والحال والمحل واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً بحرف من ألفاظه منذ يقع طرفك عليه حتى تأتيني به ، وإياك أن يشكل عليك شيء من أمره . انطلق .

قال منارة : فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الإبل وسرت أطوي المنازل أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس النفس قليلاً إلى أن وصلت إلى دمشق في أول الليلة السابعة ، وأبواب البلد مغلقة فكرهت طروقها ليلاً فبت بظاهر البلد إلى أن فتح بابها من غد ، فدخلت حتى أتيت باب الرجل ، وعليها صف عظيم وحاشية كثير ، فلم أستأذن ودخلت بغير إذن ، فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معي عني . قال : هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم .

قال : فلما صرت في صحن الدار نزلت ودخلت مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً فظننت أن الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بين فقلت : أفيكم فلان؟ قالوا : نحن أولاده وهو في الحمام .

فقلت : استعجلوه .

فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها ماجت بأهلها موجاً كبيراً فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه واستربت منه

واشتد قلقي وخوفي من أن يتوارى إلى أن رأيت شخصاً بزي الحمام يمشي في صحن الدار وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان ، وهم أولاده وغلمانه ، فقلت : إنه الرجل ، فجاء وجلس وسلم علي سلاماً خفيفاً وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته ، فأخبرته بما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة فقال : تقدم يا منارة وكل معنا .

فقلت : ما لي إلى ذلك من سبيل .

فلم يعاودني فأكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام ، فجاءوا إليه بمائدة حسنة لم أر مثلها إلا للخليفة ، فقال : يا منارة ساعدنا على الأكل . لا يزيد على أن يدعوني باسمي كما يدعوني الخليفة ، فامتنعت عليه ، فما عادوني فأكل هو ومن معه ، وكانوا تسعة من أولاده ، فتأملت أكله في نفسه فوجدته يأكل أكل الملوك ووجدت ذلك الاضطراب الذي كان في داره قد سكن ووجدتهم لا يرفعون شيئاً من بين يديه قد وضع على المائدة لا تهيأ غيره حالاً أعظم وأحسن منه . وقد كان غلمانه أخذوا لما نزلت إلى الدار مالي وغلماني وعدلوا بهم إلى دار أخرى فما أطاقوا ممانعتهم ، وبقيت وحدي وليس بين يدي إلا خمس أو ست غلمان وقوف على رأسي فقلت في نفسي : هذا جبار عنيد . فإن امتنع من الشخوص لم أطق إشخاصه بنفسي ولا بمن معي ولا حفظ إلى أن يلحقني أمير البلد ، وجزعت جزعاً شديداً ورابني منه استخفافه وتهاونه بأمري ، يدعوني باسمي ولا يفكر في امتناعي من الأكل ولا يسأل عما جئت به ويأكل مطمئناً ، وأنا مفكر في ذلك ، فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا بالبخور فتبخر وقام إلى الصلاة وصلى الظهر ، وأكثر من الدعاء والابتهال ، ورأيت صلاته حسنة ، فلما انتقل من المحراب أقبل علي وقال : ما أقدمك يا منارة؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين ودفعته إليه ، ففضه وقرأه ، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أن يوقع بي فلما تكاملوا ابتدأ فحلف إيماناً غليظة فيها الطلاق والعتاق والحج والصدقة والوقف أن لا يجتمع اثنان في موضع واحد . وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ، ولا يظهروا إلى أن ينكشف لهم أمر يعتمدون عليه . وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين بالمضي

إليه ، ولست أقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة ، فاستوصوا بمن ورائي من الحريم خيراً وما لي حاجة أن يصحبني أحد منكم هات قيودك يا منارة .

فدعوت بها وكانت في سفط ومد يده فقيدته وأمرت غلماني بحمله حتى صار

في المحمل وركبت في الشق الآخر ، وسرت من وقتي ولم ألاق أمير البلد ولا غيره ، وسرت بالرجل وليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغوطة ، فقال لي : أترى هذا؟ قلت : نعم .

قال : إنه لي ، وقال : إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت . ثم انتهى إلى آخر ، فقال مثل ذلك . ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى ، فقال مثل ذلك! هذا لي ، فاشتد غيظي منه ، وقلت : ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك وأخرجك فريداً مقيداً مغلولاً ما تدري إلى ما تصير إليه أمرك ولا كيف يكون ، وأنت فارغ القلب من هذا حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن جئتك ؛ وأنت لا تفكر فيما جئت به ، وأنت ساكن القلب قليل التفكر . لقد كنت عندي شيخاً فاضلاً .

فقال لي مجيباً : إنا لله وإنا إليه راجعون . أخطأت فراستي فيك . لقد ظننت أنك رجل كامل العقل وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا لما عرفوك ، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام ، والله المستعان . أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه ، فإني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصية أمير المؤمنين ، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله عز وجل ، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه ، وبعد فإذا عرف أمير المؤمنين أمري وعرف سلامتي وصلاح ناصيتي سرحني مكرماً ، فإن الحسدة والأعداء رموني عنده بما ليس في وتقولوا علي الأقاويل ، فإما أن يستحل دمي أو يخرج من إيذائي وإزعاجي ويردني مكرماً ، أو يقيمني ببلاده معظماً مبجلاً؟ وإن كان قد سبق في علم الله عز وجل أن هذا يبدو لي منه سوء وقد اقترب أجلي وكان سفك دمي على يده ، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل الأرض والسماء على صرف ذلك عني ما استطاعوا ، فلم أتعجل الفكرة فيما فرغ الله منه ، وإني أحسن الظن بالله الذي خلق ورزق وأحيا وأمات ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى ، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا فإذن قد عرفت مبلغ فهمك ، فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى .

ثم أعرض عني فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثلاث عشرة بعد الظهر ، والنجب قد استقبلتني قبل ستة فراسخ من الكوفة يتجسسون خبري ، فحين رأوني رجعوا عني متقدمين بالخبر

إلى أمير المؤمنين ، فانتهيت إلى الباب في آخر النهار فحططت رحلي ، ودخلت على الرشيد وقبلت الأرض بين يديه ووقفت ، فقال : هات ما عندك يا منارة وإياك أن تغفل منه عن لفظة واحدة .

فسقت الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور وما حدثني به نفسي من امتناعه ، والغضب يظهر في وجه أمير المؤمنين ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأمور من الصلاة والتفاته إلي وسؤاله عن سبب قدومي ودفعي الكتاب إليه ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وأصحابه ، وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد وصرفه إياهم ومد رجليه ، فقيدته فما زال وجه الرشيد يسفر ، فلما انتهيت إلى ما خاطبني به عند توبيخي له لما ركبنا في المحمل ، فقال : صدق واله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة ، مكذوب عليه ، ولعمري ، لقد أزعجناه وأذيناه ورعنا أهله فبادر بنزع قيوده وائتني به .

قال : فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد فدنا الأموي وسلم بالخلافة ووقف فرد عليه الرشيد رداً جميلاً وأمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه الرشيد فسأله عن حاله ، ثم قال له : بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك ، فاذكر حاجتك؟ فأجاب الأموي جواباً جميلاً وشكر ودعا ، ثم قال : ليس لي عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة .

فقال : مقضية ، فما هي؟ قال : يا أمير المؤمنين ، تردني إلى بلدي وأهلي وولدي .

قال : نفعل ذلك ، ولكن سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك فإن مثلك لا يخرج إلا ويحتاج إلى شيء من هذا .

فقال : يا أمير المؤمنين ، عمالك منصفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألتي فأموري مستقيمة وكذلك أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين .

فقال الرشيد : انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك .

فودعه الأموي ، فلما ولى خارجاً قال الرشيد : يا منارة ، احمله من وقتك وسر به .

راجعاً كما سيرته حتى إذا وصلت إلى مجلسه الذي أخذته منه فودعه وانصرف .

قال منارة : فما زلت معه حتى انتهى إلى محله ، ففرح به أهله وأعطاني عطاء جزيلاً وانصرفت .

الرشيد والسماك

قال السماك الزاهد لهارون الرشيد وقد دعاه إلى قدح ماء ليشربه
فقال له يا أمير المؤمنين لو منعت منك هذه الشربة بكم تشتريها
فقال هارون الرشيد بملكي كله
فقال له السماك : فلو منعت خروجها منك (لم تتبول) فبكم تشتريها
فقال هارون : بملكي كله
فقال : لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة .

المعلم والمتعلم

دخل الأصمعيّ يومًا على هارون الرشيد بعد غيبة كانت منه .

فقال له الرشيد : يا أصمعيّ ، كيف كنتَ بعدي؟

فقال : ما لاقَتْني بعدَكَ أرضٌ . فتبسّم الرشيد . فلما خرج الناس ، قال للأصمعي : ما معنى قولك «ما لاقتني أرض»؟

قال : ما استقرّت بي أرض ، كما يُقال فلان لا يليق شيئًا أي لا يستقرّ معه شيء

فقال الرشيد : هذا حسن . ولكن لا ينبغي أن تكلمني بين يدي الناس إلا بما أفهمه ، فإذا خَلَوتَ فعلِّمني ، فإنه يقبح بالسلطان أن لا يكون عالًما : إما أن أسكت فيعلم الناس أني لا أفهم إذا لم أُجِب ، وإما أن أجيب بغير الجواب فيعلم من حولي أني لم أفهم ما قلتَ . قال الأصمعيّ : فَعَلَّمَني الرشيد يومها أكثر مما عَلَّمْتُه .

اقتسام الجائزة والعقوبة

حكي عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقا شديدا ، فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي : إني أرقت هذه الليلة وضاق صدري ولم أعرف ما أصنع ، وكان خادمه مسرور واقفا أمامه فضحك ، فقال له : ما يضحكك استهزاء بي أم استخفافا؟ فقال : وقرابتك من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ما فعلت ذلك عمدا ولكن

خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر إلى أن جئت إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين ، فوقفت فرأيت رجلا واقفا يضحك الناس يقال له ابن المغازلي ، فتفكرت الآن في شيء من حديثه وكلامه ، فضحكت والعفو يا أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : آتني الساعة به ، فخرج مسرور مسرعا إلى أن جاء إلى ابن المغازلي فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة ، فقال له : بشرط أنه إذا أنعم عليك بشيء يكون لك منه الربع والبقية لي ، فقال له : بل اجعل لي النصف ولك النصف ، فأبى ، فقال : الثلث لي ولك الثلثان ، فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم . فلما دخل على الرشيد سلم ، فأبلغ وترجم فأحسن ، ووقف بين يديه ، فقال له أمير المؤمنين : إن أنت أضحكتني أعطيتك خمسمائة دينار وإن لم تضحكني أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات ، فقال ابن المغازلي في نفسه ، وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب؟ وظن في نفسه أن الجراب فارغ ، فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالا عجيبة تضحك الجلمود ، فلم يضحك الرشيد ، ولم يتبسم ، فتعجب ابن المغازلي وضجر وخاف ، فقال له الرشيد : الآن استحقيت الضرب ، ثم أنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان ، فضربه ضربة ، فلما وقعت الضربة في رقبته صرخ صرخة عظيمة وافتكر الشرط الذي شرطه عليه مسرور ، فقال : العفو يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمتين . قال : قل ما بدالك . قال : إن مسرورا شرط علي شرطا واتفقت أنا وإياه على مصلحة ، وهو أن ما حصل لي من الصدقات يكون له فيه الثلثان ولي فيه الثلث وما أجابني إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم . وقد شرط علي أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيبي منها واحدة ونصيبه اثنتان ، وقد أخذت نصيبي وبقي نصيبه ، قال : فضحكا لرشيد ودعا مسرورا ، فضربه ، فصاح ، وقال : يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقي . فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار ، فأخذ كل واحد منهما خمسمائة دينار

المجنون ووزير الرشيد

بعث الرشيد وزيره تمامة إلى دار المجانين ليتفقد أحوالهم ، فرأى بينهم شابا حسن الوجه يبدو عليه التعقل ، فأحب أن يكلمه فقاطعه بقوله : أريد أن أسألك سؤالا .
قال الوزير : هات ما بالك ؟ قال الشاب : متى يجد النائم لذة النوم ؟
الوزير : حين يستيقظ

الشاب : كيف يجد اللذة وقد فارق سببها ؟
الوزير : حسنا . . . يجد اللذة قبل النوم
الشاب : وكيف يجد اللذة في شيء لم يذقه بعد ؟
الوزير : حيرتني يا رجل . . . يجد اللذة وقت النوم
الشاب : النائم لا شعور له فكيف يجد اللذة من لا شعور له ؟
بهت الوزير ولم يدر ما يقول ، ثم انصرف وأقسم الا يجادل مجنونا .
سخرية متبادلة

قال ابن خلف : حدّثني بعض أصحابنا قال : بلغني أنّ الرشيد خرج متنزهاً ، فانفرد من عسكره والفضل بن الرّبيع خلفه ، فإذا هو بشيخ قد ركب حماراً وفي يده لجامٌ كأنّه مبعرٌ محشوٌ ، فنظر إليه فإذا رطب العينين ، فغمّز الفضل عليه ، فقال له الفضل : أين تريد؟ قال : حائطاً لي . فقال : هل لك أن أدلك على شيء تداوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة؟ قال : ما أحوجني إلى ذلك }فقال له : خذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكمأة ، فصيّره في قشر جوزة واكتحل ، فإنّه يذهب عينيك . قال : فاتكأ على قربوسه ، فضرط ضرطة طويلةٌ ، ثمّ قال : تأخذ أجرةٌ لصفتك ، فإن نفعتنا زدناك . قال : فاستضحك الرشيد حتى كاد يسقط عن ظهر دابّته .

يوسف القاضي حكماً

وتحاكم الرشيد وزبيدة[١] إلى أبي يوسف القاضي[٢] في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب ، فقال أبو يوسف : أنا لا أحكم على غائب ، فأمر الرشيد بإحضارهما ، وقدما بين يدي أبي يوسف ، فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نصف الجامين ثم قال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته .

---

(١) زبيدة واسمها الحقيقي (أمة العزيز بنت جعفر بن أبي المنصور) أما سبب تسميتها باسم زبيدة فقد كان جدها المنصور يرقصها في طفولتها ويقول لها زبيدة أنت زبيدة ، فغلب عليها ذلك الاسم وأصبحت تعرف باسم زبيدة وهي زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وحفيدة مؤسس الدولة العباسية الخليفة أبو جعفر المنصور من خلال ابنه جعفر .

(٢) يعقوب بن إبراهيم الأنصاري المشهور بأبي يوسف وهو من تلاميذ الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان .

الاسم والكنية

قال أعرابي للرشيد يا هارون ، فغضب وقال ما حملك ألا تناديني بكنيتي؟

فقال : الله كنّى أعداءه فقال (تبت يدا أبي لهب) وسمّى أحبابه وقال (ياعيسى) !!

الوالي العادل

ومما حُكي عن نصر بن مقبل وكان عامل الرشيد على الرقة أنه أمر بجلد شاة الحد فقالوا إنها بهيمة .

قال : الحدود لا تعطل وإن عطلتها فبئس الوالي أنا

فانتهى خبره إلى الرشيد فلما وقف بين يديه قال : من أنت قال : مولى لبني كلاب فضحك الرشيد وقال :

كيف بصرك بالحكم قال : الناس والبهائم عندي واحد في الحق ولو وجب الحق على بهيمة وكانت أمي

أو أختي لحددتها ولم تأخذني في الله لومة لائم .

فأمر الرشيد أن لا يستعان به .

المعزي الأحمق

ودخل بعض الهاشميين على الرشيد معزياً . فقال : يا أمير المؤمنين ، أحسن الله عزاك ، وربك عزاك ، وأحاله علينا وعليك بخير ، ورحم فلاناً ولا عرفه قليلاً ولا كثيراً ، تأمر بشيء يا أمير المؤمنين؟ قال : نعم ! آمر أهلك أن يدفنوك ؛ فإن موتك حياة وحياتك موت .

قال أبو العالية : لما مات سعيد بن مسلم الباهلي قال لي الرشيد : علم فلاناً تعزية يعزي بها ولد سعيد لفتى من بني هاشم . فقلت للفتى : إذا صرت للقوم فقل : عظم الله أجركم ، وأحسن عزاءكم ، ورحم سعيداً . قال : هذا طويل . فقلت فقل : أعظم الله أجركم ، وختم بالصبر على قلوبكم . قال : هذا أطول من ذاك . قال فقلت : أعظم الله أجركم وكررته عليه يومين ، فلما كان اليوم الثالث ركب وركبنا معه ، فلما قرب من باب القوم خرجوا إليه حفاةً إعظاماً له ، فلما رآهم قال : ما فعل سعيد؟

قالوا : مات ، قال : جيد وما أظن ذلك ، فإيش عملتم به؟ قالوا : دفناه . قال : أحسنتم . ثم انصرف .

الراجز والرشيد

قال إبراهيم بن السندي : دخل العماني الراجز على الرشيد ، لينشده شعرا ، وعليه قلنسوة طويلة ، وخف ساذج ، فقال : إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان .

قال إبراهيم : قال أبو نصر : فبكر عليه من الغد وقد تزيّا بزي الأعراب ، فأنشده ثم دنا فقبّل يده ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، قد والله أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المنصور ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المهدي ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته . وأنشدت الهادي ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته . هذا إلى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء ، والسادة الرؤساء ، ولا الله إن رأيت فيهم أبهى منظرا ، ولا أحسن وجها ، ولا أنعم كفا ، ولا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين . وو الله لو ألقي في روعي أني أتحدث عنك ما قلت لك ما قلت .

بهلول والرشيد

خرج الرشيد إلى الحجّ فلمّا كان بظاهر الكوفة إذ أبصر بهلُولاً[1] على قصبة ، وخلفه الصبيان وهو يعدو .

فقال : من هذا؟

فقيل لهُ : بهلول

فقال : كنت أشتهي أن أراه ، فادعوه من غير ترويع فذهبوا إليه .

وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فلم يجب ، فذهب إليه الرشيد .

وقال : السلام عليك يا بهلول .

فقال : عليك السلام يا أمير المؤمنين .

(١) هو بهلول بن عمرو ، كان من عقلاء المجانين ، ولد ونشأ بالكوفة واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه ، ولهُ كلام مليح ، توفي سنة ١٩٠هـ

فقال : دعوتُك لاشتياقي إليك ، فقال بهلول : لكني لم أشتق إليك . فقال الرشيد : عظني يا بهلول فقال : وبِمَ أعظك؟ هذي قصورهم وهذي قبورهم . فقال الرشيد : زدني فقد أحسنت . فقال يا أمير المؤمنين : من رزقه الله مالاً وجمالاً ، فعفَ في جماله ، وواسى في ماله كُتب في ديوان الأبرار ، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً ، فقال : قد أمرنا لك أن تقضي دَينَك ، فقال : لا ، يا أمير المؤمنين ، لا يُقضى الدّين بدَين ، اردُد الحق على أهله ، واقضِ دَين نفسك من نفسك ، قال : فإنه قد أمرنا عليك . فقال : يا أمير المؤمنين ، أترى الله يُعطيك وينساني ، ثم ولّى هارباً .

اللبيب بالإشارة يفهم

دخل ابن السّماك[1] على الرشيد فلمّا صار بين يديه قال له الرّشيد : عظني يا ابن السّماك وأوجزْ .

قال : كفى بالقرآن واعظا يا أمير المؤمنين قال الله تعالى ﴿بسم الله الرحمن الرّحيم . ويل للمطفّفين الذين إذا اكتالوا على النّاس يستوفون﴾ إلى قوله ﴿لربّ العالمين﴾ . هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفّف في الكيل فما ظنّك بمن أخذه كلّه؟

خداع الكريم

غضب الرشيد على حميد الطوسي ، فدعا له بالنَّطع والسيف فبكى ، فقال له : ما يبكيك؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بدَّ منهُ ، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا ، وأمير المؤمنين ساخطٌ عليَّ ، فضحك وعفا عنه ، وقال : إن الكريم إذا خادعته انخدع

الرشيد يبكي على البرامكة

قال يحيى بن سلام الأبرش ، قال : حدثني أبي قال : خرج الرشيد للصيد يوماً بعدما أباد البرامكة فاجتاز بجدار خراب من جدران بني برمك فرأى لوحاً مكتوباً عليه هذه الأبيات :

---

(١) ابن السماك الزاهد القدوة سيد الوعاظ أبو العباس محمد بن صبيح العجلي مولاهم الكوفي , روى عن هشام بن عروة والأعمش ويزيد بن أبي زياد وطائفة ولم يكثر .

يا منــزلاً لعــب الزمــان بأهلــه فأبادهــم بتفــرق لا يجمــع
إن الذين عهدتهــم فيمـا مضــى كــان الزمــان بهــم يضر وينفع
أصبحــت تفــزع مــن رآك ، وطالما كنــا إليــك من المخــاوف نضرع
ذهــب الذيــن يعــاش في أكنافهم وبقــي الذيــن حياتهــم لا تنفع

قال : فبكى الرشيد ، وأقبل على الأصمعي وقال : أتعرف شيئاً من أخبار البرامكة تحدثني به؟ فقال الأصمعي : ولي الأمان .

قال : ولك الأمان .

فقال : أحدثك بشيء شاهدته بعيني من الفضل بن يحيى ، وذلك أنه خرج يوماً للصيد والقنص ، وهو في موكبه ، إذ رأى أعرابياً على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض في سيره ، قال : هذا يقصدني .

فقلت : ومن أعلمك؟ قال : لا يكلمه أحدٌ غيري .

فلما دنا الأعرابي ورأى المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير ، والجم الغفير ، وسمع الغوغاء والضجة ، ظن أنه أمير المؤمنين ، فنزل وعقل راحلته وتقدم وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

قال : الآن قاربت ، اجلس .

فجلس الأعرابي فقال له الفضل : من أين أقبلت يا أخا العرب؟ قال : من قضاعة .

قال : من أدناها أم من أقصاها؟ قال : من أقصاها .

قال الأصمعي : فالتفت إلي الفضل وقال : كم من العراق إلى أرض قضاعة؟ فقلت : ثمانمائة فرسخ .

فقال : يا أخا العرب ، مثلك لم يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق إلا لشيء .

قال : قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد .

قال : من هم؟ قال : البرامكة .

قال الفضل : يا أخا العرب البرامكة خلق كثير ، وفيهم جليل وخطير ، ولكن منهم خاصة وعامة ، فهلا أفردت لنفسك منهم من اخترت لنفسك وأتيته لحاجتك؟ قال : أجل! أطولهم باعاً وأسمحهم كفاً .

قال : من هو؟ قال : الفضل بن يحيى بن خالد .

فقال له الفضل : يا أخا العرب ، إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر ، إذا جلس

للناس مجلساً عاماً لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والمناظرون للعلم ، أعالم أنت؟ قال : لا .

قال : أفأديب أنت؟ قال : لا .

قال : أفعارفٌ أنت بأيام العرب وأشعارها؟ قال : لا .

قال : هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة؟ قال : لا .

فقال : يا أخا العرب غرتك نفسك ، مثلك يقصد الفضل بن يحيى ، وهو كما عرفتك عنه من الجلالة ، بأي ذريعة أو وسيلة تقدم عليه؟ قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدته إلا لإحسانه المعروف وكرمه الموصوف وبيتين من الشعر قلتهما فيه .

فقال الفضل : يا أخا العرب أنشدني البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلقائه ، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشيء من مالي ورجعت إلى باديتك وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً . قال : أفتفعل أيها الأمير؟ قال : نعم .

قال : فإني أقول :

ألـــم تـــر أن الجـــود مـــن عهـــد آدم   تحـــدر حتـــى صـــار يملكـــه الفضل
ولو أن أماً قضها جوع طفلها . . . ونادت على الفضل بن يحيى اغتذى الطفل

قال : أحسنت يا أخا العرب . فإن قال لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر ، وأخذ الجائزة عليهما ، فأنشدني غيرهما فما تقول؟ قال : أقول :

قـــد كـــان آدم حـــين حـــان وفاتـــه   أوصـــاك ، وهـــو يجـــود بالحوبـــاء
ببنيـــه أن ترعاهمـــو ، فرعيتهـــم   وكفيـــت آدم عيلـــة الأبنـــاء

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل ممتحناً : هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس ، فأنشدني غيرهما ما تقول ، وقد رمقتك الأدباء بالأبصار ، وامتدت الأعناق إليك ، وتحتاج أن تناضل عن نفسك؟ قال : إذن أقول :

ملـــت جهابـــذ فضـــل وزن نائلـــه   ومـــل كاتبـــه إحصـــاء ما يهـــب
واللـــه لـــولاك لـــم يمـــدح بمكرمـــة   خلق ، ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك هذان البيتان أيضاً أخذتهما من أفواه الناس ما كنت قائلاً؟ قال : أقول :

وللفضـــل صـــولات علـــى مال نفسه   يـــرى المـــال منـــه بالمذلة والعنا
ولـــو أن رب المـــال أبصـــر مالـــه   لصلـــى علـــى مـــال الأميـــر وأذنـــا

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان ، أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال : إذن أقول :

ولــو قيــل للمعروف نـاد أخـا العــلا لنادى بأعلى الصوت يا فضل يا فضـل
ولو أنفقت جدواك من رمــل عالـــج لأصبح من جدواك قد نفد الرمــل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان أيضاً أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال : أقول :

ومـــا الناس إلا اثنان : صـــب وباذلٌ وإنــي لذاك الصب والباذل الفضل
علــــى أن لــي مثلاً كما ذكر الــورى وليس لفضلٍ فـي سماحتــه مثــل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال : أقول أيها الأمير :

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالــد فقامــت بــه التقوى وقام به العدل
وقام به المعــــروف شرقـــاً ومغربـــاً ولــم يــك للمعروف بعدٌ ولا قبـل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك : قد ضجرنا من الفاضل والمفضول أنشدني بيتين على الكنية لا على الاسم ما تقول؟ قال : إذن أقول :

ألا يــا أبــا العبــاس يا واحــد الورى ويــا ملكــاً خــد الملــوك لــه نعـل
إليــك تسيــر النــاس شرقــاً ومغربــاً فــرادى وأزواجــاً كأنهــم نحـــل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدنا غير الاسم والكنية والقافية .

قال : والله لئن زادني الفضل وامتحنني بعد هذا لأقولن أربعة أبيات ما سبقني إليها عربي ولا أعجمي ، ولئن زادني بعدها لأجمعن قوائم ناقتي هذه وأجعلها في حر أم الفضل وأرجعن إلى قضاعة خاسراً ، ولا أبالي . فنكس الفضل رأسه ، وقال للأعرابي : يا أخا العرب أسمعني الأبيات الأربعة : قال : أقولك

ولائمـة لامتك ، يا فضل ، في الندى فقلت لها : هل يقدح اللوم في البحر
أتنهين فًضلاً عـن عطايـــاه للغنــــى فمن ذا الذي ينهى السحاب عن القطر
كأن نوال الفضل فــي كــل بلـــــدة تحــدر هــذا المــزن فــي مهمة قفـر
كأن وفود الناس فــي كـــل وجهـــةً إلــى الفضل لاقوا عنده ليلة القـدر

قال : فأمسك الفضل عن فيه ، وسقط على وجهه ضاحكاً ، ثم رفع رأسه وقال : يا أخا العرب ، أنا والله الفضل بن يحيى ، سل ما شئت .

فقال : سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو؟ قال : نعم .

قال له : فأقلني .

قال : أقالك الله ، اذكر حاجتك .

قال : عشرة آلاف درهم

قال الفضل : ازدريت بنا وبنفسك ، يا أخا العرب ، تعطى عشرة آلاف درهم في عشرة آلاف .

وأمر بدفع المال ، فلما صار المال إليه حسده وزيره الفضل ، وقال : يا مولاي هذا إسراف يأتيك جلف من أجلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب فتجزيه بهذا المال؟ فقال : استحقه بحضوره إلينا من أرض قضاعة .

قال الوزير : أقسمت عليك يا مولاي إلا أخذت سهماً من كنانتك وركبته في كبد قوسك وأومأت به إلى الأعرابي فإن رد عن نفسه ببيت من الشعر ، وإلا استعدت مالك ، ويكون له في بعضه كفاية .

فأخذ الفضل سهماً وركبه في كبد قوسه وأومأ به إلى الأعرابي وقال له : رد سهمي ببيت من الشعر؟ فأنشأ يقول :

لقوسك قوس الجود والوتر والندى ... وسهمك سهم العز فارم به فقري

قال : فضحك الفضل وأنشأ يقول :

إذا ملكت كفي منالاً ولم أنل ... فلا انبسطت كفي ولا نهضت رجلي

على الله إخلاف الذي قد بذلته ... فلا مسعدي بخلي ولا متلفي بذلي

أروني بخيلاً نال مجداً ببخله ... وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل لوزيره : أعط الأعرابي مائة ألف درهم لقصده وشعره ، ومائة ألف درهم ليكفينا شر قوائم ناقته .

فأخذ الأعرابي المال وانصرف ، وهو يبكي فقال له الفضل : م بكاؤك يا أعرابي استقلالاً بالمال الذي أعطيناك؟ قال : لا ، ولكني أبكي على مثلك يأكله التراب وتواريه الأرض ، وتذكرت قول الشاعر :

لعمرك ما الرزية فقد مال ... ولا فرس يموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد حر ... يموت لموته خلقٌ كثير

وتوجه الأعرابي بالمال مسروراً .

المأمون بن هارون الرشيد واسمه عبد الله

روى خادم المأمون[1] قال : طلبني أمير المؤمنين المأمون ليلةً ، وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لي : خذ معك فلاناً وفلاناً ، وسماهما لي : أحدهما ، علي بن محمد ، والآخر ، دينار الخادم ، واذهب مسرعاً لما أقول لك ، فإنه بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى آثار دور البرامكة ، وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويندبهم ويبكي عليهم ، ثم ينصرف فامض أنت وعلي ودينار حتى تردوا تلك الخرائب فاستتروا خلف بعض الجدران ، فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتاً فأتوني به .

قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرائب ، فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساطٌ وكرسي حديد ، وإذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه مهابة ولطف ، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات :

ولما رأيت السيف جندل جعفراً ونادى مناد للخليفة : يا يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي عليهم وقلت : الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها . فلما فرغ قبضنا عليه ، وقلنا له : أجب أمير المؤمنين ، ففزع فزعاً شديداً وقال : دعوني حتى أوصي بوصية فإني لا أوقن بعدها بحياة .

ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ثم سرنا به ، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين قال : حين رآه : من أنت ، وبم استوجبت منك البرامكة ما تفعله في خرائب دورهم؟ قال الخادم : ونحن نستمع .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن للبرامكة أيادي خضرة عندي ، أفتأذن لي أن أحدثك بحالي معهم؟ قال : قل .

فقال : يا أمير المؤمنين؟؟! أنا المنذر بن المغيرة ، من أولاد الملوك ، وقد زالت عني نعمتي ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركبني الدين ، واحتجت إلى بيع ما على رأسي ورؤوس أهلي وبيتي الذي ولدت فيه ، أشاروا علي بالخروج إلى البرامكة ، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية ، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد ، فدعوت ببعض ثياب كنت

(١) المأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد سابع خلفاء بني العباس ، ولد عام ١٧٠ هـ ٧٨٦ وتوفي غازيا في ١٩ رجب عام ٢١٨ هـ ١٠ أغسطس سنة ٨٣٣ بطرسوس ، شهد عهده ازدهارا بالنهضة العلمية والفكرية في العصر العباسي الأول وذلك لأنه شارك فيها بنفسه .

أعددتها لأستتر بها ، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد سائلاً عن البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ بأحسن زي وزينة ، وعلى الباب خادمان ، وفي الجامع جماعة جلوس ، فطمعت في القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى ، والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي ، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم ، فدخلوا دار يحيى بن خالد ، فدخلت معهم ، وإذا بيحيى جالس على دكة له وسط بستان ، فسلمنا ، وهو يعدنا مائة وواحداً ، وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا بأمرد نبت العذار في خديه قد أقبل من بعض المقاصير ، وبين يديه مائة خادم متمنطقون ، في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، مع كل خادم مجمرة من ذهب ، في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر ، وقد قرن به مثله من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام ، وجلس إلى جنب يحيى ، ثم قال للقاضي : تكلم وزوج ابنتي عائشة من ابن أخي هذا . فخطب القاضي خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر ، فالتقطت ، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت ، وإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر ، وإذا بمائة واثني عشر خادماً قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة ، على كل صينية ألف دينار ، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضي والمشايخ يضعون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ، ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية ، فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي والصينية في يدي وقمت وجعلت أتلفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك إلى أن وصلت إلى صحن الدار ، ويحيى يلاحظني ، فقال للخادم : آتني بهذا الرجل ، فأتيته ، فقال : ما لي أراك تلتفت يميناً وشمالاً؟ فقصصت عليه قصتي فقال للخادم : آتني بولدي موسى ، فأتاه به . فقال له : يا بني! هذا رجل غريب ، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك .

فقبض موسى ولده على يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الإكرام ، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش وأتم سرور ، فلما أصبح دعا بأخيه العباس ، وقال له : الوزير أمرني بالعطف على هذا الفتى ، وقد علمت اشتغالي في بيت أمير المؤمنين ، فاقبضه إليك ، وأكرمه .

ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام ثم لما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد ، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولونني مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء ، فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا : قم فاخرج إلى عيالك بسلام .

فقلت : وا ويلاه ، أسلب الدنانير والصينية ، وأخرج على هذه الحالة؟ إنا لله وإنا إليه راجعون .

فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع ، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي : مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلي فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به .

فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج ، وحمل إلي مائة ألف درهم ، وعشرة آلاف دينار ، ومنشور بضيعتين ، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق ، وأقمت يا أمير المؤمنين ، مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب ، فلما جاءتهم البلية ونزل بهم يا أمير المؤمنين ، من الرشيد ما نزل أجحف بي عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به ، فلما تحامل علي الدهر كنت في آخر الليل أقصد خرائب دورهم ، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلي وأبكي على إحسانهم .

فقال المأمون : علي بعمرو بن مسعدة .

فلما أتي به قال له : تعرف هذا الرجل؟ قال : يا أمير المؤمنين ، هو بعض صنائع البرامكة .

قال : كم ألزمته في ضيعتيه؟ قال : كذا وكذا .

فقال له : رد إليه كل ما أخذته منه في مدته ، وأفرغهما له ليكونا له ولعقبه من بعده .

قال : فعلا نحيب الرجل ، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له : يا هذا! قد أحسنا إليك ، فما يبكيك؟ قال : يا أمير المؤمنين ، وهذا أيضاً من صنيع البرامكة ، لو لم آت خرائبهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري إلى أمير المؤمنين ، ففعل بي ما فعل من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال إبراهيم بن ميمون : فرأيت المأمون ،

وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال : لعمري هذا من صنائع البرامكة ، فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر .

خشونة المغني ورقة المغنية

قال ثمامة بن أشرس(١) : كنت عند المأمون يوماً إذ جاءه الحاجب يستأذن لعمير المأموني ، فكرهت ذلك ، ورأى الكراهة في وجهي . فقال : يا ثمامة ، ما لك ؟ قلت : يا أمير المؤمنين إنا إذا غنانا عمير ذكر مواطن الإبل ، وكثبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملي ، وقوي جذلي ، وانشرح صدري ، وذكرت الجنان . كم يا أمير المؤمنين بين أن تغنيك جارية غادة ، كأنها غصن بان ، بمقلة وسنان ، كأنما خلقت من ياقوتة ، أو خرطت من درة ، بشعر عكاشة العمي :

من كفّ جارية كأنّ بنانها ... من فضّة قد طرّزت عنّابا

وكأنّ يمناها إذا ضربت بها ... تلقي على يدها الشمال حسابا

وبين أن يغنيك رجل ملتف اللحية ، غليظ الأصابع ، خشن الكف ، بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيراً تحت كلكل خالد ... فأقبلت أسعى كالعجول أبادر

وكم بين من يحضرك من تشتهي النظر إليه ، وبين من لا يقف طرفك عليه؟ فتبسم المأمون . وقال : إن الفرق لواضح ، وإن المنهج لفسيح ، يا غلام ؛ لا تأذن له! وأحضر قينة . قال : فظللنا في أمتع يوم .

المتظلم الفصيح

تظلم رجل إلى المأمون من عامل له فقال :

يا أمير المؤمنين ، ما ترك لي فضّة إلا فضّها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا غلّة إلا

---

(١) هو ثمامة بن الأشرس النميري ، مناظر قوي ، وأديب بارع ، كان يمثل لوناً مميزاً من ألوان الاعتزال ، فهو ليس بالزاهد - كأبي موسى المردار والجعفران - ولكنه المعتزلي المغامر في شؤون الدنيا ، المتردد على قصور الخلفاء ، يزين مجالسهم بالكلام العذب في الأدب والمناظرة في مسائل الاعتزال وغير الاعتزال ، وقد مُلئت كتب الأدب بأحاديثه الممتعة ونوادره الطريفة .

غلّها ، ولا ضيعةً إلا أضاعها ، ولا عرضاً إلا عرض له ، ولا ماشيةً إلا امتشّها ، ولا جليلاً إلا أجلاه ،

ولا دقيقاً إلا دقه . .

فعجب المأمون من فصاحته ، وقضى حاجته

كانت سبب غضبه عليه وكان سبب رضاه عليها

قال عبيد الله بن المأمون :

غضب المأمون على أمي أم موسى ، فقصدني لذلك ، حتى كاد يتلفني ، فقلت له يوما :

يا أمير المؤمنين ، ان كنت غضبانا على ابنة عمك فعاقبها بغيري ، فاني منك قبلها ، ولك دونها .

قال : صدقت والله يا عبيد الله ، انك مني قبلها ولي دونها ، والحمد لله الذي أظهر هذا منك وبيّن لي هذا الفضل فيك ، لا ترى والله بعد يومك هذا مني سوءا ، ولا ترى الا ما تحب .

فكان ذلك سبب رضاه عن أمي .

حلِم المأمون

قال عبد الله بن البوّاب : كان المأمون يحلم حتى يغيظنا في بعض الأوقات ؛ جلس يستاك على دجلة من وراء ستر ونحن قيامٌ بين يديه ، فمرّ ملاّحٌ وهو يقول : أتظنّون أنّ هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه؟

قال : فوالله ما زاد على أن تبسّم

وقال لنا : ما الحيلة عندكم حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل؟

وحدث سليمان الوراق قال : ما رأيت أعظم حلماً من المأمون ، دخلت عليه يوماً وفي يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس ، وهو يقلبه بيده ويستحسنه ، ثم دعا برجل صائغ وقال له : اصنع بهذا الفص كذا وكذا ونزل فيه كذا وكذا ، وعرفه كيف يعمل به ، فأخذه الصائغ وانصرف ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره فاستدعى الصائغ ، فأتي به ، وهو يرعد وقد امتقع لونه . فقال المأمون :

ما فعلت بالفص؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام ، ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل ، فولى وجهه عنه ، حتى سكن جأشه ، ثم التفت إليه وأعاد القول .

فقال : الأمان يا أمير المؤمنين .

قال : لك الأمان .

فأخرج الفص أربع قطع وقال : يا أمير المؤمنين ، سقط من يدي على السندال فصار كما ترى .

فقال المأمون : لا بأس عليك ، صنع به أربع خواتم ، وألطف له في الكلام حتى ظننت أنه كان يشتهي الفص على أربع قطع . فلما خرج الرجل من عنده ، قال : أتدرون كم قيمة هذا الفص؟ قلنا : لا ، قل : اشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفاً .

ومن حلمه أيضاً . قال يحيى : كنت أنا والمأمون يوماً في بستان ندور فيه فمشينا في البستان من أوله إلى آخره ، وكنت مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل ، فكان يجذبني أن أكون في الظل وهو في الشمس ، فأمتنع من ذلك ، فإذا رجعنا قال لي : والله يا يحيى لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك ، حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك منها .

فقلت : والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك من هول المطلع لفعلت .

ولم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس ، ووضع يده على عاتقي وقال : بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت ، فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف .

ومن حلمه أيضاً ، أنه كان له خادم يسرق طاساته التي يتوضأ فيها فقال له المأمون : إذا سرقت شيئاً فائتني بما تسرقه ، فأشتريه منك .

فقال له الخادم : اشتر مني هذه ، وأشار إلى التي بين يديه .

فقال : بكم .

قال : بدينارين .

قال : على شرط أنك لا تسرقها .

قال : نعم .

فأعطاه دينارين ، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئاً لما رأى من حلمه .

الطفيلي الأديب والمأمون

وروى بعض أهل الأدب أن فتى من أهل الكوفة قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة ، صبيح الوجه ، مقبول المشاهد ، حلو الشمائل ، وكان مع ذلك لا يتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق ، وحال دونه حائل وقدر سابق ، فبقي حيناً من الدهر ، وقد برز في القدر والمال والجاه من كان عنده في الصناعة متأخراً ، فضاق صدره وعيل صبره وضلت وّمقاليده ، فخرج إلى بغداد واكترى في بعض خاناتها منزلاً وأجمع رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكه أو ملكه ، وتربص لذلك أن يرى وجهاً إلى أن عزم أمير المؤمنين أن يشرب يوماً هو وصنوه المعتصم ، فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الجواري ، منفردين عن سائر الندماء ، فظهر خبرهما بذلك . وعرف الناس ذلك اليوم الذي عزم عليه ، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل في ذلك على المأمون وأخيه المعتصم ، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وردية ، ومن آخر منطقة وخفاً وسيفاً ، ومن آخر برذوناً ، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب واستعد لذلك اليوم ، ودخل الحمام سحراً ، وتطيب ، ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب : عرف الأمير أني رسول أمير المؤمنين واستأذن لي عليه .

فسعى الحاجب عدواً حتى أخبر المعتصم ، فأذن له . فلما دخل عليه ، وتمثل بين يديه ، قال له : سيدي إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : أنسيت الوعد ، ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يومنا هذا؟ قال المعتصم : لا والله ما نسيت ذلك ، ولكن تربصت ساعة . ونمت نوماً لأتقوى بذلك على انتصاب سائر النهار .

فقال الفتى : فعجل الآن أيها الأمير ، فإنه أمرني أن لا أفارقك حتى آتيه بك .

فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع في التأهب ، ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه ، والمعتصم لا ينكر شيئاً من كلام الفتى ويتأمل لطافته وهيئته ، ولم يتوهم إلا نه من بعض خواص المأمون ، وأخذ الفتى يحدث المعتصم وأقبل عليه بكليته ، ولم يتمكن من سؤاله شهوة لاستماع حديثه ، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته ، وأخذ يمشي بين يديه ، والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون نه من خدم المعتصم ، حتى نزل المعتصم ، وأخذ الفتى بركابه ، ودخل المجلس ، فلما استقر المعتصم في مجلسه جلس الفتى بين يديه ، وهو منهمك في نوادره وأخباره والمعتصم

مصغ إليه تعجباً بما يسمع من حسن كلامه ، وأخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رقيق لا يعرف من هو .

فقال المأمون : أخي قد عرف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عديل النفس . وقد أحسن أخي إذ جعل لنا ثالثاً ، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة وإلى ما لا بد منه ، ثم خرج من ساعته فرحاً وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قده وعقله ، فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون نهض قائماً فقبل يد المأمون ، وعاد إلى مجلسه وأخذ في نوادره وحديثه ومضحكاته وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر ، وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم . فساعة يكنيه وساعة يسميه حتى غلب على قلب المأمون ، وأظهر الحسد لأخيه في صحبة مثل هذا الغلام وكلامه ، وأمر المأمون بإحضار المائدة ، فنصبت بأنواع الطعام ، فأكلوا وغسلوا أيديهم ، ولمجلس الشراب انتقلوا ، وأمر المأمون بإحضار الجواري من غير ستارة ، فحضرن وأخذن في الغناء ، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به ، وبالغناء ، ومتى قيل وفيمن قيل ، فعز في عين المأمون حتى ملأ عينه ، وتزايد حسده لأخيه في صحبة مثله فمس الفتى بولٌ ، ولم يجد للمدافعة سبيلاً ، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه ، ويتواصفان أمره وحاله ، إذا خلا المجلس ، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما حتى قال المأمون لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا؟ فوالله ما رأيت رجلاً قط أكثر منه أدباً ولا أنظف هيئة ولا أشرف من شمائله .

فقال المعتصم : والله ما أعلم من هو ، وإنما جاءني مبكراً برسالة أمير المؤمنين .

فقال المأمون : سألتك بالله يا أخي أهو كذلك؟ فقال : إي والله الذي لا إله إلا هو .

فقال المأمون : طفيلي ، ورب الكعبة ، وغضب وأمر الجواري بالنهوض ، فنهض وأقبل الفتى راجعاً فلما نظر إلى خلو المجلس من الجواري وإلى تغير وجه المأمون ، وقف على رأس المجلس وأقبل بوجهه على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق! كأني بك قد أخذت في نوع الزور والبهتان ، وهذا المجلس من المجالس التي لا تحمل المزاح ، وما هكذا وعدتني . ثم قل : والله يا أمير المؤمنين ، ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا لأنه دائماً أبداً يعرضني لمثل هذا وأشباهه ، ويغري بي ويوقعني في كل ورطة .

ثم أقبل على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق ، سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتني من ملاعبتك التي لا تحتمل وتؤدي إلى مؤاخذة أمير المؤمنين .

ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال : سألتك بالله يا أخي ، بحياتي عليك إلا ما علمتني بحقيقة أمره؟ فقال المعتصم : يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايتك إن كنت عرفته أو رأيته قط إلا في يومي هذا .

فقال الفتى : كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي موضع كذا وكذا ، وإن هذا فعله معي أبداً .

فضحك المأمون تعجباً ، وقال : ادخل فدخل ، وأمره بالجلوس فجلس ، ثم قال لك الأمان إن صدقتني .

فصدقه الحديث على وجهه فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه وأمر بإعادة الجواري إلى مجلسهن ، فطربوا سائر يومهم . فقال له المأمون : أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظماً ولا تكتم عني شيئاً .

فقال : نعم ، ثم أنشأ يقول :

بينا أنا راقد في البيت مكتئب ... مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به ... وبي من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمعه ... والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجاً؟ ... نادى : أنا فرجٌ زن لي كرا البيت

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه ، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال : ثم ماذا؟ قال : يا أمير المؤمنين فخرجت فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء ، فوعدته بأن يرجع إلي مرة أخرى ، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه ، فسألت كل من لقيته من صديق لي كنت أستأنس به فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك وهما .

غريب الدار ليس له صديقٌ ... جميع سؤاله : أين الطريق؟
تعلق بالسؤال لكل شخص ... كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت يا أمير المؤمنين علي جارية كأنها البدر ليلة كماله ، وهي تقول :

ترفق يا غريب فكل حر ... يمر بحاله سعةٌ وضيق

وكــــل ملمــــة إن أنــــت فيهــــا   صبـــرت لهـــا أتيـح لهـا طريق

ثم قالت : خذ هذه فادفع بها فاقتك ، فوالله ما هي إلا مؤاساة من قوت ، ورمت إلى صدري بقرطاس ، وإذا فيه عشرة دراهم ، فرجعت من فوري ، فوجدت صاحب الكراء قائماً على الباب ، فدفعت إليه خمسة دراهم ، واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة ، وهذا الأمر الذي كلفني وحملني على ما فعلت وأنشأ يقول :

لـــم آتِ فعـــلاً غيـــر مستحســـن   جهـــلاً بفعـل الأحســن الأملـح

لكننـــــي فـــي حالـــة أوجبت   ضـــرورة إتيـــــان مستقبـــح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه وألحقه بمراتب الخاصة ، ورفعت منزلته ، وصار أقرب الناس إليه ، وآخر خارج من عنده وأول داخل إليه ، وسمي طفيلي المعتصم ، وأنشد للمأمون يوماً يقول :

كانـــت لقلبـــي أهـــواء مفرقــة   فاستجمعت مذ رأتك العين أهوالـي

تركت للناس دنياهـــم ودينهـــم   شغـــلاً بذكرك عن ديني ودنيائـــي

وصار يحسدني من كنت أحسده   وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

فاستحسن المأمون الأبيات ، وأمر بكتبها على الستارة ، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضي المجلس ، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته ، أرسل إلى الدار التي أشرفت عليه منها الجارية ، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشريها ، وقد مات ولم يخلف ولداً سوى تلك الجارية ، وما مات حتى تضعضع حاله ، فأعلم المأمون بذلك ، فمر بخطبتها للفتى ودفع المهر من عنده وصار الفتى والجارية في نعمة عظيمة بقية عمرهما .

رقة قلب المأمون

وسرق شاب سرقة ، فتي به إلى المأمون فأمر بقطع يده فتقدم لتقطع يديه فأنشد الشاب يقول :

يـــــدي ، يا أمير المؤمنين ، أعيذهـــا   بعفـــوك أن تلقـــى نكالاً يشينهـا

فـــلا خـــير في الدنيـا ولا راحةً بها   إذا مـــا شمـــالٌ فارقتهـــا يمينهـــا

وكانت أم الشاب واقفةً على رأسه ، فبكت وقالت : يا أمير المؤمنين إنه ولدي وواحدي ، ناشدتك الله إلا رحمتني وهدأت لوعتي وجدت بالعفو عمن استحق العقوبة .

فقال المأمون : هذا حد من حدود الله تعالى .

فقالت : يا أمير المؤمنين! اجعل عفوك عن هذا الحد ذنباً من الذنوب التي تستغفر منها .

فرق لها المأمون وعفا عنه .

المأمون ونذير الشؤم

قال أحدهم : رأيت في بعض المجاميع بخط بعض العلماء الأكابر أن المأمون أشرف يوماً من قصره فرأى رجلاً قائماً وبيده فحمة ، وهو يكتب بها على حائط قصره ، فقال المأمون لبعض خدمه : اذهب إلى ذلك الرجل ، فانظر ما كتب وآتني به .

فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً وقبض عليه ، وقال : ما كتبت؟ فإذا هو قد كتب هذين البيتين :

يا قصـــر جمـــع فيـــك الشوم واللوم   متـــى يعشـــش في أركانك البوم
يوـــم يعشـــش فيك البوم من فرحي   أكوـــن أول مـــن ينعـــاك مرغـوم

ثم إن الخادم قال له : أجب أمير المؤمنين .

فقال الرجل : سألتك بالله لا تذهب بي إليه .

فقال الخادم : لا بد من ذلك .

ثم ذهب به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين وأعلم بما كتب قال له المأمون : ويلك ، ما حملك على هذا؟ فقال : يا أمير المؤمنين! إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال والحلي والحلل والطعام والشراب والفرش والأواني والأمتعة والجواري والخدم وغير ذلك مما يقصر عنه وصفي ويعجز عنه فهمي . وإني يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن ، وأنا في غاية من الجوع والفاقة ، فوقفت مفكراً في أمري وقلت في نفسي : هذا القصر عامر عال ، وأنا جائع ولا فائدة لنا فيه ، فلو كان خراباً ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه وأتقوت بثمنه أوما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر :

إذا لـــم يكـــن للمرء في دولة امرئٍ   نصيـــب ولا حـــظ تمنـــى زوالهـا
ومـــا ذاك مـــن بغـــض له ، غير أنه   يزجي سواها ، فهو يهوى انتقالهـــا

فقال المأمون : يا غلام ، أعطه ألف درهم ، ثم قال : هي لك في كل سنة ما دام قصرنا عامراً بأهله مسروراً في دولته .

وأنشدوا في معنى ذلك :

إذا كنـــت في أمر ، فكن فيه محسـناً   فعمـــا قليـــل أنـت ماض وتاركه
فكـــم دحـــت الأيـــام أربـــاب دولةٍ   وقـــد ملكوا أَضعاف ما أنت مالكه

المأمون ومدعي النبوة

تنبأ رجل في أيام المأمون وادعى إنه إبراهيم الخليل ، فقال له المأمون : إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين ، قال : وما براهينه؟ قال : أضرمت له نار وألقي فيها ، فصارت عليه بردا وسلاما ، ونحن نوقد لك نارا ونطرحك فيها ، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك ، قال : أريد واحدة أخف من هذه ، قال : فبراهين موسى ، قال : وما براهينه؟ قال : ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى وضرب بها البحر ، فانفلق ، وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء .

قال : وهذه علي أصعب من الأولى . قال : فبراهين عيسى .

قال : وما هي؟ قال : إحياء الموتى . قال : مكانك قد وصلت . أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة ، فقال يحيى : أنا أول من آمن بك وصدّق .

ويحكى أنه تنبأ رجل في أيام المأمون ، فقل ليحيى بن أكثم القاضي : يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبي وإلى دعواه .

فركبا في الليل مستترين ومعهما خادم حتى صارا إلى بابه وكان مستتراً بثوبه ، فاستأذنا عليه فخرج إليهما ، فقال : من أنتما؟ فقالا : رجلان يريدان أن يسلما على يديك .

قال : ادخلا . فدخلا وجلس المأمون عن يمينه ، يحيى عن يساره ، فقال المأمون : إلى من بعثت؟ قال : إلى الناس كافة .

قال : أفيوحى إليك ، أم ترى في المنام ، أم ينفث في قلبك؟ قال : بل أناجي وأكلم قال : ومن يأتيك؟ قال : جبريل .

قال : فمتى كان عندك؟ قال : الساعة قبل أن تأتياني بساعة .

قال : فما أوحى إليك؟ قال : أوحى إلي أنه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، والذي يجلس عن يسارك ألوط خلق الله تعالى .

فقال له المأمون : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وكان يحيى يعزى إلى ما قاله عنه المتنبي .

وادّعى آخر النبوة في أيام المأمون ،
فقال له : ما معجزتك ؟
قال : سل ما شئت ، وكان بين يديه قفل ،
فقال : خذ هذا القفل فافتحه .
فقال : أصلحك الله ، لم أقل إني حداد .
فضحك منه واستتابه وأجازه .

وتنبأ إنسان ، فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة ، فقال :
أطرح لكم حصاة في الماء فتذوب . قالوا : رضينا فأخرج حصاة معه وطرحها في الماء فذابت ، فقالوا : هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا ودعها تذوب ، فقال : لستم أجل من فرعون ولا أنا أعظم حكمة من موسى ، ولم يقل فرعون لموسى لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندي تجعلها ثعبانا . فضحك المأمون وأجازه .

وتنبأ آخر في زمن المأمون ، فقال المأمون : أريد منك بطيخا في هذه الساعة ، قال : أمهلني ثلاثة أيام ، قال :
ما أريده إلا الساعة ، قال : ما أنصفتني يا أمير المؤمنين إذا كان الله تعالى الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ما يخرجه إلا في ثلاثة أشهر ، فما تصبر أنت علي ثلاثة أيام ، فضحك منه ووصله .

وتنبأ آخر في زمن المأمون ، فلما مثل بين يديه . قال له من أنت؟ قال : أنا أحمد النبي قال : لقد ادعيت زورا ، فلما رأى الأعوان قد أحاطت به وهو ذاهب معهم قال :
يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي ، فهل تذمه أنت ، فضحك المأمون منه وخلّى سبيله .

قال سعيد بن حفص المدينيّ : قال أبي : أتي المأمون بأسود قد ادّعى النبّوة ، وقال : أنا موسى بن عمران (فقال له : إنّ موسى أخرج يده من جيبه بيضاء ، فأخرج يدك بيضاء حتى أؤمن بك) فقال الأسود : إنّما فعل موسى ذلك لّما قال فرعون : أنا ربّكم الأعلى }فقل أنت كما قال حتى أخرج يدي بيضاء ، وإلاّ لم تبيضّ .

أُتي المأمون بإنسان متنبيء فقال له : ألك علامة ؟ قال : نعم علامتي اني أعلم ما في نفسك . قال :

قربت علي ، ما في نفسي ؟ قال له : في نفسك أني كذاب ! قال : صدقت ! وأمر به إلى الحبس فأقام به أياما ثم

أخرجه فقال : أُوحى إليك بشيء ؟ قال : لا قال : ولم ؟ قال : لأن الملائكة لا تدخل الحبس ! فضحك وأطلقه

زبيدة والمأمون

لما دخل المأمون على زبيدة ليعزيها في الأمين قالت : أرأيت أن تسليني في غدائك اليوم عندي فتغدى وأخرجت إليه من جواري الأمين من تغنيه فغنت : الطويل هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما فعلت يوماً بكسرى مرازبه فوثب مغضباً فقالت له : يا أمير المؤمنين حرمني الله أجره إن كنت علمت أو دسست إليها فصدقها .

حكي أن المأمون مر يوماً على زبيدة أم الأمين ، فرآها تحرك شفتيها بشيء لا يفهمه ، فقال لها : يا أماه ، أتدعين علي لكوني قتلت ابنك وسلبته ملكه؟ قالت : لا والله يا أمير المؤمنين .

قال : فما الذي قلته؟ قالت : يعفيني أمير المؤمنين .

فألح عليها وقال : لا بد أن تقوليه؟ قالت له : قلت ، قبح الله اللجاجة .

قال : وكيف ذلك؟ قالت : لأني لعبت يوماً مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا ، فغلبني ، فأمرني أن أتجرد من أثوابي وأطوف القصر عريانة ، فاستعفيته ، وبذلت له أموالاً لا تحصى ، فلم يعف عني . فتجردت من أثوابي وطفت القصر عريانة ، وأنا حاقدة عليه ، ثم عاودنا اللعب فغلبته فأمرته أن يذهب إلى المطبخ ، فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة فاستعفاني عن ذلك فلم أعفه ، فنزل لي عن

خراج مصر والعراق ، أبيت وقلت : والله لتطأنها ، فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به إلى المطبخ ، فلم أر جارية أقبح ولا أقذر ولا أشوه خلقة من أمك مراجل ، فأمرته أن يطأها فوطئها فعلقت منه بك ، فكنت سبباً لقتل ولدي وسلبه ملكه .

فولى المأمون وهو يقول : قاتل الله اللجاجة ، أي التي لج بها عليها حتى أخبرته بهذا الخبر .

المأمون والشاعر

وأتى شاعر المأمون فقال : لقد قلت فيك شعراً ، فقال : أنشدنيه . فقال :

حيـــاك رب النـــاس حياكـــا إذ بجمـــال الوجـــه رقاكـــا
بغـــداد مـــن نورك قد أشرقـــت وورق العـــود بجدواكـــا

قال : فأطرق المأمون ساعة ، وقال : يا أعرابي ، وأنا قد قلت فيك شعراً ، وأنشد يقول :

حيـــاك ربُّ النـــاس حياكـــا إن الـــذي أملـــت أخطاكـــا
أتيـــت شخصـــاً قد خلا كيسه ولـــو حـــوى شيئـــاً لأعطاكـــا

فقال : يا أمير المؤمنين ، الشعر بالشعر حرام ، فاجعل بينهما شيئاً يستطاب .

فضحك المأمون وأمر له بمال .

الأعرابي والمأمون

صاح أعرابي بالمأمون : يا عبدالله يا عبدالله .

فغضب المأمون وقال : أتدعوني بإسمي؟

فقال الأعرابي : نحن ندعوا الله باسمه

فسكت المأمون وأنعم عليه!

التخلص من الوالي

شكا بعض أهل الأمصار والياً إلى المأمون فكذبهم وقال : قد صح عندي عدله فيكم وإحسانه إليكم فاستحيوا أن يردوا عليه ، فقام شيخ منهم وقال : يا أمير المؤمنين : قد عدل فينا خمسة أعوام فاجعله في مصر غير مصرنا حتى يسع عدله جميع رعيتك وتربح الدعاء الحسن ، فضحك المأمون واستحيا منهم وصرف الوالي عنهم

أعرابي يريد الحج

دخل أعرابي على المأمون وقال له : يا أمير المؤمنين ، أنا رجل من الاعراب .
قال : ولا عجب في ذلك .
فقال الاعرابي : أني أريد الحج .
قال المأمون : الطريق واسعة .
قال : ليس معي نفقة .
قال المأمون : سقطت عنك الحج .
قال الاعرابي : أيها الامير جئتك مستجديا لا مستفتيا .
فضحك المأمون وأمر له بصلة

المكان الذي تملكه أفضل

قال المأمون لعبد الله بن طاهر : أيهما أطيب مجلسي أو منزلك؟
قال : ما عدلت به يا أمير المؤمنين .
قال : ليس لي الى هذا ، انما ذهبت الى الموافقة في العيش واللذة .
قال : منزلي يا أمير المؤمنين .
قال : ولم ذلك؟
قال : لأني فيه مالك وأنا ههنا مملوك .
جواب المبرد

قال المبرد : سأل المأمون يحيى بن المبارك عن شيء ، فقال : لا ، وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين ؛ فقال : لله درك! ما وضعت واوٌ قطّ وضعاً أحسن منها في هذا الموضع ؛ ووصله وحمله .

تأويل الرؤيا

دخل أعرابي على المأمون فقال :
رأيت في النوم أني مالك فرسا
ولي وصيف وفي كفي دنانير
فقال المأمون : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

المأمون ويحيى بن أكثم

يحكى أنه كان عند المأمون يوماً ، فقال له المأمون وهو يعرض له باللواط : يا يحيى! من ذا الذي يقول :

قاضي يرى الحد في الزناء ولا يرى   على من يلوط من بأس

فقال له : الذي يقول :

ما أرى الجور ينقضي ، وعلى الأمة   والٍ منكم بني العباس

سليب العقل لا الدين

ويقال : إن المأمون شرب يوماً ومعه القاضي يحيى بن أكثم[(١)] ، فمال لساقي على القاضي حتى وقع سكران ، فأمر المأمون أن يلقى عليه الورد والرياحين حتى يدفن فيها كأنه ميت ، وصنع بيتين شعراً ، وقال لمغنيته : خذي العود وغني على رأسه فغنت وقالت :

ناديته وهو حي لا حراك به   مزمل في ثياب من رياحين

فقلت : قم! قال : رجلي لا تطاوعني   فقلت : خذ! قال : كفي لا يوافيني

فاستيقظ يحيى لرنة العود والجارية تغني البيتين فقام ، وقال :

يا سيدي وأمير الناس كلهم   قد جار في حكمه من كان يسقيني

سقاني الراح لم يمزج سلافتها   حتى بقيت سليب العقل لا الدين

الخطأ في الشعر

ومن المنقول عن المأمون : قال عمارة بن عقيل[(٢)] : قال لي ابن أبي حفصة الشاعر : أعلمت أن أمير المؤمنين - يعني المأمون - لا يبصر الشعر؟

فقلت من ذا يكون أفرس منه وانّا لننشد أوّل البيت فيسبق آخره من غير أن يكون سمعه؟

---

(١) يحيى بن أكثم بن مُحمّد التميمي ، عالِم وإمام وفقيه وراوٍ للحديث النبوي وقاضي قضاة أهل البصرة ويُعّد من تبع التابعين .

(٢) عمارة بن عقيل هو عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية ، من ذرية جرير الشاعر ، شاعر من شعراء العصر العباسي . كان منصرفاً إلى حياة البادية واشتهر بالفصاحة حتى اعتبره البعض أشعر أهل زمانه

قال : فاني أنشدته بيتا أجدت فيه ، فلم أره تحرّك له ، وهذا البيت فاسمعه :

أضحى امـــام الهدى المأمون منشغـلا   بالدين والناس بالدنيــا مشاغيـــل

فقلت له : ما زدته على أن جعلته عجوزا في محرابها في يدها مسبحة ، فمن يقوم بأمر الدنيا اذا كان مشغولا عنها ، وهو المطوق لها . ألا قلت كما قال عمّك جرير لعبد العزيز بن الوليد :

فلا هـــــو فـــي الدنيا مضيّع نصيبه   ولا عرض الدنيا عن الدين شاغلـه

أبو عباد وزير المأمون وضيق صدره

وكان أبو عباد وزير المأمون ضيقاً جداً ، قيل له : إن لقمان قال : ما شيء أشد من حمل الغضب . فقال : ولكنه عندي أخف من الريشة . قيل له : إنما عنى لقمان أن احتمال الغضب ثقيل . فقال : والله ما يقوى على الغضب أحد من الناس إلا الجمل .

وغضب يوماً على بعض أصحابه ، فشجه بدواة كانت بين يديه . فقال : صدق الله حيث يقول : والذين إذا ما غضبوا هم يغفرون ، فبلغ ذلك المأمون فضحك . فقال : ويلك ! لا تحسن تقرأ آية من كتاب الله تعالى . قال : يا أمير المؤمنين ؛ والله إني لأحسن أقرأ من سورة واحدة ألف آية . فضحك المأمون وأمر بإخراجه . ولم يكن جاهلاً . وإنما كان يجري عليه الغلط لفرط غيظه .

وقال المأمون لأحمد بن أبي خالد : صف لي ثابت بن يحيى يريد أبا عباد . فقال : هو والله أحد من سيف سعيد بن العاص . فقال : والله ما أتبين من هذا شيئاً ؟ فقال : إن حركته تبين لك الأمر .

فعرض أبو عباد يوماً عليه كتاباً وخرج ، فلما قرب من الباب أمر المأمون برده ؛ فرجع وقد تغير ، فخاطبه وتركه ينصرف . فلما كاد يركب أمر برده . فلما عرف الرسول تناول الدواة من غلامه ، وقال : الساعة والله أضرب بها وجهك يابن الخبيثة ، كان ينبغي لك أن تقول قد ذهب إلى النار . ورجع ، فقال له المأمون : اعرض فيما تعرض علي حوائج الهاشميين . قال : نعم ! وقل كل ما تريد فلست أرجع إليك اليوم بعد هذا ، ولو قمت أنت بنفسك ! فضحك المأمون ، وقال : قاتل الله دعبلاً يريد قوله :

أولــــى الأمــور بضيعــةٍ وفســـاد   أمــــرٌ يدبّـــره أبـــو عبّـــاد

وكأنـــــه مـــن ديـــر هرقـــل خارجٌ   حرجـــاً يجـــرّ سلاســـل الأقيـاد

وقيل للمأمون : إن دعبلاً هجاك فقال :

أيسومنـــــي المأمـــــون خطّـة ظالم   أومـــا رأى بالأمـــس رأس محمّـد
يربـــى عـــلى رأس الخلائـــق مثلمـاً   تربى الجبال على رؤوس القـــردد
إنـــي مـــن القـــوم الذيـــن هـم هم   قتلـــوا أخـــاك وشرّفـــوك بمقعد
شـــادوا بذكـــرك بعـــد طول خموله   واستنقذوك من الحضيض الأوهـد

فقال : هو يهجو أبا عباد ولا يهجوني يريد أبا عباد حرج حديد ، والمأمون حليم متساهل .

وقال المأمون لما سمع هذا الشعر : ما في الدنيا أصفق وجهاً من دعبل ولا أبهت ، كيف يستنقذني هو وقومه من الحضيض الأوهد ، وأنا في حجر الخلافة ربيت ، وبدرها غذيت ، وإنما قال هذا دعبل : لأن طاهر بن الحسين[(١)] قتل أخاه ، وطاهر مولى خزاعة قوم دعبل .

أنشد شاعر أبا عباد قصيدة طويلة ، فضاق ضيقاً عظيماً ، ثم تجمل معه في استماعها حتى أتمها ؛ فقام رجل من أصحابه يعرف بالغالبي ؛ فأنشد قصيدة أخرى فسمعها ، وقد بلغ الضيق به منتهاه ؛ فقال فيها :

ثبتـــت رحـــى ملـــك الإمام بثابت   وأفـــاض فيهـــا العدل والإحسانا
يقـــــري الوفـــود طلاقـــةً وبشاشـةً   والناكثـــين مهنّـــــداً وسنانـــــا

فقال أبو عباد : مهلاً مهلاً ، إنما أنا كاتب ليست هذه صفتي ، هذه صفة حميد الطوسي . فضحك الحاضرون ، وزاد ضيق أبي عباد لضحكهم وخجل الرجل . فقال : ما زلت للعافين غيثاً ممرعاً متخرقاً في جوده . . . . وأنسي من الدهش من غيظه أبي عباد باقي البيت ، فأقبل يردد متخرقاً في جوده . فقل : قل قرنانا صفعانا ، ودعنا نستريح . فقال : يا سيدي معواناً ، وخرج مولياً ، فأمر له بعشرة آلاف درهم .

قال إبراهيم بن العباس الصولي : لو وزنت كلمات النبي صلى الله عليه وسلم إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم بكلام أهل الأرض لرجحت ،

---

(١) طاهر بن الحسين اسمه طاهر بن الحسين بن زريق ماهان الخزاعي ولد سنة ١٥٩هـ وهو أحد أشهر قواد الخليفة العباسي المأمون وكان يعرف بذى اليمينين وقال فيه الشاعر يا ذا اليمنين وعين واحده نقصان عين ويمين زائدة

هذا أبو عباد لم يكن في زمانه أكرم منه ، وما يكاد يرى له شاكراً لسوء خلقه .

كان أبو عباد يقول : ما جلس أحد بين يدي ، إلا ظننت أني سأجلس بين يديه .

المأمون والورد

وقال إسحاق : دخلت يوماً على المأمون في زمن الورد ، فقال لي : يا إسحاق! هل قلت شيئاً في الورد؟ قلت : أقول بسعادة أمير المؤمنين .

وفكرت ساعة فلم تسمح قريحتي في ذلك الوقت بشيء ، فخرجت من عنده وبقيت ليلتي ساهراً متفكراً ، فلم يفتح علي بشيء ، فلما أصبحت غدوت إلى دار الخلافة ، وإذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون ، ومعه سبع وردات على صينية فضة ، ينتظر الإذن في الدخول بها عليه ، فسألته المهلة بها قليلاً ، فامتنع ، سألته ثانياً ، وقلت : أمهل قليلاً ، ولك بكل وردة دينار .

فأجابني إلى ذلك فدفعت له سبعة دنانير ، وأحببت أن لا يصل إليه الورد قبل وصول الشعر ، وخرجت أقصد الأزقة لعلي أسمع شيئاً من أحد أو ينبعث خاطري ولو ببيت واحد ، فبينما أنا كذلك وإذا أنا برجل يغربل التراب وهو ينشد ويقول :

اشرب على ورد الخدود فإنه   أزهى وأبهى ، فالصبوح يطيب
ما الورد أحسن من تورد وجنة   جمراء جاد بها عليك حبيب
صبغ المدام بياضها فكأنه   ذهبٌ بقالب فضة مضروب

فلما سمعته نزلت عن دابتي ، ودخلت مسجداً بالقرب منه وطلبته ، فلما أقبل سألته أن يمليها علي فاعتل ، وقال : إن أردت فاعطني بكل بيت عشرة دنانير ، فدفعتها له واستمليتها منه ثم عدت أنا وغلام الفضل بن مروان ، وإذا بالمأمون يشرب من وراء الستارة ، فلما جسيت العود قال لجواريه : اسكتن ، فقد جاء إسحاق ، فقدمت ذلك الورد بين يديه وأنشدت الأبيات فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستارة ثم أخرج إلي بدرةٌ فيها عشرة آلاف درهم ، فأعدت الأبيات ، فأخرج إلي بدرة أخرى ، فأعدت الثالثة فأخرج إلي بدرة ثالثة ، فأخذت في غير الشعر ، فخرج إلي خادم وقال : يقول لك أمير المؤمنين لو دمت على إنشادك لدمنا على البدرة ولو إلى الليل .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

ويحكى عن العباس صاحب شرطة المأمون ، قال : دخلت إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد يوماً ، وبين يديه رجل مكبل بالحديد ، فقال لي : يا عباس؟ قلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : خذ هذا إليك فاستوثق به واحتفظ عليه وبكر به إلي في غد واحترز عليه كل الاحتراز .

قال العباس : فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي : مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي ، فلما تركوه في داري أخذت أساله عن قضيته وحاله ومن هو؟ فقال : أنا من دمشق .

فقلت : جزى الله دمشق خيراً ، فمن أنت من أهلها؟ .

قال : وعمن تسأل؟ قلت : أوتعرف فلاناً؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت : وقعت لي معه قضية .

فقال : ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه؟ فقلت : ويحك! كنت مع بعض الولاة بدمشق فسمعت أهلها ، وقد خرجوا علينا حتى أن الوالي خرج في زنبيل من قصر الحجاج ، وهرب هو وأصحابه ، وهربت في جملة القوم ، فبينما أنا هارب في بعض الدور ، وإذا بجماعة يعدون ، فما زلت أعدو أمامهم حتى تجاوزتهم ، ومررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك ، وهو جالس على باب داره ، فقلت : يا هذا أغثني أغاثك الله؟ قال : لا بأس عليك ادخل الدار .

فدخلت ، فقالت لي زوجته : ادخل تلك المقصورة .

فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار ، فما شعرت إلا وقد دخل ، والرجال معه يقولون هو والله عندك .

فقال : دونكم الدار فتشوها .

ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها ، فقالوا : ها هو هنا .

فصاحت بهم المرأة ونهرتهم ، فانصرفوا ، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة ، وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف ، فقالت المرأة : اجلس لا بأس عليك .

فجلست ، فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف فقد صرف الله عنك

شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله .

فقلت : جزاك الله خيراً .

فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكاناً من داره ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي ، فأقمت عنده أربعة أشهر في أتم عيش وأرغده إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت له : أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني ، فلعلي أقف منهم على خبر .

فأخذ علي المواثيق بالرجوع إليه ، فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته بالخبر ، وهو مع هذا كله لا يعرفني بنفسه ولا يعرف من أنا ، فقال لي : علام تعزم؟ فقلت : عزمت على التوجه إلى بغداد .

قال : إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج .

فقلت له : إنك قد تفضلت علي هذه المدة ، لك علي عهد الله إنني لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت .

قال : فدعا بغلام أسود وقال له : أنعل الفرس الفلاني ، ثم جهز آلة السفر فقلت في نفسي : ما أشك أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي . فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب ، فلما كان يوم خروج القافلة جاء في السحر ، فقال : يا فلان! قم ، فإن القافلة تخرج الساعة ، وأكره أن تنفرد عنها .

فقلت في نفسي : كيف اصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكتري به مركباً ، ثم قمت ، فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر اللباس وخفين جديدين وآلة السفر ، ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي ، ثم قدم لي غلاماً وعلى كتفه صرتان وفوقهما مرتبة السفر وسجادة من أفخر ما يكون ، وأعلمني بما في الصرتين أنه خمسة آلاف درهم ، وشد لي الفرس الذي أنعله بسرجه ولجامه ، وقال لي : اركب ، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك ، وأقبل هو وامرأته يعتذران إلي من التقصير في أمري وركب معي من يشيعني ، وانصرفت إلى بغداد ، وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافاته ، واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أقدر أن أتفرغ إلى أن أرسل إليه من يكشف خبره ، فلهذا أسأل عنه .

فلما سمع الرجل الحديث قال : قد أمكنك الله من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك .

فقلت : وكيف ذلك؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضر الذي أنا فيه قد غير

عليك حالي وما كنت تعرفه مني ، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته ، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذي صيرك إلى ما أرى؟ قال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إلي ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فضبطوا البلد فأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت ، وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم ، وهو قاتلي لا محالة ، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية ، وقد تبعني من ينصرف إليهم بخبري ، وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد ، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت بوفاء عهدك .

قال العباس : فقلت يصنع الله خيراً .

ثم أحضر حداداً في الليل وفك قيوده ، وزال ما كان عليه من الإنكال ، وأدخله حمام داره ، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سير من أحضر إليه غلامه ، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه ، فاستدعى العباس نائبه وقال : علي بفرسي الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ، ثم عشرة من الصناديق ، ومن الكسوة كذا وكذا .

قال ذلك الرجل : وأحضر لي بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار ، وقال لعامله في الشرطة : خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار .

فقال له : إن ذنبي عظيم عند أمير المؤمنين وخطبي جسيم ، وإن أنت احتجيت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأرادوا قتلي .

فقال : انج بنفسك ودعني أدبر أمري .

فقال : والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك ، فإن احتجت إلى حضوري حضرت .

فقال لصاحب الشرطة : إن كان الأمر على ما يكون ، فليكن في موضع كذا وكذا ، فإن أنا سلمت في غداة غدٍ أعلمته ، وإن أنا قتلت وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه ، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم ، وتجتهد في إخراجه من بغداد .

قال الرجل : فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان يثق به ، وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفناً .

قال العباس : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي يقولون : يقول لك أمير المؤمنين : هات الرجل معك وقم .

قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين وإذا هو جالس وعليه كآبة ، فقال : أين الرجل؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل؟ فسكت ، فقال ويحك أين الرجل؟ فقلت : يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول .

فقال : لله علي عهد ، لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك .

فقلت لا والله ، يا أمير المؤمنين إنه ما هرب ، ولكن اسمع حديثي معه كيت وكيت ، وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي ، وقلت : أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين : إما أن يصفح عني ، وقد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت ، وها كفني يا أمير المؤمنين .

فلما سمع المأمون الحديث قال : ويحك ، لا جزاك الله خيراً عن نفسك ، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ، وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير؟ هلا عرفتني خبره ، فكنت أكافئه عنك ولا أقصر بوفائي له؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ههنا ، وقد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتي ، فإن احتجت إلى حضوره حضر .

فقال المأمون : وهذه منة أعظم من الأولى ، اذهب الآن فطيب نفسه وسكن روعه وائتني به حتى أتولى مكافأته عنك .

قال : فأتيت إليه وقلت : ليزل عنك حزنك ، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت .

فقال : الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء أحد سواه . ثم قام فصلى ركعتين ، ثم أتيت به إلى أمير المؤمنين ، فلما مثل بين يديه أقبل عليه وأدنى مجلسه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى عنها ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها ، وعشرة بغال بآلاتها ، وعشر بدر ، وعشرة آلاف دينار ، وعشرة مماليك بدوابهم ، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به ، وأطلق خراجه ، وأمر بمكاتبته بأحوال دمشق ، فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي : يا عباس هذا كتاب صديقك .

المأمون وزنبيل بوران

ويحكى عن إسحاق الموصلي[1] أنه قال : خرجت ليلة من عند المأمون متوجهاً إلى بيتي ، فأحسست بالبول ، فعمدت لزقاق ، وقمت لأتمسح بالحيطان ، وإذا بزنبيل كبير بأربعة آذان ملبس ديباجاً ، فقلت : إن لهذا سبباً وبقيت متحيراً في أمره ، فحملني السكر وقال لي : اجلس فيه ، فجلست ، فلما أحس بي الذين كانوا يرقبونه جذبوه إلى رأس الحائط ، فإذا أنا بأربع جوار يقلن لي : انزل بالرحب والسعة ومشت بين يدي جارية بشمعة حتى نزلت إلى دار ومجالس مفروشة لم أر مثلها إلا في دار الخلافة فجلست ، فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رفعت في ناحية من الجدران ، وإذا بوصائف يتمشين وفي أيديهن الشمع وبعض مجامر يحرق فيهن العود وبينهن جارية كأنها البدر الطالع ، فنهضت وقالت : مرحباً بك من زائر وجلست ، ثم سألتني عن خبري فقلت : انصرفت من عند بعض إخواني وغرني الوقت وحرقني البول ، فعمدت إلى هذا الزقاق ، فوجدت زنبيلاً معلقاً ، فحملني السكر على أن جلست فيه ، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه .

قالت : لا ضير ، وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك ، ثم قالت : فما صناعتك؟ قال : بزازاً ببغداد .

فقالت : هل رويت من الأشعار شيئاً؟ قلت : شيئاً ضعيفاً .

قالت : فذاكرنا شيئاً .

قلت : إن للداخل حشمةً ، ولكن تبدئين أنت .

قالت : صدقت ، فأنشدتني شعراً لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدري مم أعجب من حسنها أم حسن روايتها؟ ثم قالت : أذهب ما كان فيك من الحصر؟ قلت : إي والله .

قالت : فإن رأيت أن تنشدنا .

فأنشدتها شيئاً لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسنت ذلك ، ثم قالت : والله ما ظننت أنه يوجد في أبناء السوقة هذا ، ثم أمرت بالطعام فأحضر ، فجعلت

(١) إسحاق الموصلي هو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بهمن الموصلي التّميمي بالولاء ، الأرجانيّ الأصل المعروف بابن النّديم الموصلي نادم الرّشيد والمأمون والمُعتصم والواثق ولد عام ٧٦٧ م في مدينة الري .

تقطع وتضع قدامي ، وفي المجلس من صنوف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند السلطان ، ودعت بالشراب ، فشربت قدحاً ، ثم ناولتني قدحاً ، ثم قالت هذا أوان المذاكرة والأخبار ، فاندفعت أذاكرها وقلت : بلغني أن كذا وكذا ، وكان رجل يقال له كذا ، حتى أتيت على عدة أخبار حسان ، فسرت بذلك وقالت : كثر تعجبي أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا ، وإنما هذه أحاديث ملوك .

فقلت : كان لي جار يحادث الملوك وينادمهم ، وإذا تعطل حضرت معه فربما حدثت بما سمعت .

فقالت : لعمري ، لقد أحسنت الحفظ وما هذه إلا قريحة جيدة .

وأخذنا في المذاكرة ، إذا سكت ابتدأت هي ، وإذا سكتت ابتدأت أنا حتى قطعنا أكثر الليل وبخور العود يعبق ، وأنا في حالة لو توهمها المأمون لطار شوقاً إليها ، فقالت : إنك من أرف الرجال ، وضيء الوجه بارعٌ في الأدب وما بقي إلا شيء واحد؟ قلت : وما هو؟ قالت : لو كنت تترنم ببعض الأشعار؟ قلت : والله لقديماً كنت ألفته ولم أرزقه وأعرضت عنه ، وفي قلبي من حرارة ، ولو كنت أحب في مثل هذا المجلس شيئاً منه لتكمل ليلتي .

قالت : كأنك عرضت .

فقلت : والله ما هو تعريض قد بدأت بالفضل ، وأنت جديرة بذلك .

فأمرت بعود فحضر ، وغنت بصوت ما سمعت بحسنه مع حسن أدبها وجودة الضرب بالكمال الراجح ، ثم قالت : هل تعرف هذا الصوت ومن غنى به؟ قلت : لا .

قالت : الشعر لفلان والغناء لإسحاق .

قلت : وإسحاق هذا جعلت فداك بهذه الصفة؟ قالت : بخ بخ! إسحاق بارع في هذا الشأن .

فقلت : سبحان الله أعطي هذا الرجل ما لم يعطه أحد؟ قالت : فكيف لو سمعت هذا الصوت منه .

ثم لم تزل على ذلك حتى إذا كان الفجر أقبلت عجوزٌ كأنها داية لها ، وقالت : إن الوقت قد حضر ، فنهضت عند قولها ، فقالت : لتستر ما كنا فيه فإن المجالس بالأمانات .

قلت : جعلت فداك لم أكن أحتاج إلى وصية في ذلك .

فودعتها ، وجارية بني يدي إلى باب الدار ففتح لي فخرجت ورحت إلى داري ،

فصليت الصبح ونمت ، فانتهى رسول المأمون غلي فسرت إليه وأقمت عنده نهاري ، فلما كان العشاء تفكرت في ما كنت فيه البارحة ، وهذا شيء لا يصبر عليه إلا جاهل

فخرجت وجئت إلى الزنبيل ، فوجدته على عادته ، فجلست فيه ورفعت إلى موضع البارحة ، وإذا هي قد طلعت ، فقالت : لقد عاودت .

فقل : ولا أظن إلا أنني قد ثقلت .

وأخذنا في المحادثة مثل تلك الليلة السالفة في المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر . فانصرفت إلى منزلي ، فصليت الصبح ، ونمت . فانتهى رسول أمير المؤمنين غلي فمضيت إليه وأقمت نهاري عنده ، فلما كانت العشية توجه إلي مخاطباً ، وقال : أقسمت عليك لتجلسن حتى أجيء وأحضر ، فما كان حتى أن غاب وجالت وساوسي ، فلما تذكرت ما كنت فيه هان علي ما يخصني من أمير المؤمنين ، فوثبت مبادراً وخرجت جارياً حتى أتيت الزنبيل ، فجلست فهي فرفعت إلى مجلسي ، فقالت : صديقنا .

قلت : إي والله .

قالت : أجعلتها دار إقامة؟ قلت : جعلت فداك حق الضيافة ثلاثة أيام ، فإن رجعت بعد ذلك ، فأنتم في حل من دمي .

ثم جلسنا على ذلك الحال فلما قرب الوقت علمت بأن المأمون لا بد أن يسألني ، فلا يقنع إلا بشرح القصة فقلت : أنا أراك ممن يعجب بالغناء ولي ابن عم أحسن مني وجهاً ، وأظرف قداً وأكثر أدباً وأطيب أرجاً ، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق .

فقالت : طفيلي وتقترح .

قلت : لها : أنت المحكمة .

قم قالت : إن كان ابن عمك على ما تصف فما نكره معرفته .

ثم جاء الوقت فنهضت وقمت وذهبت ، فلم أصل إلى داري إلا ورسل أمير المأمون قد هجموا علي وحملوني حملاً عنيفاً فوجدته قاعداً على كرسي وهو مغتاظ فقال : يا إسحاق ، أخروجاً عن الطاعة؟ قلت : لا والله .

قال : فما قصتك أصدقني؟ قلت : نعم في خلوة .

فأومأ إلى من بين يديه فتنحوا ، فحدثته الحديث وقلت له : وعدتها بك .

قال : أحسنت فأخذنا في لذتنا ذلك اليوم ، والمأمون معلق القلب بها ، فما

صدقنا أن جاء الوقت وسرنا ، وأنا أوصيه وأقول له : تجنب واحذر أن تناديني باسمي بحضرتها ، وغن وأنا لك تبع وهو يقول : نعم ، ثم سرنا إلى الزنبيل فوجدناهما اثنين ، فقعدنا فيهما

ورفعنا إلى الموضع المعهود ، فحضرت وأقبلت وسلمت ، فلما رآها المأمون بهت في حسنها وجمالها وأخذت تذاكره وتناشده الأشعار ، ثم أحضرت النبيذ فشربنا ، وهي مقبلة عليه مسرورة به ، وهو أكثر ، فأخذت العود وغنت صوتاً ، ثم قالت : وابن عمك هذا من التجار ، وأشارت إلي .

قلت : نعم .

قال : والله إنكما لقريبان .

فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب ، فصاح وقال : يا إسحاق! قلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : عن هذا الصوت؟ فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى مكان فدخلته ، فلما فرغت من الصوت قال : انظر من رب هذه الدار؟ فبادرت العجوز وقالت : للحسن بن سهل .

فقال : علي به .

فغابت العجوز ساعة ، وإذا الحسن قد حضر .

فقال له المأمون : ألك ابنة؟ قال : نعم .

قال : ما اسمها؟ قال : بوران .

قال : أمتزوجة؟ قال : لا والله .

قال : فإني أخطبها منك .

قال : هي جاريتك وأمرها إليك .

قال : قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألفاً ، تحمل إليك صبيحة يومنا هذا ، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتنا .

قال : نعم . ثم خرجنا فقال : يا إسحاق لا توفق على هذا الحديث أحداً .

فسترته إلى أن مات المأمون فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لي في تلك الأربعة أيام مجالسة المأمون بالنهار وبوران بالليل ، ووالله ما رأيت أحداً من الرجال مثل المأمون ولا شاهدت امرأة تقارب بوران فهماً وعقلاً .

أخلاق المأمون

من محاسن الأخلاق ، ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال : كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون ، فعطش ، فامتنع أن يصيح لغلام يسقيه ، وأنا نائم فينغص علي نومي ، فرأيته وقد قام يتمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء ، وكان بينه وبين الماء نحو ثلاثمائة خطوة ، ثم رجع يتمشى على أطراف أصابعه حتى وصل إلى الفراش الذي أنا عليه ، وخطا خطوات لطيفة لئلا ينبهني حتى وصل إلى فراشه ، ثم رأيته آخر الليل ، وقد قام يبول ، فقعد طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح للغلام ، فلما تحركت وثب قائماً وصاح بالغلام وتأهب للصلاة ثم جاءني وقال : كيف أصبحت يا أبا محمد ، وكيف مبيتك؟ قلت : بخير مبيت جعلني الله فداك .

قال : لقد استيقظت للصلاة ، فكرهت أن أصيح للغلام فأزعجك .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، لقد خصك الله بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ووهب لك سيرتهم ، فهناك الله بهذه النعمة ، وأتمها عليك .

فأمر لي بألف دينار وانصرفت .

إسحاق وإبراهيم في حضرة المأمون

قال إبراهيم النديم : لما أردنا الانصراف ليلة عن المأمون التفت إلى إبراهيم ابن المهدي فقال : بحقي عليك يا عم لما صنعت أبياتاً وصنعت عليها لحناً ، ثم قال لي مثل ذلك وقال : بكرا علي فقد اشتهيت الصبوح غداً ، قال أبو إسحاق : فقلت والله لأكيدن إبراهيم ولأسرقنه ، فلما صليت العشاء الآخرة ركبت وصرت إلى ساباط لإبراهيم كان له عليه مجلس يقعد فيه فدعوت الحارس فأعطيته ديناراً وقلت له : لا تعلم أحداً بمكاني ، وصرفت غلامي وأمرته أن يأتيني بدابتي سحراً فلم ألبث أن جاء إبراهيم فجلس في مجلسه ذلك ودعا جواريه وجعل يلقنهن الشعر وقد صاغ عليه اللحن فهو يضرب بالعود وأنا أضرب على فخذي إيقاع الصوت حتى أخذته وأحكمته ، فلما كان السحر أتاني غلامي بدابتي فصرت من فوري إلى باب المأمون فقال لي أحمد بن هشام : بكرت ، ثم دخل فأعلمه فأذن لي فدخلت على المأمون فقال : أكلت فقلت : لا ، فدعا لي بالطعام ، وقد كان أكل وشرب ، فغنيته بشعر إبراهيم ولحنه وهو :

قالت نظرت إلى غيري فقلت لها ... وماء دمعي من عيني محدور

نفسي فداؤك طرف العين مشترك والقلب مني عليك الدهر مقصور
العين تنظر أحياناً وباطنه مما يقاسي بظهر الغيب مستور

فطرب المأمون عليه وشرب ، فما لبثنا ساعة واحدة حتى استؤذن لإبراهيم ابن المهدي فأذن له فدخل فدعا له بالطعام وسقي ثم جلس فغنى هذا الشعر في هذا اللحن فقال المأمون : يا هذا أراك تسرق أشعار الناس وتدعيها لنفسك ، واحمرت عيناه وغضب غضباً شديداً وكاد يسطو بإبراهيم ، فقام إبراهيم على قدميه وقال : وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيعتك في عنقي ما سبقني إليه أحد ، فقال المأمون : هذا أبو إسحاق بعينه ، وقال : يا أبا إسحاق غنه ، فغنيته فبقي إبراهيم مبهوتاً لا يحير جواباً ، فلما رأيت المأمون على تلك الحال قلت : يا أمير المؤمنين الشعر واللحن له ولكن سرقته منه اللصوص ، وحدثته الحديث فسكن حينئذ وقال : يا أحمد بن هشام خذ من مال إبراهيم ثلاثين ألف درهم وادفعها إلى أبي إسحاق لتضييع إبراهيم سره ، فغدوت على إبراهيم فقلت : أيها الأمير أقبلها مني ، واعتذرت إليه فقال : لا أقبل منك ما جاد به أمير المؤمنين لكن كدت والله يسفك دمي يا أبا إسحاق فلا تعد في المزاح إلى مثلها فإن الملوك تعفو عن الكثير وتقتل في اليسير .

إبراهيم بن المهدي والمأمون

قال الواقدي : كان إبراهيم بن المهدي ادعى لنفسه الخلافة بالري وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً .

فمما حكاه قال : لما دخل المأمون الري في طلبي أثقل علي الطلب وجعل لمن دل علي وأتاه بي مائة ألف درهم ، فخفت على نفسي ، وتحيرت في أمري ، فخرجت من داري وقت الظهر ، وكان يوماً صائفاً ، وما أدري أين أتوجه ، فمررت بزقاق لا ينفذ ، فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وخفت إن رجعت على أثري يعلموا بين فرأيت في صدر الزقاق عبداً أسود قائماً على باب داره ، فتقدمت إليه ، وقلت له : عندك موضع أقيم فيه ساعة من النهار؟ قال : نعم ، وفتح الباب ، فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر نظيفة وبسط ومخدات جلد ، ثم إنه أغلق الباب علي ومضى ، فخفت أن يكون سمع الجعالة في حقي ، وأنه عرفني ومضى ليدلهم علي ، فبقيت مثل الحبة في المقلاة قلقاً ميتاً من الخوف ، فبينما أنا كذلك ، إذ أقبل ومعه حمال حامل كل ما أحتاج إليه من لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان

جدد ، ثم التفت إلي وقال : جعلني لله فداك! أنا رجل حجام ، وأنا أعرف أنك تنفر مني لما أتولاه من معيشتي ، فشأنك بما لم تقع عليه يدي .

وكان لي حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت قدراً ما ظننت أني أكلت مثلها قدراً ، فلما قضيت أربي ، قال لي : هل لك أن تشرب شيئاً فإنه يسلي الهم ويزيل الغم ، ويمهد للنفس الفرح؟ قلت : ما أكره ذلك ، رغبة في مؤنسته .

فأتى بقطرميز جديد وأحضر لي نقلاً وفاكهة في أوان جدد من فخار ، ثم قل بعد ذلك : إن أذنت لي ، جعلت فداك أن أقعد بناحية منك وآتي بشراب فأشرب مسروراً بك .

فقلت : افعل .

ففعل وشرب ثلاثاً ، ثم خل إلى خزانة له : فأخرج عوداً مصلحاً ، ثم قال : يا سيدي ليس من قدري أن أسألك أن تغني ، ولكن قد وجب على مروءتك حرمتي ، فإن رأيت أن تشرف عبدك بأن تغني لنفسك والعبد يسمع فافعل .

فقلت له : ومن أين لك أني أحسن الغناء؟ فقال متعجباً : سبحان الله! أنت أشهر من ذلك ، أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن يدل عليك مائة ألف درهم .

فلما قال ذلك عظمت مروءته عندي ، وعلمت أن نخوته أجل مما بذل ، فتناولت العود فأصلحته ، وقد مر بخاطري ذكر أهلي وولدي ، فقلت :

وعسى الذي أهدى ليوسف أهله وأعزه في السجن وهو غريب
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا فالله رب العالمين قريب

فقال : يا سيدي اجعل ما تغنيه مما أقتضيك به .

قلت : نعم . فقال : غن لي :

إن الذي عقد الذي انعقدت به عقد المكاره ، فهو يملك حلها
فاصبر ، فإن الله يعقب راحةً فلعلها أن تنجلي ، فلعلها

فحسن عندي اقتراحه وشربت ، ثم قال لي : غن لي :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفاً خزائنه بعد الخلاص من السجن

ففرح وشرب وشربت ، وقال : غن لي :

إذا الحادثات بلغن النهى وكادت لهن تذوب المهج

وحـــل البـــــلاء وقـــــل العـــزاء فعنـــد التناهـــي يكـــون الفـــرج

وغنيته وحسن في نفسي اقتضاؤه ، وأنست به ، واستظرفته ، ثم قال : إن رأيت يا سيدي أن تأذن لي أن أغني ما خطر ببالي ، وإن كنت من غير أهل الصناعة؟ فقلت : يكون ذلك زيادةً في أدبك ومروءتك .

فأخذ العود ، ثم قال : دستور ، ثم ضرب عليه ، وغنى يقول :

شكونـــا إلـــى أحبابنـــا طـــول ليلنا فقالـــوا لنـــا : ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النـــــوم يغشـــى عيونهـــم سريعـــاً ولا يغشـــى لنا النوم أعينا
إذا ما دنـــا الليـــل المضر بذي الهوى جزعنـــا ، وهـــم يستبشرون إذا دنا
فلـــو أنهـــم كانـــوا يلاقون مثـــل ما تلاقـــي لكانـــوا في المضاجع مثلنا

فقلت : والله ذهب عني كل ما كان عندي من الفزع وسألته أن يغني ، فغنى يقول :

تعيرنـــا أنـــا قليـــلٌ عديدنـــا فقلـــت لهـــا : إن الكـــرام قليـــل
ومـــا ضرنـــا أنـــا قليـــل وجارنا عزيـــز ، وجـــار الأكثريـــن ذليـــل
وإنا لقـــوم لا نـــرى المـــوت سبـــةً إذا مـــا رأتـــه عامـــرٌ وسلـــول
يقـــرب حـــب المـــوت آجالنـــا لنـــا وتكرهـــه آجالهـــم فتطـــول

فوالله لقد أجاد وذهب عني كل ما كان من الفزع والجزع ، واستأنست به وأخذني من الطرب ما لا مزيد عليه ، وعاجلني النوم قبل أوانه فنمت ، ولم أستيقظ إلا بعد المغرب ، وجال فكري في هذا الحجام وأدبه وظرفه ، وكيف غناؤه وأدبه وإرادته أن يسليني عما أنا فيه إشارة إلى تخصيصه بالوفاء لضيفه ونصره لجاره ، فقعدت وغسلت وجهي ويقظته ، وأخذت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير ومصاغ لها قيمة فدفعتها إليه ، وقلت له : أنت في وداعة الله وحفظه فإني ماض عنك ، وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك ، ولك عندي ، إذا أمنت ، المزيد ، فأعادها علي مبادراً وقال : يا سيدي! الصعلوك لا قيمة له عند أهل الرياسات ، ويظنون فيه الظنون الرديئة ، أفآخذ على ما وهبني الله من قربك وحلولك في منزلي ثمناً؟ لا والله ، فألححت عليه ، فأخذ موسى بيده وقال : والله إن راجعتني لأنحرن نفسي ، فخشيت عليه وأخذت الخريطة وأثقلني حملها ، فلما انتهيت إلى باب الدار ، قال : يا سيدي إن هذا الموضع أخفى لك من غيره ، وليس عندي في مؤنتك ثقلة ، فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك . فرجعت وسألته أن يكون منفقاً من تلك

الخريطة فلم يفعل ، وكان كل يوم يفعل بي مثل ما فعل في اليوم الأول .

قال : فأقمت أياماً في أطيب عيش وأهناه ، ثم سئمت من الإقامة عنده وخشيت الثقل عليه ، فتركني ومضى يجدد لنا حالنا ، فلبست ثيابي وتزينت بزي النساء بالخف والنقاب ، وخرجت . فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف والفزع أمر شديد ومشيت لأعبر الجسر ، وإذا هو قد رش ، ورجل قائم فأبصرني بعض من كان في خدمتي من الجند فتعلق بين وقال : طلبة أمير المؤمنين ، فدفعته في صدره فوقع في الزلق وصار عبرة وتبادر الناس إليه فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر ، ودخلت زقاقاً فوجدت باباً وامرأة واقفة فيه ، فقلت : يا سيدة النساء ، احقني دمي فإني رجل خائف .

فقالت : ادخل ، فدخلت فأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي وقدمت لي طعاماً . وقالت : ليهدأ روعك فإنه لا يعلم بك مخلوق ، ولو أقمت سنة ما عليك بأس ، وإذا بالباب يدق ، فخرجت وفتحت الباب ، فإذا هو صاحبي الذي دفعته على الجسر ، وهو مشدوخ الرأس ودمه يسيل على ثيابه ، فقالت له ما دهاك؟ قال : إن حديثي عجيب وأمري غريب ظفرت بالفتى وانفلت من يدي .

قالت : وكيف؟ قال : إبراهيم بن المهدي لقيته فتعلقت به فدفعني فأصابني ما ترين من حالي ولو حملته إلى أمير المؤمنين لأخذت منه مائة ألف درهم .

قال : فأخرجت له حراقاً وذروراً ، وفرشت له بعد كبس جرحه فنام قليلاً وطلعت وقالت لي : أظنك صاحب القصة؟ قلت : نعم .

فقالت لي : إني خائفة عليك ، ثم جددت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثة أيام ، ثم قالت لي : إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أمرك فينم عليك فانج بنفسك .

فسألتها إمهالي إلى الليل . فلما دخل لبست زي النساء وخرجت منم عندها وأتيت إلى بيت مولاة لنا ، فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدت الله تعالى على سلامتي وخرجت كأنه تريد كرامتي ، فتوجهت للسوق مظهرة الاهتمام للضيافة فظننت خيراً ، فلم أشعر إلا بإبراهيم الموصلي بخيله ورجاله ، والمولاة معه حتى سلمتني إليه ، فرأيت الموت عياناً ، وحملت مثل ما أنا إلى أمير المؤمنين ، فجلس مجلساً عاماً ، وأمر بإدخالي عليه ، فلما مثلت بين يديه سلمت عليه سلام الخلافة ، فقال : لا سلمك الله ، ولا حفظك ولا رعاك .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناولته يد الأقدار ربما مد له من أسباب الرجاء ما يأمن معه عادية الدهر ، وقد جعلك الله فوق خلقه ، وأصبح عفوك فوق كل ذي عفو ، فإن تأخذ فبحقك ، وإن تعف فبفضل ، وأنشدت أقول :

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه فخذ بحقك أولا
واصفح بحلمك عنه إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنه

قال : فرفع رأسه إلي ، فقلت مبتدراً :

أتيــت ذنبــاً عظيماً وأنــت للعفــو أهــل
فــإن عفــوت فمــن وإن جزيــت فعــدل

قال : فرق المأمون واسترجع فرأيت روائح الرحمة في شمائله ، ثم أقبل على أخيه أبي إسحاق محمد المعتصم وابنه العباس وجميع من حضر من خصته ، وقال : ما ترون في أمره؟ فأشار الكل بقتلي ، إلا أنهم اختلفوا في القتل ، فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد : ما تقول يا أحمد؟ فقال : يا أمير المؤمنين! إن قتلته فقد وجدنا مثلك قتل مثله ، وإن عفوت لم نجد مثلك في العفو .

فنكس المأمون رأسه إلى الأرض وجعل يخط في الأرض بإصبعه ، ثم رفع رأسه وقال :

قومــي همــوا قتلــوا أميــم أخــي فــإذا رميــت يصيبنــي سهمــي

ثم قال المأمون : لا بأس عليك يا عم .

فقلت : ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أفوه معه بعذر ، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ، ولكن أقول :

إن الــذي خلــق المكــارم حازهــا فــي صلــب آدم للإمــام السابع
ملئــت قلــوب النــاس منك مهابةً وتظــل تكلؤهــم بقلــب خاشع
مـا إن عصيتــك والغــواة تمدنــي أسبابهــا إلا بنيــة طائــع
وعفــوت عمــن لــم يكن عن مثله عفــو ، ولــم يشفــع إليك بشافع
ورحمــت أشباحــاً كأفــراخ القطا وحنــين والــدةٍ بقلــب جــازع

فقال المأمون : لا تثريب اليوم عليك ، قد عفوت عنك ، ورددت عليك مالك وضياعك ، فأنشدت أقول :

رددت مالــي ولــم تبخل علي بــه وقبــل ردك مالي قد حقنت دمـي

أمنـــت منـــك وقـــد خولتني نعمــاً نعـــم الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلـــت دمعـــي أبغي رضاك بــه والمال حتى أسل النعل من قدمـــي
وإن جحدتـــك ما وليـــت من نعـــم إني إلى اللؤم أول منـــك بالكـــرم

فقال المأمون : إن من الكلام كلاماً كالدر ، وهذا منه ، وأمر لي بمالي وخلع علي ، وقال : يا عم إن أبا إسحاق والعباس أشار بقتلك .

فقلت : إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ، ولكن فعلت ما أنت أهله ، ودفعت ما خفت أنا بما رجوت .

فقال المأمون : لقد مات حقدي بحياة عذرك ، وقد عفوت عنك .

ثم سجد المأمون طويلاً ، ثم رفع رأسه ، ثم قال : يا عم أتدري لم سجدت؟ قلت له : شكراً لله تعالى على ما أوقعك علي وملكك إياي في ديك تفعل بي ما تشاء .

فقال : أخطأت! ولكن أشكر الله تعالى على ما ألهمني من العفو عنك من قبل نفسي ، ثم قال : وأعظم من عفوي عنك أنني لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين ، فحدثني بما كان من أمرك .

فشرحت له ما جرى لي مع الحجام والجندي وزوجته والمولاة التي أسلمتني ، فأمر المأمون بإحضارها ، وهي في دارها تنتظر الجائزة ، فلما حضرت قال لها المأمون : ما حملك على ما فعلت تسليمك إبراهيم مع إنعامه عليك؟ قالت : رغبة في المال .

قال هل لك من ولد أو زوج؟ قالت : لا ، فأمر بضربها مائة سوط وأمر بتخليدها في السجن ، ثم أحضر الجندي وامرأته والحجام ، فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل؟ قال : رغبة في المال .

فقال : إنك أولى في أن تكون حجاماً من أن تكون خداماً ، ووكل من يلزمه الجلوس في مكان الحجام ، ليتعلم الحجامة ، وأحسن إلى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال : هذه امرأة أديبة تصلح للمهمات ، وسلم للحجام دار الجندي وما فيها ، وخلع عليه وأثبته برزقه في الديوان ، وزيادة ألف دينار في كل سنة ، ولم يزل كذلك إلى أن مات .

المعتصم بالله[1]

انتهز ملك الروم البيزنطيين انشغال الجيوش الإسلامية في بعض الأطراف فخرج في مئة ألف من جنده ، فانقضَّ على مدينة «زِبَطْرَة» وأعمل فيها السيف ، وقتل الصغير والكبير بلا إنسانية ولا رحمة وسبى النساء بعد ذبح أطفالهن ، ثم أغار على «مَلَطْيَة» فأصابها ما أصاب زِبَطْرَة ، فضج المسلمون في مناطق الثغور كلها واستغاثوا في المساجد والطرقات ، ودخل إبراهيم بن المهدي رحمه الله على المعتصم ، وأنشده قصيدة يذكر فيها ما نزل بزِبَطْرَة ومَلَطْيَة والثغور ويحضه على الانتقام ، ويحثه على الجهاد ، فقال :

يا غيرة الله قد عاينت فانتهكي ... هتك النساء وما منهن يرتكب
هَبِ الرجال على إجرامها قُتلَت ... ما بال أطفالها بالذبح تُنْتَهبُ

فاستعظم المعتصم ذلك لما بلغه الخبر ، وبلغه أن هاشميَّة صاحت وهي في أيدي الروم : وامعتصماه . فأجاب وهو على سريره : «لبَّيكِ لبَّيكِ» ، ونادى بالنفير العام ، ونهض من ساعته .

ذكر الحافظ ابن كثير[1] -رحمه الله- في البداية والنهاية عن ملك الروم أنه : «سَبَى من المسلمات أكثر من ألف امرأة ، ومثَّل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمّل أعينهم وقطع أذانهم وأنافهم» .

فنادى المعتصم في العساكر بالرحيل إلى الغزو ، واستدعى القاضي والشهود ، فأشهدهم أن ما يملكه من الأموال ، ثلثه صدقة ، وثلثه لولده وثلثه لمواليه . وتساءل قائلاً : أيُّ بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل له : عمورية ، لم يعرض لها أحد من

---

(١) أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور ثامن الخلفاء العباسيين ، ولد سنة ١٧٩ هجرية وتوفي بمدينة سامراء في ١٨ من ربيع الأول سنة ٢٢٧ هجرية (٤ من فبراير سنة ٨٤٢ ميلادية) ، وكان في عهد أخيه المأمون واليا على الشام ومصر وكان المأمون يميل اليه لشجاعته فولاه عهده ، وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون بطرسوس بويع أبو اسحاق محمد بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله

(٢) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع القرشي المعروف بـ(ابن كثير) ، عالم مسلم ، وفقيه ، ومفت ، ومحدث ، وحافظ ، ومفسر ، ومؤرخ

المسلمين منذ كـان الإسـلام ، وهي عين النصـرانيـة ، وهي أشـرف عندهم من القسطنطينية ، فسار باتجاهها ، بجهاز عظيم من السلاح والعدد وآلات الحصار ، وبجحافل أمثال الجبال ولما دخل الجيش الإسلامي بقيادة المعتصم بلاد الروم ، أقام على نهر اللاّمس ، وهذا النهر كان هو الحد الفاصل بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية في آسية الصغرى ، وعلى ضفتيه كانت تتم مبادلة الأسرى . فبعد أن وصلت الطليعة إلى الموقع المقصود ، حُفرت الخنادق ، فقد كان النظام يقضي بألاّ يعسكر الجنود قبل أخذ الحيطة من الهجوم المفاجئ ، فإذا ما وصل الجيش الرئيسي نُصبت الخيام في نظام بديع رائع وخططت الشوارع والميادين ، وأقيمت الأسواق ، كما لو كان المعسكر مدينة عامرة ، وكانت توزَّع الأرزاق ، فتوقد المطابخ ، وتنصب عليها القدور ، مع بث مفارز الرَّصد والدوريات المتحركة ، ويقسمون الجند إلى عدَّة نوبات ، بحيث يظلّ قسم منهم جاهزاً دوماً على ظهور الخيل ، لمشاغلة العدو ريثما يستعد الباقون ، ويضاف إلى كلٍّ ذلك أفراد الحرس الدَّاخلي الذين كانوا يُفاجَؤُون في محارسهم ليلاً للتأكد من يقظتهم ، وكان هؤلاء يستلمون الحراسة بالمناوبة ، وكانت نوبة حرس أوَّل الليل أطول من نوبة آخره عادة .

اجتمعت كلّ العساكر بقيادة المعتصم عند عمورية ، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة ، فركب ودار حولها دورة كاملة وقسَّمها بين القُوَّاد ، جاعلاً لكل واحد منهم أبراجاً من سورها ، وذلك على قدر كثرة أصحابه وقلَّتهم ، وصار لكل قائد منهم ما بين البُرجَيْن إلى عشرين برجاً . أمَّا أهل عمورية فقد تحصَّنوا داخل أسوار مدينتهم ، متّخذين ما استطاعوا من الحيطة والاحتراز .

وعلم المعتصم من عربي متنصِّر ، تزوج في عمورية وأقام بها ، أن موضعاً من المدينة جاءه سيل شديد ، فانهار السُّور في ذلك الموضع ، فكتب ملك الروم إلى عامله في عمورية أن يبني ذلك الموضع ويعيد تشييده ، فوجّه الصُّنَّاع والبنَّائين ، فبنوا وجه السُّور بالحجارة حجراً حجراً ، وتركوا وراءه من جانب المدينة حشواً ، ثم عقدوا فوقه الشُّرَف ، فبدا كما كان ، ولما علم المعتصم بذلك أمر بضرب خيمته تجاه هذا الموضع ونصب المجانيق عليه .

بدأت المجانيق الضخمة تعمل عملها فانفرج السُّور من ذلك الموضع ، فلما رأى أهل عمورية انفراج السور ، دعَّموه بالأخشاب الضخمة ، كل واحدة إلى جانب الأخرى ، فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسَّر ، فيهرَع المحاصَرون لتدعيم

السور بأخشاب ضخمة جديدة ، ليحموا السور من الانهيار . وعندما توالت قذائف المجانيق على هذا الموضع الواهن ، انصدع السور فكتب عامل عمورية إلى ملك الروم كتاباً يعلمه فيه بأمر السور ، وحرج الموقف ، وقوة الحصار ، ووجّه الكِتاب مع رجل يتقن العربية ، ومعه غلام رومي كي لا يُكشف أمره عند اجتياز صفوف الحصار ، فإن تحدَّث معه عربي مسلم أو سأله ، يجيبه بالعربية كي لا يُشَكَّ في أمره . وأخرج الرجلين من مكان مسيل ماء ، فعبرا الخندق الذي يلي السور ، فلما خرجا من الخندق ، أنكرهما الجند ، فسألوهما : من أين أنتما؟ فأجابا : نحن من أصحابكم ، نحن منكم جنديان في جيش أمير المؤمنين المعتصم ، فقالوا لهما : مِنْ أصحاب مَنْ أنتما؟ فلم يعرفا أحداً من قُوَّاد أهل العسكر يسميانه لهم ، فأنكروهما ، وجاؤوا بهما إلى المعتصم ، وفتَّشهما ، فوجد معهما كتاباً إلى ملك الروم يعلمه فيه عامله على عمورية ، أنَّ جند المسلمين أحاطوا بعمورية في جمع كبير ، وقد ضاق به الموضع ، وأنه قد اعتزم على أن يركب ويحمل خاصَّة أصحابه على الدَّوابِّ التي في الحصن ، ويفتح الأبواب ليلاً على حين غرة ويخرج ومن معه ، فيحمل على المسلمين كائناً ما كان بعدها ، أُفلت فيه من أفلت ، وأصيب فيه مَنْ أُصيب ، حتى يتخلَّص من الحصار ، مهما كانت النتائج .

وفي صباح اليوم التالي أمر المعتصم بالرجلين الأسيرين ، فأداروهما حول عمورية ليحدِّدا مقر عاملها ومكان وجوده ، فقالا : يكون في هذا البرج . أمر المعتصم بالاحتياط في الحراسة ليلاً ونهاراً ، وشدَّدها ، وأمر أن تكون بين الجند تناوباً ، في كل ليلة يحضرها الفرسان ، يبيتون على دوابِّهم بكامل أسلحتهم ، تحسُّباً من أن يُفتح باب من أبواب عمورية ليلاً أو أن يتسلَّل من خلالها إنسان ، فلم يزل جند المعتصم يبيتون كذلك بالتناوب على ظهور الدَّوابِّ في السلاح ، ودوابهم بسروجها ، حتى انهدم السور ما بين البرجين ، من الموضع الذي وُصف للمعتصم أنه لم يحكم عمله . ودوَّى في فضاء عمورية صوت اهتز له جنباتها ، إثر تهدم جانب السور ، فطاف رجال بالجند المسلمين يبشرونهم أن الصوت الذي سُمعَ ، صوت السور قد سقط ، فطيبوا نفساً بالنصر .

وتنبه المعتصم إلى سعة الخندق المحيط بعمورية وطول سورها ، فدفع لكل جندي شاة ، لينتفع من لحمها ، وليحشو جلدها تراباً ، وطرحها في الخندق كي يتمكّن من الوصول إلى السور .

وفي صباح يوم جديد من الحصار بدأ القتال على الثُّلْمَة التي فُتحت في السور ، ولكن الموضع كان ضيقاً ، لم يمكنهم من اختراق الثُّلْمَةِ ، فأمر المعتصم بالمجانيق الكبار التي كانت متفرقة حول السور ، فجمع بعضها إلى بعض ، وجعلها تجاه الثُّلمة ، وأمر أن يُرمى ذلك الموضع لتتَّسع الثُّلمة ، ويسهل العبور ، وبقي الرَّمي ثلاثة أيام ، فاتَّسع لهم الموضع المنثلم . وكان الموكَّل بالموضع الذي انثلم من السور رجلاً من قوَّاد الرَّوم فقاتل وأصحابه قتالاً شديداً باللَّيل والنهار ، والحرب عليه وعلى أصحابه ولم يمدّه عامل مدينة عمورية ولا غيره بأحد من الروم ، فلما كان بالليل مضى إلى قومه وقال : إن الحرب عليَّ وعلى أصحابي ، ولم يبق معي أحد إلاَّ قد جُرح ، فصَيِّروا أصحابكم على الثُّلمة يرمون قليلاً ، وإلاَّ افتضحتم وذهبت المدينة ، فأبوا أن يمدُّوه بأحد ، وقالوا : سَلِمَ السور من ناحيتنا ، وليس نسألك أن تمدنا ، فشأنك وناحيتك ، فليس لك عندنا مدد ، فاعتزم وأصحابه على أن يخرجوا إلى المعتصم ، ويسألوه الأمان على أهلهم ، ويسلِّموا إليه الحصن بما فيه من المتاع والسلاح . فلما أصبح خرج فقال : إني أريد أمير المؤمنين ، فأوصله بعض الجند المسلمين إليه ، وأعطاه المعتصم ما أراد من أمان له ومن بجهته من الرجال ، ثم ركب حتى جاء فوقف حذاء البرج الذي يقاتل فيه عامل عمورية ، فصاح بعض الجند بالعامل ، هذا أمير المؤمنين ، فصاح الروم من فوق البرج : ليس العامل هاهنا ، فغضب المعتصم لكذبهم وتوعَّدهم ، فصاحوا : هذا العامل ، فصعد جندي على أحد السلالم التي هيِّئت أثناء الحصار ، وقال للعامل : هذا أمير المؤمنين فانزل على حكمه ، فخرج من البرج متقلِّداً سيفاً ، حتى وقف على البرج ، والمعتصم ينظر إليه ، فخلع سيفه من عنقه ، ودفعه إلى الجندي المسلم الذي صعد إليه ، ثم نزل ليقف بين يدي المعتصم ، فضربه المعتصم بالسوط على رأسه ، ثم أُمر به أن يمشي إلى مضرب الخليفة مهاناً ، فأوثق هناك ليعلن سقوط عمورية بيد المعتصم وجنده . وذلك بعد حصار دام خمسة وخمسين يوماً ، من سادس رمضان إلى أواخر شوال سنة ٢٢٣هـ . ثم أمر المعتصم بطرح النار في عمورية من سائر نواحيها فأُحرقت وهدمت ، وأحرق ما بقي بعد ذلك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بها الروم على شيء من حرب المسلمين . وعاد بعدها المعتصم بغنائم كبيرة وكثيرة جداً لا تحد ولا توصف ، منتصراً ظافراً ، رادّاً على ملك الروم فعلته ، كاسراً مخالبه التي تطاولت على زِبَطْرَة ، ومستجيباً لصيحة الهاشمية الحرَّة عندما صرخت «وامعتصماه» ، فخلَّصها وقتل الرومي الذي لطمها .

وكتب أبو تمام قصيدته المشهورة بمناسبة هذا الفتح العظيم لمدينة عمورية وقد كرر إلقاءها ثلاثة أيام أمام المعتصم ، وحوله المهنئون وعلية القوم ، حتى قال له المعتصم : لِمَ تجلو علينا عجوزك؟ ويجيب أبو تمام : حتى أستوفي مهرها يا أمير المؤمنين ، فأمر له بمئة وسبعين ألف درهم ، عن كل بيت منها ألف درهم .

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهنّ جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتحٌ تُفَتَّحُ أبواب السماء له ... وتبرُز الأرض في أثوابها القُشُب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... منك المنى حُفَّلاً معسولة الحلب
أبقيتَ جدَّ بني الإسلام في صَعَد ... والمشركين ودار الشرك في صَبَب
لقد تركتَ أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادَرتَ فيها بهيم الليل وهو ضحىً ... يشُلّه وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رَغِبت ... عن لونها وكأن الشمس لم تَغب
لو يعلم الكفر كم من أعصر كَمَنَت ... له العواقب بين السُّمر والقُضُب
تدبير معتصم بالله مُنتقم ... لله مرتقِب في الله مُرتَغِب
رمى بك الله برجيها فهدّمها ... ولو رمى بك غيرُ الله لم يُصب
لبَّيت صوتاً زبطرياً هَرَقْتَ له ... كأس الكرى ورُضابَ الخُرَّد العُرُب
أجبته معلناً بالسيف منصلتاً ... ولو أجبت بغير السيف لم تُجب
حتى تركتَ عمود الشرك منعفراً ... ولم تُعرّج على الأوتاد والطُّنُب
ولّى وقد ألجم الخطِّيُّ منطقَه ... بسكتة تحتها الأحشاء في صخب
والحرب قائمةٌ في مأزق لَجِج ... تجثو القيام به صُغراً على الرُّكَب

إلى آخر ما قاله أبو تمام في قصيدته العَصماء التي ما أن يقرأها المسلم حتى يشعر بنشوة الأيام الخالدة التي علا فيها راية الإسلام خفاقة فوق هامات الشرك .

المعتصم ومدعي النبوة

وتنبأ رجل في أيام المعتصم ، فلما حضر بين يديه قال :

أنت نبي؟ قال : نعم ، قال : وإلى من بعثت؟ قال : إليك .

قال : أشهد أنك لسفيه أحمق ، قال : إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم ، فضحك المعتصم وأمر له بشيء .

مشورة أدت للطلاق

وروى أبو بكر الصولي[1] عن إسحاق قال : كنا عند المعتصم ، فعرضت عليه جارية ، فقال : كيف ترونها؟ فقال واحد من الحاضرين : امرأتي طالق إن كان الله عز وجل خلق مثلها ، وقال الآخر : امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها ، وقال الثالث : امرأتي طالق . وسكت ، فقال المعتصم : إن كان ماذا؟ فقال : إذا كان لا شيء ، فضحك المعتصم حتى استلقى وقال : ويحك ما حملك على هذا؟ قال : يا سيدي هذان الأحمقان طلقا لعلة ، وأنا طلقت بلا علة .

وجبة للأسد

رأى المعتصم أسداً ، فقال لرجل قد أعجبه قوامه وسلاحه : أفيك خيرٌ؟ فعلم أنّه يريد أن يقدمه إلى الأسد ، فقال : لاً يا أمير المؤمنين ؛ فضحك .

المعتصم وتميم بن جميل

ما روي عن أحمد بن أبي دؤاد القاضي إنه قال : جيء بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيراً ، وكان قد خرج عليه فما رأيت رجلاً عرض عليه الموت فلم يكترث به سواه ، ثم دعا بالسيف والنطع ، فلما مثل بين يديه نظر إليه ، فأعجبه حسنه وقده ومشيه إلى الموت غير مكترث ، فأطال الفكر فيه ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله ، فقال : يا تميم! إن كان لك عذر فائت به .

فقال : أما إذ أذن أمير المؤمنين في الكلام فإني أقول : الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه . وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . يا

---

(١) أبو بكر الصولي محمد بن يحيى بن عبد الله ، نسبته إلى جده «صول تكين» ، الذي كان وأهله ملوكا بجرجان ، كان أحد العلماء بفنون الأدب ، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ومآثر الأشراف وطبقات الشعراء . توفي في البصرة سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م

أمير المؤمنين! جبر الله بك صدع الدين ولم بك شعث المسلمين ، وأخمد بك نار الباطل وأنار بك سبل الحق ، إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع القلوب ، وآيم الله لقد عظمت الجريمة ، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك ، وهو أشبه بك وأليق ثم أنشد يقول :

أرى المـــوت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظنـــي مـــن حيث ما أتلفت
وأكبـر ظنـــي أنـــك اليـــوم قاتلـــي ... وأي امرئٍ مما قضى اللـــه يفلـــت
ومن ذا الذي يدلـي بعـــذر وحجـــة ... وسيف المنايا بين عينيـه مصلـــت
يعز على الأوس بـن تغلـــب موقـــف ... يسيل عليه السيف فيه ويسكـــت
وما جزعي مـــن أن أمـــوت وإننـــي ... لأعلم أن المـــوت شـــيء مؤقـــت
ولكـــن خلفـــي صبيـــةً قد تركتهـــا ... وأكبادهـــم مـــن حســـرةٍ تتفتت
كأني أراهـــم حـــين أنعـــى إليهـــم ... وقـــد لطمـــوا حمر الوجوه وصوتوا
فإن عشـــت عاشوا في سرور ونعمـــة ... أذود الردى عنهم ، وإن مت موتـــوا

قال : فبكى المعتصم ثم قال : إن منَ البيان لسحراً ، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يا تميم ، كاد والله أن يسبق السيف العذل . قد غفرت لك الهفوة ووهبتك للصبية .

ثم عقد له ولاية على عمله ، وأعطاه خمسين ألف دينار ، انتهى . من زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام .

الواثق بالله

قال محمد الذي يقال له المهتدي بالله : كان أبي الواثق بالله[1] إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرنا في ذلك المجلس ، فبينما نحن عنده ذات يوم إذ أتي بشيخ مقيد فقال : ائذنوا لأبي عبد الله ، يعني ابن أبي دؤاد وأصحابه ، وأدخل الشيخ مقيداً فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فقال : لا سلم الله عليك .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين بئسما أدبك المؤدب ، قال الله تعالى : ﴿وإذا حييتم

(١) هو هارون الثاني الواثق بالله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد هو تاسع خلفاء العباسيين في العراق . ولد في بغداد سنة ٢٠٠ هـ . أمه أم ولد رومية اسمها قراطيس .

بتحية فحيوا بأحسن منْها أو رُدُّها﴾ . وأنت والله ما حييتني بها ولا بأحسن منها .

فقَال ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين . الرجل متكلم .

فقال الواثق : كلمه .

فقال للشيخ : ما تقول في القرآن؟ فقال الشيخ : لم تسألني ولي السؤال أسأله؟ فقال الأمير : سله .

فقال الشيخ لابن أبي دؤاد : ما تقول في القرآن؟ فقال ابن أبي دؤاد : مخلوق . فقال الشيخ : هذا شيء علمه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين والخلفاء الراشدون أم شيء؟ لا يعلمونه؟ فقال : شيء لا يعلمونه .

فقال : سبحان الله! شيء لا يعلمه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الصحابة ولا الخلفاء الراشدون وعلمته أنت .

قال : فخجل ، وقال : أقلني .

فقال : قد فعلت ، والمسألة بحالها .

قال : نعم .

قال : ما تقول في القرآن؟ فقال : مخلوق .

قال : هذا شيء علمه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم والخلفاء الراشدون أم لم يعلموه .

قال : علموه ولم يدعوا الناس إليه .

قال : أفلا وسعك ما وسعهم؟ قال : ثم قام أبي فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول : هذا شيء لم يعلمه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الراشدون وعلمته أنت . سبحان الله ، انتهى .

وذكر الحافظ أبو نعيم في حليته . قال الحافظ أبو بكر الآجري بلغني عن المهتدي رحمه الله ، أنه قال : ما قطع أبي . يعني الواثق ، إلا شيخ جيء به من المصيصة ، فمكث في السجن مدة ثم إن أبي ذكره يوماً فقال : علي بالشيخ ، فأتي به مقيداً ، فلما وقف بين يديه سلم عليه ، فلم يرد عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما سلكت بي أدب الله ولا أدب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله تعالى : ﴿وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ وأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برد السلام .

قال أبي ، وعليك السلام ، ثم قال لابن أبي دؤاد : سله؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا محبوس مقيد أصلي في الحبس بتيمم منعت الماء ، فمر بقيودي تحل ، ومر بماء أتوضأ وأصلي ، ثم سلني .

فأمر به فحلت قيوده وأمر له بماء فتوضأ وصلى . ثم قال لابن بي دؤاد : سله .

فقال الشيخ : المسألة لي ، فمره أن يجبني .

فقال : سل . فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد فقال له : أعن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه أشيء دعا إليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال : لا . قال : أفشيء دعا إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده؟ قال : لا . قال : أفشيء دعا إليه عمر بن الخطاب بعدهما؟ قال : لا . قال : أفشيء دعا إليه عثمان بن عفان بعدهم؟ قال : لا ، قال : أفشيء دعا إليه علي بن أبي طالب بعدهم؟ قال : لا . قال الشيخ : أفشيء لم يدع إليه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي تدعو أنت الناس إليه ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه ، فإن قلت علموه وسكتوا عنه توسعاً ، وسعنا وإياك من السكوت ، ما وسع القوم ، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت ، فيا لكع ابن لكع ، شيء يجهله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم ، وتعلمه أنت وأصحابك .

قال المهتدي : فرأيت أبي وثب قائماً ودخل الحجرة ، فجعل ثوبه في فيه وجعل يضحك ثم جعل يقول : صدق الشيخ ، إلى آخر ما تقدم ، وقال المهتدي : ما زلت أقول القرآن مخلوقٌ صدراً من خلافة الواثق حتى أقدم علينا أحمد بن دؤاد شيخاً من أهل الشام ، فأدخل الشيخ على الواثق مقيداً وهو جميل الوجه تام القامة ، حسن الشيبة ، فرأيت الواثق قد استحيا منه ورق له فما زال يدنيه ويقربه حتى قرب منه ، فسلم عليه الشيخ فأحسن السلام ودعا فأبلغ وأوجز فقال له الواثق : اجلس ، ثم قال : يا شيخ ناظر ابن أبي دؤاد على ما يناظرك .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ابن أبي دؤاد يقل ويصغر ، ويضعف عن المناظرة .

فغضب الواثق وأعاد مكان الرقة له غضباً ، وقال : أبو عبد الله بن أبي دؤاد يقل ويصغر ويضعف عن مناظرتك أنت .

قال الشيخ : هون عليك يا أمير المؤمنين ، ما بك ، وائذن لي في مناظرته .

فقال الواثق : ما دعوتك إلا للمناظرة .

فقال الشيخ : يا أحمد يا ابن أبي دؤاد إلام دعوت الناس ودعوتني إليه؟ فقال :

أن تقول : القرآن مخلوقٌ لأن كل شيء دون الله مخلوق .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تحفظ علي وعليه ما نقول .

فقال : أفعل . فقال الشيخ : يا أحمد ، أخبرني عن مقالتك هذه أواجبة داخلة في عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه ما قلت؟ قال : نعم . فقال الشيخ : أخبرني عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بعثه الله عز وجل إلى عباده ، هل ستر شيئاً مما أمره الله به في دينه .؟ فقال : لا . قال الشيخ : أفدعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي دؤاد فقال الشيخ : تكلم فسكت ، فالتفت الشيخ إلى الواثق فقال : يا أمير المؤمنين قل : واحدة .

فقال الواثق : واحدة .

فقال الشيخ : يا أحمد أخبرني عن الله عز وجل حين أنزل آخر القرآن على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» . أكان الله صادقاً في إكماله أم أنت الصادق في نقصانه ، فلا يكون كاملاً حتى يقال فيه بمقالتك هذه ، فيكون كاملاً .

فسكت ابن أبي دؤاد فقال الشيخ : أجب يا احمد ، فلم يجبه ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، قل : اثنتان .

فقال : اثنتان . فقال الشيخ : يا احمد أخبرني عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم جهلها .؟ فقال ابن أبي دؤاد : علمها . فقال : أفدعا الناس إليها؟ فسكت ابن أبي دؤاد . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين قل : ثلاثة .

فقال الواثق : ثلاثة . فقال الشيخ : يا أحمد ، أفاتسع لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما زعمت ، ولم يطالب أمته بها؟ قال : نعم : فقال الشيخ : واتسع لأبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم؟ فقال ابن أبي دؤاد : نعم . فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الواثق ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد قدمت أن أحمد يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة ، يا أمير المؤمنين ألم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، فلا وسع الله على من لم يتسع له منا ما اتسع لهم من ذلك .

فقال الواثق : نعم إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأبي بكر وعمر عثمان وعلي رضي الله عنهم ، فلا وسع

الله علينا ، ثم قال : اقطعوا قيد الشيخ . فلما قطع ضرب الشيخ بيده فأخذ القيد فوضعه في كمه ، فقال الواثق : لم فعلت هذا؟ فقال الشيخ : لأني نويت أن أقدم إلى من أوصي إليه إذا مت ، أن يجعله بيني وبين كفني ، حتى أخصم به هذا الظالم عند الله عز وجل يوم القيامة ، وأقول : يا رب سل عبدك هذا لم قيدني وروع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك علي .

وبكى الشيخ وبكى الواثق وبكينا ، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل وسعة مما ناله منه ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم إكراماً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إذ أنت رجل من أهله .

فقال الواثق : لي إليك حاجة .

فقال الشيخ : إن كانت ممكنة فعلت .

فقال الواثق : تقيم عندنا ينتفع بك فتياننا؟ فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، إن ردك إياي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم أنفع لك من مقامي عندك ، فقال : ولم ذلك؟ فقال : لأسير إلى أهلي وولدي فأكف دعاءهم عنك ، فقد خلفتهم على ذلك .

فقال الواثق : أفتقبل منا صلة تستعين بها على دهرك؟ فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، أنا غني وذو ثروة .

قال : أفتسألنا حاجةً .

قال : أو تقضيها؟ قال : نعم .

قال : تخلي سبيلي إلى السفر الساعة وتأذن لي .

قال : أذنت لك .

فسلم عليه الشيخ وخرج .

قال : صالح : فقال المهتدي بالله ، فرجعت عن هذه المقالة من ذلك اليوم .

الواثق بالله وابن أبي دؤاد

وقال أبو العيناء : ما رأيت أفصح لساناً ولا أصوب رأياً ولا أحضر حجة من ابن أبي دؤاد ؛ قال له الواثق : رفعت فيك رقعة فيها كيت وكيت ، فقال : ليس بعجيب أن أحسد بمنزلتي من أمير المؤمنين فيكذب علي ؛ قال : وزعموا أنك وليت القضاء رجلاً أعمى ، قال : بلغني أنه إنما عمي على بكائه على أمير المؤمنين المعتصم

فحفظت ذلك له وأمرته أن يستخلف ؛ قال : وفيها أنك أعطيت شاعراً ألف دينار ، قال : كان دونك ذلك ، وقد أثاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كعباً وسلم كعباً وقال في آخر : اقطعوا لسانه عني ، وهذا شاعر طائي مصيب محسن لو لم أدع إلا قوله فيك للمعتصم :

فاشدد بهارون الخلافة إنه ‏ ‏ سكن لوحشتها ودار قرار
ولقد علمت بأن ذلك معصم ‏ ‏ ما كنت تتركه بغير سوار

فقال الواثق : قد وصلته بخمسمائة دينار .

طلب الحاجات من حب الاتصال

حكى أبو مالك جرير بن أحمد بن أبي داود قال : قال الواثق يوماً لأبي تضجراً بكثرة حوائجه : يا أحمد قد اختلت بيوت الأموال بطلباتك للائذين بك والمتوسلين إليك ، فقال : يا أمير المؤمنين نتائج شكرها متصلة بك وذخائر أجرها مكتوبة لك ، وما لي من ذلك إلا عشق اتصال الأنس بعلو المدح فيك ، فقال : يا أبا عبد الله ، لا منعناك ما يزيد في عشقك ويقوي من همتك فينا ولنا .

حسن التأدب

أطال الجلوس يوماً عند الواثق حسينٌ الخادم ، فقال له : ألك حاجةٌ؟ قال : أمّا إلى أمير المؤمنين فلا ، ولكن إلى الله تعالى أن يطيل بقاءه ويديم عزّه .

رؤيا الواثق

قال صاحب كتاب نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق إن الواثق بالله لما رأى في المنام كأن السد الذي بناه ذو القرنين مفتوح ، أحضر سلاما الترجمان وقال له : اذهب فانظر إلى هذا السد وجئني بخبره وحاله وما هو عليه ، ثم أمر له بأصحاب يسيرون معه ، عددهم خمسون رجلا ، ووصله بخمسة آلاف دينار ، وأعطاه ديته عشرة آلاف درهم ، وأمر أن يعطي كل واحد من أصحابه الخمسين ألف درهم ورزق سنة ، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد . قال سلام الترجمان : فشخصنا من سامرا بكتاب الواثق إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية بالنظر إلى تنفيذنا من هناك ؛ فكتب لنا كتابا إلى ملك السرير وأنفذنا إليه . فلما وردنا عليه ، أشخصنا إلى ملك اللان .

فلما وصلنا إليه ، أشخصنا إلى صاحب فيلان شاه . فلما وردنا عليه «أرسلنا إلى ملك الخزر وهو» اختار لنا خمسة أدلاء يدلون على الطريق . فسرنا من عنده سبعة وعشرين يوما في تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض سوداء طويلة ممتدة كريهة الرائحة ، فشققناها في عشرة أيام . وكنا قد تزودنا لقطعها أشياء نشمها خوفا من أذى روائحها الكريهة . ثم انفصلنا عنها فسرنا مدة شهر في بلاد خراب قد درست أبنيتها ولم يبق منها إلا رسوم يستدل بها عليها . فسألنا من معنا عن تلك المدن ، فأخبرونا أنها المدن التي كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخربونها . ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي في شعبة السد وذلك في ستة أيام . وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية . وهناك مدينة يدعى ملكها خاقان بن أدكش ، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب ، فسألونا من أين أقبلنا ، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين الواثق بالله ، فعجبوا منا ومن قولنا أمير المؤمنين ثم سألونا عن أمير المؤمنين : أشيخ هو أم شاب؟ فقلنا : شاب ، فعجبوا أيضا . ثم قالوا : وأين يكون؟ قلنا : هو بالعراق بمدينة سر من رأى . فعجبوا أيضا من ذلك ، وقالوا : ما سمعنا هذا قط . فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم ومن علمه لهم؟ فقالوا : وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة العنق طويلة اليدين والرجلين ، لها في موضع صلبها حدبة ، «فعلمنا أنهم يصفون الجمل» قالوا : فنزل بنا وكلمنا بكلام فهمناه ، ثم علمنا شرائع الإسلام فقبلناها ، وعلمنا أيضا القرآن ومعانيه فتعلمناه وحفظناه . قال سلام : ثم خرجنا بعد هذا إلى السد لنبصره ، فسرنا عن المدينة نحوا من فرسخين ، فوصلنا إلى السد . فإذا جبل مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا ، وله في وسط هذا الفناء باب من حديد طوله خمسون ذراعا قد اكتنفه عضادتان ، عرض كل عضادة منهما خمسة وعشرون ذراعا . والظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب . وكله مبنى بلبن الحديد مغيب بالنحاس . وارتفاع العضادتين خمسون ذراعا ، وعلى أعلى العضادتين دروند حديد ، طوله مائة وعشرون ذراعا ، والدروند للعتبة العليا ، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار عشرة أذرع . ومن فوق الدروند بنيان متصل بلبن الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس الجبل ، وارتفاعه مد البصر . وفوقه شرافات حديد ، في طرف كل شرافة قرنتان تنثني أطراف كل واحدة منهما على الأخرى ، وللباب مصراعان مغلقان ، عرض كل مصراع خمسون ذراعا في ثخن خمسة أذرع ؛ وقائمتاهما في دوارة على قدر الدروند . وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ

ذراع في الاستدارة ؛ وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعا . وفوق القفل بخمسة أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف ، وله اثنتا عشرة دنداجة ، كل دنداجة منها كأغلظ ما يكون من دساتخ الهواوين ، معلق كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة المنجنيق . وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين الظاهر منها خمسة أذرع . وكلها مكتالة بالذراع السوادي . ورئيس ذلك الحصن يركب في كل جمعة مع عشرة فوارس ، مع كل فارس إرزبة حديد ، كل إرزبة خمسة أمنان فيضرب القفل بتلك الإرزبات في كل يوم ثلاثة مرات ليسمع من خلف الباب . فيعلم أن هناك حفظة ، وليعلم هؤلاء أن يأجوج ومأجوج لم يتحدثوا في الباب حدثا وإذا ضرب أصحاب الإرزبات القفل ، وضعوا آذانهم ليسمعوا ما وراء الباب فيسمعون من ورائه دويا يدل على أن خلفه بشرا . وبالقرب من هذا الموضع حصن يكون عشرة «فراسخ» في عشرة «فراسخ» . ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع ؛ وبين

هذين الحصنين عين ماء عذبة ، في أحد الحصنين آلة البناء التي بني بها السد من قدور الحديد ومغارف الحديد ؛ والقدور فوق ديكدانات الحصنين عين ماء عذبة ، في أحد الحصنين آلة البناء التي بني بها السد من قدور الحديد ومغارف الحديد ؛ والقدور فوق ديكدانات على كل ديكدان أربع قدور مثل قدور الصابون ؛ وهناك أيضا بقايا من لبن الحديد التي بنى بها السد وقد التصق بعضها ببعض من الصدإ ، وطول اللبنة ذراع ونصف في ارتفاع شبر .

قال سلام الترجمان : وقد سألنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رأوا أحدا من يأجوج ومأجوج قط ، فأخبرونا أنهم رأوا منهم «مرة» عددا فوق شرفات الردم ، فهبت عليهم ريح عاصفة ، فرمت منهم ثلاثة إلى ناحيتنا . وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفا .

قال سلام : فكتبت هذه الصفات كلها ، ثم انصرفنا مع الأدلاء من تلك الحصون فأخذوا بنا على ناحية خراسان . فسرنا إلى مدينة بختان ، إلى غريان ، إلى مدينة برساخان ، إلى انطرار ، إلى سمرقند ، فوصلنا إلى عبد الله بن طاهر ، ثم وصلنا إلى الري ، ثم رجعنا إلى سر من رأى بعد خروجنا عنها . فكان مغيبنا في سفرنا ثمانية وعشرين شهرا .

قال : فهذا جميع ما حدث به سلام .

المتوكل على الله[1]

حكى عنه أنه قال ذات يوم لأبي العيناء : ما أشد ما مر عليك في ذهاب عينيك؟ فقال : فقد رؤيتك يا أمير المؤمنين .

فاستحسن منه هذا الجواب وأمر له بجائزة نفيسة .

قال الجاحظ : ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده . فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني

دخل على موسى بن عبد الملك يوماً صاحب خزانة السلاح فقال له : قد تقدم أمير المؤمنين يعني المتوكل ليبتاع ألف رمح طول كل رمح أربعة عشر ذراعاً ، فقال : هذا الطول فكم يكون العرض؟ فضحك الناس ولم يفطن لما غلط فيه .

فهد للخليفة

كتب الخليفة المتوكل إلى أحد ولاته يطلب منه فهدا فكتب له الوالي يقول : نجوت عند مقام لا إله إلا الله وصلى الله على سيدنا محمد ، فديته إن كان عندي مما طلبته من الفهود وزن دانق ، لا فهد ولا نمر ، وتظن يا سيدي أني أبخل عليك بالقليل .

أحسنت إلى العصفور

رمى المتوكل عصفوراً بالبندق ، فلم يصبه ، وطار العصفور . فقال (ابن حمدون) الذي كان يرافقه : أحسنت يا أمير!

فقال له : أتهزا بي ؟! كيف أحسنت؟

قال : إلى العصفور!

(١) أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور عاش وفترة الخلافة خلفاً لأخية الواثق بالله وخلفه إبنه المُنتصر بالله . أُمّه أم ولد تركية اسمها «شجاع» .

بين المتوكل وابن حمدون

كان ابن حمدون[1] أخف الناس روحاً وأحلاهم دعابةً ، وكان المتوكل يستملحه . فقال يوماً : الزئبق من أين يجاء به؟ فقال ابن حمدون : من الشيز ، وأنا أعرف الناس بها . قال : قد وليتك إياها فاخرج إليها ، فضاقت به الدنيا ، وأنشده :

ولاية الشيز عزلٌ والعزل عنها ولاية
فولّني العزل عنها إن كنت بي ذا عناية

فضحك المتوكل وأعفاه . وذكر الصولي أن أخاه أحمد عمل له البيتين .

جزيرة القرود

قال عافية بن شبيب : لما دخل الجمّاز على المتوكل ، قال له : تكلّم ، فإنّي أريد أن أستبرئك ؛ فقال : له الجمّاز : بحيضة أو حيضتين؟ فضحك الجماعة . فقال له الفتح [بن خاقان] : قد كلّمت أمير المؤمنين فيك حتى ولاّك جزيرة القرود ؛ فقال الجمّاز : أفلست في السمع والطاعة أصلحك الله؟ فحصر الفتح وسكت ، فأمر له المتوكل بعشرة آلاف درهم ، فأخذها وانحدر ، فمات فرحاً بها .

الخطبة من بئر جولان

قال المتوكل يوما لجلسائه : أتدرون ما الذي نقم المسلمون من عثمان؟

قالوا : لا .

قال : أشياء ، منها أنه قام أبو بكر دون مقام الرسول بمرقاة ، ثم قام عمر دون مقام أبي بكر بمرقاة ، فصعد عثمان ذروة المنبر .

فقال رجل : ما أحد أعظم منّة عليك يا أمير المؤمنين من عثمان .

قال : وكيف؟ ويلك!

قال : لأنه صعد ذروة المنبر ، فلو أنه كلما قام خليفة نزل عمّن تقدّمه كنت أنت تخطبنا من بئر جلولاء .

فضحك المتوكّل ومن حوله .

---

(١) محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون ، أبو المعالي ، بهاء الدين البغدادي عالم بالأدب والأخبار . من أهل بغداد .

المتوكل ومدعي النبوة

تنبأ رجل في زمن المتوكل ، فلما حضر بين يديه قال له : أنت نبي؟ قال : نعم ، قال : فما الدليل على صحة نبوتك؟ قال : القرآن العزيز يشهد بنبوتي في قوله تعالى : إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وأنا اسمي نصر الله ، قال : فما معجزتك؟ قال : ائتوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بي ، فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته ، فقال الوزير : أما أنا فأشهد أنه نبي الله ، وإنما يعطي زوجته من لا يؤمن به . فضحك المتوكل وأطلقه .

وأتي بامرأة تنبأت في أيام المتوكل ، فقال لها : أنت نبية؟ قالت : نعم . قال : أتؤمنين بمحمد؟ قالت : نعم ، قال : فإنه صلى الله عليه وسلم قال : لا نبي بعدي ، قالت : فهل قال لا نبية بعدي ، فضحك المتوكل وأطلقها .

المتوكل وقطاطة

وركب المتوكل زلالاً ومعه قطاطة وعبادة المخنثان ، وكان قطاطة طويلاً جداً ؛ فجعل يغني إلى أن هبت ريح شديدة وثارت دجلة ، فأمسك عن الغناء . فقال له المتوكل : ما لك؟ قال : يا سيدي ؛ أفزعني ما أرى ؛ فرفع عبادة يده وصفعه ، وقال : يابن الفاعلة! تتوهم أن في دجلة ماءً يطولك .

بين المتوكل والفتح بن خاقان

ورأى الفتح بن خاقان(١) في لحية المتوكّل شيئا فلم يمسه بيده ، ولا قال له شيئا ، ولكنه نادى : يا غلام مرآة أمير المؤمنين .

فجيء بها حتى أخذ المتوكّل ذلك الشيء بيده .

(١) أبو محمد الفتح بن أحمد بن غرطوج ، هو وزير وأديب وشاعر ترعر في أحضان الدولة العباسية ، من أصول فارسية ، عينه المتوكل أميراً ونائباً لشؤون مصر وإفريقية . اتخذه المتوكل أخاً ، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله ، قتل مع المتوكل .

إسحاق الموصلي والمتوكل

قال أبو عبد الله أحمد بن حمدون النقيب : لقيت إسحاق بن إبراهيم الموصلي بعدما كف بصره فسألني عن أخبار الناس والسلطان فأخبرته ثم شكوت إليه غمي بقطع أذني فجعل يسألني ويعزيني ، ثم قال لي : من المتقدم اليوم عند أمير المؤمنين والخاص من ندمائه قلت : محمد بن عمر ، قال : ومن هذا الرجل وما مقدار أدبه وعلمه فقلت : أما أدبه فلا أدري ، ولكني أخبرك بما سمعت منه منذ قريب ؛ حضرنا الدار يوم عقد المتوكل لأولاده الثلاثة فدخل مروان بن أبي حفصة فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

بيضاء في وجناتها . . . ورد فكيف لنا بشمه فسر بذلك سروراً شديداً وأمر فنثر عليه بدرة دنانير وأن تلقط وتطرح في حجره وأمره بالجلوس وعقد له على اليمامة والبحرين ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت كاليوم ولا أرى أبقاك الله ما دامت السموات والأرض ، فقال محمد بن عمر : هذا بعد عمر طويل إن شاء الله ، فقال لي إسحاق : ويلك ، جزعت على أذنك ، رغمك قطعها لمَ حتى تسمع مثل هذا الكلام ولك لو إن لك مكوك آذان أيش كان ينفعك مع هؤلاء

وكان سبب قطع أذنه إن الفتح بن خاقان كان يعشق شاهك خادم المتوكل واشتهر الأمر فيه حتى بلغه ، وله في أشعار منها :

أشاهك ليلي مذ هجرت طويل ... وعيني دماً بعد الدموع تسيل
وبي منك والرحمن ما أطيقه ... وليس إلى شكوى إليك سبيل
أشاهك لو يجزى المحب بوده ... جزيت ولكن الوفاء قليل

وكان أبو عبد الله يسعى فيما يحبه الفتح فعرف المتوكل الخبر فقال : إنما أردتك وأدنيتك لتنادمني ليس لتفسد عليّ غلماني ، فأنكر ذلك وحلف يميناً حنث فيها فطلق كل حرة كانت وأعتق من كانت مملوكة ، ولزمه حج سنتين ، فكان يحج في كل عام ، قال : فأمر المتوكل بنفيه إلى تكريت فأقام بها ثم جاءه زرافة في الليل ، فلما دخل عليه قال : جئت في شيء ما كنت أحب أن أجيء في مثله ، قال : وما هو قال : قال أمير المؤمنين بقطع أذنك وقال : قل له لست أعاملك إلا كما يعمل الفتيان ، فرأى ذلك أسهل مما ظنه من القتل ، فقطع غضروف أذنه في خارج ولم يستقصه وجعله في كافور كان معه وانصرف .

المتوكل ومحمد بن عبد الله والجارية

ومما حكاه أبو القاسم علي بن محمد الذهبي عن أبي عبد الله النحوي ، قال : لما حج محمد بن عبد الله بن طاهر رأى في الطواف جارية في نهاية الحسن فسأل عنها ، فقيل : إنها لرجل من الأدباء قد رواها الأشعار والأخبار والنحو والعروض ، وقد أحسنت ضرب العود وطريق الغناء ، فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما قدم بها مدينة دار السلام شغف بها شغفاً شديداً وأخفى أمرها ، وما يجده منها تخوفاً من أمير المؤمنين المتوكل . وكان من شدة وجده بها يحتبس عندها أياماً لا يظهر للناس ، فيظنون أنه زمن وأمره معها مستور ، ففطن به سويد بن أبي العالية صاحب البريد ، وكان بينه وبين محمد منافرة ، فلم يجد ما يكيده به إلا أن كتب إلى المتوكل وهو نازل على أربعة فراسخ من بغداد ، كتاباً نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإن محمد بن عبد الله اشترى جارية بمائة ألف درهم ، فهو يصطبح معها ويغتبق زمانه كله معها ، وقد اشتغل بها عن النظر في أمور المسلمين وعن التوقيع في قصص المظلومين ، ولا يأمن أمير المؤمنين أن تخرب عليه بغداد مع كثرة ما فيها من الغوغاء فيتعب أمير المؤمنين في إصلاحها ، وقد أنهى ذلك المملوك إلى أمير المؤمنين ، أيده الله ، وهو أعلى رأياً والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما قرأ المتوكل الكتاب رفع رأسه إلى نرجس الخادم وقال له : امض الساعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وادخل عليه داره بغتة من غير إذن وانظر إلى ما يصنع؟ ثم خذ منه جاريته فلانة وائت بها من غير تأخير .

فمضى نرجس من ساعته ، وكان محمد قد اصطبح معها في ذلك اليوم ، فدخل عليهما نرجس من غير استئذان ، فلم يشعر محمد إلا وهو واقف عليه ، فتغير وجهه وانتقع لونه ، وفاضت عيناه وارتعدت فرائصه لعلمه أن نرجساً ما دخل عليه من غير إذن إلا وقد أضمر له السوء ، فقال له : يا نرجس ما الذي أقدمك؟؟! قال : أمير المؤمنين أمرني أن آخذ جاريتك هذه .

قال : يا نرجس هذا يوم قد حضر شره وغاب خيره ، وقد ترى ما نحن فيه ، وأنا لا أخالف ما أمر به أمير المؤمنين .

ثم أمر للخادم بكرسي فجلس عليه بعد أن امتنع ساعة وقال : إن مثلي لا يجلس مع مثلك ، ثم إن محمداً نظر إلى الجارية وبكى بكاء شديداً ، وقال لها : غني لأتزود منك .

فأخذت العود وغنت بصوت حزين تقول :

لله من لمعذبين رماهما بشماتة العذال والحساد
أما الرحيل فحين جد تحملت مهج النفوس به من الأجساد
من لم يبت والبين يصدع شمله لم يدر كيف تفتت الأكباد

ثم إنهما أعلنا بالبكاء والنحيب والشهيق ، فرحمهما الخادم ورق لهما حين عاين ما حل بهما . فقال : أيها الأمير ، إن رأيت أن أمضي وأدعكما على ما أنتما عليه وأتعلل عنكما لأمير المؤمنين فعلت .

فقال : يا نرجس ، من خلفه مثل أبي سويد كيف يمكنه التعلل ، ولكن ارفق بنا .

فقالت الجارية : والله يا سيدي لا ملكني غيرك أبداً ، ولئن دفعتني إليه لأقتلن نفسي .

فقال لها محمد : لو كان غير أمير المؤمنين لكان في ذلك أوسع حيلة ، ولقد وددت أن يأخذ مني أمير المؤمنين جميع ما أملك ويعزلني عن عملي ويبقيك علي ، ولكن هذا قضاء الله وقدره . ثم التفت إلى نرجس وقال : لقد شاهدت مني ومن هذه الجارية ما شهد قلبك علينا بالمحبة والمودة والألفة ، وليس يخفى عن علمك أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء . ومثلك من يصنع المعروف مع مثلي فخذها وامض بها إلى أمير المؤمنين ، وقل ما شئت مما يليق بمروءتك . ثم التفت إليها وقبلها وبكى وبكت وبكى نرجس . ثم أخذها وخرج وهي تبكي وتخمش خدها ووجهها . قالت : ثم حملني نرجس على بغلة أمير المؤمنين وسار حتى دخل على المتوكل . فلما رآه قال : ما وراءك يا نرجس؟ قال : ورائي يا أمير المؤمنين كل بلية . ثم إنه جلس بين يديه وقص عليه حالهما ولم يخف شيئاً .

فقال المتوكل : وكل هذا الوجد يجده محمد من هذه الجارية؟ فقال : يا أمير المؤمنين والذي خفي أكثر مما ظهر وما أظنه يعيش بعدها . فرق عليه قلب المتوكل وقال : يا نرجس ارجع بها إليه الساعة من وقتك ، هذا وأدركه قبل أن تزهق روحه ، وقد أمرت له بمائة ألف درهم ، ولها مع ذلك مثله ، وجعلت أمر بي سويد إليه يصنع به ما يشاء .

ثم كتب له توقيعاً بذلك ودفعه إلى نرجس ، فرجع الخادم بالجارية والتوقيع ولم يتمهل حتى دخل عليه فوجده عرياناً يتقلب على حصر سامان من شدة الكرب والوجد ، وقد أحدقت به الجواري يروحنه بالمراوح . فقال : أبشر يا محمد ، إن أمير

المؤمنين قد رد جاريتك عليك من غير أن يوقع نظره عليها ، وقد حكمك في أبي سويد .

ثم ناوله التوقيع بذلك ودخلت الجارية عليه ، فوثب إليها وعانقها وقبلها ساعة . ثم خرج فجلس على باب داره وبعث إلى أبي سويد ، فلما حضر دفع إليه التوقيع ، فلما قرأه قال : أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك ، وأن تهدم مني ركناً أنت شيدته ، وأن تضيع صنيعة اصطنعتها إلى مثلي ، فمثلي من هفا ومثلك من عفا .

ثم قام وقبل البساط فقال له محمد : لا أبدل نعمة الله كفراً ثم أمر به بخمسين ألف درهم فقالت الجارية : وأنا أيضاً أهب له خمسين ألف درهم مما وهبه لي أمير المؤمنين ، شكراً لله تعالى على ذلك .

ثم أقره على ما كان عليه ، وأمر أن يحمل المال بين يديه إلى منزله ، ورجع محمد والجارية إلى ما كانا عليه في أطيب عيش وأحسن حال متظاهراً بذلك غير مستتر ولا خائف

المعتضد بالله[1]

فراسة المعتضد

كان المعتضد بالله يوما جالسا في بيت يبنى له يشاهد الصنّاع ، فرأى في جملتهم غلاما أسود ، منكر الخلقة ، يصعد السلاليم مرقاتين مرقاتين ، ويحمل ضعف ما يحملونه ، فأنكر أمره فأحضره وسأله عن سبب ذلك ، فلجلج ، فقال لابن حمدون _وكان حاضرا :_أي شيء يقع لك في أمره؟

فقال : ومن هذا حتى صرفت فكرك اليه ، ولعلّه لا عيال له ، فهو خالي القلب .

قال : ويحك قد خمّنت في أمره تخمينا ما أحسبه باطلا . . اما أن يكون معه دنانير قد ظفر بها دفعة من غير وجهها ، أو يكون لصّا يتستر بالعمل في الطين .

فلاحاه ابن حمدون في ذلك ، فقال : عليّ بالأسود .

(١) أبو العباس عبد المجيد المعتضد بالله ، خليفة عباسي . بويع له بعد موت عمه المعتمد على الله وكان ، شجاعا مهيبا ظاهر الجبروت ، شديدا الوطأة على المفسدين . هو أول خليفة عباسي لم يكن والده خليفة من قبله حيث لم يتول والده طلحة الموافق الخلافة مثل أخوانه الثلاثة

فأحضر ، ونادى بالمقارع فضربه نحو مئة مقرعة وقرّره وحلف ان لم يصدقه ضرب عنقه وأحضر السيف والنطع .

فقال الأسود : لي الأمان .

فقال : لك الأمان الا ما يجب عليك فيه من حدّ .

فلم يفهم ما قال له ، وظنّ أنّه قد أمّنه فقال :

أنا كنت أعمل في أتاتين الآجر سنين وكنت منذ شهور هناك جالسا فاجتاز بي رجل في وسطه هميان فتبعته فجاء الى بعض الأتاتين ، فجلس وهو لا يعلم مكاني ، فحلّ الهيمان وأخرج منه دينارا فتأمّلته فاذا كلّه دنانير فثاورته وكتفته وسددت فاه ، وأخذت الهميان ، وحملت الرجل على كتفي وطرحته في نقرة الأتون وطيّنته ، فلما كان بعد ذلك أخرجت عظامه ، فطرحتها في دجلة والدنانير معي يقوى بها قلبي .

فأمر المعتضد من أحضر الدنانير من منزله ، وإذا على الهيمان مكتوب لفلان ابن فلان ، فنودي في البلدة باسمه ، فجاءت امرأته فقالت : هذا زوجي ولي منه هذا الطفل خرج في وقت كذا ومعه هميان فيه ألف دينار ، فغاب الى الآن .

فسلّم الدنانير اليها ، وأمرها أن تعتدّ ، وضرب عنق الأسود وأمر أن تحمل جثته الى الأتون .

قال المحسن : وبلغني أن المعتضد بالله قام في الليل لحاجة ، فرأى بعض الغلمان المردان قد نهضوا من ظهر غلام أمرد ، ودبّ على أربعته حتى اندّس بين الغلمان ، فجاء المعتضد فجعل يضع يده على فؤاد واحد بعد واحد الى أن وضع يده على فؤاد ذلك الفاعل ، فاذا به يخفق خفقانا شديدا ، فوكزه برجله فقعد واستدعى آلات العقوبة ، فأقرّه فقتله .

قال المحسن : وبلغنا عن المعتضد بالله أن خادما من خدمه جاء يوما فأخبره أنه كان قائما على شاطئ دجلة في دار الخليفة ، فرأى صيّادا وقد طرح شبكته ، فثقلت بشيء ، فجذبها فأخرجها فاذا فيها جراب ، وأنه قدّره مالا فأخذه وفتحه ، فاذا فيه آجر وبين الآجر كف مخضوبة بحنّاء . فأحضر الجراب والكف والآجر .

فهال المعتضد ذلك ، وقال : قل للصياد يعاود طرح الشبكة فوق الموضع وأسفله وما قاربه . قال : ففعل فخرج جراب آخر فيه رجل .

فطلبوا فلم يخرج شيء آخر ، فاغتمّ المعتضد وقال :

معي في البلد من يقتل انسانا ويقطع أعضاءه ويفرّقه ولا أعرف به؟ ما هذا ملك!

وأقام يومه كله ما طعم طعاما ، فلما كان من الغد أحضر ثقة له ، وأعطاه الجراب فارغا وقال له : صف به على كل من يعمل الجرب في بغداد ، فان عرفه منهم رجل ، فسله لمن باعه ، فاذا دلّك عليه ، فسل المشتري من اشتراه منه ولا تقر على خبره أحدا .

فغاب الرجل وجاء بعد ثلاثة أيّام ، فزعم أنه لم يزل يطلب في الدبّاغين وأصحاب الجرب الى أن عرف صانعه ، وسأل عنه فذكر أنه باعه لعطّار بسوق يحيى ، وأنه مضى الى العطّار وعرضه عليه ، فقال : ويحك ، كيف وقع هذا الجراب في يدك؟

فقلت : أو تعرفه؟

قال : نعم اشترى مني فلان الهاشمي منذ ثلاثة أيام عشرة جرب لا أدري لأي شيء أرادها وهذا منها .

فقلت له : ومن فلان الهاشمي؟

فقال : رجل من ولد علي بن ريطة من ولد المهدي يقال له : فلان عظيم ، الا أنه شر الناس وأظلمهم وأفسدهم للحوم المسلمين وأشدّهم تشوّقا الى مكائدهم ، وليس في الدنيا من ينهي خبره الى المعتضد خوفا من شرّه ولفرط تمكّنه من الدولة والمال .

ولم يزل يحدّثني وأنا أسمع أحاديث له قبيحة الى أن قال :

فحسبك أنه كان يعشق منذ سنين فلانة المغنية جارة فلانة المغنية ، وكانت كالدينار المنقوش وكالقمر الطالع في غاية حسن الغناء ، فساوم مولاتها فيها ، فلم تقاربه ، فلما كان منذ أيام بلغه أن سيدتها تريد بيعها لمشتر بذل فيها ألوف الدنانير ، فوجه اليها : لا أقلّ من أن تنفذيها اليّ لتودعني ، فأنفذتها اليه بعد أن أنفذ اليها جذورها لثلاثة أيّام ، فلما انقضت الأيام الثلاثة غصبها عليها وغيّبها عنها ، فما يعرف لها خبر ، وادّعى أنها هربت من داره . وقالت الجيران : انه قتلها ، وقال قوم : لا بل هي عنده . وقد أقامت سيدتها عليها المأتم وجاءت وصاحت على بابه وسوّدت وجهها ، فلم ينفعها شيء .

فلما سمع المعتضد سجد لله شكرا لله تعالى على انكشاف الأمر له ، وبعث في الحال من كبس على الهاشميّ وأحضر المغنّية ، وأخرج اليد والرجل الى الهاشمي ،

فلما رآهما امتقع لونه وأيقن بالهلاك واعترف ، فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية الى مولاتها من بيت المال ، وصرفها ، ثم حبس الهاشمي ، فيقال : انه قتله ، ويقال : مات في الحبس .

الأعرابي والمعتضد

دخل أعرابي على المعتضد فقال : يا أمير المؤمنين ، إن فلاناً العامل ظلمني ، قال : ومن فلان؟ قال : والله لا أدري اسمه ولكن في خده الأيمن خال أو ثؤلول أو أثر لطمة أو أثر حرق نار أو أثر مسمار أو في خده الأيسر . وكان له مرة غلام يقال له : جرير أو نجم إلا أن في اسمه طاء أو لام ، فضحك المعتضد ، وقال : كأنه موسوس؟ قال : سلني عما شئت حتى أجيبك ، قال : كم أصبع لك؟ قال : ثلاثة أرجل فأمر بإخراجه ، فقال : ما أقول لبنتي إذا دخلت وقد فتحت حجرها لأطرح فيه الجوز يوم العيد؟ فأمر المعتضد أن يحمل معه إلى منزله طعام وجائزة .

سياسية المعتضد

حكى ابن حمدون النديم ان الخليفة المعتضد العباسي كان قد شرط علينا انا اذا راينا منه شيئا ننكره نقول له . وإن اطلعنا على عيب واجهناه به .

فقلت له يوما : يا مولانا . في قلبي شيء أردت سؤالك عنه منذ سنين .

قال : ولم أخرته إلى اليوم؟

قلت : لاستصغاري قدري ولهيبة الخلافة .

قال : قل ولا تخف .

قلت : اجتاز مولانا ببلاد فارس فتعرض الغلمان للبطيخ الذي كان في تلك الأرض فأمرت بضربهم وحبسهم وكان ذلك كافيا ثم أمرت بصلبهم وكان ذنبهم لا يجوز عليه الصلب؟

فقال : أو تحسب أن المصلبين كانوا أولئك الغلمان؟

وبأي وجه ألقى الله تعالى يوم القيامة لو صلبتهم لأجل البطيخ؟ وإنما أمرت بإخراج قوم من قطاع الطريق

كان وجب عليهم القتل وأمرت أن يلبسوا أقبية الغلمان وملابسهم إقامة للهيبة في قلوب العسكر .

ليقولوا : إذا صلب أخص غلمانه على غصب البطيخ فكيف يكون على غيره؟ وكنت قد أمرت بتلثيمهم ، ليستتر أمرهم على الناس .

المكتفي بالله(١)

قال الحسين بن الحسن بن أحمد بن يحيى الواثقي ، قال : كان جدّي يتقلد شرطة بغداد للمكتفي بالله ، فعمل اللصوص في أيامه عملة عظيمة ، فاجتمع التجار وتظلموا الى المكتفي بالله ، فألزمه بإحضار اللصوص أو غرامة المال ، فتحيّر حتى كان يركب وحده ويطوف بالليل والنهار ، الى أن اجتاز يوما في زقاق خال في بعض أطراف بغداد ، فدخله فرأى على بعض أبواب دور الزقاق شوكة سمكة كبيرة ، وعظم الصلب ، وتقدير ذلك أن تكون السمكة فيها مئة وعشرون رطلا ، فقال لواحد من أصحاب المسالخ :

ويحك ، ما ترى عظام هذه السمكة كم تقدّر ثمنها؟

قال : دينار .

فقال : أهل هذا الزقاق لا تحمل أحوالهم شراء مثل هذه السمكة لأنه زقاق الى جانب الصحراء لا ينزله من معه شيء يخافه ، أو له مال ينفق منه مثل هذه النفقة ، وما هي الا بليّة يجب أن يكشف عنها .

فاستبعد الرجل هذا ، وقال : هذا فكر بعيد .

فقال : اطلبوا امرأة من الدرب أكلمها .

فدق بابا غير الباب الذي عليه الشوك واستسقى ماء ، فخرجت عجوز ضعيفة ، فما زال يطلب شربة بعد شربة وهي تسقيهم ، والواثقي من خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله ، وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك الى أن قال لها : فهذه الدار من يسكنها؟ وأومأ الى التي عليها عظام السمك .

فقالت : والله ما ندري على الحقيقة من سكّانها الا أن فيها خمسة شباب أعفار ، كأنهم تجار قد نزلوا منذ شهر لا نراهم يخرجون نهارا الا كل مدة طويلة ، وانا نرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعا ، وهم طول النهار يجتمعون فيأكلون

---

(١) أبو أحمد علي المكتفي بالله المعتضد بالله بن الموفق طلحة بن المتوكل العباسي . ابن المعتضد أبي العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل . وأمه أم ولد تركيه اسمها جيجك ولد سنة ٢٣٦هـ .

ويشربون ويلعبون بالشطرنج والنرد ، ولهم صبي يخدمهم ، واذا كان الليل انصرفوا الى دار لهم في الكرخ ، ويدعون الصبي في الدار يحفظها ، فاذا كان سحرا بليل جاؤوا ونحن نيام لا نعقل بهم وقت مجيئهم .

قال : فقطع الوالي استسقاء الماء ودخلت العجوز ، وقال للرجل : هذه صفة لصوص أم لا؟

فقال : توكلوا بحوالي الدار ودعوني على بابها .

وأنفذ في الحال واستدعى عشرة من الرجال ، وأدخلهم الى سطوح الجيران ، ودق هو الباب ، فجاء الصبي ففتح فدخل والرجال معه ، فما فاتهم من القوم أحد ، وحملهم الى مجلس الشرطة وقرّرهم ، فكانوا هم أصحاب الخيانة بعينها ، ودلوا على باقي أصحابهم فتبعهم الواثقي ، وكان يفتخر بهذه القصة .

الراضي بالله

حكى الصولي قال : كنت يوماً بين يدي أمير المؤمنين الراضي بالله إذ دخل عليه بعض الخدم برقعة دفعها صاحب الخبر الملازم لمجلس أبي عمر القاضي ، يذكر أن رجلاً أحضر خصماً للقاضي ، وادعى عليه مائة دينار ؛ فألزم القاضي الغريم اليمين ؛ إذ لم يجد الخصم بينة ؛ فأخذ الدواة وكتب بيتين فدفعهما إلى القاضي ، فأمر القاضي غلامه فأحضر مائة دينار ودفعها إلى الرجل ، والبيتان هما :

وإنــــي لــذو حلـــف كـــاذب إذا مـــا اضطررت وفي الأمر ضيق
وهـــل مـــن جنـــاح علـــى مسلـــم يدافـــع باللّـــه مـــا لا يطيـق

فعجب الراضي من الرجل وديانته ؛ لخلاصه من الحكم ؛ وعجب من كرم القاضي وحسن ما فعله ، ثم أمرني بالركوب إلى القاضي ومسألته في البحث عن صاحب البيتين وإحضاره إليه . فلم نزل أياماً حتى حصل لنا ، فجئنا به إلى دار السلطان ، فمر له بألف دينار وخمس خلع ومركوب حسن ، وأمره بملازمة الدار ؛ ثم قلده الأهواز وأعمالها .

الحجاج بن يوسف الثقفي

قال عبد الملك بن عمير(٦٤) : بينا نحن جلوس في المسجد الأعظم بالكوفة إذا أتانا آت فقال : هذا الحجاج بن يوسف(٦٥) ، قد قدم أميراً على العراق فاشرأب نحوه الناس ، وأفرجوا له إفراجه عن صحن المسجد ، فإذا نحن به يتبهنس في مشيته ، عليه عمامة خز حمراء ، منتكباً قوساً عربية ، يؤم المنبر ، فما زلت أرمقه ببصري حتى صعد المنبر ، فجلس عليه ، وما يحدر اللثام عن وجهه ، وأهل الكوفة حينئذ لهم حال حسنة ، وهيئة جميلة ، وعز ومتعة ، يدخل الرجل منهم المسجد ومعه عشرة أو عشرون من مواليه ، عليهم الخزور والفوهية ، وفي المسجد رجل يقال له : عمير بن ضابئ البرجمي ، فقال : لمحمد بن عمر التميمي ، هل لك أن أحصبه؟ قال : لا حتى أسمع كلامه ، فقال : لعن الله بني أمية! يستعملون علينا مثل هذا ، ولقد ضيع العراق حين يكون مثل هذا أميراً عليه ، والله لو كان هذا كله كلاماً ما كان شيئاً ، والحجاج ينظر يمنة ويسرة ، حتى غص المسجد بأهله ، فقال : يا أهل العراق! إني لا أعرف قدر اجتماعكم إلا اجتمعتم ، قال رجل : نعم- أصلحك الله- فسكت هنيهة لا يتكلم ، فقالوا : ما يمنعه من الكلام إلا العد والحصر ، فقام فحدر لثامه ، وقال : يا أهل العراق! أنا الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود .

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله فإني لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله ، والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى . ثم قال : والله يا أهل العراق ، إن أمير المؤمنين عبد الملك نثل كنانة بين يديه ، فعجم عيدانها عوداً عوداً ، فوجدني أمرّها عوداً ، وأشدها مكساً ، فوجهني إليكم ، ورماكم بي . يا أهل العراق ، يا أهل النفاق والشقاق

---

٦٤ . ابن سويد بن حارثة القرشي ، ويقال : اللخمي أبو عمرو ، ويقال : أبو عمر الكوفي الحافظ ، ويعرف بالقبطي . رأى عليا -رضي الله عنه- وأبا موسى الأشعري .حدث عن الصحابة وكبار التابعين ، وعمر دهرا طويلا ، وصار مسند أهل الكوفة .

٦٥ . أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ، قائد أموي ، داهية ، سفاك ، خطيب . ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته ، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره .

ومساوئ الأخلاق ، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة ، واضطجعتم في مناخ الضلال ، وسننتم سنن العي ، وأيم الله لألحونكم لحو العود ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، إني والله لا أحلق إلا فريت ، ولا أعد إلا وفيت ، إياي وهذه الزرافات ، وقال وما يقول ، وكان وما يكون ، وما أنتم وذاك؟ . يا أهل العراق! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرتم بأنعم الله ، فأتاها وعيد القرى من ربها ، فاستوسقوا واعتدلوا ، ولا تميلوا ، واسمعوا وأطيعوا ، وشايعوا وبايعوا ، واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإبذار والأهذار ، ولا مع ذلك النفار والفرار ، إنما هو انتضاء هذا السيف ، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف ، حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ، ويقيم له أودكم ، وصغركم ، ثم إني وجدت الصدق من البر ، ووجدت البر في الجنة ، ووجدت الكذب من الفجور ، ووجدت الفجور في النار ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير المؤمنين ، وقد أمرت لكم بذلك ، وأجلتكم ثلاثة أيام ، وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به ، ويستوفيه مني ، لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربن عنقه . ولينهبن ماله . ثم التفت إلى أهل الشام فقال : يا أهل الشام! أنتم البطانة والعشيرة ، والله لريحكم أطيب من ريح المسك الأزفر ، وإنما أنتم كما قال الله تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ والتفت إلى أهل العراق فقال : لريحكم أنتن من ريح الأبخر ، وإنما أنتم كما قال الله تعالى : ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾ . اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام : فقال القارئ : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله ، فسكتوا فقال الحجاج من فوق المنبر : «أسكت يا غلام» ، فسكت ، فقال : «يا أهل الشقاق ، ويا أهل النفاق ومساوئ الأخلاق . يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟ هذا أدب ابن أبيه؟ والله لئن بقيت لكم لأؤدبنكم أدباً سوى أدبِ ابن أبيه ، ولتستقيمن لي أو لأجعلن لكل امرئ منكم في جسده وفي نفسه شغلاً ، اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام» ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم فلما بلغ إلى موضع السلام صاحوا وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته ، فأنهاه ودخل قصر الإمارة .»

كيف ولد الحجاج

روي أن أم الحجاج ابن يوسف وهي الفارعة بنت همام . ولدته مشوهاً لا دبر له فثقب دبره ، وأبى أن يقبل ثدي أمه وغيرها فأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصور لهم في صورة الحرث بن كلدة ، فقال : ما خبركم؟ فقالوا : ولد ليوسف الثقفي من الفارعة ولد وقد أبى أن يقبل ثدي أمه فقال : اذبحوا له تيساً أسود والعقوه دمه ثم اذبحوا له أسود سالخاً ، وأولغوه من دمه واطلوا به وجهه ثلاثة أيام ففعلوا فقبل الثدي في اليوم الرابع فكان لا يصبر عن سفك الدم وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره .

الحجاج وأعرابي

رمى الحجاج حجراً بين يدي أعرابي ، وقال له :

أخبرني أذكر هو أم أُنثى ؟

فقال له الأعرابي : ارفع لي ذنبته وأخبرك !

الحجاج وخارجي

قال الحجاج لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن؟ قال : أمتفرقا كان فأجمعه . قال : أتقرأه ظاهرا؟ قال : بل أقرأه وأنا انظر إليه . قال :

أتحفظه؟ ، قال : أخشيت فراره فأحفظه . قال : ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال : لعنه الله ولعنك معه . قال : إنك مقتول فكيف تلقى الله؟

قال : ألقى الله بعملي وتلقاه أنت بدمي

الحجاج والفتى المحدث

وذكر أهل التواريخ أن الحجاج بن يوسف الثقفي سهر ليلة وعنده جماعة منهم خالد بن عرفطة فقال : يا خالد آتني بمحدث من المسجد . والناس إذ ذاك يطلبون المقام في المسجد . فانتهى إلى شاب قائم يصلي فجلس حتى سلم ثم قال : أجب الأمير .

فقال : أبعثك الأمير إلي قاصداً .

قال : نعم فمضى معه حتى انتهى إلى الباب فقال له خالد : كيف أنت ومحادثة الأمير .

قال : سيجدني كما يحب إن شاء الله تعالى .

فلما دخل عليه قال له الحجاج : هل قرأت القرآن؟ قال : نعم وقد حفظته .

قال : فهل تروي شيئاً من الشعر .

قال : وما من شاعر إلا وأروي عنه؟ قال : فهل تعرف من أنساب العرب ووقائعها؟ قال : لا يذهب عني شيء من ذلك .

فلم يزل يحدثه بكل ما أحب حتى إذا هم بالانصراف ، قال : يا خالد ، مر للفتى ببرذون وغلام ووصيفة وأربعة آلاف درهم .

فقال الفتى : أصلح الله الأمير بقي من حديثي أظرفه وأعجبه فأعاده الحجاج إلى مجلسه وقال : حدثني .

فقال : أصلح الله الأمير هلك والدي وأنا طفل صغير فنشأت في حجر عمي وله ابنة بسني ، وكان في التصابي من الصبا وما كنا فيه أعجوبة ، حتى إذا بلغت وبلغت تنافس الخطاب فيها وبذلوا فيها أموالاً لجمالها وكمالها ، فلما رأيت ذلك خامرني السقم ، وضنيت ورميت على الفراش ثم عمدت إلى خابية عظيمة فملأتها رملاً وصخراً وقبرت رأسها ودفنتها تحت فراشي ، فلما تم على ذلك أيام بعثت إلى عمي فقلت : يا عمي ، إني كنت أريد السفر فوقعت على مال عظيم وخفت أن أموت ولا يعلمه أحد فإن حدث بي أمر فأخرجه وأعتق عني عشر نسمات واحجج عني عشر حجج ، وجهز عني عشر رجال بخيولهم وأسلحتهم ، وتصدق عني بألف دينار ، ولا تبال يا عم! فإن المال كثير .

فلما سمع عمي مقالتي أتى امرأته فأخبرها بقولي فما كان بأسرع من أن أقبلت بجواريها حتى دخلت علي فوضعت يدها على رأسي ثم قالت : والله يا ابن أخي ما علمت بسقمك وما حل بك حتى أخبرني أبو فلان الساعة . وأقبلت تلاطفني وتعالجني بالأدوية وحملت لي لطائف ، وردت الخطاب عن ابنتها ، فلما رأيت ذلك تحاملت ثم بعثت إلى عمي أن الله عز وجل قد أحسن إلي وعافاني فابتغ لي جارية من خصالها وكمالها كيت وكيت ، ولا يسألونك شيئاً إلا أعطيته ، فقال : يا ابن أخي ما يمنعك من ابنة عمك؟ فقلت : هي من أعز خلق الله تعالى علي غير أني قد خطبتها قبل ذلك فامتنعت .

قال : كلا ، إن الامتناع كان من قبل أمها ، وهي الآن قد سمحت ورضيت بذلك .

فقلت : شأنك .

فرجع إلى امرأته فأخبرها بقولي ، فجمعت عشيرتها فزوجوني إياها فقلت : عجل علي بابنة عمي كيف شئت ثم أريك الخابية . فأهديت إلي ، ولم تدع شيئاً يصنع بأشراف النساء إلا فعلته . ثم زفت ابنتها علي وأحضرتها بكل ما وجدت إليه سبيلاً ، وأخذ عمي متاعاً من التجار بعشرة آلاف درهم ، وكان يأتينا في كل صباح من قبل أبويها لطائف وتحف مدة . فلما كان بعد ذلك بأيام أتاني عمي وقال : يا ابن أخي ، إنا قد أخذنا من التجار متاعاً بعشرة آلاف درهم ، وليسوا صابرين على حبس الثمن .

قلت : شأنك والخابية .

فمر مسرعاً حتى جاء بالرجال والحبال فاستخرجها وحملها ، ومر مسرعاً بها إلى منزله ، فلما فتحها كان فيها ما علمت ، فما كان بأسرع من أن جاءت أمها بجواريها فلم تدع في منزلي كثيراً ولا قليلاً إلا حملته ، فبقيت مهاناً على الأرض وجفتنا كل الجفاء ، فهذا حالي ، أصلح الله الأمير ، فأنا من خجلي وضيق صدري آوي إلى المساجد .

فقال الحجاج : يا خالد ، مر للفتى بثياب ديباج وفرس أرمنية وجارية وبرذون وغلام وعشرة آلاف درهم . وقال : يا فتى اغد إلى خالد غداً حتى تستوفي منه المال .

فخرج الفتى من عند الحجاج ، قال : فلما انتهيت إلى باب داري سمعت ابنة عمي تقول : ليت شعري ما أبطأ بابن عمي ، أقتل أم مات أم عرض له سبع؟

قال : فدخلت عليها وقلت : يا ابنة عمي أبشري وقري عيناً فإني أدخلت على الحجاج فكان من القصة كيت وكيت . وحكيت لها ما كان من أمري ، فلما سمعت الفتاة مقالتي لطمت وجهها وصاحت ، فسمع أبوها وأمها وأخواتها صراخها فدخلوا عليها وقالوا لها : ما شأنك؟ فقالت لأبيها : لا وصل الله رحمك ولا جزاك عني وعن ابن أخيك خيراً جفوته وضيعته حتى أصابته الخفة وذهب عقله اسمع مقالته .

فقال العم : يا ابن أخي ما حالك؟ فقلت : والله ما بي من بأس إلا أني دخلت على الحجاج وذكر له من أمره ما كان وأنه أمر له بمال جزيل .

فقال العم لما سمع مقالته : هذه مرة صفراء ثائرة فباتوا يحرسونه تلك الليلة فلما أصبحوا بعثوا إلى المعالج فجعل يعالجه ويسعطه مرة ويسهله أخرى ، فيقول الفتى : والله ما بي من بأس وإنما أدخلت على الحجاج فكان كيت وكيت . فلما رأى الفتى أن ذكر الحجاج لا يزيده إلا بلاء كف عنه وعن ذكره ثم قال له : ما تقول في الحجاج؟

قال : ما رأيته . ثم خرج المعالج فقال لهم قد ذهب عنه الأذى ولكن لا تعجلوا بحل قيده فبقي الفتى مقيداً مغلولاً .

فلما كان بعد أيام ذكره الحجاج فقال : يا خالد ما فعل الفتى؟ فقال : أصلح الله الأمير ما رأيته منذ خرج من حضيرة الأمير .

قال : فابعث إليه أحداً .

قال : فبعث إليه خالد حرسياً ، فمر الحرسي على عم الفتى فقال له : ما فعل ابن أخيك؟ فإن الحجاج يطلبه .

قال : إن ابن أخي لفي شغل عن الحجاج قد ابتلى ببلاء في عقله .

قال : لا أدري ما تقول ، لا بد من الذهاب به الساعة .

فدخل عليه العم فقال : يا ابن أخي ، إن الحجاج قد بعث في طلبك أفأحلك؟ قال : لا ، إلا بين يديه فحمل في قيوده وغله على ظهور الرجال حتى أدخل على الحجاج . فلما نظره من بعد جعل يرحب به حتى انتهى إليه فكشف قيده وغله وقال : أصلح الله الأمير ، إن آخر أمري أعجب من أوله ، وحدثه بحديثه فعجب الحجاج وقال : يا خالد ، أضعف للفتى ما كنا قد أمرنا له ، فقبض المال أجمع وحسن حاله ولم يزل مسامراً للحجاج حتى مات . .

تولية الحجاج العراق

روي أنه لما ولي الحجاج الحرمين الشريفين حظي عنده إبراهيم بن محمد بن طلحة(١) فلما أراد الحجاج الرجوع إلى الشام إلى عبد الملك بن مروان ، وفد معه إبراهيم بن محمد بن طلحة وقال : أتيتك برجل الحجاز في الشرف والأبوة والفضل والمروءة يا أمير المؤمنين ، مع ما هو عليه من حسن الطاعة وجميل المناصحة ، والله لم يكن في الحجاز له نظير ، فبالله عليك يا أمير المؤمنين ، إلا فعلت معه من الخير ما هو مستحقه؟ فقال عبد الملك : من هو يا أبا محمد؟ قال له : إبراهيم بن محمد بن طلحة .

قال : يا أبا محمد لقد ذكرتنا بحق واجب ائذن له في الدخول .

(١) إبراهيم بن محمد بن طلحة تابعي وأحد رواة الحديث الشريف ، أبوه محمد بن طلحة بن عبيد الله وجده هو أحد العشرة المبشرين بالجنة طلحة بن عبيد الله استشهد أبوه مع جده في معركة الجمل .

فلما دخل على عبد الملك أمر بجلوسه في صدر المجلس ثم قال : إن أبا محمد الحجاج ذكر لنا ما نعرفه من كمال مروءتك وحسن نصيحتك ، فلا تدع في صدرك حاجة إلا أعلمتنا بها حتى نقضيها لك ولا نضيع شكر أبي محمد الحجاج فيك .

قال إبراهيم : إن الحاجة التي نبغي بها وجه الله تعالى والتقرب إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القيامة نصيحة أمير المؤمنين . قال : قل! قال : لا أقولها وبيني وبينك ثالث .

قال : ولا صديقك الحجاج؟ قال : لا .

قال : قم .

فقام خجلاً وهو لا يعرف أين تطأ رجله ، فلما مضى قال له : هات نصيحتك .

فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، وليت الحجاج الحرمين الشريفين وفيهما من تعرف من أولاد المهاجرين والأنصار وصحبة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ما تعلمه من ظلمه وفسقه وجوره وبعده من الحق وقربه إلى الباطل ، يسومهم الخسف ويطؤهم بالعسف ، فليت شعري أي جواب أعددته لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إذا سألك الله في عرصات القيامة عن ذلك؟ فبالله عليك يا أمير المؤمنين ، إلا عزلته وادخرتها قربة إلى الله تعالى .

فقال عبد الملك : لقد ظن الحجاج الخير بغير أهله ، ثم قال : يا إبراهيم! قم .

فقمت على أنحس حال وخرجت من المجلس ، وقد اسودت الدنيا في وجهي فتبعني حاجبه وقبض علي زندي وجلس بي في الدهليز ، ثم دعا عبد الملك بالحجاج . فدخل فمكث طويلاً فما شككت إلا أنهما يتشاوران في قتلي . ثم دعاني فقمت ودخلت فوافاني الحجاج خارجاً فعانقني ، وقال : جزاك الله عني خيراً في هذه النصيحة ، أما والله لئن عشت لأرفعن قدرك .

وتركني وخرج ودخلت وأنا أقول : يهزأ بي ، وهو معذور ، فدخلت على عبد الملك فأجلسني مجلسي الأول ثم قال لي : قد علمت صدقك وقد عزلته عن الحرمين ووليته العراق وأعلمته أنك استقللت له الحجاز واستدعيت له العراق ، وأنك تطلب له الزيادة في الأعمال وهو يظن أنك السبب في توليته العراق ، وقد تهلل وجهه فرحاً لذلك ، فسر معه أينما توجه يولك خيراً ، ولا تقطع نصيحتك عنا والله أعلم .

الحجاج وهند بنت النعمان

وحكي أن هند بنت النعمان(١) كانت أحسن نساء زمانها . فوصف للحجاج حسنها فخطبها وبذل لها مالاً جزيلاً وتزوج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ودخل بها .

ثم أنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة . وكانت هند فصيحة أديبة ، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة . ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله ، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة ، وتقول :

وما هند إلا مهرةٌ عربيةٌ سلالة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلاً فلله درها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

فلما سمع الحجاج كلامها انصرف راجعاً ولم يدخل عليها . ولم تكن علمت به ، فأراد الحجاج طلاقها ، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم ، وهي التي كانت لها عليه ، وقال : يا ابن طاهر ، طلقها بكلمتين ، ولا تزد عليهما . فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها : يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت . وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله .

من أخبار الحجاج

نظر الحجّاج يوما على المائدة إلى رجل وجأ عنق رجل آخر ، فدعا بهما ، فقال للواجئ : علام صنعت؟ فقال : غصّ بعظم فخفت أن يقتله ، فوجأت عنقه فألقاه ، فسأل الآخر فقال : صدق ، فدعا بالطبّاخ فقال له : أتدع العظام في طعامك حتى يغصّ بها؟ فقال : إنّ الطعام كثير ، وربما وقع العظم في المرق فلا يزال . قال : تصب المرق على المناخل . فكان يفعل .

الحجاج على المنبر

ورووا أن الحجاج قال على المنبر يوما : تزعمون أنّا من بقايا ثمود ، وقد قال الله عز وجل : وَثَمُودَ فَما أَبْقى .

(١) هند بنت النعمان بن بشير الأنصارية . شاعرة فصيحة وأديبة بارزة كانت ذات حسن وجمال كانت عند روح بن زنباع . ثم وصف للحجاج حسنها فأنفذ إليها يخطبها واجزل لها العطاء وشرط لها مئتي الف درهم قيمة صداقها فزُوجت له وهي كارهة .

مالك بن دينار(١) قال : ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج .

وجد الحجاج على منبره مكتوباً : «قل تمتع بكفرك إنك من أصحاب النار»
فكتب تحته : «قل موتوا بغيضكم إن الله عليم بذات الصدور»

بين المهلب والحجاج

أوفد المهلب(٢) كعب بن معدان الأشقري ، حين هزم عبد ربه الأصغر وأجلي قطرياً حتى أخرجه من كرمان نحو أرض خراسان ، فقَالَ له الحجاج : كيف كانت محاربة المهلب للقوم؟ كان إذا وجد الفرصة سار كما يسور الليث ، وإذا دهمته الطحمة راغ كما يروغ الثعلب ، وإذا ماده القوم صبر صبر الدهر ، قَالَ : وكيف كان فيكم؟ قَالَ : كان لنا منه إشفاق الوالد الحدب ، وله منا طاعة الولد البر ، قَالَ : فكيف أفلتكم قطريٌّ؟ قَالَ : كادنا ببعض ما كدناه به ، والأجل أحصن جنّة وأنفذ عدّة ، قَالَ : فكيف اتبعتم عبد ربه وتركتموه؟ قَالَ : آثرنا الحد عَلَى الفل ، وكانت سلامة الجند أحب إلينا من شجب العدو ، فقَالَ له الحجاج : أكنت أعددت هذا الجواب قبل لقائي؟ قَالَ : لا يعلم الغيب إلا الله .

قال الحجاج للمهلب وهو يماشيه : أأنا أطول أم أنت؟
قال : الأمير أطول ، وأنا أبسط قامة ، أراد الطول وهو الفضل .

يقر بعيوبه

سأل عبد الملك الحجّاج ، عَنْ عيبه فتلكأ عليه ، فأبى إلا أن يخبره ، فقَالَ : أنا

(١) علم العلماء الأبرار ، معدود في ثقات التابعين ، ومن أعيان كتبة المصاحف ، كان من ذلك بلغته . ولد في أيام ابن عباس ، وسمع من أنس بن مالك ، فمن بعده ، وحدث عنه ، وعن الأحنف بن قيس ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، والقاسم بن محمد ، وعدة .
(٢) المهلّب بن أبي صفرة الأزدي وكنيته أبو سعيد ، هو من ولاة الأمويين على خراسان .

حديدٌ حسودٌ حقودٌ لجوج ذو قسوة ، فبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان ، فقَالَ : لقد انتحل الشّر بحذافيره ، والمروق من جميع الخير بزوبره ، ولقد تأنق فِي ذم نفسه ، وتجود فِي الدلالة عَلَى لؤم طبعه ، وفي إقامة البرهان عَلَى إفراط كفره ، والخروج من كنف ربّه ، وشدّة المشاكلة لشيطانه الذي أغواه

عجة الحجاج

أكل الحجاج مع رجل بيضاً ، فأقبل يأكل المح ويرمي إليه بالبياض ؛ فقال الرجل : أيها الأمير ؛ عدل العجة .

الردود المنجية

ذكروا ، أنّه لما قتل الحجّاج عبد الرّحمن بن الأشعث[(١)] ، وأسر من معه ، أمر بضرب رقابهم . فقال رجلٌ منهم : أيّها الأمير إنّي أتيت إليك بشيء . قال : وما هو؟ قال : إنّي كنت جالساً يوماً عند عبد الرّحمن فأخذ في عرضك ، فناضلته عنك . قال : ومن يشهد لك بذلك؟ فقال رجلٌ من الجّماعة يشهد له بما قال فقال : اتركوه . ثمّ قال للرّجل : أفلا كنت مثله؟ قال له : بغضي فيك لم يدعني أتكلّم فيك بمثل ذلك . فقال : واتركوا هذا لصدقه . ثمّ قام رجلٌ آخر فقال : أيّها الأمير لئن كنّا أسأنا في الخطأ لما أحسنت في العفو . فقال الحجّاج : أفٍّ لهذه الجّيف ، أما والله لو كان فيكم من يتكلّم والله ما قتل منكم أحد .

الرجل الشكور

حدّث قُتيبة بن مسلم[(٢)] قال : أُتِي الحجاج بن يوسف بقوم كانوا قد خرجوا عليه ، فأمر بقتلهم وبقي منهم واحد ، فأقيمت الصلاة ، فقال لي الحجاج : ليكن

(١) عبد الرحمن بن محمد الكندي كان قائداً عسكرياً أموياً من أهل الكوفة وأشرافها وصاحب أعنف الثورات ضد الدولة الأموية بدأ عبد الرحمن كأي قائد عسكري حليف لبني أمية وضم عددا كبيراً من البلدان لصالح الدولة الأموية ولم تكن أسباب خروجه دينية على الإطلاق

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي قائد إسلامي شهير قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد أسيا الوسطى في القرن الأول الهجري .

عندك الليلة وتأتي به إلينا غداً لأقتله . فخرجتُ والرجل معي ، فلما صرنا في الطريق قال الرجل لي : هل لك في خير؟ قلت : وما هو؟ قال : إن عندي ودائع للناس ، وإن صاحبك لقاتلي ، فهل لك أن تُخْلي سبيلي لأودّع أهلي وأعطي كلَّ ذي حق حقّه ، وأوصي بما عليّ ولي ، والله تعالى كفيل لي أن أرجع إليك بُكْرَة . فتعجّبتُ من قوله وضحكت ، فأعاد عليّ القولَ وقال : يا هذا ، الله كفيل أن أعود إليك . وما زال يلحّ إلى أن قلت : اذهب! فلما توارى عني كأنني انتبهت ، فقلت : ما صنعتُ بنفسي؟! ثم أتيت أهلي فباتوا بأطول ليلة . فلما أصبحنا إذا برجل يقرع الباب ، فخرجت فإذا به . فقلت : رجعتَ؟! قال : جعلتُ الله كفيلاً ولا أرجع! فانطلقت ، فلما بصر بي الحجاج قال : أين الأسير؟ قلت : بالباب ، أصلح الله الأمير . فأحضرتُه وقصصتُ على الحجاج القصة ، فجعل يردّد نظره فيه ، ثم قال : وهبتُه لك . فانصرفتُ به . فلما خرج من الدَار قلت له : اذهب أين شئتَ . فرفع بصره إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد . فما شكرني ولا قال لي أحسنتَ ولا أسأت . فلما انصرف قلت في نفسي : مجنونٌ ورب الكعبة! فلما كان في اليوم الثاني جاءني وقال : يا هذا ، جزاك الله عني أفضل الجزاء . والله ما ذهب عني أمس ما صنعتَ ولكني كرهتُ أن أشْرِكَ في حمد الله أحدا .

الحجاج والحجام

احتجم الحجّاج ذات يوم ، فلما ركّب المحاجم على رقبته قال له : أُحبّ أيها الأمير أن تخبرني بخبرك مع ابن الأشعث وكيف عصا عليك فقال له : لهذا الحديث وقت آخر ، وإذا فرغتَ من شأنك حدَّثتك . فأعاد الحجّام مسألته وكرّرها ، والحجّاج يدفعه ويعده ويحلف له على الوفاء له . فلما فرغ ونزع المحاجم عنه وغسل الدم ، أحضر الحجّام وقال له . إنّا وعدناك بأن نحدّثك حديث ابن الأشعث معنا ، وحلفنا لك ، ونحن محدِّثوك . ثم نادى : يا غلام ، السِّياط! فأُتي بها . فأمر الحجاج بالحجام فجُرِّد ، وعَلَتْه السياط ، وأقبل الحجاج يقصّ عليه قصة ابن الأشعث بأطول حديث . فلما فرغ استوفى الحجامُ خمسمائة سوط ، فكاد يتلف . ثم رفع الضرب وقال له : قد وفّينا لك بالوعد ، وأيّ وقت أحببت أن تسأل خبرنا مع غير ابن الأشعث على هذا الشرط أجبناك!

قوة الجواب وغيظ الحجاج

سأل الحجاج جمع في مجلسه فقال : كيف ترون قبتي هذه وبناؤها ؟

فقالوا :أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة قليل عيبها كثير خيرها ، قال لم لا تخبروني بنصح ؟ قالو لا يصفها لك إلا الغضبان بن الأشعث وهو في سجنك . . .فبعث إلى الغضبان فأحضره وقال له :كيف ترى قبتي هذه وبناءها ؟

قال :أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك ، لا لك ولا لولدك ، لا تدوم لك ، ولا يسكنها وإرثك ، ولا تبقى لك ، وما أنت لها بباق

فقال الحجاج : قد صدق الغضبان ، ردوه الى السجن

فلما حملوه قال ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾

فقال : أنزلوه ، فلما أنزلوه قال ﴿رب انزلني منزلا مباركا وانت خير المنزلين﴾

فقال : اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض قال :

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى﴾

فقال جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول «بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم﴾

فقال الحجاج : ويلكم اتركوه فقد غلني دهاءً وخبثا . ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلى سبيله .

إنجابك من أعظم الذنوب

عرض على الحجاج يوما أسرى من المسلمين لقتلهم ، فقال : من أقر أنه كافر تركناه ومن لم يقر قتلناه .

فجاءه شيخ ، فقال له : أكافر أنت أم مسلم ؟قال الشيخ : أتخادعني عن نفسى يا حجاج؟ والله لو كان هناك شيء أعظم من الكفر لرضيت به ، فضحك الحجاج وعفى عنه .

ثم عرض عليه رجل فساله الحجاج : أكافر أنت أم مسلم؟ فقال الرجل : على دين إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . فأمر به فقتلوه .

ثم جاءه رجل آخر فعرض عليه نفس السؤال فقال له : على دين أباك يوسف الثقفي ، فقال الحجاج : والله لقد كان صواما قواما ، وعفا عنه .

فجاءه الرجل بعد ذلك وقال له : عندما سألت صاحبي عن دينه قال لك :

على دين إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، فقتلته .

وعندما سألتني قلت لك : على دين أباك ، فقلت أما والله لقد كان صواما قواما ،فعفوت عني . . . والله لو لم يكن لأبيك ذنب غير أنه أنجبك لكفاه .

يأتمنه على سره

حُكِي أن الحجاج خرج يوما متنزها ، فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه ، فإذا هو بشيخ من بني عجل ،

فقال له : من أين أيها الشيخ ؟

قال : من هذه القرية .

قال : كيف ترون عمالكم ؟

قال : شر عمال ؛ يظلمون الناس ، ويستحلون أموالهم .

قال : فكيف قولك في الحجاج ؟

قال : ذاك ، ما ولى العراق شر منه ، قبحه الله ، وقبح من استعمله

قال : أتعرف من أنا ؟

قال : لا . قال : أنا الحجاج

قال : جُعلت فداك

أو تعرف من أنا؟

قال : لا .

قال : فلان بن فلان ، مجنون بني عجل ، أصرع في كل يوم مرتين .

قال : فضحك الحجاج منه ، وأمر له بصِلة

أطعمه وأحياه

أتى الحجاج برجل ليقتله وبيده لقمة ، فقال : والله لا أكلتها حتى أقتلك .

قال : أو خير من ذلك ، تطعمنيها ولا تقتلني ، فتكون قد بررت في يمينك ومننت علي .

فقال : ادن مني . فأطعمه إياه وخلاه .

العفو لحسن البيان

وأتي الحجاج برجل من الخوارج ، فأمر بضرب عنقه ، فاستنظره يوما ، فقال : ما تريد بذلك؟

قال : أؤمل عفو الأمير مع ما تجري به المقادير .

فاستحسن قوله وخلاه .

الحجاج متنكراً

روي أن الحجاج قال لغلام له : تعال نتنكّر وننظر ما لنا عند الناس .

فتنكّرا وخرجا ، فمرّا على المطلب غلام أبي لهب ، فقالا :

يا هذا ، أي شيء على الحجاج؟

قال : على الحجاج لعنة الله .

قالا : فمتى يخرج؟

قال : أخرج الله روحه من بين جنبيه ، ما يدريني؟

قال : أتعرفني؟

قال : لا .

قال : أنا الحجاج بن يوسف .

قال المطلب : أتعرفني أنت .

قال : لا .

قال : أنا المطلب غلام أبي لهب ، أصرع في كل شهر ثلاثة أيام أولها اليوم ، فتركه ومضى .

الحجاج وغلاماه الفصيحان

أمر الحجاج بن يوسف الثقفي اثنين من غلمانه أن يمثلا بين يديه وأمر كل واحد منهما أن يهجوَ الآخر وكان أحدهما أسود البشرة والثاني أبيضها فقال صاحب البشرة السوداء :

أَلَمْ ترَ أنّ المسكَ لا شيءَ مثله   وأن بياضَ اللفت حمْل بدرهم

وأنّ سوادَ العين لا شك نورُها   وأنّ بياضَ العين لا شيءً فاعلم

فقال صاحب البشرة البيضاء :

ألمْ ترَ أن البدرَ لا شيءَ مثله   وأن سواد الفحم حِمْل بدرهم

وأن رجـــال اللـــه بيـــضٌ وجوهُهـــم   ولا شـــك أنّ الســـودَ أهـلُ جهنم

فضحك الحجاج وأعتقهم جميعا .

الحجاج وخارجي:

وقال الحجاج لرجل من الخوارج : والله إنك من قوم أبغضهم! قال له : أدخل الله أشدّنا بغضا لصاحبه الجنة .

الحجاج والأعرابي ونساؤه الأربع

دخل أعرابي على الحجّاج ، فسمعه يقول : «لا تكمُل النعمة على المرء حتى ينكح أربعَ نسوة يجتمعْن عنده» .

فانصرف الأعرابي فباع متاع بيته ، وتزوج أربع نسوة ، فلم توافقه منهنّ واحدة :

خرجتْ واحدة حمقاء رعناء ، والثانية متبرّجة ، والثالثة فارِك-أو قال : فروك(مبغضة لزوجها) والرابعة مذكّرة .

فدخل على الحجّاج فقال : أصلح الله الأمير ، سمعتُ منك كلامًا أردتُ أن تنمّ لي به قرّة عين ؛ فبعت جميع ما أملك ، حتى تزوجتُ أربع نسوة ، فلم توافقني منهنّ واحدة ، وقد قلتُ فيهنّ شعرًا ، فاسمع مني .

قال : قل .

فقال : تزوجتُ أبغي قرةَ العين أربعًا

فيا ليت أني لم أكن أتزوجُ

ويا ليتني أعمى أصمُّ ولم أكنْ

تزوجتُ ، بل يا ليت أني مُخَدّجُ (ناقص الخَلق)

فواحدةٌ ما تعرفُ اللهَ ربَها

ولا ما التُقى تدري ولا ما التحرُّجُ

وثانية ما إن تقرَّ ببيتها

مذكَّرة مشهورة تتبرجُ

وثالثة حمقاءُ رعنا سخيفةٌ

فكلّ الذي تأتي من الأمر أعوجُ

ورابعةٌ مفروكةٌ ذاتُ شرَّة

فليست بها نفسي مدى الدهر تُبهَجُ
فهنّ طلاقٌ كلهنّ بوائنُ
ثلاثا ثلاثا فاشهدوا لا تلجلجوا
فضحك الحجاج حتى كاد يسقط من سريره ، ثم قال : كم مهورهنّ؟
قال : أربعة آلاف درهم .
فأمر له بثمانية آلاف درهم .

صندوق كسرى

قالوا : أتي الحجاج بصندوق قد أصيب في بعض خزائن كسرى مقفل فأمر بالقفل فكسر فإذا فيه صندوق آخر مقفل فقال الحجاج : من يشتري مني هذا الصندوق بما فيه ؟ فتزايد فيه أصحابه حتى بلغ خمسة آلاف دينار فأخذه الحجاج ونظر فيه فقال : ما عسى أن يكون فيه إلا حماقة من حماقات العجم . ثم أنفذ البيع وعزم على المشتري أن يفتحه ويريه ما فيه ، ففتحه بين يديه ، فإذا فيه رقعة مكتوب فيها : من أراد أن تطول لحيته فليمشطها من أسفل

يخرجون من دين الله!

قال الحجاج يوما لرجل : اقرأ لنا شيئا من القرآن . فقرأ الرجل الآية ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا . .﴾ فقاطعه الحجاج مصححا وقال له : بل يدخلون في دين الله أفواجا . فقال الرجل : كان ذلك قبل ولايتك أيها الأمير !

مولى الحجاج ورجل من حيه

خرج أعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة ، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيه فقدم اليه الطعام . وكان إذ ذاك جائعاً فسأله عن أهله وقال : ما حال ابني عمير ، قال على ما تحب قد ملأ الارض والحي رجالاً ونساءً . قال فما فعلت أم عمير قال صالحة أيضاً . قال فما حال الدار قال عامرة بأهلها قال وكلبنا ايقاع . قال ملأ الحي نبحاً قال فما حال جملي زريق . قال على ما يسرك . قال فالتفت إلى خادمه ، وقال ارفع الطعام فرفعه ، ولم يشبع الأعرابي ، ثم أقبل عليه

يسأله وقال : يا مبارك الناصية أعد عليّ ما ذكرت . قال سل عما بدا لك قال فما حال كلبي ايقاع ، قال مات قال وما الذي أماته قال اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات . قال : أومات جملي زريق . قال نعم . قال وما الذي أماته ؟ قال كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير ، قال أوماتت أم عمير قال ، نعم . قال وما الذي أماتها قال كثرة بكائها على عمير . قال أومات عمير ؟ . قال نعم . قال وما الذي أماته ؟ قال سقطت عليه الدار . قال أوسقطت الدار قال نعم . قال فقام له بالعصا ضارباً فولى من بين يديه هارباً .

ثأر سعيد بن جبير

في سنة أربع وتسعين قَتَلَ الحجاجُ سعيدَ بن جُبَيْرٍ (١) ،

فذكر عون بن أبي راشد العبدي . . قال : لما ظفر الحجاج بسعيد بن جبير وأوصل إليه

قال له : ما اسمك .

قال : اسمي سعيد بن جبير

قال : بل شقي بن كسير .

قال : أبي كان أعلم باسمي منك ،

قال : لقد شقيت وشقي أبوك ،

قال له : الغيب إنما يعلمه غيرك ،

قال : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ،

قال : لو علمت أن ذلك بيدك ما اتخذت إلهاً غيرك ،

قال : فما قولك في الخلفاء ،

قال : لست عليهم بوكيل ،

قال : فاختر أي قتلة تريد أن أقتلك ،

قال : بل اختر يا شقي لنفسك ، فوالله ما تقتلني اليوم بقتلة إلا قتلتك في

(١) الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد ، أبو محمد ، ويقال : أبو عبد الله الأسدي الوالبي ، مولاهم الكوفي ،سعيد بن جبير الأسدي تابعي حبشي الأصل ، كان تقياً وعالماً بالدين درس العلم عن عبد الله بن عباس حبر الأمة وعن عبد الله بن عمر وعن السيدة عائشة أم المؤمنين .

الآخرة بمثلها ،

فأمر به الحجاج ، فأخرج ليقتل ،

فلما ولى ضحك ، فأمر الحجاج برده ، وسأله عن ضحكه ،

فقال : عجبت من جراءتك على اللّه وحلم الله عنك ،

فأمر به فذبح ، فلما كبَّ لوجهه

قال : أشهد أن لا إله إلا اللّه وحد لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الحجاج غير مؤمن بالله

ثم قال : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدي ،

فذبح واحتز رأسه . ولم يعش الحجاج بعده إلا خمس عشرة ليلة

ويروى أنه كان يقول بعد قتل سعيد : يا قوم مالي ولسعيد بن جبير ، كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي .

شجاعة رجل

قال أبو الحسن : خطب الحجاج يوم جمعة فأطال الخطبة ، فقال رجل :

«إن الوقت لا ينتظرك ، وإن الرب لا يعذرك» ، فحبسه ، فأتاه أهل الرجل وكلموه فيه وقالوا : إنه مجنون . قال : إن أقرّ بالجنون خليت سبيله . فقيل له : أقر بالجنون . قال : لا والله ، لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني

الحجاج وعبد الملك:

قال عبد الملك بن الحجاج : لو كان رجل من ذهب لكنته . قال له رجل من قريش وكيف ذلك؟ قال : لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجر . فقال له : لولا هاجر لكنت كلبا من الكلاب .

الحجاج وابن ظبيان:

قال : لما قدم الحجاج العراق واليا عليها خرج عبيد الله بن زياد بن ظبيان متوكئا على مولى له وقد ضربه الفالج ، فقال قدم العراق رجل على ديني . فقال له حصين بن المنذر الرقاشي : فهو إذا منافق! قال عبيد الله : إنه يقتل المنافقين! قال له حصين : إذا يقتلك .

عضد الدولة[1]

فراسة عضد الدولة

قدم بعض التجار من خراسان ليحج ، فتأهب للحج وبقي معه ألف دينار لا يحتاج اليها ، فقال : ان حملتها خاطرت بها ، وإن أودعتها خفت جحد المودع .

فمضى الى الصحراء ، فرأى شجرة خروع ، فحفر تحتها ودفنها ولم يره أحد ، ثم خرج الى الحج وعاد ، فحفر المكان فلم يجد شيئا ، فجعل يبكي ويلطم وجهه ، فاذا سئل عن حاله قال : الأرض سرقت مالي .

فلما كثر ذلك منه قيل له : لو قصدت عضد الدولة فان له فطنة .

فقال : أويعلم الغيب؟

فقيل له : لا بأس بقصده .

فأخبره بقصّته ، فجمع الأطباء وقال لهم : هل داويتم في هذه السنة أحد بعروق الخروع؟

فقال أحدهم : أنا داويت فلانا وهو من خواصّك .

فقال : عليّ به .

فجاء فقال له : هل تداويت هذه السنة بعروق الخروع؟

قال : نعم .

قال : من جاءك به؟

قال : فلان الفرّاش .

قال : عليّ به .

فلما جاء قال : من أين أخذت عروق الخروع؟

فقال : من المكان الفلاني .

فقال : اذهب بهذا معك فأره المكان الذي أخذت منه .

فذهب معه بصاحب المال الى تلك الشجرة ، وقال : من هذه الشجرة أخذت .

---

(١) عضد الدولة بن بويه (٩٣٦-٩٨٣) كان ملكا على بلاد شيراز وما حولها من الأطراف ولد بأصفهان ، فتح قرمان وعمان ، هزم الترك في واسط ، وظفر بالعراق بعد استيلائه على بغداد سنة ٩٥٥م ، غزا جرجان وطبرستان ، عرف برعايته للعلماء واحسانه على الفقراء ، وفد عليه كثير من الشعراء منهم ابن بابك وأبو الطيب المتنبي .

فقال الرجل : ههنا والله تركت مالي ، فرجع الى عضد الدولة فأخبره ، فقال للفرّاش : هلمّ بالمال ، فتلكأ ، فأوعده وهدّده فأحضر المال .

قاضي عضد الدولة وملك الروم

روي أن عضد الدولة بعث القاضي أبا بكر الباقلاني في رسالة الى ملك الروم ، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره ومحلّه من العلم ، ففكر الملك في أمره ، وعلم أنه لا يفكر له اذا دخل عليه كما جرى رسم الرعيّة أن يقبّل الأرض بين يدي الملك ، فتجنبت له الفكرة أن يضع سريره الذي يجلس عليه وراء باب لطيف لا يمكن أن يدخل أحد منه الا راكعا ليدخل القاضي منه على تلك الحال .

فلما وصل القاضي الى المكان فطن بالقصّة ، فأدار ظهره وحنى رأسه ، ودخل من الباب وهو يمشي الى خلفه ، وقد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه ، ثم رفع رأسه وأدار وجهه حينئذ الى الملك ، فعلم الملك من فطنته وهابه .

دهاء عضد الدولة

وذكر محمد بن عبد الملك الهمداني[(١)] في تاريخه أنه بلغ الى عضد الدولة خبر قوم من الأكراد يقطعون الطريق ، ويقيمون في جبال شاقة ، فلا يقدر عليهم ، فاستدعى أحد التجار ودفع اليه بغلا عليه صندوقان فيهما حلوى قد شيبت بالسم ، وأكثر طيبها ، وأعطاه دنانير ، وأمره أن يسير مع القافلة ، ويظهر أن هذه هدية لإحدى نساء أمراء الأطراف .

ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة ، فنزل القوم وأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهم بالبغل وصعد به مع جماعتهم الى الجبل ، وبقي المسافرون عراة ، فلما فتح الصندوق وجد الحلوى يضوع طيبها ، ويدهش منظرها ويعجب ريحها ، وعلم أنه لا يمكنه الاستبداد بها ، فدعا أصحابه ، فرأوا ما لم يروه أبدا قبل ذلك ، فأمعنوا في الأكل عقيب مجاعة ، فانقلبوا فهلكوا عن آخرهم ، فبادر التجار الى أخذ أموالهم وأمتعتهم وسلاحهم ، واستردوا المأخوذ عن آخره .

---

(١) محمد بن عبد الملك الهمذاني هو فقيه ومؤرخ . هو محمد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد ، أبو الحسن الهمذاني ، يعرف بالمقدسي . سكن بغداد وبها كانت نشأته ووفاته .

فلم أسمع بأعجب من هذه المكيدة ، محت أثر العاتين وحصدت شوكة المفسدين .

العطار والتاجر

أن رجلا من خراسان قدم الى بغداد للحج ، وكان معه عقد من الجواهر يساوي ألف دينار ، فاجتهد في بيعه ، فلم يوفق ، فجاء الى عطّار موصوف بالخير ، فأودعه ايّاه ، ثم حج وعاد فأتاه بهديّة .

فقال له العطار : من أنت وما هذا؟

فقال : أنا صاحب العقد الذي أودعتك .

فما كلّمه حتى رفسه رفسة رماه بها عن دكّانه ، وقال : تدّعي عليّ مثل هذه الدعوى؟

فاجتمع بالناس وقالوا للحاج : ويلك ، هذا رجل خير ، ما لحقت من تدّعي عليه الا هذا؟

فتحيّر الحاج وتردد اليه ، فما زاده الا شتما وضربا ، فقيل له : لو ذهبت الى عضد الدولة ، فله في هذه الأشياء فراسة .

فكتب قصّته وجعلها على قصبة ورفعها لعضد الدولة ، فصاح به ، فجاء ، فسأله عن حاله ، فأخبره بالقصّة ، فقال :

اذهب الى العطار غدا ، واقعد على دكّانه ، فان منعك فاقعد على دكان تقابله ، من الصبح الى المغرب ، ولا تكلّمه ، وافعل هذا ثلاثة أيّام ، فاني أمرّ عليك في اليوم الرابع وأقف وأسلّم عليك ، فلا تقم لي ولا تزدني على ردّ السلام وجواب ما أسألك عنه ، فاذا انصرفت فأعد على ذكر العقد ، ثم أعلمني ما يقول لك ، فان أعطاكه فجىء به اليّ .

فجاء الى دكّان العطّار ليجلس فمنعه ، فجلس بمقابلته ثلاثة أيّام ، فلما كان اليوم الرابع اجتاز عضد الدولة في موكبه العظيم ، فلما رأى الخراساني وقف وقال : السلام عليك .

فقال الخراساني ولم يتحرّك : وعليكم السلام .

فقال : يا أخي تقدم فلا تأتي الينا ولا تعرض حوائجك علينا؟

فقال كما اتفق ولم يشبعه الكلام ، وعضد الدولة يسأله ويستخفي وقد وقف

ووقف العسكر كله ، والعطار قد أغمي عليه من الخوف .

فلما انصرف التفت العطار الى الحاج فقال : ويحك متى أودعتني هذا العقد؟ وفي أي شيء كان ملفوفا؟ ذكّرني لعلي أذكره .

فقال : من صفته كذا وكذا .

فقام وفتش ، ثم نقض جرّة عنده فوقع العقد ، فقال : قد كنت نسيت ، ولو لم تذكّرني الحال ما ذكرت .

فأخذ العقد وذهب . ثم قال : وأي فائدة لي في أن أعلم عضد الدولة ، ثم قال في نفسه : لعلّه يريد أن يشتريه .

فذهب اليه فأعلمه ، فبعث به مع الحاجب الى دكّان العطّار ، فعلّق العقد في عنق العطار وصلبه بباب الدكان ونودي عليه : هذا جزاء من استودع فجحد .

خطأ الشاعر

حكى السلامي الشاعر[١] قال : دخلت على عضد الدولة ، فمدحته فأجزل عطيّتي من الثياب والدنانير وبين يديه حسام خرواني فرآني ألحظه ، فرمى به اليّ وقال : خذه .

فقلت : وكل خير عندنا من عنده .

فقال عضد الدولة : ذاك أبوك!

فبقيت متحيّرا لا أدري ما أراد ، فجئت أستاذي فشرحت له الحال ، فقال :

ويحك! قد أخطأت عظيمة ، لأن هذه الكلمة لأبي نوّاس يصف كلبا حيث يقول :

أنعت كليا أهله في كدّه ... قد سعدت جدودهم بجدّه
وكل خير عندنا من عنده

قال : فعدت متوشحا بكساء فوقفت بين يدي عضد الدولة فقال : ما بك؟

فقلت : حممت الساعة .

فقال : هل تعرف سبب حمّاك؟

(١) السلامي الشاعر ٣٣٦- ٣٩٣ هـ . أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن خليس بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله ابن الحارث بن عبد الله بن الوليد

قلت : نظرت في ديوان أبي نوّاس .
فقال : لا تخف ، لا بأس عليك من هذه الحمّى .
فشكرته وانصرفت .

معز الدولة

عن أبي الحسن الدامغاني حاجب معز الدولة قال : كنت في دهليز معز الدولة ، فصاح صائحك نصيحة . فاستدعيته

وقلت : ما نصيحتك؟! قال : لا أذكرها إلا للأمير ، فدخلت فعرفته ، فقال : هاته ، فأحضرته بين يديه فقال : ما عندك؟!

قال : أنا رجل صياد بناحية المدائن ، وكنت أصيد فعلقت شبكتي بأسفل جرف ، فاجتهدت في تخليصها فتعذر ذلك علي

حتى نزلت وغصت في الماء ، فإذا هي معلقة بعروة حديد ، فحفرت فإذا قمقم مملوء مالاً فرددته مكانه وناديت لأعرف الأمير

قال الدمغاني : فانحدرت معه في الوقت إلى المدائن العتيقة وقصدنا الجرف فوجدنا القمقم وقلعناه ، وسعيت بنفسي في

تتبع الموضع فتقدمت إلى الصياد استقصاء الحفر ، فوجدنا سبعة قماقم أخر مملوءة مالاً ، فحملنا الجميع إلى معز الدولة

فسر به فأمر للصياد بعشرة آلاف درهم فامتنع من قبولها وقال : الذي أريده غيرها ، قال : ما هو؟!

قال : تجعل لي صيد تلك الناحية وتمنع كل أحد غيري من الصيد ، فضحك الأمير وعجب من جهله وحمقه : وأمر له بما سأل .

جلال الدولة[1]

وروى أبو الحسن بن هلال بن المحسن الصابي[2] في تاريخه قال : حدّثني بعض

(١) أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، الملقب جلال الدولة .

(٢) هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابئ الحراني ، أبو الحسين ، أو أبو الحسن : مؤرخ ، كاتب ، من أهل بغداد . كان أبوه وجده من الصابئة ، وأسلم هو في أواخر عمره . وكان قد تعلم الأدب وهو على دين آبائه . وولي ديوان الإنشاء ببغداد زمنا .

التجـار ، قـال : كنت في المعسكر ، واتفق أن ركب السلطان جلال الدولة يوما الى الصيد على عادته ، فلقيه سوادي يبكي ، فقال : ما لك؟

فقال : لقيني ثلاثة غلمان أخذوا حمل بطيّخ معي وهو بضاعتي .

فقال : امض الى المعسكر فهناك قبّة حمراء ، فاقعد عندها ولا تبرح الى آخر النهار ، فأنا أرجع وأعطيك ما يغنيك .

فلما عاد السلطان ، قال لبعض شرّائه : قد اشتهيت بطيّخا ففتش العسكر وخيمهم على شيء منه .

ففعل وأحضر البطيّخ ، فقال : عند من رأيتموه؟

فقيل : في خيمة فلان الحاجب .

فقال : أحضروه . فقال له : من أين هذا البطيخ؟

فقال : الغلمان جاؤوا به .

فقال : أريدهم الساعة .

فمضى وقد أحسّ بالشر ، فهرب الغلمان خوفا من أن يقتلوا ، وعاد فقال : قد هربوا لما علموا بطلب السلطان لهم .

فقال : أحضروا السوادي .

قال : نعم .

قال : فخذه وامض مصاحبا السلامة .

الخالدي وسيف الدولة

قال أبو عثمان الخالدي[1] : عملتُ قصيداً أمدح سيف الدولة أبا الحسين ابن حمدان ، وعرضتها على جماعة ، أتعرّف ما عندهم فيها ، فاتّفق أن حضر مخنّثٌ وأنا أقرأها ، فلمّا انتهيت إلى قولي :

(١) . سعيد بن هاشم بن وعلة بن عرام بن عبد القيس أبو عثمان الخالدي . شاعر ، أديب ، اشتهر هو وأخوه محمد ، بالخالديان ، وكانا آية في الحفظ والبديهة ، يتهمهما شعراء عصرهما بسرقة شعرهم . قال ابن النديم : كانا إذا استحسنا شيئاً غصباه صاحبه ، حياً أو ميتاً ، ليس عجزاً منهما عن قول الشعر ولكن كذا كانت طباعهما . وهما من أهل الخالدية قرب الموصل ، ونسبتهما إليها ، وقيل نسبتهما إلى جدهما واسمه خالد بن منبّه ، أو ابن عبد القيس ، أو ابن عبد عنبة .

(وأنكــرت شيبــةً في الرّأس واحدةً   فعــاد يسخطها ما كان يرضيهــا)

قال : هذا غلطٌ (يقول للأمير : في الرّأس واحدةً) ألا قلت : في الرّأس طالعةً أو لائحةً؟ فعجبت من فطنته وجودة خاطره وحسن عرافته .

سابور وبهاء الدولة

كان سابور(١) وزير بهاء الدولة يكثر الولاية والعزل ، فولّى بعض العمّال عكبرا ، فقال له : أيّها الوزير كيف ترى؟ أستأجر السفينة مصعداً ومنحدراً؟ فتبسم وقال : امض ساكتاً .

أعرابي أمام الوالي

جيء بأعرابي إلى أحد الولاة لمحاكمته على جريمة أُتهم بارتكابها ، فلما دخل على الوالي في مجلسه ، أخرج كتاباً ضمّنه قصته ، وقدمه له وهو يقول : هاؤم اقرأوا كتابيه . .

فقال الوالي : إنما يقال هذا يوم القيامة .

فقال : هذا والله شرٌّ من يوم القيامة ، ففي يوم القيامة يُؤتى بحسناتي وسيئاتي ، أما أنتم فقد جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي .

أعرابي على مائدة الخليفة

جلس أعرابي على مائدة بعض الخلفاء ، وكان من بين ما قُدم جدي مشوي ، فراح الأعرابي يلتهم أجزاء كبيرة من الجدي ، فقال له الخليفة :

إن من يراك على هذه الحالة ، يعتقد أنه لابد أن تكون أم هذا الجدي قد نطحتك!!

فرد الأعرابي :

وإن من يراك يا مولاي في عطفك على هذا الجدي يظن أن أمه قد أرضعتك !

---

(١) «سابور بن أردشير» هو أبو النصر سابور بن أردشير ، وزير بهاء الدولة أبي نصر ابن عضد الدولة بن بويه الديلمي, كان من أكابر الوزراء ,وأماثل الرؤساء وجمعت فيه الكفاية والدراية وكان بابه محط الشعراء ذكره أبو المنصور الثعالبي في كتابه «اليتيمة» وعقد لمداحه بابا مستقلا لم يذكر فيه غيره

عقوبة الثناء بالباطل

وقف شاعر أعرابي معوج الفم أمام أحد الولاة فألقى عليه قصيدة في الثناء عليه التماساً لمكافأة ، ولكن الوالي لم يعطه شيئاً

وسأله : ما بال فمك معوجاً ؟ فرد الشاعر : لعله عقوبة من الله لكثرة الثناء بالباطل على بعض الناس !!

حكمة أعرابي

قال أعرابي :حق من يصحب السلطان أن يدخل إليهم أعمى ويخرج من عندهم أخرس

دون لف ودوران

اعترض شحاذ أعمى (مطيع بن إياس) . وهو يعبر جسراً على الفرات ظناً منه أنه واحد من الجند . وصاح بعد أن أوقفه بعصاه : اللهم سخر الخليفة لكي يعطي الجند أرزاقهم ، فيشتروا من التجار الأمتعة والأغراض ، ويربح التجار مالاً كثيراً ، فتجب عليهم الزكاة ويتصدقوا بها علي .فقال له مطيع : ياهذا . . سل الله أن يرزقك أفضل من هذا اللف والدوران .

أبو دلامة والرؤى الكاذبة

يُحكى أن الشاعر العباسي : أبا دلامة ، كان من الشعراء الساخرين ، وكان يوهم الخلفاء أن أحلامه رؤيا تتحقق فقد دخل يوما على أحد الخلفاء وانشد قائلا :

إني رأيتك في المنام وأنت تعطيني خيارة مملوءة بدراهم وعليك تأويل العبارة

فقال له الخليفة أمض وأحضر لي خيارة أملأها لك دراهم فمضى أبو دلامة وجاء بقرعة كبيرة واقسم للخليفة بالطلاق أن السوق لم تكن فيها سوى القرع فضحك الخليفة وملأ القرعة دراهم

يحتالان بعلي ومعاوية

قال علي بن المحسن ، عن أبيه :

أخبرني جماعة من شيوخ بغداد أنه كان بها في طرف الجسر سائلان أعميان ،

أحدهما يتوسّل بأمير المؤمنين عليّ ، والآخر بمعاوية ، ويتعصّب لهما الناس ، ويجمعان القطع ، فاذا انصرفا فيقتسمان القطع ، وكانا يحتالان بذلك على الناس .

حجة في حاجة

حدثنا عبد الواحد بن محمد الموصلي ، حدثنا بعض فتيان الموصلي قال :

لما قتل ناصر الدولة أبا بكر بن رايق الموصلي نهب الناس داره بالموصل ، فدخلت لأنهب ، فوجدت كيسا فيه أكثر من ألف دينار ، فأخذته وخفت أن أخرج وهو معي كذلك ، فيبصرني بعض الجند ، فيأخذه مني ، فطفت الدار ، فوقعت على المطبخ ، فعمدت الى قدرة كبيرة فيها سكباج(١) ، فطرحت الكيس فيها ، وحملتها على يدي ، فكل من استقبلني نظر أني ضعيف قد حملني الجوع على أخذ تلك القدرة التي سلمت الى منزلي .

ابن طولون

ورأى ابن طولون(٢) يوما حمّالا يحمل صندوقا وهو يضطرب تحته ، فقال : لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنقه وأنا أرى عنقه بارزة ، وما هذا الا من خوف ما يحمل .

فأمر بحطّ الصندوق ، فوجد فيه جارية قد قتلت وقطّعت ، فقال : اصدقني عن حالها .

فقال : أربعة نفر في الدار الفلانيّة أعطوني هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة .

فضرب الحمّال مئتي ضربة بعصا ، وأمر بقتل الأربعة .

وكان ابن طولون يبكر ويخرج ، فسمع قراءة الأئمة في المحاريب ، فدعا بعض أصحابه يوما وقال : امض الى المسجد الفلاني ، وأعط امامه هذه الدنانير .

(١) مرق يتخذ من اللحم والخل

(٢) الأمير أحمد بن طولون أمير مصر ومؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام ولد سنة ٨٣٥ ميلادية والى مصر . كان والده من أتراك القبجاق .

قال : فمضيت فجلست مع الامام وباسطته حتى شكا أن زوجته ضربها الطلق ، ولم يكن معه ما يصلح به شأنها ، وأنه صلى فغلط مرارا في القراءة ،

فعدت الى ابن طولون فأخبرته .

فقال : لقد صدق ، لقد وقفت أمس ، فرأيته يغلط كثيرا فعلمت أن شيئا شغل قلبه .

ونظر بعض العمّال في ديوانه الى رجل يصغي الى سرّه ، فأمر بضربه وحبسه .

فقال كاتب الحبس : كيف أكتب قصّته؟

قال : اكتب استرق السمع فأتبعه شهاب ثاقب .

ابن المعتز(١)

حدثنا أبو علي بن مقلة(٢) قال : كنت أكتب لأبي الحسن بن الفرات أخدم بين يديه ، فكنت كذلك معه الى أن تقلّد الوزارة الأولى ، فلمّا وقعت فتنة ابن المعتز أمر بقبض ما في دور المخالفين الذين بايعوا ابن المعتز ، وكانت أمتعتهم تقبض ونحمل اليه فيراها وينفذها الى خزائن المقتدر .

فجاءوه يوما بصندوقين ، فقالوا له : هذان وجدناهما في دار ابن المعتز .

فقال : أفعلمتم ما فيهما؟

قالوا : نعم ، جرائد من بايعه من الناس بأسمائهم وأنسابهم .

فقال : لا تفتح .

ثم قال : يا غلمان هاتوا نارا ، فجاء الفرّاشون بفحم ، وأمرهم فأججوا النار ، وأقبل عليّ وعلى من كان حاضرا ، فقال : والله لو رأيت من هذين الصندوقين ورقة واحدة

(١) عبد الله بن المعتز بالله خليفة عباسي وكنيته أبو العباس ، ولد عام ، في بغداد ، وكان أديبا وشاعرا ويسمى خليفة يوم وليلة ، حيث آلت الخلافة العباسية إليه ، ولقب بالمرتضي بالله ، ولم يلبث يوما واحدا حتى هجم عليه غلمان المقتدر وقتلوه في عام ، وأخذ الخلافة من بعده .

(٢) ابن مقلة ، وهو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الشيرازي (ولد عام ٢٧٢ هـ/٨٨٦م وتوفي بها ٩٣٩ م/٣٢٨ هـ) خطاط إ?ران? ، وكان من أشهر خطاطي العصر العباسي وأول من وضع أسس مكتوبة للخط العربي . يُعتقد بأنه مخترع خط الثلث ، لكن لم يبق أي من أعماله الأصلية .

لظن كل من له فيها اسم أني قد عرفته ، فتفسد نيّات العالم كلهم عليّ وعلى الخليفة ، وما هذا رأي ، حرّقوهما .

قال : فطرحا بأقفالهما الى النار ، فلما احترقا بحضرته أقبل عليّ فقال : يا أبا علي ، قد أمّنت كل من جنى وبايع ابن المعتز ، وأمرني الخليفة بأمانة ، فاكتب للناس الأمان مني ، ولا يلتمس منك أحد أمانا -كائنا من كان- الا كتبته له وجئني به لأوقع فيه ، فقد أفردتك لهذا العمل .

ثم قال : لمن حضر : أشيعوا ما قلته حتى يأنس المستترون بأبي علي ويكاتبوه في طلب الأمان ، فشكرناه . ودعت الجماعة له وشاع الخبر وكتبت الأمانات ، فكتب في ذلك مئة ألف أو نحوها .

قال ابن عرّابة المؤدّب:

حكى لي محمد بن عمر الضبي أنه حفّظ ابن المعتز وهو يؤدبه سورة (والنازعات)

وقال له :

اذا سألك أمير المؤمنين أبوك «في أي شيء أنت؟» فقل له : في السورة التي تلي (عبس) ، ولا تقل أنا في النازعات .

فسأله أبوه : في أي شيء أنت؟

قال : في السورة التي تلي عبس .

فقال : من علّمك هذا؟

قال : مؤدّبي .

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

من أخبار الملوك والأمراء

كتب بعض ملوك فارس على بابه : «تحتاج أبوابِ الملوك إلى عقلٍ ومالٍ وصبرٍ» فكتب بعض الحكماء تحته : «من كان عنده واحدةٌ من هذه الثلاث لم يحتج إلى أبواب الملوك» فرفع خبره إلى الملك ، فقال : زه وأمر بإجازته ومحو الكتابة من البـاب .

الأمير والحلاق

نزل أمير بقرية ، فاحتاج الى المزيّن يمسح شعره ، فجاء الأمير وحده اليه ، وقال :

أنا حاجب هذا الأمير الذي قد نزل بكم ، فامسح شعري ، فان كنت حاذقا جاء الأمير فمسحت شعره .

وانما فعل ذلك لئلا يعلم أنه الأمير فينزعج ويجرحه .

الوالي وخادمه

وبلغنا عن بعض ولاة مصر أنه كان يلعب بالحمام فتسابق هو وخادم له فسبقه الخادم ، فبعث الأمير الى وزيره ليعلم الحال ، فكره الوزير أن يكتب اليه أنك قد سبقت ، ولم يدر كيف يكني عن ذلك ، فكان ثمّ كاتب فقال : ان رأيت أن تكتب شعرا :

يــا أيهــا الملك الذي جدّه   لكـــل جـــد قاهـــر غالب

طائـــرك السابـــق لكنّـــه   أتـــى وفي خدمته حاجب

فاستحسن ذلك وأمر له بجائزة .

طرافة الشكوى

شكا أصحاب هاشم الى أسلم بن الأحنف احتباس أرزاقهم ، فدخل على هاشم ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، لو أن مناديا نادى : «يا مفلس» ما بقي أحد من أصحابك الا التفت .

فضحك ، وأمر بصلة أرزاقهم .

اسم على غير مسمى

دخل مخنّث على العريان بن هيثم[١] ، وهو أمير بالكوفة ، فقال :

يا عدو الله ، أتتخنث وأنت شيخ .

فقال : مكذوب عليّ كما كذب على أمير المؤمنين أعزه الله .

فاستوى جالسا وقال : ما قيل فيّ؟

(١) العريان بن الهيثم بن الاسود بن اقيش بن معاويه النخعي الكوفي الاعور .

قال : يسمّونك العريان ، وأنت صاحب عشرين جبّة .
فضحك وخلّى سبيله .

كلب الملك

مر بعض الكتاب بمقبرة فإذا قبر عليه قبة مكتوب عليها هذا قبر الكلب فمن أحب أن يعلم خبره فليمض إلى قرية كذا وكذا فإن فيها من يخبره فسأل الرجل عن القرية فدلوه عليها فقصدها فقيل له ما يعلم ذلك إلا شيخ هنا قد جاوز المائة ، فسأله

فقال : كان هنا ملك عظيم الشأن وكان يحب التنزه والصيد وكان له كلب قد رباه لا يفارقه فخرج يوما إلى بعض متنزهاته وقال لبعض غلمانه قل للطباخ يصلح لنا ثريدة بلبن فجاءوا باللبن إلى الطباخ ونسي أن يغطيه بشيء واشتغل بالطبخ فخرجت من بعض الشقوق أفعى فكرعت في ذلك اللبن ومجته في الثريدة والكلب رابض يرى ذلك ولم يجد له حيلة يصل بها إلى الأفعى وكان هناك جارية زمنة خرساء قد رأت ما صنعت الأفعى ، ووافى الملك من الصيد في آخر النهار

فقال : يا غلمان ادركوني بالثريدة فلما وضعت بين يديه أومأت الخرساء فلم يفهم ما تقول ونبح الكلب وصاح فلم يلتفت إليه ولَجّ في الصياح فلم يعلم مراده فقال للغلمان نحوه عني ومد يده إلى اللبن بعد ما رمى إلى الكلب ما كان يرمي إليه فلم يلتفت الكلب إلى شيء من ذلك ولم يلتفت إلى يغر الملك فلما رآه يريد أن يضع اللقمة من اللبن في فمه وثب إلى وسط المائدة وأدخل فمه وكرع في اللبن فسقط ميتها وتناثر لحمه وبقي الملك متعجبا من الكلب وفعله ، فأومأت الخرساء إليهم فعرفوا مرادها وما صنع الكلب

فقال الملك لحاشيته : هذا الكلب فداني بنفسه وقد وجب أن أكافئه وما يحمله ويدفنه غيري فدفنه وبنى عليه القبة التي رأيتها .

ملك اليونان

حكى أبو سليمان أنّ ثيودسيوس ملك يونان كتب إلى إيبقس الشاعر أن يزوّده بما عنده من كتب فلسفيّة ، فجمع ماله في عيبة ضخمة ، وارتحل قاصدا نحوه ، فلقى في تلك البادية قوما من قطّاع الطريق ، فطعموا في ماله وهمّوا بقتله ، فناشدهم الله ألاّ يقتلوه وأن يأخذوا ماله ويخلّوه ، فأبوا ، فتحيّر ونظر يمينا وشمالا يلتمس معينا

وناصرا فلم يجد ، فرفع رأسه إلى السماء ، ومدّ طرفه في الهواء ، فرأى كراكيّ تطير في الجوّ محلّقة ، فصاح : أيتها الكراكيّ الطائرة ، قد أعجزني المعين والناصر ، فكوني الطالبة بدمي ، والآخذة بثأري . فضحك اللّصوص ، وقال بعضهم لبعض : هذا أنقص الناس عقلا ، ومن لا عقل له لا جناح في قتله ، ثمّ قتلوه وأخذوا ماله واقتسموه وعادوا إلى أماكنهم ، فلمّا اتّصل الحديث بأهل مدينته حزنوا وأعظموا ذلك ، وتبعوا أثر قاتله واجتهدوا فلم يغنوا شيئا ولم يقفوا على شيء ، وحضر اليونانيون وأهل مدينته إلى هيكلهم لقراءة التسابيح والمذاكرة بالحكمة والعظة ، وحضر الناس من كلّ قطر وأوب ، وجاء القتلة واختلطوا بالجمع ، وجلسوا عند بعض أساطين الهيكل ، فهم على ذلك إذ مرّت بهم كراكيّ تتناغى وتصيح ، فرفع اللصوص أعينهم ووجوههم إلى الهواء ينظرون ما فيه فإذا كراكيّ تصيح وتطير ، وتسدّ الجوّ ، فتضاحكوا ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء طالبو دم إيبقس الجاهل- على طريق الاستهزاء- فسمع كلامهم بعض من كان قريبا منهم فأخبر السلطان فأخذهم وشدّد عليهم ، وطالبهم فأقرّوا بقتله ، فقتلهم ، فكانت الكراكيّ المطالبة بدمه ، لو كانوا يعقلون أنّ الطالب لهم بالمرصاد .

ملك فارس والبوم الواعظ له

حكاية أجنبية عن المقام . يحكى أن بهراماً لما ولي الملك بعد أبيه ، أقبل على اللهو واللذات والتنزه والصيد ، لا يفكر في ملكه ولا في رعيته حتى خرجت البلاد عن يده وخربت في أيامه وقلت العمارة وخلت بيوت الأموال . فلما كان في بعض الأيام ركب إلى بعض منازهه وصيده ، وهو يسير نحو المدائن ، وكانت ليلة مقمرة ، فدعا بالموبذان ، وهو عند المجوس كحاخام عند اليهود والقسيس عند النصارى ، لأمر خطر بباله فجعل يحادثه فتوسطا في سيرهما بين خرابات كانت من أمهات الضياع قد خربت في مدة ملكه لا أنيس فيها إلا البوم ، وإذا ببوم يصيح وصاحبته تجاوبه من تلك الخرابات ، فقال بهرام : أترى أن أحداً من الناس أعطي فهم لغة هذا الطائر المصوت في الليل البهيم؟ فقال الموبذان : أيها الملك ، أنا ممن خصه الله بذلك .

قال : فما يقول هذا الطائر وما يقول الطائر الآخر؟ فقال الموبذان : هذا بوم ذكر يخطب بومة ويقول لها : متعيني بنفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله ويبقى لنا في هذا العالم عقب يكثرون الترحم علينا . فأجابت : أن الذي تدعونني

إليه لي فيه الحظ الأكبر والنصيب الأوفر في العاجل والآجل إلا أني أشترط عليك خصالاً إن أعطيتها أجبتك إلى ذلك .

فقال لها الذكر : وما تطلبينه مني؟ قالت : أن تعطيني من خرابات أمهات الضياع عشرين قرية مما خربت في أيام هذا الملك السعيد .

فقال له الملك فما الذي قال لها الذكر؟ قال الموبذان : كان من قوله لها إن دامت أيام هذا الملك السعيد قطعك منها ألف قرية خراب ، فما تصنعين بها؟ قالت : في اجتماعنا يحصل ظهور النسل وكثرة الذكر ، فنقطع لكل ولد من أولادنا ضيعة من هذه الخرابات .

فقال لها الذكر : هذا أسهل أمر سألتنيه ، وأنا مليء بذلك ما حيى هذا الملك .

فلما سمع الكلام من الموبذان تأثر في نفسه واستيقظ من نومه وفكر فيما خوطب به فنزل من ساعته ونزل بنزوله الناس وخلا بالموبذان ، فقال : أيها القائم بأمر الدين الناصح للملك والمنبه له عما أغفله من أمور ملكه وإضاعة بلاده ورعيته ، ما هذا الكلام الذي خاطبتني به فقد حركت مني ما كان ساكناً .

فقال الموبذان : صادفت من الملك السعيد وقت سعد العباد والبلاد فجعلت الكلام مثلاً وموعظة على لسان الطائر عند سؤال الملك إياي عما سأل .

فقال له الملك : أيها الناصح ، اكشف لي عن هذا الغرض ، ما المراد منه؟ فقال : أيها الملك ، إن الأمر لا يتم إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل ، وهو الميزان المنصوب بين الخليقة ، نصبه الرب ، جل وعلا وجعل له قيماً وهو الملك .

فقال الملك : أما ما وصفت فحق فأين لي عما إليه تقصد وأوضح لي في البيان .

قال : نعم أيها الملك ، إنك عمدت إلى الضياع فأقطعتها الخدم وأهل البطالة فعمدوا إلى ما تعجل من غلاتها فاستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع ، وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على الرعية وعمار الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم ، وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من أطاف بها من الملوك والأمم لعلمهم بانقطاع المواد التي بسببها تستقيم دعائم الملك .

فلما سمع الملك ذلك أقام في موضعه ثلاثة أيام وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب

الدواوين فانتزعت الضياع من أيدي الخاصة والحاشية وردت إلى أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم فعمرت البلاد بذلك وأخصبت وكثرت الأموال عند الجباة وقويت الجنود وانقطعت مواد الأعداء وأقبل الملك يباشر الأمور بنفسه فحسنت سيرته وانتظم ملكه حتى كانت أيامه بعده تدعى بالأعياد بما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل .

كذبة الملك

أعلن أحد الملوك في أرجاء مملكته ما يلي : «إذا تمكن أحد من أن يختلق كذبة تجعلني أقول له :- هذا كذب . . سأعطيه نصف مملكتي»

فجاء إليه راع وقال له : أطال الله عمر ملكنا كان عند أبي عصا طويلة يمدها إلى السماء ويحرك بها النجوم .

فقال الملك : يا له من شيء غريب ، لكنه يحدث ، وجدّي كان له غليون يشعله من الشمس مباشرة ، وذهب الراعي دون أن ينال شيئا

وجاء خياط إلى الملك وقال له : اعذرني أيها الملك لقد تأخرت إذ كنت مشغولا فقد هبت البارحة عاصفة شقق فيها البرق السماء فذهبت لأصلحها .

فأجاب الملك : أحسنت عملا لكنك لم تخطها بشكل جيد فاليوم صباحا تساقط رذاذ من المطر ، وذهب الخياط أيضاً دون أن ينال شيئاً .

فجاء رجل آخر يتأبط برميلاً . . فقال له الملك : ما شأنك انت والبرميل؟

فأجاب : جئت أسترد برميل الذهب الذي أقرضتك إياه

فصاح الملك : أأنا مدين لك ببرميل من الذهب!!!

فأجاب الرجل : نعم

فقال الملك : لا . . هذا كذب

فقال الرجل : إن كان هذا كذبا . . فأعطني نصف مملكتك

فأجاب الملك على الفور : لا لا . . هذا صحيح . .

فقال الرجل : إن كان هذا صحيحا فأعطني برميل الذهب !

رؤيا ملك اليمن

رأى ملك اليمن ربيعة بن نضر[1] رؤيا هالته ، وفظع بها فلم يدع كاهنا ولا ساحرا ولا عائفا ولا منجما من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها ، فأخبروني بها وبتأويلها . فقالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها . قال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا ، فليبعث إلى سطيح وشق ، فإنه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانه بما سأل عنه .

من هما شق وسطيح

الأول : هو شق بن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قسر بن عبقر بن أنمار بن نزار .

وقيل أنه سمي شقا لأنه كان كشق إنسان له عين واحده ويد واحده ورجل واحده .

أما الثاني : سطيح بن ربيع بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن غسّان .

وكان سطيح هذا كالبضعة الملقاة على الأرض فكأنه سطح عليها .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق ، فقال له : إني رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها ، فأخبرني بها فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها . فقال سطيح : أفعل ، رأيت حمحمه (أي فحمة فيها نار) خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة (الأرض المتصوبة نحو البحر) فأكلت منها كل ذات جمجمة .

فقال الملك : ما أخطأت منها شيئا يا سطيح ، فما عندك في تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فلتملكن ما بين أبين وجرش (وهي من مدن اليمن) .

فقال الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفي زماني أم بعده ؟

---

(١) أحد ملوك مملكة حمير التبابعة .

قال : لا بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين .

قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

قال : لا بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ثم يقتلون ويخرجون هاربين .

قال الملك : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم بن ذي يزن (ويقصد بذلك سيف بن ذي يزن) يخرج عليهم من عدن فلا يترك أحدا منهم باليمن .

قال : أفيدوم ذلك أم ينقطع ؟

قال : لا بل ينقطع .

قال : ومن يقطعه ؟

قال : نبي زكي يأتيه الوحي من قِبَلِ العلي .

قال : ومن هذا النبي ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر .

قال الملك : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون .

قال : أحق ما تخبرني ؟

قال : نعم والشفق والغسق والفلق إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق .

ثم قدم عليه شق ، فقال له كقوله لسطيح وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان .

فقال شق : نعم ، رأيت حمحمه ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نسمة .

فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئا فما عندك في تأويلها ؟

قال : أحلف بما في الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان ، وليملكن ما بين أبين ونجران .

فقال له الملك : وأبيك يا شق ، إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن ؟ أفي زماني أم بعده ؟

قال : لا بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ويذيقهم أشد الهوان .

قال : وما هذا العظيم الشأن ؟

قال : غلام ليس بدني ولا مدن ، يخرج عليهم من بيت ذي يزن ، فلا يترك منهم أحدا باليمن .

قال الملك : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع برسول مرسل يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل .

قال : وما يوم الفصل ؟

قال : يوم تجزيء فيه الولاة ، ويدعى فيه من في السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه بين الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات .

قال : أحق ما تقول ؟

قال : أي ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض (وهي الشك بلغة حمير) .

فوقع في نفس الملك ربيعة بن نضر ما قالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له «سابور بن خرزاذ» فأسكنهم الحيرة .

ابن مقلة واليهودي

كان ابن مقلة وزيرًا لبعض الخلفاء فزوَّر عنه يهودي كتابًا إلى بلاد الكفار وضمَّنه أمورًا من أسرار الدولة ثم تحيَّل اليهودي إلى أنْ وصل الكتاب إلى الخليفة فوقفَ عليه وكان عندَ ابن مقلة جارية هويت هذا اليهودي فأعطتهُ درجًا بخطه فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطَّهُ ذلك الخط الذي كان في الدرج ، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة وكانَ ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل من في الدولة ، فلما قُطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحدٌ إليه ولا توجَّع له ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلهما شر قتلة ، ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعًا سنية وندم من فعله واعتذر إليه فكتب ابن مقلة على باب داره يقول :

تحالَف النَّاسُ والزَّمانُ   فحيثُ كانَ الزَّمانُ كانوا

عاداني الدَّهرُ نِصفَ يوم   فانكشفَ النَّاسُ لي وبانوا
يا أيُّها المُعرِضونَ عنّي   عُودوا فقدْ عادَ ليَ الزَّمانُ

أحمد بن الخصيب ووكيله

كان لأحمد بن الخصيب[1] وكيلٌ في ضياعه ، فرفعت عليه جنايةٌ ، فهرب ، فكتب إليه أحمد يؤنسه ويحلف له على بطلان ما اتصل به ، ويأمره بالرّجوع ، فكتب إليه :

(أنّا لك عبدٌ سامعٌ ومطيعٌ   وإنّي بما تهوى إليك سريع)
(ولكن لي كفّاً أعيش بفضلها   فما أشتري إلا بها وأبيع)
(أأجعلها تحت الرّحى ثمّ أبتغي   خلاصاً لها إنّي إذن لرقيع)

الجواب الحاضر

منع عمرو بن العاص أصحابه ما كان يصل إليهم ؛ فقام إليه رجلٌ ، فقال له : اتّخذ جنداً من الحجارة لا تأكل ولا تشرب ؛ فقال له عمرو : اخسأ أيّها الكلب . فقال له الرجل : أنا من جندك ، فإن كنت كلباً فأنت أمير الكلاب وقائدها .

قال رجلٌ لغلامه : يا فاجر ، فقال : مولى القوم منهم .

قال جعفر بن يحيى لبعض جلسائه : أشتهي والله أن أرى إنساناً تليق به النعّمة ؛ فقال : أنا أريك ؛ قال : هات ؛ فأخذ المرآة وقرّبها من وجهه .

قيل لجمّير : من يحضر مائدة فلانٍ؟ فقال : أكرم الخلق وألأمهم ، يعني : الملائكة والذباب .

(١) أحمد بن الخصيب ابن عبد الحميد ، الجرجرائي ، الوزير الكبير ، أبو العباس ابن أمير مصر . استوزره المنتصر ، ثم المستعين . وارتفع شأنه ، ثم نكب ، ونفاه المستعين إلى الغرب في سنة ٢٤٨ .

رأى منصورٌ الفقيه ابنه يلعب ويعدو ، فقال له : لو علمت أنّ رجلك من قلب أبيك لرفقت بها .

قال الصّاحب بن عباد : جئت من دار السلطان ضجراً من أمر عرض لي ؛ فقال لي رجلٌ : من أين أقبلت؟ فقلت : من لعنةِ الله ؛ فقال : ردّ الله عليك غربتك .

قام رجلٌ على رأس ملكٍ ، فقال : لم قمت؟ قال : لأقعد ؛ فولاه .

كان أبو الفضل بن حنزابة ربما رفع أنفه تيهاً ؛ فقال له بعضهم وقد رآه فعل ذلك : أشم الوزير أيده الله رائحة كريهةً فشمر أنفه ؟ فخجل فأطرق .

ابن عياش والزبيري

قال عبد الرّحمن بن صالح : دخل أبو بكر ابن عيّاش على موسى بن عيسى وهو على الكوفة ، وعنده عبد الله بن مصعب الزّبيري ، فأدناه موسى ، ودعا له بتكاء ، فاتّكأ وبسط رجليه ، فقال لزّبيري : من هذا الذي دخل ولم يستأذن له ، ثم اتّكأته وبسطته؟ قال : هذا فقيه الفقهاء والمرأس عند أهل المصر ، أبو بكر ابن عيّاش ؛ قال الزّبيري : فلا كثير ولا طيب ، ولا مستحق لما فعلت به }فقال أبو بكر للأمير : من هذا الذي يسأل عني بجهل ، ثم تتابع بسوء قول وفعل؟ فنسبه له ، فقال له : اسكت مسكتاً {فبأبيك غدر ببيعتنا ، وبقول الزور خرجت أمّنا ، وبابنه هدمت كعبتنا ، وبك أحرى ان يخرج الدّجّال فينا ؛ فضحك موسى حتى فحص برجليه ، وقال للزّبيري : أنا والله أعلم أنّه يحفظ أهلك وأباك ويتولاه ، ولكنّك مشؤوم على آبائك .

أبو دلامة وأم سلمة

قال أبو سعيد عبد الله بن شبيبٍ : حدّثني الزبير(١) ، قال : كانت أمّ سلمة بنت

(١) الزبير بن العوام الأسدي القرشي ، ابن عمة النبي محمد ، وأبو عبد الله بن الزبير . ولد سنة ٢٨ قبل الهجرة ، وأسلم وعمره اثنتين عشرة سنة ، كان ممن هاجر إلى الحبشة ، وهاجر إلى المدينة ، تزوج أسماء بنت أبي بكر وعمته هي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد .

يعقوب بن سلمة بعد موت أمير المؤمنين أبي العباس لا تضحك ، فأنشدها أبو دلامة مرثيةً رثاه بها ، فقالت : ما وجدت أحداً حزن على أمير المؤمنين حزني وحزنك{ فقال : لا سواء رحمك الله ، لك منه ولدٌ وليس لي منه ولدٌ! فضحكت وقالت : لو أحدث الشيطان لأضحكته .

القواد وأمير مكة

قال بكّار بن رباح : كان بمكة رجلٌ يجمع بين النساء والرجال ، ويعمل لهم الشراب ، فشكي إلى أمير مكة ، فنفاه إلى عرفات ، فبنى بها منزلاً ، وأرسل إلى حرفائه : ما يمنعكم أن تعاودوا ما كنتم فيه؟ قالوا : وكيفً وأنت بعرفات؟ فقال : حمار بدرهمين ، وقد صرتم إلى الأمن والنّزهة ؛ فكانوا يركبون إليه ، حتى أفسد أحوال أهل مكة ، فعادوا يشكونه إلى الوالي ، فأرسل إليه ، فأتي به ، فقال : يا عدو الله {طردتك من حرم الله فصرت بفسادك إلى المشعر الأعظم }فقال : يكذبون عليّ ؛ فقالوا : دليلنا أن نأمر بحمير مكةّ ، فتجمع ، ويرسل بها مع أمنائك إلى عرفات ، فإن لم تقصد منزله من بين المنازل فنحن مبطلون ؛ فقال الوالي : إن هذا لشاهد ودليل ؛ فجمع الحمر ، ثم أرسلها ، فصارت إلى منزله ، فقال الأمير : ما بعد هذا شيءٌ ؛ فجرّدوه ، فلما نظر إلى السياط ، قال : لا بدّ لك من ضربي؟ قال : نعم ، قال : والله ما عليّ في ذلك أشد من أن يضحك منا أهل العراق ، ويقولون : أهل مكة يجيزون شهادة الحمير {فضحك الوالي .

أعرابي في حضرة الملك

دَخل أعرابي على بعض المُلوك فقال :
إنَّ جهلاً أن يقول المادحُ بخلاف ما يَعْرِف من المَمْدُوح ،
وإنّي واللّه ما رأيتُ أعشق للمكارم في زَمانِ اللؤم منك ،
ثم أنشد :

مالـي أرى أبْوَابهم مَهجُورةً ... وكـأنّ بابَـك مَجْمَـع الأسْوَاقِ
حابَـوك أم هابُوك أم شامُوا النَّـدَى ... بيدَيْـك فاجتمعـوا من الآفـاقَ
إنّـي رأيتُـك للمكـارم عاشقـاً ... والمَكْرُمـات قليلـةَ العُشـاق

ابن عامر وابن حازم:

وقال عبد الله بن عامر بن كريز لعبد الله بن حازم يا بن عجلى . قال : ذاك اسمها . قال : يا بن السوداء . قال : ذاك لونها . قال : يا بن الأمة . قال : كل أنثى أمة فاقصد بذرعك لا يرجع سهمك عليك ؛ إن الإماء قد ولدنك .

ابن أبي بردة والممرور

بعث بلال بن أبي بردة إلى ابن أبي علقمة الممرور ، فلما أتى قال : أتدري لم بعثت إليك؟ قال لا أدري . قال : بعثت إليك لأضحك بك! قيل : لقد ضحك أحد الحكمين من صاحبه - يعرّض له بجده أبي موسى- فغضب بلال وأمر به إلى الحبس ، فكلّمه الناس وقالوا : إن المجنون لا يعاقب ولا يحاسب . فأمر بإطلاقه وأن يؤتى به إليه ، فأتي به في يوم سبت وفي كمه طرائف أتحف بها في الحبس ؛ فقال له بلال : ما هذا الذي في كمك؟ قال : من طرائف الحبس . قال : ناولني منها . قال : هو يوم سبت ، ليس يعطى فيه ولا يؤخذ! يعرّض بعمة كانت له من اليهود .

كذب المنجمون ولو صدقوا !

أبو شجاع بويه كان رجلا متوسط الحال وماتت زوجته وخلفت له ثلاثة بنين ، فلما ماتت اشتد حزنه عليها ، فحكى شهربان بن رستم الديلمي قال : كنت صديقاً لأبي شجاع بويه فدخلت إليه يوماً فعذلته على كثرة حزنه فقلت له : أنت رجل تحتمل الحزن وهؤلاء المساكين أولادك يهلكهم الحزن ، وربما مات أحدهم فيتجدد لك من الأحزان ما ينسيك المرأة ، وسليته بجهدي وأدخلته وأولاده إلى منزلي ليأكلوا طعاماً وشغلته عن حزنه ؛ فبينما هم كذلك إذ اجتاز بنا رجل منجم ليأكلوا طعاماً وشغلته عن حزنه ؛ فبينما هم كذلك إذ اجتاز بنا رجل منجم ومعزم ومعبر للمنامات ويكتب الرقي والطلسمات وغير ذلك ، فأحضره أبو شجاع وقال له : رأيت في منامي كأنني أبو فخرج من ذكري نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء ، ثم انفرجت فصارت ثلاثة شعب وتولد من تلك الشعب عدة شعب ، فأضاءت الدنيا بتلك النيران ، ورأيت البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران ، فقال المنجم : هذا المنام

عظيم لا أفسره إلا بخلعة وفرس ومركب ، فقال له أبو شجاع : والله ما أملك إلا الثياب التي على جسدي فإن أخذتها بقيت عرياناً ، فقال المنجم : فعشرة دنانير ، قال : والله ما أملك دينارين فكيف عشرة فأعطاه شيئاً ، فقال المنجم : أعلم أنك يولد لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها ويعلو ذكرهم في الآفاق كما علت تلك النار ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب ؛ فقال أبو شجاع : أما تستحي تسخر منا أنا رجل فقير وأولادي فقراء مساكين كيف يصيرون ملوكاً ثم قال المنجم : أخبرني توقيت ميلادهم ، فأخبره ، فجعل يحسب ثم قبض على يد أبي الحسن علي فقبلها وقال : هذا والله الذي يملك البلاد ، ثم هذا بعده ، وقبض على يد أخيه أبي علي الحسن ، فاغتاظ منه أبو شجاع وقال لأولاده : اصفعوا هذا الحكيم فقد أفرط في السخرية بنا ، فصفعوه وهو يستغيث ونحن نضحك منه ، ثم قال لهم : اذكروا لي هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك ، فضحكنا منه ، وكان من أمرهم ما قد ذكر .

مجاورة

كان لأشمول الإخشيدي دار مشرفة على النيل يتنزه إليها في زمان المد وطيب الهواء ، وكان يجاوره العباس بن البصري في راقوبة له ، فاحتسبت في تلك الدور ، وقيل لكافور : إنها مبنية في فناء النيل فأمر بهدمها ، فدخل ابن البصري على كافور فأنشده :

يأيها الأستاذ يا ذا الّذي   همّته أعلى من الكوكب
انظر إليّ وإلي فاقتي   وارث لضعفي ولما حلّ بي
فإنّ لي بالشطّ راقوبةً   أضيق من قارورة المحلب
صغيرةً ضيقةً عرضها   عرض سرير جاء في مركب
كأنها رجلٌ سماريّةٌ   أخرجها . . . أو زيزب
لو رأيت الزنج في شطّنا   وقد أحاطوا بأبي تغلب
عمّة ذا حمراء مصقولةٌ   وفاس ذا معتدل المحرب
في يد ذا حلب هائلٌ   يا ربّ سلّمني من المحلب
إن أخذتني ضربةٌ منهم   رأيتني أرقص كالأحدب

قــد أحــدق الصّفــع بجيراننــا   بالشــطّ بالأقــرب فالأقـرب
وإن تماديــت وخلّيتنــي   خشيــت أن أدخــل في اللولــب

فضحك كافور ، والتفت إلى أشمول : وقال : أنت بجواره ؟ قال : أنا ما لي دار أعز الله الأستاذ قد سلمت .

مثلي ومثل أبيك !

تقدم الوزير علي بن عيسى إلى ابن أبي عبد الله بن الجصاص[(١)] في البكور ، فأتاه نصف النهار . فقال : ما أخرك يا أبا عبد الله ؟ قال بمحلتي أعز الله الأمير كلاب تنبح الليل أجمع ، فأسهرتني البارحة ، فلما كان مع وجه السحر سكن نباحها ، فنمت فغلبتني عيني إلى الآن ، فقال له : وما لك يا أبا عبد الله لا تتقدم في قتلها ؟ قال : ومن يستطيعها أيها الوزير ؟ وكل واحد منها مثلي ومثل أبيك رحمه الله .

لؤم ابن الزيات

وكان محمد بن عبد الملك على علمه وأدبه ألأم الناس ، فمن عجيب لؤمه أنه كان له جار في انخفاض حاله ، وكان بينهما ما يكون بين الجيران من التباعد ؛ فلما بلغ محمد ما بلغ شخص الرجل إلى سر من رأى ، فورد بابه وهو يتغدى ، فوصل إليه وهو على طعامه ، فتركه قائماً لا يرفع طرفه إليه ، فلما فرغ من أكله قال : ما خبرك ؟ قال : قد أصارك الله أيها الوزير إلى أجل الآمال فيك ، وصرف أعناق الناس إليك ، وقد علمت ما كنت تنقمه علي ، وقد غير الدهر حالي ؛ فوردت إليك مستقيلاً عثراتي ، مستعطفاً على خلاتي .

فقال له : قد علمت هذا ، فانصرف وعد إلي في غد . فولى الرجل ؛ فلما صار في صحن الدار دعا به ، فلما صار بين قال له : والله ما لك عندي شيء ، ثم أقبل على بعض من كان بين يديه ، فقال : إنما رددته وآيسته بخلاً عليه بفسحة الأمل بقية يومه .

وهذا كقول بعضهم :

(١) بن الجصاص الصدر الرئيس ، ذو الأموال ، أبو عبد الله ، الحسين بن عبد الله بن الجصاص ، البغدادي الجوهري التاجر الصفار . قال ابن طولون : لا يباع لنا شيء إلا على يد ابن الجصاص .

إن قلـــت إنّـــك كالسحـاب لكان ذا وصفـــاً لمثلـــك زائـــداً فـي الحال
إنّ السحـــاب لـــذو مواعـــد جمّـــة وبخلـــت بالموعـــــود والأفعـــال

وكان محمد بن عبد الملك واحداً في صناعته ، مفرداً في براعته .

متجسس متماوت

وكـان أحـمـد بن طولون قـد نابذ الموفق وباينه بالعـداوة وخلعه ، وكـان قـد ضـبط مصر من الجواسيس وكان متيقظاً فهماً ، فأشرف من قصره يوماً ، فإذا بجنازة قد مرت عليـه . فقـال : علي بالنعش ومن فيـه . فأحضروه ، فـقال : قم يا متـماوت ، ثم دعـا بالسياف وقال : اضربه ، فقام الميت من نعشه ، فقال له : أنت متجسس من ناحية أحـمـد ؟ قـال نعم ! قـال : لو لم أتقـدم إليك لقـتلتك وقـتلت من معك ، وأمـر من أخرجهم عن عمل مصر . فقيل له : من أين علمت ذلك ؟ فقال : رأيت القوم ليس عليـهم كـآبة من مات له ميت ، ورأيتـهم يطوفون بالقـصر ، ونظرت إليه في النعش فرأيت رجليـه قائمتين ورجل الميت تسترخي ؛ فحكمت أنه حي ، فلما حضر رأيته يسارق النفس فصحت القضية .

تغير الحال

قـال أبو علي الصـوفي : كنت مع المهلبي في بعض أوقـاته ، أماشـيه في بعض طرقاته ؛ فضجر لضيق الحال ، فقال :

ألا مـــوتٌ يبـــاع فأشتريـه فهـذا العيش ما لا خير فيه
ألا رحم المهيمن روح حـــرّ تصدّق بالوفاة على أخيـــه

قـال : فـاشـتـريت له رطل لحم وطـبـخـتـه له . ثم تصـرف بنا الدهر وبلغ المهلبي مـبلغـه ؛ قـال أبو علي : فـاجـتـزت البـصـرة واجـتـزت بأسلمـان ، فـإذا أنا بناشطيـات وحـراقـات وزيارب وطيـارات في عـدة وعـدة . فـقلت : لمن هذا ؟ فـقـيل : للوزير أبي محمد المهلبي ، فنعتوا لي صاحبي ، فتوصلت إليه حتى رأيته ، فكتبت رقعة واحتلت حتى دخلت ، فسلمت وجلست ، حتى إذا خلا المجلس رفعت إليه الرقعة ، وفيها :

ألا قـــل للوزير بلا احتشام مقـــال مذكّر ما قد نسيـــه
أتذكر أن تقول لضيق عيش ألا مـوتٌ يبـــاع فأشتريـــه

فنظر إلي ، وقـال : نعم ! ونهض وأنهضني معه في مجلس أنسه ، وجعل يذكر

لي كيف توافت حاله ؛ وقدم الطعام فأطعمنا ، وأقبل ثلاثة من الغلمان على رأس أحدهم ثلاث بدر ، ومع آخر تخوت وثياب رفيعة ، ومع آخر طيب وبخور ؛ وأقبلت بغلة رائعة بسرج ثقيل ؛ فقال لي : يا أبا علي ؛ تفضل بقبول هذه ، ولا تتأخر عن حاجة تعرض لك ، فشكرته وانصرفت ؛ فلما هممت بالخروج من الباب استردني وأنشدني بديهاً :

رقّ الزمـــان لفاقتـــي ورثـــى لطـــول تحرّقـــي
فأنالنـــي مـــا أرتجـي وأجـــار ممّـــا أتّقـــي
فلأغفـــرنّ لـــه القـدي م مـــن الذنـــوب السّبّق
إلاّ جنايتـــه لمـــا فعـــل المشيـــب بمفرقـــي

الخبيص

ذكروا أن بعض الملوك أتته سلل خبيص فظنها فاكهة ، فبعث إلى مساكين المسجد فحضروا ، ثم فتح السلل فوجد فيها خبيصاً ، فندم وبقي متحيراً ، ثم أمر بهم إلى السجن . فقالوا : ما ذنبنا ؟ فقال : بلغني أنكم تنامون في المسجد ثم تقام الصلاة فتصلون على غير وضوء . فقالوا : خل سبيلنا ، فوالله لا أكلنا خبيصاً أبداً ، فضحك وعلم أنهم علموا بأمره ، فأمر لهم بدراهم وخلى سبيلهم .

المجنون الفصيح

عن علي بن يوسف ، قال : لما قدم أبو دلف[١] بغداد ، أتيناه للسلام عليه ، فبينا أنا عنده إذ أتاه الحاجب ، فقال : جعيفران الموسوس بالباب ، فقال أبو دلف : ما لنا وللمجانين؟ فقلت له : أصلحك الله ، إنه شاعرٌ ظريفٌ ، فأْذن له ، فأذن له ، فوقف بين يدي أبي دلف ، فقال :

يـــا أكـــرمٍ الأمـــة موجـــوداً ويـــا أعـــز الخلـــق مفقوداً
لما سألت النـــاس عـــن سيـــدٍ يصبـــح فـــي الأمة محمـــوداً

(١) أبو دُلف العجلي واسمه القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل العجلي قائد عباسي في زمن المأمون والمعتصم وأيضا هو شاعر وأديب . وكان أمير الكرخ ، وسيد قومه ، وأحد الأمراء الأجواد .

قالوا جميعاً : إنه قاسمٌ أشبه آباءً له صيدا
لو عبدوا شيئاً سوى ربهم أصبحت في الأمة معبودا

فقال أبو دلف : يا غلام ، أدفع إليه عشرة آلاف درهم ، فقال جعيفران : وما أصنع بعشرة آلاف درهم؟ مر الغلام يقبضها إليه ، ومره يدفع إلّي كلما جئته عشرة دراهم حتى تفنى ، فقال أبو دلف : يا غلام ، ادفع إليه العشرة آلاف درهم ، وكلما جاء ادفع إليه عشرة دراهم ، حتى يفرق الموت بيني وبينه .

فأكب جعيفران إلى الأرض ، ثم رفع رأسه فقال :

يموت هذا الذي أراه وكل شيء له نفاد
لو أن خلقاً له خلودٌ عمر ذا الفاضل الجواد

عبد الله بن معاوية وخاله

كان عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب صديقاً للوليد يأتيه ويؤانسه ، فجلسا يوماً يلعبان بالشطرنج إذ أتاه الآذن فقال : أصلح الله الأمير رجل من أخوالك من أشراف ثقيف قدم غازياً فأحب السلام عليك

فقال : دعه

فقال عبد الله : وما عليك ائذن له فنظل نحن على لعبنا

فادع بمنديل يوضع عليها ونسلم على الرجل ونعود ففعل ، ثم قال : ائذن له

فإذا هو رجل له هيبة وبين عينيه أثر السجود

وهو معتم قد رجل لحيته فسلم ثم قال : أصلح الله الأمير قدمت غازياً فكرهت أن أجوزك حتى أقضى حقك

فقال : حياك الله وبارك عليك ثم سكت عنه

فلما أنس أقبل عليه الوليد فقال :

يا خال هل جمعت القرآن

قال : لا كانت شغلتنا عنه شواغل

قال : أحفظت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه وأحاديثه شيئاً

قال : لا كانت شغلتنا عن ذلك شواغل

قال : فأحاديث العرب وأشعارها

قال : لا

قال : فأحاديث أهل الحجاز ومضحيكها
قال : لا
قال : فأحاديث العجم وآدابها
قال : ذاك شيء ما طلبته
فرفع الوليد المنديل وقال : شاهك
فقال عبد الله بن معاوية : سبحان الله
قال : لا والله ما معنا في البيت أحد
فلما رأى ذلك الرجل خرج وأقبلوا على لعبهم

المهلب بن أبي صفرة

خرج المهلب بن أبي صفره يوما مع ابنه فمرا على عجوز فذبحت لهما عنزا
فقال المهلب لابنه كم معك من النفقة ؟
فقال الابن : مائة دينار
فقال الملهب :ادفعها لها .
فلما ذهبا قال الابن لأبيه : إنها كانت ترضى باليسير
فقال المهلب ان كانت يرضيها اليسير فانا لا يرضيني إلا الكثير وإن كانت لا تعرفني فانا أعرف نفسي .

الحجاج بن أرطأة

كان الحجاج بن أرطأة واليا لبنى العباس على البصرة وكان شديد الاعتزاز بنفسه روى أنه في احد الايام دخل على مسجد البصرة
واقترب من أحد العلماء وجلس مع الطلبة يستمع لحديث الشيخ فقيل له لم لا ترتفع إلى الصدر يا ابن ارطاه مكانك يجب ان يكون
قرب العلماء وعلية القوم فقال الحجاج : أنا صدر حيث جلست .

من الأجوبة المسكتة

أخذ يعقوب بن الليثيّ في أوّل أمره رجلا فاستصفاه ، ثم رآه بعد زمان ، فقال له : أبا فلان ، كيف أنت الساعة؟ قال له : كما كنت أنت قديما . قال : وكيف كنت

أنا؟ فقال : كما أنا الساعة ، فأمر له بعشرة آلاف درهم .

نظر ثابت بن عبد الله بن الزّبير إلى أهل الشام فشتمهم ، فقال له سعيد بن عثمان بن عفّان : أتشتمهم لأنّهم قتلوا أباك؟ فقال : صدقت ، ولكنّ المهاجرين والأنصار قتلوا أباك .

وقال عبد الرّحمن بن خالد بن الوليد لمعاوية : أما والله لو كنت بمكة لعلمت ، فقال معاوية : كنت أكون ابن أبي سفيان ينشقّ عني الأبطح ، وكنت أنت ابن خالد منزلك أجياد ، أعلاه مدرة ، وأسفله عذرة .

موعظة

قال خطيب من الخطباء ، حين قام على سرير الاسكندر وهو ميت :

«الاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس» .

النقص في جانب يتمه الكمال في جانب آخر

عبد الله بن فائد قال : قالت امرأة الحضين بن المنذر للحضين : كيف سدت قومك وأنت بخيل وأنت دميم؟ قال : لأني سديد الرأي ، شديد الإقدام .

الأحنف وعبد الله بن الزبير

لما وفد الأحنف في وجوه أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير ، تكلم أبو حاضر الأسيدي وكان خطيبا جميلا ، فقال له عبد الله بن الزبير :

أسكت ، فو الله لوددت أنّ لي بكل عشرة من أهل العراق رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم . قال : يا أمير المؤمنين ، إن لنا ولك مثلا ، أفتأذن في ذكره؟ قال : نعم . قال : مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام ، كقول الأعشى حيث يقول :

علّقتها عرضا وعلقت رجلا غيري وعلّق أخرى غيرها الرجل

أحبك أهل العراق ، وأحببت أهل الشام ، وأحب أهل الشام عبد الملك ابن مروان

بين مسلمة وابن المهلب

كتب مسلمة بن عبد الملك ، إلى يزيد بن المهلب : إنك والله ما أنت بصاحب هذا الأمر ، صاحب هذا الأمر مغمور موتور وأنت مشهور غير موتور .

فقال له رجل من الأزد يقال له عثمان بن المفضل : قدم ابنك مخلدا حتى يقتل فتصير موتورا .

التسبيح معصية

قال طاوس(١) : كنت عند محمد بن يوسف ، فأبلغه رجل عن بعض أعدائه كلاما ، فقال رجل من القوم : سبحان الله! فقال طاوس : ما ظننت أن قول سبحان الله معصية لله حتى كان اليوم . كأنه عنده إنما سبّح ليظهر استعظام الذي كان من الرجل ، ليوقع به

دولة العرجان

دخل الحكم بن عبدل الأسدي وهو أعرج ، على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وهو أمير الكوفة وكان أعرج ، وكان صاحب شرطه اعرج ، فقال ابن عبدل :

ألق العصا ودع التخامع والتمس ... عملا فهذي دولة العرجان
لأميرنا وأمير شرطتنا معا ... لكليهما يا قومنا رجلان
فإذا يكون أميرنا ووزيرنا ... وأنا فإن الرابع الشيطان

وقال أبو عبد الحميد : لم أسمع أعجب من قول عمر : «لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما أركب» .

---

(١) ابن كيسان ، الفقيه القدوة عالم اليمن ، أبو عبد الرحمن الفارسي ، ثم اليمني الجندي الحافظ . كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له ، فقيل : هو مولى بحير بن ريسان الحميري ، وقيل : بل ولاؤه لهمدان . سمع من زيد بن ثابت ، وعائشة ، وأبي هريرة ، وزيد بن أرقم ، وابن عباس ، ولازم ابن عباس مدة ، وهو معدود في كبراء أصحابه .

فرعون ورجل مؤمن

روي أن رجلين من آل فرعون سعيا برجل مؤمن الى فرعون ، فأحضره فرعون وأحضرهما وقال للساعيين : من ربّكما؟

قالا : أنت .

فقال للمؤمن : من ربّك .

قال : ربّي ربهما .

فقال فرعون : سعيتما برجل على ديني لأقتله ، فقتلهما .

قالوا : فذلك قوله تعالى : ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ .

الإسكندر ومؤدبه

قال أبو الحسن عتّاب : عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، إن الإسكندر كان لا يدخل مدينة إلا هدمها ، وقتل أهلها ، حتى مر بمدينة كان مؤدبه فيها ، فخرج إليه ، فألطفه الإسكندر وأعظمه ، فقال له : «أيها الملك ، إن أحق من زيّن لك أمرك وواتاك على كل ما هويت لأنا ، وإن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكاني منك ، وأحب ألا تشفعني فيهم ، وأن تخالفني في كل ما سألتك لهم» . فأعطاه الإسكندر من ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه . فلما توثق منه قال : «فإن حاجتي أن تدخلها وتخربها وتقتل أهلها» . فقال الإسكندر : ليس إلى ذلك سبيل ، ولا بد من مخالفتك

عقل الأمير

وقف معاوية بن مروان على باب طحان فرأى حمارا يدور بالرحى وفي عنقه جلجل فقال للطحان : لم جعلت الجلجل في عنق الحمار ؟ قال : ربما أدركتني سآمة أو نعاس فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه وقف فصحت به فانبعث . قال : أفرأيت إن وقف وحرك رأسه بالجلجل وقال هكذا وهكذا وحرك رأسه . فما علمك أنه واقف ، فقال له : ومن لي بحمار يكون عقله مثل عقل الأمير !

كذب بكذب

يحكى عن وال كان بفارس ، إما أن يكون خالدا خومهرويه ، أو غيره ، قال :

بينا هو يوما في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب بجهده ، إذ نجم شاعر من بين يديه ، فأنشده شعرا مدحه فيه ، وقرّظه ، ومجّده . فلمّا فرغ قال : «قد أحسنت» . ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه ألف درهم» . ففرح الشاعر فرحا شديدا ؛ فلما رأى حاله قال : «وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع؟ اجعلها عشرة آلاف درهم» . فكاد الشاعر يخرج من جلده ، فلما رأى فرحه قد تضاعف ، قال : «وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول؟ أعطه يا فلان أربعين ألفا» . فكاد الفرح يقتله .

فلما رجعت إليه نفسه قال له : «أنت ، جعلت فداك ، رجل كريم ؛ وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحا ، زدتني في الجائزة ، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر» . ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : «سبحان الله! هذا كان يرضى منك بأربعين درهما تأمر له بأربعين ألف درهم» ؟ قال : «ويلك! وتريد أن تعطيه شيئا» ؟ قال : «ولم امرت له بذلك» ؟ قال : «يا أحمق ، إنما هذا رجل سرّنا بكلام ، وسررناه بكلام . هو حين زعم أني أحسن من القمر ، وأشدّ من الأسد ، وأن لساني أقطع من السيف ، وأن أمري أنفذ من السّنان هل جعل في يدي من هذا شيئا أرجع به الى بيتي؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكنه قد سرّنا حين كذب لنا ، فنحن أيضا نسرّه بالقول ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذبا ، فيكون كذب بكذب وقول بقول . فأما أن يكون كذب بصدق وقول بفعل ، فهذا هو الخسران المبين الذي سمعت به» .

محبة بعد عداوة

قيل للمهلب : إن فلان عينٌ للخوارج فِي عسكرك ، وإنه يتكفن بالسلاح إذا دعوا للحرب ليغتالك ويلحق بالخوارجِ ، فبعث إليه ، فأتى به فقَالَ له : قد تقرر عندنا كيدك لنا ، ولم نقدم من أمرك عَلَى ما عزمنا عليه إلا بعد ما لم يدع اليقين للشك معترضاً ، فاختر أي قتلة تحب أن أقتلك؟ فقَالَ : سيف مجهز أو عطفة كريمة محتقر لضغن ذوي الضغائن ، قَالَ : فإنها عطفة كريم محتقر للذنوب ، فخلى سبيله ، فكانً بعد ذلك من أوثق أصحابه عنده .

الصغيرة للصغير

جاء رجل إلى المهلب بن أبي صفرة
وقال له :
إني أريدك في حويجه !
قال المهلب :
فابحث لها عن رويجل !!

الجود بالموجود

قال : وقدم أبو وجزة السلمي على المهلب بن أبي صفرة
فقال : أصلح الله الأمير ! إني قطعت إليك الدهناء
وضربت إليك أكباد الإبل من يثرب .
فقال : هل أتيتنا بوسيلة أو قرابة أو عشرة ؟
قال : لا ولكني رأيتك لحاجتي أهلاً ، فإن قمت بها فأهل ذلك أنت
وإن يحلْ دونها حائل لم أذمْ يومك ولم أيأسْ من غدك .
فقال المهلب : يُعطى ما في بيت المال .
فوُجد فيه مئة ألف درهم فدُفعت إليه ،
فأنشأ يقول :

يا من على الجود صاغ الله راحته ... فليس يحسن غير البذل والجود
عمّت عطاياك من بالشرق قاطبةً ... وأنت والجود منحوتان من عُود

شعر عروة

أَبُو حاتم ، قَالَ : أتيت أبا عبيدة ومعي شعر عروة بن الورد فقَالَ لي : ما معك؟ فقلت : شعر عروة ، فقَالَ : فارغٌ حمل شعر فقير ليقرأه عَلَى فقير ، فقلت له : ما معي غيره ، فأنشدني أنت ما شئت ، فأنشدني :

يا ربّ ظلّ عقاب قد وقيت بها ... مهري من الشمس والأبطال تجتلد
ورب يوم حمى أرعيت عقوته ... خيلي اقتصارا وأطراف القنا قصد
ويوم لهو لأهل الخفض ظل به ... عنها لهوى اصطلاء الوغى وناره تقد
مشهراً موقفيَ والحرب كاشفةٌ ... عنها القناع وبحر الموت يطرد

ورب هاجــرةٍ تغلـــي مراجلهـــا　　مخرتهـا بمطايـا غـــارةٍ تخـــد
تجتـــاب أوديـــة الأفــزاع آمنـــة　　كأنهــا أســـد تقتادهـــا أسَـــد
فـــإن أمـــت حتـــف أنفـــي لا أمت　　كمداً عَلَى الطعان وقصر العاجز الكمد
ولم أقل لم أساق الموت شاربه　　فـــي كأســـه والمنايـــا شُرَّع وُرُدُ

ثم قَالَ : هذا الشعر! لا ما تعللون به أنفسكَم من أشعار المخانيث

سوء القول

وخطب الناس عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالمربد عند ظهور أمر الحجاج عليه فقال : أيها الناس ، إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة تضرب به يميناً وشمالاً فلا تلبث أن تموت .
فسمعه رجل من بني قشير بن كعب بن عامر بن صعصعة فقال : قبَّح الله هذا : يأمر أصحابه بقلة الاحتراس من عدوهم ويعدهم الغرور .

حكمة عمرو بن العاص

حدثني العباس بن الفرج في إسناد ذكره قال :
نُظِرَ إلى عمرو بن العاص على بغلة قد شَمِط وجهها هرماً ، فقيل له : أتركب هذه وأنت على أكرم ناخرةٍ بمصر
فقال : لا ملل عندي لدابتي ما حملت رجلي ،
ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي ،
ولا لصديقي ما حفظ سرِّي ، إن الملل من كواذب الأخلاق .

الثناء الحسن

حكى الثعالبي[1] عن إبراهيم بن السندي قال : قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من وجودها كان لا يخف كده ولا يجف قلمه ولا تستريح حركته في طلب

(١) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الذي يُعرف بأبي منصور الثعالبي النيسابوري ، أديب عربي فصيح عاش في نيسابور وضلع في النحو والأدب وأمتاز في حصره وتبيانه لمعاني الكلمات والمصطلحات .

حوائج الناس وإدخال المرافق على الضعفاء ، وكان وجيهاً ذا مروة وفصاحة : خبرني عن الشيء الذي هون عليك هذا المنصب وقواك على تكاليف النصب ما هو فقال : قد والله سمعت تغريد الأطيار بالأسحار وأصوات القيان فما طربت قط كطربي من ثناء حسن من رجل محسن ، قلت : لله درك ولله أنت قد حشيت مروة وكرماً .

المجانين الثلاثة

دعا بعض الملوك بأبي علقمة الممرور وآخر مجنون ليضحك منهما ، فشتماه فغضب . وقال : السياط يا جلادين . فقالا : كنا مجنونين فصرنا ثلاثة ، فضحك وأجزل صلتهما .

المتشائم

وكان بعض الأكاسرة يتطير ، فلقيه رجل أعور ، فأمر بحبسه ، فأقام مدة ثم أطلقه فتعرض له فقال : لم حبستني ؟ قال : تشاءمت بك . قال : فأنت أشأم مني ؛ خرجت من قصرك فلقيتني فلم تر إلا خيراً ؛ وخرجت أنا فلقيتك فحبستني . فقال الملك : صدق وأمر له بصلة .

الأعرابي والمهلب

قيل وقف أعرابي بباب داود بن المُهَلَّب سنة لم يؤذن له .
فلمَّا أُذِن للناس إِذْناً عامَّاً دخل في جُملتهم ،
فقضى داود حوائجَ الناس على طبقاتهم ، وبقي هو ،
فرفع داود رأسه إليه وقال : ألك حاجة يا بدوي ؟
فقال : نعم أصلح الله الأمير أتيْتُك مُمْتَدِحاً بأبيات من الشعر ،
أُؤَمِّلُ بكلِّ بيت منها ألفَ درهم .
قال له داود : قُلْ ،
فاندفع يقول :

آمَنْتُ بداود وجود يمينه — من الحَدَث المَخْشيِّ والبؤسِ والفقر
وأصبحْتُ لا أخشى بداود نكبة — ولا حَدَثاناً إذ شدَدْتُ به ظهري
فما طلحةُ الطَّلَحاتِ ساواه في النَّدى . . .

ولا حاتم الطائي ولا خالد القَسْري

لــه حكــمُ لقمــان وصُــورةُ يُوسُف   ومُلْــكُ سليمــان وصدْقُ أبـي ذرِّ
فتــىً تَهْــرُبُ الأموالُ منْ جُودِ كَفِّـه   كما يهرُبُ الشيطانُ من ليلة القَدْرِ
لــه همَــــمٌ لا مُنْتَهــى لكبيرهــا   وهمَّتُه الصُغْرى أجلُّ منَ الدَّهـــرِ
وراحتُــــهُ لــو أنَّ معْشَــارَ عُشْرهــا   على البَرِّ كان البَرُّ أنْدَى من البَحْـرِ

فقال داود : أحسنْتَ يا أعرابيّ ، أيَّمَا أحبُّ إليك أن أُعْطِيَك على قدْرِك أو على قدْري أو على قدْرِ الشِّعر ،

فقال : بل على قدْر شعري ، فأمرَ له على كلِّ بيت بألفِ درهم فأخذها وانْصَرف ،

فقال بعضُ جُلَسَائه : لو رَدَدْتَه أيُّها الأمير واسْتَخْبَرْتَه لمَ اخْتَار على قدْرِ الشَّعر ولَمْ يخْتَرْ على قدْرِك ؟

فأمرَ بِردِّه واسْتَخْبَرَه عن ذلك ،

فقال : أيُّها الأمير نظرْتُ إلى الدنيا بما فيها فإذا هيَ لا تَفِي بمعْشَار عُشْرِ قدْرك ، فأشْفَقْتُ أنْ أسألَكَ ما لمْ تُطِقْ .

فقال : أَحسَنْتَ والله ، هذا أحسنُ منْ شِعْرِك ، وأضْعَفَ له الجائزَةَ فأخَذَها وانْصرَف .

مسلم بن نوفل

كان مسلم بن نوفلسيد بني كنانة قد ضربه رجل من قومه بسيفه ، فأُخِذَ فأُتِيَ به إليه

فقال له : ما الذي فعلْتَ أما خشيْتَ انتقامي ؟

قال : لا .

قال : فلمَ ؟

قال : ما سَوَّدْناك إلاّ أن تكْظُمَ الغيظَ وتعْفُوَ عن الجاني ، وتحْلُمَ على الجاهل وتحَتَمِلَ المكروه في النَّفْس والمال ، فخلَّى سبيله .

فقال قائلهم :

تَسَـــــوَّدَ أقــوامٌ وليســوا بســـادةٍ   بلِ السيِّدُ المعروفُ سلْمُ بن نوفــلِ

الفضل بن الربيع(١)

حُكي أن رجلاً زَوَّرَ ورقة عن خطِّ الفضل بن الربيع تَتَضمَّنُ أنّه أطلقَ له ألف دينار ، ثمَّ جاء بها إلى وكيل الفضل فلمّا وقف الوكيل عليها لم يشكَّ أنَّها خطُّ الفضل فشرعَ في أنْ يزنَ له الألفَ دينار وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مُهِمٍّ فلمَّا جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوْقَفَهُ على الورقة فنظر الفضل فيها ثمَّ نظرَ في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوَجَلِ والخَجَلَ فأطْرَقَ الفضل بوجهه ثم قال للوكيل : أتدري لِمَ أتَيْتُكَ في هذا الوقت .

قال : لا

قال : جِئْتُ لأسْتَنْهِضَك حتى تُعَجِّلَ لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة ، فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجلُ فقبضَهُ وصار مُتَحَيِّراً في أمره فالْتَفَتَ إليه الفضلُ وقال له : طِبْ نفْساً وامْضِ إلى سبيلك آمناً على نفسك فقبَّل الرجل يده وقال له : سترْتَنِي سَتَرَكَ الله في الدنيا والآخرة ، ثمَّ أخذ المال ومضى .

قال الفضل : ايّاكم ومخاطبة الملوك بما يقتضي الجواب ، فانهم ان أجابوكم شق عليهم ، وان لم يجيبوكم شق عليكم .

قال ثعلب : قلت للحسن بن سهل : وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله : ليس في السرف خير ، فقال : بل ليس في الخير سرف . فرد اللفظ واستوفى المعنى .

الملك والعالم

وكان أحد العلماء مُلمّاً ببعض اللغات الأدبية ، ومتخصّصًا في فقه اللغة ولهجاتها ، ولكنه كان ذميم المنظر ، كريه الوجه!

وذات مرة أراد الملك أن يلاطفه ، فقال له : (أين كنت يوم كان الله يقسّم الجمال بين العباد)؟!!

---

(١) هو الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة بن كيسان مولى عثمان بن عفان ، ووزير الأمين الخليفة العباسي ، كان أبوه هو الربيع بن يونس وزيراً في عهد المنصور والمهدي والهادي وقد ولد في مدينة الخليل عام ١٣٨ هجري وتوفي عام ٢٠٨هـ .

فأجابه العالم ببداهة : (كنت ذاهبًا وراء الكمال)!!
فأكرمه الملك بهدايا سخية بسبب هذه الإجابة الحكيمة .
المكتوب والجواب
عن الحسين بن السميدع الإنطاكي ، قال : كان عندنا بإنطاكية عامل من حلب وكان له كاتب أحمق . فغرق في البحر (شلنديتان) من مراكب المسلمين التي يقصد بها العدو ، فكتب ذلك الكاتب عن صاحبه إلى العامل بحلب يخبره :
بسم الله الرحمن الرحيم .
اعلم أيها الأمير أعزه الله تعالى أن شلنديتين أعني مركبين قد صفقا من جانب البحر إي : غرقا من شدة أمواجه فهلك من فيهما أي : تلفوا . قال : فكتب إليه أمير حلب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ورد كتابك أي : وصل وفهمناه أي : قرأناه أدب كاتبك أي : اصفعه واستبدل به أي : اعزله فإنه مائق أي : أحمق والسلام أي : انقضى الكتاب .

حمصك الله!

في أحد مجالس الخلفاء سأل الخليفة أحدهم : من أين أنت ؟
فأجاب : من حماه حماك الله
فأمر له الخليفة بكيس من الذهب
وسأل الثاني من أين أنت ؟
فأجاب : من حمص حمصك الله
فأمر بجلده

المسكوت عنه

كان لمعاوية عامل «والٍ» من قبيلة كلب فجرى ذكر المجوس في حضرة العامل الكلبي فقال : لعن الله المجوس إنهم ينكحون أمهاتهم ، والله لو أعطوني مائة ألف درهم ما فعلتها! فبلغ خبر ما قاله معاوية فعزله عن منصبه وقال : قاتله الله ، أترونه لو زادوه شيئا على المائة ألف لفعلها؟!

الوالي المثقف

أنشد الوالي عبد اله بن فضلويه والي قرميسين في مجلسه والمجلس غاص بالناس بيتا من الشعر يقول :

يوم القيامة يوم لا دواء له إلا الطلاء وإلا اللهو والطرب .

فقال له أحد الحضور : إنما هو يوم الحجامة . . وليس القيامة .

فقال الوالي : اعذروني فأنا لا أحسن النحو

قوة الحجة

دخل رجل مذنب على سلطان فقال له : بأي وجه تلقاني؟

فقال الرجل : بالوجه الذي ألقى به الله ، وذنوبي إليه أعظم وعقابي أكبر . فعفا عنه .

مدعي النبوة

ادعى رجل النبوة زمن خالد بن عبد الله القسري وعارض القرآن فأتي به إلى خالد فقال له : ما تقول؟ قال :

عارضت القرآن . قال : بماذا؟ قال : قال الله تعالى : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، وقلت إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ولا تطع كل ساحر . فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب ، فمر به خلف بن خليفة الشاعر ، فضرب بيده على الخشبة وقال : إنا أعطيناك العود فصل لربك من قعود وأنا ضامن لك أن لا تعود .

وتنبأ رجل يسمى نوحا ، وكان له صديق نهاه ، فلم يقبل ، فأمر السلطان بقتله ، فمر به صديقه ، فقال له : يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصاري .

معن بن زائدة الشيباني

كان من الكرماء ، يقال فيه : حدث عن البحر ولا حرج ، وكان عاملاً بالبصرة ، فحضر على بابه شاعر وأقام مدة يريد الدخول فلم يتهيأ له ، فقال يوماً لبعض الخدام : إذا دخل الأمير البستان فعرفني ، فلما دخل أعلمه بذلك ، فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، وكان معن جالساً على القناة ، فلما

رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها هذا البيت :

أيا جود معن نـاج معنـاً بحاجتـي فليـس إلـى معـن سواك رسول

فقال : من الرجل صاحب هذه؟ فأتي به إليه . فقال : كيف قلت؟ فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر ، فأخذها وانصرف ، فوضع معن الخشبة تحت بساط . فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت بساط ينظر فيها ، ودعا بالرجل فأمر له بمائة ألف درهم ، فلما كان في اليوم الثالث فعل مثل ذلك ، فتفكر الرجل وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما كان معه . فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يوجد ، فقال معن : والله هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار إلا أعطيته له ، وفيه يقول القائل :

يقولـون معـن لا زكـاة لمالـه وكيـف يزكي المال من هو باذلـه

إذا حـال جـولٌ لم يكن في ديـاره مـن المـال إلا ذكـره وجمائلـه

تـراه ، إذا مـا جئتـه ، متهلـلاً كأنـك تعطيـه الـذي أنت آمله

هو البحر مـن أي النواحـي أتيتـه فلجته المعـروف والبـر ساحلـه

تعـود بسـط الكـف حتـى لو نه أراد انقباضـاً لـم تطعه أناملـه

فلو لم يكن فـي كفـه غيـر نفسـه لجاد بهـا فليتـق اللـه سائلـه

ومن قول معن :

دعينـي أنهـب الأمـوال حتى أعـف الأكرمـين عـن اللئام

ويروى أن معن بن زائدة خرج في جماعة يتصيدون ، فاعترضهم قطيع ظباء ، فتفرقوا في طلبه ، وانفرد معن خلف ظبي ، فلما ظفر به نزل فذبحه ، فرأى شخصاً مقبلاً من البرية على حمار ، فركب فرسه واستقبله ، فسلم عليه وقال له : من أين أتيت؟

قال : أتيت من أرض قضاعة وإن لي بها أرضاً ، لها عدة سنين ، مجدبة ، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعتها قثاء فطرحت في غير وقتها ، فجمعت منها ما استحسنته وقصدت الأمير معن بن زائدة لكرمه المشهور ومعروفه المأثور ، وإحسانه المذكور .

فقال له : كم أملت منه؟ قال : ألف دينار .

فقال : فإن قال لك : كثير .

قال : خمسمائة دينار .

قال : إن قال لك : كثير .
قال : ثلاثمائة دينار .
قال : إن قال لك : كثير .
قال : مائتي دينار .
قال : إن قال لك : كثير .
قال : مائة دينار .
قال : إن قال لك : كثير .
قال : خمسين ديناراً .
قال : إن قال لك : كثير .
قال : أفلا أقل من ثلاثين .
قال : إن قال لك : كثير .
قال : أدخل قوائم حماري في حر أمه ، وأرجع إلى أهلي خائباً .

فضحك معن منه وساق جواده حتى لحق بعسكره ونزل منزله ، وقال لحاجبه : إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به علي .

فأتى بعد ساعة فلما دخل على الأمير معن لم يعرفه لهيبته وجلالته ، وكثرة خدمه وحشمه وهو متصدر في دست مملكته ، والحفدة قيامٌ عن يمينه وشماله وبين يديه . فلما سلم عليه قال له الأمير معن : ما الذي أتى بك يا أخا العرب؟ قال : أملت الأمير وأتيته بقثاء في غير أوانها .

قال : فكم أملت فينا؟ قال : ألف دينار .
قال كثير .
قال : خمسمائة دينار .
قال : كثير .
قال : ثلاثمائة دينار .
قال : كثير .
قال : مائتي دينار .
قال : كثير .
قال : مائة دينار .
قال : كثير .

قال : والله لقد كان ذلك الرجل الذي قابلني علي مشؤوماً ثم قال : خمسين ديناراً .

قال : كثير .

قال : أفلا أقل من ثلاثين؟ قال : فضحك معن وسكت فعلم الأعرابي أنه صاحبه فقال : يا سيدي إن لم تعطني الثلاثين فالحمار مربوط بالباب ، وها أنا مع معن جالس .

فضحك معن حتى استلقى على قفاه ثم استدعى بوكيله وقال : أعطه ألف دينار وخمسمائة دينار وثلاثمائة دينار ومائتي دينار ومائة دينار وخمسين ديناراً وثلاثين ديناراً ودع الحمار مربوطاً مكانه .

فبهت الأعرابي وتسلم ألفي دينار ومائةً وثمانين ديناراً ، فرحمة الله عليهم أجمعين .

وقيل : كان معن بن زائدة في بعض صيوده فعطش فلم يجد مع غلمانه ماء ، فبينما هو كذلك ، وإذا بثلاث جوار قد أقبلن حاملات ثلاث قرب فسقينه ، فطلب شيئاً من المال مع غلمانه ، فلم يجده ، فدفع لكل واحدة منهن عشرة أسهم ، من كنانته ، نصولها من ذهب . فقالت إحداهن : ويلكن لم تكّن هذه الشمائل إلا لمعن بن زائدة ، فلتقل كل واحدة منكن شيئاً من الأبيات فقالت الأولى :

يركب في السهام نصول تبر ويرمي للعدا كرماً وجوداً
فللمرضى علاجٌ من جراحٍ وأكفانٌ لمن سكن اللحودا

وقالت الثانية :

ومحارب من فرط جود بنانه عمت مكارمه الأقارب والعدا
صيغت نصول سهامه من عسجدٍ كي لا يقصر في العوارف والندى

وقالت الثالثة :

ومن جوده يرمي العداة بأسهم من الذهب الإبريز صيغت نصولها
لينفقها المجروح عند انقطاعهً ويشتري الأكفان منها قتيلها

وكان مع كرمه صاحب شهامة ، فمن ذلك ، أنه سعى رجل في إفساد دولة المهدي ، وكان من الكوفة فعلم به المهدي فأهدر دمه ، وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حيناً مختفياً ثم ظهر في بغداد فبينما هو في بعض الشوارع إذ رآه رجل من الكوفة فعرفه فاخذ بمجامع طوقه ونادى : هذا طلبة أمير المؤمنين فبينما

الرجل على تلك الحالة وقد اجتمع حوله خلق كثير إذ سمع وقع حوافر الخيل من ورائه فالتفت فإذا هو بمعن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد؟ أجرني أجارك الله .

فوقف فقال للرجل الذي تعلق به : ما تريد منه؟ قال : هذا طلبة أمير المؤمنين أهدر دمه ، وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم .

فقال له معن : دعه! ثم قال : يا غلام أردفه ، فأردفه وكر راجعاً إلى داره ، فصاح الرجل : معن حال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين ولم يزل صارخاً إلى أن أتى قصر المهدي ، فأمر المهدي بإحضار معن ، فأتته الرسلُ ، فدعا معن أولاده ومماليكه وقال : لا تسلموا الرجل ، وواحد منكم يعيش .

ثم سار إلى المهدي فدخل وسلم فلم يرد عليه ، ثم قال : يا معن! أتجير علينا عدونا؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال المهدي : ونعم أيضاً .

واشتد غضبه . فقال معن : يا أمير المؤمنين ، بالأمس بعثتني إلى اليمن مقدم الجيش ، فقتلت في طاعتك في يوم واحدٍ عشرة آلاف رجل ، ولي مثل هذا أيام كثيرة فما رأيتموني أهلاً أن أجير رجلاً واحداً استجار بي ، ودخل منزلي .

فسكن غضب المهدي ، وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد .

قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلةٍ يعلم منها موقع الرضا ، فإن قلب الرجل قد انخلع من صدره خوفاً .

قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم .

قال : يا أمير المؤمنين ، إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية .

قال : قد أمرنا له بمائة ألف درهم .

قال : عجلها يا أمير المؤمنين ، فإن خير البر عاجله .

فأحضر معن الرجل وقال له : خذ صلة أمير المؤمنين ، وقبل يده ، وإياك ومخالفة خلفاء الله في أرضه ، «فما كل مرة تسلم الجرة» ، فأرسلها الناس مثلاً ، وأخذ الرجل المال واستغفر الله ، انتهى .

وكان معن لا يغيظ أحداً ، ولا أحد يغيظه ، فقال بعض الشعراء : أنا أغيظه لكم ، ولو كان قلبه من حجر ، فراهنوه على مائة بعير إن أغاظه أخذها ، وإن لم يغظه دفع مثلها . فعمد الرجل إلى جمل فذبحه وسلخه ولبس الجلد مثل الثوب وجعل اللحم من خارجٍ والشعر من داخل ، والذباب يقع عليه ، ويقوم ، ولبس برجليه نعلين من جلد الجملٍ ، وجعل اللحم من خارج والشعر من ناحية رجليه ، وجلس بين يدي

معن على هذه الصورة المشروحة ومد رجليه في وجهه وقال :

أنا والله لا أبدي سلاماً . . . على معن المسمى بالأمير

فقال له معن : السلام لله إن سلمت رددنا عليك ، وإن لم تسلم ما عتبنا عليك .

فقال الشاعر :

ولا آتـــي بـــــلاداً أنـــــت فيــــها ولـــو حـــزت الشـــآم مـــع الثغور

فقال له : البلاد بلاد الله إن نزلت فمرحباً بك ، وإن رحلت كان الله في عونك .

فقال الشاعر :

وأرحـــل مـــن بـــلادك ألـــف شهـر أجـــدُّ السيـــر فـــي أعلـى القفورِ

فقال له : مصحوباً بالسلامة .

فقال الشاعر :

أتذكـــر إذ قميصـــك جلـــد شـــاةٍ وإذ نعـــــلاك مـــن جلـــد البعير

فقال له : أعرف ذلك ولا أنكره .

فقال الشاعر :

وتهـــوى كـــل مضطبـــة وســـــوق بـــلا عبـــدٍ لديـــك ولا وزيـــــر

فقال له : ما نسيت ذلك يا أخا العرب .

فقال الشاعر :

ونومـــك فـــي الشتـــاء بـــــلا رداء وأكلـــك دائمـــاً خبـــز الشعيـــر

فقال : الحمد لله على كل حال .

فقال الشاعر :

وفـــي يمنـــــاك عكـــــاز قـــــويٌ تـــــذود بـــه الكلابَ عن الهريـرِ

فقال له : ما خفي عليك خبرها اذهبي كعصا موسى .

فقال الشاعر :

فسبحـــان الـــذي أعطـــاك مُلكـــاً وعلمـــك القعـــود علـــى السريـر

فقال له : بفضل الله لا بفضلك .

فقال الشاعر :

فعجـــل يـــا بـــن ناقصـــة بمـــالٍ فإنـــي قـــد عزمـــت على المسـير

فأمر له بألف دينار .

فقال الشاعر :

قليـــــلٌ مـــا أمـــرت بـــه فإنــــي   لأطمـــع منـــك بالشـــيء الكثير
فأمر له بألف دينار أخرى .
فقال الشاعر :
فثلـــث ، إذ ملكـــت الملـــك رزقـــاً   بـــلا عقـــلٍ ولا جــــاهٍ خطيـــر
فأمر له بثلاثمائة دينار .
فقال الشاعر :
ولا أدبٍ كسبـــت بـــه المعالـــي   ولا خلـــــقٍ ولا رأي منـــــير
فأمر له بأربعمائة دينار .
فقال الشاعر :
فمنـــك الجـــود والإفضـــالُ حقـــاً   وفيـــضُ يديـــك كالبحـــر الغزير

فأمر له بخمسمائة دينار ، وما زال يطلب منه الزيادة حتى استكمل ألف دينار ، فأخذها وانصرف متعجباً من حلم معن وعدم انتقامه منه ثم قال في نفسه : مثل هذا لا ينبغي أن يهجى بل يمدح ، واغتسل ولبس ثيابه ورجع إليه فسلم عليه ومدحه واعتذر له بأن الحامل له على هجوه المائة بعير التي صار الرهن عليها في نظير إغاظته له ، فأمر له بمائة بعير يدفعها في نظير الرهن وبمائة بعير أخرى لنفسه ، فأخذها وانصرف .

إلا هاتين الآيتين

كان أحد الأمراء يصلي خلف إمام يطيل في القراءة ، فنهره الأمير أمام الناس ، وقال له : لا تقرأ في الركعة الواحدة إلا بآية واحدة . فصلى بهم المغرب ، وبعد أن قرأ الفاتحة قرأ قوله تعالى ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ ، وبعد أن قرأ الفاتحة في الركعة الثانية قرأ قوله تعالى ﴿ربنا ءاتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا﴾ فقال له الأمير يا هذا : طول ما شئت واقرأ ما شئت ، غير هاتين الآيتين .

عجائب الشافعي

قال الشافعي : رأيت بالعراق أربعة أشياء لم أر مثلها ؛ رأيت جدة بنت إحدى وعشرين سنة ، ورأيت قلنسوة قاض وسعت ثمانية نوى ، ورأيت شيخاً ابن نيف

وتسعين سنة يمشي على القيان يعلمهن الغناء وضرب العود ، وإذا صلى صلى قاعداً ، ورأيت والياً سأل بعض من يلم به : لم لا يجتمع الناس على بابي ؟ فقال : لأنك عدل لا تضرب أحداً ؛ فوجه إلى إمام مسجد الجامع ، فأمر بضربه بالسياط ؛ فاجتمع الناس على بابه وأقبلوا يتزاحمون ، والرجل يقول : ما ذنبي ، أيها الأمير؟ والأمير يقول له : جملني بنفسك قليلاً يا شيخ .

هذا الرجل قد لقن حجته

روي أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فأفلت منه

فأخذ أخا له فقال له : إن أتيتني بأخيك وإلا ضربت عنقك

قال الرجل : أرأيت إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي

قال : نعم

قال : فإني آتيك بكتاب من العزيز الحكيم : وأقيم عليه شاهدين موسى وإبراهيم عليهما السلام /ثم تلا قوله تعالى : ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ .

فما كان من زياد إلا أن قال : خلو سبيله ، هذا الرجل قد لقن حجته .

حاجة الأعرابي

قال العتبي : أشرف عمرو بن هبيرة يوماً من قصره فإذا هو بأعرابي يرقل قلوصه فقال عمرو لحاجبه : إن أرادني هذا الأعرابي فأوصله إليّ ، فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب ، فقال : أردت الأمير ، فدخل عليه فلما مثل بين يديه قال له : ما حاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول :

أصلحك الله قلَّ ما بيدي ولا أطيق العيال إذ كثروا أناخ دهري عليّ كلكله فأرسلوني إليك وانتظروا فأخذت عمرو الأريحية فجعل يهتز في مجلسه ، ثم قال أرسلوك إليّ وانتظروا ، والله لا تجلس حتى تعود إليهم بما يسرهم ، ثم أمر له بألف دينار .

الوالي العادل

اختصم رجلان إلى بعض الولاة فلم يحسن أن يقضي بينهما . . فضربهما وقال : الحمد لله الذي لم يفتني الظالم منهما .

الموت خير دواء

حضر بعض حكماء الهند مع وزير ملكهم وكان الوزير ركيكاً فقال للحكيم : ما العلم الأكبر قال : الطب قال : فإني أعرف من الطب أكثره قال : فما دواء المبرسم أيها الوزير قال : دواؤه الموت حتى تقل حرارة صدره .

ثم يعالج بالأدوية الباردة ليعود حياً قال : ومن يحييه بعد الموت قال : هذا علم آخر وجد في كتاب النجوم ولم أنظر في شيء منه ، إلا في باب الحياة فإني وجدت في كتاب النجوم أن الحياة للإنسان خير من الموت .

فقال الحكيم : أيها الوزير الموت على كل حال خير للجاهل من الحياة .

الوزير الأحمق

الوزير ذو السعادات : قال أبو الحسن بن هلال الصابىء : عرض على الوزير ذي السعادات أبي الفرج صاحبها وطلبها ففتح الوزير الدواة وكتب على هذه بخط غليظ هذه لا تصلح ، وكتب على أخرى وهذه غير مرضية ، وعلى أخرى هذه غالية وقال : ادفعوها إليه فأخذها الرجل وقد تلفت عليه ، قال : وكان إذا أخطأ الفرس تحته يأمر بقطع علفه تأديباً له فإذا قيل له في ذلك قال : أطعموه ولا تعلموه أني علمت بذلك .

أمير مغفل وبياع الثلج

جاز بعض الأمراء المغفلين على بياع الثلج فقال : أرني ما عندك فكسر له قطعة وناوله فقال : أريد أبرد من هذا .

فكسر له من الجانب الآخر فقال : كيف سعر هذا فقال : رطل بدرهم ومن الأول رطل ونصف بدرهم فقال : زن من الثاني .

كتاب الميت في عزائه

وحكى أبو إسحاق الصابي أن رجلاً من كبار كتاب العجم يعرف بأبي العباس بن درستويه حضر مجلس أبي الفرج محمد بن العباس وهو جالس للعزاء بأبيه أبي الفضل وقد ورد نعيه من الأهواز .

وعند أبي الفرج رؤساء الدولة قد ولي الديوان مكان أبيه فلما تمكن ابن درستويه

في المجلس تباكى وقال : لعل هذا إرجاف ورد كتابه فقال له أبو الفرج : قد ورد عدة كتب فقال : دع هذا كله ورد كتابه بخطه ، فقال : لو ورد كتابه بخطه ما جلسنا للعزاء . فضحك الناس .

خطبة قبيصة

خطب قبيصة وهو خليفة أبيه على خراسان فأتاه كتابه
فقال : هذا كتاب الأمير وهو والله أهل أن يطاع وهو أبي وأكبر مني .

سؤال أعرابي

قال ثمامة : جاءني أعرابي فقال : رأيت البارحة أمير المؤمنين يسارك وأنت تنظر إلي ، فبالله أي شيء قال لك في أمري؟

الأعرابي وخالد بن يزيد

قصد أعرابي خالد بن يزيد فقال :
إني امتدحك ببيتين فهل تسمعهما ؟
فقال : إن أحسنت فنعم ولك ثواب ، فأنشد :
سألت النّدى والجود : حُرَّان أنتما ؟ . . . فقالا جميعاً : إننا لَعَبيد
فقلت : ومَنْ مولاكما؟ فتطاولا . . . جميعاً وقالا : خالد ويزيد!
فاهتزَّ طرباً لهما وأمر له بصلة سَنِيَّة .

طرائف الأطباء

مرض لأنه أكل جملاً

عن ابن الرومي(١) قال : قال طبيب لتلميذه : إذا دخلت إلى مريض فانظر إلى أثر ما عنده من طعام أو شراب ، فانهه عما لا يصلح من ذلك ، فدخل الغلام يوماً على مريض فنظر إلى حداجة جمل في الدار . فقال للمريض : أنا والله لا أصف لك دواء ، قال : ولم؟ قال : لأنك قد أكلت جملاً ، قال : لا والله ما أكلت جملاً قط ، فقال : هذه الحداجة من أين؟

وصفة طبيب

دخل بعض الحمقى من الأطباء على عليل ، فشكا إليه العليل ما يجد فقال : خذ مثل رأس الفأرة كلنجبين وصب عليه مقدار محجمة ماء واضربه حتى يصير مثل المخاط واشربه ، فقال العليل : قم لعنك الله ، فقد قذرت إلي كل دواء في الأرض .

شربة تصلح لسنة كاملة

كان طبيب أحمق قد أعطى رجلاً من جيرانه شربة فأقامته قياماً حتى مات منه ، فجاء الطبيب يتعرف خبره فوجده قد مات فقال : لا إله إلا الله من شربة ما كان أقواها ، لو عاش ما كان يحتاج إلى أن يشرب الدواء سنة أخرى .

لا يقدر أحد على مرضاتك في مرضاتك

مرض الأسعد المماتي(٢) فعاده بعض أصحابه فوجده يغسل ويمزق أوراقاً تعاليق

(١) هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج ، وقيل جورجيس ، المعروف بابن الرومي شاعر من شعراء القرن الثالث الهجري في العصر العباسي .

(٢) الأسعد بن المهذب بن مينا بن زكريا بن مماتي مؤرخ مسلم مصري من أهل القرن السادس الهجري . يرجع أصله إلى أسرة (مّاتي) النصرانية التي تبوأت منزلة رفيعة في عهد الدولة الفاطمية ، وهي أسرة كانت تعيش في أسيوط ثم انتقلت إلى القاهرة للعمل في دواوين الدولة ، إذ انفتح الفاطميون كثيراً على أهل الذمة وعينوهم في مناصب رفيعة ، وقد تبوأ جد الأسعد (أبو المليح مينا) منصب مستوفي الدواوين ونال حظوة عند الفاطميين ، اما أبوه (المهذب) فقد تولى رئاسة ديوان الجيش وأسلم أثناء ذلك .

بخطه ، فسأله عن السبب فقال : إني نظرت في العلوم فوجدتها مواهب من الله تعالى لا بكثرة الفحص والاشتغال ، وذلك إني سألتني جويريتي النوبية عن طعام تصنعه لي اليوم موافق ، فأخذت أعدد لها أنواع المزورات فضجرت ، وقال لي : لا يقدر أحد على مرضاتك في مرضاتك ، فهذا هو السبب الموجب لما تراه .

الموت دواءه

ودخل صاحب المظالم بالبصرة على رجل مبرسم وعنده طبيب يداويه ، فأقبل على الطبيب وأهل المريض ، وقال : ليس دواء المبرسم إلا الموت حتى تقلّ حرارة صدره ، ثم حينئذ يعالج بالأدوية الباردة حتى يستبلّ .

التداوي بالخوف

حكى أن بعض الناس شكا الى طبيب عقم امراته وأنها لا تلد فجس الطبيب نبضها وقال : لا حاجه لك الى دواء الولادة فإنك ستموتين الى اربعين يوما وقد دل النبض علي عليه ، فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتنغص عليها عيشها وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة ولم تمت .

فجاء زوجها الى الطبيب وقال له : لم تمت!

فقال الطبيب : قد علمت ذلك ولكنها ستلد انشاء الله .

فقال : كيف ذلك؟

قال : رئتيها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها فعلمت إنها لا تهزل الا بخوف الموت فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة!

الطبيب نعمان

وكان ببغداد طبيب اسمه نعمان لا ينجح مريض على يديه ، فقال فيه بعض الشعراء :

أقول لنعمان وقد ساق طبّه نفوساً نفيسات إلى داخل الأرض
أبا منذر أفنيتً فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقال كشاجم[١] لعيسى بن نوح النصراني :

عيسى الطبيب ترفّق فأنت طوفان نوح
يأبى علاجك إلاّ فراق جسم لروح
شتّان ما بين عيسى وبين عيسى المسّيح
هذاك محيي لميت وذا مميت صحيح

وهذا منقول من قول رجل من بني تميم ، لما دخل هلال بن أحوز البصرة بعد إيقاعه بني المهلب ، وقد أطافت به بنو تميم ، فقال شيخ من الأزد[٢] : رجالهم يطيفون به كما يطيفون بعيسى ابن مريم . فقال التميمي : هذا ضد عيسى ابن مريم ؛ فإن ذاك يحيي الموتى وهذا يميت الأحياء .

طبيب ماجن ومريض

قال أبو أحمد عبد الله بن عمر بن الحارث الحارثي : اجتزت ببغداد في أيّام المقتدر[٣] وأنّا حدثٌ في جماعةٍ من مجّان أصحاب الحديث ، وإذا بخادم خصي جالس على دكة في الطريق ، وبين يديه أدويةٌ ومكاحل ومباضع ، وعلى رأسه مظلة خرق كما يكون الطبيب ، فتقدّم بعض أصحابنا إليه يعبث به ، فتعاشى وتماوت وتمارضَ وقال : يا أستاذ [يا أستاذ] دفعات ؛ فضجر الخادم ، وقال : فقولي ، لا شفاك الله ؛ إيش أصابك؟ أيّ طاعونٍ ضربك؟ فقال : [يا أستاذ] أجد ظلمةً في أحشائي ،

(١) أبو الفتح محمود بن الحسين الرملي ، المعروف بكشاجم شاعر وأديب ، من كتاب الإنشاء وهو من أصل فارسي . تنقل بين دمشق وحلب والقدس وبغداد وحمص . واستقر أخيرا في حلب بسورية ، فكان من شعراء عبد الله –والد سيف الدولة بن حمدان– ثم ابنه سيف الدولة أمير حلب .

(٢) الأزد ، من قبائل العرب القحطانية وأكثرها شهرة فهم ملوك سبأ وأصحاب الجنتين المذكورة بالقرآن الكريم . ورد اسمها في بعض المصادر الأسْد (بتسكين السين) وهي غير قبيلة بني أسد العدنانية (بفتح السين) ، بطونها كثيرة زادت على ستة وعشرين بطناً كبيراً .

(٣) أبو الفضل جعفر بن المعتضد المقتدر بالله من خلفاء الدولة العباسية . ولد في رمضان سنة ٢٨٢ هـ وعهد إليه أخوه المكتفي بالخلافة ، ووليها بعد وفاة المكتفي وعمره ثلاث عشرة سنة ، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه . واختل النظام كثيرا في أيامه لصغره ، وكان لوالدته السيدة شغب دور كبير في تسيير شئون البلاد وتوليه الوزراء والمسؤولين .

ومغصاً في أطراف شعري ، وما آكله اليوم يخرج غداً مثل الجيفة ؛ فصف لي صفةً لما أنا فيه ؛ فقال الخادم : أمّا ما تجدين من مغص في أطراف شعرك فاحلقي لحيتك ورأسك جميعاً حتى يذهب مغصك ، وأمّا ظلّمةٌ في أحشائك فعلّقي على باب جحرك قنديلاً يضيءُ مثل السّاباط[1] ، وأمّا ما تأكلينه اليوم ويخرج غداً مثل الجيفة فكلي خراك واربحي النفقة .

قال : فعطعط بنا العامّة القيام وضحكوا منّا ، وانقلب الطنز الذي أردنا بالخادم ، فصار طنزاً بنا ، فصار قصارنا الهرب ، فهربنا .

علم الرازي[2] بالطب

حدّث بعض الأطباء الثقات أن رجلا من بغداد قدم الريظو فلحقه في طريقه أنه كان ينفث الدم ، فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيب المشهور بالحذق ، فأراه ما ينفث ووصف له ما يجد ، فنظر الى نبضه وقارورته ، واستوصف حاله ، فلم يقم له دليل على سل ولا قرحة ، ولم يعرف العلّة ، فاستنظر العليل لينظر في حاله ، فاشتدّ امر على المريض ، وزاد ألمه .

وفكّر الرازي ، ثم عاد اليه فسأله عن المياه التي شرب . فقال : إنها من صهاريج ومسقفات ، فثبت في نفس الرازي بحدّة خاطره وجودة ذكائه أن علقة كانت في الماء ، وقد حصلت في معدته ، وذلك الدم من فعلها . فقال :

إذا كان في غد عالجتك ، ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك بما آمرهم .

قال : نعم .

فانصرف الرازي ، فجمع مركنين كبيرين من طحلب ، فأحضرهما في غد معه ،

---

(١) سقيفةٌ بينَ حائطيْن تحتَها مَمَرٌّ نافِذٌ

(٢) أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي عالم وطبيب فارسي (ح . ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م – ٥ شعبان ٣١١هـ/١٩ نوفمبر ٩٢٣ م) ، ولد في مدينة الري . وهو أحد أعظم أطباء الإنسانية على الإطلاق كما وصفته زجريد هونكه في كتابها شمس الله تسطع على الغرب حيث ألف كتاب الحاوي في الطب كان يضم كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام ٩٢٥م وظل المرجع الطبي الرئيسي في أوروبا لمدة ٤٠٠ عام بعد ذلك التاريخ .

وأعطاه إياهما وقال : ابلع جميع ما في هذين المركنين .

فبلع شيئا يسيرا ، ثم وقف .

قال : ابلع .

قال : لا أستطيع .

فقال للغلمان : خذوه فأقيموه .

ففعلوا به ذلك وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه ، فأقبل الرازي يدس الطحلب في حلقه ويكبسه كبسا شديدا ويأمره ببلعه ويتهدده بأن يضرب إلى أن بلع كارها أحد المركنين بأسره والرجل يستغيث .

فذرعه القيء ، فتأمّل الرازي ما قذف به فإذا فيه علقة ، وإذا هي لما وصل اليها الطحلب قربت إليه بالطبع وتركت موضعها ، فالتفّت على الطحلب ، ونهض العليل معافى .

نباهة طبيب

حدث علي بن الحسن الصيدلاني قال : كان عندنا غلام حدث ، فلحقه وجع في معدته شديد بلا سبب يعرفه ، فكانت تضرب عليه أكثر الأوقات ضربا عظيما حتى يكاد يتلف ، وقلّ أكله ، ونحل جسمه ، فحمل إلى الأهواز ، فعولج بكل شيء ، فلم ينجح فيه ، وردّ الى بيته وقد يئس منه .

فجاز بعض الأطباء فعرف حاله ، فقال للعليل : اشرح لي حالك في زمن الصحة .

فشرح إلى أن قال : دخلت بستانا فكان في بيت البقر رمّان كثير للبيع ، فأكلت منه كثيرا .

قال : كيف كنت تأكله؟

قال : كنت أعض على رأس الرمّانة بفمي ، وأرمي به واكسرها قطعا وآكل .

فقال الطبيب : غدا أعالجك بإذن الله تعالى .

فلما كان من الغد جاء بقدر اسفيداج قد طبخهما من لحم جرو سمين ، فقال للعليل : كل هذا .

قال العليل : ما هو؟

قال : ان أكلت عرّفتك .

فأكل العليل ، فقال له : امتلئ منه ، فامتلأ ، ثم قال له :

أتدري أيّ شيء أكلت؟

قال : لا .

قال : لحم كلب!

فاندفع يقذف ، فتأمّل القذف الى أن طرح العليل شيئا أسود كالنواة يتحرّك ، فأخذه الطبيب وقال :

ارفع رأسك ، فقد برأت .

فرفع رأسه ، فسقاه شيئا يقطع الغثيان ، وصبّ على وجهه ماء ورد ، ثم أراه الذي وقع فيه فاذا هو قراد ، فقال :

إن الموضع الذي كان فيه الرمّان كان فيه قردان من البقر ، وأنه حصلت منهم واحدة في رأس احدى الرمّانات التي اقتلعت رؤوسها بفيك ، فنزل القراد الى حلقك وعلق بمعدتك يمتصّها ، وعلمت أن القراد تهش الى لحم الكلب ، فان لم يصح الظن لم يضرّك ما أكلت ، فصحّ ، فلا تدخل فمك شيئا لا تدري ما فيه ، والله الموفق .

الملك البدين

كان ملك في الزمان الأوّل ، وكان مثقلا كثير الشحم لا ينتفع بنفسه ، فجمع المتطببين وقال :

احتالوا اليّ بحيلة يخفّ عني لحمي هذا قليلا .

فما قدروا له على شيء ، فبعث له رجل عاقل أديب متطبّب فاره ، فبعث اليه وأشخصه فقال له : عالجني ولك الغنى .

قال : أصلح الله الملك ، أنا متطبّب منجّم . دعني أنظر الليلة في طالعك : أي دواء يوافق طالعك فأسقيك .

فغدا عليه ، فقال : أيها الملك ، الأمان؟

قال : لك الأمان .

قال : رأيت طالعك يدلّ على أن الباقي من عمرك شهر ، فان أحببت عالجتك ، وان أردت بيان ذلك ، فاحبسني عندك ، فان كان لقولي حقيقة فخلّ عني ، والا فاستقص مني .

فحبسه ، ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس ، وخلا وحده مهتما كلما

انسلخ يوم ازداد غمّا حتى هزل وخف لحمه ، ومضى لذلك ثمانية وعشرون يوما ، فبعث اليه وأخرجه . فقال : ما ترى؟

قال : أعز الله الملك . أنا أهون على الله عز وجلّ من أن أعلم الغيب ، والله ما أعرف عمري ، فكيف أعرف عمرك؟ انما لم يكن عندي دواء إلا الغمّ ، فلم أقدر أن أجلب اليك الغمّ الا بهذه العلّة .

فأجازه وأحسن اليه .

الطبيب القطيعي

حدّث أبو الحسن بن الحسن بن محمّد الصالحي الكاتب قال : رأيت بمصر طبيبا كان بها مشهورا يعرف بالقطيعي يكسب في كل شهر ألف دينار من جرايات يجريها عليه قوم من رؤساء العسكر ، ومن السلطان ، ومما يأخذه من العامّة . وكان له دار قد جعلها شبه المرستان من جملة داره يأوي إليها الضعفاء والمرضى فيداويهم ويقوم بأغذيتهم وأدويتهم وخدمتهم ، وينفق أكثر كسبه على ذلك .

فاتفق أن بعض فتيان الرؤساء بمصر أسكت ، فجعل إليه أهل الطب ، وفيهم القطيعي ، فأجمعوا على موته إلا القطيعي . وعمل أهله على غسله ودفنه ، فقال القطيعي :

أعالجه وليس يلحقه أكثر من الموت الذي قد أجمع هؤلاء عليه .

فخلاه أهله معه ، فقال : هات غلاما جلدا .

فأتي بذلك ، فأمر به ، فمدّ وضربه عشر مقارع أشدّ الضرب ثم مسّ جسده ، ثم ضربه عشرا أخر ، ثم جسّ مجسّه ، ثم ضربه عشرا أخر ، ثم جسّ مجسّه ، وقال : أيكون للميّت نبض؟

قالوا : لا .

قال : فجسّوا هذا النبض .

فجسّوه فأجمعوا أنه نبض متحرّك .

فضربه عشر مقارع أخر ، ثم قال : جسّوه .

فجسّوه ، فقالوا قد زاد نبضه .

فضربه عشرا أخر ، فتقلّب ، فضربه عشرا فتأوّه ، فضربه عشرا فصاح ، فقطع عنه الضرب . فجلس العليل يتأوّه ، فقال له : ما تجد؟

قال : أنا جائع .

فقال : أطعموه .

فجاؤوا بما أكله ، فرجعت قوّته ، وقمنا وقد برئ .

فقال له الأطباء : من أين لك هذا؟

قال : كنت مسافرا في قافلة فيها أعراب يخفروننا ، فسقط منهم فارس عن فرسه ، فأسكت ، فقالوا : قد مات؟ قال : فعمد شيخ منهم فضربه ضربا شديدا عظيما ، وما رفع الضرب عنه حتى أفاق ، فعلمت أن الضرب جلب اليه حرارة أزالت سكتته ، فقست عليه أمر هذا العليل .

الطبيب ابن نوح

حدّث أبو الحسن المهدي القزويني(١) قال :

كان عندنا طبيب يقال له ابن نوح ، فلحقتني سكتة ، فلم يشك أهلي في موتي ، وغسّلوني وكفنوني وحملوني على الجنازة ، فمرّت الجنازة عليه ونساء خلفي يصرخن ، فقال لهم :

أن صاحبكم حي فدعوني أعالجه . فصاحوا عليه ، فقال لهم الناس :

دعوه يعالجه ، فان عاش والا فلا ضرر عليكم .

فقالوا : نخاف أن تصير فضيحة .

فقال : عليّ ألا تصير فضيحة .

قالوا : فإن صرنا؟

قال : حكم السلطان في أمري ، وإن برئ فأي شيء لي؟

قالوا : ما شئت .

قال : ديته .

قالوا : لا نملك ذلك .

فرضي منهم بمال أجابه الورثة اليه ، وحملني فأدخلني الحمام وعالجني ، وأفقت في الساعة الرابعة والعشرين من ذلك الوقت ، ووقعت البشائر ، ودفع اليه المال ،

---

(١) الإمام القدوة ، العارف ، شيخ العراق ، أبو الحسن ، علي بن عمر بن محمد ، ابن القزويني البغدادي الحربي الزاهد .

فقلت للطبيب بعد ذلك : من أين عرفت هذا؟

قال : رأيت رجليك في الكفن منتصبتين وأرجل الموتى منبسطة ولا يجوز انتصابها ، فعلمت أنك حيّ ، وخمّنت أنك أسكت وجربت عليك ، فصحّت تجربتي .

قتله الرهان

روى بشر بن المفضل[1] قال : خرجنا حجاجا ، فمررنا بمياه من مياه العرب ، فوصف لنا فيه ثلاث أخوات بالجمال وقيل لنا : انهن يتطببن ويعالجن .

فأحببنا أن نراهنّ ، فعمدنا إلى صاحب لنا ، فحككنا ساقه بعود حتى أدميناه ، ثم رفعناه على أيدينا وقلنا : هذا لديغ[2] فهل من راق؟

فخرجت أصغرهن ، فإذا هي جارية كالشمس الطالعة ، فجاءت حتى وقفت عليه ، فقالت : ليس بسليم .

قلنا : وكيف؟

قالت : لأنه خدشه عود بالت عليه حيّة ذكر ، والدليل أنه إذا طلعت عليه الشمس مات .

فلما طلعت الشمس مات . فعجبنا من ذلك .

كحل لألم البطن

شكا رجل الى طبيب وجع بطنه فقال : ما الذي أكلت؟

قال : أكلت رغيفا محترقا .

فدعا الطبيب بكحل ليكحله ، فقال الرجل :

انما أشتكي من وجع بطني لا عيني .

قال : قد عرفت ، ولكن أكحلك لتبصر المحترق ، فلا تأكله .

---

(١) بشر بن المفضل ع ابن لاحق الإمام الحافظ المجود أبو إسماعيل الرقاشي مولاهم البصري حدث عن أبيه وحميد الطويل ومحمد بن المنكدر وعبد الله ابن محمد بن عقيل وعاصم بن كليب وخالد الحذاء ويحيى بن سعيد الأنصاري .

(٢) اللديغ الذي لدغته أفعى أو عقرب .

الحائك طبيبا

وقف بعض الحاكّة على طبيب ، فرآه يصف لهذا النقوع ولهذا التمر هندي ، فقال : من لا يحسن مثل هذا؟

فرجع الى زوجته فقال : اجعلي عمامتي كبيرة .

فقالت : ويحك أي شيء قد طرأ لك؟

قال : أريد أن أكون طبيبا .

قالت : لا تفعل ، فإنك تقتل الناس فيقتلوك .

قال : لا بد .

فخرج أول يوم فقعد يصف الناس ، فحصل قراريط ، فجاء فقال لزوجته : أنا كنت أعمل كل يوم بحبة ، فانظري ايش[(١)] يحصل؟

فقالت : لا تفعل .

قال : لا بد .

فلما كان في اليوم الثاني اجتازت جارية ، فرأته فقالت لسيدتها ، وكانت شديدة المرض : اشتهيت هذا الطبيب الجديد يداويك ، فقالت : ابعثي اليه . فجاء ، وكانت المريضة قد انتهى مرضها ومعها ضعف ، فقال :

عليّ بدجاجة مطبوخة ، فجيء بها ، فأكلت ، فقويت ثم استقامت .

فبلغ هذا الى السلطان ، فجاء به فشكا اليه مرضا يشتكيه ، فاتفق أنه وصف له شيئا أصلح به ، فاجتمع الى السلطان جماعة يعرفون ذلك الحائك ، فقالوا له :

هذا رجل حائك لا يدري شيئا .

فقال السلطان : هذا قد صلحت على يديه وصلحت الجارية على يديه ، فلا أقبل قولكم .

قالوا : فنجرّبه بمسائل .

قال : فافعلوا .

فوضعوا له مسائل وسألوه عنها ، فقال : ان أجبتكم عن هذه المسائل لم تعلموا جوابها ، لأن الجواب لهذه المسائل لا يعرفه إلا طبيب ، ولكن أليس عندكم مارستان[(٢)]؟

---

(١) منحوت من (أَيّ شيء) ، بمعناه ، وقد تكلمت به العرب

(٢) مستشفى .

قالوا بلى .

قال : أليس فيه مرضى لهم مدة .

قالوا بلى .

قال : فأنا أداويهم حتى ينهض الكل في عافية في ساعة واحدة، فهل يكون دليل على علمي أقوى من ذلك؟

قالوا : لا .

فجاء إلى باب المارستان وقال : لا يأتي معي أحد .

ثم دخل وحده وليس معه الا قيّم المارستان ، فقال للقيّم : إنك والله إن تحدثت بما أعمل صلبتك ، وإن سكتّ أغنيتك .

قال : ما أنطق .

فأحلفه بالطلاق ، ثم قال : عندك في هذا المارستان زيت؟

قال : نعم .

قال : هاته .

فجاء منه بشيء كثير ، فصبّه في قدر كبير ، ثم أوقد تحته ، فلما اشتد غليانه صاح بجماعة المرضى ، فقال لأحدهم :

انه لا يصلح لمرضك الا أن تنزل هذا القدر ، فتقعد في هذا الزيت .

فقال المريض : الله الله في أمري!

قال : لا بد .

قال : أنا شفيت ، وانما كان بي قليل من صداع .

قال : ايش يقعدك في المارستان وأنت معافى؟

قال : لا شيء .

قال : فاخرج وأخبرهم .

فخرج وأخبرهم ، فخرج يعدو ويقول : شفيت بإقبال هذا الحكيم .

ثم جاء الى آخر فقال : لا يصلح لمرضك الا أن تقعد في هذا الزيت .

فقال : الله الله ، أنا في عافية .

قال : لا بد .

قال : لا تفعل ، فإني من أمس أرددت أن أخرج .

قال : فإن كنت في عافية فاخرج ، وأخبر الناس أنك في عافية .

فخرج يعدو ويقول : شفيت ببركة الحكيم .
وما زال على هذا الوصف حتى أخرج الكل شاكرين له .

قتله بحمقه

كان طبيب أحمق قد أعطى رجلاً من جيرانه شربة فأقامته قياماً حتى مات منه ، فجاء الطبيب يتعرف خبره فوجده قد مات فقال : لا إله إلا الله من شربة ما كان أقواها ، لو عاش ما كان يحتاج إلى أن يشرب الدواء سنة أخرى .

سوء وصف الدواء

دخل بعض الحمقى من الأطباء على عليل ، فشكا إليه العليل ما يجد فقال : خذ مثل رأس الفأرة كلنجبين وصب عليه مقدار محجمة ماء واضربه حتى يصير مثل المخاط واشربه ، فقال العليل : قم لعنك الله ، فقد قذرت إلي كل دواء في الأرض .

حرارة الغم

سرقت ثياب رجل من الحمام فخرج عرياناً وعلى باب الحمام طبيب أحمق ، فقال له : ما قصتك؟ فقال : سرقت ثيابي . قال : بادر وافتصد تخف عنك حرارة الغم .

الموت من سوء التفكير

مرض أعرابي فأتي بطبيب ، فقال الطبيب : إذا كان غداً فاحفظوا البول حتى أجيء وأنظره ، فلما خرج الطبيب من عنده بقي لا يبول إلى الغد ، فلما جاء الطبيب قال له المريض : يا عبد الله قد كادت مثانتي تنشق من حبسي البول فلماذا تأخرت ، فقال : إنما أمرتك أن تحفظ البول في إناء ، فلما كان الغد جاء الطبيب فإذا هو قد أخذ برنية خضراء ، فقال الطبيب : ما هذا ، أخطأت ألم يكن في الدنيا شيء من الزجاج كنت تأخذ في قارورة أو في قدح ، فلما كان من الغد ، أخذ البول في قدح من الخشب فعرضه عليه ، فقال له : أنت في حرج ، ألا نظرت إلى هذا الماء فاصدقني في أمري هل يخاف علي من هذه العلة؟ قال : أما إذا حلفتني فلا بد أن أقول : أنا خائف أن تموت من هذا العقل لا من هذه العلة .

تلميذ في الطب

عن ابن الرومي قال : قال طبيب لتلميذه : إذا دخلت إلى مريض فانظر إلى أثر ما عنده من طعام أو شراب ، فانهه عما لا يصلح من ذلك ، فدخل الغلام يوماً على مريض فنظر إلى حداجة جمل في الدار . فقال للمريض : أنا والله لا أصف لك دواء ، قال : ولم؟ قال : لأنك قد أكلت جملاً ، قال : لا والله ما أكلت جملاً قط ، فقال : هذه الحداجة من أين؟

ما علمت أنك حمار

مر طبيب بأبي واسع فشكا إليه ريحاً في بطنه ، فقال له : خذ الصعتر . فقال : يا غلام دواة وقرطاس ، وقال : قلت ماذا أصلحك الله؟ قلت : كف صعتر ومكوك شعير ، فقال : لم لم تذكر الشعير أولاً؟ قال : ما علمت أنك حمار إلا الساعة .

يوحنا بن ماسويه

كَانَ طَبِيبا ذكيا فَاضلا خَبِيرا بصناعة الطِّبّ وَله كَلَام حسن وتصانيف مَشْهُورَة وَكَانَ مبجلا حظيا عِنْد الْخُلَفَاء والملوك .

قَالَ إِسْحَق بن عَليّ الرهاوي فِي كتاب أدب الطَّبِيب عَن عِيسَى بن ماسه الطَّبِيب قَالَ أَخْبرنِي أَبُو زَكَرِيَّا يوحنا بن ماسويه أَنه اكْتسب من صناعَة الطِّبّ ألف ألف دِرْهَم وعاش بعد قَوْله هَذَا ثَلَاث سِنِين أخر

وَكَانَ الواثق[1] مشغوفا ضنينا بِهِ فَشرب يَوْمًا عِنْده فَسَقَاهُ الساقي شرابًا غير صَاف وَلَا لذيذ على مَا جرت بِهِ الْعَادة وَهَذَا من عَادَة السقاة إِذا قصر فِي برهم .

فَلَمَّا شرب الْقدح الأول قَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ أما المذاقات فقد عرفتها واعتدتها ومذاقة هَذَا الشَّرَاب فخارجة عَن طبع المذاقات كلهَا فَوجدَ أَمِير الْمُؤمنِينَ على السقاة وَقَالَ يسقون أطبائي وَفِي مجلسي مثل هَذَا الشَّرَاب وَأمر ليوحنا بِهَذَا السَّبَب وَفِي

(١) هو هارون الثاني الواثق بالله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد (٢٣٢هـ/٨٤٧) هو تاسع خلفاء العباسيين في العراق . ولد في بغداد سنة ٢٠٠ هـ . أمه أم ولد رومية اسمها قراطيس . وكانوا يسمونه المأمون الصغير لأدبه وفضله ، وكان المأمون يجلسه وأبوه المعتصم واقف ، وكان يقول : يا أبا إسحاق لا تؤدب هارون ، فإني أرضي أدبه ، ولا تعترض عليه في شيء يفعله .

ذَلك الْوَقْت بمائَة ألف درْهَم ودعا بسمانة الْخَادِم فَقَالَ لَهُ احْملْ إِلَيْه الْمَال السَّاعَة .
فَلَمَّا كَانَ وَقت الْعَصْر سَأَلَ سمانة هَل حمل مَال الطَّبِيب أم لاَ فَقَالَ لاَ بعد فَقَالَ يحمل إِلَيْه مائتَا ألف درْهَم السَّاعَة .
فَلَمَّا صلوا الْعشَاء سَأَلَ عَن حمل الْمَال فَقيل لَهُ لم يحمل بعد فَدَعَا بسمانة وَقَالَ احْمِلْ إِلَيْه ثلثمائة ألف درْهَم .
فَقَالَ سمانة لخازن بَيت الْمَال احملوا مَال يوحنا وَإِلاَّ لم يبْق فِي بَيت الْمَال شَيْء .
فَحمل إِلَيْه من سَاعَته .
وَقَالَ سُلَيْمَان بن حسان كَانَ يوحنا بن ماسويه مسيحي الْمَذْهَب سريانيا قَلّدهُ الرشيد تَرْجَمَة الْكتب الْقَدِيمَة ممَّا وجد بأنقره وعمورية وَسَائِر بِلاَد الرّوم حِين سباها الْمُسلمُونَ وَوَضعه أَمينا على التَّرْجَمَة .
وخدم هَارُون والأمين والمأمون وَبَقِي على ذَلك إِلَى أَيَّام المتَوَكل .
قَالَ وَكَانَت مُلُوك بني هَاشم لاَ يتناولون شَيْئا من أطعمتهم إِلاَّ بِحَضْرَته .
وَكَانَ يقف على رؤوسهم وَمَعَهُ البراني بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية فِي الشتَاء وَفِي الصَّيف بالأشربة الْبَارِدَة والجوارشنات .
وَقَالَ ابْن النديم الْبَغْدَادِيّ(١) الْكَاتِب إِن يوحنا بن ماسويه خدم بصناعة الطِّبّ الْمَأْمُون والمعتصم والواثق والمتوكل .

ابْن صَفِيَّة

هُوَ أَبُو غَالب بن صَفِيَّة وَكَانَ نَصْرَانِيّا .
وَقَالَ بعض الْعِرَاقِيّين أَن أَبَا المظفر يُوسُف المستنجد بِاللَّه(٢) كَانَ خَلِيفَة صَارِمًا

(١) ابن النديم هو أبو الفرج محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق الوراق البغدادي توفي في الأول من شعبان من عام ٤٣٨هـ أو عام ١٠٤٧م وأبوه هو الوراق . وقد كان ابن النديم أديب وكاتب سيرة ومصنف وجامع فهارس صاحب الكتاب المعروف كتاب الفهرست الذي جمع فيه كل ما صدر من الكتب والمقالات العربية في زمنه . لا يعرف الكثير عن حياته ولا سبب كنيته بابن النديم . من أهل بغداد ، وقد عاش في بغداد وعمل كاتباً وخطاطا ونساخا للكتب وهي مهنة ورثها عن أبيه .

(٢) أبو المظفر «المستنجد بالله» يوسف بن محمد المقتفي٥٥٥ه إلى ٥٦٦ه كان الخليفة العباسي الثالث والثلاثين ، حكم في بغداد بين عامي ١١٦٠ و١١٧٠ . كان ابن الخليفة السابق له المقتفي لأمر الله . وصف بالعدل ، حيث كان شديداً على المفسدين .

متيقظا فتاكا وَكَانَ وزيره أَبُو المظفر يحيى بن هُبَيْرَة ثمَّ توفّي فاستوزر شرف الدّين بن الْبَلَدي وَكَانَ يجْري مجْرَاه .

وَكَانَ فِي الدولة أُمَرَاء أكَابِر كَانَ مُتَقَدم الْجَمَاعَة قطب الدّين قايماز وَكَانَ أَصله أرمنيا وَقد عظم شَأْنه وَعلا مَكَانَهُ وَاسْتولى على الْبِلَاد وتحكم فِي الدولة وَلم يبْق لَهُ ضد وَلاَ مناو وَعمد إِلَى أكَابِر أُمَرَاء الدولة فزوجهم ببناته وَكَانَ بَينه وَبَين الْوَزير مماراة .

ثمَّ إِن الْخَلِيفَة مرض وَكَانَ طبيبه ابْن صَفيَّة أَبُو غَالب النَّصْرَانِي وَكَانَ الْوَزير ابْن الْبَلَدي يحذر الْخَلِيفَة ويخوفه من استطالة قطب الدّين وَمن يجْري مَعَه من الْأُمَرَاء فَاطلع الطَّبِيب على بعض الْأَحْوَال وَأَرَادَ التَّقَرُّب عِنْد الْأَمِير قطب الدّين[١] فَنقل إِلَيْهِ الحَدِيث وَاسْتمرّ الْحَال على ذَلِك .

فَلَمَّا مرض الْخَلِيفَة عزم فِي الْقَبْض على قطب الدّين وجماعته واطلع ابْن صَفيَّة على ذَلِك فَمضى على قطب الدّين وعرفه الْحَال وَقَالَ لَهُ قد جرى من الْوَزير كَذَا وَكَذَا فتغد بِهِ قبل أَن يتعشى بك .

فَأخذ قطب الدّين يعْمل فكرته ورأيه فِي التَّدْبِير فِي مكايد الْوَزير وَثقل الْخَلِيفَة فِي الْمَرَض واشتغل عَمَّا كَانَ قد دبره مَعَ الْوَزير فِي الْقَبْض على الْأُمَرَاء .

فأجمع قطب الدّين رَأْيه على قتل الْخَلِيفَة ثمَّ يتفرغ لهلاك الْوَزير فأسفر رَأْيه على أَنه قرر مَعَ ابْن صَفيَّة الطَّبِيب أَن يصف للخليفة الْحمام فَدخل الْحَكِيم إِلَى الْخَلِيفَة وَأَشَارَ بالحمام والخليفة يعلم من نَفسه الضعْف فَأبى ذَلِك .

فَدخل قطب الدّين وَبَعض الْجَمَاعَة وَقَالَ يَا مَوْلاَنَا الْحَكِيم قد أَشَارَ بالحمام فَقَالَ قد رَأينَا أَن نؤخره فغلبوا على رَأْيه وأدخلوه الْحمام وَقد كَانَ أوقد عَلَيْهِ ثَلاَثَة أَيَّام بلياليهن وردوا عَلَيْهِ بَاب الْحمام سَاعَة فَمَاتَ

وأظهروا الْحزن الْعَظِيم وَأتوا إِلَى وَلَده أبي مُحَمَّد الْحسن فاستخلفوه على مَا أَرَادوا وَبَايَعُوهُ ولقب بالمستضيء بِأَمْر الله وَأقَام مُدَّة وَفِي نَفسه شَيْء مِمَّا فعلوا .

وَكَانَ قد استوزر عضد الدّين أَبَا الْفرج ابْن رَئِيس الرؤساء وَكَانَ ابْن صَفيَّة الطَّبِيب على حَاله مُلَازم الْخدمَة فشرع الْخَلِيفَة فِي الاستبداد بالأمور مَعَ وزيره وَكَانَ

---

(١) العالم المسلم الطبيب الفارسي قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي ولد في كازرون بإيران وتعلم الطب على يد والده وعمه ، ثم تتلمذ على نصير الدين الطوسي . وقد زار عدداً من البلدان ، فذهب إلى خراسان والعراق وفارس ومصر .

قطب الدّين قايماز وَابْن صَفيَّة مهما اطلع عَلَيْهِ من الأُحْوَال نَقله إِلَى قطب الدّين وَهُوَ مُتَرَدّد إِلَى الدَّار وَلاَ يُمْنَع لكَونه طَبيب الْخدمَة .

فَاسْتَحْضرهُ الْخَلِيفَة لَيْلاً وَقَالَ لَهُ يَا حَكيم عنْدي من أكره رُؤْيَته وَأُرِيد إبعاده بوَجْه لطيف غير شَفيع فَقَالَ لَهُ نرتب لَهُ شربة قَوِيَّة بَالِغَة يشْربهَا وَقد حصل الْخُلاَص مِنْهُ كَمَا تُؤثر .

فَمضى وَركب شربة كَمَا وصف وأحضرها لَيْلاً وَدخل بهَا إِلَى عنْد الْخَلِيفَة فَفتحهَا وَنظر إِلَيْهَا وَقَالَ يَا حَكيم استف هَذه الشربة حَتَّى نجرب فعلهَا فتلوى من ذَلك وَقَالَ الله الله يَا مَوْلاَنَا فِي فَقَالَ لَهُ الطَّبِيب مَتى تعدى حَده وَتجَاوز طوره وَقع فِي مثل هَذَا وَلَيْسَ لَك من هَذَا خلاص إِلاَّ السَّيْف .

فاستف الْحَكِيم الشربة الَّتِي ركبهَا وفر من الْهَلاَك إِلَى الْهَلاَك .

ثمَّ خرج من دَار الْخَلِيفَة وَكتب إِلَى الأُمِير قطب الدّين يشعره بِالْحَال وَيَقُول لَهُ والانتقال من أَمْرِي إِلَى أَمركُم .

ثمَّ هلك .

وَأما قطب الدّين فعزم أَن يُوقع بالخليفة فَرد الله سُبْحَانَهُ كَيده إِلَيْه ونهبت أَمْوَاله وهرب من بَغْدَاد بِنَفسِهِ وَمضى إِلَى الشَّام إِلَى الْملك النَّاصِر صَلاَح الدّين فَلم يقبله .

وَعَاد على طَرِيق الْبَريَّة إِلَى الْموصل فَمَرض فِي الطَّرِيق ثمَّ دخل الْموصل فَمَاتَ بهَا .

وضد هَذه الْحِكَايَة مَا حَدث به شمس الدّين مُحَمَّد بن الْحسن بن الْكَرِيم الْبَغْدَادِيّ عَن بعض الْمَشَايِخ بِبَغْدَاد قَالَ :

كَانَ السُّلْطَان مُحَمَّد بن مَحْمُود خوارزم شاه قد حضر بَغْدَاد فِي سنة وَخَمْسمائة فَمَرض وَهُوَ بعسكره ظَاهر الْبَلَد وَمرض الْخَلِيفَة المقتفي أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن المستظهر بِبَغْدَاد فانفذ السُّلْطَان يلْتَمس الرئيس أَمِين الدولة بن التلميذ فَاخْرُج إِلَى ظَاهر الْمَدِينَة فَكَانَ يداويه بِظَاهِر بَغْدَاد ويداوي الْخَلِيفَة بِبَغْدَاد فَقَالَ لَهُ وَزِير السُّلْطَان أَيهَا الرئيس إِنَّنِي قد كنت عنْد السُّلْطَان وَذكرت لَهُ من فضلك وأدبك ورآستك .

وَقد أمر لَك بعشْرَة آلاَف دِينَار .

فَقَالَ لَهُ يَا مَوْلاَنَا قد أَمر لي من بَغْدَاد بأثني عشر ألف دِينَار أفيأذن لي فِي قبُولهَا السُّلْطَان يَا مَوْلاَنَا أَنا رجل طَبِيب لاَ أتجاوز وظائف الأُطِبَّاء وَمَا يلْزمهُم وَلاَ أعرف إِلاَّ

مَاء الشّعير والنقوع وشراب البنفسج والنيلوفر وَمَتى أخرجت عَن هَذَا لاَ أعرف شَيْئا .
وَكَانَ الْوَزير قد عرض لَهُ فِي حَديثه بمَا مَعْنَاهُ أَنه يدبر فِي إتْلاَف الْخَليفَة وَقدر الله سُبْحَانَهُ برْء الْخَليفَة وَالسُّلْطَان وَوَقع الصُّلْح بَينهمَا على مَا اقترحه الْخَليفَة .
وَهَذَا كَانَ من عقل الرئيس أَمين الدولة وَدينه وأمانته فَإِنَّهُ كَانَ يَقُول لاَ يَنْبَغِي للطبيب أَن يداخل الْمُلُوك فِي أسرارهم وَلاَ يتَجَاوَز كَمَا تقدم ذكره مَاء الشّعير والنقوع وَالشرَاب فَمَتَى جَاوز هَذَا تلف وَكَانَ سَبَب هَلاَكه .
وَكَانَ ينشد

(وَإِذا أنبت الْمُهَيْمن للنمل جنَاحا أطارها للتردي)
(وَلكُل امْرِئ من النَّاس حد وهلاك الْفَتى جَوَاز الْحَد)

قسم أبقراط(١)

قَالَ أبقراط إِنِّي أقسم بِاللَّه رب الْحَيَاة وَالْمَوْت وواهب الصِّحَّة وخالق الشِّفَاء وكل علاج .
وَأقسم بأسقليبيوس .
وَأقسم بأولياء الله من الرِّجَال وَالنِّسَاء جَميعًا .
وأشهدهم جَميعًا على أَنِّي أَفِي بِهَذه الْيَمين وَهَذَا الشَّرْط .
وَأرى أَن الْمعلم لي هَذه الصِّنَاعَة بِمَنْزِلَة آبَائِي وأواسيه فِي معاشي وَإِذا إحتاج إِلَى مَال واسيته وواصلته من مَالِي .
وَأما الْجِنْس المتناسل مِنْهُ فَأرى أَنه مسَاوٍ لإخوتي وأعلمهم هَذِه الصِّنَاعَة ان احتاجوا إِلَى تعلمهَا بِغَيْر أُجْرَة وَلاَ شَرط .
وأشرك أَوْلاَدي وَأَوْلاَد الْمعلم لي والتلاميذ الَّذين كتب عَلَيْهِم الشَّرْط أَو حلفوا بالناموس الطبي فِي الْوَصَايَا والعلوم وَسَائِر مَا فِي الصِّنَاعَة .

(١) أبُقراط أبو الطب وأعظم أطباء عصره ، أول مدون لكتب الطب ، مخلص الطب من آثار الفلسفة وظلمات الطقوس السحرية ، من أشهر الشخصيات على مر التاريخ في كل العصور وكل المجالات ، وعلى الرغم أنه لم يهتم سوى بمجال واحد ولم يبرع في مجالات مختلفة مثل ليوناردو دا فينشي الذي تكلم في مجالات مختلفة ، إلا أنه حظي بشهرة واسعة منقطعة النظير ، ونسبت له الكثير من المؤلفات . صاحب فكرة القسم الشهير الذي يقسمه الأطباء قبل مزاولة مهنة الطب .

وَأما غير هَؤُلاَءِ فَلاَ أفعل بِهِ ذَلِك وأقصد فِي جَمِيع التدابير بِقدر طاقتي مَنْفَعَة المرضى .
وَأما الأَشْيَاء الَّتِي تضر بهم وتدني مِنْهُم بالجور عَلَيْهِم فامنع مِنْهَا بِحَسب رَأْيِي .
وَلاَ أعطي إِذا طلب مني دَوَاء قتالا وَلاَ أُشير أَيْضا بِمثل هَذِه المشورة .
وَكَذَلِكَ أَيْضا لاَ أرى أَن أدني من النسْوَة فرزجة تسْقط الْجَنِين .
وأحفظ نَفسِي فِي تدبيري وصناعتي على الزَّكَاة وَالطَّهَارَة وَلاَ أشق أَيْضا عَمَّن فِي مثانته حجَارَة وَلَكِن أترك ذَلِك إِلَى من كَانَت حرفته هَذَا الْعَمَل .
وكل الْمنَازل الَّتِي أدخلها إِنَّمَا أَدخل إِلَيْهَا لِمَنْفَعَة المرضى وَأَنا بِحَال خَارِجَة عَن كل جور وظلم وَفَسَاد إرادي مَقْصُود إِلَيْهِ فِي سَائِر الأَشْيَاء وَفِي الْجِمَاع للنِّسَاء وَالرِّجَال الأَحْرَار مِنْهُم وَالْعَبِيد .
وَأما الأَشْيَاء الَّتِي أعاينها فِي أَوْقَات علاج المرضى أَو أسمعها فِي غير أَوْقَات علاجهم فِي تصرف النَّاس من الأَشْيَاء الَّتِي لاَ ينْطق بهَا خَارِجا فَأمْسك عَنْهَا وَأرى أَن أَمْثَالهَا لاَ ينْطق بِهِ .
فَمن أكمل هَذِه الْيَمين وَلم يفْسد شَيْئا كَانَ لَهُ أَن يكمل تَدْبيره وصناعته على أفضل الأَحْوَال وأجملها وَأَن يحمده جَمِيع النَّاس فِيمَا يَأْتِي من الزَّمَان دَائِما وَمن تجَاوز ذَلِك كَانَ بضده .

ناموس الطِّبّ لأبقراط

وَهَذِه نُسْخَة ناموس الطِّبّ لأبقراط .
قَالَ أبقراط :
إِن الطِّبّ أشرف الصَّنَائِع كلهَا إِلاَّ أَن نقص فهم من ينتحلها صَار سَببا لسلب النَّاس إِيَّاهَا لأَنَّهُ لم يُوجد لَهَا فِي جَمِيع المدن عيب غير جهل من يدعيها مِمَّن لَيْسَ بِأَهْل للتسمي بهَا إِذْ كَانُوا يشبهون الأشباح الَّتِي يحضرها أَصْحَاب الْحِكَايَة ليلهوا النَّاس بهَا فَكَمَا أَنَّهَا صور لاَ حَقِيقَة لَهَا كَذَلِك هَؤُلاَء الأَطِبَّاء بالاسْم كثير وبالفعل قَلِيل جدا .
وَيَنْبَغِي لم أَرَادَ تعلم صناعَة الطِّبّ أَن يكون ذَا طبيعَة جَيِّدَة مؤاتية وحرص شَدِيد ورغبة تَامَّة وَأفضل ذَلِك كُله الطبيعة لأَنَّهَا إِذا كَانَت مؤاتية فَيَنْبَغِي أَن يقبل على التَّعْلِيم وَلاَ يضجر لينطبع فِي فكره ويثمر ثمارا حَسَنَة مثل مَا يرى فِي نَبَات الأَرْض .
أما الطبيعة فَمثل التربة وَأما مَنْفَعَة التَّعْلِيم فَمثل الزَّرْع وَأما تربية التَّعْلِيم فَمثل وُقُوع البزر فِي الأَرْض الجيدة .

فَمَتَى قدمت الْعنَايَة فِي صناعَة الطِّبّ بِمَا ذكرنَا ثمَّ صَارُوا إِلَى المدن لم يَكُونُوا أطباء بالاسْم بل بِالْفِعْلِ .

وَالْعلم بالطب كنز جيد وذخيرة فاخرة لمن علمه مَمْلُوء سُرُورًا سرا وجهرا وَالْجَهل بِهِ لمن انتحله صناعَة سوء وذخيرة ردية عديم السرُور دَائِم الْجزع والتهور .

والجزع دَلِيل على الضعْف والتهور دَلِيل على قلَّة الْخَبَر بالصناعة .

وَصيَّة أبقراط

وَهَذه نُسْخَة وَصِيَّة أبقراط الْمَعْرُوفَة بترتيب الطِّبّ .

قَالَ أبقراط :

يَنْبَغِي أَن يكون المتعلم للطب فِي جنسه حرا وَفِي طبعه جيدا حَدِيث السن معتدل الْقَامَة متناسب الْأَعْضَاء جيد الْفَهم حسن الحَدِيث صَحِيح الرَّأْي عِنْد المشورة عفيفا شجاعا غير محب لِلْفِضَّةِ مَالِكًا لنَفسِهِ عِنْد الْغَضَب وَلَا يكون تَارِكًا لَهُ فِي الْغَايَة وَلَا يكون بليدا .

وَيَنْبَغِي أَن يكون مشاركا للعليل مشفقا عَلَيْهِ حَافِظًا للأسرار لِأَن كثيرا من المرضى يوقفونا على أمراض بهم لَا يحبونَ أَن يقف عَلَيْهَا غَيرهم .

وَيَنْبَغِي أَن يكون مُحْتملا للشتيمة لِأَن قوما من المبرسمين وَأَصْحَاب الوسواس السوداوي يقابلونا بذلك وَيَنْبَغِي لنا أَن نحتملهم عَلَيْهِ ونعلم أَنه لَيْسَ مِنْهُم وَأَن السَّبَب فِيهِ الْمَرَض الْخَارِج عَن الطبيعة .

وَيَنْبَغِي أَن يكون حلق رَأسه معتدلا مستويا لَا يحلقه وَلَا يَدعه كالجمة وَلَا يستقصي قصّ أظافير يَدَيْهِ وَلَا يَتْرُكهَا تعلو على أَطْرَاف أَصَابِعه .

وَيَنْبَغِي أَن تكون ثِيَابه بَيْضَاء نقية لينَة وَلَا يكون فِي مَشْيه مستعجلا لِأَن ذَلِك دَلِيل على الطيش وَلَا متباطئا لِأَنَّهُ يدل على فتور النَّفس .

وَإِذا دعِي إِلَى الْمَرِيض فليقعد متربعا ويختبر مِنْهُ حَاله بِسُكُون وتأن لَا بقلق واضطراب فَإِن هَذَا الشكل والزي وَالتَّرْتِيب عِنْدِي أفضل من غَيره .

قَالَ جالينوس[(١)] فِي الْمقَالة الثَّالِثَة من كِتَابه فِي أَخْلَاق النَّفس .

(١) جَالِينُوس هو طبيب يوناني ، ويُعتبر أحد أعظم الأطباء في العصور القديمة . يدور مذهبه في الطب على أساس القول بأن الأخلاط الأربعة – الدم والبلغم والصفراء والسّوداء – هي التي تقرِّر صحة الإنسان ومزاجه .

أَن أبقراط كَانَ يعلم مَعَ مَا كَانَ يعلم من الطِّبّ من أَمر النُّجُوم مَا لم يكن يدانيه فِيهِ أحد من أهل زَمَانه .

وَكَانَ يعلم أَمر الأُرْكان الَّتِي مِنْهَا تركيب أبدان الْحَيَوَان وَكَون جَمِيع الأَجْسَام الَّتِي تقبل الْكَوْن وَالْفساد وفسادها .

وَهُوَ أول من برهن ببراهين حَقِيقَة هَذه الأَشْيَاء الَّتِي ذكرنَا .

وَبرهن كَيفَ يكون الْمَرَض وَالصِّحَّة فِي جَمِيع الْحَيَوَان وَفِي النَّبَات .

وَهُوَ الَّذِي استنبط أَجنَاس الأَمْرَاض وجهات مداواتها .

أَقُول فَأَما معالجة أبقراط ومداواته للأمراض فَإِنَّهُ أبدا كَانَت لَهُ الْعِنَايَة الْبَالِغَة فِي نفع المرضى وَفِي مداواتهم .

وَيُقَال أَنه أول من جدد البيمارستان وأخترعه وأوجده .

وَذَلِكَ أَنه عمل بِالْقربِ من دَاره فِي مَوضِع من بُسْتَان كَانَ لَهُ موضعا مُفردا للمرضى وَجعل فِيهِ خدما يقومُونَ بمداواتهم وَسَماهُ أخسندوكين أَي مجمع المرضى وَكَذَلِكَ أَيْضا معنى لَفْظَة البيمارستان وَهُوَ فَارسي وَذَلِكَ أَن البيمار بالفارسي هُوَ المرضى وستان هُوَ الْموضع أَي مَوضع المرضى .

وَلم يكن لأبقراط دأب على هَذه الوتيرة فِي مُدَّة حَيَاته وَطول بَقَائِهِ إِلاَّ النّظر فِي صناعَة الطِّبّ وإيجاد قوانينها ومداواة المرضى وإيصال الرَّاحَة إِلَيْهِم وإنقاذهم من عللهم وأمراضهم .

وَقد ذكر كثيرا من قصَص مرضى عالجهم فِي كتَابه الْمَعْرُوف بأبيديميا .(١)

وَلم يكن لأبقراط رَغْبَة فِي خدمَة أحد من الْمُلُوك لطلب الْغنى وَلاَ فِي زِيَادَة مَال يفضل عَن احْتيَاجه الضَّرُورِيّ .

وَفِي ذَلِك قَالَ جالينوس إِن أبقراط لم يجب أحد مُلُوك الْفرس الْعَظِيم الشَّأْن الْمَعْرُوف عِنْد اليونانيين بأرطخششت وَهُوَ أزدشير الْفَارِسِي جد دَارا بن دَارا فَإِنَّهُ عرض فِي أَيَّام هَذَا الْملك للْفرس وباء فَوجه إِلَى عَامله بمَدِينَة فاوان أَن يحمل إِلَى أبقراط مائَة قِنْطَار ذَهَبا ويحمله بكرامة عَظِيمَة وإجلال وَأَن يكون هَذَا المَال تقدمة لَهُ وَيضمن لَهُ إقطاعا بِمثْلِهَا وَكتب إِلَى ملك اليونانيين يَسْتَعِين بِهِ على إِخْرَاجه إِلَيْهِ وَضمن لَهُ مهادنة سبع سِنِين مَتى أخرج أبقراط إِلَيْهِ .

(١) تَفْسِير أبيديميا الأَمْرَاض الوافدة .

فَلم يجب أبقراط إِلَى الخُرُوج عَن بَلَده إِلَى الْفرس .

فَلَمَّا ألح عَلَيْهِ ملك اليونانيين فِي الخُرُوج قَالَ لَهُ أبقراط لست أبدل الْفَضِيلَة بِالْمَالِ .

وَلما عالج بردقس الْملك من أمراض مَرضهَا لم يقم عِنْده دهره كُله .

وَانْصَرف إِلَى علاج الْمَسَاكِين والفقراء الَّذين كَانُوا فِي بلدته وَفِي مدن أُخْرَى وَإِن صغرت .

وَدَار هُوَ بِنَفسِهِ جَمِيع مدن اليونانيين حَتَّى وضع لَهُم كتابا فِي الأهوية والبلدان .

قَالَ جالينوس وَمن هَذِه حَاله لَيْسَ إِنَّمَا يستخف بالغنى فَقَط بل بالخفض والدعة ويؤثر التَّعَب وَالنّصب عَلَيْهَا فِي جنب الْفَضِيلَة .

وَمن بعض التواريخ الْقَدِيمَة أَن أبقراط كَانَ فِي زمن بهمن بن أزدشير وَكَانَ بهمن قد اعتل فأنفذ إِلَى أهل بلد أبقراط يستدعيه فامتنعوا من ذَلِك وَقَالُوا أَن أخرج أبقراط من مدينتنا خرجنَا جَمِيعًا وقتلنا دونه فرق لَهُم بهمن وَأقرهُ عِنْدهم .

وَظهر أبقراط سنة ستّ وَتِسْعين لبختنصر وَهِي سنة أَربع عشرَة للْملك بهمن .

قَالَ سُلَيْمَان بن حسان الْمَعْرُوف بِابْن جلجل وَرَأَيْت حِكَايَة طريفه لأبقراط استحلينا ذكرهَا لندل بهَا على فَضله وَذَلِكَ أَن أفليمون صَاحب الفراسة كَانَ يزْعم فِي فراسته أَنه يسْتَدلّ بتركيب الْإِنْسَان على أَخْلَاق نَفسه فَاجْتمع تلاميذ أبقراط وَقَالَ بَعضهم لبَعض هَل تعلمُونَ فِي دَهْرنَا أفضل من هَذَا الْمَرْء الْفَاضِل فَقَالُوا مَا نعلم .

فَقَالَ بَعضهم تَعَالَوْا نمتحن بِهِ أفليمون فِيمَا يَدعِيهِ من الفراسة فصوروا صُورَة أبقراط ثمَّ نهضوا بهَا إِلَى أفليمون .

فَقَالُوا لَهُ أَيهَا الْفَاضِل انْظُر هَذَا الشَّخْص وَأحكم على أَخْلَاق نَفسه من تركيبه .

فَنظر إِلَيْه وَقرن أعضاءه بَعْضهَا بِبَعْض ثمَّ حكم فَقَالَ رجل يحب الزِّنَا .

فَقَالُوا لَهُ كذبت هَذِه صُورَة أبقراط الْحَكِيم .

فَقَالَ لَهُم لابد لعلمي أَن يصدق فَاسْأَلُوهُ فَإِن الْمَرْء لاَ يرضى بِالْكَذِبِ .

فَرَجَعُوا إِلَى أبقراط وَأَخْبرُوهُ بالْخَبَر وَمَا صَنَعُوا وَمَا قَالَ لَهُم أفليمون فَقَالَ أبقراط صدق أفليمون أحب الزِّنَا وَلَكِنِّي أملك نَفسِي .

فَهَذَا يدل على فضل أبقراط وَملكه لنَفسِهِ ورياضته لَهَا بالفضيلة .

وَقد تنْسب هَذِه الْحِكَايَة إِلَى سقراط الفيلسوف وتلامذته .

فَأَما تَفْسِير اسْم أبقراط فَإِن مَعْنَاهُ ضَابِط الْخَيل وَقيل مَعْنَاهُ ماسك الصِّحَّة وَقيل ماسك الْأَرْوَاح .

وأصل اسْمه باليونانية أيفوقراطيس وَيُقَال هُوَ بقراطيس وَإِنَّمَا الْعَرَب عَادَتهَا تَخْفيف الْأَسْمَاء واختصار الْمعَانِي فخففت هَذَا الاسْم فَقَالُوا أبقراط وبقراط أَيْضا .

وَقد جرى ذَلِك كثيرا فِي الشّعْر وَيُقَال أَيْضا بِالتَّاء أبقرات وبقرات

وَقَالَ المبشر بن فاتك[١] فِي كتاب مُخْتَار الحكم ومحاسن الْكَلم .

أَن أبقراط كَانَ ربعَة أَبيض حسن الصُّورَة أشهل الْعَينَيْنِ غليظ الْعِظَام ذَا عصب معتدل اللِّحْيَة أبيضها منحني الظّهْر عَظِيم الهامة بطيء الْحَرَكَة .

إِذا الْتفت الْتفت بكليته كثير الأطراق مُصِيب القَوْل متأنيا فِي كَلَامه يُكَرر على السَّامع مِنْهُ .

ونعلاه أبدا بَين يَدَيْهِ إِذا جلس وَإِن كلم أجَاب وَإِن سكت عَنهُ سَأَلَ وَإِن جلس كَانَ نظره إِلَى الأَرْض مَعَه مداعبة كثير الصَّوْم قَلِيل الْأكل بِيَدِهِ أبدا إِمَّا مبضع وَإِمَّا مرود .

وَقَالَ حنين بن إِسْحَاق[٢] فِي كتاب نَوَادِر الفلاسفة والحكماء إِنَّه كَانَ مَنْقُوشًا على فص خَاتم أبقراط الْمَرِيض الَّذِي يَشْتَهِي أَرْجَى عِنْدِي من الصَّحِيح الَّذِي لَا يَشْتَهِي شَيْئا .

وَيُقَال أَن أبقراط مَاتَ بالفالج وَأوصى أَن يدْفن مَعَه درج من عاج لَا يعلم مَا فِيهِ فَلَمَّا اجتاز قَيْصر الْملك بقبره رَآهُ قبرا ذليلا فَأمر بتجديده لِأَنَّهُ كَانَ من عَادَة الْمُلُوك أَن يفتقدوا أَحْوَال الْحُكَمَاء فِي حياتهم وَبعد وفاتهم لأَنهم كَانُوا عِنْدهم أجل النَّاس وأقربهم إِلَيْهِم .

فَأمر قَيْصر الْملك بحفره فَلَمَّا حفره لينْظر إِلَيْهِ استخرج الدرج فَوجدَ فِيهِ الْخمس

(١) أبو الوفاء المبشر بن فاتك (حكيم طبيب متبحر في العلوم الرياضية فاطمي في القرن ١١ . وصديق الطبيب علي بن رضوان . اشتغل بالطب أيضا ولكنه اشتهر بكتابة مختار الحكم ومحاسن الكلم وهو مجموعة من الأمثال نسبت الى قدماء الحكماء جمعها المبشر بن فاتك وترجمها الى العربية وعلق عليها .

(٢) أبو زَيْد بن إسحق العِبَادي المعروف بحُنَيْن بن إسحق العِبَادي عالم ومترجم وعالم لغات وطبيب مسيحي نسطوري . أصله من الحيرة ولد عام ١٩٤ هـ / ٨١٠م ، لأب مسيحي يشتغل بالصيدلة .

وَالْعشْرين قَضيَّة فِي الْمَوْت الَّتِي لاَ يعلم الْعلَّة فِيهَا لأَنَّهُ حكم فِيهَا بِالْمَوْتِ إِلَى أَوْقَات مُعينَة وَأَيَّام مَعْلُومَة .

وَهِي مَوْجُودَة بالعربي .

وَيُقَال إِن جالينوس فسرهَا وَهَذَا ممَّا استبعده .

وَإِلاَّ فَلَو كَانَ ذَلِك حَقًا وَوجد تَفْسِير جالينوس لنقل إِلَى الْعَرَبِيّ كَمَا قد فعل ذَلِك بِغَيْرِهِ من كتب أبقراط الَّتِي فَسرهَا جالينوس فَإِنَّهَا نقلت بأسرها إِلَى الْعَرَبِيّ .

وَمن أَلْفَاظ أبقراط الحكيمة ونوادره المفردة فِي الطِّبّ قَالَ أبقراط الطِّبّ قِيَاس وتجربة .

وَقَالَ لَو خلق الإِنْسَان من طبيعة وَاحِدَة لما مرض أحد لأَنَّهُ لم يكن هُنَاكَ شَيْء يضادها فيمرض .

وَقَالَ الْعَادة إِذا قدمت صَارَت طبيعة ثَانِيَة .

والزجر والفأل حس نفساني .

وَقَالَ أحذق النَّاس بِأَحْكَام النُّجُوم أعرفهم بطبائعها وآخذهم بالتشبيه .

وَقَالَ الإِنْسَان مَا دَامَ فِي عَالم الْحس فَلاَ بُد من أَن يَأْخُذ من الْحس بِنَصِيب قل أَو كثر وَقَالَ كل مرض مَعْرُوف السَّبَب مَوْجُود الشِّفَاء .

وَقَالَ إِن النَّاس اغتذوا فِي حَال الصِّحَّة بأغذية السبَاع فأمرضتهم فغذوناهم بأغذية الطير فصحوا .

وَقَالَ إِنَّمَا نَأْكُل لنعيش وَلاَ نَعِيش لنأكل .

وَقَالَ لاَ تَأْكُل حَتَّى تَأْكُل .

وَقَالَ يتداوى كل عليل بعقاقير أرضه فَإِن الطبيعة تفزع إِلَى عَادَتهَا

وَقَالَ الْخَمْرَة صديقَة الْجِسْم والتفاحة صديقَة النَّفس .

وَقيل لَهُ لم أثور مَا يكون الْبدن إِذا شرب الإِنْسَان الدَّوَاء قَالَ لأَن أَشد مَا يكون الْبَيْت غبارا إِذا كنس .

وَقَالَ لاَ تشرب الدَّوَاء إِلاَّ وَأَنت مُحْتَاج إِلَيْهِ فَإِن شربته من غير حَاجَة وَلم يجد دَاء يعْمل فِيهِ وجد صحَة يعْمل فِيهَا فَيحدث مَرَضا .

وَقَالَ مثل الْمَنِيّ فِي الظّهْر كَمثل المَاء فِي الْبِئْر إِن نزفته فار وَإِن تركته غَار .

وَقَالَ إِن المجامع يقتدح من مَاء الْحَيَاة .

وَسُئِلَ فِي كم يَنْبَغِي للْإِنْسَان أَن يُجَامع قَالَ فِي كل سنة مرّة قيل لَهُ فَإِن لم يقدر قَالَ فِي كل شهر مرّة .

قيل لَهُ فَإِن لم يقدر قَالَ فِي كل اسبوع مرّة قيل لَهُ فَإِن لم يقدر قَالَ هِيَ روحه أَي وَقت شَاءَ يُخرجهَا .

وَقَالَ أُمَّهَات لذات الدُّنْيَا أَربع لَذَّة الطَّعَام وَلَذَّة الشَّرَاب وَلَذَّة الجْمَاع وَلَذَّة السماع فاللذات الثَّلَاث لاَ يتَوَصَّل إِلَيْهَا وَلاَ إِلَى شَيْء مِنْهَا إلاَّ بتعب ومشقة وَلها مضار إِذا استكثر مِنْهَا وَلَذَّة السماع قلت أَو كثرت صَافِيَة من التَّعَب خَالصَة من النصب .

وَمن كَلاَمه قَالَ إِذا كَانَ الْغدر بِالنَّاسِ طباعا كَانَت الثِّقَة بِكُل أحد عَجزا وَإِذا كَانَ الرزق مقسوما كَانَ الحْرْص بَاطِلا .

وَقَالَ قلَّة الْعيَال أحد اليسارين .

وَقَالَ الْعَافِيَة ملك خَفِي لاَ يعرف قدرهَا إلاَّ من عدمهَا .

وَقيل لَهُ أَي الْعَيْش خير فَقَالَ الأْمْن مَعَ الْفقر خير من الْغنى مَعَ الخْوْف .

وَرَأى قوما يدفنون امْرَأَة فَقَالَ نعم الصهر صاهرك .

وَحكي عَنهُ أَنه أقبل بالتعليم على حدث من تلامذته فَعَاتَبَهُ الشُّيُوخ على تَقْدِيمه إِيَّاه عَلَيْهِم فَقَالَ لَهُم أَلا تعلمُوا مَا السَّبَب فِي تَقْدِيمه عَلَيْكُم قَالُوا لاَ .

فَقَالَ لَهُم مَا أعجب مَا فِي الدُّنْيَا فَقَالَ أحدهم السَّمَاء والأفلاك وَالْكَوَاكِب .

وَقَالَ آخر الأَرْض وَمَا فِيهَا من الحْيَوَانَات والنبات .

وَقَالَ آخر الإْنْسَان وتركيبه .

وَلم يزل كل وَاحِد مِنْهُم يَقُول شَيْئا وَهُوَ يَقُول لاَ .

فَقَالَ للصَّبِيّ مَا أعجب مَا فِي الدُّنْيَا فَقَالَ أَيهَا الحْكِيم إِذا كَانَ كل مَا فِي الدُّنْيَا عجبا فَلاَ عجب .

فَقَالَ الحْكِيم لأجل هَذَا قدمته لفطنته .

وَمن كَلاَمه قَالَ محاربة الشَّهْوَة أيسر من معالجة الْعلَّة .

وَقَالَ التَّخَلُّص من الأْمْرَاض الصعبة صناعَة كَبِيرَة .

وَدخل على عليل فَقَالَ أَنا وَالْعلَّة وَأَنت ثَلاَثَة فَإِن أعنتني عَلَيْهَا بِالْقبُول مني لما تسمع صرنا اثْنَيْنِ وانفردت الْعلَّة فقوينا عَلَيْهَا والاثنان إِذا اجْتمعَا على وَاحِد غلباه .

وَلما حَضرته الْوَفَاة قَالَ خُذُوا جَامع الْعلم مني من كثر نَومه ولانت طَبِيعَته ونديت جلدته طَال عمره .

وَمن كَلاَمه ممَّا ذكره حنين بن إِسْحَق فِي كتاب نَوَادِر الفلاسفة أَنه قَالَ منزلَة لطافة الْقلب فِي الأَْبدَان كمنزلة النواظر فِي الأَجفان .

وَقَالَ للقلب آفتان وهما الْغم والهم فالغم يعرض مِنْهُ النّوم والهم يعرض مِنْهُ السهر .

وَذَلِكَ بِأَن الْهم فِيهِ فكر فِي الْخَوْف بِمَا سَيكون فَمِنْهُ يكون السهر .

وَالْغَم لاَ فكر فِيهِ لأَنَّهُ إِنَّمَا يكون بِمَا قد مضى وانقضى .

وَقَالَ الْقلب من دم جامد وَالْغَم يهيج الْحَرَارَة الغريزية فَتلك الْحَرَارَة تذيب جامد الدَّم وَلذَلِك كره الْغم خوف الْعَوَارِض الْمَكْرُوهَة الَّتِي تهيج الْحَرَارَة وتحمي المزاج فَيحل جامد الدَّم فينتقض التَّرْكِيب .

وَقَالَ من صحب السُّلْطَان فَلاَ يجزع من قوته كَمَا لاَ يجزع الغواص من ملوحة الْبَحْر .

وَقَالَ من أحب لنَفسِهِ الْحَيَاة أماتها .

وَقَالَ الْعلم كثير والعَمَر قصير فَخذ من الْعلم مَا يبلغك قَلِيله إِلَى كثير .

وَقَالَ إِن الْمحبَّة قد تقع بَين العاقلين من بَاب تشاكلهما فِي الْعقل وَلاَ تقع بَين الأحمقين من بَاب تشاكلهما فِي الْحمق .

لأَن الْعقل يجْرِي على تَرْتِيب فَيجوز أَن يتَّفق فِيهِ اثْنَان على طَرِيق وَاحِد والحمق لاَ يجْرِي على تَرْتِيب فَلاَ يجوز أَن يَقع بِهِ اتِّفَاق بَين اثْنَيْنِ .

وَمن كَلاَمه فِي الْعِشْق قَالَ الْعِشْق طمع يتَوَلَّد فِي الْقلب وتجتمع فِيهِ مواد من الْحِرْص .

فَكلما قوي ازْدَادَ صَاحبه فِي الاهتياج واللجاج وَشدَّة القلق وَكَثْرَة السهر وَعند ذَلِك يكون احتراق الدَّم واستحالته إِلَى السَّوْدَاء والتهاب الصَّفْرَاء وانقلابها إِلَى السَّوْدَاء وَمن طغيان السَّوْدَاء فَسَاد الْفِكر وَمَعَ فَسَاد يكون الفدامة ونقصان الْعقل ورجاء مَا لم يكن وَتمنى مَا لم يتم حَتَّى يُؤَدِّي ذَلِك إِلَى الْجُنُون .

فَحِينَئِذٍ رُبمَا قتل العاشق نَفسه وَرُبمَا مَاتَ غما .

وَرُبمَا وصل إِلَى معشوقه فَيَمُوت فَرحا أَو أسفا .

وَرُبمَا شهق شهقة فتختفي مِنْهَا روحه أَرْبعا وَعشْرين سَاعَة فيظن أَنه قد مَاتَ فيقبر وَهُوَ حَيّ .

وَرُبمَا تنفس الصعداء فتختنق نَفسه فِي تامور قلبه وَيضم عَلَيْهَا الْقلب فَلاَ تنفرج حَتَّى يَمُوت .

وَرُبمَا ارْتَاحَ وَتَشَوُّق للنَّظَر وَرَأى من يحب فَجْأَة فَتخرج نَفسه فَجْأَة دفْعَة وَاحِدَة .

وَأَنت ترى العاشق إِذا سمع بِذكر من يحب كَيفَ يهرب دَمه ويستحيل لَونه وَزَوَال ذَلِك عَمَّن هَذه حَاله بلطف من رب الْعَالمين لاَ بتدبير من الآدَمِيّين .

وَذَلِكَ أَن الْمَكْرُوه الْعَارِض من سَبَب قَائِم مُنْفَرد بِنَفسِهِ يتهيأ التلطف بإزالته بِإِزَالَة سَببه .

فَإِذا وَقع السببان وكل وَاحِد مِنْهُمَا علّة لصَاحبه لم يكن إِلَى زَوَال وَاحِد مِنْهُمَا سَبِيل .

وَإِذا كَانَت السَّوْدَاء سَببا لاتصال الْفِكر وَكَانَ اتِّصَال الْفِكر سَببا لاحتراق الدَّم والصفراء وميلهما إِلَى السَّوْدَاء .

والسوداء كلما قويت قوت الْفِكر والفكر كلما قوي قوى السَّوْدَاء .

فَهَذَا الدَّاء العياء الَّذي يعجز عَن معالجته الأَطِبَّاء .

وَمن كَلاَمه قَالَ الجَْسَد يعالج جملَة من خَمْسَة أضْرب مَا فِي الرَّأْس بالغرغرة وَمَا فِي الْمعدة بالقيء وَمَا فِي الْبدن بإسهال الْبَطن وَمَا بَين الجلدين بالعرق وَمَا فِي العمق وداخل الْعُرُوق بإرسال الدَّم .

وَقَالَ الصَّفْرَاء بَيتهَا المرارة وسلطانها فِي الكبد والبلغم بَيته الْمعدة وسلطانه فِي الصَّدْر والسوداء بَيتهَا الطحال وسلطانها فِي الْقلب .

وَالدَّم بَيته الْقلب وسلطانه فِي الرَّأْس .

وَقَالَ لتلميذ لَهُ ليكن أفضل وسيلتك إِلَى النَّاس محبتك لَهُم والتفقد لأمورهم وَمَعْرِفَة حَالهم واصطناع الْمَعْرُوف إِلَيْهِم .

وَمن كتاب مُخْتَار الحكم ومحاسن الْكَلم للمبشر بن فاتك من كَلاَم أبقراط أَيْضا وآدابه قَالَ اسْتِدَامَة الصِّحَّة تكون بترك التكاسل عَن التَّعَب وبترك الامتلاء عَن الطَّعَام وَالشرَاب .

وَقَالَ إِن أَنْت فعلت مَا يَنْبَغِي على مَا يَنْبَغِي أَن يفعل فَلم يكن مَا يَنْبَغِي فَلاَ تنْتَقل عَمَّا أَنْت عَلَيْهِ مَا دَامَ مَا رَأَيْته أول الأَْمر ثَابتا .

وَقَالَ الإقلال من الضار خير من الإِكْثَار من النافع .

وَقَالَ أما الْعُقَلاَء فَيجب أَن يسقوا الْخمر وَأما الحمقى فَيجب أَن يسقوا الخربق .

وَقَالَ لَيْسَ معي من فَضِيلَة الْعلم إِلاَّ علمي بِأَنِّي لست بعالم وَقَالَ اقنعوا بالقوت والغوا عَنْكُم اللجاجة لتَكون لَكم قربى إِلَى الله عز وَجل

لأَن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غير مُحْتَاج إِلَى شَيْء فَكلما احتجتم أَكثر كُنْتُم مِنْهُ أبعد .

وَاهربوا من الشرور ذَروا المآثم وأطلبوا من الْخيرَات الغايات .

وَقَالَ الْمَالِك للشَّيْء هُوَ الْمُسَلط عَلَيْه .

فَمن أحب أَن يكون حرا فَلاَ يهو مَا لَيْسَ لَهُ وليهرب مِنْهُ وَإِلاَّ صَار لَهُ عبدا .

وَقَالَ يَنْبَغِي للمرء أَن يكون فِي دُنْيَاهُ كالمدعو فِي الْوَلِيمَة .

إِذا أَتَتْهُ الكَأس تنَاولهَا وَإِن جازته لم يرصدها وَلم يقْصد لطلبها .

وَكَذَلِكَ يفعل فِي الأَهْل وَالْمَال وَالْولد .

وَقَالَ لتلميذ لَهُ إِن أَحْبَبْت أَن لاَ تفوتك شهوتك فاشته مَا يمكنك .

وَسُئِلَ عَن أَشْيَاء قبيحة فَسكت عَنْهَا فَقيل لَهُ لم لاَ تجيب عَنْهَا فَقَالَ جوابها السُّكُوت عَنْهَا .

وَقَالَ الدُّنْيَا غير بَاقِيَة فَإِذا أمكن الْخَيْر فاصطنعوه وَإِذا عدمتم ذَلِك فتحمدوا وَاتَّخذُوا من الذّكر أَحْسنه .

وَقَالَ لَوْلاَ الْعَمَل لم يطْلب الْعلم وَلَوْلاَ الْعلم لم يطْلب الْعَمَل .

وَلأَن ادْع الْحق جهلا بِهِ أحب إِلَيّ من أَن أَدَعهُ زهدا فِيهِ .

وَقَالَ لاَ يَنْبَغِي أَن تكون علّة صديقك وَأَن طَالَتْ آلَم بِهِ من تعاهدك لَهُ .

وَكَانَ يَقُول الْعلم روح وَالْعَمَل بدن وَالْعلم أصل وَالْعَمَل فرع وَالْعلم وَالِد وَالْعَمَل مَوْلُود وَكَانَ الْعَمَل لمَكَان الْعلم وَلم يكن الْعلم لمَكَان الْعَمَل .

وَكَانَ يَقُول الْعَمَل خَادِم الْعلم وَالْعلم غَايَة وَالْعلم رائد وَالْعَمَل مُرْسل .

وَقَالَ إِعْطَاء الْمَرِيض بعض مَا يشتهيه أَنْفَع من أَخذه بكُل مَا لاَ يشتهيه .

أَقُول وأبقراط هُوَ أول من دون صناعَة الطِّبّ وشهرها وأظهرها كَمَا قُلْنَا قبل .

وَجعل أسلوبه فِي تأليف كتبه على ثَلاَث طرائق من طرق التَّعْلِيم إِحْدَاهَا على سَبِيل اللغز وَالثَّانِيَة على غَايَة الإيجاز والاختصار وَالثَّالِثَة على طَرِيق التساهل والتبيين .

وَالَّذِي انْتهى إِلَيْنَا ذكره ووجدناه من كتب أبقراط الصَّحِيحَة يكون نَحْو ثَلاَثِينَ كتابا .

وَالَّذِي يدرس من كتبه لمن يقْرَأ صناعَة الطِّبّ إِذا كَانَ درسه على أصل صَحِيح وترتيب جيد اثْنَا عشر كتابا وَهِي الْمَشْهُورَة من سَائِر كتبه .

بندقليس

قَالَ القَاضِي صاعد أَن بندقليس كَانَ فِي زمن دَاوُد النَّبِي عَلَيْه السَّلاَم على مَا ذكره الْعلمَاء بتواريخ الأُمَم وَكَانَ أَخذ الْحِكْمَة عَن لُقْمَان الْحَكِيم بِالشَّام ثمَّ انْصَرف إِلَى بِلاَد اليونانيين فتكلم فِي خلق الْعَالم بِأَشْيَاء يقْدَح ظَاهرهَا فِي أَمر الْمعَاد فهجره لذَلِك بَعضهم وَطَائِفَة من الباطنية تنتمي إِلَى حكمته وتزعم أَن لَهُ رموزا قَلما يُوقف عَلَيْهَا .

قَالَ وَكَانَ مُحَمَّد بن عبد الله بن مرّة الْجبلي الباطني من أهل قرطبة كلفا بفلسفته دؤوبا على دراستها .

قَالَ وبندقليس أول من ذهب إِلَى الْجمع بَين مَعَانِي صِفَات الله تَعَالَى وَإِنَّهَا كلهَا تُؤَدِّي إِلَى شَيْء وَاحِد وَإنَّهُ وَإِن وصف بِالْعلمِ والجود وَالْقُدْرَة فَلَيْسَ هُوَ ذَا معَان متميزة تخْتَص بِهَذِهِ الأَسْمَاء الْمُخْتَلفَة بل الْوَاحِد بِالْحَقِيقَةِ الَّذِي لاَ يتكثر بِوَجْه مَا أصلا بِخِلاَف سَائِر الموجودات فَإِن الوحدانيات العالمية معرضة للتكثير إِمَّا بإجزائها وَإِمَّا بمعانيها وَإِمَّا بنظائرها وَذَات الْبَارِي متعالية عَن هَذَا كُله .

قَالَ وَإِلَى هَذَا الْمَذْهَب فِي الصِّفَات ذهب أَبُو الْهُذيْل مُحَمَّد بن الْهُذيْل العلاف الْبَصْرِيّ .

ولبندقليس من الْكتب كتاب فِيمَا بعد الطبيعة كتاب الميامر .

فيثاغورس

وَيُقَال فوثاغوراس وفوثاغوريا وَقَالَ القَاضِي صاعد فِي كتاب طَبَقَات الأُمَم إِن فيثاغورس كَانَ بعد بندقليس بِزَمَان وَأخذ الْحِكْمَة عَن أَصْحَاب سُلَيْمَان بن دَاوُد عَلَيْهِمَا السَّلاَم بِمصْر حِين دخلُوا إِلَيْهَا من بِلاَد الشَّام وَكَانَ قد أَخذ الهندسة قبلهم عَن المصريين ثمَّ رَجَعَ إِلَى بِلاَد اليونان وَأدْخل عِنْدهم علم الهندسة وَعلم الطبيعة وَعلم الدّين واستخرج بذكائه علم الألحان وتأليف النغم وأوقعها تَحت النّسَب العددية وَادّعى أَنه اسْتَفَادَ ذَلِك من مشكاة النُّبُوَّة .

وَله فِي نضد الْعَالم وترتيبه على خَواص الْعدَد ومراتبه رموز عَجِيبَة وأغراض بعيدَة .

وَله فِي شَأْن الْمعَاد مَذَاهِب قَارب فِيهَا بندقليس من أَن فَوق عَالم الطبيعة عَالما روحانيا نورانيا لاَ يدْرك الْعقل حسنه وبهاءه وَإِن الأَنْفس الزكية تشتاق إِلَيْهِ وَإِن كل

إنْسَان أحسن تَقْوِيم نَفسه بالتبري من الْعجب والتجبر والرياء والحسد وَغَيرهَا من الشَّهَوَات الجسدانية فقد صَار أَهلا أَن يلْحق بالعالم الروحاني ويطلع على مَا يَشَاء من جواهره من الْحِكْمَة الإلهية .

وَإِن الْأَشْيَاء الملذذة للنَّفس تَأتيه حينَئِذٍ إرْسَالاً كالألحان الموسيقية الْآتِيَة إِلَى حاسة السّمع فَلاَ يحْتَاج أَن يتَكَلَّف لَهَا طَلبا .

ولفيثاغورس تآليف شَرِيعَة الأرثماطيقي والموسيقي وَغير ذَلِك هَذَا آخر قَوْله .

وَذكر غَيره عَن الْحَكِيم فيثاغورس أَنه كَانَ يرى السياحة وَاجْتنَاب مماسة الْقَاتِل والمقتول .

وَأَنه أَمر بتقديس الْحَواس وَتعلم الْعَمَل بِالْعَدْلِ وَجَمِيع الْفَضَائِل والكف عَن الْخَطَايَا والبحث عَن الْعَطِيَّة الإنسية ليعرف طبيعة كل شَيْء وَأمر بالتحابب والتأدب بشرح الْعُلُوم العلوية ومجاهدة الْمعاصِي وعصمة النُّفُوس وَتعلم الْجِهَاد وإكثار الصّيام وَالْقعُود على الكراسي والمواظبة على قِرَاءَة الْكتب وَأَن يعلم الرِّجَال الرِّجَال وَتعلم النِّسَاء وَالنِّسَاء وَأمر بجودة الْمنطق ومواعظ الْمُلُوك وَكَانَ يَقُول ببَقَاء النَّفس وَكَونهَا فِيمَا بعد فِي ثَوَاب أَو عِقَاب على رَأْي الْحُكَمَاء الإلهيين وَلما رَأس الْحَكِيم فيثاغورس على الهياكل وَصَارَ رَئِيس الكهنة جعل يغتذي بالأغذية غير المجوعة وَغير المعطشة .

أما الْغذَاء غير المجوع فَكَانَ يهيئه من بزر ميقونيون وسمسم وقشر أسقال مغسول غسلا مستقصى حَتَّى ينبأ قلبه وأنتاريقون وأسفودالن وألفيطون وحمص وشعير من كل وَاحِد جُزْء بالتحرير كَانَ يسحقها ويعجنها بِجِنْس من الْعَسَل يُسمى أميطيو .

وَأما غير المعطش فَكَانَ يهيئه من بزر الْقِثَّاء وزبيب سمين منزوع الْعَجم وزهر قوريون وبزر ملوخيا وبزر أسوفا وأندراخين وَنَوع من الْخبز يدعى فيلطاموس ودقيق أواليس وَكَانَ يعجنها بِعَسَل حابوق .

وَذكر الْحَكِيم أَن هرقلس تعلم هَاتين الصفتين من ديميطر وَكَانَ فيثاغورس قد أَلزم نَفسه عَادَة موزونة فَلم يكن مرّة صَحِيحا وَمرَّة سقيما وَلاَ كَانَ مرّة يسمن وَمرَّة يهزل .

وَكَانَت نَفسه لَطِيفَة جدا وَلم يكن يفرح بإفراط وَلاَ يحزن بإفراط وَلاَ رَآهُ أحد قطّ ضَاحِكا وَلاَ باكيا وَكَانَ يقدم إخوانه على نَفسه ويحكى أَنه أول من قَالَ إِن أَمْوَال الأخلاء مشاعة غير مقسومة وَكَانَ يحافظ على صِحَة الأصحاء وَيُبرئ المسقومي الْأَبدَان وَكَانَ يُبرئ النُّفُوس الآلمة مِنْهَا بالتكهن وَمِنْهَا بالألحان الآلهية الَّتِي كَانَ يحيي بهَا آلام الْبدن .

وَكَانَ يَأْمر بأَدَاء الأُمَانَة فِي الْوَدِيعَة لاَ الَمَال فقَط والكلمة المستودعة المحقة وَصدق الْوَعْد .

كَلمَات حكميَّة

وَكَانَ يرمز حكمته ويسترها فَمن أَلغازه أَنه كَانَ يَقُول لاَ تَعْتَد فِي الْمِيزَان أَي اجْتنب الإفراط .

وَلاَ تحرّك النَّار بالسكين لأَنَّهَا قد حميت فِيهَا مرّة أَي اجْتنب الْكَلاَم المحرض عِنْد الغضوب المغتاظ .

وَلاَ تجْلِس على قفيز أَي لاَ تعش فِي البطالة .

وَلاَ تمر بغياض الليوث أَي لاَ تقتد برَأْي المردة .

وَلاَ تعمر الخطاطيف الْبيُوت أَي لاً تقتد بأصحاب الطرمذة والبقبقة من النَّاس غير المالكين لألسنتهم .

وَأَن لاَ يلقي الْحمل عَن حامله لَكِن يعان على حمله أَي لاَ يغْفل أحد أَعمال نَفسه فِي الْفَضَائِل فِي الطَّاعَات .

وَأَن لاَ تلبس تماثيل الْملاَئِكَة على فصوص الخواتيم أَي لاَ تجْهر بديانتك وَتَدع أسرار الْعُلُوم الإلهية عِنْد الجُهَّال .

قَالَ الأُمير المبشر بن فاتك كَانَ لفيثاغورس أَب اسْمه منيسارخوس من أهل صور وَكَانَ لَهُ أَخَوَان اسْم الأُكْبَر مِنْهُمَا أونوسطوس وَالآخر طورينوس وَكَانَ اسْم أمه بوثايس بنت رجل اسْمه أجقايوس من سكان ساموس وَلما غلب على صور ثَلاَثَة قبائل ليمنون ويمقرون وسقرون واستوطنوها وجلا أَهلهَا مِنْهَا جلا وَالِد فيثاغورس فِيمَن جلا وَسكن الْبحيرَة وسافر مِنْهَا إِلَى ساموس ملتمسا كسبا وَأَقَام بهَا وَصَارَ فِيهَا مكرما وَلما سَافر مِنْهَا إِلَى أنطاكيا أَخذ فيثاغورس مَعَه ليتفرج عَلَيْهَا لأَنَّهَا كَانَت نزهة جدا كَثِيرَة الخصب .

وَذكروا أَن فيثاغورس إِنَّمَا عَاد إِلَيْهَا فسكنها لما رأى من طيبها أول مرّة .

وَلما جلا منيسارخوس عَن صور سكن ساموس وَمَعَهُ أَوْلاَده أونوسطوس وطورينوس وفيثاغورس .

فتبنى أندروقلوس رَئِيس ساموس فيثاغورس وكفله لأَنَّهُ كَانَ أحدث الأُخوة وأسلمه من صغره فِي تَعْلِيم الآدَاب واللغة والموسيقى فَلَمَّا التحى وَجه بِهِ إِلَى مَدِينَة

ميليطون وأسلمه إِلَى أناكسيماندروس الْحكِيم ليعلمه الهندسة والمساحة والنجوم فَلَمَّا أحكم فيثاغورس هَاتين الصناعتين اشْتَدَّ حبه للعلوم وَالْحكمَة فسافر إِلَى بلدان شَتَّى طَالبا لذَلِك فورد على الكلدانيين والمصريين وَغَيرهم ورابط الكهنة وَتعلم مِنْهُم الْحِكْمَة وَحذق لُغَة المصريين بِثَلَاثَة أَصْنَاف من الْخط خطّ الْعَامَّة وَخط الْخَاصَّة وَهُوَ خطّ الكهنة الْمُخْتَصر وَخط الْمُلُوك .

وعندما كَانَ فِي أراقليا كَانَ مرابطا لملكها وَلما صَار إِلَى بابل رابط رُؤَسَاء خلذايون ودرس على زاراباطا فبصره بِمَا يجب على الصديقين وأسمعه سَماع الكيان وَعلمه أَوَائِل الْكل أَيّمَا هِيَ .

فَمن ذَلِك فضلت حكْمَة فيثاغورس وَبِه وجد السَّبِيل إِلَى هِدَايَة الْأُمَم وردهم عَن الْخَطَايَا لِكَثْرَة مَا اقتنى من الْعُلُوم من كل أمة وَمَكَان .

وَورد على قاراقوديس الْحكِيم السرياني فِي بداية أمره فِي مَدِينَة اسْمهَا ديلون من سورية وَخرج عَنْهَا قاراقوديس فسكن ساموس وَكَانَ قد عرض لَهُ مرض شَدِيد حَتَّى أَن الْقمل كَانَ ينتعش فِي جِسْمه فَلَمَّا عظم بِهِ وساء مثواه حمله تلاميذه إِلَى أفسس وَلما تزايد ذَلِك عَلَيْهِ رغب إِلَى أهل أفسس وَأقسم عَلَيْهِم أَن يحولوه عَن مدينتهم فأخرجوه إِلَى ماغانسيا .

وعنى تلاميذه بخدمته حَتَّى مَاتَ فدفنوه وَكَتَبُوا قصَّته على قَبره .

وَرجع فيثاغورس إِلَى مَدِينَة ساموس ودرس بعده على أرمودامانيطس الْحكِيم الْبَهِي المتأله المكنى بقراوفوليو بِمَدِينَة ساموس .

وَلَقي أَيْضا بهَا أرمودامانيس الْحكِيم المكنى أفروقوليم فرابطه زَمَانا وَكَانَت طرانة ساموس قد صَارَت لفولوقراطيس الأطرون واشتاق فيثاغورس إِلَى الِاجْتِمَاع بالكهنة الَّذين بِمصْر فابتهل إِلَى فولوقراطيس أَن يكون لَهُ على ذَلِك معينا فَكتب لَهُ إِلَى أماسيس ملك مصر كتابا يُخبرهُ بِمَا تاق إِلَيْهِ فيثاغورس ويعلمه أَنه صديق لأصدقائه ويسأله أَن يجود عَلَيْهِ بِالَّذِي طلب وَأَن يتحنن عَلَيْهِ فَأحْسن أماسيس قبُوله وَكتب لَهُ إِلَى رُؤَسَاء الكهنة بِمَا أَرَادَ فورد على أهل مَدِينَة الشَّمْس وَهِي الْمَعْرُوفَة بزماننا بِعَين شمس بكتب ملكهم فقبلوه قبولا كريها وَأخذُوا فِي امتحانه زَمَانا فَلم يَجدوا عَلَيْهِ نقصا وَلَا تقصيرا فوجهوا بِهِ إِلَى كهنة منف كي يبالغوا فِي امتحانه فقبلوه قبولا على كَرَاهِيَة واستقصوا امتحانه فَلم يَجدوا عَلَيْهِ معيبا وَلَا أَصَابُوا لَهُ عَثْرَة فبعثوا بِهِ إِلَى أهل دبوسبولس ليمتحنوه فَلم يَجدوا عَلَيْهِ طَرِيقا وَلَا إِلَى إدحاضه سَبِيلا لعناية ملكهم بِهِ

فعرضوا عَلَيْهِ فَرَائض صعبة مُخَالفَة لفرائض اليونانيين كَيْمَا يمْتَنع من قبُولهَا فيدحضوه ويحرموه طلبه فَقبل ذَلِك وَقَامَ بِهِ فَاشْتَدَّ إعجابهم مِنْهُ وَفَشَا بِمصْر ورعه حَتَّى بلغ ذكره إِلَى أماسيس فَأعْطَاهُ سُلْطَانا على الضَّحَايَا للرب تَعَالَى وعَلى سَائِر قرابينهم وَلم يُعْط ذَلِك لغريب قطّ .

ثمَّ مضى فيثاغورس من مصر رَاجعا إِلَى بِلَاده وَبنى لَهُ بِمَدِينَة أيونية منزلا للتعليم فَكَانَ أهل ساموس يأْتونَ إِلَيْهِ وَيَأْخُذُونَ من حكمته وَأعد لَهُ خَارِجا من تِلْكَ الْمَدِينَة أنطرونا جعله مجمعا خَاصّا لحكمته فَكَانَ يرابط فِيهِ مَعَ قَلِيل من أَصْحَابه أَكثر أوقاته .

الحَرْث بن كلدة الثَّقَفِيّ

كَانَ من الطَّائِف وسافر فِي الْبِلَاد وَتعلم الطِّبّ بِنَاحِيَة فَارس وتمرن هُنَاكَ وَعرف الدَّاء والدواء .

وَكَانَ يضْرب بِالْعودِ تعلم ذَلِك أَيْضا بِفَارِس واليمن .

وَبَقِي أَيَّام رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَأَيَّام أبي بكر وَعمر وَعُثْمَان وَعلي بن أبي طَالب وَمُعَاوِيَة رَضِي الله عَنْهُم .

وَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَة مَا الطِّبّ يَا حَارِث فَقَالَ الأزم يَعْنِي الْجُوع .

ذكر ذَلِك ابْن جلجل .(١)

وَقَالَ الْجَوْهَرِي(٢) فِي كتاب الصِّحَاح الأزم الْمسك يُقَال أزم الرجل عَن الشَّيْء أمسك عَنهُ .

وَقَالَ أَبُو زيد الأزم الَّذِي ضم شَفَتَيْه .

وَفِي الحَدِيث أَن عمر رَضِي الله عَنهُ سَأَلَ الْحَرْث بن كلدة مَا الدَّوَاء فَقَالَ الأزم . يَعْنِي الحمية .

قَالَ وَكَانَ طَبِيب الْعَرَب .

---

(١) أبو داود سليمان بن حسان المعروف باسم ابن جُلجُل طبيب أندلسي ، صاحب كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» .

(٢) إسماعيل بن حمّاد الجَوْهَري هو عالم ولغوي ، أصله من «فاراب» من بلاد الترك ، وقيل أول من حاول الطيران ومات في سبيله . هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري .

ويروى عَن سعد بن أبي وَقاص رَضِي الله عَنهُ أَنه مرض بِمَكَّة مَرضا فعاده رَسُول الله صلى الله عَلَيْه وَسلم فَقَالَ أدعوا لَهُ الْحَرْث بن كلدة فَإِنَّهُ رجل يتطبب .

فَلَمَّا عَاده الْحَرْث نظر إِلَيْه وَقَالَ لَيْسَ عَلَيْه بَأْس اتَّخذُوا لَهُ فريقة بِشَيْء من تمر عَجْوَة وحلبة يطبخان فتحساها فبرئ وَكَانَت للحرث معالجات كَثِيرَة وَمَعْرِفَة بِمَا كَانَت الْعَرَب تعتاده وتحتاج إِلَيْه من المداواة .

وَله كَلَام مستحسن فِيمَا يتَعَلَّق بالطب وَغَيره .

كَلَام الحَارث مَعَ كسْرَى

من ذَلِك أَنه لما وَفد على كسْرَى[1] أذن لَهُ بِالدُّخُولِ عَلَيْه .

فَلَمَّا وقف بَين يَدَيْه منتصبا قَالَ لَهُ من أَنْت قَالَ أَنا الْحَرْث بن كلدة الثَّقَفِيّ .

قَالَ فَمَا صناعتك قَالَ الطِّبّ .

قَالَ أعربي أَنْت قَالَ نعم من صميمها وجبوحة دارها قَالَ فَمَا تصنع الْعَرَب بطبيب مَعَ جهلها وَضعف عقولها وَسُوء أغذيتها قَالَ أَيهَا الْملك إِذا كَانَت هَذِه صفتهَا كَانَت أحْوج إِلَى من يصلح جهلها وَيُقِيم عوجها ويسوس أبدانها ويعدل أمشاجها .

فَإِن الْعَاقِل يعرف ذَلِك من نَفسه .

ويميز مَوضِع دائه ويحتزر عَن الأدواء كلهَا بِحسن سياسته لنَفسه .

قَالَ كسْرَى فَكيف تعرف مَا توره عَلَيْهَا وَلَو عرفت الْحلم لم تَنْسب إِلَى الْجَهْل قَالَ الطِّفْل يناغي فيداوى والحية ترقى فتحاوى .

ثمَّ قَالَ أَيهَا الْملك الْعقل من قسم الله تَعَالَى قسمه بَين عباده كقسمة الرزق فيهم .

فَكل من قسمته أصَاب وَخص بهَا قوم وَزَاد فَمنهمْ مثر ومعدم وجاهل وعالم وعاجز وحازم وَذَلِكَ تَقْدِير الْعَزِيز الْعَلِيم .

فأعجب كسْرَى من كَلَامه ثمَّ قَالَ فَمَا الَّذِي تحمد من أخلاقها ويعجبك من مذاهبها وسجاياها قَالَ الْحَرْث أَيهَا الْملك لَهَا أنفس سخية وَقُلُوب جرية ولغة فصيحة وألسن بليغة وأنساب صَحِيحَة وأحساب شريفة يَمْرُق من أَفْوَاههم الْكَلَام مروق

(١) كسرى الثاني أو خُسرو الثاني ، المعروف أيضاً بلقب برويز ومعناه ، كان ملك الدولة الساسانية في بلاد فارس . كان ابن هرمز الرابع ، وحفيد كسرى الأول .

السهْم من نبعة الرام أعذب من هَوَاء الرّبيع وألين من سلسبيل الْمعِين مطعمو الطَّعَام فِي الجدب وضاربو الْهَام فِي الحْرْب .

لاَ يرام عزهم وَلاَ يضام جارهم وَلاَ يستباح حريمهم وَلاَ يذل أكْرمهم وَلاَ يقرونَ بِفضل للأنام إِلاَّ للْملك الْهمام الَّذِي لاَ يُقَاس بِهِ أحد وَلاَ يوازيه سوقة وَلاَ ملك .

فَاسْتَوَى كسْرَى جَالِسا وَجرى مَاء رياضة الْحلم فِي وَجهه لما سمع من مُحكم كَلاَمه .

وَقَالَ لجلسائه إِنِّي وجدته راجحا ولقومه مادحا وبفضيلتهم ناطقا وَبِمَا يُورِدهُ من لَفظه صَادِقا .

وَكَذَاَ الْعَاقِل من أحكمته التجارب .

ثمَّ أمره بِالْجُلُوسِ فَجَلَسَ فَقَالَ كَيفَ بَصرك بالطب قَالَ ناهيك قَالَ فَمَا أصل الطِّبّ قَالَ الأزم .

قَالَ فَمَا الأزم قَالَ ضبط الشفتين والرفق باليدين قَالَ أصبت وَقَالَ فَمَا الدَّاء الدوي قَالَ إِدْخَال الطَّعَام على الطَّعَام هُوَ الَّذِي يفني الْبَرِيَّة وَيهْلك السبَاع فِي جَوف الْبَرِيَّة .

قَالَ أصبت وَقَالَ فَمَا الجْمْرَة الَّتِي تصطلم مِنْهَا الأدواء قَالَ هِيَ التُّخمَة إِن بقيت فِي الجْوف قتلت وَإِن تحللت أسقمت .

قَالَ صدقت .

وَقَالَ فَمَا تَقول فِي الْحجامَة قَالَ فِي نُقْصَان الْهلاَل فِي يَوْم صحو لاَ غيم فِيهِ وَالنَّفس طيبَة وَالْعُرُوق سَاكِنة لسرور يفاجئك وهم يباعدك .

قَالَ فَمَا تَقول فِي دُخُول الحْمام قَالَ لاَ تدخله شبعانا وَلاَ تغش أهلك سكرانا وَلاَ تقم بِاللَّيْلِ عُريَانا وَلاَ تقعد على الطَّعَام غضبانا وارفق بِنَفْسِك يكن أرْخى لبالك وقلل من طَعَامك يكن أهنأ لنومك .

قَالَ فَمَا تَقول فِي الدَّوَاء قَالَ مَا لزمتك الصِّحَّة فاجتنبه فَإِن هاج دَاء فاحسمه بِمَا يردعه قبل استحكَامه فَإِن الْبدن بِمَنْزِلَة الأَرْض إِن أصلحتها عمرت وَإِن تركتهَا خربَتْ .

قَالَ فَمَا تَقول فِي الشَّرَاب قَالَ أطيبه أهنأه وأرقه امرأه وأعذبه إشهاده .

لاَ تشربه صرفا فيورثك صداعا وتثير عَلَيْك من الأدواء أنواعا .

قَالَ فَأَي اللحمان أفضل قَالَ الضَّأْن الفتي .

والقديد المالح مهلك للآكل .

واجتنب لحم الجْزُور وَالْبَقر .

قَالَ فَمَا تَقول فِي الْفَوَاكِه قَالَ كلهَا فِي إقبالها وَحين أوانها واتركها إِذا أَدْبَرت وَوَلَّتْ وانقضى زمانها .

وَأفضل الْفَوَاكِه الرُّمَّان والأترج وَأفضل الرياحين الْورْد والبنفسج وَأفضل الْبُقُول الهندباء والخس .

قَالَ فَمَا تَقول فِي شرب المَاء قَالَ هُوَ حَيَاة الْبدن وَبِه قوامه ينفع مَا شرب مِنْهُ بِقدر وشربه بعد النّوم ضَرَر .

أفضله امرأه وأرقه أصفاه .

وَمن عِظَام أَنهَار الْبَارِد الزلاَل لم يخْتَلط بِمَاء الآجام والآكام ينزل من صرادح المسطان ويتسلل عَن الرضراض وَعِظَام الْحَصَى فِي الإيفاع .

قَالَ فَمَا طعمه قَالَ لاَ يُوهم لَهُ طعم إِلاَّ أَنه مُشْتَقّ من الْحَيَاة .

قَالَ فَمَا لَونه قَالَ اشْتبهَ على الأْبْصَار لَونه لأَنَّهُ يَحْكِي لون كل شَيْء يكون فِيهِ .

قَالَ أَخْبرنِي عَن أصل الإْنْسَان مَا هُوَ قَالَ أَصله من حَيْثُ شرب المَاء يَعْنِي رَأسه .

قَالَ فَمَا هَذَا النُّور فِي الْعَينَيْنِ مركب من ثَلاَثَة أَشْيَاء فالبياض شَحم والسواد مَاء والناظر ريح .

قَالَ فعلى كم جبل وطبع هَذَا الْبدن قَالَ على أَربع طبائع الْمرة السَّوْدَاء وَهِي بَارِدَة يابسة والمرة الصَّفْرَاء وَهِي حارة يابسة وَالدَّم وَهُوَ حَار رطب والبلغم وَهُوَ بَارد رطب .

قَالَ فَلم لم يكن من طبع وَاحِد قَالَ لَو خلق من طبع وَاحِد لم يَأْكُل وَلم يشرب وَلم يمرض وَلم يهْلك .

قَالَ فَمن طبيعتين لَو كَانَ اقْتصر عَلَيْهِمَا قَالَ لم يجز لأَنَّهُمَا ضدان يقتتلان .

قَالَ فَمن ثَلاَث قَالَ لم يصلح موافقان ومخالف .

فالأربع هُوَ الاعْتدَال وَالْقيَام .

قَالَ فأجمل لي الْحَار وَالْبَارِد فِي أحرف جَامِعَة قَالَ كل حُلْو حَار وكل حامض بَارِد وكل حريف حَار وكل مر معتدل وَفِي المر حَار وبارد .

قَالَ فَاضل مَا عولج بِهِ الْمرة الصَّفْرَاء قَالَ كل بَارِد لين قَالَ فالمرة السَّوْدَاء قَالَ لين قَالَ والبلغم قَالَ كل حَار يَابِس قَالَ وَالدَّم قَالَ إِخْرَاجه إِذا زَاد وتطفئته إِذا سخن

بالأشياء الْبَارِدَة الْيَابسَة قَالَ فالرياح قَالَ بالحقن اللينة والأدهان الحارة اللينة .

قَالَ افتأمر بالحقنة قَالَ نعم قَرَأت فِي بعض كتب الْحُكَمَاء أَن الحقنة تنقي الْجوف وتكسح الأدواء عَنهُ وَالْعجب لمن احتقن كَيفَ يهرم أَو يعْدم الْوَلَد .

وَأَن الْجُهْل كل الْجُهْل من أكل مَا قد عرف مضرته ويؤثر شَهْوَته على رَاحَة بدنه .

قَالَ فَمَا الحمية قَالَ الاقتصاد فِي كل شَيْء فَإِن الأكل فَوق الْمِقْدَار يضيق على الرّوح ساحتها ويسد مسامها .

قَالَ فَمَا تَقول فِي النِّسَاء وإتيانهن قَالَ كَثْرَة غشيانهن رَدِيء وَإِيَّاك وإتيان الْمَرْأَة المسنة فَإِنَّهَا كالشن الْبَالِي تجذب قوتك وتسقم بدنك مَاؤُهَا سم قَاتل ونفسها موت عَاجل تَأْخُذ مِنْك الْكل وَلاَ تعطيك الْبَعْض .

والشابة مَاؤُهَا عذب زلال وعناقها غنج ودلال فوها بَارِد وريقها عذب رِيحهَا طيب وهنها ضيق .

تزيدك قُوَّة إِلَى قوتك ونشاطا إِلَى نشاطك .

قَالَ فأيهن الْقلب إِلَيْهَا أميل وَالْعين برؤيتها أسر قَالَ إِذا أصبتها المديدة الْقَامَة الْعَظِيمَة الهامة وَاسِعَة الجبين أقناة الْعرنِين كحلاء لعساء صَافِيَة الخد عريضة الصَّدْر مليحة النَّحْر .

فِي خدها رقة وَفِي شفتيها لعس .

مقرونة الحاجبين ناهدة الثديين لَطِيفَة الخصر والقدمين بَيْضَاء .

فرغاء جعدة غضة بضة .

تخالها فِي الظلمَة بَدْرًا زاهرا تَبَسم عَن أقحوان وَعَن مبسم كالأرجوان كَأَنَّهَا بَيْضَة مكنونة ألين من الزّبد وَأحلى من الشهد وأنزه من الفردوس والخلد وأزكى ريحًا من الياسمين والورد تفرح بقربها وتسرك الْخلْوَة مَعهَا .

قَالَ فاستضحك كسْرَى حَتَّى اختلجت كتفاه وَقَالَ فَفِي أَي الْأَوْقَات إتيانهن أفضل قَالَ عِنْد إدبار اللَّيْل يكون الْجوف أخلى وَالنَّفس أهْدى وَالْقلب أشهى وَالرحم أدفى .

فَإِن أردْت الاسْتِمْتَاع بهَا نَهَارا تسرح عَيْنك فِي جمال وَجههَا ويجتني فوك من ثَمَرَات حسنها ويعي سَمعك من حلاوة لَفظهَا وتسكن الْجَوَارِح كلهَا إِلَيْهَا .

قَالَ كسْرَى لله دَرك من إعرابي .

لقد أَعْطَيْت علما وخصصت فطنة وفهما .

وَأحسن صلته وَأمر بتدوين مَا نطق بِهِ .

وَقَالَ الواثق بِاللَّه فِي كِتَابه الْمُسَمّى بالبستان أَن الْحَرْث بن كلدة مر بِقوم وهم فِي الشَّمْس فَقَالَ عَلَيْكُم بالظل فَإِن الشَّمْس تنهج الثَّوْب وتنقل الرّيح وتشحب اللَّوْن وتهيج الدَّاء الدفين .

وَمن كَلَام الْحَرْث البطنة بَيت الدَّاء وَالْحمية رَأس الدَّوَاء وعودوا كل بدن مَا اعْتَادَ .

وَقيل هُوَ من كَلَام عبد الْملك بن أبجر .

وَقد نسب قوم هَذَا الْكَلَام إِلَى رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وأوله الْمعدة بَيت الدَّاء وَهُوَ أبلغ من لفظ البطنة .

وَرُوِيَ عَن أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ بن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ أَنه قَالَ من أَرَادَ الْبَقَاء وَلاَ بَقَاء فليجود الْغذَاء وليأكل على نقاء وليشرب على ظمأ وليقل من شرب المَاء ويتمدد بعد الْغَدَاء ويتمشى بعد الْعشَاء .

وَلاَ يبيت حَتَّى يعرض نَفسه على الْخَلَاء .

وَدخُول الْحمام على البطنة من شَرّ الدَّاء ودخلة إِلَى الْحمام فِي الصَّيف خير من عشر فِي الشتَاء .

وَأكل القديد الْيَابِس فِي اللَّيْل معِين على الفناء ومجامعة الْعَجُوز تهدم أَعمار الأْحْيَاء .

وَرُوِيَ بعض هَذِه الْكَلِمَات عَن الْحَرْث بن كلدة وفيهَا من سره النِّسَاء وَلاَ نسَاء فليكر الْعشَاء وليباكر الْغَدَاء وليخفف الرِّدَاء وليقل غشيان النِّسَاء .

وَمعنى فليكر يُؤخر وَالْمرَاد بالرداء الدّين وَسمي الدّين رِدَاء لقَولهم هُوَ فِي عنقِي وَفِي ذِمَّتِي فَلَمَّا كَانَت الْعُنُق مَوضع الرِّدَاء سمي الدّين رِدَاء .

وَقد رُوِيَ من طَرِيق آخر وَفِيه .

وتعجيل الْعشَاء وَهُوَ أصح .

وروى أَبُو عوَانَة عَن عبد الْملك بن عُمَيْر قَالَ قَالَ الْحَرْث بن كلدة من سره الْبَقَاء وَلاَ بَقَاء فليباكر الْغَدَاء وليعجل الْعشَاء وليخفف الرِّدَاء وليقل الْجِمَاع .

وروى حَرْب بن مُحَمَّد قَالَ حَدثنَا أبي قَالَ قَالَ الْحَرْث بن كلدة أَرْبَعَة أَشْيَاء تهدم الْبدن الغشيان على البطنة وَدخُول الْحمام على الامتلاء وَأكل القديد ومجامعة الْعَجُوز .

وروى دَاوُد بن رشيد عَن عَمْرو بن عَوْف قَالَ لما احْتضرَ الْحُرْث بن كلدة اجْتمع إِلَيْهِ النَّاس فَقَالُوا مرنا بِأَمْر ننتهي إِلَيْه من بعْدك .

فَقَالَ لاَ تتزوجوا من النِّسَاء إِلاَّ شَابة وَلاَ تَأْكُلُوا الْفَاكِهَة إِلاَّ فِي أَوَان نضجها وَلاَ يتعالجن أحد منْكُم مَا احْتمل بدنه الدَّاء .

وَعَلَيْكُم بالنورة فِي كل شهر فَإِنَّهَا مذيبة للبلغم مهلكة للمزة منبتة للحم .

وَإِذا تغدى أحدكُم فلينم على إِثْر غدائه وَإِذا تعشى فليخط أَرْبَعينَ خطْوَة .

وَمن كَلاَم الْحُرْث أَيْضا قَالَ دَافع بالدواء مَا وجدت مدفعا وَلاَ تشربه إِلاَّ من ضَرُورَة فَإِنَّهُ لاَ يصلح شَيْئا إِلاَّ أفسد مثله .

وَقَالَ سُلَيْمَان بن جلجل أخبرنَا الْحسن بن الْحُسَيْن قَالَ أخبرنَا سعيد بن الأْمَوِي قَالَ أخبرنَا عمي مُحَمَّد بن سعيد عَن عبد الْملك بن عُمَيْر قَالَ كَانَ أَخَوان من ثَقِيف من بني كنه يتحابان لم ير قطّ أحسن ألفة منْهُمَا .

فَخرج الأْكْبَر إِلَى سفر فأوصى الأْصْغَر بامرأته فَوَقَعت عينه عَلَيْهَا يَوْمًا غير مُعْتَمد لذَلِك فهويها وضني .

وَقدم أَخُوهُ فَجَاءَهُ بالأطباء فَلم يعرفوا مَا بِهِ إِلَى أَن جَاءَهُ بالحرث بن كلدة فَقَالَ أرى عينين محتجبتين وَمَا أَدْرِي مَا هَذَا الوجع وسأجرب فاسقوه نبيذا فَلَمَّا عمل النَّبِيذ فِيهِ قَالَ :

(أَلا رفقـــا أَلا رفقـــــا قَلِيـــــلا مَـــا أكوننــــه)
(ألما بِــــي إِلَى الأبيـــات بالخيــــف أزرهنـــــــه)
(غـــزالا مَا رَأَيْـــت الْيَـــوْم فــــي دور بني كنـــــه)
(أسيــــل الخـــد مربـــوب وَفِــي منْطقَـــــة غنــــه)

الهزج

فَقَالُوا لَهُ أَنْت أطب الْعَرَب .

ثمَّ قَالَ رددوا النَّبِيذ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا عمل فِيهِ قَالَ :

(أَيهَـــا الجيـــرة أَسْلمُــوا وقفُـــــوا كـــي تكلمُوا)
(وتقضـــــــوا لبانـــة وتحبـــــــوا وتنعمـــوا)
(خرجـــت مزنـــة مـــن الْبَحْـــر ريـــا تحمحـم)
(هِـــيَ ماكنتي وتزعـــم أَنِّـــــي لَهَـــا حــــم)

قَالَ فَطلقهَا أَخُوهُ ثمَّ قَالَ تزوج بهَا يَا أخي .
فَقَالَ وَالله لاَ تَزَوَّجتهَا .
فَمَاتَ وَمَا تزَوجهَا .

النَّضر بن الحُرْث بن كلدة الثَّقَفِيّ

هُوَ ابْن خَالَة النَّبِي ﷺ وَكَانَ النَّضر قد سَافر الْبِلَاد أَيْضا كأبيه .
وَاجْتمعَ مَعَ الأفاضل وَالْعُلَمَاء بِمَكَّة وَغَيرهَا وعاشر الأَحْبَار والكهنة .
واشتغل وَحصل من الْعُلُوم الْقَدِيمَة أَشْيَاء جليلة الْقدر وأطلع على عُلُوم الفلسفة وأجزاء الْحِكْمَة وَتعلم من أَبِيه أَيْضا مَا كَانَ يُعلمهُ من الطِّبّ وَغَيره .
وَكَانَ النَّضر يؤاتي أَبَا سُفْيَان[1] فِي عَدَاوَة النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم لكَونه كَانَ ثقفيا كَمَا قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم (قُرَيْش وَالأَنْصَار حليفان وَبَنُو أُميَّة وَثَقِيف حليفان) .
وَكَانَ النَّضر كثير الأذَى والحسد للنَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَيتَكَلَّم فِيهِ بأَشْيَاء كَثِيرَة كَيْمَا يحط من قدره عِنْد أهل مَكَّة وَيبْطل مَا أَتَى بِهِ بزَعْمه .
وَلم يعلم بشقاوته أَن النُّبُوَّة أعظم والسعادة أقدر والعناية الإلهية أجل والأمور الْمقدرَة أثبت .
وَإِنَّمَا النَّضر اعْتقد أَن بمعلوماته وفضائله وحكمته يُقَاوم النُّبُوَّة وَأَيْنَ الثرى من الثريا والحضيض من الأوج والشقي من السعيد .
وقد ذكر أفلاطون[2] فِي كتاب النواميس أَن النَّبِي وَمَا يَأْتِي بِهِ لاَ يصل إِلَيْهِ الْحَكِيم بِحِكْمَتِهِ وَلاَ الْعَالم بِعِلْمِهِ .

---

(١) أبو سفيان وهو صخر بن حرب الأموي القرشي الكناني ، سيد قبائل قريش وكنانة وأحد أشراف العرب وساداتهم في الجاهلية وصدر الإسلام ولد في مكة قبل عام الفيل بعشر سنين ، وأسلم يوم فتح مكة .

(٢) أفلاطون ويعني اسمه : فيلسوف يوناني كلاسيكي ، رياضياتي ، كاتب عدد من الحوارات الفلسفية ، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي ، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو ، وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم ، كان تلميذاً لسقراط ، وتأثر بأفكاره كما تأثر بإعدامه الظالم . ظهر نبوغ أفلاطون وأسلوبه ككاتب واضح في محاوراته =

قَالَ أفلاطون وَقد كَانَ مارينون ملك اليونانيين الَّذي يذكرهُ أوميرس الشَّاعِر باسمه وجبروته وَمَا تهَيَّأ لليونانيين فِي سُلْطَانه رمي بشدائد فِي زَمَانه وخوارج فِي سُلْطَانه فَفَزعَ إِلَى فلاسفة عصره .

فتأملوا مصَادر أُمُوره ومواردها وَقَالُوا لَهُ قد تأملنا أمرك فَلم نجد فِيه من جهتك شَيْئا يَدْعُو إِلَى مَا لحقك وَإِنَّمَا يعلم الفيلسوف الإفراطات وَسُوء النظام الواقعين فِي الْجُزْء .

فَأَما مَا خرج عَنهُ فَلَيْسَ تبحث عَنهُ الفلسفة وَإِنَّمَا يُوقف عَلَيْه من جهَة النُّبُوَّة .

وأشاروا عَلَيْه أَن يطْلب نَبِي عصره ليجتمع لَهُ مَعَ علمهمْ مَا يُنبئ بِهِ وَقَالُوا إِنَّه لاَ يسكن فِي الْبلدَان العامرة وَإِنَّمَا يكون بَين أقاصي المقفرة بَين فُقَرَاء ذَلِك الْعَصْر فَسَأَلَهُمْ مَا يجب أَن يكون عَلَيْه رسله إِلَيْه وَمَا يكوت دَلِيلا لَهُم عَلَيْه فَقَالُوا أجعَل رسلك إِلَيْه من لانت سجيته وَظَهرت قناعته وصدقت لهجته وَكَانَ رُجُوعه إِلَى الْحق أحب من ظفره بِهِ فَإِن بَين من استولى عَلَيْه هَذَا الْوَصْف وَبَينه وصلَة تدلهم عَلَيْه .

وَتقدم إِلَيْهِم فِي الْمَسْأَلَة عَنهُ عنْد مسْقط رَأسه ومنشئه وَسيرَته فِي هَذِه الْمَوَاضِع فَإِنَّك تَجدهُ زاهدا فِي النَّعيم رَاغِبًا فِي الصدْق مؤثرا للخلوة بَعيدا من الْحِيلَة غير حظي من الْمُلُوك .

ينسبونه إِلَى تجَاوز حَده وَالْخُرُوج عَمَّا جرى عَلَيْهِ أهل طبقته .

تتأمل فِيه الْخَوْف وتخال فِيه الْغَفْلَة .

إِذا تكلم فِي الْأَمر توهمت أَنه عَالم بأصوله وَلَيْسَ يعرف مَا يترقى إِلَيْه بِهِ وَإِذا سُئِلَ عَمَّا يصدر عَنهُ ذكر أَنه يلقى على لِسَانه وَفِي خاطره فِي الْيَقظَة وَبَين النّوم واليقظة مَا لم ير فِيه .

وَإِذا سُئِلَ عَن شَيْء رَأَيْته كَأَنَّهُ يَقْتَضِي الْجَواب من غَيره وَلاَ يفكر فِيهِ تفكير الْقَادِر عَلَيْه والمستنبط لَهُ .

وَإِذا وجدوه فسيجمع لَهُم إِلَى مَا تقرر من وَصفه أَعَاجِيب تظهر على لِسَانه وَيَده .

فَجمع سَبْعَة نفر وأضاف إِلَيْهِم أمثل من وجد من الفلاسفة فَخَرجُوا يلتمسونه .

فوجدوه على مَسَافَة خَمْسَة أَيَّام من مُسْتَقر مارينوس فِي قَرْيَة قد خرج أَكثر أَهلهَا عَنْهَا وَسَكنُوا قَرِيبا من مَدِينَة مارينوس لما آثروه من لين جواره وَكَثْرَة الاِنْتِفَاع بِهِ .

= السقراطية (نحو ثلاثين محاورة) التي تتناول مواضيع فلسفية مختلفة : نظرية المعرفة ، المنطق ، اللغة ، الرياضيات ، الميتافيزيقا ، الأخلاق والسياسة .

وَلم يبْق فِيهَا إِلاَّ نفر من الزهاد قد قعدوا عَن الاِكْتِسَاب ومشايخ وزمني خَلفهم الْجهد .

وَهُوَ بَينهم فِي منزل شعث وحول الْمنزل جمَاعَة من هَؤُلاَءِ الْقَوْم قد شغفهم جواره وألهاهم عَن الحظوظ الَّتِي وصل إِلَيْهَا غَيرهم .

فَتَلقاهُمْ أهل الْقرْيَة بالترحيب .

وسألوهم عَن سَبَب دُخُولهمْ قريتهم الشعثة الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مَا يحبس أمثالهم عَلَيْهِ فَقَالُوا رغبنا فِي لِقَاء هَذَا الرجل ومشاركتكم فِي فَوَائده .

وسألوهم عَن وَقت خلوته فَقَالُوا مَا لَهُ شَيْء يشْغلهُ عَنْكُم .

فدخلو إِلَيْه فوجدوه مختبيا بَين جمَاعَة قد غضوا أَبْصَارهم من هيبته .

فَلَمَّا رَآهُ السَّبْعَة نفر سبقتهم الْعبْرَة وغمرتهم الهيبة وَمَعَهُمْ الفيلسوف مُمْسك لنَفسه ومتهم لحسه يُرِيد أَن يستبرئ أمره .

فَسَلمُوا عَلَيْهِ فَرد عَلَيْهِم السَّلَام ردا ضَعِيفا وَهُوَ كالناعس المتحير .

ثمَّ زَاد نعاسه حَتَّى كَادَت حبوته أَن تنْحَل فَلَمَّا تبين من حوله مَا تغشاه غضوا أَبْصَارهم ووقفوا وقُوف الْمُصَلِّي فَقَالَ يَا رسل الخاطئ الَّذِي ملك جُزْءا من عالمي فَنظر إِلَى صَلاحه فِي سوق الْخيرَات الجسدية إِلَيْه فأفسده بِمَا غمره منْهَا .

وَكَانَ سَبيله سَبيل من وكل بِجُزْء من بُسْتَان كثير الزهر وَالثِّمَار فصرف إِلَيْه أَكثر من حصَّته من مَاء ذَلِك الْبُسْتَان وَظن أَنه أصلح لَهُ فَكَانَ مَا زَاده منْهُ على صِحَّته نَاقِصا من طعوم ثماره وروائح أزهاره وسببا لجفاف أَشجَار جُزْء جُزْء منْهُ وتصويح نبته .

فَلَمَّا سمع السَّبْعَة نفر هَذَا لم يملكُوا أنفسهم حَتَّى قَامُوا مَعَ أُولَئِكَ فوقفوا وقُوف الْمُصَلِّين .

قَالَ الفيلسوف فَبَقيت جَالِسا خَارِجا عَن جُمْلَتهمْ لاستبرئ أمره وأتقصى عجائبه فصاح بِي أَيهَا الْحسن الظَّن بِنَفسِهِ الَّذِي كَانَ أَقْصَى مَا لحقه أَن سلك بفكره بَين المحسوسات الْجُزْئِيَّة والمعقولات الْكُلية واستخلص منْهَا علما وقف بِهِ على طبائع المحسوسات وَمَا قرب منْهَا فَظن أَنه يبلغ بِهِ كل علَّة ومعلول .

أَنَّك لاَ تصل إِلَيّ بِهَذِهِ الطَّرِيق لَكِن بِمن جعلته بيني وَبَين خلقي ونصبته للدلالة على إرادتي .

فأصرف أَكثر عنايتك إِلَى الاسْتدْلَال عَلَيْه .

فَإِذا أصبته فاردد إِلَيْهِ مَا فضل عَن معرفتك فقد حَملته من جودي مَا فرقت بِهِ

بَينه وَبَين غَيره وَجَعَلته سمة لَهُ يستعرضها إفهام المخلصين للحق .

ثمَّ تماسك وَقَوي طرفه فَرجع من حوله إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَخرجت من عِنْده .

فَلَمَّا كَانَ العشية عدت إِلَيْهِ فَسَمعته يُخَاطب أَصْحَابه والسبعة نفر بِشَيْء من كَلَام الزهاد ينهاهم فِيهِ عَن طَاعَة الْجَسَد .

فَلَمَّا انْقَضى كَلَامه قلت لَهُ قد سَمِعت مَا سلف لَك فِي صدر هَذَا الْيَوْم وَأَنا أَسأَلك زِيَادَتي مِنْهُ .

فَقَالَ كلما سمعته فَإِنَّمَا هُوَ شَيْء صور فِي نَفسِي وأنطق بِهِ لساني وَلَيْسَ لي فِيهِ إِلاَّ التَّبْلِيغ .

وَإِن كَانَ مِنْهُ شَيْء ستقف عَلَيْه .

فأقمت عِنْده ثَلَاثَة أَيَّام أدبر السَّبْعَة نفر على الرُّجُوع إِلَى أوطانهم فيأبون ذَلِك عَليّ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْم الرَّابِع دخلت عَلَيْهِ فَمَا تمكنت من مَجْلِسه حَتَّى تغشاه مَا كَانَ غشيه فِي الْيَوْم الَّذِي دَخَلنَا عَلَيْه .

ثمَّ قَالَ يَا رَسُول الخاطئ المستبطئ نَفسه فِي الرُّجُوع لَهُ .

ارْجع إِلَى بلدك فَإِنَّك لاَ تلْحق صَاحبك وَإِنِّي أنسخه بِمن يعدل ميل الْجُزْء الَّذِي فِي يَده فَخرجت من عِنْده فلحقت بلدي وَقد قضى نحبه .

وَتَوَلَّى الْأَمر كهل من أهل بَيت مارينوس فَرد الْمَظَالِم وخلص الْأَرْوَاح مِمَّا غشيها من لبوسات الترفه والبطالة .

أَقُول وَلما كَانَ يَوْم بدر والتقى فِيهِ الْمُسلمُونَ ومشركو قُرَيْش كَانَ الْمُقدم على الْمُشْركين أَبُو سُفْيَان وعدتهم مَا بَين التسْعمائَة وَالْألف والمسلمون يَوْمئِذٍ ثلاثمائة وَثَلَاثَة عشر .

وأيد الله الْإِسْلَام وَنصر نبيه صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَوَقعت الكسرة على الْمُشْركين .

وَقتلت فِي جُمْلَتهمْ صَنَادِيد قُرَيْش وَأسر جمَاعَة من الْمُشْركين .

فبعضهم استفكوا أنفسهم وَبَعْضهمْ أَمر النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم بقَتْلِهِم .

وَكَانَ من جملَة المأسورين عقبَة بن أبي معيط[1] وَالنضْر بن الْحَرْث بن كلدة

(١) عقبة بن أبي معيط من كبار مشركي قريش كان يضع الجزور بطريق الرسول محمد بن عبد الله ، وحاول مرة خنقه بيده .

فَقَتَلَهُمَا عَلَيْه السَّلَام بعد مُنْصَرفه من بدر .

حَدث شمس الدّين أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن الْحسن بن مُحَمَّد الْكَاتِب الْبَغْدَادِيّ ابْن الْكَرِيم قَالَ حَدثنَا أَبُو غَالب مُحَمَّد بن الْمُبَارك بن مُحَمَّد بن الميمون عَن أبي الْحسن عَليّ بن أَحْمد بن الْحُسَيْن بن محمويه الشَّافِعِي اليزدي عَن أبي سعد أَحْمد بن عبد الْجَبَّار بن أَحْمد بن أبي الْقَاسِم الصَّيْرَفِي الْبَغْدَادِيّ عَن أبي غَالب مُحَمَّد بن أَحْمد ابْن سهل بن بَشرَان النَّحْوِيّ الوَاسِطِيّ عَن أبي الْحُسَيْن عَليّ بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحِيم بن دِينَار الْكَاتِب عَن أبي الْفَرج عَليّ بن الْحُسَيْن بن مُحَمَّد الْكَاتِب الْأَصْبَهَانِيّ قَالَ حَدثنَا مُحَمَّد بن جرير الطَّبَرِيّ قَالَ حَدثنَا ابْن حميد قَالَ حَدثنَا مسلمة عَن مُحَمَّد بن إِسْحَق قَالَ حَدثنِي عَاصِم بن عمر بن قَتَادَة وَيزِيد بن رُومَان أَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْه وَسلم قتل يَوْم بدر عقبَة بن أبي معيط صبرا أما عَاصِم بن ثَابت بن أبي الْأَفْلَح الْأنْصَارِيّ فَضرب عُنُقه .

ثمَّ أقبل من بدر حَتَّى إِذا كُنَّا بالصفراء قتل النَّضر بن الْحْرث بن كلدة الثَّقَفِيّ أحد بني عبد الدَّار فقد أَمر عَليّ بن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ أَن يضْرب عُنُقه .

فَقَالَت فَتيلَة بنت الْحْرث ترثيه :

(يَا رَاكِبًا إِن الأثيل مَظَنَّة ... من صبح خَامِسَة وَأَنت موفق)
(بلغ بِهِ مَيتا فَإِن تَحِيَّة ... مَا أَن تزَال بهَا الركائب تخنق)
(مني إِلَيْهِ وعبرة مسفوحة ... جَادَتْ بدرتها وَأُخْرَى يخنق)
(فليسمعن النَّضر أَن ناديته ... إِن كَانَ يسمع ميت أَو ينْطق)
(ظلت سيوف بني أَبِيه تنوشه ... لله أَرْحَام هُنَاكَ تمزق)
(صبرا يُقَاد إِلَى الْمنية متعبا ... رسف الْمُقَيد وَهُوَ عان موثق)
(أمحمد ولأنت نسل نجيبة ... فِي قَومهَا والفحل فَحل معرق)
(مَا كَانَ ضرك لَو مننت وَرُبمَا ... من الْفَتى وَهُوَ المغيظ المحنق)
(وَالنضْر أقرب من أخذت بزلة ... وأحقهم إِن كَانَ عتق يعْتق)
(لَو كنت قَابل فديَة لفديته ... بِأَعَز مَا يفْدي بِهِ من ينْفق)
الْكَامِل

قَالَ أَبُو الْفرج الْأَصْبَهَانِيّ فَبَلغنَا أَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ (لَو سَمِعت هَذَا قبل أَن أقتلهُ مَا قتلته) .

فَيُقَال أَن شعرهَا أكْرم شعر موتورة وأعفه وأكفه وأحلمه .
أَقُول كَأَنَّهُ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم إِنَّمَا أخر قتل النَّضر بن الْحْرث إِلَى أَن وصل الصَّفْرَاء ليتروى فِيه .
ثمَّ أَنه رأى الصَّوَاب قَتله فَأمر بقتْله .
ويروى أَيْضا فِي قَوْلهَا وَالنضْر أقرب من قتلت قَرَابَة تُشِير إِلَى أَنه قَرَابَة النَّبِي صلى الله عَلَيْه وَسلم .
وَكَانَت وقْعَة بدر فِي السّنة الثَّانِيَة من الْهِجْرَة .
وَبدر مَوضع وَهُوَ اسْم مَاء .
قَالَ الشّعبِيّ بدر بِئْر كَانَت لرجل يدعى بَدْرًا وَمِنْه يَوْم بدر .
والصفراء من بدر على سَبْعَة عشر ميلاً وَمن الْمَدِينَة على ثَلَاث لَيَال قواصد .

ابْن أبي رمثة التَّمِيمِي

كَانَ طَبِيبا على عهد رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم مزاولا لأعمال الْيَد وصناعة الْجراح .
وروى نعيم عَن ابْن أبي عُيَيْنَة عَن ابْن أبجر عَن زِيَاد عَن لَقِيط عَن ابْن أبي رمثة قَالَ أتيت رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فَرَأَيْت بَين كَتفيهِ الْخَاتم فَقلت إِنِّي طَبِيب فَدَعْنِي أعَالجهُ فَقَالَ أَنْت رَفِيق والطبيب الله .
قَالَ سُلَيْمَان بن حسان علم رَسُول الله أَنه رَفِيق الْيَد وَلم يكن فائقا فِي الْعلم فَبَان ذَلِك من قَوْله والطبيب الله .

عبد الْملك بن أبجر الْكِنَانِي

كَانَ طَبِيبا عَالما ماهرا .
وَكَانَ فِي أول أمره مُقيما فِي الْإسْكَنْدَرِيَّة لِأَنَّهُ كَانَ الْمُتَوَلِي فِي التدريس بهَا من بعد الإسكندرانيين الَّذين تقدم ذكرهم .
وَذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَت الْبِلَاد فِي ذَلِك الْوَقْت لملوك النَّصَارَى .
ثمَّ أَن الْمُسلمين لما استولوا على الْبِلَاد وملكوا الْإسْكَنْدَرِيَّة أسلم ابْن أبجر على يَد عمر بن عبد الْعَزِيز وَكَانَ حِينَئِذٍ أَمِيرا قبل أَن تصل إِلَيْه الْخلَافَة وَصَحبه .
فَلَمَّا أفضت الْخلَافَة إِلَى عمر وَذَلِكَ فِي صفر سنة تسع وَتِسْعين لِلْهِجْرَةِ نقل

التدريس إِلَى أنطاكية وحران وتفرق فِي الْبلاَد .

وَكَانَ عمر بن عبد الْعَزِيز يستطب ابْن أبجر ويعتمد عَلَيْهِ فِي صناعَة الطِّبّ .

روى الْأَعْمَش عَن ابْن أبجر أَنه قَالَ دع الدَّوَاء مَا احْتمل بدنك الدَّاء .

وَهَذَا من قَول النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم (سر بدائك مَا حملك) .

وروى سُفْيَان عَن ابن أبجر أَنه قَالَ الْمعدة حَوْض الْجَسَد وَالْعُرُوق تشرع فِيهِ فَمَا ورد فِيهَا بِصِحَّة صدر بِصِحَّة وَمَا ورد فِيهَا بسقم صدر بسقم .

ابْن أَثَال

كَانَ طَبِيبا مُتَقَدما من الْأَطِبَّاء المتميزين فِي دمشق نَصْرَانِيّ الْمَذْهَب .

وَلما ملك مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان[1] دمشق اصطفاه لنَفسِهِ وَأحسن إِلَيْهِ وَكَانَ كثير الافتقاد لَهُ والاعتقاد فِيهِ والمحادثة مَعَه لَيْلاً وَنَهَارًا .

وَكَانَ ابْن أَثَال خَبِيرا بالأدوية المفردة والمركبة وقواها وَمَا مِنْهَا سموم قواتل وَكَانَ مُعَاوِيَة يقربهُ لذَلِك كثيرا .

وَمَات فِي أَيَّام مُعَاوِيَة جمَاعَة كَثِيرَة من أكَابِر النَّاس والأمراء من الْمُسلمين بالسم .

وَمن ذَلِك حَدث أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن الْحسن بن مُحَمَّد الْكَاتِب الْبَغْدَادِيّ ابْن الْكَرِيم قَالَ حَدثنَا أَبُو غَالب مُحَمَّد بن الْمُبَارك بن مُحَمَّد بن مَيْمُون عَن أبي الْحسن عَليّ بن أَحْمد بن الْحُسَيْن بن محمويه الشَّافِعِي اليزدي عَن أبي سعد أَحْمد بن عبد الْجَبَّار بن أَحْمد بن أبي الْقَاسِم الصَّيْرَفِي الْبَغْدَادِيّ عَن أبي غَالب مُحَمَّد بن أَحْمد بن سهل بن بَشرَان النَّحْوِيّ الوَاسِطِيّ عَن أبي الْحُسَيْن عَليّ بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحِيم بن دِينَار الْكَاتِب عَن أبي الْفرج عَليّ بن الْحُسَيْن الْأَصْبَهَانِيّ الْكَاتِب قَالَ فِي كتَابه الْمَعْرُوف بالأغاني الْكَبِير أَخْبرنِي عمي قَالَ حَدثنَا أَحْمد بن الْحَرْث الخزاز قَالَ حَدثنَا الْمَدَائِنِي عَن شيخ أهل الْحجاز عَن زيد بن رَافع مولى الْمُهَاجِرين خَالِد بن الْوَلِيد عَن أبي ذِئْب عَن أبي سُهَيْل أَن مُعَاوِيَة لما أَرَادَ أَن يظْهر العقد ليزِيد قَالَ لأهل الشَّام إِن أَمِير الْمُؤمنِينَ قد كبرت سنه ورق جلده ودق عظمه واقترب أَجله يُرِيد أَن يسْتَخْلف

(١) أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي ، من أصحاب الرسول محمد وأحد كتّاب الوحي . سادس الخلفاء في الإسلام ومؤسس الدولة الأموية في الشام وأوّل خلفائها .

عَلَيْكُم فَمن ترَوْنَ فَقَالُوا عبد الرَّحْمَن بن خَالِد بن الْوَلِيد .

فَسكت وأضمرها .

ودس ابْن أَثَال النَّصْرَانِي الطَّبِيب إِلَيْه فَسَقَاهُ سما فَمَاتَ وَبلغ ابْن أَخِيه خَالِد بن الْمُهَاجِر ابْن خَالِد بن الْوَلِيد خَبره وَهُوَ بِمَكَّة وَكَانَ أَسْوَأ النَّاس رَأيا فِي عَمه لأَن أَبَاهُ الْمُهَاجِر كَانَ مَعَ عَلِيّ رَضِي الله عَنهُ بصفين وَكَانَ عبد الرَّحْمَن بن خَالِد مَعَ مُعَاوِيَة .

وَكَانَ خَالِد بن الْمُهَاجِر على رَأْي أَبِيه هاشمي الْمَذْهَب .

فَلَمَّا قتل عَمه عبد الرَّحْمَن مر بِه عُرْوَة بن الزبير فَقَالَ لَهُ يَا خَالِد أتدع لابْنِ أَثَال نقى أوصال عمك بِالشَّام وَأَنت بِمَكَّة مسبل إزارك تجره وتخطر فِيه متخائلا فحمي خَالِد ودعى مولى لَهُ يُقَال لَهُ نَافِع فَأعلمهُ الْخَبَر وَقَالَ لَهُ لاَ بُد من قتل ابْن أَثَال .

وَكَانَ نَافِع جلدا شهما فَخَرَجَا حَتَّى قدما دمشق وَكَانَ ابْن أَثَال يتمسى عنْد مُعَاوِيَة فَجَلَسَ لَهُ فِي مَسْجِد دمشق إِلَى اسطوانة وَجلسَ غُلاَمه إِلَى أُخْرَى حَتَّى خرج .

فَقَالَ خَالِد لنافع إياك أَن تعرض لَهُ أَنْت فَإِنِّي أضربه .

وَلَكِن احفظ ظَهْري واكفني من ورائي .

فَإِن رَأَيْت شَيْئا يُرِيدنِي من ورائي فشأنك .

فَلَمَّا حاذاه وثب إِلَيْه فَقتله .

وثار إِلَيْهِ من كَانَ مَعَه فصاح بهم نَافِع فانفرجوا .

وَمضى خَالِد وَنَافِع وتبعهما من كَانَ مَعَه فَلَمَّا غشوهما حملا عَلَيْهِم فَتَفَرَّقُوا حَتَّى دخل خَالِد وَنَافِع زقاقا ضيقا ففاتا النَّاس .

وَبلغ مُعَاوِيَة الْخَبَر فَقَالَ هَذَا خَالِد بن الْمُهَاجِر انْظُرُوا الزقاق الَّذِي دخل فِيه .

ففتش عَلَيْه وَأتي بِهِ فَقَالَ لَهُ لاَ جَزَاك الله من زائر خيرا قتلت طبيبي فَقَالَ قتلت الْمَأْمُور وَبَقِي الآمر .

فَقَالَ لَهُ عَلَيْك لعنة الله أما وَالله لَو كَانَ تشهد مرّة وَاحِدَة لقتلتك بِهِ .

أَمَعَك نَافِع قَالَ لاَ قَالَ بلَى وَالله وَمَا اجترأت إِلاَّ بِه .

ثمَّ أَمر بِطَلَبِه فَوجدَ فَأتي بِه فَضرب مائَة سَوط وَلم ينح خَالِدا بِشَيْء أَكثر من أَن حَبسه وألزم بني مَخْزُوم دِيَة ابْن أَثَال اثْنَي عشر ألف دِرْهَم أدخل بَيت المَال مِنْهَا سِتَّة آلاَف وَأخذ سِتَّة آلاَف فَلم يزل ذَلِك يجْرِي فِي دِيَة الْمعَاهد حَتَّى ولي عمر بن عبد الْعَزِيز فَأبْطل الَّذِي يَأْخُذهُ السُّلْطَان لنَفسِهِ وَأثبت الَّذِي يدْخل بَيت المَال .

قَالَ لما حبس مُعَاوِيَة خَالِد بن الْمُهَاجر قَالَ فِي السجْن :

(إِمَّـــا خطـاي تقاربـت   مشـــي الْمُقيد فِي الْحصـار)
(فِيمَا أَمْشِي فِي الأباطـــح   يقتفـــي أثـــري إِزَارِي)
(دع ذَا وَلَكِن هـل تـــرى   نَارا تشب بِـــذِي مـــرار)
(مَـــا أَن تشـــب لقـــــرة   بالمصطلـــين وَلاَ قتـــار)
(مَا بَال ليلك لَيْسَ ينقص   طولهَـــا طـــول النَّهَـــار)
(أتقاصــــــر الأَزْمَـــان أم   غَرَض الأَسير من الإِسَـــار)
الْكَامِل

قَالَ فبلغت أبياته مُعَاوِيَة فَأَطْلقهُ فَرجع إِلَى مَكَّة .

فَلَمَّا قدمهَا لَقِي عُرْوَة بن الزبير فَقَالَ لَهُ أما ابْن أَثَال فقد قتلته .

وهذاك ابْن جرموز نقى أوصال الزبير بِالْبَصْرَةِ فاقتله إِن كنت ثائرا .

فَشَكَاهُ عُرْوَة إِلَى أبي بكر بن عبد الرَّحْمَن بن الْحَرْث بن هِشَام فأقسم عَلَيْهِ أَن يمسك عَنهُ فَفعل .

أَقُول كَانَ الزبير بن الْعَوام مَعَ عَائِشَة يَوْم الْجمل فَقتله ابْن جرموز وَلِذَلِك قَالَ خَالِد بن الْمُهَاجر لعروة بن الزبير عَن قتل ابْن جرموز لأَبِيهِ يعيره بذلك .

وَمِمَّا يُحَقّق هَذَا أَن عَاتِكَة بنت زيد بن عَمْرو بن نفَيْل زَوْجَة الزبير بن الْعَوام قَالَت ترثيه لما قَتله ابْن جرموز :

(غـــدر ابْن جرمـــوز بِفَارِس بهمـــة   يَـــوْم اللِّقَاء وَكَانَ غيـــر معـــــرد)
(يَا عَمْـــرو لَـــو نبهتـــه لوجدتـــه   لاَ طائشا رعش الْجنان وَلاَ الْيَـــد)
(اللـــه رَبـــك إِن قتلـــت لمسلمـــا   وَجَبت عَلَيْك عُقُوبَـــة الْمُتَعَمـــد)
(إِن الزبيـــر لـــذُو بلاَء صَـــــادِق   سمـــح سجيتـــه كريم الْمشهـــد)
(كـــم غمرة قد خاضهـــا لـــم يثنـه   عَنْهَـــا طـــرادك يَا ابْن فقع القردد)
(فَاذْهَبْ فَمَا ظَفرت يـــداك بِمثلِـــهِ   فِيمَـــا مضى مِمَّا يروح وَيَغْتَـــدِي)
الْكَامِل

وَقَالَ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام الْبَغْدَادِيّ فِي كتاب الأَمْثَال إِن مُعَاوِيَة ابْن أبي سُفْيَان كَانَ خَافَ أَن يمِيل النَّاس إِلَى عبد الرَّحْمَن بن خَالِد بن الْوَلِيد فاشتكى عبد الرَّحْمَن فَسَقَاهُ الطَّبِيب شربة عسل فِيهَا سم فَأَحْرَقتهُ .

فَعِنْدَ ذَلِك قَالَ مُعَاوِيَة لاَ جد إِلاَّ مَا اقعص عَنْك من تكره .

قَالَ وَقَالَ مُعَاوِيَة أَيْضا حِين بلغه أَن الأشتر[١] سقِي شربة عسل فِيهَا سم فَمَاتَ إِن لله جُنُودا منْهَا الْعَسَل .

ونقلت من تَارِيخ أبي عبد الله مُحَمَّد بن عمر الْوَاقِدِيّ قَالَ لما كَانَ فِي سنة ثَمَان وَثَلَاثِينَ بعث عَليّ ابْن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ الأشتر واليا على مصر بعد قتل مُحَمَّد بن أبي بكر وَبلغ مُعَاوِيَة مسيره فَدس إِلَى دهقان بالعريش فَقَالَ أَن قتلت الأشتر فلك خراجك عشْرين سنة فلطف لَهُ الدهْقَان فَسَأَلَ أَي الشَّرَاب أحب إِلَيْهِ فَقيل الْعَسَل .

فَقَالَ عِنْدِي عسل من عسل برقة فسمه وَأَتَاهُ بِهِ فشربه فَمَاتَ .

وَفِي تَارِيخ الطَّبَرِيّ أَن الْحسن بن عَليّ رَضِي الله[٢] عَنْهُمَا مَاتَ مسموما فِي أَيَّام مُعَاوِيَة وَكَانَ عِنْد مُعَاوِيَة كَمَا قيل دهاء فَدس إِلَى جعدة بنت الْأَشْعَث بن قيس وَكَانَت زَوْجَة الْحسن رَضِي الله عَنهُ شربة وَقَالَ لَهَا إِن قتلت الْحسن زَوجتك بيَزِيد .

فَلَمَّا توفّي الْحسن بعثت إِلَى مُعَاوِيَة تطلب قَوْله فَقَالَ لَهَا فِي الْجَواب أَنا أضن بيَزِيد .

وَقَالَ كثير يرثي الْحسن رَضِي الله عَنهُ :

يَا جعد أبكيه وَلَا تسأمي ... بكاء حق لَيْسَ بِالْبَاطِلِ
أَن تستري الْمَيِّت على مثله ... فِي النَّاس من حاف وَمن ناعل
السَّرِيع

وَقَالَ عوَانَة بن الحكم لما كَانَ قبل موت الْحسن بن عَليّ عَلَيْهِمَا السَّلَام كتب مُعَاوِيَة إِلَى مَرْوَان ابْن الحكم عَامله على الْمَدِينَة إِن أقبل الْمطِي فِيمَا بيني وَبَيْنك بِخَبَر الْحسن بن عَليّ .

قَالَ فَلم يلبث إِلَّا يَسِيرا حَتَّى كتب مَرْوَان بِمَوْتِهِ .

---

(١) مالك بن الحارث الأشتر النخعي زعيم قبيلة وقائد عسكري شارك في فُتوح الشام وكان من أصحاب علي بن أبي طالب حيث شهد معه الجَمَل وصفين اللتان أبدى فيهما شجاعة مفرطة وشهد مع علي مشاهده كلها ، وولاه علي على مصر .

(٢) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ، سبط نبي الإسلام محمد وحفيده وثاني الأئمة عند الشيعة ، أطلق عليه النبي محمد لقب سيد شباب أهل الجنة ، كنيته أبو محمد ، ولد في النصف من شهر رمضان عام ٣ هـ وتوفي سنة ٥٠ هـ ودفن في البقيع .

وَكَانَ ابْن عَبَّاس إِذا دخل على مُعَاوِيَة أجلسه مَعَه على سَرِيره فَأذن مُعَاوِيَة للنَّاس فَأَخذُوا مجَالسهمْ وَجَاء ابْن عَبَّاس فَلم يمهله مُعَاوِيَة أَن يسلم حَتَّى قَالَ يَا ابْن عَبَّاس هَل أَتَاك موت الْحسن بن عَليّ قَالَ لاَ قَالَ مُعَاوِيَة فَإِنَّهُ قد أَتَانَا مَوته .

فَاسْتَرْجع ابْن عَبَّاس وَقَالَ إِن مَوته يَا مُعَاوِيَة لاَ يزِيد فِي عمرك وَلاَ يدْخل عمله مَعَك فِي قبرك .

وَقد بلينا بأعظم فَقدنَا مِنْهُ جده مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فجبر الله مصابنا وَلم يُهْلكنَا بعده .

فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَة اقعد يَا ابْن عَبَّاس فَقَالَ مَا هَذَا بِيَوْم قعُود .

وَأظْهر مُعَاوِيَة الشماتة بِمَوْت الْحسن رَضِي الله عَنهُ فَقَالَ قثم ابْن عَبَّاس فِي ذَلِك :

(أصبح الْيَوْم ابْن هِنْد شامتا ... ظَاهر النخوة أَن مَاتَ حسن)
(رَحْمَة الله عَلَيْهِ أَنه ... طَال مَا أشجى ابْن هِنْد وَأذن)
(وَلَقَد كَانَ عَلَيْهِ عمره ... عدل رضوى وثبير وحضن)
(وَإِذا أقبل حَيا رَافعا ... صَوته والصدر يغلي بالإحن)
(فارتع الْيَوْم ابْن هِنْد آمنا ... إِنَّمَا يغمص بالعير السّمن)
(وَاتَّقِ الله وأحدث تَوْبَة ... إِن مَا كَانَ كشيء لم يكن)

الرمل

أَبُو الحكم

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا عَالما بأنواع العلاج والأدوية وَله أَعمال مَذْكُورَة وصفات مَشْهُورَة .

وَكَانَ يستطبه مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان ويعتمد عَلَيْهِ فِي تركيبات أدوية لأغراض قَصدهَا مِنْهُ .

وَعمر أَبُو الحكم هَذَا عمرا طَويلا حَتَّى تجَاوز الْمِائَة سنة .

حدث أَبُو جَعْفَر أَحْمد بن يُوسُف بن إِبْرَاهِيم قَالَ حَدثنِي أبي قَالَ حَدثنِي عِيسَى بن حكم الدِّمَشْقِي المتطبب قَالَ حَدثنِي أبي عَن أَبِيه قَالَ ولي الْمَوْسِم فِي أَيَّام مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان يزِيد بن مُعَاوِيَة .

فوجهني أَبوهُ مَعَه متطببا لَهُ .

وَخرجت مَعَ عبد الصَّمد بن عَليّ بن عبد الله بن الْعَبَّاس إِلَى مَكَّة متطببا لَهُ .
وقعدد عبد الصَّمد مثل قعدد يزيد .
وَبَين وفاتهما مائَة ونيف وَعشْرُونَ سنة .
قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي عِيسَى بن حكم عَن أَبِيه أَن جده أعلمهُ أَنه كَانَ حمى عبد الْملك ابْن مَرْوَان من شرب المَاء فِي علته الَّتِي توفّي فِيهَا .
واعلمه أَنه مَتى شرب المَاء قبل نضج علته توفّي .
قَالَ فاحتمى عَن المَاء يَوْمَيْنِ وَبَعض الثَّالِث .
قَالَ فَإِنِّي عِنْده لجالس وَعِنْده بَنَاته إِذْ دخل عَلَيْهِ الْوَلِيد ابْنه فَسَأَلَهُ عَن حَاله وَهُوَ يتَبَيَّن فِي وَجه الْوَلِيد السرُور بِمَوْتِه فَأَجَابَهُ بِأَن قَالَ :
(ومستخبر عَنَّا يُرِيد بِنَا الردى ومستخبرات والدموع سواجم)
الطَّوِيل
وَكَانَ استفتاحه النّصْف الأول وَهُوَ مواجه للوليد ثمَّ واجه الْبَنَات عِنْد قَوْله النّصْف الثَّانِي ثمَّ دَعَا بِالْمَاءِ فشربه فَقضى من سَاعَته

حكم الدِّمَشْقِي

كَانَ يلْحق بِأَبِيهِ فِي مَعْرفَته بالمداواة والأعمال الطبية وَالصِّفَات البديعة
وَكَانَ مُقيما بِدِمَشْق .
وَعمر أَيْضا عمرا طَويلا .
قَالَ أَبُو يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي عِيسَى بن حكم أَن وَالِده توفّي وَكَانَ عبد الله بن طَاهِر بِدِمَشْق فِي سنة عشر وَمِائَتَيْنِ وَأَن عبد الله سَأَلَهُ عَن مبلغ عمر أَبِيه فأعلمهُ أَنه عمره مائَة وَخمْس سِنِين لم يتَغَيَّر عقله وَلم ينقص علمه .
فَقَالَ عبد الله عَاشَ حكم نصف التَّارِيخ .
قَالَ يُوسُف وحَدثني عِيسَى أَنه ركب مَعَ أَبِيه حكم بِمَدِينَة دمشق إِذْ اجتازوا بحانوت حجام قد وقف عَلَيْهِ بشر كثير فَلَمَّا بصر بِنَا بعض الْوُقُوف قَالَ أفرجوا هَذَا حكم المتطبب وَعِيسَى ابْنه .
فأفرج الْقَوْم فَإِذا رجل قد فصده الْحجام فِي الْعرق الباسليق وَقد فصده فصدا وَاسِعًا وَكَانَ الباسليق على الشريان فَلم يحسن الْحجام تَعْلِيق الْعرق فَأصَاب الشريان .
وَلم يكن عِنْد الْحجام حِيلَة فِي قطع الدَّم .

واستعملنا الْحِيلَة فِي قطعه بالرفائد ونسج العنكبوت والوبر فَلم يَنْقَطع بذلك .

فَسَأَلَنِي وَالِدي عَن حيلَة فأعلمته أَنه لاَ حيلَة عِنْدِي .

فَدَعَا بفستقة فَشَقهَا وَطرح مَا فِيهَا وَأخذ أحد نصفي القشر فَجعله على مَوضع الفصد ثمَّ أَخذ حَاشِيَة من ثوب كتَّان غليظ فلف بهَا مَوضع الفصد على قشر الفستقة لفا شَدِيدا حَتَّى كَانَ يستغيث المفتصد من شدته ثمَّ شدّ ذَلِك بعد اللف شدا شَدِيدا وَأمر بِحمْل الرجل إِلَى نهر بردى وَأدْخل يَده فِي المَاء ووطأ لَهُ على شاطئ النَّهر ونومه عَلَيْهِ وَأمر فحسى محات بيض نيمرشت ووكل بِهِ تلميذا من تلامذته وَأمره بِمَنْعه من إِخْرَاج يَده من مَوضع الفصد من المَاء إِلاَّ عِنْد وَقت الصَّلاَة أَو يتخوف عَلَيْهِ الْمَوْت من شدَّة الْبرد .

فَإِن تخوف ذَلِك أذن لَهُ فِي إِخْرَاج يَده هنيهة ثمَّ أمره بردهَا فَفعل ذَلِك إِلَى اللَّيْل .

ثمَّ أَمر بِحمْلِهِ إِلَى منزله وَنَهَاهُ عَن تَغْطِيَة مَوضع الفصد وَعَن حل الشد قبل استتمام خَمْسَة أَيَّام فَفعل ذَلِك .

إِلاَّ أَنه صَار إِلَيْهِ فِي الْيَوْم الثَّالِث وَقد ورم عضده وذراعه ورما شَدِيدا فَنَفْس من الشد شَيْئا يَسِيرا وَقَالَ للرجل الورم أسهل من الْمَوْت .

فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْم الْخَامِس حل الشداد فَوَجَدنَا قشر الفستقة ملتصقا بِلَحْم الرجل .

فَقَالَ وَالِدي للرجل بِهَذَا القشر نجوت من الْمَوْت فَإِن خلعت هَذَا القشر قبل انخلاعه وسقوطه من غير فعل مِنْك تلفت نَفسك .

قَالَ عِيسَى فَسقط القشر فِي الْيَوْم السَّابِع وَبَقِي فِي مَكَانَهُ دم يَابِس فِي خلقَة الفستقة .

فَنَهَاهُ وَالِدي عَن الْعَبَث بِهِ أَو حك مَا حوله أَو فت شَيْء من ذَلِك الدَّم .

فَلم يزل الدَّم يتحات حَتَّى انْكَشَفَ مَوضِع الفصد فِي أَكثر من أَرْبَعِينَ لَيْلَة وبرأ الرجل .

عِيسَى بن حكم الدِّمَشْقِي

وَهُوَ الْمَشْهُور بمسيح صَاحب الكناش الْكَبِير الَّذِي يعرف بِهِ وينسب إِلَيْهِ .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي عِيسَى بن الحكم أَنه عرض لغضيض أم ولد

الرشيد قولنج فاحضرته وأحضرت الأُبَح والطبري الحاسبين وَسَأَلت عِيسَى عَمَّا يرى معالجتها بِه .

قَالَ عِيسَى فاعلمتها أَن القولنج قد استحكم بهَا استحكاما إِن لم تبادره بالحقنة لم يُؤمن عَلَيْهَا التّلف .

فَقَالَت للأبح والطبري اختارا لي وقتا أتعالج فِيه .

فَقَالَ لَهَا الأُبَح علتك هَذه لَيست من الْعلَل الَّتِي يُمكن أَن يُؤَخر لَهَا العلاج إِلَى وَقت يحمده المنجمون وَأَنا أرى أَن تبادري بالعلاج قبل أَن تعملي عملا وَكَذَلِكَ يرى عِيسَى بن حكم .

فسألتني فاعلمتها أَن الأُبَح قد صدقهَا .

فَسَأَلت الطَّبَرِيّ عَن رَأْيه فَقَالَ أَن الْقَمَر الْيَوْم مَعَ زحل وَهُوَ فِي غَد مَعَ الْمُشْتَرِي وَأَنا أرى لَك أَن تؤخري العلاج إِلَى مُقَارنَة الْقَمَر الْمُشْتَرِي .

فَقَالَ الأُبَح أَنا أَخَاف أَن يصير الْقَمَر مَعَ الْمُشْتَرِي وَقد عمل القولنج عملا لاَ يحْتَاج مَعَه إِلَى علاج .

فتطيرت من ذَلِك غضيض ولبنتها أم مُحَمَّد وأمرتا بِإِخْرَاجِهِ من الدَّار وَقبلت قَول الطَّبَرِيّ .

فَمَاتَتْ غضيض قبل موافات الْقَمَر الْمُشْتَرِي .

فَلَمَّا وافى الْقَمَر الْمُشْتَرِي قَالَ الأُبَح لأم مُحَمَّد هَذَا وَقت اخْتِيَار الطَّبَرِيّ للعلاج فَأَيْنَ العليل حَتَّى نعالجه فزادتها رسَالَته غيظا عَلَيْه وَلم تزل سَيِّئَة الرَّأْي فِيهِ حَتَّى توفيت قَالَ يُوسُف نزلت على عِيسَى بن حكم فِي منزله بِدِمَشْق سنة خمس وَعشْرين وَمِائَتَيْنِ وَبِي نزلة صعبة فَكَانَ يغذوني بأغذية طيبَة ويسقيني الثَّلج فَكنت أنكر ذَلِك واعلمه إِن تِلْكَ الأغذية مضرَّة بالنزلة .

فيعتل عَليّ بالهواء وَيَقُول أَنا أعلم بهواء بلدي مِنْك وَهَذِه الْأَشْيَاء الْمضرَّة بالعراق نافعة بِدِمَشْق .

فَكنت اغتذي بمَا يغذوني بِه .

فَلَمَّا خرجت عَن الْبَلَد خرج مشيعا لي حَتَّى صرنا إِلَى الْموضع الْمَعْرُوف بالرَّاهِب وَهُوَ الْموضع الَّذِي فارقني فِيهِ فَقَالَ لي قد أعددْت لَك طَعَاما يحمل مَعَك يُخَالف الْأَطْعِمَة الَّتِي كنت تأكلها .

وَأَنا آمُرك أَن لاَ تشرب مَاء بَارِدًا وَلاَ تَأْكُل من مثل الأغذية الَّتِي كنت تأكلها فِي

منزلي شَيْئا .

فلمته على مَا كَانَ يغذوني بِهِ فَقَالَ إِنَّه لاَ يحسن بالعاقل أَن يلْزم قوانين الطِّبّ مَعَ ضَيفه فِي منزله .

قَالَ يُوسُف وتجاريت وَعِيسَى يَوْمًا بِدِمَشْق ذكر البصل فابترك فِي ذمه وَوصف معايبه .

وَكَانَ عِيسَى وسلمويه بن بَيَان يسلكان طَرِيق الرهبان وَلاَ يحمدان شَيْئا مِمَّا يزِيد فِي الباه ويذكران أَن ذَلِك مِمَّا يتْلف الأَبدَان وَيذْهب الأَنْفس .

فَلم استنجد الاحْتِجَاج عَلَيْهِ بزِيَادَة البصل فِي الباه .

فَقلت لَهُ قد رَأَيْت لَهُ فِي سَفَرِي هَذَا أَعنِي فِيمَا بَين سر من رأى ودمشق مَنْفَعَة .

فَسَأَلَ عَنْهَا فاعلمته إِنِّي كنت أَذُوق المَاء فِي بعض المناهل فاصيبه مالحا فَآكل البصل النيء ثمَّ أعاود شرب المَاء فأجد ملوحته قد نقصت .

وَكَانَ عِيسَى قَلِيل الضحك فاستضحك من قولي ثمَّ رَجَعَ إِلَى إِظْهَار جرح مِنْهُ ثمَّ قَالَ يعز عَليّ أَن يغلط مثلك هَذَا الْغَلَط لأَنَّك صرت إِلَى أسمج نُكْتَة فِي البصل وأعيب عيب فِيهِ فجعلتها مدحا .

ثمَّ قَالَ لي أَلَيْسَ مَتى حدث فِي الدِّمَاغ فَسَاد فَسدتْ الْحَواس حَتَّى ينقص حس الشم والذوق والسمع وَالْبَصَر .

فأعلمته أَن الأَمر كَذَلِك .

فَقَالَ لي إِن خاصية البصل إِحْدَاث فَسَاد الدِّمَاغ فَإِنَّمَا قلل حسك بملوحة المَاء مَا أحدث البصل فِي دماغك من الْفساد .

قَالَ وَقَالَ لي عِيسَى وَقد شيعني إِلَى الراهب وَهُوَ أخر كَلاَم دَار بيني وَبَينه إِن وَالِدي توفّي وَهُوَ ابْن مائَة سنة وَخمْس سِنِين لم يتشنج لَهُ وَجه وَلم ينقص من مَاء وَجهه لأَشْيَاء كَانَ يَفْعَلهَا وَأَنا الآن مزودكها فاعمل بهَا وَهِي أَن لاَ تذوق القديد وَلاَ تغسل يَدَيك ورجليك عِنْد خُرُوجك من الْحمام أبدا إِلاَّ بِمَاء بَارِد أبرد مَا يمكنك والزم ذَلِك فَإِنَّهُ ينفعك .

فلزمت مَا أَمرنِي بِهِ من هَذَا الْبَاب إِلاَّ إِنِّي رُبمَا مصصت الْقطعَة الصَّغِيرَة من القديد فِي السّنة وَفِي الأَكْثَر من ذَلِك .

ولعيسى بن حكم من الْكتب كناش كتاب مَنَافِع الْحَيَوَان .

تياذوق

كَانَ طَبِيبا فَاضلا وَله نَوَادِر وألفاظ مستحسنة فِي صناعَة الطِّبّ .

وَعمر وَكَانَ فِي أول دولة بني أُميَّة ومشهورا عِنْدهم بالطب .

وَصَحب أَيْضا الْحجَّاج بن يُوسُف الثَّقَفِيّ الْمُتَوَلِي من جِهَة عبد الْملك ابْن مَرْوَان وخدمه بصناعة الطِّبّ وَكَانَ يعْتَمد عَلَيْهِ ويثق بمداواته وَكَانَ لَهُ مِنْهُ الجامكية الوافرة والافتقاد الْكثير .

وَمن كَلَام تياذوق للحجاج(١) قَالَ :

لاَ تنْكح إِلاَّ شَابة وَلاَ تَأْكُل من اللَّحْم إِلاَّ فتيا وَلاَ تشرب الدَّوَاء إِلاَّ من عِلّة وَلاَ تَأْكُل الْفَاكِهَة إِلاَّ فِي أَوَان نضجها .

وَأَجد مضغ الطَّعَام وَإِذا أكلت نَهَارا فَلاَ بَأْس أَن تنام وَإِذا أكلت لَيْلاً فَلاَ تنم حَتَّى تمشي وَلَو خمسين خطْوَة .

فَقَالَ لَهُ بعض من حضر إِذا كَانَ الأْمر كَمَا تَقول فَلم هلك بقراط وَلم هلك جالينوس وَغَيرهمَا وَلم يبْق أحد مِنْهُم قَالَ يَا بني قد احتججت فاسمع إِن الْقَوْم دبروا أنفسهم بمَا يملكُونَ وغلبهم مَا لاَ يملكُونَ يَعْنِي الْمَوْت وَمَا يرد من خَارج كَالْحرِّ وَالْبرد والوقوع وَالْغَرق والجراح وَالْغَم وَمَا أشبه ذَلِك .

وَأوصى تياذوق أَيْضا الْحجَّاج فَقَالَ لاَ تأكلن حَتَّى تجوع .

وَلاَ تتكارهن على الْجِمَاع .

وَلاَ تحبس الْبَوْل .

وَخذ من الْحمام قبل أَن يَأْخُذ مِنْك .

وَقَالَ أَيْضا للحجاج أَرْبَعَة تهدم الْعُمر وَرُبمَا قتلن دُخُول الْحمام على البطنة والمجامعة على الامتلاء وَأكل القديد الجاف وَشرب المَاء الْبَارِد على الرِّيق .

وَمَا مجامعة الْعَجُوز ببعيدة مِنْهُنَّ .

وَوجد الْحجَّاج فِي رَأسه صداعا فَبعث إِلَى تياذوق وأحضره فَقَالَ اغسل رجليك بِمَاء حَار وأدهنهما .

(١) أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ، قائد أموي ، داهية ، سفاك ، خطيب . ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته ، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره .

وَخصي للحجاج قَائِم على رَأسه فَقَالَ وَالله مَا رَأَيْت طَبِيبا أقل معرفَة بالطب مِنْك شكى الأُمير الصداع فِي رَأسه فتصف لَهُ دَوَاء فِي رجلَيْهِ فَقَالَ لَهُ أما أَن عَلامَة مَا قلت فِيك بَيِّنَة .

قَالَ الْخصي وَمَا هِيَ قَالَ نزعت خصيتاك فَذهب شعر لحيتك .

فَضَحِك الْحجَّاج وَمن حضر .

وشكى الْحجَّاج ضعفا فِي معدته وقصورا فِي الهضم إِلَى تياذوق فَقَالَ يكون الأُمير يحضر بَين يَدَيْهِ الفستق الأَحْمَر القشر البراني ويكسره وَيَأْكُل من لبه فَإِن ذَلِك يُقَوي الْمعدة .

فَلَمَّا أَمْسَى الْحجَّاج بعث إِلَى حظاياه وَقَالَ إِن تياذوق وصف لي الفستق .

فَبعثت إِلَيْهِ كل وَاحِدَة مِنْهُنَّ صينية فِيهَا قُلُوب فستق فَأكل من ذَلِك حَتَّى امْتَلأَ .

وأصابته بعقبه هيضة كَادَت تَأتي على نَفسه .

فَشكى حَاله إِلَى تياذوق وَقَالَ وصفت لي شَيْئا أضرّ بِي وَذكر لَهُ مَا تنَاول فَقَالَ لَهُ إِنَّمَا قلت لَك أَن تحضر عنْدك الفستق بقشره البراني فتكسر الْوَاحِدَة بعد الْوَاحِدَة وتلوك قشرها البراني وَفِيه العطرية وَالْقَبْض فَيكون بذلك تَقْوِيَة الْمعدة .

وَأَنت فقد عملت غير مَا قلت لَك .

وداواه ممَّا عرض لَهُ .

قيل وَمن أخباره مَعَ الْحجَّاج أَنه دخل عَلَيْهِ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ الْحجَّاج أَي شَيْء دَوَاء أكل الطين فَقَالَ عَزِيمَة مثلك أَيهَا الأُمير .

فَرمى الْحجَّاج بالطين من يَده وَلم يعد إِلَيْهِ أبدا .

وَقيل إِن بعض الْمُلُوك لما رأى تياذوق وَقد شاخ وَكبر سنه وخشي أَن يَمُوت وَلاَ يعتاض عَنهُ لأَنَّهُ كَانَ أعلم النَّاس وأحذق الأمة فِي وقته بالطب .

فَقَالَ لَهُ صف لي مَا اعْتمد عَلَيْهِ فأسوس بِهِ نَفسِي وأعمل بِهِ أَيَّام حَيَاتِي فلست آمن أَن يحدث عَلَيْك حدث الْمَوْت وَلاَ أجد مثلك فَقَالَ تياذوق أَيهَا الْملك بالخيرات أَقُول لَك عشرَة أَبْوَاب إِن علمت واجتنبتها لم تعتل مُدَّة حياتك وَهَذِه عشر كَلِمَات .

١- لاَ تَأْكُل طَعَاما وَفِي معدتك طَعَام .

٢- وَلاَ تَأْكُل مَا تضعف أسنانك عَن مضغه فتضعف معدتك عَن هضمه .

٣- وَلاَ تشرب المَاء على الطَّعَام حَتَّى تفرغ ساعتين فَإِن أصل الدَّاء التُّخمَة وأصل التُّخمَة المَاء على الطَّعَام .
٤- وَعَلَيْك بدُخُول الْحمام فِي كل يَوْمَيْنِ مرّة وَاحِدَة فَأَنَّهُ يخرج من جسدك مَا لاَ يصل إِلَيْه الدَّوَاء .
٥- وَأكْثر الدَّم فِي بدنك تحرص بِهِ نَفسك .
٦- وَعَلَيْك فِي كل فصل قيئة ومسهلة .
٧- وَلاَ تحبس الْبَوْل وَإِن كنت رَاكِبًا .
٨- واعرض نَفسك على الْخلاَء قبل نومك .
٩- وَلاَ تكْثر الْجِمَاع فَإِنَّهُ يقتبس من نَار الْحَيَاة فليكثر أَو يقل .
١٠- وَلاَ تجامع الْعَجُوز فَإِنَّهُ يُورث الْمَوْت الْفجأَة .

فَلَمَّا سمع الْملك ذَلِك أَمر كَاتبه أَن يكْتب هَذِه الأَلْفَاظ بِالذَّهَب الأَحْمَر ويضعه فِي صندوق من ذهب مرصع .

وَبَقِي ينظر إِلَيْه فِي كل يَوْم وَيعْمل بِهِ فَلم يعتل مُدَّة حَيَاته حَتَّى جَاءَهُ الْمَوْت الَّذِي لاَ بُد مِنْهُ وَلاَ محيص عَنهُ .

وَذكر إِبْرَاهِيم بن الْقَاسِم الْكَاتِب قَالَ قَالَ الْحجَّاج لابْنِه مُحَمَّد يَا بني إِن تياذوق الطَّبِيب كَانَ قد أوْصَانِي فِي تَدْبِير الصِّحَّة بوَصِيَّة كنت استعملها فَلم أر إِلاَّ خيرا .

وَلما حَضرته الْوَفَاة دخلت عَلَيْه أعوده فَقَالَ الزم مَا كنت وصيتك بِه وَمَا نسيت منْهَا فَلاَ تنس لاَ تشربن دَوَاء حَتَّى تحْتَاج إِلَيْهِ وَلاَ تأكلن طَعَاما وَفِي جوفك طَعَام وَإِذا أكلت فامش أَرْبَعِينَ خطْوَة .

وَإِذا امْتَلَأت من الطَّعَام فنم على جَنْبك الأَيْسَر .

وَلاَ تأكلن الْفَاكِهَة وَهِي مولية .

وَلاَ تأكلن من اللَّحْم إِلاَّ فتيا .

وَلاَ تنكحن عجوزا .

وَعَلَيْك بِالسِّوَاك .

وَلاَ تتبعن اللَّحْم اللَّحْم .

فَإِن إدْخَال اللَّحْم على اللَّحْم يقتل الأسود فِي الفلوات .

وَقَالَ أَيْضا إِبْرَاهِيم بن الْقَاسِم الْكَاتِب فِي كتاب أَخْبَار الْحجَّاج أَن الْحجَّاج لما قتل سعيد بن جُبَير رَحمَه الله وَكَانَ من خِيَار التَّابِعين وَجرى بَينهمَا كَلاَم كثير وَأمر بِهِ

فذبح بَين يَدَيْه وَخرج منْهُ دم كثير استكثره وهاله .

فَقَالَ الْحَجَّاج لتياذوق طبيبه مَا هَذَا قَالَ لاِجْتِمَاع نَفسه وَإِنَّهُ لم يجزع من الْمَوْت وَلاَ هاب مَا فعلته به .

وَغَيره تقتله وَهُوَ مفترق النَّفس فيقل دَمه لذَلِك .

وَمَات تياذوق بعد مَا أسن وَكبر وَكَانَت وَفَاته بواسط فِي نَحْو سنة تسعين لِلْهِجْرَة .

ولتياذوق من الْكتب كناش كَبِير أَلفه لاِبْنِه .

كتاب إيدال الأَْدْوِيَة وَكَيْفِيَّة دقها وإيقاعها وإذابتها وَشَيْء من تَفْسِير أَسمَاء الأَْدْوِيَة .

زَيْنَب طبيبة بني أود

كَانَت عارفة بِالأَْعْمَالِ الطبية خبيرة بالعلاج ومداواة آلام الْعين والجراحات مَشْهُورَة بَين الْعَرَب بذلك .

قَالَ أَبُو الْفرج الأَْصْبَهَانِيّ[1] فِي كتاب الأغاني الْكَبِير أخبرنَا مُحَمَّد بن خلف الْمَرْزُبَان قَالَ حَدثنِي حَمَّاد بن إِسْحَق عَن أَبِيه عَن كناسَة عَن أَبِيه عَن جده قَالَ أتيت امْرَأَة من بني أود لتكحلني من رمد كَانَ قد أصابني فكحلتني ثمَّ قَالَت اضْطجع قَلِيلا حَتَّى يَدُور الدَّوَاء فِي عَيْنَيْك فاضطجعت ثمَّ تمثلت قَول الشَّاعِر .

(أمخترمي ريب الْمنون وَلم أزر طَبِيب بني أود على النأي زينبا)

الطَّوِيل

فَضَحكت ثمَّ قَالَت أَتَدْرِي فِيمَن قيل هَذَا الشّعْر قلت لاَ قَالَت فِي وَالله قيل وَأَنا زَيْنَب الَّتِي عناها وَأَنا طبيبة بني أود .

أفتدري من الشَّاعِر قلت لاَ قَالَت عمك أَبُو سماك الأَْسدي .

جورجيوس بن جبْرَائِيل

كَانَت لَهُ خبْرَة بصناعة الطِّبّ وَمَعْرِفَة بالمداواة وأنواع العلاج وخدم بصناعة

(١) المؤرخ المسلم الرحالة أبو نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى ابن مهران مواليد أصفهان عام ٣٣٦ هـ ووفيات سنة ٤٣٠ هـ صاحب كتاب تاريخ أصبهان .

الطِّبّ الْمَنْصُور وَكَانَ حظيا عِنْده رفيع الْمنزلَة ونال من جهَته أَمْوَالاً جزيلة .

وَقد نقل للمنصور كتباً كَثِيرَة من كتب اليونانيين إِلَى الْعَرَبِيّ .

قَالَ فثيون الترجمان إِن أول مَا استدعى أَبُو جَعْفَر الْمَنْصُور(١) لجورجس هُوَ أَن الْمَنْصُور فِي سنة مائَة وثمان وَأَرْبَعين سنة لِلْهِجْرَةِ مرض وفسدت معدته وانقطعت شَهْوَته .

وَكلما عالجه الأَطِبَّاء ازْدَادَ مَرضه فَتقدم إِلَى الرّبيع(٢) بِأَن يجمع الأَطِبَّاء لمشاورتهم .

فَجَمعهُمْ فَقَالَ لَهُم الْمَنْصُور من تعرفُون من الأَطِبَّاء فِي سَائِر المدن طَبِيبا ماهرا فَقَالُوا لَيْسَ فِي وقتنا هَذَا أحد يشبه جورجس رَئِيس أطباء جنديسابور فَإِنَّهُ ماهر فِي الطِّبّ وَله مصنفات جليلة .

فانفذ الْمَنْصُور فِي الْوَقْت من يحضرهُ .

فَلَمَّا وصل الرَّسُول إِلَى عَامل الْبَلَد احضر جورجس وخاطبه بِالْخُرُوجِ مَعَه فَقَالَ لَهُ عَليّ هَهُنَا أَسبَاب وَلاَ بُد أَن تصبر عَليّ أَيَّامًا حَتَّى أخرج مَعَك فَقَالَ لَهُ إِن أَنْت خرجت معي فِي غَد طَوْعًا وَإِلاَّ أخرجتك كرها وَامْتنع عَلَيْهِ جورجس فَأمر باعتقاله وَلما اعتقل اجْتمع رُؤَسَاء الْمَدِينَة مَعَ المطران فأشاروا على جورجس بِالْخُرُوجِ فَخرج بعد أَن أوصى ابْنه بختيشوع بِأَمْر البيمارستان وأموره الَّتِي تتَعَلَّق بِهِ هُنَاكَ .

وَأخذ مَعَه إِبْرَاهِيم تِلْمِيذه وسرجس تِلْمِيذه فَقَالَ لَهُ ابْنه بختيشوع لاَ تدع هَهُنَا عِيسَى بن شهلا فَإِنَّهُ يُؤْذِي أهل البيمارستان .

فَترك سرجس وَأخذ عِيسَى مَعَه عوضا عَنهُ وَخرج إِلَى مَدِينَة السَّلاَم .

وَلما ودعه بختيشوع ابْنه قَالَ لَهُ لم لاَ تأخذني مَعَك فَقَالَ لاَ تعجل يَا بني .

فَإنَّك ستخدم الْمُلُوك وتبلغ من الأَحْوَال أجلهَا .

وَلما وصل جورجس إِلَى الحضرة أَمر الْمَنْصُور بإيصاله إِلَيْهِ .

وَلما وصل دَعَا إِلَيْهِ بِالْفَارِسِيَّة والعربية فتعجب الْخَلِيفَة من حسن منظره ومنطقه فأجلسه قدامه وَسَأَلَهُ عَن أَشْيَاء فَأَجَابَهُ عَنْهَا بِسُكُون فَقَالَ لَهُ قد ظَفرت مِنْك بِمَا

(١) أبو جعفر عبد الله المنصور، واسمه الكامل عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، ثاني خلفاء بني العباس وأقواهم .

(٢) الربيع بْن يونس أَبُو الفضل حاجب أبي جعفر المنصور

كنت أحبه واشتاقه وحدثه بعلته وَكَيف كَانَ ابْتِدَاؤُهَا .

فَقَالَ لَهُ جورجس أَنا أدبرك كَمَا تحب .

فَأمر الْخَلِيفَة لَهُ فِي الْوَقْت بخلعة جليلة وَقَالَ للربيع أنزلهُ فِي منزل جليل من دُورنَا وأكرمه كَمَا تكرم أخص الأَهْل .

وَلما كَانَ من غَد دخل إِلَيْهِ وَنظر إِلَى نبضه وَإِلَى قَارُورَة المَاء وَوَافَقَهُ على تَخْفيف الْغذَاء وَدبره تدبيرا لطيفا حَتَّى رَجَعَ إِلَى مزاجه الأول .

وَفَرح بِهِ الْخَلِيفَة فَرحا شَدِيدا وَأمر أَن يُجَاب إِلَى كل مَا يسْأَل .

وَلما كَانَ بعد أَيَّام قَالَ الْخَلِيفَة للربيع أرى هَذَا الرجل قد تغير وَجهه لاَ يكون قد منعته ممَّا يشربه على عَادَته .

قَالَ لَهُ الرّبيع لم نَأْذَن لَهُ أَن يدْخل إِلَى هَذِه الدَّار مشروبا فَأَجَابَهُ بقبيح وَقَالَ لَهُ لاَ بُد أَن تمْضِي بِنَفْسك حَتَّى تحضره من المشروب كل مَا يُريدهُ فَمضى الرّبيع إِلَى قطربل وَحمل مِنْهَا إِلَى غَايَة مَا أمكنه من الشَّرَاب الْجيد .

وَلما كَانَ بعد سنتَيْن قَالَ الْخَلِيفَة لجورجس أرسل من يحضر ابْنك إِلَيْنَا فقد بَلغنِي إِنَّه مثلك فِي الطِّبّ .

فَقَالَ لَهُ جورجس جندي سَابُور إِلَيْهِ محتاجة .

وَإِن فَارقهَا إِن فسد أَمر البيمارستان .

وَكَانَ أهل الْمَدِينَة إِذا مرضوا سَارُوا إِلَيْهِ .

وَهَهُنَا معي تلامذة قد ربيتهم وخرجتهم فِي الصِّنَاعَة حَتَّى أَنهم مثلي .

فَأمر الْخَلِيفَة بإحضارهم فِي غَد ذَلِك الْيَوْم ليختبرهم .

فَلَمَّا كَانَ من غَد أَخذ مَعَه عِيسَى بن شهلا وأوصله إِلَيْه .

فَسَأَلَهُ الْخَلِيفَة عَن أَشْيَاء وجده فِيهَا حاد المزاج حاذقا بالصناعة .

فَقَالَ الْخَلِيفَة لجورجس مَا أحسن مَا وصفت هَذَا التلميذ وعلمته .

قَالَ فثيون وَلما كَانَ فِي سنة إِحْدَى وَخمسين وَمِائَة دخل جورجس إِلَى الْخَلِيفَة فِي يَوْم الميلاد فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَة أَي شَيْء آكل الْيَوْم فَقَالَ لَهُ مَا تُرِيدُ .

وَخرج من بَين يَدَيْهِ فَلَمَّا بلغ الْبَاب رده وَقَالَ لَهُ من يخدمك هَهُنَا فَقَالَ لَهُ تلامذتي .

فَقَالَ لَهُ سَمِعت أَنه لَيست لَك امْرَأَة .

فَقَالَ لَهُ لي زَوْجَة كَبِيرَة ضَعِيفَة وَلاَ تقدر تنْتَقل إِلَيّ من موضعهَا .

وَخرج من حَضرته وَمضى إِلَى الْبيعَة .

فَأمر الْخَلِيفَة خادمه سالما أَن يخْتَار من الْجَوَارِي الروميات الحسان ثَلَاثًا ويحملهن إِلَى جورجس مَعَ ثَلَاثَة آلَاف دِينَار فَفعل ذَلِك .

وَلما انْصَرف جورجس إِلَى منزله عرفه عِيسَى بن شهلا بِمَا جرى وَأرَاهُ الْجَوَارِي فَأنْكر أمورهن وَقَالَ لعيسى تِلْمِيذه يَا تلميذ الشَّيْطَان لم أدخلت هَؤُلَاءِ منزلي امْضِ ردهن إِلَى صاحبهن ثمَّ ركب جورجس وَعِيسَى وَمَعَهُ الْجَوَارِي إِلَى دَار الْخَلِيفَة وردهن على الْخَادِم .

فَلَمَّا اتَّصل الْخَبَر بالمنصور أحضرهُ وَقَالَ لَهُ لم رددت الْجَوَارِي قَالَ لَهُ هَؤُلَاءِ لَا يكونُونَ معي فِي بَيت وَاحِد لأَنا نَحن معشر النَّصَارَى لَا نتزوج بِأَكْثَرَ من امْرَأَة وَاحِدَة .

وَمَا دَامَت الْمَرْأَة فِي الْحَيَاة لَا نَأْخُذ غَيرهَا .

فَحسن موقعه من الْخَلِيفَة وَأمر فِي وقته أَن يدْخل جورجس إِلَى حظاياه وَحرمه ويخدمهن .

وَزَاد مَوْضِعه فِي عينه وَعظم مَحَله .

قَالَ فثيون وَلما كَانَ فِي سنة مائَة واثنتين وَخمسين سنة مرض جورجس مَرضا صعبا .

وَكَانَ الْخَلِيفَة يُرْسل إِلَيْهِ فِي كل يَوْم الخدم حَتَّى يعرف خَبره .

وَلما اشْتَدَّ مرض جورجس أَمر بِهِ الْخَلِيفَة فَحمل على سَرِير إِلَى دَار الْعَامَّة وَخرج إِلَيْهِ الْخَلِيفَة مَاشِيا وَرَاءه وَسَأَلَهُ عَن خَبره .

فَبكى جورجس بكاء شَدِيدا وَقَالَ لَهُ إِن رأى أَمِير الْمُؤمنِينَ أَطَالَ الله بَقَاءَهُ أَن يَأْذَن لي فِي الْمصير إِلَى بلدي لأنظر إِلَى أَهلِي وَوَلَدي وَإِن مت قبرت مَعَ آبَائِي .

فَقَالَ الْخَلِيفَة يَا جورجس اتَّقِ الله وَأسلم وَأَنا أضمن لَك الْجنَّة .

قَالَ جورجس أَنا على دين آبَائِي أَمُوت وَحَيْثُ يكون آبَائِي أحب أَن أكون .

إِمَّا فِي الْجنَّة أَو فِي جَهَنَّم .

فَضَحِك الْخَلِيفَة من قَوْله وَقَالَ لَهُ وجدت رَاحَة عَظِيمَة فِي جسمي مُنْذُ رَأَيْتُك وَإِلَى هَذِه الْغَايَة .

وَقد تخلصت من الْأَمْرَاض الَّتِي كَانَت تلحقني .

قَالَ لَهُ جورجس إِنِّي أخلف بَين يَديك عِيسَى وَهُوَ تربيتي .

فَأمر الخْلِيفَة أَن يخرج جورجس إِلَى بَلَده وَأَن يدْفع إِلَيْهِ عشرَة آلَاف دينَار .

وانفذ مَعَه خَادمًا وَقَالَ إِن مَاتَ فِي طَرِيقه فاحمله إِلَى منزله ليدفن هُنَاكَ كَمَا آثر .

فوصل إِلَى بَلَده حَيا .

وَحصل عِيسَى بِي شهلا فِي الخْدمَة وَبسط يَده على المطارنة والأساقفة يَأْخُذ أَمْوَالهم لنَفسه حَتَّى إِنَّه كتب إِلَى مطران نَصيبين كتابا يلْتَمس مِنْهُ فِيهِ من آلَات الْبيعَة أَشْيَاء جليلة الْمِقْدَار ويتهدده مَتى أَخّرهَا عَنهُ .

وَقَالَ فِي كِتَابه إِلَى المطران أَلَسْت تعلم أَن أَمر الْملك بيَدي إِن شِئْت أمرضته وَإِن شِئْت عافيته .

فعندما وقف المطران على الْكتاب احتال فِي التَّوَصُّل حَتَّى وافى الرّبيع وَشرح لَهُ صورته واقرأه الْكتاب .

فأوصله الرّبيع إِلَى الخْلِيفَة حَتَّى عرف شرح مَا جرى .

فَأمر بنَفْي عِيسَى بن شهلا بعد أَن أَخذ مِنْهُ جَمِيع مَا ملكه .

ثمَّ قَالَ الخْلِيفَة للربيع سل عَن جورجس فَإِن كَانَ حَيا فانفذ من يحضرهُ وَإِن كَانَ قد مَاتَ فَاحْضُرْ ابْنه .

فَكتب الرّبيع إِلَى الْعَامِل بجندي سَابُور فِي ذَلِك وَاتفقَ أَن جورجس سقط فِي تِلْكَ الأْيَّام من السَّطْح وَضعف ضعفا فَلَمَّا خاطبه أَمِير الْبَلَد قَالَ لَهُ أَنا أنفذ إِلَى الخْلِيفَة طَبِيبا ماهرا يَخْدمه إِلَى أَن أصلح وأتوجه إِلَيْهِ .

واحضر إِبْرَاهِيم تِلْمِيذه وأنفذه إِلَى الأْمِير مَعَ كتاب شرح فِيهِ حَال جورجس إِلَى الرّبيع .

فَلَمَّا وصل إِلَى الرّبيع أوصله إِلَى الخْلِيفَة وخاطبه الخْلِيفَة فِي أَشْيَاء فَوَجَدَهُ فِيهَا حاد المزاج جيد الجْواب فقربه وأكرمه وخلع عَلَيْهِ ووهب لَهُ مَالا واستخلصه لخدمته وَلم يزل فِي الخْدمَة إِلَى أَن مَاتَ الْمَنْصُور .

ولجورجس من الْكتب كناشه الْمَشْهُور وَنَقله حنين بن إِسْحَاق من السرياني إِلَى الْعَرَبِيّ .

بختيشوع بن جورجس

وَمعنى بختيشوع عبد الْمَسِيح لأِن فِي اللُّغَة السريانية البخت العَبْد ويشوع عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام .

وَكَانَ بختيشوع يلْحق بِأَبِيهِ فِي مَعْرِفَته بصناعة الطِّبّ ومزاولته لأعمالها وخدم هرون الرشيد وتميز فِي أَيَّامه .

قَالَ فثيون الترجمان لما مرض مُوسَى الْهَادِي[1] أرسل إِلَى جندي سَابُور من يحضر لَهُ بختيشوع فَمَاتَ قبل قدوم بختيشوع وَكَانَ من خَبره أَنه جمع الْأَطِبَّاء وهم أَبُو قُرَيْش عِيسَى وَعبد الله الطيفوري وداؤد بن سرابيون وَقَالَ لَهُم أَنْتُم تأخذون أَمْوَالِي وجوائزي وَفِي وَقت الشدَّة تتقاعدون بِي .

فَقَالَ لَهُ أَبُو قُرَيْش علينا الاجْتِهَاد وَالله يهب السَّلامَة .

فاغتاظ من هَذَا فَقَالَ لَهُ الرّبيع قد وصف لنا أَن بنهر صَرْصَر طَبِيبا ماهرا يُقَال لَهُ عبد يشوع بن نصر فَأمر بإحضاره وَبِأَن تضرب أَعْنَاق الْأَطِبَّاء .

فَلم يفعل الرّبيع هَذَا لعلمه باختلال عقله من شدَّة الْمَرَض وَلأَنَّهُ كَانَ آمنا مِنْهُ .

وَوجه إِلَى صَرْصَر حَتَّى أحضر الرجل وَلما دخل على مُوسَى قَالَ لَهُ رَأَيْت الْقَارُورَة قَالَ نعم يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ وَهَا أَنا أصنع لَك دَوَاء تَأْخُذهُ وَإِذا كَانَ على تسع سَاعَات تَبرأ وتتخلص وَخرج من عِنْده وَقَالَ للأطباء .

لاَ تشْغَلُوا قُلُوبكُمْ فَإِنَّكُم فِي هَذَا الْيَوْم تنصرفون إِلَى بُيُوتكُمْ .

وَكَانَ الْهَادِي قد أَمر بِأَن يدْفع إِلَيْهِ عشرَة آلَاف دِرْهَم ليبتاع لَهُ بهَا الدَّوَاء فَأَخذهَا وَوجه بهَا إِلَى بَيته وأحضر أدوية وَجمع الْأَطِبَّاء بِالْقربِ من مَوضع الْخَلِيفَة وَقَالَ لَهُم دقوا حَتَّى يسمع وتسكن نَفسه فَإِنَّكُم فِي آخر النَّهَار تتخلصون .

وَكَانَ كل سَاعَة يَدْعُو بِهِ ويسأله عَن الدَّوَاء فَيَقُول لَهُ هوذا تسمع صَوت الدق فيسكت .

وَلما كَانَ بعد تسع سَاعَات مَاتَ وتخلص الْأَطِبَّاء وَهَذَا فِي سنة سبعين وَمِائَة .

قَالَ فثيون وَلما كَانَ فِي سنة إِحْدَى وَسبعين وَمِائَة مرض هرون الرشيد من صداع

(١) أبو محمد موسى الهادي بن أبو عبد الله محمد المهدي بن أبو جعفر عبد الله المنصور من خلفاء الدولة العباسية ببغداد وهو الخليفة الرابع . ولد الهادي بالري سنة ١٤٤ هـ ٧٦٦م . ولي الخلافة بعد وفاة أبيه الخليفة أبو عبد الله محمد المهدي سنة ١٦٩ هـ ١٤/سبتمبر ٧٨٦م وخلفه أخيه الخليفة هارون الرشيد وعم كلا من : الخليفة أبو عبد الله محمد الأمين والخليفة أبو العباس عبد الله المأمون والخليفة أبو إسحاق محمد المعتصم بالله أولاد هارون الرشيد . اتبع وصية أبيه أن يقوم بقتل الزندقة فتتبعهم وقتل منهم خلقا كثيرا .

لحقه فَقَالَ ليحيى بن خَالد هَؤُلاَءِ الأُطبَّاء لَيْسَ يحسنون شَيْئا فَقَالَ لَهُ يحيى يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ أَبُو قُرَيْش طَبِيب وَالدك ووالدتك .

فَقَالَ لَيْسَ هُوَ بَصيرًا بالطب وَإِنَّمَا كَرَامَتِي لَهُ لقديم حرمته .

فَيَنْبَغِي أَن تطلب لي طَبِيبا ماهرا .

فَقَالَ لَهُ يحيى بن خَالِد إِنَّه لما مرض أَخُوك مُوسَى أرسل والدك إِلَى جندي سَابُور حَتَّى أحضر رجلا يعرف ببختيشوع .

قَالَ لَهُ فَكيف تَركه يمْضِي فَقَالَ لما رأى عِيسَى أَبَا قُرَيْش ووالدتك يحسدانه أذن لَهُ فِي الانْصِرَاف إِلَى بَلَده فَقَالَ لَهُ أرسل بالبريد حَتَّى يحملوه إِن كَانَ حَيا .

وَلما كَانَ بعد مُدَّة مديدة وافى بختيشوع الْكَبِير ابْن جورجس ووصل إِلَى هرون الرشيد ودعا لَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ وبالفارسية .

فَضَحِك الْخَلِيفَة وَقَالَ ليحيى بن خَالِد أَنْت منطقي فَتكلم مَعَه حَتَّى اسْمَع كَلاَمه .

فَقَالَ لَهُ يحيى بل نَدْعُو بالأطباء فدعى بهم وهم أَبُو قُرَيْش عِيسَى وَعبد الله الطيفوري وَدَاوُد بن سرابيون وسرجس .

فَلَمَّا رَأَوْا بختيشوع قَالَ أَبُو قُرَيْش يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ لَيْسَ فِي الْجَمَاعَة من يقدر على الْكَلاَم مَعَ هَذَا لأَنَّهُ كون الْكَلاَم هُوَ وَأَبوهُ وجنسه فلاسفة فَقَالَ الرشيد لبَعض الخدم أحضرهُ مَاء دَابَّة حَتَّى نجربه فَمضى الْخَادم وأحضره قَارُورَة المَاء .

فَلَمَّا رَآهُ قَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ لَيْسَ هَذَا بَوْل إِنْسَان .

قَالَ لَهُ أَبُو قُرَيْش كذبت هَذَا مَاء حظية الْخَلِيفَة .

فَقَالَ لَهُ بختيشوع لَك أَقُول أَيهَا الشَّيْخ الْكَرِيم لم يبل هَذَا إِنْسَان الْبَتَّةَ .

وَإِن كَانَ الأَمر على مَا قلت فلعلها صَارَت بَهِيمَة .

فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَة من أَيْن علمت أَنه لَيْسَ ببول إِنْسَان قَالَ لَهُ بختيشوع لأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ قوام بَوْل النَّاس وَلاَ لَونه وَلاَ رِيحه .

قَالَ لَهُ الْخَلِيفَة بَين يَدي من قَرَأت قَالَ لَهُ قُدَّام أبي جورجس قَرَأت .

قَالَ لَهُ الأَطبَّاء أَبوهُ كَانَ اسْمه جورجس وَلم يكن مثله فِي زَمَانه وَكَانَ يُكرمهُ أَبُو جَعْفَر الْمَنْصُور إِكْرَاما شَدِيدا ثمَّ الْتفت الْخَلِيفَة إِلَى بختيشوع فَقَالَ لَهُ مَا ترى أَن نطعم صَاحب هَذَا المَاء فَقَالَ شَعِيرًا جيدا .

فَضَحِك الرشيد ضحكا شَدِيدا وَأمر فَخلع عَلَيْهِ خلعة حَسَنَة جليلة ووهب لَهُ

مَالا وافرا .

وَقَالَ بختيشوع يكون رَئِيس الأَطِبَّاء كلهم وَله يسمعُونَ ويطيعون .

ولبختيشوع بن جورجس من الْكتب كناش مُخْتَصر .

كتاب التَّذْكِرَة أَلفه لابْنِهِ جِبْرَائِيل .

جِبْرَائِيل بن بختيشوع بن جورجس

كَانَ مَشْهُورا بِالْفَضْلِ جيد التَّصَرُّف فِي المداواة .

عالي الهمة سعيد الْجد حظيا عِنْد الْخُلَفَاء رفيع الْمنزلَة عِنْدهم كثيري الإِحْسَان إِلَيْهِ .

وَحصل من جهتهم من الْأَمْوَال مَا لم يحصله غَيره من الأَطِبَّاء .

قَالَ فثيون الترجمان[1] لما كَانَ فِي سنة خمس وَسبعين وَمِائَة مرض جَعْفَر بن يحيى بن خَالِد بن برمك[2] فَتقدم الرشيد إِلَى بختيشوع أَن يَتَوَلَّى خدمته ومعالجته .

وَلما كَانَ فِي بعض الأَيَّام قَالَ لَهُ جَعْفَر أُرِيد أَن تخْتَار لي طَبِيبا ماهرا أكْرمه وَأحسن إِلَيْهِ .

قَالَ لَهُ بختيشوع ابْني جِبْرَائِيل أمهر مني وَلَيْسَ فِي الأَطِبَّاء من يشاكله .

فَقَالَ لَهُ أحضرنيه .

وَلما أحضرهُ عالجه فِي مُدَّة ثَلَاثَة أَيَّام وبرأ فَأَحبهُ جَعْفَر مثل نَفسه .

وَكَانَ لاَ يصبر عَنهُ سَاعَة وَمَعَهُ يَأْكُل وَيشْرب .

وَفِي تِلْكَ الأَيَّام تمطت حظية الرشيد وَرفعت يَدهَا فَبَقيت منبسطة لاَ يُمكنهَا ردهَا .

والأطباء يعالجونها بالتمريخ والإدهان وَلاَ ينفع ذَلِك شَيْئا .

(١) فثيون الترجمان هو من الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي

(٢) هو أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك بن جامامش بن بشتاسف البرمكي وزير هارون الرشيد وحامل خاتم السلطة .كان أبوه قد أرسله إلى القاضي أبو يوسف لتعليمه وتفقيهه . اشتهر بمكانته من هارون الرشيد وعلو قدره ونفاذ كلمته .

فَقَالَ الرشيد لجَعْفَر بن يحيى قد بقيت هَذه الصبية بعلتها .

قَالَ لَهُ جَعْفَر لي طَبيب ماهر وَهُوَ ابْن بختيشوع نَدْعُوهُ ونخاطبه فِي معنى هَذَا الْمَرَض فَلَعَلَّ عِنْده حيلَة فِي علاجه .

فَأمر بإحضاره وَلما حضر قَالَ لَهُ الرشيد مَا اسْمك قَالَ جِبْرَائِيل .

قَالَ لَهُ أَي شَيْء تعرف من الطِّبّ فَقَالَ أبرد الْحَار وأسخن الْبَارِد وأرطب الْيَابِس وأيبس الرطب الْخَارِج عَن الطَّبْع .

فَضَحِك الْخَلِيفَة وَقَالَ هَذَا غَايَة مَا يحْتَاج إِلَيْهِ فِي صناعَة الطِّبّ .

ثمَّ شرح لَهُ حَال الصبية فَقَالَ لَهُ جِبْرَائِيل إِن لم يسْخط عَليّ أَمِير الْمُؤمنِينَ فلهَا عِنْدِي حيلَة .

فَقَالَ لَهُ وَمَا هِيَ قَالَ تخرج الْجَارِيَة إِلَى هَهُنَا بِحَضْرَة الْجمع حَتَّى أعمل مَا أريده وتمهل عَليّ وَلَا تعجل بالسخط .

فَأمر الرشيد بإحضار الْجَارِيَة فَخرجت .

وَحين رَآهَا جِبْرَائِيل عدا إِلَيْهَا ونكس رَأسه ومسك ذيلها كَأَنَّهُ يُرِيد أَن يكشفها فانزعجت الْجَارِيَة وَمن شدَّة الْحيَاء والانزعاج استرسلت أعضاؤها وبسطت يَديهَا إِلَى أَسْفَل ومسكت ذيلها .

فَقَالَ جِبْرَائِيل قد برئت يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ .

فَقَالَ الرشيد للْجَارِيَة أبسطي يَديك يمنة ويسرة فَفعلت ذَلِك وَعجب الرشيد وكل من كَانَ بَين يَدَيْهِ .

وَأمر الرشيد فِي الْوَقْت لجبرائيل بِخَمْسِمِائَة ألف دِرْهَم وأحبه مثل نَفسه وَجعله رَئِيسا على جَمِيع الْأَطِبَّاء .

وَلما سُئِلَ جِبْرَائِيل عَن سَبَب الْعلَّة قَالَ هَذِه الْجَارِيَة انصب إِلَى أعضائها وَقت المجامعة خلط رَقِيق بالحركة وانتشار الْحَرَارَة وَلأَجل أَن سُكُون حَرَكَة الْجِمَاع تكون بَغْتَة جمدت الفضلة فِي بطُون جَمِيع الأعصاب وَمَا كَانَ يحلهَا إِلَّا حَرَكَة مثلهَا .

فاحتلت حَتَّى انبسطت حرارتها وانحلت الفضلة .

قَالَ فثيون وَكَانَ مَحل جِبْرَائِيل يقوى فِي كل وَقت حَتَّى أَن الرشيد قَالَ لأَصْحَابه كل من كَانَت لَهُ إِلَيّ حَاجَة فليخاطب بهَا جِبْرَائِيل لأَنِّي أفعل كل مَا يسألني فِيهِ ويطلبه مني .

فَكَانَ القواد يقصدونه فِي كل أُمُورهم وحاله تتزايد .

ومنذ يَوْم خدم الرشيد وَإِلَى أَن انْقَضتْ خمس عشرَة سنة لم يمرض الرشيد فحظي عِنْده .

وَفِي آخر أَيَّام الرشيد عِنْد حُصُوله بطوس مرض المرضة الَّتِي توفّي فِيهَا .

وَلما قوي عَلَيْه الْمَرَض قَالَ لجبرائيل لم لاَ تبرئني فَقَالَ لَهُ قد كنت أنهاك دَائِما عَن التَّخْلِيط وَأَقُول لَك قَدِيما أَن تخفف من الجْمَاع فَلاَ تسمع مني .

والآن سَأَلتك أَن ترجع إِلَى بلدك فَأَنَّهُ أوفق لمزاجك فَلم تقبل وَهَذَا مرض شَدِيد وَأَرْجُو أَن يمن الله بعافيتك .

فَأمر بحبسه .

وَقيل لَهُ إِن بِفَارِس أسقفا يفهم الطِّبّ فَوجه من يحضرهُ إِلَيْهِ وَلما حَضَره وَرَآهُ قَالَ لَهُ .

الَّذِي عالجك لم يكن يفهم الطِّبّ .

فَزَاد ذَلِك أبعاد جِبْرَائِيل .

وَكَانَ الْفضل بَين الرّبيع يحب جِبْرَائِيل وَرَأى أَن الأسقف كَذَّاب يُرِيد إِقَامَة السُّوق فَأحْسن فِيمَا بَينه وَبَين جِبْرَائِيل .

وَكَانَ الأسقف يعالج الرشيد ومرضه يزِيد وَهُوَ يَقُول لَهُ أَنْت قريب من الصِّحَّة .

ثمَّ قَالَ لَهُ هَذَا الْمَرَض كُله من خطأ جِبْرَائِيل .

فَتقدم الرشيد بقتْله فَلم يقبل مِنْهُ الْفضل بن الرّبيع لأَنَّهُ كَانَ يئس من حَيَاته فاستبقى جِبْرَائِيل .

وَلما كَانَ بعد أَيَّام يسيرَة مَاتَ الرشيد وَلحق الْفضل بن الرّبيع فِي تِلْكَ الأَيَّام قولنج صَعب أيس الأَطِبَّاء مِنْهُ فعالجه جِبْرَائِيل بألطف علاج وَأحسنه فبرأ الْفضل وازدادت محبته لَهُ وعجبه بِهِ .

قَالَ فثيون وَلما تولى مُحَمَّد الأمين وافى إِلَيْهِ جِبْرَائِيل فَقبله أحسن قبُول وأكرمه .

ووهب لَهُ أَمْوَالاً جليلة أَكثر ممَّا كَانَ أَبوهُ يهب لَهُ .

وَكَانَ الأْمين لاَ يَأْكُل وَلاَ يشرب إِلاَّ بِإِذْنِه فَلَمَّا كَانَ من الأْمين مَا كَانَ وَملك الأْمر الْمَأْمُون كتب إِلَى الْحسن بن سهل وَهُوَ يخلفه بالحضرة بِأَن يقبض على جِبْرَائِيل ويحبسه لأَنَّهُ ترك قصره بعد موت أَبِيه الرشيد وَمضى إِلَى أَخِيه الأْمين .

فَفعل الْحسن بن سهل هَذَا .

وَلما كَانَ فِي سنة اثْنَتَيْنِ وَمِائَتَيْنِ مرض الْحسن بن سهل مَرضا شَدِيدا وعالجه

الأُطِبَّاء فَلم ينْتَفع بذلك فَأخْرج جِبْرَائِيل من الْحَبْس حَتَّى عالجه وبرأ فِي أَيَّام يسيرَة فوهب لَهُ سرا مَالا وافرا .

وَكتب إِلَى الْمَأْمُون يعرفهُ خبر علته وَكَيف برأ على يَد جبرئيل ويسأله فِي أمره .

فَأَجَابَهُ بالصفح عَنهُ .

قَالَ فثيون وَلما دخل الْمَأْمُون الحضرة فِي سنة خمس وَمِائَتَيْنِ أَمر بِأَن يجلس جِبْرَائِيل فِي منزله وَلاَ يخْدم وَوجه من أحضر ميخائيل المتطبب وَهُوَ صهر جِبْرَائِيل وَجعله مَكَانَهُ وأكرمه إِكْرَاما وافرا كيادا لجبرائيل .

قَالَ وَلما كَانَ فِي سنة عشر وَمِائَتَيْنِ مرض الْمَأْمُون مَرضا صعبا وَكَانَ وُجُوه الأُطِبَّاء يعالجونه وَلاَ يصلح فَقَالَ ليمخائيل الأَدْوِيَة الَّتِي تُعْطِينِي تزيدني شرا فاجمع الأُطِبَّاء وشاورهم فِي أَمْرِي .

فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ أَبُو عِيسَى يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ نحضر جِبْرَائِيل فَإِنَّهُ يعرف مزاجاتنا مُنْذُ الصِّبَا فتغافل عَن كَلاَمه .

وأحضر أَبُو إِسْحَق أَخُوهُ يوحنا بن ماسويه فثلبه ميخائيل طبيبه وَوَقع فِيهِ وَطعن عَلَيْه .

فَلَمَّا ضعفت قُوَّة الْمَأْمُون عَن أَخذ الأَدْوِيَة أذكروه بجبرائيل فَأمر بإحضاره .

وَلما حضر غير تَدْبيره كُله فاستقل بعد يَوْم وَبعد ثَلاَثَة أَيَّام صلح .

فسر بِه الْمَأْمُون سُرُورًا عَظِيما .

وَلما كَانَ بعد أَيَّام يسيرَة صلح صلاحا تَاما وَأذن لَهُ جِبْرَائِيل فِي الأَكل وَالشرب فَفعل ذَلِك .

وَقَالَ لَهُ أَبُو عِيسَى أَخُوهُ وَهُوَ جَالس مَعَه على الشّرْب مثل هَذَا الرجل الَّذِي لم يكن مثله وَلاَ يكون سَبيله أَن يكرم .

فَأمر لَهُ الْمَأْمُون بِأَلف ألف دِرْهَم وبألف كرّ حِنْطَة ورد عَلَيْه سَائِر مَا قبض مِنْهُ من الأَمْلاَك والضياع وَصَارَ إِذا خاطبه كناه بِأبي عِيسَى جِبْرَائِيل وأكرمه زِيَادَة على مَا كَانَ أَبوهُ يُكرمهُ .

وانْتهى بِهِ الأَمر فِي الْجلالَة إِلَى أَن كَانَ كل من تقلد عملا لاَ يخرج إِلَى عمله إِلاَّ بعد أَن يلقى جِبْرَائِيل ويكرمه .

وَكَانَ عِنْد الْمَأْمُون مثل أَبِيه وَنقص مَحل ميخائيل الطَّبِيب صهر جِبْرَائِيل وانحط .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهيم دخلت على جِبْرَائِيل دَاره الَّتِي بالميدان فِي يَوْم من تموز وَبَين يَدَيْهِ الْمَائِدَة وَعَلَيْهَا فراخ طيور مسرولة كبار وَقد عملت كردناجا بفلفل وَهُوَ يَأْكُل مِنْهَا وطالبني بِأَن آكل مَعَه .

فَقلت لَهُ كَيفَ آكل مِنْهَا فِي مثل هَذَا الْوَقْت من السّنة وسني سنّ الشَّبَاب فَقَالَ لي مَا الحمية عِنْدك فَقلت تجنب الأغذية الرَّديئَة .

فَقَالَ لي غَلطت لَيْسَ مَا ذكرت حمية .

ثمَّ قَالَ لاَ أعرف أحدا عظم قدره وَلاَ صغر يصل إِلَى الإِمْسَاك عَن غذَاء من الأغذية كل دهره إلاَّ أَن يكون يبغضه وَلاَ تتوق نَفسه إِلَيْهِ .

لأَن الإِنْسَان قد يمسك عَن أكل الشَّيْء بُرْهَة من دهره ثمَّ يضطره إِلَى أكله عدم أَدَم سواهُ لعلَّة من الْعِلَل أَو مساعدة لعليل يكون عِنْده أَو صديق يحلف عَلَيْهِ أَو شَهْوَة تتجدد لَهُ .

فَمَتَى أكله وَقد أمسك عَن أكله مِنْهُ الْمدَّة الطَّوِيلَة لم تقبله طَبِيعَته ونفرت مِنْهُ وأحدث ذَلِك فِي بدن آكله مَرضا كثيرا وَرُبمَا أَتَى على نَفسه

والأصلح للأبدان تمرينها على أكل الأغذية الرَّديئَة حَتَّى تألفها .

وَأَن يَأْكُل مِنْهَا فِي كل يَوْم شَيْئا وَاحِدًا وَلاَ يجمع أكل شَيْئَيْنِ رديئين فِي يَوْم وَاحِد وَإِذا أكل من بعض هَذِه الأَشْيَاء فِي يَوْم لم يعاود أكله فِي غَد ذَلِك الْيَوْم .

فَإِن الأَبدَان إِذا مرنت على أكل هَذِه الأَشْيَاء ثمَّ اضْطر الإِنْسَان إِلَى الإِكْثَار من أكل بَعْضهَا لم تنفر الطبيعة مِنْهُ .

فقد رَأينَا الأَدْوِيَة المسهلة إِذا أدمنها مدمن وألفها بدنه قل فعلهَا وَلم تسهل .

وَهَؤُلاَء أهل الأَندلس إِذا أَرَادَ أحدهم إسهال طَبِيعَته أَخذ من السقمونيا وزن ثَلاَثَة دَرَاهِم حَتَّى تلين طَبِيعَته مِقْدَار مَا يلينها نصف دِرْهَم فِي بلدنا وَإِذا كَانَت الأَبدَان تألف الأَدْوِيَة حَتَّى تمنعها من فعلهَا فَهِيَ للأغذية وَإِن كَانَت رَدِيئَة أَشد إلفا .

قَالَ يُوسُف فَحدثت بِهَذَا الحَدِيث بختيشوع بن جِبْرَائِيل فَسَأَلَنِي إملاءه عَلَيْهِ وَكتبه عني بِخَطِّه .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهيم حَدثنِي سُلَيْمَان الْخَادِم الخُرَاسَانِي مولى الرشيد إِنَّه كَانَ وَاقِفًا على رَأس الرشيد بِالْحيرَة يَوْمًا وَهُوَ يتغدى إِذْ دخل عَلَيْهِ عون الْعَبَّادِيّ الْجَوْهَرِي وَهُوَ حَامِل صَحْفَة فِيهَا سَمَكَة منعوتة بالسمن فوضعها بَين يَدَيْهِ وَمَعَهَا محشي قد اتَّخذهُ لَهَا .

فحاول الرشيد أكل شَيْء مِنْهَا فَمَنعه من ذَلِك جِبْرَائِيل وغمز صَاحب الْمَائِدَة بعزلها لَهُ .

وفطن الرشيد فَلَمَّا رفعت الْمَائِدَة وَغسل الرشيد يَده خرج جِبْرَائيل عَن حَضرته .

قَالَ سُلَيْمَان فَأمرنِي الرشيد باتباعه وإخفاء شخصي عَنهُ وَأَن اتفقد مَا يعمله وارجع إِلَيْهِ بِخَبَرِهِ فَفعلت مَا أَمرنِي بِهِ وأحسب أَن أَمْرِي لم يسْتَتر عَن جِبْرَائِيل لما تبينت من تحرزه .

فَصَارَ إِلَى مَوضِع من دَار عون ودعا بالطَّعَام فأحضر لَهُ وَفِيه السَّمَكَة ودعا بِثَلَاثَة أقداح من فضَّة فَجعل فِي وَاحِد قِطْعَة مِنْهَا وصب عَلَيْهِ خمرًا من خمر طيرناباذ بِغَيْر مَاء وَقَالَ هَذَا أكل جِبْرَائِيل .

وَجعل فِي قدح آخر قِطْعَة وصب عَلَيْهَا مَاء بثلج وَقَالَ هَذَا أكل أَمِير الْمُؤمنِينَ إِن لم يخلط السّمك بِغَيْرِهِ .

وَجعل فِي الْقدح الثَّالِث قِطْعَة من السّمك وَمَعَهَا قطعا من اللَّحْم من ألوان مُخْتَلفَة وَمن شواء وحلواء وبوارد وفراريج وَبقول وصب عَلَيْهِ مَاء بثلج وَقَالَ هَذَا طَعَام أَمِير الْمُؤمنِينَ إِن خلط السّمك بِغَيْرِهِ .

وَرفع الثَّلَاثَة الأقداح إِلَى صَاحب الْمَائِدَة وَقَالَ احتفظ بهَا إِلَى أَن ينتبه أَمِير الْمُؤمنِينَ من قائلته .

قَالَ سُلَيْمَان الْخَادِم ثمَّ أقبل جِبْرَائيل على السَّمَكَة فَأكل مِنْهَا حَتَّى تضلع .

وَكَانَ كلما عَطش دَعَا بقدح مَعَ الْخمر الصّرْف فشربه ثمَّ نَام .

فَلَمَّا انتبه الرشيد من نَومه دَعَانِي فَسَأَلَنِي عَمَّا عِنْدِي من خبر جِبْرَائِيل وَهل أكل من السَّمَكَة شَيْئا أم لم يَأْكُل فَأَخْبَرته بالْخَبَر فَأمر بِإِحْضَار الثَّلَاثَة الأقداح فَوجدَ الَّذِي صب عَلَيْهِ الْخمر الصّرْف قد تفتت وَلم يبْق مِنْهُ شَيْء .

وَوجد الَّذِي صب عَلَيْهِ المَاء بالثلج قد رَبًّا وَصَارَ على أَكثر من الضعْف ممَّا كَانَ وَوجد الْقدح الَّذِي السّمك وَاللَّحم فِيهِ قد تَغَيَّرت رَائِحَته وَحدثت لَهُ سهوكة شَدِيدَة .

فَأمرنِي الرشيد بِحمْل خَمْسَة آلَاف دِينَار إِلَى جِبْرَائيل وَقَالَ من يلومني على محبَّة هَذَا الرجل الَّذِي يدبرني هَذَا التَّدْبِير .

فأوصلت إِلَيْه المَال .

وَقَالَ إِسْحَق بن عَليّ الرهاوي فِي كتاب أدب الطَّبِيب عَن عِيسَى بن ماسة أَن

يوحنا بن ماسويه أخبرهُ أَن الرشيد قَالَ لجبرائيل بن بختيشوع وَهُوَ حَاج بِمَكَّة يَا جِبْرَائيل علمت مرتبتك عِنْدي .

قَالَ يَا سَيِّدي وَكَيفَ لاَ أعلم قَالَ لَهُ دَعَوْت لَك وَالله فِي الْموقف دُعَاء كثيرا ثمَّ الْتفت إِلَى بني هَاشم فَقَالَ عَسى أنكرتم قولي لَهُ فَقَالُوا يَا سيدنَا ذمِّي فَقَالَ نعم وَلَكِن صَلاَح بدني وقوامه بِهِ وَصَلاَح الْمُسلمين بِي .

فصلاحهم بصلاحه وبقائه .

فَقَالُوا صدقت يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ .

وقَالَ جِبْرَائيل بن بختيشوع المتطبب اشْتريت ضَيْعَة بسبعماية ألف دِرْهَم فنقدت بعض الثّمن وَتعذر عَليّ بعضه فَدخلت على يحيى بن خَالد وَعِنْده وَلَده وَأَنا أفكر .

فَقَالَ مَالِي أَرَاك مفكرا فَقلت اشْتريت ضَيْعَة بسبعمائة ألف فنقدت بعض الثّمن وَتعذر عَليّ بعضه .

قَالَ فَدَعَا بالدواة وَكتب يعْطى جِبْرَائيل سَبْعمائة ألف دِرْهَم .

ثمَّ دفع إِلَى كل وَاحِد من وَلَده فَوَقع فِيهِ ثلثمائة ألف .

قَالَ فَقلت جعلت فدَاك قد أدّيت عَامَّة الثّمن وَإِنَّمَا بَقِي أَقَله .

قَالَ اصرف ذَلِك فِيمَا يَنُوبك ثمَّ صرت إِلَى دَار أَمِير الْمُؤمنِينَ .

فَلَمَّا رَآنِي قَالَ مَا أَبْطَأَ بك قلت يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ كنت عِنْد أَبِيك وأخوتك فَفَعَلُوا بِي كَذَا وَكَذَا وَإِنَّمَا ذَلِك لخدمتي لَك .

قَالَ فَمَا حَالي أَنا ثمَّ دَعَا بدابته فَركب إِلَى يحيى فَقَالَ يَا أَبَت أَخْبرنِي جِبْرَائِيل بِمَا كَانَ فَمَا حَالي أَنا من بَين ولدك فَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ مر بِمَا شِئْت يحمل إِلَيْهِ .

فأمر لي بِخَمْسمائَة ألف .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم الحاسب الْمَعْرُوف بِابْن الداية كَانَ لأم جَعْفَر بنت أبي الْفضل فِي قصر عِيسَى بن عَليّ الَّذِي كَانَت تسكنه مجْلِس لاَ يجلس فِيهِ إِلاَّ الْحساب والمتطببون وَكَانَت لاَ تشْتَكي علّة إِلَى متطبب حَتَّى يحضر جَمِيع أهل الصناعتين وَيكون مقامهم فِي ذَلِك الْمجْلس إِلَى وَقت جلوسها فَكَانَت تجْلِس لَهُم فِي أحد موضعين إِمَّا عِنْد الشباك الَّذِي على الدّكان الْكَبِير المحاذي للشباك وللباب الأول من أَبْوَاب الدَّار أَو عِنْد الْبَاب الصَّغِير المحاذي لمَسْجِد الدَّار .

فَكَانَ الْحساب والمتطببون يَجْلِسُونَ من خَارج الْموضع الَّذِي تجْلِس فِيهِ .

ثمَّ تَشْتَكِي مَا تَجِد فيتناظر المتطببون فِيمَا بَينهم حَتَّى يجتمعوا على الْعلَّة

والعـلاج فَإِن كَـانَ بَينهم اخْـتِـلاَف دخل الْحِـسَـاب بَينهم وَقَـالُوا بِتَـصْـدِيق الْمُصِـيب عِنْدهم .

ثمَّ تسْأَل الْحساب عَن اخْتِيَار وَقت لذَلِك العلاج .

فَإِن اجْتَمعُوا على وَقت وَإِلاَّ نظر المتطببون فِيمَا بَين الْحساب وحكموا لألزمهم الْقيَاس فاعتلت عِنْد اجتماعها على الْحج آخر حجَّة حجتها علَّة أجمع متطببوها على إِخْرَاج الدَّم من سَاقيهَا بالحجامة وَاخْتَارَ الْحساب لَهَا يَوْمًا تحتجم فِيهِ وَكَانَ ذَلِك فِي شهر رَمَضَان فَلم يُمكن أَن تكون الْحجامَة إِلاَّ فِي آخر النَّهَار .

فَكَانَ ممَّن يخْتَلف إِلَيْهَا من الْحساب الْحسن بن مُحَمَّد الطوسي التَّمِيمِي الْمَعْرُوف بالأبح وَعمر بن الفرخان الطَّبَرِيّ وَشُعَيْب الْيَهُودِيّ .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم وَكنت مَتى عرضت للأبح عِلَّة أَو عاقه عَن حُضُور دَار أم جَعْفَر عائق حضرت عَنهُ .

فَحَضَرت ذَلِك الْمجْلس فِي الْوَقْت الَّذِي وَقع الاخْتِيَار على حجامة أم جَعْفَر فِيهِ فوافيت ابْنا لداؤد بن سرافيون حَدثا يشبه أَن يكون ابْن أقل من عشْرين سنة قد أمرت أم جَعْفَر بإحضاره مَعَ المتطببين ليتأدب بِحُضُور ذَلِك الْمجْلس وَقد تقدّمت إِلَى جَمِيع من يطِيف بهَا من المتطببين فِي تَعْلِيمه وتوقيفه عناية بِهِ لمَكَان أَبِيه من خدمتها فوافيته وَهُوَ يلاحي متطببا رَاهِبًا أحضر دارها فِي ذَلِك الْيَوْم من أهل الأهواز فِي شرب المَاء للمنتبه من نَومه لَيْلاً .

فَقَالَ ابْن داؤد مَا الله خلق بأحمق ممَّن يشرب مَاء بعد انتباهه من نَومه .

ووافى جِبْرَائِيل عِنْدَمَا قَالَ الْغُلَام هَذَا القَوْل بَاب الْبَيْت فَلم يدْخل الْمجْلس إِلاَّ وَهُوَ يَقُول أَحمَق وَالله مِنْهُ من تتضرم نَار على كبده فَلم يطفئها .

ثمَّ دخل فَقَالَ من صَاحب الْكَلَام الَّذِي سمعته فَقيل لَهُ ابْن داؤد فعنفه على ذَلِك وَقَالَ لَهُ كَانَت لأَبِيك مرتبَة جليلة فِي هَذِه الصِّنَاعَة وتتكلم بِمثل مَا سمعته مِنْك فَقَالَ لَهُ الْغُلَام فكأنك أعزّك الله تطلق شرب المَاء بِاللَّيْلِ عِنْد الانتباه من النّوم فَقَالَ جِبْرَائِيل المحرور الجاف الْمعدة وَمن تعشى وَأكل طَعَاما مالحا فَأَطْلقهُ لَهُ .

وَأَنا أمنع مِنْهُ الرطبي الْمعد وَأَصْحَاب البلغم المالح لأَن فِي منعهم من ذَلِك شِفَاء من رطوبات معدهم وَأكل بعض البلغم المالح بَعْضًا .

فَسكت عَنهُ جَمِيع من حضر ذَلِك الْمجْلس غَيْرِي فَقلت يَا أَبَا عِيسَى قد بقيت وَاحِدَة .

قَالَ وَمَا هِيَ قلت أَن يكون العطشان يفهم من الطِّبّ مثل فهمك فيفهم عطشه من مرار أَو من بلغم مالح .

فَضَحك جبْرَائيل ثمَّ قَالَ لي مَتى عطشت لَيْلاً فأبرز رجلك من لحافك وتناوم قَليلا فَإِن تزايد عطشك فَهُوَ من حرارة أَو من طَعَام يحْتَاج إِلَى شرب المَاء عَلَيْهِ فَاشْرَبْ .

وَأَن نقص من عطشك شَيْء فَأمْسك عَن شرب المَاء فَإِنَّهُ من بلغم مالح .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم وَسَأَلَ أَبُو إِسْحَق إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي جبْرَائيل عَن علّة الورشكين فَقَالَ هُوَ اسْم ركبته الْفرس من الْكسر والصدر وَاسم الصَّدْر بِالْفَارِسِيَّة الفصيحة ور والعامة تسميه بر .

وَاسم الْكسر أشكين فَإِذا جمعت اللفظتين كَانَتَا ورشكين أَي هَذه الْعلَّة من الْعلَل الَّتِي يجب أَن يكسر عَلَيْهَا الصَّدْر وَهِي علّة لاَ تستحكم بِإِنْسَان فيكاد ينْهض مِنْهَا .

وَإِن من نَهَضَ مِنْهَا لم يُؤمن عَلَيْه النكسة سنة إِلاَّ أَن يخرج مِنْهُ استفراغ دم كثير تقذفه الطبيعة من الأْنف أَو من أَسْفَل فِي وَقت الْعلَّة أَو بعْدهَا قبل السّنة فَمَتَى حدث ذَلك سلم مِنْهُ .

فَقَالَ أَبُو إِسْحَق كالمتعجب سنة قَالَ نعم جعلني الله فدَاك .

وَعلة أُخْرَى يستخف بهَا النَّاس وَهِي الحصبة .

فَإِنِّي مَا أمنت على من أَصَابَته من النكسة سنة إِلاَّ أَن يُصِيبهُ بعقبها استطلاق بطن يكَاد أَن يَأْتِي على نَفسه أَو يخرج بِهِ خراج كثير فَإِذا أَصَابَهُ أحد هذَيْن أمنت عَلَيْه .

قَالَ يُوسُف وَدخل جبْرَائيل على أبي إِسْحَق يَوْمًا بعقب علّة كَانَ فِيهَا وَقد أذن لَهُ فِي أكل اللَّحْم الغليظ فحين جلس وضعت بَين يَدَيْه كشكية رطبَة فَأمر برفعها فَسَأَلته عَن السَّبَب فَقَالَ مَا أطلقت لخليفة قطّ حم يَوْمًا وَاحِدًا أكل الكشك سنة كَاملَة .

قَالَ أَبُو إِسْحَق أَي الكشكين أردْت الَّذِي بلَبن أم الَّذِي بغَيْر لبن قَالَ الَّذِي بغَيْر لبن لاَ أطلق لَهُ أكله سنة وعَلى قِيَاس مَا يُوجبهُ الطِّبّ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَن يُطلق لَهُ أكل الكشك الْمَعْمُول بلَبن إِلاَّ بعد استكمال ثَلاَث سِنِين .

حدث مَيْمُون بن هرون قَالَ حَدثنِي سعيد بن اسحق النَّصْرَانِي قَالَ قَالَ لي

جبْرَائيل بن بختيشوع كنت مَعَ الرشيد بالرقة وَمَعَهُ الْمَأْمُون وَمُحَمّد الأمين ولداه وَكَانَ رجلا بادنا كثير الأكل وَالشرب فَأكل فِي بعض الْأَيَّام أَشْيَاء خلط فِيهَا وَدخل المستراح فَغشيَ عَلَيْهِ وَأخرج فقوي عَلَيْهِ الغشي حَتَّى لم يشك فِي مَوته .

وَأرْسل إِلَيّ فَحَضَرت وجسست عرقه فَوَجَدته نبضا خفِيا وَقد كَانَ قبل ذَلِك بأيام يشكو امتلاء وحركة الدَّم فَقلت لَهُم يَمُوت وَالصَّوَاب أَن يحجم السَّاعَة .

فَأجَاب الْمَأْمُون إِلَيْهِ وأحضر الْحجام وَتقدّمت بإقعاده فَلَمَّا وضع المحاجم عَلَيْهِ ومصها رَأَيْت الْموضع قد احمر فطابت نَفسِي وَعلمت أَنه حَيّ .

فَقلت للحجام اشرط .

فَشرط فَخرج الدَّم فسجدت شكرا لله .

وَجعل كلما خرج الدَّم يُحَرك رَأسه ويسفر لَونه إِلَى أَن تكلم .

وَقَالَ أَيْن أَنا فطيبنا نَفسه وغديناه بصدر دراج وسقيناه شرابًا وَمَا زلنا نشمه الروائح الطّيبَة ونجعل فِي أَنفه الطّيب حَتَّى تراجعت قوته وَأدْخل النَّاس إِلَيْهِ ثمَّ وهب الله عافيته فَلَمَّا كَانَ بعد أَيَّام دَعَا صَاحب حرسه فَسَأَلَهُ عَن غَلَّته فِي السّنة فعرفهُ أَنَّهَا ثلثمائة ألف دِرْهَم .

وَسَأَلَ حَاجِبه عَن غَلَّته فَعرفهُ أَنَّهَا ألف دِرْهَم .

فَقَالَ مَا انصفناك حَيْثُ غلات هَؤُلَاءِ وهم يحرسوني من النَّاس على مَا ذكرُوا وَأَنت تحرسني من الْأَمْرَاض والأسقام وَتَكون غلتك مَا ذكرته وَأمر بإقطاعي غلَّة ألف ألف دِرْهَم .

فَقلت لَهُ يَا سَيِّدي مَالِي حَاجَة إِلَى الإقطاع وَلَكِن تهب لي مَا اشْترِي بِهِ ضيَاعًا غَلَّتهَا ألف ألف دِرْهَم فَجَمِيع ضياعي أَمْلَاك لَا اقطاع .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي أَبُو إِسْحَق إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي أَن جبْرَائيل لجأ إِلَيْهِ حِين انتهبت الْعَوام دَاره فِي خلَافَة مُحَمَّد الْأمين فأسكنه مَعَه فِي دَاره وحماه مِمَّن كَانَ يحاول قَتله .

قَالَ أَبُو إِسْحَق فَكنت أرى من هلع جبْرَائيل وَكَثْرَة أسفه على مَا تلف من مَاله وَشدَّة اغتمامه مَا لم أتوهم أَن أحدا بلغ بِهِ الوجد بِمَالِه مثل الَّذِي بلغ بجبرائيل .

قَالَ أَبُو إِسْحَق فَلَمَّا ثارت المبيضة فظهرت العلوية بِالْبَصْرَةِ والأهواز أَتَانِي وَهُوَ مسرور كَأَنَّهُ قد وصل بِمِائَة ألف دِينَار فَقلت لَهُ أرى أَبَا عِيسَى مَسْرُورا فَقَالَ إِنِّي وَالله لمسرور عين السرُور .

فَسَأَلته عَن سَبَب سروره فَقَالَ إِنَّه حَاز العلوية ضياعًا وضربوا عَلَيْهَا الْمنَار .

فَقلت لَهُ مَا أعجب أَمرك انتهبت لَك الْعَوام جُزْءا من مَالك فَخرجت نَفسك من الْجزع إِلَى مَا خرجت إِلَيْه وتحوز العلوية جَمِيع مَا تملك فَيظْهر منْك من السرُور مثل الَّذِي ظهر فَقَالَ جزعي بِمَا ركبني بِهِ الْعَوام لأَنِّي أُوتيت فِي مَنَامِي وسلبت فِي عزي وأسلمني من يجب عَلَيْه حمايتي .

وَلم يتعاظمني مَا كَانَ من العلوية لأَنَّهُ من أكبر الْمحَال عَيْش مثلي فِي دولتين بِنعْمَة وَاحِدَة وَلَو لم تفعل العلوية فِي ضياعي مَا فعلوا وَقد كَانَ يجب عَلَيْهِم مَعَ علمهمْ بِصِحَّة طويتي لموَالِي الَّذين أنعم الله عَليّ بنعمتهم الَّتِي ملكونيها أَن يتقدموا فِي حفظ وكلائي والوصاة بضياعي ومزارعي وَإِن يَقُولُوا لم يزل جِبْرَائِيل مائلا إِلَيْنَا فِي أَيَّام دولة أَصْحَابه ومتفضلا علينا من أَمْوَاله وَيُؤَدِّي إِلَيْنَا أَخْبَار سادته .

فَكَانَ الْخَبَر مَتى تأدى بذلك إِلَى السُّلْطَان قتلني فسروري بحيازة ضياعي وبسلامة نَفسِي ممَّا كَانَ هَؤُلَاءِ الْجُهَّال ملكوه منْهَا فَلم يهتدوا إِلَيْه .

قَالَ يُوسُف وَحَدثنِي فرخ الْخَادِم الْمَعْرُوف بأبي خُرَاسَان مولى صَالح بن الرشيد ووصيه قَالَ كَانَ مولَايَ صَالح بن الرشيد على الْبَصْرَة وَكَانَ عَامله عَلَيْهَا أَبُو الرَّازِيّ .

فَلَمَّا أحدث جِبْرَائِيل ابْن بختيشوع عمَارَة دَاره الَّتِي فِي الميدان سَأَلَ مولَايَ أَن يهدي لَهُ خَمْسمائَة ساجة وَكَانَت الساجة بِثَلَاثَة عشر دِينَارا فَاسْتَكْثر مولَايَ المَال .

وَقَالَ لَهُ أما خَمْسمِائَة فَلَا وَلَكِنِّي أكتب إِلَى ابْن الرَّازِيّ فِي حمل مِائَتي ساجة إِلَيْك .

وَقَالَ جِبْرَائِيل فَلَيْسَتْ بِي حَاجَة إِلَيْهَا .

فال فرخ فَقلت لسيدي أرى جِبْرَائِيل سيدبر عَلَيْك تدبيرا بغيضا .

فَقَالَ جِبْرَائِيل أَهْون عَليّ من كل هَين لأَنِّي لَا أشْرب لَهُ دَوَاء وَلَا أقبل لَهُ علاجا .

ثمَّ استزار مولَايَ أَمِير الْمُؤمنِينَ الْمَأْمُون فَلَمَّا اسْتَوَى الْمجْلس بالمأمون قَالَ لَهُ جِبْرَائِيل أرى وَجهك متغيرا .

ثمَّ قَامَ إِلَيْه فجس عرقه وَقَالَ لَهُ يشرب أَمِير الْمُؤمنِينَ شربة سكنجبين وَيُؤَخر الْغَدَاء حَتَّى يفهم الْخَبَر فَفعل الْمَأْمُون مَا أَشَارَ بِهِ وَأَقْبل يجس عرقه فِي الْوَقْت بعد الْوَقْت ثمَّ لم يشْعر بِشَيْء حَتَّى دخل غلْمَان جِبْرَائِيل وَمَعَهُمْ رغيف وَاحِد وَمَعَهُ ألوان قد اتَّخذت من قرع وماش وَمَا أشبه ذَلِك .

فَقَالَ إِنِّي أكره لأمير الْمُؤمنِينَ أَن يَأْكُل فِي يَوْمه هَذَا شَيْئا من لُحُوم الْحَيَوَان فَليَأْكُل هَذِه الألوان فَأكل مِنْهَا ونام .

فَلَمَّا انتبه من قائلته قَالَ لَهُ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ رَائِحَة النَّبِيذ تزيد فِي الْحَرَارَة والرأي لَك الانْصِرَاف .

فَانْصَرف الْمَأْمُون وَتَلفت نَفَقَة مولاَيَ كلهَا .

فَقَالَ لي مولاَيَ يَا أَبَا خُرَاسَان التَّمْيِيز بَين مِائَتي ساجة وَخَمْسمِائَة ساجة واستزارة الْخَلِيفَة لاَ يَجْتَمِعَان .

قَالَ يُوسُف وحَدثني جورجس بن ميخائيل عَن خَاله جِبْرَائِيل وَكَانَ جِبْرَائِيل لَهُ مكرما لِكَثْرَة علمه لأَنِّي لم أر فِي أهل هَذَا الْبَيْت بعد جِبْرَائِيل أعلم مِنْهُ على عجب كَانَ فِيهِ شَدِيدا وسخف كثير إِن جِبْرَائِيل أخبرهُ أَنه أنكر من الرشيد قلَّة الرزء للطعام أول الْمحرم سنة سبع وَثَمَانِينَ وَمِائَة وَأَنه لم يكن يرى فِي مَائه وَلاَ فِي مجسة عرقه مَا يدل على علّة توجب قلَّة الطَّعَام فَكَانَ يَقُول للرشيد يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ بدنك صَحِيح سليم بِحَمْد الله من الْعِلَل وَمَا أعرف لتركك اسْتِيفَاء الْغذَاء معنى .

فَقَالَ لي لما أكثرت عَلَيْهِ من القَوْل فِي هَذَا الْبَاب قد استوخمت مَدِينَة السَّلاَم وَأَنا أكره الاستبعاد عَنْهَا فِي هَذِه الأَيَّام .

أفتعرف مَكَانا بِالْقربِ مِنْهَا صَحِيح الْهَوَاء فَقلت لَهُ الْحيرَة يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ .

فَقَالَ قد نزلنَا الْحيرَة مرَارًا فأجحفنا بعون الْعَبَّادِيّ فِي نزولنا بَلَده وَهِي أَيْضا بعيدَة .

فَقلت يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ فالأنبار طيبَة وظهرها فاصح هَوَاء من الْحيرَة فَخرج إِلَيْهَا فَلم يَزْدَدْ فِي طَعَامه شَيْئا بل نقص وَصَامَ يَوْم الْخَمِيس قبل قَتله جعفرا بيومين وَلَيْلَة .

وأحضر جعفرا عشاءه وَكَانَ أَيْضا صَائِما فَلم يصب الرشيد من الطَّعَام كثير شَيْء .

فَقَالَ لَهُ جَعْفَر يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ لَو استزدت من الطَّعَام فَقَالَ لَو أردْت ذَلِك لقدرت عَلَيْهِ .

إِلاَّ أَنِّي أَحْبَبْت أَن أَبيت خَفِيف الْمعدة لأصبح وَأَنا أشتهي الطَّعَام وأتغدى مَعَ الْحرم .

ثمَّ بكر بالركوب غَدَاة يَوْم الْجُمُعَة متنسما وَركب مَعَه جَعْفَر بن يحيى فرأيته وَقد أَدخل يَده فِي كم جَعْفَر حَتَّى بلغ بدنه فضمه إِلَيْهِ وعانقه وَقبل بَين عَيْنَيْهِ وَسَار يَده

فِي يَد جَعْفَر أَكثر من ألف ذِرَاع .

ثمَّ رَجَعَ إِلَى مضربه وَقَالَ بحياتي أما اصطبحت فِي يَوْمك هَذَا وَجَعَلته يَوْم سرُور فَإِنِّي مَشْغُول بأهلي .

ثمَّ قَالَ لي يَا جِبْرَائِيل أَنا أتغدى مَعَ حرمي فَكُن مَعَ أخي تسر بسروره .

فسرت مَعَ جَعْفَر واحضر طَعَامه فتغدينا واحضر أَبَا زكار الْمُغنِي وَلم يحضر مَجْلِسه غَيرنَا وَرَأَيْت الْخَادِم بعد الْخَادِم يدْخل إِلَيْنَا فيساره فيتنفس عِنْد مسارتهم إِيَّاه وَيَقُول وَيحك يَا أبي عِيسَى لم يطعم أَمِير الْمُؤمنِينَ بعد وَأَنا وَالله خَائِف أَن تكون بِهِ علّة تَمنعهُ من الْأكل .

وَيَأْمُر كلما أَرَادَ أَن يشرب قدحا أَبَا زكار أَن يُغْنِيه .

(إِن بني الْمُنْذر حِين انقضوا بحَيْثُ شاد الْبيعَة الراهب)
(أضحوا وَلاَ يُرهبهُمْ رَاهِب حَقًّا وَلاَ يرجوهم رَاغب)
(كَانَت من الْخَزّ لبوساتهم لم يجلب الصُّوف لَهُم جَالب)
(كَأَنَّمَا جئتهم لعبة سَار إِلَى لبن بهَا رَاكب)
السَّرِيع

فيغنيه أَبُو زكار هَذَا الصَّوْت وَلاَ يقترح عَلَيْهِ غَيره .

فَلم تزل هَذه حَالنَا إِلَى أَن صليت الْعَتَمَة .

ثمَّ دخل إِلَيْنَا أَبُو هَاشم مسرور الْكَبِير وَمَعَهُ خَليفَة هرثمة بن أعين[1] وَمَعَهُ جمَاعَة كَثِيرَة من الْجند .

(١) هرثمة بن أعين من مشاهير القادة الأمراء الشجعان في الدولة العباسية الأولى . ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٨هـ ، ٧٩٤م ، ثم وجهه إلى إفريقيا لإخضاع العصاة ، فدخل القيروان سنة ١٧٩هـ ، ٧٩٥م ، فرحب به أهلها ، فحسنت سيرته بينهم . قاتل ابن الجارود بتيهرت ، وانتصر عليه . انقادت له قبائل البربر ، فعاد إلى القيروان ، وبنى رباط المنستير ، وبنى سور طرابلس الغرب . وطلب من الرشيد أن يعفيه من ولاية إفريقيا ، فنقله إلى خراسان عام ١٨١هـ ، ٧٩٧م . وولاه غزو الصائفة عام ١٩١هـ ، ٨٠٦م ، وضم إليه ماكان عليه علي بن عيسى (ابن ماهان) ، فانتقل إلى مرو سنة ١٩٢هـ ، ٨٠٧م . انحاز إلى المأمون عندما نشبت الفتنة بينه وبين الأمين . فقاد جيوشه ، حتى سكنت الفتنة واستتب الأمر للمأمون . نقم عليه المأمون ، وقيل : إنه اتهمه بممالأة إبراهيم بن المهدي أو بالتراخي في قتال الطالبيين وأبي السرايا ، فدعاه إليه وحبسه . ودس إليه من قتله في الحبس سرًا بمرو ، كان مجتهدًا في العمران بأرمينيا . وأخباره في الحرب مستفيضة .

فَمد يَده خَليفَة هرثمة إِلَى يَد جَعْفَر ثمَّ قَالَ لَهُ قُم يَا فَاسق قَالَ جِبْرَائِيل وَلم أكلم وَلم يُؤمر فِي بِأَمْر وصرت إِلَى منزلي من سَاعَتي وَأَنا لاَ أَعقل .

فَمَا أَقمت فِيه إِلاَّ أقل من مقْدَار نصف سَاعَة حَتَّى صَار إِلَيّ رَسُول الرشيد يَأْمُرنِي بالمصير إِلَيْهِ فَدخلت إِلَيْهِ وَرَأس جَعْفَر فِي طشت بَين يَدَيْهِ فَقَالَ لي يَا جبْرَائِيل أَلَيْسَ كنت تَسْأَلنِي عَن السَّبَب فِي قلَّة رزئي للطعام فَقلت بلَى يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ فَقَالَ الفكرة فِيمَا ترى أَصارتني إِلَى مَا كنت فِيهِ وَأَنا الْيَوْم يَا جبْرَائِيل عِنْد نَفسِي كالناقة .

قدم غذائي حَتَّى ترى من الزِّيَادَة على مَا كنت تَرَاهُ عجبا وَإِنَّمَا كنت آكل الشَّيْء بعد الشَّيْء لِئَلَّا يثقل الطَّعَام عَليّ فيمرضني .

ثمَّ دَعَا بطعامه فِي ذَلِك الْوَقْت فَأكل أكلا صَالحا من ليلته .

قَالَ يُوسُف حَدثنِي إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي أَنه تخلف عَن مجْلِس مُحَمَّد الْأمين أَمِير الْمُؤمنِينَ أَيَّام خلاَفَته عَشيَّة من العشايا لدواء كَانَ أَخذه وَإِن جبْرَائِيل بن بختيشوع باكره غَدَاة الْيَوْم الثَّانِي وأَبلغه سَلام الْأَمِين وَسَأَلَهُ عَن حَاله كَيفَ كَانَت فِي دوائه .

ثمَّ دنا مِنْهُ فَقَالَ لَهُ أَمر أَمِير الْمُؤمنِينَ فِي تجهيز عَليّ بن عِيسَى بن ماهان إِلَى خُرَاسَان ليَأْتِيه بالمأمون أَسِيرًا فِي قيد من فضَّة وجبرائيل بَرِيء من دين النَّصْرَانِيَّة إِن لم يغلب الْمَأْمُون مُحَمَّداً ويقتله ويحوز ملكه فَقلت لَهُ وَيحك وَلم قلت هَذَا القَوْل وَكيف قلته قَالَ لأَن هَذَا الْخَلِيفَة الموسوس سكر فِي هَذِه اللَّيْلَة فَدَعَا أَبَا عصمَة الشيعي صَاحب حرسه وَأمر بسواده فَنزع عَنهُ وَأَلبسهُ ثِيَابِي وزناري وقلنسوتي وألبسني أقبيته وسواده وسيفه ومنطقته وأجلسني فِي مجْلِس صَاحب الْحرس إِلَى وَقت طُلُوع الْفجْر وَأَجْلسهُ فِي مجلسي وَقَالَ لكل وَاحِد مني وَمن أبي عصمَة قد قلدتك مَا كَانَ يتقلده صَاحبك .

فَقلت إِن الله مغير مَا بِه من نعْمَة لتغييره مَا بِنَفسِهِ مِنْهَا .

وَأَنه إِذا جعل حراسته إِلَى نَصْرَانِيّ .

والنصرانية أذلّ الْأَدْيَان لأَنَّهُ لَيْسَ فِي عقد دين غَيرهَا التَّسْلِيم لما يُرِيد بِهِ عدوه من الْمَكْرُوه مثل الإذعان لمن سَخَّرَهُ بالسخرة وَأَن يمشي ميلاً أَن يزِيد على ذَلِك ميلاً آخر وَإِن لطم لَهُ خد حول الآخر ليلطم غير ديني .

فقضيت بِأَن عز الرجل زائل وقضيت أَنه حِين أَجْلس فِي مجْلِس متطببه الْحَافِظ عِنْده لحَيَاته والقائم بمصالح بدنه وَالْخَادِم لطبيعته أَبَا عصمَة الَّذِي لاَ يفهم من كل ذَلِك قَلِيلا وَلاَ كثيرا بِأَنَّهُ لاَ عمر لَهُ وَأَن نَفسه تالفة .

قَالَ أَبُو إِسْحَق فَكَانَ على مَا تفاءل جِبْرَائِيل بِهِ .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم وَسمعت جِبْرَائِيل بن بختيشوع يحدث أَبَا إِسْحَق إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي أَنه كَانَ عِنْد الْعَبَّاس بن مُحَمَّد إِذْ دخل عَلَيْهِ شَاعِر امتدحه فَلم يزل جِبْرَائِيل يسمع مِنْهُ إِلَى أَن صَار إِلَى هَذَا الْبَيْت وَهُوَ .

(لَو قيل للْعَبَّاس يَا ابْن مُحَمَّد . . . قل لاَ وَأَنت مخلد مَا قَالَهَا) الْكَامِل .

قَالَ جِبْرَائِيل فَلَمَّا سَمِعت هَذَا الْبَيْت لم أَصْبِر لعلمي أَن الْعَبَّاس أبخل أهل زَمَانه .

فَقلت لاَ فَتَبَسَّمَ الْعَبَّاس ثمَّ قَالَ لي اغرب قبح الله وَجهك أَقُول هَذَا الشَّاعِر الَّذِي يشار إِلَيْهِ هُوَ ربيعَة الرقى .

قَالَ يُوسُف وَحدث جِبْرَائِيل أَبَا إِسْحَاق فِي هَذَا الْمجْلس أَنه دخل على الْعَبَّاس بعد فطر النَّصَارَى بِيَوْم وَفِي رَأسه فضلَة من نبيذه بالأمس وَذَلِكَ قبل أَن يخْدم جِبْرَائِيل الرشيد .

فَقَالَ جِبْرَائِيل للْعَبَّاس كَيفَ أصبح الأَمِير أعزه الله فَقَالَ الْعَبَّاس أَصبَحت كَمَا تحب .

فَقَالَ لَهُ جِبْرَائِيل وَالله مَا أصبح الأَمِير على مَا أحب وَلاَ على مَا يحب الله وَلاَ على مَا يحب الشَّيْطَان .

فَغَضب الْعَبَّاس من قَوْله ثمَّ قَالَ لَهُ مَا هَذَا الْكَلاَم قبحك الله قَالَ جِبْرَائِيل فَقلت عَليّ الْبُرْهَان .

فَقَالَ الْعَبَّاس لتَأْتِيني بِهِ وَإِلاَّ أَحْسَنت أدبك وَلم تدخل لي دَارا فَقَالَ جِبْرَائِيل الَّذِي كنت أحب أَن تكون أَمِير الْمُؤمنِينَ فَأَنت كَذَلِك قَالَ الْعَبَّاس لاَ .

قَالَ جِبْرَائِيل وَالَّذِي يحب الله من عباده الطَّاعَة لَهُ فِيمَا أَمرهم بِهِ ونهاهم عَنهُ .

فَأَنت أَيهَا الْملك كَذَلِك فَقَالَ الْعَبَّاس لاَ واستغفر الله .

قَالَ جِبْرَائِيل وَالَّذِي يحب الشَّيْطَان من الْعباد أَن يكفروا بِاللَّه ويجحدوا ربوبيته فَأَنت كَذَلِك أَيهَا الأَمِير فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاس لاَ وَلاَ تعد إِلَى مثل هَذَا القَوْل بعد يَوْمك هَذَا .

قَالَ فثيون الترجمان وَلما عزم الْمَأْمُون على الْخُرُوج إِلَى بلد الرّوم فِي سنة ثَلاَث عشرَة وَمِائَتَيْنِ مرض جِبْرَائِيل مَرضا شَدِيدا قَويا .

فَلَمَّا رَآهُ الْمَأْمُون ضَعِيفا التمس مِنْهُ إِنْفَاذ بختيشوع ابْنه مَعَه إِلَى بلد الرّوم .

فَأحْضرهُ وَكَانَ مثل أَبِيه فِي الْفَهم وَالْعقل والسرو .

وَلما خاطبه الْمَأْمُون وَسمع حسن جَوَابه فَرح بِهِ فَرحا شَدِيدا وأكرمه غَايَة الْإِكْرَام وَرفع مَنْزِلَته وَأخرجه مَعَه إِلَى بلد الرّوم .

وَلما خرج الْمَأْمُون طَال مرض جِبْرَائِيل إِلَى أَن بلغ الْمَوْت وَعمل وَصيته إِلَى الْمَأْمُون وَدفعهَا إِلَى ميخائيل صهره وَمَات .

فَمضى فِي تجميل مَوته مَا لم يمض لأمثاله بِحَسب اسْتِحْقَاقه بأفعاله الْحَسَنَة وخيريته وَدفن فِي دير مارسرجس بِالْمَدَائِنِ .

وَلما عَاد ابْنه بختيشوع من بلد الرّوم جمع للدير رهبانا وأجرى عَلَيْهِم جَمِيع مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ .

وَقَالَ فثيون الترجمان إِن جنس جورجس وَولده كَانُوا أجمل أهل زمانهم بِمَا خصهم الله بِهِ من شرف النُّفُوس ونبل الهمم وَمن الْبر وَالْمَعْرُوف والإفضال وَالصَّدقَات وتفقد المرضى من الْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِين وَالأَخْذ بأيدي المنكوبين والمرهوقين على مَا يتَجَاوَز الْحَد فِي الصّفة وَالشَّرْح .

وَكَانَت مُدَّة خدمَة جِبْرَائِيل بن بختيشوع للرشيد مُنْذُ خدمه وَإِلَى أَن توفّي الرشيد ثَلَاثًا وَعشْرين سنة .

بختيشوع بن جِبْرَائِيل بن بختيشوع

كَانَ سريانيا نبيل الْقدر .

وَبلغ من عظم الْمنزلَة وَالْحَال وَكَثْرَة المَال مَا لم يبلغهُ أحد من سَائِر الْأَطِبَّاء الَّذين كَانُوا فِي عصره .

وَكَانَ يضاهي المتَوَكل فِي اللبَاس والفرش .

وَنقل حنين بن إِسْحَق لبختيشوع بن جِبْرَائِيل كتبا كَثِيرَة من كتب جالينوس إِلَى اللُّغَة السريانية والعربية .

قَالَ فثيون الترجمان لما ملك الواثق الْأَمر كَانَ مُحَمَّد بن عبد الْملك الزيات وَابْن أبي دَاوُد يعاديان بختيشوع .

ويحسدانه على فَضله وبره ومعروفه وصدقاته وَكَمَال مروءته .

فَكَانَا يغريان الواثق عَلَيْهِ إِذا خلوا بِهِ .

فسخط عَلَيْهِ الواثق وَقبض على أملاكه وضياعه وَأخذ مِنْهُ جملَة طائلة من المَال .

ونفاه إِلَى جندي سَابُور وَذَلِكَ فِي سنة ثَلَاثِينَ وَمائَتَيْنِ .

فَلَمَّا اعتل بالاستسقاء وَبلغ الشدَّة فِي مَرضه انفذ من يحضر بختيشوع .

وَمَات الواثق قبل أَن يوافي بختيشوع .

ثمَّ صلحت حَال بختيشوع بعد ذَلِك فِي أَيَّام المتَوَكل حَتَّى بلغ فِي الجلالَة والرفعة وَعظم الْمنزلَة وَحسن الْحَال وَكَثْرَة المَال وَكَمَال المُرُوءَة ومباراة الْخلَافَة فِي الزي واللباس وَالطّيب والفرش والصناعات والتفسيح والبذخ فِي النَّفَقَات مبلغا يفوق الْوَصْف فحسده المتَوَكل وَقبض عَلَيْهِ .

ونقلت من بعض التواريخ أَن بختيشوع بن جِبْرَائِيل كَانَ عَظِيم الْمنزلَة عِنْد المتَوَكل .

ثمَّ إِن بختيشوع أفرط فِي إدلاله عَلَيْهِ فنكبه وَقبض أملاكه وَوجه بِهِ إِلَى مَدِينَة السَّلَام .

وَعرض للمتوكل بعد ذَلِك قولنج فَاسْتَحْضرهُ المتَوَكل وَاعْتذر إِلَيْهِ وعالجه وبرأ فانعم عَلَيْهِ وَرَضي عَنهُ وَأعَاد مَا كَانَ لَهُ .

ثمَّ جرت على بختيشوع حيلَة أُخْرَى فنكبه نكبة قبض فِيهَا جَمِيع أملاكه وَوجه بِهِ إِلَى الْبَصْرَة وَكَانَ سَببه الْحِيلَة عَلَيْهِ أَن عبد الله استكتب الْمُنْتَصر أَبَا الْعَبَّاس الحصيني وَكَانَ رديئا فاتفقا على قتل المتَوَكل واستخلاف الْمُنْتَصر .

وَقَالَ بختيشوع للوزير كَيفَ استكتبت الْمُنْتَصر الحصيني وَأَنت تعرف رداءته فَظن عبد الله أَن بختيشوع قد وقف على التَّدْبِير .

فَعرف الْوَزير مَا قَالَه لَهُ بختيشوع وَقَالَ أَنْتُم تعلمُونَ كَيفَ محبَّة بختيشوع لَهُ واحسب أَنه يبطل التَّدْبِير فَكيف الْحِيلَة فَقَالُوا للمنتصر إِذا سكر الْخَلِيفَة فخرق ثِيَابك ولوثها بالدَّم وادخل إِلَيْهِ .

فَإِذا قَالَ مَا هَذَا فَقل بختيشوع ضرب بيني وَبَين أخي فكاد أَن يقتل بَعْضنَا بَعْضًا .

وَأَنا أَقُول يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ يبعد عَنْهُم .

فَإِنَّهُ يَقُول افعلوا .

فتنفيه فَإِلَى أَن يسْأَل عَنهُ نَكُون قد فَرغْنَا من الْأَمر .

فَفعل ذَلك ونكب وَقتل المتَوَكل .

وَلما اسْتَخْلف المستعين رد بختيشوع إِلَى الْخدمَة وَأحسن إِلَيْهِ إحسانا كثيرا وَلما ورد الْأَمر إِلَى ابْن عبد الله مُحَمَّد بن الواثق وَهُوَ الْمُهْتَدي جرى على حَال المتَوَكل فِي أنسه بالأطباء وتقديمه إيَّاهُم وإحسانه إِلَيْهِم .

وَكَانَ بختيشوع لطيف الْمحل من الْمُهْتَدي بِاللَّه .

وشكا بختيشوع إِلَى الْمُهْتَدي مَا أَخذ مِنْهُ فِي أَيَّام المتَوَكل فَأمر بِأَن يدْخل إِلَى سَائِر الخزائن فَكل مَا اعْترف بِهِ فليرد إِلَيْهِ بِغَيْر استئمار وَلاَ مُرَاجعَة .

فَلم يبْق لَهُ شَيْء إِلاَّ أَخذه وَأطلق لَهُ سَائِر مَا فَاتَهُ وحاطه كل الحياطة .

وَورد على بختيشوع كتاب من صَاحبه بِمَدِينَة السَّلاَم يصف فِيهِ أَن سُلَيْمَان بن عبد الله بن طَاهِر قد تعرض لَهُ لمنازله فَعرض بختيشوع الْكتاب على الْمُهْتَدي بعد صَلاَة الْعَتَمَة فَأمر بإحضار سُلَيْمَان بن وهب فِي ذَلِك الْوَقْت فَحَضَرَ وَتقدم إِلَيْهِ بِأَن يكْتب من حَضْرته إِلَى سُلَيْمَان بن عبد الله بالإنكار عَلَيْهِ لما اتَّصل بِهِ من وَكيل بختيشوع وَأَن يتَقَدَّم إِلَيْهِ بإعزاز مَنَازِله وأسبابه بأوكد مَا يكون وانفذ الْكتاب من وقته مَعَ أخص خدمه إِلَى مَدِينَة السَّلاَم .

وَقَالَ بختيشوع للمهتدي فِي آخر من حضر الدَّار يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ مَا اقتصدت وَلاَ شربت الدَّوَاء مُنْذُ أَرْبَعِينَ سنة وَقد حكم المنجمون بِأَنِّي أَمُوت فِي هَذِه السّنة .

وَلست أغتم لموتي وَإِنَّمَا غمي لمفارقتكم .

فَكَلمهُ الْمُهْتَدي بِكَلاَم جميل وَقَالَ قلما يصدق المنجم .

فَلَمَّا انْصَرف كَانَ آخر الْعَهْد بِهِ .

وَقَالَ إِبْرَاهِيم بن عَليّ الحصري فِي كتاب نور الطّرف وَنور الظّرْف أَنه تنَازع إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي وبختيشوع الطَّبِيب بَين يَدي أَحْمد ابْن داؤد فِي مجْلِس الحكم فِي عقار بِنَاحِيَة السوَاد فأربى عَلَيْهِ إِبْرَاهِيم وَأَغْلظ لَهُ فَغَضب لذَلِك أَحْمد بن أبي داؤد وَقَالَ يَا إِبْرَاهِيم إِذا تنازعت فِي مجْلِس الحكم بحضرتنا أمرا فَلْيَكُن قصدك أمما وطريقك نهجا وريحك سَاكِنة وكلامك معتدلا ووف مجَالِس الْخَلِيفَة حُقُوقهَا من التَّوْفِيق والتعظيم والاستطاعة والتوجيه إِلَى الْحق .

فَإِن هَذَا أشكل بك وأجمل بمذهبك فِي محتدك وعظيم خطرك .

وَلاَ تعجلن فَرب العجلة تورث رثيا وَالله يَعْصِمك من الزلل وخطل القَوْل وَالْعَمَل وَيتم نعْمَته عَلَيْك كَمَا أتمهَا على آبَائِك من قبل أَن رَبك عليم حَكِيم .

فَقَالَ إِبْرَاهِيم أمرت أصلحك الله بسداد وحضضت على رشاد وَلست بعائد إِلَى مَا يثلم قدري عِنْدك ويسقطني من عَيْنك ويخرجني من مِقْدَار الْوَاجِب إِلَى الاعْتِذَار فها أَنا معتذر إِلَيْك من هَذِه البادرة اعتذار مقرّ بذنبه باخع بجرمه لأَن الْغَضَب لَا يزَال يستفزني بمراده فيردني مثلك بحلمه وَتلك عَادَة الله عِنْدك وَعِنْدنَا فِيك وَهُوَ حَسبنَا وَنعم الْوَكِيل .

وَقد خلعت حظي من هَذَا الْعقار لبختيشوع .

فليت ذَلِك يكون وافيا بِأَرْش الْجِنَايَة عَلَيْهِ وَلنْ يتْلف مَال أَفَادَ موعظة وَبِاللَّهِ التَّوْفِيق .

وحدث أَبُو مُحَمَّد بدر بن أبي الْأَصْبَع الْكَاتِب قَالَ حَدثنِي جدي قَالَ دخلت إِلَى بختيشوع فِي يَوْم شَدِيد الْحر وَهُوَ جَالس فِي مجْلِس مخيش بعدة طاقات من الخيش طاقان ريح بَينهمَا طاق أسود وَفِي وَسطهَا قبَّة عَلَيْهَا جلال من قصب مظهر بدبيقي قد صبغ بِمَاء الْورْد والكافور والصندل وَعَلِيهِ جُبَّة يماني سعيدي مثقلة ومطرف قد التحف بِهِ فعجبت من زيه .

فحين حصلت مَعَه فِي الْقبَّة نالني من الْبرد أَمر عَظِيم فَضَحِك وَأمر لي بجبة ومطرف وَقَالَ يَا غُلَام اكشف جَوَانِب الْقبَّة فكشفت فَإِذا أَبْوَاب مَفْتُوحَة من جَوَانِب الإيوان إِلَى مَوَاضِع مكبوسة بالثلج وغلمان يروحون ذَلِك الثَّلج فَيخرج مِنْهُ الْبرد الَّذِي لحقني .

ثمَّ دَعَا بطعامه فَأتي بمائدة فِي غَايَة الْحسن عَلَيْهَا كل شَيْء ظريف .

ثمَّ أَتَى بفراريج مشوية فِي نِهَايَة الْحمرَة وَجَاء الطباخ فنفضها كلهَا فانتفضت وَقَالَ هَذِه فراريج تعلف اللوز والبزر قطونا وتسقى مَاء الرُّمَّان وَلما كَانَ فِي صلب الشتَاء دخلت عَلَيْه يَوْمًا وَالْبرد شَدِيد وَعَلِيه جُبَّة محشوة وَكسَاء وَهُوَ جَالس فِي طارمة فِي الدَّار على بُسْتَان فِي غَايَة الْحسن وَعَلَيْهَا سمور قد ظهرت بِهِ وفوقه جلال حَرِير مصبغ ولبود مغربية وانطاع أَدَم يَمَانِية .

وَبَين يَدَيْه كانون فضَّة مَذْهَب مخرق وخادم يُوقد الْعود الْهِنْدِيّ وَعَلِيهِ غلالة قصب فِي نِهَايَة الرِّفْعَة .

فَلَمَّا حصلت مَعَه فِي الطارمة وجدت من الْحر أمرا عَظِيما فَضَحِك وَأمر لي بغلالة قصب وَتقدم يكْشف جَوَانِب الطارمة فَإِذا مَوَاضِع لَهَا شبابيك خشب بعد شبابيك حَدِيد وكوانين فِيهَا فَحم الغضا وغلمان ينفخون ذَلِك الفحم بالزقاق كَمَا تكون للحدادين .

ثمَّ دَعَا بطعامه فأحضروا مَا جرت به الْعَادة فِي السرو والنظافة فأحضرت فراريج بيض شَدِيدَة الْبيَاض فبشعتها وَخفت أَن تكون غير نضيجة ووافى الطباخ فنفضها فانتفضت فَسَأَلته عَنْهَا فَقَالَ هَذه تعلف الْجَوْز المقشر وتسقى اللَّبن الحليب .

وَكَانَ يختيشوع بن جِبْرَائِيل يهدي البخور فِي درج وَمَعَهُ درج آخر فِيه فَحم يتَّخذ لَهُ من قضبان الأترج والصفصاف وشنس الْكَرم المرشوش عَلَيْهِ عِنْد إحراقه مَاء الْورْد الْمَخْلُوط بالمسك والكافور وَمَاء الْخلاف وَالشرَاب الْعَتيق .

وَيَقُول أَنا أكره أَن أهدي بخورا بِغَيْر فَحم فيفسده فَحم الْعَامَّة وَيُقَال هَذَا عمل بختيشوع .

وَحدث أَبُو مُحَمَّد بدر بن أبي الْأَصْبع عَن أَبِيه عَن أبي عبد الله مُحَمَّد بن الْجراح عَن أَبِيه أَن المتَوَكل قَالَ يَوْمًا لبختيشوع ادعني فَقَالَ السّمع وَالطَّاعَة فَقَالَ أُريد أَن يكون ذَلِك غَدا قَالَ نعم وكرامة وَكَانَ الْوَقْت صائفا وحره شَدِيدا فَقَالَ بختيشوع لأعوانه وَأَصْحَابه أمرنَا كُله مُسْتَقِيم إِلاَّ الخيش فَإِنَّهُ لَيْسَ لنا مِنْهُ مَا يَكْفِي .

فَاحْضُرْ وكلاءه وَأمرهمْ بابتياع كل مَا يُوجد من الخيش بسر من رأى فَفَعَلُوا ذَلِك وأحضروا كل من وجدوه من النجادين والصناع فَقطع لداره كلهَا صونها وحجرها ومجالسها وبيوتها ومستراحاتها خيشا حَتَّى لاَ يجتاز الْخَلِيفَة فِي مَوضع غير مخيش .

وَأَنه فكر فِي روائحه الَّتِي لاَ تَزُول إِلاَّ بعد اسْتِعْمَاله مُدَّة فَأمر بابتياع كل مَا يقدر عَلَيْهِ بسر من رأى من الْبِطِّيخ وأحضر أَكثر حشمه وغلمانه وأجلسهم يدلكون الخيش بذلك الْبِطِّيخ ليلتهم كلهَا وَأصْبح وَقد انْقَطَعت روائحه .

فَتقدم إِلَى فراشيه فعلقوا جَمِيعه فِي الْمَوَاضع الْمَذْكُورَة وَأمر طباخيه بِأَن يعملوا خَمْسَة آلَاف جونة فِي كل جونة بَاب خبز سميد دست رقاق وزن الْجَمِيع عشرُون رطلا وَحمل مشوي وجدي بَارِد وفائقة ودجاجتين مصدرتان وفرخان ومصوصان وَثَلَاثَة ألوان وجام حلواء .

فَلَمَّا وافه المتَوَكل رأى كَثْرَة الخيش وجدته فَقَالَ أَي شَيْء ذهب برائحته فَأَعَادَ عَلَيْهِ حَدِيث الْبِطِّيخ فَعجب من ذَلِك وَأكل هُوَ وَبَنُو عَمه وَالْفَتْح بن خاقَان على مائدة وَاحِدَة .

وأجلس الْأُمَرَاء والحجاب على سماطين عظيمين لم ير مثلهمَا لاَ مِثَاله .

وَفرقت الجون على الغلمان والخدم والنقباء والركابية والفراشين والملاحين وَغَيرهم من الْحَاشِيَة لكل وَاحِد جونة وَقَالَ قد أمنت ذمهم لأنني مَا كنت آمن لَو أطعموا على مَوَائِد أَن يرضى هَذَا ويغضب الآخر وَيَقُول وَاحِد شبعت وَيَقُول آخر لم

أشْبع فَإِذا أعْطى كل إِنْسَان جونة من هَذه الجون كفته واستشرف المتَوَكل على الطَّعَام فاستعظمه جدا وَأَرَادَ النّوم فَقَالَ لبختيشوع أُريد أَن تنومني فِي مَوضع مضيء لاَ ذُبَاب فِيه وَظن أَنه يتعنته بذلك وَقد كَانَ بختيشوع تقدم بِأَن تجْعَل أجاجين السيلان فِي سَطوح الدَّار ليجتمع الذُّبَاب عَلَيْه فَلم يقرب أسافل الدّور ذُبَابَة وَاحدَة .

ثمَّ أَدخل المتَوَكل إِلَى مربع كَبير سقفه كُله بكواء فيهَا جامَات يضيء الْبَيْت منْهَا وَهُوَ مخيش مظهر بعد الخيش بالدبقي الْمَصْبُوغ بمَاء الْورْد والصندل والكافور .

فَلَمَّا اضْطجع للنوم أقبل يشم رَوَائِح فِي نهَايَة الطّيب لاَ يدْري مَا هِيَ لأَنَّهُ لم ير فِي الْبَيْت شَيْئا من الروائح والفاكهة والأنوار وَلاَ خلف الخيش لاَ طاقات وَلاَ مَوضع يَجْعَل فِيه شَيْء من ذَلك .

فتعجب وَأمر الْفَتْح بن خاقَان أَن يتتبع حَال تِلْكَ الروائح حَتَّى يعرف صورتهَا .

فَخرج يطوف فَوجدَ حول الْبَيْت من خَارجه وَمن سَائِر نواحيه وجوانبه أبوابا صغَارًا لطافا كالطاقات محشوة بصنوف الرياحين والفواكه واللخالخ والمشام الَّتِي فيهَا اللفاح والبطيخ الْمُسْتَخْرج مَا فِيهَا المحشوة بالنمام والحماحم الْيَمَانِيّ الْمَعْمُول بِمَاء الْورْد والخلوق والكافور وَالشرَاب الْعَتِيق والزعفران الشّعْر .

وَرَأى الْفَتْح غلمانا قد وكلوا بِتِلْكَ الطاقات مَعَ كل غُلاَم مجمرة فِيهَا ند يسجره ويبخر به .

وَالْبَيْت من دَاخله إِزَار من اسفيداج[1] مخرم خروما صغَارًا لاَ تبين تخرج منْهَا تِلْكَ الروائح الطّيبَة العجيبة إِلَى الْبَيْت .

فَلَمَّا عَاد الْفَتْح وَشرح للمتوكل صُورَة مَا شَاهده كثر تعجبه منْهُ وحسد بختيشوع على مَا رَآهُ من نعْمَته وَكَمَال مروءته وَانْصَرف من دَاره قبل أَن يستتم يَوْمه .

وَادّعى شَيْئا وجده من التياث بدنه وحقد عَلَيْه ذَلك فنكبه بعد أَيَّام يسيرَة وَأخذ لَهُ مَالا كثيرا لاَ يقدر .

وَوجد لَهُ فِي جملَة كسوته أَرْبَعَة آلاَف سَرَاوِيل دبيقي سيتيزي فِي جَمِيعهَا تكك إبريسم أرميني .

(١) فارسي معرب ، هو [بياض الوجه] ، ويقال [أسفيداج الرصاص] و[رماد الرصاص] وجاء في كتاب فرنسي عن «الصيدلة التطبيقية» ، لمؤلفه M . Deschamps ، بأن الأسفيداج هذا هو «كاربونات الرصاص» .

وَحضر الحُسَيْن بن مخلد فختم على خزانته وَحمل إِلَى دَار المتَوَكل مَا صلح مِنْهَا وَبَاعَ شَيْئا كثيرا .

وَبَقِي بعد ذَلِك حطب وفحم ونبيذ وتوابل فَاشْتَرَاهُ الحُسَيْن بن مخلد بِستَّة آلاَف دِينَار .

وَذكر أَنه بَاعَ من جملَته بمبلغ ثَمَانِيَة آلاَف دِينَار ثمَّ حسده حمدون ووشى إِلَى المتَوَكل .

وبذل فِيمَا بَقي فِي يَده ممَّا ابتاعه ستَّة آلاَف دِينَار .

فَأُجيب إِلَى ذَلِك وَسلم إِلَيْه فَبَاعَهُ بِأَكْثَرَ من الضعْف .

وَكَانَ هَذَا فِي سنة أَربع وَأَرْبَعين وَمائَتَيْن للْهِجْرَة .

قَالَ فثيون الترجمان كَانَ المعتز بِاللَّه قد اعتل فِي أَيَّام المتَوَكل عِلّة من حرارة امْتنع مَعهَا من أَخذ شَيْء من الأَدْوِيَة والأغذية .

فشق ذَلِك على المتَوَكل كثيرا واغتم بِه .

وَصَارَ إِلَيْه بختيشوع والأطباء عِنْده وَهُوَ على حَاله فِي الامْتنَاع فمازحه وحادثه فَأدْخل المعتز يَده فِي كم جُبَّة وشي يَمَان مثقله كَانَت على بختيشوع وَقَالَ مَا أحسن هَذَا الثَّوْب فَقَالَ بختيشوع يَا سَيِّدي مَا لَهُ وَالله نَظِير فِي الْحسن وثمنه عَليّ ألف دِينَار فَكل لي تفاحتين وَخذ الجُبَّة .

فَدَعَا بتفاح فَأكل اثْنَتَيْن ثمَّ قَالَ لَهُ تحْتَاج يَا سَيِّدي الجُبَّة إِلَى ثوب يكون مَعهَا وَعِنْدِي ثوب هُوَ أَخ لَهَا فَاشْرَبْ لي شربة سكنجبين[1] وخذه .

فَشرب شربة سكنجبين .

وَوَافَقَ ذَلِك اندفاع طَبِيعَته فبرأ المعتز وَأخذ الجُبَّة وَالثَّوْب وَصلح من مَرضه .

فَكَانَ المتَوَكل يشْكر هَذَا الْفِعْل أبدا لبختيشوع .

وَقَالَ ثَابت بن سِنَان بن ثَابت أَن المتَوَكل اشْتهى فِي بعض الأَوْقَات الحارة أَن يَأْكُل مَعَ طَعَامه خردلا فَمَنعه الأَطِبَّاء من ذَلِك لحدة مزاجه وحرارة كبده وغائلة الْخَرْدَل .

فَقَالَ بختيشوع أَنا أطعمك إِيَّاه وَإِن ضرك عَليّ فَقَالَ افْعَل .

فَأمر بإحضار قرعَة وَجعل عَلَيْهَا طينا وَتركهَا فِي تنور واستخرج ماءها وَأمر بِأَن يقشر الْخَرْدَل وَيضْرب بِمَاء القرع .

(١) شراب مركَّب من حامِض وحلو فارسيَّته : سركا انكَبين

وَقَالَ إن الخُرْدَل فِي الدرجَة الرَّابِعَة من الحَرَارَة والقرع فِي الدرجَة الرَّابِعَة من الرُّطُوبَة فيعتدلان فَكل شهوتك .

وَبَات تِلْكَ اللَّيْلَة وَلم يحس بشَيْء من الأَذَى وَأصْبح كَذَلِك .

فَأمر بِأَن يحمل إِلَيْه ثلثمائة ألف دِرْهَم وَثَلاَثُونَ تختا من أَصْنَاف الثِّيَاب .

وَقَالَ إِسْحَق بن عَلِيّ الرهاوي عَن عِيسَى بن ماسة قَالَ رَأَيْت بختيشوع بن جِبْرَائِيل وَقد اعتل فَأمر أَمِير الْمُؤمنِينَ المتَوَكل والمعتز أَن يعودهُ وَهُوَ إِذْ ذَاك ولي عهد .

فعاده وَمَعَهُ مُحَمَّد بن عبد الله بن طَاهِر ووصيف التركي قَالَ وَأَخْبرنِي إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد الْمَعْرُوف بِابْن الْمُدبر أَن المتَوَكل أَمر الْوَزير شفاها وَقَالَ لَهُ اكْتُبْ فِي ضِيَاع بختيشوع فَإِنَّهَا ضياعي وملكي فَإِن مَحَله منا مَحل أَرْوَاحنَا من أبداننا .

وَقَالَ عبيد الله بن جِبْرَائِيل بن عبيد الله بن بختيشوع هَذَا الْمَذْكُور مِمَّا يدل على منزلَة بختيشوع عِنْد المتَوَكل وانبساطه مَعَه قَالَ من ذَلِك مَا حَدثنَا بِهِ بعض شُيُوخنَا أَنه دخل بختيشوع يَوْمًا إِلَى المتَوَكل وَهُوَ جَالس على سدة فِي وسط دَار الخَاصَّة فَجَلَسَ بختيشوع على عَادَته مَعَه على السدة وَكَانَ عَلَيْهِ دراعة ديباج رومي وَقد انفتق ذيلها قَلِيلا فَجعل المتَوَكل يحادث بختيشوع ويعبث بذلك الفتق حَتَّى بلغ إِلَى حد النيفق .

وَدَار بَينهمَا كَلاَم اقْتضى أَن سَأَلَ المتَوَكل بختيشوع بِمَاذَا تعلم أَن المشوش يحْتَاج إِلَى الشد والقيادة قَالَ إِذا بلغ فتق دراعة طبيبه إِلَى حد النيفق شددناه .

فَضَحِك المتَوَكل حَتَّى اسْتلْقى على ظَهره وَأمر لَهُ فِي الحَال بخلع سنية وَمَال جزيل .

وَقَالَ أَبُو الريحان البيروني (١) فِي كتاب الجَماهِر فِي الجَوَاهِر أَن المتَوَكل جلس يَوْمًا لهدايا النيروز فَقدم إِلَيْهِ كل علق نَفِيس وكل ظريف فاخر .

وَإِن طبيبه بختيشوع بن جِبْرَائِيل دخل وَكَانَ يأنس بِهِ فَقَالَ لَهُ مَا ترى فِي هَذَا الْيَوْم فَقَالَ مثل جرياشات الشحاذين إِذْ لَيْسَ قدر وَأَقْبل على مَا معي .

ثمَّ أخرج من كمه درج أبنوس مضبب بِالذَّهَب وفتحه عَن حَرِير أَخْضَر انْكَشَفَ عَن ملعقة كَبِيرَة من جَوْهَر لمع مِنْهَا شهَاب ووضعها بَين يَدَيْهِ فَرَأى المتَوَكل مَا لاَ عهد

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البَيْرُوني عالم مسلم كان رحّالةً وفيلسوفًا وفلكيًا وجغرافيًا وجيولوجيًا ورياضياتيًا وصيدليًا ومؤرخًا ومترجمًا لثقافات الهند .

لَهُ بمثله وَقَالَ من أَيْن لَك هَذَا قَالَ من النَّاس الْكِرَام ثمَّ حدث أَنه صَار إِلَى أبي من أم جَعْفَر زبيدة فِي ثَلَاث مَرَّات ثلثمائة ألف دِينَار بِثَلَاث شكايات عالجها فِيهَا واحدتها أَنَّهَا شكت عارضا فِي حلقها منذرة بالخناق فَأَشَارَ إِلَيْهَا بالفصد والتطفئة والتغدي بحشو وَصفه فَاحْضُرْ على نسخته فِي غضارة صينية عَجِيبَة الصّفة وفيهَا هَذِه الملعقة فغمزني أبي على رَفعهَا فَفعلت ولففتها فِي طيلساني وجاذبنيها الْخَادِم .

فَقَالَت لَهُ لاطفه ومره بردهَا وعوضه منْهَا عشرَة آلَاف دِينَار .

فامتنعت وَقَالَ أبي يَا ستي إِن ابْني لم يسرق قطّ فَلَا تفضحيه فِي أول كراته لِئَلَّا ينكسر قلبه .

فَضَحكت ووهبتها لَهُ .

وَسُئِلَ عَن الأخرتين فَقَالَ إِنَّهَا اشتكت إِلَيْه النكهة بإخْبَار إِحْدَى بطانتها إِيَّاهَا وَذكرت أَن الْمَوْت أسهل عَلَيْهَا من ذَلِك فجوعها إِلَى الْعَصْر وأطعمها سمكًا ممقورا وسقاها دردي نَبِيذ دقل بإكراه فغثت نَفسهَا وقذفت .

وَكرر ذَلِك عَلَيْهَا ثَلَاثَة أَيَّام ثمَّ قَالَ لَهَا تنكهي فِي وَجه من أخْبرك بذلك واستخبريه هَل زَالَ وَالثَّالِثَة أَنَّهَا أشرفت على التّلف من فوَاق شَدِيد يسمع من خَارج الْحُجْرَة فَأمر الخدم بإصعاد خوابي إِلَى سطح الصحن وتصفيفها حوله على الشفير وملأها مَاء وَجلسَ خَادِم خلف كل جب حَتَّى إِذا صفق بِيَدِه على الْأُخْرَى دفعوها دفْعَة إِلَى وسط الدَّار فَفَعَلُوا وارتفع لذَلِك صَوت شَدِيد أرعبها فَوَثَبت وزايلها الفواق .

قَالَ أَبُو عَليّ القباني حَدثنِي أبي قَالَ دخلت يَوْمًا إِلَى بختيشوع وَكَانَ من أَيَّام الصَّيف وَجَلَست فَإِذا هُوَ قد رفع طرفه إِلَى خادمه وَقَالَ لَهُ هَات .

فجَاء بقدح فِيهِ نَحْو نصف رَطْل شراب عَتيق وعَلى طرف خلالة ذهب شَيْء أسود فمضغه ثمَّ شرب الشَّرَاب عَلَيْهِ وصبر سَاعَة فَرَأَيْت وَجهه يتقد كالنار .

ثمَّ دَعَا بأطباق فِيهَا خوخ جبلي فِي نِهَايَة الْحسن فَأقبل يقطع وَيَأْكُل حَتَّى انْتهى وَسكن تلهبه وَعَاد وَجهه إِلَى حَاله .

فَقلت لَهُ حَدثنِي بخبرك فَقَالَ اشْتهيت الخوخ شَهْوَة شَدِيدَة وَخفت ضررها فاستعملت الترياق وَالشرَاب حَتَّى نقرت الْحجر ليجيد الطَّحْن .

وَقَالَ أَبُو عَليّ القباني(١) عَن أَبِيه قَالَ حَدثنِي مُحَمَّد بن دَاوُد بن الْجراح قَالَ كَانَ

(١) الإمام ، الحافظ ، الثقة ، شيخ المحدثين بخراسان أبو علي ، الحسين بن محمد بن زياد النيسابوري .

بختيشوع الطَّبيب صديقا لأبي وَكَانَ لنا نديم كثير الأكل عَظِيم الخلق فَكَانَ كلما رَآهُ قَالَ لَهُ أُرِيد أَن تركب لي شربة وأبرمه إِلَى أَن وصف لَهُ دَوَاء فِيهِ شحم الحنظل وسقمونيا وَقَالَ بختيشوع لأبي ملاك الأَمر كُله أَن يَأْكُل أكلا خَفِيفا ويضبط نَفسه فِيمَا بعد عَن التَّخْلِيط فأطعم يَوْم الحمية فِي دَارنَا وَاقْتصر على اسفيدباج من ثَلَاثَة أَرْطَال خبز فَلَمَّا استوفى ذَلِك طلب زِيَادَة عَلَيْهِ فَمنع واعتقله أبي عِنْده إِلَى آخر الْأَوْقَات وَوجه إِلَى امْرَأَته يوصيها أَن لَا تدع شَيْئا يُؤْكَل فِي دَاره .

وَلما علم أَن الْوَقْت قد ضَاقَ عَلَيْهِ أطلقهُ إِلَى منزله .

فَطلب من امْرَأَته شَيْئا يَأْكُلهُ فَلم يجد عِنْدهَا شَيْئا .

وَكَانَت قد أغفلت برنية فِيهَا فتيت على الرف فَوَجَدَهُ وَأخذ مِنْهُ أرطالا .

ثمَّ أصبح وَأخذ الدَّوَاء فتحير وورد على الْمعدة وَهِي ملأى فَلم يُؤثر وَتَعَالَى النَّهَار فَقَالَ قد خرف بختيشوع .

وَعمد إِلَى عشرَة أَرْطَال لحم شرائح فَأَكلهَا مَعَ عشرَة أَرْطَال خبز وَشرب دورقا مَاء بَارِدًا .

فَلَمَّا مَضَت سَاعَة طلب الدَّوَاء طَرِيقا لِلْخُرُوجِ من فَوق أَو من أَسْفَل فَلم يجد فانتفخت بَطْنه وَعلا نَفسه وَكَاد يتْلف .

وصاحت امْرَأَته واستغاثت بِأبي .

فَدَعَا بمحمل وَحمل فِيهِ إِلَى بختيشوع وَكَانَ ذَلِك الْيَوْم حارا جدا .

وَكَانَ بختيشوع حِين انْصَرف من دَاره وَهُوَ ضجر .

فَسَأَلَ عَن حَاله إِلَى أَن علم شرح أمره .

وَكَانَ فِي دَاره أَكثر من مِائَتي طير من الطيطويات والحصانيات والبيضانيات وَمَا يجْرِي مجْرَاهَا .

وَلها مسقاة كَبِيرَة مَمْلُوءَة مَاء وَقد حمي فِي الشَّمْس وذرقت فِيهِ الطُّيُور .

فَدَعَا بملح جريش وَأمر بطرحه فِي المسقاة كُله وتذويبه فِي المَاء ودعا بقمع وَسَقَى الرجل كُله وَهُوَ لَا يعقل وَأمر بالتباعد عَنهُ .

فَأتى من طَبِيعَته فَوق وأسفل أَمر عَظِيم جدا حَتَّى ضعف .

وحفظت قوته بالرائحة الطّيبَة وبماء الدراج .

وأفاق بعد أَيَّام وعجبنا من صَلَاحه .

وَسَأَلنَا عَنهُ بختيشوع فَقَالَ فكرت فِي أمره فَرَأَيْت أَنِّي أَن اتَّخذت لَهُ دَوَاء طَال

أمره حَتَّى يطْبخ ويسقى فَيَمُوت إِلَى ذَلِك الْوَقْت .

وَنحن نعالج أَصْحَاب القولنج[1] الشَّدِيد بذرق الْحمام وَالْملح .

وَكَانَ فِي المسقاة المَاء فِي الشَّمْس وَقد سخن وَاجْتمعَ فِيهِ من ذرق الْحمام مَا يحْتَاج إِلَيْهِ وَكَانَ أسْرع تناولا من غَيره فعالجته بِهِ ونجع بِحَمْد الله .

ونقلت من بعض الْكتب أَن بختيشوع كَانَ يَأْمر بالحقن وَالْقَمَر مُتَّصِل بالذنب فَيحل القولنج من سَاعَته وَيَأْمُر بِشرب الدَّوَاء وَالْقَمَر على مناظرة الزهرة فصلح العليل من يَوْمه .

وَلما توفّي بختيشوع خلف عبيد الله وَلَده وَخلف مَعَه ثَلَاث بَنَات .

وَكَانَ الوزراء والنظار يصادرونهم ويطالبونهم بالأموال .

فتفَرَّقُوا وَاخْتلفُوا .

وَكَانَ مَوته يَوْم الأُحَد لثمان بَقينَ من صفر سنة سِتّ وَخمسين وَمِائَتَيْنِ .

وَمن كَلَام بختيشوع بن جِبْرَائيل قَالَ .

الشّرْب على الْجُوع رَدِيء وَالْأكل على الشِّبَع أردأ .

وَقَالَ أكل الْقَلِيل مِمَّا يضر أصلح من أكل الْكثير مِمَّا ينفع .

ولبختيشوع بن جِبْرَائِيل من الْكتب كتاب فِي الْحجامَة على طَرِيق المسئلة وَالْجَوَاب

جِبْرَائِيل بن عبيد الله

جِبْرَائِيل بن عبيد الله بن بختيشوع كَانَ فَاضلا عَالما متقنا لصناعة الطِّبّ جيدا فِي أَعمالهَا حسن الدِّرَايَة لَهَا .

وَله تصانيف جليلة فِي صناعَة الطِّبّ .

وَكَانَت أجداده فِي هَذِه الصِّنَاعَة كل مِنْهُم أوحد زَمَانه وعلامة وقته .

ونقل عن عبيد الله ولد هَذَا الْمَذْكُور فِي أخباره عَن أَبِيه جِبْرَائِيل مَا هَذَا مِثَاله .

قَالَ أَن جدي عبيد الله بن بختيشوع كَانَ متصرفا وَلما ولي المقتدر رَحْمَة الله عَلَيْهِ الْخلَافَة استكْتَبَهُ لحضرته وَبَقِي مُدَّة مديدة ثمَّ توفّي .

وَخلف وَالِدي جِبْرَائِيل وأختا كَانَت مَعَه صغيرين .

(١) مرضٌ مِعَويّ مؤلمٌ يصعب معه خروج البِراز والريح ، وسببه التهاب القولون

وأنفذ المقتدر لَيْلَة مَوته ثَمَانِينَ فراشا حمل الْمَوْجُود من رَحل وأثاث وآنية .
وَبعد مواراته فِي الْقَبْر اختفت زَوجته وَكَانَت ابْنة إِنْسَان عَامل من أجلاء الْعمَّال يعرف بالحرسون .
فَقبض على والدها بِسَبَبِهَا وَطلب مِنْهُ ودائع بنت بختيشوع وَأخذ مِنْهُ مَالا كثيرا وَمَات عقيب مصادرته .
فَخرجت ابْنَته وَمَعَهَا وَلَدهَا جِبْرَائِيل وَأُخْته وهما صغيران إِلَى عكبراء مستترين من السُّلْطَان .
وَاتفقَ أَنَّهَا تزوجت بِرَجُل طَبِيب وصرفت وَلَدهَا إِلَى عَم كَانَ لَهُ بدقوقاء وأقامت مُدَّة عِنْد ذَلِك الرجل وَمَاتَتْ وَأخذ مَا كَانَ مَعهَا جَمِيعه وَدفع وَلَدهَا .
فَدخل جِبْرَائِيل إِلَى بَغْدَاد وَمَا مَعَه إِلَّا الْيَسِير النزر .
وَقصد طَبِيبا كَانَ يعرف بترمرة فلازمه وَقَرَأَ عَلَيْهِ وَكَانَ من أطباء المقتدر وخواصه .
وَقَرَأَ على يُوسُف الوَاسِطِيّ الطَّبِيب ولازم البيمارستان وَالْعلم والدرس .
وَكَانَ يأوي إِلَى أخوال لَهُ يسكنون بدار الرّوم وَكَانُوا يسيئون عشرتهم عَلَيْهِ ويلومونه على تعرضه للْعلم والصناعة ويمجنون مَعَه وَيَقُولُونَ يُرِيد أَن يكون مثل جده بختيشوع وجبرائيل وَمَا يرضى أَن يكون مثل أَخْوَاله وَهُوَ لاَ يلْتَفت إِلَى مثل أَقْوَالهم .
وَاتفقَ أَن جَاءَ رَسُول من كرمان إِلَى معز الدولة[1] وَحمل لَهُ الْحمار المخطط وَالرجل الَّذِي كَانَ طوله سَبْعَة أشبار وَالرجل الَّذِي كَانَ طوله شبرين وَاتفقَ أَنه نزل فِي قصر فرخ من الْجَانِب الشَّرْقِي قَرِيبا من الدّكان الَّذِي كَانَ يجلس عَلَيْهِ وَالِدي جِبْرَائِيل وَصَارَ ذَلِك الرَّسُول يجلس عِنْده كثيرا ويحادثه ويباسطه .

(١) هو السلطان البويهي أبو الحسن أحمد بن بويه الديلمي ، الملقب بمعز الدولة ، أول من تملك من سلاطين الدولة البويهية وهي دولة شيعية أهلها من الديالمة ، وبلادهم في الجنوب الغربي لبحر قزوين ، تسلطت هذه الدولة على الخلافة العباسية ابتداءً من عهد الخليفة المطيع لله سنة ٣٣٤هـ ، وهي السنة التي دخل فيها معز الدولة أحمد بن بويه بغداد واستلم السلطة الفعلية في الخلافة ، لقد بلغت الحياة الثقافية في العهده ذروتها فشملت حقل الاداب بما فيها من نثر وشعر وتطورت الدراسات اللغوية وازدهرت الحياة العقلية وتكاملت العلوم الفقهية وظهرت البحوث في التاريخ والجغرافيا والهندسة والطب وعلم الفلك كما برزت الحركة الصوفية والدراسات الدينية على مختلف مواضيعها

فَلَمَّا كَانَ فِي بعض الأَيَّام استدعاه وشاوره بالفصد فَأَشَارَ بِهِ وفصده وَتردد إِلَيْهِ يَوْمَيْنِ فأنفذ لَهُ على رسم الديلم الصينية الَّتِي كَانَت فِيهَا العصائب والطشت والإبريق وَجَمِيع الْآلَة .

ثمَّ استدعاه وَقَالَ لَهُ ادخل إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْم وَانْظُر مَا يصلح لَهُم وَكَانَ مَعَ الرَّسُول جَارِيَة يهواها قد عرض لَهَا نزف الدَّم وَلَا بَقِي بِفَارِس وَلَا بكرمان وَلَا بالعراق طَبِيب مَذْكُور إِلَّا وعالجها وَلم ينجح فِيهَا العلاج فعندما رَآهَا رتب لَهَا تدبيرا وَعمل لَهَا معجونا وسقاها إِيَّاه فَمَا مضى عَلَيْهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا حَتَّى بَرِئت وَصلح جسمها وَفَرح الرَّسُول بذلك فَرحا عَظِيما .

فَلَمَّا كَانَ بعد مُدَّة استدعاه وَأَعْطَاهُ ألف دِرْهَم ودراعة سقلاطون(١) وثوبا توثيا وعمامة قصب وَقَالَ لَهُ طالبهم بحقك فَأَعْطَتْهُ الْجَارِيَة ألف دِرْهَم وقطعتين من كل نوع من الثِّيَاب وَحمل على بغله بمركب وَاتبع ذَلِك بمملوك زنجي فَخرج وَهُوَ أحسن حَالا من أحد أَخْوَاله .

فَلَمَّا رَأَوْهُ وَثبُوا لَهُ وتلقوه لقيا جميلا فَقَالَ لَهُم للثياب تكرمون لَا لي .

فَلَمَّا مضى الرَّسُول انْتَشَر ذكره بِفَارِس وبكرمان بِمَا عمل وَكَانَ ذَلِك سَبَب خُرُوجه من شيراز .

فَلَمَّا دخل رفع خَبره إِلَى عضد الدولة(٢) وَكَانَ أول تبوئه ولَايَته شيراز واستدعى بِهِ فَحَضَرَ واحضر مَعَه رِسَالَة فِي عصب الْعين تكلم فِيهَا بِكَلَام حسن فَحسن موقعه عِنْده وَقرر لَهُ جَار وجراية كالباقين ثمَّ أَنه عرض لكوكين زوج خَالَة عضد الدولة وَهُوَ وَالِي كورة جورقب مرض واستدعى طَبِيبا فأنفذه عضد الدولة فَلَمَّا وصل أكْرم مَوْضِعه وأجله إجلالا عَظِيما .

وَكَانَ بِهِ وجع المفاصل والنقرس وَضعف الأحشاء فَركب لَهُ جوارشن تفاحي وَذَلِكَ فِي سنة سبع وَخمسين وثلثمائة لِلْهِجْرَةِ فَانْتَفع بِهِ مَنْفَعَة بَيِّنَة عَظِيمَة فأجزل لَهُ

---

(١) نوعٌ من الثّياب

(٢) عضد الدولة بن بويه (٩٣٦-٩٨٣) كان ملكا على بلاد شيراز وما حولها من الأطراف ولد بأصفهان ، فتح قرمان وعمان ، هزم الترك في واسط ، وظفر بالعراق بعد استيلائه على بغداد سنة ٩٥٥م ، غزا جرجان وطبرستان ، عرف برعايته للعلماء واحسانه على الفقراء ، وفد عليه كثير من الشعراء منهم ابن بابك وأبو الطيب المتنبي . كان عضد الدولة ملكا فطنا وذا تدبير .

عطاءه وأكرمه ورده إِلَى شيراز مكرما .

ثمَّ أَن عضد الدولة دخل إِلَى بَغْدَاد وَهُوَ مَعَه من خاصته وجدد البيمارستان وَصَارَ يَأْخُذ رزقين وهما برسم خَاص ثلثمِائة دِرْهَم شجاعية وبرسم البيمارستان ثلثمائة دِرْهَم شجاعية سوى الجراية .

وَكَانَت نوبَته فِي الأسبوع يَوْمَيْنِ وليلتين .

وَاتفقَ أَن الصاحب بن عباد(١) رَحمَه الله تَعَالَى عرض لَهُ مرض صَعب فِي معدته فكاتب عضد الدولة يلْتَمس طبيا .

وَكَانَ عمله وَفعله وفضله مَشْهُورا فَأمر عضد الدولة بِجمع الْأَطِبَّاء البغداديين وَغَيرهم وشاورهم فِيمَن يصلح أَن ينفذ إِلَيْهِ .

فَلَمَّا جمعهم واستشارهم .

فَأَشَارَ جَمِيع الْأَطبَّاء على سَبِيل الأبعاد لَهُ من بَينهم وحسدا على تقدمه مَا يصلح أَن يلقى مثل هَذَا الرجل إِلاَّ أَبُو عِيسَى جِبْرَائِيل لأَنَّهُ مُتَكَلم جيد الْحجَّة عَالم باللغة الفارسية .

فَوَقع ذَلِك بوفاق عضد الدولة فَأطلق لَهُ مَالا يصلح بِهِ أمره وَحمل إِلَيْهِ مركوب جميل وبغال للْحَمْل وسيره .

فَلَمَّا وصل الرّيّ تَلقاهُ الصاحب لِقَاء جميلا وأنزله فِي دَار مزاحة الْعِلَل بفراش وطباخ وخازن ووكيل وبواب وَغَيره .

وَلما أَقَامَ عِنْده أسبوعا استدعاه يَوْمًا وَقد أعد عِنْده أهل الْعلم من أَصْنَاف الْعُلُوم .

ورتب لمناظرته إنْسَانا من أهل الرّيّ وَقد قَرَأَ طرفا من الطِّبّ .

فَسَأَلَهُ عَن أَشْيَاء من أَمر النبض فعلم هُوَ مَا الْغَرَض فِي ذَلِك .

فَبَدَأَ وَشرح أَكثر مِمَّا تحتمله الْمَسْأَلَة .

وَعلل تعليلات لم يكن فِي الْجَمَاعَة من سمع بهَا .

وَأورد شكوكا ملاحا وحلها فَلم يكن فِي الْحُضُور إِلاَّ من أكْرمه وعظمه .

وخلع عَلَيْهِ الصاحب خلعا حَسَنَة وَسَأَلَهُ أَن يعْمل لَهُ كناشا يخْتَص بِذكر

(١) أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عباس بن عباد بن أحمد بن إدريس القزويني ، الطالقاني ، الاصفهاني ، المعروف بالصاحب بن عباد و«كافي الكفاة» ، كان من كبار علماء وأدباء الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، مشارك في مختلف العلوم كالحكمة والطب والمنطق ، وكان محدثاً ثقة .

الأُمْرَاض الَّتِي تعرض من الرَّأْس إِلَى الْقدَم وَلاَ يخلط بهَا غَيرهَا .

فَعمل كناشة الصَّغِير وَهُوَ مَقْصُور على ذكر الأُمْرَاض الْعَارِضَة من الرَّأْس إِلَى الْقدَم حَسْبَمَا أَمر الصاحب بِهِ .

وَحمله إِلَيْهِ فَحسن موقعه عِنْده وَوَصله بشَيْء قيمَته ألف دِينَار .

وَكَانَ دَائِما يَقُول صنفت مائَتي ورقة أخذت عَنْهَا ألف دِينَار .

وَرفع خَبَره إِلَى عضد الدولة فأعجب بِهِ وَزَاد مَوْضِعه عِنْده .

فَلَمَّا عَاد من الرّيّ دخل إِلَى بَغْدَاد بزِي جميل وَأمر مُطَاع وغلمان وحشم وخدم وصادف من عضد الدولة مَا يسره ويختاره .

قَالَ وحَدثنِي من أَثِق إِلَيْهِ أَنه دخل الأُطِبَّاء ليهنئوه بوروده وسلامته .

فَقَالَ أَبُو الْحُسَيْن بن كشكرايا تلميذ سِنَان يَا أَبَا عِيسَى زرعنا وأكلت وأردناك تبعد فازددت قربا لأَنَّهُ كَانَ كَمَا تقدم ذكره .

فَضَحِك جِبْرَائِيل من قَوْله وَقَالَ لَهُ لَيْسَ الأُمُور إِلَيْنَا بل لَهَا مُدبر وَصَاحب .

وَأقَام بِبَغْدَاد مُدَّة ثَلَاث سِنِين .

واعتل خسرو شاه بن مبادر ملك الديلم وآلت حَاله إِلَى المراقبة وَنحل جِسْمه وَقَوي استشعاره .

وَكَانَ عِنْده اثْنَا عشر طَبِيبا من الرّيّ وَغَيرهَا وَكلما عالجوه ازْدَادَ مَرضه .

فأنفذ إِلَى الصاحب يلْتَمس مِنْهُ طَبِيبا .

فَقَالَ مَا أعرف من يصلح لهَذَا الأَمر إِلاَّ أَبُو عِيسَى جِبْرَائِيل .

فَسَأَلَهُ مُكَاتبَته لما بَينهمَا من الإِنْس وَكَاتب عضد الدولة يسْأَل إِنْفَاذه ويعلمه أَن حَاله قد آلت إِلَى أَمر لاَ يحْتَمل الونية فِي ذَلِك .

فأنفذه مكرما .

فَلَمَّا وصل إِلَى الديلمي قَالَ لَهُ مَا أعالجك أَو ينْصَرف من حولك من أطباء .

فصرف الأُطِبَّاء مكرمين وَأقَام عِنْده وَسَأَلَهُ أَن يعْمل فِي صُورَة الْمَرَض مقَالَة يقف على حَقِيقَته وتدبير يختاره ويعول عَلَيْهِ فَعمل لَهُ مقَالَة ترجمها فِي ألم الدِّمَاغ بمشاركة فَم الْمعدة والحجاب الْفَاصِل بَين آلَات الْغذَاء وَآلَات التنفس الْمُسَمّى ذيا فرغما .

وَلما اجتاز بالصاحب سَأَلَهُ عَن أفضل استقساط الْبدن فَقَالَ هُوَ الدَّم فَسَأَلَهُ أَن يعْمل لَهُ فِي ذَلِك كتابا يبرهن عَلَيْهِ فِيهِ فَعمل فِي ذَلِك مقَالَة مليحة بَين فِيهَا

الْبَرَاهِين الَّتِي تدل على هَذَا وَكَانَ فِي هَذِه الْمدَّة مستعجلا للْعَمَل كناشة الْكَبِير .

وَلما عَاد إِلَى بَغْدَاد وَكَانَ عضد الدولة قد مَاتَ فَأَقَامَ بِبَغْدَاد سِنِين مشتغلا بالتصنيف فتمم كناشة الْكَبِير وَسَماهُ بالكافي بلقب الصاحب بن عباد لمحبته لَهُ ووقف مِنْهُ نُسْخَة على دَار الْعلم بِبَغْدَاد .

وَعمل كتاب الْمُطَابقَة بَين قَول الْأَنْبِيَاء والفلاسفة وَهُوَ كتاب لم يعْمل فِي الشَّرْع مثله لِكَثْرَة احتوائه على الْأَقَاوِيل وَذكر الْمَوَاضِع الَّتِي استخرجت مِنْهَا وَأكْثر فِيهِ من أَقْوَال الفلاسفة فِي كل معنى لغموضها وَقلة وجودهَا وقلل من الْأَقَاوِيل الشَّرْعِيَّة لظهورها وَكَثْرَة وجودهَا وَفِي هَذِه الْمدَّة عمل مقَالَة فِي الرَّد على الْيَهُود جمع فِيهَا أَشْيَاء مِنْهَا جَوَاز النّسخ من أَقْوَال الْأَنْبِيَاء وَمِنْهَا شَهَادَات على صِحَة مَجِيء الْمَسِيح وَأَنه قد كَانَ وأبطل انتظارهم لَهُ وَمِنْهَا صِحَة القربان بالخبز وَالْخمر وَعمل مقالات أخر كَثِيرَة صغَارًا مِنْهَا لم جعل من الْخمر قرْبَان وَأَصله محرم وَأَبَان علل التَّحْلِيل وَالتَّحْرِيم .

وَعرض لَهُ أَن سَافر إِلَى بَيت الْمُقَدّس وَصَامَ بِهِ يَوْمًا وَاحِدًا وَعَاد مِنْهُ إِلَى دمشق واتصل خَبره بالعزيز رَحمَه الله وكوتب من الحضرة بِكِتَاب جميل فاحتج أَن لَهُ بِبَغْدَاد أَشْيَاء يمْضِي وينجزها وَيعود إِلَى الحضرة قَاصِدا ليفوز بِحَق الْقَصْد فحين عَاد إِلَى بَغْدَاد أَقَامَ بهَا وَعدل عَن الْمُضِيّ إِلَى مصر .

ثمَّ إِن ملك الديلم أنفذ خَلفه واستدعاه فَعِنْدَ حُصُوله بِالريِّ وقف بهَا نُسْخَة من كناشة الْكَبِير .

قَالَ وَبَلغنِي أَن البيمارستان يعْمل بهَا وَأَنه يعرف بِهِ بَين أطبائهم إِذا ذكر أَبُو عِيسَى صَاحب الكناش .

وَأقَام عِنْد ملك الديلم مُدَّة ثَلَاث سِنِين وَخرج من عِنْده على سَبِيل الْغَضَب وَكَانَ قد حلف لَهُ بِالطَّلَاق أَنه مَتى اخْتَار الِانْصِرَاف لَا يمنعهُ فَلم يُمكنهُ رده .

وَجَاء إِلَى بَغْدَاد وَأقَام بهَا مُدَّة .

ثمَّ أَنه استدعي إِلَى الْموصل إِلَى حسام الدولة فعالجه من مرض كَانَ بِهِ .

وَجرى لَهُ مَعَه شَيْء استعظمه وَكَانَ أبدا يُعِيدهُ عَنهُ .

وَذَلِكَ أَنه كَانَت لَهُ امْرَأَة عليلة بِمَرَض حاد فَأَشَارَ بِحِفْظ القارورة وَاتفقَ أَنه عِنْد حسان الدولة وَقَالَ لَهُ هَذِه المرأة تَمُوت فانزعج لذَلِك وَنظرت الْجَارِيَة إِلَى انزعاجه وصرخت وخرقت ثِيَابهَا وَولَّتْ فاستدعاها فِي الْحَال وَقَالَ لَهَا جرى فِي أَمر هَذِه المرأة

شَيْء لاَ أعلمهُ فَحَلَفت أَنَّهَا لم تجَاوز التَّدْبير .

فَقَالَ لَعَلَّكُمْ خضبتموها بِالْحِنَّاء قَالَت قد كَانَ ذَلِك .

فحرد وَقَالَ لِلْجَارِيَة أقوالا ثمَّ قَالَ لحسام الدولة أبشر بعد ثَلاَثَة أَيَّام تبرأ فَكَانَ كَمَا قَالَ فَعظم هَذَا عِنْده وَكَانَ أبدا يُعيدهُ ويتعجب مِنْهُ .

وَلما عَاد إِلَى بَغْدَاد كَانَ العميد لاَ يُفَارِقهُ ويلازمه ويبايته فِي دَار الوزارة لأجل الْمَرَض الَّذي كَانَ بِهِ وحظي لَدَيْهِ .

ثمَّ أَن الأُمير ممهد الدولة أنفذ إِلَيْهِ ولاطفه حَتَّى أصعد إِلَى ميافارقين فَلَمَّا وصل إِلَيْهِ أكْرمه الإِكْرَام الْمَشْهُور عِنْد كل من كَانَ يرَاهُ .

وَمن لطيف مَا جرى لَهُ مَعَه أَنه أول سنة ورد فِيهَا سقى الأُمير دَوَاء مسهلا وَقَالَ لَهُ يجب أَن تَأْخُذ الدَّوَاء سحرًا فَعمد الأُمير وَأَخذه أول اللَّيْل فَلَمَّا أصبح ركب إِلَى دَاره وَوصل إِلَيْهِ وَأخذ نبضه وَسَأَلَهُ عَن الدَّوَاء فَقَالَ لَهُ مَا عمل معي شَيْئا امتحانا لَهُ فَقَالَ جِبْرَائِيل النبض يدل على نَفاذ دَوَاء الأُمير وَهُوَ أصدق .

فَضَحِك ثمَّ قَالَ لَهُ كم ظَنك بالدواء فَقَالَ يعْمل مَعَ الأُمِير خَمْسَة وَعشْرين مَجْلسا وَمَعَ غَيره زَائِدا وناقصا .

فَقَالَ لَهُ .

عمل معي إِلَى الْآن ثَلاَثَة وَعشْرين مَجْلسا فَقَالَ وَهُوَ يعْمل تَمام مَا قلت لَك .

ورتب مَا يَسْتَعْمِلهُ وَخرج من عِنْده مغضبا وَأمر أَن يشد رَحْله وَيصْلح أَسبَاب الانْصِرَاف .

فَبلغ ممهد الدولة ذَلِك وانفذ إِلَيْهِ يستعلم خبر انْصِرَافه .

فَقَالَ مثلي لاَ يجرب لأنني أشهر من أَن احْتَاجَ إِلَى تجربة .

فأرضاه وَحمل إِلَيْهِ بغلة ودراهم لَهَا قدر .

وَفِي هَذِه الْمدَّة كَاتبه ملك الديلم بكتب جميلَة يسْأَله فِيهَا الزِّيَارَة وَكَاتب ممهد الدولة يسْأَله فِي ذَلِك .

فَمنع من الْمُضِيّ وَأقَام فِي الْخدمَة ثَلاَث سِنِين حتى تُوفِّي

خصيب

كَانَ نَصْرَانِيّا من أهل الْبَصْرَة ومقامه بهَا وَكَانَ فَاضلا فِي صناعَة الطِّبّ جيد المعالجة .

حدث مُحَمَّد بن سَلام الجُمَحِي[١] قَالَ مرض الحكم بن مُحَمَّد بن قنبر الْمَازِني الشَّاعِر بِالْبَصْرَة فَأتوهُ بخصيب الطَّبِيب يعالجه فَقَالَ فِيه .

(وَلَقَد قلت لأهلي إِذْ أَتَوْني بخصيب)
(لَيْسَ وَالله خصيب لِلَّذي بِي بطبيب)
(إِنَّمَا يعرف دأبي من بِه مثل الَّذي بِي)

وَحدث أَيْضا مُحَمَّد بن سَلام قَالَ كَانَ خصيب الطَّبِيب نَصْرَانِيّا نبيلا فسقى مُحَمَّد بن أبي الْعَبَّاس السفاح شربة دَوَاء وَهُوَ على الْبَصْرَة فَمَرض مِنْهَا وَحمل إِلَى بَغْدَاد فَمَاتَ بهَا وَذَلِكَ فِي أول سنة خمسين وَمِائَة .

فأتهم خصيب فحبس حَتَّى مَاتَ .

فَنظر فِي علته إِلَى مائَة وَكَانَ عَالما فَقَالَ قَالَ جالينوس أَن صَاحب هَذه الْعلَّة إِذا صَار هَكَذَا مَاؤُهُ لاَ يعيش فَقيل لَهُ إِن جالينوس رُبمَا أَخطأ فَقَالَ مَا كنت إِلَى خطئه قطّ أحْوج مني إِلَيْهِ فِي هَذَا الْوَقْت وَمَات من علته .

عِيسَى الْمَعْرُوف بِأبي قُرَيْش

قَالَ إِسْحَق بن عَليّ الرهاوي[٢] فِي كتاب أدب الطَّبِيب عَن عِيسَى ابْن ماسة قَالَ أَخْبرنِي يوحنا بن ماسويه أَن أَبَا قُرَيْش كَانَ صيدلانيا يجلس على مَوضع نَحْو بَاب قصر الْخَلِيفَة وَكَانَ دينا صَالحا فِي نَفسه وَأَن الخيزران جَارِيَة الْمهْدي وجهت

---

(١) محمد بن سلام بن عبد الله بن سالم الجمحي أبو عبد الله البصري مولى قدامة بن مطعون ، صنف كتاب طبقات فحول الشعراء ، وكان من أهل الفضل والأدب ، قدم بغداد سنة ٢٢٢ هـ واعتل فأهدى إليه الأكابر أطباءهم ، وكان فيمن أهدي إليه ابن ماسويه فلما جس نبضه قال : «ما أرى بك من العلة مثل ما أرى بك من الجزع» ، فقال : «والله ما ذاك لحرص على الدنيا مع اثنتين وثمانين سنة ولكن الإنسان في غفلة حتى يوقظ بعلة ولو وقفت وقفة بعرفات وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم زورة وقضيت أشياء في نفسي لسهل علي ما اشتد من هذا» ، فقال ابن ماسويه : «لا تجزع فقد رأيت في عروقك من الحرارة الغزيزية قوة ما إن سلمك الله من العوارض بلغك عشر سنين أخرى» ، فوافق كلامه قدراً فعاش بعد ذلك عشر سنين ومات في سنة ٢٣٢ هـ .

(٢) إسحاق بن علي الرهاوي هو طبيب عربي مسلم . قال ابن أبي أصيبعة في طبقاته «كان طبيباً متميزاً عالماً بكلام جالينوس وله أعمال جيدة في صناعة الطب» . من آثاره : أدب الطبيب .

بمَائِهَا مَعَ جَارِيَة لَهَا إِلَى الطَّبِيب فَخرجت الْجَارِيَة من الْقصر فأرت أَبَا قُرَيْش المَاء فَقَالَ لَهَا هَذَا مَاء امْرَأَة حُبْلَى بِغُلَام فَرَجَعت الْجَارِيَة بالبشارة فَقَالَت لَهَا ارجعي إِلَيْهِ واستقصي الْمَسْأَلَة عَلَيْه .

فَرَجَعت فَقَالَت لَهَا مَا قلت لَك حق وَلَكِن لي عَلَيْك الْبُشْرَى .

فَقَالَت كم تريدين الْبُشْرَى قَالَ جامة فالوذج وخلعة سنية فَقَالَت لَهَا إِن كَانَ هَذَا حَقًا فقد سقت إِلَى نَفسك خير الدُّنْيَا وَنَعِيمهَا .

وانصرفت .

فَلَمَّا كَانَ بعد أَرْبَعِينَ يَوْمًا أحست الخيزران بِالْحملِ فوجهت ببدرة دَرَاهِم وكتمت الْخَبَر عَن الْمهْدي .

فَلَمَّا مَضَت الْأَيَّام ولدت مُوسَى أَخا هرون الرشيد .

فَعنْدَ ذَلِك أعلمت الْمهْدي وَقَالَت لَهُ إِن طَبِيبا على الْبَاب أخبر بِهَذَا مُنْذُ تِسْعَة أشهر .

وَبلغ الْخَبَر جورجس بن جِبْرَائِيل فَقَالَ كذب ومخرقة .

فَغضبت لَهُ الخيزران وَأمرت فَاتخذ بَين يَديهَا مائَة خوان فالوذج ووجهت بذلك إِلَيْهِ مَعَ مائَة ثوب وَفرس بسرجه ولجامه .

وَمَا مضى بعد ذَلِك إِلَّا قَلِيل حَتَّى حبلت بأَخيه هرون الرشيد .

فَقَالَ جورجس للمهدي جرب أَنْت هَذَا الطَّبِيب فَوجه إِلَيْهِ بِالْمَاءِ فَلَمَّا نظر إِلَيْهِ قَالَ هَذَا مَاء ابْنَتي أم مُوسَى وَهِي حُبْلَى بِغُلَام آخر .

فَرَجَعت الرسَالَة بذلك إِلَى الْمهْدي وَأثبت الْيَوْم عِنْده فَلَمَّا مَضَت الْأَيَّام ولدت هرون فَوجه الْمهْدي إِلَى أبي قُرَيْش فَأحْضرهُ وأقيم بَين يَدَيْهِ فَلم يزل يطْرَح عَلَيْهِ الْخلْع ويدر الدَّنَانِير وَالدَّرَاهِم حَتَّى علت رَأسه وسير هرون ومُوسَى فِي حجره وكناه أَبَا قُرَيْش أَي أَبَا الْعَرَب .

وَقَالَ لجورجس هَذَا شَيْء أَنا بنفسي جربته .

فَصَارَ أَبُو قُرَيْش نَظِير جرجس بن جِبْرَائِيل بل أكبر مِنْهُ حَتَّى تقدمه فِي الْمرتبَة .

وَتُوفِّي الْمهْدي واستخلف هارون الرشيد وَتُوفِّي جرجس وَسَار ابْنه تبع أبي قُرَيْش فِي خدمَة الرشيد وَمَات أَبُو قُرَيْش وَخلف اثْنَيْنِ وَعشْرين ألف دينَار مَعَ نعْمَة سنية .

وَقَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي الْعَبَّاس بن عَليّ بن الْمهْدي أن الرشيد اتخذ مَسْجِدا جَامعا فِي بُسْتَان مُوسَى الْهَادِي وَأمر أخوته وَأهل بَيته بِحُضُورِهِ فِي كل يَوْم جُمُعَة ليتولى الصَّلَاة بهم فِيهِ .

قَالَ فَحَضَرَ وَالِدي عَليّ بن الْمَهْدي ذَلِك الْمَسْجِد فِي يَوْم حَار وَصلى فِيهِ وَانْصَرف إِلَى دَاره بسوق يحيى .

فكسبه حر ذَلِك الْيَوْم صداعا كَاد يذهب ببصره .

فأحضر لَهُ جَمِيع متطببي مَدِينَة السَّلَام وَكَانَ آخر من احضر مِنْهُم عِيسَى أَبُو قُرَيْش فوافاهم قد اجْتَمعُوا للمناظرة .

فَقَالَ لَيْسَ يتَّفق لجَماعَة رَأْي حَتَّى يذهب بصر هَذَا .

ثمَّ دَعَا بدهن بنفسج وَمَاء ورد وخل خمر وثلج فَجعل فِي مضربة من ذَلِك الدّهن بِقدر وزن دِرْهَمَيْنِ وصب عَلَيْهِ شَيْئا من الْخلّ وشيئا من المَاء وفت فِيهِ شَيْئا من الثَّلج وحرك المضربة حَتَّى اخْتَلَطَ جَمِيع مَا فِيهَا ثمَّ أَمر بتصبير راحه مِنْهُ وسط رَأسه وَالصَّبْر عَلَيْهِ حَتَّى ينشفه الرَّأْس ثمَّ زِيَادَة رَاحَة أُخْرَى .

فَلم يزل يفعل ذَلِك ثَلَاث مَرَّات أَو أَربع حَتَّى سكن عَنهُ الصداع وعوفي من الْعلَّة .

قَالَ يُوسُف وحدثتني شكْلَة أم إِبْرَاهِيم ابْن الْمَهْدي أَن الْمهْدي هتف بهَا وَهِي مَعَه فِي مضربه بالربدة من طَرِيق مَكَّة بِلِسَان متغير أنكرته فَصَارَت إِلَيْهِ وَهُوَ مستلق على الْقَفَا فَأمرهَا بِالْجُلُوسِ .

فَلَمَّا جَلَست وثب فعانقها معانقة الْإِنْسَان لمن يسلم عَلَيْهِ ثمَّ عبرها إِلَى صَدره وَزَالَ عَنهُ عقله .

فجهد جَمِيع من حضرها بِأَن يخلص يَدَيْهِ من عُنُقهَا فَمَا وصلوا إِلَى ذَلِك .

وَحضر المتطببون فَأَجْمعُوا على أَن الَّذِي بِهِ فالج .

فَقَالَ عِيسَى أَبُو قُرَيْش الْمهْدي بن الْمَنْصُور بن مُحَمَّد بن عَليّ بن الْعَبَّاس يضْربهُ فالج لَا وَالله لَا يضْرب أحدا من هَؤُلَاءِ وَلَا نسلهم فالج أبدا إِلَّا أَن يبذروا بذورهم فِي الروميات والصقلبيات وَمَا أشبههن فَيعرض الفالج لمن وَلَده الروميات وأشباههن من نسلهم .

ثمَّ دَعَا بالحجام فحجمه فوَاللَّه مَا أَن خرج من دَمه إِلَّا محجمة وَاحِدَة حَتَّى رد إِلَيْهِ يَدَيْهِ .

ثمَّ تكلم مَعَ المحجمة الثَّانِيَة ثمَّ ثاب إِلَيْهِ عقله قبل فرَاغ الْحجام من حجامته ثمَّ طعم بعد ذَلِك ودعا بِأم أَسمَاء بنت الْمهْدي فواقعها فأحبلها بأسماء .

قَالَ يُوسُف وَلما اشتدت بإبراهيم بن الْمهْدي علته الَّتِي توفّي فِيهَا استرخى لحيه وَغلظ لِسَانه فِي فِيهِ فصعب عَلَيْهِ الْكَلَام .

وَكَانَ إِذا تكلم توهمه سامعه مفلوجا .

فدعاني وَقت صَلَاة الْعَصْر من يَوْم الثُّلَاثَاء لست خلون من شهر رَمَضَان سنة أَربع وَعشْرين وَمِائَتَيْنِ فَقَالَ لي أما تعجب من عرض هَذِه الْعلَّة الَّتِي لم تعرض لأحد من ولد أبي غير إِسْمَاعِيل بن مُوسَى أَمِير الْمُؤمنِينَ وَمُحَمّد بن صَالح الْمِسْكِين .

وَإِنَّمَا عرضت لمُحَمد لِأَن أمه كَانَت رُومِية وَأم أَبِيه كَانَت كَذَلِك . .

وَكَانَت أم إِسْمَاعِيل رُومِية .

وَأَنا فَلم تلدني رُومِية فَمَا الْعلَّة عنْدك فِي عرض هَذِه الْعلَّة لي فَعلمت أَنه كَانَ حفظ عَن أمه قَول عِيسَى أبي قُرَيْش فِي الْمهْدي وَولده أَنه لَا يعرف لعقبة الفالج إِلَّا أَن يبذروا بذورهم فِي الروميات وَأَنه قد أمل أَن يكون الَّذِي به فالجا لَا عَارض الْمَوْت .

فَقلت لَا أعرف لإنكارك هَذِه الْعلَّة معنى إِذْ كَانَت أمك الَّتِي قَامَت عَنْك دنباوندية ودنباوند أَشد بردا من كل أَرض الرّوم فَكَأَنَّهُ تفرج إِلَى قولي وصدقني وَأظْهر السرُور بِمَا سمع مني .

ثمَّ توفّي فِي وَقت طُلُوع الْفجْر من يَوْم الْجُمُعَة لتسْع خلون من شهر رَمَضَان .

قَالَ يُوسُف وحَدثني إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي أَن لحم عِيسَى بن جَعْفَر بن الْمَنْصُور كثر عَلَيْهِ حَتَّى كَاد أَن يَأْتِي على نَفسه .

وَأَن الرشيد اغتم لذَلِك غما شَدِيدا أضرّ بِهِ فِي بدنه وَمنعه لَذَّة الْمطعم وَالْمشْرَب وَأمر جَمِيع المتطببين بمعالجته .

فكلهم دفع أَن يكون عِنْده فِي ذَلِك حِيلَة .

فزادوا الرشيد غما إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ .

وَأَن عِيسَى الْمَعْرُوف بِأبي قُرَيْش صَار إِلَى الرشيد سرا فَقَالَ لَهُ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ إِن أَخَاك عِيسَى بن جَعْفَر رزق معدة صَحِيحَة وبدنا قَابلا للغذاء أحسن قبُول وَجَمِيع الْأُمُور جَارِيَة لَهُ بِمَا يحب فَلَيْسَ يتَمَنَّى شَيْئا إِلَّا تمّ لَهُ على أَكثر مِمَّا يُحِبهُ .

وَقد وقِي موت أحبته وَدخُول النَّقْص فِي مَاله وَالظُّلم من نَاحيَة سُلْطَانه وَالِاسْتِقْصَاء عَلَيْهِ .

وَالْأَبدَان مَتى لم تختلط على أَصْحَابهَا طبائعهم وأحوالهم فتنالهم الْعِلَل فِي بعض الْأَوْقَات وَالصِّحَّة فِي بَعْضهَا والغموم فِي بَعْضهَا وَالسُّرُور فِي بَعْضهَا ورؤية المكاره فِي بَعْضهَا والمحاب فِي بَعْضهَا وَتدْخلهَا الروعة أَحْيَانًا والفرح أَحْيَانًا لم يُؤمن على صَاحبهَا التّلف .

لأَن لَحْمه يزْدَاد حَتَّى تضعف عَن حمله الْعِظَام وَحَتَّى يغمر فعل النَّفس وَتبطل قوى الدِّمَاغ والكبد .

وَمَتى كَانَ هَذَا عدمت الْحَيَاة وأخوك هَذَا إِن لم تظهر موجدة عَلَيْهِ أَو تغير لَهُ أَو تقصده بِمَا ينكي قلبه من حِيَازَة مَال أَو أَخذ عَزِيز عَلَيْهِ من حرمه لم آمن عَلَيْهِ تزايد هَذَا الشَّحْم حَتَّى يتأتي على نَفسه .

فَإِن أَحْبَبْت حَيَاته فافعل ذَلِك بِهِ وَإِلاَّ فَلاَ أَخ لَك .

فَقَالَ الرشيد أَنا أعلم أَن الَّذِي ذكرت على مَا قلت .

غير أَنه لاَ حِيلَة عِنْدِي فِي التَّغَيُّر لَهُ أَو غمه بِشَيْء من الأَشْيَاء فَإِن تكن عنْدك حِيلَة فِي أمره فاحتل بهَا .

فَإِنِّي أكافئك عَنهُ مَتى رَأَيْت لَحْمه قد انحط بِعشْرَة آلاَف دِينَار وآخذ لَك مِنْهُ مثلهَا .

فَقَالَ عِيسَى عِنْدِي حِيلَة إِلاَّ أَنِّي أَتَخَوَّف أَن يعجل على عِيسَى بِالْقَتْلِ فتتلف نَفسِي .

فليوجه معي أَمِير الْمُؤمنِينَ خَادِمًا جَلِيلاً من خدمه وَمَعَهُ جمَاعَة يمنعونه مني إِن أَمر بقتلي .

فَفعل ذَلِك بِهِ وَسَار إِلَيْهِ فجسه وأعلمه أَنه يضْطَر إِلَى مجسة عرقه ثَلاَثَة أَيَّام قبل أَن يذكر لَهُ شَيْئا من العلاج .

فَأمره عِيسَى بالانصراف وَالْعود إِلَيْه .

فَفعل ذَلِك وَعَاد فِي الْيَوْم الثَّانِي وَالثَّالِث .

فَلَمَّا فرغ من مجسة عرقه قَالَ لَهُ إِن الْوَصِيَّة مباركة وَهِي غير مُقَدّمَة وَلاَ مؤخرة وَأَنا أرى للأمير أَن يعْهَد فَإِن لم يحدث حَادث قبل أَرْبَعِينَ يَوْمًا عالجته فِي ذَلِك بعلاج لاَ يمْضِي بِهِ إِلاَّ ثَلاَثَة أَيَّام حَتَّى يخرج من علته هَذِه وَيعود بدنه إِلَى أحسن مِمَّا كَانَ عَلَيْه .

ونهض من مَجْلِسه وَقد أسكن قلب عِيسَى من الْخَوْف مَا امْتنع لَهُ من أَكثر الْغذَاء وَمنعه من النّوم فَلم يبلغ أَرْبَعِينَ يَوْمًا حَتَّى انحط من منطقته خمس بشيزجات واستتر عِيسَى أَبُو قُرَيْش فِي تِلْكَ الأَيَّام عَن الرشيد خوفًا من إِعْلاَم الرشيد عِيسَى بن جَعْفَر تَدْبِير عِيسَى المتطبب لإسكان الْغم قلبه فَيفْسد عَلَيْه تَدْبيره .

فَلَمَّا كَانَ لَيْلَة يَوْم الأَرْبَعين سَار إِلَى الرشيد وأعلمه أَنه لاَ يشك فِي نُقْصَان بدن

عِيسَى وَسَأَلَهُ إِحْضَاره مَجْلسه أَو الرّكُوب إِلَيْه فَركب إِلَيْه الرشيد فَدخل عَلَيْهِ وَمَعَهُ عِيسَى فَقَالَ لَهُ عِيسَى أطلق لي يَا أَمِير الْمُؤمنينَ قتل هَذَا الْكَافِر فقد قتلني .

واحضر منطقته فشدها فِي وَسطه وَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنينَ نقص هَذَا الْعَدو وَالله من بدني بِمَا ادخل عَليّ من الروع خمس بشيزجات فَسجدَ الرشيد شكرا لله وَقَالَ لَهُ يَا أخي متعت بك بِأبي عِيسَى وَكَانَ الرشيد كثيرا مَا يَقُول لَهُ بِأبي عِيسَى ردَّتْ إِلَيْك بعد الله الْحَيَاة وَنعم الْحِيلَة احتال لَك وَقد أمرت لَهُ بِعشْرَة آلَاف دِينَار فأوصل إِلَيْه مثلهَا . .

فَفعل ذَلِك لَهُ وَانْصَرف المتطبب إِلَى منزله بِالْمَالِ وَلم يرجع إِلَى عِيسَى بن جَعْفَر ذَلِك الشَّحْم إِلَى أَن فَارق الدُّنْيَا .

قَالَ يُوسُف وحَدثني إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي أَنه اعتل بالرقة مَعَ الرشيد علّة صعبة فَأمر الرشيد بحدره إِلَى والدته بِمَدِينَة السَّلَام فَكَانَ بختيشوع جد بختيشوع الَّذِي كَانَ فِي دَهْرنَا هَذَا لاَ يزايله ويتولى علاجه .

ثمَّ قدم الرشيد مَدِينَة السَّلَام وَمَعَهُ عِيسَى أَبُو قُرَيْش فَذكر أَن أَبَا قُرَيْش أَتَاهُ عَائِدًا فَرَأى الْعلَّة قد أذهبت لَحْمه وأذابت شحمه وأسارته إِلَى الْيَأْس من نَفسه وَكَانَ أعظم مَا عَلَيْه فِي علته شدَّة الْحمْية .

قَالَ أَبُو إِسْحَق فَقَالَ لي عِيسَى وَحقّ الْمهْدي لأعالجنك غَدا علاجا يكون بِهِ برؤك قبل خروجي من عنْدك .

ثمَّ دَعَا القهرمان[1] بعد خُرُوجه فَقَالَ لَهُ لاَ تدع بِمَدِينَة السَّلاَم أسمن من ثَلاَثَة فراريج كسكرية تذبحها السَّاعَة وتعلقها فِي ريشها حَتَّى آمُرك فِيهَا بِأَمْرِي غَدَاة غَد .

ثمَّ بكر إِلَيّ وَمَعَهُ ثَلاَث بطيخات رمشية قد بردهَا فِي الثَّلج ليلته كلهَا فَلَمَّا دخل عَليّ دَعَا بسكين فَقطع لي من إِحْدَاهُنَّ قطْعَة ثمَّ قَالَ لي كل هَذه الْقطعَة فأعلمته أَن بختيشوع كَانَ يحميني من رَائِحَة الْبِطِّيخ فَقَالَ لي لذَلِك طَالَتْ علتك فَكل فَإِنَّهُ لاَ بَأْس عَلَيْك .

فَأكلت الْقطعَة إلتذاذا مني لَهَا ثمَّ أَمرنِي بِالأَكْلِ فَلم أزل آكل حَتَّى استوفيت بطيختين .

(١) القَهْرَمان هو المُسَيْطِرُ الحَفِيظ على من تحت يديه قال مَجْداً وعِزّاً قَهْرَماناً قَهْقَبا وهي كلمة فارسية

ثمَّ انْتَهت نَفسِي فَقطع من الثَّالِثَة قِطْعَة وَقَالَ جَمِيع مَا أكلت للذة فَكل هَذِه الْقطعَة للعلاج .

فَأَكَلتهَا بتكره .

ثمَّ قطع قِطْعَة أُخْرَى وَأَوْمَأ إِلَى الغلمان بإحضار الطشت وَقَالَ لي كل هَذِه الْقطعَة أَيْضا .

فَمَا أكلت ثلثهَا حَتَّى جَاشَتْ نَفسِي وذرعني الْقَيْء فتقيأت أَرْبَعَة أَضْعَاف مَا أكلت من الْبِطِّيخ وكل ذَلِك مرّة صفراء .

ثمَّ أُغمي عَليّ بعد ذَلِك الْقَيْء وَغلب عَليّ الْعرق وَالنَّوْم إِلَى بعد صَلَاة الظّهْر فانتبهت وَمَا أعقل جوعا وَقد كَانَت شَهْوَة الطَّعَام ممتنعة مني فدعوت بشَيْء آكله فأحضرني الفراريج الثَّلَاثَة وَقد طبخ لي منْهَا سكباج وأجادها طهاتها فَأَكلت منْهَا حَتَّى تضلعت ونمت بعد أكلي إِلَى آخر أَوْقَات الْعَصْر ثمَّ قُمْت وَمَا أجد من الْعلَّة قَلِيلا وَلَا كثيرا واتصل بِي الْبُرْء فَمَا عَادَتْ إِلَيّ تِلْكَ الْعلَّة مُنْذُ ذَلِك الْيَوْم

اللَّجْلَاج

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي إِسْمَاعِيل بن أبي سهل بن نوبخت(١) أَن أَبَاهُ أَبَا سهل حَدثهُ أَن الْمَنْصُور لما حج حجَّته الَّتِي توفّي فِيهَا رافق ابْن اللَّجْلَاج متطبب الْمَنْصُور فَكَانَا مَتى نَام الْمَنْصُور تنادما إِلَى أَن سَأَلَ ابْن اللَّجْلَاج وَقد عمل فِيهِ النَّبِيذ أَبَا سهل عَمَّا بَقِي من عمر الْمَنْصُور .

قَالَ إِسْمَاعِيل فأعظم ذَلِك وَالِدي وَقطع النَّبِيذ وَجعل على نَفسه أَن لَا ينادمه وهجره ثَلَاثَة أَيَّام ثمَّ اصطلحا بعد ذَلِك فَلَمَّا جلسا على نبيذهما قَالَ ابْن اللَّجْلَاج لأبي سهل سَأَلتك عَن علمك بِبَعْض الْأُمُور فبخلت بِهِ وهجرتني وَلست أبخل عَلَيْك بعلمي فاسمعه ثمَّ قَالَ إِن الْمَنْصُور رجل محرور تزداد يبوسة بدنه كلما أسن وَقد حلق رَأسه بِالْحيرَةِ وَجعل مَكَان الشّعْر الَّذِي حلقه غَالِيَة وَهُوَ فِي هَذَا الْحجاز يداوم الغالية وَمَا يقبل قولي فِي تَركهَا وَلَا أَحْسبهُ يبلغ إِلَى قيد حَتَّى يحدث فِي

(١) العلامة أبو سهل إسماعيل بن علي بن نوبخت ، بغدادي من غلاة الشيعة ، وكبار مصنيفهم وكان يقول في المنتظر : مات في الغيبة ، وقام بالأمر في الغيبة ابنه ، ثم مات ابنه ، وقام ابن الابن وهذه دعوى مجردة .

دماغه من اليبس مَا لاَ يكون عنْدي وَلاَ عنْد أحد من المتطببين حيلَة فِي ترطيبه .

فَلَيْسَ يبلغ فيد إِن بلغهَا إِلاَّ مَرِيضا وَلاَ يبلغ مَكَّة إِن بلغهَا وَبِه حَيَاة .

قَالَ إِسْمَاعِيل قَالَ لي وَالدي فوَاللَّه مَا بلغ الْمَنْصُور فيد إِلاَّ وَهُوَ عليل وَمَا وافى مَكَّة إِلاَّ وَهُوَ ميت فَدفن ببئر مَيْمُون .

قَالَ يُوسُف فَحدثت إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي[1] بِهَذَا الحَدِيث فَاسْتَحْسَنَهُ وسألني عَن اسْم أبي سهل بن نوبخت فأعلمته بِأَنِّي لاَ أعرفهُ .

فَقَالَ إِن الْخَبَر فِي اسْمه أطرف من حَدِيثك الَّذِي حَدَّثتنِي عَن ابْنه فاحفظ عني .

ثمَّ قَالَ لي حَدثنِي أَبُو سهل بن نوبخت أَنه لما ضعف عَن خدمَة الْمَنْصُور أمره الْمَنْصُور بإحضار وَلَده ليقوم مقَامه قَالَ أَبُو سهل فأدخلت على الْمَنْصُور فَلَمَّا مثلت بَين يَدَيْهِ قَالَ لي تسم لأمير الْمُؤمنِينَ فَقلت خرخشا ذماه طيماذاه ماذرياد خسرو بهمشاذ .

فَقَالَ لي كل مَا ذكرت اسْمك قلت نعم فَتَبَسَّمَ ثمَّ قَالَ لي مَا صنع أَبوك شَيْئا فاختر مني خلة من خلتين قلت وَمَا هما قَالَ أما أَن اقْتصر بك من كل مَا ذكرت على طيماذ وَأما أَن أجعَل لَك كنية تقوم مقَام الاِسْم وَهِي أَبُو سهل قَالَ أَبُو سهل قد رضيت بالكنية .

فَثَبت كنيته وَبَطل اسْمه

عبد الله الطيفوري

كَانَ حسن الْعقل طيب الحَدِيث على لكنة سوادية كَانَت فِي لِسَانه شَدِيدَة لأَن مولده كَانَ فِي بعض قرى كسكر كَانَ من أحظى خلق الله عنْد الْهَادِي .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي الطيفوري أَنه كَانَ متطببا لطيفور الَّذِي كَانَ يَقُول أَنه أَخُو الخيزران وَالنَّاس يَقُولُونَ أَو أَكْثَرهم أَنه مولى الخيزران وَلما وَجه الْمَنْصُور الْمهْدي

(١) إبراهيم بن المهدي أخو هارون الرشيد ويكنى (أبا اسحاق) ، أشهر أولاد الخلفاء ذكراً في الغناء وأتقنهم صنعةً ، ومن أعلم الناس في ذاك الوقت بالنغم والإيقاع ، من المعدودين في طيب الصوت خاصة ، ولكنه كان إذا غنى الغناء القديم عن الأوائل في الأدوار الطوال حذف كثيرا من نغمها وخففها ، وقد عيب عليه ذلك . له مع إسحق الموصلي مجادلات كثيرة في أصول النغم والايقاع لم تكن لتنقطع حتى أفنيا العمر في تنازعهما

إِلَى الرّيّ لمحاربة سنقار حمل الْمهْدي الخيزران وَهِي حَامِل بمُوسَى وَخرج طيفور مَعهَا وأخرجني مَعَه وَلم تكن الخيزران علمت بِمَا رزقت من الْحمل .

وَكَانَ عِيسَى الْمَعْرُوف بِأبي قُرَيْش صيدلانيا فِي الْعَسْكَر فَلَمَّا تبينت الخيزران ارْتِفَاع الْعلَّة بعثت بِمَائِهَا مَعَ عَجُوز مِمَّن مَعهَا وَقَالَت لَهُ أعرضي هَذَا المَاء على جَمِيع المتطببين الَّذين فِي عَسْكَر الْمهْدي وَجَمِيع من ينظر فِي ذَلِك .

فَفعلت الْعَجُوز وَكُنَّا فِي ذَلِك الْوَقْت بهمدان .

واجتازت فِي منصرفها بخيمة عِيسَى فرأت جمَاعَة من غلْمَان أهل الْعَسْكَر وقوفا يعرضون عَلَيْه قَوَارِير المَاء فكرهت أَن تجوزه قبل أَن ينظر إِلَى المَاء فَقَالَ لَهَا عِنْد نظره إِلَى المَاء هَذَا مَاء امْرَأَة وَهِي حَامِل بغُلَام فأدت الْعَجُوز عَنهُ مَا قَالَ إِلَى الخيزران .

فسجدت شكرا لله وأطلقت عدَّة مماليك وسارت إِلَى الْمهْدي فَأَخْبَرته بِمَا قَالَت الْعَجُوز فأظهر من السرُور بذلك أَكثر من سرورها وَأمر بإحضار عِيسَى وَسَأَلَهُ عَمَّا قَالَت الْعَجُوز فَأعلمهُ أَن الْأَمر على مَا ذكرت .

فوصله ووصلته الخيزران بِمَال جليل وَأمره بِلُزُوم الْخدمَة وَترك خيمته وَمَا كَانَ فِيهَا من مَتَاع الصيادلة .

قَالَ الطيفوري فَأَرَادَ طيفور أَن يَنْفَعنِي فَأرْسل إِلَى خيزران إِن متطببي ماهر بصناعة الطِّبّ فابعثي إِلَيْه بِالْمَاءِ حَتَّى يرَاهُ .

فَفعلت ذَلِك فِي الْيَوْم الثَّانِي فَقَالَ لي قل مثل قَول عِيسَى فأعلمته أَن المَاء يدل على أَنَّهَا حَامِل فَأَما تَمْيِيز الْغُلَام من الْجَارِيَة فَذَلِك مَا لَا أَقُوله .

فجهد بِي كل الْجهد أَن أُجِيبهُ إِلَى ذَلِك فَلم أفعل صِيَانة لنَفْسي عَن الِاكْتِسَاب بالمخرقة .

فَأدى قولي إِلَيْهَا فَأمرت لي بِأَلف دِرْهَم وَاحِد وَأمرت بملازمتها .

فَلَمَّا وافت الرّيّ ولدت بهَا الْهَادِي .

وَصَحَّ عِنْد الْمهْدي أَن أَبَا قُرَيْش عنين بعد أَن امتحن بِكُل محنة فسر بذلك وأحظاه وَتقدم عِنْده على جَمِيع الخصيان .

وَكَانَ ذَلِك من أَسبَاب الصنع لي .

فضممت إِلَى أَمِير الْمُؤمنِينَ مُوسَى ودعيت متطببه وَهُوَ رَضِيع وفطيم .

ثمَّ ولدت هرون الرشيد بالريِّ أَيْضا فَكَانَ مولده كَانَ شؤما على الْهَادِي لأَن الحظوة كلهَا أَو أَكْثَرهَا صَارَت لَهُ دونه .

فأضر بِي ذَلِك فِي جاهي وَمَا كنت فِيهِ من كَثْرَة الدخل إِلَى أَن ترعرع مُوسَى ففهم الْأَمر .

فَكَانَ ذَلِك مِمَّا زَاد فِي جاهي وَجَمِيل رَأْيه فِي .

فَكَانَ ينيلني من أفضاله أَكثر مِمَّا كَانَت الخيزران تنيلنيه وَفتح الله على الْمهْدي وَقتل سنقار وطراحته شهريار أَبَا مهرويه وخلد وبسخنز أَبَا الْحُرْث بن بنسخنز والربعين وسبى ذَرَارِيهمْ فَكَانَ من ذَلِك السَّبي مهرويه وخلد وقرابتهما شاهك وَكَانَت على مائدة شهريار وَهِي أم السندي ابْن شاهك وَكَانَ مِنْهُم الْحُرْث بن بسخنز وَجَمِيع هَؤُلَاءِ الموَالِي الرازيين .

ثمَّ أدْرك الْهَادِي وأفضت الْخلَافَة إِلَى الْمهْدي فاتصل بِي الْأَمر وَعظم قدري لِأَنِّي صرت متطبب ولي الْعَهْد .

ثمَّ ملك الْهَادِي أمة الْعَزِيز فَكَانَت أعز عَلَيْهِ من جلدَة مَا بَين عَيْنَيْه وَهِي أم جَعْفَر وَعبد الله وَإِسْمَاعِيل وَإِسْحَق وَعِيسَى الْمَعْرُوف بالجرجاني ومُوسَى الْأَعْمَى وَأم عِيسَى زوج الْمَأْمُون وَأم مُحَمَّد وَعبيد الله ابْنَتَيْه .

فبناني مُوسَى الْهَادِي جَمِيع وَلَدهَا وَأعلم أمة الْعَزِيز أَنه يتبرك بِي فنلت مهَا أَكثر من أملي مِمَّا كَانَ من الْهَادِي .

ثمَّ دبر الْهَادِي الْبيعَة لِابْنِهِ جَعْفَر ابْن مُوسَى فدعاني قبل الْبيعَة بِيَوْم فَخلع عَليّ وحملني على دَابَّة من دَوَاب رَحْله بسرجه ولجامه وَأمر لي بِمِائَة ألف حملت إِلَى منزلي وَقَالَ لَا تَبْرَح الدَّار بَاقِي يَوْمك وليلتك وَأكْثر نَهَار غدك حَتَّى أبايع لابنك جَعْفَر فتنصرف إِلَى مَنْزِلك وَأَنت أنبل النَّاس لِأَنَّك توليت تربية ابْن خَلِيفَة صَار ولي الْعَهْد وَولي ولي الْعَهْد الْخلَافَة فربيت ابْنه إِلَى أَن صَار ولي عَهده وَبلغ أمة الْعَزِيز الْخَبَر فَفعلت بِي مثل الَّذِي فعل الْهَادِي من الصِّلَة وحملت إِلَى منزلي ثِيَاب صحَاح وَلم تحملنِي على دَابَّة وأقمت فِي الدَّار بعيساباذ إِلَى أَن طلعت الشَّمْس من غَد الْيَوْم الَّذِي نلْت فِيهِ مَا نلْت .

ثمَّ جلس الْهَادِي وَقد أحضر جَمِيع بني هَاشم فَأخذت عَلَيْهِم الْبيعَة لجَعْفَر وأحلفوا عَلَيْهَا وعَلى خلع الرشيد .

ثمَّ آل زَائِدَة فَكَانَ يزِيد بن مزِيد أول من خلع الرشيد وَبَايع جَعْفَر بعده ثمَّ شرَاحِيل بن معن بن زَائِدَة وَأهل بَيته ثمَّ سعيد بن سلم بن قُتَيْبَة بن مُسلم ثمَّ آل مَالك .

وَكَانَ أول من بَايع منْهُم عبد الله ثمَّ الصَّحَابَة وَسَائِر مَشَايِخ الْعَرَب ثمَّ القواد .

فَمَا انتصف النَّهَار إِلاَّ وَقد بَايع أَكثر القواد وَكَانَ فِي القواد هرثمة بن أعين ولقبه المشؤوم وَكَانَ الْمَنْصُور قد قوده على خَمْسمائَة وَلم يكن لَهُ حَرَكَة بعد أَن قود فَتوفي أَكثر أَصْحَابه وَلم يثبت لَهُ مَكَان من توفّي مِنْهُم فأحضروه وأمروه بالبيعة .

فَقَالَ لَهُ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ لمن أبايع فَقَالَ لَهُ لجَعْفَر بن أَمِير الْمُؤمنِينَ . .

قَالَ إِن يَمِيني مَشْغُولَة ببيعة أَمِير الْمُؤمنِينَ وشمالي مَشْغُولَة ببيعة هرون فأبايع بِمَاذَا فَقَالَ لَهُ تخلع هَارُون وتبايع جعفرا .

فَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ أَنا رجل أدين بنصيحتك ونصيحة الأْئمَّة مِنْكُم أهل الْبَيْت وَبِاللَّه لَو تخوفت أَن تحرقني على صدقي إياك بالنَّار لما حجزني ذَلِك عَن صدقك .

إِن الْبيعَة يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ إِنَّمَا هِيَ إِيمَان وَقد حلَفت لهارون بِمثل مَا تستحلفني بِهِ لجَعْفَر .

وَإِن خلعت الْيَوْم هَارُون خلعت جَعْفَر فِي غَد وَكَذَلِكَ جَمِيع من حلف لهرون على هَذَا فغدر بِهِ .

قَالَ فاستشاط مُوسَى من قَوْله وَأمر بوجء عُنُقه .

وتسرعت جمَاعَة من الموَالِي والقواد نَحوه بالجرزة والعمد فنهاهم الْهَادِي عَنهُ .

ثمَّ عاوده الأْمر بالبيعة فَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ قولي هَذَا قولي الأول .

فزبره الْهَادِي وَقَالَ لَهُ اخْرُج إِلَى لعنة الله لاَ بَايَعت وَلاَ بَايع أَصْحَابك ألف سنة .

ثمَّ أَمر بِإِخْرَاجِه من الدَّار بعيساباذا وَإِسْقَاط قيادته وَقَالَ أَطْلقُوهُ لينفذ حَيْثُ أحب لاَ صَحبه الله وَلاَ كلأه .

ثمَّ وجم مِقْدَار نصف سَاعَة لاَ يَأْمر وَلاَ يَنْهَى ثمَّ رفع رَأسه وَقَالَ ليندون خادمه الْحق الْفَاجِر .

فَقَالَ لَهُ الْحقْهُ فأصنع بِهِ مَاذَا فَقَالَ ترده على أَمِير الْمُؤمنِينَ .

قَالَ فَلحقه يندون فِيمَا بَين بَاب خُرَاسَان وَبَاب بردَان بِالْقربِ من الْموضع الْمَعْرُوف بِبَاب النقب وَهُوَ يُرِيد منزله على نهر الْمهْدي فَرده .

فَلَمَّا دخل قَالَ لَهُ يَا حائك تبَايع أهل بَيت أَمِير الْمُؤمنِينَ فيهم عَم جده وَعم أَبِيه وعمومته وَإِخْوَته وَسَائِر لحْمَته وتبايع وُجُوه الْعَرَب والموالي والقواد وَتمسك أَنْت عَن الْبيعَة فَقَالَ هرثمة يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ وَمَا حَاجَتك إِلَى بيعَة الحائك بعد بيعَة من ذكرت من أَشْرَاف النَّاس أَلا إِن الأْمر على مَا حكيت لَك أَنه لاَ يخلع الْيَوْم أحد هرون وَيبقى فِي غَد لجَعْفَر .

قَالَ الطيفوري فَالْتَفت الْهَادِي إِلَى من حضر مَجْلِسه فَقَالَ لَهُم شَاهَت الْوُجُوه صدق وَالله هرثمة وبر وغدرتم .

وَأمر الْهَادِي عِنْد هَذَا الْكَلَام لهرثمة بِخَمْسِينَ ألف دِرْهَم وأقطعه الْموضع الَّذِي لحقه فِيهِ يندون فَسُمي ذَلِك الْموضع عَسْكَر هرثمة إِلَى هَذِه الْغَايَة .

وَانْصَرف النَّاس كلهم فِي أَمر عَظِيم من أَمر ذِي قدر قد غمه مَا لقيه بِهِ الْخَلِيفَة .

وَمِمَّا يتوقعه من الْبلاء إِن حدث بالهادي حَادث لمسارعتهم إِلَى خلع الرشيد وَمن بطانته لجَعْفَر قد كَانُوا أملوا خلافَة صَاحبهمْ والغنى بِمَا قد قلد مِنْهَا فصاروا يتخوفون على نفس صَاحبهمْ التّلف .

وعَلى أنفسهم أَن سلمُوا من الْقَتْل وَالْبَلاء والفقر .

وَدخل مُوسَى الْهَادِي على أمة الْعَزِيز فَقَالَت لَهُ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ مَا أَحسب أحدا عاين وَلَا سمع بِمثل مَا عاينا وَسَمعنَا فَإنَّا أَصْبَحْنَا فِي غَايَة الأمل لهَذَا الْفَتى وأمسينا على غَايَة الْخَوْف عَلَيْهِ .

فَقَالَ إِن الْأَمر لعلى مَا ذكرت وَأَزِيدك وَاحِدَة .

قَالَت وَمَا هِيَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ قَالَ أمرت برد هرثمة لأضرب عُنُقه . .

فَلَمَّا مثل بَين يَدي حيل بيني وَبَينه واضطررت إِلَى أَن وصلته وأقطعته وَأَنا على زِيَادَة وَرفع مرتبته والتنويه باسمه فَبَكَتْ أمة الْعَزِيز فَقَالَ لَهَا أَرْجُو أَن يَسُرك الله .

فتوهمت وتوهم جَمِيع من يطيف بهَا إِنَّه على اغتيال الرشيد بالسم فَلم يُمْهل وَلم تمض بِهِ لَيَال قَلَائِل حَتَّى توفّي الْهَادِي وَولي الْخلَافَة هرون الرشيد فوَاللَّه لقد أحسن غَايَة الْإِحْسَان فِي أَمر جَعْفَر وزاده نعما إِلَى نعمه وزوجه أم مُحَمَّد ابْنَته .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم وحَدثني أَبُو مُسلم عَن حميد الطَّائِي الْمَعْرُوف بالطوسي وَلم يكن حميد طوسيا وَكَانَت كورته فِي الدِّيوَان مرو وَكَذَلِكَ كورة طَاهِر مرو والطاهر ولي بوشنج ومُوسَى بن أبي الْعَبَّاس الشَّاشِي لم تكن كورته الشاش وكورته هراة وَمُحَمّد بن أبي الْفضل الطوسي كورته نسا وَهُوَ مَنْسُوب إِلَى طوس وَالسَّبَب فِي نسب هَؤُلَاء وعدة من أَصْحَاب الدولة إِلَى غير كورهم أَن مِنْهُم من كَانَ مخرجه فِي كورة فنسب إِلَى الكورة الَّتِي فِيهَا ضيَاعه وَمِنْهُم من ولي بَلَدا طَالَتْ فِيهِ ولَايَته إِيَّاه فنسب إِلَى ذَلِك الْبَلَد قَالَ أَبُو مُسلم اعتل أَبُو غَانِم يَعْنِي أَبَاهُ علّة صعبة فَتَوَلّى علاجه مِنْهَا الطيفوري المتطبب وَكَانَ فِي أبي غَانِم حِدة شَدِيدَة تخرجه إِلَى قذف أَصْحَابه وَإِلَى الْإِقْدَام بالمكروه عَلَيْهِم .

فَإِنِّي لواقف على رَأسه وَأَنا غُلاَم فِي قبادر زبيرون إِذْ دخل عَلَيْه الطيفوري فجس عرقه وَنظر إِلَى مَائه ثمَّ ناجاه بِشَيْء لم أفهمهُ فَقَالَ لَهُ كذبت يَا ماص بظر أمه فَقَالَ لَهُ الطيفوري أعض الله أكذبنا بِكَذَا وَكَذَا من أمه . .

فَقلت فِي نَفسي ذهبت وَالله نفس الطيفوري .

فَقَالَ أَبُو غَانم يَا ابْن الْكَافِرَة لقد أقدمت وَيلك كَيفَ اجترأت عَليّ بِهَذَا فَقَالَ لَهُ وَالله مَا احتملت سَيِّدي الْهَادِي قطّ على لقائي بِحرف خشن وَلَقَد كَانَ يقذفني فأرد عَلَيْه مثل قَوْله فيكف احْتمل لَك وَأَنت كلب قذفي فَحلف لي أَبُو مُسلم أَنه رأى أَبَاهُ ضَاحِكا باكيا يفهم فِي بعض أسرة وَجهه الضحك وَفِي بَعْضهَا الْبكاء .

ثمَّ قَالَ لَهُ وَالله إِنَّك كنت ترد على أَمِير الْمُؤمنِينَ الْهَادِي الْقَذْف الَّذِي كَانَ يقذفك بِهِ فَقَالَ لَهُ الطيفوري اللَّهُمَّ نعم .

فَقَالَ لَهُ فأسألك بِاللَّه لما أَحْبَبْت فِي عرض حميد مَا أَحْبَبْت وقذفته بِمَا شِئْت من الْقَذْف مَتى قذفتك ثمَّ بَكَى على الْهَادِي بكاء كثيرا .

قَالَ يُوسُف فَسَأَلت الطيفوري عَمَّا حَدثنِي بِهِ أَبُو مُسلم من ذَلِك فَبكى حَتَّى تخوفت عَلَيْه الْمَوْت ممَّا تداخله من الْجزع عِنْد ذكر حميد وَقَالَ وَالله مَا عاشرت بعد الْهَادِي أحر نفسا وَلاَ أكْرم طبعا وَلاَ أطيب عشرَة وَلاَ أَشد إنصافا من حميد إِلاَّ أَنه كَانَ صَاحب جَيش فَكَانَ يظْهر مَا يجب على أَصْحَاب الجيوش إِظْهَاره فَإِذا صَار مَعَ إخوانه كَانَ كَأَنَّهُ من المنقطعين إِلَيْهِم لاَ من المفضلين عَلَيْهِم .

قَالَ يُوسُف وحَدثنِي الطيفوري أَنه كَانَ مَعَ حميد الطوسي بقصر ابْن هُبَيْرَة(١) أَيَّام تغلب صاحبنا على مَدِينَة السَّلاَم وَمَا والاها فَقدمت عَلَيْه جمَاعَة من جبل طَيء عَلَيْهِم رَئِيس لَهُم يقدمونه على أنفسهم ويقرون لَهُ بِالْفَضْلِ والسؤدد عَلَيْهِم .

فَأذن لَهُ فِي الدُّخُول عَلَيْه فِي مجْلِس عَام قد احتشد لإِظْهَار عدده فِيهِ ثمَّ قَالَ لذَلِك الرئيس مَا أقدمك يَا ابْن عَم فَقَالَ لَهُ قدمت مدَدا لَك إِذْ كنت على محاربة هَذَا الدعي لما لاَ يجب لَهُ وَلاَ يسْتَحقّهُ يَعْنِي صاحبنا .

فَقَالَ لَهُ حميد لست أقبل مدَدا إِلاَّ من وثقت بصرامته وَقُوَّة قلبه واحتماله لما

---

(١) الوزير ابن هبيرة . أحد الوزراء المشهورين . هو أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني نسباً ثم الدوري البغدادي الحنبلي . ولد سنة ٤٩٩ هـ وتوفى سنة ٥٦٠هـ .

تصعب على أَكثر النَّاس فِي نصرتي وَلاَ بُد من امتحانك فَإِن خرجت على المحنة قبلتك وَإِلاَّ رددتك إِلَى أهلك .

فَقَالَ لَهُ الطَّائِي فامتحني بِمَا أَحْبَبْت فَأخْرج حميد عمودا من تَحت مُصَلَّاهُ ثمَّ قَالَ لَهُ ابْسُطْ ذراعك .

فَبسط ذراعه فَحمل حميد العمود على عَاتِقه ثمَّ هوى بِهِ إِلَى ذِرَاع الطَّائِي .

فَلَمَّا قرب العمود من ذراعه رفع يَده فأظهر حميد غَضبا عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ لَهُ رددت يَدي .

فترضاه الطَّائِي ثمَّ دَعَاهُ إِلَى معاودة امتحانه .

فَأمره حميد بِإِظْهَار ذراعه فَفعل فَرفع حميد العمود ليضْرب بِهِ ذراعه .

فَلَمَّا قرب العمود من ذِرَاع الطَّائِي فعل مثل فعله فِي الْمرة الأولى .

فَلَمَّا جذب ذراعه وَلم يكن حميدا من ضربهَا بالعمود أَمر بسجنه بعد سحبه فِي مَجْلِسه وَأخذ دوابه ودواب أَصْحَابه وطردهم من مُعَسْكَره .

فانصرفوا من عِنْده رجالة بِأَسْوَأ حَال .

قَالَ الطيفوري فلمته على مَا كَانَ مِنْهُ .

فاستضحك ثمَّ قَالَ لي قد أطلقت لَك الضحك مني والاستهزاء بِي وَقذف عرضي مَتى تَكَلَّمت فِي الطِّبّ بحضرتك بِشَيْء تنكره .

فَأَما قيادة الجيوش فَذَلِك مَا لَيْسَ لَك فِيهِ حَظّ فَلاَ تنكرن مُخَالفَة رَأْيك رَأْيِي .

ثمَّ قَالَ لي أَنا رجل من يمن وَكَانَ الرَّسُول صلى الله عَلَيْهِ وَسلم مضريا والخلافة فِي أَيدي مُضر .

فَكَمَا إِنِّي أحب قومِي فَكَذَلِك الْخُلَفَاء تحب قَومهَا وَإِن أظهرت ميلاً إِلَى قومِي فِي بعض الْأَوْقَات وانحرافا عَمَّن هُوَ أمس بهَا رحما مني فَإِنِّي غير شَاك فِي ميلها إِلَيْهِم إِذا حقت الْحَقَائِق .

وَمَعِي من أَبنَاء نزار بشر كثير .

وَكَانَ فِي استشعاري من قدم عَليّ من قومِي مفْسدَة لقلوب من قد امتحنته وَعرفت بلاءه من النزارية .

وَلست أَدْرِي لَعَلَّ كل من أَتَانِي من عشيرتي لاَ يُسَاوِي رجلا وَاحِدًا من النزارية فَأَرَدْت بِمَا كَانَ مني استجلاب قُلُوب من معي وَأَن ينْصَرف من أَتَانِي من عشيرتي منذرين لاَ مبشرين .

لأَنهم مَتى انصرفوا منذرين انْقَطَعت عَنَّا مادتهم وَمَتى انصرفوا مبشرين أَتَانِي مِنْهُم من لاَ يَسعهُ مَال مَا فِي أَيْدِينَا من السوَاد .

فَعلمت أَنه قد أصَاب التَّدْبِير وَلم يُخطئ فِيمَا بنى عَلَيْهِ أمره

زَكَرِيًّا بن الطيفوري

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي زَكَرِيَّا بن الطيفوري قَالَ كنت مَعَ الأفشين[1] فِي مُعَسْكَره وَهُوَ فِي محاربة بابك فَأمر بإحصاء جَمِيع من فِي عسكره من التُّجَّار وحوانيتهم وصناعة رجل رجل مِنْهُم فَرفع ذَلِك إِلَيْهِ .

فَلَمَّا بلغت الْقِرَاءَة بالقارئ إِلَى مَوضع الصيادلة قَالَ لي يَا زَكَرِيَّا ضبط هَؤُلاَءِ الصيادلة عِنْدِي أولى مَا تقدم فِيهِ فامتحنهم حَتَّى نَعْرِف مِنْهُم النَّاصح من غَيره وَمن لَهُ دين وَمن لاَ دين لَهُ .

فَقلت أعز الله الأَمِير إِن يُوسُف لقُوَّة الكيميائي كَانَ يدْخل على الْمَأْمُون كثيرا وَيعْمل بَين يَدَيْهِ .

فَقَالَ لَهُ يَوْمًا وَيحك يَا يُوسُف لَيْسَ فِي الكيمياء شَيْء فَقَالَ لَهُ بلَى يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ وَإِنَّمَا آفَة الكيمياء الصيادلة .

قَالَ لَهُ الْمَأْمُون وَيحك وَكَيف ذَلِك فَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ إِن الصيدلاني لاَ يطْلب مِنْهُ إِنْسَان شَيْئا من الأَشْيَاء كَانَ عِنْده أَو لم يكن إِلاَّ أخبرهُ بِأَنَّهُ عِنْده وَدفع إِلَيْهِ شَيْئا من الأَشْيَاء الَّتِي عِنْده وَقَالَ هَذَا الَّذِي طلبت .

فَإِن رأى أَمِير الْمُؤمنِينَ أَن يضع اسْما لاَ يعرف وَيُوجه جمَاعَة إِلَى الصيادلة فِي طلبه ليبتاعه فَلْيَفْعَل .

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُون قد وضعت الاِسْم وَهُوَ سقطيثا وسقطيثا ضَيْعَة تقرب من مَدِينَة السَّلاَم .

وَوجه الْمَأْمُون جمَاعَة من الرُّسُل يسألهم عَن سقطيثا فكلهم ذكر أَنه عِنْده وَأخذ الثّمن من الرُّسُل وَدفع إِلَيْهِم شَيْئا من حانوته فصاروا إِلَى الْمَأْمُون بِأَشْيَاء مُخْتَلفَة .

فَمنهمْ من أَتَى بِبَعْض البزور وَمِنْهُم من أَتَى بِقِطْعَة من حجر وَمِنْهُم من أَتَى بوبر .

(١) حيدر بن كاوس المُلقب بـ الأَفْشِين قائد عسكري من قوّاد جيش الخليفة المعتصم بالله .

فَاسْتحْسن الْمَأْمُون نصح يُوسُف لقُوَّة عَن نَفسه وأقطعه ضَيْعَة على النَّهر الْمَعْرُوف بنهر الكلبة فَهِيَ فِي أَيدي ورثته وَمِنْهَا معاشهم .

فَأن رأى الْأَمِير أَن يمْتَحن هَؤُلَاءِ الصيادلة بِمثل محنة الْمَأْمُون فَلْيفْعَل .

فَدَعَا الأفشين بدفتر من دفاتر الأسروشنية فَأخْرج مِنْهَا نَحوا من عشْرين اسْما وَوجه إِلَى الصيادلة من يطْلب مِنْهُم أدوية مُسَمَّاة بِتِلْكَ الْأَسْمَاء فبعضهم أنكرها وَبَعْضهمْ أدعى مَعْرفَتهَا وَأخذ الدَّرَاهِم من الرُّسُل وَدفع إِلَيْهِم شَيْئا من حانوته فَأمر الأفشين بإحضار جَمِيع الصيادلة فَلَمَّا حَضَرُوا كتب لمن أنكر معرفَة تِلْكَ الْأَسْمَاء منشورات أذن لَهُم فِيهَا بالْمقَام فِي عسكره وَنفى البَاقِينَ عَن الْعَسْكَر وَلم يَأْذَن لأحد مِنْهُم فِي الْمقَام ونادى الْمُنَادِي بنفيهم وبإباحة دم من وجد مِنْهُم فِي مُعَسْكَره .

وَكتب إِلَى المعتصم يسْأَله الْبَعْثَة إِلَيْهِ بصيادلة لَهُم أَدْيَان وَمذهب جميل ومتطببين كَذَلِك فَاسْتحْسن المعتصم ذَلِك وَوجه إِلَيْهِ بِمَا سَأَلَ .

إِسْرَائِيل بن زَكَرِيَّا الطيفوري

متطبب الْفَتْح بن خاقَان(١) كَانَ مقدما فِي صناعَة الطِّبّ جليل الْقدر عِنْد الْخُلَفَاء والملوك كثيري الاحترام لَهُ .

وَكَانَ مُخْتَصًّا بِخدمَة الْفَتْح بن خاقَان بصناعة الطِّبّ وَله مِنْهُ الجامكية الْكَثِيرَة والأنعام الوافرة وَكَانَ المتَوكل بِاللَّه يرى لَهُ كثيرا ويعتمد عَلَيْهِ وَله عِنْد المتَوكل الْمنزلَة المكينة .

وَمن ذَلِك مِمَّا حَكَاهُ إِسْحَق بن عَليّ الرهاوي فِي كتاب أدب الطَّبِيب أَن إِسْرَائِيل بن زَكَرِيَّا ابْن الطيفوري وجد على أَمِير الْمُؤمنِينَ المتَوكل لما احْتجم بِغَيْر إِذْنه فَافْتدى غَضَبه بِثَلَاثَة آلَاف دِينَار وضيعة تغل لَهُ فِي السّنة خمسين ألف دِرْهَم وَهبهَا لَهُ وسجل لَهُ عَلَيْهَا .

وَحكي عَن عِيسَى بن ماسة قَالَ رَأَيْت المتَوكل وَقد عَاده يَوْمًا وَقد غشي عَلَيْهِ فصير يَده تَحت رَأسه مخدة ثمَّ قَالَ للوزير يَا عبد الله حَيَاتِي معلقَة بحياته أَن عدمته لَا أعيش .

---

(١) أبو محمد الفتح بن أحمد بن غرطوج ، هو وزير وأديب وشاعر ترعر في أحضان الدولة العباسية ، من أصول فارسية ، عينه المتوكل أميراً ونائباً لشؤون مصر وإفريقية . اتخذه المتوكل أخاً ، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله ، قتل مع المتوكل .

ثمَّ اعتل فَوجه إِلَيْهِ سعيد بن صَالح حَاجِبه ومُوسَى بن عبد الْملك كَاتبه يعودانه .

ونقلت من بعض التواريخ أَن الْفَتْح بن خاقَان كَانَ كثير الْعِنَايَة بإسرائيل بن الطيفوري فقدمه عنْد المتَوكل وَلم يزل حَتَّى أنس بِهِ المتَوكل وَجعله فِي مرتبَة بختيشوع وَعظم قدره وَكَانَ مَتى ركب إِلَى دَار المتَوكل يكون موكبه مثل موكب الْأُمَرَاء وأجلاء القواد وَبَين يَدَيْهِ أَصْحَاب المقارع وأقطعه المتَوكل قطيعة بسر من رأى وَأمر المتَوكل صقْلاَب وَابْن الْخَيْبَرِيّ بِأَن يركبا مَعَه ويدور جَميع سر من رأى حَتَّى يخْتَار الْمَكَان الَّذِي يُريدهُ فركبا حَتَّى اخْتَار من الحيز خمسين ألف ذِرَاع وَضربا الْمنَار عَلَيْهِ وَدفع إِلَيْهِ ثلاثمائة ألف دِرْهَم للنَّفَقَة عَلَيْهِ .

يزيد بن زيد

يزيد بن زيد بن يوحنا بن أبي خَالِد متطبب الْمَأْمُون كَانَ جيد الْعلم حسن المعالجة مَوْصُوفا بِالْفَضْلِ .

وَكَانَ قد خدم الْمَأْمُون بصناعة الطِّبّ وخدم أَيْضا إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي وَكَانَ لَهُ مِنْهُ الْإِحْسَان الْكثير والإنعام الغزير والعناية الْبَالِغَة والجامكية الوافرة .

وَكَانَ يُقَال لَهُ أَيْضا يزِيد بور .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي أَبُو إِسْحَق إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي أَن ثُمَامَة الْعَبْسِي القعقاعي وَهُوَ أَبُو عُثْمَان بن ثُمَامَة صَاحب الْجَبَّار اعتل من خلفة تطاولت بِهِ وَكَانَ شَيخا كَبِيرا .

قَالَ أَبُو إِسْحَق فَسَأَلَنِي الرشيد عَن علته وَأَيْنَ بلغت به فأعلمته إِنِّي لاَ أعرف لَهُ خَبرا فأظهر إنكارا لقولي ثمَّ قَالَ رجل غَرِيب من أهل الشّرف قد رغب فِي مصاهرة أَهله عبد الْملك بن مَرْوَان وَقد ولدت أُخْته خليفتين الْوَلِيد وَسليمَان ابْني عبد الْملك وَقد رغب أَبوك فِي مصاهرته فتزَوج أُخْته ورغبت أَنا أَخُوك فِي مثل ذَلِك مِنْهُ فَتزوّجت ابْنَته وَهُوَ مَعَ ذَلِك صَحَابِيّ لجدك وَأَبِيك ولأختك وأخيك فَلاَ توجب على نَفسك عيادته ثمَّ أَمرنِي بالمصير إِلَيْهِ لعيادته فَنَهَضت وَأخذت معي متطببي يزِيد وصرت إِلَيْه .

فَدخلت على رجل توهمت أَنه فِي آخر حشاشة بقيت من نَفسه وَلم أر فِيهِ للمسألة موضعا .

فَأمر يزيد متطببي بإحضار متطببه فَحَضَرَ فَسَأَلَهُ عَن حَاله فَأخْبرهُ أَنه يقوم فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة مائَة مجْلس .

وَأَقْبل يزيد يسْأَل المتطبب عَن بَاب بَاب من الْأَدْوِيَة الَّتِي تشرب وَعَن السفوفات والحقن فَلم يذكر لذَلِك المتطبب شَيْئا إِلاَّ أعلمهُ أَنه قد عالجه بِهِ فَلم ينجع فِيهِ .

فَوَجَمَ عِنْد ذَلِك يزيد مِقْدَار سَاعَة ثمَّ رفع رَأسه وَقَالَ قد بَقِي شَيْء وَاحِد أَن عمل بِهِ رَجَوْت أَن يَنْتَفع بِهِ وَإِن لم ينجع فِيهِ فَلَا علاج لَهُ .

قَالَ أَبُو إِسْحَق فَرَأَيْت ثُمَامَة قد قويت نَفسه عِنْدَمَا سمع من يزيد مَا سمع ثمَّ قَالَ وَمَا ذَلِك الشَّيْء الَّذِي بَقِي متعت بك قَالَ لَهُ شربة اصطمخيقون .

فَقَالَ ثُمَامَة أحب أَن أرى هَذِه الشربة حَتَّى أشمّ رائحتها .

فَأخْرج يزيد من كمه منديلا فِيهِ أدوية وَفِيه شربة اصطمخيقون .

فَأمر بهَا ثُمَامَة فَحلت ثمَّ أَتَى بهَا فرمى بهَا فِي فِيهِ وابتلعها .

فوَاللَّه مَا وصلت إِلَى جَوْفه حَتَّى سَمِعت مِنْهُ أصواتا لم أَشك فِي إِنِّي لم أبلغ بَاب دَاره إِلاَّ وَقد مَاتَ .

فَنَهَضت ومتطببي معي وَمَا أَعقل غما .

وَأمرت خَادمًا لي كَانَ يحمل معي الاسطرلاب إِذا ركبت بِالْمقَامِ فِي دَاره وتعرف خبر مَا يكون مِنْهُ .

فَتخلف فوافاني كتاب الْخَادِم بعد الزَّوَال يعلمني أَنه قَامَ من بعد طُلُوع الشَّمْس إِلَى زَوَالهَا خمسين مرّة فَقلت تلفت وَالله نفس ثُمَامَة .

ثمَّ وافى كتاب الْخَادِم بعد غرُوب الشَّمْس أَنه قَامَ مُنْذُ زَوَال الشَّمْس إِلَى غُرُوبهَا عشْرين مَجْلسا .

ثمَّ صَار إِلَى الْغُلَام مَعَ طُلُوع الشَّمْس فَذكر أَنه لم يكن مِنْهُ مُنْذُ غرُوب الشَّمْس إِلَى انتصاف اللَّيْل إِلاَّ ثَلَاثَة مجَالِس وَلم يكن مِنْهُ إِلَى وَقت طُلُوع الْفجْر شَيْء .

فركبت إِلَيْهِ بعد أَن صليت الْغَدَاة فَوَجَدته نَائِما وَكَانَ لَا يَنَام فأنتبه لي فَسَأَلته عَن خَبره فَأَعْلمنِي أَنه لم يزل فِي وجع من جَوْفه مَانع لَهُ النّوم والقرار مُنْذُ أَكثر من أَرْبَعِينَ لَيْلَة حَتَّى أَخذ تِلْكَ الشربة .

فَلَمَّا انْقَطع فعل الشربة انْقَطع عَنهُ ذَلِك الوجع وَأَنه لم يشته طَعَاما مُنْذُ ذَلِك الْوَقْت وَأَنه مَا يبصرني فِي وقته من غَلَبَة الْجُوع عَلَيْهِ .

وَسَأَلَ الْإِذْن فِي الْأكل فَأذن لَهُ يزِيد فِي أكل أسفيدباجه قد طبخت من فروج

كسكري سمين ثمَّ اتباعها زيرباجة فَفعل ذَلك .

وصرت إِلَى الرشيد فَأَخْبَرته بِمَا كَانَ من أَمر ثُمَامَة .

فأحضر المتطبب وَقَالَ لَهُ وَيحك كَيفَ أقدمت على إسقائه حب الأصطمخيقون فَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ هَذَا رجل كَانَ فِي جَوْفه كيموس فَاسد فَلم يكن يدْخل فِي جَوْفه دَوَاء وَلاَ غذَاء إِلاَّ أفسدهُ ذَلِك الكيموس .

وَكَانَ كلما فسد من تِلْكَ الْأَدْوِيَة والأغذية صَار مَادَّة لذَلِك الْفساد فَكَانَت الْعلَّة لهَذَا السَّبَب تزداد .

فَعلمت أَنه لاَ علاج لَهُ إِلاَّ بدواء قوي يقوى على قلع ذَلِك الكيموس .

وَكَانَ أقوى الْأَشْيَاء الَّتِي يُمكن أَن يسقاها الأصطمخيقون فَقلت لَهُ فِيهِ الَّذِي قلت .

وَلم أقدم أَيْضا على القَوْل أَنه يُبرئهُ لاَ محَالة وَإِنَّمَا قلت بَقِي شَيْء وَاحِد فَإِن هُوَ لم يَنْفَعهُ فَلاَ علاج لَهُ .

وَإِنَّمَا قلت ذَلِك لأَنِّي رَأَيْت الرجل عليلا قد أضعفته الْعلَّة وأذهبت أَكثر قواه .

فَلم آمن عَلَيْهِ التّلفَ أَن شربه وَكنت أَرْجُو لَهُ الْعَافِيَة بشربه إِيَّاه .

وَكنت أعلم أَنه إِن لم يشربه أَيْضا تلف .

فَاسْتَحْسن الرشيد مَا كَانَ من قَوْله وَوَصله بِعشْرَة آلاَف دِرْهَم .

ثمَّ عَاد الرشيد ثُمَامَة وَقَالَ لَهُ لقد أقدمت من شرب ذَلِك الدَّوَاء على أَمر عَظِيم وخاصة إِذْ كَانَ المتطبب لم يُصَرح لَك بِأَن فِي شربه الْعَافِيَة .

فَقَالَ ثُمَامَة يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ كنت قد يئست من نَفسِي وَسمعت المتطبب يَقُول إِن شرب هَذَا الدَّوَاء رَجَوْت أَن يَنْفَعهُ فاخترت الْمقَام على الرَّجَاء وَلَو لَحْظَة على الْيَأْس من الْحَيَاة فَشَربته وَكَانَت فِي ذَلِك خيرة من الله عَظِيمَة .

أَقُول وَهَذه الْحِكَايَة تناسب مَا رُوِيَ عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْه وَسلم أَنه جَاءَ إِلَيْهِ رجل من الْعَرَب فَقَالَ يَا رَسُول الله إِن أخي قد غلب عَلَيْه الْخَوْف وداويناه وَلم يَنْقَطع عَنهُ بِشَيْء فَقَالَ لَهُ صلى الله عَلَيْه وَسلم (أَطْعمهُ عسل النَّحْل) .

فراح وأطعمه إِيَّاه فَزَاد الإسهال فَأتى إِلَيْهِ وَقَالَ يَا رَسُول الله كثر الإسهال بِهِ من وَقت أطعمته الْعَسَل فَقَالَ (أَطْعمهُ الْعَسَل) .

فأطعمه فَزَاد الإسهال أَكثر .

فَشَكا ذَلِك إِلَى النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فَقَالَ (أَطْعمهُ أَيْضا الْعَسَل) .

فأطعمه أَيْضا فِي الْيَوْم الثَّالِث فتقاصر الإسهال وَانْقطع بِالْكُلِّيَّةِ .

فَأخْبر النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم بذلك فَقَالَ (صدق الله وكذبت بطن أَخيك) .

وَإِنَّمَا قَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْه وَسلم لَهُ ذَلِك لكَونه كَانَ قد علم أَن فِي خمل معدة الْمَرِيض رطوبات لزجة غَلِيظَة قد أزلقت معدته فَكلما مر بهَا شَيْء من الأَدْوِيَة القابضة لم يُؤثر فِيهَا والرطوبات بَاقِيَة على حَالهَا والأطعمة تزلق عَنْهَا فَيبقى الإسهال دَائِما .

فَلَمَّا تنَاول الْعَسَل جلا تِلْكَ الرطوبات وأحدرها فَكثر الإسهال أَولا بخروجها وتوالى ذَلِك إِلَى أَن نفدت تِلْكَ الرطوبات بأسرها فَانْقَطع الإسهال وَبرئ الرجل .

فَقَوله صدق الله يَعْنِي بِالْعلمِ الَّذِي أوجده الله عز وَجل لنَبيه وعرفه بِهِ وَقَوله وكذبت بطن أَخِيك يَعْنِي مَا كَانَ يَظْهر من بَطْنه من الإسهال وكثرته بطرِيق الْعرض وَلَيْسَ هُوَ مرض حَقِيقِيّ فَكَانَت بَطْنه كَاذِبَة فِي ذَلِك

عَبدُوس بن زيد

قَالَ أَبُو عَليّ القباني عَن أَبِيه أَن الْقَاسِم بن عبيد الله مرض فِي حَيَاة أَبِيه مَرضا حادا فِي تموز وَحل بِهِ القولنج الصعب فَانْفَرد بعلاجه عَبدُوس بن زيد وسقاه مَاء أصُول قد طبخ وَطرح فِيهِ أصل الكرفس والرازيانج ودهن الخروع وَجعل فِيهِ شَيْئا من أيارج فيقرا فحين شربه سكن وَجَعه وَأجَاب طبعه مجلسين فأفاق ثمَّ أَعْطَاهُ من غَد ذَلِك الْيَوْم مَاء شعير فاستظرف هَذَا مِنْهُ .

وَقَالَ أَبُو عَليّ القباني أَيْضا أَن أَخَاهُ إِسْحَق بن عَليّ مرض وغلبت الْحَرَارَة على مزاجه والنحول على بدنه حَتَّى أَدَّاهُ إِلَى الضعْف ورد مَا يَأْكُلهُ .

فَسَقَاهُ عَبدُوس بن زيد هَذِه الأُصُول بالأيارج ودهن الخروع فِي حزيران أَرْبَعَة عشر يَوْمًا فَعُوفِيَ وصلحت معدته .

وَقَالَ فِي مثل هَذِه الأَيَّام تحم حمى حادة فَإِن كنت حَيا خلصتك بِإِذن الله وَإِن كنت مَيتا فعلامة عافيتك لَهُ دائر سنة أَن تَنْطَلِق طبيعتك فِي الْيَوْم السَّابِع فَإِن انْطَلَقت عوفيت وَمَعَ هَذَا فقد نقرت معدتك نقرا لَو طرحت فِيهَا الْحِجَارَة لطحنتها فَلَمَّا انْقَضتْ السّنة مرض عَبدُوس وحم أخي كَمَا قَالَ وَكَانَ مرضهما فِي يَوْم وَاحِد .

فَمَا زَالَ عَبدُوس يُرَاعِي أخي وَيسْأل عَن خَبره إِلَى أَن قيل لَهُ قد انْطَلَقت طَبِيعَته فَقَالَ قد تخلص وَمَات عَبدُوس فِي الْغَد من ذَلِك الْيَوْم .

ولعبدوس بن زيد من الْكتب كتاب التَّذْكِرَة فِي الطِّبّ

سهل الكوسج

كَانَ سهل الكوسج أَبُو سَابُور بن سهل صَاحب الأقراباذين الْمَشْهُور من أهل الأهواز وَكَانَ الحى . .

وَإِنَّمَا لقب بالكوسج على سَبِيل التضاد .

وَكَانَ عَالما فِي الطِّبّ إِلاَّ أَنه دون ابْنه فِي الْعلم وَكَانَت فِي لِسَانه لكنه خوزية .

وَكَانَ كثير الْهزْل فغلب هزله جده .

وَكَانَ مَتى اجْتمع مَعَ يوحنا بن ماسوية وجورجس بن بختيشوع وَعِيسَى بن حكم وَعِيسَى بن أبي خَالِد وزكَريا ابْن الطيفوري وَيَعْقُوب صَاحب البيمارستان وَالْحسن بن قُرَيْش وَعِيسَى الْمُسلم وَسَهل بن جُبَير وَهَذِه الطَّبَقَة من المتطببين قصر عَنْهُم فِي الْعبارَة وَلم يقصر عَنْهُم فِي العلاج .

وَكلهمْ كَانَ يخَاف لِسَانه لطول كَانَ فِيهِ وبذاء .

وَكَانَت لَهُ السن على جَمَاعَتهمْ .

وَكَانَ انْقِطَاعه إِلَى سَلام الأبرش وَكَانَ سَلام لاَ يُفَارق هرثمة بن أعين أَيَّام محاصرته مَدِينَة السَّلاَم فَكَانَ سهل هَذَا قد خص بهرثمة بن أعين حَتَّى كَانَ يكون مَعَه فِي ليله ونهاره وسمره .

وَكَانَ بدعابته الْكَثِيرَة الَّتِي كَانَت فِيهِ طيب الْعشْرَة .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم وَمن دعابات سهل الكوسج أَنه تمارض فِي سنة تسع وَمِائَتَيْنِ وأحضر شُهُودًا يشهدهم على وَصيته وَكتب كتابا أثبت فِيهِ أَسمَاء أَوْلاَده .

فَأثْبت أَوَّلهمْ جورجس بن ميخائيل وَأمه مَرْيَم بنت بختيشوع أُخْت جِبْرَائِيل وَالثَّانِي يوحنا بن ماسويه وَالثَّالِث وَالرَّابِع وَالْخَامِس سَابُور ويوحنا وخذاهويه ولد سهل المعروفين .

وَذكر أَنه أصَاب أم جورجس وَأم يوحنا بن ماسوية زنا وأحبلهما بجورجس ويوحنا .

قَالَ يُوسُف وَمن دعاباته أَنِّي حَضرته عِنْد أعين بن هرثمة بن أعين وَقد دارت

بَينه وَبَين جورجس ملاحاة فِي حمى ربع قد كَانَت طَالَتْ بأعين فَعرفهُ بِمثل مَا أشهد به فِي وَصيته .

وَكَانَ فِي جورجس تلفت كثير إِلَى من عَن يَمينه وشماله من النَّاس وأخرجته الحدة إِلَى زمع أَصَابَهُ فصاح سهل صرى وهك المسيه أخروا فِي أُذُنه آيَة خرسي أَرَادَ صرع وَحقّ الْمَسِيح اقرؤوا فِي أُذُنه آيَة الْكُرْسِيّ .

قَالَ يُوسُف وَمن دعاباته أَنه خرج فِي يَوْم الشعانين يُرِيد دير الجاثليق والمواضع الَّتِي تخرج إِلَيْهَا النَّصَارَى فِي يَوْم الشعانين فَرَأى يوحنا بن ماسوية فِي هَيْئَة أحسن من هَيئته وعَلى دَابَّة أفره من دَابَّته وَمَعَهُ غلْمَان لَهُ روقة فحسده على الظَّاهِر من نعْمَته فَصَارَ إِلَى صَاحب مسلحة النَّاحِيَة فَقَالَ لَهُ إِن ابْني يعقني وَقد أَعْجَبته نَفسه وَرُبمَا أخرجه الْعجب بِنَفسِهِ وبنعمته إِلَى جحود أَبَوي وَأَن أَنْت بطحته وضربته عشْرين درة موجعة أَعطيتك عشْرين دِينَارا .

ثمَّ أخرج الدَّنَانِير فَدَفعهَا إِلَى رجل وثق بِهِ صَاحب المسلحة ثمَّ اعتزل نَاحيَة إِلَى أَن بلغ يوحنا إِلَى الْموضع الَّذِي هُوَ فِيهِ فقدمه إِلَى صَاحب المسلحة وَقَالَ هَذَا ابْني يعقني ويستخف بِي .

فجحد أَن يكون ابْنه فَلم يكلمهُ صَاحب المسلحة حَتَّى بطح يوحنا وضربه عشْرين درة ضربا وجيعا مبرحا .

سَابُور بن سهل

كَانَ ملازما لبيمارستان جندي سَابُور ومعالجة المرضى بِهِ وَكَانَ فَاضلا عَالما بقوى الْأَدْوِيَة المفردة وتركيبها وَتقدم عِنْد المتَوَكل وَكَانَ يرى لَهُ وَكَذَلِكَ عِنْد من تولى بعده من الْخُلَفَاء .

وَتُوفِّي فِي أَيَّام الْمُهْتَدي بِاللَّه .

وَكَانَت وَفَاة سَابُور بن سهل فِي يَوْم الاِثْنَيْنِ لتسْع بَقينَ من ذِي الْحجَّة سنة خمس وَخمسين وَمِائَتَيْنِ .

ولسابور بن سهل من الْكتب كتاب الأقراباذين الْكَبِير الْمَشْهُور جعله سَبْعَة عشر بَابا وَهُوَ الَّذِي كَانَ من الْمَعْمُول عَلَيْهِ فِي البيمارستان ودكاكين الصيادلة وخصوصا قبل ظُهُور الأقراباذين الَّذِي أَلفه أَمِينَ الدولة بن التلميذ .

كتاب قوى الأَطْعِمَة ومضارها ومنافعها كتاب الرَّد على حنين فِي كِتَابه فِي الْفرق بَين الْغذَاء والدواء المسهل .
الْقَوْل فِي النّوم واليقظة كتاب إِبْدَال الْأَدْوِيَة .

إسرئيل بن سهل

كَانَ مُتَقَدما فِي صناعَة الطِّبّ حسن العلاج خَبِيرا بتركيب الْأَدْوِيَة .
وَله كتاب مَشْهُور فِي الترياق وَقد أَجَاد عمله وَبَالغ فِي تأليفه .
مُوسَى بن إِسْرَائِيل الْكُوفِي .

متطبب إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم كَانَ مُوسَى هَذَا قَلِيل الْعلم بالطب إِذا قيس إِلَى من هُوَ فِي دهره من مَشَايِخ المتطببين إِلَّا أَنه كَانَ أملأ لمجلسه مِنْهُم بخصال اجْتمعت فِيهِ مِنْهَا فصاحة اللهجة وَمَعْرِفَة بالنجوم وَعلم بأيام النَّاس وَرِوَايَة الْأَشْعَار .
وَكَانَ مولده فِيمَا ذكر لي سنة تسع وَعشْرين وَمِائَة ووفاته فِي سنة اثْنَتَيْنِ وَعشْرين وَمِائَتَيْنِ .
فَكَانَ أَبُو إِسْحَق يحْتَملهُ لهَذِهِ الْخلال وَلِأَنَّهُ كَانَ طيب الْعشْرَة جدا يدْخل فِي كل مَا يدْخل فِيهِ منادمو الْمُلُوك .
وَكَانَ قد خدم وَهُوَ حدث عِيسَى بن مُوسَى بن مُحَمَّد ولي الْعَهْد .
قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي مُوسَى بن إِسْرَائِيل قَالَ كَانَ لعيسى بن مُوسَى متطبب يَهُودِيّ يُقَال لَهُ فرات بن شحاثا كَانَ تياذوق المتطبب يقدمهُ على جَمِيع تلامذته وَكَانَ شَيخا كَبِيرا قد خدم الْحجَّاج بن يُوسُف وَهُوَ حدث .
قَالَ وَكَانَ عِيسَى يشاور فِي كل أَمر ينوبه هَذَا المتطبب .
قَالَ مُوسَى .
فَلَمَّا عقد الْمَنْصُور لعيسى على محاربة مُحَمَّد بن عبد الله بن حسن الْعلوِي وَصَارَ اللِّوَاء فِي دَاره .
قَالَ للفرات مَا تَقول فِي هَذَا اللِّوَاء .
قَالَ لَهُ المتطبب أَقُول إِنَّه لِوَاء الشحناء بَيْنك وَبَين أهلك إِلَى يَوْم الْقِيَامَة .
إِلَّا أَنِّي أرى لَك نقل أهلك من الْكُوفَة إِلَى أَي الْبلدَانِ أَحْبَبْت فَإِن الْكُوفَة بلد

شيعَة من تحارب فَإِن فللت لم تكن لمن تخلف بهَا من أهلك بقيا وَإِن فللت وأصبت من تتَوَجَّه إِلَيْهِ زَاد ذَلِك فِي أضغانهم عَلَيْك فَإِن سلمت مِنْهُم حياتك لم يسلم مِنْهُم عقبك بعد وفاتك .

فَقَالَ لَهُ عيسَى وَيحك إِن أَمِير الْمُؤمنِينَ غير مفارق للكوفة فَلم أنقل أَهلِي عَنْهَا وهم مَعَه فِي دَار فَقَالَ لَهُ أَن الفيصل فِي مخرجك فَإِن كَانَت الْحَرْب لَك فالخليفة مُقيم بِالْكُوفَةِ وَإِن كَانَت الْحَرْب عَلَيْك لم تكن الْكُوفَة لَهُ بدار وسيهرب عَنْهَا ويخلف حرمه فضلا عَن حرمك .

قَالَ مُوسَى فحاول عِيسَى نقل عِيَاله من الْكُوفَة فَلم يسوغه ذَلِك الْمَنْصُور .

قَالَ وَلما فتح الله على عِيسَى وَرجع إِلَى الْكُوفَة وَقتل إِبْرَاهِيم بن عبيد الله انْتقل الْمَنْصُور إِلَى مَدِينَة السَّلَام فَقَالَ لَهُ متطببه بادره بالانتقال مَعَه إِلَى مدينته الَّتِي قد أحدثها وَاسْتَأْذَنَ الْمَنْصُور فِي ذَلِك فَأعلمهُ أَنه لَا سَبِيل إِلَيْهِ وَأَنه قد دبر استخلافه على الْكُوفَة فَأخْبر بذلك عِيسَى متطببه .

فَقَالَ لَهُ المتطبب استخلافه إياك على الْكُوفَة قد حل لعقدك عَن الْعَهْد لِأَنَّهُ لَو دبر تَمام الْأَمر لَك لولاك خُرَاسَان بلد شيعتك .

فَأَما أَن يجعلك بِالْكُوفَةِ مَعَ أعدائه وأعدائك وَقد قتلت مُحَمَّد بن عبد الله فوَاللَّه مَا دبر فِيك إِلَّا قَتلك وَقتل عقبك .

وَمن الْمحَال أَن يوليك خُرَاسَان بعد الظَّاهِر مِنْهُ فِيك .

فسله توليتك الجزيرتين أَو الشَّام فَأخْرج إِلَيّ أَي الولايتين ولاك فأوطنها فَقَالَ لَهُ تكره لي ولَايَة الْكُوفَة وَأَهْلهَا من شيعَة بني هَاشم وترغب لي فِي ولَايَة الشَّام أَو الجزيرتين وَأَهْلهَا من شيعَة بني أُميَّة فَقَالَ لَهُ المتطبب أهل الْكُوفَة وَأَن وَسموا أنفسهم بالتشيع لبني هَاشم فلست وَأهْلك من بني هَاشم الَّذِي يتشيعون لَهُم .

وَإِنَّمَا تشيعهم لبني أبي طَالب وَقد أصبت من دِمَائِهِمْ مَا قد أكسب أهل الْكُوفَة بغضتك وَأحل لَهُم عِنْد أنفسهم الاقتياد مِنْك .

وتشيع أهل الجزيرتين وَالشَّام لَيْسَ على طَرِيق الدّيانَة وَإِنَّمَا ذَلِك على طَرِيق إِحْسَان بني أُميَّة إِلَيْهِم .

وَإِن أَنْت أظهرت لَهُم مَوَدَّة مَتى وليتهم فأحسنت إِلَيْهِ كَانُوا لَك شيعَة ويدلك على ذَلِك محاربتهم مَعَ عبد الله بن عَليّ على مَا قد نَالَ من دِمَائِهِمْ لما تألفهم وتضمن لَهُم الْإِحْسَان إِلَيْهِم فهم إِلَيْك لسلامتك من دِمَائِهِمْ أميل .

واستعفى عيسَى من ولاَيَة الْكُوفَة وَسَأَلَ تعويضه عَنْهَا فَأعلمهُ الْمَنْصُور أَن الْكُوفَة دَار الْخلاَفَة وَإِنَّهُ لاَ يُمكن أَن تَخْلُو من خَليفَة أَو ولي عهد .

ووعد عيسَى أَن يُقيم بِمَدينَة السَّلاَم سنة وبالكوفة سنة .

وَأَنه إِذا صَار إِلَى الْكُوفَة صَار عيسَى إِلَى مَدينَة السَّلاَم فَأَقَامَ بهَا .

قَالَ مُوسَى فَلَمَّا طلب أهل خُرَاسَان عقد الْبيعَة للمهدي قَالَ لمتطببه مَا تَقول يَا فرات فقد دعيت إِلَى تَقْديم مُحَمَّد بن أَمير الْمُؤمنِينَ على نَفسِي فَقَالَ لَهُ فتدفع بِمَاذَا أرى أَن تسمع وتطيع الْيَوْم وَبعد الْيَوْم .

فَقَالَ لَهُ وَمَا بعد الْيَوْم قَالَ إِذا دعَاك مُحَمَّد بن أَمير الْمُؤمنِينَ إِلَى خلع نَفسك وَتَسْليم الْخلاَفَة إِلَى بعض وَلَده أَن تسارع .

فَلَيْسَتْ عنْدك مَنْعَة وَلاَ يمكنك مُخَالفَة الْقَوْم فِي شَيْء يريدونه منْك قَالَ مُوسَى فَمَاتَ المتطبب فِي خلاَفَة الْمَنْصُور .

فَلَمَّا دعى الْمهْدي عيسَى إِلَى خلع نَفسه من ولاَيَة الْعَهْد وَتَسْليم الأْمر إِلَى الْهَادي قَالَ عيسَى بن مُوسَى قَاتلك الله يَا فرات مَا كَانَ أَجود رَأْيك وأعلمك بِمَا تتفوه به كَأَنَّك كنت شَاهدا ليومنا هَذَا قَالَ مُوسَى بن إِسْرَائيل وَلما رَأَيْت فعل أَبي السَّرَايَا بمنازل العباسيين قلت مثل مَا قَالَ عيسَى ابْن مُوسَى .

وَقَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهيم لما بلغه وَهُوَ بمصْر مَا ركب الطالبيون وَأهل الْكُوفَة من العباسيين وَقتل عبد الله بن مُحَمَّد بن دَاوُد مثل مَا قَالَ عيسَى بن مُوسَى ومُوسَى المتطبب .

قَالَ يُوسُف وحَدثني مُوسَى بن إِسْرَائيل المتطبب أَن عيسَى بن مُوسَى شكا إِلَى فرات متطببه مَا يُصيبهُ من النعاس مَعَ مسامريه وَأَنه أَن تعشى مَعَهم ثقلت معدته فَنَامَ وَفَاته السمر وَأَصْبح وَمَعَهُ ثقلة تَمنعهُ من الْغذَاء وَإِن لم يتعش مَعَهم أضرت بِهِ الشَّهْوَة الكاذبة فَقَالَ لَهُ شَكَوْت إِلَيّ مثل مَا شكا الْحجَّاج إِلَى أستاذي تياذوق فوصف لَهُ شَيْئا أَرَادَ به الْخَيْر فصَارَ شرا .

فَقَالَ لَهُ وَمَا هُوَ قَالَ وصف لَهُ الْعَبَث بالفستق فَذكر ذَلك الْحجَّاج لحظاياه فَلم يبْق لَهُ حظية إِلاَّ قشرت لَهُ جَاما من الفستق وَبعثت به إِلَيْه .

وَجلسَ مَعَ مَسَاميرهُ فَأقبل يستف الفستق سفا فَأَصَابته هيضة كَادَت تَأتي على نَفسه فَشَكا ذَلك إِلَى تياذوق .

فَقَالَ إِنَّمَا أَمرتك أَن تعبث بالفستق وَأَرَدْت بذلك الفستق الَّذِي بقشريه جَمِيعًا

لتتولى أَنْت كسر الْوَاحدَة بعد الْوَاحدَة ومص قشرها المصلح لمعدة مثلك من الشَّبَاب الممرورين وَإِصْلَاح الكبد بِمَا يتَأَدَّى إِلَيْهَا من طعم هَذَا الفستق وَذَهَبت إِلَى أَنَّك إِذا أكلت مَا فِي الفستقة من الثَّمَرَة وحاولت كسر أُخْرَى لم يتم لَك كسرهَا إِلاَّ وَقد أسرعت الطبيعة فِي هضم مَا أكلت من ثَمَرَة الفستقة الَّتِي قبلهَا .

فَأَما مَا فعلت فَلَيْسَ بعجيب أَن ينالك مَعَه أَكثر ممَّا أَنْت فيه .

وَإِن كنت تَأْخُذ أَيهَا الأَمِير الفستق على مَا رأى أستاذي أَن يُؤْخَذ انتفعت به .

قَالَ مُوسَى فَلَزِمَ عِيسَى بن مُوسَى أَخذ الفستق أَكثر من عشْرين سنة فَكَانَ يحمده .

ماسرجويه متطبب الْبَصْرَة

وَهُوَ الَّذي نقل كتاب أهرن من السرياني إِلَى الْعَرَبِيّ .

وَكَانَ يَهُودِيّ الْمَذْهَب سريانيا وَهُوَ الَّذِي يعنيه أَبُو بكر مُحَمَّد بن زَكَرِيَّا الرَّازِيّ فِي كِتَابه الْحَاوِي بقوله قَالَ الْيَهُودِيّ .

وَقَالَ سُلَيْمَان بن حسان الْمَعْرُوف بِابْن جلجل أَن ماسرجويه كَانَ فِي أَيَّام بني أُميَّة .

وَأَنه تولى فِي الدولة المروانية تَفْسِير كتاب أهرن بن أعين إِلَى الْعَرَبيَّة الَّذِي وجده عمر بن عبد الْعَزِيز رَحمَه الله فِي خَزَائِن الْكتب فَأمر بِإِخْرَاجه وَوَضعه فِي مُصَلَّاهُ واستخار الله فِي إِخْرَاجه إِلَى الْمُسلمين للإنتفاع بِهِ فَلَمَّا تمّ لَهُ فِي ذَلِك أَرْبَعُونَ صباحا أخرجه إِلَى النَّاس وبثه فِي أَيْديهم .

قَالَ سُلَيْمَان بن حسان حَدثنِي أَبُو بكر مُحَمَّد بن عمر بن عبد الْعَزِيز بِهَذِهِ الْحِكَايَة فِي مَسْجِد التِّرْمذِيّ .

سنة تسع وَخمسين وثلثمائة .

وَقَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم حَدثنِي أَيُّوب بن الحكم الْبَصْرِيّ الْمَعْرُوف بالكسروي صَاحب مُحَمَّد بن طَاهِر بن الْحُسَيْن وَكَانَ ذَا أدب ومروءة وَعلم بأيام النَّاس وأخبارهم .

قَالَ كَانَ أَبُو نواس الْحسن بن هَانِئ يعشق جَارِيَة لامْرَأَة من ثَقِيف تسكن الْموضع الْمَعْرُوف بحكمان من أَرض الْبَصْرَة يُقَال لَهَا جنان وَكَانَ المعروفان بِأبي عُثْمَان وَأبي أُميَّة من ثَقِيف قريبين لمولاة الْجَارِيَة .

فَكَانَ أَبُو نواس يخرج فِي كل يَوْم من الْبَصْرَة يتلَقَّى من يقدمهُ من نَاحيَة حكمان فيسائلهم عَن أَخْبَار جنان .

قَالَ فَخرج يَوْمًا وَخرجت مَعَه وَكَانَ أول طالع علينا ماسرجويه المتطبب فَقَالَ لَهُ أَبُو نواس كَيفَ خلفت أَبَا عُثْمَان ومية فَقَالَ ماسرجويه جنان صَالِحَة كَمَا تحب .

فَأَنْشَأَ أَبُو نواس يَقُول .

(أسأل القادمين من حكمان كَيفَ خلفتُمْ أَبَا عُثْمَان)
(وَأَبا مية الْمُهَذّب والمأمول والمرتجى لريب الزَّمَان)
(فَيَقُولُونَ لي جنان كَمَا سرك فِي حَالهَا فسل عَن جنان)
(مَا لَهُم لاَ يُبَارك الله فيهم كَيفَ لم يغن عَنْهُم كتماني)

الْخَفِيف

قَالَ يُوسُف وحَدثني أَيُّوب بن الحكم أَنه كَانَ جَالسا عِنْد ماسرجويه وَهُوَ ينظر فِي قَوَارِير المَاء إِذْ أَتَاهُ رجل من الخوز فَقَالَ لَهُ إِنِّي بليت بداء لم يبل أحد بِمثلِهِ .

فَسَأَلَهُ عَن دائه فَقَالَ أصبح وبصري عَليّ مظلم وَأَنا أجد مثل لحس الْكلاب فِي معدتي فَلاَ تزَال هَذِه حَالي حَتَّى أطْعم شَيْئا فَإِذا طعمت سكن عني مَا أجد إِلَى وَقت انتصاف النَّهَار ثمَّ يعاودني مَا كنت فِيهِ فَإِذا عاودت الْأكل سكن مَا بِي إِلَى وَقت صَلاَة الْعَتَمَة ثمَّ يعاودني فَلاَ أجد لَهُ دَوَاء إِلاَّ معاودة الْأكل فَقَالَ ماسرجويه على هَذَا الدَّاء غضب الله فَإِنَّهُ أَسَاءَ لنَفسه الاخْتِيَار حِين قرنها بسفلة مثلك ولوددت أَن هَذَا الدَّاء يحول إِلَيّ وَإِلَى صبياني وَكنت أعوضك مِمَّا نزل بك مِنْهُ مثل نصف مَا أملك فَقَالَ لَهُ مَا أفهم عَنْك فَقَالَ لَهُ ماسرجويه هَذِه صِحَة لاَ تستحقها أسأَل الله نقلهَا عَنْك إِلَى من هُوَ أَحَق بهَا مِنْك . .

قَالَ يُوسُف وحَدثني أَيُّوب بن الحكم الكسروي قَالَ شَكَوْت إِلَى ماسرجويه تعذر الطبيعة فَسَأَلَنِي أَي الأنبذة أشْرب فأعلمته أَنِّي أدمن النَّبِيذ الْمَعْمُول من الدوشاب البستاني الْكثير الداذي .

فَأمرنِي أَن آكل فِي كل يَوْم من أَيَّام الصَّيف على الرِّيق قثاءه صَغِيرَة من قثاء بِالْبَصْرَةِ يعرف بالخريبي .

قَالَ فَكنت أُوتِيَ بالقثاء وَهُوَ قثاء دَقِيق فِي دقة الْأَصَابِع وَطول القثاءة مِنْهُ نَحْو من فتر فَآكل مِنْهُ الْخمس والست والسبع فَكثر عَليّ الإسهال فشكوت ذَلِك إِلَيْهِ فَلم يكلمني حَتَّى حقنني بحقنة كَثِيرَة الشحوم والصموغ والخطمي والأرز الْفَارِسِي وَقَالَ

لي كدت تقتل نَفسك بإكثارك من القثاء على الرِّيق لأَنَّهُ كَانَ يحدر من الصَّفْرَاء مَا يزيل عَن الأمعاء من الرطوبات اللاصقة بهَا مَا يمْنَع الصَّفْرَاء من سحجها وأحداث الدوسنطاريا فِيهَا .

ولماسرجويه من الْكتب كناش كتاب فِي الْغذَاء كتاب فِي الْعين .

سلمويه بن بنان متطبب المعتصم

لما اسْتخْلف أَبُو إِسْحَق مُحَمَّد المعتصم بِاللَّه وَذَلِكَ فِي سنة ثَمَان عشرَة وَمِائَتَيْنِ اخْتَار لنَفسِهِ سلمويه الطَّبِيب وأكرمه إِكْرَاما كثيرا يفوق الْوَصْف وَكَانَ يرد إِلَى الدَّوَاوِين توقيعَات المعتصم فِي السجلات وَغَيرهَا بِخَط سلمويه وكل مَا كَانَ يرد على الْأُمَرَاء والقواد من خُرُوج أَمر وتوقيع من حَضْرَة أَمِير الْمُؤمنِينَ فبخط سلمويه .

وَولى أَخا سلمويه إِبْرَاهِيم بن بنان خزن بيُوت الْأَمْوَال فِي الْبِلَاد وخاتمه مَعَ خَاتم أَمِير الْمُؤمنِينَ .

وَلم يكن أحد عِنْده مثل سلمويه وأخيه إِبْرَاهِيم فِي الْمنزلَة .

وَكَانَ سلمويه بن بنان نَصْرَانِيّا حسن الِاعْتِقَاد فِي دينه كثير الْخَيْر مَحْمُود السِّيرَة وافر الْعقل جميل الرَّأْي .

وَقَالَ إِسْحَق بن عَليّ الرهاوي فِي كتاب أدب الطَّبِيب عَن عِيسَى بن ماسة قَالَ أَخْبرنِي يوحنا بن مساويه عَن المعتصم أَنه قَالَ سلمويه طبيبي أكبر عِنْدِي من قَاضِي الْقُضَاة لأَن هَذَا يحكم فِي نَفسِي وَنَفْسِي أشرف من مَالِي وملكي وَلما مرض سلمويه الطَّبِيب أَمر المعتصم وَلَده أَن يعودهُ فعاده .

ثمَّ قَالَ أَنا أعلم وأتيقن إِنِّي لاَ أعيش بعده لأَنَّهُ كَانَ يُرَاعِي حَيَاتِي وَيُدبر جسمي وَلم يَعش بعده تَمام السّنة .

وَقَالَ إِسْحَق بن حنين عَن أَبِيه أَن سلمويه كَانَ أعلم أهل زَمَانه بصناعة الطِّبّ .

وَكَانَ المعتصم يُسَمِّيه أبي .

فَلَمَّا اعتل سلمويه عَاده المعتصم وَبكى عِنْده وَقَالَ تُشير عَليّ بعْدك بِمَا يصلحني فَقَالَ سلمويه يعز عَليّ بك يَا سَيِّدي وَلَكِن عَلَيْك بِهَذَا الْفُضُولِيّ يوحنا بن ماسويه وَإِذا شَكَوْت إِلَيْهِ شَيْئا فقد يصف فِيهِ أوصافا فَإِذا وصف فَخذ أقلهَا أخلاطا .

فَلَمَّا مَاتَ سلمويه امْتنع المعتصم من أكل الطَّعَام يَوْم مَوته وَأمر بِأَن تحضر جنَازَته الدَّار وَيصلى عَلَيْهِ بالشمع والبخور على زِيّ النَّصَارَى الْكَامِل .

فَفعل وَهُوَ بِحَيْثُ يبصرهم ويباهي فِي كرامته وحزن عَلَيْهِ حزنا شَدِيدا .

وَكَانَ المعتصم الهضم فِي جِسْمه قوي وَكَانَ سلمويه يفصده فِي السّنة مرَّتَيْنِ ويسقيه بعد كل مرّة دَوَاء مسهلا ويعالجه بالحمية فِي أَوْقَات .

فَأَرَادَ يوحنا بن ماسويه أَن يريه غير مَا عهد فَسَقَاهُ دَوَاء قبل الفصد وَقَالَ أَخَاف أَن تتحرك عَلَيْهِ الصَّفْرَاء فَعنْدَ مَا شرب الدَّوَاء حمي دَمه وحم جِسْمه وَمَا زَالَ جِسْمه ينقص والعلل تتزايد إِلَى أَن نحل بدنه وَمَات بعد عشْرين شهرا من وَفَاة سلمويه .

وَكَانَت وَفَاة المعتصم فِي شهر ربيع الأول سنة سبع وَعشْرين وَمِائَتَيْنِ .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم قَالَ المعتصم لأبي إِسْحَق إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي فِي أول مقدمه من بلد الرّوم وَهُوَ خَليفَة يَا عَم أمورك مضطربة عَلَيْك مُنْذُ أول أَيَّام الْفِتْنَة لأَنَّك بليت فِي أَولهَا مثل مَا شَمل النَّاس ثمَّ خصك بعد ذَلِك من خراب الضّيَاع وتخرم حُدُودهَا لاستتارك سبع سِنِين من الْخَلِيفَة الْمَاضِي مَا لَو لم يتقدمه شَيْء من الْمَكْرُوه لقد كَانَت فِيهِ كِفَايَة ثمَّ ظهر من سوء رَأْي الْمَأْمُون بعد ذَلِك فِيك مَا طم على كل مَا تقدم من الْمَكْرُوه النَّازِل بك فزَاد ذَلِك فِي أَمرك .

وفكرت فِيك فوجدتك تحْتَاج إِلَى أَن يرد عَليّ فِي يَوْم خبرك وَمَا تحْتَاج إِلَيْهِ لمصَالح أمورك .

وَرَأَيْت ذَلِك لاَ يتم إِلاَّ بتقليدي عَن الْقيام بِرَفْع حوايجك إِلَى خَادِم خَاص بِي .

وَقد وَقع اخْتِيَارِي لَك على خادمين لي يصل كل وَاحِد مِنْهُمَا إِلَيّ فِي مجَالِس جدي وهزلي بل يصل إِلَيّ فِي مرقدي ومتوضئي وهما مسرور سمانه الْخَادِم وسلمويه بن بنان .

فاختر أَيهمَا شِئْت وقلده حوايجك فَوَقع اخْتِيَاره على سلمويه وأحضره أَمِير الْمُؤمنِينَ فَأمره أَن يتَوَلَّى إِيصَال رسائله إِلَيْهِ فِي جَمِيع الأَوْقَات .

قَالَ يُوسُف فقربني أَبُو إِسْحَق بسلمويه وَكنت لاَ أكاد أفارقه .

وَكَانَ خُرُوج أَمِير الْمُؤمنِينَ عَن مَدِينَة السَّلاَم آخر خرجاته عَن غير ذكر تقدم لِخُرُوج إِلَى نَاحيَة من النواحي .

وَكَانَ النَّاس قد حَضَرُوا الدكة بالشماسية لحلية السُّرُوج فِي يَوْم الأَرْبَعَاء لسبع عشرَة لَيْلَة خلت من ذِي الْقعدَة سنة عشْرين وَمِائَتَيْنِ .

فأخرجت الْخَيل ودعا بالجمازات فركبها وَنحن لاَ نشك فِي رُجُوعه من يَوْمه .

ثمَّ أَمر المَوَالِي والقواد باللحاق بِهِ وَلم يخرج مَعَه من أهل بَيته أحد إِلاَّ الْعَبَّاس بن الْمَأْمُون وَعبد الْوَهَّاب ابْن عَليّ .

وَخلف المعتصم الواثق بِمَدِينَة السَّلاَم إِلَى أَن صلى بِالنَّاسِ يَوْم النَّحْر سنة عشْرين وَمِائَتَيْنِ .

ثمَّ أَمر بِالْخُرُوجِ إِلَى القاطول فَخرج .

فوجهني أَبُو إِسْحَق بحوائج لَهُ إِلَى بَاب أَمِير الْمُؤمنِينَ فتوجهت فَلم يزل سيارة مرّة بالقاطول ومدية القاطول وَمرَّة بدير بني الصَّقْر وَهُوَ الْموضع الَّذِي سمي فِي أَيَّام المعتصم والواثق بالإيتاخية وَفِي أَيَّام المتوكل بالمحمدية .

ثمَّ صَار المعتصم إِلَى سر من رأى فَضرب مضاربه فِيهَا وَأقَام بهَا فِي الْمضَارب .

فَإِنِّي فِي بعض الأَيَّام على بَاب مضرب المعتصم إِذْ خرج سلمويه بن بنان فَأَخْبرنِي أَن أَمِير الْمُؤمنِينَ أمره بالمضي إِلَى الدّور وَالنَّظَر إِلَى سوار تكين الفرغاني والتقدم إِلَى متطببه فِي معالجته من علّة يجدهَا بِمَا يرَاهُ سلمويه صَوَابا .

وَحلف عَليّ أَن لاَ أفارقه حَتَّى نصير إِلَى الدّور وَنَرْجِع فمضيت مَعَه فَقَالَ لي حَدثنِي فِي غَدَاة يَوْمنَا هَذَا نصر بن مَنْصُور بن بسام أنه كَانَ يُسَاير المعتصم بِاللَّه فِي هَذَا الْبَلَد يَعْنِي بلد سر من رأى وَهُوَ أَمِير قَالَ لي سلمويه قَالَ لي نصر أَن المعتصم أَمِير الْمُؤمنِينَ قَالَ لَهُ يَا نصر أسمعت قطّ بِأَعْجَب مِمَّن اتخذ فِي هَذَا الْبَلَد بِنَاء وأوطنه لَيْت شعري مَا أعجب موطنه حزونة أرضه أَو كَثْرَة أخافيفه أم كَثْرَة تلاعه وَشدَّة الْحر فِيهِ إِذا حمي الْحَصَى بالشمس .

مَا يَنْبَغِي أَن يكون متوطن هَذَا الْبَلَد إِلاَّ مُضْطَرّا مقهورا أوردي التَّمْيِيز .

قَالَ لي سلمويه قَالَ لي نصر بن مَنْصُور وَأَنا وَالله خَائف أَن يوطن أَمِير الْمُؤمنِينَ هَذَا الْبَلَد فَإِن سلمويه ليحدثني عَن نصر إِذْ رمى ببصره نَحْو الْمشرق فَرأى فِي مَوضِع الْجَوْسَق الْمَعْرُوف بالمصيب أَكثر من ألف رجل يضعون أساس الْجَوْسَق .

فَقَالَ لي سلمويه أَحسب ظن نصر بن مَنْصُور قد صَحَّ .

وَكَانَ ذَلِك فِي رَجَب سنة إِحْدَى وَعشْرين وَمِائَتَيْنِ .

وَصَامَ المعتصم فِي الصَّيف فِي شهر رَمَضَان من هَذِه السّنة .

وغدى النَّاس فِيهِ يَوْم الْفطر وَاحْتَجَمَ المعتصم بالقاطول يَوْم سبت وَكَانَ ذَلِك الْيَوْم آخر يَوْم من صِيَام النَّصَارَى فَحَضَرَ غداءه سلمويه بن بنان واستأذنه فِي الْمصير إِلَى الْقَادِسِيَّة ليقيم فِي كنيستها بَاقِي يَوْمه وَلَيْلَته ويتقرب فِيهَا يَوْم الأَحَد وَيرجع إِلَى

القاطول قبل وَقت الْغَدَاء من يَوْم الأُحَد فَأذن لَهُ فِي ذَلِك وكساه ثيابًا كَثِيرَة ووهب لَهُ مسكا وبخورا كثيرا .

فَخرج منكسرا مغموما وعزم عَليّ بالمصير مَعَه إِلَى الْقَادِسِيَّة فأجبته إِلَى ذَلِك .

وَكَانَت عادتنا مَتى تسايرنا قطع الطَّرِيق إِمَّا بمناظرة فِي شَيْء من الْآدَاب وَأما بدعابة من دعابات المتأدبين فَلم يجارني شَيْء من الْبَابَيْنِ جَمِيعًا وَأَقْبل على الفكرة وتحريك يَده الْيُمْنَى وشفته تهمس من القَوْل بمَا لاَ يعلنه فَسبق إِلَى وهمي أَنه رأى من أَمِير الْمُؤمنِينَ فِي أَمر نَفسه شَيْئا أنكرهُ ثمَّ أَزَال ذَلِك الْوَهم عني إقدامه على الاسْتِئْذَان فِي الْمصير إِلَى الْقَادِسِيَّة وَالثِيَاب وَالطّيب الَّذِي جِيءَ بِهِ .

فَسَأَلته عَن سَبَب قِرَاءَته وفكرته .

فَقَالَ لي سَمِعتك تحكي عَن بعض مُلُوك فَارس قولا فِي الْعقل وَأَنه وَجب أَن يكون أَكثر مَا فِي الْإِنْسَان عقله فأعده عَليّ وخبرني باسم ذَلِك الْملك قَالَ لَهُ قَالَ أنوشروان إِذا لم يكن أَكثر مَا فِي الرجل عقله كَانَ أَكثر مَا فِيهِ برديه فَقَالَ قَاتله الله فَمَا أحسن مَا قَالَ ثمَّ قَالَ أميرنا هَذَا يَعْنِي الواثق حفظه لما يقْرَأ وَيقْرَأ عَلَيْهِ من الْكتب أَكثر من عقله وَأَحْسبهُ قد وَقع فِي الَّذِي يكره وَأَنا استدفع الله فِي المكاره عَنهُ .

وَبكى .

فَسَأَلته عَن السَّبَب فَقَالَ أَشرت على أَمِير الْمُؤمنِينَ بترك الشّرْب فِي عشيه أمس ليباكر الْحجامَة فِي يَوْمنَا هَذَا على نقاء فَجَلَسَ واحضر الْأَمِير هرون وَابْن أبي داؤد وَعبد الْوَهَّاب ليتحدث مَعَهم فَانْدفع هرون فِي عهد أردشير بن بابك وَأَقْبل يسْرد جَمِيع مَا فِيهِ ظَاهرا حَتَّى أَتَى على الْعَهْد كُله فتخوفت عَلَيْهِ حسد أَبِيه لَهُ على جودة الْحِفْظ الَّذِي لم يرْزق مثله وتخوفت عَلَيْهِ إمْسَاك أَبِيه مَا حد أردشير بن بابك فِي عَهده من ترك إِظْهَار الْبيعَة لوَلِيّ عَهده .

وتخوفت عَلَيْهِ مَا ذكر أردشير فِي هَذَا الْبَاب من ميل النَّاس نَحْو ولي الْعَهْد مَتى عرفُوا مَكَانَهُ وتخوفت عَلَيْهِ مَا ذكر أردشير من أَنه لاَ يُؤمن اضطغان ولي الْعَهْد على أَسبَاب وَالِده مَتى علم أَنه الْملك بعد أَبِيه وَأَنا وَالله عَالم بِأَن أقل مَا يَنَالهُ فِي هَذَا الْبَاب التَّضْيِيق عَلَيْهِ فِي معاشه وَأَنه لاَ يظْهر لَهُ بيعَة أبدا فاغتمامي بِهَذَا السَّبَب فَكَانَ جَمِيع مَا تخوف سلمويه عَليّ مَا تخوف .

قَالَ يُوسُف واستبطأ المعتصم أَبُو إِسْحَق إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي فِي بعض الْأُمُور واستجفاه .

فَكتب إِلَيْهِ كتابا أَمرنِي بقرَاءَته على سلمويه ومناظرته فِيهِ فَإِن استصوب الرَّأْي فِي إيصاله ختمته وأوصلته وَإِن كره ذَلِك رَددته على أبي إِسْحَق .

فَقَرَأته على سلمويه فَقَالَ لي قل لَهُ قد جرى لَك الْمِقْدَار مَعَ الْمَأْمُون والمعتصم أعز الله الْبَاقِي ورحم الْمَاضِي بِمَا يُوجب عَلَيْك شكر رَبك وَإِلَّا تنكر عَليّ بالخليفتين تنكرهما فِي وَقت من الْأَوْقَات لِأَنَّك تسميت باسم لم يتسم بِهِ أحد قطّ فكاثر الْأَحْيَاء فَإِن كَانَ الْمِقْدَار استعطف عَلَيْك رَحِمك حَتَّى صرت إِلَى الْأَمْن من الْمَكْرُوه .

فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَن تتعجب من تنكر الْخَلِيفَة فِي وَقت من الْأَوْقَات أَن طعن بعض أعدائك عَلَيْك بِمَا كَانَ مِنْك فيظهر بالجفاء الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَة أَو نَحْو ذَلِك .

ثمَّ يَنْعَطف عَلَيْك وَيذكر ماسة رَحِمك وشابكتها فيؤول أَمرك إِلَى مَا تحب .

وَلَك أَيْضا آفَة يجب عَلَيْك التَّحَرُّز مِنْهَا وَهِي أَنَّك تجْلِس مَعَ الْخَلِيفَة فِي مَجْلِسه وَفِيه جمَاعَة من أَهله وقواده ووجوه موَالِيه فَهُوَ يجب أَن يكون أجل النَّاس فِي عيونهم وَأَمْلَأ لقُلُوبِهِمْ فَلَا يجْرِي جَار من القَوْل إِلَّا ظَهرت لنَفسك فِيهِ قولا يتَبَيَّن نصرتك فِيهِ عَلَيْهِ فَلَو كنت مثل ابْن أبي داؤد أَو مثل بعض الْكتاب لَكَانَ الْأَمر فِيهِ أسهل عَلَيْهِ . .

لِأَنَّهُ مَا كَانَ لتِلْك الطَّبَقَة فَهُوَ للخليفة لأَنهم من عبيده وَمَا كَانَ لرجل من أَهله لَهُ السن والقعدد عَلَيْهِ فَهُوَ مُوجب لمن السن والقعدد لَهُ وَذَلِكَ مزر بالخليفة .

وَأَنا أرى أَن لَا أوصل هَذَا الْكتاب وَأَن يتغافل أعزه الله حَتَّى يتشوق إِلَيْهِ الْخَلِيفَة .

فَإِذا صَار إِلَيْهِ تحرز بِمَا كرهته لَهُ فَفِي ذَلِك غنى عَن العتاب والاستبطاء .

قَالَ فَانْصَرَفت إِلَى أبي إِسْحَق بِالْكتاب وَلم أوصله فَوجدت سِيمَا الدِّمَشْقِي عِنْد صاحبنا وَقد أبلغه رِسَالَة المعتصم بِوَصْف شوقه إِلَيْهِ وبالأمر بالركوب إِلَيْهِ .

فَأَخْبَرته بِمَا دَار بيني وَبَين سلمويه وَركب فَاسْتعْمل مَا أَشَارَ بِهِ فَلم يُنكر بعد ذَلِك مِنْهُ شَيْئا حَتَّى فرق بَينهمَا الْمَوْت .

قَالَ يُوسُف وَجرى بيني وَبَين سلمويه ذكر يوحنا بن ماسويه فأطنبت فِي وَصفه وَذكرت مِنْهُ مَا أعرف من اتساع علمه .

فَقَالَ سلمويه يوحنا آفَة من آفَات من اتَّخذهُ لنَفسه واتكل على علاجه وَكَثْرَة حفظه للكتب وَحسن شَرحه وَوَصفه بِمَا يلجم بِهِ الْمَكْرُوه .

ثمَّ قَالَ لي أول الطِّبّ معرفَة مِقْدَار الدَّاء حَتَّى يعالج بِمِقْدَار مَا يحْتَاج إِلَيْهِ من العلاج .

ويوحنا أَجْهَل خلق الله بِمِقْدَار الدَّاء والدواء جَمِيعًا .

فَإِن زَوَال محرور عالجه من الأَدْوِيَة الْبَارِدَة والأغذية المفرطة الْبرد وَبِمَا يزيل عَنهُ تِلْكَ الْحَرَارَة ويعقب معدته وبدنه برداً يحْتَاج لَهُ إِلَى المعالجة بالأدوية والأغذية الحارة ثمَّ يفعل فِي ذَلِك كفعْلِهِ فِي الْعلَّة الأولى من الإفراط ليزول عَنهُ الْبرد ويعتل من حرارة مفرطة .

فصاحبه أبدا عليل إِمَّا من حرارة وَإِمَّا من برودة .

والأبدان تضعف عَن احْتِمَال هَذَا التَّدْبِير .

وَإِنَّمَا الْغَرَض فِي اتِّخَاذ النَّاس المتطببين لحفظ صحتهم فِي أَيَّام الصِّحَّة ولخدمة طبائعهم فِي أَيَّام الْعلَّة .

ويوحنا لجهله بمقادير الْعِلَل والعلاج غير قَائِم بِهَذَيْنِ الْبَابَيْنِ .

وَمن لم يقم بهما فَلَيْسَ بمتطبب .

قَالَ يُوسُف وأصابت إِبْرَاهِيم بن بنان أَخا سلمويه بن بنان هيضة من خوخ أكله فَأكْثر مِنْهُ فَكَادَتْ تَأتي على نَفسه .

فَسَقَاهُ أَخُوهُ سلمويه شهريارانا كثير السقمونيا فأسهله إسهالا كثيرا زَائِدا على الْمِقْدَار الَّذِي يجب أَن يكون مِمَّن شرب مثل مَا شرب إِبْرَاهِيم من الشهرياران .

وَانْقطع مَعَ انْقِطَاع فعل الشهرياران فعل الهيضة فَقلت لَهُ أحسبك امتثلت فِيمَا فعلت بأخيك من إسقائه الدَّوَاء المسهل طَرِيقَة يزِيد بور فِي ثُمَامَة الْعَبْسِي .

فَقَالَ مَا اسْتعْملت لَهُ طَرِيقَة وَلَكِنِّي اسْتعْملت فكري كَمَا اسْتعْمل فكره فنتج لي من الرَّأْي مَا نتج لَهُ .

قَالَ يُوسُف وَكنت يَوْمًا عِنْد سلمويه وَقد أجرينا حَدِيث أَيَّام الْفِتْنَة بِمَدِينَة السَّلَام أَيَّام مُحَمَّد الأمين فَقَالَ لي لقد نفعنا الله فِي تِلْكَ الأَيَّام بجوار بشر وَبشير ابْني السميدع وَذَلِكَ أَنا كُنَّا مَعَهُمَا فِي كل حمى .

ثمَّ قَالَ لي هَل لَك أَن تركب إِلَى بشير فتعوده فقد كنت يئست مِنْهُ أول من أمس ثمَّ أفرق أمس فأجبته إِلَى الرّكُوب مَعَه وركبنا .

فَلَمَّا صرنا إِلَى بَاب الدَّرْب الَّذِي كَانَ بشير ينزله طلع علينا بولس بن حنون المتطبب الَّذِي هُوَ الْيَوْم متطبب أهل فلسطين وَهُوَ منصرف من عِنْد بشير .

فَسَأَلَهُ عَن خَبره فَأَجَابَهُ بِكَلِمَة بالسُّرْيَانيَّة مَعْنَاهَا بئس .

فَقَالَ لَهُ سلمويه أَلم تُخبرنِي أمس أَنه قد أفرق فَقَالَ لَهُ بولس قد كَانَ ذَاك إِلاَّ أَنه أكل البارحة دماغ جدي فعاوده الإسهال .

فعطف سلمويه رَأس دَابَّته وَقَالَ انْصَرف بنَا فَلَيْسَ يبيت بشير فِي الدُّنْيَا .

فَسَأَلته عَن السَّبَب فَذكر أَنه رجل مبطون وَأَن أول آفته كَانَت فِي الْبَطن فَسَاد معدته فتطاولت أَيَّامه فِي الْبَطن بفساد الْمعدة إِلَى أَن كَانَ ذَلِك سَببا لفساد كبده .

وَأَن الدِّمَاغ الَّذِي أَكله سيعلق بمعدته ويغري مَا بَين غضونها فَلاَ يدخلهَا غذَاء وَلاَ دَوَاء إِلاَّ زلق .

وانصرفنا وَلم يعده سلمويه وَلاَ عدته فَمَا بَات حَتَّى توفّي .

قَالَ يُوسُف وصحبت بعد وَفَاة أبي إِسْحَق أَبَا دلف .

فصحبته وَقد كَانَ مبطونا قبل صحبتي إِيَّاه بِخَمْسَة عشر شهرا .

وَكَانَ مجْلِس أبي دلف مجمعا للمتطببين لأَنَّهُ كَانَ مَعَه من المرتزقة جمَاعَة مِنْهُم يُوسُف بن صليبا وَسليمَان بن داؤد بن بَابَان وَيُوسُف الْقصير الْبَصْرِيّ وَلاَ أحفظ نسبه وبولس بن حنون متطبب فلسطين وختن كَانَ لَهُ من اللَّجْلاَج وَالْحسن بن صَالح بن بهلة الْهِنْدِيّ .

وَكَانَ يحضر مَجْلِسه من المتطببين غير المرتزقين جمَاعَة فَرُبمَا اجْتمع فِي مَجْلِسه مِنْهُم عشرُون رجلا فَكَانُوا على سَبِيل الِاخْتِلاَف فِي أصل علته فبعضهم كَانَ يرى أَن يسْقِيه الدرياق وَبَعْضهمْ كَانَ يرى أَن يعالجه بالأدوية الَّتِي يَقع فِيهَا الأبيون مثل المترود يطوس وَغَيره .

وَكلهمْ كَانَ مجمعا على معالجته بالحمية وبالقيء فِي كل بضع عشرَة لَيْلَة لأَنَّهُ كَانَ مَتى تقيأ صلحت حَاله ثَلاَثَة أَيَّام أَو نَحْوهَا .

فأقمت مَعَه عشرَة أشهر لاَ أذكر أَنِّي تشاغلت فِي يَوْم مِنْهَا بِأَمْر من أُمُور الْأَعْمَال الَّتِي أتقلدها .

فَسلمت من رَسُول لَهُ يستنهضني للمسير إِلَيْهِ وللنظر فِيمَا بَين المتطببين من الِاخْتِلاَف ثمَّ أَمر المعتصم حيدر بن كاوس بِالْعقدِ لأبي دلف على قزوين وزنجان ونواحيها وَإِبْرَاهِيم ابْن البحتري بتقليده خراج النَّاحِيَة وَمُحَمّد بن عبد الْملك بتقليده ضياعها .

فَقلد أَبُو دلف ابْنه مَعنا بن الْقَاسِم المعونة وقلدني الْخراج والضياع وأمرنا بِالْخرُوجِ .

فَأتيت سلمويه مودعا ومشاورا .

فَقَالَ لي انقلاعك من بلدك مَعَ رجل منحل بدنه مُنْذُ خَمْسَة وَعشْرين شهرا وَجَميع من يطيف بِهِ مَعَك لاَ يَجْمَعُكَ وإياهم رحم وَإِنَّمَا هم أهل الْجَبَل وأصبهان وَأَكْثَرهم صعاليك .

ولعلك قد استقصيت على بَعضهم بالحضرة وَحَيْثُ كنت تأمن على نَفسك بِمَا لاَ أحبه لَك لأَنَّهُ إِن حدث بِالرجلِ حَادث كنت فِي أَرض غربَة أَسِيرًا فِي أَيدي من لاَ مجانسة بَيْنك وَبينهمْ .

وامتناعك على الرجل بعد أَن أَجَبْته إِلَى أَن تتقدمه تسمج .

وَلَكِن استأجله فِي الْخُرُوج بعد سَبْعَة أَيَّام وأشرف فِي هَذه الأَيَّام على مطعمه ومشربه حَتَّى لاَ يصل إِلَى جَوْفه فِي هَذَا الأُسْبُوع مَأْكُول ومشروب إِلاَّ عرفت مبلغ وَزنه على الْحَقِيقَة .

ووكل من يعرف وزن مَا يخرج مِنْهُ فِي هَذَا الأُسْبُوع من ثقل وَبَوْل وارفع وزن ذَلِك ليَوْم بعد يَوْم إِلَيْك وصر إِلَيّ بعد هَذَا الأُسْبُوع بمبلغ وزن جَمِيع مَا دخل بَطْنه من الطَّعَام وَالشرَاب وَغير ذَلِك وَوزن مَا يخرج مِنْهُ .

فعنيت بذلك غَايَة الْعِنَايَة وتعرفته حَتَّى صَحَّ عِنْدِي .

فَوجدت مَا خرج من بدنه قَرِيبا من ضعف مَا دخله من مطعم ومشرب .

فأعلمت ذَلِك سلمويه فَقَالَ لي لَو كَانَ خرج مِنْهُ بوَزْن مَا دخل بدنه لدل ذَلِك على سرعَة تلفه فَكيف ترى الْحَال كائنة وَالْخَارِج مِنْهُ مثل ضعف مَا دخل بدنه الْهَرَب من التلبيس بِأَمْر هَذَا الرجل فَإِن الشوق قد جذبه .

فَمَا لبث بعد هَذَا القَوْل إِلاَّ بضع عشرَة لَيْلَة حَتَّى توفّي أَبُو دلف .

قَالَ أَبُو عَليّ القباني حَدثنِي أبي قَالَ كَانَت بَين جدي الْحُسَيْن بن عبد الله وَبَين سلمويه المتطبب مَوَدَّة فَحَدثنِي أَنه دخل إِلَيْهِ يَوْمًا إِلَى دَاره وَكَانَ فِي الْحمام ثمَّ خرج وَهُوَ مكمكم والعرق يسيل من جَبينه وجاءه خَادِم بمائدة عَلَيْهَا دراج مشوي وَشَيْء أَخْضَر فِي زبدية وَثَلاَث رقاقات كزمازك وَفِي سكرجة خل .

فَأكل الْجَمِيع واستدعى مَا مِقْدَاره دِرْهَمَانِ شرابًا فمزجه وشربه وَغسل يَدَيْهِ بِمَاء .

ثمَّ أَخذ فِي تَغْيِير ثِيَابه البخور .

فَلَمَّا فرغ أقبل يحادثني فَقلت لَهُ قبل أَن أجيبك إِلَى شَيْء عرفني مَا صنعت .

فَقَالَ أَنا أعالج السل مُنْذُ ثَلاَثِينَ سنة لم آكل فِي جَميعهَا إِلاَّ مَا رَأَيْت وَهُوَ دراج مشوي وهندبا مسلوقة مطجنة بدهن لوز وَهَذَا الْمِقْدَار من الْخبز .

وَإِذا خرجت من الْحمام احتجت إِلَى مبادرة الْحَرَارَة بِمَا يسكنهَا كَيْلا تعطف على بدني فتأخذ من رطوبته فأشغلها بالغذاء ليكُون عطفها عَلَيْهِ ثمَّ أتفرغ لغيره .

إِبْرَاهِيم بن فزارون

متطبب غَسَّان بن عباد .(١)

وَإِبْرَاهِيم بن فزارون هُوَ شيخ بني فزارون الْكتاب .

قَالَ يُوسُف ابْن إِبْرَاهِيم كَانَ إِبْرَاهِيم بن فزارون قد خرج مَعَ غَسَّان عباد إِلَى السَّنَد .

فَحَدثني أَن غَسَّان بن عباد مكث بِأَرْض السَّنَد من يَوْم النوروز إِلَى يَوْم المهرجان يَشْتَهِي أَن يَأْكُل قطْعَة لحم بَارِدَة فَمَا قدر على ذَلِك .

فَسَأَلته عَن السَّبَب فَقَالَ كُنَّا نطجنه فَلاَ يبرد حَتَّى يروح فَيرمى بِهِ .

قَالَ يُوسُف وَأَخْبرنِي إِبْرَاهِيم بن فزارون أَنه مَا أكل بِأَرْض السَّنَد لَحْمًا استطابه إِلاَّ لُحُوم الطواويس وَإِنَّهُ لم يَأْكُل لَحْمًا قطّ أطيب من لحم طواويس بِلاَد السَّنَد .

وحَدثنِي إِبْرَاهِيم بن عِيسَى بن الْمَنْصُور الْمَعْرُوف بِابْن نزيهة عَن غَسَّان بن عباد فِي لُحُوم الطواويس بِمثل مَا حَدثنِي إِبْرَاهِيم بن فزارون .

قَالَ يُوسُف وحَدثنِي إِبْرَاهِيم بن فزارون أَنه رفع إِلَى غَسَّان بن عباد أَن فِي النَّهر الْمَعْرُوف بمهران بِأَرْض السَّنَد سَمَكَة تشبه الجدي وَأَنَّهَا تصاد ثمَّ يطين رَأسهَا وَجَمِيع بدنهَا إِلَى مَوضِع مخرج الثّقل منْهَا ثمَّ يَجْعَل مَا لم يطين منْهَا على الْجَمْر ويمسكها مُمْسك بِيَدِهِ حَتَّى ينشوي منْهَا مَا كَانَ مَوْضُوعا على الْجَمْر وينضج ثمَّ يُؤْكَل مَا نضج أَو يرْمى بِهِ وتلقى السَّمَكَة فِي المَاء مَا لم ينكسر الْعظم الَّذِي هُوَ صلب السَّمَكَة فتعيش وينبت على عظمها اللَّحْم .

وَأَن غَسَّان أَمر بِحَفر بركَة فِي دَاره وملأها مَاء وَأمر بامتحان مَا بلغه .

قَالَ إِبْرَاهِيم فَكُنَّا نؤتي كل يَوْم بعدة من هَذَا السّمك فنشويه على الْحِكَايَة الَّتِي

---

(١) غسان بن عباد بن أبي الفرج : وال . من رجال المأمون العباسي . وهو ابن عم الفضل بن سهل . ولي «خراسان» من قِبَل الحسن بن سهل ثم ولاه المأمون السند سنة ٢١٣هـ

ذكرت لنا ونكسر من بعضه عظم الصلب ونترك بعضه لاَ نكسره فَكَانَ مَا يكسر عظمه يَمُوت وَمَا لم يكسر عظمه يسلم وينبت عَلَيْه اللَّحْم وَيَسْتَوِي الجْلد .

إِلاَّ أَن جلدَة تِلْكَ السَّمَكَة تشبه جلد الجدي الأَْسود وَمَا قشرناه من لحُوم السّمك الَّتِي شويناها ورددناها إِلَى المَاء يكون على غير لون الجْلْدَة الأولى لأَنَّهُ يضْرب إِلَى الْبيَاض .

قَالَ يُوسُف وَسَأَلت إِبْرَاهِيم بن فزارون عَن قَول من يزْعم أَن نهر مهْرَان هُوَ نهر النّيل فَقَالَ لي رَأَيْت نهر مهْرَان وَهُوَ يصب فِي الْبَحْر المالح إِلاَّ أَن عُلَمَاء الْهِنْد والسند أعلموني أَن مخرج النّيل ومخرج نهر مهْرَان من عين وَاحِدَة عَظِيمَة فنهر مهْرَان يشق أَرض السَّنَد حَتَّى يصب فِي بحرها المالح وَالنّهر الآخر يشق أَرض الْهِنْد وَجَمِيع أَرض السودَان حَتَّى يخرج إِلَى أَرض النّوبَة ثمَّ يصب بَاقِيه فِي أَرض مصر فيرويها ثمَّ يصب بَاقِيه فِي بَحر الرّوم .

قَالَ يُوسُف وحَدثنِي عَنْبَسَة بن إِسْحَق الضَّبِّيّ من أَمر الْعين الَّتِي مِنْهَا يخرج نهر مهْرَان والنيل بِمثل مَا حَدثنِي بِهِ إِبْرَاهِيم وَكَانَ يحدثنا بِحَدِيث السّمك فِي كل وَقت .

أَيُّوب المُعْرُوف بالأبرش

كَانَ لَهُ نظر فِي صناعَة الطِّبّ وَمَعْرِفَة بِالنَّقْل وَقد نقل كتبا من مصنفات اليونانيين إِلَى السرياني وَإِلَى الْعَرَبِيّ وَهُوَ متوسط النَّقْل وَمَا نَقله فِي آخر عمره فَهُوَ أَجود مِمَّا نَقله قبل ذَلِك .

إِبْرَاهِيم بن أَيُّوب الأبرش

قَالَ إِسْحَق بن عَلِيّ الرهاوي فِي كتاب أدب الطَّبِيب حَدثنِي عِيسَى بن ماسة قَالَ رَأَيْت إِبْرَاهِيم بن أَيُّوب الأبرش وَقد عالج إِسْمَاعِيل أَخا المعتز وَبرئ .

فكلمت أمه قبيحة المتَوَكل أَن يُجِيزهُ فَقَالَ لَهَا لاَ تجيزيه لَيْسَ عنْدك مَا تعطيه حَتَّى أعْطِيه أَنا مثله .

وَإِبْرَاهِيم وَاقف بَين أَيْدِيهمَا فَأمرت قبيحة فأحضرت بدرة دَرَاهِم لإِبْرَاهِيم وَأمر المتَوَكل بإحضار مثل ذَلِك فأحضرت قبيحة بدرة أُخْرَى فَأمر بإحضار مثلهَا فَلم يَزَالاَ يأمران بإحضار بدرة وبدرة حَتَّى أحضرت سِتّ عشرَة بدرة فأومت قبيحة إِلَى جاريتها

أَن تمسك فَقَالَ لَهَا إِبْرَاهِيم سرا لاَ تقطعي وَأَنا أرد عَلَيْك .

فَقَالَت لَهُ املأ الله عين الآخر .

فَقَالَ لَهَا المتَوَكل وَالله لَو أعطيته إِلَى الصَّباح لأعطيته مثل ذَلِك .

فَحملت الْبَدْر إِلَى منزل إِبْرَاهِيم .

وَقَالَ ثَابت بن سِنَان بن ثَابت أَن الْخلاَفَة لما تأدت إِلَى المعتز بِاللَّه كَانَ أخص المتطببين عِنْده إِبْرَاهِيم ابْن الأبرش لمكانه من والدته قبيحة .

وَكَانَت صلاته أبدا واصلة إِلَيْه .

وخلع أَبُو عبد الله المعتز بِاللَّه بسر من رأى وَقبض عَلَيْهِ صَالح بن وصيف يَوْم الاثْنَيْنِ لثلاث بَقينَ من رَجَب سنة خمس وَخمسين وَمِائَتَيْنِ وحبسه خَمْسَة أَيَّام ثمَّ قتل وَقت الْعَصْر من يَوْم الْجُمُعَة لليلتين خلتا من شعْبَانَ من السّنة الْمَذْكُورَة وَله ثَلاث وَعِشْرُونَ سنة .

جبْرَائِيل كَحال الْمَأْمُون

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم كَانَ الْمَأْمُون يستخف يَد جِبْرَائِيل الكحال وَيذكر أَنه مَا رأى أبدا على عين أخف من يَده .

وَاتخذ مراود ومكاحل ودستجا وَدفعه إِلَيْه فَكَانَ أول من يدْخل إِلَيْهِ فِي كل يَوْم عِنْد تَسْلِيمه فِي صَلاَة الغداة فَيغسل أجفانه ويكحل عَيْنَيْهِ فَإِذا انتبه من قائلته فعل مثل ذَلِك .

وَكَانَ يجْرِي عَلَيْه ألف دِرْهَم فِي كل شهر .

ثمَّ سَقَطت مَنْزِلَته بعد ذَلِك فَسَأَلته عَن السَّبَب فِي ذَلِك فَأَخْبرنِي أَن الْحُسَيْن الْخَادِم اعتل فَلم يُمكن ياسرا أَخَاهُ عيادته لاشتغاله بِالْخدمَةِ إِلَى أَن وافى يَاسر بَاب الْحُجْرَة الَّتِي كَانَ فِيهَا الْمَأْمُون وَقد خرج جِبْرَائِيل من عِنْده بعد أَن برد أجفانه وكحل عَيْنَيْه .

فَسَأَلَهُ يَاسر عَن خبر الْمَأْمُون فَأخْبرهُ أَنه أغفى فتغنم يَاسر مَا أخبرهُ بِهِ من نَومه فَصَارَ إِلَى حُسَيْن فعاده .

وأنتبه الْمَأْمُون قبل انصراف يَاسر من عِنْد حُسَيْن ثمَّ انْصَرف يَاسر فَسَأَلَهُ الْمَأْمُون عَن سَبَب تخلفه فَقَالَ يَاسر أخْبرت بنوم أَمِير الْمُؤمنِينَ فصرت إِلَى حُسَيْن فعدته .

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُون وَمن أخْبرك برقادي فَقَالَ لَهُ يَاسر جِبْرَائِيل الكحال .

قَالَ جبْرَائيل فأحضرني الْمَأْمُون ثمَّ قَالَ يَا جِبْرَائِيل اتخذتك كحالا لي أَو عَاملا على الْإِخْبَار عني أردد عَليّ مكاحلي وأميالي واخرج عَن دَاري .

فأذكرته خدمتي فَقَالَ إِن لَهُ لُحرْمَة فليقتصر لَهُ على إِجْرَاء مائَة وَخمسين درهما فِي كل شهر وَلاَ يُؤذن لَهُ فِي الدُّخُول .

فَلم يخْدم الْمَأْمُون بعده حَتَّى توفّي .

ماسويه أَبُو يوحنا

قَالَ فثيون الترجمان أَن ماسويه كَانَ يعْمل فِي دق الْأَدْوِيَة فِي بيمارستان جندي سَابُور وَهُوَ لاَ يقْرَأ حرفا وَاحِدًا بلِسَان من الْأَلْسِنَة إِلاَّ أَنه عرف الْأَمْرَاض وعلاجها وَصَارَ بَصيرًا بانتقاد الْأَدْوِيَة فَأَخذه جبْرَائيل بن بختيشوع فَأحْسن إِلَيْه وعشق جَارِيَة لداود بن سرابيون فابتاعها جِبْرَائِيل بثمانمائة دِرْهَم ووهبها لماسويه ورزق مِنْهَا ابْنه يوحنا وأخاه ميخائيل .

وَقَالَ إِسْحَق بن عَليّ الرهاوي فِي كتاب أدب الطَّبِيب عَن عِيسَى بن ماسة إِن ماسويه أَبَا يوحنا كَانَ تلميذا فِي بيمارستان جندي سَابُور ثَلاَثِينَ سنة فَلَمَّا اتَّصل بِهِ مَحل جِبْرَائِيل من الرشيد قَالَ هَذَا أَبُو عِيسَى قد بلغ السها وَنحن فِي البيمارستان لاَ نتجاوزه .

فَبلغ ذَلِك جِبْرَائِيل وَكَانَ البيمارستان إِلَيْه فَأمر بإِخْرَاجه مِنْهُ وَقطع رزقه .

فَبَقيَ مُنْقَطعًا بِهِ فَصَارَ إِلَى مَدينَة السَّلاَم ليعتذر إِلَى جِبْرَائِيل ويخضع لَهُ .

فَلم يزل على بَابه دهرا طَويلا فَلم يَأْذَن لَهُ .

فَكَانَ إِذا ركب دَعَا لَهُ واستعطفه فَلاَ يكلمهُ .

فَلَمَّا ضَاقَ بِهِ الْأَمر صَار إِلَى دَار الرّوم بالجانب الشَّرْقِي فَقَالَ للقس أكرز لي فِي الْبيعَة لَعَلَّه أَن يَقع لي شَيْء فأنصرف إِلَى بلدي فَإِن أَبَا عِيسَى لَيْسَ يرضى عني وَلاَ يكلمني .

فَقَالَ لَهُ القس أَنْت فِي البيمارستان مُنْذُ ثَلاَثِينَ سنة وَلاَ تحسن شَيْئا من الطِّبّ فَقَالَ بلَى وَالله أطب وأكحل وأعالج الْجِرَاحَات .

فَأخْرج لَهُ صندوقا وَأَعْطَاهُ إِيَّاه ليداوي وَأَجْلسهُ بِبَاب الْحرم عنْد قصر الْفضل بن الرّبيع وَهُوَ وَزِير الرشيد فَلم يزل هُنَاكَ يكْسب الشَّيْء بعد الشَّيْء حَتَّى حسنت حَاله .

واشتكت عين خَادِم للفضل بن الرّبيع فنفذ إِلَيْهِ جِبْرَائِيل بكحالين فعالجوه

بأصناف العلاج فَلم ينْتَفع بِهِ وَاشْتَدَّ وَجَعه حَتَّى عدم النّوم .
فَلَمَّا اشْتَدَّ أرقه وقلقه خرج من الْقصر هائما من الضجر والقلق .
فَرَأى ماسويه فَقَالَ لَهُ يَا شيخ مَا تصنع هُنَا إِن كنت تحسن شَيْئا فعالجني .
وَإِلاَّ فَقُمْ من هَهُنَا .
فَقَالَ لَهُ يَا سَيِّدي أحسن وأجيد .
فَقَالَ لَهُ ادخل معي حَتَّى تعالجني .
فَدخل مَعَه وقلب جفْنه وكحله وسكب على رَأسه وسعطه .
فَنَامَ الْخَادِم وهدأ .
فَلَمَّا أصبح أنفذ إِلَى ماسويه جونة فِيهَا خبز سميد وجدي ودجاجة وحلوى ودنانير ودراهم وَقَالَ لَهُ هَذَا لَك فِي كل يَوْم وَالدَّرَاهِم وَالدَّنَانِير رزقك مني فِي كل شهر .
فَبكى ماسويه فَرحا فَتوهم الرَّسُول أَنه قد استقله فَقَالَ لَهُ لاَ تغتم فَإِنَّهُ يزيدك وَيحسن إِلَيْك .
فَقَالَ لَهُ يَا سَيِّدي رضيت منْهُ بِهَذَا إِن يدره على الأَيَّام .
فَلَمَّا رَجَعَ عرف الْخَادِم مَا كَانَ مِنْهُ فَعجب مِنْهُ وبرأ الْخَادِم على يَدَيْهِ .
وَلم يمض إِلاَّ أَيَّام يسرة حَتَّى اشتكت عين الْفضل فنفذ إِلَيْه جِبْرَائِيل الكحالين فَلم يزَالُوا يعالجونه فَلم ينْتَفع بهم فَأدْخل الْخَادِم ماسويه إِلَيْهِ لَيْلاً فَلَم يزل يكحله إِلَى ثلث اللَّيْل ثمَّ سقَاهُ دَوَاء مسهلا فصلح بِهِ .
ثمَّ حضر جِبْرَائِيل فَقَالَ لَهُ الْفضل يَا أَبَا عيسَى أَن هَهُنَا رجلا يُقَال لَهُ ماسويه من أفره النَّاس وأعرفهم بالكحل فَقَالَ لَهُ وَمن هَذَا لَعَلَّه الَّذِي يجلس بِالْبَابِ فَقَالَ لَهُ نعم .
قَالَ جِبْرَائِيل هَذَا كَانَ أكارا لي فَلم يصلح للكروث فطردته وَقد صَار الْآن طَبِيبا وَمَا عالج الطِّبّ قطّ فَإِن شئْت فَأَحْضرهُ وَأَنا حَاضر .
وتوهم جِبْرَائِيل أَنه يدْخل وَيقف بَين يَدَيْهِ ويتذلل لَهُ .
فَأمر الْفضل بإحضاره فَدخل وَسلم وَجلسَ بحذاء جِبْرَائِيل .
فَقَالَ لَهُ جِبْرَائِيل يَا ماسويه أصرت طَبِيبا فَقَالَ لَهُ لم أزل طَبِيبا أَنا أخدم البيمارستان مُنْذُ ثَلاَثِينَ سنة تَقول لي هَذَا القَوْل فَفَزعَ جِبْرَائِيل أَن يزِيد فِي الْمَعْنى فبادر وَانْصَرف فِي الْحَال وَهُوَ خجل .
وأجرى الْفضل على ماسويه فِي كل شهر ستّمائَة دِرْهَم وعلوفة دابتين وَنزل

خَمْسَة غلْمَان وَأمره أَن يحمل عِيَاله من جندي سَابُور وَأَعْطَاهُ نَفَقَة وَاسِعَة .

فَحمل عِيَاله ويوحنا ابْنه حِينَئِذٍ وَهُوَ صبي .

فَمَا مَضَت إِلاَّ أَيَّام حَتَّى اشتكت عين الرشيد فَقَالَ لَهُ الْفضل يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ طبيبي ماسويه من أحذق النَّاس بالكحل .

وَشرح لَهُ قصَّته وَمَا كَانَ من أَمر خادمه وَأمر نَفسه .

فَأمر الرشيد بإحضاره فأحضر ماسويه فَقَالَ لَهُ تحسن شَيْئا من الطِّبّ سوى الْكحل فَقَالَ نعم يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ وَكَيف لاَ أحسن وَأَنا قد خدمت المرضى بالبيمارستان مُنْذُ ثَلاَثِينَ سنة فأدناه مِنْهُ وَنظر عَيْنَيْه فَقَالَ الْحجام السَّاعَة .

فحجمه على سَاقيه وقطر فِي عَيْنَيْهِ فبرأ بعد يَوْمَيْنِ .

فَأمر بِأَن يجْرِي عَلَيْهِ ألفا دِرْهَم فِي الشَّهْر ومعونة فِي السّنة عشرُون ألف دِرْهَم وعلوفة وَنزل وألزمه الْخدمَة مَعَ جِبْرَائِيل وَسَائِر من كَانَ فِي الْخدمَة من المتطببين .

وَصَارَ نظيرا لجبرائيل بل كَانَ فِي ذَلِك الْوَقْت يحضر بِحُضُورِهِ ويصل بوصوله ودونه فِي الرزق لأَن جِبْرَائِيل كَانَ لَهُ فِي الشَّهْر عشرَة آلاَف دِرْهَم ومعونة فِي السّنة مائَة ألف دِرْهَم وصلات دائمة وإقطاعات .

ثمَّ أَنه اعتلت بانوا أُخْت الرشيد فَلم يزل جِبْرَائِيل يعالجها بأنواع العلاج فَلم تنْتَفع فَاغْتَمَّ بهَا فَقَالَ الرشيد ذَات يَوْم قد كَانَ ماسويه ذكر أَنه خدم المرضى بالمارستان وَأَنه يعالج الطبائع فَلْيدْخلْ إِلَى عليلتنا لَعَلَّ عِنْده فرجا لَهَا .

فأحضر جِبْرَائِيل وماسويه فَقَالَ لَهُ ماسويه عرفني حَالهَا وَجَمِيع مَا دبرتها بِهِ إِلَى وقتنا هَذَا .

فَلم يزل جِبْرَائِيل يصف لَهُ مَا عالجها بِهِ فَقَالَ ماسويه التَّدْبِير صَالح والعلاج مُسْتَقيم وَلَكِن احْتَاجَ إِلَى أَن أَرَاهَا .

فَأمر الرشيد أَن يدخلا إِلَيْهَا .

فَدخل وتأملها وجس عروقها بِحَضْرَة الرشيد وَخَرجُوا من عِنْده .

وَقَالَ ماسويه للرشيد يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ يكون لَك طول الْعُمر والبقاء هَذِه تقضي بعد غَد مَا بَين ثَلاَث سَاعَات إِلَى نصف اللَّيْل .

فَقَالَ جِبْرَائِيل كذب يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ أَنَّهَا تبرأ وتعيش .

فَأمر الرشيد بِحَبْس ماسويه بِبَعْض دوره فِي الْقصر وَقَالَ لأسبرن مَا قَالَه وأنذرنا بِهِ فَمَا رَأينَا بِعلم الشَّيْخ بَأْسا .

فَلَمَّا حضر الْوَقْت الَّذِي حَده ماسويه توفيت .

فَلم يكن للرشيد همة بعد دَفنهَا إِلاَّ أَن أحضر ماسويه فَسَأَلَهُ وأعجب بِكَلاَمه .

وَكَانَ أعجمي اللِّسَان وَلكنه كَانَ بَصيرًا بالعلاج كثير التجارب فصيره نَظِيرا لجبرائيل فِي الرزق والنزل والعلوفة والمرتبة وعنى بِابْنِهِ يوحنا ووسع النَّفَقَة عَلَيْهِ فَبلغ الْمرتبَة الْمَشْهُورَة .

قَالَ يُوسُف بن إِبْرَاهِيم عدت جبْرَائِيل بن بختيشوع بالعلث فِي سنة خمس عشرَة وَمِائَتَيْنِ وَقد كَانَ خرج مَعَ الْمَأْمُون فِي تِلْكَ السّنة حَتَّى نزل الْمَأْمُون فِي دير النِّسَاء .

فَوجدت عِنْده يوحنا ابْن ماسويه وَهُوَ يناظره فِي علته وجبرائيل يستحسن استماعه وإجابته وَوَصفه .

فَدَعَا جبْرَائِيل بتحويل سنته وسألني النّظر فيه وإخباره بِمَا يدل عَلَيْهِ الْحساب .

فَنَهَضَ يوحنا عِنْد ابتدائي بِالنّظرِ فِي التَّحْوِيل فَلَمَّا خرج من الحراقة قَالَ لي جبْرَائِيل لَيست بك حَاجَة إِلَى النّظر فِي التَّحْوِيل لأَنِّي أحفظ جَمِيع قَوْلك وَقَول غَيْرك فِي هَذِه السّنة وَإِنَّمَا أردْت بدفعي التَّحْوِيل إِلَيْك أَن ينْهض يوحنا فأسألك عَن شَيْء بَلغنِي عَنهُ وَقد نَهَضَ .

فأسألك بِحَق الله أهل سَمِعت يوحنا قطّ يَقُول أَنه أعلم من جالينوس بالطب فَحَلَفت لَهُ أَنِّي مَا سمعته قطّ يَدعِي ذَلِك فَمَا انْقَضى كلامنا حَتَّى رَأَيْت الحراقات تنحدر إِلَى مَدِينَة السَّلاَم فانحدر الْمَأْمُون فِي ذَلِك الْيَوْم وَكَانَ يَوْم خَمِيس ووافينا مَدِينَة السَّلاَم غَدَاة يَوْم السبت وَدخل النَّاس كلهم إِلَى مَدِينَة السَّلاَم خلا أبي الْعَبَّاس بن الرشيد فَإِنَّهُ أَقَامَ فِي الْموضع الْمَعْرُوف بالقلائين من الْجَانِب الغربي بِمَدِينَة السَّلاَم وَهُوَ بازاء دَار الْفضل بن يحيى بِبَاب الشماسية الَّتِي صَار بَعْضهَا فِي خلاَفَة المعتصم لأبي الْعَبَّاس بن الرشيد .

فَكنت وَجَمَاعَة مِمَّن يُرِيد الْمصير إِلَى أبي الْعَبَّاس مِمَّن مَنَازِلهمْ فِي قنطرة البردان ونهر الْمهْدي لاَ نجشم أَنْفُسنَا الْمصير إِلَى الجسر ثمَّ الْمصير إِلَى القلائين لبعد الشقة فنصير إِلَى قصر الْفضل بن يحيى ونقف بِإِزَاءِ مضرب أبي الْعَبَّاس وَكَانَت الزبيديات توافينا فتعبر بنَا فاجتمعت ويوحنا بن ماسويه عِنْد أبي الْعَبَّاس بعد موافاة الْمَأْمُون بِمَدِينَة السَّلاَم بِثَلاَثَة أَيَّام .

وجمعتنا الزبيدية عِنْد انصرافنا فَسَأَلَنِي عَن عهدي بجبرائيل فأعلمته إِنِّي لم أره

مُنْذُ اجْتَمَعنَا بالعلث ثمَّ قلت لَهُ قد شنعت عِنْده .

فَقَالَ .

بِمَاذَا فَقلت لَهُ بلغه أَنَّك تَقول أَنا أعلم من جالينوس .

فَقَالَ على من ادّعى عَليّ هَذِه الدعْوَة لَعنه الله وَالله مَا صدق مؤدي هَذَا الْخَبَر وَلاَ بر .

فسرى ذَلِك من قَوْله مَا كَانَ فِي قلبِي وأعلمته أَنِّي أزيل عَن قلب جِبْرَائِيل مَا تأدى إِلَيْه من الْخَبَر الأول .

فَقَالَ لي افْعَل نشدتك الله وَقرر عِنْده مَا أَقُول وَهُوَ مَا كنت أقوله فحرف عِنْده .

فَسَأَلته عَنهُ فَقَالَ إِنَّمَا قلت لَو أَن بقراط وجالينوس عاشا إِلَى أَن يسمعا قولي فِي الطِّبّ وصفاتي لسألا ربهما أَن يبدلهما بِجَمِيع حواسهما من الْبَصَر والشم والذوق واللمس حسا سمعيا يضيفانه إِلَى مَا مَعَهُمَا من حس السّمع ليسمعا حكمي ووصفي .

فأسألك بِاللَّه أما أدّيت هَذَا القَوْل عني إِلَيْه .

فاستعفيته من إِلْقَاء هَذَا الْخَبَر عَنهُ فَلم يعفني .

فأديت إِلَى جِبْرَائِيل الْخَبَر وَقد كَانَ أصبح فِي ذَلِك الْيَوْم مفرقا من علته فتداخله من الغيظ والضجر مَا تخوفت عَلَيْه مِنْهُ النكسة وَأَقْبل يَدْعُو على نَفسه وَيَقُول هَذَا جَزَاء من وضع الصنيعة فِي غير موضعهَا وَهَذَا جَزَاء من اصْطنع السّفل وَأدْخل فِي مثل هَذه الصِّنَاعَة الشَّرِيفَة من لَيْسَ من أَهلهَا .

ثمَّ قَالَ هَل عرفت السَّبَب فِي يوحنا وَأَبِيه فَأَخْبَرته أَنِّي لاَ أَعْرفهُمَا .

فَقَالَ لي إِن الرشيد أمرنِي باتخاذ بيمارستان وأحضرت دهشتك رَئِيس بيمارستان جندي سَابُور لتقليده البيمارستان الَّذِي أمرت باتخاذه فَامْتنعَ من ذَلِك .

وَذكر أَن السُّلْطَان لَيست لَهُ عَلَيْهِ أرزاق جَارِيَة وَأَنه إِنَّمَا يقوم ببيمارستان جندي سَابُور وميخائيل ابْن أَخِيه حسبَة .

وَتحمل عَليّ بطيمانيوس الجاثليق فِي إعفاءه وَابْن أَخِيه فأعفيتهما .

فَقَالَ لي أما إِذْ قد أعفيتني فَإِنِّي أهدي إِلَيْك هَدِيَّة ذَات قدر يحسن بك قبُولهَا وتكثر مَنْفَعَتهَا لَك فِي هَذَا البيمارستان .

فَسَأَلته عَن الْهَدِيَّة فَقَالَ لي إِن صَبيا كَانَ ممَّن يدق الأَدْوِيَة عندنَا ممَّن لاَ يعرف لَهُ أَب وَلاَ قرَابَة أَقَامَ فِي البيمارستان أَرْبَعِينَ سنة وَقد بلغ الْخمسين سنة أَو جاوزها

وَهُوَ لاَ يقْرَأ حرفا وَاحِدًا بِلِسَان من الأَلْسِنَة إِلاَّ أَنه قد عرف الأدواء دَاء دَاء وَمَا يعالج بِهِ كل دَاء .

وَهُوَ أعلم خلق الله بانتقاد الأَدْوِيَة وَاخْتِيَار جيدها وَنفي رديها .

فَأَنا أهديه لَك فاضممه إِلَى من أَحْبَبْت من تلامذتك .

ثمَّ قلد تلميذك البيمارستان فَإِن أُمُوره تخرج على أحسن من مخرجها لَو قلدتني هَذَا البيمارستان .

فأعلمته أَنِّي قد قبلت الْهَدِيَّة وَانْصَرف دهشتك إِلَى بَلَده وأنفذ إِلَيّ الرجل فَأدْخل عَليّ فِي زِيّ الرهبان وكشفته فَوَجَدته على مَا حكى لي عَنهُ .

وَسَأَلته عَن اسْمه فَأَخْبرنِي أَن اسْمه ماسويه .

وَكنت فِي خدمَة الرشيد وداؤد بن سرابيون مَعَ أم جَعْفَر .

وَكَانَ الْمنزل الَّذِي ينزله ماسويه يبعد عَن منزلي وَيقرب من منزل داؤد بن سرابيون .

وَكَانَ فِي داؤد دعابة وبطالة وَكَانَ فِي ماسويه ضعف من ضعف السّفل فيستطيبه كل بطال .

فَمَا مضى بماسويه إِلاَّ يسير حَتَّى صَار إِلَيّ وَقد غير زيه وَلبس الثِّيَاب الْبيض فَسَأَلته عَن خَبره فَأَعْلمنِي أنه قد عشق جَارِيَة لداؤد بن سرابيون صقلبية يُقَال لَهَا رِسَالَة وسألني ابتياعها لَهُ فابتعتها لَهُ بثمانمائة دِرْهَم ووهبتها لَهُ فأولدها يوحنا وأخاه .

ثمَّ رعيت لماسويه ابتياعي لَهُ رِسَالَة وَطَلَبه مِنْهَا النَّسْل وصيرت وَلَده كَأَنَّهُمْ ولد قرَابَة لي وعنيت برَفْع أقدارهم وتقديمهم على أَبنَاء أَشْرَاف أهل هَذِه المهنة وعلمائهم ثمَّ رتبت ليوحنا وَهُوَ غُلَام الْمرتبَة الشَّرِيفَة ووليته البيمارستان وَجَعَلته رَئِيس تلامذتي

يحيى بن إِسْحَق

كَانَ طَبِيبا ذكيا عَالما بَصيرًا بالعلاج صانعا بِيَدِهِ وَكَانَ فِي صدر دولة عبد الرَّحْمَن النَّاصِر لدين الله واستوزره وَولي الولايات والعمالاَت وَكَانَ قَائِد بطليموس زَمَانا وَكَانَ لَهُ من أَمِير الْمُؤمنِينَ النَّاصِر مَحل كَبِير .

كَانَ ينزله منزلَة الثِّقَة ويتطلع على الكرائم والخدم .

وَألف فِي الطِّبّ كتابا يشْتَمل على خَمْسَة أسفار ذهب فِيهَا مَذْهَب الرّوم .

وَكَانَ يحيى قد أسلم وَأما أَبوهُ إِسْحَق فَكَانَ نَصْرَانِيّا كَمَا تقدم ذكره .

قَالَ ابْن جلجل حَدثنِي عَن يحيى بن إِسْحَق ثِقَة أَنه كَانَ عِنْده غُلَام للحاجب مُوسَى أَو للوزير عبد الْملك قَالَ قَالَ بَعَثَنِي إِلَيْهِ مولَايَ بكتاب فَأَنا قَاعد عِنْد دَاره بِبَاب الْجَوْز إِذْ أقبل رجل بدوي على حمَار وَهُوَ يَصِيح فَأقبل حَتَّى وقف بِبَاب الدَّار .

فَجعل يتَضَرَّع وَيَقُول أدركوني وَتَكَلَّمُوا إِلَى الْوَزير بخبري .

إِذْ خرج إِلَى صُرَاخ الرجل وَمَعَهُ جَوَاب كِتَابه فَقَالَ للرجل مَا بالك يَا هَذَا فَقَالَ لَهُ أَيهَا الْوَزير ورم فِي أحليلي مَنَعَنِي الْبَوْل مُنْذُ أَيَّام كَثِيرَة وَأَنا فِي الْمَوْت .

فَقَالَ لَهُ اكشف عَنهُ قَالَ فكشف عَنهُ فَإِذا هُوَ ورام .

فَقَالَ لرجل كَانَ أقبل مَعَ العليل أطلب لي حجرا أملس .

فَطَلَبه فَوَجَدَهُ وَأَتَاهُ بِهِ .

فَقَالَ ضَعْهُ فِي كفك وضع عَلَيْهِ الأحليل .

قَالَ فَقَالَ الْمخبر لي فَلَمَّا تمكن أَحليل الرجل من الْحجر جمع الْوَزير يَده وَضرب على الأحليل ضَرْبَة غشي على الرجل مِنْهَا .

ثمَّ انْدفع الصديد يجْرِي فَمَا استوفى الرجل جري صديد الورم حَتَّى فتح عَيْنَيْهِ ثمَّ بَال الْبَوْل فِي أثر ذَلِك .

فَقَالَ لَهُ اذْهَبْ فقد بَرِئت من علتك وَأَنت رجل عائث واقعت بَهِيمَة فِي دبرهَا فصادفت شعيرَة من عَلَفهَا لحجت فِي عين الإحليل فورم لَهَا وَقد خرجت فِي الصديد .

فَقَالَ لَهُ الرجل قد فعلت هَذَا .

وَأقر بذلك وَهَذَا يدل على حدس صَحِيح وقريحة صَادِقَة حسناء .

وَقَالَ ابْن جلجل وَله نَادِر مَحْفُوظ فِي علاج النَّاصِر قَالَ عرض للناصر وجع فِي أُذُنه والوزير يَوْمئِذ قَائِد بطليوس فعولج مِنْهُ فَلم يفتر فَأمر النَّاصِر فِي الْخُرُوج فِيهِ فرانقا فَلَمَّا وصل إِلَيْهِ الفرانق استنطقه عَن الْحَاجة الَّتِي أوجبت الْخُرُوج فِيهِ .

فَقَالَ لَهُ أَمِير الْمُؤمنِينَ عرض لَهُ فِي أُذُنه وجع أعيا الْأَطِبَّاء فعرج فِي طَرِيقه إِلَى بعض أديار النَّصَارَى وَسَأَلَ عَن عَالم هُنَاكَ فَوجدَ رجلا مسنا فَسَأَلَهُ هَل عنْدك من تجربة لوجع الْأذن فَقَالَ الشَّيْخ الراهب دم الْحمار حارا فوصل إِلَى أَمِير الْمُؤمنِينَ وعالجه بِدَم الْحمار حارا كَمَا يسفح وَبرا .

سُلَيْمَان أَبُو بكر بن تَاج

كَانَ فِي دولة النَّاصِر وخدمه بالطب .

وَكَانَ طبيا نبيلا وعالج أَمِير الْمُؤمنِينَ النَّاصِر من رمد عرض لَهُ من يَوْمه بشيافه .

وَطلب مِنْهُ نسخته بعد ذَلِك فَأبى أَن يميلها وعالج سععا صَاحب الْبَرِيد من ضيق النَّفس بلعوق فبرأ من يَوْمه بعد أَن أعيا علاجه الْأَطبَّاء

وَكَانَ يعالج وجع الخاصرة بحب من حبه فَيبرأ الْوَقْت وَكَانَ ضنينا بنسخ الْأَدْويَة .

وَله نَوَادِر فِي الطِّبّ كَثِيرَة .

وَكَانَ أديبا فَاضلا حسن المحاضرة والمذاكرة وأدركه فِي آخر أيامة مرض القروح فِي أحليله فَلم يُمكنهُ دواؤه وعرفه الله الْقَادِر عَجزه فَقطع أَحليله .

وولاه أَمِير الْمُؤمنِينَ النَّاصِر قَضَاء شذونة .

سعيد بن عبد ربه

هُوَ أَبُو عُثْمَان سعيد بن عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن عبد ربه بن حبيب بن مُحَمَّد بن سَالم مولى الْأَمِير هِشَام الرضي بن عبد الرَّحْمَن الدَّاخِل بالأندلس وَهُوَ ابْن أخي أبي عَمْرو وَأحمد بن مُحَمَّد بن عبد ربه الشَّاعِر صَاحب كتاب العقد .

وَكَانَت وَفَاة عَمه هَذَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن عبد ربه فِي شهر جُمَادَى الأولى من سنة ثَمَان وَعشْرين وثلاثمائة ومولده فِي سنة سِتّ وَأَرْبَعين وَمِائَتَيْنِ لعشر خلون من شهر رَمَضَان .

وَكَانَ سعيد بن عبد ربه طَبِيبا فَاضلا وشاعرا محسنا وَله فِي الطِّبّ رجز جليل محتو على جملَة حَسَنَة مِنْهُ دلّ بِهِ على تمكنه من الْعلم وتحققه لمذاهب القدماء وَكَانَ لَهُ مَعَ ذَلِك بصر بحركات الْكَوَاكِب وطبائعها ومهاب الرِّيَاح وَتغَير الأهوية وَكَانَ مذْهبه فِي مداواة الحميات أَن يخلط بالمبردات شَيْئا من وَله فِي ذَلِك مَذْهَب جميل وَلم يخْدم بالطب سُلْطَانا .

وَكَانَ بَصيرًا بتقدمة .

الْمعرفَة وتغيير الأهوية ومهب الرِّيَاح وحركة الْكَوَاكِب .

قَالَ ابْن جلجل حَدثنِي عَنهُ سُلَيْمَان ابْن أَيُّوب الْفَقِيه قَالَ قَالَ اعتللت بحمة فطاولتني وأشرفت مِنْهَا إِذْ مر بِأبي وَهُوَ ناهض إِلَى صَاحب الْمَدِينَة أَحْمد بن عِيسَى

فَقَامَ إِلَيْهِ وَقضى وَاجب حَقه بِالسَّلَام عَلَيْه وَسَأَلَهُ عَن علتي واستخبر أبي عَمَّا عولجت بِهِ فسفه علاج من عالجني وَبعث إِلَى أبي بثماني عشرَة حَبَّة من حبوب مُدَوَّرَة وَأمر أَن أشْرب مِنْهَا كل يَوْم حَبَّة فَمَا استوعبتها حَتَّى أقلعت الْحمى وبرئت برأ تَاما .

وَعمي سعيد فِي آخر أَيَّامه .

وَمن شعر سعيد بن عبد ربه أَنه افتصد يَوْمًا فَبعث إِلَى عَمه أَحْمد بن مُحَمَّد بن عبد ربه الشَّاعِر الأديب رَاغِبًا إِلَيْهِ فِي أَن يحضر عِنْده مؤانسا لَهُ فَلم يجبهُ عَمه إِلَى ذَلِك وَأَبْطَأ عَنهُ فَكتب إِلَيْهِ .

(لما عدمت مؤانسا وجليسا ... نادمت بقراطا وجالينوسا)
(وَجعلت كتبهما شفَاء تفردي ... وهما الشِّفَاء لكل جرح يوسا)
(وَوجدت علمهما إِذا حصلته ... يذكي وَيحيى للجسوم نفوسا)
الْكَامِل

فَلَمَّا وصل الشّعْر إِلَى عَمه جاوبه بِأَبْيَات مِنْهَا .

(ألفيت بقراطا وجالينوسا ... لاَ يأكلان ويرزآن جَليسا)
(فجعلتهم دون الأْقَارب جنَّة ... ورضيت مِنْهُم صاحبا وأَنيسا)
(وأظن بخلك لاَ يرى لَك تَارِكًا ... حَتَّى تنادم بعدهمْ أبليسا)

وَقَالَ سعيد بن عبد ربه أَيْضا فِي آخر عمره وَكَانَ جميل الْمَذْهَب منقبضا عَن الْمُلُوك .

(أَمن بعد غوصي فِي عُلُوم الْحَقَائِق ... وَطول انبساطي فِي مواهب خالقي)
(وَفِي حِين أشرافي على ملكوته ... أرى طَالبا رزقا إِلَى غير رازقي)
(وَأَيَّام عمر الْمَرْء مُتْعَة سَاعَة ... تَجِيء حثيثا مثل لمحة بارق)
(وَقد أَذنت نَفسِي بتقويض رَحلهَا ... وأسرع فِي سوقي إِلَى الْمَوْت سائقي)
(وَإِنِّي وَإِن أوغلت أَو سرت هَارِبا ... من الْمَوْت فِي الْآفَاق فالموت لاحقي)

ابْن جلجل

هُوَ أَبُو دَاوُد سُلَيْمَان بن حسان يعرف بِابْن جلجل وَكَانَ طَبِيبا فَاضلا خَبِيرا بالمعالجات جيد التَّصَرُّف فِي صناعَة الطِّبّ .

وَكَانَ فِي أَيَّام هِشَام الْمُؤيد بِاللَّه .(١)

وخدمه بالطب وَله بَصِيرَة واعتناء بقوى الْأَدْوِيَة المفردة وَقد فسر أَسمَاء الْأَدْوِيَة المفردة من كتاب ديسقوريدس الْعين زَرْبِي وأفصح عَن مكنونها وأوضح مستغلَق مضمونها وَهُوَ يَقُول فِي أول كتَابه هَذَا إِن كتاب ديسقوريدس ترْجم بِمَدِينَة السَّلَام فِي الدولة العباسية فِي أَيَّام جَعْفَر المتَوَكل وَكَانَ المترجم لَهُ اصطفن بن بسيل الترجمان من اللِّسَان اليوناني إِلَى اللِّسَان الْعَرَبِيّ وتصفح ذَلِك حنين بن إِسْحَق المترجم فصحح التَّرْجَمَة وأجازها فَمَا علم اصطفن من تِلْكَ الْأَسْمَاء اليونانية فِي وقته لَهُ اسْما فِي اللِّسَان الْعَرَبِيّ فسره بِالْعَرَبِيَّةِ وَمَا لم يعلم لَهُ فِي اللِّسَان الْعَرَبِيّ اسْما تَركه فِي الْكتاب على اسْمه اليوناني اتكالاً مِنْهُ على أَن يبْعَث الله بعده من يعرف ذَلِك ويفسره بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيّ إِذْ التَّسْمِيَة لاَ تكون بالتواطؤ من أهل كل بلد على أَعْيَان الْأَدْوِيَة بِمَا رَأَوْا وَأَن يسموا ذَلِك إِمَّا باشتقاق وَإِمَّا بِغَيْر ذَلِك من تواطئهم على التَّسْمِيَة فاتكل اصطفن على شخوص يأْتونَ بعده مِمَّن قد عرف أَعْيَان الْأَدْوِيَة الَّتِي لم يعرف هُوَ لَهَا اسْما فِي وقته فيسميها على قدر مَا سمع فِي ذَلِك الْوَقْت فَيخرج إِلَى الْمعرفَة .

قَالَ ابْن جلجل وَورد هَذَا الْكتاب إِلَى الأندلس وَهُوَ على تَرْجَمَة اصطفن مِنْهُ مَا عرف لَهُ اسْما بِالْعَرَبِيَّةِ وَمِنْه مَا لم يعرف لَهُ اسْما .

فَانْتَفع النَّاس بِالْمَعْرُوفِ مِنْهُ بالمشرق وبالأندلس إِلَى أَيَّام النَّاصِر عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد وَهُوَ يَوْمئِذٍ صَاحب الأندلس .

فكاتبه أرمانيوس الْملك ملك قسطنطينية فِي سنة سبع وَثَلَاثِينَ وثلاثمائة وهاداه بهدَايَا لَهَا قدر عَظِيم فَكَانَ فِي جملَة هديته كتاب دسقوريدس مُصَور الحشائش بالتصوير الرُّومِي العجيب .

وَكَانَ الْكتاب مَكْتُوبًا بالإغريقي الَّذِي هُوَ اليوناني وَبعث مَعَه كتاب هروسيس

(١) أبو الوليد هشام المؤيد بالله عاشر الحكام الأمويين للأندلس وثالث خلفاؤهم في قرطبة ، خلف أباه الخليفة الحكم المستنصر بالله عام ٣٦٦ هـ ، وهو في سن الثانية عشر تحت وصاية أمه صبح البشكنجية .

صَاحب الْقَصَص وَهُوَ تَارِيخ للروم عَجِيب فِيهِ أَخْبَار الدهور وقصص الْمُلُوك الأول وفوائد عَظِيمَة .

وَكتب أرمانيوس فِي كِتَابه إِلَى النَّاصِر إِن كتاب ديسقوريدس لاَ تجتنى فَائِدَته إِلاَّ بِرَجُل يحسن الْعبارَة بِاللِّسَان اليوناني وَيعرف أشخاص تِلْكَ الْأَدْوِيَة فَإِن كَانَ فِي بلدك من يحسن ذَلِك فزت أَيهَا الْملك بفائدة الْكتاب وَأما كتاب هروسيس فعندك فِي بلدك من اللطينيين من يقرأه بِاللِّسَانِ اللطيني وَإِن كشفتهم عَنهُ نقلوه لَك من اللطيني إِلَى اللِّسَان الْعَرَبِيّ .

قَالَ ابْن جلجل وَلم يكن يَوْمئِذ بقرطبة من نَصَارَى الأندلس من يقْرَأ اللِّسَان الأغريقي الَّذِي هُوَ اليوناني الْقَدِيم فَبَقِيَ كتاب ديسقوريدس فِي خزانَة عبد الرَّحْمَن النَّاصِر بِاللِّسَانِ الإغريقي وَلم يترجم إِلَى اللِّسَان الْعَرَبِيّ وَبَقِي الْكتاب بالأندلس .

وَالَّذِي بَين أَيدي النَّاس بترجمة أسطفن الْوَارِدَة من مَدِينَة السَّلَام بَغْدَاد .

فَلَمَّا جاوب النَّاصِر أرمانيوس الْملك سَأَلَهُ أَن يبْعَث إِلَيْهِ بِرَجُل يتَكَلَّم بالإغريقي واللطيني ليعلم لَهُ عبيدا يكونُونَ مترجمين فَبعث أرمانيوس الْملك إِلَى النَّاصِر براهب كَانَ يُسمى نقولا فوصل إِلَى قرطبة سنة أَرْبَعِينَ وثلاثمائة وَكَانَ يَوْمئِذ بقرطبة من الْأَطِبَّاء قوم لَهُم بحث وتفتيش وحرص على اسْتِخْرَاج مَا جهل من أَسمَاء عقاقير كتاب ديسقوريدس إِلَى الْعَرَبيَّة وَكَانَ أبحثهم وأحرصهم على ذَلِك من جِهَة التَّقَرُّب إِلَى الْملك عبد الرَّحْمَن النَّاصِر حسداي بن بِشْرُوط الإسرائيلي وَكَانَ نقولا الراهب عِنْده أحظى النَّاس وأخصهم بِهِ .

وَفسّر من أَسمَاء عقاقير كتاب ديسقوريدس مَا كَانَ مَجْهُولا وَهُوَ أول من عمل بقرطبة ترياق الْفَارُوق على تَصْحِيح الشجارية الَّتِي فِيهِ .

وَكَانَ فِي ذَلِك الْوَقْت من الْأَطِبَّاء الباحثين عَن تَصْحِيح أَسمَاء عقاقير الْكتاب وَتَعْيِين أشخاصه مُحَمَّد الْمَعْرُوف بالشجار وَرجل كَانَ يعرف بالبسباسي وَأَبُو عُثْمَان الجزار الملقب باليابسة وَمُحَمّد بن سعيد الطَّبِيب وَعبد الرَّحْمَن بن إِسْحَق بن هَيْثَم وَأَبُو عبد الله الصّقليّ وَكَانَ يتَكَلَّم باليونانية وَيعرف أشخاص الْأَدْوِيَة .

قَالَ ابْن جلجل وَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّفر كلهم فِي زمَان وَاحِد مَعَ نقولا الراهب أَدْرَكته وَأَدْرَكت نقولا الراهب فِي أَيَّام الْمُسْتَنْصر وصحبتهم فِي أَيَّام الْمُسْتَنْصر الحكم .

وَفِي صدر دولته مَاتَ نقولا الراهب فصح ببحث هَؤُلَاءِ النَّفر الباحثين عَن أَسمَاء عقاقير كتاب ديسقوريدس تَصْحِيح الْوُقُوف على أشخاصها بِمَدِينَة قرطبة خَاصَّة

بنَاحيَـة الأندلس مَا أَزَال الشَّك فيـهَا عَن الْقُلُوب وَأوجب الْمعرفَة بهَا بالْوُقُوف على أَشخَاصها وَتَصْحِيح النُّطْق بأسمائها بِلاَ تَصْحِيف إِلاَّ الْقَلِيل مِنْهَا الَّذِي لاَ بَال بِهِ وَلاَ خطر لَهُ .

وَذَلكَ يكون فِي مثل عشرَة أدوية .

قَالَ وَكَانَ لي فِي معرفَة تَصْحِيح هيولى الطِّبّ الَّذِي هُوَ أصل الْأَدْوِيَة المركبة حرص شَدِيد وَبحث عَظِيم حَتَّى وهبني الله من ذَلك بفضله بقدر مَا اطلع عَلَيْه من نيتي فِي إحْيَاء مَا خفت يدرس وَتذهب منفعَته لأَبدان النَّاس فَالله قد خلق الشِّفَاء وبثه فِيمَا انبتته الأَرْض وَاسْتقر عَلَيْهَا من الْحَيَوَان المشاء والسابح فِي المَاء والمنساب وَمَا يكون تَحت الأَرْض فِي جوفها من المعدنية كل ذَلك فِيه شفَاء وَرَحْمَة ورفق .

وَلابْن جلجل من الْكتب كتاب تَفْسِير أَسمَاء الْأَدْوِيَة المفردة من كتاب ديسقوريدس[1] أَلفه فِي شهر ربيع الآخر سنة اثْنَتَيْنِ وَسبعين وثلاثمائة بِمَدِينَة قرطبة فِي دولة هشَام بن الحكم الْمُؤَيد بِاللَّه .

مقَالَة فِي ذكر الْأَدْوِيَة الَّتِي لم يذكرهَا ديسقوريدس فِي كِتَابه مِمَّا يسْتَعْمل فِي صناعَة الطِّبّ وَيُنْتَفع بِه وَمَا لاَ يسْتَعْمل لكيلا يغْفل ذكره

وَقَالَ ابْن جلجل أَن ديسقوريدس أغفل ذَلِك وَلم يذكرهُ إِمَّا لأَنَّهُ لم يره وَلم يُشَاهِدهُ عيَانًا وَإِمَّا لأَن ذَلِك كَانَ غير مُسْتَعْمل فِي دهره وَأَبْنَاء جنسه .

ابْن وَافد

هُوَ الْوَزير أَبُو الْمطرف عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن عبد الْكَبِير بن يحيى بن وَافد بن مهند اللَّخْمِيّ أحد أَشْرَاف أهل الأندلس وَذَوي السّلف الصَّالح مِنْهُم والسابقة الْقَدِيمَة فيهم .

(١) دِيُسقُورِيدُوس طبيب يوناني ، ولد في عَيْن زَرْبَة في قيليقية (منطقة بشمال الجزيرة السورية وجنوب شرق تركيا حاليا) حوالي سنة ٤٠م . درس الطب في الإسكندرية ثم في أثينا حيث تتلمذ على ثيوفراسطوس . ثم أتى روما فأصبح طبيباً عسكرياً في الفرقة الأجنبية في عهد الإمبراطور الروماني نيرون وطاف بين سنة ٥٤ و٦٨ في قسم كبير من أوربا واستفاد من رحلاته لتعميق معارفه السريرية والنباتية ، واستمد منها عناصر كتاب يعد أول وصف للأدوية وتحضيرها باستخدام الأعشاب الطبية .

عَنى عناية بَالغَة بِقِرَاءَة كتب جالينوس وتفهمها ومطالعة كتب أرسطوطاليس وَغَيره من الفلاسفة .

قَالَ القَاضِي صاعد وتمهر بعلم الأَدْوِيَة المفردة حَتَّى ضبط مِنْهَا مَا لم يضبطه أحد فِي عصره وَألف فِيهَا كتابا جَليلاً لاَ نَظِير لَهُ جمع فِيهِ مَا تضمن كتاب ديسقوريدس وَكتاب جالينوس المؤلفان فِي الأَدْوِيَة المفردة ورتبه أحسن تَرْتِيب .

قَالَ وَأَخْبرنِي أنه عانى جمعه وحاول ترتيبه وَتَصْحِيح مَا ضمنه من أَسمَاء الأَدْوِيَة وصفاتها وأودعه إِيَّاه من تَفْصِيل قواها وتحديد درجاتها نَحوا من عشرين سنة حَتَّى كمل مُوَافقا لغرضه وَتمّ مطابقا لبغيته .

وَله فِي الطِّبّ منزع لطيف وَمذهب نبيل وَذَلِكَ أَنه كَانَ لاَ يرى التَّدَاوِي بالأدوية مَا أمكن التَّدَاوِي بالأغذية أَو مَا كَانَ قَرِيبا مِنْهَا فَإِذا دعت الضَّرُورَة إِلَى الأَدْوِيَة فَلاَ يرى التَّدَاوِي بمركبها مَا وصل إِلَى التَّدَاوِي بمفردها فَإِن اضْطر إِلَى الْمركب مِنْهَا لم يكثر التَّرْكِيب بل اقْتصر على الأَقَل مَا يُمكنهُ مِنْهُ .

وَله نَوَادِر مَحْفُوظَة وغرائب مَشْهُورَة فِي الإِبْرَاء من الْعِلَل الصعبة والأمراض المخوفة بأيسر العلاج وأقربه .

واستوطن مَدِينَة طليطلة وَكَانَ فِي أَيَّام ابْن ذِي النُّون .(١)

حسداي بن إِسْحَاق

معتن بصناعة الطِّبّ وخدم الحكم بن عبد الرَّحْمَن النَّاصِر لدين الله وَكَانَ حسداي بن إِسْحَاق من أَحْبَار الْيَهُود مُتَقَدما فِي علم شريعتهم وَهُوَ أول من فتح لأهل الأندلس مِنْهُم بَاب علمهمْ من الْفِقْه والتاريخ وَغير ذَلِك .

---

(١) المأمون يحيى بن ذي النون ثاني حكام طائفة طليطلة من بني ذي النون في عصر ممالك الطوائف . حكم المأمون طليطلة بين عامي ٤٣٥ هـ-٤٦٧ هـ ، وأمضاها في حروب متواصلة تارة مع بني هود حكام سرقسطة وأخرى مع بني عباد حكام إشبيلية ، وأحيانًا مع بني الأفطس حكام بطليوس . استطاع المأمون من خلال حروبه ضم طائفة بلنسية عام ٤٥٧ هـ ، ثم طائفة قرطبة عام ٤٦٧ هـ قبيل وفاته . غير أن فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة كان غالبًا ما يتهدد أراضي المأمون ، مما أجبر المأمون على الإذعان لمطالبات فرناندو وأداء الجزية له . خلال عهده ، جمع المأمون ثروات طائلة ، وابتنى بعاصمته طليطلة قصورًا باذخة اشتهرت بروعتها وفخامتها .

وَكَانُوا قبل يضطرون فِي فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت أعيادهم إِلَى يهود بَغْدَاد فيستجلبون من عِنْدهم حِسَاب عدَّة من السنين يتعرفون بِهِ مدَاخِل تاريخهم ومبادئ سنيهم .

فَلَمَّا اتَّصل حسداي بالحكم ونال عِنْده نِهَايَة الحظوة توصل بِهِ إِلَى استجلاب مَا شَاءَ من تآليف الْيَهُود بالمشرق فعلم حِينَئِذٍ يهود الأندلس مَا كَانُوا قبل يجهلونه واستغنوا عَمَّا كَانُوا يتجشمون الكلفة فِيهِ .

أَبُو جَعْفَر يُوسُف بن أَحْمد بن حسداي

من الْفُضَلَاء فِي صناعَة الطِّبّ وَله عناية بَالِغَة فِي الاِطِّلَاع على كتب أبقراط وجالينوس وفهمها .

وَكَانَ قد سَافر من الأندلس إِلَى الديار المصرية .

واشتهر ذكره بهَا وتميز فِي أَيَّام الْآمِر بِأَحْكَام الله من الْخُلَفَاء المصريين وَكَانَ خصيصا بالمأمون وَهُوَ أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن نور الدولة أبي شُجَاع الآمري فِي مُدَّة أَيَّام دولته وتدبيره للْملك .

وَكَانَت معدنه فِي ذَلِك ثَلَاث سِنِين وَتِسْعَة أشهر لأَن الْآمِر كَانَ قد استوزر الْمَأْمُون فِي الْخَامِس من ذِي الْحجَّة سنة خمس عشرَة وَخَمْسمِائَة وَقبض عَلَيْهِ لَيْلَة السبت الرَّابِع من شهر رَمَضَان سنة تسع عشرَة وَخَمْسمِائَة فِي الْقصر بعد صَلَاة الْمغرب .

ثمَّ قتل بعد ذَلِك فِي رَجَب سنة اثْنَتَيْنِ وَعشْرين وَخَمْسمِائَة وصلب بِظَاهِر الْقَاهِرَة .

وَكَانَ الْمَأْمُون فِي أَيَّام وزارته لَهُ همة عالية ورغبة فِي الْعُلُوم فَكَانَ قد أَمر يُوسُف بن أَحْمد بن حسداي أَن يشْرَح لَهُ كتب أبقراط إِذْ كَانَت أجل كتب هَذِه الصِّنَاعَة وَأَعْظَمهَا جدوى وأكثرها غموضا .

وَكَانَ ابْن حسداي قد شرع فِي ذَلِك وَوجدت لَهُ مِنْهُ شرح كتاب الْأَيْمَان لأبقراط وَقد أجَاد فِي شَرحه لهَذَا الْكتاب واستقصى ذكر مَعَانِيه وتبيينها على أتم مَا يكون وَأحسنه .

وَوجدت لَهُ أَيْضا شرح بعض كتاب الْفُصُول لأبقراط وَكَانَ بَينه وَبَين أبي بكر مُحَمَّد بن يحيى الْمَعْرُوف بِابْن باجة صداقة فَكَانَ أبدا يراسله من الْقَاهِرَة .

وَكَانَ يُوسُف بن أَحْمد بن حسداي مدمنا للشراب وَعنْده دعابة ونوادر .
وَبَلغنِي عَنهُ أَنه لما أَتَى من الإسْكَنْدَرِيَّة إِلَى الْقَاهِرَة كَانَ هُوَ وَبَعض الصُّوفِيَّة قد اصْطَحَبَا فِي الطَّرِيق فَكَانَا يتحادثان وَأنس كل وَاحِد مِنْهُمَا إِلَى الآخر وَلما وصلا إِلَى الْقَاهِرَة قَالَ لَهُ الصُّوفِي أَنْت أَيْن تنزل فِي الْقَاهِرَة حَتَّى أكون أَرَاك فَقَالَ مَا كَانَ فِي خاطري أَن أنزل إِلاَّ حانة الْخمار وأشرب فَإِن كنت توَافق وَتَأْتِي إِلَيّ فرأيك .
فصعب قَوْله على الصُّوفِي وَأنكر هَذَا الْفِعْل وَمَشى إِلَى الخانكاه .
وَلما كَانَ فِي بعض الأَيَّام بعد مُدِيدَة وَابْن حسداي فِي السُّوق وَإِذا بجمع من النَّاس وَفِي وَسطهمْ صوفي يُعَزّر وَقد اشْتهر أمره بِأَنَّهُ وجد سَكرَان وَلما قرب إِلَى الْموضع الَّذِي فِيهِ ابْن حسداي وَنظر إِلَيْهِ وجده ذَلِك الصُّوفِي بِعَيْنِه .
فَقَالَ يَا لله قَتلك النامس .
وليوسف بن أَحْمد بن حسداي من الْكتب الشَّرْح المأموني لكتاب الأَيْمَان لأبقراط الْمَعْرُوف بعهده إِلَى الأَطِبَّاء صنفه لِلْمَأْمُونِ أبي عبد الله مُحَمَّد الآمري .
شرح الْمقَالة الأولى من كتاب الْفُصُول لأبقراط .
تعاليق وجدت بِخَطِّهِ كتبهَا عِنْد وُرُوده على الإسْكَنْدَرِيَّة من الأندلس .
فَوَائِد مستخرجة استخرجها وهذبها من شرح عَليّ بن رضوَان لكتاب جالينوس إِلَى أغلوقن من القَوْل على أول الصِّنَاعَة الصَّغِيرَة لجالينوس .
كتاب الأجمال فِي الْمنطق .
شرح كتاب الأجمال .

أَبُو الصَّلْت أُميَّة بن عبد الْعَزِيز بن أبي الصَّلْت

هُوَ من بلد دانية من شَرق الأندلس وَهُوَ من أكَابِر الْفُضَلَاء فِي صناعَة الطِّبّ وَفِي غَيرهَا من الْعُلُوم وَله التصانيف الْمَشْهُورَة والمآثر الْمَذْكُورَة .
قد بلغ فِي صناعَة الطِّبّ مبلغا لم يصل إِلَيْهِ غَيره من الأَطِبَّاء وَحصل من معرفَة الأَدَب مَا لم يُدْرِكهُ كثير من سَائِر الأدباء .
وَكَانَ أوحد فِي الْعلم الرياضي متقنا لعلم الموسيقى وَعَمله جيد اللّعب بِالْعودِ .
وَكَانَ لطيف النادرة فصيح اللِّسَان جيد الْمعَانِي .
ولشعره رونق .
وأتى أَبُو الصَّلْت من الأندلس إِلَى ديار مصر وَأقَام بِالْقَاهِرَةِ مُدَّة .

ثمَّ عَاد بعد ذَلك إِلَى الأندلس .

وَكَانَ دُخُول أبي الصَّلْت إِلَى مصر فِي حُدُود سنة عشر وَخَمْسمِائة .

وَلما كَانَ فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّة حبس بهَا .

وحَدث الشَّيْخ سديد الدّين المنطقي فِي الْقَاهِرَة سنة اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ وستمائة أَن أَبَا الصَّلْت أُميَّة بن عبد الْعَزِيز كَانَ سَبَب حَبسه فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّة أَن مركبا كَانَ قد وصل إِلَيْهَا وَهُوَ موقر بالنُّحَاس فغرق قَرِيبا مِنْهَا وَلم تكن لَهُم حِيلَة تخليصه لطول الْمسَافَة فِي عمق الْبَحْر ففكر أَبُو الصَّلْت فِي أمره وأجال النّظر فِي هَذَا الْمَعْنى حَتَّى تلخص لَهُ فِيهِ رَأْي وَاجْتمعَ بالأفضل بن أَمِير الجيوش ملك الْإِسْكَنْدَرِيَّة وأوجده أَنه قَادر أَن تهَيَّأَ لَهُ جَمِيع مَا يحْتَاج إِلَيْهِ من الْآلَات أَن يرفع الْمركب من قَعْر الْبَحْر ويجعله على وَجه المَاء مَعَ مَا فِيهِ من الثّقل فتعجب من قَوْله وَفَرح بِهِ وَسَأَلَهُ أَن يفعل ذَلِك .

ثمَّ آتَاهُ على جَمِيع مَا يَطْلُبهُ من الْآلَات وَغرم عَلَيْهَا جملَة من المَال .

وَلما تهيأت وَضعهَا فِي مركب عَظِيم على موازاة الْمركب الَّذِي قد غرق وأرسى إِلَيْهِ حبَالاً مبرومة من الإبريسم وَأمر قوما لَهُم خبْرَة فِي الْبَحْر أَن يغوصوا ويوثقوا ربط الحبَال بالمركب الغارق وَكَانَ قد صنع آلَات بأشكال هندسية لرفع الأثقال فِي الْمركب الَّذِي هم فِيهِ .

وَأمر الْجَمَاعَة بِمَا يَفْعَلُونَهُ فِي تِلْكَ الْآلَات .

وَلم يزل شَأْنهمْ ذَلِك والحبال الإبريسم ترْتَفع إِلَيْهِم أَولا فأولا وتنطوي على دواليب بَين أَيْديهم حَتَّى بَان لَهُم الْمركب الَّذِي كَانَ قد غرق وارتفع إِلَى قريب من سطح المَاء .

ثمَّ عِنْد ذَلِك انْقَطَعت الحبال الإبريسم وَهَبَطَ الْمركب رَاجعا إِلَى قَعْر الْبَحْر .

وَلَقَد تلطف أَبُو الصَّلْت جدا فِيمَا صنعه وَفِي التحيل إِلَى رفع الْمركب إِلَّا أَن الْقدر لم يساعده وحنق عَلَيْهِ الْملك لما غرمه من الْآلَات وَكَونهَا مرت ضائعة وَأمر بحبسه وَأَن يسْتَوْجب ذَلِك .

وَبَقِي فِي الاعتقال مُدَّة إِلَى أَن شفع فِيهِ بعض الْأَعْيَان وَأطلق .

وَكَانَ ذَلِك فِي خلَافَة الْآمِر بِأَحْكَام الله ووزارة الْملك الْأَفْضَل بن أَمِير الجيوش .

ومن رسَائِل الشَّيْخ أبي الْقَاسِم عَليّ بن سُلَيْمَان الْمَعْرُوف بِابْن الصَّيْرَفِي فِي مَا هَذَا مثَاله .

قَالَ وردتني رقْعَة من الشَّيْخ أبي الصَّلْت وَكَانَ معتقلا وَفِي آخرهَا نُسْخَة

قصيدتين خدم بهما المَجْلس الأفضلي أول الأولى منْهُمَا .

(الشَّمْــس دُونك فِي المَحْل وَالطِّيــب ذكرك بل أجـل)

وَأول الثَّانيَة

(نسخت غرائب مدحـك التشبيبــا وَكفــى بهَا غزلا لنـا ونسيــبا)

فَكتبت إِلَيْه

(لَئِــن سترتــك الجُــدر عَنَّا فَرُبَمَـا رَأينَا جلابيب السَّحَاب على الشَّمْس)

وردتني مولاَيَ فَأخذت فِي تقبيلها وارتشافها قبل التَّأَمُّل لمحاسنها واستشفافها حَتَّى كَأَنِّي ظَفرت بيد مصدرها وتمكنت من أنامل كاتبها ومسطرها ووقفت على مَا تضمنته من الْفضل الباهر وَمَا أودعتها من الجْوَاهر الَّتِي قذف بهَا فيض الخاطر .

فَرَأَيْت مَا قيد فكري وطرفي وَجل عَن مُقَابلَة تقريظي ووصفي .

وَجعلت أجدد تلاوتها مستفيدا وأرددها مبتدئا فِيهَا ومعيدا .

(نكـــرر طـــورا من قراة فصولـــه فَـــإِن نَحن أتممنا قرَاءَته عدنـــا)

(إِذا مَا نشرنــــاه فكالمسك نشـــــره ونطويه لاَ طي السَّآمَة بــل ضنـــا)

ابْن باجة

هُوَ أَبُو بكر مُحَمَّد بن يحيى بن الصَّائغ وَيعرف بِابْن باجة من الأندلس .

وَكَانَ فِي الْعُلُوم الحْكمِيَّة عَلامَة وقته وأوحد زَمَانه .

وبلي بمحن كَثِيرَة وشناعات من الْعَوام وقصدوا هَلاَكه مرَّات وَسلمهُ الله مِنْهُم .

وَكَانَ متميزا فِي الْعَرَبيَّة وَالأْدب حَافِظًا لِلْقُرْآنِ .

ويعد من الأفاضل فِي صناعَة الطِّبّ .

وَكَانَ متقنا لصناعة الموسيقى جيد اللّعب بِالْعودِ .

وَمن كَلاَم ابْن باجة قَالَ الأْشْيَاء الَّتِي ينفع تعلمهَا بعد زمَان طَوِيل لاَ يضيع تذكرها .

وَقَالَ حسن عَمَلك تفز بِخَير من الله سُبْحَانَهُ .

أَبُو الْعَلاَء بن زهر

هُوَ أَبُو الْعَلاَء زهر بن أبي مَرْوَان عبد الْملك بن مُحَمَّد بن مَرْوَان مَشْهُور بالحذق والمعرفة وَله علاجات مختارة تدل على قوته فِي صناعَة الطِّبّ واطلاعه على دقائقها .

وَكَانَت لَهُ نَوَادِر فِي مداواته المرضى ومعرفته لأحوالهم وَمَا يجدونه من الآلام من

غير أَن يستخبرهم عَن ذَلِك بل بنظره إِلَى قواريرهم أَو عِنْدَمَا يجس نبضهم .

وَكَانَ فِي دولة الملثمين ويعرفون أَيْضا بالمرابطين وحظي فِي أيامهم ونال الْمنزلَة الرفيعة وَالذكر والجميل .

وَكَانَ قد اشْتغل بصناعة الطِّبّ وَهُوَ صَغِير فِي أَيَّام المعتضد بِاللَّه أبي عَمْرو عباد بن عباد .

واشتغل أَيْضا بعلم الْأَدَب وَهُوَ حسن التصنيف جيد التَّأْلِيف .

وَفِي زَمَانه وصل كتاب القانون لِابْنِ سينا إِلَى الْمغرب وَقَالَ ابْن جَمِيع الْمصْرِيّ فِي كتاب التَّصْرِيح بالمكنون فِي تَنْقِيح القانون أَن رجلا من التُّجَّار جلب من الْعرَاق إِلَى الأندلس نُسْخَة من هَذَا الْكتاب قد بولغ فِي تحسينها فأتحف بهَا لأبي الْعَلَاء بن زهر تقربا إِلَيْهِ وَلم يكن هَذَا الْكتاب وَقع إِلَيْهِ قبل ذَلِك فَلَمَّا تَأمله ذمه وأطرحه وَلم يدْخلهُ خزانَة كتبه وَجعل يقطع من طرره مَا يكْتب فِيهِ نسخ الْأَدْوِيَة لمن يستفتيه من المرضى وَقَالَ أَبُو يحيى اليسع بن عِيسَى بن حزم ابْن اليسع فِي كتاب الْمغرب عَن محَاسِن أهل الْمغرب أَن أَبَا الْعَلَاء بن زهر كَانَ مَعَ صغر سنه تصرخ النجابة بِذكرِهِ وتخطب المعارف بشكره .

وَلم يزل يطالع كتب الْأَوَائِل متفهما ويلقى الشُّيُوخ مستعلما والسعد ينهج لَهُ مناهج التَّيْسِير وَالْقدر لاَ يرضى لَهُ من الوجاهة باليسير حَتَّى برز فِي الطِّبّ إِلَى غَايَة عجز الطِّبّ عَن مرامها وَضعف الْفَهم عَن إبرامها وَخرجت عَن قانون الصِّنَاعَة إِلَى ضروب من الشناعة يخبر فَيُصِيب وَيضْرب فِي كل مَا يَنْتَحِلهُ من التعاليم بأوفى نصيب ويشعر سَابق مدى ويغبر فِي وُجُوه الْفُضَلَاء علما ومحتدا ويفوق الجلة سماحة وندى لَوْلاَ بذاء لِسَان وعجلة إِنْسَان .

وَأي الرِّجَال تكمل خصاله وتتناسب أوصاله .

ونقلت من خطّ مُحَمَّد بن أَحْمد بن صَالح الْعَبْدي وَهُوَ من أهل الْمغرب وَله نظر وعناية بصناعة الطِّبّ .

قَالَ أَبُو العيناء الْمصْرِيّ وَهُوَ شيخ أَبُو الْعَلاَء بن زهر وَمن قبله انْصَرف من بَغْدَاد وحكايته مَعَه طَوِيلَة قَالَ أَخْبرنِي بِهَذَا الشَّيْخ الطَّبِيب أَبُو الْقَاسِم هِشَام بن إِسْمَاعِيل بن مُحَمَّد بن أَحْمد بن صَاحب الصَّلاَة بداره بأشبيلية حرسها الله .

أَقُول وَكَانَ من جملَة تلاميذ أبي الْعَلاَء بن زهر فِي الطِّبّ أَبُو عَامر بن ينق الشاطبي الشَّاعِر .

وَتُوفِّي أَبُو الْعَلاَء بن زهر فِي سنة وَدفن بأشبيلية خَارج بَاب الْفَتْح
وَمن شعر أبي الْعَلاء بن زهر قَالَ فِي التغزل .

(يَا مــن كلفت بــه وذلــت عزتـــي   لغرامـــه وَهُـــوَ الْعَزِيــز القاهــر)
(رمت التصبـــر عِنْدَمَـــا أَلْقى الجفـا   وَيَقُول ذَاك الْحسن مَالك نَاصـــر)
(مَا الجاه إِلاَّ جاه من ملـــك القـــوى   وإطاعـــــــه قلب عَزِيز قَـــادر)

وَقَالَ أَيْضا :

(يَا راشقـــي بسهام مَا لَهَــا غَـــرَض   إِلاَّ الْفُـــؤَاد وَمَا لَهَــا مِنْهُ عــوض)
(وممرضي بجفـــون حشوهـــا سقـــم   صحت وَمن طبعها التمريض وَالْمَرَض)
(أمنن وَلَو بخيـــال منْـــك يطرقنـــي   فقـــد يسد مسد الْجَوْهَر الْعــرض)

وَقَالَ فِي ابْن مَنْظُور(١) قَاضِي قُضَاة أشبيلية وَقد وَصله عَنهُ أَنه قَالَ أيمرض ابْن زهر على جِهَة الاسْتهْزَاء .

(قَالُوا ابْـــن مَنْظُور تعجـــب دائـــبا   إِنِّي مَرضت فَقلت يعثر من مَشى)
(قد كَانَ جالينـــوس يمـــرض دهـــره   فَمن الْفَقِيه المرتضى أكل الرشـــا)

وَقَالَ أَيْضا :

(سَمِعت بِوَصْف النَّاس هندا فَلم أزل   أَخـــا صبوة حَتَّى نظرت إِلَى هِنْد)
(فَلَمَّا أَرَانِـي اللـــه هنـــدا وزيهـــا   تمنيـــت أَن أزداد بعدا على بعـــد)

أَبُو مَرْوَان بن أبي الْعَلاَء بن زهر

هُوَ أَبُو مَرْوَان عبد الْملك بن أبي الْعَلاَء زهر بن أبي مَرْوَان عبد الْملك بن مُحَمَّد بن مَرْوَان بن زهر لحق بِأَبِيهِ فِي صناعَة الطِّبّ وَكَانَ جيد الاسْتِقْصَاء فِي الْأَدْوِيَة المفردة والمركبة حسن المعالجة قد ذاع ذكره فِي الأندلس وَفِي غَيرهَا من الْبِلَاد واشتغل الْأَطِبَّاء بمصنفاته .

وَلم يكن فِي زَمَانه من يماثله فِي مزاولة أَعمال صناعَة الطِّبّ .

وَله حكايات كَثِيرَة فِي تَأتيه لمعْرِفَة الْأَمْرَاض ومداواتها مِمَّا لم يسْبقهُ أحد من الْأَطِبَّاء إِلَى مثل ذَلِك .

وَكَانَ قد خدم الملثمين ونال من جهتهم من النعم وَالْأَمْوَال شَيْئا كثيرا .

(١) ابن منظور هو أديب ومؤرّخ وعالم في الفقه الإسلامي واللغة العربية .

وَفِي الْوَقْت الَّذِي كَانَ فِيهِ أَبُو مَرْوَان عبد الْملك بن أبي الْعَلاء بن زهر دخل الْمهْدي إِلَى الأندلس وَهُوَ أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن تومرت وَمَعَهُ عبد الْمُؤمن وَشرع فِي بَث الدعْوَة لعبد الْمُؤمن وتمهيد أمره إِلَى أَن انتشرت كَلمته واتسعت مَمْلَكَته وَملك الْبِلَاد وأطاعه الْخلق .

وحكاية الْمهْدي فِي تَأتيه إِلَى أَن نَالَ الْملك وَصفا لَهُ الْأَمر مَعْرُوفَة مَشْهُورَة .

وَلما اسْتَقل عبد الْمُؤمن بالمملكة وَعرف بأمير الْمُؤمنِينَ وَاسْتولى على خَزَائِن الْمغرب بذل الْأَمْوَال وَأظْهر الْعدْل وَقرب أهل الْعلم وَأكْرمهمْ ووالى إحسانه إِلَيْهِم واختص أَبَا مَرْوَان عبد الْملك بن زهر لنَفسِهِ وَجعل اعْتِمَاده عَلَيْهِ فِي الطِّبّ وأناله من الْأَنْعَام وَالعطَاء فَوق أمْنيته .

وَكَانَ مكينا عِنْده عالي الْقدر متميزا على كثير من أَبنَاء زَمَانه .

وَألف لَهُ أَبُو مَرْوَان بن زهر الترياق السبعيني وَاخْتَصَرَهُ عشاريا وَاخْتَصَرَهُ سباعيا وَيعرف بترياق الأنتلة .

حَدثنِي أَبُو الْقَاسِم المعاجيني الأندلسي أَن الْخَلِيفَة عبد الْمُؤمن احْتَاجَ إِلَى شرب دَوَاء مسهل وَكَانَ يكره شرب الْأَدْوِيَة المسهلة فتلطف لَهُ ابْن زهر فِي ذَلِك وأتى إِلَى كرمة فِي بستانه فَجعل المَاء الَّذِي يسقيها بِهِ مَاء قد أكسبه قُوَّة أدوية مسهلة بنقعها فِيهِ أَو بغليانها مَعَه .

وَلما تشربت الكرمة قُوَّة الْأَدْوِيَة المسهلة الَّتِي أرادها وطلع فِيهَا الْعِنَب وَله تِلْكَ الْقُوَّة أحم الْخَلِيفَة ثمَّ أَتَاهُ بعنقود مِنْهَا وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَن يَأْكُل مِنْهُ .

وَكَانَ حسن الاعْتِقَاد فِي ابْن زهر فَلَمَّا أكل مِنْهُ وَهُوَ ينظر إِلَيْهِ قَالَ لَهُ يَكْفِيك يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ فَإنَّك قد أكلت عشر حبات من الْعِنَب وَهِي تخدمك عشر مجَالِس .

فاستخبره عَن علّة ذَلِك وعرفه بِهِ .

ثمَّ قَامَ على عدد مَا ذكره لَهُ وَوجد الرَّاحَة فَاسْتَحْسن من فعله هَذَا وتزايدت مَنْزِلَته عِنْده .

وحَدثني الشَّيْخ محيي الدّين أَبُو عبد الله بن عَليّ بن مُحَمَّد بن الْعَرَبِيّ الطَّائِي الْحَاتمِي من أهل مرسية أَن أَبَا مَرْوَان عبد الْملك بن زهر كَانَ فِي وَقت مروره إِلَى دَار أَمِير الْمُؤمنِينَ بأشبيلية يجد فِي طَرِيقه عِنْد حمام أبي الْخَيْر بِالْقربِ من دَار ابْن مُؤَمل مَرِيضا بِهِ سوء قتبه وَقد كبر جَوْفه واصفر لَونه فَكَانَ أبدا يشكو إِلَيْهِ حَاله ويسأله النّظر فِي أمره .

فَلَمَّا كَانَ بعض الأَيَّام سَأَلَهُ مثل ذَلك فَوقف أَبُو مَرْوَان بن زهر عِنْده وَنظر إِلَيْهِ فَوجدَ عِنْد رَأسه إبريقا عتيقا يشرب مِنْهُ المَاء فَقَالَ اكسر هَذَا الإبريق فَإِنَّهُ سَبَب مرضك .

فَقَالَ لَهُ لاَ بِاللَّه يَا سَيِّدي فَإِنِّي مَا لي غَيره فَأمر بعض خدمه بکسره فَكَسرهُ فَظهر مِنْهُ لما كسر ضفدع وَقد كبر ممَّا لَهُ فيه من الزَّمَان .

فَقَالَ لَهُ ابْن زهر خلصت يَا هَذَا من المَرَض انْظُر مَا كنت تشرب .

وبرأ الرجل بعد ذَلك .

وحَدثني القَاضِي أَبُو مَرْوَان مُحَمَّد بن أَحْمد بن عبد الْملك اللَّخْمِيّ ثمَّ الْبَاجِيّ قَالَ حَدثنِي من أَثِق بِهِ أَنه كَانَ بأشبيلية حَكِيم فَاضل فِي صناعَة الطِّبّ يعرف بالفار وَله كتاب جيد فِي الأَدْوِيَة المفردة سفران وَكَانَ أَبُو مَرْوَان بن زهر كثيرا مَا يَأْكُل التِّين ويميل إِلَيْهِ .

وَكَانَ الطَّبِيب الْمَعْرُوف بالفار لاَ يغتذي مِنْهُ بِشَيْء وَإِن أَخذ مِنْهُ شَيْئا فَيكون وَاحِدَة فِي السّنة فَكَانَ يَقُول هَذَا لأبي مَرْوَان بن زهر أَنه لاَ بُد أَن تعرض لَك نغلة صعبة بمداومتك أكل التِّين والنغلة هُوَ الدُّبَيْلَة بلغتهم .

وَكَانَ أَبُو مَرْوَان يَقُول لَهُ لاَ بُد لكَثْرَة حميتك وكونك لم تَأْكُل شَيْئا من التِّين أَن يصيبك الشناج قَالَ فَلم يمت الْمَعْرُوف بالفار إِلاَّ بعلة التشنج وَكَذَلِكَ أَيْضا عرض لأبي مَرْوَان بن زهر دبيلة فِي جنبه وَتُوفِّي بهَا .

وَهَذَا من أبلغ مَا يكون من تقدمة الإِنْذَار .

قَالَ وَلما عرض لأبي مَرْوَان هَذِه الْعلَّة كَانَ يعالجها ويصنع لَهَا مراهم وأدوية وَلم تُؤثر نفعا يعْتد بِهِ .

فَكَانَ يَقُول لَهُ ابْنه أَبُو بكر يَا أبي لَو غيرت هَذَا الدَّوَاء بالدواء الْفُلاَنِيّ وَلَو زِدْت من هَذَا الدَّوَاء أَو اسْتعْملت دَوَاء كَذَا وَكَذَا فَكَانَ يَقُول لَهُ يَا بني إِذا أَرَادَ الله تَغْيِير هَذِه البنية فَإِنَّهُ لاَ يقدر لي أَن اسْتعْمل من الأَدْوِيَة إِلاَّ مَا يتم بِهِ مَشِيئَته وإرادته .

الحفيد أَبُو بكر بن زهر

هُوَ الْوَزير الحْكيم الأديب الحسيب أَبُو بكر مُحَمَّد بن أبي مَرْوَان بن أبي الْعَلاَء بن زهر مولده بِمَدِينَة أشبيلية وَنَشَأ بهَا وتميز فِي الْعُلُوم وَأخذ صناعَة الطِّبّ عَن أَبِيه وباشر أعمالهَا وَكَانَ معتدل الْقَامَة صَحِيح البنية قوي الأَعْضَاء .

وَصَارَ فِي سنّ الشيخوخة ونضارة لَونه وَقُوَّة حركاته لم يتَبَيَّن فِيهَا تغير وَإِنَّمَا عرض لَهُ فِي أَوَاخِر عمره ثقل فِي السّمع .

وَكَانَ حَافظًا لِلْقُرْآنِ وَسمع الحَدِيث واشتغل بِعلم الأَدَب والعربية وَلم يكن فِي زَمَانه أعلم مِنْهُ بِمَعْرِفَة اللُّغَة .

ويوصف بِأَنَّهُ قد أكمل صناعَة الطِّبّ وَالأَدب وعانى عمل الشّعْر وأجاد فِيهِ .

وَله موشحات مَشْهُورَة ويغنى بهَا وَهِي من أَجود مَا قيل فِي ذَلِك .

وَكَانَ ملازما للأمور الشَّرْعِيَّة متين الدّين قوي النَّفس محبا للخير .

وَكَانَ مهيبا وَله جرْأَة فِي الْكَلَام وَلم يكن فِي زَمَانه أعلم مِنْهُ بصناعة الطِّبّ وَذكره قد شاع واشتهر فِي أقطار الأندلس وَغَيرهَا من الْبِلَاد .

وحَدث القَاضِي أَبُو مَرْوَان مُحَمَّد بن أَحْمد بن عبد الْملك الْبَاجِيّ من أهل أشبيلية قَالَ قَالَ لي الشَّيْخ الْوَزير الْحَكِيم أَبُو بكر بن زهر أَنه لاَزم لجدي عبد الْملك الْبَاجِيّ سبع سِنِين يشْتَغل عَلَيْهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ كتاب الْمُدَوَّنَة لسحنون فِي مَذْهَب مَالك وَقَرَأَ أَيْضا عَلَيْهِ مُسْند ابْن أبي شيبَة .

وحَدث أَيْضا القَاضِي أَبُو مَرْوَان الْبَاجِيّ عَن أبي بكر بن زهر أَنه كَانَ شَدِيد الْبَأْس يجذب قوسا مائَة وَخمسين رطلا بالإشبيلي والرطل الَّذِي بإشبيلة سِتَّة عشر أُوقِيَّة وكل أُوقِيَّة عشرَة دَرَاهِم وَأَنه كَانَ جيد اللّعب بالشطرنج جدا وَلم يكن فِي زَمَانه أحد مثله فِي صناعَة الطِّبّ وخدم الدولتين .

وَذَلِكَ أَنه لحق دولة الملثمين وَاسْتمرّ فِي الْخدمَة مَعَ أَبِيه فِي آخر دولتهم .

ثمَّ خدم دولة الْمُوَحِّدين وهم بَنو عبد الْمُؤمن .

وَذَلِكَ أَنه كَانَ فِي خدمَة عبد الْمُؤمن هُوَ وَأَبوهُ وَفِي أَيَّام عبد الْمُؤمن مَاتَ أَبوهُ وَبَقِي هُوَ فِي خدمته ثمَّ خدم لاِبْنِ عبد الْمُؤمن أبي يَعْقُوب يُوسُف ثمَّ لاِبْنِهِ يَعْقُوب أبي يُوسُف الَّذِي لقب بالمنصور .

ثمَّ خدم ابْنه أَبَا عبد الله مُحَمَّد النَّاصِر وَفِي أول دولته توفّي أَبُو بكر بن زهر وَكَانَت وَفَاته رَحمَه الله فِي عَام سِتَّة وَتِسْعين وَخَمْسمائة بمراكش وَقد أَتَاهَا ليزور بهَا وَدفن هُنَاكَ فِي الْموضع الْمَعْرُوف بمقابر الشُّيُوخ وَعمر نَحْو السِّتين سنة .

قَالَ وَكَانَ أَبُو بكر بن زهر صائب الرَّأْي حسن المعالجة جيد التَّدْبِير .

وَقد عرف هَذَا مِنْهُ حَتَّى أَنه يَوْمًا كَانَ قد كتب وَالِده أَبُو مَرْوَان ابْن زهر نُسْخَة دَوَاء مسهل لعبد الْمُؤمن الْخَلِيفَة فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بكر بعد ذَلِك وَكَانَ فِي حَال شبيبته قَالَ

يجب أَن يُبدل هَذَا الدَّوَاء الْمُفْرد مِنْهُ بدواء آخر .

فَلم يتَنَاوَل عبد الْمُؤمن ذَلِك الدَّوَاء .

وَلما رَآهُ أَبوهُ قَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ إِن الصَّوَاب فِي قَوْله .

وَبدل الدَّوَاء الْمُفْرد بِغَيْرِه فأثر نفعا بَيِّنًا .

وَألف أَبُو بكر ابْن زهر الترياق الخمسيني للمنصور أَبُو يُوسُف يَعْقُوب .

قَالَ وحَدثني من أَثِق بِهِ أَن رجلا من بني اليناقي كَانَ صديقا للحفيد أبي بكر بن زهر وَكَانَ يجالسه كثيرا ويلعب مَعَه بالشطرنج وَأَنه كَانَ عِنْد الْحَفِيد أبي بكر يَوْمًا وهما يلعبان بالشطرنج فَرَآهُ الْحَفِيد على غير مَا يعهده بِهِ من الانبساط فَقَالَ لَهُ مَا لخاطرك كَأَنَّهُ مشتغل بِشَيْء عرفني مَا هُوَ فَقَالَ نعم إِن لي بنْتا زوجتها لرجل وَهُوَ يطْلبهَا وَقد احتجت إِلَى ثلثمائة دينَار فَقَالَ لَهُ العب وَمَا عَلَيْك فَإِن عِنْدِي فِي وقتنا هَذَا ثلثمائة دينَار إِلاَّ خَمْسَة دَنَانِير تأخذها .

فلعب مَعَه سَاعَة واستدعى بِالذَّهَب وَأَعْطَاهُ لَهُ فَلَمَّا كَانَ عَن قرب أَتَاهُ صَاحبه وَترك بَين يَدَيْهِ ثلاثمائة دينَار إِلاَّ خَمْسَة دَنَانِير تأخذها .

فلعب مَعَ سَاعَة واستدعى بِالذَّهَب وَأَعْطَاهُ لَهُ فَلَمَّا كَانَ عَن قرب أَتَاهُ صَاحبه وَترك بَين يَدَيْهِ ثلاثمائة دينَار إِلاَّ خَمْسَة .

فَقَالَ لَهُ ابْن زهر مَا هَذَا فَقَالَ إِنَّنِي بِعْت زيتونا لي بسبعمائة دينَار وَقد أتيت مِنْهَا بثلاثمائة دينَار إِلاَّ خَمْسَة عوض الَّذِي تفضلت بِهِ عَليّ وأقرضتني إِيَّاه وَقد بَقِي عِنْدِي حَاصِلا أَرْبَعمِائَة دينَار .

فَقَالَ لَهُ ابْن زهر ارْفَعْ هَذَا عنْدك وانتفع بِهِ فَإِنِّي مَا دفعت لَك الذَّهَب على إِنِّي أَعُود آخذه أبدا .

فَأبى الرجل وَقَالَ إِنَّنِي بِحَمْد الله بِحَال سَعَة وَلاَ لي حَاجَة أَن آخذ هَذَا وَلاَ غَيره من أحد أصلا .

وتفاوضا فِي ذَلِك فَقَالَ لَهُ ابْن زهر يَا هَذَا أَنْت صديقي أَو عدوي فَقَالَ لَهُ بل صديقك وَأحب النَّاس فِيك .

فَقَالَ لَهُ ابْن زهر وَالله لَئِن لم تَأْخُذهُ لأعادينك بِسَبَبِه وَلاَ أَعُود أُكَلِّمك أبدا .

فَأَخذه مِنْهُ وشكره على فعله قَالَ القَاضِي أَبُو مَرْوَان الْبَاجِيّ وَكَانَ الْمَنْصُور قد قصد أَن لاَ يتْرك شَيْئا من كتب الْمنطق وَالْحكمَة بَاقيا فِي بِلاَده .

وأباد كثيرا مِنْهَا بإحراقها بالنَّار وشدد فِي أَن لاَ يبْقى أحد يشْتَغل بِشَيْء مِنْهَا

وَأَنه مَتى وجد أحد ينظر فِي هَذَا الْعلم أَو وجد عِنْده شَيْء من الْكتب المصنفة فِيهِ فَإِنَّهُ يلْحقهُ ضَرَر عَظِيم .

وَلما شرع فِي ذَلِك جعل أمره مفوضا إِلَى الْحفِيد أبي بكر بن زهر وَأَنه الَّذِي ينظر إِلَيْهِ .

وَأَرَادَ الْخَلِيفَة أَنه إِن كَانَ عِنْد ابْن زهر شَيْء من كتب الْمنطق وَالْحكمَة لم يظْهر وَلاَ يُقَال عَنهُ أَنه يشْتَغل بهَا وَلاَ يَنَالهُ مَكْرُوه بِسَبَبِهَا وَلما نظر ابْن زهر فِي ذَلِك وامتثل أَمر الْمَنْصُور فِي جمع الْكتب من عِنْد الكتبيين وَغَيرهم وَأَن لاَ يبْقى شَيْء مِنْهَا وإهانة المشتغلين بهَا .

وَكَانَ بأشبيلية رجل من أعيانها يعادي الْحفِيد أَبَا بكر بن زهر ويحسده وَعِنْده شَرّ فَعمل محضرا فِي أَن ابْن زهر دَائِم الاشْتِغَال بِهَذَا الْفَنّ وَالنَّظَر فِيهِ وَأَن عِنْده فِي دَاره شَيْئا كثيرا من كتبه وَجمع فِيهِ شَهَادَات عدَّة وَبعث بِهِ إِلَى الْمَنْصُور وَكَانَ الْمَنْصُور حِينَئِذٍ فِي حصن الْفرج وَهُوَ مَوضِع بناه قَرِيبا من أشبيلية على ميلين مِنْهَا صَحِيح الْهَوَاء بِحَيْثُ بقيت الْحِنْطَة فِي ثَمَانِينَ سنة لم تَتَغَيَّر لصحته .

وَكَانَ أَبُو بكر بن زهر هُوَ الَّذِي أَشَارَ على الْمَنْصُور أَن يبنيه فِي ذَلِك الْموضع وَيُقِيم فِيهِ فِي بعض الْأَوْقَات .

فَلَمَّا كَانَ الْمَنْصُور بِهِ وَقد أَتَاهُ الْمحْضر نظره ثمَّ أَمر بِأَن يقبض على الَّذِي عمله وَأَن يودع السجْن فَفعل بِهِ ذَلِك .

وَانْهَزَمَ جَمِيع الشُّهُود الَّذين وضعُوا خطوطهم فِيهِ .

ثمَّ قَالَ الْمَنْصُور إِنَّنِي لم أول ابْن زهر فِي هَذَا إِلاَّ حَتَّى لاَ ينسبهُ أحد إِلَى شَيْء مِنْهُ وَلاَ يُقَال عَنهُ .

وَوَاللَّه لَو أَن جَمِيع أهل الأندلس وقفُوا قدامي وشهدوا على ابْن زهر بِمَا فِي هَذَا الْمحْضر لم أقبل قَوْلهم لما أعرفهُ فِي ابْن زهر من متانة دينه وعقله .

وحَدثني أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن مُحَمَّد بن أَحْمد الإشبيلي قَالَ كَانَ الْحفِيد أَبُو بكر بن زهر قد أَتَى إِلَيْهِ من الطّلبَة اثْنَان ليشتغلا عَلَيْهِ بصناعة الطِّبّ فترددا إِلَيْهِ ولازماه مُدَّة وقرآ عَلَيْهِ شَيْئا من كتب الطِّبّ .

ثمَّ أَنَّهُمَا أَتَيَاهُ يَوْمًا وبيد أَحدهمَا كتاب صَغِير فِي الْمنطق وَكَانَ يحضر مَعَهُمَا أَبُو الْحُسَيْن الْمَعْرُوف بالمصدوم وَكَانَ غرضهم أَن يشتغلوا فِيهِ فَلَمَّا نظر ابْن زهر إِلَى ذَلِك الْكتاب قَالَ مَا هَذَا ثمَّ أَخذه ينظر فِيهِ فَلَمَّا وجده فِي علم الْمنطق رمى بِهِ نَاحيَة ثمَّ

نَهَضَ إِلَيْهِم حافيا ليضربهم وانهزموا قدامه وتبعهم يعدو على حَالَته تِلْكَ وَهُوَ يُبَالغ فِي شتمهم وهم يتعادون قدامه إِلَى أَن رَجَعَ عَنْهُم عَن مَسَافَة بعيدَة فبقوا منقطعين عَنهُ أَيَّامًا لاَ يجسرون أَن يَأْتُوا إِلَيْه .

ثمَّ أَنهم توسلوا إِلَى أَن حَضَرُوا عِنْده وَاعْتَذَرُوا بِأَن ذَلك الْكتاب لم يكن لَهُم وَلاَ لَهُم فِيه غَرَض أصلا وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا رَأَوْهُ مَعَ حدث فِي الطَّرِيق وهم قاصدون إِلَيْه فهزأوا بِصَاحبه وعبثوا به وَأخذُوا مِنْهُ الْكتاب قهرا وَبَقِي مَعَهم ودخلوا إِلَيْه وهم ساهمون عَنهُ .

فتخادع لَهُم وَقبل معذرتهم واستمروا فِي قراءتهم عَلَيْه صناعَة الطِّبّ .

وَلما كَانَ بعد مديدة أَمرهم أَن يجيدوا حفظ الْقُرْآن وَأَن يشتغلوا بقرَاءة التَّفْسِير والْحَدِيث وَالْفِقْه وَأَن يواظبوا على مُرَاعَاة الأُمُور الشَّرْعِيَّة والاقتداء بهَا وَلاَ يخلوا بِشَيْء من ذَلك .

فَلَمَّا امتثلوا أمره وأتقنوا معرفَة مَا أَشَارَ بِه عَلَيْهِم وَصَارَت لَهُم مُرَاعَاة الأُمُور الشَّرْعِيَّة سجية وَعَادَة قد ألفوها كَانُوا يَوْمًا عِنْده وَإِذا بِه قد أخرج لَهُم الْكتاب الَّذِي كَانَ رَآهُ مَعَهم فِي الْمنطق وَقَالَ لَهُم الآن صلحتم لأَن تقرأوا هَذَا الْكتاب وَأَمْثَاله عَليّ .

وأشغلهم فِيه فتعجبوا من فعله .

وحَدث القَاضِي أَبُو مَرْوَان الْبَاجِيّ قَالَ كَانَ أَبُو زيد عبد الرَّحْمَن بن يوجان وَزِير الْمَنْصُور يعادي الْحَفِيد أَبَا بكر بن زهر ويحسده لما يرى من عظم حَاله وعلو مَنْزِلَته وَعلمه فاحتال عَلَيْه فِي سم صيره مَعَ أحد من كَانَ عِنْد الْحَفِيد بن زهر فقدمه إِلَى الْحَفِيد بن زهر فِي بيض وَكَانَت مَعَ الْحَفِيد أَيْضا بنت أُخْته وَكَانَت أُخْته وابنتها هَذه عالمتين بصناعة الطِّبّ والمداواة وَلَهُمَا خبْرَة جَيِّدَة بمَا يتَعَلَّق بمداواة النِّسَاء وكانتا تدخلان إِلَى نسَاء الْمَنْصُور وَلاَ يقبل للمنصور وَأَهله ولدا إِلاَّ أُخْت الْحَفِيد أَو بنتهَا لما توفيت أمهَا .

فَلَمَّا أكل الْحَفِيد من ذَلك الْبيض وَبنت أُخْته مَاتَا جَمِيعًا وَلم ينفع فيهمَا علاج .

قَالَ وَلم يمت أَبُو زيد عبد الرَّحْمَن بن يوجان إِلاَّ مقتولا قَتله مَعَ بعض أَقَاربه .

أَقُول وَكَانَ من أجل تلامذة الْحَفِيد أبي بكر بن زهر فِي صناعَة الطِّبّ والآخذين عَنهُ أَبُو جَعْفَر ابْن الغزال .

وَمن شعر الْحَفِيد أبي بكر بن زهر أَنْشد محيي الدّين أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن عَليّ بن عَليّ بن مُحَمَّد الْعَرَبِيّ الْحَاتِمِي قَالَ أَنْشدني الْحَفِيد أَبُو بكر بن زهر لنَفسه يتشوق إِلَى وَلَده :

(نأت عَنــهُ دَاري فيــا وحشتـــي لـــذاك الشخيص وَذَاكَ الْوَجيــه)
(تشوقنـــــي وتشوقتــــــه فيبكـــي عَلــيّ وأبكـــي عَلَيْـه)
(وَقد تَعـــب الشـــوق مَا بَيْننَــا فَمِنْـــهُ إِلَــيّ ومنـــي إِلَيْـــــهِ)

أَنْشد القَاضِي أَبُو مَرْوَان الْبَاجِيّ قَالَ أَنْشدني أَبُو عمرَان بن عمرَان الزَّاهِد المرتلي القاطن بأشبيلية قَالَ أَنْشدني الْحفِيد أَبُو بكر بن زهر لنَفسِهِ فِي آخر عمره :

(إِنِّـــي نظـــرت إِلَى الْمرْآة إِذْ جليــت فأنكـــرت مقلتـــاي كلــما رأتــا)
(رَأَيْت فيهَا شييخــا لســت أعرفــهُ وَكنــت أعرف فِيهَا قبل ذَاك فَتى)
(فَقلت أَيْـــن الَّــذي مثواه كَانَ هُنَــا مَتـــى ترحل عَن هَذَا الْمَكَان مَتى)
(فاستجهلتني وَقَالَت لي وَمَا نطقـــت قد كَانَ ذَلِك وَهَذَا بعد ذَاك أَتَـــى)
(هـــون عَلَيْك فَهَذَا لاَ بَقَــاء لَــــهُ أما ترى الْعشب يفنى بَعْدَمَا نبتـا)
(كَانَ الغواني يقلن يَـا أخــــي فقـــد صَــار الغواني يقلن الْيَوْم يَا أبتـــا)

وأنشدني أَيْضا القَاضِي أَبُو مَرْوَان الْبَاجِيّ عَن الْحفِيد بن زهر لَهُ من أَبْيَات :

(أعـــد الحَدِيـــث عَليّ من جنباتــه أَن الحَدِيث عَن الحبيب حبيـــب)

أَبُو مُحَمَّد بن الحفِيد أبي بكر بن زهر

هُوَ أَبُو مُحَمَّد عبد الله بن الْحفِيد أبي بكر مُحَمَّد بن أبي مَرْوَان عبد الْملك بن أبي الْعَلاَء زهر بن أبي مَرْوَان عبد الْملك بن مُحَمَّد بن مَرْوَان بن زهر .

كَانَ جيد الْفطْرَة حسن الرَّأْي جميل الصُّورَة مفرط الذكاء مَحْمُود الطَّرِيقَة محبا للبس الفاخر .

وَكَانَ كثير الاعتناء بصناعة الطِّبّ وَالنَّظَر فِيهَا وَالتَّحْقِيق لمعانيها .

واشتغل على وَالِده وَوَقفه على كثير من أَسْرار علم هَذِه الصِّنَاعَة وعملها .

وَقَرَأَ كتاب النَّبَات لأبي حنيفَة الدينَوَرِي(١) على أَبِيه واتقن مَعْرفَته .

(١) أبو حنيفة أو أبو حنيفة الدِينَوَري أو أبو حنيفة أحمد بن داود الدِينَوَري (نسبة إلى الدِينَوَر وهي بين همدان وكرمنشاه في إيران) عالم مسلم من أصل كردي والملقب بشيخ علماء النبات ، ألف كتاب النبات الذي رتب فيه النباتات على حروف المعجم ، واهتم بكل ما قيل فيها نثرا وشعرا حتى أواخر القرن الثالث الهجري . كان منهجه في تأليف كتابه يعتمد على وصف بضع مئات من النباتات =

وَكَانَ الخْلِيفَة أَبُو عبد الله مُحَمَّد النَّاصِر بن الْمَنْصُور أبي يَعْقُوب يرى لَهُ كثيرا ويحترمه وَيعرف مقْدَار علمه وبيتوتته .

وحَدث القَاضِي أَبُو مَرْوَان الْبَاجِيّ قَالَ لما توجه أَبُو مُحَمَّد عبد الله بن الْحفِيد إِلَى الحضرة خرج مِنْهُ فِيمَا اشْتَرَاهُ لسفره وَنَفَقَته فِي الطَّرِيق نَحْو عشرَة آلَاف دِينَار .

قَالَ وَلما اجْتمع بالخليفة النَّاصِر بالمهدية لما فتحهَا النَّاصِر خدمه على مَا جرت بِهِ الْعَادة وَقَالَ لَهُ إِنَّنِي يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ بِحَمْد الله بِكُل خير من إنعامكم وإحسانكم عَليّ وعَلى آبَائِي وَقد وصل إِلَيّ مِمَّا كَانَ بيد أبي من إحسانكم مَا يغنيني مُدَّة حَيَاتِي وَأَكْثر وَإِنَّمَا أتيت لأكون فِي الْخدمَة كَمَا كَانَ أبي وَأَن اجْلِسْ فِي الْموضع الَّذِي كَانَ يجلس فِيهِ بَين يَدي أَمِير الْمُؤمنِينَ .

فَأكْرمه النَّاصِر إِكْرَاما كثيرا وَأطلق إِلَيْهِ من الْأَمْوَال وَالنعَم مَا يفوق الْوَصْف .

وَكَانَ مَجْلِسه إِذا حضر قَرِيبا مِنْهُ فِي الْموضع الَّذِي كَانَ يجلس فِيهِ وَالِده الْحفِيد فَكَانَ يجلس إِلَى جَانب الْخَلِيفَة النَّاصِر الْخَطِيب أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن الْحسن بن أبي يُوسُف حجاج القَاضِي وَكَانَ يجلس تلوه القَاضِي الشريف أَبُو عبد الله الْحُسَيْنِي وَكَانَ يجلس تلوه أَبُو مُحَمَّد عبد الله بن الْحفِيد أَبُو بكر بن زهر وَكَانَ يجلس إِلَى جَانبه أَبُو مُوسَى عِيسَى بن عبد الْعَزِيز الْجُزُولِيّ صَاحب الْمُقدمَة الْمَشْهُورَة فِي النَّحْو الْمَعْرُوفَة بالجزولية .

وَكَانَ هَذَا فِي النَّحْو يشْتَغل عَلَيْهِ أَبُو مُحَمَّد عبد الله بن الْحفِيد وَيجْلس بَين يَدَيْهِ ويتعلم مِنْهُ .

وَكَانَ مولد أبي مُحَمَّد عبد الله بن الْحفِيد أبي بكر فِي سنة سبع وَسبعين وَخَمْسمِائة بِمَدِينَة أشبيلية .

وَتُوفِّي رَحمَه الله مسموما فِي سنة اثْنَتَيْنِ وستمِائَة فِي مَدِينَة سلا فِي الْجِهَة الْمُسَمَّاة برباط الْفَتْح وَدفن بهَا .

وَكَانَ مُتَوَجها إِلَى مراكش فاخترمه الْأَجَل دونهَا ثمَّ حمل من الْموضع الَّذِي دفن

= التي رآها بنفسه ، أو سمع عنها من الأعراب الثقات ، وأضاف الدينوري إلى ما نقل عن زياسقوريذوس العالم الإغريقي الذي اشتهر بمعرفته بالنباتات الطبية إضافات أساسية ، وأصبح بذلك عمدة الأطباء والعشابين ، ونقلت عنه أكبر كتب الصيدلة كمفردات الأدوية لابن البيطار . توفي سنة ٢٨٢ هـ /٨٩٥م .

فِيهِ إِلَى أشبيلية وَدفن عِنْد آبَائِهِ بأشبيلية خَارج بَاب الْفَتْح فَكَانَت مُدَّة حَيَاته خمْسا وَعشْرين سنة .

وَمن أعجب مَا حدث القَاضِي أَبُو مَرْوَان الْبَاجِيّ عَنهُ قَالَ كنت يَوْمًا عِنْده وَإِذا بِهِ قد قَالَ لي إِنَّنِي رَأَيْت البارحة فِي النّوم أُخْتِي وَكَانَت أُخْته قد مَاتَت قبله قَالَ وكأنّي قلت لَهَا يَا أُخْتِي بِاللَّه عرفيني كم يكون عمري فَقَالَت لي طابيتين وَنصفا والطابية هِيَ خَشَبَة للْبِنَاء مَعْرُوفَة فِي الْمغرب بِهَذَا الاسْم طولهَا عشرَة أشبار فَقلت لَهَا أَنا أَقُول لَك جد وَأَنت تجيبيني بالهزء فَقَالَت لاَ وَالله مَا قلت لَك إِلاَّ جدا وَإِنَّمَا أَنْت مَا فهمت .

أَلَيْسَ الطابية عشرَة أشبار والطابيتين وَنصفا خَمْسَة وَعشْرُونَ يكون عمرك خمْسا وَعشْرين سنة .

قَالَ القَاضِي أَبُو مَرْوَان فَلَمَّا قصّ عَليّ هَذِه الرُّؤْيَا قلت لَهُ لاَ تتوهم من هَذَا فلَعَلَّهُ من أضغاث أَحْلَام .

قَالَ وَلم تكمل تِلْكَ السّنة إِلاَّ وَقد مَاتَ فَكَانَ عمره كَمَا قيل لَهُ خمْسا وَعشْرين سنة لاَ أَزِيد وَلاَ أنقص وَخلف وَلدين كل مِنْهُمَا فَاضل فِي نَفسه كريم فِي جنسه .

أَحدهمَا يُسمى أَبَا مَرْوَان عبد الْملك وَالْآخر أَبَا الْعَلاَء مُحَمَّد والأصغر مِنْهُمَا وَهُوَ أَبُو الْعَلاَء معتن بصناعة الطِّبّ وَله نظر جيد فِي كتب جالنوس .

وَكَانَ مقامهما فِي أشبيلية .

أَبُو جَعْفَر بن هَارُون الترجالي

من أَعْيَان أهل أشبيلية وَكَانَ محققا للعلوم الْحكمِيَّة متقنا لَهَا معتنيا بكتب أرسطوطاليس وَغَيره من الْحُكَمَاء الْمُتَقَدِّمين فَاضلا فِي صناعَة الطِّبّ متميزا فِيهَا خَبِيرا بأصولها وفروعها حسن المعالجة مَحْمُود الطَّرِيقَة .

وخدم لأبي يَعْقُوب وَالِد الْمَنْصُور .

وَكَانَ من طلبة الْفَقِيه أبي بكر بن الْعَرَبِيّ[1] لاَزمه مُدَّة واشتغل عَلَيْهِ بِعلم الحَدِيث .

---

(١) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري ، المشهور بالقاضي أبو بكر بن العربي الإشبيلي المالكي الحافظ عالم أهل الأندلس ومسندهم ، وهو غير محي الدين بن عربي الصوفي - من حفاظ الحديث .

وَكَـانَ أَبُو جَعْفَـر بن هَارُون يروي الحَـديث وَهُوَ شـيخ أبي الْوَلِيـد بن رشـد فِي التعاليم والطب وَأَصله من ترجالة من ثغور الأندلس .

وَهِي الَّتِي أَصَابَهَا الْمَنْصُور خَالِيَة وهرب أَهلهَا وعمرها الْمُسلمُونَ .

وَكَانَ أَبُو جَعْفَر هَارُون أَيْضا عَالما بصناعة الْكحل وَله آثَار فاضلة فِي المداواة .

حَدث القَاضِي أَبُو مَرْوَان مُحَمَّد بن أَحْمد بن عبد الْملك اللَّخْمِيّ ثمَّ الْبَاجِيّ أَن أَخَاهُ القَاضِي أَبَا عبد الله مُحَمَّد بن أَحْمد لما كَانَ صَغِيرا أصَاب عينه عود واخترق السوَاد حَتَّى أَنه يئس لَهُ من الْبُرْء فاستدعى أَبوهُ أَبَا جَعْفَر بن هَارُون وَأرَاهُ عين وَلَده وَقَالَ لَهُ أَنا أدفَع لَك ثلاثمائة دينَار وتعالجها .

فَـقَـالَ وَالله مَـا حَـاجَـة إِلَى هَذَا الَّذِي ذكـرته وَإِنَّمَـا أداويه وَيصْلح إِن شَـاءَ الله تَعَالَى .

وَشـرع فِي مـداواته إِلَى أَن صلحت عـينه وأبصـر بهَـا وَأصَـاب ابْن هَارُون خـدر وَضعف فِي أَعْضَائِهِ فالتزم دَاره بأشبيلية وَكَانَ يطب النَّاس وَتُوفِّي بأشبيلية .

أَبُو الْوَلِيد بن رشد

هُوَ القَاضِي أَبُو الْوَلِيد مُحَمَّد بن أَحْمد بن مُحَمَّد بن رشد مولده ومنشؤه بقرطبة مَشْهُور بِالْفَضْلِ معتن بتحصيل الْعُلُوم أوحد فِي علم الْفِقْه وَالْخلاف واشتغل على الْفَقِيه الْحَافِظ أبي مُحَمَّد بن رزق .

وَكَانَ أَيْضا متميزا فِي علم الطِّبّ وَهُوَ جيد التصنيف حسن الْمعَانِي

وَله فِي الطِّبّ كتاب الكليات وَقد أجَاد فِي تأليفه .

وَكَانَ بَينه وَبَين أبي مَرْوَان بن زهر مَوَدَّة .

وَلما ألف كتَابه هَذَا فِي الْأُمُور الْكُلية قصد من ابْن زهر أَن يؤلف كتابا فِي الْأُمُور الْجُزْئِيَّة لتَكون جملَة كتابيهما ككتاب كَامِل فِي صناعَة الطِّبّ .

وَلذَلِك يَقُول ابْن رشد فِي آخر كتَابه مَا هَذَا نَصه قَالَ فَهَذَا هُوَ القَوْل فِي معالجة جَمِيع أَصْنَاف الْأَمْرَاض بأوجز مَا أمكننا وأبينه وَقد بَقِي علينا من هَذَا الْجُزْء القَوْل فِي شفَاء عرض عرض من الْأَعْرَاض الدَّاخلَة على عُضْو عُضْو من الْأَعْضَاء .

وَهَذَا وَأَن لم يكن ضَرُورِيًّا لِأَنَّهُ منطو بِالْقُوَّةِ فِيمَا سلف من الْأَقَاوِيل الْكُلية فَفِيهِ تتميم مَا وارتياض لأَنا ننزل فِيهَا إِلَى علاجات الْأَمْرَاض بِحَسب عُضْو عُضْو وَهِي الطَّرِيقَة الَّتِي سلكها أَصْحَاب الكنانيش حَتَّى نجمع فِي أقاويلنا هَذِه إِلَى الْأَشْيَاء

الْكُلية الأُمُور الجُزْئِيَّة .

فَإِن هَذه الصِّنَاعَة أَحَق صناعَة ينزل فِيهَا إِلَى الأُمُور الجُزْئِيَّة مَا أمكن إِلاَّ أَنا نؤخر هَذَا إِلَى وَقت نَكُون فِيه أَشد فراغا لعنايتنا فِي هَذَا الْوَقْت بمَا يهم من غير ذَلِك فَمن وَقع لَهُ هَذَا الْكتاب دون هَذَا الجُزْء وَأحب أَن ينظر بعد ذَلِك إِلَى الكنانيش فأوفق الكنانيش لَهُ الْكتاب الملقب بالتيسير الَّذي أَلفه فِي زَمَاننَا هَذَا أَبُو مَرْوَان بن زهر وَهَذَا الْكتاب سَأَلته أنا إِيَّاه وانتسخته فَكَانَ ذَلِك سَبِيلا إِلَى خُرُوجه وَهُوَ كَمَا قُلْنَا كتاب الأَقَاوِيل الجُزْئِيَّة الَّتِي قلت فيه شَدِيدَة المُطَابقَة للأقاويل الْكُلية إِلاَّ أَنه مزج هُنَالك مَعَ العلاج العلامات وَإِعْطَاء الأَسْبَاب على عَادَة أَصْحَاب الكنانيش وَلاَ حَاجَة لمن يقْرَأ كتَابنَا هَذَا إِلَى ذَلِك بل يَكْفيه من ذَلك مُجَرّد العلاج فَقَط .

وَبالجُمْلَة من تحصل لَهُ مَا كتبناه من الأَقَاوِيل الْكُلية أمكنه أَن يقف على الصَّوَاب وَالخَطَأ من مداواة أَصْحَاب الكنانيش فِي تَفْسِير العلاج والتركيب .

وحَدث القَاضِي أَبُو مَرْوَان الْبَاجِيّ قَالَ كَانَ القَاضِي أَبُو الْوَلِيد بن رشد حسن الرَّأْي ذكيا رث البزة قوي النَّفس وَكَانَ قد اشْتغل بالتعاليم وبالطب على أبي جَعْفَر بن هَارُون ولازمه مُدَّة وَأخذ عَنهُ كثيرا من الْعُلُوم الْحكمِيَّة .

وَكَانَ ابْن رشد قد قضى مُدَّة فِي أشبيلية قبل قرطبة وَكَانَ مكينا عنْد الْمَنْصُور وجيها فِي دولته وَكَذَلِكَ أَيْضا كَانَ وَلَده النَّاصِر يحترمه كثيرا قَالَ وَلما كَانَ الْمَنْصُور بقرطبة وَهُوَ مُتَوَجّه إِلَى غَزْو ألفنس وَذَلِكَ فِي عَام أحد وَتسْعين وَخَمْسمائة استدعى أَبَا الْوَلِيد بن رشد فَلَمَّا حضر عنْده احترمه كثيرا وقربه إِلَيْه حَتَّى تعدى بِهِ الْموضع الَّذي كَانَ يجلس فِيه أَبُو مُحَمَّد عبد الْوَاحد بن الشَّيْخ حَفْص الهنتاتي صَاحب عبد الْمُؤمن وَهُوَ الثَّالث أَو الرَّابع من الْعشْرَة وَكَانَ هَذَا أَبُو مُحَمَّد عبد الْوَاحد قد صاهره الْمَنْصُور وزوجه بابنته لعظم مَنْزِلَته عنْده ورزق عبد الْوَاحد منْهَا ابْنا اسْمه عَليّ وَهُوَ الْآن صَاحب إفريقية فَلَمَّا قرب الْمَنْصُور ابْن رشد وَأَجْلسهُ إِلَى جَانبه حادثه ثمَّ خرج من عنْده وَجَمَاعَة الطلبه وَكثير من أَصْحَابه ينتظرونه فهنؤوه بمَنْزِلَته عنْد الْمَنْصُور وإقباله عَلَيْه فَقَالَ وَالله إن هَذَا لَيْسَ ممَّا يسْتَوْجب الهناء به فَإِن أَمِير الْمُؤمنينَ قد قربني دفْعَة إِلَى أَكثر ممَّا كنت أؤمله فِيه أَو يصل رجائي إِلَيْه وَكَانَ جمَاعَة من أعدائه قد شيعوا بِأَن أَمِير الْمُؤمنينَ قد أَمر بقَتْله فَلَمَّا خرج سالما أَمر بعض خدمه أَن يمْضِي إِلَى بَيته وَيَقُول لَهُم إِن يصنعوا لَهُ قطا وفراخ حمام مسلوقة إِلَى مَتى يَأْتِي إِلَيْهِم وَإِنَّمَا كَانَ غَرَضه بذلك تطييب قُلُوبهم بعافيته ثمَّ أَن الْمَنْصُور فِيمَا بعد نقم على أبي

الْوَلِيد بن رشد وَأمر بِأَن يُقيم فِي اليسانة وَهِي بلد قريب من قرطبة وَكَانَت أَولا للْيَهُود وَأَن لاَ يخرج عَنْهَا .

ونقم أَيْضا على جمَاعَة أخر من الْفُضَلاَء الْأَعْيَان وَأمر أَن يَكُونُوا فِي مَوَاضِع أخر وَأظْهر أَنه فعل بهم ذَلِك بِسَبَب مَا يَدعِي فِيهم أَنهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الْأَوَائِل .

وَهَؤُلاَء الْجَمَاعَة هم أَبُو الْوَلِيد بن رشد وَأَبُو جَعْفَر الذَّهَبِيّ والفقيه أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم قَاضِي بجاية وَأَبُو الرّبيع الكفيف وَأَبُو الْعَبَّاس الْحَافِظ الشَّاعِر القرابي .

وبقوا مُدَّة ثمَّ أَن جمَاعَة من الْأَعْيَان بأشبيلية شهدُوا لاِبْنِ رشد أَنه على غير مَا نسب إِلَيْهِ فَرضِي الْمَنْصُور عَنهُ وَعَن سَائِر الْجَمَاعَة وَذَلِكَ فِي سنة خمس وَتِسْعين وَخَمْسمائة .

وَجعل أَبَا جَعْفَر الذَّهَبِيّ مزوارا للطلبة ومزوارا للأطباء .

وَكَانَ يصفه الْمَنْصُور ويشكره وَيَقُول إِن أَبَا جَعْفَر الذَّهَبِيّ كالذهب الإبريز الَّذِي لم يَزْدَدْ فِي السبك إِلاَّ جودة .

قَالَ القَاضِي أَبُو مَرْوَان وَمِمَّا كَانَ فِي قلب الْمَنْصُور من ابْن رشد أَنه كَانَ مَتى حضر مجْلِس الْمَنْصُور وَتكلم مَعَه أَو بحث عِنْده فِي شَيْء من الْعلم يُخَاطب الْمَنْصُور بِأَن يَقُول تسمع يَا أخي .

وَأَيْضًا فَإِن ابْن رشد كَانَ قد صنف كتابا فِي الْحَيَوَان وَذكر فِيهِ أَنْوَاع الْحَيَوَان ونعت كل وَاحِد مِنْهَا .

فَلَمَّا ذكر الزرافة وصفهَا ثمَّ قَالَ وَقد رَأَيْت الزرافة عِنْد ملك البربر يَعْنِي الْمَنْصُور فَلَمَّا بلغ ذَلِك الْمَنْصُور صَعب عَلَيْهِ وَكَانَ أحد الْأَسْبَاب الْمُوجبَة فِي أَنه نقم على ابْن رشد وأبعده .

وَيُقَال إِنَّه مِمَّا اعتذر بِهِ ابْن رشد أَنه قَالَ إِنَّمَا قلت ملك البرين وَإِنَّمَا تصحفت على الْقَارئ فَقَالَ ملك البربر .

وَكَانَت وَفَاة القَاضِي أبي الْوَلِيد بن رشد رَحمَه الله فِي مراكش أول سنة خمس وَتِسْعين وَخَمْسمائة وَذَلِكَ فِي أول دولة النَّاصِر وَكَانَ ابْن رشد قد عمر عمرا طَويلا وَخلف ولدا طَبِيبا عَالما بالصناعة يُقَال لَهُ أَبُو مُحَمَّد عبد الله .

وَخلف أَيْضا أَوْلاَدًا قد اشتغلوا بالفقه واستخدموا فِي قَضَاء الكور .

وَمن كَلاَم أبي الْوَلِيد بن رشد قَالَ من اشْتغل بِعلم التشريح ازْدَادَ أيمانا بِاللَّه .

أَبُو الحْجَّاج يُوسُف بن موراطير

من شَرْقي الأندلس وموراطير قَرْيَة قريبَة من بلنسية .

كَانَ فَاضلا فِي صناعَة الطِّبّ خَبِيرا بهَا مزاولا لأعمالها مَحْمُود الطَّرِيقَة حسن الرَّأْي عَالما بالأمور الشَّرْعِيَّة وَسمع الحَدِيث وَقَرَأَ الْمُدَوَّنَة .

وَكَانَ أديبا شَاعِرًا محبا للمجون كثير النادرة .

حَدث القَاضِي أَبُو مَرْوَان الْبَاجِيّ قَالَ كُنَّا فِي تونس مَعَ النَّاصِر وَكَانَ فِي الْعَسْكَر غلاء وَقل وجود الشّعير فَعمل أَبُو الحْجَّاج بن موراطير موشحا فِي النَّاصِر وأتى فِي ضمنه تَغْيِير بَيت عمله الحْفِيد أَبُو بكر بن زهر فِي بضع موشحاته وَذَلِكَ أَن ابْن زهر قَالَ :

(مَا الْعِيد فِي حلَّة وطاق وشم طيب   وَإِنَّمَا الْعِيد فِي التلاقي مَعَ الحبيب)

وَكَانَ مفننا وخدم بصناعة الطِّبّ الْمَنْصُور وَكَانَ مكينا عِنْده وجيها فِي دولته .

وَكَانَ الْمَنْصُور فِي عَام ثَمَانِينَ وَخَمْسمائة حمله مَعَه لما ولي الخْلَافَة وَكَانَ ابْن غلندو صَاحب كتب كَثِيرَة وَيكْتب خطين أندلسيين وَتُوفِّي بمراكش وَدفن بهَا .

عَليّ بن رضوَانة

هُوَ أَبُو الحْسن عَليّ بن رضوَان بن عَليّ بن جَعْفَر وَكَانَ مولده ومنشؤه بِمصْر وَبهَا تعلم الطِّبّ .

وَقد ذكر عَليّ بن رضوَان فِي سيرته من كَيْفيَّة تعلمه صناعَة الطِّبّ وأحواله مَا هَذَا نَصه .

قَالَ إِنَّه لما كَانَ يَنْبَغِي لكل إِنْسَان أَن ينتحل أليق الصَّنَائِع بِهِ وأوفقها لَهُ وَكَانَت صناعَة الطِّبّ تتاخم الفلسفة طَاعَة لله عز وَجل وَكَانَت دلالات النُّجُوم فِي مولدِي تدل على أَن صناعتي الطِّبّ .

وَكَانَ الْعَيْش عِنْدِي فِي الْفَضِيلَة ألذ من كل عَيْش أخذت فِي تعلم صناعَة الطِّبّ وَأَنا ابْن خمس عشرَة سنة وَالأجود أَن أقتص إِلَيْك أَمْرِي كُله ولدت بِأَرْض مصر فِي عرض ثَلَاثِينَ دَرَجَة وَطول خمس وَخمسين دَرَجَة والطالع بزيج يحيى بن أبي مَنْصُور الحْمل هـ لَو وعاشرة الجدي هـ كح ومواضع الْكَوَاكِب الشَّمْس بالدلو اه

لب وَالْقَمَر بالعقرب ح يه وَعرضه جنوب ح يز وزحل بِالْقَوْس كط وَلِلْمُشْتَرِي بالجدي هـ كح والمريخ بالدلو كا مح والزهرة بِالْقَوْس كد ك وَعُطَارِد بالدلو يط وَسَهْم السَّعَادَة بالجدي د هـ وجزء الاسْتِقْبَال الْمُتَقَدّم بالسرطان كب ي والجوزهر بِالْقَوْس يز يَا والذنب بالجوزاء يز مَا والنسر الْوَاقِع بالجدي اكب والشعرى العبور بالسرطان يب .

فَلَمَّا بلغت السّنة السَّادِسَة أسلمت نَفسِي فِي التَّعْلِيم وَلما بلغت السّنة الْعَاشِرَة انْتَقَلت إِلَى الْمَدِينَة الْعُظْمَى واجهدت نَفسِي فِي التَّعْلِيم

وَلما أَقمت أَربع عشرَة سنة أخذت فِي تعلم الطِّبّ والفلسفة وَلم يكن لي مَال انفق مِنْهُ فَلذَلِك عرض لي فِي التَّعَلُّم صعوبة ومشقة .

فَكنت مرّة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم وَمرَّة بصناعة الطِّبّ وَمرَّة بالتعليم .

وَلم أزل كَذَلِك وَأَنا فِي غَايَة الاجْتِهَاد فِي التَّعْلِيم إِلَى السّنة الثَّانِيَة وَالثَّلَاثِينَ فَإِنِّي اشتهرت فِيهَا بالطب وكفاني مَا كنت أكسبه بالطب بل وَكَانَ يفضل عني إِلَى وقتي هَذَا وَهُوَ آخر السّنة التَّاسِعَة وَالْخمسين .

وكسبت مِمَّا فضل عَن نفقتي أملاكا فِي هَذِه الْمَدِينَة إِن كتب الله عَلَيْهَا السَّلامَة وَبَلغنِي سنّ الشيخوخة كفاني فِي النَّفَقَة عَلَيْهَا .

وَكنت مُنْذُ السّنة الثَّانِيَة وَالثَّلَاثِينَ إِلَى يومي هَذَا أعمل تذكرة لي وأغيرها فِي كل سنة إِلَى أَن قررتها على هَذَا التَّقْرِير الَّذِي أستقبل بِهِ السّنة السِّتين من ذَلِك .

أتصرف فِي كل يَوْم فِي صناعتي بِمِقْدَار مَا يُغني وَمن الرياضة الَّتِي تحفظ صِحَة الْبدن وأغتذي بعد الاسْتِرَاحَة من الرياضة غذَاء أقصد بِهِ حفظ الصِّحَّة وأجتهد فِي حَال تصرفي فِي التَّوَاضُع والمداراة وغياث الملهوف وكشف كربَة المكروب وإسعاف الْمُحْتَاج .

وَأَجْعَل قصدي فِي كل ذَلِك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة .

وَلاَ بُد أَن يحصل مَعَ ذَلِك كسب مَا ينْفق فأنفق مِنْهُ على صِحَة بدني وَعمارَة منزلي نَفَقَة لاَ تبلغ التبذير وَلاَ تنحط التقتير وَتلْزم الْحَال الْوُسْطَى بِقدر مَا يُوجبهُ التعقل فِي كل وَقت واتفقد آلَات منزلي فَمَا يحْتَاج إِلَى إصْلَاح صلحته وَمَا يحْتَاج إِلَى بدل بدلته وَأعد فِي منزلي مَا يحْتَاج إِلَيْهِ من الطَّعَام وَالشرَاب وَالْعَسَل وَالزَّيْت والحطب وَمَا يحْتَاج إِلَيْهِ من الثِّيَاب فَمَا فضل بعد ذَلِك كُله صرفته فِي وُجُوه الْجَمِيل وَالْمَنَافِع مثل إِعْطَاء الْأَهْل والأخوان وَالْجِيرَان وَعمارَة الْمنزل .

وَمَا اجْتمع من غلَّة أملاكي أدخرته لعمارتها ومرمتها ولوقت الْحَاجة إِلَى مثله .

وَإِذا هَمَمْت لتجديد أَمر مثل تِجَارَة أَو بِنَاء أَو غير ذَلِك فرضته مَطْلُوبا وحللته إِلَى مَوْضُوعَاته ولوازمها .

فَإِن وجدته من الْممكن الأَكْثَر بادرت إِلَيْهِ وَإِن وجدته من الْممكن الْقَلِيل أطرحته .

وأتعرف مَا يمكنني تَعْرِيفه من الأُمُور المزمعة وآخذ لَهُ أهبته .

وَأَجْعَل ثِيَابِي مزينة بشعار الأخيار والنظافة وَطيب الرَّائِحَة .

وألزم الصمت وكف اللِّسَان عَن معايب النَّاس .

وأجتهد أَن لاَ أَتكَلّم إِلاَّ بِمَا يَنْبَغِي .

وأتوقى الأَيْمَان ومثالب الآراء فأحذر الْعجب وَحب الْغَلَبَة وأطرح الْهم الحرصي والاغتمام .

وَإِن دهمني أَمر فادح أسلمت فِيهِ إِلَى الله تَعَالَى وقابلته بِمَا يُوجِبهُ التعقل من غير جبن وَلاَ تهور .

وَمن عاملته عاملته يدا بيد لاَ أَسف وَلاَ أتسلف إِلاَّ أَن أضطر لذَلِك .

وَإِن طلب مني أحد سلفا وهبت مِنْهُ وَلم أرد مِنْهُ عوضا وَمَا بَقِي من يومي بعد فراغي من رياضتي صرفته فِي عبَادَة الله سُبْحَانَهُ بِأَن أتنزه بِالنّظرِ فِي ملكوت السَّمَوَات وَالأَرْض وتمجيد محكمها وأتدبر مقَالَة أرسطاطاليس فِي التَّدْبِير وآخذ نَفسِي بِلُزُوم وصاياها بالغدة والعشي وأتفقد فِي وَقت خلوتي مَا سلف فِي يومي من أفعالي وانفعالاتي .

فَمَا كَانَ خيرا أَو جميلا أَو نَافِعًا سررت بِهِ وَمَا كَانَ شرا أَو قبيحا أَو ضارا اغتممت به ووافقت نَفسِي بِأَن لاَ أَعُود إِلَى مثله .

قَالَ وَأما الأَشْيَاء الَّتِي أتنزه فِيهَا فلأني فرضت نزهتي ذكر الله عز وَجل وتمجيده بِالنّظرِ فِي ملكوت السَّمَاء وَالأَرْض .

وَكَانَ قد كتب القدماء والعارفون فِي ذَلِك كتبا كَثِيرَة رَأَيْت أَن أقتصر مِنْهَا على مَا أنصه من ذَلِك خَمْسَة كتب من كتب الأَدَب وَعشرَة كتب من كتب الشَّرْع وَكتب أبقراط وجالينوس فِي صناعَة الطِّبّ وَمَا جانسها مثل كتاب الحشائش لديسقوريدس وَكتب روفس وأريباسيوس وبولس وَكتاب الْحَاوِي للرازي وَمن كتب الفلاحة والصيدلة أَرْبَعَة كتب وَمن كتب التعاليم المجسطي ومداخله وَمَا أنتفع بِهِ فِيهِ والمربعة لبطلميوس وَمن كتب العارفين كتب أفلاطن وأرسطوطاليس والإسكندر وثامطيوس

وَمُحَمّد الفارابي وَمَا أنتفع بِهِ فِيهَا .

وَمَا سوى ذَلِك إِمَّا أبيعه بِأَيّ ثمن اتّفق وَإِمَّا أَن أخزنه فِي صناديق .

وَبيعه أَجود من خزنه .

افرائيم بَين الزفان

هُوَ أَبُو كثير افرائيم بن الْحسن بن إِسْحَق بن إِبْرَاهِيم بن يَعْقُوب .

إسرائيلي الْمَذْهَب وَهُوَ من الْأَطِبَّاء الْمَشْهُورين بديار مصر وخدم الْخُلَفَاء الَّذين كَانَ فِي زمانهم وَحصل من جهتهم من الْأَمْوَال وَالنعَم شَيْئا كثيرا جدا .

وَكَانَ قد قَرَأَ صناعَة الطِّبّ على أبي الْحسن عَليّ بن رضوَان وَهُوَ من أجل تلامذته وَكَانَت لَهُ همة عالية فِي تَحْصِيل الْكتب وَفِي استنساخها حَتَّى كَانَت عِنْده خَزَائِن كَثِيرَة من الْكتب الطبية وَغَيرهَا .

وَكَانَ أبدا عِنْده النساخ يَكْتُبُونَ وَلَهُم مَا يقوم بكفايتهم مِنْهُ .

وَمن جُمْلَتهمْ مُحَمَّد بن سعيد بن هِشَام الحجري وَهُوَ الْمَعْرُوف بِابْن ملساقه وَوجدت بِخَط هَذَا عدَّة كتب قد كتبهَا لافرائيم وَعَلَيْهَا خطّ افرائيم .

وَمِما روي أَن رجلا من الْعرَاق كَانَ قد أَتَى إِلَى الديار المصرية ليَشْتَرِي كتبا وَيتَوَجَّهُ بهَا وَأَنه اجْتمع مَعَ افرائيم وَاتفقَ الْحَال فِيمَا بَينهمَا أَن بَاعه افرائيم من الْكتب الَّتِي عِنْده عشرَة آلَاف مُجَلد وَكَانَ ذَلِك فِي أَيَّام ولَايَة الْأَفْضَل ابْن أَمِير الجيوش فَلَمَّا سمع بذلك أَرَادَ أَن تلْكَ الْكتب تبقى فِي المصرية وَلَا تنْتَقل إِلَى مَوضِع آخر فَبعث إِلَى افرائيم من عِنْده بجملة المَال الَّذِي كَانَ قد اتّفق تثمينه بَين افرائيم والعراقي ونقلت الْكتب إِلَى خزانَة الْأَفْضَل وكتبت عَلَيْهَا أَلْقَابه وَلِهَذَا أنني قد وجدت كتبا كَثِيرَة من الْكتب الطبية وَغَيرهَا عَلَيْهَا اسْم افرائيم وألقاب الْأَفْضَل أَيْضا .

وَخلف افرائيم من الْكتب مَا يزِيد على عشْرين ألف مُجَلد وَمن الْأَمْوَال النعم شَيْئا كثيرا جدا .

ولافرائيم بن الزفان من الْكتب تعاليق ومجريات جعلهَا على جِهَة الكناش وَوجدت هَذَا الْكتاب بِخَطِّهِ وَقد استقصى فِيهِ ذكر الْأَمْرَاض ومداواتها وَقد ذكر فِي أَوله مَا هَذَا نَصه قَالَ أَقُول وَأَنا افرائيم إِنَّنِي جعلت هَذَا الْكتاب تذكرة على طَرِيق الْمَجْمُوع لَا على جِهَة التصنيف احْتِيَاطًا على من يعالج من السَّهْو .

كتاب التَّذْكِرَة الطبية فِي مصلحَة الْأَحْوَال الْبَدَنِيَّة ألفها لنصير الدولة أبي عَليّ

الْحُسَيْن بن أبي عَليّ الْحسن بن حمدَان لما أَرَادَ الانْفصَال عَن مصر والتوجه إِلَى ثغر الإسْكَنْدَريَّة والبحيرة وَتلك الأَعْمَال مقَالَة فِي التَّقْرِير القياسي على أَن البلغم يكثر تولده فِي الصَّيف وَالدَّم والمرار الأَصْفَر فِي الشتَاء .

ابْن الْعين زَرْبِي

هُوَ الشَّيْخ موفق الدّين أَبُو نصر عدنان بن نصر بن مَنْصُور من أهل عين زربة وَأقَام بِبَغْدَاد مُدَّة واشتغل بصناعة الطِّبّ بالعلوم الْحكمِيَّة وَمهر فِيهَا وخصوصا فِي علم النُّجُوم .

ثمَّ بعد ذَلِك انْتقل من بَغْدَاد إِلَى الديار المصرية إِلَى حِين وَفَاته وخدم الْخُلَفَاء المصريين حظي فِي أيامهم وتميز فِي دولتهم وَكَانَ من أجل الْمَشَايِخ وَأَكْثَرهم علما فِي صناعَة الطِّبّ .

وَكَانَت لَهُ فراسة حَسَنَة وإنذارات صائبة فِي معالجاته .

وصنف بديار مصر كتبا كَثِيرَة فِي صناعَة الطِّبّ وَفِي الْمنطق وَفِي غير ذَلِك من الْعُلُوم .

وَكَانَت لَهُ تلاميذ عدَّة يشتغلون عَلَيْه وكل مِنْهُم تميز وبرع فِي الصِّنَاعَة .

وَكَانَ ابْن الْعين زَرْبِي فِي أول أمره إِنَّمَا يتكسب بالتنجيم .

قيل أَن سَبَب اشتهار جده فِي الديار المصرية واتصاله بالخلفاء أَنه ورد من بَغْدَاد رَسُول إِلَى ديار مصر وَكَانَ يعرف ابْن الْعين زَرْبِي بِبَغْدَاد وَمَا هُوَ عَلَيْه من الْفضل والتحصيل والإتقان لكثير من الْعُلُوم فَلَمَّا كَانَ مارا فِي بعض الطّرق بِالْقَاهِرَة وَإِذا به قد وجد ابْن الْعين زَرْبِي جَالسا وَهُوَ يتكسب بالتنجيم فعرفهُ وَسلم عَلَيْه وَبَقِي مُتَعَجِّبا من كَثْرَة تَحْصِيله للعلوم وَكَونه متميزا فِي علم صناعَة الطِّبّ وَهُوَ على تِلْكَ الْحَال وَبَقِي فِي خاطره ذَلِك .

فَلَمَّا اجْتمع بالوزير وتحدثا أجْرى ذكر ابْن الْعين زَرْبِي وَمَا هُوَ عَلَيْه من الْعلم وَالْفضل والتقدم فِي صناعَة الطِّبّ وَغَيرهَا وكونهم لم يعرفوا قدره وَلاَ انْتهى إِلَيْهِم أمره وَإِن الْوَاجِب فِي مثل هَذَا لاَ يهمل فاشتاق الْوَزير إِلَى رُؤْيَته والاجتماع بمشاهدته فَاسْتَحْضر وَسمع كَلاَمه فأعجب به وَاسْتحْسن ممَّا سَمعه مِنْهُ وَتحقّق فَضله ومنزلته فِي الْعلم وأنهى أمره إِلَى الْخَلِيفَة فَأَطْلق لَهُ مَا يَلِيق بِمثلِهِ وَلم تزل أنعامهم تصل إِلَيْهِ ومواهبهم تتوالى عَلَيْهِ .

الشَّيْخ السديد رَئِيس الطِّبّ

هُوَ القَاضِي الأَجَل السديد أَبُو الْمَنْصُور عبد الله بن الشَّيْخ السديد أبي الْحسن عَليّ وَكَانَ لقب القَاضِي أبي الْمَنْصُور شرف الدّين وَإِنَّمَا غلب عَلَيْه لقب أَبيه وَعرف بِهِ وَصَارَ لَهُ علما بِأَن يُقَال الشَّيْخ السديد وَكَانَ عَالما بصناعة الطِّبّ خَبِيرا بأصولها وفروعها جيد المعالجة كثير الدربة حسن الأَعْمَال بِالْيَد .

وخدم الْخُلَفَاء المصريين وحظي فِي أيامهم ونال من جهتهم من الأَمْوَال الوافرة وَالنعَم الجسيمة مَا لم ينله غَيره من سَائِر الأَطِبَّاء الَّذين كَانُوا فِي زَمَانه وَلاَ قَرِيبا مِنْهُ وَكَانَت لَهُ عِنْدهم الْمنزلَة الْعليا والجاه الَّذِي لاَ مزِيد عَلَيْهِ .

وَعمر عمرا طَويلا .

وَكَانَ من بيتوتة صناعَة الطِّبّ .

وَكَانَ أَبوهُ أَيْضا طَبِيبا للخلفاء المصريين مَشْهُورا فِي أيامهم .

حَدث القَاضِي نَفِيس الدّين بن الزبير وَكَانَ قد لحق الشَّيْخ السديد وَقَرَأَ عَلَيْهِ صناعَة الطِّبّ قَالَ قَالَ لي الشَّيْخ السديد رَئِيس الطِّبّ إِن أول من مثلت بَين يَدَيْهِ من الْخُلَفَاء وأنعم عَليّ الآمر بِأَحْكَام الله وَذَلِكَ أَن أبي كَانَ طَبِيبا فِي خدمته وَكَانَ مكينا عِنْده رفيع الْمنزلَة فِي أَيَّامه .

قَالَ وَكنت صَبيا فِي ذَلِك الْوَقْت فَكَانَ أبي يهب لي فِي كل يَوْم دَرَاهِم وأجلس عِنْد بَاب الدَّار الَّتِي لنا واقصد جمَاعَة فِي كل نَهَار حَتَّى تمرنت وَصَارَت لي دربة جَيِّدَة فِي الفصد وَكنت قد شدوت شَيْئا من صناعَة الطِّبّ فذكرني أبي عِنْد الآمِر وَأخْبرهُ بِمَا أَنا عَلَيْهِ وإنني أعرف صناعَة الفصد ولي دربة جَيِّدَة بهَا .

فاستدعاني فتوجهت إِلَيْه وَأَنا بِحَالَة جميلَة من الملبوس الفاخر والمركوب الفاره المتحلي بِمثل الطوق الذَّهَب وَغَيره .

وإنني لما دخلت إِلَيْهِ الْقصر مشيت مَعَ أبي حَتَّى صرنا بَين يَدَيْهِ فَقبلت الأَرْض وخدمت .

فَقَالَ لي أفصد هَذَا الأُسْتَاذ وَكَانَ وَاقِفًا بَين يَدَيْهِ .

فَقلت السّمع وَالطَّاعَة .

ثمَّ جيئ بطشت فضَّة وشددت عضده وَكَانَت لَهُ عروق بَيِّنَة الظُّهُور ففصدته وربطت مَوضع الفصادة .

فَقَالَ لي أَحْسَنت وَأمر لي بأنعام كَثِيرَة وخلع فاخرة وصرت من ذَلِك الْوَقْت

مترددا إِلَى الْقصر وملازما للْخدمَة .

وَأطلق لي من الجْارِي مَا يقوم بكفايتي على أفضل الأْحْوَال الَّتِي أؤملها وتواترت عَليّ من الهبات والإطلاقات الشَّيْء الْكثير .

وحَدث أسعد الدّين عبد الْعَزِيز بن أبي الْحسن أَن الشَّيْخ السديد حصل لَهُ فِي يَوْم وَاحد من الخُلَفَاء فِي بعض معالجاته لأَحَدهم ثَلاَثُونَ ألف دينَار .

وَقَالَ القَاضِي نَفِيس الدّين بن الزبير عَنهُ أَنه لما طهر وَلَدي الحْافظ لدين الله حصل لَهُ فِي ذَلِك الْوَقْت من المَال نَحْو خمسين ألف دينَار وَأكْثر من ذَلِك سوى مَا كَانَ فِي المْجلس من أواني الذَّهَب وَالْفِضَّة فَإِنَّهَا وهبت جَمِيعهَا لَهُ وَكَانَت لَهُ همة عالية وأنعام عَام .

وحَدث الشَّيْخ رَضِي الدّين الرَّحبِي قَالَ لما وصل المُهَذّب بن النقاش إِلَى الشَّام من بَغْدَاد وَكَانَ فَاضلا فِي صناعَة الطِّبّ أَقَامَ بدمَشْق مُدَّة وَلم يحصل لَهُ بهَا مَا يقوم بكفايته وَسمع بالديار المصرية وأنعام الخُلَفَاء فِيهَا وكرمهم وإحسانهم إِلَى من يقصدهم وَلاَ سِيمَا من أَرْبَاب الْعلم وَالْفضل وتاقت نَفسه إِلَى السّفر وتوجهت أمانيه إِلَى الديار المصرية .

فَلَمَّا وَصلهَا أَقَامَ بهَا أَيَّامًا وَكَانَ قد سمع بالشيخ السديد طَبِيب الخُلَفَاء وَمَا هُوَ عَلَيْهِ من الأفضال وسعة الحْال والأخلاق الجميلة والمروءة العزيزة .

فَمشى إِلَى دَاره وَسلم عَلَيْهِ وعرفه بصناعته وَأَنه إِنَّمَا أَتَى قَاصِدا إِلَيْهِ ومفوضا كل أُمُوره لَدَيْهِ ومغترفا من بَحر علمه ومعترفا بِأَن مهما يصله من جِهَة الخُلَفَاء فَإِنَّمَا هُوَ من بره وَيكون معتدا لَهُ بذلك فِي سَائِر عمره .

فَتَلقاهُ الشَّيْخ السديد بِمَا يَلِيق بِمثلِهِ وأكرمه غَايَة الإِكْرَام .

ثمَّ بعد ذَلِك قَالَ لَهُ وَكم تُؤثر أَن يُطَلق لَك من الجامكية إِذا كنت مُقيما بِالْقَاهِرَةِ فَقَالَ يَا مَوْلاَنَا يَكْفِينِي مهما ترَاهُ وَمَا تَأمر بِهِ .

فَقَالَ لَهُ قل بالجُمْلَة .

فَقَالَ وَالله أَن أطلق لي فِي كل شهر من الجْارِي عشرَة دَنَانِير مصرية فَإِنِّي أَرَاهَا خيرا كثيرا .

فَقَالَ لَهُ لاَ هَذَا الْقدر مَا يقوم بكفايتك على مَا يَنْبَغِي وَأَنا أَقُول لوكيلي إِن يوصلك فِي كل شهر خَمْسَة عشر دينَارا مصرية وقاعة قريبَة مني تسكنها وَهِي بِجَمِيعِ فرشها وطرحها وَجَارِيَة حسناء تكون لَك .

ثمَّ أخرج لَهُ بعد ذَلك خلعة فاخرة ألبسهُ إِيَّاهَا وَأمر الْغُلاَم أَن يَأْتِي لَهُ ببغلة من أَجود دوابه فَقدمهَا لَهُ ثمَّ قَالَ لَهُ هَذَا الْجَارِي يصلك فِي كل شهر وَجَمِيع مَا تحْتَاج إِلَيْهِ من الْكتب وَغَيرهَا فَهُوَ يَأْتِيك على مَا تختاره وَأُرِيد مِنْك أننا لاَ نخلو من الاجْتِمَاع والأنس وَإنَّك لاَ تتطاول إِلَى شَيْء آخر من جِهَة الْخُلَفَاء وَلاَ تَتَرَدَّد إِلَى أحد من أَرْبَاب الدولة .

فَقبل ذَلك مِنْهُ وَلم يزل ابْن النقاش مُقيما فِي الْقَاهِرَة على هَذِه الْحَال إِلَى أَن رَجَعَ إِلَى الشَّام وَأقَام بِدِمَشْق إِلَى حِين وَفَاته .

وَكَانَ الشَّيْخ السديد قد قَرَأَ صناعَة الطِّبّ واشتغل على أبي نصر عدنان بن الْعين زَرْبِي .

وَلم يزل الشَّيْخ السديد مبجلا عِنْد الْخُلَفَاء وأحواله تنمى وحرمته عِنْدهم تتزايد من حِين الآمر بِأَحْكَام الله إِلَى آخر أَيَّام العاضد بِاللَّه وَذَلِكَ أَنه كَانَ وَهُوَ صبي مَعَ أَبِيه فِي خدمَة الآمر بِأَحْكَام الله وَهُوَ أَبُو الْمَنْصُور بن أبي الْقَاسِم أَحْمد المستعلي بِاللَّه بن الْمُسْتَنْصر إِلَى أَن استشهد الآمِر فِي يَوْم الثُّلاَثَاء رَابِع ذِي الْقعدَة من سنة أَربع وَعشْرين وَخَمْسمائة بالجزيرة .

وَكَانَت مُدَّة خلاَفَته ثَمَانِيَة وَعشْرين سنة وَتِسْعَة أشهر وَأَيَّام .

ثمَّ بَقِي فِي خدمَة الْحَافِظ لدين الله وَهُوَ أَبُو الميمون عبد الْمجِيد بن الأْمير أبي الْقَاسِم مُحَمَّد بن الإِمَام الْمُسْتَنْصر بِاللَّه وبويع لِلْحَافِظ يَوْم استشهاد الآمِر وَلم يزل فِي خدمَة الْحَافِظ إِلَى أَن انْتقل فِي الْيَوْم الْخَامِس من جُمَادَى الآْخِرَة من سنة أَربع وَأَرْبَعين وَخَمْسمائة .

ثمَّ خدم بعده للظافر بِأَمْر الله وَهُوَ أَبُو مَنْصُور إِسْمَاعِيل بن الْحَافِظ لدين الله وبويع لَهُ فِي لَيْلَة صباحها الْخَامِس من جُمَادَى الآْخِرَة سنة أَربع وَأَرْبَعين وَخَمْسمائة عِنْد انْتِقَال وَالِده وَلم يزل فِي خدمته إِلَى أَن استشهد الظافر بِأَمْر الله وَذَلِكَ فِي التَّاسِع وَالْعِشْرين من الْمحرم سنة تسع وَأَرْبَعين وَخَمْسمائة .

ثمَّ بعد ذَلِك خدم الفائز بنصر الله وَهُوَ أَبُو الْقَاسِم عِيسَى بن الظافر بِأَمْر الله وبويع لَهُ فِي الثَّلاَثِينَ من الْمحرم سنة تسع وَأَرْبَعين وَخَمْسمائة وَلم يزل فِي خدمته إِلَى أَن انْتقل الفائز بنصر الله فِي سنة وَخَمْسمائة ثمَّ خدم بعده العاضد لدين الله وَهُوَ أَبُو مُحَمَّد عبد الله بن الْمولى بن أبي الْحجَّاج يُوسُف بن الإِمَام الْحَافِظ لدين الله وَلم يزل فِي خدمَة العاضد لدين الله إِلَى أَن انْتقل فِي التَّاسِع من الْمحرم سنة سبع وَسِتِّين

وَخَمْسمائة وَهُوَ آخر الْخُلَفَاء المصريين وخدمهم ونال فِي أيامهم من العطايا السّنيَّة والمنن الوافرة خمس خلفاء الْأمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد .

ثمَّ لما استبد الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين يُوسُف بن أَيُّوب بِالْملكِ فِي الْقَاهِرَة وَاسْتولى على الدولة كَانَ يفتقد الشَّيْخ السديد بالأنعام الْكثير والهبات المتواترة والجامكية السّنيَّة مُدَّة مقامه بِالْقَاهِرَةِ إِلَى أَن توجه إِلَى الشَّام .

وَكَانَ يستطبه وَيعْمل على وَصفَاته وَمَا يُشِير بِهِ أَكثر من بَقِيَّة الْأَطِبَّاء وَلم يزل الشَّيْخ السديد رَئِيسا على سَائِر المتطببين إِلَى حِين وَفَاته .

وَكَانَ يسكن فِي الْقَاهِرَة عِنْد بَاب زويلة فِي دَار قد اعتني بهَا وبولغ فِي تحسينها وَجَرت عَلَيْهِ فِي أَوَاخِر عمره محنة .

وَذَلِكَ أَن دَاره قد احترقت وَذهب لَهُ فِيهَا من الأثاث والآلات والأمتعة شَيْء كثير جدا وَلما تهدم بَعْضهَا من النَّار وَقعت براني كبار وخوابي ممتلئة من الذَّهَب الْمصْرِيّ وتكسرت وتناثر فِيمَا بعد الْحَرِيق وَالْهدم مِنْهَا الذَّهَب إِلَى كل نَاحيَة وَشَاهد النَّاس وَبَعضه قد انسبك من النَّار وَكَانَ مِقْدَار ذَلِك الوفا كَثِيرَة جدا .

وحَدث القَاضِي نَفِيس الدّين بن الزبير إِن الشَّيْخ السديد كَانَ قد رأى فِي مَنَامه قبل ذَلِك بِقَلِيل أَن دَاره الَّتِي هُوَ ساكنها قد احترقت فاشتغل سره بذلك وعزم على الِانْتِقَال مِنْهَا .

ثمَّ أَنه شرع فِي بِنَاء دَار قريبَة مِنْهَا وحث الصناع فِي بنائها وَعند كمالها حَيْثُ لم يبْق مِنْهَا إِلَّا مجْلِس وَاحِد وينتقل إِلَيْهَا احترقت دَاره الَّتِي كَانَ ساكنها وَذَلِكَ فِي السَّادِس وَالْعشْرين من جُمَادَى الْآخِرَة سنة تسع وَسبعين وَخَمْسمائة وَالدَّار الَّتِي عمرها قَرِيبا مِنْهَا هِيَ الَّتِي صَارَت بعده للصاحب صفي الدّين بن شكر وَزِير الْملك الْعَادِل أبي بكر بن أَيُّوب وَهِي الَّتِي تعرف بِهِ الْآن .

ابْن جَمِيع

هُوَ الشَّيْخ الْمُوفق شمس الرياسة أَبُو العشائر هبة الله بن زين بن حسن بن افرائيم بن يَعْقُوب بن إِسْمَاعِيل بن جَمِيع الإسرائيلي من الْأَطِبَّاء الْمَشْهُورين وَالْعُلَمَاء الْمَذْكُورين والأكابر المتعينين .

وَكَانَ متفننا فِي الْعُلُوم جيد الْمعرفَة بهَا كثير الِاجْتِهَاد فِي صناعَة الطِّبّ حسن المعالجة جيد التصنيف .

وَقَرَأَ صناعَة الطِّبّ على الشَّيْخ الْموفق أبي نصر عدنان بن الْعين زَرْبِي وَلَزمَه مُدَّة .
وَكَانَ مولد ابْن جَمِيع ومنشؤه بفسطاط مصر .
وخدم الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين يُوسُف بن أَيُّوب وحظي فِي أَيَّامه وَكَانَ رفيع الْمنزلَة عِنْده عالي الْقدر نَافِذ الْأَمر يعْتَمد عَلَيْهِ فِي صناعَة الطِّبّ وَركب لَهُ الترياق الْكَبِير الْفَارُوق .
وَكَانَ لِابْنِ جَمِيع مجْلِس عَام للَّذين يشتغلون عَلَيْهِ بصناعة الطِّبّ وَذكر أَنه كَانَ كثير التَّحْصِيل فِي صناعَة الطِّبّ متصرفا فِي علمهَا فَاضلا فِي أَعمالهَا .
وَكَانَ لَهُ نظر فِي الْعَرَبيَّة وَتَحْقِيق للألفاظ اللُّغَوِيَّة .
وَكَانَ لاَ يقْرَأ إِلاَّ وَكتاب الصِّحَاح للجوهري حَاضر بَين يَدَيْهِ وَلاَ تمر كلمة لُغَة لم يعرفهَا حق الْمعرفَة إِلاَّ ويكشفها مِنْه .
وحَدث بعض المصريين أَن ابْن جَمِيع كَانَ يَوْمًا جَالِسا فِي دكانه عِنْد سوق الْقَنَادِيل بفسطاط مصر وَقد مرت عَلَيْهِ جَنَازَة فَلَمَّا نظر إِلَيْهَا صَاح بِأَهْل الْمَيِّت وَذكر لَهُم أَن صَاحبهمْ لم يمت وَأَنَّهُمْ إِن دفنوه فَإِنَّمَا يدفنوه حَيا .
قَالَ فبقوا ناظرين إِلَيْه كالمتعجبين من قَوْله وَلم يصدقوه فِيمَا قَالَ :
ثمَّ إِن بَعضهم قَالَ لبَعض هَذَا الَّذِي يَقُوله مَا يضرنا أننا نمتحنه فَإِن كَانَ حَقًا فَهُوَ الَّذِي نريده وَإِن لم يكن حَقًا فَمَا يتَغَيَّر علينا شَيْء فاستدعوه إِلَيْهِم وَقَالُوا بَين الَّذِي قد قلت لنا فَأَمرهمْ بِالْمَسِيرِ إِلَى الْبَيْت وَأَن ينزعوا عَن الْمَيِّت أَكْفَانه وَقَالَ لَهُم احملوه إِلَى الْحمام ثمَّ سكب عَلَيْهِ المَاء الْحَار وأحمى بدنه ونطله بنطولات وغطسه فَرَأَوْا فِيهِ أدنى حس وتحرك حَرَكَة خَفِيفَة .
فَقَالَ أَبْشرُوا بعافيته ثمَّ تمم علاجه إِلَى أَن أَفَاق وَصلح فَكَانَ ذَلِك مبدأ اشتهاره بجودة الصِّنَاعَة وَالْعلم وَظَهَرت عَنهُ كالمعجزة ثمَّ أَنه سُئِلَ بعد ذَلِك من أَيْن علمت أَن ذَلِك الْمَيِّت وَهُوَ مَحْمُول وَعَلِيهِ الأكفان أَن فِيهِ روحا فَقَالَ إِنِّي نظرت إِلَى قَدَمَيْهِ فوجدتهما قائمتين وأقدام الَّذين قد مَاتُوا منبسطة فحدست أَنه حَيّ وَكَانَ حدسي صائبا أَقُول وَكَانَ بِمصْر ابْن المنجم الْمصْرِيّ(١) وَكَانَ شَاعِرًا مَشْهُورا خَبِيث اللِّسَان وَله

(١) علي بن المنجم أبو الحسن المصري . كان أشعر أهل زمانه ، وأفضل أقرانه ، وكان من أعلام أدباء مصر المشاهير . مدح الملوك والوزراء وفيه فضائل . ولد في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ومات سنة ست عشرة وستمائة .

أهاجي كَثِيرَة فِي ابْن جَمِيع وَمن ذَلِك مِمَّا أنشدت لَهُ فِيه :

(لابْنِ جَمِيع فِي طبه حمق يسب طَب الْمَسِيح من سَبَبه)
(وَلَيْسَ يدْرِي مَا فِي الزجاجة من بَوْل مَرِيض وَلَو تمخض بِه)
(وأعجب الْأَمر أَخذه أبدا أُجْرَة قَتل الْمَرِيض من عصبه)

وَله أَيْضا فِيه :

(دعوا ابْن جَمِيع وبهتانه ودعواه فِي الطِّبّ والهندسة)
(فَمَا هُوَ إِلاَّ رقيع أَتَى وَإِن حل فِي بلد أنحسه)
(وَقد جعل الشّرْب من شَأْنه وَلَكِن كَمَا تشرب النرجسه)

وَله أَيْضا فِيه :

(كذبت وصحفت فِيمَا ادعيت وَقلت أَبوك جَمِيع الْيَهُودِيّ)
(وَلَيْسَ جَمِيع الْيَهُودِيّ أَبَاك وَلَكِن أَبَاك جَمِيع الْيَهُود)

أَبُو الْبَيَان بن المدور

لقب بالسديد وَكَانَ يَهُودِيّا قراء عَالما بصناعة الطِّبّ حسن الْمعرفَة بأعمالها وَله مجريات كَثِيرَة وآثار محمودة .

وخدم الْخُلَفَاء المصريين فِي آخر دولتهم وَبعد ذَلِك خدم الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين وَكَانَ يرى لَهُ ويعتمد على معالجته وَله فِيهِ حسن ظن وَكَانَت لَهُ مِنْهُ الجامكية الْكَثِيرَة والافتقاد المتوفر .

وَعمر الشَّيْخ أَبُو الْبَيَان بن المدور وتعطل فِي آخر عمره من الْكبر والضعف من كَثْرَة الْحَرَكَة والتردد إِلَى الْخدمَة .

فَأطلق لَهُ الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين رَحمَه الله فِي كل شهر أَرْبَعَة وَعشْرين دِينَارا مصرية تصل إِلَيْه وَيكون ملازما لبيته وَلاَ يُكَلف خدمَة .

وَبَقِي على تِلْكَ الْحَال وجامكيته تصل إِلَيْه نَحْو عشْرين سنة .

وَكَانَ فِي مُدَّة انْقِطَاعه فِي بَيته لاَ يخل بالاشتغال فِي صناعَة الطِّبّ وَلاَ يَخْلُو مَوْضِعه من التلاميذ والمشتغلين عَلَيْه والمستوصفين مِنْهُ .

وَكَانَ لاَ يمْضِي إِلَى أحد لمعالجته فِي تِلْكَ الْمدَّة إِلاَّ من يعز عَلَيْه جدا .

وَقيل أَن الْأَمِير ابْن منقذ لما وصل من الْيمن وَكَانَ قد عرض لَهُ استسقاء بعث إِلَيْهِ ليَأْتِيه ويعالجه بالمعالجة فَاعْتَذر إِلَيْهِ على قرب مَوْضِعه مِنْهُ وَلم يمض إِلَيْهِ دون أَن

بعث إِلَيْه الـقَاضِي الْفَاضِل وَكيله ابْن سناء الْملك وقصده فِي ذَلِك حَتَّى مضى إِلَيْهِ وَوصف لَهُ مَا يعْتَمد عَلَيْهِ فِي المداواة .

وعاش أَبُو الْبَيَان ابْنَ المدور ثَلاثًا وَثَمَانِينَ سنة وَتُوفِّي فِي سنة ثَمَانِينَ وَخَمْسمِائة بِالْقَاهِرَة .

وَكَانَ من تلاميذه زين الْحساب

الْمُوفق بن شوعة

كَانَ من أَعْيَان الْعلمَاء وأفاضل الأطِبَّاء إسرائيلي مَشْهُور بإتقان الصِّنَاعَة وجودة الْمعرفَة فِي علم الطِّبّ والكحل والجراح .

كَانَ دمثا خَفِيف الرّوح كثير المجون وَكَانَ يشْعر ويلعب بالقيثارة وخدم الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين بالطب لما كَانَ بِمصْر وعلت مَنْزِلَته عِنْده .

وَكَانَ بِدِمَشْق فَقِيه صوفي صحب مُحَمَّد بن يحيى وَسكن خانقاه السميساطي كَانَ يعرف بالخوبشاني[1] ويلقب بِالنَّجْمِ وَله معرفَة بِنَجْم الدّين أَيُّوب وبأخيه أَسد الدّين .

وَكَانَ الخوبشاني ثقيل الرّوح قشفا فِي الْعَيْش يَابسا فِي الدّين يَأْكُل الدُّنْيَا بالناموس وَلما صعد أَسد الدّين مصر تبعه وَنزل بِمَسْجِد عِنْد دَار الوزارة يعرف الْيَوْم بِمَسْجِد الخوبشاني وَكَانَ يثلب أهل الْقصر وَيجْعَل تسبيحه سبهم .

وَكَانَ سلطا وَمَتى رأى ذِميمًا رَاكِبًا قصد قَتله فَكَانُوا يتحامونه .

وَلما كَانَ فِي بعض الأَيَّام رأى ابْن شوعة وَهُوَ رَاكب فَرَمَاهُ بِحجر أصَاب عينه فقلعها وَتُوفِّي ابْن شوعة بِالْقَاهِرَة فِي سنة تسع وَسبعين وَخَمْسمِائة .

وَمن شعر الْمُوفق بن شوعة أنْشد القَاضِي نَفِيس الدّين بن الزبير[2] قَالَ

(١) نَجْمُ الدِّيْنِ أَبُو البَرَكَاتِ مُحَمَّدُ بنُ مُوَفَّقِ بنِ سَعِيْدٍ الخَبُوْشَانِيُّ الشَّافِعِيُّ الصُّوْفِيُّ ، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن السادس الهجري ، قال عنه الذهبي : «الفَقِيْهُ الكَبِيْرُ الزَّاهِدُ» .

(٢) هو القاضي الحكيم نفيس الدين أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولمي والكولم من بلاد الهند وهو ينسب من جهة أمه إلى ابن الزبير الشاعر المشهور الذي كان بالديار المصرية وهو القائل (يا ربع أين ترى الأحبة يمموا هل أنجدوا من بعدنا أو اتهموا) ومولد القاضي نفيس الدين في سنة =

أَنْشدني الْمُوفق بن شوعة لنَفسه فَمن ذَلِك قَالَ فِي النَّجْم الخوبشاني لما قلع عينه .

(لَا تعجبوا من شُعَاع الشَّمْس إِذْ حسرت مِنْــهُ الْعُيُون وَهَذَا الشَّأْن مَشْهُور) .

(بل أعجبوا كَيفَ أعمى مقلتي نَظَرِي للنجم وَهُوَ ضئيل الشَّخْص مَسْتُور)

الأسعد المحلي

هُوَ أسعد الدّين يَعْقُوب بن إِسْحَاق .

يَهُودِيّ من مَدِينَة المحلة من أَعمال ديار مصر متميز فِي الْفَضَائِل وَله اشْتِغَال بالحكمة واطلاع على دقائقها وَهُوَ من الْمَشْهُورين فِي صناعَة الطِّبّ والخبيرين بالمداواة والعلاج .

وَأقَام بِالْقَاهِرَةِ وسافر فِي أول سنة ثَمَان وَتِسْعين وَخَمْسمِائة إِلَى دمشق .

وَأقَام بهَا مُدَّة وَجَرت بَينه وَبَين بعض الأفاضل من الْأَطِبَّاء بهَا مباحث كَثِيرَة ونكد وَرجع بعد ذَلِك إِلَى الديار المصرية وَتُوفِّي بِالْقَاهِرَةِ

وَمن نوادره فِي حسن المداواة أَنه كَانَ بعض من النِّسَاء قد عرض لَهَا مرض وَتغَير مزاج وتطاول بهَا وَلم ينجع فِيهَا علاج فَلَمَّا افتقدها قَالَ لعَمِّي وَكَانَ صديقه عِنْدِي أَقْرَاص قد ركبتها لهَذَا الْمَرَض خَاصَّة وَهِي تَبرأ بهَا إِن شَاءَ الله تكون تتَنَاوَل فِي كل يَوْم بِالْغَدَاةِ مِنْهَا قرصا مَعَ شراب سكنجبين وَأَعْطَاهُ الأقراص فَلَمَّا تناولتها برأت .

الشَّيْخ السديد بن أبي الْبَيَان

هُوَ سديد الدّين أَبُو الْفضل دَاوُود بن أبي الْبَيَان سُلَيْمَان بن أبي الْفرج إِسْرَائِيل بن أبي الطّيب سُلَيْمَان ابْن مبارك إسرائيلي قراء مولده فِي سنة سِتّ وَخمسين وَخَمْسمِائة بِالْقَاهِرَةِ .

= خمس أو ست وخمسين وخمسمائة وقرأ صناعة الطب على ابن شوعة أولا وقرأ بعد ذلك على الشيخ السديد رئيس الطب وتميز في صناعة الطب وحاول أعمالها وأتقن أيضا صناعة الكحل وعلم الجراح . وكثرت شهرته بصناعة الكحل وولاه الملك الكامل ابن الملك العادل رياسة الطب بالديار المصرية ويكحل في البيمارستان الناصري الذي كان من جملة القصر للخلفاء المصريين . وتوفي القاضي نفيس الدين بن الزبير رحمه الله بالقاهرة في سنة ست وثلاثين وستمائة وله أولاد مقيمون في القاهرة وهم من المشهورين بصناعة الكحل والمتميزين في عملها .

وَكَانَ شَيخا محققا للصناعة الطبية متقنا لَهَا متميزا فِي علمهَا وعملها خَبِيرا بالأدوية المفردة والمركبة .

وَكَانَ أقدر أهل زَمَانه من الأَطِبَّاء على تركيب الأَدْوِيَة وَمَعْرِفَة مقاديرها وأوزانها على مَا يَنْبَغِي حَتَّى أَنه كَانَ فِي أَوْقَات يَأْتِي إِلَيْهِ من المستوصفين من بِهِ أمراض مُخْتَلفَة أَو قَلِيلَة الحُدُوث فَكَانَ يملي صفَات أدوية مركبة بِحَسب مَا يحْتَاج إِلَيْهِ ذَلِك الْمَرِيض من الأقراص والسفوفات والأشربة أَو غير ذَلِك فِي الْوَقْت الْحَاضِر وَهِي فِي نِهَايَة الْجَوْدَة وَحسن التَّأْلِيف .

وَكَانَ شَيْخه فِي صناعَة الطِّبّ الرئيس هبة الله بن جَمِيع الْيَهُودِيّ

جمال الدّين بن أبي الحوافر .

هُوَ الشَّيْخ الإِمَام الْعَالم أَبُو عَمْرو عُثْمَان بن هبة الله بن أَحْمد بن عقيل الْقَيْسِي وَيعرف بِابْن أبي الحوافر .

أفضل الأَطِبَّاء وَسيد الْعلمَاء وأوحد الْعَصْر وفريد الدَّهْر .

قد أتقن الصِّنَاعَة الطبية وتميز فِي أقسامها العلمية والعملية .

وَله اشْتِغَال جيد فِي علم الأَدَب وعناية فِيهِ وَله شعر كثير صَحِيح المباني بديع الْمعَانِي .

واشتغل بصناعة الطِّبّ على الإِمَام مهذب الدّين بن النقاش وعَلى الشَّيْخ رَضِي الدّين الرَّحبِي وخدم بصناعة الطِّبّ الْملك الْعَزِيز عُثْمَان بن الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين وَأقَام مَعَه فِي الديار المصرية وولاه رياسة الطِّبّ وَلم يزل فِي خدمته وَهُوَ كثير الإِحْسَان إِلَيْهِ والإنعام عَلَيْهِ إِلَى أَن توفّي الْملك الْعَزِيز رَحمَه الله .

وحَدث بعض أصدقائه قَالَ كَانَ يَوْمًا رَاكِبًا فَرَأى فِي بعض النواحي على مصطبة بياع حمص مسلوق وَهُوَ قَاعد وقدامه كَحال يَهُودِيّ وَهُوَ وَاقِف وَبِيَدِهِ المكحلة والميل وَهُوَ يكحل ذَلِك البياع .

فحين رَآهُ على تِلْكَ الْحَال سَاق بغلته نَحوه وضربه بالمقرعة على رَأسه وَشَتمه .

وعندما مَشى مَعَه قَالَ لَهُ إِذا كنت أَنْت سفلَة فِي نَفسك أما للصناعة حُرْمَة كنت قعدت إِلَى جَانِبي وكحلته وَلَا تبقى وَاقِفًا بَين يَدي عَامي بياع حمص فَتَابَ أَن يعود يفعل من ذَلِك الْفِعْل وَانْصَرف .

أَبُو سُلَيْمَان دَاوُد بن أبي المنى بن أبي فانة

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا بِمصْر فِي زمن الْخُلَفَاء وَكَانَ حظيا عِنْدهم فَاضلا فِي الصِّنَاعَة الطبية خَبِيرا بعلمها وعملها متميزا فِي الْعُلُوم .

وَكَانَ من أهل الْقُدس ثمَّ انْتقل إِلَى الديار المصرية .

وَكَانَت لَهُ معرفَة بَالغَة بِأَحْكَام النُّجُوم .

حَدث الْحَكِيم رشيد الدّين أَبُو حليقة بن الْفَارِس بن أبي سُلَيْمَان الْمَذْكُور قَالَ سَمِعت الْأَمِير مجد الدّين أَخا الْفَقِيه عِيسَى وَهُوَ يحدث السُّلْطَان الْملك الْكَامِل بشر مساح عِنْد حُضُوره إِلَيْهِ بعد وَفَاة الْملك الْعَادِل ونزول الفرنج على ثغر دمياط من أَحْوَال جدي أبي سُلَيْمَان دَاوُد مَا هَذَا نَصه قَالَ .

كَانَ الْحَكِيم أَبُو سُلَيْمَان فِي زمن الْخُلَفَاء وَكَانَ لَهُ خَمْسَة أَوْلَاد فَلَمَّا وصل الْملك مارى إِلَى الديار المصرية أعجبه طبه فَطَلَبه من الْخَلِيفَة بهَا وَنَقله هُوَ وَأَوْلَاده الْخَمْسَة إِلَى الْبَيْت الْمُقَدّس وَنَشَأ للْملك مارى ولد مجذم فَركب لَهُ الترياق الفاروقي بِالْبَيْتِ الْمُقَدّس وترهب وَترك وَلَده الْأَكْبَر وَهُوَ الْحَكِيم الْمُهَذّب أَبُو سعيد خَلِيفَته على منزله وَإِخْوَته .

وَاتفقَ أَن ملك الفرنج الْمَذْكُور بِالْبَيْتِ الْمُقَدّس أسر الْفَقِيه عِيسَى وَمرض فسيره الْملك لمداواته فَلَمَّا وصل إِلَيْهِ وجده فِي الْجب مُثقلاً بالحديد فَرجع إِلَى الْملك وَقَالَ لَهُ إِن هَذَا الرجل ذُو نعْمَة وَلَو سقيته مَاء الْحَيَاة وَهُوَ على هَذَا الْحَال لم يَنْتَفع بِهِ .

قَالَ الْملك فَمَا أفعل فِي أمره قَالَ يُطلقهُ الْملك من الْجب ويفك عَنهُ حديده ويكرمه فَمَا يحْتَاج إِلَى مداواة أَكثر من هَذَا .

فَقَالَ الْملك تخَاف أَن يهرب وقطيعته كَثِيرَة .

قَالَ للْملك سلمه إِلَيّ وضمانه عَليّ .

فَقَالَ لَهُ تسلمه وَإِذا جَاءَت قطيعته كَانَ لَك مِنْهَا ألف دِينَار .

فَمضى وشاله من الْجب وَفك حديده وأخلى لَهُ موضعا فِي دَاره أَقَامَ فِيهِ سِتَّة أشهر يَخْدمه فِيهَا أتم خدمَة .

فَلَمَّا جَاءَت قطيعته طلب الْملك الْحَكِيم أَبَا سعيد ليحضر لَهُ الْفَقِيه الْمَذْكُور فَحَضَرَ وَهُوَ صحبته وَوجد قطيعته فِي أكياس بَين يَدَيْهِ فَأعْطَاهُ مِنْهَا الْكيس الَّذِي وعده بِهِ .

فَلَمَّا أَخذه قَالَ لَهُ يَا مَوْلَانَا هَذِه الْألف دِينَار قد صَارَت لي أتصرف فِيهَا تصرف

الْملاك فِي أملاكهم فَقَالَ لَهُ نعم .

فَأَعْطَاهَا للفقيه فِي الْمجْلس وَقَالَ لَهُ أَنا أعرف أَن هَذِه القطيعة مَا جَاءَت إِلاَّ وَقد تركت خَلفك شَيْئا وَرُبمَا قد تدني لَك شَيْئا آخر فَتقبل مني هَذِه الْأَلف دِينَار إِعَانَة نَفَقَة الطَّرِيق .

فقبلها الْفَقِيه مِنْهُ وسافر إِلَى الْملك النَّاصِر .

وَاتفقَ أَن الْحَكِيم أَبَا سُلَيْمَان دَاوُد الْمَذْكُور ظهر لَهُ فِي أَحْكَام النُّجُوم إِن الْملك النَّاصِر يفتح الْبَيْت الْمُقَدّس فِي الْيَوْم الْفُلَانِيّ من الشَّهْر الْفُلَانِيّ من السّنة الْفُلَانِيَّة وَأَنه يدْخل إِلَيْهَا من بَاب الرَّحْمَة فَقَالَ لأحد أَوْلَاده الْخَمْسَة وَهُوَ الْفَارِس أَبُو الْخَيْر بن أبي سُلَيْمَان دَاوُد الْمَذْكُور وَكَانَ هَذَا الْوَلَد قد تربى مَعَ الْوَلَد المجذم ملك الْبَيْت الْمُقَدّس وَعلمه الفروسية فَلَمَّا توج الْملك فرسه وَخرج الْمَذْكُور من بَين اخوته الْأَرْبَعَة الْأَطِبَّاء جنديا .

وَكَانَ قَول الْحَكِيم أبي سُلَيْمَان لوَلَده هَذَا بِأَن يمْضِي رَسُولا عَنهُ إِلَى الْملك النَّاصِر ويبشره بِملك الْبَيْت الْمُقَدّس فِي الْوَقْت الْمَذْكُور .

فامتثل مرسومه وَمضى إِلَى الْملك النَّاصِر فاتفق وُصُوله إِلَيْهِ فِي غرَّة سنة ثَمَانِينَ وَخَمْسمائة وَالنَّاس يهنؤنه بهَا وهم على فاميه فَمضى إِلَى الْفَقِيه الْمَذْكُور ففرح بِهِ غَايَة الْفَرح وَدخل بِهِ إِلَى الْملك النَّاصِر وأوصل إِلَيْهِ الرسَالَة عَن أَبِيه ففرح بذلك فَرحا شَدِيدا وأنعم عَلَيْهِ بجائزة سنية وَأَعْطَاهُ علما أصفر ونشابة من رنكة .

وَقَالَ لَهُ مَتى يسر الله مَا ذكرت اجعلوا هَذَا الْعلم الْأَصْفَر والنشابة فَوق داركم فالحارة الَّتِي أَنْتُم فِيهَا تسلم جَمِيعهَا فِي خفارة داركم .

فَلَمَّا حضر الْوَقْت صَحَّ جَمِيع مَا قَالَه الْحَكِيم الْمَذْكُور فَدخل الْفَقِيه عِيسَى إِلَى الدَّار الَّتِي كَانَ مُقيما بهَا ليحفظها وَلم يسلم من الْبَيْت الْمُقَدّس من الْأسر وَالْقَتْل وَوزن القطيعة سوى بَيت هَذَا الْحَكِيم الْمَذْكُور .

وضاعف لأولاده مَا كَانَ لَهُم عِنْد الفرنج وَكتب لَهُ كتابا إِلَى سَائِر ممالكه برا وبحرا بمسامحتهم بِجَمِيع الْحُقُوق اللَّازِمَة للنَّصَارَى فأعفوا مِنْهَا إِلَى الْآن .

وَتُوفِّي الْحَكِيم أَبُو سُلَيْمَان الْمَذْكُور بعد أَن استدعاه الْملك النَّاصِر إِلَيْهِ وَقَامَ لَهُ قَائِما وَقَالَ لَهُ أَنْت شيخ مبارك قد وصل إِلَيْنَا بِشرَاك وَتمّ جَمِيع مَا ذكرته فتمن عَليّ .

فَقَالَ لَهُ أَتَمَنَّى عَلَيْك حفظ أَوْلَادي .

فَأخذ الْملك النَّاصِر أَوْلَاده وأعتنى بهم وَأَعْطَاهُمْ للْملك الْعَادِل ووصاه بِأَن يكرمهم ويكونوا من الْخَواص عِنْده وَعند أَوْلَاده وَكَانَ كَذَلِك .

صَدَقَة السامري

هُوَ صَدَقَة بن منجا بن صَدَقَة السامري من الأكابر فِي صناعَة الطِّبّ والمتميزين من أَهلهَا والأماثل من أَرْبَابهَا .

كَانَ كثير الاشْتغَال محبا للنَّظَر والبحث وافر الْعلم جيد الْفَهم قَوِيا فِي الفلسفة حسن الدِّرَايَة لَهَا متقنا لغوامضها .

وَكَانَ يدرس صناعَة الطِّبّ وينظم متوسطا وَرُبمَا ضمنه ملحا من الْحِكْمَة وَأكْثر مَا كَانَ يَقُوله دوبيت .

وَله تصانيف فِي الْحِكْمَة وَفِي الطِّبّ .

وخدم الْملك الْأَشْرَف مُوسَى ابْن الْملك الْعَادِل أبي بكر بن أَيُّوب وَبَقِي مَعَه سِنِين كَثِيرَة فِي الشرق إِلَى أَن توفّي فِي الْخدمَة .

وَكَانَ الْملك الْأَشْرَف يحترمه غَايَة الاحترام ويكرمه كل الْإِكْرَام ويعتمد عَلَيْهِ فِي صناعَة الطِّبّ وَله مِنْهُ الجامكية الوافرة والصلات المتواترة .

وَتُوفِّي صَدَقَة بِمَدِينَة حران فِي سنة نَيف وَعشْرين وسِتمِائَة وَخلف مَالا جزيلا وَلم يكن لَهُ ولد .

وَمن كَلَامه مِمَّا نقلته من خطه قَالَ الصَّوْم منع الْبدن من الْغذَاء وكف الْحَواس عَن الخطاء والجوارح عَن الآثام .

وَهُوَ كف الْجَمِيع عَمَّا يلهي عَن ذكر الله .

وَقَالَ اعْلَم أَن جَمِيع الطَّاعَات ترى إِلَّا الصَّوْم لَا يرَاهُ إِلَّا الله فَإِنَّهُ عمل فِي الْبَاطِن بِالصبرِ الْمُجَرّد .

وللصوم ثَلَاث دَرَجَات صَوْم الْعُمُوم وَهُوَ كف الْبَطن والفرج عَن قَضَاء الشَّهْوَة وَصَوْم الْخُصُوص وَهُوَ كف السّمع وَالْبَصَر وَاللِّسَان وَسَائِر الْجَوَارِح عَن الآثام وَأما صَوْم خُصُوص الْخُصُوص فصوم الْقلب عَن الهمم الدنية والأفكار الدنياوية وكفه عَمَّا سوى الله تَعَالَى .

وَقَالَ مَا كَانَ من الرطوبات الْخَارِجَة من الْبَاطِن لَيْسَ مستحيلا وَلَيْسَ لَهُ مقرّ فَهُوَ طَاهِر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط .

وَأما مَا لَهُ مقرّ وَهُوَ مُسْتَحِيل فَهُوَ نجس كالبول والروث .

وَقَالَ اعْلَم أَن الْوَزير مُشْتَقّ اسْمه من حمل الْوزر عَمَّن خدمه وَحمل الْوزر لَا يكون إِلَّا بسلامة من الْوَزير فِي خلقته وخلائقه .

أما فِي خلقته فَإِن يكون تَامّ الصُّورَة حسن الْهَيْئَة متناسب الْأَعْضَاء صَحِيح الْحَواس وَأما فِي خلائقه فَهُوَ أَن يكون بعيد الهمة سامي الرَّأْي ذكي الذِّهْن جيد الحدس صَادِق الفراسة رحب الصَّدْر كَامِل الْمُرُوءَة عَارِفًا بموارد الْأُمُور ومصادرها .

فَإِذا كَانَ كَذَلِك كَانَ أفضل عدد المملكة لِأَنَّهُ يصون الْملك عَن التبذل وَيَرْفَعهُ عَن الدناءة ويغوص لَهُ على الفرصة .

ومنزلته منزلَة الْآلَة الَّتِي يتَوَصَّل بهَا إِلَى نيل البغية ومنزلة السُّور الَّذِي يحرز الْمَدِينَة من دُخُول الآفة ومنزلة الْجَارِح الَّذِي يصيد لطعمة صَاحبه .

وَلَيْسَ كل أحد يصلح لهَذِهِ الْمنزلَة يصلح لكل سُلْطَان مَا لم يكن مَعْرُوفا بالإخلاص لمن خدمه والمحبة لمن استخصه والإيثار لمن قربه .

وَقَالَ صَبر الْعَفِيف ظريف .

مهذب الدّين يُوسُف بن أبي سعيد

هُوَ الشَّيْخ الإِمَام الْعَالم الصاحب الْوَزير مهذب الدّين يُوسُف بن أبي سعيد بن خلف السامري .

قد أتقن الصِّنَاعَة الطبية وتميز فِي الْعُلُوم الْحكمِيَّة واشتغل بِعلم الْأَدَب وَبلغ فِي الْفَضَائِل أَعلَى الرتب .

وَكَانَ كثير الْإِحْسَان غزير الامتنان فَاضل النَّفس صائب الحدس .

وَقَرَأَ صناعَة الطِّبّ على الْحَكِيم إِبْرَاهِيم السامري الْمَعْرُوف بشمس الْحُكَمَاء .

وَكَانَ هَذَا شمس الْحُكَمَاء فِي خدمَة الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين يُوسُف وَقَرَأَ أَيْضا على الشَّيْخ إِسْمَاعِيل بن أبي الْوَقار الطَّبِيب .

وَقَرَأَ على مهذب الدّين بن النقاش .

وَقَرَأَ الْأَدَب على تَاج الدّين النكدي أبي الْيمن .

وتميز فِي صناعَة الطِّبّ واشتهر بِحسن العلاج والمداواة .

وَمن حسن معالجاته أَنه كَانَت ستّ الشَّام أُخْت الْملك الْعَادِل أبي بكر بن أَيُّوب قد عرض لَهَا دوسنطاريا كبدية وَتَرْمِي كل يَوْم دَمًا كثيرا

والأطباء يعالجونها بالأدوية الْمَشْهُورَة لهَذَا الْمَرَض من الْأَشْرِبَة وَغَيرهَا .

فَلَمَّا حضرها وجس نبضها قَالَ للْجَمَاعَة يَا قوم مَا دَامَت الْقُوَّة قَوِيَّة أعطوها الكافور ليصلح كَيْفيَّة هَذَا الْخَلْط الحاد الَّذِي فعل هَذَا الْفِعْل وَأمر بإحضار كافور

قيصوري وسقاها مَعَ حليب بزر بقلة محمصة وشراب رمان وصندل فتقاصر عَنْهَا الدَّم وحرارة الكبد الَّتِي كَانَت وسقاها أَيْضا مِنْهُ ثَانِي يَوْم فَقل أَكثر ولاطفها بعد ذَلِك إِلَى أَن تَكَامل برؤها وصحت .

وحَدث بعض جمَاعَة الصاحب بن شكر وَزِير الْملك الْعَادِل قَالَ كَانَ قد عرض للصاحب ألم فِي ظَهره عَن برد فَأتى إِلَيْهِ الْأَطِبَّاء فوصف بَعضهم مَعَ إصْلَاح الأغذية بغلي يسير جندبيدستر مَعَ زَيْت ويدهن بِهِ .

وَقَالَ آخر دهن بابونج ومصطكى .

فَقَالَ الْمصلحَة أَن يكون عوض هَذه الْأَشْيَاء شَيْء ينفع مَعَ طيب رَائِحَة فأعجب الصاحب قَوْله وَأمر مهذب الدّين يُوسُف بإحضار غَالِيَة ودهن بَان فَحل ذَلِك على النَّار ودهن بِهِ الْموضع فَانْتَفع بِهِ .

وخدم مهذب الدّين يُوسُف بصناعة الطِّبّ لعز الدّين فرخشاه ابْن شاهان شاه بن أَيُّوب وَلما توفّي عز الدّين فرخشاه وخدم بعده لوَلَده الْملك الأمجد مجد الدّين بهْرَام شاه بن عز الدّين فرخشاه بصناعة الطِّبّ وَأقَام عِنْده ببعلبك وحظي فِي أَيَّامه ونال من جهَته من الْأَمْوَال وَالنعَم شَيْئا كثيرا .

وَكَانَ يستشيره فِي أُمُوره ويعتمد عَلَيْهِ فِي أَحْوَاله .

وَكَانَ الشَّيْخ مهذب الدّين حسن الرَّأْي وافر الْعلم جيد الْفطْرَة .

فَكَانَ يستصوب آراءه ويشكر مقاصده .

ثمَّ استوزره واشتغل بالوزارة وارتفع أمره وارتقت مَنْزِلَته عِنْده حَتَّى صَار هُوَ الْمُدبر لجَمِيع الدولة وَالْأَحْوَال بأسرها لَا تعدل عَن أمره وَنَهْيه .

وَلذَلِك قَالَ فِيه الشَّيْخ شهَاب الدّين فتيَان :

(الْملك الأمجد الَّذِي شهدت ... لَهُ جَمِيع الْمُلُوك بِالْفَضْلِ)
(أصبح فِي السامري مُعْتَقدًا ... مَا اعْتقد السامري فِي الْعجل)

أنْشد هذَيْن الْبَيْتَيْنِ شمس الدّين مُحَمَّد بن شهَاب الدّين فتيَان قَالَ أنْشد فيهمَا وَالِدي لنَفسه .

أولَم تزل أَحْوَال الشَّيْخ مهذب الدّين على سننها وعلو مَنْزِلَته على كيانها حَتَّى كثرت الشكاوي من أَهله وأقاربه السمرَة فَإِنَّهُ كَانَ قد جَاءَهُ إِلَى بعلبك جمَاعَة مِنْهُم من دمشق واستخدمهم فِي جَمِيع الْجِهَات وَكثر مِنْهُم العسف وَأكل الْأَمْوَال وَالْفساد .

وَكَانَ لَهُ الجاه العريض بالوزير مهذب الدّين السامري فَلاَ يقدر أحد أَن يقاومهم بِالْجُمْلَة .

فَإِنَ الْملك الأمجد لما تحقق أَن الأُمْوَال قد أكلوها وَكثر فسادهم ولامته الْمُلُوك فِي تَسْلِيم دولته للسمرة قبض على الْمُهَذّب السامري وعَلى جَمِيع السمرَة المستخدمين واستقصى منْهُم أَمْوَال عَظِيمَة .

وَبَقِي الْوَزير معتقلا عَنْده مُدَّة إِلاَّ أَن لم يبْق لَهُ شَيْء يعْتد بِهِ .

ثمَّ أطلقهُ وعاد إلى دمشق

وَمن شعر مهذب الدّين يُوسُف :

(إِن سَاءَنِي الدَّهْر يَوْمًا فَإِنَّهُ سر دهرا)
(وَإِن دهانِي بِمَال فقد تعوضت أجرا)
(الله أغْنى وأقنى وَالْحَمْد لله شكرا)

طرائف الأمثال

إنَّ منَ الْبَيَانِ لَسحْراً

قاله النبي ﷺ حين وَفَدَ عليه عَمْرو بن الأهتم[١] والزِّبْرِقَانُ بن بدر[٢] وقَيْسُ بن عاصم[٣] ، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرَو بن الأهتم عن الزِّبْرقان ، فقال عمرو : مُطَاع في أَدْنَيْه ، شديدُ العارضة ، مانعٌ لما وَرَاء ظهره ، فقال الزبرقان : يا رسول اللّه إنه لَيَعْلَم مني أكثَرَ من هذا ، ولكنه حَسَدني ، فقال عمرو : أما واللّه إنه لَزَمِرُ المروءة ، ضَيّق العَطَن ، أحمق الوالد ، لئيم الخال ، واللّه يا رسول اللّه ما كَذَبْتُ في الأولى ، ولقد صدقْتُ في الأخرى ، ولكني رجل رَضِيت فقلت أحسنَ ما علمت ، وسَخطْتُ فقلت أقبحَ ما وجدت ، فقال عليه الصلاة والسلام «إنَّ منَ الْبَيَانِ لَسحْراً» يعني أن بعض البيان يعمل عمل السحر ، ويضرب في استحسان المنطق وإيراد الحجَّة البالغة .

إنَّ المُنْبَتَّ لاَ أرْضاً قَطعَ ولاَ ظَهْراً أبْقَى.

المنبتُّ : المنقطع عن أصحابه في السفَر ، والظَّهْرُ : الدابة .

قاله عليه الصلاة والسلام لرجل اجتَهَد في العبادة حتى هَجَمت عيناه : أي غارَتَا ، فلما رآه قال له «إنَّ هذا الدينَ مَتينٌ فأوْغلْ فيه برفْق ، إنَّ المُنْبَتَّ» أي الذي يجدُّ في سيره حتى ينبتَّ أخيراً ، سماه بما تؤول إليه عاقبتُه كقوله تعالى ﴿إنَّكَ مَيِّت وإنهم ميتون﴾ .

يضرب لمن يُبالغ في طلب الشيء ، ويُفْرِط حتى ربما يُفَوِّته على نفسه

إنَّ الشَّقِيَّ وَافِدُ البرَاجِمِ

قاله عمرو بن هند الملك[٤] ، وكان سُوَيْدُ ابن ربيعة التميمي قتلَ أخاه وهَرَب ،

(١) عمرو بن سنان بن سمي بن سنان بن خالد بن منقر ، من بني تميم . أحد السادات والشعراء الخطباء في الجاهلية والإسلام وسمي أبوه سنان بالأهتم لأن قيس بن عاصم المنقري ضربه بقوس فهتم أسنانه وقيل هتمت أسنانه أثناء القتال في يوم الكلاب الثاني (أحد أيام العرب في الجاهلية) .

(٢) الزبرقان بن بدر التميمي أحد رجال وفد بني تميم الذين وفدوا على الرسول في عام الوفود .

(٣) قيس بن عاصم بن سنان المنقري التميمي صحابي جليل ، وهو الذي قدم على رسول الله سنة ٩ هـ في وفد بني تميم فأكرمه وقال له : «هذا سيد أهل الوبر» .

(٤) عمرو بن المنذر بن امرؤ القيس بن النعمان اللخمي المشهور بـ ، الملقب بمُضَرِّط الحجارة او بالمحرق الثاني امه هي هند بنت عمرو بن حجر الكندي آكل المرار .

فأحرق به مائةً من تميم : تسعةً وتسعين من بني دارم وواحداً من البَرَاجم ، فلقِّبَ بالمحرِّق ، وكان الحارث بن عمرو ملك الشأم من آل جَفْنة يدعى أيضا بالمحرِّق ، لأنه أول من حَرَّق العرب في ديارهم ، ويدعى امرؤ القيس بن عمرو بن عَدِيٍّ الخَّمِي محرِّقاً أيضا . يضرب لمن يُوقع نفسه في هَلَكة طمعا

إنَّ البُغَاثَ بأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ

البغاث : ضربٌ من الطير ، وفيه ثلاث لغات : الفتح ، والضم ، والكسر ، والجمع بغْثَان ، قالوا : هو طير دون الرَخمة ، واستنسر : صار كالنسر في القوّة عند الصيد بعد أن كان من ضعاف الطير

يضرب للضعيف يصير قويا ، وللذليل يعزّ بعد الذل

إنَّ الجبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

قال ابن الكلبي[1] : أولُ من قاله عمرو (الشعر في اللسان منسوب لعامر ابن فهيرة) ابن أمامة في شعر له ، وكانت مُرَادٌ قتلته ، فقال هذا الشعر عند ذلك ، وهو قوله :

لَقَدْ حَسَوْتُ الموتَ قبلَ ذَوْقِهِ ... إنَّ الجبانَ حَتْفُه مِنْ فَوْقِهِ
كُلُّ امْرِئٍ مُقَاتِلٌ عَنْ طَوْقِهِ ... وَالثَّوْرُ يَحْمِي أنْفَهُ بِرَوْقِهِ

يضرب في قلة نفع الحذر من القدر

إنَّ المُعَافَى غَيْرُ مَخْدُوعٍ

وأصلُ المثل أن رجلا من بني سُلَيم يسمى قادحا كان في زمن أمير يكنى أبا مظعون ، وكان في ذلك الزمن رجل آخر من بني سليم أيضا يقال له سُلَيْط ، وكان عَلِقَ[2] امرأة قادح ، فلم يزل بها حتى أجابته وواعدته ، فأتى سُلَيْطٌ قادحاً وقال : إني علقت جارية لأبي مظعون ، وقد واعدتني ، فإذا دخلتَ عليه فاقْعُدْ معه في المجلس ، فإذا أراد القيامَ فاسبقه ، فإذا انتهيت إلى موضع كذا فاصفر حتى أعلم بمجيئكما

(١) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث بن عبد الحارث الكلبي ، يكنى ابن الكلبي ، مؤرخ ، وعالم أنساب وأخبار العرب وأيامها ووقائعها ومثالبها .

(٢) عشق وأحبّ .

فأخذ حَذَري ، ولك كل يوم دينار ، فخدعه بهذا ، وكان أبو مظعون آخر الناس قياما من النادي ففعل قادح ذلك ، وكان سُلَيْط يختلف إلى امرأته ، فجرى ذكر النساء يوما ، فذكر أبو مظعون جواريه وعَفَافهن ، فقال قادح وهو يعرض بأبي مظعون : ربما غُرّ الواثق ، وخُدِع الْوَامق ، وكذب الناطق ، ومَلَّت العاتق ، ثم قال :

لا تَنْطِقَنَّ بأمر لا تَيَقَّنُهُ ياعمرو ، إنَّ المُعَافى غيرُ مخدوع

وعمرو : اسم أبي مظعونٍ ، فعلم عمرو أنه يعرّض به ، فلما تفرق القوم وثَبَ على قادح فخنقه وقال : اصدقني ، فحدثه قادح بالحديث ، فعرف أبو مظعون أن سُلَيطا قد خدَعه ، فأخذ عمرو بيد قادح ثم مر به على جَوَاريه فإذا هن مُقْبلات على ماوكلن به لم يفقِدْ منهن واحدةً ، ثم انطلق آخذا بيد قادح إلى منزله فوجد سُلَيطا قد افترش امرأته ، فقال له أبو مظعون : إن المعافى غير مخدوع ، تهكما بقادح ، فأخذ قادح السيفَ وشدَّ على سُلَيط ، فهرب فلم يدركه ، ومال إلى امرأته فقتلها .

إن للّه جُنُوداً منْهَا العَسَلُ

قاله معاوية(١) لما سمع أن الأشْتَر(٢) سُقِيَ عسلاً فيه سم فمات .

يضرب عند الشَّماتة بما يصيب العدو

إنَّ المَعَاذيرَ يَشُوبُها الكَذِبُ

يحكى أن رجلا اعتذر إلى إبراهيم النَّخَعي(٣) ، فقال إبراهيم : قد عذرتك غير معتذر ، إن المعاذير ، المثلَ .

---

(١) أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي ، من أصحاب الرسول محمد وأحد كتّاب الوحي . سادس الخلفاء في الإسلام ومؤسس الدولة الأموية في الشام وأوّل خلفائها .

(٢) مالك بن الحارث الأشتر النخعي زعيم قبيلة وقائد عسكري شارك في فُتوح الشام وكان من أصحاب علي بن أبي طالب حيث شهد معه الجَمَل وصفين اللتان أبدى فيهما شجاعة مفرطة وشهد مع علي مشاهده كلها ، وولاه علي على مصر .

(٣) إبراهيم بن يزيد النخعي . وهو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن سعد بن مالك بن النَّخَع ، وهو فقيه وتابعي من مدينة الكوفة وأحد الأئمة المعروفين بالفقه في الإسلام

إنَّ وَرَاءَ الأكَمةِ ما وَرَاءَهَا

أصله أن أَمَةً واعدت صديقها أن تأتيه وراء الأكمة إذا فرغَت من مهنة أهلها ليلا ، فشغلوها عن الإنجاز بما يأمرونها من العمل ، فقالت حين غلبها الشوقُ : حبستموني وإن وراء الأكَمَة ما وراءها .

يضرب لمن يُفْشِي على نفسه أَمْرَاً مستوراً .

إنَّ فِي المُعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ

هذا من كلام عِمْرَان بن حصين[1] .

والمعاريض : جمع المِعْرَاض ، يقال : عرفتُ ذلك في معراض كلامه ، أي فَحْوَاه . قلت : أجود من هذا أن يقال : التعريض ضدُّ التصريح ، وهو أن يُلْغِزَ كلامه عن الظاهر ، فكلامه مَعْرِض ، والمعاريض جمعه . ثم لك أن تثبت الياء وتحذفها ، والْمَندُحة : السَّعَة ، وكذلك النُّدْحَة ، يقال : إن في كذا نُدْحَةً : أي سَعَة وفُسْحة .

يضرب لمن يحسب أنه مضطر إلى الكذب

إنَّ الْعَصَا مِنَ الْعُصَيَّةِ

قال المفضل : أول من قال ذلك الأفْعَى الجُرْهُمي[2] ، وذلك أن نِزَاراً لما حَضْرَتْه الوفاة جَمَع بنيه مضر وإيادا وربيعة وأنمارا ، فقال : يا بني ، هذه القبة الحمراء - وكانت من أدَم - لمضر ، وهذا الفرس الأدهم والخِباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادم - وكانت شَمْطَاء - لإياد ، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فائتوا الأفعى الجرهمي ، ومنزلُه بنَجْرَان . فتشاجروا في ميراثه ، فتوجَّهُوا إلى الأفعى الجرهمي ، فبيناهم في مسيرهم إليه إذ رأى مُضَر أثَرَ كلأ قد رُعِيَ فقال : إن البعير الذي رَعَى هذا لأعْوَر ، قال ربيعة : إنه لأزْوَرُ ، قال إياد : إنه لأَبتَرُ (الأزور : الذي اعوج صدره أو أشرف أحد جانبي صدره على الآخر ، والأبتر : المقطوع الذنب) قال أنمار : إنه لَشَرُود ، فساروا قليلا فإذا هم برجل يَنْشُد جَمَله ، فسألهم عن البعير ،

---

(١) عمران بن حصين صحابي أسلم هو وأبوه وأبو هريرة في وقت واحد سنة ٧ هـ ، في عام خيبر .

(٢) المقلمس بن عمرو بن قطن بن همدان بن سار بن زيد بن وائل بن عبد شمس بن وائل بن حمير .كان ملكاً على نجران .

فقال مضر : أهو أعور؟ قال : نعم ، قال ربيعة : أهو أزور؟ قال : نعم ، قال إياد : أهو أبتر؟ قال : نعم ، قال أنمار : أهو شَرُود؟ قال : نعم ، وهذه واللّه صفة بعيري فدُلوني عليه ، قالوا : واللّه ما رأيناه ، قال : هذا واللّه الكذبُ . وتَعَلَّق بهم وقال : كيف أصَدِّقكم وأنتم تَصفون بعيري بصفته؟ فساروا حتى قَدموا نَجْران ، فلما نزلوا نادى صاحبُ البعير : هؤلاء أَخَذوا جَمَلي ووصَفوا لي صفته ثم قالوا : لم نَرَهُ ، فاختصموا إلى الأفْعَى ، وهو حَكَم العرب فقال الأفعى : كيف وصفتموه ولم تَرَوْه؟ قال مضر : رأيته رَعَى جانبا وتَرَك جانبا فعلمتُ أنه أعور ، وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثَر والأخرى فاسدته ، فعلمت أنه أَزْوَر ، لأنه أفسَده بشدة وَطْئه لازوراره ، وقال إياد : عرفت أنه أبتر باجتماع بَعَره ، ولو كان ذَيَّالا لَمصَع به ، وقال أنمار : عرفت أنه شَرُود لأنه كان يرعى في المكان الملتفِّ نَبْتُه ثم يَجُوزُه إلى مكان أرقَّ منه وأخبثَ نَبْتاً فعلمت أنه شَرُود ، فقال للرجل : ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ، ثم سألهم : مَنْ أنتم؟ فأخبروه ، فرحَّب بهم ، ثم أخبروه بما جاء بهم ، فقال : أتحتاجون إليَّ وأنتم كما أرى؟ ثم أنزلهم فَذَبَحَ لهم شاة ، وأتاهم بخَمْر : وجلس لهم الأفعى حيث لا يُرَى وهو يسمع كلامهم ، فقال ربيعة : لم أرَ كاليوم لحماً أطيبَ منه لولا أن شاته غُذيت بلبن كلبة ! فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً أطيَبَ منه لولا أن حُبْلَتَها نبتت على قَبر ، فقال إياد : لم أر كاليوم رجلا أسْرَى منه لولا أنه ليس لأبيه الذي يُدْعَى له ! فقال أنمار : لم أر كاليوم كلاما أنْفَعَ في حاجتنا من كلامنا ، وكان كلامُهم بأذُنه ، فقال : ما هؤلاء إلا شياطين ثم دعا القَهْرَمَان فقال : ما هذه الخمر؟ وما أمرها؟ قال : هي من حُبْلَة غرستُها على قبر أبيك لم يكن عندنا شرابٌ أطيبُ من شرابها ، وقال للراعي : ما أمر هذه الشاة؟ قال : هي عَنَاق أرضَعْتُها بلبن كلبة ، وذلك أن أمها كانت قد ماتت ولم يكن في الغنم شاة ولدت غيرها ، ثم أتى أمه فسألها عن أبيه ، فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال ، وكان لا يولد له ، قالت : فخفتُ أن يموت ولا ولد له فيذهب الملك ، فأمكنت من نفسي ابنَ عم له كان نازلا عليه ، فخرج الأفعى إليهم ، فقصَّ القومُ عليه قصتهم وأخبروه بما أوصى به أبوهم ، فقال : ما أشْبَهَ القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى «مضر الحمراء» لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدهم والخِباء الأسود فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الخيلُ الدُّهْمُ ، فقيل «ربيعة الفرس» وما أشبه الخادمَ الشمطاء فهو لإياد ، فصار له الماشية البُلْقُ من الحَبَلَّقِ والنَّقَدِ (الحبلق : غنم صغار لا تكبر ، والنقد : جنس من الغنم قبيح

الشكل) ، فسمى «إياد الشَّمْطَاء» وقضى لأنمار بالدراهم وبما فَضَل فسمى «أنمار الفضل» فصَدَروا من عنده على ذلك ، فقال الأفعى : إن العصا من العُصَية ، وإن خُشَيْناً من أخْشَن ، ومُسَاعدة الخاطل تعد من الباطل ، فأرسلهن مُثُلاً ، وخُشَيْن وأخشن : جَبَلاَن أحدهما أصغر من الآخر ، والخاطل : الجاهل ، والخَطَل في الكلام : اضطرابه ، والعُصَيَّة : تصغير تكبير مثل «أنا عُذَيْقُها المرَجَّبُ وجُذَيْلُها المُحَكَّكُ» والمراد أنهم يشبهون أباهم في جَوْدة الرأي ، وقيل : إن العصا اسم فرس ، والعُصَيَّة اسم أمه ، يراد أنه يحكي الأم في كَرَم العِرْق وشرف العِتْق .

إنَّ الْبَلاَءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِقِ

قال المفضل : يقال : إن أول من قال ذلك أبو بكر الصديق رضي اللّه تعالى عنه فيما ذكره ابن عباس ، قال : حدثني علي ابن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه لما أمرَ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يَعْرِضَ نفسَه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر ، فَدُفِعْنَا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر وكان نَسَّابة فسَلَّم فردُّوا عليه السلام ، فقال : ممن القوم؟ قالوا : من ربيعة ، فقال : أمنْ هامتها أم من لَهَازمها؟ قالوا : من هامتها العظمى ، قال : فأيُّ هامتها العظمى أَنتم؟ قالوا : ذُهْلٌ الأكبر ، قال : أفمنكم عَوْف الذي يقال له لا حُرّ بوَادي عَوْف؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم بِسْطَام ذُو اللَّواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا : لا؟ قال : أفمنكم جَسَّاس بن مُرَّةَ حامي الذِّمار ومانعُ الجار؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم الحَوْفَزَان قاتل الملوك وسالبها أنفَسها؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم المزدَلف صاحب العِمَامة الفَرْدة؟ قالوا : لا ، قال : أفأنتم أخوال الملوك من كِنْدَة؟ قالوا : لا ، قال : فلستم ذُهْلا الأكبر ، أنتم ذهل الأصغر ، فقام إليه غلام قد بَقَلَ وَجْههُ يقال له دغفل ، فقال :

إنَّ عَلَى سائلنا أنْ نَسْأَلَه   وَالْعِبْءُ لاَ تَعْرِفُهُ أوْ تَحْمِلَهُ

يا هذا ، إنكَ قد سألتنا فلم نكتمك شيئاً فمن الرجل أنت؟ قال : رجل من قريش ، قال : بخ بخ أهل الشرف والرياسة ، فمن أي قرش أنت؟ قال : من تَيْم بن مُرَّة ، قال : أمْكَنْتَ واللّه الرامي من صفاء الثغرة ، أفمنكم قُصَيّ بن كلاب الذي جَمَعَ القبائل من فِهْر وكان يُدْعَى مُجَمِّعاً؟ قال : لا ، قال : أفمنكم هاشم الذي هَشَم الثريدَ لقومه ورجالُ مكة مُسْنتُونَ عِجَاف؟ قال : لا ، قال : أفمنكم شَيْبَةُ الحمد مُطْعم طير السماء الذي كأن في وجهه قمراً يضيء ليل الظلام الداجي؟ قال : لا ، قال :

أفمن المُفيضينَ بالناس أنت؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل النَّدْوَة أنت؟ قال : لا ، قال : أفمن أهلِ الرِّفادة أنت؟ قال : لا ، قال : أفمن أهلِ الحِجَابة أنت؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل السِّقَاية أنت؟ قال : لا ، قال : واجتذبَ أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال دغفل : صادَفَ دَرأ السيلَ دَرْأً يصدعُهُ ، أما واللّه لو نبتَّ لأخبرتك أنك من زَمَعَات قريش أو ما أنا بدغفل ، قال ، : فتبسَّم رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، قال علي : قلت لأبي بكر : لقد وقَعْتَ من الأعرابي على باقِعَةٍ ، قال : أجَلْ إن لكل طامة طامة ، وإن البلاء مُوَكَّل بالمنطق

إنَّ الْبَيْعَ مُرْتَخَصٌ وَغَالٍ

قالوا : أول مَنْ قال ذلك أُحَيْحَةُ بن الجُلاَح الأوْسِيُّ سيد يثرب ، وكان سبب ذلك أن قيس بن زهير العبسي[1] أتاه – وكان صديقا له – لما وقع الشر بينه وبين بني عامر ، وخرج إلى المدينة ليتجَهَّز لقتالهم حيث قتل خالدُ بن جعفر زهيرَ بن جَذيمة ، فقال قيس لأحَيْحَة : يا أبا عمرو ، نُبِّئت أن عندك دِرْعا فبِعْنيهَا أو هَبْها لي ، فقال : يا أخا بني عَبْس ليس مثلي يبيع السلاح ولا يفضل عنه ، ولَولا أني أكره أن أستلئم إلى بني عامر لوهبتها لك ولحملتك على سَوَابق خيلي ، ولكن اشْتَرِها بابن لَبُون فإن البيع مرتخص وغال ، فأرسلها مثلا ، فقال له قيس : وما تكره من استلآمك إلى بني عامر؟ قال : كيف لا أكره ذلك وخالد بن جعفر الذي يقول :

إذا مــا أرَدْتَ العــزَّ فــي دار يثرب ... فنــادِ بصــوت يا أحَيْحَــةُ تُمْنَع
رأينــا أبــا عَمْــرٍ وأحَيْحَــةَ جَــارُهُ ... يَبِيــتُ قريــرَ العــين غيــرَ مُرَوَّعَ
ومــن يأته من خائــف يَنْــسَ خوفَه ... ومــن يأته من جائع البطنِ يَشْبَعَ
فضائــلُ كَانــت لَلجُــلاَح قديمــة ... وأكْــرِمْ بفَخْرٍ مــن خصالك أربعَ

أتَتْك بحَائنٍ رِجْلاَهُ

كان المفضَّل يخبر بقائل هذا المثل فيقول : إنه الحارث بن جَبَلَة الغَسَّاني[2] ،

(١) قيس بن زهير بن جَذيمة العبسي : هو الفارس المشهور الذي كان على يده حرْب داحس والغبراء بين بني عَبْس وبني فزارة في الجاهلية .

(٢) الحارث بن جبلة هو أحد ملوك غسان هو فارس يوم حليمة حيث انتصر جيشه على جيش المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة .

قاله للحارث بن عيف العبدي ، وكان ابن العيف قد هَجَاه ، فلما غزا الحارث بن جَبَلة المنذرَ ابن ماء السماء كان ابن العيف معه ، فقُتِل المنذر ، وتفرقت جموعُه ، وأسِرَ ابنُ العيف ، فأتى به إلى الحارث بن جَبَلة ، فعندها قال : أتتك بحائن رجلاه ، يعني مسيرَه مع المنذر إليه ، ثم أمر الحارث سيافه الدلامص فضربه ضربةً دقت منكبه ، ثم برأ منها وبه خَبَل وقيل : أول مَنْ قاله عَبيدُ بن الأبْرَصِ حين عَرَض للنعمان بن المنذر في يوم بؤسه ، وكان قَصده ليمدحه ، ولم يعرف أنه يومُ بؤسه ، فلما انتهى إليه قال له النعمان : ما جاء بك يا عَبيد؟ قال : أتتك بحائن رجلاه ، فقال النعمان : هلا كان هذا غَيْرَك؟ قال : الْبَلاَيا على الحْوَايا ، فذهبت كلمتاه مثلا .

إنَّما أُكلِتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأبْيَضُ

يورى أن أمير المؤمنين عليا رضي اللّه تعالى عنه قال : إنما مَثَلي ومثلُ عثمان كمثل أنوار ثلاثة كنَّ في أَجَمةٍ أبيضَ وأسودَ وأحمرَ ، ومعهن فيها أسد ، فكان لا يقدرُ منهن على شيء لاجتماعهن عليه ، فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يُدلُّ علينا في أَجَمتنا إلا الثورُ الأبيضُ فإن لونه مشهور ولوني على لونكما ، فلو تركتماني آكُلُه صفَتْ لنا الأَجمة ، فقالا : دونَكَ فكُلْه ، فأكله ، ثم قال للأحمر : لوني على لونك ، فَدَعْني آكل الأسود لتصفو لنا الأجَمة ، فقال : دونَكَ فكُلْه ، فأكله ، ثم قال للأحمر : إني آكلُكَ لا مَحالَة ، فقال : دعني أنادي ثلاثا ، فقال : افْعَلْ ، فنادى ألاَ إني أكِلْتُ يوم أكِلَ الثورُ الأبيض ، ثم قال علي رضي اللّه تعالى عنه : ألا إني هُنْتُ – ويروى وَهَنْتُ – يوم قتل عثمان ، يرفع بها صوته .

يضربه الرجل يُرْزَأ بأخيه

إذَا حَكَكْتُ قَرْحَةً أدْمَيْتُها

يحكى هذا عن عمرو بن العاص ، وقد كان اعتزل الناسَ في آخر خلافة عثمان بن عفان رضي اللّه تعالى عنه ، فلما بلغة حَصْره ثم قَتْله قال : أنا أبو عبد اللّه إذا حككتُ قَرْحَةً أدميتها .

إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لاَ يَبْغِ عَلَيْكَ القَمَرُ

قال المفضل بن محمد : بلغنا أن بني ثعلبة ابن سعد بن ضبة[1] في الجاهلية تَرَاهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة ، فقالت طائفة : تطلع الشمس والقمر يُرَى ، وقالت طائفة : بل يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس فتراضَوْا برجل جَعَلوه بينهم ، فقال رجل منهم : إن قومي يبغون علي ، فقال العَدْل : إِنْ يَبْغ عليك قومُك لا يبغ عليك القمر ، فذهب مثلاً .

يضرب للأمر المشهور

إحْدَى حُظَيَّاتِ لُقْمَانَ

ولقمان هذا هو : لُقْمان بن عاد ، وحديثه أنه كان بينه وبين رجلين من عاد ، يقال لهما عمرو وكعب ابنا تقْن بن معاوية قتال ، وكانا رَبَّيْ إبل ، وكان لقمان ربّ غنم فأعجبت لقمانَ الإبلُ ، فراودهما عنها ، فأبَيَا أن يبيعاه ، فعمد إلى ألبان غَنَمه من ضأن ومِعْزًى وأنافِحَ من أنافح السَّخْل ، فلما رأيَا ذلك لم يلتفتا إليه ولم يرغبا في ألبان الغنم ، فلما رأى ذلك لقمان قال : اشتَرياها ابْنَيْ تقْن ، أقبلَتْ مَيْسا ، وأدبَرتْ هَيْسا ، وملأت البيتَ أقطاً وحَيْسا . اشترياها ابْنَيْ تقْن ، إنها الضأن تُجَزّ جفَالاَ ، وتُنْتَج رِخَالا ، وتحلب كَثَباً ثقالا . فقالا : لا نشريها يالُقْمَ ، إنها الإبل حملْنَ فاتسقْنَ ، وجرَيْنَ فأَعْنَقْنَ ، وبغير ذلك أفلتن ، يَغْزُرْن إذا قطن . فلم يبيعاه الإبل ولم يشريا الغنم ، فجعل لقمان يُدَاورهما ، وكانا يَهَابانه ، وكان يلتمس أن يغفلا فيشدّ على الإبل ويَطْرُدها ، فلما كانَ ذاتَ يوم أصابا أرنباً وهو يَرْصُدهما رجاء أن يصيبهما فيذهب بالإبل ، فأخذا صفيحة من الصَّفا ، فجعلها أحدُهما في يده ، ثم جعل عليهما كومةً من تراب قد أَحْمَيَاه فملأ الأرنب في ذلك التراب فلما أَنْضَجَاها نَفَضَا عنها التراب فأكلاها ، فقال لقمان : ياويله أنيئةً أكلاها ، أم الريح أَقْبَلاَها ، أم بالشِّيح اشتَوَيَاها ، ولما رآهما لقمان لا يغفلان عن إبلهما ، ولم يجد فيهما مطمعاً لقيهما ومع كل واحد منهما جَفير مملوء نَبْلاً وليس معه غير نَبْلَين ، فخدعهما فقال : ما تصنعان بهذه النبل الكثيرة التي معكما؟ إنما هي حَطَب ، فوالله ما أحمل معي غير نَبْلِين ، فإن لم أُصِبْ

---

(١) بطن من ضبّة ، من طابخة ، من العدنانية ، وهم : بنو ثعلبة ابن سعد بن ضبة . من أيامهم نقا الحسن لبني ثعلبة هؤلاء على بكر بن وائل .

بهما فلستُ بمصيب ، فعمدا إلى نبلهما فنثَراها غير سهمين ، فعمد إلى النبل فحواها ، ولم يُصب لقمان منهما بعد ذلك غرّة وكان فيما يذكرون لعمرو بن تقْن امرأة فطلقها ،فتزوجها لقمان ، وكانت المرأة وهي عند لقمان تكثر أن تقول : لافَتَى إلا عمرو ، وكان ذلك يغَيظ لقمان ، ويسوءه كثرة ذكرها ، فقال لقمان : لقد كثَرْت في عمرو ، فوالله لأقتلنَّ عمراً ، فقالت : لا تفعل . وكانت لابني تقْن سمُرة يستظلاَّنَ بها حتى ترد إبلهما فيسقيانها ، فصعدها لقمان ، واتخذ فيها عُشًا رجاء أن يصيب من ابني تقْن غرَّة ، فلما وردت الإبل تجرَّد عمرو وأكَبَّ على البئر يستقي ، فرماه لقمان من فوقه بسَهْم في ظهره ، فقال : حَسّ ، إحدى حُظَيات لقمان ، فذهب مثلا ، ثم أَهْوَى إلى السهم فانتزعه ، فوقع بصره على الشجرة ، فإذا هو بلقمان ، فقال : انزل ، فنزل ، فقال : اسْتَقِ بهذه الدلو فزعموا أن لقمان لما أراد أن يرفع الدلو حين امتلأت نَهَضَ نهضةً فضَرَطَ ، فقال له عمرو : أَضرَط آخرَ اليوم وقد زال الظهر؟ فأرسلها مثلاً . ثم إن عمراً أراد أن يقتل لقمان ، فتبَّسم لقمان : فقال عمرو : أضَاحك أَنْت؟ قال لقمان : ما أَضْحَكُ إلا من نفسي ، أما إني نُهيتُ عما ترى ! فقال : ومَنْ نهاك؟ قال : فلانة ، قال عمرو : أَفَلِي عليك إن وَهَبْتُك لها أن تُعْلمها ذلك؟ قال : نعم ، فخلّى سبيله ، فأتاها لقمان فقال : لا فَتًى إلا عمرو ، فقالت : أقد لقيته؟ قال : نعم لقيته فكان كذا وكذا ثم أَسَرَني فأراد قتلي ثم وَهَبني لك ، قالت : لا فَتًى إلا عمرو .

يضرب لمن عُرِف بالشر ، فإذا جاءت هَنَةٌ من جنس أفعاله قيل : إحْدَى حُظَيات لقمان أي أنه فَعْلَةَ من فَعَلاَته

إنَّكَ خَيْرٌ مِنْ تَفَارِيقِ العَصا

قالوا : هذا من قول غُنَيَّة الأعرابية لابنها وكان عَارما كثيرَ التلفت إلى الناس مع ضعف أَسْرٍ ودقة عظم ، فواثب يوماً فتى فقطع الفتى أنفه ، فأخذت غُنيَة ديةَ أنفه ، فحَسُنت حالها بعد فقر مُدْقع ، ثم واثب آخر فقطع أذنه ، فأخذت ديَتَها ، فزادت حُسْنَ حال ، ثم واثب آخر فقطع شَفَته ، فأخذت الدية ، فلما رأت ما صار عندها من الإبل والغنم والمتَاع ، وذلك من كَسْب جوارح ابنها حَسُن رأيها فيه وذكرته في أرجوزتها فقالت :

أَحْلِفُ بالْمَرْوَة حَقّاً وَالصَّفَا   أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْ تَفَارِيقِ الْعَصَا

يضرب فيمن نَفْعُه أَعَمَّ من نفع غيره

إنَّ العَصا قُرِعَتْ لِذِي الحِلْم

قيل : إن أول من قُرعت له العصا عمرُو بن مالك بن ضُبَيْعة[١] أخو سعد بن مالك الكناني ، وذلك أَن سعداً أتى النعمانَ بن المنذر[٢] ومعه خيل له قادها ، وأخرى عَرَّاها ، فقيل له : لم عَرّيت هذه وقُدْت هذه؟ قال : لم أقد هذه لأمْنَعَهَا ولم أعر هذه لأهَبَهَا . ثم دخل على النعمان ، فسأله عن أرضه ، فقال : أما مَطَرها فغَزير ، وأما نَبْتها فكثير ، فقال له النعمان : إنك لَقَوَّال ، وإن شئت أتيتك بما تَعْيا عن جوابه ، قال : نعم ، فأمر وَصيفاً له أن يَلْطِمَهُ ، فلطَمه لَطْمة ، فقال : ما جواب هذه؟ قال : سَفيه مأمور ، قال : الْطِمْه أخرى ، فلطمه ، قال : ما جوابُ هذه؟ قال : لو أَخذ بالأولى لم يعد للأخرى ، وإنما أراد النعمان أن يتعدَّى سعد في المنطق فيقتله ، قال : الطمه ثالثة ، فلطمه ، قال : ما جواب هذه؟ قال : رَبٌّ يؤدب عبده ، قال : الْطِمْه أخرى ، فلطمه ، قال : ما جواب هذه؟ قال : مَلَكْتَ فأسْجِحْ ، فأرسلها مثلاً ، قال النعمان : أصَبْتَ فامكُثْ عندي ، وأعجبه ما رأى منه ، فمكث عنده ما مكث . ثم إنه بَدَا للنعمان أن يبعث رائداً ، فبعث عمراً أخا سَعْد ، فأبطأ عليه ، فأغضبه ذلك فأقسم لئن جاء ذامّاً للكلأ أو حامداً له ليقتلنه ، فقدم عمرو ، وكان سعد عند الملك ، فقال سعد : أتأذن أن أُكلمه؟ قال : إذَنْ يقطع لسانك ، قال : فأشير إليه؟ قال : إذن تقطع يدك ، قال : فأقرع له العصا؟ قال : فَاقْرَعْها ، فتناول سعد عَصَا جليسه وقَرَع بعصاه قرعةً واحدة ، فعرف أنه يقول له : مكانك ، ثم قرع بالعصا ثلاث قرعات ، ثم رفعها إلى السماء ومَسَح عَصَاه بالأرض ، فعرف أنه يقول له : لم أَجد جَدْباً ، ثم قرع العصا مراراً ثم رفعها شيئاً وأومأ إلى الأرض ، فعرف أنه يقول : ولا نَبَاتاً ، ثم قرع العصا قرعةً وأقبل نحو الملك ، فعرف أنه يقول : كَلِّمه ، فأقبل عمرو حتى قام بين يدي الملك ، فقال له : أخْبِرْنِي هل حمدت خِصْباً أو ذممت جَدْبا؟ فقال عمرو : لم أذم هُزْلا ، ولم أحمد بَقْلا ، الأرضُ مُشْكِلة لا خِصْبُها يعرف ، ولا جَدْبُها يوصف ،

---

(١) عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة . وهو المرقش الأكبر شاعر جاهلي من الطبقة الأولى له قصيدة تدخل في المعلقات ، وسمي المرقش لقوله : الدار قفر والرسوم كما . . . رقش في ظهر الأديم قلم

(٢) النعمان بن المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي ، الملقب بأبي قابوس كان مسيحيا نسطوريا تسلم مقاليد الحكم بعد أبيه ، وهو من أشهر ملوك المناذرة قبل الإسلام .

رائدُها واقف ، ومُنْكِرها عارف ، وآمنُها خائف . قال الملك : أَوْلى لك ، فقال سعد بن مالك يذكر قَرْع العصا :

قَرَعْتُ العَصَا حتى تبيَّنَ صاحِبِي ولم تَكُ لولا ذاك في القوم تُقْرَعُ
فقال : رأيتُ الأرضَ ليس بمُمْحِل ولا سارح فيها على الرعْي يَشْبَعُ
سَوَاء فلا جَدْب فيعرفَ جَدْبُهَا ولا صَابَهَا غَيْثٌ غَزير فتُمْرِعُ
فَنَجَّى بها حَوْباء نَفْس كريمة وقد كاد لولا ذَاكَ فيهِمْ تقطعُ

هذا قول بعضهم . وقال آخرون في قولهم «إن العصا قرعت لذي الحلم» : إن ذا الحلم هذا هو عامر بن الظَّرِب العَدْوَاني ، وكان من حكماء العرب ، لا تَعْدِل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً ، فلما طَعَنَ في السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبنيه : إنه قد كبرَتْ سنِّي وعرض لي سَهْو ، فإذا رأيتموني خرجْتُ من كلامي وأخذت في غيره فاقرعوا لي المِجَنَّ بالعصا ، وقيل : كانت له جارية ، يقال لها خصيلة ، فقال لها : إذا أنا خُولِطْتُ فاقرعي لي العصا ، وأُتيَ عامر بِخُنْثَى ليحكم فيه ، فلم يَدْر ما الحكم ، فجعل ينحَر لهم ويُطعمهم ويدافعهم بالقضاء ، فقالت خصيلة : ما شأنك؟ قد أتلفْتَ مالك ، فخبرها أنه لا يدري ما حكم الخنثى ، فقالت : أَتْبِعْهُ مَبَاله . قال الشعبي : فحدثني ابن عباس به قال : فلما جاء الله بالإسلام صارت سنة فيه .

وعامر هو الذي يقول :

أرى شَعَرات على حاجبَيّ بيضاً نبتن جميعاً تُؤَامَا
ظَلْلتُ أهاهي بهنَّ الكلا ب أَحْسَبُهُنَّ صِوَاراً قياما
وأَحْسِبُ أَنْفِي إذا ما مَشَيْـ ـتُ شَخْصاً أمامي رآني فقاما

يقال : إنه عاش ثلثمائة سنة ، وعو الذي يقول :

تقول ابنتي لما رأتني كأنني سَليمُ أَفَاع ليلُهُ غير مودع
وما المْوْتُ أفناني ، ولكن تتابَعَتْ على سنُونٌ منْ مَصيف ومَرْبَع
ثَلاَثُ مئينَ قد مَرَرْنَ كواملاً وها أنا هذا أرتجي مرّ أَرْبَعَ
فأصبحتُ مثلَ النَّسْر طارَتْ فراخُه إذا رام تَطْياراً يقال له : قَعَ
أُخَبِّر أَخْبَارَ القرون التي مَضَتْ ولا بدَّ يوماً أن يُطَار بمَصْرَعِيَ

قال ابن الأعرابي : أول من قرعت له العصا عامر بن الظَّرِب العَدْوَاني ، وربيعة تقول : بل هو قيس بن خالد بن ذي الجَدَّيْن وتميم تقول : بل هو ربيعة بن مُخَاشِن

أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم ، واليمن تقول : بل هو عمرو بن حُمَمَة الدوسيّ .

لِـــذِي الحِْلْم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصَا وما عُلِّـم الإنســـان إلا لِيَعْلَمَـا

والمثل يضرب لمن إذا نُبِّه انتبه

آكُلُ لحمِي ولاَ أدَعُهُ لآكِلٍ

أول من قال ذلك العَيَّار بن عبد الله الضبيّ ثم أحد بني السِّيد بن مالك بن بكر بن سَعْد بن ضبة ، وكان من حديثه فيما ذكر المفضل أن العَيَّار وفَد هو وحُبَيْش ابن دُلَف وضِرَار بن عَمْرو الضَّبِّيَّان على النعمان ، فأكرمهم وأجرى عليهم نُزُلاً ، وكان العيار رجلا بطالا يقول الشعر ويضحك الملوك ، وكان قد قال :

لا أذْبَـــحُ النـــازيَ الشَّبـــــوب ولا أسْلَـــخُ يــــومَ المُقَامـــة العُنُقَـــــا

وكان منزلهم واحدا ، وكان النعمان باديا فأرسل إليهم بجُزُر فيهن تيس فأكلوهن غير التيس فقال ضِرار للعَيَّار وهو أحدثهم سنا : إنه ليس عندنا من يسلخ هذا التيس فلو ذبحته [وسلخته] وكفيتنا ذلك ، قال العيار : ما أبالي أن أفعل ، فذبح التيس وسَلَخه ، فانطلق ضِرار إلى النعمان فقال : أبيت اللعن ! إن العيار يسلخ تيسا ، قال : أبعد ما قال؟ قال : نعم ، فأرسل إليه النعمان فوجَده الرسولُ يسلخ تيسا فأتى به ، فقال له : أين قولك * لا أذبح النازي الشبوب*؟ وأنشده البيت ، فخجِل العَيَّار ، وضحك النعمان منه ساعة ، وعَرَف العيار أن ضِرارا هو الذي أخبر النعمان بما صنع ، وكان النعمان يجلس بالهاجرة في ظل سُرَادقه ، وكان كسا ضرار حلةً من حُلَله ، وكان ضرار شيخا أعرج بادنا كثير اللحم ، قال : فسكت العيار حتى كانت ساعة النعمان التي يجلس فيها في [ظل] سُرَادقه ويؤتى بطعامه عمد العيار إلى حُلَّة ضرار فلبسها ، ثم خرج يتعارج حتى إذا كان بحيال النعمان كشف عنه فخرئ ، فقال النعمان : ما الضرار قاتله الله لا يَهَابُني عند طعامي؟ فغضب على ضرار ، فخلف ضرار ما فعل ، قال : ولكني أرى أن العَيَّار فعل هذا من أجل أني ذكرت سَلْخه التيسَ ، فوقع بينهما كلام حتى تشاتما عند النعمان ، فلما كان بعد ذلك ووقع بين ضرار وبين أبي مَرْحَب أخي بني يَرْبُوع ما وقع تناول أبو مَرْحَب ضرارا عند النعمان والعيار شاهد ، فشتم العيار أبا مرحب وزجَره فقال النعمان : أتشتم أبا مَرْحَب في ضرار وقد سمعتك تقول له شرا مما قال له أبو مرحب؟ فقال العيار : أبيت اللعن

وأسعدك إلهك ، آكل لحمي ولا أدعه لآكل ، فأرسلها مثلا ، فقال النعمان : لا يملك مَوْلىً لمولى نصرا ، فأرسلها مثلا .

إنَّ أخِي كانَ مَلكِي

قال أبو عمرو : إن أبا حَنَش التغلبي لما أدْرَكَ شَرَحْبيل عمّ امرئ القيس ، وكان شَرَحْبيل قتل أخا أبي حَنَش قال : يا أبا حَنَش اللَّبَن اللَّبَن ، أي خُذْ مني الديَةَ ، فقال له أبو حنش : هَرَقْتَ لبناً كثيراً ، أي قتلت أخي ، فقال له شرحبيل : أمَلِكاً بسُوقة؟ أي أتقتلُ ملكا بدل سوقة ، فقال أبو حنش : إن أخي كان مَلِكِي

إلَيْكَ يُسَاقُ الحدِيثُ

زعموا أن رجلا أتى امرأةً يخطُبها ، فأنعظ وهي تكلمه ، فجعل كُلَّما كلمتْهُ ازداد إنعاظا ، وجعل يستحي ممن حضرها من أهلها ، فوضع يده على ذكره وقال : إلَيْكَ يُسَاقُ الحديثُ ، فأرسلها مثلا . وقال ابن الكلبي : جَمَع عامر بن صَعْصَعَة بنيه ليُوصِيَهم عند موته ، فمكث طويلاً لا يتكلم ، فاستحثهُ بعضهم ، فقال له : إليك يساق الحديث

أنَا النذِّيرُ الْعُرْيانُ

قال ابن الكلبي : من حديث النذير العريان أن أبا دُوَاد الشاعرَ كان جاراً لِلْمُنْذر ابن ماء السماء(1) ، وأن أبا دُوَاد نازَع رجلا بالحِيرة من بَهْراء يقال له رقبة بن عامر ، فقال له رقبة : صالحني وحالفني ، قال أبو داود : فمن أين تعيش أبا داود؟ فواللّه لولا ما تصيب من بَهْرَاء لهلكت ، ثم افترقا على تلك الحالة ، وإن أبا دُوَاد أخرج بَنِينَ له ثلاثةً في تجارة إلى الشام ، فبلغ ذلك رقبة ، فبعث إلى قومه فأخبرهم بما قال له أبو دُوَاد عند المنذر ، وأخبرهم أن القوم وَلَدُ أبي دُوَاد ، فخرجوا إلى الشام فقتلوهم وبعثوا برءوسهم

(1) المنذر بن امرئ القيس بن النعمان (الملقب بابن ماء السماء) أحد ملوك الحيرة ، حكم في الفترتين الأولى (٥١٤-٥٢٤) والثانية (٥٢٨-٥٥٤) ، أمه هي مارية بنت عوف بن جشم ابن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن الخزرج بن تيم الله بن النمر ابن قاسط ، وقد سميت بماء السماء لجمالها وحسنها .

إلى رقبة ، فلما أتته الرءوس صنَع طعاماً كثيراً ، ثم أتى المنذر فقال له : قد اصطنعت لك طعاماً فأنا أحب أن تَتَغَدّى ، فأتاه المنذر وأبو دُوَاد معه ، فبينا الجفان تُرْفَع وتوضع إذ جاءت جَفْنة عليها أحد رؤس بني أبي دُوَاد ، فقال أبو داود : أَبَيْتَ اللَّعْنَ إني جارُكَ وقد ترى ما صنع بي ، وكان رقبة جارا للمنذر ، قال فوقعَ المنذر منهما في سوأة ، وأمر برقبة فحبس ، وقال لأبي دُوَاد : ما يرضيك؟ قال : أن تبعث بكتيبتيك الشَّهْباء والدَّوْسَر إليهم ، فقال له المنذر : قد فعلْتُ ، فوجَّه إليهم الكتيبتين ، قال : فلما رأى ذلك رقبة مِنْ صُنْع المنذر قال لامرأته : الْحقِي بقومك فأنذريهم ، فعمدت إلى بعض إبل البَهْرَاني فركبته ثم خرجت حتى أتت قومها فعرّفت ، ثم قالت : أنا النَّذيرُ العُرْيَان ، فأرسلتها مثلا ، وعرف القومُ ما تريد ، فَصَعدوا إلى علياء الشام ، وأقبلت الكتيبتان فلم تصيبا منهم أحدا ، فقال المنذر لأبي دواد : قد رأيتَ ما كان منهم ، أفيُسْكِتك عني أن أعطيك بكل رأس مائتي بعير؟ قال : نعم ، فأعطاه ذلك ، وفيه يقول قيس بن زهير العبسي :

سأفْعَلُ مَا بَدا لِيَ ثُمَّ آوِي ... إلى جارٍ كَجَارِ أبِي دُوَاد

وقال غيره : إنما قالوا «النذير العريان» لأن الرجل إذا رأى الغارةَ قد فَجَأَتْهم وأراد إنذار قومه تجرَّد من ثيابه وأشار بها ليعلم أنه قد فجاءهم أمر ، ثم صار مثلاً لكل أمر تُخَاف مفاجأته ، ولكل أمر لا شبهة فيه .

إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ

أول من قال ذلك سَهْل بن مالك الفَزَاري ، وذلك أنه خرج يريد النعمان ، فمر ببعض أحياء طيء ، فسأل عن سيد الحي ، فقيل له : حارثة بن لأم ، فأمَّ رَحْلَه فلم يُصِبْه شاهدا فقالت له أخته : انْزِلْ في الرَّحْب والسَّعَة ، فنزل فأكرمته ولاطفته ، ثم خرجت من خِبائها فرأى أجْمَلَ أهل دهرها وأكملهم ، وكانت عَقيلَةَ قومها وسيدة نسائها ، فرقع في نفسه منها شيء ، فجعل لا يَدْري كيف يرسل إليها ولا ما يوافقها من ذلك ، فجلس بفناء الخباء يوماً وهي تسمع كلامه ، فجعل ينشد ويقول :

يَا أخْتَ خَيْرِ الْبَدْوِ وَالْحَضَارَهْ ... كَيْفَ تَرَيْنَ فِي فَتَى فَزَارَهْ
أصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ ... إيَّاكِ أعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ

فلما سمعت قوله عرفت أنه إياها يعني ، فقالت : ماذا بِقَوْلِ ذي عقل أريب ، ولا رأيٍ مصيب ، ولا أنف نجيب ، فأقِمْ ما أقَمْتَ مكرَّما ثم ارْتَحِلْ متى شئت مسلماً ،

ويقال أجابته نظماً فقالت :

إنِّـي أقُـولُ يَـا فَتَـى فَـزَارَهْ   لاَ أبْتَغـي الـزَّوْجَ وَلاَ الدَّعَـارَهْ
وَلاَ فِـرَاقَ أَهْـلِ هـذِي الجْـارَهْ   فَارْحَـلْ إلـىَ أهْلِـكَ باسْتخَارَهْ

فاسْتَحْيا لفتى وقال : ما أردتُ منكرا واسوأتاه ، قالت : صدقْتَ ، فكأنها اسْتَحْيَتْ من تسرُّعها إلى تُهمَته ، فارتحل ، فأتى النعمان فَحَبَاه وأكرمه ، فلما رجع نزل على أخيها ، فبينا هو مقيم عندهم تطلَّعت إليه نفسُها ، وكان جميلا ، فأرسلت إليه أنِ اخْطُبني إن كان لك إليَّ حاجة يوما من الدهر فإني سريعة إلى ما تريد ، فخطبها وتزوجها وسار بها إلى قومه .

يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئاً غيره .

أبِي يَغْزو، وأُمِّي تُحَدِّثُ.

قال ابن الأعرابي : ذكروا أن رجلا قدم من غَزَاة ، فأتاه جيرانُه يسألونه عن الخبر ، فجعلت امرأته تقول : قَتَل من القوم كذا ، وهَزَم كذا ، وجُرِح فلان ، فقال ابنها متعجبا : أبي يغزو وأُمي تحد

إنْ كنْتِ غضْبَى فعَلَى هَنِك فاغْضَبِي.

قال يونس بن حبيب : يقال : زَنَتْ ابنةٌ لرجل من العرب وهي بكر ، فناداها أبوها يا فلانة ، فقالت : إني غَضْبَى ، قال لها أبوها : ولم؟ قالت : إني حُبَيْلى ، قال : إن كنت غضبى ، المَثَلَ ، أي هذا ذنبك .

يضرب في موضع قولهم «يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَ»

إنّ غَداً لنَاظِرِه قَرِيبُ.

وأول من قال ذلك قُرَاد بن أجْدَعَ(١) ، وذلك أن النعمان بن المنذر خرج يتصيد على فرسه اليَحْمُوم ، فأجراه على أثر عَيْر ، فذهب به الفرس في الأرض ولم يقدر

(١) قُراد بن أجدع الكلبي . شاعر جاهلي من بني الحداقية ، من بني جشم بن بكر بن عامر الأكبر ، كان نصرانياً ، ومن مجالسي ملوك الحيرة .وهو صاحب قصة الوفاء المعروفة التي كفل فيها حنظلة الطائي يوم عزم النعمان بن المنذر (أو المنذر بن ماء السماء) قتله في يوم بؤسه .

عليه ، وانفرد عن أصحابه ، وأخذته السماء ، فطلب مَلْجأ ياجأ إليه ، فدُفع إلى بناء فإذا فيه رجل من طيء يقال له حَنْظَلة ومعه امرأة له ، فقال لهما : هل من مَأوًى ، فقال حنظلة : نعم ، فخرج إليه فأنزله ، ولم يكن للطائي غير شاة وهو لا يعرف النعمان ، فقال لامرأته : أرى رجلاً ذا هيئة وما أخْلَقَه أن يكون شريفاً خطيراً فما الحيلة؟ قالت : عندي شيء من طَحين كنت ادّخرته فاذبح الشاةَ لأتخذ من الطحين مَلَّة ، قال : فأخرجت المرأة الدقيق فخبزت منه مَلَّة ، وقام الطائيّ إلى شاته فاحتلبها ثم ذبحها فاتخذ من لحمها مَرَقة مَضِيرة ، وأطعمه من لحمها ، وسقاه من لبنها ، واحتال له شراباً فسقاه وجعل يُحَدثه بقية ليلته ، فلما أصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ، ثم قال : يا أخا طيء اطلب ثَوَابك ، أنا الملك النعمان ، قال : أفعل إن شاء الله ، ثم لحق الخيل فمضى نحو الحِيرة ، ومكث الطائي بعد ذلك زماناً حتى أصابته نَكْبة وجَهْد وساءت حاله ، فقالت له امرأته : لو أتيتَ الملك لأحسن إليك ، فأقبلَ حتى انتهى إلى الحِيرَة فوافق يومَ بؤس النعمان ، فإذا هو واقف في خَيْله في السلاح ، فلما نظر إليه النعمان عرفه ، وساءه مكانه ، فوقف الطائيّ المنزولُ به بين يدي النعمان ، فقال له : أنت الطائيّ المنزول به؟ قال : نعم ، قال : أفلا جِئْتَ في غير هذا اليوم؟ قال : أبَيْتَ اللعن ! وما كان علمي بهذا اليوم؟ قال : والله لو سَنَحَ لي في هذا اليوم قابوسُ ابني لم أجد بُدّا من قتله ، فاطلب حاجَتَكَ من الدنيا وسَلْ ما بدا لك فإنك مقتول ، قال : أبَيْتَ اللعنَ ! وما أصنع بالدنيا بعد نفسي . قال النعمان : إنه لا سبيل إليها ، قال : فإن كان لا بدّ فأجّلْني حتى أُلِمَّ بأهلي فأوصي إليهم وأهيئ حالهم ثم أنصرف إليك ، قال النعمان : فأقم لي كَفيلاً بموافاتك ، فالتفت الطائي إلى شريك بن عمرو بن قيس من بني شيبان ، وكان يكنى أبا الحَوْفَزَان وكان صاحب الردافة ، وهو واقف بجنب النعمان ، فقال له :

يا شريكا يا ابن عمرو … هل من الموت مَحَالة
يا أخا كل مُضَاف … يا أخا مَنْ لا أخا له
يا أخا النعمان فُكَّ الـ … ـيوم ضَيْفاً قد أتى له
طالما عالج كرب الـ … ـموت لا ينعم باله

فأبى شريك أن يتكفل به ، فوثب إليه رجل من كلب يقال له قُرَاد بن أجْدَع ، فقال للنعمان : أبيت اللَّعْن ! هو عليّ ، قال النعمان : أفعلت؟ قال : نعم ، فضمّنه إياه ثم أمر للطائي بخمسمائة ناقة ، فمضى الطائيّ إلى أهله ، وجَعَلَ الأجَلَ

حولا من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل ، فلما حال عليه الحولُ وبقي من الأجل يوم قال النعمان لقُرَاد :

ما أراك إلا هالكاً غَداً ، فقال قُرَاد :

فــإن يَــكُ صَدْرُ هـذا اليــوم وَلّــى ... فـــإنَّ غَــــداً لناظــــرِه قَرِيبُ

فلما أصبح النعمان ركب في خيله ورَجْله متسلحاً كما كان يفعل حتى أتى الغَرِيَّيْنِ فوقف بينهما ، وأخرج معه قُرَادا ، وأمر بقتله ، فقال له وزراؤه : ليس لك أن تقتلَه حتى يستوفي يومه ، فتركه ، وكان النعمان يشتهي أن يقتل قُرَادا ليُفْلَتَ الطائي من القتل ، فلما كادت الشمس تَجِبُ وقُرَاد قائم مُجَرَّد في إزار على النِّطَع والسيافُ إلى جنبه أقبلت امرأته وهي تقول :

أيا عَيْنُ بكى لي قُرَاد بــن أجْدَعَــا ... رَهينــا لقَتْــلٍ لا رهينــا مُوَدّعــا

أتتــه المنايــا بَغْتــةً دون قومـــــه ... فأمسى أسيراً حاضر البَيْتِ أضْرَعَا

فبينا هم كذلك إذ رفع لهم شخص من بعيد ، وقد أمر النعمان بقتلِ قراد ، فقيل له : ليس لك أن تقتله حتى يأتيك الشخص فتعلم من هو ، فكفَّ حتى انتهى إليهم الرجلُ فإذا هو الطائي ، فلما نظر إليه النعمان شَقَّ عليه مجيئه ، فقال له : ما حملك على الرجوع بعدَ إفلاتك من القتل؟ قال : الوفاء ، قال : وما دَعَاك إلى الوفاء؟ قال : دِينِي ، قال النعمان : فاعْرِضْهَا عليّ ، فعرضها عليه ، فتنصر النعمان وأهلُ الحِيرة أجمعون ، وكان قبل ذلك على دين العرب ، فترك القتلَ منذ ذلك اليوم ، وأبطل تلك السُّنَّة وأمر بهدم الغَرِيّيْن ، وعفا عن قُرَاد والطائي ، وقال : والله ما أدري أيها أوفى وأكرم ، أهذا الذي نجا من القتل فعاد أم هذا الذي ضمنه؟ والله لا أكون ألأمَ الثلاثة ، فأنشد الطائيّ يقول :

ما كُنْتُ أُخْلِــفُ ظنه بعــد الــذي ... أسْــدَى إلــيّ مـن الفَعَال الخالي

ولقـد دَعَتْنــي للخــلاف ضَلاَلَتــي ... فأبَيْــتُ غيــرَ تمجُّــدِي وفعالــي

إنــي امــرؤ منِّـي الوفــاءُ سَجِيــة ... وجــزاء كــل مكـــارم بَــذَّالِ

وقال أيضاً يمدح قُرَادا :

ألا إنمــا يسمــو إلى المجــد والعُــلا ... مَخاريــقُ أمثـال القُرَاد بْن أجْدَعَا

مخاريــقُ أمثــال القـــراد وأهلــه ... فإنهــمُ الأخــيار مــن رَهْطِ تبعا

إنّ أخاكَ مَنْ آساكَ.

يضرب في الحثّ على مراعاة الإخوان وأول من قال ذلك خُزَيم بن نَوْفل الهَمْداني ، وذلك أن النعمان بن ثَوَاب العبديّ ثم الشنيّ كان له بنون ثلاثة : سعد ، وسعيد ، وساعدة ، وكان أبوهم ذا شرف وحكمة ، وكان يوصي بنيه ويحملهم على أدَبه ، أما ابنه سعد فكان شجاعاً بطلاً من شياطين العرب لا يُقَام لسبيله ولم تَفُتْه طَلِبَتهُ قطّ ، ولم يفرَّ عن قِرْن . وأما سعيد فكان يشبه أباه في شرفه وسؤدده . وأما ساعدة فكان صاحب شراب ونَدَامى وإخوان ، فلما رأى الشيخ حالَ بنيه دعا سعدا وكان صاحب حرب فقال : يا بُنَي إن الصارم يَنْبو ، والجواد يَكْبُو ، والأثر يعفو ، فإذا شهدت حرباً فرأيت نارها تستعر ، وبطلها يحظر ، وبحرها يزخر ، وضعيفها ينصر ، وجبانها يجسر ، فأَقْلِل المكث والانتظار ، فإن الفرار غير عار ، إذا لم تكن طالبَ ثار ، فإنما ينصرون هم ، وإياكَ أن تكون صَيْدَ رماحها ، ونطيح نطاحها ، وقال لابنه سعيد وكان جوادا : يا بني لا يبخل الجواد ، فابذل الطارف والتِّلاد ، وأقلل التَّلاح ، تُذْكَرُ عند السماح ، وأبْلُ إخوانك فإن وَفِيَّهم قليل ، واصنع المعروف عند محتمله . وقال لابنه ساعدة وكان صاحب شراب : يا بني إن كثرة الشراب تفسد القلب ، وتقلل الكسب ، وتجدّ اللعب ، فأبصر نَديمك ، واحْمِ حريمك ، وأعِنْ غريمك ، واعلم أن الظمأ القامح ، خير من الري الفاضح ، وعليك بالقَصْد فإن فيه بلاغا . ثم إن أباهم النعمان بن ثَوَاب توفي ، فقال ابنه سعيد وكان جوادا سيدا : لآخذنّ بوصية أبي ولأبلُوَنَّ إخواني وثقاتي في نفسي ، فعمد إلى كبش فذبحه ثم وضعه في ناحية خِبائه ، وغَشَّاه ثوباً ، ثم دعا بعض ثقاته فقال : يا فلان إن أخاك مَنْ وفَى لك بعهده ، وحاطك بِرِفده ، ونصرك بوده ، قال : صدقت فهل حدث أمر؟ قال : نعم ، إني قتلت فلاناً ، وهو الذي تراه في ناحية الخِباء ، ولابد من التعاون هليه حتى يُوَارَى ، فما عندك؟ قال : يالَهَا سَوْأة وقعتَ فيها ، قال : فإني أريد أن تعينني عليه حتى أغيبه ، قال : لستُ لك في هذا بصاحب ، فتركه وخرج ، فبعث إلى آخر من ثقاته فأخبره بذلك وسأله مَعُونته ، فردّ عليه مثل ذلك ، حتى بعث إلى عَدَد منهم ، كلهم يردّ عليه مثل جواب الأول ، ثم بعث إلى رجل من إخوانه يقال له خُزَيم بن نَوْفل ، فلما أتاه قال له : يا خُزَيم مالي عندك؟ قال : ما يسرّك ، وما ذاك؟ قال : إني قتلت فلاناً وهو الذي تراه مُسَجًّى ، قال : أيْسَرُ خَطْب ، فتريد ماذا؟ قال : أريد أن تعينني حتى أغيبه ، قال : هان ما فَزِعْتَ فيه إلى أخيك ، وغلامٌ لسعيد قائم معهما ، فقال له خزيم : هل اطلع على هذا الأمر أحدٌ

غير غلامك هذا؟ قال : لا ، قال : انظر ما تقول ، قال : ما قلت إلا حقا ، فأهْوَى خزيم إلى غلامه فضربه بالسيف فقتله ، وقال : ليس عبدٌ بأخ لك ، فأرسلها مثلا ، وارتاع سعيد وفزع لقتل غلامه ، فقال : ويحك ! ما صنعت؟ وجًعل يلومه ، فقال خزيم : إن أخاك من آساك ، فأرسلها مثلا ، قال سعيد : فإني أردْتُ تجربتك ، ثم كشف له عن الكَبْش ، وخبره بما لقي من إخوانه وثقاته وما ردوا عليه ، فقال خزيم : سَبَقَ السيفُ العَذَلَ ، فذهبت مثلا

ألاَ مَنْ يَشْتَرِي سَهَراً بِنَوْمٍ.

قالوا : إن أول مَنْ قال ذلك ذو رُعَيْن الحِمْيَري[١] ، وذلك أن حِمْيَر تفرقت على ملكها حسان ، وخالفت أمره لسوء سيرته فيهم ، ومالوا إلى أخيه عمرو ، وحملوه على قَتْل أخيه حَسَّان وأشاروا عليه بذلك ورغبوه في المُلْك ، ووَعَدوه حسن الطاعة والموازرة ، فنهاه ذو رُعَيْن من بين حمير عن قتل أخيه ، وعلم أنه إن قتل أخاه ندم ونَفَر عنه النوم وانتقض عليه أموره ، وأنه سيعاقبُ الذي أشار عليه بذلك ، ويعرف غشهم له ، فلما رأى ذو رُعَيْن أنه لا يقبل ذلك منه وخشي العواقب قال هذين البيتين وكتبهما في صحيفة وختم عليها بخاتم عمرو ، وقال : هذه وديعة لي عندك إلى أن أطلبها منك ، فأخذها عمرو فدَفَعها إلى خازنه وأمَرَه برفعها إلى الخزانه والاحتفاظ بها إلى أن يَسْأل عنه ، فلما قَتَلَ أخاه وجلس مكانه في الملك مُنعَ منه النومُ ، وسُلِّط عليه السهر ، فلما اشتد ذلك عليه لم يَدَعْ باليمن طبيبا ولا كاهنا ولا منجما ولا عرّافا ولا عائفا إلا جمعهم ، ثم أخبرهم بقصته ، وشكا إليهم ما به ، فقالوا له : ما قَتَلَ رجل أخاه أو ذا رَحم منه على نحو ما قتلت أخاك إلا أصابه السهر ومنع منه النوم ، فلما قالوا له ذلك أقبل على مَنْ كان أشار عليه بقتل أخيه وساعده عليه من أقْيَال حمْير فقتلهم حتى أفناهم ، فلما وصل إلى ذي رُعَين قال له : أيها الملك إن لي عندك بَرَاءة مما تريد أن تصنع بي ، قال : وما براءتك وأمانك؟ قال : مُرْ خازنك أن يخرج الصحيفة التي استودعتكها يوم كذا وكذا ، فأمر خازِنه فأخرجها فنظر إلى خاتمه عليها ثم فَضَّها فإذا فيها :

(١)ذو رعين الحميري هو أحد (أقيال اليمن) و(القيل)هو أمير المقاطعة ، ، أقل رتبه من الملك ، ، وعادة هم من أهل الملك وقبيلته .

ألاَ مَـنْ يَشْتَـرِي سَهَـراً بِنَـوْمٍ ... سَعِيـدٌ مَـنْ يَبِيـتُ قَرِيرَ عَيْـنِ
فإمَّـا حِمْيَـرٌ غَـدَرَتْ وخانَـتْ ... فَمَعْـذِرَةُ الإلـهِ لِـذِي رُعَيْـنِ

ثم قال له : أيها الملك قد نَهيتك عن قتل أخيكَ ، وعلمتُ أنكَ إن فعلت ذلك أصابك الذي قد أصابك ، فكتبت هذين البيتين بَرَاءة لي عندك مما علمت أنك تصنع بمن أشار عليك بقتل أخيك ، فقبل ذلك منه ، وعفا عنه ، وأحسن جائزته .

يضرب لمن غمط النعمة وكره العافية .

بَدَلٌ أَعْوَرُ.

قيل : إن يزيد بن المُهَلَّب[1] لما صُرِفَ عن خُرَاسان بقُتَيْبة بن مُسْلم الباهلي[2] – وكان شَحِيحاً أعور – قال الناس : هذا بَدَلٌ أَعْوَر فصار مثلاً لكل من لا يُرْتَضَى بدلاً من الذاهب ، وقد قال فيه بعض الشعراء :

كانَـتْ خراسانُ أرضاً إذْ يَزِيـدُ بهـا ... وكـلُّ بـابٍ من الخيـرات مَفْتُوحُ
حتـى أتانـا أبـو حَفصٍ بأسْرَتِـهِ ... كأنمـا وَجْهُـه بالخَـلِّ مَنْضُـوحُ

بَرْدُ غَدَاةٍ غَرَّ عَبْداً مِنْ ظَمإٍ.

هذا قيل في عبد سَرَحَ الماشية في غداة باردة ولم يتزود فيها الماء ، فهلك عَطَشاً ، و«مِن» في قوله «من ظمأ» صِلَة غَرَّ ، يقال : مَنْ غرك مِنْ فلان؟ أي مَنْ أَوْطَأَك عَشْوة من جهته؟ يعني أن البرد غره من إهلاك الظمأ إياه فَاغْتَرَّ ، ويجوز أن يكون التقدير : غر عبداً مِنْ فقد ظمأ ، أي قَدَّر في نفسه أنه يفقد الظمأ فلا يظمأ . يضرب في الأخذ بالحزم

بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى.

قال المؤرج : حدثني سعيد بن سماك بن حَرْب عن أبيه عن ابن النعتنر قال :

---

(١) ابن أبي صفرة ، الأمير ، أبو خالد الأزدي . ولي المشرق بعد أبيه ، ثم ولي البصرة لسليمان بن عبد الملك ، ثم عزله عمر بن عبد العزيز بعدي بن أرطاة ، وطلبه عمر وسجنه .

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي قائد إسلامي شهير قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد أسيا الوسطى في القرن الأول الهجري .

أُتِيَ مُعاذُ بن جبل[1] بثلاثة نَفَر فتلهم أسد في زُبْيَة فلم يدر كيف يفتيهم ، فسأل علياً رضي الله عنه وهو مُحْتَبٍ بفناء الكعبة ، فقال : قُصُّوا عليَّ خبركم ، قالوا : صِدْنا أَسَداً في زُبْية ، فاجتمعنا عليه ، فتدافع الناسُ عليها ، فَرَمَوُا برجل فيها ، فتعلق الرجل بآخَرَ ، وتعلق الآخر بآخر ، فَهَوَوْا فيها ثلاثتهم ، فقضَى فيها عليٌّ رضي الله عنه أن للأول رُبُعَ الدية ، وللثاني النصف ، وللثالث الدية كلها ، فأخبر النبي ﷺ بقضائه فيهم ، فقال : لقد أَرْشَدَكَ الله للحق .

بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي.

هما الداهية الكبيرة والصغيرة ، وكَنَى عن الكبيرة بلفظ التصغير تشبيهاً بالحيَّة ، فإنها إذا كثر سمها صغرت لأن السم يأكل جَسَدها ، وقيل : الأصل فيه أن رجلاً من جَديس تزوج امرأة قصيرة ، فقاسى منها الشدائد ، وكان يعبر عنها بالتصغير ، فتزوج امرأة طويلة ، فقاسى منها ضعف ما قاسى من الصغيرة ، فطلقها ، وقال : بعد اللَّتَيَّا والَّتي لا أتزوج أبدا ، فجرى ذلك على الداهية ، وقيل : إن العرب تصغِّر الشيء العظيم ، كالدُّهَيْم والُّلهَيْم ، وذلك منهم رَمْز

بِأبِي وُجُوهَ الْيَتَامَى.

يضرب في التحنن على الأقارب .

وأصله أن سعد القَرْقَرة – وهو رجل من أهل هَجَر – كان النعمان بن المنذر يضحك منه ، وكان للنعمان بن المنذر فرس يقال له اليحموم يُرْدِي من ركبه ، فقال يوماً لسعد : ارْكَبْهُ واطلب عليه الوحْشَ ، فامتنع سعد ، فقهره النعمان على ذلك ، فلما ركبه نظر إلى بعض ولَده وقال هذا القول ، فضحك النعمان وأعفاه من ركوبه ، فقال سعد :

نَحْنُ بغَرْسِ الوَديِّ أعْلَمُنَا ... منَّا بجَرْيِ الجْيَادِ في السَّلَفِ
يَا لَهْفَ أمِّي فَكَيْفَ أطْعَنُهُ ... مُسْتَمْسِكاً وَالْيَدَانَ فِي الْعُرُفَ

ويروى «بجر الجياد في السَّدَفِ» ويروى «السُّدَف» والسُّلَف ، والسُّدَف ،

(١) معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، يكنى أبا عبد الرحمن ، إمام فقيه ، وعالم ، أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة ، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع الرسول محمد ﷺ .

فالسَّدَف : الضوء والظلمة أيضاً ، والحرفُ من الأضداد ، والسَّدَفُ : جمع سُدْفَة : وهي اختلاط الضوء والظلمة ، والسَّلَفَ : جمع سالف مثل خادم وخَدَم وحارس وحَرَس ، وهو آباؤه المتقدمون ، والسُّلَفُ : جمع سُلْفة وهي الدبرة (هي القطعة المستوية من الأرض) من الأرض ، وقوله «أعلمنا» أراد أعلم منا وهى لغة أهل هَجَر ، يقولون : نحن أعلمنا بكذا منا ، وأجود هذه الروايات هذه الأخيرة أعني «في السُّلَف» لأن سعدا كان من أهل الحِراثة والزِّراعة ، فهو يقول : نحن بغرس الودىّ في الديار والمشارات أعلم منا بِجَرْىِ الجياد

بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ.

هذا من قول طَرَفة بن العبد[1] حين أمَر النعمان بقتله ، فقال :

أبا مُنْــذِرٍ أَفْنَيْــتَ فاسْتَبْــقِ بَعْضَنَا   حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشر أَهْوَنُ من بَعْضِ

يضرب عند ظهور الشرين بينهما تفاوت

بِبَطْنِه يَعْدُو الذَّكَرُ.

يقال : إن الذكر من خيل يَعْدُو على حسب ما يأكل ، وذلك أن الذكر أكثر أكلا من الأنثى فيكون عَدْوُهُ أكثر ، ويقال : إن أصله أن رجلا أتى امرأته جائعا ، فتهيأت له ، فلم يلتفت إليها ولا إلى ولدها ، فلما شبع دعا ولده فقرّبهم ، وأراد الباءة ، فقالت المرأة : ببطنه يعدو الذكر . وقال أبو زيد : زعموا أن امرأة سابَقَتْ رجلا عظيمَ البطنِ فقالت له ترهبه بذلك : ما أعظَمَ بطنك ! فقال الرجل : ببطنه يَعْدُو الذكر

بِمِثْلِ جَارِيَةَ فَلْتَزْنِ الزَّانِيَةَ.

هو جارية بن سُلَيط[2] ، وكان حَسَنَ الوجه ، فرأته امرأة فمكنته من نفسها

(١) طرفة بن العبد هو شاعر جاهلي بحراني من شعراء المعلقات . وقيل اسمه طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد أبو عمرو لُقّب بطَرَفَة ، وهو من بني قيس بن ثعلبة من بني بكر بن وائل ، ولد حوالي سنة ٥٤٣ من أبوين شريفين وكان له من نسبه العالي ما يحقق له هذه الشاعرية فجده وأبوه وعماه المرقشان وخاله المتلمس كلهم شعراء .

(٢) جارية بن سليط بن الحارث بن يربوع بن حنظلة بن مالك – وسليط هو كعب ، وإنما سمي سليطاً لسلاطة لسانه – كان أحسن الناس وجهاً وأمدهم جسماً .

وحملت ، فلما علمت به أمها لامتها ، ثم رأت الأم جمالَ ابن سُلَيط فعذرت بنتها وقالت : بمثل جارية ، فلتزن الزانية ، سراً أو علانية .

يضرب في الكريم يَخْدُمُه مَنْ هو دُونَه

بَقِيَ أَشَدُّهُ.

ويروى «بقى شدُه» قيل : كان من شأن هذا المَثَل أنه كان في الزمان الأول هرّ أَفْنَى الجِرْذَانَ وشَرَّدها ، فاجتمع ما بقي منها فقالت : هل من حيلة نحتال بها لهذا الهر لعلنا ننجو منه؟ فاجتمع رأيُهَا على أن تعلق في رقبته جُلْجُلا إذا تحرَّك لها سمعن صوت الجُلْجُل فأخَذْنَ حَذَرهن ، فجئن بالجُلْجُل ، فقال بعضهن : أينا يُعَلِّق الآن ، فقال الآخر : بقي أشَدُه أو قال شَدُّه .

يضرب عند الأمر يبقى أصعبه وأهوله .

وهذا مما تمثل به العرب عن ألسُنِ البهائم

أَبَرَماً قَرُوناً.

وأصله أن رجلا كان لا يدخل في الميسر لبخله ، ولا يشتري اللحم ، فجاء إلى امرأته وبين يديها لحم تأكله ، فأقبل يأكُلُ معها بَضْعَتين بضعتين ويَقْرن بينهما ، فقالت امرأته : أبَرَماً قَرُوناً ، أي أراك بَرَما وقَرُونا . يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين .

قال عمرو بن معدي كرب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو قوما نزل بهم : أبرَامٌ يا أمير المؤمنين ، قال : وكيف ذاك؟ قال : نزلتُ بهم فما قَرَوْني غيرَ ثور وقَوْس وكَعْب ، فقال عمر : إن في ذلك لشبَعاً . الثور : قطعة من الأقطِ ، والقوس : بقية التمر يبقى في الجِلَّة ، والكعب : قطعة من السمن ، أراد عمرو أنهم لم يذبحوا لي حين نزلتُ بهم .

بَعْضُ البِقاعِ أَيْمَنُ مِنْ بَعْضٍ.

قاله أعرابي تعرض لمعاوية في طريق وسأله ، فقال معاوية : مالك عندي شيء ، فتركه ساعة ثم عاوده في مكان آخر ، فقال : ألم تسألني آنفاً ، قال : بلى ، ولكن بعضُ البقاع أيْمَنُ من بعض ، فأعجبه كلامه ووصَله .

بَعْدَ اطِّلاَعٍ إينَاسٌ.

قاله قَيْس بن زُهَير حين قال له حذيفة ابن بدر يوم داحس : سبقتُكَ يا قيس ، فقال قيس : بعد اطلاع إيناس ، يعني بعد أن يظهر أتعرف الخَبر ، أي إنما يحصل اليقين بعد النظر ، أنشد ابن الأعرابي :

لبس بما ليس به بأسٌ باسُ   ولا يَضيرُ البر ما قال الناسُ
وإنه بعد اطِّلاَع اينَاسُ   و«يورى» بعد طلوع

بِمِثْلِي زابِنِي.

قيل : مرَّ مُجَاشع بن مسعود السلمي بقريةٍ من قُرَى كَرْمَان ، فسأل أهلُها القوم : أين أميركم؟ فأشاروا إليه ، فلما رأوه ضحكوا منه – وكان دميما – وازدرَوْه ، فلعنهم وقال : إن أهلي لم يريدوني ليُحَاسِنوا بي ، وإنما أرادوني ليُزَابنوا بي ، أي ليدافعوا بي ، أنشد ابن الأعرابي :

بمِثْلِي زَابِنِي حلما وجُودا   إذا التَقَت المجامعُ والخُطُوبُ
بعيد حُوَّلِيٌّ قُلَّبِيٌّ   عظيمُ القَدْر مِتْلاف كَسُوبُ
فإن أهْلِكْ فقد أبلَيْتُ عُذْرا   وإن أمْلِكْ فمن عَضْبي قضيب

أي أن فرعي من أصلي ، يريد أنه من أصل كريم

ابْنُ زَانِيَةٍ بِزَيْتٍ.

أصله أن قوماً من اللصوص جَلَبوا قَحْبَة ، فلما قَضَوْا منها أوطارهم أَعْطَوْها قِرْبَةَ زيت كانت عندهم إذ لم يحضرهم غيرها ، فقالت المرأة : لا أريدها لأني أَحْسِبَني عَلِقْتً من أحدكم ، وأَكْرَه أن يكون مولودي ابنَ زانية بزيت ، فذهب قولها مثلاً ، قال الشاعر :

إذا ما الحيُّ هاجى حَشْوَ قبرٍ   فَذَلِكُمُ ابنُ زانيةٍ بِزَيْتِ

بَنِيكِ حَمِّرِي وَمَكِّكِينِي.

قيل : أصاب الناسَ جَدْبٌ ومجاعة ، وإن رجلاً من العرب جمع شيئاً من تمر في بيته ، وله بَنُونَ صِغار وامرأة ، فكانت المرأة تَقُوتهم من ذلك التمر ، تسوِّي بينهم وتعطي كل واحد جمعة من التمر مثل الحُمَّرَة ، وإن الرجل لا يغني ذلك عنه شيئاً ،

فأرادت المرأة يوماً أن تَقْسِم بينهم ، فقال : حَمِّري بنيك ومككيني ، أي أعطيني مثل المُكَّاء ، وهو طائر أكبر من الحُمَّرة .

يضـرب لمن يُسَوِّي بين أصـحابه في العطاء ويخـتص به قـوم فـيطمعـون في تخصيصه إياهم بأكثرَ من ذلك

بَخٍ بَخٍ سَاقٌ بِخَلْخَالٍ

يضرب في التهكم والهزء من شيء لا موضع للتهكم فيه .

وأول من قال ذلك الورْثَةُ بنت ثَعْلَبَة امرأة ذُهْل بن شَيْبان بن ثعلبة ، وذلك أن رَقَاشِ بنتَ عمرو بن عثمان من بني ثعلبة طلقَّها زوجُها كعبُ بن مالك بن تَيْم الله بن ثعلبة بن عُكَايَةَ ، فتزوجها ذهل بن شيبان زوج الورْثَة ودخل بها ، وكانت الورْثَةُ ، لا تترك له امرأة إلا ضَرَبَتْها وأَجْلَتْها ، فخرجت رقاشِ يوماً وعليها خلخالان ، فقالت الورْثَة : بخ بخ ساق بخلخال ، فذهبت مثلا ، فقالت رقاش : أَجَلْ ساقٌ بخَلْخَال ، لا كخالك المُخْتَال ، فوثبت عليها الورْثَةُ لتضربها ، فضبَطَتْها رقاشِ وضربتها وغلبتها حتى حُجزَتْ عنها ، فقالت الورْثَةُ :

يا وَيْــحَ نَفْسِي اليومَ أدركَني الكبـــر ... أأبْكـــي على نَفْسي العشيَّةَ أم أَذَرْ
فواللّــه لـــــو أدركْـــت فــيَّ بقيــةً ... لَلاقَيْـت ما لاقى صَوَاحِبُك الأخَرْ

فولدت رقاشِ لذُهْل بن شَيبان : مُرَّة ، وأبا ربيعة ، ومَحلِّما ، والحارث بن ذهل

أبْصَرُ مِنْ زَرْقَاءِ اليَمَامَةِ

واليَمَامة : اسمُها ، وبها سمي البلد ، وذكر الجاحظ أنها كانت من بنات لُقْمَان ابن عاد ، وأن اسمها عنز ، وكانت هى زَرْقَاء وكانت الزبَّاء زَرْقَاء ، وكانت البَسُوس زرقاء ، قال محمد بن حبيبَ : هى امرأة من جَديس ، يعني زرقاء ، كانت تُبْصِر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما قَتَلَتْ جَديس طَسْماً خرج رجل من طَسْم إلى حَسَّان بن تُبَّع ، فاستجاشه ورَغَّبه في الغنائم ، فجهَّز إليهم جيشا ، فلما صاروا من جَوّ على مسيرة ثلاث ليالٍ صعدت الزرقاء فنظرت إلى الجيش وقد أُمِرُوا أن يحمل كل رجل منهم شجرة يستترُ بها ليلبِّسُوا عليها ، فقالت : يا قوم قد أتتكم الشَّجَر ، أو أتتكم حمير ، فلم يصدقوها ، فقالت على مثال رجز :

أقْسِـــمُ باللّــه لقـــد دَبَّ الشَّجَـــرْ ... أو حِمْيَــر قـــد أخَـذَتْ شيئا يجر

فلم يصدقوها ، فقالت : أحلف باللّه لقد أرى رَجُل ، يَنْهَسُ كتْفاً أو يَخْصِفُ النعل فلم يصدقوها ، ولم يستعدُّوا حتى صَبَّحهم حَسَّان فاجتاحهم ، فأخذ الزرقاء فشقّ عينيها فإذا فيهما عُرُوق سود من الإثمِدِ ، وكانت أولَ من اكتحل بالإثمد من العرب ، وهي التي ذكرها النابغة في قوله :

وَاحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحيِّ إذْ نَظَرَتْ   إلى حمامٍ سِرَاعٍ وارِدِ الثَّمَدِ

أَبْصَرُ مِنْ عُقَاب مَلاعٍ.

قال محمد بن حبيب : مَلاَع اسم هَضْبة ، وقال غيره : مَلاَع اسم للصحراء ، قال : وإنما قالوا ذلك لأن عُقَاب الصحراء أبْصَرُ وأسْرَع من عقاب الجبال ، ويقال للأرض المستوية الواسعة : مَلِيع ، ومَيْلَع أيضا ، قال الشاعر (هو امرؤ القيس بن حجر الكندي) يصف إبلا أُغِيرَ عليها فذهبت :

كان دِثَارًا حَلَّقَتْ بلَبُونِه   عُقَاب مَلاَعٍ لا عُقَاب الْقَوَاعِلِ

العرب تقول : أنت أخَفُّ يداً من عُقَيِّبِ ملاع ، وهي عُقَاب تصطاد العصافير والجُرْذَانَ

أَبْصَرُ مِنْ غُرَاب.

زعم ابن الأعرابي أن العرب تسمي الغراب أعْوَر لأنه مُغْمِض أبدا إحدى عينيه مقتصر على إحداهما من قوة بَصَره ، وقال غيره : إنما سَمَّوه أعور لحدة بصره على طريق التفاؤل له ، وقال بشار بن برد :

وقد ظَلَمُوه حين سَمَّوه سيدا   كما ظلم الناسُ الغرابَ بأعْوَرَا

قال أبو الهيثم : يقال : إن الغُرَاب يُبْصر من تحت الأرض بقَدْر منقاره

أَبْطَشُ مِنْ دَوْسَرَ.

قالوا : إن دَوْسر إحدى كَتَائب النعمان بن المنذر ملك العرب ، وكانت له خمس كتائب : الرهائن ، والصنائع ، والوضائع ، والأشاهب ، ودوسر ، وأما الرهائن فإنهم كانوا خمسمائة رجل رَهَائن لقبائل العرب ، يُقيمون على باب الملك سنةً ثم يجيء بدلَهم خمسمائة أخرى ، وينصرف أولئك إلى أحيائهم ، فكان الملكُ يغزو بهم ويُوَجِّههم في أموره . وأما الصنائع فبنو قَيْس وبنو تَيْم اللاَّتِ ابني ثعلبة ، وكانوا

خَوَاصَّ الملك لا يَبْرَحُون بابه . وأما الوضائع فإنهم كانوا ألفَ رجلٍ من الفُرْس يضعهم ملكُ الملوك بالحِيرة نَجْدَةً لملك العرب ، وكانوا أيضاً يقيمون سنةً ثم يأتي بدلَهم ألفُ رجلٍ ، وينصرف أولئك . وأما الأشاهب فإخْوَةُ ملك العرب وبنو عمه ومَنْ يتبعهم من أعوانهم ، وسموا الأشاهب لأنهم كانوا بيضَ الوجوه . وأما دَوْسَر فإنها كانت أخْشَنَ كتائبه وأشدَّها بطشاً ونكاية ، وكانوا من كل قبائل العرب ، وأكثرهم من ربيعة ، سميت دوسر اشتقاقا من الدَّسْر ، وهو الطعن بالثقل ، لثقل وطأتها ، قال الشاعر :

ضَرَبَتْ دَوْسَرُ فيهم ضربةً　　أثبتَتْ أَوْتاد مُلْك فاستقر

وكان ملك العرب عند رأس كل سنة - وذلك أيام الربيع - يأتيه وُجُوه العرب وأصحاب الرهائن ، وقد صير لهم أكلا عنده ، وهو ذوو الآكال ، فيقيمون عنده شهراً ، ويأخذون آكالهم ، ويُبَدِّلون رهائنهم ، وينصرفون إلى أحيائهم

أَبْوَلُ مِنْ كَلْبٍ.

قالوا : يجوز أن يُرَاد به البول بِعَيْنه ، ويجوز أن يراد به كثرة الولد ، فإن البول في كلام العرب يكنى به عن الولد .

قلت : وبذلك عَبَّرَ ابْنُ سيرين[1] رؤيا عبد الملك بن مروان[2] حين بَعَثَ إليه : إني رأيتُ في المنام أني قمتُ في محراب المسجد وبُلْت فيه خمس مرات ، فكتب إليه ابنُ سيرين : إن صَدَقَت رؤياك فسيقومُ من أولادك خمسة في المحراب ، ويتقلدون الخلافة بعدك ، فكان كذلك

تَجُوعُ الحُرَّةُ وَلاَ تَأكُلُ بِثَدْيَيْهَا.

أي لا تكون ظِئْراً وإنْ آذاها الجوع ، ويروى «ولا تأكل ثدييها» وأول من قال ذلك

---

(١) ابن سيرين هو أبوبكر محمد بن سيرين البصري . التابعي الكبير والإمام القدير في التفسير ، والحديث ، والفقه ، وتعبير الرؤيا ، والمقدم في الزهد والورع وبر الوالدين ، توفي ١١٠ هـ بعد الحسن البصري بمائة يوم ، وكان عمره نيفاً وثمانين سنة .

(٢) عبد الملك بن مروان الأموي القرشي ، أبو الوليد . خامس الخلفاء الأمويين وكان من أعظم خلفاء بني أمية لقب بأبي الملوك ، توسعت الدولة الأموية في عهده وازدهرت وكانت دمشق عاصمة الدولة منارة للعلم وأعظم مدن العالم الإسلامي .

الحارث بن سليل الأسَدِي ، وكان حليفا لعَلْقَمَة بن خَصَفة الطائي ، فزارَه فنظر إلى ابنته الزَّبَّاء - وكانت من أجمل أهل دهرها - فأعْجِبَ بها ، فقال له : أتيتُكَ خاطبا ، وقد ينكح الخاطب ، ويدرك الطالب ، ويمنح الراغب ، فقال له علقمة : أنت كُفْءٌ كريم ، يقبل منك الصَّفْو ، ويؤخذ منك العَفْو ، فأقِمْ ننظر في أمرك ، ثم انكفأ إلى أمها فقال : إن الحارث بن سليل سيدُ قومه حَسَبا ومَنْصباً وبيتا ، وقد خطب إلينا الزبَّاء فلا ينصرفَنَّ إلا بحاجته ، فقالت امرأته لابنتها : أيُّ الرجال أحبُّ إليك : الكَهْلُ الجَحْجَاح ، الواصِلُ المَنَّاح ، أم الفتى الوَضَّاح؟ قالت : لا ، بل الفتى الوضاح ، قالت : إن الفتى يُغيرُك ، وإن الشيخ يَميرُك ، وليس الكَهْل الفاضل ، الكثيرُ النائل ، كالحديث السِنِّ ، الكثير المَنِّ ، قالت : يا أمتاه إن الفَتَاة تحبُّ الفتى كحبِّ الرعاء أنيقَ الكَلاَ ، قالت : أي بُنَية إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب ، قالت : إن الشيخ يُبْلِي شبابي ، ويدنس ثيابي ، ويُشْمت بي أترابي ، فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحارث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم ، فابْتَنَى بها ثم رَحَل بها إلى قومه ، فبينا هو ذاتَ يوم جالسٌ بفناء قومه وهي إلى جانبه إذ أقبَلَ إليه شَبَابٌ من بني أسد يعتلجون فتنفَّست صُعَداء ، ثم أرْخَتْ عينيها بالبكاء ، فقال لها : ما يُبْكِيك؟ قالت : مالي وللشيوخ ، الناهضين كالفُرُوخ ، فقال لها : ثَكِلَتْك أمُّك تَجُوع الحرة ولا تأكل بثدييها .

قال أبو عبيد : فإن كان الأصل على هذا الحديث فهو على المثل السائر «لا تأكل ثدييها» وكان بعضُ العلماء يقول : هذا لا يجوز ، وإنما هو «لا تأكل بثدييها» .

قلت : كلاهما في المعنى سَوَاء ، لأن معنى «لا تأكل ثدييها» لا تأكل أجْرَةَ ثدييها ، ومعنى «بثدييها» أي لا تعيش بسبب ثَدْييها وبما يُغلاَّن عليها .

ثم قال الحارث لها : أما وأبيك لرُبَّ غارة شهدتها ، وسَبِيَّة أردفتها ، وخَمْرة شربتها ، فالحقي بأهلك فلا حاجة لي فيك ، وقال :

تَهَزَّأت أنْ رَأتْنِي لابساً كِبَراً ... وغايةُ الناس بين المَوْتِ والكِبَرِ
فإن بقيت لَقيت الشَّيْبَ راغمَةً ... وفي التعرُّف ما يمضي من العِبَرِ
وإن يكن قد عَلاَ رأسي وغَيَّره ... صَرْفُ الزمانِ وتغييرٌ من الشَعَرِ
فقد أرُوحُ للذَّاتِ الفَتَى جَذلا ... وَقَدْ أصيبُ بها عيناً من البَقَرِ
عَنِّي إليك فإني لا تُوَافِقُني ... عُورُ الكلام ولا شُرْبٌ على الكَدَرِ

يضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس مكاسب الأموال

تَحْسَبُها حَمْقَاءَ وَهْيَ باخِسٌ.

يقال : إن المثل تكلم به رجلٌ من بني العَنْبَر من تميم ، جاورته امرأة فنظر إليها فحسبها حمقاء لا تعقل ولا تحفظ ولا تعرف مالها ، فقال العنبري : ألا أخْلِطُ مالي ومَتَاعي بمالها ومتاعها ثم أقاسمها فآخذ خيرَ متاعها وأعطيها الرديء من متاعي ، فقاسمها بعد ما خَلَط متاعه بمتاعها ، فلم ترض عند المُقَاسَمة حتى أخَذَتْ متاعها ، ثم نازعته وأظهرت له الشكوى حتى افْتَدَى منها بما أرادت ، فعُوتبَ عند ذلك ، فقيل له : اخْتَدَعْتَ امرأة ، وليس ذلك بِحَسَنٍ ، فقال : تحسَبُها حَمْقَاء وهي باخسة .

يضرب لمن يتباله وفيه دهاء

تَشَمَّرَتْ مَعَ الجارِي.

يضرب في الشيء يُسْتَهان به ويُنْسَى . وقائله كعب بن زُهَير بن أبي سُلْمى[1] ، قال ابن دريد : ليس في العرب سُلْمى بالضم إلا هذا ، وزاد غيره وأبو سُلْمى رَبِيعَةُ بن رَبَاح بن قُرْط من بني مازن ، قلت : والمحدِّثُون يَعُدُّون غيرهما قوما يطول ذكرهم ، وإنما قال هذا المثلَ كعبٌ حين ركب هو وأبوه زُهَير سفينةً في بعض الأسفار ، فأنشد زهير قصيدته المشهورة وهي * أمِنْ أمِّ أوْفى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّم * وقال لابنه كعب : دُونَكَ فَاحْفَظْها ، فقال : نعم وأمْسَيَا فلما أصبحا قال له : يا كَعبُ ما فعلَت العقيلةُ؟ يعني القصيدة ، قال : يا أبتِ إنها تشمّرَتْ مع الجاري ، يعني نَسِيتُهَا فَمرَّتْ مع الماء ، فأعادها عليه ، وقال : إن شَمَّرْتها يا كعب شمّرْتُ بك على أثرها

تَطْلُبُ أَثَراً بَعْدَ عَيْنٍ.

يضرب لمن ترك شيئا يَرَاه ثم تبع أثره بعد فوت عينه .

قال الباهلي : أولُ من قال ذلك مالك ابن عمرو العاملي ، قال : وذلك أن بعض ملوك غَسَّان كان يطلب في عاملَةَ ذَحْلاً ، فأخذ منهم رجلين يقال لهما مالك وسمَاك ابنا عمرو ، فاحتبسهما عنده زمانا ، ثم دعاهما فقال لهما : إني قاتل أحَدَكما فأيَكما أقتل ، فجعل كل واحد منهما يقول : اقتلني مكان أخي ، فلما رأى ذلك قتل سماكا

(١) كعب بن زهير هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، المزني ، أبو المضرَّب . شاعر مخضرم من أشهر قصائده اللامية التي مطلعها بانت سعاد .

وخلى سبيل مالك ، فقال سماك حين ظن أنه مقتول :

ألا من شَجَتْ ليلة عامِـدَهْ ... كما أبداً ليلَةٌ واحدَهْ
فأبْلغْ قُضَاعة إن جئْتَهـم ... وخُـصَّ سَرَاة بني ساعـدة
وأبلـغ نزَاراً علـى نأيهـا ... بأنَّ الرِّمَـاحَ هـي الْعَائـدْه
وأقْسِـمُ لـو قَتَلُـوا مالكا ... لكُنْـتُ لهـم حَيَّةً رَاصدَهْ
برأس سبيـل عَلَى مَرْقَب ... ويومـاً عـلى طُـرُق وَارِدَهْ
فأمَّ سمَاكٍ فَـلاَ تجْزَعِـيِ ... فَلِلْمَـوْتِ مَـا تلـدُ الْوالِدَه

وانصرف مالك إلى قومه ، فلبث فيهم زمانا ، ثم إن رَكْباً مروا وأحدهم يتغنى بهذا البيت

وأقْسِـمُ لـو قتلـوا مالكا ... لكنـت لهـم حَيَّةً رَاصدَهْ

فسمعت بذلك أم سماك فقالت : يا مالك قبح الله الحياة بعد سماك ، اخْرُجْ في الطلب بأخيك ، فخرج في الطلب ، فلقى قاتل أخيه يسيرُ في ناسٍ من قومه ، فقال : من أحَسَّ لي الجمل الأحمر ، فقالوا له وعرفوه : يا مالك لك مائة من الإبل فكُفَّ ، فقال : لا أطلب أثر بعد عين ، فذهبت مثلا ، ثم حمل على قاتل أخيه فقتله ، وقال في ذلك :

يـا راكبـاً بَلِّغـاً ولا تَدَعـاً ... بنـي قُمَيْـر وإنْ هُـمُ جَزعُـو
فَلْيَجِـدُوا مثـلَ مـا وَجَدْتُ فقـد ... كُنْـتُ حَزينـاً قد مَسَّني وَجَـعُ
لا أسمـع اللهـوَ فـي الحديث ولا ... ينفعنـي في الفـرَاشِ مُضْطَجَـعُ
لا وَجْـدُ ثَكْلَى كمـا وَجَـدْتُ ولا ... وَجْـدُ عَجُـول أضَلَّهـا رُبَـعُ
ولا كبيـر أضَـلَّ ناقَتَـهُ ... يـوم تَوَافَـى الحَجيـجُ واجْتَمَعُوا
ينظـر فـي أوْجـهُ الرِّكـاب فـلا ... يَعْـرفُ شيئـاً والوَجْـهُ ملتمـع
جَلَّلْتُـه صـارمَ الحديـدة كالـ ... ـملَح (كالملح) وفيه سَفَاسقٌ لُمَعُ
بـين ضُمَيْـر وبـاب جلِّـقَ فـي ... أثوابِـه مـن دمَائـه دُفَـعُ
أضْرِبُـهُ باديـاً نَوَاجِـذُه ... يدعـو صَـدَاه والـرأسُ مُنْصَدعُ
بنـي قُمَيـر قَتَلْـتُ سيدَكـم ... فاليـومَ لا رَنَّـةٌ ولا جَـزِعُ
فاليوم قُمْنَـا علـى السِّـوَاءِ فـإنْ ... تجـرُوا فـدهري ودهركم جَـذِع

تَسْمَعُ بالمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أنْ تَرَاهُ.

قال المفضل : أولُ مَنْ قال ذلك المنذر ابن ماء السماء ، وكان من حديثه أن كُبَيْشَ ابن جابر أخا ضَمْرَةَ بن جابر من بني نَهْشَل كان عَرَضَ لأمة لزرارة بن عُدُس يقال لها رُشَيَّة كانت سَبِيَّةً أصابها زُرَارة من الرُّفَيْدَات ، وهو حي من العرب ، فولدت له عمرا وذُؤَيْبا وبُرْغوثا ، فمات كُبَيْش . وترعرع الغِلْمَة ، فقال لقيط بن زرارة : يا رُشَيَّة مَنْ أبو بَنِيك؟ قالت : كُبَيْش بن جابر ، قال : فاذهبي بهؤلاء الغِلْمة فغَلِّسي بهم وجه ضمرة وخَبِّرِيه مَنْ هم ، وكان لقيط عدوا لضَمْرة ، فانطلقت بهم إلى ضَمْرة فقال : ما هؤلاء؟ قالت : بنو أخيك ، فنتزع منها الغِلْمَة ، وقال : الْحَقِي بأهلك ، فرجعت فأخبرت أهلها بالخبر ، فركب زُرَارة وكان رجلا حليما حتى أتى بني نَهْشَل فقال : رُدُّوا على غِلْمتي ، فسبّه بنو نهشل ، وأهْجَرُوا له ، فلما رأى ذلك انصرف ، فقال له قومه : ما صنعت؟ قال : خيرا ، ما أحْسَنَ مالقيني به قومي ، فمكث حولا ثم أتاهم فأعادوا عليه أسْوَأ ما كانوا قالوا له ، فانصرف ، فقال له قومه : ما صنعت؟ قال : خيرا قد أحْسَنَ بنو عمي وأجملوا ، فمكث بذلك سبعَ سنين يأتيهم في كل سنة فيردونه بأسوأ الرد ، فبينما بنو نهشل يسيرون ضُحًى إذ لحق بهم لاحِقٌ فأخبرهم أن زرارة قد مات ، فقال ضمرة : يا بني نهشل ، إنه قد مات حليم إخوتكم اليوم فاتقوهم بحقهم ، ثم قال ضمرة لنسائه : قِفْنَ أقْسِمْ بينكن الثكل ، وكانت عنده هند بنت كرب بن صفوان وامرأةٌ يقال لها خُلَيْدَة من بني عجل وسَبِية من عبد القيس وسَبِية من الأزد من بني طَمَثان ، وكان لهنَّ أولاد غيرَ خُليدة ، فقالت لهند وكانت لها مُصَافية : ولى الثكلَ بنتَ غيرِك ، ويروى وَلِّى الثكل بنت غيرك ، على سبيل الدعاء ، فأرسَلَتْها مثلا ، فأخذ ضمرة شقَّةَ بن ضمرة وأمه هند وشهابَ بن ضمرة وأمه العبدية وعَنْوَة بن ضمرة وأمه الطمثانية ، فأرسل بهم إلى لَقيط بن زُرَارة وقال : هؤلاء رُهُن لك بغِلْمَتك حتى أرضيك منهم ، فلما وقع بنو ضمرة في يَدَيْ لقيط أساء ولايتهم وجفاهم وأهانهم ، فقال في ذلك ضمرة بن جابر :

صرمْتُ إخاء شقَّةَ يوم غَوْلٍ ... وإخْوَته فلا حَلَّتْ حلالي
كأني إذ رَهَنْتُ بنيَّ قَوْمِي ... دفعتهمُ إلى الصُّهْبَ السِّبَالِ
ولم أرْهَنْهُمُ بدم ، ولكن ... رهنتهمُ بصُلْحٍ أو بمالِ
صرمْتُ إخاء شقة يوم غَوْلٍ ... وحق إخاء شقَّةَ بالْوِصَالِ

فأجابه لقيط :

أبـــا قَطَـــن إنّـــي أراكَ حزينـــاً وإن العَجُـــولَ لا تبالـــي حنيـــنا
أفـــي أنْ صَبَرتُم نصفَ عـامٍ لحقنـا ونحـــنُ صبرنـا قَبْلُ سَبْعَ سنينا

فقال ضمرة [بن جابر] :

لعمـــرك إنـــني وطِـــلاَب حُبَّـــي وتـــرك بنـــيّ في الشُّرَط الأعادي
لَمِـــنْ نَوْكَـــى الشيـــوخ وكَـانَ مثلي إذا مـــا ضَـــلَّ لـــم يُنْعَشْ بهـــاد

ثَم إن بني نَهْشَل طلبوا إلى المنذر بن ماء السماء أن يطلبهم من لَقيط ، فقال لهم المنذر : نَحُّوا عني وجوهكم ، ثم أمر بخمر وطعام ودعا لقيطا فأكلا وشربا ، حتى إذا أخذت الخمر منهما قال المنذر للقيط : ياً خير الفتيان ، ما تقول في رجل اختارَكَ الليلَةَ على نَدَامى مُضَرَ؟ قال : وما أقول فيه؟ قال : إنه لا يسألني شيئاً إلا أعطيته إياه غير الغِلْمة ، قال المنذر : أما إذا استثنيت فلستُ قابلا منك شيئاً حتى تعطيني كلَّ شيء سَألتك ، قال : فذلك لك ، قال : فإني أسألك الغلمة أن تَهَبهم لي ، قال : سَلْني غيرَهم ، قال : ما أسألك غيرهم ، فأرسل لقيط إليهم فدفَعهم إلى المنذر ، فلما أصبح لقيط لامه قومُه ، فندم فقال في المنذر :

إنـــك لـــو غَطَّيْـــتَ أَرْجَـــاء هـــوة مُغَمَّســـــة لا يُسْتَثَـــــار تُرَابُهَـــا
بثَوْبكَ فـي الظلمـــاء ثـــم دَعَوْتَنـــي لجئْـــتُ إليهـــا سَـــادراً لا أهابُهَـا
فَأَصْبَحْـــتُ مَوْجُـــوداً علـــى مُلَوَّمـــاً كأنْ نُضيَتْ عن حائض لي ثيَابُهَـا

قال : فأرسل المنذر إلى الغِلْمة وقد مات ضَمْرة وكان صديقاً للمنذر ، فلما دخل عليه الغِلْمة وكان يسمع بِشقَّةَ ويعجبه ما يبلغه عنه فلما رآه قال : تَسْمَعُ بالمعيديِّ خَيْرٌ من أن تراه ، فأرسلها مثلا ، قال شقة : أَبَيْتَ اللعن وأسعدك إلهُكَ إن القوم ليْسُوا بِجُزْر ، يعني الشاء ، وإنما يعيش الرجلُ بأصْغَرَيْه لسانه وقلبه ، فأعجب المنذر كلامه ، وسره كل مارأى منه ، قال : فسماه ضَمْرة باسم أبيه ، فهو ضَمْرة بن ضمرة ، وذهب قوله «يعيش الرجل بأصغريه» مثلا ، وينشد على هذا :

ظننـــت بـــه خَيْـــراً فقصَّـــرَ دونـــه فيارُبَّ مظنون بـــه الخيـــرُ يُخْلِفُ

قلت : وقريبٌ من هذا ما يُحْكَى أن الحجاج أرسل إلى عبد الملك بن مروان بكتاب مع رجل ، فجعل عبد الملك يقرأ الكتاب ثم يسأل الرجل فيَشْفيه بجواب ما يسأله ، فيرفع عبد الملك رأسه إليه فيراه أَسْوَدَ ، فلما أعجبه ظَرْفه وبيانه قال متمثلاً :

فإن عَـــرَاراً إن يكُـــنْ غَيْـــرَ وَاضِـــحٍ فإني أُحِبُّ الجُوْنَ ذَا الْمَنكِبِ الْعَمَمْ

فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين هل تدري مَنْ عَرَار؟ أنا والله عرار بن عمرو بن شأس الأسدي الشاعر .

تَرَكْتُه تُغَنِّيه الجُرَادَتَان.

يضرب لمن كان لاهياً في نعمة ودَعَة . والجرادتان : قَيْنَتَا[1] معاوية بن بكر أَحَد العماليق ، وإن عادا لما كَذَّبُوا هوداً عليه السلام توالَتْ عليهم ثلاثُ سنوات لم يروا فيها مطراً ، فبعثوا من قومهم وَفْداً إلى مكة ليستسقوا لهم ، ورأسوا عليهم قَيْلَ بن عنق ولُقَيْم بن هزال ولقمان بن عاد ، وكان أهل مكة إذ ذاك العماليق وهم بني عَمْليق بن لاوذ بن سام ، وكان سيدهم بمكة معاوية بن بكر ، فلما قدموا نَزَلُوا عليه ، لأنهم كانوا أَخْوَالَه وأصهاره ، فأقاموا عنده شهراً ، وكان يكرمهم والجرادتان تغنيانهم ، فَنَسُوا قومهم شهراً ، فقال معاوية : هَلَكَ أخوالي ، ولو قلت لهؤلاء شيئاً ظنوا بي بخلا ، فقال شعراً وألقاه إلى الجرادتين فأنشدتاه وهو :

ألا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قم فَهَيْنِمْ ... لعلَّ اللّه يَبْعَثُها غَمَاما
فَيَسْقِيَ أرضَ عادٍ إنَّ عادا ... قَدَ امْسَوْا لا يُبِينُونَ الكلاما
من العَطَش الشديد فليس تَرْجُو ... لها الشيخَ الكبيرَ ولا الغُلاَما
وقد كانت نساؤُهُم بخير ... فقد أَمْسَتْ نساؤهم أيامَى
وإن الوحش يأتِيهِمْ جهَاراً ... ولا يَخْشَى لعاديٍّ سِهَاما
وأنتم ههُنا فيما اشتهيتم ... نهارَكُمُ وليلكم التماما
فقبح وَفْدُكم من وفد قوم ... ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاما

فلما غنتهم الجرادتان بهذا قال بعضهمٌ لبعض : يا قوم إنما بعثكم قومُكم يتغوَّثون بكم ، فقاموا لِيَدْعُوا ، وتخلف لقمان ، وكانوا إذا دعوا جاءهم نِدَاء من السماء : أَنْ سَلُوا ما شئتم فتعطون ما سألتم ، فدعوا ربهم ، واستسقوا لقومهم ، فأنشأ الله لهم ثلاثَ سحاباتٍ بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم نادى مناد من السماء : يا قَيْلُ اخْتَرْ لقومك ولنفسك واحدة من هذه السحائب ، فقال : أما البيضاء فجفل ، وأما الحمراء فعارض ، وأما السوداء فهطلة وهي أكثرها ماء ، فاختارها ، فنادى مناد : قد اخترت لقومك رماداً رمداً ، لا تبقى من عاد أحداً ، لا والداً ولا ولداً ، قالٌ : وسير الله

(١) مغنّيتان .

السحابة التي اختارها قَيْلٌ إلى عاد ، ونودي لقمان : سل ، فسأل عُمْرَ ثلاثة أَنْسُر ، فأعطى ذلك ، وكان يأخذ فَرْخَ النسر من وَكْره ، فلا يزال عنده حتى يموت ، وكانَ آخرها لُبَد ، وهو الذي يقول فيه النابغة :

أَضْحَتْ خَلاَء وأَضْحَى أهلُها احْتَلَمُوا   أخْنَى عليها الذي أخْنَى على لُبَدِ

تأبَى لهُ ذَلكَ بَنَاتُ أَلْبُبِي.

قالوا : أصل هذا أن رجلا تزوج امرأة وله أُمّ كبيرة ، فقالت المرأة للزوج : لا أنا ولا أنت حتى تُخْرِجَ هذه العجوز عنا ، فلما أكثَرَتْ عليه احتملها على عُنقه ليلا ، ثم أتى بها وادياً كثير السباع فرمى بها فيه . ثم تنكر لها ، فمرَّ بها وهي تبكي ، فقال : ما يبكيك يا عجوز؟ قالت : طَرَحَنِي ابني ههنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد ، فقال لها : تبكين له وقد فعل بك ما فعل؟ هلا تدعين عليه ، قالت : تأبى له ذلك بَنَاتُ أَلْبُبي .

قالوا : بناتُ أَلْبُب عُرُوقٌ في القلب تكون منها الرِّقَّة ، قال الكُمَيْت :

إليكم ذَوِى آل النَّبِيِّ تطَلَّعْت   نَوَازُع من قلبي ظماءٌ وأَلْبُب

والقياس أَلُبٌّ ، فأظهر التضعيف ضرورة . يضرب في الرقة لذوي الرحم

أَتْبِعِ الفَرَسَ لِجَامَها والنَّاقَةَ زِمَامَهَا.

قال أبو عبيد : أرى معناه أنك قد جُدْتَ بالفرس واللجامُ أيسرُ خَطْباً فأَتِمَّ الحاجة ، لما أن الفرس لا غنَى به عن اللجام ، وكان المفضَّلُ يذكر أن المَثَلَ لعمرو بن ثعلبة الكلبي أخي عَدِيٍّ بن جناب الكلبي ، وكان ضِرار (في نسخة «خوار بن عمرو») ابن عمرو الضبي أغار عليهم فسَبَى يومئذ سَلْمَى بنت وائل الصائغ ، وكانت يومئذ أمةً لعمرو بن ثعلبة ، وهي أم النعمان بن المنذر فمضى بها ضِرار مع ما غنم ، فأدركه عمرو ابن ثعلبة ، وكان له صديقا ، فقال : أنشدك الإخاء والمودة إلا رَدَدْتَ عَلَيَّ أهلي ، فجعل يرد شيئا شيئا ، حتى بقيت سَلْمَى وكانت قد أعجبت ضرارا ، فأبى أن يردها ، فقال عمرو : يا ضرار أَتْبع الفرسَ لجامها ، فأرسلها مثلا .

وقال غيره : أصلُ هذا أن ضرار بن عمرو قاد ضَبَّة إلى الشام ، فأغار على كلب بن وَبْرة ، فأصاب فيهم وغنم وسَبَى الذَّرارى ، فكانت في السبي الرائعة قَيْنَة كانت لعمرو ابن ثعلبة وبنت لها يقال لها سَلْمَى بنت عطية ابن وائل ، فسار ضِرار بالغنائم والسبي إلى أرض نجد ، وقدم عمرو بن ثعلبة على قومه ولم يكن شَهِدَ غارةَ ضرارٍ

عليهم ، فقيل له : إن ضرار بن عمرو أغار على الحي فأخذ أموالهم وذَرَاريهم ، فطلب عمرو بن ثعلبة ضرارا وبني ضبة فلَحِقهم قبل أن يَصِلُوا إلى أرض نجد ، فقال عمرو بن ثعلبة لضرار : رُدَّ علي مالي وأهلي ، فرد عليه ماله وأهله ، ثم قال : رُدَّ علي قَيْناتي ، فرد عليه قينته الرائعة ، وحبس ابنتها سلمى ، فقال له عمرو : يا أبا قَبيصة أتبع الفرسَ لجامها ، فأرسلها مثلا .

تَطْلُبُ ضَبًّا وَهَذَا ضَبٌّ بَادٍ رَأسُهُ؟

ويروى «مُخْرِجٌ رأسَه» قال عطاء ابن مصعب : زعموا أن رجلين وَتَرا رجلا وكل واحد منهما يسمى ضبا ، فكان الرجل يتهدَّد النائي عنه ويترك المقيم معه جُبْنا ، فقيل له : تطلب ضبا يعني الغائب وهذا ضب بادٍ رأسُه يعني الحاضر . يضرب لمن يجبن عن طلب ثأره .

تَحْمِلُ عِضَةٌ جَنَاهَا.

أصل ذلك أن رجلا كانت له امرأة ، وكانت لها ضَرَّة ، فعمدت الضرة إلى قَدَحَيْن مشتبهين فجعلت في أحدهما سَوِيقا وفي الآخر سما ، ووضعت قَدَحَ السويق عند رأسها والقدحَ المسمومَ عند رأس ضرتها لتشربه ، ففطنت الضرة لذلك ، فلما نامت حَوَّلت القدحَ المسمومَ إليها ، ورفعت قدحَ السويق إلى نفسها ، فلما انتبهت أخذت قدحَ السم على أنه السويق فشربته ، فماتت ، فقيل : تحمل عِضَة جَنَاها . الجنى : الحمل ، والعِضَة : واحدة العِضَاه وهي الأشجار ذواتُ الشَّوْك ، يعني أن كل شجرة تحمل ثمرتها ، وهذا مثل قولهم «مَنْ حَفَرَ مَهْوَاةً وَقع فيها» .

التَّجَرُّدُ لِغَيْرِ النِّكَاحِ مُثْلَةٌ.

قالته رَقَاشِ بنتُ عمرو(١) لزوجها حين قال لها : اخْلَعِي دِرْعَكِ لأنظر إليك ، وهي التي قالت أيضاً : خَلْعُ الدرع بيد الزوج ، فأرسلتهما مثلين .

يضرب في الأمر بِوَضْعِ الشيء موضعه

---

(١) رقاش بنت ضبيعة بن قيس بن ثعلبة . أم جاهلية ينسب إليها بنو ((رقاش)) وهم بنوها من زوجها شيبان بن ذهل من بني بكر بن وائل من ربيعة .

تَرَى الفتْيَانَ كالنَّخْلِ ومَا يدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ.

يضرب لِذي المَنْظَر لا خَيْر عنده .

قال المفضل : أولُ من قال ذلك عَثْمَة بنت مَطْرود البُجَيْلِيَّة ، وكانت ذاتَ عقلٍ ورأى مستمع في قومها ، وكانت لها أخت يقال لها خودٌ ، وكانت ذات جَمَال وميسَم وعَقْل ، وأن سبعة إخوة غلمة من بطن الأزْد خطَبوا خودا إلى أبيها ، فأتوه وعليهم الحُلَل اليمانية ، وتحتهم النَّجَائبُ الفُرَّهُ ، فقالوا : نحن بنو مالك بن غُفَيْلة ذي النحيين فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ليلَتَهم ثم أصبحوا غادِينَ في الحُلَل والهَيْأة ومعهم رَبِيبة لهم يقال لها الشعثاء كاهنة ، فمروا بوَصِيدها يتعرَّضُون لها وكلهم وَسِيم جميلٍ ، وخرج أبوها فجلسوا إليه فرحَّب بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بنتا ونحن كما ترى شَبَاب ، وكلنا يَمْنَع الجانب ، ويمنح الراغب ، فقال أبوها : كلكم خِيار فأقيموا نَرَى رأينا ، ثم دخل على ابنته فقال : ما ترين فقد أتاك هؤلاء القوم؟ فقالت أنْكِحْني على قَدْري ، ولا تُشْطط في مَهْري ، فإن تُخْطِئني أحلامهم ، لا تخطئني أجسامهم ، لعي أصيب ولدا ، وأكثر عَدَدا ، فخرج أبوها فقال : أخبروني عن أفضلكم ، قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة : اسمع أخبرك عنهم ، هم إخوة ، وكلهم أسْوَة ، أما الكبير فمالك ، جريء فاتك ، يتعب السَّنَابك ، ويستصغر المَهَالك ، وأما الذي يليه فالغَمْر ، بحر غَمْر ، يقصر دونه الفَخْر ، نَهْد صَقْر ، وأما الذي يليه فعَلْقَمَة ، صليب المَعْجَمَة ، مَنِيع المشتمة ، قليل الجمجمة ، وأما الذي يليه فعاصم ، سَيِّدٌ ناعم ، جَلْد صارم ، أبيٌّ حازم ، جيشُه غانم ، وجاره سالم ، وأما الذي يليه فثَوَاب ، سريع الجَوَاب ، عَتيد الصَّوَاب ، كريم النِّصَاب ، كلَيْث الغاب ، وأما الذي يليه فَمُدْرك ، بَذْول لما يَمْلك ، عَزُوب عما يترك ، يُفْنِى ويُهْلك ، وأما الذي يليه فجَنْدَل ، لقِرْنه مُجَدِّل ، مقل لما يَحْمِل ، يُعْطي ويَبْذُل ، وعن عدوه لا يَنْكُل ، فشاورت أختها فهيم ، فقالت أختها عَثْمَةُ : ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدَّخْل ، اسمعي مني كلمة ، إن شرّض الغريبة يُعْلَن ، وخيرها يُدْفَن ، انكِحِي في قومك ولا تغررك الأجسام ، فلم تقبل منها ، وبعثت إلى أبيها أنكِحْنِي مدركا ، فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورُعَاتها ، وحَمَلَها مدرك ، فلم تَلْبث عنده إلا قليلا حتى صَبَّحهم فوارسُ من بني مالك بن كنانة ، فاقتتلوا ساعة ثم إن زوجها وإخوته وبني عامر انكَشَفُوا فَسَبَوْهَا فيمن سَبَوْا ، فبينا هي تسير بكَتْ ، فقالوا : ما يبكيك؟ أعلى فراق زوجك؟ قالت : قَبَّحه الله ! قالوا : لقد كان جميلا ، قالت : قبح الله جمالا لا نَفْع معه ، إنما أبكي على عصياني

أختي وقولها «ترى الفيان كالنخل وما يدريك ما الدخل» وأخبرتهم كيف خطبوها ، فقال لها رجل منهم يكنى أبا نُوَاس شاب أسود أَفْوَهُ مضطرب الخلق : أَتَرْضَيْنَ بي على أن أمنعك من ذئاب العرب ، فقالت لأصحابه : أكذلك هو؟ قالوا : نعم إنه مع ما تَرَيْنَ لَيَمْنَعُ الحَلِيلة ، وتَتَّقِيه القبيلة ، قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال ، قد رضيت به ، فزوجوها منه

تَعِسَتِ العَجَلَةُ

أول من قال هذا فِنْدٌ مولَى عائشةَ بنتِ سعد بن أبي وقاص ، وكان أحد المغنين المجيدين ، وكان يجمع بين الرجال والنساء ، وله يقول ابن قَيْس الرُّقَيَّات :

قُـــل لفنْـــد يُشَيِّع الأظْعَانا طالمـــا سَرَّ عَيْشَنَا وكَفَانـــا

وكانت عائشة أَرسَلَتْه يأتيها بنار ، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر ، فخرج معهم فأقام بها سنةً ، ثم قدم فأخذ ناراً وجاء يَعْدُو فعثَرَ وتبدَّد الجمر ، فقال : تعست العجلة! وفيه يقول الشاعر :

مـا رأينـــا لغُـــرَاب مثَـــلاَ إذ بَعَثْنَـــاه يَجِـــى بالمشملة
غَيْـــرَ فِنْد أرسلـوه قَابِســـاً فَثَوَى حَوْلا وَسَبَّ العَجَلَـــهْ

المشملة : كساء تجمع فيه المقدحة بآلاتها وقال بعضهم الرواية «المشملة» بفتح الميم وهي مَهَبُّ الشمال ، يعني الجانب الذي بعث نوح عليه السلام الغراب إليه ليأتيه بخبر الأرض أَجَفَّتْ أم لا؟

تَجْمَعِينَ خِلاَبَةً وَصُدُوداً.

يضرب لمن يجمع بين خَصْلَتَيْ شَرٍّ .

قالوا : هو من قول جرير بن عطية(١) ، وذلك أن الحجاج بن يوسف(٢) أراد قتله ،

(١) جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي شاعر من بني كليب بن يربوع من قبيلة بني تميم وهي قبيلة في نجد ، ولد في بادية نجد من أشهر شعراء العرب في فن الهجاء وكان بارعًا في المدح أيضًا .

(٢) أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ، قائد أموي ، داهية ، سفاك ، خطيب . ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته ، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره .

فمشت إليه مُضَرُ فقالوا : أصلح الله الأمير ! لسانُ مضر وشاعرُها ، هَبْه لنا ، فوهَبه لهم ، وكانت هند بنت أسماء بن خارجة ممن طلب فيه ، فقالت للحجاج : ائذن لي فأسْمَعَ من قوله ، قال : نعم ، فأمر بمَجْلِسٍ له وجلس فيه هو وهند ، ثم بعث إلى جرير فدخل وهو لا يعلم بمكان الحجاج ، فقالت : يا ابن الخَطَفَى أنْشِدْني قولَك في التشبيب ، قال : واللّه ما شَبَّبْتُ بامرأة قطُّ ، وما خلَق اللّه شيئاً أبْغَضَ إليّ من النساء ، ولكني أقول في المديح ما بلغكِ ، فإن شئت أسمعتُكِ ، قالت : يا عدوَّ نفِسه فأين قولك :

يَجْري السواكُ على أغَرَّ كأنَّهُ بَرَدٌ تحدَّرَ من مُتُونِ غَمامِ
طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ ولَيْسَ ذا وَقْتَ الزيارة فَارْجعي بسلامَ
لو كُنْتِ صَادقَةَ الذي حَدَّثْتَنا لَوَصَلْتِ ذاك فكان غيرَ رِمَامِ

قال جرير : لا والله ما قلت هذا ، ولكني أقول :

لقد جَرَّدَ الحجاجُ بالحقِّ سيفَه ألا فاسْتَقيمُوا لا يَميلَنَّ مَائِلُ
ولا يَسْتَوي دَاعِي الضلالة والْهُدَى ولاَحُجَّة الخصمين حَقٌّ وبَاطِلُ

فقالت هند : دَعْ ذا عنك ، فأين قولك

خليليّ لاَ تَسْتَشْعِرَا النومَ ، إنني أعيذُكُما باللّه أن تَجدَا وَجْدي
ظَمِئْتُ إلى بَرْدِ الشَّرَابِ وغَرَّني جَدَامُزْنَةٍ يُرْجَى جَدَاها وَمَا تُجْدِي

قال جرير : بل أنا الذي أقول :

ومَنْ يأمَن الحجَّاجَ ، أما عقَابُهُ فَمُرّ ، وأما عَقْدُه فَوَثيقُ
لخَفْتُكَ حَتَّى أنْزَلَتْني مَخَافَتي وَقَدْ كانَ مِنْ دُوني عَمَايَة نيق
يُسَرُّ لك البَغْضَاء كلُّ مُنَافِقٍ كما كلُّ ذِي دِينٍ عليك شَفِيقُ

قالت : دَعْ ذا عنك ، ولكن هات قولك :

يا عاذلَيّ دَعَا المَلاَمَة وَاقْصِرَا طَالَ الهَوَى وأطَلْتُمَا التَّفنيدَا
إني وَجَدْتُك لَوْ أرَدْت زيَارةً في الحبِّ منِّي ما وَجَدْت مَزِيدَا
أخَلَبْتنَا وَصَدَدْت أمَّ محمد أفَتَجْمَعَين خَلاَبةً وصُدُودَا
لا يستطيعُ أخو الصَبابة أن يُرَى حَجَراً أصمَّ وأن يكون حَدِيدَا

أَتْجَرُ مِنْ عقْرَب.

ويقال أيضاً «أمْطَلُ من عَقْرَب » وهذا من أمثال أهل المدينة ، حكاه الزُّبير بن بَكَّار[(١)] . وعقرب اسم تاجر من تجارها ، قال الزبير : وكان رَهْط أبي عَقْرب أكْثَرَ مَنْ هُنَاك تجارة ، وأشدَّهم تسويفاً ، حتى ضَرَبوا بِمَطْله المثلَ ، فاتفق أنْ عاملَ الفضلَ بن عباس بن عُتْبة بن أبي لَهَب ، وكان أشدَّ أهلِ زمانه اقْتضَاءً ، فقال الناس : ننظر الآنَ ما يصنعان ، فلما حلَّ المالُ لزم الفضلُ بابَ عقرب ، وشدّ ببابه حماراً له يسمى السَّحَاب ، وقعد يقرأ على بابه القرآن ، فأقام عقرب على المَطْل غيرَ مكترثٍ به ، فعدل الفضلُ عن مُلاَزمة بابه إلى هجاء عِرْضه ، فمما سار عنه فيه قولُه :

قد تَجَرَتْ في سُوقِنَا عقربٌ ... لا مَرْحَباً بِالْعَقْرَبِ التاجِرَهْ
كلُّ عدوٍّ يُتَّقَى مُقْبِلاً ... وعقربٌ يُخْشَى من الدَّابِرَهْ
كل عدوٍّ كيدُهُ في اسْته ... فغيرُ مَخْشِيٍّ ولا ضَائِرَهْ
إن عَادَتِ العقربُ عُدْنَا لَهَا ... وكَانَتِ النَّعْلُ لَهَا حَاضِرَهْ

أَتْيَمُ مِنَ المُرَقِّش.

يعنون المُرَقِّشَ الأصْغَر ، وكان متيما بفاطمة بنت الملك المنذر ، وله معها قصة طويلة ، وبلَغ من أمره أخيرا أنْ قَطَع المرقش إبهامه بأسنانه وَجْدا عليها ، وفي ذلك يقول :

ومَنْ يَلْقَ خيراً يَحْمَد الناسُ أمرَه ... وَمَن يَغْو لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائما
ألم تَرَ أن المَرْءَ يَجْذِمُ كَفُّه ... ويَجْشَمُ من لَوْم الصَّديقِ المَجَاشِمَا

أي يكلف نفسه الشدائدَ مخافةَ لوم الصديق إياه ، وأتيَم : أفعلَ من المَفعول ، يقال : تَامَهُ الحبُّ وتَيَّمه ، أي عَبَّده وذلله ، وتَيْمُ الله مثلُ قولك عبد الله ، قال لَقيط :

تَامَتْ فُؤَادَكَ لم يَحْزُنْكَ ما صَنَعَتْ ... إحْدَى نِسَاءِ بَنِي ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

---

(١) الزبير بن بكار الأسدي القرشي من نسل عبد الله بن الزبير ، ولد في المدينة المنورة سنة ١٧٢هـ من مشاهير العلماء والأدباء في العصر العباسي ، وحامل علم المدائني في التاريخ ، وقد عدّ له ابن النديم ٣١ كتاباً ، بعضها في التاريخ وبعضها في الأدب ، وكان مؤدب ولد محمد بن طاهر بن عبد الله حيناً ، وتوفي وهو قاضٍ بمكة سنة ٢٥٦هـ ، وعمره أربع وثمانون سنة .

أَتْيَهُ مِنْ فَقِيدِ ثَقِيف.

قالوا : كان بالطائف في أول الاسلام أَخَوَانِ فتزوَّجَ أحدُهما امرأةً من كُنَّة ثم رامَ سفَرا فأوصى الأخَ بها ، فكان يتعهَّدُها كل يوم بنفسه ، وكانت من أحسن الناس وَجْهاً ، فذهبت بقلبه فَضَنِيَ وأخذت قوته حتى عجز عن المشي ، ثم عجز عن القعود ، وقَدِمَ أخوه فلما رآه بتلك الحال قال : مالك يا أخي؟ ما تجد؟ قال : ما أجد شيئاً غير الضعف فبعث أخوه إلى الحارث بن كَلْدَةَ طبيبِ العرب ، فلما حضر لم يجد به علَّة من مرض ، ووقع له أن ما به من عشق ، فدعا بخمر وفَتَّ فيها خبزا ، فأطعمه إياه ثم أتبعه بشَرْبة منها ، فتحرك ساعةً ثم نغص رأسه ورفع عَقيرتَه بهذه الأبيات :

ألَمَّا بي على الأبْيَا ت بالخَيْف نَزُرْهُنَّهْ
غَزَالٌ ثَم يَحْتَلُّ بها دُورَ بندَي كُنَّهْ
غَزَال أحْوَرُ الْعَيْنَيْن في مَنْطقة غُنَّهْ

فعرف أنه عاشق ، فأعاد عليه الخمر ، فأنشأ يقول :

أيها الجيَرةُ اسْلَمُوا وَقفُوا كي تَكَلَّمُوا
خرجت مزنة من الـ بَحْر (البحر) رَيَّا تُحَمْحِمُ
هِيَ مَا كُنَّتي وتز عُمُ أنِّي لَهَا حَمُ

فعرف أخوه ما به ، فقال : يا أخي هي طالق ثلاثا فتزوجْهَا ، فقال : هي طالق يوم أتزوجها ، ثم ثاب إليه ثائب من العقل والقوة ففارق الطائف حضرا ، وهامَ في البر فما رُؤي بعد ذلك ، فمكث أخوه أياما ثم مات كَمَداً على أخيه ، فضرب به المثل ، وسمى فقيد ثقيف .

ثُكْلٌ أرْأَمَهَا وَلَداً.

قاله بَيْهس الملقب بنَعَامة لأمه حين رجَع إليها بعد إخوته الذين قُتلوا .

قال المفضل : كان من حديث بَيْهس أنه كان رجُلاً من بني فَزَارة بن ذُبْيَان بن بَغيض ، وكان سابعَ إخْوَةٍ . فأغار عليهم ناسٌ من أَشْجَع بينهم وبينهم حرب وهو في إبلهم ، فَقتَلوا منهم ستة وبقي بَيْهَسٌ وكان يُحَمَّقُ ، وكان أَصْغَرَهم ، فأرادوا قتله ، ثم قالوا : وما تريدون من قتل هذا؟ يُحْسَبُ عليكم برجل ولا خير فيه ، فتركوه ، فقال : دعوني أتوصَّلُ معكم إلى الحي ، فإنكم إن تركتموني وَحْدِي أكلتني السباع وقَتَلَنِي

العطش ، ففعلوا ، فأقبل معهم فلما كان من الغدِ نزلوا فَنَحَروا جَزُوراً في يوم شديدِ الحر ، فقالوا : ظَلِّلُوا لَحْمكم لا يفسد . فقال بيهس : لكنَّ بالأَثَلاثِ لحماً لا يُظَلَّل ، فذهبت مثلا ، فلما قال ذلك قالوا : إنه لَمُنْكَر وَهَمُّوا أن يَقْتلوه ، ثم تركوه وظلُّوا يَشْوُون من لحم الجزور ويأكلون ، فقال أحدهم : ما أَطْيَبَ يومَنَا وأَخْصَبَه ، فقال بيهس : لكنْ على بَلْدَح قومٌ عَجْفَى ، فأرسلها مثلا ، ثم انْشَعَبَ طريقَهم فأتى أُمَّه فأخبرها الخبر . قالت : فما جاءَني بك من بين إخوتك؟ فقال بيهس : لو خُيِّرْتِ لاخْتَرْتِ فذهبت مثلا ، ثم إن أمه عَطَفت عليه ورقَّتْ له فقال الناس : لقد أحبَّتْ أم بيهس بيهساً . فقال بيهس : ثكلٌ أَرْأَمَهَا ولدا ، أي عَطَفها على ولد ، فأرسلها مثلا ، ثم إن أمه جَعَلت تُعطيه بعد ذلك ثيابَ إخوته فَيَلْبَسُها ويقول : يا حَبَّذَا التراثُ لولا الذلَّة فأرسلها مثلاً ، ثم إنه أتى على ذلك ما شاء الله فمر بنسوة من قومه يُصْلِحْنَ امرأةً منهن يُرِدْنَ أن يُهْدِينَهَا لبعض القوم الذين قَتَلُوا إخوته ، فكشَف ثوبه عن اسْتِه وغطى به رأسه فقلن له : ويحك ! ما تصنع يا بيهس؟ فقال :

أَلْبَسْ لكلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا ... إمَّا نعيمَهَا وإما بُوسَهَا

فأرسلها مثلا ، ثم أمر النساء من كنانة وغيرها فصنَعْنَ له طعاماً ، فجعل يأكل ويقول : حَبَّذَا كثرةُ الأَيْدي في غير طعام فأرسلها مثلاً ، فقالت أمه : لا يطلبُ هذا بثأر أبداً ، فقالت الكنانية : لا تأْمَنِي الأَحْمَقَ وفي يَدِه سكين ، فأرسلتها مثلا ، ثم إنه أُخبر أن ناساً من أَشْجَعَ في غار يشربون فيه ، فانطلق بخالٍ له يقال له : أبو حَنَش ، فقال له : هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيبُ منها ، ويروى : هل لك في غَنيمة باردة ، فأرسلها مثلاً ، ثم انطلق بَيْهَس بخاله حتى أَقَامَهُ على فَمِ الغار ثم دفع إبا حنَش في الغار فقال : ضَرْباً أبا حَنَش ، فقال بعضهم : إن أبا حَنَش لَبَطَل ، فقال : أبو حنش : مُكْرَهٌ أَخُوكَ لا بَطَل ، فأرسلها مثلا ، قال المتَلمِّسُ في ذلك :

وَمِنْ طَلَبِ الأَوْتَارِ مَا حَزَّ أَنْفَهُ ... قَصِيرٌ وَخَاضَ المَوْتَ بالسَّيْف بَيْهَسُ
نَعَامةُ لما صَرَّعَ القومُ رَهْطَهُ ... تبيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ كَيْفَ يَلْبَسُ

جَزَاءَ سنمَّار

أي جَزَاني جزاءَ سنمار ، وهو رجل رومي بَنَى الخَوَرْنَقَ الذي بظَهْر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس ، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فَخَرَّ ميتاً ، وإنما فعل ذلك لئلا يبني مثلَه لغيره ، فضربت العرب به المثلَ لمن يجزي بالإحسان الإساءة ، قال الشاعر :

جَزَتْنَا بنــو سَعْد بحُسْــــن فَعَالِنَــا جَزَاء سنمَّار ومـــا كانَ ذَا ذَنْــب

ويقال : هو الذي بنى أطمَ أحَيْحَةَ ابن الجُلاَح ، فلَمَا فرَغ منه قال له أُحَيْحَة : لقد أحكمتَه ، قال : إني لأعرفُ فيه حجرا لو نُزع لتقوَّضَ من عند آخره ، فسأله عن الحجر ، فأراه موضعه . فدفعه أحيحة من الأطم فخرّ ميتا .

جَرَحَهُ حَيْثُ لاَ يَضَعُ الرَّاقِي أنْفَهُ.

قالته جَنْدَلَة بنت الحارث ، وكانت تحت حَنْظَلة بن مالك وهي عَذْراء ، وكان حنظلة شيخا ، فخرجت في ليلة مَطِيرة فبَصُرَ بها رجل فوثَب عليها وافتضَّها ، فصاحت ، فقال لها رجل : مالك؟ فقالت : لُسِعْتُ ، قال : أين؟ قالت : حيث لا يضع الراقي أنفه .

يضرب لمن يقع في أمرٍ لا حيلَةَ له في الخروج منه

جاوِرِينَا وَاخْبُرِينَا.

قال يونس : كان رجلان يتعشَّقان امرأةً ، وكان أحدُهما جميلا وَسيما ، وكان الآخر دَميما تقتحمه العين ، فكان الجميلُ منهما يقول : عاشرينا وانظري إلينا ، وكان الدميم يقول : جاورينا واخْبُرينا ، فكانت تُدْني الجميلَ ، فقالت : لأختبرنَّهما ، فقالت لكل واحد منهما أَن يَنْحَر جَزُورا ، فأتتهما متنكرة ، فبدأت بالجميل فوجَدَتْه عند القدْر يَلْحَس الدسَم ويأكل الشحم ، ويقول : احتفظوا كلَّ بيضاء لِيَهْ ، يعني الشحم ، فاستطعمته فأمر لها بثَيْلِ الجَزور ، فوضع في قصعتها ، ثم أتت الدَّمِيم فإذا هو يَقْسِم لحم الجزور ويُعْطي كل مَنْ سأله ، فسألته فأمر لها بأطايبِ الجزور ، فوضع في قصعتها ، فرفعت الذي أعطاها كلُّ واحد منهما على حدَة ، فلما أصبحا غَدَوَا إليها فوضَعَت بين يدي كل واحد منهما ما أعطاها ، وأقصت الجميل ، وقربت الدميم ، ويقال : إنها تزوجته .

يضرب في القبيح المنظر الجميل المَخْبَر

جارٌ كَجَارِ أَبِي دُاوِدٍ.

يَعْنُون كَعْبَ بن مَامَةَ ، فإن كعبا كان إذا جاوره رجُل فمات وَدَاه ، وإن هلك له بعيرُ أو شاة أخْلَفَ عليه ، فجاءه أبو دُوَاد الشاعر مجاوراً له ، فكان كعبٌ يفعل به

ذلك ، فضربت العرب به المثلَ في حسن الجِوار ، فقالوا : كجار أبي دُوَاد ، قال قيس ابن زهير :

أطَوِّفُ ما أطَوِّفُ ثم آوِي إلى جَارٍ كجَارِ أبي دُوَاد

وقال طَرَفَة بن العبد :

إنِّي كَفَانِيَ مِنْ أمْرٍ هَمَمْت بِه جار كَجَارِ الحُذَاقِيِّ الَّذِي اتَّصَفَا

جَوِّعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْك.

ويروى «أجعْ كلبك» وكلاهما يضرب في معاشرة اللئام وما ينبغي أن يعاملوا به .

قال المفضل : أول من قال ذلك مَلك من ملوك حِمْيَر كان عنيفا على أهل مملكته : يَغْصِبُهم أموالهم ، ويَسْلُبهم ما في أيديهم ، وكانت الكَهَنة تخبره أنهم سيقتلونه ، فلا يَحْفل بذلك ، وإن امرأته سمعت أصوات السؤال فقالت : إني لأرْحَم هؤلاء لما يَلْقَوْن من الجَهْد ، ونحن في العيش الرَّغد ، وإني لأخاف عليك أن يصيروا سبَاعا ، وقد كانوا لنا أتباعا ، فرد عليها «جَوِّعْ كلبك يتبعك» وأرسلها مثلا ، فلبث بذلك زمانا ، ثم أغزاهم فغنموا ولم يَقْسِمْ فيهم شيئا ، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه وهو أميرهم : قد ترى ما نحن فيه من الجَهْد ، ونحن نكره خروجَ المُلْكِ منكم أهلَ البيت إلى غيركم فساعِدْنا على قتل أخيك ، واجلس مكانه ، وكان قد عَرَف بَغْيه واعتداءه عليهم ، فأجابهم إلى ذلك ، فوثَبوا عليه فقتلوه ، فمر به عامر بن جذيمة وهو مقتول وقد سمع بقوله «جوع كلبك يتبعك» فقال : ربما أكل الكلب مؤدِّبه إذا لم ينل شبعه ، فأرسلها مثلا

أَجْنَاؤُهَا أَبْنَاؤُهَا.

وأصل المثل أن ملكا من ملوك اليمن غزا وخَلَّف بنتاً ، وأن ابنته أَحْدَثَتْ بعده بنياناً قد كان أبوها يكرهه ، وإنما فعلت ذلك برأي قوم من أهل مملكته أشاروا عليها وزَيَّنوه عندها ، فلما قدم الملك وأخبر بمَشُورَة أولئك ورأيهم أمرهم بأعيانهم أن يَهْدِموه ، وقال عند ذلك : أَجْنَاؤُهَا أبناؤها ، فذهبت مثلا .

يضرب في سُوءِ المَشُورَةِ والرأي ، وللرجل يعمل الشيء بغير روِيَّة ثم يحتاج إلى نقض ما عمل وإفساده .

ومعنى المثل : إن الذين جَنَوْا على هذه الدار بالهَدْم هم الذين عَمَروها بالبناء

جاءَ أَبُوهَا بِرُطَبٍ.

قالوا : إن أول من قال ذلك شيهم بن ذي النابين العبدي ، وكان فيه فَشَل وضَعْفُ رأي ، فأتى أرض النَّبيطِ في نَفَر من قومه فهوِيَ جارية نَبَطية حسناء فتزوجها فنهاه قومه وقَال في ذلك أخوه محارب :

لـم يَعْـدُ شيهـم أن تزوج مثلـه فهمـا كشَيْهَمـة عَلاَهـا شَيْهَم
ورَسُولُـه الساعِـي إليهـا تـارةً جُعَـلٌ وطَـوْرا عَضْـرَ فُوطٌ ملجم

في أبيات بعدهما لا فائدة في ذكرها ، ثم إن شيهما صار وحمل معه امرأته حتى أتى قومه وما فيهم إلا ساخر منه ، لائم له ، فلما رأى ذلك أنشأ يقول

ألـم تَرَنـي أُلاَمُ علـى نكاحـي فَتَـاةً حُبُّهَـا دَهْـراً عَنَانـي
رَمَتْنـي رَمْيَـة كَلَمَـتْ فـؤادي فأوْهَى القَلْـبَ رَمْيَـةُ مـن رَمَاني
فلـو وجـد ابنُ ذي النَّابَيْنِ يَوْمـاً بأخْـرَى مثـلَ وَجْدِي ما هَجَانِي
ولَكِـنْ صَدَّ عنـه السَّهْـم صـدّاً وعَـنْ عُـرْضٍ على عَمْـد أتاني

فلما سمع القومُ ذلك منه كَفُّوا عنه ، ثم إن أباها قدِم زائراً لها من أرضه ، وحمل معه هدايا منها رُطَب وتمر ، فلما ذاق شَيْهم الرطبَ أعجبته حلاوته ، فخرج إلى نادي قومه وقال :

مـا مراء القـوم فـي جمع النَّـدِى ولقـد جـاء أبوُهـا بِرُطَـبْ

فذهبت مثلا . يضرب لمن يرضى باليسير الحقير

جَفَّ حجْرُكِ وطابَ نَشْرُكِ، أَكلْتِ دَهَشاً وحَطَبْتِ قَمْشاً.

قال يونس بن حَبيب : كان من حديث هذين المثلين أن امرأة زَارَتْها بنتُ أخيها وبنت أختها ، فأحسنت تزويرهما ، فلما كان عند رجوعهما قالت لابنة أخيها : جفَّ حجْرُكِ وطاب نَشْرُكِ ، فسُرَّتِ الجارية بما قالت لها عمتها ، وقالت لابنة أختها : أكَلْتِ دَهَشاً وحَطَبْتِ قمْشاً ، فوجدتِ بذلك الصبية وشق عليها ما قالت لها خالتها ، فانطلقت بنت الأخ إلى أمَها مسرورة ، فقالت لهما أمها : ما قالت لك عمتك؟ فقالت : قالت لي خيرا ودَعَتْ لي ، قالت : وكيف قالت لك؟ قالت : قالت جَفَّ

حِجْرُك وطاب نَشْرك ، قالت : أي بنية ، ما دَعَتْ لك بخير ، ولكن دعت بأن لا تشمي ولدا أبدا فيبل حجرك ويغير نَشْرَكِ ، وانطلقت الأخرى إلًى أمها ، فقالت لها أمها : ما قالت لك خالتك؟ قالت : وما عَسَى أن تقول لي؟ دعَتْ الله علي ، قالت :

وكيف قالت لك؟ قالت : قالت أكَلْت دَهَشاً وحَطَبْت قمْشاً ، قالت : بل دعت الله لك يا بنية أن يكثر ولَدُكِ فينازعوك في المال ويقمشوك حَطبا

جَدَّ صَفِيرُ الحُنْظَلِيِّ.

أصلُ هذا أن رجلين أحدهما من بني سعد والآخر من بني حنظلة ، خرجا فاحتفرا زُبْيَتَين ، فجلس كل واحد منهما في واحدة ، وجعلا أمارة ما بينهما الصفير إذا أبْصَرَا صيدا ، فزعموا أن أسدا مرَّ بالحَنْظَلى ، فأخَذَ برجله ، فَخَبطه الأسد بيده ، فَغوَّثَ وصاح صِياحاً شديداً فقال السعدي : جَدَّ صفيرُ الحنظلى ، أي اشتد ، أي فالهرب فإن قربه شر .

يضرب لمن قرب منه الشر ودَنَا

جَلَوْا قَمّاً بِغَرفَةٍ.

وأصل هذا أن رجلا سأل أعرابيا عن قوم كانوا في محلة ، فقال له : جَلَوْا قَمًّا بغَرَفَة ، أي جَلَوْا وتحوّلوا عن محلتهم فخلا ذلك لموضُع منهم وعَفَتْ آثارهم كما يُقَمّ المكان بالغَرَفَة ، ونصب «قما» على المصدر ، كأنه قال : جَلَوا جَلاَءَ كاملا تاما ، فكأن مكانهم قُمّ منهم قما بمكنسة .

جَهِلَ مِنْ لَغَانِينَ سُبُلاَتٍ.

وأصل المثل أن عمرو بن هند الملك قال : لأجَلِّلَنَّ مواسل الرَّبْط ، مصبوغا بالزيت ، ثم لأشْعِلَنَّه بالنار ، فقال رجل : جَهِلَ من لَغَانين سُبُلات ، أي لم يَعْلم مشقة الدخول من سُبُلات لَغَانين ، يريد المضَايق منها ، ومواسل (في القاموس أن اسمه مويسل) : في رأس جبل من جبال طيء يضرب مثلا لمن يُقْدم على أمر وقد جهل ما فيه من المشقة والشدة .

أَجْبَنُ مِنَ المُنْزُوفِ ضَرِطاً.

قالوا : كان من حديثه أن نسوة من العرب لم يكن لهنَّ رجلٌ ، فزوجْنَ إحداهن رجلا كان ينام الضحى ، فإذا أتينه بصَبُوح قُلْنَ : قم فاصْطَبِحْ ، فيقول : لو نَبَّهْتنني لعادية ، فلما رأين ذلك قال بعضهن لبعض : إن صاحبنَا لشُجاع ، فتعالَيْنَ حتى

نجربه ، فأتينه كما كنَّ يأتينه فأيقظنه ، فقال : لو لعادية نبهتنني ، فقلن : هذه نَوَاصي الخيل ، فجعل يقول : الخيل ، الخيل ، ويَضْرُط ، حتى مات وفيه قول آخر ، قال أبو عبيدة : كانت دَخْتَنُوس بنتُ لقيط بن زُرَارة تحت عمرو بن عمرو ، وكان شيخاً أبْرَصَ ، فوضع رأسه يوماً في حِجْرها فهي تهمهم في رأسه إذ جَخَفَ عمرو وسال لُعابه ، وهو بين النائم واليقظان ، فسمعها تؤفِّف ، فقال : ما قلت؟ فحادت عن ذلك ، فقال لها : أيَسُرُّك أن أفارقك؟ قالت : نعم ، فطلقها فنكحها فتى جَميل جسيم من بني زُرَارة ، قال محمد بن حبيب : نكحها عمير بن عمارة ابن معبد بن زرارة ، ثم إن بكر بن وائل أغاروا على بني دارم ، وكان زوجها نائما يَنْخَر ، فنبهته وهي تظن أن فيه خيراً ، فقالت : الغارة ، فلم يزل الرجل يَحْبق حتى مات ، فسمى المنزوف ضرطا ، وأخِذَت دَخْتَنُوس ، فأدركهم الحى فطلب عمرو بن عمرو أن يَرُدُّوا دختنوس ، فأبوا ، فزعم بنو دارم أن عمرا قتل منهم ثلاثة رَهْطٍ ، وكان في السَّرْعَان ، فردوها إليه ، فجعلها أمامه ، وقال :

أيَّ خَلِيلَيْكِ وَجَدْتِ خَيْرَا ... أألْعَظِيدم فَيْشَةً وأيْرَا
أم الذي يأتِي العَدُوّ سَيْرا ... وردها إلى أهلها .

ويَقال في حديثه غير هذا ، زعموا أن رجلين من العرب خَرَجا في فَلاَة ، فلاحت لهما شجرة ، فقال واحد منهما لرفيقه : أرى قوما قد رَصَدُونا ، فقال الرفيق : إنما هو عُشَرة ، فظنَّه يقول عَشَرَة ، فجعل يقول : وما غَنَاء اثنين عن عَشَرة؟ ويضرط حتى مات .

ويقال فيه وجه آخر ، زعموا أنه كانت تحت لُجَيم بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل امرأةٌ من غنزة بن أسد بن ربيعة يقال لها حَذَام بنت العتيك بن أسلم بن يذكر ابن عنزة بن أسد بن ربيعة ، فولدت له عجل ابن لجَيم والأوقص بن لجيم ، ثم تزوج بعد حذام صفية بنت كاهل بن أسد بن خزيمة ، فولدت له حَنيفة بن لجيم ، ثم إنه وقع بين امرأتيه تنازع فقال لجيم :

إذا قالت حَذَام فصدِّقوها ... فإن القول ما قالت حَذَام

فذهبت مثلا ، ثم إن عَجل بن لجيم تزوج الماشرية بنت نهسر بن بدر بنَ بكر ابن وائل ، وكانت قبله عند الأحرز بن عون العبدي فطلقها وهي نُسءْ لأشهر ، فقالت لعجل حين تزوجها : احفظ عليّ ولدي ، قال : نعم ، فلما ولدت سماهُ عجلٌ سعدا ، وشبَّ الغلامُ فخرج به عجل ليدفعه إلى الأحرز بن عون وينصرف ، وأقبل

حنيفة بن لجيم من سفر فتلقاة بنو أخيه عجل فلم يَرَ فيهم سعدا ، فسألهم عنه ، فقالوا : انْطَلَقَ به عجل إلى أبيه ليدفعه إليه ، فسار في طلبه فوجده راجعا قد دفعه إلى أبيه ، فقال : ما صنعت يا عشمة؟ وهل للغلام أب غيرك؟ وجمع إليه بني أخيه ، وسار إلى الأحرز ليأخذ سعدا ، فوجده مع أبيه ومولًى له ، فاقتتلوا فخَذَلَه مولاهُ بالتنحِّي عنه ، فقال له الأحرز : يا بنيّ ، ألا تعينني على حنيفة؟ فكعّ الغلام عنه ، فقال الأحرز : ابنُكَ ابنُ بوحك ، الذي يشرب من صَبُوحك ، فذهبت مثلا ، فضرب حنيفة الأحرز فجَذَمه بالسيف ، فيومئذ سمى جَذِيمة ، وضرب الأحرز حنيفة على رجله فحَنَفَها ، فسمى حنيفة ، وكان اسمه أثال بن لجيم ، فلما رأى مولى الأحرز ما أصاب الأحرز وقع عليه الضراط فمات ، فقال حنيفة : هذا هو المنزوف ضرطا ، فذهبت مثلا ، وأخذ حنيفة سعدا فردَّه إلى عجل ، فإلى اليوم ينسب إلى عجل .

ووجه آخر ، زعموا أن المنزوف ضرطا دابة بين الكلب والذئب ، إذا صِيحَ بها وَقَع عليها الضراط من الجُبْن

أجْوَدُ مِنْ حَاتِمٍ

هو حاتم بن عبد الله بن سَعْد بن الحَشْرَج ، كان جواداً شجاعاً شاعراً مُظَفراً ، إذا قاتل غَلَب ، وإذا غنم نهب ، وإذا سُئِل وهب ، وإذا ضَرَب بالقِداح سَبَق ، وإذا أسَرَ أطلق ، وإذا أثْرى أنفق ، وكان أقسم باللّه لا يقتل واحدَ أمه .

ومن حديثه أنه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة ، فلما كان بأرض عنزة ناداه أسيرٌ لهم : يا أبا سَفَّانة ، أكَلَني الإسار والقمل ، فقال : ويحك ! ما أنا في بلاد قومي ، وما معي شيء وقد أسَأْتَني إذ نَوَّهْتَ باسمي ومالَكَ مَتْرَك ، ثم ساوم به العَنَزيين ، واشتراه منهم ، فخلاَّه وأقام مكانه في قِدِّه حتى أتى بفدائه ، فأدَّاه إليهم .

ومن حديثه أن ماويَّةَ امرأةَ حاتم حدَّثت أن الناس أصابتهم سَنَة فأذهبت الخُفَّ والظلف ، فبتنا ذاتَ لَيلة بأشدِّ الجوع ، فأخذ حاتم عديًا وأخذْتُ سفَّانة فعلَّلْنَاهما حتى ناما ، ثم أخذ يُعَللني بالحديث لأنام ، فرققت له لما به من الجَهْد ، فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أني نائمة ، فقال لي : أنمْت؟ مراراً ، فلم أجبه ، فسكت ونظر من وراء الخِباء فإذا شيء قد أقبل فرفَع رأسَه ، فإذا امرأة تقول : يا أبا سَفَّانة أتيتُكَ من عند صِبْية جِياع ، فقال : أحضريني صبيانَك فواللّه لأشْبعَنَّهم ، قالت : فقمتُ مُسْرِعة ، فقلت : بماذا يا حاتم؟ فوالله ما نام صِبْيَانك من الجوع إلا بالتعليل ، فقام إلى

فَرَسه فذبَحه ، ثم أجَّجَ نارا ودفع إليها شَفْرة ، وقال : اشْتَوي وكُلي وأطْعمي ولدك ، وقال لي : أيْقظِي صبيتَكَ ، فأيقظتهما ثم قال : واللّه إن هذا للؤم أنْ تأكُلُوا وأهلُ الصِّرْم (الصرم - بالكسر - جماعة البيوت) حالُهم كحالكم ، فجعل يأتي الصِّرْم بيتا بيتا ويَقول : عليكم النار ، فاجتمعوا وأكلوا ، وتَقَنَّع بكسائه وقَعَد ناحيةً حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير ، ولم يَذُقْ منه شيئاً .

وزعم الطائيون أن حاتما أخذ الجودَ عن أمِّه غنية بنت عفيف الطائية ، وكانت لا تليق شيئاً سَخَاء وجودا .

أَجْوَدُ مِنْ كَعْبِ بْنِ مَامَةَ.

هو إيادي ، ومن حديثه أنه خرج في رَكْب فيهم رجل من النَّمِر بن قاسط في شهر نَاجِر فَضَلُّوا فتصافَنُوا ماءهم ، وهو أن يُطْرَح في القَعْبِ حَصَاة ثم يُصَب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحْصَاة ، وتلك الحصاة هي المَقْلة ، فيشرب كل إنسان بقدر واحد ، فقعدوا للشرب ، فلما دار القَعْبُ فانتهى إلى كعب أَبْصَرَ النمريَّ يحدِّد النظر إليه ، فآثره بمائه ، وقال للساقي : اسْقِ أخاكَ النمري ، فشرب النمري نصيبَ كعب ذلك اليوم من الماء ، ثم نزلوا من غدهم المنزلَ الآخر ، فتصافَنُوا بقية مائهم ، فنظر إليه النمري كنَظَره أمسه ، فقال كعبَ كقوله أمس ، وارتحل القوم وقالوا : يا كعب ارْتَحلْ ، فلم يكن به قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقيل له : رِدْ كعبُ إنك وَرَّاد ، فعجز عن الجواب ، فلما يئسوا منه خَيَّلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله ، وتركوه مكانه ، ففَاظَ ، فقال أبوه مامةُ يرثيه :

ما كان من سُوقَة أَسْقَى على ظَمَإٍ   خمراً بماء إذا ناجُودُها بَرَدَا
منَ ابن مَامَةَ كعبٍ حين عَيَّ به   زَوُّ المنية إلا حرة وَقَدَا
أَوفى على الماء كعبٌ ثم قيل له : رِدْ كعبُ إنَّكَ وَرَّادٌ فما وَرَدَا

زو المنية : قدرها ، وعَيَّ به : أي عيت به الأحداث إلا أن تقتله عَطشا .

أَجْسَرُ مِنْ قَاتِلِ عُقْبَةَ.

قال أبو عمرو القعيني : هو عُقْبة بن سلم من بني هُنَاءة من أهل اليمن صاحب دار عُقْبة بالبصرة ، وكان أبو جعفر وَجَّهه إلى البحرين ، وأهل البحرين ربيعة ، فقتل ربيعة قتلا فاحشاً ، قال : فانْضَمَّ إليه رجل من عبد القيس ، فلم يزل معه سنين ،

وعزل عُقْبة فرجَعَ إلى بغداد ، ورحل العَبْدي معه ، فكان عقبة واقفاً على باب المهدي بعد موت أبي جعفر ، فشدَّ عليه العبدِيُّ بسكين فوجأه في بطنه فمات عقبة ، وأُخذَ العبديُّ فأدخل على المهدي ، فقال : ما حملك على ما فعلت؟ فقال : إنه قَتَلَ قومي ، وقد ظَفِرْتُ به غير مرة ، إلا أني أَحْبَبْتُ أن يكون أمره ظاهراً حتى يعلم الناس أني أدركْتُ ثأري منه ، فقال المهدي : إن مثلك لأهل أن يستَبقى ، ولكن أكره أن يجترئ الناس على القُوَّاد فأمر به فضُرِبت عنقه ، ويقال : إن الوَجْأة وقعت في شرجة منطقة عقبة ، قال : فجعل المهديُّ يسائل العبدي ، والعبدي يبكي ، إلى أن دخلَ داخل فقال : يا أمير المؤمنين مات عقبة ، فضحك العبدي ، فقال له المهدي : مِمَّ كنت تبكي؟ قال : من خوف أن يعيش . فلما مات أيقنتُ أني أدركت ثأري .

أَجْبَنُ مِنْ صَافِرٍ.

قال أبو عبيد : الصَّافِرُ كلُّ ما يصفر من الطير ، والصفير لا يكون في سباع الطير وإنما يكون في خَشَاشها وما يُصَاد منها ، وذكر محمد بن حبيب أنه طائر يتعلّق من الشجر برجليه ، وينكّس رأسَه خوفا من أن ينام فيؤخذ ، فيصفر منكوساً طول ليلته وذكر ابن الأعرابي أنهم أرادوا بالصافر المصفورَ به ، فقلبوه أي إذ صُفِرَ به هرب .

ويقولون في مثل آخر «جبان ما يلوي على الصفير» وأرادوا بالمصفور به التُّنَوِّطَ ، وهو طائر يحمله جُبْنه على أن ينسج لنفسه عُشًا ، كأنه كِيسٌ مدلى من الشجر ضيق الفم واسع الأسفل ، فيحترز فيه خوفا من أن يقع عليه جارحٌ ، وبه يضرب المثل في الحِذْق ، فيقال «أَصْنَعُ من تُنَوِّط» وذكر أبو عبيدة أن الصافر هو الذي يصفر بالمرأة المريبة ، وإنما يجبن لأنه وَجل مخافة أن يظهر عليه ، وأنشد بيتي الكميت على هذا ، وهو قوله :

أرجُوُ لكم أن تكونوا في مودتكم*

أَجْوَعُ مِنْ كَلْبَةِ حَوْمَلَ.

هذه امرأة من العرب ، كانت تُجِيعُ كلبةً لها وهي تحرسها ، فكانت تَرْبطها بالليل للحراسة وتطردها بالنهار ، وتقول : الْتَمِسي لنفسك لا مُلْتَمَسَ لك ، فلما طال ذلك عليها أكلت ذَنَبها من الجوع ، قال الشاعر ، وهو الكميت ، يذكر بني أمية ويذكر أن رِعايتهم للأمة كرعاية حَوْمَل لكلبتها :

كما رضيَــتْ جُوعــاً وســوءَ رعايـة لكَلْبتهــا فـي سالف الدهر حَوْمَلُ
نُبَاحــاً إذا مــا الليــلُ أَظْلَمَ دونَهَــا وغنمــا وتَجْوِيعاً ، ضَلاَلٌ مضلــل

أَجْشَعُ مِنْ أَسْرَى الدُّخَان.

ذكر أبو عبيدة أنهم الذين كانوا قَطَعوا على لَطِيمة كسرى ، وكانوا من تميم ، وذكر ابن الأعرابي أنهم كانوا من بني حَنْظلة خاصة وأن كسرى كَتَب إلى المُكَعْبر مرْدان به عامله على البحرين : أَن ادْعُهم إلى المُشَقَّر وأظهر أنك تدعوهم إلى الطعام ، فتقدم المُكَعْبَر في اتخاذ طعام على ظهر الحِصْن بحَطَب رَطْب ، فارتفع منه دخان عظيم ، وبعث إليهم يَعْرِض الطعام عليهم ، فاغتروا بالدخان ، وجاءوا فدخلوا الحصن ، فأصفق البابَ عليهم ، فغبروا هناك يُستعملون في مِهَن البناء وغيره ، فجاء الإسلام وقد بقي البعض منهم ، فأخرجهم العَلاَء بن الحَضْرَمي في أيام أبي بكر رضي اللّه عنه ، فسار بهم المثل فقيل فيمن قتل منهم : ليس بأول من قتله الدخان ، وأَجْشَع من أسرى الدخان ، وأجشع من الوافدين على الدخان ، وأجشع من وَفْد تميم ، وقال الشاعر في ذلك :

إذا مــا مــات مَيْــتٌ مــن تميــم فَسَــرَّكَ أن يعيــشَ فجِــيء بزاد
بخُبْـــــز أو بسَمْــدن أو بتَمْــــر أو الشــيء المُلَفَّــف فــي البِجَاد
تَــرَاهُ يطــوِّف فــي الآفاق حِرْصــاً ليأكــل رأسَ لقمــانَ بــن عــاد

ومازح معاوية الأحنف فما رُئي مازحان أوقَرَ منهما ، فقال له : يا أَحْنَفُ ما الشيء المُلَفَّفُ في البِجاد؟ فقال الأحنف : السَّخِينة يا أمير المؤمنين ، أراد معاوية قول الشاعر :

أو الشيء المُلَفَّفُ في البِجاد* وهو الوَطْب من اللبن ، وأراد الأحْنَفُ بقوله «السخينة» قولَ عبد الله بن الزِّبَعْرَي :

زَعَمَــتْ سَخِينَةُ أن ستَغْلِــب رَبَّهَــا ولَيُغْلَبَـــــنَّ مُغَالِــبُ الغَـــلاَّبِ

وذلك أن قريشاً كانت تُعَيَّر بأكل السخينة ، وهي حِساء من دقيق يُتَّخذ عند غلاء السعر

أَجْمَلُ مِنْ ذِي العِمَامَةِ.

هذا مثل من أمثال أهل مكة ، وذو العمامة : سعيد بن العاص بن أمية[1] ، وكان في الجاهلية إذا لبس عمامةً لا يلبس قرشيٌّ عمامة على لَوْنها ، وإذا خرج لم تبق امرأة إلا بَرَزَتْ للنظر إليه من جماله ، ولما أفْضَت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان خطب بنتَ سعيد هذا إلى أخيها عَمْرو بن سعيد الأشدق ، فأجابه عمرو بقوله :

فَتَاةٌ أبوها ذو العِمَامة ، وابنُهُ أخوها ، فما أكْفَاؤُها بكثير

وزعم بعض أصحابِ المعاني أن هذا اللقب إنما لزم سعيدَ بن العاص كنايةً عن السيادة ، قال : وذلك لأن العرب تقول «فلان مُعَمَّم» يريدون أن كل جناية يجنيها من تلك القبيلة والعشيرة فهي مَعْصُوبة برأسه ، فإلى مثل هذا المعنى ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاص ذا العصابة وذا العمامة

أَجْوَدُ مِنْ هَرِمٍ.

هو هَرِمُ بن سِنان بن أبي حارثة المُرِّيُّ وقد سار بذكر جوده المثل ، قال زُهَيْر بن أبي سُلْمى فيه :

إنَّ البَخيلَ مَلُومٌ حيث كان ولـ ـكنَّ (ولكن) الجوادَ على علاَّته هَرِم

هُوَ الجواد الَّذي يُعْطيكَ نائلَه عَفْواً ، ويُظْلَم أحْيَاناً فَيَظَّلمُ

ووفَدَت ابنةُ هرم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال لها : ما كان الذي أعطى أبوك زهيرا حتى قابله من المديح بما قد سار فيه؟ فقالت : قد أعطاه خَيْلاً تنضى ، وإبلا تَتْوَى ، وثيابا تَبْلَى ، ومالاً يفنى ، فقال عمر رضي اللّه تعالى عنه : لكن ما أعطاكم زُهَير لا يُبْليه الدهر ، ولا يفنيه العصر ، ويروى أنها قالت : ما أعطى هَرِمٌ زهيراً قد نسى ، قال : لكن ما أعطاكم زهير لا يُنْسَى .

حَتْفَهَا تَحْمِلُ ضَأْنٌ بِأَظْلافِهَا.

يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة .

(١) سعيد بن العاص هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي ، كنيته أبو عبد الرحمن ، مات أبوه يوم بدر في جيش قريش ، وهو صحابي صغير مات النبي محمد وله تسع سنين أو نحوها ، كان أحد أشراف قريش وأجوادها وفصحائها الممدّحين .

وأصله أن رجلا وجَد شاة ، ولم يكن معه ما يَذْبَحها به ، فضربَتْ بأظلافها الأرض فظهر سكين ، فذبحها به .

وهذا المثل لحريث بن حَسَّان الشيباني تمثل به بين يدي النبي ﷺ لقيلة التميمية ، وكان حريث حملها إلى النبي ﷺ ، فسأله إقْطَاع الدهناء ، ففعل ذلك رسول الله ﷺ ، فتكلمت فيه قَيْلَة ، فعندها قال حريث : كنت أنا وأنت كما قيل : حَتْفَها تحمل ضأن بأظلافها

حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهُ.

قال أبو عبيد : أخبرني هشام بن الكلبي أن المثل لأم الربيع بن زياد العبسي[1] ، وذلك أن ابنها الربيع كان أَخَذَ من قيس بن زهير ابن جَذِيمة دِرْعاً ، فعرض قيس لأم الربيع وهي على راحلتها في مَسِير لها ، فأراد أن يذهب بها ليرتهنها بالدرع ، فقالت له : أين عَزَبَ عنك عَقْلُك يا قيس؟ أترى بني زياد مُصَالحيك وقد ذهبتَ بأمهم يميناً وشمالاً ، وقال الناس ما قالوا وشاءوا؟ وإن حسْبَك من شر سماعه ، فذهبت كلمتها مثلا ، تقول : كَفَى .

بالمَقَالة عاراً وإن كان باطلا.

يضرب عند العار والمقالة السيئة ، وما يخاف منها .

وقال بعض النساء الشواعر : (هي عاتكة بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله ﷺ)

سَائِلْ بنا فِي قَوْمِنَا وَلْيَكْفِ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهْ

وكان المفضل فيما حكى عنه يذكر هذا الحديث ويسمي أم الربيع ويقول : هي فاطمة بنت الخُرْشُب من بني أنمار بن بَغيض .

حَدِيثُ خُرَافَةَ.

هو رجل من عُذْرة استهوته الجن كما توعم العرب مدةً . ثم لما رجع أخبر بما رأى

---

(١) فاطمة بنت الخرشب ، واسم الخرشب عمرو بن النضر بن حارثة بن طريف بن أنمار بن بغيض بن ريث بن غطفان ، وهي إحدى المنجبات ، كان يقال لبنيها الكملة ، وهم : الربيع ، وعمارة ، وأنس .

منهم ، فكذبوه حتى قالوا لما لا يمكن : حديث خرافة ، وعن النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه قال : خرافة حق ، يعني ما تحدَّث به عن الجِنِّ حَقّ .

الحَدِيثُ ذُو شُجُون.

يضرب هذا المثل في الحديث يُتَذَكر به غيره .

وقد نظم الشيخ أبو بكر علي بن الحسين القهستاني هذا المثَلَ ومثلاً آخر في بيت واحد ، وأحسن ما شاء ، وهو :

تَذَكَّـرَ نَجْـداً والحديـثُ شُجُـونُ فَجُـنَّ اشْتِيَاقـاً والجُنُـوُنُ فُنُـونُ

وأول من قال هذا المثل ضَبَّة بن أدّ ابن طابخة بن إلياس بن مُضَر ، وكان له ابنان يقال لأحدهما سَعْد وللآخر سعيد ، فنقرت إبل لضبة تحت الليل ، فَوَجَّه ابنيه في طَلَبها ، فتفرقا فوجَدَها سَعْد ، فردَّها ، ومضى سعيد في طلبها فلقيه الحارث بن كعب ، وكان على الغلام بُرْدَان فسأله الحارث إياهما ، فأبى عليه ، فقتله وأخذ بُرْدَيْه ، فكان ضبة إذا أمسى فرأَى تحت الليل سَوَادا قال : أسَعْد أم سعيد؟ فذهب قوله مثلا يضرب في النجاح والخيبة ، فمكث ضبة بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم إنه حجَّ فوافى عُكَاظ فلقي بها الحارث بن كعب ورأى عليه بُرْدَيْ ابنه سعيد ، فعرفهما ، فقال له : هل أنت مُخْبري ما هذان البردان اللذان عليك؟ قال : بلى لقيتُ غلاما وهما عليه فسألتهُ إياهما فأَبى علي فقتلته وأخذتُ بُرْدَيه هذين ، فقال ضبة : بسيفك هذا؟ قال : نعم ، فقال : فأعْطنيه أنظر إليه فإني أظنه صارما ، فأعطاه الحارث سيفه ، فلما أخَذَه من يده هَزَّهُ ، وقال : الحديثُ ذو شجون ، ثم ضربه به حتى قتله ، فقيل له : يا ضبة أفي الشهر الحرام؟ فقال : سَبَقَ السيف العذل ، فهو أول مَنْ سار عنه هذه الأمثال الثلاثة . قال الفرزدق .

لاتأمنَـنَّ الحـربَ إنَّ اسْتِعَارَهـا كَضَبَّـةَ إذ قـال : الحْدِيثُ شُجُونُ

حَمِيمُ المُرءِ وَاصِلُهُ.

يقال : إن أول مَنْ قال ذلك الخنابس ابن المقنع ، وكان سيداً في زمانه ، وإن رجلا من قومه يقال له كلاب بن فارع ، وكان في غنم له يَحْميها ، فوقَع فيها لَيْث ضار ، وجعل يحطمها ، فَانْبَرَى كلاب يَذُبُّ عنها ، فحمل عليه الأسدُ فخبطَه بمخالبه خبطَة ، فانكَبَّ كلاب وجَثَم عليه الأسد ، فوافق ذلك من حاله رجلان : الخنابر بن

مرة ، وآخر يقال له حَوْشَب ، وكان الخنابر حميمَ كلاب ، فاستغاث بهما كلاب ، فحاد عنه قريبُه وخَذَلَه ، وأعانه حَوْشَب فحمل على الأسد وهو يقول :

أعَنْتُـــهُ إذْ خَـــذَلَ الخنابِـرُ   وقَدْ عَـــلاَه مُكْفَهرٌّ خَـــادرُ
هرامس جَهْمٌ لَـــهُ زَمَاجِـــرُ   وَنَابـــه حَـــرْداً عليه كَاشِـرُ
ابْرُزْ فإنِّـــي ذو حُسَام حَاسِرُ   إنـــي بهـــذَا إنْ قتلت ثابر

فعارضه الأسدُ وأمكن سيفَه من حضْنَيْه ، فمر بين الأضلاع والكتفين ، فخرَّ صريعا ، وقام كلاب إلى حوشب وقال : أنت حَميمي دون الخنابر ، وانطلق كلاب بحَوْشب حتى أتى قومه وهو آخذ بيد حَوْشب يقول : هذا حميمي دون الخنابر ، ثم هلك كلاب بعد ذلك ، فاختصم الخنابر وحَوْشَب في تركته ، فقال حَوْشَب : أنا حميمه وقريبه ، فلقد خذلتَه ونصرتُه ، وقطعتَه ووصلتهُ ، وصَمِمْتُ عنه وأجَبْتُه ، واحتكَما إلى الخنابس فقال : وما كان من نُصْرَتك إياه؟ فقال :

أجَبْـــتُ كلاَبـــاً حـــينَ عَـــرّد إلْفُـــه   وخَـــلاَّه مَكْبُوبـــاً عَلَى الوَجْه خنْبَرُ
فلمَّـــا دعانـــي مُسْتغيثـــا أجَبْتُـــه   عليـه عَبُـــوس مكفَهـــرٌّ غَضَنْفَـــرُ
مَشَيْـــتُ إليـــه مَشْىَ ذي العز إذْ غَدَا   وأقْبَـــلَ مختـــالَ الخُطَـــا يَتَبَخْتَـرُ
فلمَّـــا دـــنا من غَرْب سَيْفِي حَبَوْتُـه   بأبْيَـــضَ مَصْقُـــول الطَّرَائـــق يَزْهَرُ
فقطَّـــعَ ما بَيْـــنَ الضُّلُـــوع وحضْنُـــهُ   إلـــى حضْنـــه الثَّاني صَفيحٌ مُذَكَّرُ
فخَـــرَّ صَريعـــاً فِي التـــرابَ مُعَفَّـــراً   وقَـــدْ زَارَ منـــه الأرْضَ أنفٌ وَمشْفَرُ

فشهد القومُ أن الرجل قال : هذا حميمي دون الخنابر ، فقال الخنابس عند ذلك : حميمُ المرء وَاصِلهُ ، وقضى لحَوْشَب بتركته ، وسارت كلمته مثلا

حينَ تَقْلِينَ تَدْرِينَ.

أصل هذا أن رجلا دخَلَ إلى قَحْبة وتمتَّع بها وأعطاها وسرق مقْلًى لها فلما أراد الانصرافَ قالت له : قد غَبَنْتُكَ ، لأني كنتُ إلى ذلك العمل أَحْوَجَ منك وأخذتُ دراهمك ، فقال لها : حينَ تَقْلِينَ تدرين . يضرب للمَغْبُون يظن أنه الغابن غيره

الحُمَّى أَضْرَعَتْنِي لَكَ.

قال أبو عبيد : يضرب هذا في الذل عند الحاجة تنزل .
ويروى «الحمى أضرعتني للنوم» قال المفضل : أول من قال ذلك رجل من كَلْب

يقال له مرير ، ويروى مرين ، وكان له أَخَوَانِ أكبر منه يقال لهما مرارة ومرَّة ، وكان مرير لصاً مُغيراً ، وكان يقال له الذئب ، وإن مرارة خرج يتصيّد في جبل لهم فاختطفه الجن ، وبلغ أهلَه خَبَرُه فانطلق مُرَّة في أثره حتى إذا كان بذلك المكان اخْتُطف ، وكان مرير غائباً ، فلما قدم بلغه الخبر ، فأقسم لا يشرب خمراً ولا يمس رأسَه غَسْلٌ حتى يطلب بأخويه ، فتنكَّب قوسَه وأخذ أَسْهُما ثم انطلق إلى ذلك الجبل الذي هلك فيه أخَوَاه ، فمكث فيه سبعة أيام لا يرى شيئاً ، حتى إذا كان في اليوم الثامن إذا هو بظَليم ، فرماه فأصابه واسْتَقَلَّ الظَّليمُ حتى وقع في أسفل الجبل ، فلما وَجَبَت الشمسُ بصر بشخص قائم على صَخْرة ينادي :

يا أيهـا الرامـي الظَّليـمِ الأَسْـودِ   تَبَّـتْ مَرَامِيـكَ التـي لم تَرْشُدِ

فأجابه مرير :

يـا أيهـا الهاتِـفُ فَـوْقَ الصَّخْـرَهْ   كـم عَبْـرَةٍ هَيَّجْتَهـا وَعَبْـرَهْ
بقتلكـم مـرارة ومُـرَّهْ   فَرَّقْـتَ جمعًـاً وتركْدتَ حَسْـرَهْ

فتوارى الجني عنه هويّاً من الليل ، وأصابت مريراً حُمَّى فغلبته عيناه ، فأتاه الجني فاحتمله ، وقال له : ما أَنَامَكَ وقد كنتَ حَذِراً؟ فقال : الحمى أضْرَعَتْنِي للنوم ، فذهبت مثلا . وقال مرير :

أَلاَ مَـنْ مُبْلِـغٌ فتيـانَ قَوْمـي   بمـا لاَقَيْـتُ بعـدهُمُ جميعا
غـزَوْتُ الجـنَّ أطلُبهـم بثـأرِي   لأسْقِيَهُـمْ بـه سمّـاً نَقيعـاَ
فَيَعْـرِضُ لـي ظَليـمٌ بعـد سبـع   فأرْمِيـهِ فأتْرُكُـهُ صَريعـاَ

في أبيات أخر يطول ذكرها (ويروى أن عمر بن معد يكرب الزبيدي قال هذا المثل لأمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب .)

الحُصْنُ أدْنَى لَوْ تَأَيَّيْتِهِ.

قيل : كانت لامرأة ابنة فرأتها تَحْثو التراب على راكب ، فقالت لها : ما تصنعين؟ قالت : أريه أني حَصَان أتعفف ، وقالت :

يـا أمَّـتَا أبْصَرنـي راكـبٌ   فـي بلـد مُسْتَحْقَـرٍ لاحـبِ
فصـرتُ أحثْـو التُّـرب فِي وَجْهِـهِ   عنـي وأنْفِـي تُهَمَـةَ العائـبِ

فقالت أمها :

الحُصْنُ أوْلى لَوْ تأيَّيْتِه مِن حَثْيِك التُّربَ عَلَى الرَّاكِبِ .

فأرسلتها مثلاً ، وتأيَّا : معناه تعمَّد ، وكذلك تآيا ، على تَفعَّل وتَفَاعل .

يضرب في ترك ما يشوبه ريبة وإن كان حسنَ الظاهر .

حُقَّ لِفَرَسٍ بِعِطْرٍ وأُنُسٍ.

قال يونس : كانت امرأة من العرب لها زوج يقال له فَرَس ، وكان يكرمها ، وكان سَخيّاً ، فمات وخَلَفه عليها شيخٌ ، فبينا هو ذاتَ يوم يَسُوق بها إذ مرت بقبر فَرَس فقالت : يا فرس ، يا ضَبُع أهله وأسد الناس ، كسر الكبش بجفَرْ ، وتركت العاقر أنْ تنحر ، وبابات أخر ، فقال الزوج : وما هن؟ قالت : كام لا يبيت بغَمْر كفيه ، ولا يتشبَّع بخلَلَ سنيه ، قال : فدَفَعها عن البعير وقَشْوَتها بين يديها ، فسقطت القَشْوَة على القبر ، فقالت : حُقَّ لفرسٍ بعطْرٍ وأُنُس .

يضرب للرجل الكريم يثني عليه بما أولى وتقدير المثل : حق لفرس أن يُتْحَف بعِطْر وأنْس ، فثقل للازدواج .

الحَرْبُ سِجَالُ.

المُسَاجلة : أن تَصْنَع مثلَ صنيع صاحبك من جرى أو سقى ، وأصله من السَّجْل وهو الدَّلْو فيها ماء قل أو كثر ، ولا يقال لها وهي فارغة سَجْل ، قال الفضل بن العباس بن عُتْبة ابن أبي لَهَب :

مَنْ يُسَاجِلْني يُسَاجِلْ ماجدا يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْد الكَرَبْ

وقال أبو سفيان[١] يوم أحد بعد ما وقعت الهزيمة على المسلمين : اعْلُ هُبَلُ اعْلُ هُبَلُ ، فقال عمر : يا رسول اللّه ألا أجيبه؟ قال : بلى يا عمر ، قال عمر : اللّه أعْلى وأجَلّ ، فقال أبو سفيان : يا ابن الخطاب إنه يومُ الصَّمْت يوما بيوم بدر ، وإن الأيام دُوَل ، وإن الحرب سجَال ، فقال عمر : ولا سَوَاء ، قَتْلاَنا في الجنة وقَتْلاكم في النار ، فقال أبو سفيان : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خِبْنَا إذَنْ وخَسِرْنا .

(١) أبو سفيان وهو صخر بن حرب الأموي القرشي الكناني ، سيد قبائل قريش وكنانة وأحد أشراف العرب وساداتهم في الجاهلية وصدر الإسلام ولد في مكة قبل عام الفيل بعشر سنين ، وأسلم يوم فتح مكة .

حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ.

قاله صلى اللّه عليه وسلم لأعرابي قال : إنما أسأل اللّه الجنة ، فأما دَنْدَنَتُكَ ودَنْدَنَةُ مُعَاذ فلا أُحْسِنُهَا ، قال أبو عبيد : الدَّنْدَنَةُ أن يتكلم الرجلُ بالكلام تَسْمَع نغمته ولا تفهمه عنه ، لأنه يُخْفيه ، أراد صلى اللّه عليه وسلم أن ما تسمعه منا هو من أجْلِ الجَنَّةِ أيضاً .

حَتَّى يَؤُوبَ المُثَلَّمُ.

هذا من أمثال أهل البصرة ، يقولون : لا أفعل كذا حتى يؤوب المُثَلَّم ، وأصل هذا أن عُبَيد اللّه بن زياد أمَرَ بخارجِيٍّ أن يقتل ، فأقيم للقتل ، فتحاماه الشرط مخافَةَ غِيلَة الخوارج ، فمر به رجل يعرف بالمُثَلَّم - وكان يتَّجر في اللِّقاح والبَكارة - فسأل عن الجمع ، فقيل : خارجيّ قد تحاماه الناس ، فانتدب له ، فأخذ السيفَ وقتله به ، فرصَده الخوارج ودسُّوا له رجلين منهم ، فقالا له : هل لك في لِقْحَة من حالها وصفتها كذا؟ قال : نعم ، فأخَذَاه معهما إلى دار قد أعدَّا فيها رجالا منهم ، فلما توسَّطها رفعوا أصواتهم أنْ لا حكم إلا اللّه ، وعَلَوْه بأسيافهم حتى بَرَد ، فذلك حين قال أبو الأسود الدؤلي :

وآلَيْتُ لا أسْعَى إلى ربِّ لِقْحَة ... أساومه حتى يَؤوبَ المثلَّمُ
فأصْبَحَ لا يدرِي امرؤ كيف حالُه ... وقد بات يَجْرِي فوق أثوابه الدمُ

أَحْمَقُ مِنْ أَبِي غَبْشَانَ.

كان من حديثه أن خُزَاعة حَدَث فيها موت شديد ورُعَاف عَمَّهم بمكة ، فخرجوا منها ونزلوا الظَّهْرَان فرفع عنهم ذلك ، وكان فيهم رجل يقال له حليل بن حبشية ، وكان صاحبَ البيت ، وكان له بَنُون وبنت يقال لها حُبَّى ، وهي امرأة قصيّ بن كلاب(١) ، فمات حليل ، وكان أوصى ابنَتَه حُبَّى بالحجابة وأشْرَكَ معها أبا غَبْشَان الملكاني(٢) ، فلما رأى قُصَيُّ بن كلاب أن حليلا قد مات ، وبَنُوه غُيَّب ، والمفتاحُ في يد امرأته ، طلب إليها أن تدفع المفتاح إلى ابنها عبدِ الدار بن قصي ، وحمل بنيه على

(١) قصي بن كلاب بن مرة هو الجد الثاني لشيبة بن هاشم المشهور باسم عبد المطلب ، وهو الجد الرابع للنبي محمد . حصل على نفوذ واسع في مكة .

(٢) سليم بن عمرو بن بوي بن ملكان (بن خزاعة) .

ذلك ، فقال : اطلبوا إلى أمكم حجابة جدكم ، ولم يزل بها حتى سَلسَتْ له بذلك ، وقالت : كيف أصنع بأبي غَبْشان وهو وَصِيٌّ معي؟ فقال قُصَي : أنا أكفيك أمره ، فاتفق أن اجتمع أبو غَبْشان مع قصي في شَرْب بالطائف ، فخدَعَه قصي عن مفاتيح الكعبة بأن أسْكره ثم اشترى المفاتيحَ منه بزقّ خمر ، وأشهد عليه ، ودفع المفاتيح إلى ابنه عبد الدار بن قصي ، وطَيَّره إلى مكة ، فلما أشرف عبدُ الدار على دور مكة رفع عَقيرته وقال : معاشرَ قريش ، هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد رَدَّها اللّه عليكم من غير غَدْر ولا ظلم ، فأفاق أبو غَبْشَان من سكره أنْدَمَ من الكُسَعي ، فقال الناس : أحمق من أبي غَبْشَان ، وأنْدَمُ من أبي غَبْشان ، وأخْسَرُ صَفْقَه من أبي غَبْشَان ، فذهبت الكلمات كلها أمثالا ، وأكْثَر الشعراء فيه القولَ ، قال بعضهم :

إذا فَخَـرَتْ خُزَاعـة فـي قديـم | وجَدْنـا فَخْرَهـا شُـرْبَ الخُمُـورِ
وبيعـا كَعْبَـةَ الرحمـنِ حُمْقـاً | بِـزِقٍّ ، بئـس مُفْتَخَـرُ الفَخُـورِ

وقال آخر :

أبـو غَبْشَـان أَظْلَـمُ مـن قُصَـي | وأَظْلَـمُ مـن بنـي فِهْر خُزَاعَـهْ
فـلا تَلْحُـوْا قُصَيّـاً فـي شِـراه | ولومـوا شَيْخَكُـم أن كانَ بَاعَـهْ

أَحْمَقُ مِنْ هَبَنَّقَةَ.

هو ذو الوَدَعَات ، واسمه يزيد بن ثَرْوَان أحدُ بني قيس بن ثعلبة ، وبلغ من حُمْقه أنه ضلَّ له بَعير ، فجعل ينادي : مَنْ وجَد بعيري فهو له ، فقيل له : فلم تَنْشُده؟ قال : فأين حلاوة الوجْدَان !؟

ومن حُمْقه أنه اختصمت الطّفاَوَة وبنو رَاسِب إلى عرباض في رجل ادَّعَاه هؤلاء وهؤلاء ، فقالت الطفاوة : هذا من عرافتنا ، وقالت بنو راسب : بل هو من عرافتنا ، ثم قالوا : رضينَا بأول من يطلع علينا ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم هَبَنَّقة ، فلما رأوه قالوا : إنَّا للّه ! مَنْ طلع علينا؟ فلما دنا قَصُّوا عليه قصتهم ، فقال هبنقة : الحُكْمُ عندي في ذلك أن يذهب به إلى نهر البَصْرة فيُلْقَى فيه ، فإن كان راسبيا رسَب فيه ، وإن كان طفاويا طَفَا ، فقال الرجل : لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين ، ولا حاجة لي بالديوان .

ومن حُمْقه أنه جعل في عُنُقه قِلادة من وَدَع وعِظام وخَزَف ، وهو ذو لحية طويلة ، فسُئِل عن ذلك ، فقال : لأعرف بها نفسي ، ولئلا أضل ، فبات ذات ليلة

وأخَذَ أخوه قلادتَه فتقلَّدها ، فلما أصبح ورأى القلادة في عنق أخيه قال : يا أخي أنت أنا فمن أنا؟ .

ومن حُمْقه أنه كان يرعى غنم أهله فيرعى السِّمَان في العشب ويُنَحِّي المهازيلَ ، فقيل له : ويحك ! ما تَصْنَع؟ قال : لا أفسد ما أصلحه اللّه ، ولا أصلح ما أفسده ، قال الشاعر فيه :

عِـشْ بَجِـدٍّ ولَـنْ يَضُـرَّكَ نـوْكٌ ... إنمـا عَيْـشُ مَـنْ تَـرَى بِجُدودِ
عِـشْ بِجَـدٍّ وكُـنْ هَبَنَّقَـةَ الْقَيْـ ... ـسيَّ (القيسي) نوكاً أوْ شَيْبَةَ بن الوليد
رُبَّ ذي إربـة مُقِـل مِـنَ المـا ... لِ وَذِي عنجهيـة مَجْـدودِ

العنجهية : الجهل ، وشيبة بن الوليد : رجل من رجالات العرب .

أَحلَمُ مِنَ الأَحْنَفِ

هو الأحْنَفُ بن قَيْس ، وكنيته : أبو بَحْر ، واسمه صَخْر ، من بني تميم ، وكان في رجله حَنَفٌ ، وهو الميلُ إلى إنْسيِّها ، وكانت أمه تُرَقصه وهو صغير وتقول :

واللّـه لـولا ضَعْفُـهُ مِنْ هزلـه ... وحَنَـفٌ أو دقَّـةٌ في رِجْلِـهِ

ما كان في صِبْيانكم مِنْ مِثْلِهِ * وكان حليما موصوفا بذلك ، حكيماً معترفا له به ، قالوا : فمن حلمه أنه أشرف عليه رجل وهو يعالج قدراً له يطبخها ، فقال الرجل : وقدر كَكَفِّ القِرْد لا مُسْتَعيرها * يُعَار ، ولا مَنْ يأتِهَا يَتَدَسَّمُ

فقيل ذلك للأحنف ، فقال : يرحمه اللّه لو شاء لقال أحسن من هذا . وقال : ما أحب أن لي بنصيبي من الذل حُمْرَ النَّعم ، فقيل له : أنت أعز العرب ، فقال : إن الناس يَرَوْنَ الحلم ذلا . وكان يقول : رُبَّ غَيْظ قد تَجَرَّعته مخافة ما هو أشد منه . وكان يقول : كثرة المزاح تَذْهَبُ بالهيبة ، ومَنْ أكثر مِنْ شيء عُرف به . والسؤدد كرم الأخلاق وحسن الفعل . وقال : ثلاث ما أقولهن إلا ليعتبر مُعْتبر : لا أَخْلُفُ جليسي بغير ما أحضر به ، ولا أُدْخِلُ نفسي فيما لا مَدْخَلَ لي فيه ، ولا آتي السلطان أو يرسلَ إليَّ . وقال له رجل : يا أبا بحر ، دُلَّني على مَحْمَدة بغير مَرْزئة ، قال : الخُلُق السَّجِيح ، والكف عن القبيح ، واعلم أن أَدْوَأَ الداء اللسان الْبذِي والخُلُقُ الرَّدِي . وأبلغ رجل مُصْعَبا عن رجل شيئاً ، فأتاه الرجل يعتذر ، فقال مصعب : الذي بلَّغنيه ثِقة ، فقال الأحنف : كلا أيها الأمير ، فإن الثقة لا يبلغ .

وسئل : هل رأيتَ أحْلَمَ منك؟ قال : نعم ، وتعلمت منه الحلم ، قيل : ومَنْ هو؟

قال : قَيْس ابن عاصم المِنْقَرِيُّ ، حَضَرْتُه يوماً وهو مُحْتَب ، يحدثنا إذ جاءوا بابن له قتيل ، وابن عم له كَتِيف ، فقالوا : إن هذا قتلَ ابنَكَ هذًا ، فلم يقطع حديثه ، ولا نَقَضَ حَبْوَتَه ، حتى إذا فرغ من الحديث التفت إليهم فقال : أين ابني فلان؟ فجاءه ، فقال : يا بني قُمْ إلى ابن عمك فأطْلِقْه ، وإلى أخيك فادْفِنْهُ ، وإلى أم القتيل فأعْطِهَا مائةَ ناقة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه ، ثم اتَّكأ على شقه الأَيسر وأنشأ يقول :

إنــي امْــرُؤٌ لا يَعْتَــرِي خلقــي   دَنَــس يُفَنِّــده ولا أَفْــنُ
مــن مَنْقَــر مــن بيــت مَكْرُمــة   والغُصْــنُ يَنْبُــتُ حَوْلَـه الغُصْنُ
خُطَبــاء حــين يقــومُ قائلُهــم   بيــضُ الوجــوهِ مَصَاقــع لُسْــنُ
لا يَفْطِنُــونَ لعَيــبِ جارهــمُ   وَهُــوُ لحسن جِــواره فُطْــن

أَحْمَى مِنْ مُجِيرِ الجُرَادِ.

قالوا : هو مُدْلج بن سُوَيد الطائي .

ومن حديثه – فيما ذكر ابن الأعرابي عن ابن الكلبي – أنه خلا ذاتَ يوم في خَيْمته ، فإذا هو بقوم من طيء ، ومعهم أوعيتهم ، فقال : ما خطبكم؟ قالوا : جَراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه ، فركب فرسَه وأخذ رمحه وقال : والله لا يعرضَنَّ له أحد منكم إلا قتلته ، إنكم رأيتموه في جِوَاري ثم تريدون أخذه ، فلم يزل يَحْرُسه حتى حميت عليه الشمسُ وطار ، فقال : شأنكم الآن فقد تحول عن جِوَاري .

ويقال : إن المجير كان حارثة بن مر أبا حنبل ، وفيه يقول شاعر طيء .

ومنَّــا ابــنُ مُــرٍّ أبو حَنْبَــل   أجــار مــن الناس رَجْلَ الجَْرَادْ
وزَيْــدٌ لــنا ، وَلَنَــا حاتِــمٌ   غِيــاث الْوَرَى في السِّنِينَ الشِّدَادْ

خُذْهُ وَلَوْ بِقُرْطَيْ مارِيَة.

هي مارية بنت ظالم بن وَهْب ، وأختُها هِنْد الهُنُود امرأة حُجْرٍ آكِلِ المُرَار الكندي ، قال أبو عبيد : هي أم ولد جَفْنَة ، قال حسان :

أولاَدُ جَفْنَــةَ حَــوْلَ قَبْــر أبيهــمُ   قَبْــر ابــن ماريَــةَ الْكَرِيمِ المُفْضِلِ

يقال : إنها أهدت إلى الكعبة قُرْطَيْها وعليهما دُرَّتان كبيضَتَي حمامَ لم ير النَاسُ مثلهما ، ولم يدروا ما قيمتهما .

يضرب في الشيء الثّمين ، أي لا يفوتَنَّكَ بأي ثمن يكون

خَالِفْ تذْكَرْ.

قال المفضل بن سلمة : أول من قال ذلك الحُطَيئة[١] ، وكان ورَد الكوفة فلقي رجلا فقال : دُلَّني على أفتى المصر نائلا ، قال : عليك بعُتَيْبَةَ بن النَّهَاس العِجْلي ، فمضى نحو داره . فصادفه ، فقال : أنت عتيبة؟ قال : لا ، قال : فأنت عَتَّاب؟ قال : لا ، قال : إن اسمك لشَبيه بذلك ، قال : أنا عتيبة فمن أنت؟ قال : أنا جَرْوَل ، قال : ومن جَرْوَل؟ قال : أبو مُلَيكة ، قال : والله ما ازْدَدْت إلا عَمًى ، قال : أنا الحُطَيئة ، قال : مرحَباً بك ، قال الحطيئة : فحدِّثْني عن أشعر الناس مَنْ هو ، قال : أنت ، قال الحطيئة : خالفْ تُذْكَرْ ، بل أشعر مني الذي يقول :

ومَـــنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ من دون عِرْضِه   يَفِــرْهُ ، ومَنْ لا يَتَّقِ الشتمَ يُشْتَــمِ
ومـــن يَـــكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بفَضْلِـهِ   على قومِـــهِ يُسْتَغْـــنَ عنه ويُذْمَـمِ

قال : صدقت ، فما حاجتك؟ قال : ثيابك هذه فإنها قد أعجبتني ، وكان عليه مُطْرَف خزوجبة خز وعمامة خز . فدعا بثياب فلبسها ودفع ثيابه إليه ، ثم قال له : ما حاجتك أيضاً؟ قال : ميرَةُ أهلي من حَبٍّ وتمرٍ وكسوة ، فدعا عَوْناً له فأمره أن يَمِيرَهم وأن يكسو أهله ، فقال الحطيئة : العَوْدُ أَحْمَدُ ثم خرج من عنده وهو يقول :

سُئِلْـــتَ فلـــم تَبْخَـلْ ولَمْ تُعْطِ طَائِلاً   فسِيَّانِ لا ذَمٌّ عَلَيْـــكَ ولا حَمْــدُ .

خُذِي وَلاَ تَنَاثِرِي.

هذا المثل من قول دُغَة ، وذلك أن أمها قالت لها حين رَحَلوا بها إلى بني العَنْبر : يُوشِك أن تزورينا مُحْتَضِنة اثنين ، فلما ولدت في بني العنبر استأذنت في زيارة أمها ، فجهزت مع ولدها ، فلما كانت قريبة من الحي أَخَذَتْ وَلَدَهَا فشقَّته باثنين ، فلما جاءت الأم قالت لها : أين ولدك؟ فقالت : دُونَك ، وأومأت إليه ، ثم قالت : يا أمّه ، خُذِي ولا تُنَاثِرِي ، إنهما اثنان بحمد اللّه .

يضرب في سَتْرِ العيوب وترك الكَشْف عنها .

(١) أبو مُلَيْكة جرول بن أوس بن مالك العبسي المشهور بـ الحطيئة . شاعر مخضرم أدرك الجاهلية وأسلم في زمن أبي بكر .

خَيْرٌ قَلِيلٌ وَفَضَحْتُ نَفْسِي.

ويروى «نَفْعٌ قليل» .

قالوا : إن أول من قال ذلك فاقرة امرأة مُرَّة الأسدي ، وكانت من أجمل النساء في زمانها ، وإن زوجها غاب عنها أعواماً فهويَتْ عبداً لها حامياً كان يَرْعَى ماشيَتَهَا ، فلما هَمَّتْ به أقبلت على نفسها ، فقالت : يا نفسُ لا خير في الشِّرَّة ، فإنها تَفْضَح الحُرَّة ، وتحدث العَرَّة ، ثم أعرضت عنه حينا ثم هَمَّت به فقالت : يا نفس مَوْتة مُريحة ، خير من الفَضيحة ، وركوبِ القبيحة ، وإياك والعار ، ولَبُوس الشَّنار ، وسوء الشِّعار ، ولؤم الدِّثَار ، ثم هَمَّت به وقالت : إن كانت مرة واحدة ، فقد تصلح الفاسدة ، وتكرم العائدة ، ثم جَسَرَت على أمرها فقالت للعبد : احْضَر مَبيتي الليلة ، فأتاها فواقَعَها ، وكان زوجُها عائفا ماردا ، وكان قد غاب دهرا ثم أقبل آئبا ، فبينا هو يَطْعم إذ نَعَبَ غراب فأخبره إن امرأته لم تَفْجُر قط ، ولا تفجر إلا تلك الليلة ، فركب مُرَّة فرسَه وسار مسرعا رجاء إن هو أحسها أمنها أبدا ، فانتهى إليها وقد قام العبد عنها ، وقد ندمت وهي تقول : خَيْرٌ قليلٌ وفضحت نفسي ، فسمعها مرة فدخل عليها وهو يُرْعَد لما به من الغيظ ، فقالت له : ما يرعدك؟ قال مرة ليعلم أنه قد علم : خيرٌ قليل وفضحت نفسي ، فشهقت شهقة وماتت ، فقال مرة :

لحَا اللَه ربُّ الناس فاقر ميتة ... وأهْونْ بها مَفْقُودَةً حين تُفْقَدُ
لَعَمْرُكِ ما تَعْتَادُني مِنْكِ لَوْعَةٌ ... ولا أنا من وجدٍ عَلَيْكِ مُسَهَّدُ

ثم قام إلى العبد فقتله

أَخْطَبُ مِنْ سَحْبَانِ وَائِلٍ.

وهو رجل من باهلَةَ ، وكان من خطبائها وشعرائها ، وهو الذي يقول :

لَقَدْ عَلِمَ الحيُّ اليَمانُونَ أَنَّني ... إذا قُلْتُ أَمَّا بَعْدُ أني خَطِيبُهَا

وهو الذي قال لطلحة الطلحات الخُزَاعي :

يَا طَلْحُ أكْرَمَ مَنْ بِهَا ... حَسَباً وَأَعْطَاهُمْ لتَالِدْ
مِنْكَ الْعَطَاُء فأَعْطِني ... وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي المَشَاهِدْ

فقال له طلحة : احْتَكِمْ ، فقال : بِرْذَوْنك الأشهب الوَرْد ، وغلامك الخباز ، وقصرك بزرنج (زرنج : قصبة سجستان) وعشرة آلاف ، فقال له طلحة : أُفٍّ لم تسألني على قدري ، وإنما سألتني على قدرك وقدر باهلة ، ولو سألتَنِي كلَّ قصر لي وعبد ودابة

لأعطيتك ، ثم أمر له بما سأل ولم يزده عليه شيئاً ، وقال : تاللَه ما رأيت مسألة مُحَكَّم ألأمَ من هذا .

وطلحة هذا : هو طَلْحَة بن عبد الله بن خلف الخزاعي ، وأما طلحة الطلحات الذي يقال له طلحة الخير وطلحة الفَيَّاض ، فهو طلحة بن عُبَيْد الله التَّيْمي ، من الصحابة ، ومن المهاجرين الأولين ، ومن العشرة المسمَّيْنَ للجنة ، وكان يكنى أبا محمد ، رضي اللَه عنه ! .

أَخْسَرُ صَفْقَةً مِنْ شَيْخِ مَهْوٍ

مَهْو : بطنٌ من عبد القيس ، واسم هذا الشيخ عبد الله بن بيدرة .

ومن حديثه أن إياد كانت تُعَير بالفَسْو وتُسَبُّ به ، فقام رجل من إياد بسوق عكاظ ذاتَ سنة ومعه بُرْدَا حبَرَة ، ونادى ألا إني من إياد ، فمن الذي يشتري عار الفَسْو مني ببُرْدَيَّ هذين ، فقام عبد الله هذا الشيخ العبدي وقال : هاتهما ، فاتَّزَرَ بأحدهما وارْتَدَى بالآخر ، وأشهد الإياديُّ عليه أهلَ القبائل بأنه اشترى من إياد لعبد القيس عار الفَسْو ببردين ، فشهدوا عليه ، وآبَ إلى أهله ، فسُئل عن البُرْدَيْن ، فقال : اشتريت لكم بهما عارَ الدهر ، فقال عبد القيس لإياد :

إن الفُسَــاةَ قَبلنــا إيَــادُ   ونَحْــنُ لا نَفَسُــو ولا نَكَادُ

فقالت إياد :

يَالَ لُكَيْز دَعْوَةٌ نُبْديهَـــا   نُعْلنُهَا ثُمَّتَ لاَ نُخْفِهَـــا

كُرُّوا إلى الرِّحَال فَافْسُوا فيها

وقال بعض الشعراء في ذلك :

يَامَــنْ رَأَى كَصَفْقَــة ابْــن بَيْــدَرَهْ   مــن صَفْقَــة خَاســرَة مُخَسِّــرَهْ

المُشْتَــرِى الْعَــارَ بِبُــرْدَىْ حبَــرَهْ   شَلَّــتْ يَمِــينٌ صَافَــق ما أخْسَرَهْ

وكان المنذر بن الجارود العبدي رئيسَ البصرة ، فقال يوماً : مَنْ يشتري مني عارَ الفسوة ينحكم على في السَّوْم ، وكانت قبائل البصرة حاضرة ، فقال رجل من مَهْو : أنا ، فقال له المنذر : أثانيةً لا أم لك قد اشْتَرَيْتُموه في الجاهلية وجئتم تشترونه في الإسلام أيضاً ، اعْزُبْ أقام اللَه ناعيكَ .

وقدم إلى عبد الملك بن مروان رجلان كلاهما مستحق للعقوبة ، فبطَحَ أحدَهما فضَرَط الآخر ، فضحك الوليد بن عبد الملك ، فغضب عبدُ الملك وقال : أتضحك من

حَدٍّ أقيمه في كجلسي؟ خذوا بيده ، فقال الوليد : على رِسْلِكَ يا أمير المؤمنين ، فإن ضحكي كان من قول بعض ولاة الأمر على مِنْبَر البصرة : واللَه لئن غَمَزْتُ حنيفةَ لَتَضْرِطَنَّ عبدُ القيسِ ، والمبطوح حنفي ، والضارط عَبْدي ، فضحك عبد الملك ، وخَلَّى عنهما

أَخْيَبُ مِنْ حُنَيْنٍ

قد اختلف النسابون فيه ، وقد ذكرت قول أبي عبيد وابن السِّكِّيت فيه في حرف الراء عند قولهم «رَجَع بخُفَّيْ حُنَين» وأما الشَّرْقي بن القطامي فإنه قال : كان حُنَين من قريش ، وزعم أن أصل المثل أن هاشم ابن عبد مناف كان رجلا كثيرَ التقلُّبِ في أحياء العرب للتجارات والوفادات على الملوك وكان نُكَحَة ، فكان أوصى أهلَه أنه متى أتوا بمولود معه علامته قَبِلوه ، وتصير علامة قبولهم إياه أن يَكْسُوه ثيابا ، ويلبسوه خُفّاً ، ثم إن هاشما تزوج في حيٍّمن أحياء اليمن ، وارتحل عنهم ، فوُلِد له غلام فسماه جَدُّه أبو أمه «حُنَيْناً» وحمله إلى قريش مع رَجُل من أهله ، فسأل عن رهط هاشم ، فَدُلَّ عليهم ، فأتاهم بالغلام ، وقال : إن هذا ابنُ هاشِم ، فطالبوه بالعلامة ، فلم تكن معه ، فلم يقبلوه ، فرد الغلام إلى أهله فحين رَأَوْه قالوا : جاء بخُفِّ حُنَيْنٍ ، أي جاء خائبا حين جاء في خف نفسه ، أي لو قُبِل لألبس خف أبيه .

وقال غيره : كان حنينا رجلاً عباديا من أهل دومة الكوفة وهي النجف محلة منها ، وهو الذي يقول :

أَنَا حُنَيْنٌ وَدَارِي النَّجَــــفُ وما نَدِيمي إلا الْفَتَى القصف
لیس نَدِيمي المنجَلُ الصلف

وكان من قصته أن دَعَاه قومٌ من أهل الكوفة إلى الصحراء ليغنيهم ، فمضى معهم ، فلما سَكِر سَلَبوه ثيابه وتركوه عُرْيانا في خُفَّيْه ، فلما رجع إلى أهله وأبصروه بتلك الحالة قالوا : جاء حنين بِخُفَّيْه ، ثم قالوا : أَخَيْبُ من حُنَين ، فصار مثلا لكل خائب وخاسر ، ثم قالوا : أصحب لليأس من خفي حنين ، فصار مثلا لكل يائس وقانط ومكدٍ

أَدْهَى مِنْ قَيْسِ بْنِ زُهَيْرٍ

هو سيد عَبْس ، وذكر من دَهَائه أشياء كثيرة : منها أنه مَرَّ ببلاد غَطَفان فرأى ثروة

وعديداً ، فكره ذلك ، فقال له الربيع ابن زياد العبسي : إنه يَسُوءك ما يسرُّ الناس فقال له : يا ابن أخي إنك لا تَدْرِي أن مع الثروة والنعمة التحاسد والتباغض والتخاذل ، وأن مع القلة التعاضد والتوازر والتناصر . ومنها قوله لقومه : إياكم وصَرَعَات البغي ، وفضحات الغدر ، وفَلَتَات المزح . وقوله : أربعة لا يُطَاقون : عبد مَلَكَ ، ونذل شبع ، وأمة ورثت ، وقبيحة تزوجَتْ . وقوله : المنطق مَشْهرة ، والصمت مَسْتترة . وقوله : ثمرة اللَّجَاجة الحيرة ، وثمرة العجلة الندامة ، وثمرة العُجْب البغضة ، وثمرة التواني الذلة

ذَهَبَ أَمْسِ بِمَا فِيهِ

أول من قال ذلك ضَمْضَم بن عمرو اليَرْبُوعي ، وكان هَوِيَ امرأةً ، فطلبها بكل حيلة ، فأبت عليه ، وقد كان غر بن ثعلبة ابن يربوع يختلف إليها ، فاتبع ضمضمٌ أثَرَهما وقد اجتمعا في مكان واحد فصار في خَمَرٍ إلى جانبهما يراهما ولا يريانه ، فقال غر :

قديماً تُوَاتِينِي وتأبى بنفسها ... على المرء جَوّاب التَّنُوفَةِ ضَمْضَمِ

فشد عليه ضمضم فقتله ، وقال :

ستعلم أني لست آمن مبغضا ... وأنَّكَ عَنْهَا إن نأيْتَ بَمَعْزِلِ

فقيل له : لِمَ قتلت ابن عمك؟ قال : ذهب أمس بما فيه ، فذهب قولُه مثلاً

ذَكَّرْتَنِي الطَّعْنَ وكُنْتُ نَاسِياً

قيل : إن أصله أن رجلا حَمَلَ على رجل ليقتله ، وكان في يد المحمول عليه رُمْح فأنساه الدهش والجزَعُ ما في يده ، فقال له الحامل : أَلْقِ الرمْحَ ، فقال الآخر : إنَّ معي رمحا لا أشعر به؟ ذكَّرْتَني الطَّعْنَ - المثلَ ، وحمل على صاحبه فطعنه حتى قتله أو هَزَمه ، يضرب في تذكر الشيء بغيره .

يقال : إن الحامل صَخْر بن مَعَاوية السُّلَمي ، والمحمول عليه يزين بن الصَّعِق .

وقال المفضل : أول من قاله رهيم بن حزن الهلالي ، وكان انتقل باهله وماله من بلده يريد بلدا آخر ، فاعترضه قوم من بني تغلب فعرفوه وهو لا يعرفهم ، فقالوا له : خَلِّ ما معك وانجُ ، قال لهم : دونَكم المال ولا تعرضوا للحُرَم ، فقال له بعضهم : إن أردْتَ أن نفعل ذلك فألقِ رمحك ، فقال : وإنَّ معي لَرُمْحاً؟ فشدَّ عليهم فجعل يقتلهم واحداً بعد واحد وهو يرتجز ويقول :

رُدُّوا علي أقْرَبهَا الأقاصيَــاإنَّ لها بالْمُشْرَفِّي حَادِيــاَ
ذكَّرْتَنِي الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِيَا

رُوَيْدَ الغَزْوَ يَنْمَرِقُ.

هذه مقالة امرأة كانت تغزو ، وتسمى رَقَاشِ ، من بني كِنانة ، فحملت من أسيرٍ لها ، فذُكر لها الغَزْوُ ، فقالت : رُوَيْدَ الغزو ، أي أمهل الغزو ، حتى يخرج الولد . يضرب في التمكث وانتظار العاقبة .

ذكر المفضل أن امرأة كانت من طيء يقال لها رقاش ، فكانت تغزو بهم ويَتَيَمَّنُونَ برأيها ، وكانت كاهنةً لها حَزْم ورأي ، فأغارت طيء وهي عليهم على إياد بن نِزَار ابن مَعَدّ يوم رحى جابر ، فظفرت بهم وغنمت وسَبَتْ ، فكان فيمن أصابت من إياد شاب جميل ، فاتخذته خادماً ، فرأت عَوْرَته فأعجبها فدَعَتْه إلى نفسها فحملت فأتيَتْ في إبَّان الغزو ، فقالوا : هذا زمانُ الغزو فاغزي إن كنت تريدين الغزو ، فجعلت تقول : رويد الغزو ينمرق ، فأرسلتها مثلا ، ثم جاؤا لعادتهم فوجَدَوها نُفَساء مُرْضِعا قد ولَدَتْ غلاماً ، فقال شاعرهم :

نُبِّئْــتُ أنَّ رَقَــاش بَعْــدَ شمَاسهَــا   حَبلَــتْ وقـد ولَدَتْ غلاما أكْحَلاَ
فاللّــه يُحْظيهَــا وَيَرْفَــعُ بُضْعَهَــا   واللّــه يُلْقحُهَــا كشافــا مقبــلا
كَانَتْــ رَقَاشِ تقودُ جَيْشــاً جَحْفَــلاً   فَصَبَتْ وأخَرِ بِمَنْ صَبَا أن يَحْبَــلاَ

أرْجُلَكُمْ والعُرُفُطَ.

قالوا : حديثه أن عامر بن ذُهْل بن ثَعْلبة كان من أشدِّ الناس قوةً ، فأسَنَّ وأقعد ، فاستهزأ منه شَبَابٌ من قومه ، وضحكوا من ركوبه ، فقال : أجَلْ واللّه إني لضعيف فَادْنُوا مني فاحملوني ، فَدَنَوْا منه ليحملوه ، فضم رجلين إلى إبطه ورجلين بين فَخذَيْه ثم زَجَر بَعيره فنهض بهم مسرعا ، وقال : بني أخي أرْجُلَكم والعُرْفُطَ ، فأرسلها مثلا ، وضمهم حتى كادوا يموتون .

يضرب لمن يَسْخَر ممن هو فوقه في المال والقوة وغيرهما

أُرِيهَا استَهَا وَتُرِينِي القَمَرَ.

قال الشَرْقي بن القطامي : كانت في الجاهلية امرأة أكملت خَلَقا وجمالا ،

وكانت تزعم أن أحداً لا يقدر على جماعها لقوتها ، وكانت بكراً ، فخاطرها ابنُ أَلْغَزَ الإيادي – وكان واثقاً بما عنده – على أنه إن غلبها أعطته مائة من الإبل وإن غلبته أعطاها مائة من الإبل ، فلما واقعها رأت لُمحاً باصراً ورَهْزاً شديداً وأمْراً لم تر مثله قط ، فقال لها : كيف تَرَيْن ، قالت : طَعْناً بالركبة يا ابن أَلْغز ، قال : فانظري إليه فيك ، قالت : القَمَرَ هذا ، فقال : أريها اسْتَهَا وتريني القمر ، فأرسلها مثلا ، وظفر بها ، وأخذ مائة من الإبل ، وبعضهم يرويه : أريها السُّهَا وتُرِينِي القَمَرَ . يضرب لمن يُغَالط فيما لا يخفى

رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ.

يروى هذا المثلُ لِلُقْمَان بنِ عَاد[1] ، وذلك أنه أقبل ذاتَ يوم فبينا هو يسير إذ أصابه عَطَش ، فهجَم على مظَلَّة في فنائها امرأة تُدَاعب رجلا ، فاستسقى لقمان ، فقالت المرأة : اللبَنَ تَبْغِي أم الماء؟ قال لقمان : أيهما كان ولا عِدَاء ، فذهبت كلمته مثلا ، قالت المرأة : أما اللبن فخَلْفك وأما الماء فأمامَكَ ، قال لقمان : المَنْعُ كان أوْجَزَ ، فذهبت مثلا ، قال : فبينا هو كذلك إذ نظر إلى صبي في البيت يَبْكي فلا يُكْتَرَث له ويَسْتَسقِي فلا يُسْقى ، فقال : إنْ لم يكن لكم في هذا الصبي حاجة دفَعْتُمُوه إلي فكَفَلْته ، فقالت المرأة : ذاك إلى هانئ ، وهانئ زوجها ، فقال لقمان : وهانئ من العَدَد؟ فذهبت كلمته مثلا ، ثم قال لها : مَنْ هذا الشاب إلى جَنْبك فقد علمته ليس ببَعْلك؟ قالت : هذا أخي ، قال لقمان : رُبَّ أخ لك لم تلده أمك ، فذهبت مثلا ، ثم نظر إلى أثر زوجها في فَتْل الشعر فعرف في فتله شَعْرَ البناء أنه أعْسَر ، فقال : ثكلَتْ الأعَيْسرَ أمه ، لو يعلم العِلْمَ لطال غَمُّه ، فذهب مثلا ، فذُعِرَت المرأة من قوله ذعراً شديداً ، فعرضت عليه الطعام والشراب ، فأبى وقال : المبيتَ على الطَّوَى حتى تَنَالَ به كريمَ المَثْوَى خيرٌ من إتيان ما لا تَهْوَى ، فذهبت مثلا ، ثم مضى حتى

(١) تنسب شخصية لقمان بن عاد وفق الموروث العربي إلى قبيلة عاد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، «وأما عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية» . وعاد قبيلةٌ قديمةٌ ، وصلت أصداء أخبارها إلى عصر ما قبل الإسلام ، وجاء ذكرها في بعض أشعارهم ، لكن ما ورد عنها من أخبارٍ أقرب إلى الخرافة والأحداث الخيالية ، من التاريخ الدقيق .

إذا كان مع العشاء إذا هو برجل يسوق إبلَه وهو يرتجز ويقول :

رُوحي إلى الحيِّ فإنَّ نَفْسِي رَهينَــةٌ فيهم بخَيْرِ عــرْسِ
حُسَّانَةُ المُقْلَة ذَاتُ أنْــسِ لاَ يُشْتَرَى اليومُ لها بأَمْـسِ

فعرف لقمان صوته ولَم يَرَه ، فهتف به :

يا هانئ ، يا هانئ ، فقال : ما بالُكَ؟ فقال :

يَا ذَا البجَــاد الحلكــة والزَّوْجَــة المُشْتَركَــهْ
عِــشْ رُوَيْـــداً أبْلُكَــهْ لَسْــتَ لَمَــنْ لَيْسَتْ لَكَـهْ

فذهبت مثلا ، قال هانئ : نَوِّرْ نَوِّرْ ، لله أبوك ، قال لقمان : عليَّ التنوير ، وعليك التَّغيير ، إن كان عندك نكير ، كل امرئ في بيته أمير ، فذهبت مثلا ، ثم قال : إني مَرَرْتُ وبي أُوَام فَدُفعْتُ إلى بيت فإذا أنا بامرأتك تغازل رجلا ، فسألتها عنه ، فزعَمَتْهُ أخاها ، ولو كان أخاها لَجلَّى عن نفسه وكفاها الكلام ، فقال هانئ : وكيف علمت أن المنزل منزلي والمرأة امرأتي؟ قال : عرفت عَقَائقَ هذه النوق في البناء ، وبوهدة الخلية في الفناء ، وسَقْب هذه الناب ، وأثَر يدك في الأطناب ، قال : صدقتني فِدَاك أبي وأمي ، وكذبتني نفسي ، فما الرأي؟ قال : هل لك علم؟ قال : نعم بشأني ، قال لقمان : كل امرئ بشأنه عليم ، فذهبت مثلا ، قال له هانئ : هل بقيَتْ بعد هذه؟ قال لقمان : نعم ، قال : وما هو؟ قال : تَحْمِي نفسك ، وتحفظ عرْسَك ، قال هانئ : أفعل ، قال لقمان : مَنْ يَفْعلِ الخير يَجد الخبر ، فذهبت مثلا ، ثم قال : الرأيُ أن تقلب الظهرَ بَطْناً والبَطْنَ ظهراً ، حتى يستبين لك الأمر أمراً ، قال : أفلا أعاجلُها بِكَيَّة ، توردها المنية ، فقال لقمان : آخر الدَّوَاء الكَيُّ ، فأرسلها مثلا ، ثم انطلَقَ الرجلُ حتى أتَى امرأته فقصَّ عليها القصة ، وسل سيفه فلم يزل يضربها به حتى بَرَدَتْ .

ربَّ عَجلَةٍ تَهَبُ رَيْثاً.

وأول من قال ذلك - فيما يحكي المفضل - مالكُ بن عوف بن أبي عمرو بن عوف بن مُحَلِّم الشَّيْباني ، وكان سنان بن مالك بن أبي عمرو ابن عوف بن ملحم شَامَ غَيْماً ، فأراد أن يرحل بامرأته خماعة بنت عوف بن أبي عمرو ، فقال له مالك : أين تظعن يا أخي؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة ، قال : لا تفعل فإنه ربما خَيَّلَتْ وليس فيها قَطْر ، وأنا أخاف عليك بعضَ مقانب العرب ، قال : لكني لست أخاف ذلك ، فمضى ، وَعَرَضَ له مروان القرظ بن زِنْبَاع بن حُذَيفة العَبْسي فأعجله عنها

وانطلق بها وجعلها بين بناته وأخواته ولم يكشف لها ستْراً ، فقال مالك ابن عوف لسنان : ما فعلَتْ أختي؟ قال : نفتني عنها الرماح ، فقال مالك : رُبَّ عجلة تهبُ رَيْثاً ، ورب فَرُوقَة يُدْعَى لَيْثاً ، ورب غَيْث لم يكن غَيْثاً ، فأرسلها مثلا .

يضرب للرجل يشتدُّ حرصه على حاجةٍ ويخرق فيها حتى تذهب كلها .

رُبَّ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكْلاتٍ.

يضرب في ذم الحرص على الطعام .

قال المفضل : أول من قال ذلك عامر ابن الظَّرِب العَدْوَاني ، وكان من حديثه أنه كان يدفع بالناس في الحج ، فرآه ملك من ملوك غَسَّان ، فقال : لا أترك هذا العَدْوَاني أو أُذلَّهُ ، فلما رجع الملك إلى منزله أرسل إليه : أُحبُّ أن تزورني فأحْبُوَكَ وأكرمك وأتخذك خلاً ، فأتاه قومه فقالوا : تَفدُ ويَفدُ معك قومُك إليه ، فيصيبون في جَنْبك ويَتَجَيَّهُونَ بجاهك ، فخرج وأخرج معه نَفَراً من قومه ، فلما قدم بلادَ الملك أكرمه وأكرم قومه ، ثم انكشف له رأيُ الملك فجَمَع أصحابه وقال : الرأيُ نائم والهوى يَقْظَان ، ومن أجل ذلك يغلبُ الهوى الرأيَ ، عَجلْتُ حين عجلتم ، ولن أعود بعدها ، إنا قد تَوَرَّدْنَا بلاد هذا الملك ، فلا تسبقوني برَيْث أمرٍ أقيم عليه ولا بعَجَلَة رأي أخفُّ معه ، فإن رأيي لكم ، فقال قومه له : قد أكرمَنَا كما ترى ، وبعد هذا ما هو خير منه ، قال : لا تَعْجَلوا فإن لكل عام طعاما ، ورب أَكْلَة تمنَعُ أكلات ، فمكثوا أياماً ، ثم أرسل إليه الملك فتحدَّثَ عنده ثم قال له الملك : قدْ رأيتُ أن أجعلك الناظرَ في أموري ، فقال له : إنَّ لي كَنْزَ علم لستُ أعلم إلا به ، تركتُه في الحي مدفوناً ، وإن قومي أَضنَّاء بي ، فاكتب لي سجِلاً بجباية الطريق ، فيرى قومي طَمَعاً تطيبُ به أنفسُهم فأستخرج كنزي وأرجع إليك وافراً ، فكتب له بما سأل ، وجاء إلى أصحابه فقال : ارْتَحلُوا ، حتى إذا أدبروا قالوا : لم يُرَ كاليوم وافدُ قوم أقل ولا أبعد من نَوَال منك ، فقال : مهلا ، فليس على الرزق فَوْت ، وغَنِمَ من نجا منَ الموت ، ومَنْ لا يُر باطنًا يَعِش واهنا ، فلما قدم على قومه أقام فلم يَعُدْ

اسْتَرَاحَ مَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ.

يقال : إن أول مَنْ قال ذلك عمرو بن العاص[1] لابنه ، قال : يا بني ، والٍ عادلٌ خير من مطر وابل ، وأسد حَطومٌ خير من والٍ ظلوم ، ووالٍ ظلومٌ خير من فتنة تدوم . يا بني عَثْرَة الرِّجْلِ عَظْم يُجْبَرُ ، وعثرة اللسان لا تُبْقِي ولا تَذَر ، وقد استراح من لا عقل له .

رُبَّ رَمْيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ.

وأول من قال ذلك الحُكَم بن عَبْد يَغُوث المنقري ، وكان أرمى أهلِ زمانه ، وآلى يمينا ليذبَحَنَّ على الغَبْغَبِ مَهَاة ، ويروى ليدجنَّ ، فحمل قوسَه وكِنانته ، فلم يصنع يومه ذلك شيئاً ، فرجع كئيباً حزيناً ، وبات ليلته على ذلك ، ثم خرج إلى قومه فقال : ما أنتم صانعون فإني قاتلُ نفسي أسفاً إن لم أذبحها اليوم؟ ويروى أدجها ، فقال له الحُصَيْن بن عبد يَغُوث أخوه : يا أخي دج مكانها عَشْراً من الإبلِ ولا تقتل نفسك ، قال : لا واللاتِ والعُزَّى لا أظلم عاترة ، وأترك النافرة ، فقال ابنه المُطْعِمُ بن الحكم : يا أبة احملني معك أرْفِدْكَ ، فقال له أبوه : وما أحمل من رعش وَهِلْ ، جَبَان فشل ، فضحك الغلام وقال : إن لم تر أوْدَاجَها تخالط أمشاجها فاجعلني وداجها ، فانطلقا ، فإذا هما بمَهَاة فرماها الحكمُ فأخطأها ، ثم مرت به أُخرى فرماها فأخطأها ، فقال : يا أبة أعْطِنِي القوسَ ، فأعطاه فرماها فلم يخطئها ، فقال أبوه : رُبَّ رميةٍ من غير رَامٍ

رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ لِصَاحِبِهَا دَعْنِي.

يضرب في النهي عن الإكثار مخافة الإهجار .

ذكروا أن نلكا من ملوك حِمْيَر خرج مُتَصَيِّداً معه نديم له كان يُقَرِّبه ويكرمه ،

---

(١) عمرو بن العاص السهمي القرشي الكناني (٥٩٢م – ٦٨٢م) ، أبو عبد الله ، ابن سيد بني سهم من قريش العاص بن وائل السهمي ، أرسلته قريش قبل إسلامه إلى الحبشة ليطلب من النجاشي تسليمه المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فرارا من الكفار وإعادتهم إلى مكة لمحاسبتهم وردهم عن دينهم الجديد فلم يستجب له النجاشي . وبعد إسلامه فتح مصر بعد أن قهر الروم وأصبح والياً عليها بعد أن عينه عمر بن الخطاب .

و أبرز ما عرف عن عمرو بن العاص أنه كان أدهى دهاة العرب في عصره ، فقد نقلت عن سعة حيلته وعبقرية تدبيره روايات تشبه الأساطير ، حتى ان الخليفة عمر بن الخطاب لقبه بأرطبون العرب .

فأشرف على صخرة مَلْساء ووقَف عليها ، فقال له النديم : لو أن إنسانا ذُبِحَ على هذه الصخرة إلى أين يبلغ دمه؟ فقال الملك : اذبحوه عليها ليرى دمه أين يبلغ ، فذبح عليها ، فقال الملك : رُبَّ كلمة تقول لصاحبها دعني .

رُبَّ زَارِعٍ لِنَفْسِهِ حاصِدٌ سِوَاهُ.

قال ابن الكلبي : أول مَنْ قال ذلك عامر بن الظَّرب ، وذلك أنه خَطَب إليه صَعْصَعة بن معاوية[1] ابنَته ، فقال : يا صعصعة إنك جئْتَ تشتري مني كَبِدِي وأرْحَمَ ولدي عندي منَعْتُك أو بعتك ، النكاحُ خيرٌ من الأيْمَة ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح يعد أبا ، وقد أنكحتك خَشْيَةَ أن لا أجد مثلك ، ثم أقبل على قومه فقال : يا معشرَ عَدْوَان أخرجت من بين أظهركم كريمَتكم على غير رَغْبة عنكم ، ولكن مَنْ خُطَّ له شيء جاءه ، رب زارع لنفسه حاصد سواه ، ولولا قَسْم الحظوظ على غير الحدود ما أدرك الآخر من الأول شيئاً يعيش به ، ولكن الذي أرسل الحَيَا أنبت المَرْعَى ثم قسمه أكْلاً لكل فَم بَقْلَة ومن الماء جرعة ، إنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصفُ لكم إلا كلُّ ذي قَلب وَاع ، ولكل شيء راع ، ولكل رزق ساع ، إما أكْيَسُ وإما أحْمَق ، وما رأيت شيئاً قط إلا سَمعت حسَّه ، ووجَدْتُ مَسَّه ، وما رَأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، وما رأيت جائيا إلا داعيا ولا غانما إلا خائبا ، ولا نعمة إلا ومعها بؤس ، ولو كان يميت الناسَ الداءُ لأحياهم الدواء ، فهل لكم في العلم العليم؟ قيل : ما هو؟ قد قلتَ فأصبت ، وأخبرتَ فصدقت ، فقال : أموراً شَتَّى ، وشيئاً شيا ، حتى يرجعع الميت حياً ، ويعود لاشيء شيئاً ، ولذلك خلقت الأرض والسماء ، فتولوا عنه راجعين ، فقال : وَيْلُمِّها نصيحةً لو كان مَنْ يقبلها

ازْلأَمَّ المُعَيْدِيُّ وَنَفَرَ

وأصله أن مياد بن حن بن ربيعة بن حَرَام العُذْري من قُضَاعة نافر رجلا من أهل اليمن إلى حَكَم عُكاظ ، فأقبل مياد ابن حن على فرسه وعليه سلاحُه ، فقال : أنا مياد بن حن ، أنا ابن حباس الظعن ، وأقبل اليماني عليه حُلّة يمانية فقال مياد :

(١) صعصعة بن معاوية بن حصين بن عبادة بن نزال بن مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن مرة عم الأحنف بن قيس .

احكم بيننا أيها الحكم ، فقال الحكم : ازْلأَم المعيدِيُّ ونفر ، فأرسلها مثلا ، وقضى لمياد على صاحبه

يضرب في فَوْز أحد الخصمين .

زَوْجُ مِنْ عُودٍ، خَيْرُ مِنْ قعُودٍ

هذا المثل لبعض نساء الأعراب ، قال المبرد : حدثني علي بن عبد اللّه عن ابن عائشة قال : كان ذو الإصبع العَدْوَانيّ(١) رجلا غَيُوراً وله بنات أربع ، وكان لا يزوجهن غَيْرَةً فاستمع عليهن يوما وقد خَلَوْنَ يتحدثْنَ ، فقالت : قائلة منهن : لِتَقُلْ كلُّ واحدة منا ما في نفسها ، ولنصدق جميعا ، فقالت كُبْرَاهُن :

ألا لَيْتَ زوجي من أناس ذَوي غِنىً   حديثُ شباب طَيِّبُ النَّشْرِ والذِّكْرِ
لَصُوق بأكْبَادِ النساءِ كأنه   خَلِيفَةُ حان لاً يقيم على هَجْرِ

وقالت الثانية :

ألا ليته يُعْطى الجمال بَديهَةً   له جَفْنة تَشْقَي بها النِّيبُ وَالُجزْرُ
له حكمات الدهر من غير كبْرَة   تَشِينُ ، فلا وَانٍ ولا ضَرِعٌ غَمْرُ

فقلن لها : أنت تريدين سيدا ، وقالت الثالثة :

ألا هَلْ تراها مَرّةً وحليلُهاَ   أشَمّ كنصْلِ السيف عَيْنِ الُمهَّنَد
عليمٌ بأدْوَاءِ النِّساء ورَهْطُهُ   إذا ما انْتمَى مِنْ أهْلِ بيتي ومَحْتِدى

فقلن لها : أنت تريدين ابنَ عَمٍّ لك قد عرفته ، وقلن للصغرى : ما تقولين؟ قالت : لا أقول شيئاً ، فقلن : لا نَدَعُك وذاك ، إنك قد اطَّلعت على أسرارنا وتكتمين سرك ، فقالت : زَوْجٌ من عود خير من قعود ، فخُطِبْنَ فزوجن جُمَع ، ثم أمهلهن حولا ، ثم زار الكبرى فقال لها : كيف رأيتِ زوجَك؟ فقالت : خير زوج ، يُكْرِم أهْلَه ، وينسى فضله ، قال : فما مالُكم؟ قالت الإبلَ ، قال : وما هي؟ قالت : نأكل لُحمانها مزعا ، ونشرب ألبانها جرعا ، وتحملنا وضَعَفَتنا معا ، فقال : زوج كريم ، ومال عميم . ثم زار الثانية فقال :

---

(١) حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة من قيس بن عيلان . شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية ، وله غارات كثيرة في العرب ووقائع مشهورة قيل له ذو الإصبع لأن أفعى ضربت إبهام رجله فقطعتها . وقيل لأن له إصبعاً زائدة في رجله . وهو أحد الحكماء ، عمر طويلاً حتى قيل أنه بلغ ١٧٠ سنة .

كيف رأيتِ زوجَكِ؟ قالت : يكرم الحْليلة ، ويُقَرِّبُ الوَسيلة ، قال : فما مالُكم؟ قالت : البقر ، قال وما هيِ؟ قالت : تألف الفناء ، وتملأ الإناء ، وتُودِك السِّقاء ، ونساء مع نساء فقال : رَضِيت فحَظِيت . ثم زار الثالثة فقال : كيف رأيتِ زوجَكِ؟ فقالت : لا سَمْح بذر ، ولا بَخيل حكر ، قال : فما مالكم؟ قالت المِعْزَى ، قال : وما هي؟ قالت لو كنا نولدها فطما ، ونسلخها أدما ، لم نبع بها نَعَما ، فقال : جذو مُغْنية . ثم زار الرابعة فقال كيف رأيتِ زوجَكِ؟ قالت : شر زوج ، يكرم نفسه ، ويهين عِرْسَه ، قال : فما مالكم؟ قالت : شر مال الضأن ، قال : وما هي؟ قالت : جُوفٌ لا يَشْبَعْن ، وهِيم لا يَنْقَعْن ، وصُمٌّ لا يسمعن وأمْرَ مُغْويتهن يَتْبَعْن ، فقال أشبه امرؤ بعضَ بزه .

قال علي بن عبد اللّه : قلت لابن عائشة : ما قولها «وأمْرَ مغويتهن يتبعن»؟ قال أما تراهُنَّ يمررن فتسقُطُ الواحدةُ منهن في ماء أو وحَل أو غير ذلك فيتبعنها عليه ، وقوله «جذو مغنية» جمع جذوة ، وهي القطعة .

زُرْ غِباًّ تَزْدَدْ حُبّاً

قال المفضل : أول من قال ذلك مُعَاذ بن صِرْم الخُزَاعي ، وكانت أمه من عَكٍّ ، وكان فارس خزاعة ، وكان يكثر زيارة أخواله ، قال : فاستعار منهم فرسا ، وأتى قومه ، فقال له رجل يقال له جُحَيش بن سودة وكان له عدوا : أتسابقني على أن مَنْ سبق صاحبَه أخذ فرسه؟ فسابقه ، فسبق معاذ ، وأخذ فرسَ جُحَيش ، وأراد أن يغيظه فطَعَن وأخذ فرسَ جُحَيش ، وأراد أن يغيظه فطَعَن أيْطَلَ الفرسِ بالسيف فسقط ، فقال جُحَيش : لا أم لك قتلت فرساً خيرا منك ومن والديك؟ فرفع معاذ السيف فضرب مَفْرِقه فقتله ثم لحق بأخواله ، وبلغ الحيَّ ما صنع ، فركب أخٌ لجحيش وابن عم له ، فلحقاه فشدَّ على أحدها فطعنه فقتله ، وشد على الآخر فضربه بالسيف فقتله ، وقال في ذلك :

ضربــت جُحَيْشــا ضربةً لالئيمــةً ... ولكن بصاف ذي طَرَائق مُسْتَكِّ
قَتَلْــتُ جُحَيشــاً بعــد قَتْل جَوَاده ... وكنتُ قديما في الحوادث ذافَتْك
قصــدتُ لعمــرو بعد بَـدْر بضربــة ... فَخَرَّ صريعا مثل عائرة النُّسْك
لكــي يَعْلَــم الأَقــوامُ أنــيَ صــارمٌ ... خُزَاعة أجْدَادي وأنْمى إلى عَكِّ
فقد ذُقْتَ يا جَحْشُ بنَ سَوْدَةَ ضَرْبَتِي ... وجَــرَّبتني إنْ كنتَ من قــبلُ في شَكِّ

تركْـــتُ جُحَيشْـــاً ثاويـــاً ذا نَوَائـــح خَضِيـــبَ دم جَارَاتُـــه حولَه تَبْكي
تـــرنُّ عليـــــه أمُّـــــهُ بانْتحَابِهَـــا وتقشر جلْدَيْ مَحْجريْها من الحَكّ
ليرفَـــعَ أقوامـــاً حُلُولـــــيَ فيهـــــمُ ويُزْرى بقوم - إنْ تركتهُم - تَرْكــي
وحصْني سَرَاة الطَّرف وَالسَّيْفُ مَعْقلِي وَعطْري غبارُ الحرْبِ لاعَبَقُ المسْـكَ
تَتُوقُ غَدَاةَ الرَّوعِ نَفْسِي إلى الْوَغَـــى كتَوْقِ الْقطَا تَسْمُوإلى الوَشَلِ الـرَّكِّ
ولَسْـــتُ برِعْديَـــد إذَا راعَ مُعْضـــلٌ وَلا في نَوادي الْقَوْم بالضَّيِّق المَسْك
وكَـــمْ مَلِـــكٍ جَدَّلْتُـــــهُ بمُهَنَّـــد وَسَابِغَة بَيْضَاءَ مُحْكَمـــة السَّـــكِّ

قال : فأقام في أخواله زمانا ، ثم إنه خرج مع بني أخواله في جماعة من فتيانهمْ يتصيَّدون ، فحمل معاذ على عير فلحقه ابنُ خال له يقال الغضبان فقال : خَلِّ عن العير ، فقال : لا ، ولا نعمت عين ، فقال له الغضبان : أما واللّه لو لكان فيك خَيْرٌ لما تركْتَ قومك فقال معاذ : زُرْغبّاً تَزْدَدْ حبا فأرسلها مثلا ، ثم أتى قومَه فأراد أهلُ المقتول قتلَه فقال لهم قومه : لا تقتلوا فارسَكم وإن ظلم ، فقَبِلُوا منه الدِّيَةَ .

ومن هذا المثل قال الشاعر :

إذا شئـــتَ أن تُقْلَـــى فَـــزُرْ مُتَواتِـــراً وإن شئـــتَ أن تَزْدَادَ حُبًّا فـــزُرْ غِبًّا

وقال آخر :

عليـــك بإغبـــاب الزِّيـــارة ، إنَّهَـــا إذا كَثُرَتْ كانَتْ إلى الْهَجْرِ مَسْلَكاَ
ألـــم تَـــرَ أن القَطْـــرَ يُسْـــأمُ دائمـــاً ويُسْـــأل بالأيـــدِي إذَا هُوَ أمْسكا

زِدْهُمْ أعنُزاً

زعم أبو عمرو أن كَعْبَ بن ربيعة اشترى لأخيه كلابِ بن ربيعة بقَرة بأربعة أعْنُز . فركبها كلاب وألجمها من قبل اسْتهَا وحَوَّل وجهه إليها ، ثم أجراها ، فأعجبه عَدْوُها ، فالتفت إلى أخيه وقال : زِدْهم أَعنُزا ، فذهبت مثلا حين أمر بالزيادة بعد البيع .

يضرب للأحمق

أَزْكَنُ مِنْ إياسٍ

هو إياسُ بن مُعَاوية بن قُرَّة المُزَني ، كان قاضياً فائقاً زَكِنا ، تولى قضاء البصرة سنةً لعمر بن عبد العزيز رحمه اللّه تعالى

فمن نوادر زَكَنه أنه سمع نُبَاح كلب لم يَرَه ، فقال : هذا نُبَاح كلب مربوط على شَفِير بئر ، فنَظَروا فكان كما قال ، فقيل له في ذلك ، فقال : سمعت عند نُبَاحه دَوِيّاً من مكان واحد ، ثم سمعت بعده صَدىً يُجيبه ، فعلمت أنه عند بئر .

ومن نوادر زكَنه أيضاً أنه رأى أثر اعتلاف بعير ، فقال : هذا بعير أعْوَر ، فنظروا فكان كما قال ، فقيل له : من أين قلت ذاك؟ فقال : لأني وَجَدْت اعتلافَه من جهة واحدة .

قالوا : ومن نوادر زكَنه أنه رأى قوما يأكلون تمراً ويلقون النوى متفرقا ، فرأى الذباب يجتمعن في موضع من التمر ، ولا يقربن موضعاً آخر ، فقال إياس : إن في هذا الموضع حية ، فنظروا فوجَدُوا الأمر كما قال ، فقيل له : من أين علمت؟ قال : رأيت الذبابَ لا يقربْنَ هذا الموضع ، فقلت : يَجِدن ريحَ سمّ فقالت حية .

ونظر إلى ديك يَنْقُر ولا يقرقر ، فقال هذا هَرِم ، لأن الشاب إذا وجَد حبّاً نقره وقرقر لتجمع الدجاج إليه .

ورأى جاريةً في المسجد وعلى يدها طَبَق مُغَطًّى بمنديل ، فقال : معها جَرَاد . فكان كما قال ، فسئل ، فقال : رأيته خفيفاً على يدها

ومن نوادر زكَنه أن رجلين احتكَمَا إليه في مال فجَحَد المطلوبُ إليه المالَ ، فقال للطالب : أين دفعت إليه المالَ ، فقال : عند شجرة في مكان كذا ، قال : فانطلق إلى هذا الموضع لعلك تتذكر كيف كان أمر هذا المال ، ولعل اللّه يوضح لك سبباً ، فمضى الرجلُ وحَبَس خصمه ، فقال إياس بعد ساعة : أترى خصمَكَ قد بلغ موضع الشجرة؟ قال : لا بعد [ساعة] ، قال : قم يا عَدُوَّ اللّه ، أنت خائن ، قال : فأقِلْنِي أقالك اللّه ، فاحتفظ به حتى أقرَّ وردَّ المال .

قال حمزة : ونوادر إياس كثيرة قد كتب المدايني عليه كتاباً وسماه «كتاب زَكَن إياس» .

ويقال : مات مُعَاوية بن قُرَّة أبو إياس وهو ابن ست وسبعين سنة ، فقال إياس في العام الذي مات فيه أبوه : رأيتُ في المنام كأني وأبي على فرسَيْن فجَرَياً جميعاً ، فلم أسبقه ولم يسبقني ، فعاش إياس أيضاً ستا وسبعين سنة .

وذكر بعض الشعراء (هو أبو تمام خبيب بن أوس الطائي) إياسا في شعْره فلم يستقم له أن يذكره بالزكَن فوضع مكانه الذكاء ، فقال :

إقْدَامُ عَمْروفي سَمَاحِة حاتمٍ   في حِلْم أحْنَفَ في ذَكَاءِ إ يَاسِ

سَبَقَ السَّيْفُ العَذَلَ

قاله ضَبَّة بن أدّ لما لامه الناسُ على قتله قاتلَ ابنه في الحرم ، وقد مر تمامُ القصة فيما تقدم عند قوله «إنَّ الحديثَ ذو شُجُون» ويقال : إن قولهم «سبق السيف العذل» لخزيم بن نَوْفل الهَمْدَاني .

اسْتُ البَائِنِ أَعْلَمُ

وهذا المثل يروى أن قائله الحارث بن ظالم ، وذلك أن الجُمَيْح وهو مُنْقذ بن الطَّمَّاح خرج في طلب إبل له ، حتى وقع عليها في قبيلة مرة ، فاستجار بالحارث بن ظالم المُرِّي ، فنادى الحارث مَنْ كان عنده شيء من هذه الإبل فليردَّها ، فردَّتْ جميعاً غير ناقة يقال لها اللِّفَاع ، فانطلق يَطُوف حتى وجدها عند رجلين يَحْلُبانها ، فقال لهما : خَلِّيا عنها فليست لكما ، وأهْوَى إليهما بالسيف ، فضَرَط البائنُ ، فقال المعلى : واللّه ما هي لك ، فقال الحارث : اسْتُ البائن أعلم ، فأرسلها مثلا .

يضرب لمن ولى أمراً وصلى به فهو أعلم به ممن لما يَمارسه ولم يصل به .

اُسْتٌ لَمْ تُعَوَّدِ المْجمَرَ

يقال : إن أول مَنْ قال ذلك حاتم بن عبد اللّه الطائي ، وذلك أنَّ ماوية بنت عَفْزَر كانت ملكة ، وكانت تتزَّوج مَنْ أرادت ، وربما بعثت غِلْمانا لها ليأتُوها بأوْسَم مَنْ يجدونه بالحِيرة ، فجاؤها بحاتم ، فقالت له : استقدم إلى الفِراش ، فقال : اسْتٌ لم تُعَوَّدِ المجمر ، فأرسلها مثلا .

سَاعِدَايَ أحْرَزُ لَهُمَا

أول من قال ذلك بن زيد مَنَاة بن تَميم ، وكان أحمق ، فزوَّجه أخوه سعدُ بن زيد نَوَار بنت حُلّ بن عديّ بن عبد مَنَاة ابن أد ، ورجا سعد أن يولَد لأخيه ، فلما بَنَى مالك بيته وأدخلت عليه امرأته انطلق به سعد حتى إذا كان عند باب بيته قال له سعد : لِجْ بيتَكَ ، فأبى مالك ، مرارا ، فقال : لِجْ مَالِ ولُجْتَ الرَّجْمَ ، والرجم : القبر ، ثم إن مالكا ولَجَ ونعلاه معلقتان في ذراعيه ، فلما دنا من المرأة قالت : ضَعْ نعليك ، قال ساعداي أحْرَزُ لهما ، فأرسلها مثلا ، ثم أتى بطِيبٍ ، فجعل يجعله في استه ، فقالوا : ما تصنع؟ فقال : استي أخْبَثِي ، فأرسلها مثلا

السَّلِيمُ لاَ يَنَامُ ولاَ يُنِيمُ

قال المفضل : أول مَنْ قال ذلك إلياس ابن مُضَر ، وكان من حديث ذلك – فيما ذكر الكلبي عن الشَّرْقي بن القطامي – أن إبل إلياس نَدَّتْ ليلاً ، فنادى ولدَه وقال : إني طالب الإبل في هذا الوجه ، وأمر عَمْرا ابنه أن يطلب في وَجْه آخر ، وترك عامراً ابنه لعلاج الطعام ، قال : فتوجه إلياس وعمرو وانقطع عمير ابنه في البيت مع النساء ، فقالت ليلى بنت حُلْوان امرأتُه لإحدى خادميها : اخرجي في طلب أهلك ، وخرجت ليلى فلقيها عامر محتقباً صيداً قد عالجه ، فسألها عن أبيه وأخيه فقالت : لا علم لي ، فأتى عامر المنزل وقال للجارية : قُصِّي أثر مولاك ، فلما ولَّت قال لها : تَقَرْصَعِي ، أي اتئدي وانقبضي ، فلم يَلْبَثوا أن أتاهم الشيخ وعمرو ابنه قد أدرك الإبل ، فوضع لهم الطعام ، فقال إلياس : السليم لا ينام ولا ينيم ، فأرسلها مثلاً ، وقالت ليلى امرأته : والله إن زِلْتُ أخَنْدفُ في طلبكما والهة ، قال الشيخ : فأنت خِنْدِف ، قال عامر : وأنا والله كنت أدْأَبُ في صَيْد وطَبْخ ، قال : فأنت طَابِخَةٌ قال عَمرو : فما فعلت أنا أفضل ، أدْرَكْتُ الإبلَ ، قال : فأنتً مُدْرِكة ، وسمي عميراً قمعَةً ، لانقماعه في البيت ، فغلبت هذه الألقاب على أسمائهم

اسْعَ بِجَدِّكَ لاَ بِكَدِّكَ

قالوا : إن أول من قال ذلك حاتم بن عميرة الهَمْدَاني ، وكان بَعَثَ ابنيه الحِسْلَ وعاجنة إلى تجارة ، فلقي الحِسْلَ قومٌ من بني أسد ، فأخذوا ماله وأسروه ، وسار عاجنة أياما ثم وقع على مالٍ في طَريقه من قبل أن يبلغ موضع مَتْجَره ، فأخذه ورجع وقال في ذلك :

كَفَائِي اللّه بُعْدَ السَّيْر ، إنِّي ... رَأَيتُ الخَيْرَ في السفر الْقَرِيبِ
رأيتُ الْبُعْدَ فيه شَقَاً وَنَأْيٌ ... ووَحْشَة كلِّ مُنْفَرِد غَرِيبِ
فأسْرَعْتُ الإيابَ بخَيْر حال ... إلى حَوْرَاء خُرْعبُةَ لَعُوبِ
وإنِّي لَيْسَ يَثْنِيني إذا ما ... رَحَلتُ سنوحُ شَحَّاجٍ نَعُوب

فلما رجع تباشَر به أهلُه ، وانتظروا الحِسْل ، فلما جاء إبَّانُه الذي كان يجيء فيه ولم يرجع رَابَهم أمرُهُ ، وبعث أبوه أخاً له لم يكن من أمه يقال له شاكر في طلبه والبحث عنه ، فلما دنا شاكر من الأرض التي بها الحِسْلُ وكان الحسل عائفاً يَزْجُر الطيرَ فقال :

تُخَبِّرُنـــي بالنجـــاة القَطَـاةُ وقَــوْلُ الْغُــرَابِ بها شَاهدُ
تقول : ألاَ قَـدْ دَنَـا نَـازِحٌ فـدَاء له الطــرف وَالتَّالـدُ
أخ لــم تكُــنْ أمُّنَـا أمَّـهُ ولكــن أبوُنـا أبٌ واحِـدُ
تداركَنــي رأفَــةً حَاتِــمٌ فَنعْـمَ المربِّـبُ وَالوَالِـــدُ

ثم إن شاكراً سأل عنه ، فأخبر بمكانه فاشتراه ممن أسَره بأربعين بعيراً ، فلما رجع به قال له أبوه : اسْعَ بجَدِّك لا بكدك ، فذهبت مثـــلا .

سِرْ عَنْكَ

قالوا : إن أول من قال ذلك خِداش بن حابس التَّميمي ، وكان قد تزوج جارية من بني سَدوس يقال لها الرَّباب وغاب عنها بعد ما مَلَكها أعواما ، فعلقها آخر من قومها يقال سلم ، ففضحها ، وإن سلما شَرَدَت له إبل فركب في طلبها ، فوافاه خداش في الطريق ، فلما علم به خداش كتَمَه أمرَ نفسه ليعلم علم امرأته ، وسارا ، فسأل سلم خداشا : ممن الرجل؟ فخبره بغير نسبه ، فقال سلم :

أغبْــتَ عَنِ الرَّبَــابِ وَهَــامَ سَلْـــمٌ بِهَــا وَلَــها بعِرْســكَ يَاخـدَاشُ
فَيَاـــلَكَ بَعْـــلَ جاريـــة هَوَاهَـــا صَبُــورٌ حــينَ تَضْطَـربُ الْكِبَاشُ
وَيَا لَـــكَ بَعْـــلَ جاريـــة كَعُــوب(*) تَزيــدُ لـــذاذةً دُونَ الرِّيَــــاشِ
وَكُنْــتَ بهــا أخَا عَطَــشٍ شَديـــد وَقَـــدْ يَـــرْوَى عَلَى الظّمأ العطَاشُ
فـــإن أرْجِــعْ وَيَأْتيهَــا خـــــدَاشٌ سَيُخْبِــرُهُ بِمَــا لاقـــى الفَــرَاشُ

فعرف خداش الأمر عند ذلك ، ثم دنا منه فقال : يا أخا بني سَدوس ، فقال سلم : علقتُ امرأةً غاب عنها زوجُها ، فأنا أنْعَمُ أهلِ الدنيا بها ، وهي لذة عيشي ، فقال خداش : سر عنك ، فسار ساعة ، ثم قال : حدثنا يا أخا بني سَدوس عن خليلتك ، قال : تَسَدَّيتُ خِباءها ليلا فبتُّ بأقر ليلة أعلُو وأعْلى وأعانِق وأفْعَلُ ما أهوى ، فقال خداش : سر عنك ، وعرف الفضيحةَ ، فتأخرَّ واخترط سيفه وغطّاه بثوبه ، ثم لحقه وقال : ما آية ما بينكما إذا جئْتَها ، قال : أذهَبُ ليلا إلى مكان كذا من خبائها وهي تخرج فتقول :

يَالَيْـــلُ هَلْ مِنْ ساهرٍ فيكَ طالـــبٍ هَـــوَى خلَّـــةٍ لا يَنْزَحَنْ مُلْتَقَاهُمَا

(*) كذا ، ولعله «لعوب» أو «كعاب» .

فأجاوبها :

نَعَـمْ سَاهِـرٌ قَـدْ كَابَدَ الليلَ هائِـم   بِهائِمَـةٍ مـا هَوَّمَـتْ مُقْلَتَاهُمـاَ

فتعرف أني أنا هو ، ثم قال خداش : سر عنك ، ودنا حتى قَرَن ناقته بناقته ، وضربه بسيفه فأطار قِحْفَهُ وبقي سائره بين سرخي الرَّحْل يضطرب ، ثم انصرف فأتى المكانَ الذي وصَفه سلم ، فقعد فيه ليلا ، وخرجت الرَّباب وهي تتكلم بذلك البيت ، فجاوبها بالآخر ، فدنَتْ منه وهي ترى أنه سلم ، فقنَّعها بالسيف ففلَق ما بين المفرق إلى الزور ، ثم ركب وانطلق .

يضرب في التغابي والتغاضي عن الشيء

السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ.

قيل : إن أول من قال ذلك مَرْثَد بن سَعْد أحد وَفْد عاد الذين بُعِثُوا إلى مكة يَسْتَسْقُون لهم ، فلما رأى ما في السحابة التي رُفعت لهم في البحر من العَذَاب أَسْلَم مرثد ، وكتم أصحابَه إسلامه ، ثم أقبل عليهم فقال : ما لكم حَيَارى كأنكم سَكَارى ، إن السعيد من وُعِظ بغيره ، ومن لم يعتبر الذي بنفسه يلقى نَكَال غيره ، فذهبت من قوله أمثالا

أَسْرِعْ بِذَاكِمْ صَابَةً نِقَاباً.

يقال إن امرأةً خرجَتَ من بيتها لحاجةٍ فلما رجعت لم تهتد إلى بيتها ، فكانت تردد بين الحي على تلك الحال خمسا ، ثم أشرفت فرأت بيتها إلى جنبها فعرفته فقالت : أسْرِعْ بذاكم صابة نقابا ، يقال : لقيت فلانا نقَابا ، أي فجأة ، وتعني بقولها «صَابَةً» إصابة وهي مثل الطَّاقَة والطَّاعة والجابة ، أي ما أَسْرَعَ الإصابة مفاجئة .

يضرب لمن بالغ في إبطائه ويَرَى أنه أسرع فيما أمر به

أَسْرَعُ مِنْ نِكاحِ أُمِّ خَارِجَةَ.

هي عَمْرَة بنت سعد بن عبد الله بن قدار بن ثعلبة ، كان يأتيها الخاطبُ ، فيقول : خِطْبٌ ، فتقول نِكْحٌ ، فيقول : انزلي ، فتقول : أنِخْ ، ذكر أنها كانت تسير يوماً وابنٌ لها يقود جملَها فرفع لها شخص فقالت لابنها : مَنْ ترى ذلك الشخص؟ فقال :

أراه خاطباً ، فقالت : يابنيَّ تراه يعجلنا أن نحل؟ ماله؟ أُلَّ وغلَّ .

وكانت ذَوَّاقَةً تُطَلِّقُ الرجلَ إذا جربته وتتزوج آخر ، فتزوجت نيفا وأربعين زوجا وولدت عامة قبائل العرب ، تزوجت رجلا من إياد فخَلَعها منه ابنُ أختها خلف بن دعج ، فخلف عليها بعد الإيادي بكر بن يَشْكُر بن عَدْوَان بن عمرو بن قَيْس عَيْلان فولدت له خارجة ، وبه كنيت ، وهو بطن ضخم من بطون العرب ، ثم تزوجها عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مُزَيْقيا ، فولدت له سعداً أبا المُصْطَلق والحيا ، وهما بَطْنان في خُزَاعة ، ثم خَلَف عليها بكر بن عبد مَنَاة بن كنانة ، فولدت له لَيْشاً والدِّيلَ وعريجا ، ثم خَلَفَ عليها مالك بن ثعلبة بن دُودَان بن أسد ، فولدت له غَاضِرَةَ وعَمْراً ، ثم خلَفَ عليها جُشَمُ بن مالك بن كعب بن القَيْن بن جَسْر من قُضَاعة ، فولدت له عرنية بطناً ضخما ، ثم خلَفَ عليها عامر ابن عمرو بن الحيون البَهْرَاني من قُضَاعة فولدت له ستة : بَهْرَاء ، وثعلبة ، وهلالا ، وبيانا ، ولخوة ، والعنبر ، ثم خلَفَ عليها عمروبن تميم ، فولدت له أسيدا والهُجَيْم .

قال المبرد : أم خارجة قد ولَدَت في العرب في نيف وعشرين حيا من آباء متفرقين

قال حمزة : وكانت أم خارجة هذه ومارية بنت الجعيد العَبْدية وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان السلمية وفاطمة بنت الخُرْشُب الأنمَارية والسوّاء العَنْزية ثم الهَزَّانية وسلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد أحد بني النجار وهي أم عبد المطلب بن هاشم ، إذا تزوجت الواحدةُ منهنَّ رجلا وأصبحت عنده كان أمرُها إليها ، إن شاءت أقامت ، وإن شاءت ذهبت .

ويكون علامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاما إذا أصبح

شُغِلَ عَنِ الرَّامِي الكِنَانَةَ بِالنَّبْلِ.

أصله أن رجلا من بني فَزَارة ورجلا من بني أسد كانا متواخين ، وكانا راميين لا يسقط لهما سهم ، ومع الفزاري كنانة جديدة ، ومع الأسدي كنانة رَثَّةٌ ، فأعجبته كنانة الفزاري ، فقال الأسدي : أَينا ترى أرمي أنا أم أنت؟ قال الفزاري : أنا أرمى منك ، وأنا عَلَّمتك ، قال الأسدي : انْصِبْ لي كِنانتك وأنْصِبُ لك كِنانتي ، فقال له الفزاري : انْصِبْ لي كِنانتك ، فعلق الأَسدي كَنانَتَه على شجرة ، ورماها الفزاري فجعل لا يرمى بسهم إلا شكلها حتى قَطَّعها بسهامه فلما نَفِدَتْ سهامُه قال :

انْصِبْ لي كنانَتَكَ حتى أرميها ، فرمى فسدد السهم نحوه ، فشَكَّ كبدَ الفزاري ، فسقط الفزاري ميتاً ، فأخذ الأسدي قوسَه وكنانته ، قال الفرزدق :

فَقُلْتُ أظَنُّ ابنُ الخبيثَة أنني   شُغِلتُ عن الرامِي الكنَانَةَ بالنَّبْلِ

يريد بهذا جريراً ، يقول : أراد جرير بهجائه البَعيثَ غيرَه وهو أنا ، أي أرادني ولم يرد البعيثَ ، كما أن الأسدي أراد رَمْيَ الفزازي ولم يرد رَمْيَ الكنانة .

قلت : ومعنى المثل شغل فلان عن الذي يرمي الكنانة بالنبل ، يعني أنه لم يعلم أن غَرَضَ الرامي أن يرميه لا أن يرمي كنانته .

يضرب لمن يغفل عما يراد به ويُكاد له

أَشْرَى الشَّرِّ صِغَارُهُ.

قالوا : إن صياداً قدم بنِحْيٍ من عسل ومعه كلب له ، فدخل على صاحب حانوت ، فعرض عليه العسل ليبيعَه منه ، فقطَر من العسل قطرة ، فوقع عليها زنبور ، وكان لصاحب الحانوت ابنُ عرس فوثَبَ ابنُ عرس على الزنبور ، فأخذه فوثَبَ كلبُ الصائد على ابن عرس فقتله . فوثَبَ صاحبُ الحانوت على الكلب فضربه بعصاً ضربةً فقتله ، فوثب صاحبُ الكلب على صاحب الحانوت فقتله ، فاجتمع أهلُ قرية صاحب الحانوت فقتلوه ، فلما بلغ ذلك أهلَ قرية صاحب الكلب اجتمعوا فاقتتلوا هم وأهلُ قرية صاحب الحانوت حتى تفانوا ، فقيل هذا المثل في ذلك .

أَشْأَمُ مِنَ البَسُوسِ

هي بَسُوس بنت منقذ التميمية خالَةُ جَسَّاس بن مُرَّة[1] بن ذُهْل الشيباني قاتل كليب[2] ، وكان من حديثه أنه كان للبسوس جارٌ من جَرْم يقال له سعد بن شمس ،

(١) جساس بن مرة الشيباني البكري ، شاعر شجاع من أمراء العرب في الجاهلية ، وهو الذي يسمى الحامي الجار المانع الذمار لقتله كليب بن ربيعة بسبب ناقة البسوس بنت المنقذ بن سلمان المنقذي خالة جساس ، وكان ذلك سبب نشوب الحرب بين تغلب وبكر .

(٢) كليب بن ربيعة التغلبي . حسب الكتب التاريخية وهو شقيق المهلهل عدي بن ربيعة التغلبي ، وأول من ملك قومه تغلب وبكر أبناء وائل وبعضا من قبائل ربيعة من العدنانيين ، وقد جعل للعرب العدنانية السيطرة على الجزيرة العربية بعد سنين طويلة من السيطرة القحطانية .

وكانت له ناقة يقال لها سَرَاب ، وكان كليب قَدْ حَمَى أرضاً من أرض العالية في أنف الربيع ، فلم يكن يرعاه أحدٌ إلا إبل جساس لمصاهرة بينهما ، وذلك أن جليلة بنت مرة أختَ جَسَّاس كانت تحت كليب ، فخرجت سَرَابُ ناقةُ الجرمي في إبل جَسّاس ترعى في حمى كليب ، ونظر إليها كليبٌ فأنكرها فرماها بسَهْم فاختلَّ ضَرْعها فولَّت حتى بركَتْ بفناء صاحبها وضَرْعُها يَشْخُب دماً ولبناً ، فلما نظر إليها صرخ بالذل ، فخرجت جارية البَسُوس ونظرت إلى الناقة فلما رأت ما بها ضَرَبَتْ يدها على رأسها ونادت : وَا ذُلاَّه ، ثم أنشأت تقول :

لعمرك لو أصْبَحْتَ في دار مُنْقذ لما ضيمَ سعدٌ وهو جارٌ لأبْيَاتي
ولَكنَّني أصْبَحْتُ في دار غُرْبَةٍ مَتَى يَعْدُ فيها الذئبُ يَعْدُ على شَاتِي
فيا سعدُ لا تُغْرَرْ بنفسكَ وَارْتَحلْ فإنَّك في قوم عن الجار أمْوَاتِ
ودُونَكَ أذْوَادي فإنيَ عنهمُ لَرَاحلةٌ لا يُفْقدني بُنَيَّاتي

فلما سمع جساس قولها سكنها وقال : أيَّتُهَا المرأة ليقتلَنَّ غداً جملٌ هو أعظم عَقْراً من ناقة جارك ، ولم يزل جساس يتوقَّع غِرَّةَ كليب حتى خَرَجَ كليبٌ لا يخاف شيئا ، وكان إذا خرج تباعَدَ عن الحي ، فبلغ جساسا خروجُه ، فخرج على فرسه وأخذ رمحه واتبعه عمرو بن الحارث فلم يدركه حتى طعن كليبا ودَقَّ صُلْبه ، ثم وقف عليه فقال : يا جساس اغثني بشَرْبَة ماء . فقال جساس : تركْتَ الماء وراءك ، وانصرف عنه ، ولحقه عمرو فقال : يا عمرو أغثني بشربة ، فنزل إليه فأجْهَزَ عليه ، فضرب به المثل فقيل :

المستجيرُ بَعْمرو عند كربيه كالمستجير من الرَّمْضَاء بالنار

قال : وأقبل جساسٌ يركُضُ حتى هَجَم على قومه ، فنظر إليه أبوه وركبته بادية فقال لمن حوله : لقد أتاكم جساس بداهية ، قالوا : ومن أين تَعْرف ذلك؟ قال : لظهور ركبتيه فإني لا أعلم أنها بَدَتْ قبل يومها ، ثم قال : ما وراءك يا جساس؟ فقال : واللّه لقد طَعَنْتُ طعنةً لتجمعن منها عجائز وائل رقصا ، قال : وما هي ثكلتك أمك؟ قال : قتلت كليبا ، قال أبوه : بئس لعمر اللّه ما جَنَيْتَ هلى قومك ! فقال جساس :

تأهَّبْ عنكَ أهْبَةَ ذي امتناع فإن الأمْرَ جَلَّ عن التَّلاَحِي
فإني قد جَنَيْتُ عليك حَرْباً تُغصُّ الشيخَ بالماءِ القَرَاحِ

فأجابه أبوه

فإن تَكُ قَدْ جَنَيْتَ علي حَرْباً فَلاَ وَانٍ وَلا رَثُّ السِّلاَح

سألبسُ ثَوْبَهَا وأذبّ عَنِّي بها يَوْمَ المَذَلَّةِ والفضاح

قال : ثم قَوَّضُوا الأبنية ، وجمعوا النَّعَم والخيول ، وأزمعوا للرحيل ، وكان همام بن مرة أخو جساس نديماً لمهلهل بن ربيعة أخي كليب ، فبعثوا جاريةً لهم إلى همام لتعلمه الخبر ، وأمروها أن تسره من مهلهل ، فأتتهما الجارية وهما على شَرَابهما ، فسارَّت هماما بالذي كان من الأمر ، فلما رأى ذلك مهلهل سأل هماما عما قالت الجارية ، وكان بينهما عهد أن لا يكتم أحدهما صاحبه شيئاً ، فقال له : أخبرتني أن أخي قتل أخاك ، قال مهلهل : أخوك أضْيَقُ اسْتاً من ذلك ، وسكت همام ، وأقبلا على شَرَابهما ، فجعل مهلهل يشرب شُرْبَ الآمن ، وهمام يشرب شرب الخائف ، فلم تلبث الخمرُ مهلهلا أن صَرَعَتْه ، فانْسَلَّ همام فرأى قومه وقد تحملوا فتحمل معهم ، وظهر أمرُ كليب ، فقال مهلهل لنسوته : ما دها كن؟ قلن : العظيم من الأمر ، قَتَلَ جساسٌ كليبا ، ونَشبَ الشر بين تغلب وبكر أربعين سنة كلها يَكون لتغلب على بكر ، وكان الحارث بن عُبَاد البكري قد اعْتَزَل القومَ ، فلما استحَرَّ القتلُ في بكر اجتمعوا إليه وقالوا : قد فَنِيَ قومُك ، فأرسَلَ إلى مهلهل بجيراً ابْنَه وقال : قل له أبو بُجَيْر يقرئك السلام ، ويقول لك : قد علمتَ أني اعتزلْتُ قومي ، لأنهم ظَلَموك وخَلَّيتك وإياهم وقد أدركت وِتْرَكَ فأنشدك اللّه في قومك ، فأتى بجيرٌ مهلهلاً وهو في قومه ، فأبلغه الرسالَةَ فقال : من أنت ياغلام؟ قال : بجير بن الحارث بن عُبَاد ، فقتله ، ثم قال : بُؤْبِشِسْع كليب ، فلما بلغ الحارثَ فعلُه قال : نعم القتيلُ بجير إن أصْلَح بين هذين الغارين قتلُه وسكنت الحرب به ، وكان الحارثُ من أحلم الناسِ في زمانه فقيل له : إن مهلهلا قال له حين قتله بُؤْبِشِسْع كليب فلما سمع هذا خرجَ مع بني بكر مقاتلا مهلهلا وبني تغلب ثائراً ببجير وأنشأ يقول :

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ منِّي إنّ بَيْعَ الكريم بالشِّسْع غَالِي
قَرِّبَا مَرْبِطَ النعامةَ منِّي لَقِحَتْ حَرْبُ وائلٍ عن حَيَالِ
لم أكن من جُنَاتِهَا عَلِمَ اللَّهُ وإنِّي بِشَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِي

ويروى «بِحَرِّهَا» والنعامة : فرسُ الحارث ، وكان يقال للحارث : فارس النَّعَامة ، ثم جمع قومه والتقى وبنو تغلب على جبل يقال له قضة فهزمَهم وقتلهم ولم يقوموا لبكر بعدها .

أَشْغَلُ مِنْ ذَاتِ النِّحْيَيْنِ.

هي امرأة من بني تَيْم اللّه بن ثعلبة ، كانت تبيع السمن في الجاهلية ، فأتاها خَوَّات بن جُبَير الأنصاري يبتاع منها سَمْنا ، فلم يَرَ عندها أحدا ، وساوَمَها فحَلَّت نحْياً ، فنظر إليه ثم قال : أمسكيه حتى أنظر إلى غيره ، فقالت : حُلَّ نحْياً آخر ، ففعل ، فنظر إليه فقال : أريد غير عذا فأمسكيه ، ففعلت ، فلما شَغَلَ يديها ساوَرَها فلم تقدر على دَفْعه حتى قضي ما أراد وهرب ، فقال :

وَذَاتِ عيَـال وَاثقـين بعقْلهَا   خَلَجْتُ لهَا جَارَاسْتهَا خَلَجَاتِ
شَغَلْـتُ يَدَيْهَـا إذْا أَرَدْتُ خلاطَهَا   بنحْيَيْـن منْ سَمْن ذَوَيْ عجَرَاتِ
فأخْرَجْتُه رَيَّانَ ينطف رَأسه   مِـنَ الرامك المدموم بالمقرات
فكـان لها الويلات من ترك سمنها   ورَجْعَتها صِفْراً بغير بَتَاتِ
فَشَدَّتْ على النِّحْيَيْنِ كَفّاً شَحيحَةً   علـى سَمْنهَا وَالْفَتْكُ من فَعَلاَتي

ثم أسلم خَوَّات رضي اللّه عنه ، وشهد بَدْراً ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يا خَوَّات كيف شرَادُك؟ ويروى كيف شراؤك ، وتَبَسَّم صلوات اللّه عليه ، فقال : يا رسول اللّه قد رَزَقَ اللّه خيرا ، وعوذ باللّه من الحور بعد الكور ، وفي رواية حمزة فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : ما فَعَلَ بعيرُك؟ أيشرد عليك؟ فقال : أما منذ أسلمت - أو منذ قَيَّده الإسلام - فلا ، ويَدَّعِى الأنصار أنه عليه السلام دعا بأن تسكن غُلْمته ، فسكنت بدعائه ، وهجا رجل بني تيم اللّه فقال :

أنَاسٌ رَبَّةُ النِّحْيَيْنِ منهم   فَعُدُّوها إذا عُدَّ الصَّميمُ

وزعموا أن أم الورد العَجْلاَنية مَرَّتْ في سوق من أسواق العرب ، فإذا رجل يبيع السمن ، ففعلت به كما فَعَل خَوَّاتٌ بذات النحيين من شَغْل يديها ثم كشفت ثيابه وأقبلت تضربُ شقَّ استه بيديها ، وتقول : يا ثارات ذاتِ النِّحْيَيْنِ

أشْأَمُ مِنْ خَوْتَعَةَ.

وهو أحد بني غُفَيلة بن قاسط بن هِنْب بن أَفْصَى بن دُعْميٍّ بن جَديلة .

ومن حديثه أنه دلَّ كُثَيْفَ بن عمرو التَّغْلَبي [وأصحابَه] على بني الزَّبَّان الذُّهْلي لتِرَة (الترة - بوزن عدة وصفة - الثأر ، وأصل تائها واو) كانت له عند عمرو بن الزَّبَّان ، وكَان سبب ذلك أن مالك بن كومة الشيباني لقي كُثَيِّفَ بن عمرو في بعض حروبهم ، وكان مالك نحيفا قليل اللحم ، وكان كُثَيف ضَخْما ، فلما أراد مالك أسْرَ

كُثَيف اقتحم كثيف عن فرسه لينزل إليه مالك ، فأَوْجَرَه مالك السِّنَانَ ، وقال : لتسأسِرَنَّ أو لأقتلنك ، فاحْتَقَّ فيه هو وعمرو بن الزَّبَّان ، وكلاهما أدركه ، فقالا : قد حكمنا كُثَيفا ، يا كثيف مَنْ أسَرَك؟ فقال : لولا مالك بن كومة كنت في أهلي ، فلطَمه عمرو بن الزَّبَّان ، فغضب مالك ، وقال : تَلْطم أسيري؟ إن فداءك يا كثيف مائة بعير ، وقد جعلتُهَا لك بلَطْمة عمرو وَجْهَك ، وجَزَّ ناصيته وأطلقه ، فلم يزل كُثَيف يطلب عمرا باللَّطْمة حتى دلَّ عليه رجل من غُفَيلة يقال له خَوْتَعة ، وقد بَدَّتْ لهم إبل ، فخرج عمرو وإخوته في طَلَبها فأدركوها فذبَحُوا حُوَارا فاشْتَوَوْهُ وجلسوا يَتَغَدَّون ، فأتاهم كُثَيف بضِعْف عددهم ، وأمرهم إذا جلسوا معهم على الغدَاء أن يكتنف كلَّ رجلٍ منهم رجلان ، فمروا بهم مجتازين ، فدُعُوا فأجابهم ، فجلسوا كما ائتمروا فلما حَسَرَ كُثَيف عن وجهه العمامةَ عرفه عمرو ، فقال : ياكثيف إن في خَدِّي وَفَاء من خدك ، وما في بكر بن وائل خد أكْرَمُ منه ، فلا تشبَّ الحربَ بيننا وبينك ، فقال : كلا بل أقتلك وأقتل إخْوَتَكَ ، قال : فإن كنت فاعلا فأطلق هؤلاء الفتية الذين لم يتلبسوا بالحروب ، فإن وراءهم طالباً أطْلَبَ مني ، يعني أباهم ، فقتلهم وجعل رؤوسهم في مِخْلاَة وعلَّقها في عنق ناقة لهم يقال لها الدُّهَيْم ، فجاءت الناقة والزبَّان جالسٌ أمام بيته حتى بركت ، فقال : يا جارية هذه ناقة عمرو ، وقد أبطأ هو وإخوتُه ، فقامت الجارية فجَسَّت المخلاة ، فقالت : قد أصاب بَنُوكَ بَيْضَ نعام ، فجاءت بها إليه ، وأدخلت يدها فأخرجت رأس عمرو أولَ ما أخرجت ، ثم رؤوسَ إخوته ، فَغَسلها ووضَعها على تُرْسٍ وقال : آخِرُ البَزِّ على القَلُوص ، وقال أبو الندى : معناه هذا آخر عهدي بهم ، لا أراهم بعده ، فأرسلها مثلا ، وضرب الناس بحمل الدُّهَيْم المثلَ ، فقالوا : أثْقَلُ من حمل الدهيم ، فلما أصبح نادى : يا صَبَاحاه ، فأتاه قومه ، فقال : واللّه لأحَوِّلَنَّ بيتي ثم لا أردُّه إلى حاله الأول حتى أدرك ثاري ، وأطفى ناري فمكث بذلك حيناً لا يدري مَنْ أصاب ولده ومَنْ دَلَّ عليهم ، حتى خُبِّر بذلك ، فحلف لا يحرِّمُ دم غُفَلِيٍّ حتى يدلُّوه كما دلُّوا عليه ، فجعل يغزو بني غُفَيلة حتى أثْخَن فيهم ، فبينما هو جالس عند ناره إذ سمع رُغَاء بعير ، فإذا رجل قد نزل عنه حتى أتاه فقال : من أنت؟ فقال : رجل من بني غُفَيلة ، فقال : أنت وقد آن لك ، فأرسلها مثلا ، فقال : هذه خمسة وأربعون بيتاً من بني تَغْلب بالإقطانتين ، يعني موضعا بناحية الرقة ، فسار إليهم الزَّبَّان ومعه مالك بن كومة ، قال مالك : فَنَعسْتُ على فرسي وكان ذريعا فتقدم بي ، فما شَعَرْتُ إلا وقد كرع في مقراة القوم ، فجذبته فمشى على عقبيه فسمعت

جارية تقول : ياأبت هل تمشي الخيل على أعقابها؟ فقال لها أبوها : وما ذاك يا بنية؟ قالت : رأيت الساعة فرسا كَرَعَ في المقراة ثم رجع على عقبيه ، فقال لها : ارْقُدي فإني أبغض الجاريةَ الكَلُوء العينِ ، فلما أصبحوا أتتهم الخيل دَوَاسَّ ، أي يتبع بعضُها بعضا فقتلوهم جميعا .

قوله «دَوَاسَّ» كذا أورده حمزة في كتابه ، والصواب «دوائس» يقال : داستهم الخيلُ بحَوَافرها ، وأتتهم الخيل دَوَائسَ ، أي يتبع بعضُها بعضا ، ووجدت في بعض النسخ يقال : دَسَّت الخيلُ تدسُّ دَسّاً إذا تبع بعضها بعضا ، وأنشد :

خَيْلاً تَدسُّ إليهمُ عجِلا وَبَنُو رَحَائِلهَا ذَوُو بَصَرِ

أي ذوو حزم

أَشْبَهُ بِهِ مِنَ التَّمْرَةِ بالتَّمْرَةِ.

في هذا حديث وذلك أن عُبَيد اللّه ابن زياد بن ظبيان أحَدَ بني تَيْم اللات بن تَغْلبة دخل على عبد الملك بن مروان ، وكان أحدَ فُتَّاك العرب في الإسلام ، وهو الذي احْتَزَّ رأسَ مُصْعَب بن الزبير(١) ، فدخل به على عبد الملك بن مروان ، وألقاه بين يديه ، فسَجَد عبدُ الملك ، وكان عبيد اللّه هذا يقول بعد ذلك : ما رأيت أعْجَزَ مني أن لا أكون قتلتُ عبدَ الملك فأكونَ قد جمعتُ بين قتلي ملك العراق وملك الشام في يوم واحد ، وكان يجلس مع عبد الملك على سريره بعد قتله مُصْعَبَ بن الزبير ، فَبَرِمَ به . فجعل له كرسياً يجلس عليه ، فدخل يوماً وسُوَيْدُ بن مَنْجُوف السَّدُوسي جالسٌ على السرير مع عبد الملك ، فجلس على الكرسي مُغْضَبا ، فقال له عبد الملك : يا عبيدَ اللّه بلَغني أنك لا تشبه أباك ، فقال : لأَنَا أشبه بأبي من التمرة بالتمرة ، والبيضة بالبيضة ، والماء بالماء ، ولكني أخبرك يا أمير المؤمنين عَمَّنْ لم تنضجه الأرحام ، ولا وُلِدَ لتَمَام ، ولا أشبه الأخوال والأعمام ، قال : ومن ذلك؟ قال : سُوَيْد بن مَنْجُوف ، فقال عبد الملك : سُوَيْدُ أكذلك أنت؟ فقال : إنه ليقال ذلك ، وإنما عَرَّضَ بعبد الملك لأنه وُلد لسبعة أشهر ، فلما خرجا قال له عبيد اللّه : واللّه يا ابن

(١) مصعب بن الزبير ابن العوام القرشي الأسدي أمير العراقين كان فارسا شجاعا جميلا وسيما حارب المختار وقتله وكان سفاكا للدماء سار لحربه عبد الملك بن مروان وأمه هي الرباب بنت أنيف الكلبية وكان يسمى من سخائه آنية النحل .

عمي ما يَسُرُّني بحلْمِكَ عليَّ حمر النعم ، فقال له سويد : وأنا واللّه ما يسرني بجَوَابك إياه سُودُ النَّعَم

أَشْبَقُ مِنْ حُبَّى.

هي امرأة مَدَنية ، كانت مِزْوَاجاً ، فتزوجت على كبر سنها فَتًى يقال له ابن أم كلاب ، فقام ابن لها كهل فمشى إلى مروان ابن الحكَم وهو والي المدينة ، وقال : إن أمي السفيهة على كبر سنها وسِنِّي تزوجت شاباً مُقْتَبَلَ السِّنِّ فصيرتني ونفسَهَا حديثاً ، فاستحضرها مروان وابنها ، فلم تكترث لقوله ، ولكنها التفتت إلى ابنها وقالت : يا برذعة الحمار ، أما رأيت ذلك الشاب المَقْدُود العَنَطْنَطَ ، فليشفيَنَّ غَليلَهَا ولتخرجَنَّ نفسُها دونه ، ولوددْتُ أنه ضَبٌّ وأني ضُبَيْبَتُه ، وقد وجدنا خَلاَء ، فانتشر هذا الكلام عنها ، فضُربت بها الأمثال ، فمن ضرب في الشعر المثل بها هُدْبَة بن الخَشْرَم العذري قال :

فَمَا وَجَدَتْ وَجْدي بها أمٌّ وَاحـد وَلا وَجْـدُ حُبَّى بابن أمِّ كِلاَبِ
رَأَتْـهُ طَوِيـلَ الساعِدَيْـنِ عَنَطْنَطَاً كَمَا انْبَعَثَتْ مِنْ قُوَّةٍ وَشَبَابِ

وكانت نساء المدينة تسمين حبى «حواء أم البشر» لأنها علمتهنَّ ضروباً من هيآت الجماع ، ولقبت كل هيئة منها بلقب ، منها القبع والغربلة والنَّخير والرَّهْز ، فذكر الهيثم ابن عدي أنه زَوَّجَتْ بنتاً لها من رجل ، ثم زارتها وقالت : كيف تَرَيْنَ زوجَك؟ قالت خير زوج ، أحسن الناس خُلُقا ، وخَلْقا ، وأوسعُهم رَحْلا وصَدْراً ، يملأ بيتي خيراً وحِرِي أيرا ، إلا أنه يكلفني أمراً صعباً ، قد ضِقْتُ به ذَرْعاً ، قالت : وما هو؟ قالت : يقول عند نزول شهوته وشهوتي انخري تحتي ، فقالت حُبَّى : وهل يطيب نيك بغير رهز ونخير؟ جاريتي حرة إن لم يكن أبوك قدم من سفر وأنا على سطح مُشْرِفة على مِرْبَد إبل الصدقة ، وكلُّ بعير هناك قد عُقل بعِقَالين ، فصرعني أبوك ورفع رجلي وطعنني طعنة نَخَرْتُ لها نخرة نفرت منها إبل الصدقة نفرة قطعت عُقُلَها وتفرقت فما أخذ منها بعيران في طريق ، فصار ذلك أول شيء نقم على عثمان ، وما له في ذلك ذنب ، الزوجُ طعَنَ ، والزوجة نخرت ، والإبل نَفَرت ، فما ذنبه؟

صَبْراً عَلَى مَجامِرِ الكِرَامِ.

قال قوم : راودَ يَسَار الكواعب[1] مولاتَه عن نفسها ، فنهته ، فلم ينته ، فقالت : إني مُبَخَّرَتُكَ ببخور ، فإن صَبَرْتَ عليه طاوعتُكَ ، ثم أتته بمِجْمَرَة فلما جعلتها تحته قبضت على مَذَاكيره فقطعتها وقالت : صَبْراً على مَجَامر الكرام .

يضرب لمن يؤمَرُ بالصبر على ما يكره تهكما .

وقال المفضل : بلغنا ان أعرابياً قدم الحَضَر بإبل ، فباعها بمال جَمٍّ وأقام لحوائج له ، ففطن قومٌ من جيرته لما معه من المال ، فعرضوا عليه تزويجَ جارية وصَفُوها بالجمال والحَسَب والكمال طمعاً في ماله ، فرغب فيها ، فزوَّجُوه إياها ، ثم إنهم اتخذوا طعاما وجمعوا الحيَّ وأجلس الأعرابي في صَدْر المجلس ، فلما فرغوا من الطعام ، ودارت الكؤوسُ ، وشرب الأعرابي ، وطابت نفسُه ، أتَوْه بكسوة فاخرَة وطيب ، فألبس الخلعَ ووُضعت تحته مجمرة فيها بخور لا عهد له بذلك ، وكان لا يَلْبَسُ السراويل ، فلما جلس عليها سَقَطَتْ مذاكيره في المجمرة ، فاستحيا أن يكشفَ ثوبه ، وظن أن تلك سُنة لا بدَّ منها ، فصبر على النار وهو يقول : صَبْراً على مجامر الكرام ، فذهبت مثلا ، وارتحل الأعرابي إلى البادية ، وترك امرأته وماله ، فلما قصَّ على قومه ما أرى قالوا : أُسْتٌ لم تعود المجمر ، فذهبت قولهم مثلا أيضاً .

يضرب لمن لم يكن له عهد قديم

صَارَتِ الْفِتْيَانُ حُمَمَاً.

هذا من قول الحمراء بنت ضَمْرة بن جابر وذلك أن بني تميم قتلوا سعد بن هند أخا عمرو بن عبد الملك ، فنَذَر عمرو ليقتلَنَّ بأخيه مائةً من بني تميم ، فجمع أهلَ مملكته فسار إليهم ، فبلغهم الخبر ، فتفرقوا في نواحي بلادهم ، فأتى دارهم فلم يجد إلا عجوزاً كبيرة وهي الحمراء بنت ضمرة ، فلما نظر إليها وإلى حُمْرَتها قال لها : إني لأحْسَبُك أعجمية ، فقالت لا ، والذي أسأله أن يخفض جَنَاحَك ويهدَّ عمادك ، ويَضَع وِسادك ، ويَسْلبك بلادك ، ما أنا بأعجمية ، قال : فمن أنت؟ قال : أنا بنت ضمرة بن جابر ، ساد معدّاً كابرا عن كابر ، وأنا أخت ضمرة بن ضمرة ، قال : فمن زوجك؟ قالت : هَوْذَة بن جَرْوَل ، قال : وأين هو الآن؟ أما تعرفين مكانه؟ قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعلم مكانه حال بينك وبيني ، قال : وأي رجل هو؟ قالت :

(١) كان يسار الكواعب عبداً أسوداً لأناس من بني الحرث بن سعد بن قضاعة ، وكان راعياً في إبلهم .

هذه أحمق من الأولى ، أعَنْ هَوْذة يُسأل؟ هو واللّه طيب العرْق ، سمين العَرْق لا ينام ليلة يَخَاف ، ولا يشبع ليلة يُضَاف ، يأكل ما وجَدَ ، ولا يَسأل عما فَقَد ، فقال مرو : أما واللّه لولا أني أخاف أن تَلدي مثلَ أبيك وأخيك وزوجك لاستبقيتك ، فقالت : وأنت واللّه لا تقتل إلا نساءً أعَليها ثُديّ وأسافلها دُميّ ، واللّه ما أدركت ثأراً ، ولا مَحَوْت عاراً ، وما مَنْ فعلتَ هذه به بغافلٍ عنك ، ومع اليوم غد ، فأمر بإحراقها فلما نظرت إلى النار قالت : ألا فتى مكانَ عَجُوزٍ؟ فذهبت مثلاً ، ثم مكثت ساعة فلم يَفْدهَا أحدٌ فقالت : هيهات ! صارت الفتيانُ حُمَماً ، ولبث عمرو عامةَ يومه لا يقدر علىَ أحد حتى إذا كان في آخر النهار أقبل راكبٌ يسمى عمارا تُوضع به راحِلتُه حتى أناخ إليه ، فقال له عمرو : مَنْ أنت قال أنا رجل من الْبَرَاجم؟ قال : فما جاء بك إلينا؟ قال : سطع الدخان ، وكنت قد طَويتَ

منذ أيام فظننته طعاماً ، فقال عمرو : إن الشقيّ وافدُ البراجم ، فذهبت مثلا ، وأمر به فألقى في النار ، فقال بعضهم : ما بلغنا أنه أصاب من بني تميم غيره ، وإنما أحرق النساء والصبيان ، وفي ذلك يقول جرير :

وأخزاكُمُ عمرٌو كما قد خَزِيتُمُ ... وأدرك عَمَّارا شقيَّ الْبَرَاجِمِ

ولذلك عيرت بنو تميم بحب الطعام لما لقي هذا الرجل ، قال الشاعر :

إذا ما مَاتَ مَيْتٌ من تميم ... فَسَرَّكَ أن يعيش فجيء بزاد
بخبز أو بلحم أو بتمر ... أو الشيء الملَفَّف في البِجَاد
تراه ينقِّبُ الآفاقَ حَوْلاً ... ليأكُلَ رأسَ لقمانَ بْنَ عَادَ

صُغْرَاهُنَّ شُرَّاهُنْ.

ويروى «صُغْرَاها شُرَّاها» ويروى «مُرَّاهَا» .

وأول من قال ذلك امرأة كانت في زمن لقمان بن عاد ، وكان لها زوج يقال له الشَّجِي ، وخليل يقال له الخَلِيُّ ، فنزل لقمان بهم ، فرأى هذه المرأة ذات يوم انْتَبَذَتْ من بيوت الحي ، فارتاب لقمان بأمرها ، فتبعها ، فرأى رجلا عَرَضَ لها ومَضَيَا جميعا وقَضَيَا حاجتهما ، ثم إن المرأة قالت للرجل : إني أتَمَاوَتُ فإذا أسندوني في رَجَمي فأْتني ليلا فأخْرجيني ثم اذهب إلى مكان لا يعرفنا أهلُه ، فلما سمع لقمان ذلك قال : ويل للشَّجِيِّ من الخلي ، فأرسلها مثلا ، ثم رجعت المرأة إلى مكانها وفعلت ما قالت ، فأخرجها الرجل وانطلق بها أياماً إلى مكان آخر ، ثم تحولت إلى الحي بعد

بُرْهة ، فبينا هي ذاتَ يوم قاعدةُ مرت بها بناتها ، فنظرت إليها الكبرى فقالت : أمي واللّه ، قالت الوُسْطَى : صدقتِ واللّه ، قالت المرأة : كذبتما ما أنا لكما بأم ، ولا لأبيكما بامرأة ، فقالت لهما الصغرى : أما تعرفان محياها ، وتعلقت بها وصرخَتْ ، فقالت الأم حين رأت ذلك : صغراهن شراهن ، فذهبت مثلا ، ثم إن الناس اجتمعوا فعرفوها فرفعوا القصة إلى لقمان بن عاد ، وقالوا له : اقض بيننا ، فلما نظر لقمان إلى المرأة عرفها فقال : عند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقين ، يعني نفسه وما عاين منها ، فأخبر لقمان الزوجَ بما عرف ، وأقبل على المرأة فقصَّ عليها قصتها كيف صنعت ، وكيف قالت لصديقتها ، فلما أتاها بما لا تنكر قالت : ما كان هذا في حسابي ، فأرسلتها مثلا ، فقيل للقمان : احكم فيها ، فقال : ارجُمُوهَا كما رَجَمَتْ نفسها في حياتها ، فرجمت ، فقال الشجي : احكم بيني وبين الخلي ، فقد فرق بيني وبين أهلي ، فقال : يفرق بين ذكره وأنثييه كما فرق بينك وبين أنثاك فأخذ الخلي فجُبَّ ذكره

صَوْتُ امْرِيءٍ وَاسْتُ ضَبُعٍ.

وذلك أن رجلا من بني عَقيل كان أسيراً في عَنَزَة اليمن ، فيقي أربَعَ حِجَج ، فعلق النساء يُرْسِلْنه فيَحْطبُهُنَّ ويَسْقيهن من الماء ، فإذا أقبل نظرن إلى صدره وإذا ما نهض تضاعف ، فقلن يا أبا كليب ، أمَّا حينَ تقوم فصدرة أم أسد ، وأما إذا أدبرت فرجلا أم ضبع ، وأنه كره أن يهرب نهاراً فتأخذه الخيل ، فأرسلنه عشية مع الليل ، فمر من تحت الليل ، فأصبح وقد استحرز

يضرب للداهي الذي يُخَادع القومَ

أَصْبِحْ لَيْلُ.

ذكر المفضل بن محمد بن يعلى الضبي أن امرأ القَيْس بن حُجْر الكنْديَّ(١) كان رجلا مفرَّكاً لا تحبه النساء ، ولا تكاد امرأة تصبر معه ، فتزوج امرأة من طَيِّء فابتنى بها ، فأبغضته من تحت ليلتها ، وكرهت مكانها معه ، فجعلت تقول : يا خَيْرَ الفِتْيَانِ

(١) امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث ال ندي (٥٢٠ م – ٥٦٥ م) كان شاعرا عربيا جاهليا عالي الطبقة من قبيلة كندة ، يُعد رأس شعراء العرب وأعظم شعراء العصر الجاهلي يُعرف في كتب التراث العربية باسم «الملك الضليل» و«ذي القروح» .

أصْبَحْتَ أصبحت ، فيرفع رأسه فينظر فإذا الليل كما هو ، فتقول : أصْبَحْ لَيْلُ ، فلما أصبح قال لها : قد علمتُ ما صنعتِ الليلَةَ ، وقد عرفتُ أن ما صنعت كان من كراهية مكاني في نفسك ، فما الذي كرهت مني؟ فقالت : ما كرهتُك ، فلَم يَزَلْ بها حتى قالت : كرهت منك أنك خفيف العَزَلة ثقيل الصدر ، سريع الإراقة ، بطيء الإفاقة ، فلما سمع ذلك منها طَلَّقها ، وذهب قولها «أَصْبِحْ ليل» مثلا ، قال الأعشى :

وحتـــى يبيت القوم كالضَّيْفِ لَيْلَـــة   يَقُولُونَ أَصْبِحْ لَيْلُ والليـــلُ عَاتِـــمُ

وإنما يقال ذلك في الليلة الشديدة التي يَطُول فيها الشر ، ومعنى بيت الأعشى حتى يبيت القوم غيرَ مطمئنين

صَرَّ عَلَيْهِ الغَزْوُ اسْتَهُ.

يضرب لمن ضَيَّقَ تصرفُه عليه أمره

قال المؤرج : دخل رجل على سليمان ابن عبد الملك ، وكان سليمان أولَ مَنْ أخذ الجار بالجار ، وعلى رأس سليمان وَصِيفة رُوقَة .

فنظر إليها الرجل ، فقال له سليمان : أتُعْجِبُكَ؟ فقال : بارك اللّه لأمير المؤمنين فيها ، فقال : أخبرني بسبعة أمثال قيلت في الاست وهي لك ، فقال الرجل : اسْتُ البائِن أعْلَم ، قال سليمان : واحد ، قال : صَرَّ عليه الغَزْوُ اسْتَه ، قال سليمان : اثنان ، قال : اسْتٌ لم تُعَوَّد المِجْمَرَ ، قال سليمان : ثلاثة ، قال : اسْتُ المَسْؤُل أضْيَقُ ، قال سليمان : أربعة ، قال : الحرُّ يُعْطِي والعبدُ يألم اسْتُه ، قال سليمان : خمسة ، قال الرجل : اسْتِي أخْبَثِي ، قال سليمان : ستة ، قال : لا مَاءَك أَبْقَيْتَ ولا حِرَكَ أنْقَيْتَ ، قال سليمان : ليس هذا في هذا ، قال : بلى أخَذْتُ الجارَ بالجار كما يأخذ أميرُ المؤمنين ، قال : خُذْهَا لا بارَكَ اللّه لَكَ فيها .

صَكًا وَدِرْهَمَاكَ لَك

قال المفضل : إن امرأة بَغِيّاً كانت تؤاجر نفسَها من الرجال بدرهمين لكل من طَلَبها ، فاستأجرها يوما رجل بدرهمين ، فلما جامعها أعجبها جِمَاعُه وقوته وشدة رَهْزه فجعلت تقول «صكا» أي صُكَّ صكا «ودرهماك لك» فذهبت مثلا .

وروى ابن شميل «غَمْزاً ودرهماك لك ، فإن لم تغمز فبُعْدٌ لَكَ» رفعت البعد .

قال : يضرب مثلاً للرجل تراه يعمل العمل الشديد .

وَأَصْبَرُ مِنْ ذِي ضَاغِطٍ مُعَرَّك.

قال محمد بن حبيب : كان من حديث هذين المثلين أن كلباً أوقَعَتْ ببني فزارة يوم . العاه قبل اجتماع الناس على عبد الملك بن مروان ، فبلغ ذلك عبدَ العزيز بن مروان ، فأظهر الشماتة ، وكانت أمه كليبة ، وهي ليلى بنت الأصبع بن زبان . وأم بشر بن مروان قطبة بنت بشر بن عامر بن مالك بن جعفر ، فقال عبد العزيز لبشر أخيه : أما علمت ما فَعَلَ أخوالي بأخوالك؟ قال بشر : وما فعلوا؟ فأخبره الخبر ، فقال : أخوالُكَ أضْيَقُ أسْتَاهاً من ذلك ، فجاء وَفْدُ بني فَزَارة إلى عبد الملك يخبرونه بما صُنِعَ بهم ، وأن حُرَيْث بن بَجْدل الكلبي أتاهم بعهدٍ من عبد الملك أنه مصدق ، فسمعوا له وأطاعوا ، فاغْتَرَّهم فقتل منهم نَيِّفًا وخمسين رجلا ، فأعطاهم عبدُ الملك نصف الحَمَالات ، وضَمِنَ لهم النصف الباقي في العام المقبل ، فخرجوا ودَسَّ إليهم بشر ابن مروان مالا فاشْتَرَوُا السلاح والكُرَاع ، ثم اغْتَرُّوا كلبا ببني فزارة فَلَقُوهم ببنات قين ، فتعدَّوْا عليهم في القتل ، فخرج بشر حتى أتى عبدَ الملك وعندهُ عبدُ العزيز بن مروان فقال : أما بلغك ما فعل أخوالي بأخوالك؟ فأخبره الخبر ، فغضب عبدُ الملك لإخفارهم ذمتَهُ وأخْذهم مالَه ، وكتب إلى الحجاج يأمره إذا فَرَغَ من أمر ابن الزُّبير أن يُوقع ببني فَزَارة إن امتنعوا ، ويأخُذَ مَنْ أصاب منهم ، فلما فرغ الحجاجُ من أمر ابن الزبير نَزَلَ ببنب فزارة ، فأتاهم حَلْحَلَةُ ابن قيس بن أشْيَمَ وسعيد بن أبان بن عُيَينة ابن حِصْن بن حُذَيفة بن بدر ، وكانا رئيسي القوم ، فأخبرا الحجاج أنهما صاحبا الأمر ، ولا ذَنْبَ لغيرهما ، فأوثقهما وبَعَثَ بهما إلى عبد الملك ، فلما أدْخلاَ عليه قال : الحمدُ لله الذي أقاد منكما ، قال حلحلة : أما واللّه ما أقادمني ، ولقد نَقَضْتُ وِتْرَي ، وشَفَيْتُ صَدْري ، وبردت وَحْري ، قال عبد الملك : مَنْ كان له عند هذين وِتر يطلبه فليقم إليهما ، فقام سفيان بن سُوَيْد الكلبي – وكان أبوه فيمنقتل يوم بنات قِين – فقال : يا حلحلة هل حست لي سُوَيدا ، قال : عهدي به يوم بنات قن وقد انقطع خُرْؤه في بطنه ، قال : أما واللّه لأقتلنك ، قال : كذبت واللّه ما أنت تَقْتُلني وإنما يقتلني ابنُ الزرقاء ، والزرْقَاء إحدى أمهات مَرْوَان بن الحكم ، وكانت لها راية ، وكانوا يُسَبُّون بالزرقاء ، فقال بشر : صَبْراً حَلْحَلُ ، فقال : إي واللّه .

أصْبَرُ مِن عَوْدٍ بجنبه جُلَبْ   قد أثَّرَ البِطَانُ فيه وَالحقَبْ

ثم التفت إلى ابن سُوَيد فقال : يا ابن استها أجد الضربَةَ فقد وقعت مني بأبيك ضربةٌ أسْلَحَتْهُ ، فضرب عنقَه ، ثم قيل لسعيد نحو ما قيل لحلحلة ، فردَّ مثلَ جواب

حلحلة ، فقام إليه رجل من بني عليم ليقتله فقال له بشر : اصْبِرْ ، فقال :

أصْبَــرُ مِـــن ذِي ضَاغِــط مُــــعَرَّكِ   أَلْقَـــى بَوَانِـــي زَوْرِهِ لِلْمَبْـــــرَكِ

ويروى «من ذي ضاغط عَرَكْرَكِ» وهو البعير الغليظ القويُّ ، والضاغط : الْوَرَمُ في إبط البعير ، شِبْهُ الكيس ، يضغطه ، أي يضيقه ، ويقال «فلان جيد البَوَانِي» إذا كان جيدَ القوائم والأكتاف .

أَصَبُّ مِنَ المُتَمَنِّيَةِ.

هذا مثل من أمثال أهل المدينة سار في صدر الإسلام ، والمتمنية : امرأة مَدَنية عَشقت فتىً من بني سُلَيم يقال له : نَصْر بن حَجَّاج ، وكان أحْسَنَ أهل زمانه صُورة ، فَضَنِيَتْ من حبه ، ودَنِفَتْ من الوَجْد به ، ثم لَهِجَتْ بذكره ، حتى صار ذكره هِجِّيرَاهَا ، فمرَّ عُمَر بن الخطاب رضي اللّه عنه ذات ليلة بباب دارها ، فسمعها تقول رافعةً عَقِيرَتهَا :

أَلا سَبِيـــلَ إلـــى خَـــمْرٍ فأشْرَبَهَـــا   أم لاَ سَبِيـــلَ إلى نَصْر بن حَجَّاج

فقال عمر رضي اللّه عنه : مَنْ هذه المتمنية؟ فعرف خَبَرَها ، فلما أصبح استحضر الفتى المتمنَّى ، فلما رآه بَهَرَه جمالُه ، فقال له : أأنت الذي تتمناكَ الغانياتُ في خدورهن؟ لا أمَّ لك ! أما واللّه لأزيلَنَّ عنك رداء الجمال ، ثم دعا بحجَّام فحَلَقَ جُمَّته ، ثم تأمَّله فقال له : أنت مَحْلُوقاً أَحْسَنُ ، فقال : وأيُّ ذنب لي في ذلك؟ فقال : صدقت ، الذنْبُ لي أَنْ تركتُكَ في دار الهجرة ، ثم أركَبَهُ جملاً وسَيَّره إلى البَصْرة ، وكتب إلى مُجَاشع ابن مسعود السُّلَمي : إني قد سَيَّرْتُ المتمنَّي نصرَ بن حجَّاج السُّلمي إلى البصرة ، فاسْتَلَبَ نساءُ المدينة لفظةَ عمر ، فضربْنَ بها المثل ، وقلن «أصَبُّ من المتمنية» فسارت مثلاً .

قال حمزة : وزْعم النسابون أن المتمنية كانت الفريعة بنت هَمَّام أم الحجاج بن يوسف ، وكانت حين عَشِقَتْ نصراً تحت المُغيرة بن شُعْبة ، واحتجوا في ذلك بحديث رَوَوْه ، زعموا أن الحجاج حضَرَ مجلس عبد الملك يوماً وعُرْوَة بن الزبير عنده يحدثه ويقول : قال أبو بكر كذا ، وسمعت أبا بكر يقول كذا ، يعني أخاه عَبْدَ اللّه بن الزبير ، فقال له الحجاج : أعند أمير المؤمنين تَكْنَي أخاك المنافق؟ لا أم لك ! فقال له عروة : يا ابن المتمنية ألي تقول هذا؟ لا أم لك وأنا ابن عجائز الجَنَّة صفِيَّة وخَدِيجة وأسماء وعائشة رضي اللّه عنهن .

وكما قالوا بالمدينة «أصب من المتمنية» قالوا بالبصرة «أدْنَفُ من المتمنَّى» وذلك أن نصر بن حجاج لما ورَدَ البصرةَ أخذ الناسُ يسألون عنه ، ويقولون : أين هذا المتمني الذي سَيَّرهُ عمر رضي اللّه عنه؟ فغلب هذا الاسم عليه بالبصرة كما غلب ذلك الاسم على عشيقته بالمدينة .

ومن حديث هذا المثل أن نصراً لما ورد البصرة أنزله مُجَاشع بن مسعود السُّلَمي منزلَه من أجل قَرَابته ، وأَخْدَمَه امرأته شُمَيْلة ، وكانت أجملَ امرأة بالبصرة ، فعلقته وعَلِقها ، وخفي على كل واحد منهما خبرُ الآخر ، لملازمة مُجَاشع لضَيْفه ، وكان مجاشع أمياً ونَصْر وشُمَيلة كاتبَين ، فَعِيلَ صبرُ نصر ، فكتب على الأرض بحضرة مجاشع : إني قد أحببتك حباً لو كان فَوْقَك لأظَلَّك ، ولو كان تحتك لأقَلَّك ، فوقَّعَتْ تحته غير محتشمة : وأنا ، فقال لها مجاشع : ما الذيَ كَتَبه؟ فقالت : كتب كَم تَحْلب ناقتكم؟ فقال : وما الذي كتبت تحته؟ فقالت : كتبت وأنا ، فقال مجاشع : كم تَحْلب ناقتكم ، وأنا ، ما هذا لهذا بطبق ، فقالت : أصدقك إنه كتب كم تغلُّ أرضكم؟ فقال مجاشع : كم تغل أرضكم ، وأنا ، ما بين كلامه وجوابك قرابة ، ثم كَفَأ على الكتابة جَفْنة ودعا بغلام من الكُتَّاب ، فقرأ عليه ، فالتفت إلى نَصْر فقال له : يا ابن عم ما سَيَّرَكَ عمر من خير فقم ، فإنَّ وراءك أوسَعَ ، فنهض مستحيياً ، وعَدَلَ إلى منزل بعض السَّلَمين ، ووقع لجنبه ، فضَنِيَ من حب شُمَيْلة ، ودَنِفَ حتى صار رَحْمَة ، وانتشر خبره ، فضرب نساء البصرة به المثل ، فقلن «أَدْنَفُ من المتمنَّى» ثم إن مجاشعاً وقف على خبر علة نصر بن حجاج ، فدخل عليه فلحقته رقَّة ، لما رأى به من الدنف ، فرجع إلى بيته وقال لشُمَيْلة : عَزَمْتُ عليكِ لما أخذت خُبْزَة فَلَبَكْتِهَا بسمن ثم بادرتِ بها إلى نصر ، فبادت بها إليه ، فلم يكن به نهوض ، فضمته إلى صَدْرها ، وجعلت تلقمه بيدها ، فعادت قُوَاه وبرأ كأنْ لم يكن به قَلَبة

فقال بعض عُوَّاده : قاتل اللّه الأعشى فكأنه شَهِدَ منهما النجوى حيث قال :

لو أَسْنَدَتْ مَيْتاً إلى صَدْرِهَا … عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إلى قَابِرِ

فلما فارقته عاود النُّكْس ، فلم يزل يتردد في علته حتى مات فيها .

أضْبَطُ منْ عائِشَةَ بْنِ عثْم.

من بني عَبْشَمْس بن سعد ، وكان من حديثه أنه سَقَى إبله يوماً وقد أنزل أخاه في الركيَّةِ يَميحُه ، وازدحمت الإبل فهَوَتْ بَكْرة منها في البئر ، فأخذ بذَنَبها ، وصاح به

أخوه : يا أخي الموت ، قال : ذاك إلى ذَنَب البَكْرَة ، يريد إذا انقطع ذَنَبُها وقعت ، ثم اجتذبها فأخرجها ، فضرب به المثل في قوة الضَّبْطِ ، فقيل «أضْبَطُ من عائشة بن عثم» .

أَضَلُّ مِنْ قَارِظِ عَنَزَةَ.

هو يذكر بن عنزة ، واقتصَّ ابنُ الأعرابي حديثه فذكر أن بسببه كان خروج قُضَاعة من مكة ، وذلك أن جزيمة بن مالك بن نَهْد هَوْيَ فاطمة بنت يذكر بن عنزة ، فطرد عنها ، فخرج ذاتَ يوم هو وأبوها يذكر يطلبان القَرَظَ ، فمرا بقليب فيه مُعَسَّلُ النَّحْلِ ، فتقارَعَا للنزول فيه ، فوقعت القرعة على يذكر ، فنزل واجْتَنَى العسَلَ حتى رفع منه حاجته ، ثم قال : أخْرِجْنِي ، فقال جزيمة كلا أخرجك أو تُزَوِّجَنِي فاطمة ، فقال : أما وأنا على هذه الحالة فلا ، ولكن أخرجني ثم اخطبها فإني أزوجكها ، فأبى وتركه ومضى ، فلما انصرف إلى الحي سألوه عنه فقال : أخذ طريقاً وأخذت أخرى ، فلم يقبلوا منه ، ثم سمعوه يترنم بهذا الشعر :

فَتَاةٌ كأنَّ فُتَاتَ الْعَبِير بفيهَا يُعَلُّ به الزَّنْجَبِيلْ
قَتَلْتُ أبَاهَا عَلَى حُبِّهَا فَيَمنَعُني نَيْلَهَا أوْ تُنيلْ

فاتهموه وأرادوا قتله ، فمنعه قومُه ، فاحتربت بكر وقُضَاعة بسببه ، فكان أول سبب لتفرقهم عن تهامة ، فلما أخذوا يتفرقون قيل لجزيمة : إن فاطمة قد ذُهِبَ بها فلا سبيل إليها ، فقال : أما ما دامت حية فإني أطمع فيها ، وقال في ذلك :

إذَا الجُوزَاءُ أرْدَفَت الثريَّا ظَنَنْتُ بآل فَاطمَةَ الظُّنُونَا
وَأعرضُ دُونَ ذَلكَ مِنْ هُمُومِي هُمُوم تُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا

قال أبو الندى : أي إذا كان الصيفُ ورجع الناسُ إلى المياه ظننت بها على أيّ المياه هي .

أَطْمَعُ مِنْ أَشْعَبَ.

هو رجل من أهل المدينة يقال له «أشْعَبُ الطَّمَّاع» وهو أشْعَبُ بن جُبَير مولَى عبدِ الله بن الزبير[(١)] ، وكتنه أبو العلاء ، سأل أبو السمراء أبا عبيدة عن طَمَعه ،

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي ، صحابي جليل وابن الصحابي الزبير بن العوام ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وكنيته أبو بكر وأبو خبيب .

فقال : اجتمع عليه يوماً غِلْمان من غِلْمان المدينة يُعَابثونه ، وكان مَزَّاحاً ظريفاً مغنياً ، فآذاه الغِلْمة ، فقال لهم : إن في دار بني فلان عُرْساً ، فانْطَلقُوا إلي ثَمَّ فهوا أنْفَعُ لكم ، فانْطَلَقُوا وتركوه ، فلما مَضَوْا قال : لعل الذي قلتُ من ذلك حَقٌ ، فمضى في أثرهم نحو الموضع ، فلم يجد شيئاً ، وظفر به الغلمانُ هناك فآذَوْه .

وكان أشعب صاحبَ نوادر وإسناد ، وكان إذا قيل له حدثنا ، يقول : حدثنا سالم بن عبد الله - وكان يبغضني في الله - فيقال له : دَعْ ذا ، فيقول : ما عَنِ الحقِّ مَدْفَع ، ويروى : ليس للحق مَتْرَك ، وكانت عائشة بنت عثمان كَفَلَته وكفلت معه ابن أبي الزناد فكان يقول أشعب : تربيت أنا وابن أبي الزناد في مكان واحد ، فكنْتُ أسْفُلُ ويعلو ، حتى بلغنا إلى ما ترون .

وقيل لعائشة : هل آنَسْتِ من أشْعَبَ رُشْداً؟ فقالت : قد أسلمتُه منذ سَنَة في البز فسألته بالأمس : أين بلغت في الصناعة؟ فقال : يا أُمَّه قد تعلمْتُ نصفَ العمل ، وبقي على نصفه ، فقلت : كيف؟ فقال : تعلمت النَّشْرَ في سنة ، وبقي على تعلم الطيِّ ، وسَمِعْتُهُ اليومَ يخاطب رجلا وقد ساوَمَه قوس بندق ، فقال : بدينار ، فقال : والله لو كنت إذا رميت عنها طائراً وقع مَشْوِياً بين رغيفين ما اشتريتها بدينار ، فأيَّ رشد يؤنس منه؟ .

قال مصعب بن الزبير خرج سالم بن عبد الله بن عمر[(١)] إلى ناحية من نواحي المدينة هو وحُرَمُه وجَوَاريه ، وبلغ أشعبَ الخبرُ ، فوافى الموضع الذي هم به ، يريد التطفل ، فصادف البابَ مُغْلقاً فتسوَّرَ الحائط ، فقال له سالم : وَيْلَكَ يا أشعب من بناتي وحُرَمي؟ فقال : لقد علمْتَ ما لنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ، فوجَّهَ إليه من الطعام ما أَكلَ وحَمَلَ إلى منزله .

وقال أشعب : وَهِبَ لي غلامٌ ، فجئت إلى أمي بحمار موقور من كل شيء والغلام ، فقالت أمي : ما هذا الغلام؟ فأشفقت عليها من أن أقول : وهب لي ، فتموت فرحا ، فقلت : وهب لي غين ، فقالت : وما غين؟ قلت : لام ، قالت : وما لام؟ قلت : ألف ، قلت : وما ألف؟ قلت : ميم ، قالت : وما ميم؟ قلت : وهب لي غلام ، فغشى عليها فَرَحاً ، ولو لم أقطع الحروف لماتت .

---

(١) هو سالم بن عبد الله بن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الإمام الزاهد ، الحافظ ، مفتي المدينة ، أبو عمر ، وأبو عبد الله ، ولد في خلافة عثمان .

وقال له سالم بن عبد الله : ما بلغ من طَمَعِك؟ قال : ما نظرتُ قَطُّ إلى اثنين في جنازة يتساران إلا قَدَّرْتُ أن الميتَ قد أوصى لي من ماله بشيء ، وما أدخل أَحَدٌ يده في كمه إلا أظنه يعطيني شيئاً .

وقال له ابن أبي الزناد : مابلغ من طمعك؟ فقال : ما زُفَّتْ بالمدينة امرأة إلا كَسَحْتُ بيتي رجاء أن يغلظ بها إلي .

وبلغ من طمعه أنه مَرَّ برجل يعمل طَبَقاً فقال : أحبُّ أن تزيدَ فيه طوقا ، قال : ولم؟ قال : عسى أن يُهْدَي إلى فيه شيء .

ومن طمعه أنه مر برجل يمضغ علكا ، فتبعه أكثر ن ميل حتى علم أنه علك .

وقيل له : هل رأيتَ أطمَعَ منك؟ قال : نعم ، خرجت إلى الشام مع رفيق لي ، فنزلنا عند دَيْر فيه راهب ، فتلاحَيْنَا في أمر ، فقلت : الكاذب منا كذا من الراهب في كذا منه ، فنزل الراهبُ وقد أنعظ ، وقال : أيكما الكاذب؟ ثم قال أشعب : ودَعُوا هذا ، امرأتي أَطْمَعُ مني ومن الراهب ، قيل له : وكيف؟ قال : إنها قالت لي كما يخطر على قلبك من الطمع شيء يكون بين الشك واليقين إلا و]أنا [أتيقنه

أظُنُّ ماءَكُمْ هَذاَ ماءَ عِناَقٍ.

قالوا : كان من حديثه أن رجلا بينا هو يَسْتَقي وبيتُه تِلْقَاء وجهه ، فنظر فإذا هو برجل مُعَانق امرأته يُقَبلها ، فأخذ العَصَا وأقبل مُسْرعاً لا يَشكُّ فيما رأى ، فلما رأته امرأتُه جعلت الرجلَ في خالفه البيت بين الخالفة والمتاع ، فنظر يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً ، وخرج فنظر في الأرض فلم ير شيئاً ، فكذب بصره ، فقالت المرأة كأنها تريه أنها قد استنكرت من أمره شيئاً ما دهاك يا أبا فلان؟ أرعبك شيء؟ فكتَمَها الذي رأى ، ومضى لحاجته ، فلما كان في الوِرْد الثاني قالت : ياأبا فلان ، هل لك أن أكفيك السَّقْيُ وتودع اليوم فإني قد أشفقتُ عليك؟ قال : نعم إن شئتِ ، فأقام في المنزل ، فانطلقت تسقي وتحيَّنَتْ منه غفلة فأخذت العَصَا ثم أقبلت حتى تفلقَ بها رأسَه فشجَّتْه ، فقال : ويلك ! مالك؟ وما دهاك؟ قالت : وما دهاني يا فاسق؟ أين المرأة التي رأيتُهَا معك تعانقها؟ فقال : لا ، والله ما كانت عندي امرأة ، وما عانَقْتُ اليومَ امرأة ، قالت : بلى أنا نظرت إليها بعيني وأنا على الماء ، فتحالَفَا فلما أكثرت قال : إن تكوني صادقة فإن ماءكم هذا ماء عناق .

يضرب مثلا في الدواهي ، قاله أبو عمرو وروى غيره : عَنَاق بفتح العين ، وقال :

العَنَاق والعَنَاقة الخيبةُ ، وأنشد :

سَـــرَى لَـــكَ بالْعَنَاقَـــة مِنْ سُعَـــاد   خَيَـــالٌ فَاجْتَنَـــي ثَمَـــرَ الْفُـــؤَاد

وهما مستعار للخيبة والأمر لقيت منه أُذنَىْ عَنَاق ، لأنهما مسودَّانِ ولا يفارقهما السواد .

عِنْدَ الصَّبَاح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى

قال المفضل : إن أول مَنْ قال ذلك خالد بن الوليد لما بَعَثَ إليه أبو بكر رضي الله عنهما وهو باليمامة : أن سِرْ إلى العراق ، فأرادَ سُلوكَ المَفازة ، فقال له رافع الطائى : قد سلكتها في الجاهلية ، وهى خِمسٌ للإبل الواردة ، ولا أظنك تقدرُ عليها إلا أن تحمل من الماء ، ثم سَقَاها الماء حتى رَويت ، ثم كتبَها وكَعَم أفواها ، ثم سلك المَفَازة حتى إذا مضى يومان وخاف العطَشَ على الناس والخيل ، وخشى أن يذهب ما في بطونه الإبل نحَرَ الإبلَ واستخرج ما في بطونها من الماء ، ومضى ، فلما كان في الليلة الرابعة قال رافع : «انْظُرُوا هل تَرَوْنَ سِدْرا» عظاماً؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناسُ فرأوا السِّدْر ، فأخبروه ، فكبَّر ، وكَبَّر الناس ، ثم هجموا على الماء ، فقال خالد :

لِلّـــــه دَرُّ رَافِـــــع أَنَّـــــي اهْتَـدَى   فَـــوَّزَ مِـــن قُرَاقِـــر إلـــى سُـــوَى
خِمْســـاً إذا ســـار بـــه الجيشُ بَكَى   مـــا سَارَهَـــا من قبله إنْسٌ يُـرَى
عِنْدَ الصَّبَـــاح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّـــرَى   وَتَنْجَلِـــي عَنهُمُ غَيَابَاتُ الْكَـــرَى

يضرب للرجلَ يحتمل الَشَّقةَ رَجَاءَ الراحة

عِنْدَ جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليقِينُ

قال هشام بن الكلبي : كان من حديثه أن حُصَيْن بن عَمْرو بن مُعَاوية بن كلاب ، خرج ومعه رجل من جُهَيَنة يقال له : الأخْنَس بن كعب ، وكان الأخنس قد أَحدثَ في قومه حَدَثاً ، فخرج هارباً ، فلقيه الحُصَيْنُ فقال له : مَن أنت ثكلتك أمك؟ فقال له الأخنس : بل مَن أنت ثكلتك أمك ، فردد هذا القول حتى قال الأخنس بن كعب ، فأخبرني مَن أنت وإلاَّ أنقذتُ قلبك بهذا السنان ، فقال له الحصين : أنا الحصين ابن عمرو الكلابي ، ويقال : بل هو الحصين بن سبيع الغطفاني ، فقال له الأخنس : فما الذي تريد؟ قال خرجت لما يخرج له الفتْيَانُ ، قال الأخنس : وأنا خرجتُ لمثل ذلك ، فقال له الحصين : هل لك أن نتعاقَدَ أن لا نلقى أحداً من

عشيرتك أو عشيرتي إلا سلبناه؟ قال : نعم ، فتعاقدا على ذلك وكلاهما فاتكٌ يَحْذَر صاحبه ، فلقيا رجلا فسلَباه ، فقال لهما : لكما أن تردَّا على بعض ما أخذتما منى وأدلكما على مغنم؟ قالا : نعم ، فقال : هذا رجل من لخْم قد قدم من عند بعض الملوك بمغنم كثير ، وهو خَلْفي في موضع كذا وكذا ، فردَّا عليه بعضَ ماله وطلبا اللَّخْميَّ فوجَدَاه نازلا في ظل شجرة ، وقُدَّامه طعام وشراب ، فَحَيَّيَاه وحَيَّاهما ، وعرض عليهما الطعام ، فكره كل واحد أن ينزل قبل صاحبه فيفتك به ، فنزلا جميعاً فأكلا وشربا مع اللخميِّ يتشحَّطُ في دمه ، فقال الجهني - وهو وسَلَّ سيفه لإن سيف صاحبه كان مَسلُولا : وَيْحَكَ فتكتَ برجل قد تحرَّمْنَا بطعامه وشرابه خرجْنَا ، فشربا ساعةً وتحدثا ، ثم إن الحصين قال : يا أخا جهينة أتدري ما صعلة وما صعل؟ قال الجهني : هذا يوم شُرْب وأكل ، فسكت الحصين ، حتى إذا ظن أن الجهنى قد نسى ما يُرَاد به ، قال : يا أخا جهينة ، هل أنت للطير زاجر؟ قال : وما ذاك؟ قال : ما تقول هذه العُقَاب الكاسر ، قال الجهني : وأين تراها؟ قال : هي ذه ، وتطاوَلَ ورفع رأسه إلى السماء ، فوضع الجهني بادرةَ السيف في نَحْره ، فقال : أنا الزاجر والناحرُ ، واحتوى على مَتَاعه ومتاع اللخمي ، وانصرف راجعاً إلى قومه ، فمر ببطنين من قيس يقال لهما : مراح وأنمار ، فإذا هو بامرأة تَنْشُدُ الحصينَ ابن سبيع ، فقال لهما ، من أنت؟ قالت أنا صخرة امرأة الحصين ، قال أنا قتلته ، فقالت : كذبت ما مثْلُك يقتل مثله ، أما لو لم يكن الحي خلواً ما تكلمتَ بهذا ، فانصرف إلى قومه فأصلحَ أمرهم ثم جاءهم ، فوقف حيث يسمعهم ، وقال :

وكـم مـن ضَيْغـم وَرد هَمُـوس ... أبـي شِبْلَيْـن مَسْكَنُـهُ العَرِيـنُ
عَـلَوْتُ بَيَـاضَ مَفْرِقـه بعَضْبٍ ... فأضْحـى فـي الفَلاة له سُكُـونُ
وَضْحَـتْ عِرْسُـه ولَهـاً عليـه ... بُعَيْـدَ هُـدُوءِ ليلتهـا رَنِـينُ
وكَـمْ مـن فـارس لا تَزْدَرِيـه ... إذا شَخَصَـتْ لَموقعـه العُيُـونُ
كصخـرة إذا تسائـلُ فـي مَرَاحٍ ... وأنْمَـار وعلمهُمَـا ظُنُـونُ
تُسَائـلُ عـن حُصَيْـن كُلَّ رَكْبٍ ... وعنْـدَ جُهَيْنَـةَ الخَبَـرُ اليَقِـينُ
فَمَـنْ يَـكُ سائلاً عَنْهُ فَعنْـدِى ... لصَاحبـه البَيَـانُ المُسْتَبِـينُ
جُهَيْنَـةُ مَعْشَـرِي وَهُـمُ مُلُـوكٌ ... إذَا طَلَبُـوا المَعَالِـيَ لـم يَهوُنُـوا

قال الأصمعي وابن الأعرابي : هو جُفَينة - بالفاء - وكان عنده خبر رجل مقتول ، وفيه يقول الشاعر :

تسائل عن أبيها كل ركــب وعند جُفَيْنةَ الخَبَرُ اليقـــنُ

قال : فسألوا حفينة ، بالحاء المهملة

يضرب في معرفة الشيء حقيقةً .

العَيْرُ أَوْقَى لِدَمِه

يضرب للموصوف بالحذر . وذلك أنهُ ليس شَيء من الصيد يحْذَر حَذَرَ العير إذا طلب .

ويقَال : هذا المثل لزرقاء اليمامة لما نظرت إلى الجيش ، وكان كل فارس منهم قد تناول غُصْنَاً من شجرة يستتر به ، فلما نظرت إليه قَالت : لَقَد مَشَى الشَجَرُ ، ولقد جائتكم حمير ، فكذبوها ، ونظرت إلي عَيْرٍ قد نَفَر من الجيش ، فَقَالت : العير أوقى لدمه ، من راعٍ في غَنَمِه ، فذهبت مَثَلاً .

عَلَى أَهْلِهَا تَجْنى بَرَاقِشُ

كانت بَرَاقشُ كلبةً لقوم من العرب ، فأغير عليهم ، فهَرَبُوا ومعهم بَرَاقش ، فاتبع القومُ آثارَهُم بنُبَاح بَرَاقش ، فهَجموا عليهم فاصطلموهم ، قَال حمزة بن بيض :

لــم تكــن عــن جنايــة لحَقَتْنـــي لا يَســـاري ولا يَمينـــي رَمَتْنـــي

بـــل جَنَاهـــا أخٌ علـــيَّ كَريـــمٌ وعلــى أهلهــــا بَرَاقِشُ تَجْنـــي

وروى يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء قَال : إن براقش امرَأة كانت لبعض الملوك ، فسافر الملك واستخلفها ، وكان لهم موضع إذا فَزعوا دخَّنُوا فيه ، فإذا أبصره الجند اجتمعوا ، وإن جواريها عبثن ليلة فَدخَّنَّ فجاء الجند ، فلما اجتمعوا قَال لها نصحاؤها : إنك إن رَدّدْتهم ولم تستعمليهم في شَيء ودخّنتهم مرة أخرى لم يأتك منهم أحد ، فأمرتهم فبنوا بناء دون دارها ، فلما جاء الملك ، سَألَ عنْ البناء فأَخبَروه بالقصة ، فَقَال : على أهْلِها تَجنِي بَرَاقش ، فصارت مَثَلاً وقَال الشرقي بن القطَامى : براقش امرَأة لقمان بن عاد ، وكان لقمان من بني ضد ، وكانوا لا يأكلون لحوم الإبل ، فأصاب من براقش غلاما ، فنزل مع لقمان في بني أبيها ، فأولموا ونَحَرُوا الجزر ، فراح بن براقش إلى أبيه بعرقَ من جزور ، فأكله لقمان ، فَقَال : يا بني ما هذا؟ فما تَعَرَّقْتُ قط طيباً مثله ، فَقَال : جذور نَحَرَها أخوالي فَقَال : وإن لحوم الإبل في الطيب كما أرى؟ فَقَالت براقش : جَمِّلْنَا واجْتْمِلْ ، فأرسلتها مَثَلاً ، والجميل الشحْمُ

المُذَاب ، ومعنى جَمِّلْنا أي أطْعِمْنَا الجميل ، واجْتَملْ : أي أُطْعِم أنت نفُسك منه ، وكانت براقش أكثر قومها إبلاً فأقبل لقمان على إبلها فأسرع فيها وفي إبل قومها ، وفَعَلَ ذلك بنو أبيه لما أكلوا لحوم الجزور ، فقيل : على أهلها تجنى براقش يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره إليه .

عَجِلَتْ الكَلْبَةُ أنْ تَلِدَ ذَا عَيْنَيْنَ

وذلك أن الكبةُ تُسرع الولادة حتى تأتي بولد لا يبصر ، ولو تأخر ولادها لخرج الولد وقد فتح يضرب للمستَعْجِل عن أن يستتِّم حاجته .

عِشْ رَجَباً تَرَ عَجَباً

قَالوا من حديثه : إن الحارث بن عُبَاد بن قيس بن ثَعْلَبة طلَّق بَعض نسائه من بعد ما أسنَّ وخَرِف ، فخَلَفَ عليها بعده رجل كانت تُظْهر له من الوَجْد به مالم تكن تظهر للحارث ، فلقي زوجُها الحارثَ فأخبره بمنزلته منها ، فَقَال الحارث : عِشْ رَجَباً تَرَ عَجَباً ، فأرسلها مَثَلاً . قَال أبو الحسن الطوسي : يريد عِشْ رَجَباً بعد رجب ، فحذف ، وقيل : رجب كناية عن السَّنَة لأنه يحدث بحدوثها ، ومن نَظَر في سنة واحدة ورأى تغير فصولها قاس الدهر كله عليها ، فكأنه قَال : عِشْ دهراً تَرَ عجائب .

عَبِيدُ العَصا

قَال المفضل : أول من قيل لهم ذلك بنو أسد ، وكان سبب ذلك أن أبناً لمعاوية بن عمرو حَجَّ ففُقد ، فاتُّهم به رجل من بني أسد يُقَال له حبال بن نصر بن غاضرة ، فأخبر بذلك الحارث ، فأقبل حتى وردَ تِهامة أيام الحج وبنو أسد بها فطلبهم ، فهربوا منه ، فأمر منادياً ينادي : مَنْ آوى أسديا فَدمُه جُبَار ، فَقَالت بنو أسد : إنما قتل صاحبهم حبال بن نصر وغاضرةُ منهم من السكون فانطلقُوا بنا حتى نخبرهُ ، فإن قتل الرجل فهو منهم ، وإن عفا فهو أعلم ، فخرجوا بحبال إليه ، فَقَالوا : قد أتيناك بطلَبتك فأخبره حبال بمقَالتهم ، فعفا عنه وأمر بقتلهم ، فَقَالت له امرَأة من كِنْدَةَ من بني وهب بن الحارث يُقَال لها عُصَيَّة وأخوالها بنو أسد : أَبَيْتَ اللَّعنَ هَبْهم لي فإنهم أخوالي قَال : هم لك ، فأعتقيهم ، فَقَالوا إنا لا نأمن إلا بأمان الملك فأعطى كلَّ واحد منهم عصاً ، وبنو أَسَد يومئذٍ قليل ، فأقبلوا إلى تهامة ومع كل رجل منهم عصا ، فلم يزالوا

بتهامة حتى هلك الحارث ، فأخرجتهم بنو كنانة من مكة ، وسموا «عَبِيدَ العصا» بعُصَيَّةَ التي أعتقتهم وبالِعصِيِّ التي أخذوها ، قَالالحارث بن ربيعة بن عامر يهجو رجلاً منهم :

اشْدُدْ يَدَيْكَ عَلَى العصا ؛ إن العصـــا جُعِلَـــتْ أمارَتَكُـــمْ بِكُـــل سَبِيلِ
إن العَصَا إنْ تُلْقِهَا يـــا ابْـــنَ اسْتِهَـــا تُلْفَـــى كفَقْـــعٍ بالفَـــلاَة محيـــلِ

وقَال عتبة بن الوعل لأبي جهمة الأسدي :

أعَتِـــيقَ كِنْـــدَةَ كَيْفَ تَفْخَرُ سَـــادراً وَأَبُـــوكَ عَـــنْ مجد الكِرَام بمَعْـزِلِ
إن العصـــا ، لادَرَّ دَرُّكَ ، أحْـــــرَزَتْ أشْيَـــاخَ قَوْمِكَ في الزمـــاَن الأوَّلِ
فأشْكُـــرُ لِكِنْـــدَةَ مَا بَقِيـــتَ فَعَالَهُـمْ ولتكـــفرنَّ اللـــه إن لَـــمْ تَفْعَـــلِ

وهذا المثل يضرب للذليل الذي نفعه في ضره وعزُّه في إهانته .

أَعْرَضَ ثَوْبُ المِلْبَسِ

قَال أبو عمرو : كان أبو حاضر الأسدي أسيد بن عمرو بن تميم من أجمل الناس وأكملهم منظراً ، فرآه عبد الله بن صَفْوَان بن أمية الجُمَحِيُّ يطوف بالبيت ، فراعَهُ جماله ، فَقَال الغلام له : وَيْحَكَ أدنني من الرجل ، فإني أخاله امرأ من قريش العراق ، فأدناه منه ، وكان عبد الله أعرج ، فَقَال ممن الرجل؟ فَقَال أبو حاضر : أنا امرؤ من نِزَار ، فَقَال عبدُ الله (أعرض ثَوْبُ الملبس ، نزار كثير ، أيهم أنت؟) قَال : امرؤ من مضر ، قَال : مضر كثير ، أيهم أنت؟ قَال أحد بني عمرو بني تميم ثم أحد بني أسيد بن عمرو ، وأنا أبو حاضر ، فَقَال ابن صَفْوان : أفه لك عُهَيْرَةَ تَيَّاس ، والعُهَيْرة : تصغير العُهر وهو الزنا . قلت : لعله أدخل الهاء في عُهَيْرَة للمبالغة ، أو إرادة القبيلة ، ونصبه على الزم ، أو أراد يا عهيرة تياس .

قَال أبو عمرو : وتزعم العربُ أن بني أسد تيَّاسُو العرب ، وقَال الفرذدقَ في أبي حاضر وبعضُهم يرويها لزياد الأعجم ، وكان أبو حاضر أحد المشهورين بالزنا :

أبا حاضـــر مَابـــالُ بُرْدَيْكَ أصْبَحَـــا علـــى ابنـــة فَـــرُّوج رداّءً ومَئْـــزَرَا
أبا حاضَـــرٍ مـــن يَـــزْنِ يَظْهَرْ زِنَـــاؤُهُ ومَنْ يَشْرَبْ الصَّهْبَاء يُصْبِحُ مُسْكِرَا

وبنت فروجٍ اسمها حمامة ، وكان أبو حاضر يُتَّهم بها .

عَرَفَ النَّخْلُ أَهْلَهُ

أصله أن عبد القيس وشَنَّ بن أفْصَى لما ساروا يطلبون المتَّسَع والريف وبعثوا بالرُّوَّاد والعيون ، فبلغوا هَجَر وأرض البحرين ، ومياها ظاهرة وقرى عامرة ونخلاً وريفاً وداراً أفضل وأريَفَ من البلاد التي هم بها ؛ ساروا إلى البحرين وضاموا مَنْ بها من إياد ولأزد وشَدُّوا خيولهم بكرانيف النخل ، فَقَالت إياد : عَرَفَ النخلُ أهْلَه ، فذهبت مثلاً .

يضرب عند وكول الأمر إلى أهله

عِنْدَ النَّوَى يَكْذِبُكَ الصَّادِقُ

قَال المفضل : إن رجلا كان له عبد لم يكذب قَطُّ ، فبايَعَهُ رجل ليكذبنه ، أي يحملنه على الكذب ، وجعلا الخَطَر بينهما أهلهما وما لهما ، فَقَال الرجل لسيد العبد : دَعْه يَبِيت عندي الليلَةَ ، ففعل ، فأطعمه الرجلُ لحمَ حُوَار وسَقَاه لبناً حليباً ، وكان في سقاء حازر ، فلما أصبحوا تحمَّلُوا وقَال للعبد : الحَق بأهلك ، فلما تَوَارى عنهم نزلوا ، فأتى العبدُ سيدَه ، فسأله فَقَال : أطعموني لحماً لاغَثًّا ولا سَميناً وسَقَوْني لبناً لا مَخْضَاً ولا حقيناً ، وتركتهم قد ظعنوا فاستقلُّوا ، ولا أعلم أساروا بعدُ أو حلُّوا ، وفي النوى يكذبك الصادق ، فأرسلها مَثَلاً ، وأحرز مولاه مالَ الذي بايعه وأهله .

يضرب للصَّدُوقَ يحتاج إلى أن يكذب كذبة . وقَال أبو سعيد : يضرب للذي ينتهي إلى غاية ما يعلم ، ويكف عما وراء ذلك ، لا يزيد عليه شيئاً .

ويروى «وفي النوى ما يكذبك» «وما» صلة ، والتقدير وفي نَوَاهم يكذب الصادقَ إن أخبر أن آخر عهدي بهم كان هذا .

عَلَى الخَبِيرِ سَقَطْتَ

يُقَال : إن المثل لمالك بن جُبَيـر العامري وكان من حكماء العرب ، وتمثل به الفرزدقَ[1] للحسين بن علي رضي الله عنهما حين أقبل يريد العراق ، فلقيه وهو يريد

(١) الفرزدق شاعر من شعراء العصر الأموي واسمه همام بن غالب بن صعصعة الدارمي التميمي وكنيته ابو فراس وسمي الفرزدق لضخامة وتجهم وجهه ومعناها الرغيف ، ولد الفرزدق في كاظمة لبني تميم ، اشتهر بشعر المدح والفخر وشعر الهجاء .

الحجاز ، فَقَال له الحسين رضي الله عنه : ما وراءك؟ قَال : على الخبير سَقَطْت ، قلوب الناس معك ، وسيوفُهم مع بني أمية ، والأمر ينزل من السماء ، فَقَال الحسين رضي الله عنه : صَدَقْتَنِي .

العَجَبُ كُلُّ العَجَب، بيْنَ جُمَادى ورَجَبَ

أول من قَال ذلك عاصم بن المُقْشَعِرِّ الضبى وكان أخوه أَبَيْدَةُ علقَ امرأة الخُنَيْفسُ بن خَشْرَم الشَيباني وكان الخنيفس أَغْيَرَ أهل زمانه وأشجَعَهم ، وكان أُبَيْدَةُ عزيزاً مَنيعاً ، فبلغ الخنيفس أن أُبَيْدَةَ مضى إلى امرأته ، فركب الخنيفسُ فرسه وأخذ رمحه وانطلقَ يرصُدُ أُبيدة ، وأقبل أبيدة وقد قضى حاجتَه راجعاً إلى قومه ، وهو يقول :

ألا إنَّ الخُنَيْفَسَ فَاعْلَمُوهُ كما سمَّاهُ والدُهُ اللَّعينُ
بَهيمُ اللَّون مُحْتقرٌ ضَئيلٌ لئيماتٌ خلائقهُ ، ضَنينُ
أيوعدُني الخُنَيْفَسُ منْ بَعَيد ولَمَّا يَنْقَطعْ منْهُ الوَتينُ
لَهَوْتُ بجارَتَيه وَحادَ عَنِّي وَيزْعُمُ أَنَّهُ أَنَفٌ شَنُونُ

قَال : فشدَّ عليه الخُنَيفَسُ ، فَقَال أبيدة : أذكِّرُكَ حرمةَ خَشْرم ، فَقَال وحُرْمة خَشْرَم لأقتلنك ، قَال : فأمْهلْني حتى أستلئم قَال : أو يستلئم الحاسر؟ فقتله ، وقَال :

أيَا ابْنَ المُقْشَعِرِّ لَقيْتَ لَيْثاً لَهُ فِي جَوف أَيكَته عَرينُ
تقولُ صَدَدْتُ عَنْكَ خناً وجُبْناً وإنَّكَ مَاجدٌ بَطَلٌ مَتينُ
وَإنَّكَ قَد لَهَوتَ بجارَتَينَا فهَاكَ أُبَيْدُ لاَ قَاكَ القَرينُ
سَتَعْلَمُ أَيُّنا أَحْمَى ذماراً إذا قَصُرَتْ شمَالُكَ واليَمينُ
لَهَوْتَ بها فقَدْ بُدِّلْتَ قَبْراً وَنَائحَةً عَلَيْكَ لَهَا رَنينُ

قَال : فلماً بَلَغ نَعيه أخاه عاصماً لبس أطمَاراً من الثياب ، وركب فرسه ، وتقلَّد سيفه ، وذلك في آخر يوم من جُمادى الآخرة وبادر قَتْلَه قبل دخول رجب ؛ لأنهم كانوا لا يقتلون في رجب أحَداً ، وانطلقَ حتى وقف بفناء خباء الخُنَيفس ، فنادى : يا ابن خَشْرَم ، أَغث المُرْهقَ فطالما أَغَثتَ ، فَقَال : ما ذاك؟ قَال : رجل من بني ضبة ، غصَبَ أخى امرأته فشدَّ عليه فقتله ، وقد عجزت عنه فأخذ الخنيفسُ رمحه وخرج معه ، فانطلقا فلما عَلمَ عَاصم أنهُ قَد بَعَدَ عَن قَومه داناه حتى قارنه ثم قَنَّعه بالسيف فأطار رأسه ، وقَال : العجَبُ كل العجب بين جمادى ورجب ، فأرسلها مَثَلاً ، ورجع إلى قومه

أَعْرِفُ ضَرِطِى بِهِلاَلٍ

قَال يونس بن حبيب : زعموا أن رُقية بنت جُشَم بن معاوية وَلَدَت نميراً وهلالا وسُواءة ، ثم اعتاطت ، فأتت كاهنة بذي الخلصة فأرتها بطنها ، وقَالت : إني قد وَلَدْتْ ثم اعْتَطْتُ ، فنظرتْ إليها ومَسَّت بطنها ، وقَالت : رب قبائل فَرِق ، ومجالس حلق ، وظعن خرق ، في بَطنِك زق ، فلما مخضت بربيعة بن عامر ، قَالت : إني أعرف ضَرِطى بهلال ، أي هو غلام ، كما أن هلالا كان غلاما . يضرب هذا المثل حين يحدثك صاحبك بخبر فتقول : ما كان من هذا شَيء ، فيقول صاحبك : بلى ، إني أعرفُ بعضَ الخبر ببعض ، كما قَالت القائلة : أعرف ضَرِطى بهلال .

العَوْدُ أَحْمَدُ

يجوز أن يكون «أحمد» أفعل من الحامد ، يعني أنه إذا ابتدأ العُرْفَ جَلب الحمد إلى نفسه ، فإذا عاد كان أحمد له ، أي أكسب للحمد له ، ويجوز أن يكون أَفعَلَ من المفعول ، يعني أن الابتداء محمود والعود أحقَ بأن يحمد منه .

وأول من قَال ذلك خدَاش بن حابس التميمى ، وكان خطب فتاة من بني ذَهل ثُمَ مِنْ بَني سَدُوس يُقَال لها الرَّباب ، وهام بها زماناً ، ثم أقبل يخطبها ، وكان أبواها يتمنَّعان لجمالها وَميسَمِها ، فردَّا خداشاً ، فأضرب عنها زماناً ، ثم أقبل ذاتَ ليلةٍ راكباً ، فانتهى إلى محلتهم وهو يتغنى ويقول :

أَلا لَيْتَ شعْري يا رَبَابُ مَتَى أرى ... لَنَا منك نُجْحاً أوْشفاء فأشْتَفي
فقد طالما عَنَّيْتني وَرَدَدْتني ... وأنت صَفيِّي دون مَنْ كُنْتُ أَصْطَفي
لَحى الله مَنْ تسمو إلى المال نَفْسُهُ ... إذا كان ذَا فَضْل به لَيْسَ يَكْتَفي
فَيُنْكِح ذَا مال دَميماً مُلَوَّماً ... وَيَتْرُك حُرَّاً مثله لَيْسَ يَصْطَفي

فعرفت الرباب منطقه ، وجعلت تتسمَّع إليه ، وحفظت الشعر ، وأرسلت إلى الركب الذين فيهم خداش أن انزلوا بنا الليلة ، فنزلوا ، وبعثت إلى خداش أن قد عرفت حاجتك فاغْدُ على أبي خاطباً ، ورجعت إلى أُمُها ، فَقَالت : يا أُمَّه ، هل أنكح إلا مَنْ أهوى وألتحف إلا من أرضى؟ قَالت : لا ، فما ذاك؟ قَالت : فأنكحيني خداشاً ، قَالت : وما يدعوك إلى ذلك مع قلة ماله؟ قَالت : إذا جمع المالَ السيءُ الفَعَال فقبحاً للمال ، فأخبرت الأم أباها بذلك ، فَقَال : ألم نكن صَرَفْناه عنا ، فما بدا له؟ فلما أصبحوا غدا عليهم خِداش فسلَّم وقَال : العَوْدُ أحمد ، والمرء يرشد ، والورد

يحمد ، فأرسلها مَثَلاً . ويقَال : أول من قَال ذلك وأخذ الناسُ منه مالكُ بن نُوَيرة حين قَال :

جَزَيْنَا بني شَيْبَان أمس بقَرْضِهِم   وَعُدْنَا بمثل البَدْءِ والعَوْدُ أَحْمَدُ

فَقَال الناس : العود أحمد

أَعْطِنِي حَظِيَّ مِنْ شُوَايَةَ الرَّضْفِ

قَال يونس : هذا مثل قَالته امرَأة كانت غريرة ، وكان لها زوج يكرمها في المطعم والملبس ، وكانت قد أوتيت حظاً من جمال فَحُسِدتْ على ذلك ، فابتدرت لها امرَأة لتَشينها ، فسألتها عن صنيع زوجها ، فأخبرتها بإحسانه إليها ، فلما سمعت ذلك قَالَت ، وما إحسانه ، وقد منعك حظك من شُواية الرضف؟ قَالت : وما شُوَاية الرضف؟ قَالَت : هي من أطيب الطعام ، وقد استأثر بها عليك فاطْلُبيها منه ، فأحبَّتْ قولها لغَرارَتها ، وظنت أنها قد نصحت لها ، فتغيرت على زوجها ، فلما أتاها وجدها على غير ما كان يعهدها ، فسألها ما بالها ، قَالت : يا ابن عمٍّ تزعم أني عليك كريمة ، وأنَّ لي عندك مزية ، كيف وقد حرمتني شُوَاية الرَّضْف؟ بَلِّغْني حظي منها فلما سمع مقَالتها عرف أنها قد دُهِيَتْ ، فأصاخ وكره أن يمنعها فترى أنه إنما منعها إياها ضَنّاً بها ، فَقَال : نعم وكرامة ، أنا فاعل الليلة إذا راح الرعاء ، فلما راحوا وَفَرَغُوا من مهنهم وَرَضَفُوا غَبُوقهم دعاها فاحتمل منها رضفة فوضعها في كفها ، وقد كانت التي أوردتها قَالت لها : إنك ستجدين لها سخنا في بطن كفك فلا تطرحيها فتفسد ، ولكن عَاقِبِي بين كفيك ولسانك ، فلما وضعها في كفها أحرقتها فلم تَرْمِ بها ، فاستعانت بكفها الآخَرى فأحرقتها ، فاستعانت بلسانها تبردها به فاحترق ، فمجلت يديها ، ونفطت لسانها ، وخاب مطلبها ، فَقَالت : قد كان عيٌّ وشيٌّ يَصْرِيني عن شر ، فذهبت مَثَلاً . يضرب في الذرابة على العاثر الذي يتكلَّفُ ما قد كُفِيَ .

ومعنى المثل قد كان عجزى مِن الكلام وسكوني يدفع عني هذا الشر ، تَنْدَمُ على ما فَرَطَ منها .

أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ

هو رجل من إياد ، قال أبو عبيدة : باقل رجل من ربيعة ، بلغ من عِيِّه أنه اشترى ظبياً بأحدَ عشَرَ درهماً ، فمر بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبي؟ فمد يده ودلعَ

لسانه يريد أحد عشر ، فَشَرَدَ الظبي وكان تحت إبطه ، قال حميد الأرقط في ضَيْف له أكثر من الطعام حتى منعه ذلك من الكلام :

أَتَانَا وَمَا دَانَاهُ سَحْبَانُ وَائِلِ بَيَاناً وَعلماً بالَّذي هُوَ قَائِلُ
فمَا زَالَ منهُ اللَّقْمُ حتى كَأَنَهُ مِنَ الْعَيِّ لما أن تَكَلَّمَ بَاقِلُ
يَقُولُ وَقَدْ أَلْقَى المَرَسِيَ لِلْقُرِى أَبِنْ لِيَ مَا الحَجَّاجُ بالناس فَاعِلُ
يدلُّ كفّاه ويحدر حلقه إلى الْبَطْنِ ما ضُمَّتْ عليه الأَنَامِلَ
فَقُلْتُ : لَعَمْرِي مَا لِهَذَا طَرَقْتَنَا فَكُلْ وَدَعِ الإرْجَافَ مَا أَنْتَ آكِلُ

أَعَزُّ مِنَ الزَّبَّاءِ

هي امرأة من العماليق ، وأمها من الروم وكانت ملكة الحِيرة تغزو بالجيوش ، وهي التي غزت مارداً والأبلق ، وهما حصانان كانا للسَّمَوأل بن عاديا اليهودي[١] ، وكان ماردا مبنيّاً من حجارة سُود ، والأبلقَ من حجارة سود وبيض ، فاستصعبا عليها ، فَقَالت : تَمَرَّد مارد وعَزَّ الأبلقُ ، فذهبت مَثَلاً ، وقد تقدمت قصتها مع جَذِيمة قَبْل .

أَعْدَى مِنَ الشَّنْفَرَى

هذا من العَدْو ، ومن حديثه – في ما ذكر أبو عمرو الشيباني – أنه خرج هو وتأبَّطَ شراً : وعمرو بن برَّاق فأغارو على بجيلة فوجدوا له رَصَداً على الماء ، فلما مالوا له في جوف الليل قَال لهما تأبط شراً : إن بالماء رَصَداً ، وإني لأسْمَعُ وجيبَ قلوب القوم ، فَقَال : ما تسمع شيئاً ، وما هو إلا قَلْبك يَجِبُ ، فوضع أيديَهُمَا على قلبه وقَال : والله ما يَجِبُ وما كان وَجَّابا ، قَالوا : فلا بُدَّ لنا من ورود الماء ، فخرج الشنفرى ، فلما رآه الرصَدُ عَرَفُوه فتركوه حتى شرب من الماء ، ورَجَع إلى أصحابه فَقَال : والله ما بالماء أحد ، ولقد شربت من الحوض ، فَقَال تأبط شراً للشنفرى : بلى ، ولكن القوم لا يريدونك ، وإنما يريدونني ، ثم ذهب ابْنُ بَرَّاقَ فشرب ورجع ولم يَعْرِضوا له ، فَقَال تأبط شراً للشنفرى : إذا أنا كرعْتُ في الحوض ، فإن القوم سيشدون علي فيأسرونني ، فاذْهَبْ كأنك تهرب ، ثم كُنْ في أصل ذلك القَرْنِ فإذا سمعتَنِي أقول : خذوا خذوا ،

(١) السموأل بن غريض بن عادياء بن رفاعة بن الحارث الأزدي . شاعر جاهلي يهودي عربي ، ذو بيان وبلاغة ، كان واحدا من أكثر الشعراء شهرة في وقته .

فتعال فأطْلقْني ، وقَال لابن براق : إني سآمُرُكَ أن تستأسر للقوم ، فلا تَنْأَ عنهم ولا تمكنهم من نفسك ، ثم مر تأبط شراً حتى وَرَدَ الماء فحين كَرَعَ في الحوض شَدُّوا عليه فأخذوه وكتفوه بوتر ، وطار الشنفرى ، فأتى حيث أمره ، وانحاز ابنُ براقَ حيث يَرَوْنه ، فَقَال تأبط شرا : يا معشر بَجيلة ، هل لكم في خير أن تُيَاسرونا في الفِدَاء ويستأسر لكم ابنُ براق؟ قَالوا : نعم ، فَقَال : ويلك يا بن براقَ أما الشنفرى فقد طار ، وهو يصطلى نارَ بنى فلان ، وقد علمت مابيننَا وبين أهلك ، فهل لك أن تستأسر ويُيَاسرونا في الفداء؟ قَال : لا والله حتى أَرُوزَ نفسي شَوْطاً أَوْشوطين فجعلَ يَسْتَنُّ نحو الجبل ويرجع حتى إذا رأوا أنه قد أَعْيى طَمعُوا فيه فاتبعوه ونادى تأبط شراً : خذوا خذوا ، فخالف الشنفرى إلى تأبط شراً فقطعَ وَثاقه مال إلى عِنْده فناداهم تأبط شراً : يا معشر بجيلة أعجبكم عَدْوُ ابن براق؟ أما والله لأعْدوَنَّ لكم عدوا ينسيكم عَدْوَّه ، ثم احضروا ثلاثتهم ، فَنَجوا وفي ذلك يقول تأبط شراً :

لَيلَةَ صاحوا وَأَغْرَوا بي سرَعَهمُ ... بلعبيتين لدى مَعْدَى ابن بَرَّاق
كأنَّما حَثْحَثُوا حُصَّاً قَوَدمُهُ ... أوْأمَّ خَشْف بذى شَثّ وَطبَّاقَ
لا شَيْءَ أَسْرَعُ منيَّ غَيْرُ ذَي عذر ... أوْذي جَنَاح بجَنْبِ الَّرِيْدِ خَفَاقِ

فكل هؤلاء الثلاثة كانوا عدَّئين ، ولم يَسرِ المثل إلا بالشَّنفرى

غُدَّةٌ كغُدَّةِ البعَيرِ ومَوْتٌ في بيْت سَلُولِيَّة

ويروى «أغدة وموتاً» نصبا على المصدر ، أي أُؤْغَدُّ إغْدَاداً وأموت موتاً ، يُقَال «أَغَدَّ البعيرُ» إذا صار ذا غُدَّة ، وهي طاعونة ، ومن روى بالرفع فتقديره : غدتى كغدة البعير وموتى موت في بيت سلولية ، وسلول عندهم أقلُّ العرب وأذُّلهم وقَال :

إلى اللهِ أَشْكُو أنَّني بتُّ طَاهراً ... فَجَاء سَلُولي فبَالَ عَلى رِجْلي
فقلت : اقطعُوهَا بارَكَ اللهِ فيكُمُ ... فإنِّي كَرِيمٌ غيرُ مُدْخلهَا رَحْلي

وهذا من فول عامر بن الطُّفَيْل ، قَدمَ على النبي ﷺ وقدم معه أَرْبَدُ بن قيس أخو لَبيد ابن ربيعة العامري الشاعر لأمه ، فَقَال رجل : يا رسول الله هذا عامر بن الطُّفَيل قد أقبل نحوك ، فَقَال دعْهُ فإن يُرد الله تعالى به خيراً يَهْده ، فأقبل حتى قام عليه ، فَقَال : يا محمد مالي إن أسلمت؟ قَال : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ، قَال : تجعل لي الأمر بعدك ، قَال : لا ، ليس ذاك إلي ، إنما ذاك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء ، قَال : فتجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَرْ ، قَال : لا ، قَال : فماذا تجعل

لي؟ قَال ﷺ : أجعلُ لك أَعنَّةَ الخيل تغزو عليها قَال : أو ليس ذلك إليَّ اليومَ؟ وكان أوصى إلى أربد بن قيس إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خَلْفه فاضربه بالسيف ، فجعل عامر يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه ، فدار أربد خلف النبي ﷺ ليضربه ، فاخترط من سيفه شبرا ، ثم حبَسَه الله تعالى فلم يقدر على سَلِّه ، وجعل عامر يُومئ إليه ، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع بسيفه ، فَقَال ﷺ : اللهم اكفِنيهِمَا بما شئت ، فأرسل الله تعالى على أربد صاعقةً في يوم صائف صاح فأحرقَته ، وولى عامر هارباً وقَال : يا محمدُ دعوتَ رَبَكَ فقتل أربد ، والله لأملأنَّهَا عليك خيْلاً جُرْداً وفتياناً مُرْداً ، فَقَال رسول الله ﷺ : يمنعُكَ الله تعالى من ذلك وابنا قَيْلَةَ - يريد الأوس والخزرج - فنزل عامر ببيت امرَأة سَلُولِّية ، فلما أصبح ضَمَّ عليه سلاحَهُ وخرج وهو يقول : واللات لئن أصْحَرَ محمد إلى وصاحبه - يعني ملك الموت - لأنفذنَّهما برمحي ، فلما رأى الله تعالى ذلك منه أرسل ملكاً فَلَطَمه بجناحه ، فأذرأه في التراب وخرجت على ركبته غُدَّة في الوقت عظيمة ، فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول : غُدَّة كغُدَّةِ البعير وموت في بيت سلولية ، ثم مات على ظهر فرسه .

يضرب في خَصْلَتين إحداهما شر من الأخرى .

فِي الصَّيفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ

ويروى «الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللبن» والتاء من «ضيعت» مكسور في كل حال إذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثنان والجمع ؛ لأن المَثلَ في الأصل خوطبت به امرَأة ، وهي دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زرارة كانت تحت عمرو بن عُدَاس ، وكان شيخاً كبيراً فَفَرِكَتْهُ (فركته : كرهته) فطلقها ، ثم تزوجها فتى جميل الوجه ، أجْدَبَتْ فبعثت إلى عمرو تطلب منه حَلُوبة ، فَقَال عمرو «في الصيف ضيعت اللبن» فلما رجع الرسُولُ وقَال لها ما قَال عمرو ضربَتْ يَدَها على منكب زوجها ، وقَالت «هذا ومَذْقُه خَيرٌ» تعني أن هذا الزوج مع عدم اللبن خيرٌ من عمرو ، فذهبت كلماتها مَثَلاً .

فالأول يضرب لمن يطلب شيئاً قد فَوَّته على نفسه ، والثاني يضرب لمن قَنَع باليسير إذا لم يجد الخطير .

وإنما خص الصيف لأن سؤالها الطلاقَ كان في الصيف ، أو أن الرجل إذا لم يطرق ماشيته في الصيف كان مضيعاً لألبانها عند الحاجة .

فِي بَيتِه يُؤتَى الحَكَمُ

هذا مما زعمت العرب عن ألسُنِ البهائم قَالوا : إن الأرنب التقطتْ ثمرةً ، فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضب فَقَالت الأرنب : يا أبا الحِسْل فَقَال : سميعاً دَعَوْت ، قَالت : أتيناك لنختصم إليك ، قَال : عادلاً حَكَّمْتُما ، قَالت : فاخرج إلينا ، قَال : في بيته يُؤتى الحكم ، قَالت : إني وجدت ثمرة ، قَال : حُلْوَة فكُليها ، قَالت : فاخْتَلَسَها الثعلب ، قَال : لنفسه بغَى الخَيْرَ ، قَالت : فَلَطَمْتُه ، قَال : بحقِّك أخَذْت ، قَالت : فَلَطَمَني ، قَال : حُرٌّ انتصر ، قَالت : فاقْضِ بيننا ، قَال : قد قَضَيْتُ ، فذهبت أقواله كلها أمثالاً قلت : ومما يشبه هذا ما حكى أن خالد بن الوليد لما توجَّه من الحجاز إلى أطراف العراقَ دخل عليه عبد المسيح بن عمرو بن نُفَيلَة ، فَقَال له خالد : أين أقصى أثَرِكَ؟ قَال : ظَهْرُ أبي ، قَال : من أين خرجت ، قَالَ : من بطن أمي ، قَال عَلامَ أنت؟ قَال : على الأرض ، قَال : فيمَ أنت؟ قَال : في ثيابي ، قَال : فمن أينَ أقبَلْتَ؟ قَال : من خَلْفي ، قَال : أين تريد؟ قَال : أمامي ، قَال : ابنُ كمْ أنت؟ قَال : ابن رَجُلٍ واحد ، قَال : أتعقل؟ قَال : نعم وأقيِّدُ ، قَال : أحَرْبٌ أنت أم سَلْم؟ قَال : سَلْم ، قَال : فَما بال هذه الحصون؟ قَال : بنيناها لسفيه حتى يجيء حليم فينهاه . ومثل هذا أن عَديَّ بن أرْطَاةَ أتى إياسَ بن مُعاوية قاضيَ البصرة في مجلس حكمه ، وعَديٌّ أمير البصرة ، وكان أعرابيَّ الطبع ، فَقَال لإياس : ياهناه أين أنت؟ قَال : بينك وبين الحائط ، قَال : فاسْمَع مني ، قَال : للاستماع جَلَسْتُ ، قَال : إني تزوجْتُ امرأة ، قَال : بالرِّفَاء والبَنين ، قَال : وشَرَطْتُ لأهلها أن لا أخرجها من بينهم ، قَال : أوْفِ لهم بالشرط ، قَال : فأنا أريد الخروج ، قَال : في حفْظِ الله ، قَال : فاقضِ بيننا ، قَال : قد فعلْتُ ، قَال : فَعَلى مَنْ حكمت؟ قَال : على ابنِ أخي عمك ، قالَ بشهادة مَنْ؟ قَال : بشهادة ابن أختِ خالتك .

في نَظْمِ سَيْفِكَ ما تَرَى يَا لُقَيْمُ

حديثه أن لقمان بن عاد كان إذا اشتدَّ الشتاء وكَلِبَ كان أشدَّ ما يكون ، وله راحلة لا تَرْغُو ولا يُسْمع لها صوت ، فيشدُّها برَحْله ثم يقول للناس حين يكاد البردُ يقتلُهم : ألا من كان غازياً فَلْيَغْزُ ، فلا يلحقَ به أحد ، فلما شبَّ لقيم ابنُ أخته اتَّخذ راحلة مثل راحلته ، فلما نادى لقمان «ألا من كان غازياً فليغز» قَال له لقيم : أَنَا معك إذا شئت ، ثم إنهما سارا ، فأغارا ، فأصابا إبلا ، ثم انصرفا نحو أهلهما ، فنزلا فنحرا ناقةً فَقَال لقمان للقيمٌ :

أتعشِّى أم أعشِّي لك؟ قَال لقيم : أي ذلك شئت ، قَال لقمان : اذهب فَعَشِّها حتى ترى النجم قمَّ رأس ، وحتى ترى الجوزاء كأنها قطار ، وحتى ترى الشِّعْرَى كأنها نار ، فإلا تكن عَشِّيت فقد أنَيْت ، قَال له لقيم : نعم واطْبُخْ أنت لحم جَزُورك حتى ترى الكَرَاديسَ كأنها رؤوسُ رجال صُلْع ، وحتى ترى الضُّلُوع كأنها نساء حَوَاسر ، وحتى ترى الوَذْرَ كأنه قَطاً نَوَافر ، وحتى ترى اللحم كأنه غَطَفان يقول غط غط ، فإلا تكن أنْضَجْتَ فقد أنْهَيْتَ ، ثم انطلقَ في إبله يُعَشيها ، ومكث لقمان يطبخ لحمه ، فلما أظلم لقمان وهو بمكان يُقَال له شَرْجٌ قَطَع سَمُرَ شَرْج فأوقد به النار حتى أنضج لحمه ، ثم حفر دونه فملأه ناراً ، ثم واراها ، فلما أقبل لقيم عَرَفَ المكان وأنكر ذهاب السَّمُر فَقَال : أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجاً لو أنَّ أُسَيْمِراً ، فأرسلها مَثَلاً ، وقد ذكرتُه في حرف الشين ، ووقَعَتْ ناقة من إبله في تلك النار فنفرت ، وعرف لُقَيْم أنه إنما صنع لقمان ذلك ليصيبه وأنه حَسَده ، فسكتَ عنه ، ووجد لقمان قد نَظَم في سيفه لحماً من لحم الجُزُور وكَبداً وسَنَاما حتى توارى سيفهُ ، وهو يريد إذا ذهب لقيمٌ ليأخذه أن ينحره بالسيف ، فَفَطِنَ لقيم فَقَال : في نظْم سيفك ما ترى يا لقيم ، فأرسلها مَثَلاً ، فحسد لقمان الصحبة ، فَقَال له لقيم : القسمة ، فَقَال له لقمان : ما تطيبُ نفسي أن تقسم هذه الإبلَ إلا وأنا مُوثَقٌ ، فأوثقه لقيم ، فلما قَسَمها لقيم نَقَّي منها عشراً أو نحوها ، فَجَشعَتْ نفسُ لقمان ، فنَحَطَ نَحْطَة (نحط نحطة : زفر زفرة ، وتقضبت : تقطعت) تقضَّبَت منها الأنْسَاع التي هو بها مُوثَق ، ثم قَال : الغادرة والمتغادرة ، والأَفيلُ النادرة ، فذهب قوله هذا مَثَلاً ، وقَال لقيم : قبح الله النفس الخبيثة . قوله «الغادرة» من قولهم : غَدَرَت الناقة ، إذا تخلَّفت عن الإبل ، والأَفِيلُ : الصغير منها ، يريد اقسم جميع ما فيها . والمثل الأول يضرب في المماكرة والخداع والثاني في الخسة والاستقصاء في المعاملة .

فَرَقاً أَنْفَعُ منْ حُبٍّ

أولُ من قَال ذلك الحجاجُ للغَضْبَان بن الْقَبَعْثَرَى الشَّيْبَاني ، وكان لما خلع عبدُ الله بنُ الجارُود وأهلُ البصرة الحجاجَ وانتهبوه قَال : يا أهل العراقَ تَعَشَّوْا الْجَدْيَ قبل أن يتغداكم ، فلما قَتَلَ الحجاجُ ابنَ الجارود أخذ الغَضْبَان وجماعةً من نُظَرائه فحبسهم ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان بقتل ابن الجارود ، وخَبَرهم ، فأرسل عبدُ الملك عبدَ الرحمن بن مسعود الفَزَارِيَّ ، وأمره بأن يؤمِّنَ كلَّ خائف ، وأن يخرج

المحبوسين ، فأرسل الحجاج إلى الغَضْبَان ، فلما دخل عليه قَال له الحجاج : إنك لَسَمين ، قَال الغضبان : مَنْ يَكُنْ ضيفَ الأمير يَسْمَنْ ، فَقَال : أأنْتَ قلت لأهل العراقَ تَعَشَّوُا الجدْىَ قبل أن يتغداكم؟ قَال : ما نفَعَتْ قائلَها ولا ضَرّتْ من قِيلَتْ فيه ، فَقَال الحجاج : أوْفَرَقاً خيرٌ من حُبٍّ ، فأرسلها مَثَلاً .

يضرب في موضع قولهم «رَهَبُوتٌ خير من رَحَمُوت» أي لأن يُفْرَقَ منك فرقاً خيرٌ من أن تُحُبَّ .

فِي دونِ هذا ما تُنْكِرُ المَرْأَةُ صَاحِبَهَا

قَالوا : إن أول مَنْ قَال ذلك جارية من مُزَينة ، وذلك أن الحَكَم بن صَخْر الثَّقَفِي قَال : خرجت منفرداً ، فرأيت بإمَّرَةٍ - وهي مَوْضع - جاريتين أختين لم أر كجَمَالهما وظَرْفهما ، فكسوتهما وأحسنت إليهما ، قَال : ثم حَجَجْت من قابل ومعي أهلي ، وقد أعْتَلَلْتُ ونَصَلَ خضابي ، فلما صِرْتُ بإمَّرَة إذا إحداهما قد جاءت فسألت سُؤَال منكرة ، قَال : فقلت : فلانة؟ قَالت : فدىً لك أبي وأمي ، وأنى تعرفني وأنكرك؟ قال : قلتُ : الحكم بن صخر ، قَالت : فدىً لك أبي وأمي ، رأيتُكَ عامَ أولَ شاباًّ سُوقَةً ، وأراك العامَ شيخاً ملكا ، وفي دون هذا ما تنكر المرأةُ صاحبَهَا ، فذهبت مَثَلاً ، قَال : قلت : ما فعلَتْ أختُك ، فتَنَفَّسَتِ الصُّعَدَاء وقَالت : قَدِمَ عليها ابنُ عم لها فتزوجها وخرج بها ، فذاك حيث تقول :

إذا ما قَفَلْنَا نَحْوَ نَجْد وأَهْلِه ... فحَسْبِى منَ الدُّنْيَا قُفُولِى إلَى نَجْدِ

قَال : قلت : أما إني لو أدركتها لتزوجتها ، قَالت : فَدَىً لك وأبي وأمي ما يمنعك من شريكتها في حَسَبها وجَمَالها وشقيقتها؟ قَال : قلت : يَمْنَعُني من ذلك قول كُثَيْر :

إذا وَصَلَتْنَا خُلَّةٌ كَيْ تُزيلَهَا ... أبَيْنَا وَقُلْنَا : الحَاجِبِيَّةُ أوَّلُ

فَقَالت : كُثَير بيني وبينك ، أليس الذي يقول

هَلْ وَصْلُ عَزَّةَ إلاَّ وَصْلُ غَانِيَةٍ ... في وَصْلِ غَانيَةٍ مِنْ وَصْلِها خَلَفُ

قَال الحكم : فتركت جَوَابها وما يمنعني من ذلك إلا العِيّ .

أفْرَغُ مِنْ حَجَّامِ سَابَاط

فإنه كان حجَّاماً ملازما لساباط المدئن فإذا مر به جند قد ضُرِبَ عليهم البعثُ

حجَمهُم نسيئةً بدانقَ واحد إلى وقْت قُفُولِهِمْ وكان مع ذلك يعبُر الأسبوعُ والأسبوعان فلا يدنو منه أحد ، فعندها يُخرجُ أمَّهُ فيحجمها حتى يُرىَ الناس أنه غير فارغ ، فما زال ذلك دأبه حتى أنزَفَ دمَ أمه فماتت فجأة فسار مَثَلاً ، قَال الشاعر :

مطْبِخُـــهُ قَفْـــرٌ وطَبَّاخـــــه أفْـــرَغُ مِـــنْ حَجَّـــام سَابَـــاطِ

وقيل : إنه حجَمَ كِسْرَى أبرويز مرةً في سفره ولم يعد لأنه أغناه عن ذلك .

أفْرَسُ مِنْ عَامِرٍ

هو عامر بن الطُّفَيل ، وهى ابن أخي عامر مُلاعِبِ الأسنَّة ، وكان أَفْرَسَ وأسْوَدَ أهلِ زَمَانِه ، ومر حيَّانُ ابن سلمى بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بقبرِه ، وكان غابَ عن موته فَقَال : ما هذه الأنصابُ؟

فَقَالوا : نَصبْناها على قبر عامر فَقَال : ضَيَّقْتُم على أبى على ، وأفضلتم منه فضلا كثيراً ، ثم وقف على قبره وقَال : أُنْعَمْ ظَلاَمَا ما أبا على فوالله لقد كنتَ تَشُنُّ الغارةَ ، وتَحْمِى الجارة ، سريعاً إلى المولى بوعدكَ ، بطيئاً عنه بوعيدك ، وكنت لا تضِلُّ حتَّى يضِلَّ النَجْم ، ولا تهابُوا حتى يهابِ السيلُ ، ولا تعطَش حتى يعطش البعير ، وكنتَ والله خيرَ ما كنت تكون حين لا تَظُنُّ نَفْسٌ بنفس خيرا ، ثم التفت إليهم فَقَال : هلا جعلتم قبر أبى على ميلا في ميل ، وكان مُنَادى عامر بن الطفيل ينادى بعكاظ : هل من راجلٍ فأحْمِلَه ، أو جائع فأطعِمَهُ ، أو خائفٍ فأؤمنه

أفْتَكُ مِنَ البرَّاضِ

فهو البَرَّاضُ بن قيس الكناني

ومن خبر فَتْكه أنَهُ كان وهو في حيَّه عَيَّاراً فاتكاً يجني الجنايات على أهله ، فخَلَعه قومُه وتبرؤا من صنيعه ، ففارقهم ، وقدم مكة فحالف حَرْب بن أمية ، ثم نَبَابه المقام بمكة أيضاً ، ففارقَ أرضَ الحجاز إلى أرض العراق ، وقدم على النعمان بن المنذر الملك فأقام ببابه ، وكان النعمان يبعث إلى عكاظ بلَطِيمة (اللطيمة - بفتح أوله - جماعة الإبل تحمل الطيب والبز وعروض التجار)

كلَّ عام تُباعُ له هناك ، فَقَال وعنده البراض والرحَّال - وهو عُرْوَة بن عُتْبَة بن جعفر بن كلَاب ، سمى رَحَّالاً لأنه كان وَفَاداً على الملوك - مَنْ يُجيز لي لطيمتى هذه حتى يقدمها عكاظ؟ فَقَال البراض : أبَيْتَ اللعنَ أنا أجيزها على كنانة ، فَقَال

النعمان : ما أريد إلا رجلا يجيزها على الحيين قيس وكنانة ، فَقَال عروة الرحَّال : أَبَيْتَ اللعن أهذا العَيَّار الخليعُ يكمل لأن يجيز لطيمة الملك؟ أنا المجيزها على أهل الشِّيح والقَيصُوم من نَجْد وتهامة ، فَقَال : خُذهَا ، فرحل عُروة بها ، وتبع البراض أثَرَه ، حتى إذا صار عُروة بين ظَهْرَاني قومه بجانب فَدَك نزلت العيرُ فأخرج البَرَّاض قدَاحا يستقسم بها في قَتْل عُروة ، فمر عروة به وقَال : ما الذي تصنع يا بَرَّاض؟ قَال : أستخبر القِدَاح في قتلى إياك فقال اسْتُكَ أضْيَقَ من ذاك ، فوَثَبَ البراض بسيفه إليه فضربه ضربةً خَمَدَ منها ، واستاقَ العير ، فبسببه هاجت حربُ الفجَار بين حي خنْدف وقيس ؛ فهذه فَتَكَة البَرَّاض التي بها المثل قد سار ، وقَال فيها بعضُ شعراء الإسلام :

والفَتَى مَن تَعَرَّفَتْهُ الليالي وَالفَيَافِي كَالحَيَّة النَّضْنَاضِ
كُلَّ يَوْمٍ لَه يصْرِفِ الليالي فَتْكَةٌ مِثْلُ فَتْكَةِ البَرَّاضِ

أفْتَكُ مِنَ الجَحَّافِ

هو الجَحَّافُ بن حَكيم السُّلَمى

ومن خبر فَتكه أن عُمَير بن الحُبَاب السُّلْمى كان ابن عمه ، فَنَهضَ في الفتنة التي كانت بالشأم بين قَيْس وكَلْب بسبب الزُّبَيْرية والمَرْوانية ، فلقى في بعض تلك المُغاورات خيلاً لبنى تغلب فقتلوه ، فلما اجتمع الناسُ على عبد الملك بن مروان ووضَعَتْ تلك الحروبُ أوْزَارَها دخل الجَحَّاف على عبد الملك والأخطلُ عنده ، فالتفتَ إليه الأخطلُ فَقَال :

ألا سَائلِ الجَحَّافَ هَلْ هُوَ ثائر لقَتْلَى أصِيبَتْ من سُلَيمٍ وَعَامِرِ

فَقَال الجحاف مُجيباً له :

بَلَى سَوفَ أبكيهِمْ بكُلِّ مُهَنَّد وأبْكَى عُمَيراً بالرِّمَاح الخَواطِرِ

ثم قَال : يا ابن النصرانية ما ظننتك تجترىء عليَّ بمثل هذا ، ولو كنت مأسورا ، فحُمَّ الأخطلُ فَرَقاً من الجَحَّاف ، فَقَال عبد الملك : لا تُرَعْ فإني جارُكَ منه ، فَقَال الأخطل : يا أمير المؤمنين هَبْكَ تجيرني منه في اليقَظَة فكيف تجيرني في النوم؟ فنهض الجَحَّاف من عند عبد الملك يَسْحَبُ كساءه فَقَال عبد الملك : إن في قفاه لَغَدْرَةً ، ومر الجَحَّاف لطيَّته وجمع قومَه وأتى الرُصَافه ، ثم سار إلى بنى تغلب ، فصادف في طريقة أربعَمَائة منهم ، فقتلهم ، ومضى إلى البِشْر – وهو ماء لبنى تغلب

– فصادف عليه جمعاً من تغلب فقتل منهم خمسمائة رجل ، وتَعَدَّى الرجالَ إلى قتل النساء والولدان ، فيقَال : إن عجوزاً نادته فَقَالت : حربك الله يا جحاف ! أتقتلُ نساءً أعلاهن ثُديٌّ وأسفلُهن دُمِىٌّ ، فانحزل ورجع ، فبلغ الخبرُ الأخطلَ فدخل على عبد الملك وقَال :

لَقَــدْ أوْقَعَــ الجَحَّــافُ بالبِشْرِ وَقْعَـةً   إلـــي اللـــه منْها المُشْتَكَى وَالمُعولُ

فأهدرَ عبدُ الملك دم الجحَّاف ، فهربَ إلى الروم ، فكانَ بها سبع سنين ، ومات عبدُ الملك وقام الوليد ابن عبد الملك فاستؤمن للحجاف فأمنه فرجع

قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيبٍ

أصله أن قوما اجتمعوا يخطبون في صُلح بين حيين قتل أحدُهُما من الآخَر قتيلا ، ويسألون أن يرَضوا بالدِّية ، فبيناهم في ذلك إذ جاءت أمة يُقَال لها «جهيزة» فَقَالت : إن القاتل قد ظَفرَ به بعضُ أولياء المقتول فقتله ، فَقَالوا عند ذلك «قَطَعَتْ جهِيزةُ قول كل خطيب» أَي قد استغنى عن الخُطَب .

يضرب لمن يقط على الناس ما هم فيه بَحَمَاقةً يأتي بها .

قَوِّرِى وَالطُفي

قَاله رجل لامرأته ، وكان لها صديقَ طَلبَ إليها أن تَقَدَّ له شراكين من شَرج أست زوجها ، فلما سمعت ذلك استعظمته وزَجَرته ، فأبى إلا أن تفعل ، فاختارت رضاه على صلاح زوجها ، فنظرت فلم تَجدْ له وَجْهاً ترجو به إليه السبيل إلا أن عَصَبَتْ على مَبَالِ ابن لها صغير بقصبة وأخفتها ، فَعَسُرَ عليه البولُ ، فاستغاث بالبكاء ، فلما سمعَ أبوهُ البكاء سألها : ما يُبْكه؟ فَقَالت : أخذه الأسْرُ وقد نُعت لي دَوَاؤُه طريدة تُقَدُّ له من شَرْج استك ، فأعظَم الرجلُ ذلك ، وجعل الأمرُ لاَ يزداد بالصبي إلا شدة فلما رأى أبوه ذلك اضطجع وقَال : دونَكِ يأمَّ فلان قَوِّرِى وَالطُفي ، فاقتطعت منه طريدةً لتُرْضى صديقها ، وأطلقت عن الصبي

يضرب للرجل الغمر الغر ليحذر

قَدْ يَضْرَطُ العَيْرُ وَالمكْوَاةُ في النَّار

أول من قَال ذلك عُرْفُطة بن عَرْفَجة الهَزَّاني ، وكان سيد بنى هِزَّان ، وكان حُصَين بن نبيت العُكْلى سيد بنى عُكْل ، وكان كل واحد منهما يغير على صاحبه ، فإذا أسرت بنو عكل من بنى هِزَّان أسيراً قتلوه ، وإذا أسرت بنو هِزَّان منهم أسيراً فَدَوْه ، فقدم راكب لبنى هِزَّان عليهم فرأى ما يصنعون ، فقال لبنى هِزَّان : لم أر قوماً ذوى عَدَد وعُدَّة وجَلَد وثَرْوَة يلجئون إلى سيد لا ينقض بهم وِتْراً ، أرضيتم أن يَفْنَى قومُكم رغبةً في الدِّيةِ ، والقومُ مثلكم تؤلمهم الجِرَاح ، ويَعضُّهم السلاح؟ فكيف تقتلون ويسلمون؟ ووبخهم توبيخاً عنيفاً ، وأعلمهم أن قوماً من بنى عُكْل خرجوا في طلب إبل لهم ، فخرجوا إليهم فأصابوهم ، فاستاقوا الإبل وأسَروهم ، فلما قدموا محلتهم قَالوا : هل لكم في اللّقَاح ، والأمة الرَّدَاح ، والفَرَس الوَقَاح؟ قَالوا : لا ، فضربوا أعناقهم ، وبلغ عُكْلاً الخبرُ ، فساروا يريدون الغارة على بنى هِزَّان ونذرت بهم بنو هِزَّان ، فالتفوا فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى فَشَتْ فيهم الجراح ،

وقتل رجل من بنى هِزَّان ، وأسرَ رجلان من بنى عُكْلٍ وانهزمت عكل ، وإن عرفطة قَال للأسيرين : أي كما أفضل لأقتله بصاحبنا؟ وعسى أن يفادى الآخَر ، فجعل كل واحد منهما يخبر أن صاحبه أكرم منه ، فأمر بقتلهما جميعاً ، فقدِّم أحدُهما ليقتل ، فجعل الآخَر يَضْرَطُ ، فَقَال عرفطة : قد يضْرَطُ العيرُ والمكواة في النار ، فأرسلها مَثَلاً .

يضرب للرجل يخاف الأمر فيجزع قبل وقوعه فيه .

وقَال أبو عبيد : إذا أعطى البخيل شيئاً مخافة ما هو أشد منه قَالوا : قد يَضْرَطُ العَيْرُ والمكواة في النار .

ويقَال : إن أول من قَاله مُسَافر بن أبى عمرو بن أمية ، وذلك أنه كان يَهْوَى بنت عتبة ، وكانت تهواه فَقَالت له : إن أهلي لا يزوجونني منك لأنك مُعَسِر ، فلو قد وَفَدْتَ إلى بعض الملوك لعلك تصيب مالا فتتزوجني ، فرحل إلى الحِيرَة وافداً على النعمان ، فبينما هو مُقيم عندهُ إذ قَدِم عليه قادم من مكة ، فسأله عن خبر أهل مكة بعده فأخبره بأشياء وكان فيها أن أبا سفيان تزوج هندا ، فطُعِنَ مسافر من الغم ، فأمر النعمان أن يكوى ، فأتاه الطبيب بمَكَاويه فجعلها في النار ، ثم وضع مكواة منها عليه وعِلْجٌ من عُلُوج النعمان واقف ، فلما رآه يُكْوَى ضَرِط ، فَقَال مسافر : قد يَضْرَطُ العيرُ والمكواة في النار ، ويقَال : إن الطبيب ضَرِطَ .

قَدْ قَلَيْنَا صَفِيرَكُم

أصله أن رجلاً كان يعتاد امرَأة ؛ فكان يجئ وهى جالسةٌ مع بنيها وزوجها فيصفر لها ، فتُخرج عجزها من وراء البيت وهي تُحْدِثُ ولَدَها ، فيقضى الرجلُ حاجته وينصرف ، فعلم ذلك بعضُ بنيها ، فغاب عنها يومَه ، ثم جاء في ذلك الوقت فَصَفَر ومعه مِسْمَار مُحْمىً ، فلما أن فعلت كعادتها كَوَاها به ، فَجاء خِلُّها بعد ذلك فصفر فَقَالت : قد قلينا صفيركم ، قَال الكميت[١] :

أرْجُو لَكُمْ أنْ تَكُونُوا فِي مَوَدَّتكُمْ   كَلْبَا كَوَرْهَاء تَقْلى كُلَّ صَفَار
لَّمَا أجَابَتْ صَفِيراً كَانَ آتِيهَا   مِنْ قَابِسٍ شَيَّطَ الوَجْعَاءَ بالنَّارِ

قَدْ كَانَ ذَلِكَ مَرَّةً فَاليَوْمَ لاَ

أولُ من قَال ذلكَ فاطمة بنت مُرٍّ الخَثْعَمية ، وكانت قد قرأت الكُتُبَ ، فأقبل عبدُ المطلب ومعه ابنه عبدُ الله يريد أن يزوِّجه آمنة بنت وَهَب بن عبد مناف بن زُهْرَة بن كلاب ، فمرَّ على فاطمة وهى بمكة ، فرأت نُورَ النبوة في وَجْه عَبْد الله ، فَقَالت له : مَنْ أنت يافتى؟ قَال : أنا عبدُ الله بن عبد المطلب ابن هاشم ، فَقَالت : هَلْ لك أن تَقَع على وأعطيك مائةً من الإبل؟ فَقَال :

أمَّا الحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ   وَالحِلُّ لاَ حِلَّ فأستَبينَهُ
فَكَيفَ بِالأمْرِ الَّذي تَنْوِينَهُ   يَحْمِدى الكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ

ومضى مع أبيه ، فزوَّجه آمنة ، وظل عندها يومَه وليلته ، فاشتملت بالنبي ﷺ ، ثم انصرَفَ وقد دَعَتْه نفسه إلى الإبل ، فأتاها فلم ير منها حِرْصاً ، فَقَال لها : هل لك فيما قلت لي؟ فَقَالت : قد كان ذلك مرة فاليوم لا ، فأرسلتها مَثَلاً .

يضرب في الندم والإنابة بعد الأجترام ثم قَالت له : أي شَيء صَنَعْتَ بعدي ، قال : زوجني أبي آمنة بنت وهب ، فكنت عندها ، فقَالت : رأيتُ في وجهك نورَ النبوة فأردت أن يكون ذلك في فأبى الله تعالى إلاَّ أنْ يَضَعه حيث أحَبَّ ، وقَالت :

بَنِى هاشم قَدْ غَادَرَتْ منْ أخيكُمُ   أمينَةُ إذ للبَاه يَعتَلجَان
كَمَا غَادَرَ المِصْبَاحُ بَعْدَ خَبُوِّهِ   فَتَائِلَ قَدْ ميثَتْ لَهُ بِدِهَانَ

---

(١) الكميت بن زيد الأسدي شاعر عربي من قبيلة بني أسد ومن أشهر شعراء العصر الأموي ، سكن الكوفة واشتهر بالتشيع وقصائده في ذلك المسماة بالهاشميات

ومَـــا كُلُّ ما نالَ الفتَى مــنْ نَصيبِــه بحَـــزْم ، ولاَ مَافَاتَـــــهُ بتَـــــوَانِ
فأجْمِـــــلْ إذا طالَبْــتَ أَمْــراً فَإِنَّـــهُ سَيَكْفِيكَـــهُ جَـــدَّانِ يَصْطَرِعَـــانِ

وقَالتَ في ذلك أيضاً :

إنِّـــى رَأَيْــتُ مَخيلَـــــةً نَشَـــأتْ فَتَــــلألأتْ بخَاتـــــم القَطْـــــرِ
للهـــ مَـــــا زُهْرِيَّـــــة سَلَبَـــــــتْ ثَوْبَيْـــكَ مَا اسْتَلَبَـــتْ وَمَا تَـــدْرِى

أقْبَحُ هَزِيلينِ الفَرَسُ والمَرْأةُ

يحكى أن عمرو بن اللّيث عُرِضَ عليه الجند يوماً يعطي فيه أرزاقهم ، فعرض عليه رجل له فرس عَجْفاء ، فَقَال عمرو : هؤلاء يأخذون دَرَاهمي ويُسَمِّنُون بها أكْفَالَ نسائهم ، فَقَال الرجل : لو رأى الأميرُ كَفْلها لاستسمن كَفَلَ دابتي ، فضحك عمرو ، وأمر له بِصِلةٍ ، وقَال : سَمِّنْ بها مركوبك

أَقْوَدُ مِنْ ظُلْمَةَ

هي امرَأة من هزيل ، وكانت فاجرة في شبابها حتى عجزت ، ثم قادت حتى أقعدت ، ثم التخذت تَيْسا فكانت تطرقه الناس ، فَسُئلت عن ذلك ، فَقَالت : إني أرتاح إلى نَبِيبه على ما بي من الهرم ، وسئلت : مَنْ أنكَح الناس؟ فَقَالت : الأعمى العفيف ، فحدث عَوَانة بهذا الحديث وكان مكفوفا ، فَقَال : قاتلها اللّه من عالمة بأسباب الطروقة .

قَال الجاحظ : لما قدم أشْعَبُ الطمَّاع من المدينة بغداد في أيام المهدى تلقاه أصحابُ الحديث ؛ لأنه كان إذا إسناد ، فَقَالوا له : حدثنا ، فَقَال : خُذُوا ، حدثني سالم بن عبد الله – وكان يبغضني في ًالله – قَال : خصلتان لا تجتمعان في مؤمن ، وسكت ، فَقَالوا : اذكرهما ، قَال : نسى إحداهما سالم ونسيتُ الآخَرى ، فَقَالوا : حدثنا عافاك الله بحديث غيره ، فَقَال : خذوا ، سمعتُ ظُلْمة – وكانت من عجائزنا – تقول : إذا أنا متُّ فأحرقوني بالنار ، ثم اجمعوا رَمَادِي في صُرَّة ، وأتربوا به كتبَ الأحباب ؛ فإنهم يجتمعون لا محالة ، وأتوا به الخاتنات ليذرون منه على أجراح الصبيات ، فإنهن يلهجن بالزب ما عِشْنَ ، وقَال ابن يسار الكَوَاعب يَضْرب بظلمة المثل :

بُلِيْـتُ بورْهَاءَ ذَنْمَـــرْدَة(*) تكـــاد تقطرهـــا الغُلمَـــهْ
تَنِـــمُّ وتَعضَـــهُ جارَاتِهَـــا وأقْـــوَدُ باللَّيْـــلِ مِـنْ ظُلْمَهْ
فَمن كلِّ ساعٍ لَهَـــا رَكْلَـــةٌ ومِـــنْ كُـــلِّ جَارٍ لَهَا لَطْمَهْ

أقْرَى مِنْ آكِلِ الخُبْزْ

المثل تميمي ، وآكل الخبز : عبدُ الله بن حَبيب العنبري أحد بني سَمُرَة ، سمى آكل الخبز لأنه كان لا يأكل التَّمْر ، ولا يرغب في اللَّبن ، وكان سيد العَنْبر في زمانه ، وهم إذا فخروا قَالوا : منا آكِلُ الخبـز ومنا مُجيرُ الطير ، فأما مُجيرُ الطير فهو نور بن شحمة العَنْبَرِي ، وأما السبب في تلقبيهم عبدَ الله بن حبيب بآكل الخبز ، فلأن الخبزَ نفسه عندهم ممدوح ، وذكر أبو عبيدة : أنَّ هَوْذَةَ بن علي الحَنَّفي دخل على كسرى أبرَويزَ فَقَال له : أي أولادكَ أحبُّ إليكَ؟ قال : الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدَم ، والمريض حتى يبرأ ، قَال : ماغذاؤك ببلدك؟ قَال الخبز ، فقال كسرى : هذا عَقْل الخبـز ، لا عَقْلُ اللبن والتمر ، فصار الخبز عندهم ممدوحاً كما صار ما يناسبه بعض المناسبة ممدوحاً ، وهو الفالوذ ج لأنه أشرف طَعَام وقع إليهم ، ولم يطعم الناس الطعامَ أحدٌ من العرب إلا عبد الله بن جُدْعَان فمدَّحه أبو الصلت بذلك ، وما يناسبه كلَّ المناسبة يعني الثريد ، وهو في أشرافهم عام ، وغلب عليه هاشم حين هَشَم الخبز لقومه ، فمدح به في قول الشاعر :

عَمْـــرُو العُـــلا هَشَـــمَ الثَّرِيـدَ لِقَوْمِه وَرِجَـــالُ مَكَّةَ مُسْنِتُـــونَ عِجَـــافُ

قَال حمزة : فهذا المثل مع ما يتلوه حكَاه عمرو بن بحر الجاحَظ في كتابه الموسوم بـ«كتاب أطْعِمَةِ العرب» .

كلُّ فَتَاةٍ بأبِيهَا مُعْجَبَة

يضرب في عُجْب الرجل برهطه وعشيرته وأول من قال ذلك العَجْفَاء بنت عَلْقَمة السعدى ، وذلك أنها وثَلاثَ نسوة من قومها خَرَجْنَ فاتَّعَدْنَ بروضة يتعدثن فيها ، فوافَيْنَ بها ليلاً في قمر زاهر ، وليلة طَلْقَة ساكنة ، وروضة مُعْشِبة خَصْبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة ، ولا كهذه

(*) الذنمرة : السحاقة .

الروضة روضة ، أطيب ريحاً ولا أنْضَر ، ثم أَفَضْنَ في الحديث فقلن : أي النساء أفضل؟ قَالت إحداهن : الخَرُود الوَدُود الوَلُود ، قَالت الأخرى : خَيْرُهن ذات الغناء وطيب الثناء ، وشدة الحياء ، قَالت الثالثة : خيرهن السَّمُوع الجَمُوع النَّفُوع ، غير المنوع ، قَالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة ، قلن : فأي الرجال أفضل؟ قالت إحداهن : خيرهم الحَظِيُّ الرّضِيُّ غير الحظال (الحظال : المقتر المحاسب لأهله على ما ينفعه عليهم .)

ولا التبال ، قَالت الثانية : خيرهم السيدُ الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم ، قَالت الثالثة : خيرهم السخِيُّ الوفي الذي لا يُغيرُ الحرة ، ولا يتخذ الضرة ، قَالت الرابعة : وأبيكن إن في أبي لَنَعْتَكُنَّ كرم الأخلاق ، والصدقَ عند التلاق ، والفلج عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق ، قَالت العَجْفَا عند ذلك : كلُّ فتاة بأبيها مُعْجَبَة

وفي بعض الروايات أن إحداهن قَالت : إن أبي يُكْرِمُ الجار ، ويعظم النار ، ويَنْحَر العشَار ، بعد الحوار ، ويحل الأمور الكبار ، فَقَالت الثانية : إن أبي عظيم الخَطر ، منيع الوَزَر ، عزيز النفر ، يُحْمَدُ منه الورْدُ والصَّدَر ، فَقَالت الثالثة : إن أبي صدوقَ اللسان ، كثير الأعْوَان ، يُرْوى السِّنَان ، عند الطعان ، قَالت الرابعة : إن أبي كريم النِّزَال ، منيف المقَال ، كثير النَّوَال ، قليل السؤال ، كريم الفَعَال ، ثم تنافَرْنَ إلى كاهنة معهن في الحي فقلن لها : اسمعي ما قلنا ، واحكمي بيننا ، واعدلي ، ثم أَعَدْنَ عليها قولَهن ، فقالت لهن : كل واحدة منكن ماردة ، على الإحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة ، ولكن اسْمَعنَ قولي : خيرُ النساء المبقية على بعلها ، الصابرة على الضراء ، مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ، فهي تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها ، فتلك الكريمة الكاملة ، وخير الرجال الجَواد البَطَل ، القليل الفشل ، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل ، كثير النَّفَل ، ثم قَالت : كل واحدةٍ منكن بأبيها مُعْجَبَة .

كَبُرَ عَمروٌ عن الطّوْق

قَال المفضل : أولُ من قَال ذلك جَذيمة الأبرش[(١)] ، وعمرو هذا : ابن أُخْتِهِ ، وهو

(١) جذيمة الأبرش هو جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك =

عمرو بن عديٍّ بن نصر وكان جَذيمة ملك الحيرةَ ، وجَمَع غِلْمانا من أبناء الملوك يخدمونه منهم عديٌّ بن النصر ، وكان له حظ من الجَمَال ، فعشقته رَقَاش أخت جَذيمة ، فَقَالت له : إذا سقيت الملك فسَكرَ فاخطبني إليه ، فسقى عديٌّ جَذيمَةَ ليلة وألطَف له في الخدمة ، فأسرعت الخمر فيه ، فَقَال له : سَلْني ما أحبَبت ، فَقَال : أسألُك أن تُزَوجْني رَقَاش أخْتَك ، قَال : ما بها عنك رغبة ، قد فعَلْتُ ، فعلمت رَقَاش أنه سينكر ذلك عند إفاقته ، فَقَالت للغلام : أُدْخُل على أهلكَ اللَيلةَ ، فدخلَ بها وأصبح وقد لبث ثياباً جُدُدا ، وتَطَيَّبَ ، فلما رآه جَذيمة قَال : يا عَديٌّ ما هذا الذي أرى؟ قَال : أنكحْتَني أخْتَكَ رَقَاش البَارِحَة ، قَال : ما فعلتُ؟ ثم وضَعَ يَده في التراب وجعل يضرب بها وجهه ورأسَه ، ثم أقبَل على رُقاش فَقَال :

حدِّثيني وأنتِ غَيْرُ كَذُوب(*) أبحُرٍّ زنَيْتِ أم بهَجينِ
أمْ بِعَبْدٍ وأنتِ أهلٌ لِعَبْدٍ أم بِدُون وأنت أهلٌ لِدُونَ

قَالت : بلْ زوجتني كُفُؤا كريما من أبنَاء الملوك ، فأطْرقَ جذيمة فلما رآه عدي قد فعل ذلك خافه على نفسه فهرب منه ولحقَ بقومه وبلاده ، فمات هُناك ، وعَلقت منه رقاش فولدت غلاما فسماه جذيمة عمرا ، وتبنَّاه ، وأحبه حباً شديدا وكان جذيمة لا يولد له ، فلما بلغ الغلام ثمان سنين كان يخرج في عدة من خدم الملك يجتنون له الكمأة ، فكانوا إذا وجدوا كمأة خيارا أكلوها وراحوا بالباقي إلى الملكَ ، وكان عمرو لا يأكَل مما يجني ويأتي به جذيمة فيضعه بين يديه ، ويقول :

هَذا جَنايَ وخيَارُهُ فيهِ إذْ كَلُّ جَانٍ يَدُهُ إلى فيه

فذهبت مَثَلاً ، ثم إنه خرج يوما وعليه ثيابٌ وحُلي فاستطِيرَ ففُقِدَ زَمانا ، فضرب في الآفاق فلم يوجد ، وأتى على ذلك ما شاء الله ثم وجده مالك وعقيل ابنا فارج ، رجلان من بلْقَيْن كانا يتوجَّهان إلى الملك بهدايا وتحف ، فبينما هما نازلان في بعض أودِيةِ السَّمَاوة انتهى إليهما عمرو بن عدي ، وقد عفَتْ أظْفَارُهُ وشعره ، فَقَالا له : مَنْ

= بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان هو ثالث ملوك تنوخ وأول ملك في بالحيرة حكم في الفترة ٢٣٣ -٢٦٨ ، وقيل له الأبرص والوضاح لبرص كان به ، ويعظم أن يسمى بذلك فجعل مكانه الأبرش ، قيل فيه أنه كان أعظم ملوك العرب في الجاهلية ، ومن أفضلهم رأياً وحزماً وشجاعة .

(*) حِفظي ، حدثيني رقاش لا تُكذبيني .

أنت؟ قَال : ابنُ التَّنُوخية فلَهَيَا عنه وقَالا لجارية معهما : أطعمينا ، فأطعمتهما ، فأشار عمرو إلى الجارية أن أطعميني ، فأطعمته ثم سقتهما ، فَقَال عمرو : اسقني ، فَقَالت الجارية لا تُطْعم العبدَ الكُرَاع فيطْمَع في الذِّراع فأرسلتها مَثَلاً ، ثم إنهما حَمَلاهُ إلى جذيمة فعرفه ، ونظر إلى فتى ما شاء من فتى فَضمَّه وقَبلَهُ وقَال لهما : حكَّمْتُكما ، فسألاه منادمته ، فلم يزالا نديميه حتى فرَّقَ الموت بينهم ، وبعث عمراً إلى أمه ، فأدخلته الحمام وألبسته ثيابه ، وطوَّقته طَوْقاً كان له من ذهب ، فلما رآه جذيمة قَال : كَبُرَ عمرو عن الطَّوقِ ، فأرسلها مَثَلاً ، وفي ملك وعقيل يقولوا مُتَمِّمُ بن نُويرة يرثي أخاه مالك بن نُوَيرة

وكُنَّا كَنَدْمانَيّ جَذيمة حقْبَةً ... منَ الدَّهر حتَّى قيل لَنْ نَتَصَدَّعا

وعشْنَا بخَيْر في الحَيَاة وَقَبْلَنَا ... أَصَابَ المَنَايَا رَهْطَ كسْرَى وَتُبَّعا

فَلَمَّا تفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِك ... لِطُول اجْتِمَاع لَمْ نَبَتْ لَيْلَةً معاً

قلت : اللام في «لطول اجتماع» يجوز أن تتعلَقَ بتفرقنًا أي تفرقنا لاجتماعنا ، يشير إلى أن التفرقَ سببه الاجتماع ويجوز أن تكون اللام بمعنى على .

وقَال أبو أَخراش الهذلى يذكرهما : أَلم تَعْلَمي أن قَدْ تَفَرَّقَ قَبْلَنَا خليلاَ صفاءِ مالكٌ وعقيلُ قَال ابن الكلبي : يضرب المثل بهما للمُتَوَاخِيَين فيقَال : هما كنَدْمَانَيّ جَذِيمة .

قَالوا : دامت لهما رُتبت المنادمة أربعين سنة .

كلُّ شَاةٍ بِرِجْلِهَا مُعَلَّقَةٌ

قَال ابن الكلبي : أولُ مَنْ قَال ذلك وَكِيعُ بن سلمة بن زهير بن إياد ، وكان وَلِيَ أَمْرَ البيت بعد جُرْهُم ، فبنى صَرْحاً بأسفل مكة عند سُوقَ الخَيَّاطين اليوم ، وجعل فيه أمةً يُقَال لها حَزْورَة ، وبها سميت حَزْوَرة مكة ، وجعل في الصَّرح سُلَّما ، فكان يَرْقَاهُ ويزعم أنه يناجي الله تعالى ، وكان ينطقَ بكثير من الخبر ، وكان علماء العرب يزعمون أنه صدِّيقَ من الصِّديقين ، وكان من قوله مُرْضِعَة أو فاطمة ، ووادعة وقاصمة ، والقَطيعة والفجيعة ، وصلة الرحم ، وحسن الكَلام ، ومن كلامه : زعَمَ رَبكم ليجزين بالخير ثواباً ، وبالشر عقاباً ، إن مَنْ في الأرض عَبيدٌ لمن في السماء ، هلكت جرهم وربلت إياد (ربلت إياد : كثرت ونمت وزادت) .

وكذلك الصلاح والفساد ، فلما حضرته الوفاة جمع إياداً فَقَال له : اسمعوا وصيتي ، الكلم كلمتان ، والأمر بعد البَيَان ، من رَشَدَ فاتَبِعُوه ، ومن غوَى فارفُضُوه ،

وكل شاة برجلها مُعَلَّقة ، فأرسلها مَثَلاً ، قَال : ومات وكيع فنعى على الجبال ، وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادي :

وَنَحْـنُ إِيَـادُ عبـادُ الإلـه ... وَرَهْـط مُنَاجِـديه فـي سُلَّـم
وَنَحْـدنُ وُلاةُ حجَـابِ العَتيـقَ ... زَمَـانَ النُّخَـاعَ علـى جُرْهُـمَ

يُقَال : إن الله سلط على جرهم داء يُقَال له النخاع ، فهلك منهم ثمانون كهلاً في ليلة واحدة سوى الشبان ، وفيهم قَال بعض العرب :

هَلَكَـتْ جُرْهُـمُ الكِـرَامُ فعَـالاً ... وَوِلاَةُ البَنيِّـدة الحُجَّـابُ
نُخِعُـوا لَيلَـةً ثَمَانُـونَ كَهْـلاً ... وشَبَابـاً كَفَى بهم من شَبَـابِ

كالخَرُوف أَيْنَما مَالَ اتَّقَى الأرضَ بِصَوَافٍ

يضرب لِمَن يجد مُعْتَمَداً كلما اعتمد

كالْكَبْشِ يَحْمِلُ شَفْرَةً وزِنَاداً

يضرب لمن يتعرَّض للهَلاك وأصله أن كسرى بن قُبَاذ مَلَّك عمرو بن هند الملكَ الحيرةَ وما يلي مُلكَ فارس من أَرض العرب ، فكان شديد السلطان والبطش ، وكانت العرب تسميه «مُضَرِّطَ الحِجارة» فبلغ من ضبطه الناس وقهره لهم واقتداه في نفسه عليهم أن سَنَةً اشْتدَّت على الناس حتى بلغت بهم كلَّ مبلغ من الجهد والشدة ، فعمد إلى كبش فَسمَّنه حتى إذا امتلأ سمناً علَّقَ في عنقه شَفْرة وزناداً ثم سَرَّحه في الناس لينظر هل يجترئ أحد على ذبحه فلم يتعرض له أحد ، حتَّى مرَّ ببني يَشْكر ، فَقَال رجلٍ منهم يُقَال له «عِلْبَاء بن أرقَمَ اليَشْكَري» ما أراني إلا آخذ هذا الكبش فآكله ، فَلاَمهُ أصحابه ، فأبى إلا ذِبْحه ، فذكروا ذلك لشيخ له ، فَقَال : إنكَ لا تعدم الضار ، ولكن تعدم النافع ، فأرسلها مَثَلاً ، وقَال قائل آخر منهم : إنك كائن كقُدَار على إرم ، فأرسلها مَثَلاً ، ولما كثرت اللائمة قَال : فإني أذبحُه ثم آتى الملك فواضع يدي في يَدِهِ ومُعْتَرِف له بذنبي ، فإن عفَا عني فأَهْلُ ذلك هو ، وإن كانت منه عقوبة كانت بي ودونكم ، فذبحه وأكله ، ثم أتى الملك عمرو بن هند ، فَقَال له : أَبيتَ اللَّعنَ ، وأَسْعَدَكَ إِلهُكَ ، ياخير الملوك إني أَذْنَبْتُ ذنبا عظيما إليك ، وعفوك أعظم منه ، قَال : وما ذنبك؟ قَال : إنك بَلَوتَنا بكبش سَرَّحْتُه ونحن مَجْهُودون ، فأكلْته ، قَال : أو فعلت؟ قَال نعَم ، قَال : إذن أقتلك ، قَال : مليك شَيء حكمه ، فأرسلها مَثَلاً ، ثم أنشده قصيدةً في تلك الخطة ، فخَلَّى عنه ، فجعلت العربُ ذلك الكبش مَثَلاً

كمُجيرِ أُمّ عامرٍ

كان من حديثه أن قوماً خَرَجُوا إلى الصيد في يوم حار ، فإنهم لكَذَلك إذ عَرَضَتْ لهم أُمَّ عامر ، وهي الضبع ، فطَرَدُوها وأتبعهم حتى ألجؤوها إلى خباه أعرابي ، فاقتحمته ، فخرج إليهم الأعرابي ، وقَال : ما شأنكم؟ قَالوا : صَيْدُنا وطَريدتنا ، فَقَال : كلا ، والذي نفسي بيده لا تصلون إليها ما ثَبَتَ قائمُ سيفي بيدي ، قَال : فرجَعُوا وتركوه ، وقام إلى لِقْحَةٍ فحلَبَهَا وماء فقرب منها ، فأقبلت تَلغُ مرةً في هذا ومرة في هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينا الأعرابي نائم في جَوْف بيته إذ وَثّبَتْ عليه فبَقَرَتْ بطنه ، وشربت دَمَه وتركته ، فجاء ابن عم له يطلبه فإذا هو بَقيرٌ في بيته ، فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها ، فَقَال : صاحبتي والله ، فأخذ قوسه وكنانته واتبعها ، فلم يزل حتى أدركها فقتلها ، وأنشأ يقول :

وَمَنْ يَصْنَع المَعْرُوفَ معْ غَير أَهْلِه ... يُلاَقَ الَّذي لاَقَى مُجيرُ امِّ عَامرِ
أدامَ لها حينَ استَجَارَتْ بقُرْبِه ... لها محْضَ ألبَان اللقَاح الدَّرَائرِ
وَأَسْمَنَهَا حَتَّى إذَا مَا تَكَامَلَتْ ... فَرَتْهُ بأنْيَاب لَهَا وَأَظَافرِ
فَقُلْ لِذوِي المَعْرُوفِ هَذَا جَزَاءُ مَنْ ... بَدَا يَصْنَعُ المَعرُوفَ فِي غَيْرِ شَاكِرِ

كَرِهَتِ الخَنَازِيرُ الحَمِيمَ المُوغرَ

وأصله أن النصارى تَغْلِي الماء للخنازير
فتلقيها فيه لتنضج ، فذلك هو الإيغار ، قَال أبو عبيد : ومنه قول الشاعر :

وَلَقَدْ رَأَيتُ مَكَانَهُمْ فَكَرِهْتُهُمْ ... كَكَرَاهَةِ الخِنزِيرِ للإيغَارِ

قَال ابن دُرَيْد : يغلي الماء للخنزير فيسمط وهو حي ، قَال : وهو فعل قوم

كذلكَ النُّجَارُ يَخْتَلِفُ

يضرب مَثَلاً للمختلفين

وأصله أن ثعلبا اطلع في بئر ، فإذا في أسفلها دَلْو ، فركِبَ الدلو الأخَرى ، فانحدرت به ، وعلت الأخَرى ، فشرب ، وبقي في البئر ، فجاءت الضبع فأشرفَتْ فَقَال لها الثعلب : انزلي فاشربي ، فقعدت في الدلو ، فانحدرت بها وارتفعت الأخرى بالثعلب ، فلما رأته مُصْعداً قالت له : أين تذهب؟ قَال : كذلك النُّجار يختلف ، فذهبت مَثَلاً ، وروى أبو محمد الديمري «كذاك التِّجَار تَخْتَلِفُ» جمع تاجر بالتاء .

كالأرقَم إنْ يُقْتَلُ يَنْقِمْ، وإنْ يُتْرَكْ يَلْقَم

كانوا في الجاهلية يزعمون أن الجن تطلبُ بثأر الجانِّ ، فربما مات قاتله ، وربما أصابه خَبل ، وفي حديث عمر رضي الله عنه ، أن رجلاً كسر منه عَظم فأتى عمر يطلب القَوَدَ فأبى أن يُقيده ، فَقَال الرجل : هو كالأرقم إن يُقْتَل ينقم وإن يترك يلقم ، فَقَال عمر رضي الله عنه : هو كذلك ، يعني نفسه .

كيفَ أُعَاوِدُكَ وَهَذَا أَثَرُ فَأْسِكَ

أصلُ هذا المثل على ما حَكَتْه العرب على لسان الحية أن أخوين كانا في إبل لهما فأجْدَبَتْ بلادهما ، وكان بالقرب منهما واد خَصيبٌ وفيه حية تَحْميه من كل أحد ، فَقَال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أنى أتيتُ هذا الوادي المُكْلِئ فرَعَيْتُ فيه إبلي وأصلحتها فَقَال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لا يهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ، قَال : فوالله لأفعَلَنَّ ، فهبط الوادى ورعى به إبله زماناً ، ثم إن الحية نَهَشَتْه فقتلته ، فَقَال أخوه : والله ما في الحياة بعد أخي خير ، فلأطلبَنَّ الحية ولأقتلنها أو لأتبعنَّ أخي ، فهبط ذلك الوادى وطلب الحية ليقتلها ، فَقَالت الحية له : ألست تَرَى أنِّى قتلت أخاك؟ فهل لك في الصلح فأدعَكَ بهذا الوادى تكون فيه وأعْطِيك كل يوم ديناراً ما بقيت؟ قال أو فاعله أنت؟ قَالت : نعم ، قَال : إني أفعل ، فحلف لها وأعطاها المواثيقَ لا يضرها ، وجعلت تُعْطيه كلَّ يوم ديناراً ، فكثر مالُه حتى صار من أحسن الناس حالا ، ثم إنه تَذَكَّر أخاه فَقَال : كيف ينفعني العيشُ وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ فعَمدَ إلى فأس فأخذها ثم قَعَدَ لها فمرَّت به فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت الجُحْرَ ، ووقعت الفأسُ بالجبل فوقَ جُحْرها فأثرت فيه ، فلما رأت ما فَعَلَ قطعت عنه الدينار ، فخاف الرجل شَرَّها وندم ، فَقَال لها : هل لك في أن نَتَوَاثقَ ونَعُودَ إلى ما كنا عليه؟ فَقَالت : كيف أعاودك وهذا أَثَرُ فأسِك؟

يضرب لمن لا يَفِي بالعهد

وهذا من مشاهير أمثال العرب ، قَال نابغة بن ذبيان :

وإنِّي لألقَى من ذَوىِّ الغَيِّ مِنْهُمُ ... وما أصْبَحَتْ تَشْكُو منَ الشَّجْو سَاهِرَهْ
كما لَقِيَتْ ذاتُ الصَّفَا مِنْ حَلفِهَا ... وكانَتْ تُريه المَالَ غبّاً وَظَاهِرَهْ
فَلَمَّا رأى أنْ ثَمَّرَ اللَه مَالَهُ ... وَأَثَّلَ مَوْجُوداً وَسَدَّ مَفَاقِرَهْ
أكبَّ عَلَى فأسٍ يُحِدُّ غُرَابَهَا ... مُذَكَّرَةٍ مِنَ المَعَاوِلِ بَاتِرَه

فَقَامَ لَهَا مَنْ فَوْقَ جُحْرٍ مُشَيَّدٍ ... لِيَقْتُلَهَا أَوْ يُخْطِئُ الكَفُّ بَادِرَهْ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللهُ ضَرْبَةَ فأسهِ ... وَلِلشَّرِّ عَيْنٌ لا تُغَمِّضُ نَاظِرَهْ
فَقَالَ : تَعَالَى نَجْعَلِ اللهَ بَيْنَنَا ... عَلَى مَالَنَا أَوْ تُنْجِزِي لِيَ آخِرَهُ
فَقَالَتْ : يَمِينُ اللهِ أفعَلُ ؛ إنني ... رَأَيْتُكَ مَشْؤُوماً يَمِينُكَ فَاجِرَهْ
أَبَى لِي قَبْرٌ لا يَزَالُ مُقَابِلِي ... وَضَرْبَةُ فأسٍ فَوْقَ رَأسِيَ فَاقِرَهْ

أكُلُّ شِوَائِكُمْ هَذا جُوفَانُ

أصله أن رجلا من بني فزارة ورجلا من بني عَبْس ورجلا من بني عبد الله بن غَطَفَان صادروا عَيْراً ، فأوقدوا ناراً ، وخرج الفَزَارى لحاجة ، فاجتمع رأى العَبْدى والعَبسِي على أن يقطعا أيْرَ الحمار ثم دسَّاه بين الشِّوَاء ، فلما رجَع الفَزَاري جعل العبدى يحرك الجمر بالمِسْعَر ويستخرج القطْعَة الطيبة فيأكلها ويُطْعمها صاحبه ، وإذا وقع في يده شَيء من الجُوفَان – وهو ذكر الحمار – دفعه إلى الفزَاري ، فجعل الفزَاري كلما مَضَغَ منه شيئا امتدَّ في يده ، وجعل ينظر فيه فيرى فيه ثقباً ، فيقول : ناولْني غَيرَها ، فيناوله مثلَها فلما فعل ذلك مرارا قَال : أكُلُّ شوائكم هذا جُوفان ، فأرسلها مَثَلاً .

يضرب في تساوي الشَيء في الشَّرَارة .

كِلاَهُمَا وَتَمْراً

ويروى : «كليهما»

أولُ من قَال ذلك عمرو بن حُمْرَان الجَعْدِي ، وكان حمرتن رجلا لَسِناً ماردا وإنه خَطَب صَدُوفَ ، وهي امرَأة كانت تؤيد الكلام وتشجع في المنطق ، وكانت ذاتَ مال كثير ، وقد أتاها قوم يخطبونها فردَّتهم ، وكانت تتعنَّتُ خُطَّابها في المسألة ، وتقول : لاأتزوجً إلا مَنْ يعلم ما أسأله عنه ويجيبني بكلام على حده لا يَعْدُوه ، فلما انتهى إليهَا حُمْرَان قام قائماً لا يجلس ، وكان لا يأتيها خاطبٌ إلا جلس قبل إذنها ، فَقَالت : ما يمنعك من الجلوس؟ قَال : حتى يُؤْذَنَ لي ، قَالت : وهل عليك أمير؟ قَال رَبُّ المنزِل أحقُ بفنَائه ، ورب الماء أحَقُ بسقَائه ، وكل له ما في وعائه ، فَقَالت : اجلس ، فجلس ، قَالت له : ما أردت؟ قَالَ : حَاجة ، ولم آتك لحاجة ، قَالت : تُسِرُّها أم تعلنها؟ قَال : تُسَرُّ وتُعْلَن ، قَالت : فما حاجتك؟ قَال قضاؤها هَيِّن ، وأمرها بين ،

وأنت بها أخْبَر ، وبنُجْحها أبصر ، قَالت : فأخبرني بها ، قَال : قد عَرَّضْتُ وإن شئت بينتُ ، قَالت : مَنْ أنتَ؟ قَال : أنا بَشَر ، ولدت صغيراً ، ونشأت كبيراً ، ورأيت كثيراً ، قَالت : فما اسمك؟ قَال : مَنْ شاء أحْدَثَ اسما ، وقَال ظُلْما ، ولم يكن الاسم عليه حتَمْا ، قَالت : فَمَنْ أبوك؟ قَال : والدي الذي وَلَدني ، ووالده جَدِّي ، فلم يعش بَعْدي ، قَالت : فما مالُك؟ قَال : بعضُه وَرِثته ، وأكثره اكتسبته ، قَالت : فمن أنت؟ قَال : من بشر كثير عدده ، معروف ولده ، قليل صعده ، يفنيه أبده ، قَالت : ماوَرَّثك أبوك عن أوليه؟ قَال : حسن الهمم ، قَالت : فأين تنزل؟ قَال : على بساط واسع ، في بلد شاسع ، قريبُه بعيد ، وبعيده قريب ، قَالت : فمن قومك؟ قَال : الذين أنتمي إليهم ، وأجني عليهم ، وولدت لديهم ، قَالت : فهل لك امرَأة؟ قَال : لو كان لي لم أطلب غيرها ، ولم أضَيِّعْ خَيْرَها ، قَالت : كأنك ليست لك حاجة ، قَال : لو لم تكن لي حاجة لم أُنِخْ ببابك ، ولم أتَعَرضْ لجوابك ، وأتعلق بأسبابك ، قَالت : إنك لحمران بن الأقرع الجَعْدي ، قَال : إن ذلك ليقَال ، فأنكحته نفسها ، وفَوَّضَتْ إليه أمرها .

ثم إنها ولدت له غلاما فسماه عمرا ، فنشأ ماردا مُفَوَّها ، فلما أدركَ جَعَله أبوه راعياً يرعى له الإبل ، فبينما هو يوما إذ رُفعَ إليه رجل قد أَضَرَّ به العطشُ والسغوب ، وعمرو قاعد ، وبين يديه زُبْد تمر وتامك (التامك : السنام) ، فدنا منه الرجل فقال : أطعمنى من هذا الزبد والتامك ، فَقَال عمرو : نعم ، كلاهما وتمراً ، فأطعم الرجل حتى انتهى ، وسقَاه لبنا حتى رَوِي ، وأقام عنده أياماً ، فذهبت كلمته مَثَلاً . ورفع «كلاهما» أى لك كلامهما ، ونصب تمراً على معنى : أزيدك تمراً ، ومن روى «كليهما» فإنما نصبه على معنى : أطعمك كليهما وتمراً ، وقَال قوم : مَنْ رفع حكى أن الرجل قَال : أنلني مما بين يديك ، فَقَال عمرو : أيما أحبُّ إليك زُبْد أم سَنَام؟ فَقَال الرجل : كلاهما وتمراً ، أى مطلوبى كلاهما وأزِيدُ معهما تمراً ، أو وزدني تمراً .

كُفِيتَ الدَّعْوَة

أصلُ هذا المثل أن بعض الُمجَّان نَزَلَ براهب في صَوْمعته ، وساعَدَه على دينه ، وجعل يقتدى به ، ويزيد عليه في صلاته وصيامه ، ثم إنه سَرَقَ صليب ذهب كان عنده ، واستأذنه لمفارقته ، فأذنَ له وزَوَّدَه من طعامه ، ولما وَدَّعه قَال له : صحبَكَ الصليبُ ، على رسْم لهم فيمن يريدون الدعاء له بالخير ، فَقَال الماجن : كُفِيتَ الدَّعْوَةَ ، فصار مَثَلاً لمن يدعو بشَيء مفروغ منه

كالمُصْطَادَةِ بإسْتِهَا

قَالوا : ولج ضب بين رجلي امرأة فضمَّتْ رجليها وأخذته ، فضرب مَثَلاً لكل من أصاب شيئاً من غيره وجهه ، وقَدَرَ عليه بأهوَنِ سَعْيٍ .

أَكْفَرُ مِنْ حِمَار

رجل من عاد يُقَال له : حمار بن مويلع ، وقَال الشرقي : هو حمار بن مالك بن نصر الأزدي ، كان مسلما ، وكان له واد طوله مسيرة يوم في عرض أربعة فراسخ ، لم يكن ببلاد العرب أخصَبُ منه ، فيه من كل الثمار ، فخرج بنوه يتصَيَّدُون فأصابتهم صاعقة فهلكوا ، فكفر ، وقَال : لا أعبد مَنْ فَعَلَ هذا ببنيَّ ، ودعا قومه إلى الكفر ، فمن عَصَاه قَتَلَه ، فأهلكه الله تعالى ، وأخرب واديه ، فضربت به العربُ المثلَ في الكفر ، قَال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أنَّ حَارِثَةَ بنَ بَدْرٍ ... يُصلِّى وهو أَكفَرُ مِنْ حِمَارٍ

لَوْ كنْتِ منّا حذَوْنَاكِ

قَاله مُرَّةُ بن ذُهْل لابنه هَمَّام ، وقد قطع رجله ، وذلك أن مُرَّة أصابت رجله أَكلة ، فأمر بقطعها ، فدعا بنيه ليقطعوها ، فكلهم كره ذلك ، فدعا ابنَه نَقيذا وهو همام بن مُرَّة وكان أجْسَرَهم ، فَقَال : اقطعها يا بني ، فقطعها همام ، فلما رآها مُرَّة بانت قَال : لو كنت منا حَذَوْنَاك ، فأرسلها مَثَلاً ، يقول : لو كنت صحيحة جعلنا لك حِذَاء .

يضرب لمن أَهْمَلَ إكرامَهُ لخَصْلَةِ سوء تكون فيه

لَوْ كانَ ذَا حِيلَةٍ لَتَحَوَّلَ

يُقَال : جلس رجل في بيت ، وأوقدَ فيه نارا ، فكثر فيه الدخان حتى قتله ، فَقَالت امرأته : أي فتى قتله الدخان؟ فَقَال لها رجل : لو كان ذا حيلة لَتَحَوَّل ، أي لو كان عاقلا لتحول من ذلك البيت فسلم ، قَال الصمعي : أي تحوَّل في الأمر الذي هو فيه ، يريد لتصرَّفَ فيه واستَعْمَلَ الحيلَةَ .

لَيْسَ لِعَيْنٍ ما رأَتْ وَلَكِنْ لِيَدٍ ما أَخَذَتْ

أصله أن رجلا أبصَرَ شيئاً مطروحاً فلم يأخذه ورآه آخر فأخذه ، فقال الذي لم

يأخذه : أنا رأيته قبلك ، فتحاكما ، فَقَال الحكم : ليس لعينٍ ما رأت ، ولكن ليدٍ ما أخَذَتْ .

لَنْ يَهْلِكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ

قَال المفضل : إن أول مَنْ قَال ذلك أكْثم بن صيفي[١] في وصية كتب بها إلى طيء ، كتب إليهم : أوصيكم بتَقْوَى الله وصلَة الرحم ، وإياكم ونكَاحَ الحمقاء ، فإن نكاحها غَرَر وولَدَهَا ضَيَاع ، وعليكم بالخيل فأكرَمُوهَا فإنها حُصُونُ العربِ ، ولا تَضعُوا رقاب الإبل في غير حقها فإن فيها ثمن الكريمة ، ورَقُوء الدم ، وبألبانهَا يتحف الكبير ويغذى الصغير ، ولو أن الإبل كُلِّفَت الطَّحْنَ لطحنت ، ولنَ يهلك امرؤ عَرَفَ قدرهُ ، والعدم عدم العقل لاعدم المال ، ولَرَجُلٌ خير من ألف رجل ، ومَنْ عَتَب على الدهر طالت مَعْتبَته ، ومن رضي بالقسم طابت معيشته ، وآفة الرأي الهوى ، والعادة أمْلَكُ ، والحاجة مع المحبة خير من البغض مع الغنى ، والدنيا دُوَل ، فما كان لك أتاك على ضَعْفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك ، والحسد داء ، والشماتة تُعْقب ، ومن يريد يوما يره ، قبل الرِّماء تُمْلأ الكَنَائن ، الندامة مع السفاهة ، دعامة العقل الحلم ، خير الأمور مَغَبَّةً الصَّبْرُ ، بقاء المودة عدل التعاهد ، مَنْ يَزُرْ غِبّاً يزدد حبا ، التغرير مفتاح البؤس ، من التواني والعجز نتجت الهلكة ، لكل شَيء ضَرَاوة فضر لسانك بالخير ، عِيٌّ الصمت أحسن من عي المنطق ، الحزمُ حفْظُ ما كلفت وترك ما كُفيت ، كثير التنصح يهجم على كثير الظِّنة ، مَنْ ألْحَفَ في المسألة ثقل ، من سأَل فوقَ قدره استحق الحرمان ، الرفق يُمْنٌ ، والخرقَ شؤم ، خير السخاء ما وافقَ الحاجة ، خير العفو ما كان بعد القدرة ، فهذه خمسة وثلاثون مَثَلاً في نظام واحد .

قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيبٍ

أصله أن قوما اجتمعوا يخطبون في صُلح بين حيين قتل أحدُهُما من الآخَر قتيلا ، ويسألون أن يرَضوا بالدِّية ، فبيناهم في ذلك إذ جاءت أمة يُقَال لها «جهيزة»

(١) أكثم بن صيفي هو أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروه بن أسيد بن عمرو المضري ، من مضر من عدنان . عرف بلقب حكيم العرب ، واشتقاق كلمة أكثم من الكثمة وهو عظم البطن ، رجل أكثم وامرأة كثماء .

فَقَالت : إن القاتل قد ظَفرَ به بعضُ أولياء المقتول فقتله ، فَقَالوا عند ذلك «قَطَعَتْ جهيزةُ قول كل خطيب» أَي قد استغنى عن الخُطَب .

يضرب لمن يقط على الناس ما هم فيه بَحَمَاقةً يأتي بها .

قَوِّرِي وَالطُفي

قَاله رجل لامرأته ، وكان لها صديقَ طَلبَ إليها أن تَقَدَّ له شراكين من شَرج أست زوجها ، فلما سمعت ذلك استعظمته وزَجَرته ، فأبى إلا أن تفعل ، فاختارت رضاه على صلاح زوجها ، فنظرت فلم تَجِدْ له وَجْهاً ترجو به إليه السبيل إلا أن عَصَبَتْ على مَبَالِ ابنٍ لها صغير بقصبة وأخفتها ، فَعَسُرَ عليه البولُ ، فاستغاث بالبكاء ، فلما سمع أبوهً البكاء سألها : ما يُبْكه؟ فَقَالت : أخذه الأسْرُ وقد نُعت لي دَوَاؤُه طريدة تُقَدُّ له من شَرْج استك ، فأعظَم الرجلُ ذلك ، وجعل الأمرُ لَا يزداد بالصبي إلا شدة فلما رأى أبوه ذلك اضطجع وقَال : دونَكِ يأمَّ فلان قَوِّرِى وَالطُفي ، فاقتطعت منه طريدةً لتُرْضى صديقها ، وأطلقت عن الصبي .

يضرب للرجل الغمر الغر ليحذر .

قد استَنْوَقَ الجَملُ

وكان بعض العلماء يخبر أن هذا المثل لطرَفة بن العبد ، وذلك أنه كان عند بعض الملوك والمُسَيَّبُ بن عُلَس ينشد شعراً في وصف جَمل ، ثم حوَّله إلى نعت ناقة ، فَقَال طرفه «قد استَنْوَقَ الجمل» ويقَال : إن المنشد كان المتلمس ، أنشد في مجلس لبنى قيس بن ثعلبة ، وكان طرفة يلعب مع الصبيان ويتسمَّع ، فأنشد المتلمس :

وَقَدْ أَتَنَاسَى الهمَّ عنْدَ احْتضَاره ... بنَاجٍ عَلَيْه الصَّيْعَرِيَّةُ مكدم
كُمَيْت كَنَاز اللَّحْم أوْحَميَرِيَة ... مُوَاشكَة تَنْفَى الحَصَى بمُلَثَّم
كأن على أَنْسَائِهَا عذْقَ خَصْبَة ... تَدلَّى منْ الكافُور غَيْرَ مُكَمَّمَ

والصيعرية : سِمَة تُوسَم بها النوقَ باليمن ، فلما سمع طَرَفة البيتَ قَال : استَنوقَ الجمل ، قَالوا : فدعاه المتلمس وقَال له : أخْرِجْ لسانَكَ ، فأخرجه فإذا هو أسْوَد ، فَقَال : وَيْلٌ لهذا من هذا .

قَال أبو عبيد : يضرب هذا في التخليط

أقْبَحُ هَزِيلين الفَرَسُ والمَرْأةُ

يحكى أن عمرو بن اللّيث عُرِضَ عليه الجند يوماً يعطي فيه أرزاقهم ، فعرض عليه رجل له فرس عَجْفاء ، فَقَال عمرو : هؤلاء يأخذون دَرَاهمي ويُسِّمُنون بها أكْفَالَ نسائهم ، فَقَال الرجل : لو رأى الأميرُ كَفْلها لاستسمن كَفَلَ دابتي ، فضحك عمرو ، وأمر له بِصِلةٍ ، وقَال : سَمِّنْ بها مركوبك .

لمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

يضرب لمن يسئ إليك وقد أحسنت إليه قَال الشاعر :

فَيَا عَجَباً لمن رَبَّيْتُ طِفْلاً ... أُلَقِّمُهُ بأطْرَافِ الْبَنَانِ
أعلِّمهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوَمٍ ... فَلَمَّا اشتَدَّ ساعَدُهُ رَمَانيَ
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي ... فَلَمَّا قَال قَافِيَةً هَجَانِي
أعلِّمهُ الْفُتُوَّةَ كُلَّ وَقْتٍ ... فَلَمَّا طَرَّ شارِبُهُ جَفَانِي

لَيْسَ المَزَكْزِكُ بأنْيَئِهِنَّ

أصله أن بعض الأعراب أصاب فراخَ المُكَّاء (الماء – كرمان – طائر ، ويجمع على مكاكى) فدَفَنَها في رَمَاد سُخْن ، وجعل يخرجهن ويأكلهن ، فنهض واحد منها حيًّا ، فعَدَا خلفه ، فأخذه وجعل يأكل ، فَقَال له صاحبه : إنه نيء ، فَقَال : ليس المزكْزكُ بأنْيَئِهِنَّ . يضرب في تساوي القوم في الشر .

والمزكزك : من قولهم «زَكَّ الدَّرَّاجُ» وهو مثل «زَّافّ الحمام» وذلك إذا تبختر حول الحمام واستدار عليها ساحباً ذناباه ، ويقَال «لحم نيءٌ» على وزن نيع بيِّنُ النُّيُوأة ، وناء اللحم يَنِيء نَيْأً ، وكذلك نَهِؤ اللحم ونَهِيءَ نُهُوأة ، إذا لم ينضج .

لَوْ غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ لَطَمَتْني

يَرْوي الأَصمَعي المثلَ على هذا الوجه ، وذلك أن حاتماً الطائي مَرَّ ببلاد عَنَزَةَ في بعض الأشهر الحُرُم ، فناداه أسير لهم يا أبا سَفَّانة أكَلَني الإسارُ والقمل ، فقال : وَيْحَكَ ! أسأتَ إذا نَوَّهْتَ باسمي في غير بلاد قومي ، فساوَمَ القومَ به ، ثم قَال : أطْلقُوه واجعلوا يَدي في القد مكانه ، ففعلوا ، فجاءته امرأة بغير لِيَفْصِدَهُ فقام فنَحَره ، فلطَمَتْ وَجْهَه ، فَقَال : لو غَيْرُ ذاتِ سِوَارٍ لطمتني ، يعنى أنى لا أقتَصّ من النساء ، فعُرِفَ ، ففَدَى نفسه فداء عظيما .

لَيْتَ حَفْصَةَ مِنْ رِجَالِ أمِّ عَاصِمٍ

هذا من أمثال أهل المدينة .

وأصله أن عمر رضي الله عنه مر بسُوق الليل وهي من أسواق المدينة ، فرأى امرَأةً معها لبن تبيعه ، ومعها بنت لها شابة ، وقد همت العجوز أن تَمْذُقَ لبَنَهَا ، فجعلت الشابة تقول : يا أمه ، لا تَمْذُقيه ولا تَغُشيِّه ، فوقفَ عليها عمر فَقَال : مَنْ هذه منك؟ قَالت : ابنتى ، فأمر عاصماً فتزوجها ، فولدت له أم عاصم وحفصة ، فتزوج عبد العزيز بن مَرَوَان أم عاصم ، فكانت حَسَنة العِشْرة لينة الجانب محبوبة عند أحمائها ، فولدت له عمر ، فلما ماتت خلف على حفصة ، فكانت سيئة الخلق تؤذى أحماءها ، فسئل مخنَّثٌ من موالي مروان عن حفصة وأم عاصم ، فَقَال : ليت حَفْصَة من رجال أم عاصم ، فذهبت مَثَلاً .

يضرب في تفضيل بعض الخلق على بعضٍ .

لَيْسَ لِرَجُلٍ لُدغَ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ عُذْرٌ

قَالوا : إن أول مَنْ قَال ذلك الحارث بن خَزَاز ، وكان من قَيْس بن ثعْلَبة ، وكان أَخْطَبَ بَكْرِيٍّ بالبصرة ، فخطب الناس لما قتل يزيد بن المهلب ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قَال : أيها النَّاسُ إن الفتنة تُقْبِلُ بشُبْهة وتُدْبر ببَيَان ، وليس لرجل لُدغَ من جُحْر مرتين عذر ، فاتقوا عَصَائبَ تأتيكم من قبل الشأم كالدِّلاَء قد انقطعت أوذامها ، ثم نزل ، فروَى الناس خطبته ، وصار قوله مَثَلاً .

لا مَخْبَأَ لِعِطْرٍ بَعْدَ عَرُوسٍ

ويروى «لا عِطْرَ بعد عَرُوس» قَال المفضل : أولُ من قَال ذلك امرَأة من عُذْرَةَ يُقَال لها أسماء بنت عَبد الله ، وكانَ لها زوج من بنى عمها يُقَال له عروس ، فمات عنها ، فتزوجها رجل من غير قومها يُقَال له نَوْفَل ، وكان أَعْسَرَ أَبخَرَ بخيلا دميما ، فلما أراد أن يظعن بها قَالت له : لو أذِنْتَ لي فرثَيْتَ ابنَ عمى وبكيت عند رَمْسه ، فَقَال افعلى ، فَقَالت : أبكيك يا عروسَ الأعراس ، يا ثعلبا في أهله وأسَداً عند البَاس مع أشياء ليس يعلمها الناس قَال : وما تلك الأشياء؟ قَالت : كان عن الهمة غير نَعَّاس ، ويُعْمِل السيف صبيحات الْبَاس ، ثم قَالت : يا عروس الأغر الأزهر ، الطيب الخيم الكريم المَخْبَر مع أشياءَ له لا تذكر ، قَال : وما تلك الأشياء؟ قَالت : كان عَيْوفاً للخَنَا

والمنكر ، طيب النَّكْهة غير أبخر ، أيسر غير أعسر ، فعرف الزوج أنها تُعْرِض به ، فلما رَحَل بها قَال : ضُمِّي إليك عطْرَك ، وقد نظر إلى قَشْوَة (قشوة العطر : وعاؤه) عطرها مطروحةً ، فقَالت : لا عِطْرَ بعد عَرُوس ، فذهبت مَثَلاً .

ويقَال : إن رجلا تزوج امرأة ، فأهْديَتْ إليه ، فوجَدَها تَفلة ، فقَال لها : أين الطيب؟ فقَالت : خبأته ، فقَالَ لها لا مخبأ لعطر بعد عروس ، فذهبت مَثَلاً . يضرب لمن لا يُدَّخَرُ عنه نَفَيْسٌ .

لاتَعْدَمُ الحَسْنَاءُ ذَاماً

وأول من تكلم بهذا المثل - فيما زعم أهل الأخبار - حُبَّى بنتُ مالك بن عمرو العَدْوَانية ، وكانت من أجمل النساء ، فسمع بجمالها مَلكُ غَسَّان فخطبها إلى أبيها ، وحكَّمه في مهرها ، وسأله تعجيلها ، فلما عَزَم الأمر قَالَت أمها لُتبَّاعها : إن لنا عند الملامسة رَشْحَة فيها هَنَة ، فإذا أرَدْتُنَّ إدخالها على زوجها فَطَيِّبْنهَا بما في أصدافها ، فلما كان الوقت اعْجَلَهُنَّ زوجُها ، فأغفلن تطيبها ، فلما أصبح قيل له : كيف وجدت أهلَكَ طروقتك البارحة؟ فقَال : ما رأيت كالليلة قط لولا رُوَيْحة أنكرتها؟ فقَالت هي مِنْ

خلف الستر : لا تعدم الحسناء ذاما ، فأرسلتها مَثَلاً .

لاَ يَملِكُ مَوْلًى لِمَوْلًى نَصْراً

قَال المفضل : إن أول من قَاله النعمانُ بن المنذر ، وذلك أن العَيَّار بن عبد الله الضَّبي كان يعادي ضرار بن عمر ، وهو من أسرته ، فاختصم أبو مَرْحَب اليَرْبُوعي وضرَار بن عمرو عند النعمان في شَيء فنَصَر العيارُ ضِرارا ، فقَال له النعمان : أتفعل هذا بأبي مَرْحَب في ضرار وهو مُعَاديك؟ فقَال العيار : آكل لَحْمِي ولا أدَعُه لآكِل ، فعندها قَال النعمان : لا يملك مولًى لمولًى نصرا ، وتقديره : لا يملك مولًى تَرْكَ نصرٍ أَو ادِّخَارَ نصر لمولاه ، يعني أنه يَثُور به الغضبُ له ، فلا يملك نفسَه في ترك نصرته .

لا يُرسِلُ السَّاقَ إلاَّ مُمْسِكاً ساقا

أصل هذا في الحِرْبَاء يشتدُّ عليه حَرُّ الشمس فَيَلْجَأ إلى ساق الشجرة يستظلُّ بظلها ، فإذا زالت عنه تحوَّلَ إلى أُخْرَى أعدَّهَا إلى نفسه ، ويقَال بخلاف هذا ، قَال

بعضهم : لا ، بل كلما اشتد حر الشمس ازداد نَشَاطا وحركة ، يعنى الحرباء فإذا سقط قرص الشمس سقط الحرباء كأنه ميت ، وإذا طَلَعَتْ تحرك وحيى ، وإنما يتحوَّلُ من غصن إلى آخر لزوال الشمس عنه

يضرب لمن لا يَدَعُ له حاجة إلا سأل أخرى .

وقَال :

بلت بأشْوَسَ مِنْ حِرْبَاء تَنْضُبَة لا يُرْسِلُ السَّاق إلا مُمْسِكاً سَاقَا(*)

لا مَاءَكِ أَبْقَيْتِ، وَلا حرِكِ أَنْقَيْتِ

ويروى «ولا دَرَنَك»

أصله أن رجلا كان في سفَر ومعه امرأته ، وكانت عَاركًا فَطَهُرَتْ ، وكان معها ماء يسير فاغتسلت ، فلم يكن يكفها لغسلها وأنْفَذَتِ الماء فبَقيا عطشانين ، فعندها قَال لها هذا القول

وقَال المفضل : أول من قال ذلك الضب بن أروى الكلاعى ، وذلك أنه خرج تاجرا من اليمن إلى الشام ، فسار أياماً ، ثم حاد عن أصحابه ، فبقى مفردا في تيه من الأرض حتى سقط إلى قوم لا يَدْرى من هم ، فسأل عنهم ، فأخبر أنهم هَمَدَان ، فنزل بهم ، وكان طريراً ظريفاً ، وأن امرَأة منهم يُقَال لها عمرة بنت سبيع هَويتَه وهَويَهَا ، فخطبها الضب إلى أهل بيتها ، وكانوا لا يزوِّجُون إلا شاعراً أو عائفاً أو عالماً بعيون الماء ، فسألوه عن ذلك فلم يعرف منهم شيئاً ، فأبوا تزويجه ، فلم يزل بهم حتى أجابوه ، فتزوجها ثم إن حَيًّا من أحياء العرب أرادوا الغارة عليهم ، فتطيروا بالضب فأخرجوه وامرأته وهى طامث ، فانطلقا ، ومع الضب سقَاء من ماء ، فسار يوماً وليلة ، وأمامهما عين يظنان أنهما يصبحانها ، فَقَالت له : ادفع إليَّ هذا السقاء حتى أغتسل فقد قاربنا العين ، فدفَعَ إليها السقاء ، فاغتسلت بما فيه ، ولم يكفها ، ثم صبحا العين فوجداها نَاضِبة ، وأدركهما العطش ، فقال لها الضب : لا ماءك أبقيت ولا حرَكِ أنقيت ، ثم استظلا بشجرة حيال العين ، فأنشأ الضب يقول : (هذا ليس بشعر ؛ لأَنه ليس مستقيم الوزن على بحر واحد .)

تَاللــه مَا طَلَّـةٌ أصَابَ بِهَا بَعْلاً سِوَاى قَوَارِعُ العَطَبِ

(*) المحفوظ في صدر هذا البيت : أنى أتيح له حرباء تنضبة .

وأيُّ مَهْــرٍ يَكُــونُ أثْــقَلَ مِـــــنْ   مَــا طَلَبُــوه إذاً مِــنَ الضـــــب
أنْ يَعْرِفَ المَاء تحْــتَ صُــمِّ الصَّفَــا   وَيُخْبِــرَ النَّــاسَ مَنْطقَــا الخطبِ
أخْرَجَنِــي قَوْمُهَــا بــأنَّ الرَّحَـــى   دَارَتْ بِشُــؤْمٍ لَهــم عَلَــى القُطْبِ

فلما سمعت امرأته ذلك فرحت وقَالت : ارجع إلى القَوم فإنك شاعرٌ ، فانطلقا راجعين فلما وصلا خرج القوم إليهما وقصَدُوا ضربهما وردُّوهما ، فَقَال لهما الضب : اسمعوا شعري ثم اقتلوني ، فأنشدهم شعره ، فنجا وصار فيهم آثَرَ من بعضهم . قَال الفرزدق :

وكُنْتُ كَذَاتِ الحَيْضِ لَمْ تُبقِ ماءَهَــا   ولا هِــي مِنْ مَــاءِ العَذَابةِ طاهِـرِ

لاَ أبُوكَ نُشِرَ وَلاَ التُّرَابُ نَفِدَ

قَال الأحمر : أصلُ هذا أن رجلاً قَال : لو علمت أين قُتِل أبى لأخَذْتُ من تراب موضعه فجعلتُهُ على رأسي ، فقيل له هذه المقَالة ، أي أنك لَا تُدْرِكُ بهذا ثأرَ أبيك ولا تقدر أن تنفد التراب .

يضرب في طلب ما يُجْدِ

لاَ أُحسِنُ تَكْذَابَك وَتَأْثَامَكَ، تَشُولُ بِلِسَانِكَ شَوَلاَنَ البَرُوقِ

يُقَال : البَرُوق الناقة التي تَشُولُ بذنبها فيظن بها لَقَح وليس بها ، ويقَال : أبرقَتِ الناقةُ فهى بَرُوقٌ ، كما يُقَال : أعَقَّت الفرسُ فهي عَقُوق ، وأنتجَت فهي نَتُوج .

وأصل هذا أن مُجَاشع بن دَارِم وفَدَ على بعض الملوك ، فكان يُسَامره ، وكان أخوه نَهْشَل بن دارم رجلا جميلا ، ولم يك وَفاداً إلى الملوك ، فسأله الملكُ عن نَهْشَل ، فَقَال : إنه مُقيم في ضَيْعته ، وليس ممن يَفدُ على الملوك ، فَقَال : أوْفِدْهُ ، فلما أوفَدَه اجتهره (اجتهره : رآه جميل المنظر ، وجهره أيضاً)

ونظر إلى جَمَاله فَقَال له : حدثني يا نهشل ، فلم يجبه ، فقال له مجاشع : حدث الملكَ ، فَقَال : إني والله لا أحسن تَكْذابَكَ وتأثامك تشول بلسانك شوَلان البروق .

يضربه من يقل كلامُه لمن يكثر

لاَ ناقتي في هذا ولا جملي

أصل المثل للحارث بن عُباد حين قَتَلَ جَسَّاسُ بن مرةَ كليباً وهاجت الحربُ بين الفرقين ، وكان الحارثُ اعتزلها ، قَال الراعي :

وَمَا هَجْرتُــك حَتَّــى قُلْــتِ مُعْلنَــةً لا نَاقَــةٌ لــي فِــي هذَا ولاَ جَمَلُ

يضرب عند التبري من الظلم والإساءة وذكروا أن محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب شرور لما خرج الناس على الحجاج فَقَال : لا ناقتي في ذا ولا جَمَلِي ، فلما دخل بعد ذلك على الحجاج قَال : أنت القائل لا ناقتي في ذا ولا جملي؟ لا جَعَلَ الله لك فيه ناقة ولا جملا ولا رَحْلا ، فشمتَ به حجار ابن أبجر العجلى وهو عند الحجاج ، فلما دعا بَغدَائه جاؤا بِفُرْنِيةٍ(*) .

وقَال الهذلى :

نقابــل جوعهــم بمكللات من الفرنى يرغبها الجميــل

فَقَال ضعوها بين يَدَي أبى عبد الله فإنه لَبَنِيٌّ يحبُّ اللبن ، أراد أن يدفع عنه شَمَاتة حجار .

وقَال بعضهم : إن أول مَنْ قَال ذلك الصَّدوف بنت حُلَيْس العُذرية ، وكان من شأنها أنها كانت عند زيد بن الأخنس العُذري ، وكان لزيد بنتٌ من غيرها يقَال لها الفارعة ، وإن زيداً عَزَلَ ابنتَه عن امرأته في خباء لها ، وأخْدَمها خادماً ، وخرج زيدٌ إلى الشام ، وإن رجلا من عُذْرَة يُقَال له شَبَث هَوِيَها وهويَتْه ، ولم يزل بها حتى طاوعته ، فكانت تأمر راعىَ أبيها أن يُعَجِّلَ ترويحَ إبله ، وأن يحلب لها حلبة إبلها قَيْلاً ، فتشرب اللبن نهاراً ، حتى إذا أمست وهَدأ الحيُّ رُحِلَ لها جمل كان لأبيها ذَلُول فقعدت عليه وانطلقا حتى كانا ينتهيان إلى مَتْيَهة من الأرض فيكونان بها ليلتهما ، ثم يقبلان في وَجْه الصبح ، فكان ذلك دَأبَهُما ، فلما فَصَلَ أبوهَا من الشأم مَرَّ بكاهنة على طريقه ، فسألها عن أهله ، فنظرت له ثم قَالت : أرى جَمَلَكَ يُرْحَلُ ليلا ، وحلَبَةَ تَحْلب إبلَكَ قَيْلا ، وأرى نعما وخيلا ، فلا لبث ، فقد كان حدث ، بآل شيث ، فأقبل زيد لا يلوى على شَيء حتى أتى أهلَه ليلا ، فدخل على امرأته وخَرَجَ من عندها مُسْرعاً حتى دخل خِباء ابنته ، فإذا هي ليست فيه ، فَقَال لخادمها : أين الفارعة ثَكَلَتْك أمك؟ قَالت : خرجت تمشى وهى حرود ، زائرة تعود ، لم تر بعدك شَمْسا ، ولا شهدت عرسا ، فانفتل

(*) الفرنية : نوع من الخبز غليظ نسبوه إلى الفرن .

عنها إلى امرأته ، فلما رأته عَرَفَت الشَّر في وجهه ، فَقَالت : يازيد ، لا تَعْجَلْ وَاقْفُ الأثر فلا ناقة لي في هذا ولا جمل ، فهي أول من قَال ذلك .

لاَ تَقَسْطْ عَلَى أبى حِبَالٍ

كان حِبال بن طُلَيْحة بن خُويلد لقى ثابت بن الأفرم وعُكَاشة بن مِحْصن ، وكان طليحة تنبأ على عهد رسول الله ﷺ ، فقتل ثابت وعكاشة حِبَالاً ، فجاء الخبر إلى طليحة ، فتبعهما وقتلهما ، وقَال :

فَإنْ تَكُ أذْوَادٌ أصِبْنَ وَنَسْوَةٌ ... فَلَنْ يَذْهَبُوا فَرْغاً بِقَتْلِ حِبَالِ
وَمَا ظنكم بالقَوْم إذْ تَقْتُلُونَهُ ... ألَيْسُوا وَإنْ لَمْ يُسْلِمُوا بِرِجَالِ
عَشيَّةَ غَادَرْتُ ابنَ أفْرَمَ ثَاوياً ... وَعُكَّاشَةَ الغنمى عَنْهُ بِحَالِ

فلما رأت بنو أسد صنيعَ طليحة وطَلبه بثأر ابنه قَالوا : لا تَقْسِطْ على أبى حَبال فذهبت مَثَلاً .

يضرب لمن يُحْذَر جانبه ويُخْشَى وتْرُه .

لاَ فِي ولاَ في النَّفيرِ

قَال المفضل : أولُ من قَال ذلك أبو سفيان بن حَرْب ، وذلك أنه أقْبَلَ بعِير قريش ، وكان رسول الله ﷺ قد تَحَيَّنَ انصرافها من الشأم فَنَدَب المسلمين للخروج معه ، وأقبل أبو سفيان حتى دنا من المدينة وقد خاف خوفاً شديداً ، فَقَال لمجدىّ بن عمرو : هل أحْسَسْتَ من أحد من أصحاب محمد؟ فَقَال : ما رأيت من أحد أنكره إلا راكبين أتيَا هذا المكَانَ ، وأشار له إلى مكان عديٍّ وبسبس عيني رسول الله ﷺ ، فأخذ أبو سفيان أبْعَاراً من أبعار بعيريهما ففَتَّها فإذا فيها نوىً ، فَقَال : علائفُ يَثْرب ، هذه عيون محمد ، فضرب وجوه عِيْرِه فسَاحَلَ بها وترك بَدْراً يساراً ، وقد كان بَعَثَ إلى قريش حين فَصَلَ من الشأم يخبرهم بما يخافه من النبي ﷺ ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير ، ويأمرهم بالرجوع ، فأبَتْ قريش أن تَرْجع ورَجَعَتْ بنو زهرة من ثنيَّة أجدى ، عدلوا إلى الساحل مُنْصَرِفين إلى مكة ، فصادفهم أبو سفيان فَقَال : يابنى زهرة لا في العير ولا في النفير ، قَالوا : أنت أرسلْتَ إلى قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر ، فواقعهم رسول الله ﷺ ، فأظفره الله تعالى بهم ، ولم يشهد بدراً من المشركين من بنى زهرة أحد .

قَال الأَصمَعي : يضرب هذا للرجل يحطُّ أمره ويصغر قدره .

وروى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالداً فَقَال : يا أخى لقد هممت اليوم أن أَفْتكَ بالوليد ابن عبد الملك ، فَقَال له : والله بئسما هممت به في ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ، فَقَال : إن خيلى مَرَّتْ به فتعبث بها وأصغرها وأصغرنى ، فَقَال خالد : أنا أكْفيكَهُ ، فدخل خالد إلى عبد الملك والوليد عنده فَقَال : يا أمير المؤمنين إن الوليد مَرَّتْ به خيلُ ابن عمه عبد الله بن يزيد بن معاوية فتبعث بها وأصغره ، وعبدُ الملك مُطرق ، فرفع رأسَه وقَال : إن المُلُوك إذا دخلوا قريةً أَفْسَدُوها ، وجَعَلُوا أعزَّةَ أهلها أذلَّةً ، إلى آخر الآية ، فَقَال خالد : وإذ أَرَدْنَا أن نُهْلكَ قريةً أمرنا مُترفيها ، إلى آخر الآية ، فَقَال عبد الملك : أفي عبد الله تكلمي؟ والله لقد دَخَلَ عَلَيَّ فما أقام لسانه لحنا ، فَقَال خالد : أفَعَلَى الوليد تعول؟ فَقَال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا ، فَقَال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالدا لا ، فَقَال له الوليد : اسكُتْ يا خالدُ فوالله ما تعدُّ في العيرِ ولا في النَّفير ، فَقَال خالد : اسْمَعْ يا أمير المؤمنين ، ثم أقبل عليه فَقَال : ويْحَكَ ! مَنْ في العير والنفير غيري؟ جَدِّي أبو سفيان صاحبُ العير ، وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النَّفير ، ولكن لو قلت «غُنَيْمات وجُبَيْلاَت والطائف ورحم الله عثمان» قلنا : صدقت ، عَنَى بذلك طَرْدَ رسول ﷺ الحكَم إلى الطائف إلى مكان يدعى غَنيمات ، وكان يأوي إلى حُبْلَةَ وهى الكَرْمة ، وقوله «رَحِمَ الله عثمان» لردِّه إياه .

لاَ أفْعَلُ كذَا مَا أَرْزَمَتْ أُمُّ حائِلٍ

أَرْزَمَتِ الناقة ؛ إذا حَنَّتْ ، والحائل : الأنثى من أولادها ، أي لا أفعلُه أبداً

لاَ تُرَاهِنْ عَلَى الصَّعْبَةِ وَلاَ تَنْشد القَرِيضَ

هذا المثل للحُطَيئة ، لما حَضرَته الوَفَاة اكْتَنَفَهُ أهلُهُ وبنو عمه ، فقيل : يا حُطَيْءُ أوْصِ ، قَال : وبِمَ أوصي؟ مالي بين بنيَّ ، قَالوا : قد علمنا أن مالك بيني وبنيك فأوْصِ ، فقال : وَيْل للشِّعْر من راوية السوء ، فأرسلها مَثَلاً ، فَقَالوا : أوصِ ، فَقَال : أخبرُوا أهلَ ضابئ بن الحارث أنه كان شاعراً حيث يقول :

لكُلِّ جَديد لَذَة ، وغيرَ أنَّني وَجَدْتُ جَديدَ المَوْتِ غيرَ لذيذ

ثم قَال : لاَ تُرَاهِنْ على الصَّعبة ولاَ تنشد القريض ، فأرسلها مَثَلاً .

يضرب في التحذير

وفي بعض الروايات أنه قيل له : يا أبا مُلَيْكَةَ أوْصِهْ ، قَال : مالي للذكور دون الإناث ، قَالوا : إن الله لم يأمر بذا ، قَال : فآتى آمر ، قَالوا : أوْصِهْ ، قَال : أخبروا آل الشماخ أن أخاهم أشْعَرُ العرب حيث يقول :

وظلت بأعراف صياماً كأنَّهَا رمَاحُ نَحَاهَا وجهة الريح رَاكِزُ

قَالوا : أوْصِيهْ فإن هذا لا يُغْنِى عنك شيئاً ، قَال : أبلِغُوا كِنْدَة أن أخاهم أشْعَرُ العرب يقول :

فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ كأنَّ نُجُومَهُ بأمْرَاسِ كتَّان إلى صُمِّ جَنْدَلِ

يعنى امرؤ القيس ، قَالوا : أوْصِهْ فإن هذا لا يغنى عنك شيئاً ، قَال : أخْبِرُوا الأنصارَ أن أخاهم أمْدَحُ العرب حيث يقول :

يُغْشُونَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلاَبُهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ

قَالوا : أوصه فإن هذا لا يغنى عنك شيئاً قَال : أوصيكم بالشعر خيراً ، ثم أنشأ يقول :

الشعْرُ صَعْبٌ وَطَويلٌ سُلَّمُهْ إذا ارْتَقَى إلى الَّذي لاَ يَعْلَمُه
زَلَّتْ بِهِ إلَى الحَضِيضِ قَدَمُهْ وَالشِّعْرُ لاَ يُطيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ
يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ ولَمْ يَزَلْ منْ حَيْثُ يأتي يَخْرِمُهْ
مَنْ يَسِم الأعْدَاء يبقى مِيسَمُهُ

قَالوا : أوْصهْ فإن هذا لا يبقى عنك شيئاً ، قَال :

قد كُنْتُ أحْيَانَاً شَديدَ المُعْتَمَدْ وَكُنْتُ أحياناً عَلَى خَصْمِى ألَدْ
قَدْ وَرَدَتْ نَفْسِي وَمَا كَادَتْ تَرِدْ

قَالوا : أوْصِهْ فإن هذا لا يغنى عنك شيئاً ، قَال : واجَزَعَاهُ على المديح الجيد يُمْدَح به من ليس من أهله ، قَالوا : أوْصِهْ فإن هذا لا يغنى عنك شيئاً ، فبكى ، قَالوا : وما يبكيك؟ قَال : أبكى الشعرَ الجيدَ ، من راوية السوء ، قَالوا : أوص للمساكين بشَيء ، قَال : أوصيهم بالمسألة وأوصِ الناسَ أن لا يُعْطُوهم ، قَالوا : أعتِقْ غُلامك فإنه قد رَعَى عليك ثلاثين سنة ، قَال : هو عبد ما بقى على الأرض عبسي ، ثم قَال : احملوني على حماري ودُورُوا بي حول هذا التل فإنه لَم يَمُتْ على الحمار كريم ، فعسى ربي أن يرحمني ، فحمله ابناه وأخذا بضبْعَيه ثم جَعَلاَ يسوقان الحمار حول التل ، وهو يقول :

قَــدْ عَجَّلَ الدَّهْرُ والأَحْدَاثُ يتمكمـا   فَاسْتَغْنَيَــا بوشَيــك إنَّنــي عَـان
وَدَلَّيَانــي فــي غَبْــرَاءَ مُظْلِمَــة   كَمَــا تدلــى دلاءُ بَيْــنَ أشْطَـانِ

قَالوا : يا أبا مليكة ، مَنْ أشْعَرُ العرب؟

قَال : هذا الجُحَير ، إذا طمع بخير ، وأشار بيده إلى فيه ، وكان آخر كلامه ، فمات وكان له عشرون ومائة سنة ، منها سبعون في الجاهلية ، وخمسون في الإسلام .

ويروى أنه أراد سَفَراً ، فلما قَدَّم راحلته قَالت له امرأته : متى ترجع؟ فَقَال :

عُــدِّي السِّنِــينَ لغيبتــي وتصبري   ودعــي الشُّهــورَ فَإنَّهُــنَّ قِصَــارُ

فَقَالت :

اذْكُــرْ صَبَابَتَنَــا إلَيْــكَ وَشَوْقَنَــا   وَارْحَــمْ بَنَاتِــكَ إنَّهُــنَّ صِغَــارُ

قَالوا : وما مدح قوماً إلا رفعهم ، وما هجا قوماً إلا وضعهم . وقال يهجو نفسه وقد نظر في المرآة ، وكان دَميماً :

أبَــتْ شَفَتَــاي اليَــوْمَ إلاَّ تَكَلُّمــاً   بسُــوء ، فَمَــا أدرى لِمَــنْ أنَا قَائلُهْ
أرَى لــيَ وَجْهــاً شَــوَّهَ اللــه خَلْقَهُ   فَقُبِّــحَ مِــنْ وَجْــهٍ وَقُبِّحَ حَامِلُـهْ

لاَ تَكُنْ أَدْنَى العَيْرَيْنِ إلَى السَّهْمِ

أي لا تكن أدنى أصحابك من التَّلَفِ يضرب في التحذير .

لا تَحْبَقُ في هذا الأمرِ عَنَاقٌ حَوْلِيَّةٌ

قَاله عدى بن حاتم حين قُتل عثمان رضي الله عنه ، فلما يومُ الجمل فقُئت عين عدى وقُتل ابنه بصفِّين ، فقيل له : يا أبا طريف ، ألم تزعُم أنه لا تحبق في هذا الأمر عَنَاقٌ حولية؟ فَقَال : بَلَى والله ، التَّيْسُ الأعظَم قد حَبَق فيه ، قَالوا : ولما كان بعد ذلك دخَلَ على معاوية وعنده عبد الله بن الزبير ، فَقَال ابن الزبير : يا أمير المؤمنين هجْهُ فإنَّ عنده جواباً ، فَقَال معاوية : أما أنا فلا ، ولكن دونك إن شئت ، فَقَال له ابن الزبير : أي يوم فقئت عينك يعادى ، قَال : في اليوم الذي قُتلَ فيه أبوك مُدْبِراً وضُرِبْتَ على قفاك مُوَالِّيا ، فأفحَمَهُ .

يضرب المثل في الأمر لاَ يُعْبَأ به ولا غِيَرَ له ، أي لا يدرك فيه ثأر .

لاَ عِتَابَ عَلَى الجَنْدَلِ

ذكر بعضُهم أن مَلِكة كانت بسبأ ، فأتاها قوم يخطبونها ، فَقَالت : لِيَصِفْ كلُّ رجلٍ منكم نفسه ، وليَصْدُقْ وليُوجزْ ، لأتقدم إن تقدمت أو أدَعَ إن تركت على عِلْم ، فتكلَّم رجل منهم يُقَال له مُدْرِك فَقَال : إن أبي كان في العز الباذخ ، والحسَبِ الشامخ ، وأنا شرس الخليقة ، غيرُ رِعْدِيد عند الحقيقة ، قَالت : لا عتابَ على الجندل ، فأرسلتها مَثَلاً .

يضرب في الأمر الذي إذا وَقَعَ لا مَرَدَّ له قَال أبو عمرو .

ثم تكلم آخر منهم يُقَال له ضَبِيسُ بن شرس ، فَقَال : أنا في مال أثيث ، وخُلُق غير خبيث ، وحسَب غير عَثيث ، وأخذُو النعلَ بالنعلِ ، وأجْزَى القَرْضَ بالقَرض ، فَقَالت : لا يَسُرُّكَ غائبا من لا يسرك شاهدا ، فأرسلتها مَثَلاً .

ثم تكلم آخر منهم يُقَال له شَمَّاس بن عبَّاس ، فَقَال : أنا شَمَّاس بن عباس ، معروف بالنَّدَى والباس ، حُسْنُ الخلق في سجيته ، والعدل في قضيتي ، مالي غير مَحْظُور على القُلِّ والكُثْر ، وبابي غيرُ محجوبٍ على العُسْر واليُسْر ، قَالت : الخير مُتَّبَع والشرُّ محذور ، فأرسلتها مَثَلاً .

ثم قَالت : اسمع يا مُدْرِك وأنت يا ضَبِيس ، لن يستقيم معكما مُعاشرة لعشير حتى يكون فيكما لين عَرِيكة ، وأما أنت يا شَمَّاس فقد حَلَلْتَ منى محلَّ الأهزَعِ (الهزع : آخر ما يبقى من السهام في الكنانة ، والكنانة : وعاء السهام) . من الكِنَانَةَ والواسطة من القلادة ؛ لدَمَاثة خُلُقك وكَرَم طِبَاعك ، ثم اسْعَ بِجِدٍّ أودَعْ ، فأرسلتها مَثَلاً ، وتزوجت شماسا .

لا أفْعَلُ كَذَا ما أنَّ السَّماءُ سَمَاءٌ

أي ما كان السماء سماء .

لاَ يُجْمَعُ سَيْفَانِ فِي غِمْدٍ

قَال أبو ذؤيب :

تُرِيدِينَ كَيمَا تَجْمَعِينِي وَخَالِداً وَهَلْ تُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيْحَكِ فِي غِمْدِ؟

لاَأَكُونُ أَوَّلَ مَنِ التَبَأَ لِبأَهُ

يُقَال : ألبَأَتِ الشاة ولَدَها ، أي أرضعته الِّلبأ ، والْتَبَأها وَلَدها .

وأصل المثل أن حكيم بن مُعَّية بن ربيعة الجوع كانت عنده امرَأة من بنى سَليط ، وكان حكيم راجزاً ، وكان جرير يهجو بنى سليط ، فَقَالت بنو سليط لحكيم : قَبَحَك الله من صهر قوم ، هذا الغلام يقطع أعراضنا – يعنون جريرا – وأنت راجز بنى تميم لا تعينُ أبا زوجك ، فخرج حكيم نحوه ، وأقبل مع بنى سليط ، ودون الموقف الذي به جرير والجماعة نَجْفَة – وهي ما ارتفع من الأرض كالأكَمة – قَال حكيم : فلما وافيتها سمعتُه يقول

لا تَحسَبَنِّي عَنْ سَليط غَافلاَ   إنْ تَغشَ لَيْلاً بسَليط نازلاَ
لاَ تَلْقَ أفْرَاساً وَلاً صَوَاهلاَ   وَلاَ قِرَى لِلْنازلينَ عَاجلاَ
لا يتقى حُولاً ولا حَوَاملاَ   يترك أصْفَانَ الخُصَى جَلاً جلاَ

فنكصتُ على عَقبى ، فَقَالت لي بنو سليط : أين تريد؟ فقلت : والله لقد جلجل الحصى جلجلةً لا أكون أولَ من التَبَأ لِبَأة فعرفتُ أنه بحر لا يُنكش ولا يُفْثَج ، (لا ينكش : لا ينزف ولا يغيض ، ولا يفثج : لا ينزح)

فنكصْتُ وانصرفت عنه ، وقلت : ايم الله لا جلجلتني اليوم ، فأرسلها مَثَلاً ، ومعنى قوله «لا أكون أول من التَبَأَ لِبَاه» أي لا أعرض نفسى لهجائه ولا أتحكك به .

لاَ يَكْذِبُ الرائِدُ أَهْلَهُ

وهو الذي يُقَدِّمُونه لَيرْتاد منزلاً أو ماء أو موضع حِرْز يَلْجَؤن إليه من عدو يطلبهم ، فإن كَذَبهم صار تدبيرهم على خلاَف الصواب ، وكانت فيه هَلَكتهم ، أي أنه وإن كان كذاباً فإنه لاَ يكذب أهله .

يضرب فيما يُخَاف من غِبِّ الكذب .

قَالَ ابنُ الأعرابي : بعثَ قوم رائداً لهمْ فلما أتاهُم قَالَوا : ما وراءك؟ قَالَ : رأيت عُشْباً يشبعْ منهُ الجملُ البروكْ ، وَتَشكَت منه النساء ، وهَمَّ الرَجلُ بأخيه ، يقول : العشب قليل لاَ يناله الجمل من قصره حتى يبرك ، وقوله «تشكت منهُ النساء» أي منْ قلَّته تحلب الغنم في شَكْوَة ، وقوله «وهمَّ الرجُلُ بأخيه» أي تقاطَعَ النَاسُ فهمَّ الرجَلُ أَنْ يدعو أخاه ويصله من قلةِ العشب .

لاَ حسَاسَ مِنَ ابْنِي مُوقِدِ النَّارِ

يُقَال : إنَ رَجُلين كانَ يُقَال لَهُما ابنا موقد النار ، كانا يُوقِدَان على الطريق ، فإذا

مرَّ بهما قومٌ أضافاهم ، فمضيا ومر بهما قوم فلمْ يَرُوهما ، فقيل : لاَ حِساس منْ ابني موقد النار ، والحِسَاس : ما يُحَسْ أي يُرَى ، يعنى لاَ أثر منهُما يُبْصَر .

يَضرب في ذَهاب الشيء البتة حتى لاَ يرى منهُ عَيْن ولاَ أَثَر .

لاَ تُعلِّم اليتيمَ البُكَاءَ

أولَ مَنْ قَالَ ذَلكَ زُهَير بِن جَنَاب الكلبي وكانَ منْ حَديثَهُ أنَ عَلْقَمة بن جِذْل الطِّعَان بن فِرَاس بن غَنم بن ثعلبة أغار على بنى عبد الله بن كنانة بن بكر وهم بُعْسفَانَ ، فقَتل عبد الله بِن هبل عبيدَةَ بِن هُبل ومالكَ بِن عُبَيدة وصَرِيم بن قيس بن هُبَل ، وأسَرَ مالك بن عبد الله بن هُبل ، فلما أصيبوا وأَفْلَتَ من أَفْلَتَ أقبلت جارية من بنى عبد الله بن كنانة فَقَالَت لزهير ولمْ تَشهد الوقعة : يا عماه ، ما تَرَى فَعَلَ أبى؟ قَالَ : وعلى أي شيء كان أبوكِ قَالَت : على شَقَّاء نَقَّاء ، طويلة الأنقاء ، تَمَطَّق بالعرق ، تَمَطَقَ الشيخ بالمرق ، قَالَ : نجا أبوكِ؟ ثم أتته أخرى فَقَالَت : يا عماه وما ترى فَعَلَ أبى؟

قَالَ : وعلى أي شيء كان أبوكِ؟ قَالَتْ : على طويل بَطْنُها ، قصير ظَهْرها ، هاديها شَطْرها ، يكُبُّها خَصْرُها ، قَالَ : نجا أبوكِ ، ثم أتتهُ بِنتُ مالك بن عُبيدة بن هُبَل فَقَالَت : يا عماه ، وما ترى فَعَلَ أبى؟ قَالَ : وعلى أي شيء كان أبوكِ؟ قَالَتْ : على الكَزَّة الأَنُوح ، التي يكفيها لَبَنُ الَّلقُوح ، قَالَ : هَلكَ أبوكِ ، قَالَ : فَبَكَتَ ، فَقَالَ رجل : ما أسوأ بُكَاءها ، فَقَالَ زهير : لاَ تُعَلِّم اليتيم البُكاء .

لاَ حُرَّ بِوَادِي عَوْف

هو عَوْف بن مُحَلِّم بن ذُهلِ بن شَيْبَان ، وذلك أن بعض الملوك – وهو عمرو بن هند – طلب منه رَجُلاً ، وهو مروان القَرظ ، وكان قد أجارَه ، فمنعه عوف وأبىَ أن يُسْلمه ، فَقَالَ الملك : لاَ حُرَّ بوادي عَوْفَ ، أي أنه يقهر مَنْ حَلَّ بواديه ، فكلُ مَنْ فيه كالعبد له لطاعتهم إياه .

وقَالَ بعضهم : إنما قيل ذلكَ لأنه كَانَ يَقْتُل الأَسارىَ ، وقد ذكرت قصة مروان مع عوف في حرف الواو عند قولهم «أَوْفَى من عَوْف بن محلِّم» .

وقَالَ أبو عبيد : كان المفضل يخبر أن المثل للمنذر بن ماَء السماء قَالَه في عوف بن محلِّمٍ ، وذلك أن المُنذر كان يطلب زهير بن أمية الشيباني بذَحْل ، فمَنَعَه عوف ،

فعندها قَالَ المنذر : لاَ حُرَّ بوادي عوف .

وكان أبو عبيدة يقول : هو عَوْف بن كَعْب بن سَعْد بن زَيْد مَنَاة بن تميم .

لا يُحسْنُ العَبْدُ الكَرَّ إلاَ الحلْبَ والصَّرَّ

يُقَال : إن شَدَّاداً العيسيِّ قَالَ لاَبنه عنترة في يوم لقاء ورآه يتقاعَسُ عن الحرب وقد حَميتْ فقال : كر عَنْتَر ، فَقَالَ عنترة : لاَ يُحْسنُ العبدُ الكَرَّ إلاَ الحلب والصَّرَّ ، وكانت أَمه حَبَشية ، فكان أبوه كأنه يستخفّ به لذَلك ، فلما قَالَ عنترة لاَ يحسن العبد الكر قَالَ له : كر وقد زوجتك عَبْلَة ، فكرّ وأبْلَى ، ووَفى له أبوه بذلك فزوجه عبلة ، والصَّرُّ : شد الصِّرَار وهو خيط يشد فوق الخِلْفِ والتَّوْدية (الخلف للناقة كالثدي للمرأة ، والتودية : خشبة تشد على خلف الناقة إذا صرت ، وجمعه توادى .)

لئلاَ يرضعَ الفيصلُ أمه ، ونصب الحلب على أنه استثناء منقطع كأنه قال : لا يحسن العبدُ الكرَّ لكن الحلب والصر يحسنهما .

يضرب لمن يكلّف مالاَ يطيق .

لاَ تُهْدِي إلى حمَاتِكِ الكَتِفِ

يضرب لمن يُباسط إخوانَهُ بالحقير الرديء .

وأصله أَن امرأة وصَّتْ بنتها فَقَالَت : لاَ تهدي إلى حماتك الكتفَ ، فإن الماء يجرى بين أَلَلَيْها قَالَ أبو عبد الله : الأللان هما اللحمتان المطارقتان من على يمين البعير ويساره ، وقَالَ أبو الهيثم : لاَن بينهما رَجْرَجَةً أي ماء غليظاً .

أَلْهَفُ مِنْ قَضِيبٍ

هَذا رجُلٌ منَ العربِ كانَ تَمَّاراً باليحرينِ وكانَ يأتي تاجراً فيَشتري منهُ التمرَ ، ولم يكنْ يُعاملُ غَيرهُ ، وإن ذلكَ التاجرُ اجتمعَ عندهُ حَشَف كثيرٌ من التمرِ الذي كانَ يبَيعَهُ ، فَدَخَل يَوماً ومَعهُ كيسٌ له فيه دَنانير كثيرةٌ ، فَطرحهُ بَين ذلكَ الحشَف ، وأُنْسِيَ رَفْعَة منْ هُناكَ ، وأتاه الأَعرَبي كما كانَ يأتيه يشتري منهُ التَمرَ ، فَقَالَ في نفسه : هذا أعرابي وليسَ يدري ما أعطيه ، فلاَ صيرن هذا الحشفَ فيما يبتاعه ، فلما ابتاعَ منهُ التمر عَدَّ عليه قَوْصَرَّةَ الحشَفِ التي فيها الدَنانير ، ومضى قضيب بما اشترى منَ التمرِ ، فباع جميعَ ما معه من التمر غير الحشف ، فإنه لم يقدر على بيعهِ ولمْ

يأخذه منهُ أحدٌ ، وتذكر التمار كيسَه ، وعلم أنه باع القَوصَرَّةَ غلطاً ، فأخذ سكيناً وتبع الأَعرَبي فلحقهُ وقَالَ : إنكَ صديقٌ لي وقد أعطيتكَ تمراً غير جيد فَرُدَّه علي لأعوضك الجيد ، فأخرجَ الجلدة إليه ، فنَثَرها وأخرجَ منها دنانيرهُ ، وقَالَ للأعرابي : أتدري لم حملتُ هذا السكين معي؟ قَالَ : لاَ ، قَالَ : لأشق بها بَطني إن لمْ أجد الدنانير ، فَتَنَفَّسَ الأَعرَبي وقَالَ : أرني السكين ، ناولنيه ، فناوله إياه ، فشقَّ به بطن نفسه تلهفاً ، فضربت به العربُ المثل فَقَالَوا : ألهف من قضيب ، وهو أفعل من لَهِفُ يَلْهَفُ لهفاً ، وليس من التلهف ؛ لأن أفعل لاَ ينبني من المنشعبةَ إلاَ شاذاً .

وفي هذا الرجل يقول عروة بن حُزام :

ألاَ لاَ تَلُومَا لَيْسَ في اللوم رَاحَةٌ ... فَقَدْ لُمْتُ نَفْسي مِثْلَ لَوْمِ قَضِيبِ

ما وَرَاءِكَ يَا عِصَام؟

قَالَ المفضل : أولُ من قَالَ ذلك الحَارث بن عمرو مَلكُ كِنْدَةَ ، وذلك أنه لما بلغه جَمَالُ ابنة عَوْف بن مُحَلِّم الشَّيْبَاني وكمَالُها وقوة عَقْلها دعا امرأةً من كِنْدَة يُقَال لها عِصَام ذاتَ عقل ولسان وأدَب وبَيَان ، وقَالَ لها : اذهبي حتى تعلمي لي عِلْم ابنَة عَوْف ، فمضَتْ حتى انتهت إلى أمها ، وهي أمامَةُ بنةُ الحَارث ، فأعلمتها ما قدمَتْ له ، فأرسلت أمامة إلى ابنتها ، وقَالَت : أي بنية ، هذه خالتُك أتَتْك لتنظر إليك ، فلاَ تستُري عنها شيئاً إن أرادت النظر من وجه أو خلق ، وناطقيها إن استنطقتك ، فدخلت إليها فنظرت إلى ما لم ترقَطُ مثله ، فخرجت من عندها وهي تقول : ترك الخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ القَناع ، فأرسلتها مثلاً ، ثم انطلقت إلى الحارث فلما رآها مقبلة قَالَ لها : ما وراءك ياعصام؟ قَالَت : صَرَّحَ المَخْضُ عن الزُّبْد ، رأيت جَبْهة كالمِرْآة المصقولة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن أرْسَلَتْه خلْته السلاَسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جَلاَها الوابل . وحاجبين كأنما خُطَّا بقلم ، أو سُوِّدا بحمم ، تقوَّسا على مثل عَيْن ظبية عَبْهَرَة ، بينهما أنف كحدِّ السيف الصَّنيع ، حَفَّتْ به وَجْنَتَان كالأرجُوان ، في بياض كالجُمَان ، شُقَّ فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثَنَايا غُر ذات أشَر ، تقلَّبَ فيه لِسَان ، ذو فصاحة وبيان ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقي فيه شَفَتَان حَمْرَاوان .

تحلبان ريقاً كالشهد إذا دلك ، في رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت في صَدرْ كصَدْر تمثال دُمْية ، وعَضُدان مُدْمَجَان يتصل بها ذراعان ليس فيهما عظم يُمَسُّ ، ولاَ عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما لين عَصَبُهُما ، تعقد إن شيءت منهما

الأنامل ، نتأ في ذلك الصدر ثَدْيان كالرمَّانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طُوى طيَّ القَبَاطيِّ المدمجة كسر عُكَناً كالقَرَاطيس المدرجة ، تُحيطُ بتلك العكن سُرَّة كالمُدْهُن المجلوِّ ، خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ، ينتهي إلى حضر لولاَ رحمة الله لاَ نَبَتَرَ ، لها كفَلُ يُقْعدها إذا نهضَت وينهضها إذا قعدت ، كأنه دعْصُ الرَّمْل لَبَّده سقوط الطَّلِّ ، يحمله فَخذَان لُفَّا كأنما قلبا على نَضَد جُمَان ، تحتهما ساقان خَدْلَتَان كالبرديتين وُشِّيتا بشعر أسوَد كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قَدَمَان كحذو اللسان ، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما ، فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها ، فزوجها إياه ، وبعث بصداقها ، فجهزت ، فلما أراد أن يحملوها إلى زوجها قَالَت لها أمها : أي بنية ، إن الوصية لو تُركت لفَضلِ أدبٍ تُركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومَعُونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عَنِ الزوج لغَنَي أبويها وشدَّة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خَلَقْنَ ، ولهن خلق الرجال . أي بنية ، إنكَ فَارقْت الجوَّ الذي منه خَرَجْت ، وخَلَّفْت العُشَّ الذي فيه دَرَجْت ، إلى وَكْر لم تعرفيه ، وقَرِين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكا ، فكوني له أمَةً يكُنْ لك عبداً وَشَيكا ، يا بنية احْمِلِي عنى عَشْرَ خِصَالٍ تكن لك ذُخْراً وذِكْراً :

الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهُّد لموقع عينه ، والتفقُّد لموضع أنفه ، فلاَ تَقَع عينُه منك على قبيح ، ولاَ يشم منك إلاَ طيبَ ريح ، والكحلُ أحسنُ الحسن ، والماء أطيبُ الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه عند منامه ، فإن حَرَارة الجوع مَلْهبة ، وتنغيص النوم مَبْغَضَة والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولاَ تُفْشي له سراً ، ولاَ تعصي له أمراً ، فإنك إن أفشيت سِرَّه لم تأمني غَدْرَه ، وإن عصيت أمره أوغَرْتِ صَدْره ثم اتَّقِي مع ذلك الفرح إن كان تَرِحَا ، والاكتئاب عنده إن كان فَرِحَا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشَدَّ ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة ، واعلمي أنك لاَ تَصْلِين إلى ما تحبين حتى تُؤْثِري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت ، والله يَخِيرُ لك ، فحملت فسُلِّمَت إليه ، فعَظُم مَوْقِعُها منه ، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن .

وروى أبو عبيد «ما وَرَاءَكَ» على التذكير وقَالَ : يُقَال : إن المتكلم به النابغة الذُبْيَاني قَالَه لعصام بن شهبر حاجب النعمان ، وكان مريضاً ، وقد أُرْجِفَ بموته ، فسأله النابغة عن حال النعمان ، فَقَالَ : ما وراءك يا عصام؟

ومعناه ما خَلْفَكَ من أمر العليل ، أو ما أمامك من حاله ، ووَرَاء : من الأضداد .

قلت : يجوز أن يكون أصل المثل ما ذكرت ، ثم اتفق الاَسمان ، فخُوطِبَ كلٌّ بما استحق من التذكير والتأنيث .

مَا جُعِلَ العَبْدُ كَرَبِّهِ

قَالَوا : إن أول مَنْ قَالَ ذلك رَبيعة بن جراد الأسلميُّ ، وذلك أن القَعْقَاع بن مَعْبَد بن زُرَارة بن عُدُس ابن زيد بن عبد الله بن دارِم وخالدَ بن مالك بن رِبْعِيٍّ بن سَلْم بن جَنْدَل بن نَهْشَل تَنَافَرَا إلى أكثَمَ ابن صَيْفي أيُّهما اكرم ، وجعلاَ بينهما مائةً من الإبل لمن كان أكْرَمَهُمَا ، فَقَالَ أكثم بن صَيْفي :

سفيهان يُريدان الشر ، وطلب إليهما أن يرجعا عما جاآله ، فأبَيَا ، فبعث معهما رجلاً إلى ربيعة بن جراد وحَبَس إبلهما التي تنافَرَا عليهما مائة ومائة ، وقَالَ انطلقا مع رسولي هذا فإنه قَتَلَ أرْضاً عالِمُهَا وقَتَلَتْ أرضٌ جاهلها ، فأرسلها مثلاً ، فلما قَدِمَا على ربيعة وأخبراه بما جاآله قَالَ ربيعة للقعقاع : ما عندك يا قعقاع؟ قَالَ : أنا ابن مَعْبَد بن زُرَارة ، وأمي مُعَاذة بنت ضِرَار ، رَأَسَ من اعمامي عشرة ، ومنْ أخوالي عشرة ، وهذه قَوْسُ عمي رهَنَها عن العرب ، وجَدِّي زُرَارة أجار ثلاَثة أملاَك بعضَهم من بعض ، قَالَوا : وفي ذلك يقول الفرزدق

مِنَّا الَّذِي جَمَعَ المُلُوكَ وَبَيْنَهُمْ ... حَرْبٌ يُشَبُّ سَعِيرُهَا بِضِرَامِ

ثم قَالَ ربيعة لخالد بن مالك : ما عندك ياخالد؟ قَالَ أنا ابن مالك ، قَالَ : لم تصنع شيئاً ، ثم ابن مَنْ؟ قَالَ : ابن رِبْعي ، قَالَ : لَمْ تَصنَع شيئاً ، ثم ابن مَنْ؟ قال : ابن سَلْم؟ قَالَ : الآن ، فمن أمُّكَ؟ قَالَ : فرعة ، قَالَ ابنة مَنْ؟ قَالَ : ابنة مندوس ، قَالَ ربيعة للقَعْقَاع : قد نَفَّرْتُكَ يا ابن الضبنة ، فَقَالَ خالد : أتجعل معبد بن زُرَارة كمثل سَلْم بن جندل؟ فَقَالَ ربيعة : ماجُعِلَ العبدُ كربة ! فأرسلها مثلاً

مَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ

هي حليمة بنت الحارث بن أبي شمر ، وكان أبوها وَجَّهَ جيشاً إلى المنذر بن ماء

السماء ، فأخرجت لهم طِيباً من مِرْكَن فطَيَّبتهم ، وقَالَ المبرد : هو أشْهَرُ أيام العرب ، يُقَال : ارتفع في هذا اليوم من العَجَاج ما غَطَّى عَيْنَ الشمسِ حتى ظهرت الكواكبُ يضرب مثلاً في كل أمر مُتَعَالم مشهور ، قَالَ النابغة يصف السيوفَ :

تُخُيِّرْنَ مِنْ أزْمَانِ عَهْدِ حَليمَةٍ ... إلَى اليَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ
تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَيُوقِدْنَ بالصُّفَّاحِ نَارَ الحُبَاحِبِ

وذكر عبد الرحمن بن المفضل عن أبيه قَالَ : لما غزا المنذرُ بن ماء السماء غَزَاته التي قُتِلَ فيها ، وكان الحارثُ بن جَبَلَة الأكبر ملك غسان يخاف ، وكان في جيش المنذر رجل من بني حنيفة يُقَال له شمرُ بن عمرو ، وكانت أمه من غسان ، فخرج يتوصل بجيش المنذر يريد أن يلحق بالحارث ، فلما تدانَوْا سار حتى لحق بالحارث ، فَقَالَ : أتاك مالاَ تُطيق ، فلما رأى ذلك الحارثُ نَدَبَ من أصحابه مائةَ رجل اختارهم رجلاً رجلاً ، فَقَالَ : انطلقوا إلى عسكر المنذر فأخْبِرُوهُ أنا نَدينُ له ونُعْطيه حاجته ، فإذا رأيتم منه غِرَّةً فاحملوا عليه ، ثم أمر ابنته حَليمة فأخرجَتْ لهم مِرْكَناً فيه خَلُوق ، فقَالَ : خَلِّقيهِمْ ، فخرجت إليهم وهي من أجمل ما يكون من النساء ، فجعلت تخلِّقهم ، حتى مر عليها فتىً منهم يُقَال له لبيد

ابن عمرو ، فذهبت لتُخَلِّقه ، فلما دنَتْ منه قَبَّلَها ، فلطمته وبكت ، وأتَتْ أباها فأخبرته الخبر ، فَقَالَ لها : وَيْلَك اسْكُتي عنه فهو أرْجَاهُمْ عندي ذكاءَ فؤادٍ ، ومَضَى القومُ ومعهم شمر بن عمرو الحَنَفِّي حتى أتوا المنذر فَقَالُوا له :

أتيناك من عند صاحبنا وهو يَدينُ لك ويعطيك حاجتك ، فتباشَرَ أهلُ عسكر المنذر بذلك ، وغَفَلُوا بعضَ غَفْلة ، فحملوا على المنذر فقتلوه : ليس يومُ جليمة يسر ، فذهبت مثلاً .

قَالَ أبو الهيثم : يُقَال إن العرب تسمي بَلْقِيسَ حليمة

يَسَارُ الكَوَاعِبِ

كان من حديثه أنه كان عبداً أسْوَدَ يرعى لأهله إبلاً ، وكان معه عبد يراعيه ، وكان لمولى يَسَار بنتٌ فمرت يوماً بإبله وهي ترتع في رَوْض مُعْشب ، فجاء يسار بعُلبة لبن فسقاها ، وكان أفْحَجَ الرجلين ، فنظرت إلى فَحَجِه فَتَبَسَّمت ثم شربت ، وَجَزَتْه خيرًا ، فانطلق فَرِحاً حتى أتى العبد الراعي وقص عليه القصة ، وذكر له فَرَحَها وتبسمها ، فَقَالَ له صاحبه : يا يسار كل من لحم الحِوَار ، واشرب من لبن العِشَار ،

وإياك وبنات الأحرار ، فَقَالَ : دحكَتْ إلى دحكة لاَ أخيبها ، يقول : ضحكت ضحكة ، ثم قام إلى عُلْبَة فملأَها وأَتى بها ابنَةَ مولاَها ، فنبهها ،

فشربت ثم اضطجعت ، وجلس العبد حذاءها ، فَقَالَت : ما جاء بك؟ فَقَالَ : ماخفى عليك ما جاء بي ، فَقَالَت : وأي شيء هو؟ قَالَ : دحكك الذي دَحكْت إلي ، فَقَالَت : حياك الله ، وقامت إلى سَفَط لها فأخرجت منه بَخُورا ودُهْنا ، وتعمدت إلى مُوسى ، ودعت مجْمَرَة وقَالَت له : إن ريحك ريحُ الإبل ، وهذا دهن طيب ، فوضعت البخور تحتهُ وطأطأت كأنها تصلح البخور ، وأخذت مَذاكيره وقطعتها بالموسى ، ثم شمته الدهن فسلتت أنفه وأُذُنيه ، وتَركتهُ ، فصَارَ مثلاً لكل جانٍ على نفسه ومُتَعَدٍّ طَوْرَه ، قَالَ الفرزدق لجرير :

وإنِّـي لأخْشَى إنْ خَطَبْتَ إليهمُ عَلَيْكَ الَّذي لاَقَى يَسَارُ الكَوَاعِبِ

ويُقَال أيضاً «يسار النساء» وكان من العبيد الشعراء ، وله ابن شاعر يُقَال له : إسماعيل بن يَسَار النساء ، وكان مفلقا

يَحْمِلُ شَنٌّ وَيَفَدَّى لُكَيْزٌ

قَالَ المفضل : هما ابنا أفصَى بن عبد القَيْس ، وكانا مع أمهما في سفر ، وهي ليلى بنت قُرَّانَ بن بَلِّي حتى نزلت ذا طُوىً ، فلما أرادت الرحيلَ فَدَّتْ لُكَيْزاً ودعت شنا ليحملها ، فحملهاً وهو غضبان ، حتى إذا كانوا في الثنية رَمَى بها عن بعيرها فماتت ، فَقَالَ : يَحْمِلُ شن ويفدى لكيز ، فأرسلها مثلاً (يضرب للرجلين يهان أحدهما ويكرم الآخر ، ويضرب أيضاً في وضع الشيء في موضعه)

ثم قَالَ : عَلَيْكَ بجعرات أمِّكَ يا لُكيز ، فأرسلها مثلاً

ومثلُ هذا قولُ الشاعر :

وإذا تَكُـونُ كَرِيهَـةٌ أدْعَـى لَهَـا وَإذا يُحَاسُ الحَيْسُ يُدْعَى جُنْدبُ

يَدَاكَ أوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ

قَالَ المفضل : أصله أن رَجُلاً كان في جزيرة من جزائر البحر ، فأراد أن يُعْبُر على زق نفخ فيه فلم يحسن إحكامه ، حتى إذا توسّطَ البحرَ خرجت منه الريح فغرق ، فلما غَشيه الموتُ استغاث برجل ، فَقَالَ له : يداكَ أو كَتَا وفُوكَ نفخ

يضرب لمن يجني على نفسه الحَيْنَ

اليَوْمَ خَمرٌ، وغَداً أمْرٌ

أي يشغلنا اليوم خمر ، وغدا يشغلنا أمر ، يعني أمر الحرب .

وهذا المثل لامرئ القيس بن حجر الكنديُّ الشاعر ، ومعناه اليوم خَفْضٌ ودَعَة وغدا جدٌّ واجتهاد ، وكان أبو امرئ القيس

حُجْرٌ طَرَدَ امرأ القيس للشعر والغزل ، وكانت الملوك تأنَفُ من الشعر ، فلحق امرؤ القيس بدَمُّون من أرض اليمن ، فلم يزل بها حتى قتل أبوه ، قتله بنو أسدَ بن خزيمة ، فجاءه الأَعور العجلي فأخبره بقتل أبيه ، فَقَالَ امرؤ القيس :

تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنَا دَمُّونْ   دَمُّونُ إنَّا مَعْشَرٌ يَمَانُونْ

وَإننا لِقَوْمِنَا مُحِبُّونْ

ثم قَالَ : ضَيَّعني صغيراً ، وحَمَّلَني دَمَه كبيراً ، لاَ صَحْوَ اليوم ، ولاَ شُرْبَ غدا ، اليوم خَمْرٌ وغَداً أمر ، فذهب قوله مثلاً .

يضرب للدول الجالبة للمحبوب والمكروه .

ثم شرب سبعة أيام ، ثم قَالَ :

أتَانِـــي وَأصْحَابِـــي عَلَى رَأْسِ صَيْلَع   حَديـــثٌ أطَـــارَ النَّوْمَ عَنَّى وَأنْعَمَا

وَقُلْـــتُ لعجْلِـــيٍّ بَعَيـــد مَآبُــــهُ   تَبَيَّـــنْ وبَيِّـــنْ لِى الحَديثَ المُعَجَّمَا

فَقَالَ : أبَيْـــتَ اللَّعْـــنَ عَمْرٌو وَكَاهِـلٌ   أبَاحُوا حِمَى حُجْرٍ فأصْبَحَ مُسْلَمـا

أما القصة التي أبدعها العرب لتبرير عدد كبير من الأمثال فهي قصة احتكام الأرنب والثعلب إلى الضب ، وتكاد كل جمل الحوار فيها تكون أمثالا وتميزت بالحيوية ، ومرح الموقف ، وقصر العبارة ، وسلاستها ، ودقة وعمق ما فيها من أمثال ، إلى جانب تعدد شخوصها وصدق التعبير عن سماتها النفسية .

أشأم من طويس

اول من غنى بالعربي في المدينة طويس وهو أول من ألقى الخنث والتثني والاسترخاء فيها وكان مغنيا طويلا أحول يكنى أبا عبد المنعم مولى بني مخزوم وكان ظريفا عالما بأمر المدينة وأنساب أهلها وكان تقى للسانه ، قالوا وسئل عن مولده فذكر أنه ولد في اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ ، وفطم في اليوم الذي مات فيه أبوبكر رضي الله عنه وخُتن في اليوم الذي قُتل فيه عمر رضي الله عنه وزوج في

اليوم الذي قتل فيه عثمان رضي الله عنه وولد له يوم قتل علي رضي الله عنه .

كيف أعاودك وهذا أثَرُ فأسِك؟

حُكي أن أخوين كانا في إبل لهما فأجْدَبَتْ بلادهما ، وكان بالقرب منهما واد خَصيبٌ وفيه حية تَحْميه من كل أحد ، فَقَال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أنى أتيتُ هذا الوادي المكلأ فرَعَيْتُ فيه إبلي وأصلحتها فَقَال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته ، قَال : فوالله لأفعَلَنَّ ، فهبط الوادي ورعى به إبله زماناً ، ثم إن الحية نَهَشَتْه فقتلته .

فَقَال أخوه : والله ما في الحياة بعد أخي خير ، فلأطلبَنَّ الحية ولأقتلنها أو لأتبعنَّ أخي ، فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها ، فَقَالت الحية له : ألست تَرَى أنِّى قتلت أخاك؟ فهل لك في الصلح فأدعَكَ بهذا الوادي تكون فيه وأعْطِيك كل يوم ديناراً ما بقيت؟ قال أو فاعله أنت؟ قَالت : نعم ، قَال : إني أفعل ، فحلف لها وأعطاها المواثيقَ لا يضرها ، وجعلت تُعْطِيه كلَّ يوم ديناراً ، فكثر مالُه حتى صار من أحسن الناس حالا .

ثم إنه تَذَكَّر أخاه فَقَال : كيف ينفعني العيشُ وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ فعَمدَ إلى فأس فأخذها ثم قَعَدَ لها فمرَّت به فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت الجُحْرَ ، ووقعت الفأس بالجبل فوقَ جُحْرها فأثرت فيه ، فلما رأت ما فَعَلَ قطعت عنه الدينار ، فخاف الرجل شرَّها وندم ، فَقَال لها : هل لك في أن نَتَوَاثقَ ونَعُودَ إلى ما كنا عليه؟ فَقَالت : كيف أعاودك وهذا أثَرُ فأسك؟

قَال نابغة بن ذبيان في هذا المَثل :

وإنِّي لألقَى من ذَوِىِّ الغَيِّ منْهُمُ ... وما أصْبَحَتْ تَشْكُو منَ الشَّجْو سَاهِرَهْ
كما لَقِيَتْ ذاتُ الصَّفَا منْ حَلَفِهَا ... وكانَتْ تُرِيه المَالَ غبّاً وَظَاهِرَهْ
فَلَمَّا رأى أنْ ثَمَّرَ الله مَالَهُ ... وَأثَّلَ مَوْجُوداً وَسَدَّ مَفَاقِرَهْ
أكبَّ عَلَى فأس يُحدُّ غُرَابَهَا ... مُذَكَّرَة منَ المَعاول بَاتِرَه
فَقَامَ لَهَا مَنْ فَوْقَ جُحْر مُشَيَّد ... ليَقْتُلَهَا أوْ يُخْطِئ الكَفُّ بَادرَهْ
فَلَمَّا وَقَاهَا الله ضَرْبَةَ فأسهً ... وَللشَّرِّ عَيْنٌ لا تُغَمِّضُ نَاظرَهْ
فَقَال : تَعَالَى نَجْعَل الله بَيْنَنَا ... عَلَى مَالَنَا أوْ تُنْجزى ليَ آخرَهُ
فَقَالت : يَمينُ الله أفعَلُ ؛ إنني ... رَأيْتُكَ مَشْؤماً يمينُكَ فَاجِرَهْ

أَبَـــى لـــي قـــبر لا يـــزال مُقَابِلِـــى وَضَرْبَةُ فأسٍ فَوْقَ رَأسِيَ فَاقِرَهْ

وهذا من مشاهير أمثال العرب ، يضرب لمن لا يَفِي بالعهد!

إذا قالت حذام فصدقوها . . . فإن القول ما قالت حذام

يقال نزل عمرو بن أمامة على قوم من مراد ، فطرقوهم ليلاً فأثاروا القطا من أماكنها ، فرأتها امرأة يقال لها حذام ، فلما رأت القطا طار ليلاً نبهت زوجها مع رجال من قومها فقالت لهم : ولو ترك القطا ليلاً لناما . فلم يلتفتوا إلى قولها وأخلدوا إلى مضاجعهم فقام رجل منهم وقال :

إذا قالت حذام فصدقوها . . . فإن القول ما قالت حذام

فنفر القوم والتجئوا إلى واد قريب منهم ، واعتصموا به حتى أصبحوا وامتنعوا من عدوهم ، فضرب به المثل .

وافق شن طبقة

كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له «شن» فقال : والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي أتزوجها .

فبينما هو في بعض مسير إذا وافقه رجل في الطريق

فسأله شن : أين تريد

فقال : موضع كذا

يريد القرية التي يقصدها شن فوافقه حتى أخذا في مسيرهما قال له شن : أتحملني أم أحملك؟

فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب فكيف أحملك أو تحملني

فسكت عن شن وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا بزرع قد استحصد

فقال شن : أترى هذا الزرع أكل أم لا؟

فقال له الرجل : يا جاهل ترى نبتاً مستحصداً فتقول أكل أم لا

فسكت عنه شن حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة

فقال شن : أترى صاحب هذا النعش حياً أو ميتاً؟

فقال له الرجل : ما رأيت أجهل منك ترى جنازة تسأل عنها أميت صاحبها أم حي

فسكت عنه شن فأراد مفارقته فأبى الرجل أن يتركه حتى يصبر به إلى منزله

فمضى معه فكان للرجل بنت يقال لها «طبقة» فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه فأخبرها بمرافقته إياه وشكا إليها جهله وحدثها بحديثه

فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل . أما قوله «أتحملني أم أحملك» فأراد أتحدثني أم أحدثك حتى

نقطع طريقنا .

وأما قوله «أترى هذا الزرع أكل أم لا» فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا .

وأما قوله في الجنازة فأراد هل ترك عقباً يحيا بهم ذكره أم لا .

فخرج الرجل فقعد مع شن فحادثه ساعة ثم

قال : أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه

قال : نعم فسره .

ففسره

قال شن : ما هذا من كلامك فأخبرني عن صاحبه .

قال : ابنة لي .

فخطبها إليه فزوجه إياها وحملها إلى أهله فلما رأوها

قالوا :

وافق شن طبقة

فذهبت مثلاً . يضرب للمتوافقين .

الفهرس

طرائف الأمراء والخلفاء